

الجامع لأحكام القرآن الكريم

النفس المطمئنة  
الفرطانية

دار الريان للتراث









انفوس خيبر  
اور گلشن

طبعة خاصة  
بتصريح من دار الشعب

يطلب من : دار البيان للتراث

- دار البيان للتراث ١٧٧ شارع الهرم . ت : ٥٣٦٥٩٩
- مصر الجديدة : ٢٠ شارع الاندلس . ت : ٢٥٩١٨٩٢ / ٢٥٩١٨٩١

الجامع لأحكام القرآن الكريم

٧

# النفوس المطهرة القرطبي

لأبي عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

دار الريان للتراث



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## سورة الانبياء

مكية في قول الجميع ، وهي مائة وأنتا عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى « أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ » ①  
 مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا أَتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ②  
 لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَأُ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ  
 أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ ③

قوله تعالى : ( أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ) قال عبد الله بن مسعود : الكهف ومريم  
 وطه والأنبياء من العتاق الأول ، وهن من تلادى ؛ يريد من قديم ما كتب وحفظ من القرآن  
 كالمال التلاد . وروى أن رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يبنى جدارا ،  
 فستر به آخر في يوم تزول هذه السورة ، فقال الذى كان يبنى الجدار : ماذا تزل اليوم من  
 القرآن ؟ فقال الآخر : تزل « أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ » فنفض يده  
 من البيان وقال : والله لا ينبت أبدا وقد أقرب الحساب . « أَقْتَرَبَ » أى قرب الوقت

الذى يحاسبون فيه على أعمالهم . « الناس » قال ابن عباس : المراد بالناس هنا المشركون بدليل قوله تعالى : « إِلَّا أَصْحَابُؤُهُمْ وَمَنْ يَمْشِي » إلى قوله : « أَتَخْتَرُونَ الشُّعْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ » .  
وقيل : الناس يموتون وإن كان المشار إليه في ذلك الوقت كفار فريش ؛ يدل على ذلك ما بعد من الآيات ؛ ومن علم اقتراب الساعة قصر أمه ، وطابت نفسه بالتوبة ، ولم يركن إلى الدنيا ، فكان ما كان لم يكن إذا فُهِم به وكل آية قريب ، والموت لا محالة آت ، وموت كل إنسان قيام ساعته ؛ والقيامة أيضا قريبة بالإضافة إلى ما مضى من الزمان ، فابقي من الدنيا أقل مما مضى . وقال الضحاك : معنى « أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ » أى عذابهم يعنى أهل مكة ؛ لأنهم استبطئوا ما وعدوا به من العذاب تكديبا ، وكان قلوبهم يوم نذرت الحاس ، ولا يجوز في الكلام أقرب حسابهم للناس ؛ لئلا يتقدم مضمحل على مطهر لا يجوز أن ينوى به التأخير .  
( وَمَنْ فِي غَفْلَةٍ مِّنْهُمْ ) أبشدها وخبر . ويعبر الصب في عبر القرآن على الحال . وفيه وجهان : أحدهما - « وهم في غفلة مريضون » يعنى بالدنيا عن الآخرة . الثاني - عن التأهب للحساب وعما جاء به بعد صل الله عليه وسلم . وهذه الجوارى حد سبويه يعنى « إذ »  
وهى التى يسميها الحدويون وأو الحال ؛ كما قال الله تبارك وتعالى : « يَعْنِي طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ »

قوله تعالى : ( مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٌ ) « مُحَدَّثٌ » تمت له ذكره . وأما ذكر الكسائي والقراء « مُحَدَّثٌ » يعنى ما ياتيهم عدتاً ؛ حسب على الحال . وأما القراء أبعد ومع « مُحَدَّثٌ » على الميت الله ذكره ؛ لأنك لو حذفته « مِنْ » رفعت ذكره ؛ أى ما ياتيهم ذكر من ربهم مُحَدَّثٌ ؛ يريد في النزول وتلاوة جبريل على النبي صل الله عليه وسلم ، فإنه كان ينزل سورة بعد سورة ، لآية بعد آية ، كما كان ينزل الله تعالى عليه في وقته بعد وقت ؛ لأن الفرقان مخلوق .  
وقيل : الله ذكر ما يذكركم به النبي صل الله عليه وسلم ويظهرهم به . وقال : « مِنْ رَبِّهِمْ » لأن النبي صل الله عليه وسلم لا ينطق إلا بالوحى ، فوعظ النبي صل الله عليه وسلم وتحذيره ذكره ، وهو مُحَدَّثٌ . قال الله تعالى : « قَدْ كَرِهْنَا أَنْتَ مُذْكَرٌ » . وبه قال : وفلان في مجلس

الذكر . وقيل : الذكر الرسول نفسه ؛ لله الحسين بن الفضل بدليل ما في سياق الآية « هل هذا إلا بشر مثلكم » ولو أراد بالذكر القرآن قال : هل هذا إلا أساطير الأولين ؛ ودليل هذا التأويل قوله تعالى : « وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ . وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ » بمعنى مجدا صلى الله عليه وسلم . وقال : « قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا . رَسُولًا » . ( « إِلَّا أَسْمَعُوهُ » ) بمعنى مجدا صلى الله عليه وسلم ، أو القرآن من النبي صلى الله عليه وسلم أو من أمته . ( « وَهُمْ يَقْبَحُونَ » ) الواو والواو يدل عليه « لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ » ومعنى « يَلْمِزُونَ » أى يلهون . وقيل : يستغلون ؛ فإن حُجِّل تأويله على اللهو احتمل ما يلهون به وجهين : أحدهما - بلذاتهم . الثانى - بسماع ما يتل عليهم . وإن حمل تأويله على الشغل احتمل ما يتشاغلون به وجهين : أحدهما - بالدنيا لأنها لعب ؛ كما قال الله تعالى : « إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ » . الثانى - يتشاغلون بالفتح فيه ، والاعتراض عليه . قال الحسن : كلما جئد لم الذكر استمروا على الجهل . وقيل : يستمعون القرآن مستهزئين .

قوله تعالى : ( « لَأَهْلِيَّةٌ قُلُوبُهُمْ » ) أى ساهية قلوبهم ، ممرضة عن ذكر الله ، منشغلة عن التأمل والتفهم ؛ من قول العرب : طَبِيتُ عَنْ ذِكْرِ شَيْءٍ إِذَا تَرَكْتَهُ وَسَلَوْتَ عَنْهُ أَلْمَى لَهْيًا وَلَهْيَانًا . و « لَاهِيَّة » نعت تقدم الأسم ، ومن حق النعت أن يتبع المنعوت في جميع الإعراب ، فإذا تقدم النعت الأسم انتصب كقوله : « حَاشِعَةٌ أَبْصَارُهُمْ » و « وَدَانِيَةٌ عَلَيْهِمْ ظِلَالُهُمْ » و « لَاهِيَّةٌ قُلُوبُهُمْ » قال الشاعر :

لِقَرْوَةٍ مُوحِشًا طَلَلٌ • يَلُوحُ كَأَنَّهُ جَانِلٌ

أراد : طلل موحش . وأجاز الكسائي والفراء « لَاهِيَّةٌ قُلُوبُهُمْ » بالرفع بمعنى قلوبهم لاهية . وأجاز غيرهما الرفع على أن يكون خبرا بعد خبر وعلى إضمار مبتدا . وقال الكسائي : ويجوز أن يكون المعنى ؛ إلا استمعوه لاهية قلوبهم . ( « وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا » ) أى تناجوا فيما بينهم بالكذب ، ثم بين من هم فقال : « الَّذِينَ ظَلَمُوا » أى الذين أشركوا ؛ ف « الَّذِينَ ظَلَمُوا » بدل من الواو في « أسروا » وهو عائد على الناس المتقدم ذكرهم ؛ ولا يوقف على هذا (١) هو كلمة مرة ، أى توحى آثاره وتبين بين الرضى في حلل القيوف ، ومن أعتبه الأعماد ؛ واحدتها حلة .



القول على ه التجوى . قال الميزد وهو كقولك : إن الذين في الدار أطلقوا بنو عبد الله  
 قتيو يدل من الواو في أطلقوا . وقيل : هو وقع على القدم ، أى هم الذين ظلموا . وقيل :  
 على حذف القول ، التقدير : يقول الذين ظلموا وحذف القول ، مثل « وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ  
 عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ . سَلَامٌ عَلَيْكُمْ » . وأحار هذا القول الثامر ، قال : والدليل على صحة  
 هذا الجواب أن بعده « هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ » . وقول رابع : يكون منصوبا بمعنى أئني  
 الذين ظلموا . وأجاز القراء أن يكون حذفا بمعنى أفتب لئس الذين ظلموا حاسم ؛  
 ولا يوقف على هذا الوجه على ه التجوى « ووقف على الوجود التقدمة الثلاثة قبله ، فهذه  
 خمسة أفعال . وأجاز الأخفش الرفع على لغة من قال : أكارني ليراعبت ، وهو حسن ، قال  
 الله تعالى : « ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ » . وقال الشاعر :

بِكَ نَالِ الْقَضَالَ دُونَ الْمَسَاعِي . فَأَهْدِنِي الْبَدْلُ لِلْأَعْرَاضِ

وقال آخر : وَلَيْكِنْ دِيَارُ آبُوهِ وَأُمُّهُ . يَحْوَرَانِ بِقَيْصَرِ السَّيْطَةِ أَقَارِبُهُ

وقال الكاسي : به تقديم وتأخير ، مجازه . والذين ظلموا أسروا التجوى . أبو عبدة :  
 « أسروا » هاهنا الأصداد ؛ مجتبل أن يكرهوا أخفوا كلامهم ، ويمتثل أن يكونوا  
 أظهوره وأعلنوه .

قوله تعالى : ( هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ) أى تاجروا بينهم وقالوا : هل هذا الذكر  
 الذى هو الرسول ، أو هل هذا الذى يدعوكم إلا بشر مثلكم ، لا يتميز عنكم بشئ ، يأكل  
 الطعام ، ويمشى في الأسواق كما تعملون . وما علموا أن الله عز وجل بين أنه لا يحسوز أن  
 يرسل إليهم إلا بشرا لينصهموا ويصلهم . ( أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَةَ ) أى إن الذى جاء به محمد صل  
 الله عليه وسلم سحر ، فكيف تجيبون إليه وتبيحونه ؟ فاطلع الله فيه عليه السلام على ما تناحوا  
 به . وه السحر . واللمة كل ممزه لا حقيقة له ولا صحة . ( وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ) أى إنسان مثلكم  
 مثل : « وأنتم تعلمون » لأن العقل البصر بالأشياء . وقبل المعنى : أنفلون السحر وأنتم تعلمون  
 أنه سحر . وقيل : المعنى : أنتم تعلمون إلى الباطل وأنتم تعرفون الحق ؛ ومعنى الكلام التوبيخ .

(١) هو المراد من جبر عمر بن حنظلة . ود ياف ؛ برص بالجريرة ؛ وم خط الشام . والسيط : الرب .

قوله تعالى : قُلْ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١﴾ بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْطَامُ بَلِّ أَفْتَرْتَهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَبِئْنَا بَعَايَةً كَمَا أَرْسَلَ الْأَوَّلُونَ ﴿٢﴾ مَا ءَامَنْتَ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرِينَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾

قوله تعالى : ( قُلْ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ) أى لا يخفى عليه شيء مما يقال في السماء والأرض . وفي مصاحف أهل الكوفة « قَالَ رَبِّي » أى قال عند ربى يعلم القول ؛ أى هو عالم بما تاجبته به . وقيل : إن القراءة الأولى أولى ؛ لأنهم أسروا هذا القول فأنظر الله عز وجل عليه نبيه صلى الله عليه وسلم ، وأمره أن يقول لم هذا ؛ قال النحاس : والقراءتان صحيحتان وهما بمنزلة الآيتين ، وفيهما من الفائدة أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر وأنه قال كما أمر .

وقوله تعالى : ( بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْطَامُ ) قال الزجاج : أى قالوا الذى يأتى به أضغاث أحلام . وقال غيره : أى قالوا هو أخلط كالأحلام المختلطة ؛ أى أهاويل رآها في المنام ؛ قال معناه مجاهد وقتادة ؛ ومنه قول الشاعر :

كَيْضَتْ حُلْمٌ غَرَمَهُ حَالِهِ .

وقال القتيبي : إنها الرؤيا الكاذبة ؛ وفيه قول الشاعر :

أَحَادِيثُ طَمِيمٍ أَوْسَرَابُ بَغْدِيدٍ • تَرْقَسُوقُ السَّارِي وَأَضْغَاثُ حَالِمٍ

وقال الزبيدي : الأضغاث ما لم يكن له تأويل . وقد مضى هذا في « بيسف » . فلما رأوا أن الأمر ليس كما قالوا استقلوا عن ذلك فقالوا : « بَلْ أَفْتَرَاهُ » ثم استقلوا عن ذلك فقالوا : « بَلْ هُوَ شَاعِرٌ » أى هم متعجبون لا يستترون على شيء . قالوا مرة سحر ، ومرة أضغاث أحلام ، ومرة أفتراه ، ومرة شاعر . وقيل : أى قال فريق إنه ساحر ، وفريق إنه أضغاث أحلام ؛ وفريق إنه أفتراه ، وفريق إنه شاعر . والأفتراه الاختلاق ؛ وقد تقدم .

(١) «قل على الأمر قراءة «ناج» .» (٢) ولوح ج ٩ ص ٢٠٠ وبها طيبة أميل أو تاتية .

( فَلْيَأْتِنَا بآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ) أى كما أرسل موسى العصى وغيرها من الآيات ومثل ناقة صالح . وكانوا عالمين بأن القرآن ليس سحر ولا رؤيا ولكن قالوا : يبنى أن يأتى بآية ففترحها ، ولم يكن لهم الاقتراح ضد ما رأوا آية واحدة . وأبضا إذا لم يؤمروا بآية هى من جس ما هم أعلم الناس به ، ولا محال للشبهة فيها فكيف يؤمنون بآية غيرها ، ولو أبرا الأكمة والأبرص لقالوا : هذا من ماب الطَّب ، وليس ذلك من صناعتنا ، وإنا كان سؤالهم تستا إذ كانت الله أعطاهم من الآيات ما فيه كفاية . وبين الله عز وجل أنهم لو كانوا يؤمنون لأعطاهم ما سألوه لقوله عز وجل : « وَلَوْ عَلَّمَ اللَّهُ بِهَيْمُ حِجْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ » .

قوله نعال : ( مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ ) قال ابن عباس : يريد قوم صالح وقوم فرعون . ( أَهْلَكْنَاهَا ) يريد كان فى علمنا هلاكها . ( أَهْلَهُمْ يُؤْمِنُونَ ) يريد يصدقون ، أى ما آمنوا بالآيات فاستوصلوا ، فلو رأى هؤلاء ما أقروا لما آمنوا ، لما سبق من القضاء بأنهم لا يؤمنون أبضا ، وإعسا نأخر عقابهم لعلمنا بأن فى أصلابهم من يؤمن . و « مِنْ » زائدة فى قوله : « مِنْ قَرْيَةٍ » كقوله : « قَاتِلْهُمْ مِنْ أَشَدِّ عَدُوِّهِمْ » .

قوله نعال : وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِيْ إِلَيْهِمْ فَتَلَوْا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جُنُودًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٧﴾ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَّسَاءُ وَأَهْلُكَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٨﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٩﴾

قوله نعال : ( وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا يُوْحَى إِلَيْهِمْ ) هذا رد عليهم فى قولهم : « هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ » ونأيس ليه صلى الله عليه وسلم ، أى لم يرسل قبلك إلا رجالا .

﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ يريد أهل التوراة والإنجيل الذين آمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم ، قاله سفيان . وسامح أهل الذكر ؛ لأنهم كانوا يذكرون خبر الأنبياء مما لم تعرفه العرب . وكان كفار قريش يراجعون أهل الكتاب في أمر محمد صلى الله عليه وسلم . وقال ابن زيد : أراد بالذكر القرآن ؛ أي فاسألوا المؤمنين العالمين من أهل القرآن ؛ قال جابر الجعفي : لما نزلت هذه الآية قال علي رضي الله عنه نحن أهل الذكر . وقد ثبت بالتواتر أن الرسل كانوا من البشر ؛ فالنبي لا تبدعوا بالإنكار وبقولكم ينبي أن يكون الرسول من الملائكة ، بل ناظروا المؤمنين ليعينوا لكم جواز أن يكون الرسول من البشر . والملاك لا يسمى رجلا ، لأن الرجل يقع على ماله ضد من لفظه ؛ تقول : رجل وأمرأة ، ورجل وصبي ؛ فقوله : « إِلَّا رَجُلًا » من بني آدم . وقرأ حفص وحزرة والكسائي : « نُوحٍ الْيَمِّ » .

مسئلة - لم يختلف العلماء أن العامة عليها تقليد علمائها ، وأنهم المراد بقول الله عن رجل : « فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » واجمعوا على أن الأعمى لابد له من تقليد غيره ممن يتق بيمزه بالقبلة إذا أشكلت عليه ؛ فكذلك من لا علم له ولا بصير معنى ما يدين به لابد له من تقليد طائفة ، وكذلك لم يختلف العلماء أن العامة لا يجوز لها الفتيا ؛ بلهلهما بالمعاني التي منها يجوز التحليل والتحريم .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ ﴾ الضمير في « جعلناهم » ل« لآنياء » أي لم يجعل الرسل قبلك خارجين عن طباع البشر لا يحتاجون إلى طعام وشراب . ﴿ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴾ يريد لا يموتون . وهذا جواب لقولهم : « مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ » وقولهم : « مَا هَذَا الرَّسُولُ يَأْكُلُ الطَّعَامَ » . و« جسد » اسم جنس ؛ ولهذا لم يقل أجسادا . وقيل : لم يقل أجسادا ؛ لأنه أراد وما جعلنا كل واحد منهم جسدا . والجسد البدن ؛ تقول منه : تجسدت كما تقول من الجسم تجسم . والجسد أيضا الزعفران أو نحوه من الصبغ ، وهو الدم أيضا ؛ قال النابتة :

وما هرق على الأنصاب من جسد<sup>(١)</sup> .

(١) صدر البيت : • قل لمرأى سحت كعب •

أقسم بالله ألا تم بالهاء التي كانت تصب في الحامطة على الأنصاب .

وقال الكلبي : والجسد هو المتجسد الذي فيه الروح يأكل ويشرب ؛ فعل مقتضى هذا القول يكون ما لا يأكل ولا يشرب جسا . وقال مجاهد : الجسد ما لا يأكل ولا يشرب ؛ فعل مقتضى هذا القول يكون ما يأكل ويشرب عسا ؛ ذكره الماوردي .

قوله تعالى : ( ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ ) يعني الأنبياء ؛ أى بإنعامهم وبصرهم وإهلاك مكذبيهم . ( وَمَنْ تَتَّبِعْ ) أى الذين صدقوا الأنبياء . ( وَأَتُفِكَ السُّرُوبَ ) أى المشركين . قوله تعالى : ( لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا ) يعنى القرآن . ( فِيهِ ذِكْرُكُمْ ) رفع بالابتداء والخلة في موضع نصب لأنها نعت لكتاب ؛ والمراد بالذكر هنا انشرب ؛ أى فيه شرفكم ، مثل « وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكُ وَلِتَسْمُوْكَ » . ثم نبههم بالاستفهام الذى معناه التوفيق فقال عز وجل : ( أَفَلَا تَعْقِلُونَ ) . وقيل : فيه ذكركم أى ذكر أمر دينكم ؛ وأحكم شرعكم ، وما تصيرون إليه من نواب وعقاب ، أفلا تعقلون هذه الأشياء التى ذكرناها ؟ ! وقال مجاهد : « فِيهِ ذِكْرُكُمْ » أى حديثكم . وقيل : مكارم أخلاقكم ، وعاسن أعمالكم ، وقال سهل بن عبد الله : العمل بما فيه حياتكم .

قلت : وهذه الأقوال بمعنى والأول يصحها ؛ إذ هى شرف كلها ، والكتاب شرف لنبينا عليه السلام ؛ لأنه معجزته ، وهو شرف لنا إن عملنا بما فيه ، دليله قوله عليه السلام : « القرآن حجة لك أو عليك » .

قوله تعالى : وَكَرَّ قَصْمَنَا مِنْ قَرِيْبَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسْنَانَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أَنْزَلْنَا فِيهِ وَمَسْكِبِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَسْأَلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَبْرَأَيْنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ قَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَقٌّ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيْلًا خَلْعِدِينَ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ( وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً ) يريد مدائن كانت باليمن . وقال أهل التفسير والأخبار : إنه أراد أهل حَضُور وكان يست إليهم نبي اسمه شبيب بن ذى مَهْدَم ، وقبر شبيب هذا باليمن يجبل يقال له ضَنْنٌ كثير الثلج ، وليس بشبيب صاحب مدين ؛ لأن قصة حَضُور قبل مدة عيسى عليه السلام ، وبعد مئتين من السنين من مدة سليمان عليه السلام ، وأنهم قتلوا نبيهم وقتل أصحاب الرُّس في ذلك التاريخ نبياً لهم اسمه حنظلة بن صفوان ، وكانت حَضُور بأرض الحجاز من ناحية الشام ، فأوحى الله إلى أرميا أن آيت يختصر فاعلمه أنى قد سلطته على أرض العرب ، وأنى متمم بك منهم ، وأوحى الله إلى أرميا أن أحمل معدن عدنان على البراق إلى أرض العراق ؛ كي لا تصيبه النقمة والبلاء منهم ، فأنى مستخرج من صلبه نيا في آخر الزمان اسمه عهد ، فعمل معدنًا وهو ابن اثنتى عشرة سنة ، فكان مع بنى إسرائيل إلى أن كبر وتزوج امرأة اسمها معانة ؛ ثم إنى بختصر عرض بالجيشوش ، وكن للعرب في مكان — وهو أوّل من اتخذ المساكن فيما ذكروا — ثم شن الغارات على حَضُور فقتل وسبى وتخرّب العامر ، ولم يترك بحضُور أثرا ، ثم أنصرف راجعا إلى السواد . و « كَمْ » في موضع نصب بـ « قصمنا » . والقَصْمُ الكسر ؛ يقال : قصمتُ ظهر فلان وانقصمت سنّته إذا أنكسرت ، والمعنى به ها هنا الإهلاك . وأما القَصْمُ (بالفاء) فهو الصدع في الشئ من غير بينونة ، قال الشاعر :<sup>(١)</sup>

كَانَهُ دُمْلَجٌ مِنْ فِضَّةٍ نَبَّهٌ • فِي مَلْعَبٍ مِنْ عَنَارَى الْحَيِّ مَقْصُومٌ

ومنه الحديث "فَيَقْصِمُ عَنْهُ وَإِنْ جِئْتَهُ لِيَنْقُصِدَ عَرَقًا". وقوله : « كَانَتْ ظَالِمَةً » أى كافرة ؛ بنى أهلها . والظلم وضع الشئ في غير موضعه ، وهم وضعوا الكفر موضع الإيمان . ( وَأَنشَأْنَا ) أى أوجدنا وأحدثنا بعد إهلاكهم ( قَوْمًا آخَرِينَ ) . ( فَلَمَّا أَحْسَوْا ) أى رأوا عذابنا ؛ يقال : أحسست منه ضعفا . وقال الأخفش : « أَحْسَوْا » خافوا وتوقعوا . ( إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ) أى يهربون ويفترون . والركض العدو بشدة الوطء . والركض

(١) وترى حضورا (بالألف المدودة) . (٢) كذا في الأصل . (٣) هو ذوالرمة ، يذكر غزى الاشجاء وهو نائم يطلع فحة قد طرحت ونسى . ونبيه ، أى مشرّ نبيه المذارى فى اللهب .

تحريك الرجل ؛ ومنه قوله تعالى : « أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ » وركضت الفرس برجل استحثته ليعدو ثم كثر حتى قيل ركض الفرس إذا عدا وليس بالأصل ، والقواب ركض الفرس على ما لم يسم فاعله فهو مركوض . ( لَا تَرْكُضُوا ) أى لا تفزوا . وقيل : إن الملائكة نادتهم لما أنهزموا استهزاء بهم وقالت : « لا تركضوا » . ( وَأَرْجِعُوا إِلَى مَا أُتِرْتُمْ فِيهِ ) أى إلى نعمكم التى كانت سبب طردكم ، والمترف المنعم ؛ يقال : أترف على فلان أى وسع عليه فى معاشه . وإنما أترفهم الله عز وجل كما قال : « وَأُتِرْتُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا »

( لَلَّكُمْ تَسْأَلُونَ ) أى لعلكم تسألون شيئا من دنياكم ؛ استهزاء بهم ؛ قاله قتادة . وقيل : المعنى « لَلَّكُمْ تَسْأَلُونَ » عما نزل بكم من العقوبة فتحذرون به . وقيل : المعنى « لَلَّكُمْ تَسْأَلُونَ » أن تؤمنوا كما كنتم تسألون ذلك قبل نزول اللبس بكم ؛ فبطل لم ذلك استهزاء وتقريعا وتوبيخا . ( قَالُوا يَا وَيْلَنَا ) لما قالت لهم الملائكة : « لا تركضوا » وبادت بالناورات الأنبياء ؛ ولم يروا شخصا يكلمهم عرفوا أن الله عز وجل هو الذى سيط عليهم عدوهم فتعجبهم النبى الذى بعث فيهم ، فعند ذلك قالوا . ( يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ) فاعترفوا بأنهم ظالموا حين لا ينفذ الاعتراف . ( هَآؤَآ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ ) أى لم يزالوا يقولون : « يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ » . ( حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَسْبَدًا ) أى بالسبوف كما يحصد الزرع بالمجبل ؛ قاله مجاهد . وقال الحسن : أى بالمذاب . ( خَامِدِينَ ) أى ميتين . والخمود الممود كخمود النار إذا طفت فثبه خمود الحياة بخمود النار ، كما يقال لمن مات قد طفت تشبها بانطفاء النار .

قوله تعالى : وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْتَهُ مِنْ لَدُنَّا إِنَّ كُنَّا فَعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهٍ وَلَكِنَّ أَوَّلَ بَلٍّ مَّا تَصَفُونَ ﴿١٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴾ أى لعبنا وباطلا ؛ بل للتنبيه على أن لما خالقا قادرا يجب امتثال أمره ، وأنه يجازى المسىء والمحسن ؛ أى ما خلتنا السماء والأرض ليظلم بعض الناس بعضا ، ويكفر بعضهم ، ويخالف بعضهم ما أمر به ثم يؤثروا ولا يجازوا ، ولا يؤثروا في الدنيا بحسن ولا ينهوا عن قبيح . وهذا اللعب المنفى عن الحكيم ضده الحكمة .

قوله تعالى : ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًَا ﴾ لما اعتقد قوم أن له ولدا قال : « لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًَا » واللهو المرأة بلسة اليمن ؛ قاله قتادة . وقال عتبة بن أبي جسر - وجاء طائوس وعطاء ومجاهد يسألونه عن قوله تعالى : « لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًَا » - فقال : اللهو الزوجة ؛ وقاله الحسن ، وقال ابن عباس : اللهو الولد ؛ وقاله الحسن أيضا . قال الجوهري : وقد يكنى باللهو عن الجماع .

قلت : ومه قول امرئ القيس :

أَلَا زَعَمْتُ بِسَبَابَةِ الْيَوْمِ أَنِّي • كَبُرْتُ وَأَلَا يُحْسِنُ اللَّهُ أَمْنَانِي  
وإنما سمى الجماع لهوا لأنه ملهى للقلب ، كما قال :

• وَفِيهِ مَلْهُىٌّ لِلصَّدِيقِ وَنَظَرُ •

الجوهري : وقوله تعالى « لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًَا » قالوا أمرأة ، ويقال : ولدا . ﴿ لَا تَتَّخِذُوا مِنْ لَدُنَّا ﴾ أى من عبدنا لا من عندكم . قال ابن جريج : من أهل السماء لا من أهل الأرض . قيل : أراد الرد على من قال إن الأصنام بنات الله ؛ أى كيف يكون منحوتكم ولدا لنا . وقال ابن قتيبة : الآية رد على النصاري . ﴿ إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ قال قتادة ومقاتل وابن جريج والحسن : المعنى ما كنا فاعلين ؛ مثل « إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ » أى ما أنت إلا نذير . و « إِنْ » بمعنى ابجد وتم الكلام عند قوله : « لَا تَتَّخِذُوا مِنْ لَدُنَّا » . وقيل : إنه على معنى الشرط ؛ أى إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ذلك ولكن لنا بفاعلين ذلك لا سبحانه أن يكون لنا ولد ؛ إذ لو كان ذلك لم نخلق جنة ولا

(١) هو زميرين أبي سلمى ، وليت من سلقه وقامه :

• أَيْتُ لَيْلِي النَّظَرِ الْمُخَرَّجِ •



نارا ولا موتا ولا حياة ولا حساب . وقيل : لو أردنا أن نتخذ ولدا على طريق التبنى لاتخذناه من عندنا من الملائكة . ومال إلى هذا قوم ، لأن الإرادة قد تتعلق بالتبني فأما اتخاذ الولد فهو محال ، والإرادة لا تتعلق بالمسحول ، ذكره القشيري .

قوله تعالى : ﴿ بَلْ تَقْدِفُ يَالْخَلْقُ عَلَى الْبَاطِلِ ﴾ القصد الرمي ؛ أى رمى بالخلق على الباطل . ﴿ قَدِّمْنَهُ ﴾ أى يظهروه ويهلكه . وأصل الدمع شخ الرأس حتى يبلغ الدماغ ، ومنه الدامنة . والخلق هنا القرآن ، والباطل الشيطان في قول عاهد ، قال : وكل ما في القرآن من الباطل فهو الشيطان . وقيل : الباطل كذبهم ووصفهم الله عز وجل بغير صفاته من القول وغيره . وقيل : أراد بالخلق المحبة ، والباطل شبههم . وقيل : الحق المواقف . والباطل المعاصي ؛ والمعنى متقارب . والقرآن يتضمن المحبة والموعظة . ﴿ وَإِذَا هُوَ رَاقٍ ﴾ أى حالك ، ثالث ، قاله قتادة ، ﴿ وَلَكُمْ الْوَيْلُ ﴾ أى العذاب في الآخرة بسبب وصفكم الله بما لا يجوز وصفه . وقال ابن عباس : الويل واد في جهنم ، وقد تقدم ، ﴿ يَتَنَصَّفُونَ ﴾ أى مما تكذبون ، عن قتادة وبجاهد ، نظيره : سَجَّزِيهِمْ وَصُمَّهُمْ ، أى يكذبهم . وقيل : مما تصفون الله به من المحال وهو اتخاذهم سبحانه الولد .

قوله تعالى : ﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾ ﴿ يَسْتَحْسِرُونَ ﴾ أى يفترون ﴿ أَمْ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُمِشُّونَ ﴾ ﴿ ١١ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى ملكا خلقا وكيف يجوز أن يشرك به ما هو عبده وخلق . ﴿ وَمَنْ عِنْدَهُ ﴾ مبنى الملائكة الذين ذكرتم أنهم بنات الله . ﴿ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أى لا ينفون ﴿ عَنْ عِبَادَتِهِ ﴾ والتذلل له . ﴿ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾ أى يميون ، قاله قتادة . ما حودس الحبر وهو البعير المقطع بالإعياء والتعب ، [ يقال : حسر البعير يبحر حُسورا أعيا وكل ، واستحسر وتحسر مثله : وحسرت أنا حسرا يمتدى ولا يتعدى ،

وأحمرته أيضا فهو حسيـ . وقال ابن زيد : لا يملون . ابن عباس : لا يستنكفون . وقال أبو زيد : لا يكلون . وقيل : لا يغشون ؛ ذكره ابن الأعرابي ، والمعنى واحد . ﴿ يَسْبَحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ أى يصلون ويدكرون الله ويترجمونه دائما . ﴿ لَا يَقْتَرُونَ ﴾ أى لا يضعفون ولا يسأمون ، يلهمون التسبيح والتفديس كما يلهمون النفس . قال عبد الله بن الحرث سألت كعبا فقلت : أما لم تغل عن التسبيح ؟ أما يشعلهم عنه شيء ؟ فقال : من هذا ؟ فقلت : من بنى عبد المطلب ؛ فقصنى إليه وقال : يا بن أختى هل يشغلك شيء عن النفس ؟ ! إن التسبيح لم يعزلة النفس . وقد استدل بهذه الآية من قال : إن الملائكة أفضل من بنى آدم . وقد تقدم والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴾ قال المفضل : مقصود هذا الاستفهام الجحد ، أى لم يتخذوا آلهة تقدر على الإحياء . وقيل : « أم » بمعنى « هل » أى هل اتخذ هؤلاء المشركون آلهة من الأرض يحيون الموتى . ولا تكون « أم » هنا بمعنى بل ؛ لأن ذلك يوجب لم إنشاء الموتى إلا أن تقدر « أم » مع الاستفهام فتكون « أم » المنقطعة فيصح المعنى ؛ قاله المبرد . وقيل : « أم » عطف على المعنى أى أخلقنا السماء والأرض لعبا ، أم هذا الذى أضافوه إلينا من عندنا فيكون لهم موضع شبهة ؟ أو هل ما اتخذوه من الآلهة فى الأرض يحيى الموتى فيكون موضع شبهة ؟ . وقيل : « لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ » ثم عطف عليه بالمعانية ، وعلى هذين التاويلين تكون « أم » متصلة .

وقرأ الجمهور « يُنشِرُونَ » بضم الباء وكسر الشين من إنشراؤه الميت فنشّر أى أحياء لمحي .

وقرأ الحسن بفتح الباء ، أى يحيون ولا يموتون .

قوله تعالى : لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَهِةُ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَبُحْنَنَّ اللَّهُ رَبَّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلَهِةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى : ( لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ) أى لو كان فى السموات والأرضين آلهة غير الله معبودون لنفسنا . قال الكسائى وسيويه : « إلا » بمعنى غير فلما جمعت إلا فى موضع غير أعرب الاسم الذى بعدها بإعراب غير ، كما قال :

وكلُّ أخٍ مفارقة أخوه • لتمرَّ أبك إلا انفرقدان

وحكى سيويه : لو كان معنا رجل إلا زيد لهلكا . وقال الفراء : « إلا » هنا فى موضع سوى ، والمعنى : لو كان فيهما آلهة سوى الله لفسد أهلها . وقال غيره : أى لو كان فيهما إلهان لفسد التدبير ، لأن أحدهما إن أراد شيئا والآخرضده كان أحدهما عاجزا . وقيل : معنى « لَفَسَدَتَا » أى خربتا وهلك من فيهما يرفوع النازع بالاختلاف الواقع بين الشركاء . ( قَسْبَحَانَ اللَّهِ رَبَّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصْنَعُونَ ) زه نفسه وأمر العباد أن يترهوه عن أن يكون له شريك أو ولد .

قوله تعالى : ( لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ) قاصمة للقدرية وغيرهم . قال ابن جرير : المتى لا يسأله الخلق عن قصائه و خلقه وهو يسأل الخلق عن عملهم ، لأنهم عبيد . بين بهذا أن من يسأل غدا عن أعماله كالسبيح والملائكة لا يصلح للإلية . وقيل : لا يؤاخذ على أفعاله وهم يؤاخذون . وروى عن علي رضي عنه أن رجلا قال له يا أمير المؤمنين : أيجب ربنا أن يعصى ؟ قال : أيمعنى ربنا فهما ؟ قال : أرايت إنسى . معنى الهدى ومنحى الردى أحسن إلى أم أساء ؟ قل : إن معك حنك فقد أساء ، وإن منك فضله فهو فضله يؤتبه من يشاء . ثم تلا الآية « لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ » . وعن ابن عباس قال : لما بعث الله عز وجل موسى وكله ، وأزل عليه التوراة ، قال : اللهم إنك رب عظيم ، لو شئت أن تطاع لأطعت ، ولو شئت ألا تعصى ما عُصيت ، وأنت تحب أن تطاع وأنت فى ذلك تمصى فكيف هذا يارب ؟ فأوحى الله إليه : إلى لا أسأل عما أعمل وهم يسألون .

قوله تعالى : ( أَمْ أُنْهَدُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةٌ ) أعد التعجب فى اتخاذ الآلهة من دون الله مبالغة فى التوبيخ ، أى صفتهم كما تقدم فى الإنشاء والإحياء ، فتكون « أم » بمعنى هل على ما تقدم ، فلياتوا بالبرهان على ذلك . وقيل : الأول احتجاج من حيث المعقول ؛ لأنه قال : « هُمْ يُنْشَرُونَ » ويميئون الموت ؛ هيئات ! والثانى احتجاج بالمقول ، أى هاتوا برهانكم من

هذه الجهة، قى أى كتاب نزل هذا ؟ فى القرآن، أم فى الكتب المتتلة على سائر الأنبياء ؟  
 ﴿ هَذَا ذِكْرٌ مِّنْ مَّيِّ ﴾ بإخلاص التوحيد فى القرآن ﴿ وَذِكْرٌ مِّنْ قَبْلِي ﴾ فى التوراة والإنجيل،  
 وما أنزل الله من الكتب؛ فانظروا هل فى كتاب من هذه الكتب أن الله أمر باتخاذ آلهة  
 سواه ؟ فالشرائع لم تختلف فيما يتعلق بالتوحيد، وإنما اختلفت فى الأوامر والنواهي . وقال  
 قتادة : الإشارة إلى القرآن؛ المعنى : « هَذَا ذِكْرٌ مِّنْ مَّيِّ » بما يلزمهم من الحلال والحرام  
 « وَذِكْرٌ مِّنْ قَبْلِي » من الأمم ممن نجا بالإيمان وهلك بالشرك . وقيل : « ذِكْرٌ مِّنْ مَّيِّ »  
 بالمهم من الثواب على الإيمان والعقاب على الكفر « وَذِكْرٌ مِّنْ قَبْلِي » من الأمم السالفة فيما  
 يفعل بهم فى الدنيا ، وما يفعل بهم فى الآخرة . وقيل : معنى الكلام الوعيد والتهديد ، أى  
 انسلوا ما شئتم فمن قريب ينكشف الغطاء . وحكى أبو حاتم : أن يحيى بن يعمر وطلحة بن  
 مُصَرِّف قبا : « هَذَا ذِكْرٌ مِّنْ مَّيِّ وَذِكْرٌ مِّنْ قَبْلِي » بالذين وكسر الميم ، وزعم أنه لا وجه  
 لهذا . وقال أبو إسحق الزجاج فى هذه القراءة : المعنى ؛ هذا ذِكْرٌ مَّا أنزل إلى وما هو معنى  
 وذِكْرٌ مِّنْ قَبْلِي . وقيل : ذِكْرٌ كَانِ مِنْ قَبْلِي ، أى جئت بما جاءت به الأنبياء من قبل .  
 ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ ﴾ وقرا ابن عيص والحسن « الْحَقُّ » بالرفع بمعنى هو الحق  
 وهذا هو الحق . وعلم هذا يوقف على « لا يعلمون » ولا يوقف عليه على قراءة النصب .  
 ﴿ فَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ أى عن الحق وهو القرآن ، فلا يتأملون حجة التوحيد .

قوله تعالى : وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ  
 أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ ﴾ . وقرا حفص وحمة  
 والكسائي « نُوحِي إِلَيْهِ » بالنون ؛ لقوله : « أَرْسَلْنَا » . ﴿ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ أى  
 قلنا للجميع لا إله إلا الله ؛ فادلة النقل شاهدة أنه لا شريك له ، والنقل عن جميع الأنبياء  
 موجود ، والدليل إما معقول وإما منقول . وقال قتادة : لم يرسل نبي إلا بالتوحيد ، والشرائع  
 مختلفة فى التوراة والإنجيل والقرآن ، وكل ذلك على الإخلاص والتوحيد .

قوله تعالى : وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٦٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَلَذِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٦٩﴾

قوله تعالى : ( وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ ) نزلت في نزاعه حيث قالوا : الملائكة بنات الله ، وكانوا يبدونهم طمعا في شفاعتهم لهم . وروى معمر عن قتادة قال قالت اليهود - قال معمر في روايته - أو طوائف من الناس : خَافَتْ إِلَى الْجَنِّ وَالْمَلَائِكَةِ مِنَ الْجِنِّ ، فقال الله عز وجل : « سبحانه » تترجى له . ( بَلْ عِبَادٌ ) أى بل هم عباد ( مُّكْرَمُونَ ) أى ليس كما زعم هؤلاء الكفار . ويجوز النصب عند الرجاء على معنى بل اتخذ عبادا مكريمين . وأجازوه الفراء على أن يرده على ولد ، أى بل لم يتخذهم ولدا ، بل اتخذناهم عبادا مكريمين . والولد هاهنا بالجمع ، وقد يكون الواحد والجمع ولدا . ويجوز أن يكون لفظ الولد بالجنس ، كما يقال لفلان مال . ( لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ ) أى لا يقولون حتى يقول ، ولا يتكلمون إلا بما يأمرهم . ( وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ) أى بطاعته وأوامره . ( يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ) أى يعلم ما عملوا وما هم عاملون ، قاله ابن عباس . وعنه أيضا : « مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ » الآخرة « وَمَا خَلْفَهُمْ » الدنيا ، ذكر الأول الثعلبي ، والثاني الفشيري . ( وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ ) قال ابن عباس : هم أهل شهادة أن لا إله إلا الله . وقال مجاهد : هم كل من رضى الله عنه ، والملائكة يشفعون غدا في الآخرة كما في صحيح مسلم وغيره ، وفي الدنيا أيضا ، فإنهم يستفرون للؤمنين ولبن في الأرض ، كما نص عليه التبريل على ما يأتي . ( وَهُمْ ) بنى الملائكة ( مِنْ خَشْيَتِهِ ) بنى من خوفه ( مُشْفِقُونَ ) أى خائفون لا يأمنون مكره .

قوله تعالى : ( وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ ) قال قتادة والضحاك وغيرهما : عنى بهذه الآية إبليس حيث ادعى الشراكة ، ودعا إلى عبادة نفسه وكان من الملائكة ، ولم يقل أحد من الملائكة إنى إله غيره . وقيل : الإشارة إلى جميع الملائكة ، أى فذلك القائل ( تجزيه جهنم ) . وهذا دليل على أنهم وإن أكرموا بالمصمة فهم متبعون ، وليسوا مضطرين إلى العبادة كما ظنه بعض الجهال . وقد استدل ابن عباس بهذه الآية على أن محمداً صلى الله عليه وسلم أفضل أهل السماء . وقد تقدم في « البقرة » . ( كَذَلِكَ تَجْزِي الظَّالِمِينَ ) أى كما جزينا هذا النار فكذلك نجزي الظالمين الواضحين الألوهية والعبادة في غير موضعها .

قوله تعالى : أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٢٥﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى : ( أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا ) قراءة العامة « أَوَلَمْ » بالواو . وقرأ ابن كثير وابن عيص بن وحيد وشبل بن عباد « أَلَمْ يَرِ » بغير واو ، وكذلك هو في مصحف مكة . « أَوَلَمْ يَرِ » بمعنى يعلم . ( الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا ) قال الأخفش : « كانتا » لأنهما صفتان ، كما تقول العرب : هما لقاحان أسودان ، وكما قال الله عز وجل : « إِنَّ اللَّهَ يُمِصُّكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا » قال أبو إسحق : « كانتا » لأنه يبرع عن السموات بلفظ الواحد بسببها ، ولأن السموات كانت سماً واحدة ، وكذلك الأرضون . وقال : « رَتْقًا »

ولم يقل رقيق؛ لأنه مصدر؛ والمعنى كانتا نواتي رقيق . وقرأ الحسن : رَقَقًا . ففتح التاء .  
قال عيسى بن عمر : هو صواب وهي لغة . والرقق السد ضد الفتق ، وقد رقت الفتق ارتقه  
فاربتق هي التام ، ومنه الرقضاء للضممة الفرج . قال ابن عباس والحسن وعطاء والضحاك  
وقائدة : يعني أنها كانت شيئاً واحداً ملتصقتين فصل الله بينهما بالهواء . وكذلك قال كعب ؛  
خلق الله السموات والأرض بعضها على بعض ثم خلق ريحاً يوسطها ففتحتها بها ، وجعل  
السموات سبعاً والأرضين سبعاً . وقول تان قاله بجاهد والبدى وأبو صالح : كانت السموات  
مؤلفة طبقة واحدة ففتحتها فجعلها سبع سموات ، وكذلك الأرضين كانت مرتبة طبقة واحدة  
ففتحتها فجعلها سبعاً . وحكاها الفتي في ميون الأخبار له ، عن إسماعيل بن أبي خالد في قول الله  
عز وجل : «أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما» قال : كانت  
السماء مخلوقة وحدها والأرض مخلوقة وحدها ، ففتق من هذه سبع سموات ، ومن هذه سبع  
أرضين ؛ خلق الأرض العليا لجعل سكانها ليلقى والإنس . وخلق فيها الأنهار وأبنت فيهِ  
الأنهار ، وجعل فيها البحار وصحارها رعاء ، مرضها مسيرة خمسمائة عام ؛ ثم خلق الثانية  
نظماً في المرض والفلق وجعل فيها أنوماً ، أنوماهم كأنوما الكلاب وأيديهم أيدي  
الناس ؛ وأذانهم أذان البقر وشعورهم شعور الفم ؛ فإذا كان عند اقتراب الساعة ألقنهم  
الأرض إلى إياجوج وإياجوج ، واسم تلك الأرض الله كاه ، ثم خلق الأرض الثالثة غلظها  
مسيرة خمسمائة عام ، وسبها هواء إلى الأرض . للريشة خلق فيها ظلمة وعقارب لأهل النار  
مثل البغال السود ، ولها أذنان مثل أذنان الخيل الطوال ؛ يأكل بعضها بعضاً فتسلط على  
بنى آدم . ثم خلق الله الخامسة [ سُلَّها ] في الفلق والطول والمرض فيها سلاسل وأغلال  
ويقود لأهل النار . ثم خلق الله الأرض السادسة واسمها ماد ، فيها حجارة سود بهم ، ومنها  
خلقت تربة آدم عليه السلام ، تبث تلك الحجارة فيقوم الفيلامة وكل حجر منها كالطود العظيم ، وهي  
من كبريت تملق في أعناق الكفار فتسفل حتى يجرى وجوههم وأيديهم ، فذلك قوله عز وجل :  
«وَوُودُّهَا النَّاسُ وَالْجِنَّةُ» ثم خلق الله الأرض السابعة واسمها عريية وفيها جهنم ، فيها بابان اسم

الواحد معين والآخر الغاق، فأما معين فهو مفتوح وإليه ينتهي كتاب الكفار، وعليه يمرض أصحاب المائدة وقوم مروعن، وأما الغاق فهو مغلق لا يفتح إلى يوم القيامة . وقد مضى في «البقرة» أنها سبع أرضين بين كل أرضين مسيرة خمسمائة عام، وسيأتي له في آخر «الطلاق» زيادة بيان إن شاء الله تعالى . وقول ثالث قاله عكرمة وعطية وابن زيد وابن عباس أيضا فيما ذكر الملهودي : إن السموات كانت رتقا لا تمطر، والأرض كانت رتقا لا تبث، ففتق السماء بالمطر، والأرض بالنبات؛ فظيره قوله عز وجل : « وَالسَّمَاءُ ذَاتِ الرَّجْعِ . وَالْأَرْضُ ذَاتِ الصَّدْعِ » . واختار هذا القول الطبري؛ لأن بعده « وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ » .

قلت : وبه يقع الاعتبار مشاهدة ومعينة؛ ولذلك أخبر بذلك في غير ما آية؛ ليدل على كمال قدرته، وعلى البعث والجزاء . وقيل :

يَهْوَنُ عَلَيْهِمْ إِذَا يَنْفَضُو . ذَا مَخْطُ الْمَدَةِ وَإِرْغَامُهَا  
وَرَقَى الْفَتَقَ وَفَتَقَ الرُّؤُ . قِي وَتَقَضُّ الْأُمُورَ وَإِبْرَامُهَا

وفي قوله تعالى : « وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ » ثلاث تأويلات : أحدها - أنه خلق كل شيء من الماء؛ قاله قتادة . الثاني - حفظ حياة كل شيء بالماء . الثالث - وجعلنا من ماء الصلب كل شيء؛ قاله قطرب . « وجعلنا » بمعنى خلقنا . وروى أبو حاتم البستي في المسند الصحيح له من حديث أبي هريرة قال : قلت يا رسول الله ! إذا رأيتك طابت نفسي، وقزرت عيني؛ أنبئني عن كل شيء؛ قال : « كل شيء خلق من الماء » الحديث ؛ قال أبو حاتم قول أبي هريرة : « أنبئني عن كل شيء » أراد به عن كل شيء خلق من الماء، والدليل على صحة هذا جواب المصطفى إياه حيث قال : « كل شيء خلق من الماء » وإن لم يكن مخلوقا . وهذا احتجاج آخر سوى ما تقدم من كون السموات والأرض رتقا . وقيل : الكل قد يذكر بمعنى البعض كقوله : « وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ »

(١) راجع ج ١ ص ٢٥٨ وما بعدها طبة ثانية أو ثالثة .

(٢) في تفسيره قوله تعالى : « الله الذي خلق سبع سموات ... الخ » آية ١٢



وقوله : « تَدْعُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَىٰ مِلَّةِهَا » والصحيح الموم؛ لقوله عليه السلام : « كل شيء خلق من الماء » والله اعلم . ( أَتْلَا يُؤْمِنُونَ ) أى أفلا يصدقون بما يشاهدون ، وأن ذلك لم يكن بنفسه ، بل لمكون كونه ، ومبدر أوجده ، ولا يجوز أن يكون ذلك المكون محمداً .

قوله تعالى : ( وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي ) أى جبالا ثوابت . ( أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ ) أى لتلا تميد بهم ، ولا تحرك ليتم القرار عليها ؛ قاله الكوفيون . وقال البصريون : المعنى كراهية أن تميد . والميد التحرك والدوران . يقال : ماد رأسه ؛ أى دار . وقد مضى في « النحل » مستوفى . ( وَجَعَلْنَا فِيهَا بَحَارًا ) يعنى فى الرواسى ؛ عن ابن عباس . والتمجاج المسالك . والفج الطريق الواسع بين الجبلين . وقيل : وجعلنا فى الأرض بجانبا أى مسالك ؛ وهو اختيار الطبرى ؛ لقوله : ( لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ) أى يهتدون إلى السير فى الأرض . « سُبُلًا » تفسير الفجاج ؛ لأن الفج قد يكون طريقا نافذا مسلوكا وقد لا يكون . وقيل : ليندوا بالاعتبار بها إلى دينهم .

قوله تعالى : ( وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا ) أى محفوظا من أن يقع ويسقط على الأرض ؛ دليله قوله تعالى : « وَبِمِصْكِ السَّمَاءِ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ » . وقيل : محفوظا من النجوم من الشياطين ؛ قاله الفراء . دليله قوله تعالى : « وَحِفْظًا هَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ » . وقيل : محفوظا من الهدم والتقض ، وعن أن يبلغه أحد بحيلة . وقيل : محفوظا فلا يحتاج إلى عماد . وقال مجاهد : صرغوا . وقيل : محفوظا من الشرك والمعاصى . ( وَهُمْ ) يعنى الكفار ( عَنْ آيَاتِنَا مُعْرِضُونَ ) قال مجاهد يعنى الشمس والقمر . وأضاف الآيات إلى السماء لأنها مجعولة فيها ، وقد أضاف الآيات إلى نفسه فى مواضع ، لأنه الفاعل لها . بين أن المشركين غفلوا عن النظر فى السموات وآياتها ، من ليلها ونهارها ، وشمسها وقمرها ، وأفلاكها ورباحها ومجابهها ، وما فيها من قدرة الله تعالى ، إذ لو نظروا واحصوا لعلموا أن لما صانعا قادرا واحدا فيستحيل أن يكون له شريك

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ ذَكَرَهُمْ نعمة أخرى : جعل لهم الليل ليُسكنوا فيه ، والنهار ليُصِرّفوا فيه لمعايشهم . ﴿ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾ أى وجعل الشمس آية النهار ، والقمر آية الليل ؛ لتعلم الشعوب والسنون والحساب ، كما تقدم في « سبحان » بيانه . ﴿ كُلُّ ﴾ يعنى من الشمس والقمر والنجوم والكواكب والليل والنهار ﴿ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ أى يحرون ويسيرون بسرعة كالساج في الماء . قال الله تعالى وهو أصدق القائلين : « وَالسَّابِحَاتُ سَبْحًا » ويقال للفرس الذى يمد يده فى الجرى ساج . وفيه من النحرانة لم يقل : يسبحن ولا تسبح ؛ فذهب سيويه : أنه لما أخبر عنهن بفعل من يعقل وجعلهن فى الطاعة بمنزلة من يعقل ، أخبر عنهن بالواو والنون . ونحوه قال الفراء . وقد تقدم هذا المعنى فى « يوسف »<sup>(١)</sup> . وقال الكسائى : إنما قال : « يسبحون » لأنه رأس آية ، كما قال الله تعالى : « تَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ » ولم يقل متصرفون . وقيل : الجرى للفلك ففسب إليها . والأصح أن السيارة تجرى فى الفلك ، وهى سبعة أفلاك دون السموات المطبقة ، التى هى مجال الملائكة وأسباب الملكوت ، فالقمر فى الفلك الأدنى ، ثُمَّ عَطَارِدُ ، ثُمَّ الزُّهْرَةُ ، ثُمَّ الشمس ، ثُمَّ الْمَرْيَخُ ، ثُمَّ الْمُشْتَرَى ، ثُمَّ زُحَلُ ، والثامن فلك البروج ، والتاسع الفلك الأعظم . والفلك واحد أفلاك النجوم . قال أبو عمرو : ويجوز أن يجمع على فَعْلٍ مثل أَسَدٍ وَأَسْدٍ وَخَشَبٍ وَخُشْبٍ . وأصل الكلمة من الدوران ، ومنه فَلَكة المِفْزَلِ ؛ لاستدارتها . ومنه قيل : فَلَكَ نَدَى المرأة نَفْلِيكا ، وَفَلَكَ استدار . وفى حديث ابن مسعود : تركت فرسى كأنه يدور فى فَلَكَ . كأنه لدورانه شبهه بفَلَكَ السماء الذى تدور عليه النجوم . قال ابن زيد : الأفلاك بجارى النجوم والشمس والقمر . قال : وهى بين السماء والأرض . وقال قتادة : الفلك استدارة فى السماء تدور بالنجوم مع ثبوت السماء . وقال مجاهد : الفلك كهية حديد الرى وهو قطبها . وأقال الضحاك : فَلَكها مجراها وسرعة سيرها . وقيل : الفلك موج مكفوف ويجرى الشمس والقمر فيه ؛ والله أعلم .

(١) راجع ج ١٠ ص ٢٢٧ وما بعدها طبعه أول مرة ثانية .

(٢) راجع ج ٩ ص ١٢٢ طبعه أول مرة ثانية .

قوله تعالى : وَمَا جَعَلْنَا لِإِبْرَاهِيمَ قَبْلَكَ أَلْفًا مِثًّا فَهُمْ  
الْخَالِدُونَ ﴿٢٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْحَسْرِ فِتْنَةً  
وَلِإِنَّا لَرْجِعُوكُم

قوله تعالى : ( وَمَا جَعَلْنَا لِإِبْرَاهِيمَ قَبْلَكَ أَلْفًا مِثًّا ) أى دوام البقاء فى الدنيا نزلت حين  
قالوا : تبرص بمحمد ريب الموت . وذلك أن المشركين كانوا يدفعون نيوته ويقولون :  
شاعر تبرص به ريب الموت ، ولعله يموت كمات شاعر بنى فلان ؛ فقال الله تعالى : قد مات  
الأنبياء من قبلك ، وتولى الله دينه بالنصر والحياطة ، فهكنا نحفظ دينك وشرك . ( أَنَا أَنَا  
مِثٌّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ ) أى أنهم ؛ مثل قول الشاعر :  
رَفَوْنِي وَقَالُوا يَا خُوَيْلِدُ لَا تُرْعَ • فَلَئِنْ وَانْكُرْتُ الْوَجُوهَ هُمُ هُمُ

أى أمهم ! فهو استفهام لتكرار . وقال الفراء : جاء بالقاء ليدل على الشرط ؛ لأنه جواب قولهم  
تسميت . ويموز أن يكون جى بهاء ؛ لأن التقدير فيها : أنهم الخالدون إن مت ! قال الفراء :  
ويموز حذف القاء وإضمارها ؛ لأن « هم » لا يتبين فيها الإعراب . أى إن مت فهم يموتون  
أيضا ، فلا شماعة فى الإمامة . وقرئ « مِثٌّ » و « مِثٌّ » بكسر الميم وضمة لفتان .

قوله تعالى : ( كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ) تقدم فى « آل عمران » ( وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ  
وَالْحَسْرِ فِتْنَةً ) « فِتْنَةً » مصدر على غير اللفظ . أى نختبركم بالشدة والرخاء والحلال والحرام ،  
فننظر كيف شكرتم وصبركم . ( وَلِإِنَّا لَرْجِعُوكُم ) أى لجزاء بالأعمال .

قوله تعالى : وَإِذَا رَأَوْكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِتَّخَذُواكَ إِذَا هُرُوا  
أَهْلًا الَّذِي يَذْكُرُ الْهَيْكَلُ وَهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٢٧﴾

(١) هو إبراهيم المثل . وفاء سكه من الرب ؛ يقول : سكتون . أعبر بمشاهدة الوجه ، ويصلها دليلا  
على ما فى القوس . (٢) راجع ج ٢ ص ٢٩٧ وما بعدها طبعه أملى أوتانية .

قوله تعالى : ( وَإِنَّا لَآلَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنِّي يَتْلُوَنكَ إِلَّا هَرُؤًا ) أى ما يتخلفونك .  
والهزة الصغيرة ، وقد تقدم . وهم المستهزون المتقلبون الذكر في آخر سورة « النجر »  
في قوله : « إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ » . كانوا يعيون من تجمد إليه أصنامهم وهم جاحدون  
لإلمية الرحمن ؛ وهذا غاية الجهل . ( أَهَذَا الَّذِي ) أى يقولون : أهذا الذى ؟ فاضمر القول  
وهو جواب « إنا » وقوله : « إِنِّي يَتْلُوَنكَ إِلَّا هَرُؤًا » كلام مترى بين « إنا » وجوابه .  
( يَذْكُرْ آلِهَتَكُمْ ) أى بالسوء واليب . ومنه قول عترة :

أ لا تذكري مهرى وما أطمعته • فيكون جلدك مثل جلد الأبريب<sup>(١)</sup>

أى لا تنبئ مهرى . ( وَمَنْ يَذْكُرِ الرَّحْمَنَ ) أى بالقرآن . ( مُمْ كَافِرُونَ ) هم « الثانية »  
توكيد كفرهم ، أى هم الكافرون مبالغة في وصفهم بالكفر :

قوله تعالى : خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ مَّا أَوْيَكُّهُ ءِتَى فَلَا  
تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾  
لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُونُ عَنْ وُجُوهِهمُ النَّارَ وَلَا عَنْ  
ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴿٢٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ  
رَدًّا وَلَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : ( خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ ) أى ركب على العجلة نفاق عجزولا ، كما قال  
الله تعالى : « اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعِفٍ » أى خلق الإنسان ضعيفا . ويقال : خلق الإنسان  
من الشرأى شريرا إذا بالغت في وصفه به . ويقال : إنما أنت ذهاب وبجيء . أى ذاهب  
جائى . أى طبع الإنسان العجلة ، فيستعجل كثيرا من الأشياء وإن كانت مضرة . ثم قيل :  
المراد بالإنسان آدم عليه السلام . قال سعيد بن جبير والسدى : لما نزل الروح في عيني

(١) راجع ج ١٠ ص ٦٢ طبعة أدل آرتانية .

(٢) قاله لامرأته من بحيلة كانت تلوه ، في فرس كان يفره على نيله ويحميه ألبان إليه .

أدم عليه السلام نظر في ثمار الجنة، فلما دخل جوفه أشتهى الطعام، فوثب من قبل أن تبلغ الروح رجليه فجعل يمشي إلى ثمار الجنة. فذلك قوله: « خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَاقٍ ». وقيل: خلق آدم يوم الجمعة في آخر النهار، فلما أحيا الله رأسه استعجل، وطلب تقيم فنع الروح فيه قبل غروب الشمس، قاله الكلبي ومجاهد وغيرهما. وقال أبو عبيدة وكثير من أهل المعاني: العجل الطين بلمة حجير. وأنشدوا:

• وَالنَّحْلُ يَنْتُ بَيْنَ الْمَاءِ وَالسَّجْلِ •

وقيل: المراد بالإنسان الناس كلهم. وقيل المراد: النضرين الحرث بن علقمة بن كلبه بن عبد الدار في تفسير ابن عباس؛ أي لا ينبغي لمن خلق من الطين الحقير أن يستهزئ بآيات الله ورسله. وقيل: إنه من المقلوب؛ أي خلق العجل من الإنسان. وهو مذهب أبي عبيدة. الناس. وهذا القول لا ينبغي أن يجاب به في كتاب الله؛ لأن القلب إنما يقع في الشعر اضطرابا كما قال:

• كَانَ الزَّأْنُ قَرِيضَةَ الرَّجَمِ •

ونظيره هذه الآية: «وَكَانَ الْإِنْسَانُ عُجُولًا» وقد مضى في «سبحان». (سَائِرُكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ) هذا يقوى القول الأول، وأن طبع الإنسان العجلة، وأنه خلق خلقا لا يتمالك، كما قال عليه السلام، حسب ما تقدم في «سبحان». والمراد بالآيات ما دل على صدق عهد عليه السلام من المعجزات، وما جملة له من العاقبة المحمودة. وقيل: ما طلبوه من العذاب، فارادوا الاستعجال وقالوا: «مَتَى هَذَا الْوَعْدُ؟» وما علموا أن لكل شيء أجلا مضروباً. نزلت في النضرين الحرث. وقوله: «إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ». وقال الأخفش سعيد: معنى «خلق الإنسان من عجل» أي قبل له كن فكان، بمعنى «فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ» على هذا القول أنه من يقول للشيء كن فيكون، لا يمجزه إظهار ما استعجلوه من الآيات. (وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ) أي الموعود، كما يقال: الله رجاؤنا أي مرجؤنا. وقيل: معنى «الوعد» هنا الوعيد، أي الذي بعدنا من العذاب. وقيل: القيامة. (إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) يا معشر المؤمنين.

(١) صدر البيت: • والنج في الصخرة الصماء منه •

(٢) البيت لعمري ومدره: • كانت فريضة ما تقول كما •

(٣) راجع ج ١٠ ص ٢٢٦ طبعة أورثانية •

قوله تعالى : ( لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ) العلم هنا بمعنى المعرفة فلا يقتضى مفعولا ثانيا مثل « لَا تَعْلَمُونَهُمْ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ » . وجواب « لو » محذوف ، أى لو علموا الوقت الذى ( لَا يَكْفُفُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ) وعرفوه لما استجلوا الوعيد . وقال الزجاج : أى لعلموا صدق الوعد . وقيل : المعنى لو علموه لما أقاموا على الكفر ولا امنوا . وقال الكسائى : هو تنبيه على تحقيق وقوع الساعة ، أى لو علموه علم يقين لعلموا أن الساعة آتية . ودل عليه ( بَلْ تَأْتِيهِمْ بَئْتَةٌ ) أى بغاة يبنى القيامة . وقيل : العقوبة . وقيل : النار فلا يتمكنون من حيلة ( فَتَنِّيهِمْ ) . قال الجوهري : تَنِيَتْ بَيَّتًا أَخَذَهُ بَنَتْ ، قال الله تعالى : « بَلْ تَأْتِيهِمْ بَئْتَةٌ فَتَنِّيهِمْ » . وقال الفراء : « فتنيهم » أى تحيرهم ، يقال : بَنَيْتُهُ يَبِيْتُهُ إِذَا وَاجَهَهُ بَشَى بِحَيْرِهِ . وقيل : فتنبأهم . ( فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدًّا ) أى صرفها عن ظهورهم . ( وَلَا هُمْ يَنْظُرُونَ ) أى لا يلهون ويؤخرون لتوبة واعتذار .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ خَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١١﴾

قوله تعالى : ( وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ ) هذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ونعزية له . يقول : إن أستهزأ بك هؤلاء ، فقد أستهزئ برسل من قبلك ، فاصبر كما صبروا . ثم وعده النصر فقال : ( خَاقَ ) أى أحاط ودار ( بِالَّذِينَ ) كفروا و ( سَخِرُوا مِنْهُمْ ) وهمزوا بهم ( مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ) أى جزاء أستهزأهم .

قوله تعالى : قُلْ مَن يَكْذُوبُكُمْ بِالْأَيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُم عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُّعْرِضُونَ ﴿١٢﴾ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَكْبِعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿١٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمْ أَنْعَلَبُونَ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ يَكْفُرْ ﴾ أى يحرسكم ويحفظكم . والكَلَامَةُ الحراسة والحفظ ؛  
كلامه الله يَكَلِّمُ ( بالكسر ) أى يحفظه وحرسه . يقال : أذهب فى كلامه الله ؛ واكتلات  
منهم أى احترست ، قال الشاعر هو ابن هرمة :

إِن سَلِمَى وَأَلَهُ يَكْلُوْهَا • ضَنْتُ بَنَى مَا كَانَ يَرْزُوْهَا  
وقال آخر<sup>(١)</sup> :  
• أَتَحْتُ بِعَيْرِي وَأَكْتَلَاتُ بِعَيْتِهِ •

وحكى الكسائى والقراء ﴿ قُلْ مَنْ يَكْفُرْ ﴾ بفتح اللام وإسكان الواو . وحكى « مَنْ يَكْلَامُ »  
على تخفيف الهمزة فى الوجهين ، والمعروف تحقيق الهمزة وهى قراءة العامة . فاما « يَكْلَامُ »  
نقطاً من وجهين فيما ذكره النحاس : أحدهما - أن بدل الهمزة إنما يكون فى الشعر . والثانى -  
أنهما يقولان فى الماضى كَلَّمْتُهُ ، فيقلب المعنى ؛ لأن كَلَّمْتُهُ أوجعت كليته ، ومن قال لرجل :  
كَلَامَكَ الله فقد دعا عليه بأن يصيبه الله بالوجع فى كليته .

ثم قيل : مخرج اللفظ مخرج الاستفهام والمراد به النفى . وتقديره : قل لا حافظ لكم  
﴿ بِالْبَلَى ﴾ إذا نتم ﴿ و ﴾ . ﴿ بِالنَّهَارِ ﴾ إذا فتم وتصرقت فى أموركم . ﴿ مِنَ الرَّحْمَنِ ﴾ أى من  
عذابه وبأسه ؛ كقوله تعالى : « قَن يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ » أى من عذاب الله . والخطاب لمن  
أعترف منهم بالصانع ؛ أى إذا أقررتهم بأنه الخالق ، فهو القادر على إحلال العذاب الذى  
تستعملونه . ﴿ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ ﴾ أى عن القرآن . وقيل : عن مواضع ربهم . وقيل :  
عن معرفته . ﴿ مُعْرِضُونَ ﴾ لاهون غافلون .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ لَمْ يَلْمِزْهُمُ الْمَلِكُ ﴾ المعنى : ألم والميم صلة . ﴿ تَعْنِيهِمْ مِنْ دُونِنَا ﴾ أى من  
عذابنا . ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ يعنى الذين زعم هؤلاء الكفار أنهم ينصرونهم لا يستطيعون ﴿ نَصْرُ  
أَنْفُسِهِمْ ﴾ فكيف ينصرون عابديهم . ﴿ وَلَا هُمْ مِتْنَا بِصُحْبَتِهِمْ ﴾ قال ابن عباس : يُمْنَعُونَ .  
وعنه : يُجَارُونَ ، وهو اختيار الطبرى . نقول العرب : أنا لك جار وصاحب من فلان ؛ أى مجير  
منه ؛ قال الشاعر :

يُبَادِي بِأَعْلَى صَوْتِهِ مَتَوَقًّا • لِيُصْحَبَ مِنْهَا وَالرَّمَا حُ دَوَانِي  
(١) هو كعب بن زهير ؛ وعجزه . • وأمرت قسى أى أمرى أضل •

وروى معمر عن ابن أبي نجيح عن مجاهد قال : « يَنْصَرُونَ » أى يحفظون . قتادة :  
أنى لا يصحهم الله بخير ، ولا يجعل رحمته صاحباً لهم .

قوله تعالى : ( بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ ) قال ابن عباس : يريد أهل مكة . أى بسطنا  
لهم ولا باتهم في نعيمها و ( طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ) في النعمة فظنوا أنها لا تزول عنهم ، فافتروا  
وأعرضوا عن تدبر حجاج الله عز وجل . ( أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّ نَارَ الْأَرْضِ تَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا )  
أى بالظهور عليها لك يا محمد أرضاً بصد أرض ، وقصفاً بلداً بصد بلد مما حول مكة ،  
قال معناه الحسن وغيره . وقيل : بالقتل والسي ؛ حكاه الكلبي . والمعنى واحد . وقد مضى  
في « الرد » الكلام في هذا مستوف . ( أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ) يعنى كفار مكة بعد أن نقصنا  
من أطرافهم ؛ بل أنت تغلبهم وتظهر عليهم .

قوله تعالى : قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ  
إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿١٥﴾ وَلَكِنْ مَسَّهْمُ نَفْعَةٍ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَنُوحِلَنَا  
إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ( قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ ) أى أخذكُم وأحذركم بالقرآن . ( وَلَا يَسْمَعُ  
الصُّمُّ الدُّعَاءَ ) أى من أصم الله قلبه ، وختم على سمعه ، وجعل على بصره غشاوة ، من فهم  
الآيات وسماع الحق . وفراً أبو عبد الرحمن السامى ومحمد بن السميع « وَلَا يَسْمَعُ » ببناء  
مضمومة وفتح الميم على ما لم يسم فاعله « الصُّمُّ » رفعا أى إن الله لا يسمعهم . وقرأ ابن عامر  
وسلمى أيضاً ، وأبو حنيفة ويحيى بن الحرث « وَلَا تُسْمِعُ » ببناء مضمومة وكسر الميم « الصُّمُّ »  
ندباً ، أى إنشأ يا محمد « لَا تُسْمِعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ » ، فالخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم . ورد  
هذه القراءة بعض أهل اللغة . وقال : وكان يجب أن يقول : إذا ماتهم . قال النحاس :  
وثلث جائزاً لأنه قد عرف المعنى .

(١) في نسخة : « حكاه الكلبي » . (٢) راجع ج ٩ ص ٣٣٢ وما بعدها طبعه أملا أو ثانية .



قوله تعالى : ( وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفَقَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ ) قال ابن عباس : طرف . قال قتادة : عقوبة . ابن كيسان : قليل وأدنى شيء ، مأخوذة من قع المسك . قال : وعمره من سروات النساء . تنفع بالمسك أزكائها . ابن جرير : نصيب ، كما يقال : قع فلان لفلان من عطائه ، إذا أعطاه نصيبا من المال . قال الشاعر (١) :

لَمَّا أَتَيْتُكَ أَرْجُو فَضْلَ تَائِلِكُمْ • فَخَجَنِي نَفَقَةٌ طَابَتْ لَهَا الْعَرَبُ

أى طابت لها النفس . والنفقة في اللغة الدفعة البسيطة ، فالعنى ولئن منهم أقل شيء من العذاب . ( يَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ) أى متعددين فيعتزون حين لا يفهمهم الاعتراف .

قوله تعالى : وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَسِيبِينَ (١٧)

قوله تعالى : ( وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ) الموازين جمع ميزان . فقيل : إنه يدل بظاهره على أن لكل مكلف ميزانا توزن به أعماله ، فتوضع الحسنات في كفة ، والسيئات في كفة . وقيل : يجوز أن يكون هناك موازين للعامل الواحد ، يوزن بكل ميزان منها صنف من أعماله ، كما قال :

مَلِكٌ تَقُومُ الْحَادِثَاتُ لَمَدْلِهِ • فَلكُلِّ حَادِثَةٍ لَهَا مِيزَانٌ

ويمكن أن يكون ميزانا واحدا عبر عنه بلفظ الجمع . ونرجح الألفاظ الحافظ أبو القاسم في سننه عن أنس يرفعه : " إن ملكا موكلا بالميزان فيؤتى بآدم فيوقف بين كفتي الميزان فإن رجع نادى الملك بصوت يُسمع الخلائق سَعِدَ فلان سعادة لا يشقى بعدها أبدا وإن خف نادى الملك شقى فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبدا " . ونرجح عن حذيفة رضى الله عنه قال : " صاحب الميزان يوم القيامة جبريل عليه السلام " . وقيل : لميزان كفتان وخيوط ولسان والشاهين ، فالجمع يرجع إليها . وقال مجاهد وقتادة والضحاك : ذكر الميزان مثل وليس ثم

(١) هوبس بن الخليل الأنصاري . (٢) هو الرماح بن زيادة مدح به الوليد بن يزيد بن عبد الملك .

ميزان وإنما هو العدل . والذي وردت به الأخبار وعليه السواد الأعظم القول الأول . وقد مضى في «الأعراف» بيان هذا، وفي «الكهف» أيضا . وقد ذكرناه في كتاب «الذكرة» مستوفى والحمد لله . و «القيسط» العدل أى ليس فيها بخس ولا ظلم كما يكون في وزن الدنيا . و «القيسط» صفة الموازين ووحيد لأنه مصدر ؛ يقال : ميزان قسط ، وميزانان قسط ، وموازين قسط . مثل رجال عدل ورصا . وقرأت فرقة «القيسط» بالصاد : (لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ) أى لأهل يوم القيامة . وقيل : المعنى في يوم القيامة . (فَلَا تُظَلَّمُ نَفْسٌ شَيْئًا) أى لا ينقص من إحسان محسن ولا يزداد في إساءة مسيء . (وَأِنْ كَانَ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ) فإنا نافع وشية وأبو جعفر «مِثْقَالُ حَبَّةٍ» بالرفع ها ؛ وفي «لفهان» على معنى إن وقع أو حضر ؛ فتكون كان تامة ولا تحتاج إلى خبر . الباقون «مِثْقَالٌ» بالنصب على معنى وإن كان العمل أو ذلك الشيء مثقال . ومثقال الشيء ميزانه من مثله . (أَتَيْنَاهَا) مفعولة الألف قراءة الجمهور أى أحضرناها وجئنا بها للجأزة عليها ولها . يجاء بها أى بالحبة ولو قال به أى بالمثقال لحاز . وقيل : مثقال الحبة ليس شيئا غير الحبة فلهذا قال «أَتَيْنَاهَا» . وقرأ مجاهد وعكرمة «أَتَيْنَا» بالمسند على «بى جازينا بها» . يقال : آتى يؤاتى مؤاتاة . (وَكُنْزِي بَيْنَ حَاسِبِينَ) أى محاسبين على ما قدموه من خير أو شر . وقيل : «حاسبين» إذ لا أحد أسرع حسابا منا . والحساب العتد . روى الترمذى عن عائشة رضى الله عنها : أن رجلا قدم بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ! إن لى مملوكين يكذبونى ويخونونى ويعصرونى وأشتهم وأضربهم فكيف أنا منهم ؟ قال : «يُحْسَبُ مَا خَانُوكَ وَعَصَوْكَ وَكَذَبُوكَ وَعَقَابُكَ إِيَّاهُمْ إِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ بِقَدْرِ ذُنُوبِهِمْ كَانَ كَفَافًا لَكَ وَلَا عَلَيْكَ وَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ دُونَ ذُنُوبِهِمْ كَانَ فَضْلًا لَكَ وَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ فَوْقَ ذُنُوبِهِمْ أَقْتَصَ لِمَكَ الْفَضْلُ» قال : فَتَحَى الرَّجُلُ فَجَعَلَ يَبْكِي وَيَتَهَفَفُ . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أَمَا تَقْرَأُ تَكْلَبُ اللَّهُ تَعَالَى وَتَنْصَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِرَبِّهِمُ الْقِيَامَةَ فَلَا تُظَلَّمُ نَفْسٌ شَيْئًا» فقال الرجل : والله يا رسول الله ما أجد لى ولؤلؤا شيئا خيرا من مزارعتهم ، أشهدك أنهم أحرار كلهم . قال حديث غريب .

قوله تعالى : وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءَهُ وَذِكْرًا  
لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾  
وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : ( وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءَهُ ) وحكى عن ابن عباس  
وعكرمة « الْفُرْقَانَ وَضِيَاءَهُ » بنبروا على الحال . وزعم العراء أن حذف الواو والمجىء بها واحد ،  
كما قال الله عز وجل : « إِنَّا زَيْنَا السَّهَاءَ الدُّنْيَا بِرِيسَةِ الْكَوَاكِبِ . وَحِفْظًا » أى حفظًا .  
ورد عليه هذا القول الزجاج . قال : لأن الواو مجىء . لمضى فلا تزداد . قال : وتفسير « الفرقان »  
التوراة ؛ لأن فيها الفرق بين الحرام والحلال . قال : « وَضِيَاءَهُ » مثل « فِيهِ هُدًى وَتُورٌ »  
وقال ابن زيد : « الفرقان » هنا هو انصر على الأعداء ، دليله قوله تعالى : « وَمَا أَنزَلْنَا  
عَلَىٰ عِبَادِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ » يعنى يوم بدر . قال التعلبي : وهذا القول أشبه بظاهر الآية ؛ لسنخول  
الواو فى الضياء ؛ فيكون معنى الآية : ولقد آتينا موسى وهرون النصر والتوراة التى هى الضياء  
والذكر . ( لِّلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ ) أى غائبين ؛ لأنهم لم يروا الله تعالى ، بل  
عرفوا بالنظر والاستدلال أن لهم ربا قادرا ، يحازى على الأعمال فهم يخشونه فى سرائرهم ،  
وخلواتهم التى يبنون فيها عن الناس . ( وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ ) أى من قيامها قبل التوبة .  
( مُشْفِقُونَ ) أى خائفون وجلون . ( وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ ) يعنى القرآن ( أَفَأَنْتُمْ لَهُ )  
يا مشرك العرب ( مُنْكَرُونَ ) وهو معجز لا تغفرون على الإتيان بمثله . وأجاز الفراء « وَهَذَا  
ذِكْرٌ مُّبَارَكًا أَنزَلْنَاهُ » يعنى أنزلناه مباركًا .

قوله تعالى : وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ  
عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ النَّمَائِلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا  
عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنْتُمْ

وَأَبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٥١﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنْ  
الضَّالِّينَ ﴿٥٢﴾ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ  
وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾

قوله تعالى : ( وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ ) قال القرطبي : أي أعطاه هداية . ( مِنْ قَبْلُ )  
أي من قبل النبوة ، أي زعماء للنظر والاستدلال ، لما جئ به الليل فرأى النجم والنس  
والقمر . وقيل : « مِنْ قَبْلُ » أي من قبل موسى وهرون . والرشد هل هذا النبوة . ومثل  
الأول أكثر أهل الضمير ، كما قال يحيى : « وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبَأًا » . وقال القرطبي : رُشْدُهُ  
صلاحه . ( وَكُنَّا لَهُ عَالِمِينَ ) أي إنه أهل لإتياء الرشد وصالح النبوة .

قوله تعالى : ( إِذْ قَالَ لِأَيُّهِ ) قيل : المعنى أي أذكر حين قال لأبيه ، فيكون الكلام  
قد تم عند قوله : « وَكُنَّا لَهُ عَالِمِينَ » . وقيل : المعنى : « وَكُنَّا لَهُ عَالِمِينَ إِذْ قَالَ » فيكون الكلام  
متصلاً ولا يوقف على قوله : « عَالِمِينَ » . « لِأَيُّهِ » وهو تركه ( وَقَوَّيْهِ ) فمروء ومن أتبعه .  
( مَا هِذِهِ التَّمَاثِيلُ ) أي الأصنام . والتماثل أسم موضوع للشيء المصروع مشبهاً بخلق  
الله تعالى . يقال : مثلت الشيء بالشيء أي شبهته به . واسم ذلك التمثال تماثل . ( أَلَمْ أَتَمْ لَهَا  
عَالِكُونَ ) أي مقيمون على عبادتها . ( قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ) أي نصبها قديماً  
لأسلافنا . ( قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ) أي في خسران عبادتها ، إذ هي جمادات  
لا تنفع ولا تضر ولا تعلم . ( قَالُوا أَجِئْنَا بِالْحَقِّ ) أي أجاء أنت بحق فيما تقول ؟ ( أَمْ أَنْتَ مِنْ  
الضَّالِّينَ ) أي لاصب مازح . ( قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ) أي لست ملاحب ،  
بل ربكم والغام بتدبيركم حتى السموات والأرض . ( الَّذِي فَطَرَهُنَّ ) أي خلقهن وأبدعهن .  
( وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ) أي على أنه رب السموات والأرض . والشاهد بين الحكم ،  
ومنه « شَهِدَ اللَّهُ » . يَنْ أَفَعَى : فلعنى : وأنا آيّن بالدليل ما أقول .

قوله تعالى : وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدِيرِينَ ﴿٥٤﴾  
فَجَعَلَهُمْ جُودًا إِلَّا كِبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : ( وَتَاللَّهِ لَا يَكِدُنَ أَصْنَامُكُمْ ) أخبر أنه لم يكنف بالحاجة باللسان بل كسر  
أصنامهم فعل وائق بالله تعالى ، موطن نفسه على مقاساة للكره في الذب عن الدين . والتاء  
في « تَاللَّهِ » تختص في القسم بآسم الله وحده ، ولولو تختص بكل مظهر ، والباء بكل مضمهر  
ومظهر . قال الشاعر :

تَاللَّهِ يَتَّقِي عَلَى الْإِيَّامِ نَوْ حَيْدٍ • بِمُتَمَيِّعِهِ الْغِيَّانُ وَالْأَسْمُ

وقال ابن عباس : أى حرمة الله لا يكيدن أصنامكم ، أى لا يمكن بها . والتكيد المكر . كاده  
يكيد كيدا ومكيدة ، وكذلك المكيدة ، وربما سمي الحرب كيدا ، يقال : غزا فلان فلم يلق  
كيدا ، وكل شئ تعالجه أنت تكيد . ( بَعْدَ أَنْ قُوتُوا مُذِيرِينَ ) أى متطيقين ذاهبين .  
وكان لهم في كل سنة عيد يحتفلون فيه ، فقالوا لإبراهيم : لو خرجت منا إلى هيدنا أعجبك  
ديننا — روى ذلك عن ابن مسعود على ما يأتى بيانه في « الصافات » — فقال إبراهيم  
في نفسه : « تَاللَّهِ لَا يَكِدُنَ أَصْنَامُكُمْ » . قال مجاهد وقتادة : إنما قال ذلك إبراهيم في سر من  
قومه ، ولم يسمعه إلا رجل واحد وهو الذى أفساه عليه . والواحد يغير عنه بغير الجمع إذا كان  
ما أخبر به مما يرضى به فيه . ومثله « يَقُولُونَ لَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَبِئْسَ خِرَاجَ الْأَعْرَ مِنْهَا  
الْأَذَلُّ » . وقيل : إنما قاله سد حروح القوم ، ولم يبق منهم إلا الصمغاء فهم الذين سمعوه .  
وكان إبراهيم أحتال في التخلف عنهم بقوله : « إِنِّي سَقِيمٌ » أى صيب عن الحركة .

قوله تعالى : ( جَعَلْنَاهُمْ جُذَاءً ) أى فناء . والجذ الكسر والقطع ، جذت الشئ  
كسرت وقطعته . والجذاز والجذاز ما كسرت منه ، والصم أنصح من كسره . قال الجوهري .  
الكسأى : ويقال مجازة الذهب جذاد ، لأنها تكسر . وقرأ الكسأى والأعشى وابن مجسر  
« جُذَاءً » بكسر الجيم ، أى كسرا وقطعا جمع جديد وهو المشيم ، مثل خفيف ويخفف  
وطريف ويطراف . قال الشاعر :

جَذَّذَ الْأَصْنَامَ فِي مَحْرَابِهَا • ذَاكَ فِي اللَّهِ الْعَلَى الْمُقْتَدِرِ

(١) هرواكت من خاله الشاعر المحدث - راجع ما (كتب) : كل تنو في الجبل . وانفسخ : الجبل الدال . والغيان :  
بأسن البر . والمضى : لا ين . (٢) في قصير قوله تعالى : « فراغ إلى أمهم ... الخ » الآيات : ٩١ و٩٢ و٩٣

الباقون بالضم، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم . [مثل] الحطام والزئآت الواحدة جذانة . وهذا هو الكيد الذي أقسم به ليفعله بها . وقال : « بفعلهم » ؛ لأن القوم اعتقدوا في أصنامهم الإلهية . وقرا ابن عباس وأبو نبيك وأبو السمال « جذآذا » بفتح الجيم ؛ والفتح والكسر لغتان كالحصاد والحصاد . أبو حاتم : الفتح والكسر والضم بمعنى ؛ حكاة قطرب . (إِلَّا كَبِيرًا لَّمُمْ) أى عظيم الآلهة فى انطلق فإنه لم يكسره . وقال السدى ومجاهد : ترك الصنم الأكبر وعلق الفأس الذى كسره به الأصنام فى عقبه ؛ ليحتج به عليهم . (لَمْلَهُمْ إِلَهِ) أى إلى إبراهيم ودينه (يَرْجِعُونَ) إذا قامت الحجة عليهم . وقيل : « لَمْلَهُمْ إِلَهِ » أى إلى الصنم الأكبر « يَرْجِعُونَ » فى تكسرها .

قوله تعالى : قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِإِلَهِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٦﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٥٧﴾ قَالُوا فَأَتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٥٨﴾

قوله تعالى : (قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِإِلَهِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ) المعنى لما رجعوا من عيدهم وراوا ما أحدث بالهتهم ، قالوا على جهة البحث والإنكار : « مَنْ فَعَلَ هَذَا بِإِلَهِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ » . وقيل : « من » ليس استنهما ، بل هو ابتداء وخبره « لَمِنَ الظَّالِمِينَ » . أى فاعل هذا ظالم . والأول أصح لقوله : (سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ) وهذا هو جواب « مَنْ فَعَلَ هَذَا » . والضمير فى « قالوا » للقوم الضعفاء الذين سمعوا إبراهيم ، أو الواحد على ما تقدم . ومعنى « يَذْكُرُهُمْ » يسيبهم ويسبهم فعله الذى صنع هذا . واختلف الناس فى وجه رفع إبراهيم ؛ فقال الزجاج : يرتفع على معنى يقال له هو إبراهيم ؛ فيكون [خبر مبتدأ] محذوف ، والجملة محكية . قال : ويجوز أن يكون رفعا على التنداء وضمة بناء ، وقام له مقام ما لم يسم فاعله . وقيل : رفعه على أنه مفعول ما لم يسم فاعله ؛ على أن يعمل إبراهيم غير دال على الشخص ، بل يعمل النطق به دالا على بناء هذه اللفظة . أى يقال له هذا القول وهذا اللفظ ، كما تحول (١) فى الأصل : « دأى » وهو محريف . (٢) فى الأصل : « يكون مبتدأ وخبره محذوف » وهو محريف .

زيد وزن فعل، أو زيد ثلاثة أحرف، فلم تدل بوجه على الشخص، بل دلت بتطويعك على نفس اللفظة. وعلى هذه الطريقة تقول: قلت إبراهيم، ويكون مفعولا صحيحا تزلته منزلة قول وكلام؛ فلا يتجزأ بعد ذلك أن يبنى الفعل فيه للقول. هذا اختيار ابن عطية في رفعه. وقال الأستاذ أبو الجحاج الأشبيلي الأعمى: هو رفع على الإهمال. قال ابن عطية: لما رأى وجوه الرفع كأنها لا توضح المعنى الذى قصدوه، ذهب إلى رفعه بنبرشيه، كما قد يرفع التجرد والعرو عن العوامل الابتدائية. والفتى الشاب والفناء الشابة. وقال ابن عباس: ما أرسل الله نبيا إلا شابا. ثم قرأ «سَمِعْنَا قَتَى يَدُ كُرْمٍ».

قوله تعالى: ﴿قَالُوا قَاتُوا بِهِ عَلَىٰ آئِينَ النَّاسِ﴾ فيه مشكلة واحدة، وهى:

أنه لما بلغ الخبر عمرو وأشراف قومه، كرهوا أن يأخذوه بنبرشيه، فقالوا: آتوا به ظاهرا يجرى من الناس حتى يروه ﴿لَهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ عليه بما قال، ليكون ذلك حجة عليه. وقيل: «لَهُمْ يَشْهَدُونَ» عقابه فلا يقدم أحد على مثل ما أقدم عليه. أو لعل قوما «يشهدون» بأنهم رأوه يكسر الأصنام، أو «لَهُمْ يَشْهَدُونَ» طعنه على آلهتهم، ليعلموا أنه يستحق العقاب..

قلت: وفى هذا دليل على أنه كان لا يؤخذ أحد بدعوى أحد فها تقدم؛ لقوله تعالى: ﴿قَاتُوا بِهِ عَلَىٰ آئِينَ النَّاسِ لَهُمْ يَشْهَدُونَ» وهكذا الأمر فى شرعا ولا خلاف فيه.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَأَتَتْكَ هَٰذَا عَالِيَتُنَا يٰبَرَكِيهِمْ﴾ ١٢٦ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْأَلُوكُمْ إِن كَانُوا يَنْطِقُونَ ١٢٧

قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَأَتَتْكَ هَٰذَا عَالِيَتُنَا يٰبَرَكِيهِمْ﴾ فيه أربع مسائل:

الأولى - لما لم يكن السماع عاما ولا ثبت الشهادة، استفهموه هل نسل أم لا؟ وفى الكلام حذف بغاء إبراهيم حين أتى به فقالوا: أأتى فقلت هذا بالآلة؟ فقال لم إبراهيم هل جهة الإصباح طبعه: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ أى إنه غار وغضب من أن يبعد هو

ويبد الصغار معه فعمل هذا بما لئلك ، إن كانوا ينطقون فاسألوهم . فمات فعمل الكبير  
ينطق الآخرون ، تبيناً لم هل فساد اعتقادهم . كأنه قال : بل هو الفاعل إن نطق هؤلاء .  
وفي الكلام تقديم على هذا التأويل في قوله : ( فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ) . وقيل : أراد  
بل فعله كبيرهم إن كانوا ينطقون . بين أن من لا يتكلم ولا يعلم لا يستحق أن يبد . وكان  
قوله من المعارض ، وفي المعارض مندوحة عن الكذب . أى سألوهم إن نطقوا فإنهم  
يصدقون ، وإن لم يكونوا ينطقون فليس هو الفاعل . وفي ضمن هذا الكلام اعتراف بأنه هو  
الفاعل وهذا هو الصحيح لأنه عدده على نفسه ، فدل أنه خرج مخرج التمرىض . وذلك  
أنهم كانوا يعبدونهم ويخفونهم آلهة من دون الله ، كما قال إبراهيم لأبيه : « يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ  
مَا لَا يَنْسَعُ وَلَا يُبْصِرُ » - الآية - فقال إبراهيم : « بَلْ قَسَمَ كَبِيرُهُمْ هَذَا » ليقولوا  
إنهم لا ينطقون ولا ينفسون ولا يبنرون ، فيقول لهم فلم تعبدونهم ؟ فتقوم عليهم الجحمة  
منهم ، ولهذا يجوز عند الأمة فرض الباطل مع الخصم حتى يرجع إلى الحق من ذات نفسه ،  
فإنه أقرب في الجحمة وأنفع للشبهة ، كما قال لقومه : « هَذَا رَبِّي » وهذه أختي و« إِنِّي سَمِعْتُ »  
و« بَلْ قَسَمَ كَبِيرُهُمْ هَذَا » وقرا ابن السيق « بَلْ قَسَمَ » بتشديد اللام بمعنى فعمل الفاعل  
كبيرهم . وقال الكسائي : الوقف عند قوله « بل فعله » أى فعله من فعله ، ثم يتدنى  
« كبيرهم هذا » . وقيل : أى لم ينكرون أن يكون فعله كبيرهم ؟ فهذا إلهام بلفظ الخبر . أى  
من اعتقد عبادتها يلزمه أن يثبت لها فعلاً والمضى : بل فعله كبيرهم فيما يلزمكم .

الثانية - روى البخاري ، ومسلم والترمذي عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله  
عليه وسلم : « لم يكذب إبراهيم النبي في شيء قط إلا في ثلاث قوله « إِنِّي سَمِعْتُ » وقوله لسارة أختي  
وقوله « بل فعله كبيرهم » . وقال : حديث حسن صحيح . ووقع في الإسراء  
في صحيح مسلم ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه في قصة إبراهيم قال : وذكر قوله  
في الكوكب « هذا ربى » . فعلى هذا تكون الكذبات أربعا إلا أن الرسول عليه السلام قد  
تمى تلك بقوله : « لم يكذب إبراهيم النبي قط إلا في ثلاث كذبات اثنين في ذات الله فوله



« إني سقيم » وقوله « بل فعله كبيرهم » وواحدة في شأن سارة « الحديث لفظ مسلم . وإنما لم يعد عليه قوله في الكوكب : « هذا ربي » كذبة وهي داخلة في الكتب ؛ لأنه — والله أعلم — كان حين قال ذلك في حال الطفولة ، وليست حالة تكليف . أو قال لتسوية مستفهما لم على جهة التوبيخ والإنكار ، وحذفت همزة الاستفهام . أو على طريق الاحتجاج على قومه ؛ تنبيها على أن ما يتخير لا يصلح للرؤية . وقد تقدمت هذه الوجوه كلها في « الأنعام » مينة والمحدث .

الثالثة — قال القاضي أبو بكر بن العربي : في هذا الحديث نكتة عظمى تهضم الظهور ؛ وهي أنه عليه السلام قال : « لم يكذب إبراهيم إلا في ثلاث كذبات ثنتين مألَّ بهما عن دين الله وهما قوله « إني سقيم » وقوله « بل فعله كبيرهم » ولم يعد [ قوله ] هذه إغنى في ذات الله تعالى وإن كان دفع بها مكروها ، ولكنه لما كان لإبراهيم عليه السلام فيها حظ من صيانة فراشه وحماية أهله ، لم يحصلها في ذات الله ؛ وذلك لأنه لا يعمل في جنب الله وذاته إلا العمل الخالص من شوائب الدنيا ، والمعارض التي ترجع إلى النفس إذا خلصت للدين كانت لله سبحانه ، كما قال : « أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ » . وهذا لو صدر منا لكان لله ، لكن مقلدة إبراهيم اقتضت هذا . والله أعلم .

الرابعة — قال علمائنا : الكذب هو الإخبار عن الشيء بخلاف ما هو عليه . والأظهر أن قول إبراهيم فيما أخبر عنه عليه السلام كان من المعارض ، وإن كانت معارضة وحسنات وحجبا في الحقائق ودلالات ، لكنها أثرت في الرتبة ، وخفضت عن مجد المتلة ، واستحيا منها قائلها ، على ما ورد في حديث الشفاعة ؛ فإن الأنبياء يشفقون مما لا يتفق منه غيرهم إجلالا لله ؛ فإن الذي كان يلحق بمرتبة في النبوة والخلة ، أن يصدع بالحق ويصرح بالأمر كما كان ، ولكنه رخص له قبل الرخصة فكان ما كان من القصة ؛ ولهذا جاء في حديث الشفاعة « إنما أخذت خيلا من وراء وراء » بنصب وراء فيها على البناء تكمة عشر ، وكما قالوا

(١) راجع ج ٧ ص ٢٥ ما بعدها طية أول أو ثانية .

(٢) زيادة من « أحكام القرآن » لابن العربي .

جَارِي يَتَّيْت . ووقع في بعض نسخ مسلم " من وراء من وراء " بإعادة من ، وحينئذ لا يجوز البناء على الفتح ، وإنما يبنى كل واحد منهما على الضم ؛ لأنه قطع عن الإضافة ونوى المضاف قبل وبعد ، وإن لم ينو المضاف أعرب ونون غير أن وراء لا ينصرف ؛ لأن الله للتأنيث ؛ لأنهم قالوا في تصغيرها وروية ؛ قال الجوهري : وهي شاذة . فكل هذا يصح الفتح فيها مع وجود « من » فيها . والمعنى إلى كنت خليلا متأخرا عن غيري . ويستفاد من هذا أن الخلقة لم تصح بكلاما إلا لمن صح له في ذلك اليوم المقام المحمود كما تقدم . وهو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نَسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿١٨﴾ أَفَلَا تَكُفِّرُونَ وَلَمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ( فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ ) أى رجع بعضهم إلى بعض رجوع المنقطع عن حجة ، المنقطع لصحة حجة خصمه . ( فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ) أى عبادة من لا ينطق بلفظة ، ولا يملك لنفسه لحظة ، وكيف ينفع عابديه ويدفع عنهم البأس ، من لا يرد عن رأسه الفاس .

قوله تعالى : ( ثُمَّ نَسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ ) أى عادوا إلى جهلهم وعبادتهم فقالوا : ( لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ) و( قَالَ ) قاطعا لما به يهزون ، ومعها لم فيما يتقولون ( أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ . أَفَلَا تَكُفِّرُونَ ) أى التفت لكم ( وَلَمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ) . وقيل : « نَسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ » أى طأطأوا رؤوسهم نخيلا من إبراهيم ، وفيه نظر ؛ لأنه لم يقل نكسوا رؤوسهم ، بفتح الكاف بل قال « نَكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ » أى ردوا على ما كانوا عليه في أول الأمر ، وكذا قال ابن عباس ، قال : أدركهم الشقاء فعادوا إلى كفرهم .

قوله تعالى : قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾

قُلْنَا يَبْنَؤُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾

قوله تعالى : ( قَالُوا حَرِّقُوهُ ) لما أقفطوا بالحجة أخذتهم غرة بآثم وأنصرفوا إلى طريق القنم والقلبة وقالوا حرقوه . وروى أن قاتل هذه المقالة هو رجل من الأكراد من أعراب فارس ؛ أى من باديتها ؛ قاله ابن عمر ومجاهد وابن جرير . ويقال : اسمه هيزر غسف الله به الأرض ، فهو يتجبلل فيها إلى يوم القيامة . وقيل : بل قاله ملكهم نمrod . ( وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ ) بتحريق إبراهيم لأنه يسبها ويعبها . وجاء في الخبر : أن نمrod بن صرحا طوله ثمانون ذراعا وعرضه أربعون ذراعا . قال ابن الصق : وجمعوا الحطب شهرا ثم أوقدوها ، وأشتلت وأشتدت ، حتى أن كان الطائر يمر بجنايتها فيحترق من شدة وهبها . ثم قيدوا إبراهيم ووضعوه في المنجنيق مغلولا . ويقال : إن إبليس صنع لهم المنجنيق يومئذ . فضجت السموات والأرض ومن فيهن من الملائكة وجميع الخلق ، إلا الثقلين شجرة واحدة : ربنا ! إبراهيم ليس في الأرض أحد يعبدك غيره يُحرق فيك فأذن لنا في نصرته . فقال الله تعالى : « إن أشتات بشيء منك أو دعاه فلينصره فقد أذنت له في ذلك وإن لم يدع غيره فأنا أعلم به وأنا وليه » فلما أرادوا إقامة في النار ، أتاه نهران الماء — وهو في الهواء — فقالوا : يا إبراهيم إن أردت أخذنا النار الماء . فقال : لا حاجة لي إليكم . وأتاه ملك الريح فقال : لو شئت طيرت النار . فقال : لا . ثم رفع رأسه إلى السماء فقال : « اللهم أنت الواحد في السماء وأنا الواحد في الأرض ليس أحد يعبدك غيري حمي الله ونعم الوكيل » . وروى أبى بن كعب وصى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم <sup>١</sup> إن إبراهيم حين قيدوه ليقوه في النار قال لا إله إلا أنت سبحانك رب العالمين لك الحمد ولك الملك لا شريك لك <sup>٢</sup> قال : ثم رموا به في المنجنيق من مضرب شاسع ، فأستقبله جبريل ؛ فقال : يا إبراهيم ألك حاجة ؟ قال : « أما إليك فلا » . فقال جبريل : فاسأل ربك . فقال : « حسي من سؤالي علمه بحالي » . فقال

(١) دليل : ١ « ميزن » كما في تاريخ الطبري وتفسيره . - وقيل : « ميزن » -

الله تعالى وهو اصدق القائلين : ( يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ) قال بعض العلماء :  
 جعل الله فيها بردا يرفع حرها ، وحرا يرفع بردها ، فسارت سلاما عليه . قال أبو العالية : ولو  
 لم يقل « بَرْدًا وَسَلَامًا » لكان بردها أشد عليه من حرها ، ولو لم يقل « على إبراهيم » لكان  
 بردها باقيا على الأبد . وذكر بعض العلماء : أن الله تعالى أنزل زريشة<sup>(١)</sup> من الجنة فبسطها  
 في الجحيم ، وأنزل الله ملائكة : جبريل وميكائيل وملاك البرد وملاك السلامة . وقال علي وابن  
 عباس : لو لم ينج بردها سلاما لمات إبراهيم من بردها ، ولم تبق يومئذ نار إلا طفت ظنت  
 أنها تنف . قال السدي : وأمر الله كل عود من شجرة أن يرجع إلى شجره ويطرح ثمرته . وقال  
 كعب وقتادة : لم تحرق النار من إبراهيم إلا وثاقه . فأقام في النار سبعة أيام لم يقدر أحد أن  
 يقرب من النار ، ثم جاءوا فإذا هو قائم يصلي . وقال المنهال بن عمرو قال إبراهيم : « ما كنت  
 أياما قط أنعم مني في الأيام التي كنت فيها في النار » . وقال كعب وقتادة والزهرى : ولم  
 تبق يومئذ ذابة إلا أطفأت عنه النار إلا الوزغ فلأنها كانت تنفخ عليه ، فلذلك أمر رسول  
 الله صلى الله عليه وسلم بقتلها وسماها نوبسقة . وقال شعيب المجاني : ألقي إبراهيم في النار وهو  
 ابن ست عشرة سنة . وقال ابن جريج : ألقي إبراهيم في النار وهو ابن ست وعشرين سنة .  
 ذكر الأول الثعلبي ، والثاني الماوردي ، فالله أعلم . وقال الكلبي : بردت نيران الأرض  
 جميعا فما أضجت كراما ، فرأه نمرود من الصرح وهو جالس على السريور يؤنس ملك الظل .  
 فقال : نعم الرب ربك ! لأقرين له أربعة آلاف بقرة وكف عنه .

قوله تعالى : وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَاهُ  
 وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ  
 وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٧﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أئِمَّةً يَهْدُونَ  
 بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا  
 لَنَا عَابِدِينَ ﴿٧٨﴾

(١) الزريشة : النفثة ، وقيل : الباط ذوالجل ، وزاها مطه .

قوله تعالى : ( وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا ) أى أراد نمرود وأصحابه أن يكرهوا به ( بَجَسَّامٍ الْأَخْسَرِينَ ) فى أعمالهم ، ورددنا مكرم عليهم بتسليط أضعف خلقنا . قال ابن عباس : سخط الله عليهم أضعف خلقه البعوض ، فإبرح نمرود حتى رأى عظام أصحابه ونخيله تلوح ، أكلت لحومهم وشربت دماهم ، ووقفت واحدة فى منفره فلم تزل تأكل إلى أن وصلت دماغه ، وكان أكرم الناس عليه الذى يضرب رأسه بمزقة من حديد . فأقام بهذا نحواً من أربعمائة سنة .

قوله تعالى : ( وَبَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ) يريد بجينا إبراهيم ولوطاً إلى أرض الشام وكانا بال عراق ، وكان [ إبراهيم ] عليه السلام عمه ؛ قاله ابن عباس . وقيل : لما مباركة لكثرة خصبها وغمارها وأنهارها ، ولأنها معادن الأنبياء . والبركة ثبوت الخير ، ومعه برك البعير إذا لزم مكانه فلم يرح . وقال ابن عباس : الأرض المباركة بمكة . وقيل : بيت المقدس ؛ لأن منها يستأفقه أكثر الأنبياء ، وهى أيضاً كثيرة الخصب والتمتع ، عذبة الماء ، ومنها يتفرق فى الأرض . قال أبو العالية : ليس ماء عذب إلا يهبط من السماء إلى الصخرة التى ببيت المقدس ، ثم يتفرق فى الأرض . ونحوه عن كعب الأحبار . وقيل : الأرض المباركة مصر .

قوله تعالى : ( وَوَعَدْنَا لَهُ إِبْرَاهِيمَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ) أى زيادة ؛ لأنه دعا فى إسمه وزيد فى يعقوب من غير دعاء فكان ذلك نافلة ؛ أى زيادة على ما سأل ؛ إذ قال : « رَبِّ هَبْ لِي مِنْ الصَّالِحِينَ » . ويقال لولد الولد نافلة ؛ لأنه زيادة على الولد . ( وَكَلَّا جَلَلْنَا صَلَاحِينَ ) أى وكلا من إبراهيم وإسماعيل ويعقوب جعلناه صالحاً عاملاً بطاعة الله . وجعلهم صالحين إنما يشترط بخلق الصلاح والطاعة لهم ، وبخلق القدرة على الطاعة ، ثم ما يكتسبه العبد فهو مخلوق لله تعالى .

قوله تعالى : ( وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَتُخَدُّونَ بِأَمْرِنَا ) أى رؤساء يقتدى بهم فى الخيرات وأعمال الطاعات . ومعنى « بِأَمْرِنَا » أى بما أنزلنا عليهم من الوحي والأمور والنهي ؛ فكانه قال يهدون بكنا . وقيل : المعنى يهدون الناس إلى ديننا بأمرنا لإبراهيم بإرشاد الخلق ، ودعائهم إلى التوحيد . ( وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ ) أى أن يفعلوا الطاعات . ( وَوَقَّامَ الصَّلَاةِ وَآيَاتِنَا الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ) أى مطيعين .

(١) سبق أضفنا على أن ابن عباس يكتب عليه بعض الرواة . (٢) فى الأصل : « لوط » وهو محريف .

قوله تعالى : وَلَوْ لَّا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي  
كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبِيثَاتِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَذَسَّيْنَاهُ (٧٤) وَأَدْخَلْنَاهُ  
فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥)

قوله تعالى : ( وَلَوْ لَّا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ) «لوطا» منصوب بعمل مضمر دل عليه الثاني ؛  
أى وآتيناه لوطا آتيانه . وقيل : أى وأدكر لوطا . والحكم النبوة ، والعلم المعرفة بأمر الدين  
وما يقع به الحكم بين الخصوم . وقيل : «علما» فهما ؛ والمعنى واحد . ( وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ  
الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبِيثَاتِ ) يريد سدوم . ابن عباس : كانت سبع قرى ، قلب جبريل عليه  
السلام ستة وأربعين واحدة لوط وعباله ، وهى زَعْر التى فيها الثمر من كورة فلسطين إلى حد  
السراة ؛ ولها قرى كثيرة إلى حد بحر المحار . وفى الخبثات التى كانوا يعملونها قولان :  
أحدهما - اللواط على ما تقدم . والثانى - الضراط ؛ أى كانوا يتضارطون فى نادهم  
وبجالسهم . وقيل : الضراط وحذف المعى وساقى . ( إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَذَسَّيْنَاهُ ) أى  
خارجين عن طاعة الله ، والفسوق الخروج وقد تقدم . ( وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا ) فى النبوة . وقيل :  
فى الإسلام . وقيل : الجنة . وقيل : غنى بالرحمة إجماء من قومه ( إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ) .  
قوله تعالى : وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ  
مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ  
كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٧٧)

قوله تعالى : ( وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ ) أى وأدكر نوحا إذ نادى ؛ أى دعا . « مِنْ  
قَبْلُ » أى من قبل إبراهيم ولوط على قومه ، وهو قوله : « رَبِّ لَا تَذَرْنِي مِنَ الْكَافِرِينَ  
دَبَّارًا » وقال لما كذبوه : « أَنَّى مَقْلُوبٌ فَأَتَّبِعْهُ » . ( فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ  
الْعَظِيمِ ) أى من الغرق . والكرب الهم الشديد « وأهله » أى المؤمنين منهم . ( وَنَصَرْنَاهُ مِنَ  
الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا ) قال أبو عبيدة : « مِنْ » بمعنى على . وقيل : المعنى فاستقمنا له  
« مِنْ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا » . ( فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ) أى الصغير منهم والكبير .

قوله تعالى : وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفِثَتْ فِيهِ  
 الْفَئِمَّةُ الْقَوْمَ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٦٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا  
 حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَحْنُزُنَّا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٦٩﴾  
 فيه ست وعشرون مسألة :

الأولى - قوله تعالى : ( وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ ) أى وأذ كرهما إذ يحكمان ، ولم  
 يرد بقولهم : إِذْ يَحْكُمَانِ الإجماع فى الحكم وإن جمعهما فى القول ؛ فإن حكمين على حكم واحد  
 لا يجوز . وإنما حكم كل واحد منهما على أفرادهما ، وكان سليمان الفاهم لما يتفهم الله تعالى  
 إياه . ( فى الْحَرْثِ ) اختلف فيه على قولين : قيل : كان زرعاً ؛ قاله قتادة . وقيل :  
 كرماً نبتت حنابقه ؛ قاله ابن مسعود وشرح . و « الحرث » يقال فيما ، وهو فى الزرع  
 أبعد من الاستعارة .

الثانية - قوله تعالى : ( إِذْ نَفِثَتْ فِيهِ فَمَمُ الْقَوْمِ ) أى رمت فيه ليلاً ، والنفس  
 الرعى بالليل . يقال : نفثت بالليل ، وقملت بالنهار ، وإذا رمت بلا راج . وأغشها صاحبها .  
 وإبلُ نَفَاش . وفى حديث عبد الله بن عمرو : الحبة فى الجنة مثل كرش البعير بيت نافشا ؛  
 أى راحيا ؛ حكاه المازوى . وقال ابن سيده : لا يقال المثل فى النعم ، وإنما هو فى الإبل .  
 الثالثة - قوله تعالى : ( وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ) دليل على أن أقل الجمع أثنان .  
 وقيل : المراد الحاكمان والحكوم عليه ؛ فلذلك قال « لِحُكْمِهِمْ » .

الرابعة - قوله تعالى : ( فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ) أى فهمناه القضية والحكومة ، فكفى منها  
 إذ سبق ما يدل عليها . وفضل حكم سليمان حكم أبيه فى أنه أحرز أن يبقى كل واحد منهما على  
 مناعه ، وتبقى نفسه طيبة بذلك ؛ وذلك أن داود عليه السلام رأى أن يدفع النعم إلى صاحب  
 الحرث . وقالت فرقة : بل دفع النعم إلى صاحب الحرث ، والحرث إلى صاحب النعم .  
 قال ابن عطية ؛ فيشبه على القول للواحد أنه رأى النعم تقادم الغلة لى أنسلت . وعلى القول

الثاني رأيا تهاوم الحرت والقتلة، فلما خرج الحصان على سليمان وكان يسير على الباب الذي يخرج منه الخصوم، وكانوا يدخلون إلى داود من باب آخر فقال: يا بني أليس الله داود؟ فقال: نعم، فبقي بالنعم لصاحب الحرت. فقال لعل الحكم غير هذا أصرفا مني. فأتى أباه فقال: يا بني الله إنك حكمت بكنا وكنا وإني رأيت ما هو أرفق بالجميع. قال: وما هو؟ قال: يعني أن تدفع النعم إلى صاحب الحرت فينتفع بالإنها وسمنها وأصوافها، وتدفع الحرت إلى صاحب النعم ليقوم عليه، فإذا عاد الزرع إلى حاله التي أصابته النعم في السنة المقبلة، رد كل واحد منهما ماله إلى صاحبه. فقال داود: وفقت يا بني لا يقطع الله فهمك. ونفى يسا فبقي به سليمان؛ قال معاه ابن مسعود ومجاهد وغيرهما. قال الكشي: قوم داود النعم والكرم فبقي أفسده النعم فكنت القيتان سواء، فدفع النعم إلى صاحب الكرم. وهكذا قال الناس؛ قال: إنما بقي بالنعم لصاحب الحرت؛ لأن ثمنها كان قريبا منه. وأما في حكم سليمان فقد قيل: كانت قيمة ما قال من النعم وقيمة ما أفسدت النعم سواء أيضا.

الخلاصة - قوله تعالى: ﴿وَكَلَّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ تأول قوم أن داود عليه السلام لم يخطئ في هذه النازلة، بل فيها أوتي الحكم والعلم. وحملوا قوله: «فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ» على أنه فضيلة له على داود وفضيلته راجعة إلى داود، والوالد تسره زيادة ولده عليه. وقالت فرقة: بل لأنه لم يصب العين المطلوبة في هذه النازلة، وإنما مدحه الله بأن له حكما وعلمًا يرجع إليه في غير هذه النازلة. وأما في هذه فاصاب سليمان وأخطأ داود عليهما الصلاة والسلام، ولا يمنع وجود الغلط والخطأ من الأتيان كوجوده من غيرهم، لكن لا يفوزون عليه، وإن أقر عليه غيرهم. ولما هدم الوليد كيسة دمشق كتب إليه ملك الروم: إنك هدمت الكيسة التي رأى أبوك تركها، فإن كنت مصيبا فقد أخطأ أبوك، وإن كان أبوك مصيبا فقد أخطأت أنت؛ فاجابه الوليد: «وَدَاوُدُ وَسُلَيْمَانُ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَمٌّ الْقَوْمُ وَكَانَ الْحُكْمُ شَاهِدِينَ. فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكَلَّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا». وقال قوم: كان داود وسليمان - عليهما السلام - تعيين يقضيان بما يوحى إليهما، لحكم داود يوحى،



وحكم سليمان يوسئ شيخ الله به حكم داود، وعلى هذا « قَتَمَتَا سُلَيْمَانَ » أي بطريق القوس  
 التامع لنا أوسئ إلى داود، وأمر سليمان أن يبلغ ذلك طوره، ولهذا قال : « وَكَلَّا أَتَيْنَا  
 حُكْمًا وَنُصْرًا » . هذا قيل جماعة من الطلبة معنا ابن نورك . وقال الجمهور : إن حكمها  
 كناية لمجاهدة وهي .

السابعة - وأختلف للطلبة في جواز الاجتهاد على الأنبياء فمنهم من جوزوه  
 المحققون، لأنه ليس فيه استحالة عقلية، لأنه دليل شرعي فلا إشكال أن يستدل به الأنبياء،  
 كما لو قال له الله سبحانه وتعالى : إنا غلب كل ذلك كذا فاقطع بأن ما غلب كل ذلك هو حكمي  
 فليكنه الآية، فهذا غير مستحيل في القتل . فإن قيل : إنما يكون دليلاً إذا قدم النص وهم  
 لا يقدمونه . قلنا : إذا لم ير ذلك فقد قدم النص عندهم، وصاروا في البحث كغيرهم من  
 المجتهدين من معاني النصوص التي عندهم . والفرق بينهم وبين مجرم من المجتهدين أنهم معصومون  
 عن الخطأ، وعن التلط، وعن التقصير في اجتهادهم، وغيرهم ليس كذلك . كما ذهب الجمهور  
 في أن جميع الأنبياء صلوات الله عليهم معصومون عن الخطأ والتلط في اجتهادهم . وذهب  
 أبو علي ابن أبي حمزة من أصحاب الشافعي إلى أن نبينا صلى الله عليه وسلم مخصوص منهم  
 في جواز الخطأ عليهم، وفرق بينه وبين غيره من الأنبياء أنه لم يكن بعده من يستدرك غلطه،  
 ولذلك عصمه الله تعالى منه، وقد ثبت بعد غيره من الأنبياء من يستدرك غلطه . وقد قيل :  
 إنه على العدم في جميع الأنبياء، وأن نبينا وغيره من الأنبياء صلوات الله عليهم في تجوز الخطأ  
 على سواه إلا أنهم لا يقرون على إضائه، فلم يعتبر به أحدراك من بعدهم من الأنبياء .  
 هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد سأله امرأة عن البدة فقال لها : « أعتدى حيث  
 شئت » ثم قال لها : « أمكني في بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله » . وقال له رجل : أرايت  
 إن قُلت صبرا محسبا أيعجزني عن الجنة شيء ؟ فقال : « لا » ثم دعاه فقال : « إلا الذين  
 كذا أخبرني جبريل عليه السلام » .

السابعة - قال الحسن : لولا هذه الآية لأريت النضاة هلكوا، ولكنه تعالى أثنى  
 على سليمان صوابه، وعذر داود ما اجتاده . وقد اختلف الناس في المجتهدين في الفروع إذا

أخفقوا ، قالت فرقة ، الحق في طرف واحد عند الله ، وقد نصب كل ذلك أكلة ، وحمل  
المجتهدين على البحث عنها ، والنظر فيها ، فمن صادف العين المطلوبة في المسئلة فهو المصيب  
على الإطلاق ، وله أجران أجر في الاجتهاد وأجر في الإصابة ، ومن لم يصلدها فهو مصيب  
في اجتهاده مخطئ في أنه لم يصيب العين فله أجر وهو غير ممنور . وهذا سليمان قد صادف  
العين المطلوبة ، وهي التي فهم . وراى فرقة أن العالم المخطئ لا إثم عليه في خطئه وإن كان  
غير ممنور . وقالت فرقة : الحق في طرف واحد ولم ينصب الله تعالى عليه دلائل <sup>(١)</sup> وكل  
الأمر إلى نظر المجتهدين فمن أصابه أصاب ومن أخطأ فهو ممنور مأجور ، ولم يتعد بإصابته  
العين بل تعبدنا بالاجتهاد فقط . وقال جمهور أهل السنة وهو المحفوظ عن مالك وأصحابه  
رضي الله عنهم : إن الحق في مسائل الفروع في الطرفين ، وكل مجتهد مصيب ، والمطلوب  
إنما هو الأفضل في ظنه ، وكل مجتهد قد أناء نظره إلى الأفضل في ظنه ، والدليل على هذه  
المقالة أن الصحابة من بعدهم قزر بعضهم خلاف بعض ، ولم ير أحد منهم أن يقع الإجماع  
على قوله دون قول مخالفه . ومنه رد مالك رحمه الله للنصور أبي جعفر عن حل الناس على  
« الموطأ » ، فإذا قال عالم في أمر حلال فذلك هو الحق فيما يختص بذلك العالم عند الله تعالى  
وبكل من أخذ بقوله ، وكذا في العكس . قالوا : وإن كان سليمان عليه السلام فهم القضية  
المثل والتي هي أرجح فالأولى ليست بخطأ ، وعلى هذا يحملون قوله عليه السلام : « إذا اجتهد  
العالم فأخطأ » أي فأخطأ الأفضل .

الثامنة - روى مسلم وغيره عن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله صلى الله عليه  
وسلم قال : « إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله  
أجر » هكذا لفظ الحديث في كتاب مسلم « إذا حكم فاجتهد » فبدأ بالحكم قبل الاجتهاد ،  
والأمر بالعكس ؛ فإن الاجتهاد مقدم على الحكم ، فلا يجوز الحكم قبل الاجتهاد بالإجماع .  
وإنما معنى هذا الحديث : إذا أراد أن يحكم ، كما قال : « فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ » فعند

ذلك أراد أن يجتهد في النازلة . ويفيد هذا صحة ما قاله الأصوليون : إن المجتهد يجب عليه أن يعدد نظرا عند وقوع النازلة ، ولا يعتمد على اجتهاده المتقدم لإمكان أن يظهر له ثانياً خلاف ما ظهر له أولاً ، اللهم إلا أن يكون ذاكر دُرُكُانِ اجتهاده ، ماثلاً إليه ، فلا ينتج إلى استثاف نظر في أمانة أخرى .

التاسعة - إنما يكون الأجر للحاكم المخطئ إذا كان عالماً بالاجتهاد والسنن والقياس ، وقضاء من معنى ؛ لأنَّ اجتهاده عبادة ولا يُجر على الخطأ بل يوضع عنه الإثم فقط ، فاما من لم يكن محالاً للاجتهاد فهو متكف لا يصدر بالخطأ في الحكم ، بل يخاف عليه أعظم الوزر . يدل على ذلك حديثه الآخر ، رواه أبو داود : " التضيعة ثلاثة " الحديث . قال ابن المنذر : إنما يُجر على اجتهاده في طلب الصواب لا على الخطأ ، ومما يؤيد هذا قوله تعالى : « فَمَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ » الآية . قال الحسن : أنى على سليمان ولم يذم داود .

العاشرة - ذكر أبو التمام المالكي أن مذهب مالك أن الحق في واحد من أقاويل المجتهدين ، وليس ذلك في أقاويل المختلفين ، وبه قول أكثر الفقهاء . قال : وحكى ابن القاسم أنه سأل مالكا عن اختلاف الصحابة ، فقال : مخطئ ومصيب ، وليس الحق في جميع أقاويلهم . وهذا القول قيل : هو المشهور عن مالك وإليه ذهب محمد بن الحسين . واحتج من قال هذا بحديث عبد الله بن عمرو ؛ قالوا : وهو يص على أن المجتهدين في الحاكمين مخطئون ومصيبون ؛ قالوا : والقول بأن كل مجتهد مصيب يؤدي إلى كون الشيء حلالاً حراماً ، وواجباً نذياً . واحتج أهل المقالة الأولى بحديث ابن عمر .

قال : نادى فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم انصرف من الأحزاب " ألا لا يصلين أحد المصرا إلا في بني قريظة " فتخوف ناس من الوقت وعلوا دونه قريظة ، وقال الآخرون : لا يصل إلا حيث أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن فاتنا الوقت ، قال : فما عنف واحدا من الفريقين ؛ قالوا : فلو كان أحد الفريقين غشنا لعينه النبي صلى الله عليه وسلم . ويمكن أن يقال : لعله إنما سكت عن تعيين المخطئين لأنه غير آثم بل ماجور ؛

فاستغنى عن تعيينه . والله أعلم . ومسئلة الاجتهاد طويلة متشعبة ، وهذه النبذة التي ذكرناها كافية في معنى الآية ، والله الموفق للهداية .

الحادية عشرة - ويتعلق بالآية فصل آخر : وهو رجوع الحاكم بعد قضائه من اجتهاده إلى اجتهاد آخر لرجح من الأول ؛ فإن داود عليه السلام فعل ذلك . وقد اختلف في ذلك علماءنا رحمهم الله تعالى ؛ فقال جده الملك ومطرف في « الواضحة » : ذلك له ما دام في ولايته ؛ فاما إن كانت ولاية أخرى فليس له ذلك ، وهو بمسئلة غيره من القضاة . وهذا هو ظاهر قول مالك رحمه الله في « المدونة » . وقال سحنون في رجوعه من اجتهاد فيه قول إلى غيره مما رآه أصوب ليس له ذلك ؛ وقاله ابن حيد الحكم . قالوا : ويستأنف الحكم بما قوى عنده . قال سحنون : إلا أن يكون نسي الأئوى عنده في ذلك الوقت ، أو وهم لحكم بغيره فله نقضه ؛ وأما إن حكم بحكم هو الأئوى عنده في ذلك الوقت ثم قوى عنده غيره بعد ذلك فلا سبيل إلى تنقض الأول ؛ قاله سحنون في كتاب آبنسه . وقال أنشبه في تخاب ابن المواز : إن كان رجوعه إلى الأصوب في مال فله نقض الأول ، وإن كان في طلاق أو نكاح أو عتق فليس له نقضه .

قلت : رجوع القاضي عما حكم به إذا تبين له أن الحق في غيره ما دام في ولايته أولى . وهكذا في رسالة عمر إلى أبي موسى رضي الله عنهما ؛ رواها الدارقطني ، وقد ذكرناها في « الأعراف » ولم يغفل ؛ ومعى انجبة لظاهر قول مالك . ولم يختلف العلماء أن القاضي إذا قضى تجوزا وبخلاف أهل العلم فهو مبرود ، وإن كان على وجه الاجتهاد ؛ فاما أن يتعقب قاض حكم قاض آخر فلا يجوز ذلك له ؛ لأن فيه مضرة عظيمة من جهة نقض الأحكام ، وتبديل الحلال بالحرام ، وعدم ضبط قوانين الإسلام ؛ ولم يتعرض أحد من العلماء لنقض ما رواه الآخرون ؛ وإنما كان يحكم بما ظهر له .

الثانية عشرة - قال بعض الناس : إن داود عليه السلام لم يكن أنفذ الحكم وظهر له ما قال غيره . وقال آخرون : لم يكن حكما وإنما كانت فتيا

قلت : وهكذا تؤول فيما رواه أبو هريرة عنه عليه السلام أنه قال : بيننا أسراثن موهما  
أبناهما جاء اللثب فذهب بأبن أحدهما ، فقالت هذه لصاحبتها : إنما ذهب بأبنتك أنت .  
وقالت الأخرى : إنما ذهب بأبنتك ، فصاحتا إلى داود ، ففرض به للكبرى ، فخرجتا على  
سليمان بن داود عليهما السلام فأخبرناه ، فقال : آتوني بالسكين أشقه بينكما ، فقالت الصغرى :  
لا - يرحمك الله - هو أبنا ، ففرض به للصغرى ، قال أبو هريرة : إن سمعتُ بالسكين  
قط إلا يومئذ ، ما كنا نقول إلا المذبة ، أخرجه مسلم . فأما القول بأن ذلك من داود فبما فهو  
ضعيف ، لأنه كان النبي - صلى الله عليه وسلم - وفتياه حكم . وأما القول الآخر فيعد ،  
لأنه تعالى قال : « إِذْ يَحْكُمُ فِي الْحَرْثِ » فين أن كل واحد منهما كان قد حكم . وكذا  
قوله في الحديث : ففرض به للكبرى ، ين على إتمام القضاء وإنجازه . ولقد أبعد من قال :  
إنه كان من شرع داود أن يحكم به للكبرى من حيث هي كبرى ، لأن الكبر والصغر طرد  
محض عند الدعاوى كالطول والقصر والسواد والياض وذلك لا يوجب ترجيح أحد المتنازعين  
حتى يحكم له أو عليه لأجل ذلك . وهو مما يقطع به من فهم ما جاءت به الشرائع . والذي  
ينبغي أن يقال : إن داود عليه السلام إنما قضى به للكبرى لسبب اقتضى عنده ترجيح قولها .  
ولم يذكر في الحديث تعيينه إذ لم تدع حاجة إليه ، فيمكن أن الولد كان بيدها ، وعلم بمن الأخرى  
من إقامة البينة ، ففرض به لها إبقاء لما كان على ما كان . وهذا التأويل أحسن ما قيل في هذا  
الحديث . وهو الذي تشهد له قاعدة الدعاوى الشرعية التي يبعد اختلاف الشرائع فيها . لا يقال :  
فإن كان داود قضى بسبب شرعي فكيف ساع سليمان نقض حكمه ، فالجواب : أن سليمان عليه  
السلام لم يتعرض لحكم أبيه بالقض ، وإنما احتال حيلة لطيفة ظهر له بسببها صدق  
الصغرى ، وهي أنه لما قال : هات السكين أشقه بينكما ، قالت الصغرى : لا ، فظهر له من  
قرينة الشفقة في الصغرى ، وعدم ذلك في الكبرى ، مع ما عساه أنضاف إلى ذلك من القرائن  
ما حصل له العلم بصدقها فحكم لها . ولعله كان ممن سوغ له أن يحكم بعلمه . وقد ترجم  
النسائي على هذا الحديث « حكم الحاكم بعلمه » . وترجم له أيضا « السعة للحاكم أن يقول

لشيء الذي لا يقبله أَقْبَلُ لِيَسْتَيْنِ الحق . وترجم له أيضا « قضى الحاكم لا يحكم به غيره من هو مثله أو أجل منه » . ولعل الكبرى أعتقت بأن الولد للصغرى عند ما ولدت من سليمان الحزم والجد في ذلك ، قضى بالولد للصغرى ، ويكون هذا كما إذا حكم الحاكم باليمين ، فلما مضى ليحلف حضر من المستكرما أو وجب إقراره ، فإنه يحكم عليه بذلك الإقرار قبل اليمين ومدها ، ولا يكون ذلك من باب نقض الحكم الأول ، لكن من باب تبديل الأحكام بحسب تبديل الأسباب . والله أعلم . وفي هذا الحديث من الفقه أن الأنبياء سوغ لهم الحكم بالاجتهاد ، وقد ذكرناه . وفيه من الفقه استعمال الحكام الجليل التي تستخرج بها الحقوق ، وذلك يكون من قوة الذكاء والقطعة ، وممارسة أحوال الخلق ، وقد يكون في أهل الثغرى فراسة دينية ، وتوسعات نورية ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . وفيه الحجة لمن يقول : إن الأمم تستحق ، وليس مشهور مذهب مالك ، وليس هذا موضع ذكره . وعلى الجملة فقضاء سليمان في هذه القصة تضمنها مدحه تعالى له بقوله : « فَهَمَّانَا سُلَيْمَانَ » .

الثالثة عشرة - قد تقدّم القول في الحرث والحكم في هذه الواقعة في شرعنا : أن على أصحاب الحوائط حفظ حيواناتهم وزروعهم بالنهار ، ثم الضياع في الليل بالمتليات ، وبالقيمة في نوات القيم . والأصل في هذه المسئلة في شرعنا ما حكم به نبينا صلى الله عليه وسلم في ناقة البراء بن عازب . رواه مالك عن ابن شهاب عن حرام بن سعد بن محيصة : أن ناقة للبراء دخلت حائط رجل فأنسدت فيه ، فقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن على أهل الحوائط حفظها بالليل ، وأن ما أنسدت المواشي بالليل ضامنٌ على أهلها . هكذا رواه جميع الرواة مرسلًا . وكذلك رواه أصحاب ابن شهاب عن ابن شهاب ، إلا ابن عيينة فإنه رواه عن الزهري عن سعيد وحرام بن سعد بن محيصة : أن ناقةً قد كثر مثله بمكة . ورواه ابن أبي ذئب عن ابن شهاب أنه بائنه أن ناقة البراء دخلت حائط قوم ، مثل حديث مالك سواء ، إلا أنه لم يذكر حرام بن سعد بن عيص ولا غيره . قال أبو عمر : لم يصحح ابن أبي ذئب

شيئا، إلا أنه أقصد إسناده . ورواه عبد الرزاق عن معمر عن الزمري عن حرام بن عبيصة عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يتابع عبد الرزاق على ذلك وأنكروا عليه قوله من أبيه . ورواه ابن جريح عن ابن شهاب قال : حدثني أبو أمامة بن سهل بن حنيف أن ثاقبة دخلت في حائط قوم فأفسدت ، فجعل الحديث لابن شهاب عن أبي أمامة ، ولم يذكر أن الثاقبة كانت للبراء . وجاز أن يكون الحديث عن ابن شهاب عن ابن محينة ، وعن سعيد بن المسيب ، وعن أبي أمامة — والله أعلم — فحدثت به عن شاة منهم على ما حضره وكلهم نقات . قال أبو عمر : وهذا الحديث وإن كان مرسلًا فهو حديث مشهور أرسله الأئمة ، وحدثت به الثقات ، وأستعمله فقهاء الحجاز وتلقوه بالقبول ، وجرى في المدينة العمل به ، وحسبك باستعمال أهل المدينة وسائر أهل الحجاز لهذا الحديث .

الرابعة عشرة — ذهب مالك وجمهور الأئمة إلى القول بحديث البراء ، وذهب أبو حنيفة وأصحابه وجماعة من الكوفيين إلى أن هذا الحكم منسوخ ، وأن البهائم إذا أفستت زرعًا في ليل أو نهار أنه لا يلزم صاحبها شيء ، وأدخل فسادها في عموم قوله صلى الله عليه وسلم : "بُرح العجاء جبار" فقام جميع أعمالها على جرحها . ويقال : إنه ما تقدم إباحة أحد بهذا القول ، ولا حجة له ولا لمن أتبعه في حديث العجاء ، وكونه ناسخًا لحديث البراء ومعارضًا له ، فإن السح شروطه معدومة ، والتعارض إنما يصح إذا لم يمكن استعمال أحدهما إلا بنفى الآخر ، وحديث "العجاء جرحها جبار" عموم متفق عليه ، ثم خص منه الزرع والحواط بحديث البراء ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم لو جاء عنه في حديث واحد : العجاء جرحها جبار نهارًا لاليل وفي الزرع والحواط والحرث ، لم يكن هذا مستحيلًا من القول ، فكيف يجوز أن يقال في هذا متعارض ؟ أو إنما هذا من باب الموم والخصوص على ما هو مذكور في الأصول .

الخامسة عشرة — إن قيل : ما الحكمة في تفريق الشارع بين الليل والنهار ، وقد قال الليث بن سعد : يضمن أرباب المواشي بالليل والنهار كل ما أفستت ، ولا يضمن أكثر من قيمة الماشية ؟ قلنا : الفرق بينهما واضح ، وذلك أن أهل المواشي لم ضرورة إلى إرسال

مواسيم ترمى بالنهار، والأغلب عندهم أن من عنده زرع يتعامله بالنهار ويحفظه عن أراده،  
بفعل حفظ ذلك بالنهار على أهل الزروع؛ لأنه وقت التصرف في المعاش، كما قال الله سبحانه  
وتعالى : « وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا » فإذا جاء الليل فقد جاء الوقت الذي يرجع كل شيء إلى موضعه  
وسكنه ؛ كما قال الله تعالى : « مَنْ إِيَّاهُ غَيْرَ اللَّهِ بِإِسْمِكُمْ يَلْبِثُ تَسْكُنُونَ فِيهِ » وقال : « وَجَعَلَ  
اللَّيْلَ سَكَنًا » ويرد أهل المواشي مواسيمهم إلى مواضعهم ليحفظوها، فإذا فترط صاحب  
الماشية في ردها إلى مترله، أو فرط في ضبطها وحبسها عن الانتشار بالليل حتى أتلفت  
شيئا فليبه ضمان ذلك، بغرى الحكم على الأوفى الأسمى، وكان ذلك أرفق بالفريقين، وأسهل  
على الطائفتين، وأحفظ للساكن، وقد وضع الصبح لدى عينين، ولكن لسلم الحاسنين؛ وأما قول  
الليث : لا يضمن أكثر من قيمة الماشية، فقد قال أبو عمر : لا أعلم من أين قال هذا  
الليث بن سعد، إلا أن يجعله قياسا على العبد الخاني لا يفتك بأكثر من قيمته، ولا يلزم سيده  
في جنايته أكثر من قيمته، وهذا ضعيف الوجه؛ كذا قال في « التمهيد » وفي « الاستذكار »  
تغالف الحديث في « المعجاة بجرحها جبار » وخالف ناقة البراء، وقد تقدمه إلى ذلك طائفة من  
العلماء منهم عطاء . قال ابن جريح قلت لعطاء : الحرث تصيبه الماشية ليلا أو نهارا؟ قال :  
يضمن صاحبها ويغرم . قلت : كان عليه حظرا أو لم يكن ؟ قال : نعم ! يغرم . قلت :  
ما يغرم ؟ قال : قيمة ما أكل حماره ودابته وماشيته . وقال معمر بن أبى شبرمة : يقوم  
الزراع على حاله التي أصيب عليها دراهم . وروى عن عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز  
رضي الله عنهما : يضمن رب الماشية ليلا أو نهارا، من طرق لا تنصح .

السادسة عشرة - قال مالك : ويقوم الزرع الذي أفسدت المواشي بالليل على الرعاة  
والخولف . قال : والحواشي التي تحرس والتي لا تحرس، والمحظر عليها وغير المحظر سوله، يغرم  
أهلها ما أصابت بالليل بالتمام بلغ، وإن كان أكثر من قيمتها . قال : وإذا أهملت دابة  
بالليل فوطئت على رجل قائم لم يغرم صاحبها شيئا ، وإنما هذا في الحواشي والزرع والحرث ؛  
ذكره عنه ابن عبد الحكم . وقال ابن القاسم : ما أفسدت الماشية بالليل فهو في مال ربهما ،



وإن كان أضفاف ثمنها، لأن الجناية من قبله إذ لم يربطها، وليست الماشية كالمبيد؛ حكاة  
محنون وأصبح وأوزيد عن ابن القاسم .

السابعة عشرة - ولا يستأنى بالزرع أن ينبت أو لا ينبت كما يفعل في سن الصغير .  
وقال عيسى عن ابن القاسم: قيمته لو حل بيعه، وقال أشهب وابن نافع في المجموعة عنه: وإن  
لم يبد صلاحه، ابن العربي: والأوّل أقوى لأنها صفة تفقوم كما يقوم كل متلف على صفته .  
الثامنة عشرة - لو لم يقض للفدله بشيء حتى نبت وأنجبر فإن كان فيه قبل ذلك  
منفعة رعى أو شيء ضمن تلك المنفعة، وإن لم تكن فيه منفعة فلا ضمان . وقال أصبغ :  
يضمن؛ لأن التلف قد تحقق والجبر ليس من جهته فلا يعتد له به .

التاسعة عشرة - وقع في كتاب ابن محنون أن الحديث إنما جاء في أمثال المدينة التي  
هي حيطان معدقة، وأما البلاد التي هي زروع متصلة غير محطّرة، وبساتين كذلك، فيضمن  
أرباب النعم ما أفسدت من ليل أو نهار؛ كأنه ذهب إلى أن ترك تنقيف الحيوان في مثل  
هذه البلاد تعدّ لأنها ولا بد تفسد . وهذا جنوح إلى قول الليث .

الموفية عشرين - قال أصبغ في المدينة: ليس لأهل المواسي أن يخرجوا مواشيهم  
إلى قرى الزرع بفير ذؤاد؛ فركب العلماء على هذا أن البقرة لا تخلو أن تكون بقعة زرع،  
أو بقعة سرج، فإن كانت بقعة زرع فلا تدخلها ماشية إلا ماشية تجتاح، وعلى أربابها حفظها،  
وما أفسدت فصاحبها ضامن ليل أو نهاراً؛ وإن كانت بقعة سرج فعل صاحب الذي حرّثه  
فيها حفظه، ولا شيء على أرباب المواسي .

الحادية والعشرون - المواسي على قسمين: ضواري وحريسة وعليهما قسمها مالك .  
فالضواري هي المعتادة للزرع والتملح، فقال مالك: تُتْرَب وتباع في بلد لا زرع فيه؛ رواه  
ابن القاسم في الكتاب وغيره . قال ابن حبيب: وإن كره ذلك ربهما، وكذلك قال مالك  
في النابة التي ضريت في إفساد الزرع: تتْرَب وتباع . وأما ما يستطاع الاحتراس منه فلا  
يؤمر صاحبه بإخراجه .

الثانية والعشرون - قال أصبغ : النحل والحمام والإوز والدجاج كالماشية ، لا يمنع صاحبها من اتخاها وإن [ضربت<sup>(١)</sup>] ، وكل أهل القرية حفظ ذروهم . قال ابن العربي : وهذه رواية ضعيفة لا يفتد إليها من أراد أن يجد ما ينفع به عما لا يضرب به مكن منه ، وأما انتفاعه بما يتخذ به ضراره بأحد فلا سيل إليه . قال عليه السلام : " لا ضرر ولا ضرار " وهذه الضواري عن ابن القاسم في البيت لاضمان على أربابها إلا بعد التقدم . ابن العربي : وأرى الضمان عليهم قبل التقدم إذا كانت ضواري .

الثالثة والعشرون - ذكر عبد الرزاق عن معمر عن قتادة عن الشعبي أن شاة وقعت في غزل حائك فاخصموا إلى شريح ، فقال الشعبي : أنظروه فإنه سيألم ليلا وقعت فيه أو نهارا ، ففعل . ثم قال : إن كان بالليل ضنن ، وإن كان بالنهار لم يضمن ، ثم قرأ شريح « إِذْ تَقَرَّبْتَ فِيهِ غَمُّ الْقَوْمِ » قال : والنفس بالليل والمحمل بالنهار .

قلت : ومن هذا الباب قوله صلى الله عليه وسلم : " العجاء جرحها جبار " الحديث . وقال ابن شهاب : والجبار الحدر ، والعجاء البهيمة ، قال علماؤنا : ظاهر قوله : " العجاء جرحها جبار " أن ما انتردت البهيمة بإتلاسه لم يكن فيه شيء ، وهذا يجمع عليه . فلو كان معها قائد أو سائق أو راكب لحادها أحدهم على شيء فالتفتته لزمه حكم الملقط ، فإن كانت جنسية مضمونة بالتقصاص وكان الحمل عمدا كان فيه التقصاص ولا يتخلف فيه ، لأن الدابة كالآلة . وإن كان عن غير قصد كانت فيه الدية على الساقة . وفي الأموال الغرامة في مال الجاني .

الرابعة والعشرون - واختلفوا فيما أصابته برسلها أو ذنبها ، فلم يضمن مالك والليث والأوزاعي صاحبها ، وضمنه الشافعي وابن أبي ليلى وأبو ثور . واختلفوا في الضارية ففهموهم أنها كغيرها ، ومالك وبعض أصحابه يضمنونه .

الخامسة والعشرون - روى مغيان بن حسين عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الرجل جبار " قال الدارقطني : لم يروه

(١) في الأصل : « أضربت » . والتصويب من « الموطأ » .

غير سفيان بن حسين ولم يتاج عليه، وخالفه الحفاظ عن الزهري منهم مالك وابن حنبل وروني ومعر وابن جريح والزيدي وقيل وليث بن سعد، وغيرهم كلهم روه عن الزهري قالوا:  
 " المعجم جبار والبثر جبار والمعدن جبار " ولم يذكروا الرجل وهو المواب . وكذلك روى  
 أبو صالح السمان ، وعبد الرحمن الأصرح ، ومحمد بن سيرين ، ومحمد بن زيد وغيرهم عن  
 أبي هريرة ، ولم يذكروا فيه " والرجل جبار " وهو المحفوظ عن أبي هريرة .

السادة والمثرون — قوله : " والبثر جبار " قد روى موضعه " والنار " قال الفارغاني :  
 حدثنا حمزة بن القاسم الهاشمي حدثنا حنبل بن إسحق قال سمعت أبا عبد الله أحمد بن حنبل  
 يقول في حديث عبد الزاق : حديث أبي هريرة " والنار جبار " ليس بشيء لم يكن في الكتاب  
 باطل ليس هو بصحيح ، حدثنا محمد بن مخلد حدثنا إسحق بن إبراهيم بن هاني قال سمعت  
 أحمد بن حنبل يقول : أهل اليمن يكتبون النار ويكتبون البئر ؛ يبنى مثل ذلك . وإنما  
 لقن عبد الزاق " النار جبار " . وقال الرمادي : قال عبد الزاق قال معمر لا أراه إلا وهما .  
 قال أبو عمر : روى عن النبي صلى الله عليه وسلم حديث معمر عن هشام بن منه عن  
 أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " النار جبار " وقال يحيى بن معين : أصله  
 البثر ولكن معمرًا صحفه . قال أبو عمر : لم يأت ابن معين على قوله هذا بدليل ، وليس هكذا  
 نزد أحاديث الثقات . ذكر وكيع عن عبد العزيز بن حصين عن يحيى بن يحيى النساني قال :  
 أحرقت رجل ساق قراح له فخرجت شريرة من نار حتى أحرقت شيئًا بلحاره . قال : فكتب فيه  
 إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أن يرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم  
 قال : " المعجم جبار " وأرى أن النار جبار . وقد روى " والسائمة جبار " بثل المعجم فهذا  
 ماورد في ألفاظ هذا الحديث ولكل معنى لفظ صحيح مذكور في شرح الحديث وكتب الفقه .  
 قوله تعالى : ﴿ وَخَرَجْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجَبَالِ يُسَبِّحْنَ ﴾ قال وهب : كان داود يمر بالجبال مسبحًا  
 والجبال تجاوبه بالتسبيح ، وكذلك الطير وقيل : كان داود إذا وجد قطة أمر الجبال فسبحت

حتى يثاق، ولما قال : « وَتَحَرَّاهُ » أى جلتها بحيث تطيعه إذا أمرها بالتسبح . وقيل :  
إن سبعا منه تسويحها ، والتسبيح مأخوذ من السباحة ، دليله قوله تعالى : « يَا جِبَالُ أَوِّبِي  
مَعَهُ » . وقال قتادة : « يُسَبِّحُنَّ » يصلين معه إذا صلى ، والتسبيح للملاة . وكل محتمل .  
ونك فعل الله تعالى بها ، فكأن لبهال لا تفل عتسبها ثلاثة على تفرقه لله تعالى عن  
صفات العاجزين والمعتدين .

قوله تعالى : وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُؤْسٍ لِّكُرٍ لِّتُخْصِمَ مِنْ بَاسِكِرٍ فَهَلْ  
أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٥٠﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ( وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُؤْسٍ لِّكُرٍ ) أى أخذ الدروع بلالة الحديد  
« ، واللبوس عند العرب السلاح كله ؛ درعا كان أو جوشنا أو ميضا أو رما . قال المصنِّف<sup>(١)</sup>  
يصف رما :

وَبَيْنِي لَبُؤْسٌ لِلْبَيْتِ كَأَنَّهُ • رَوْقٌ يَجِبُهُ ذِي نَبَاجٍ مَجِيلٍ

واللبوس كل ما يلبس ، وأشد ابن السكيت<sup>(٢)</sup> :

الْبُؤْسُ لِكُلِّ حَالَةٍ لَبُؤْسَتَا • إِنَّمَا تَمِيهَا وَإِنَّمَا مَأْبُوسَتَا

وأراد الله تعالى هنا الدرع ، وهو بمعنى اللبوس نحو الزكوب والخلوب . قال قتادة : أول من  
صنع للدروع دلوذ . وإنما كانت صفائح ، فهو أول من سردها وحلقها .

الثانية - قوله تعالى : ( لِّتُخْصِمَ ) ليحزكم . ( مِنْ بَاسِكِرٍ ) أى من حربكم .  
وقيل : من السيف والسهم والرمح ، أى من آلة بأسكم لحذف المضاف . ابن عباس :  
« مِنْ بَاسِكِرٍ » من ملاحكم . الضحاك : من حرب أعدائكم . والمثنى واحد . وقرأ الحسن

(١) هو أبو بكر المصنِّف ، وأسمه طاهر بن الخليل من نصيدة أولها :

أزهر حل عن شية من سحل • أم لا حيل إلى الشباب الأول

والبيس : الشجاع . والروق : القرن . وذو نواج : بنى نورا ، والنواج : البقر من الوحش .

(٢) البيت ليس الغزالي . (٣) « ليخصم » بالياء قراءة ناصح .

وأبو جعفر وابن ماهر وحفص وروح « لِنُصِصْكُمْ » بالحاء ونا على الصفة . وقيل : على اللبوس والمنعة التي هي الدروع . وقرا شية وأبو بكر والمفضل ورويس وابن أبي إسحق « لِنُصِصْكُمْ » بالنون لقوله : « وَطَلَّاهُ » . وقرا الباقون بإلقاء جعلوا الفضل للبوس ، أو يكون المعنى ليحصنكم الله . ( فَوَلَّيْنَاكَ مَا كُرِهَتْ ) أى على تيسير نعمة الدروع لكم . وقيل : « قُلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ » بأن تطيعوا رسولى .

الثالثة — هذه الآية أصل في اتخاذه الصانع والأسباب ، وهو قول أهل القول والألأباب ، لا قول الجملة الأحياء المتكلمين بأن ذلك إنما شرع للضعفاء ، فالسبب من أنه في خلقه فمن طعن في ذلك فقد طعن في الكتاب والمنة ، ونسب من ذكره إلى الضعف وعدم المنة . وقد أخبر الله تعالى عن نبيه داود عليه السلام أنه كان يصنع الدروع ، وكان أيضا يصنع الخوص ، وكان يأكل من عمل يده ، وكان آدم حرانا ، ونوح نجارا ، ولهم خياطا ، وطالوت دباغا . وقيل : سقاء ، والصنعة يكف بها الإنسان نفسه عن الناس ، ويدفع بها عن نفسه الضرر والبأس . وفي الحديث : « إن الله يحب المؤمن المحترف الضعيف المتعفف » . السائل المخلص . وهما في هذا مزيد بيان في سورة « الفرقان » . وقد تقدم في غير ما آيه ، وفيه كفاية والحمد لله .

قوله تعالى : وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ الشَّجَابِينَ مَنْ يَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴿٨٢﴾

قوله تعالى : ( وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً ) أى وسخرنا لسليمان الريح عاصفة ، أى شديدة المهبوب . يقال منه : عاصفت الريح أى أشدت فهي ريح عاصف وعصوف . وفي لغة بني أسد : أعصفت الريح فهي مغيصة ومغيصة . والعصف الثبن نفس به شدة الريح ،

(١) راجع الموضع الثالث من تفسير قوله تعالى : « وما أرسلناك من المرسلين ... الخ » آية ٢٠ من سورة المائدة .

لأنها تمصفه بشدة تطيرها . وقرا عبد الرحمن الأضرع واللسي وأبو بكر « وَلِسْلَيَانِ الرَّيْحُ »  
 برفع الحاء على القطع مما قبله ، والمعنى ولسليان قسبر الريح ؛ ابتداء وخبر . ( تجزى  
 بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ لَمَّا بَارَكْنَا فِيهَا ) بنى القام . يروى أنها كانت تجرى به وباصحابه إلى  
 حيث أراد ، ثم ترقه إلى القام . وقال وهب : كان سليمان بن دلود إذا خرج إلى مجلسه  
 حكفت عليه الطير ، وقام له الجن والإنس حتى يجلس على سريره . وكان أمرا غزوا لا يقعد  
 من الغزو ؛ فلما أراد أن ينزو أمر بحشَب لمدت ووقع عليها الناس والدواب وآلة الحرب ،  
 ثم أمر العاصف فأفلك ذلك ، ثم أمر الرخاء فمرت به شهرا في رواحته وشهرا في غفوه ، وهو  
 معنى قوله تعالى : « تَجْرِي بِأَمْرِهِ رِخَاءَ حَيْثُ أَصَابَ » . والرخاء اللينة . ( وَكُنَّا يَكُلُ شَيْءٌ  
 مَالِينَ ) أى بكل شئ حملنا طلين بتدبيره .

قوله تعالى : ( وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَشُوعُونَ لَهُ ) أى وصغروا له من ينوصون ؛ يريد  
 تحت الماء أى يستخرجون له الجواهر من البحر . والنوص الذى ينوص فى البحر على اللؤلؤ ، وفعله النياصة .  
 ( وَيَحْمِلُونَ حِمْلًا دُونَ ذَلِكَ ) أى سوى ذلك من الفوص ؛ قاله الفراء . وقيل : يراد بذلك  
 الحلوب والتمثيل وغير ذلك مما يسخرهم فيه . ( وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ) أى لأعمالهم . وقال  
 الفراء : حافظين لهم من أن يفسدوا أعمالهم ، أو يبيعوا أحدا من بنى آدم فى زمان سليمان .  
 وقيل : « حافظين » من أن يهربوا أو يمتنوا . أو حفظناهم من أن يخرجوا من أمره . وقد  
 قيل : إن الحمام والنورة والطواحين والقوارير والصابون من استخراج الشياطين .

قوله تعالى : وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ  
 الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ  
 وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ ﴿٨٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ﴾ أي واذكر أيوب إذ نادى ربه. (أَيُّ سَيِّئِ الضَّرِّ) أي تأتي في بدني ضرر وفي مالي وأهلي. قال ابن عباس: سمي أيوب لأنه آب إلى الله تعالى في كل حال. وروى أن أيوب عليه السلام كان رجلاً من الروم ذا مال عظيم، وكان برّاً تقياً رحيماً بالمساكين، يكفل الأيتام والأرامل، ويكرم الضيف، ويبلغ ابن السيل، شاكرًا لأنعم الله تعالى، وأنه دخل مع قومه على جبار عظيم غاطبوه في أمر، فجعل أيوب يلين له في القول من أجل زرع كان له فاستحنته الله بذهاب ماله وأهله، وبالضرر في جسمه حتى تناثر لحمه وتدفقت جسمه، حتى أخرجه أهل قريته إلى خارج القرية، وكانت امرأته تخدمه. قال الحسن: مكث بذلك تسع سنين وستة أشهر. فلما أراد الله أن يفرج عنه قال الله تعالى له: «أَرْكُضْ بِرَجْلِكَ هَذَا فُغْصَلُ يَأْدُ وَشَرَابٌ» فيه شفاؤك، وقد وهبت لك أهلك ومالك وولدك ومثلهم معهم. وسبأني في «ص» ما للفسرين في قصة أيوب من نسيط الشيطان عليه، والرد عليهم إن شاء الله تعالى. واختلف في قول أيوب: «مَسَّنِيَ الضَّرُّ» على خمسة عشر قولاً: الأول — أنه وثب ليصل فلم يقدر على النهوض فقال: «مَسَّنِيَ الضَّرُّ» إخباراً عن حاله، لا شكوى لبلائه؛ ورواه أنس مرفوعاً. الثاني — أنه إقرار بالعجز فلم يكن متافياً للصبر. الثالث — أنه سبغناه أجراه على لسانه ليكون حجة لأهل البلاء بعده في الإنصاح بما يتول بهم. الرابع — أنه أجراه على لسانه لإلزامه في صفة الآدمي في الضعف عن تحمل البلاء. الخامس — أنه انقطع الوحي عنه أربعين يوماً غاف هجران ربه فقال: «مَسَّنِيَ الضَّرُّ». وهذا قول جمع من عمدة. السادس — أن تلامذته الذين كانوا يكتبون عنه لما أنقضت حاله إلى ما آتته إليه عوا ما كتبوا عنه، وقالوا: ما لهذا عند الله قدر؛ فاشتكى الضر في ذهاب الوحي والدين من أيدي الناس. وهذا مما لم يصح سنده. والله أعلم؛ قاله ابن العربي. السابع — أن دودة سقطت من لحمه فأخذها وردعا في موضعها ففقرته فصاح «مَسَّنِيَ الضَّرُّ» فقيل: أعلينا تصبر. قال ابن العربي: وهذا بعيد جداً

مع أنه غفر إلى قتل صحيح، ولا ميل إلى وجوده . الثامن - أن الدود كان يتناول بدنه فصبر حتى تلتوت دودة قلبه وأخرى لسانه ، فقال : « مَسْنَى الضُّرُّ » لاستفاله عن ذكر الله . قال ابن العربي : وما أحسن هذا لو كان له سند ولم تكن دعوى عريضة .

التاسع - أنه أهتم عليه جهة أخذ البلاء له هل هو تأديب ، أو تعذيب ، أو تخصيص ، أو تحجيص ، أو فخر أو طهر ، فقال : « مَسْنَى الضُّرُّ » أي ضرر الإشكال في جهة أخذ البلاء . قال ابن العربي : وهذا ظن لا يحتاج إليه . العاشر - أنه قيل له سل الله العافية فقال : أفت في التعم سبعين سنة وأقيم في البلاء سبع سنين وحيث أن الله قال : « مَسْنَى الضُّرُّ » . قال ابن العربي : وهذا ممكن ولكنه لم يصح في إقامته مدة خبر ولا في هذه القصة . الحادي عشر - أن ضره قول إبليس لزوجه أسجدى لي تخاف ذهاب الإيمان عنها تهلك ويقتل بنو كافل . الثاني عشر - لما ظهر به البلاء قال قومه : قد أضر بنا كونه معنا وقدره فليخرج عنا ، فانرجته أمرأته إلى ظاهر البلد ؛ فكانوا إذا خرجوا رأوه وتطهروا به وتشاءموا برؤيته ، فقالوا : ليعمد بحيث لا نراه . فخرج إلى بعد من القرية ، فكانت أمرأته تقوم عليه وتحمل قوته إليه . فقالوا : إنما تناولوه وتحالطوا فيعود بسببه ضره إليها . فأرادوا قطعها عنه ؛ فقال : « مَسْنَى الضُّرُّ » . الثالث عشر - قال عبد الله بن عبيد بن عمير : كان لأبيوب أخوان فأتياه فقاما من بعيد لا يقدران أن يدنوا منه من تن ريحه ، فقال أحدهما : لو علم الله في أبواب خيرا ما ابتلاه بهذا البلاء ؛ فلم يسمع شيئا أشد عليه من هذه الكلمة ؛ فعند ذلك قال : « مَسْنَى الضُّرُّ » ثم قال : « اللهم إني كنت تعلم أني لم أبت شعبان قط وأنا أعلم مكان جائع فصدقتني » فنادى من السماء « أن صدق عبي » وهما يسعدان نفرا ساجدين .

الرابع عشر - أن معنى « مَسْنَى الضُّرُّ » من شناعة الأعداء ؛ ولهذا قيل له : ما كان أشد عليك في بلائك ؟ قال شناعة الأعداء . قال ابن العربي : وهذا ممكن فإن الكلام قد ماله أخوه العافية من ذلك فقال : « إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشَمِّتْ بِي الْأَعْدَاءُ » .

الخامس عشر - أن أمرأته كانت ذات ذنوب فعرفت حين منعت أن تتصرف لأحد بسببه



ما تعود به عليه، فقطعت ذوائبها واشترت بها ممن يصلها قوتا وجاءت به إليه، وكان يصنع بذوائبها في تصرفه وتنقله، فلما عدها وأراد الحركة في تنقله لم يقدر قال: «مَسَّنِيَ الضُّرُّ» .  
وقيل: إنها لما اشترت القوت بذوائبها جاءه إبليس في صفة ويل وقال له: إن أمك بنت فأخذت وساق شعرها . خلف أيوب أن يعللها؛ فكانت المحنة على قلب المرأة أشد من المحنة على قلب أيوب .

قلت: وقول سادس عشر - ذكره ابن المبارك: أخبرنا يونس بن يزيد عن حنبل عن ابن شهاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر يوما أيوب النبي صلى الله عليه وسلم وما أصابه من البلاء؛ الحديث . وفيه أن بعض إخوانه ممن صابره ولازمه قال: يا نبي الله لقد أغشى أمرك وذكرته إلى أخيك وصاحبك . أنه قد ابتلاك بنهاب الأهل والمال وفي جسدك، منذ ثمانية عشرة سنة حتى بلغت ماري؛ ألا يرحم فيكتشف عنك! لقد أذنت ذنبا ما أظن أحداً يلهه! فقال أيوب عليه السلام: «ما أدري ما يقولان غير أن ربي عز وجل يعلم أتي كذا» . أمر على الرجلين يتراعمان وكل يحلف بالله - أو على الفريزاعمون - فأقلب إلى أهل فأكفر عن أيمانهم إرادة ألا يأم أحد ذكره ولا يذكره أحد إلا بالحق «فنادى ربه (أَنْتَ مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) وَإِنَّمَا كَانَ دَعَاؤُهُ عَرَضًا عَرَضَهُ عَلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَجْزِيهِ بِالَّذِي بَانَتْهُ، صَابِرًا لِمَا يَكُونُ مِنَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِيهِ . وذكر الحديث . وقول سابع عشر - سمعته ولم أقف عليه أن دودة سقطت من جسده فطلبها ليردها إلى موضعها فلم يجدها فقال: «مَسَّنِيَ الضُّرُّ» . لما فقد من أجر ألم تلك الدودة، وكان أراد أن يسبق له الأجر موغرا إلى وقت المانية، وهذا حسن إلا أنه يحتاج إلى سند. قال العلماء: ولم يكن قوله «مَسَّنِيَ الضُّرُّ» جزعا؛ لأن الله تعالى قال: «إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا» . بل كان ذلك دهاء منه، والجزع في الشكوى إلى الخلق لا إلى الله تعالى، والدعاء لا ينافي الرضا . قال الثعلبي سمعت أستاذنا أبا القاسم بن حبيب يقول: حضرت مجلسا غاصا بالفقهاء والأدباء في دار السلطان، فسئلت عن هذه الآية بعد إجماعهم على أن قول أيوب كان شكاية وقد قال الله تعالى: «إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا» .

قلت : ليس هذا شكية وإنما كان دعاء ؛ بيانه ( فاستجبت له ) والإجابة تتبع الدعاء لا الاشتكاه . فاستحسنوه ولرخصوه . وسئل الجنيدي عن هذه الآية فقال : عرفه فافقه السؤال فيمن عليه بكم القول .

قوله تعالى : ( فَكَفَعْنَا مَا يَدِ مِنْ ضُرِّوآئِنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ ) قال مجاهد وعكرمة قيل لأيوب صلى الله عليه وسلم : قد آتيناك أهلك في الجنة فإن شئت تركناهم لك في الجنة وإن شئت آتيناكهم في الدنيا . قال مجاهد : فتركهم الله عز وجل له في الجنة وأعطاه مثلهم في الدنيا . قال النحاس : والإستاد عنهما بذلك صحيح .

قلت : وحكاها المهدوي عن ابن عباس . وقال الضمك : قال عبد الله بن مسعود كان أهل أيوب قد ماتوا إلا أمرأته فأحياهم الله عز وجل في أقل من طرف البصر ، وآتاه مثلهم معهم . وعن ابن عباس أيضا : كان بنوه قد ماتوا فأحياهم الله عز وجل له مثلهم معهم . وقاله قتادة وكعب الأحبار والكلبي وغيرهم . قال ابن مسعود : مات أولاده وهم سبعة من أولاد وسبعة من الإناث فلما عوفي نشرهم الله ، وولدت أمرأته سبعة بنين وسبع بنات . فلهذا : وهذا القول أشبه بظاهر الآية .

قلت : لأنهم ماتوا ابتلاء قبل آجالهم حسب ما تقدم بيانه في سورة « البقرة » في قصة « الَّذِينَ نَجَّيْنَاهُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أَلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ » . وفي قصة السبعين الذين أخذتهم الصمعة فماتوا ثم أحياهم ؛ وذلك أنهم ماتوا قبل آجالهم ، وكذلك هنا والله أعلم . وعلى قول مجاهد وعكرمة يكون المعنى : « وآتيناهم أهله » في الآخرة « ومثلهم معهم » في الدنيا . وفي الخبر : إن الله يبعث إليه جبريل عليه السلام حين ركض برجله على الأرض ركضة فظهور عين ماء حار ، وأخذ بيده وقضه فقتلت عنه الديدان ، وغاص في الماء غوصة فثبت لحمه وعاد إلى بئرله ، ورد الله عليه أهله ومثلهم معهم ، ونشأت صحابة على قدر قواصده داره فامطرت ثلاثة أيام لياليها جرادا من ذهب . فقال له جبريل : أشبعت ؟ فقال : ومن

(١) راجع ج ٢ ص ٢٣٠ طبة أول وثانية .

(٢) راجع ج ١ ص ٤٠٤ ثانية وأربعة و ٧ ص ٢٩٥ طبة أول وأثانية .

ينسج من الله ! فضل . فأوحى الله إليه : قد أثبت عليك بالصبر قبل وقوعك في البلاء وبعده ،  
ولولا أنى وضعت تحت كل شجرة منك صبرا ما صبرت . ( رَحْمَةً مِنْ عِنْدَنَا ) أى فلما  
ذلك به رحمة من عندنا . وقيل : ابتلياه ليعلمن ثوابه خدا . ( وَذَكَرَى لِلْعَايِدِينَ )  
أى وتذكيرا للعباد ؛ لأنهم إذا ذكروا بلاء أيوب وسبره طيه ومغته له وهو أفضل أهل زمانه  
وطنوا أنفسهم على الصبر على شدائد الدنيا نحو ما فعل أيوب ، فيكون هذا تنبيها لهم على إقامة  
العبادة ، واحتمال الضرر . واختلف في مدة إقامته في البلاء ؛ فقال ابن عباس : كانت مدة  
البلاء سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ليل . وهب : ثلاثين سنة . الحسن سبع  
سنين وستة أشهر . قلت : وأصح من هذا والله أعلم ثمانى عشرة سنة ، ورواه ابن شهاب عن  
النبي صلى الله عليه وسلم ، ذكره ابن المبارك وقد تقدم .

قوله تعالى : **وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ** ﴿٨٥﴾  
**وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ** ﴿٨٦﴾

قوله تعالى : ( **وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ** ) وهو أخنوخ وقد تقدم ( **وَذَا الْكِفْلِ** ) أى  
وآذ كرم . وخرج للترمذى الحكيم في « نواذر الأصول » وغيره من حديث ابن عمر عن النبي  
صلى الله عليه وسلم قال : « كان في بني إسرائيل رجل يقال له ذو الكفل لا يتورع من ذنب  
عمله فأتبع امرأته فأعطاه سنين ديناراً [ على أن يظاًها<sup>(١)</sup> ] فلما قعد منها مقعد الرجل من أمراته  
لوتعدت وبكت فقال ما يبكيك قالت من هذا العمل والله ما عملته قط قال أأكرهتك  
قالت لا ولكن حلني عليه الحاجة قال اذهبي فهو لك والله لا أعصى الله بعدها أبدا ثم مات  
من ليلته فوجدوا مكتوبا على باب داره إن الله قد غفر لذي الكفل » وخرجه أبو عيسى  
الترمذى أيضا . ولفظه عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم  
يحديث حديثا لو لم أسمعه إلا مرة أو مرتين - حتى عد سبع مرات - [ لم أحدث به<sup>(٢)</sup> ]  
ولكني سمعته أكثر من ذلك ؛ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « كان

(١) الزيادة من « المثلث » . (٢) الزيادة من صحيح الترمذى .

فَو الْكُفْلُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا يَتَوَرَّعُ مِنْ ذَنْبِ عَمَلِهِ فَأَتَتْهُ أَمْرَأَةٌ فَأَعطَاهَا سَبِينَ دِينَارًا عَلَّ  
 أَنْ يَطْلُمَا فَلَمَّا قَعَدَ مِنْهَا مَقْعَدَ الرَّجُلِ مِنْ أَمْرَأَتِهِ ارْتَصَدَتْ وَبَكَتْ وَقَالَتْ مَا يَكِيدُكَ الْكَرْهَكُ  
 قَالَتْ لَا وَلَكِنَّهُ عَمِلَ مَا عَمِلْتُمْ قَطُّ وَمَا حَلَنِي عَلَيْهِ إِلَّا الْحَاجَةُ فَقَالَ تَفْطِنِينَ أَنْتَ هَذَا وَمَا  
 فَضَّلْتَ أَذْهَبِي نَهْضِي لَكَ وَقَالَ وَهَلْ لَا أَعْصِي اللَّهَ بِسُلْطَانِهِ أَبَدًا لَنْتَ مِنْ لَيْلَةٍ فَاصْبِرِي مَكْتُوبٌ  
 عَلَيَّ بِأَنَّهُ إِنْ اللَّهَ قَدْ غَفَرَ لَدُنَى الْكُفْلِ قَالَ : حَدِيثٌ حَسَنٌ . وَقِيلَ إِنَّ الْبَيْعَ لِمَا كَبُرَ قَالَ :  
 لَوْ اسْتَخَفَّتْ رَجُلًا عَلَى النَّاسِ حَتَّى أَنْظُرَ كَيْفَ يَعْمَلُ . فَقَالَ : مَنْ يَتَكْفَلُ لِي بِثَلَاثَ : بِصِيَامِ  
 النَّهَارِ وَقِيَامِ اللَّيْلِ وَالْأَبْغَضِ وَهُوَ يَقْضِي ؟ قَالَ وَجُلُ مِنْ ذُرِّيَةِ الْبَيْضِ : أَنَا ؛ فَرَدَّهُ ثُمَّ  
 قَالَ مِثْلَهَا مِنَ الْفَدَى ؛ فَقَالَ الرَّجُلُ : أَنَا ؛ فَاسْتَخْلَفَهُ فَوْقَ فَأَتَى اللَّهَ عَلَيْهِ فَسَمِيَ ذَا الْكُفْلِ ؛ لِأَنَّهُ  
 تَكْفَلُ بِأَمْرِ ؛ قَالَ أَبُو مُوسَى وَجَاهِدُ وَقَتَادَةُ . وَقَالَ عَمْرُو بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَرِثِ وَقَالَ  
 أَبُو مُوسَى عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنْ ذَا الْكُفْلِ لَمْ يَكُنْ نَبِيًّا ، وَلَكِنَّهُ كَانَ عَبْدًا صَالِحًا  
 فَتَكْفَلُ بِعَمَلِ رَجُلٍ صَالِحٍ عِنْدَ مَوْتِهِ ، وَكَانَ يَصِلُ اللَّهُ كُلَّ يَوْمٍ مِائَةَ صَلَاةٍ فَأَحْسَنَ اللَّهُ الثَّناءَ عَلَيْهِ .  
 وَقَالَ كُتُبٌ : كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مَلِكٌ كَافِرٌ فَزَيَّرَ بِلَادَهُ رَجُلٌ صَالِحٌ فَقَالَ : وَاللَّهِ إِنْ خَرَجْتَ  
 مِنْ هَذِهِ الْبِلَادِ حَتَّى أَعْرِضَ عَلَى هَذَا الْمَلِكِ الْإِسْلَامَ . فَعَرَضَ عَلَيْهِ فَقَالَ : مَا جَزَاءُ ؟ قَالَ :  
 الْجَنَّةُ - وَوَصَفَهَا لَهُ - قَالَ : مَنْ يَتَكْفَلُ لِي بِذَلِكَ ؟ قَالَ : أَنَا ؛ فَأَسْلَمَ الْمَلِكُ وَتَخَلَّى  
 عَنْ الْمَمْلُوكَةِ وَأَقْبَلَ عَلَى طَاعَةِ رَبِّهِ حَتَّى مَاتَ ، فَدُفِنَ فَأَصْبَحُوا فَوْجِدُوا يَدَهُ خَارِجَةً مِنَ الْقَبْرِ  
 وَفِيهَا رَقْعَةٌ خَضْرَاءُ مَكْتُوبٌ فِيهَا بِنُورٍ أبيض : إِنْ اللَّهَ قَدْ غَفَرَ لِي وَأَدْخَلَنِي الْجَنَّةَ وَوَقَّعَ عَنْ كِفَالَةِ  
 فُلَانٍ ؛ فَاسْرُحْ النَّاسَ إِلَى ذَلِكَ الرَّجُلِ بَانَ يَأْخُذُ عَلَيْهِمُ الْإِيمَانَ ، وَيَتَكْفَلُ لَهُمْ بِمَا تَكْفَلُ بِهِ  
 لِلَّهِ ، فَفَعَلَ ذَلِكَ فَأَمَنُوا كُلَّهُمْ فَسَمِيَ ذَا الْكُفْلِ . وَقِيلَ : كَانَ رَجُلًا عَفِيفًا يَتَكْفَلُ بِشَأْنِ  
 كُلِّ إِنْسَانٍ وَقَعَ فِي بَلَاءٍ أَوْ تَهْمَةٍ أَوْ مَطَالِبَةٍ فَيَنْجِيهِ اللَّهَ عَلَى يَدَيْهِ . وَقِيلَ : سَمِيَ ذَا الْكُفْلِ لِأَنَّهُ  
 اللَّهُ تَعَالَى تَكْفَلُ لَهُ فِي سَمِيهِ وَعَمَلِهِ بِضَعْفِ عَمَلِ غَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ كَانُوا فِي زَمَانِهِ .  
 وَالْجَاهُورُ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ بِنَبِيٍّ . وَقَالَ الْحَسَنُ : هُوَ نَبِيٌّ قَبْلَ الْيَاسِ . وَقِيلَ : هُوَ زَكْرِيَّا بِكَفَالَةِ  
 صَرِيمٍ . ( كُلُّ مَنْ الصَّابِرِينَ ) أَيُّ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ وَالتَّيَامِ بِطَاعَتِهِ وَاجْتِنَابِ مَعَاصِيهِ . ( وَأَدْخَلْنَاهُمْ  
 فِي رَحْمَتِنَا ) أَيُّ فِي الْجَنَّةِ ( إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ) .

قوله تعالى : **وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ** ﴿٨٧﴾ **فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ** ﴿٨٨﴾

قوله تعالى : **( وََذَا النُّونِ )** أى وأذكر ذ النون ، وهو لقب ليونس بن متى لا يتلحظ النون إياه . والنون الحوت . وفي حديث عثمان رضى الله عنه أنه رأى صيا يلعب فقال : دتموا نوتته كي لا تصيبه العين . وروى ثعلب عن ابن الأعرابي : النونة الثقبه التى تكون فى ذقن الصبي الصغير ، ومعنى دتموا سودوا . **( إِذْ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا )** قال الحسن والشعبي وسعيد بن جبير : مغاضبا لربه عز وجل . واختاره الطبري والقتي واستحسنه المهدوى ، وروى عن ابن مسعود . وقال النحاس : وربما أنكر هذا من لا يعرف اللغة وهو قول صحيح . والمعنى : مغاضبا من أجل ربه ، كما تقول : غضبت لك أى من أجلك . والمؤمن ينضب لله عز وجل إذا غصى . وأكثر أهل اللغة ينضب إلى أن قول النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة : " أشترطى لم الولاء " . من هذا . وبلغ القتي فى نصره هذا القول . وفى الخبر فى وصف يونس : إنه كان ضيق الصدر فلما حمل أعباء النبوة تفسخ تحتها تفسخ <sup>(١)</sup> الربع تحت الحمل الثقيل ، ففضى على وجهه مضى الأبق الناذ . وهذه المغاضبة كانت صغيرة . ولم ينضب على الله ولكن غضب لله إذ رفع العذاب عنهم . وقال ابن مسعود : أبى من ربه أى من أمر ربه حتى أمره بالود إليهم بعد رفع العذاب عنهم . فإنه كان يتوعد قومه بتزول العذاب فى وقت معلوم ، وخرج من عندهم فى ذلك الوقت ، فأظلمهم العذاب فتضرعوا فرفع عنهم ولم يعلم يونس بتوبتهم ؛ لذلك ذهب مغاضبا وكان من حقه ألا ينهب إلا بإذن محدد . وقال الحسن : أمره الله تعالى بالمسير إلى قومه فسأل أن ينظر ليأهب ، فأعجله الله حتى سأل أن يأخذ فلا ليلبسها فلم ينظر ، وقيل له : الأمر أعجل من ذلك — وكان فى خلقه ضيق — نخرج مغاضبا لربه ؛ فهذا قول وقول

(١) الريح : ماله من الإبل فى الريح .

الشماس أحسن ما قيل في تأويله . أى خرج مغاضبا من أجل ربه ، أى غضب على قومه من أجل كفرهم بربه . وقيل : إنه غاضب قومه حين طال عليه أمرهم وتعتهم فذهب فآزأ بنفسه ، ولم يصبر على أذلم وقد كان الله أمره بملازمتهم والدعاء ، فكان ذنبه نروجه من بينهم من غير إذن من الله . روى معناه عن ابن عباس والضحاك ، وأن يونس كان شابا ولم يحمل إتهال للنبوّة ، ولهذا قيل للنبي صلى الله عليه وسلم : « وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ » . وعن الضحاك أيضا خرج مغاضبا لقومه ، لأن قومه لما لم يقبلوا منه وهو رسول من الله عز وجل كفروا بهذا فوجب أن يغضبهم ، وعلى كل أحد أن يغضب من عصى الله عز وجل . وقالت فرقة منهم الإخفش : إنما خرج مغاضبا لللك الذى كان على قومه . قال ابن عباس : أراد شعيا النبي لراملك الذى كان في وقته اسمه حزقيا أن يبعثوا يونس إلى ملك يننوى ، وكان حزقيا بنى إسرائيل وسبي الكثير منهم ليكله حتى يرسل معه بنى إسرائيل ، وكان الأنياء في ذلك الزمان يوحى إليهم ، والأمر والسياسة إلى ملك قد اختاروه ، فيعمل على وحى ذلك النبي ، وكان أوحى الله لشعيا : أن قل لحزقيا الملك أن يختار نيا قويا أميناً من بنى إسرائيل فيبعثه إلى أهل يننوى فيأمرهم بالتخيلة عن بنى إسرائيل فإني ملق في قلوب ملوكهم وجبابرهم التخيلة عنهم . فقال يونس لشعيا : هل أمرك الله بإخراجي ؟ قال : لا . قال : فهل سماني للمي ؟ قال : لا . قال فهاتها أنبياء أمناء أقوياء . فالحوا عليه فنخرج مغاضبا للنبي والملك وقومه ، فأتى بحر الروم وكان من قصته ما كان ؛ فابتلى ببطن الحوت لتركه أمر شعيا ؛ ولهذا قال الله تعالى : « فَالْتَقِمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ » والمليم من فعل ما يلام عليه . وكان ما فعله إما صغيرة أو ترك الأولى . وقيل : خرج ولم يكن نيا في ذلك الوقت ولكن أمره ملك من ملوك بنى إسرائيل إن يأتي يننوى ؛ ليدعو أهلها بأمر شعيا فأنف أن يكون ذهابه إليهم بأمر أحد غير الله ، فنرج مغاضبا لللك ؛ فلما نجى من بطن الحوت بعثه الله إلى قومه فدعاهم وآمنوا به . وقال القشيري : والأظهر أن هذه المخاضبة كانت بعد إرسال الله تعالى إياه ، وبعد رفع العذاب عن القوم بعد ما أظلمهم ؛ فإنه كره رفع العذاب عنهم .

قلت : هذا أحسن ما قيل فيه على ما يأتي بيانه في « والصافات » إن شاء الله تعالى .  
 وقيل : إنه كان من أخلاق قومه قتل من جربوا عليه الكذب نفسي أن يقتل فغضب ،  
 ونرج قاترا على وجهه حتى ركب في سفينة فسكنت ولم تبحر . فقال أهلها : أنيكم أبي ؟  
 فقال : أنا هو . وكان من قصته ما كان ، وأبشلى بطن الحوت تحبسا من الصغيرة كما قال  
 في أهل أريد : « حَتَّىٰ إِنَّا قَتَلْتُمُ » إلى قوله : « وَيَخْتَصُّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا » فعاصى الأنبياء  
 منفورة ، ولكن قد يحرى تحبص ويتضمن ذلك زجرا عن المماودة . وقول وابع : إنه لم  
 يغضب ربه ، ولا قومه ، ولا الملك ، وأنه من قولهم غضب إذا آف . وقَالَ قد يكون من  
 واسد ، فالمعنى أنه لما ومد قومه بالذئاب ونرج منهم تابرا وكشف عنهم العذاب ، فلما رجع  
 ولم أنهم لم يهلكوا آف من ذلك نخرج آفا . وينشد هذا البيت ،  
 • وأغضب أن تُجنى تم بدارم •

أى آف . وهذا فيه نظر ، فإنه يقال لصاحب هذا القول : إن تلك الغاضبة وإن  
 كانت من الأتمة ، فالأفة لابد أن يخاطبها الغضب وذلك الغضب وإن دق على من كان ؟  
 وأنت تقول لم يغضب على ربه ولا على قومه !

قوله تعالى : ( فَظَنُّوا أَنْ لَنْ تَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ ) قيل : معناه آسره إبليس  
 ووقع في ظنه إمكان ألا يقدر الله عليه بمقاوته . وهذا قول مردود مرغوب عنه ، لأنه كفر .  
 روى عن سعيد بن جبير حكاه عنه المهدوي ، والثعلبي عن الحسن . وذكر الثعلبي وقال عطاء  
 وسعيد بن جبير وكثير من العلماء معناه : ظن أن لن نصيق عليه . قال الحسن : هو من قوله  
 تعالى : « اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ » أى يضيق . وقوله : « وَمَنْ قَدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ » .  
 قلت : وهذا الأشبه بقول سعيد والحسن . وقدر وقدر وقتر وقتر بمعنى ، أى ضيق وهو  
 قول ابن عباس فيما ذكره الماوردي والمهدوي . وقيل : هو من القدر الذى هو القضاء والحكم ،  
 أى ظن أن لن تقضى عليه بالعقوبة ، قاله قتادة ومجاهد والقراء . ماخوذ من القدر وهو الحكم

قوله القعدة والاستطاعة . وروى عن أبي العباس أحمد بن يحيى تطلب ، أنه قال في قول الله عز وجل : « قَطَّنْ أَنْ لَنْ يَقْدَرَ عَلَيْهِ » هو من التقدير ليس من القعدة ، يقال منه : قدَّر الله لك الخير بقدره قدرا ، بمعنى قدر الله لك الخير . وأشد تطلب :

فليست حُشَيَات اللَّوْى بِرَوَاجِع . لنا أبدا ما أوردك السَّلمَ النَّضْرُ

ولا غائد ذلك الزمان الذي مهي . تباركت ما تهدر بغيرك الشكر

يعنى ما تهدرته وتغضى به بغير . وعلى هذين التاويلين العاسله . وقرأ عمر بن عبد العزيز والزمري : « قَطَّنْ أَنْ لَنْ يَقْدَرَ عَلَيْهِ » بضم النون وتشديد الدال من التقدير . وحكى هذه القراءتان للملوك من ابن عباس . وقرأ عبيد بن عمير وقناة والأعرح : « وَأَنْ لَنْ يَقْدَرَ عَلَيْهِ » يهزم قيامه على الفعل المجهول . وقرأ يعقوب وعبد الله بن أبي إسحق والحسن وابن عباس أيضا « يَقْدَرَ عَلَيْهِ » بياء مضمومة وفتح الدال محققا على الفعل المجهول . وعن الحسن أيضا « قَطَّنْ أَنْ لَنْ يَقْدَرَ عَلَيْهِ » . بالاقون « يَقْدَرُ » بفتح النون وكسر الدال وكله بمعنى التقدير . قلت : وهذان التاويلان تأولهما العلماء في قول الرجل الذي لم يعمل خيرا قط لأهله إذا مات لحرقوه « فوالله لئن قدر الله على » الحديث فعلى التاويل الأول يكون تقديره : والله لئن ضيق الله على وبالغ في محاسبي وجرأى على ذنوبي ليكون ذلك ، ثم أمر أن يحرق بإفراط خوفا . وعلى التاويل الثاني : أى لئن كان سبق في قدر الله وقضائه أن يذهب كل ذى جرم على جرمه ليعذب الله على إجرامى وذنوبى عذابا لا يذهب أحدا من العالمين غيرى . وحديثه نرجه الأئمة في الموطأ وغيره . والرجل كان مؤمنا موحدًا . وقد جاء في بعض طرقه « لم يعمل خيرا إلا التوحيد » وقد قال حين قال الله تعالى : لم فعلت هذا ؟ قال : من خشيتك يا رب . والخشية لا تكون إلا للمؤمن مصدق ؛ قال الله تعالى : « إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ » . وقد قيل : إن معنى « قَطَّنْ أَنْ لَنْ يَقْدَرَ عَلَيْهِ » الاستفهام وتقديره : أظن ، لحذف ألف الاستفهام إيذنا بوجوه قول سليمان<sup>(١)</sup> [أبو] المعتمر . وحكى القاضي منذر بن سعيد : أن بعضهم قرأ « أظن » بالألف .

(١) في الأصل « سليمان بن المعتمر » وهو مخرب والصواب من « تهاب القلب » .



قوله تعالى : ( فَتَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ )  
فأما مستثنى :

الأول - قوله تعالى : « فَتَادَى فِي الظُّلُمَاتِ » ، اختلف العلماء في جمع الظلمات ما المراد به ، فقالت فرقة منهم ابن عباس وقتادة : ظلمة الليل . وظلمة البحر ، وظلمة الحوت . وذكر ابن أبي الدنيا حدثنا يوسف بن موسى حدثنا عبد الله بن موسى عن إسرائيل عن أبي إسحق عن عمرو بن ميمون قال حدثنا عبد الله بن مسعود في بيت المال قال : لما ابتلع الحوت يونس عليه السلام أهوى به إلى قرار الأرض ، فسمع يونس تسبيح الحمى فتأدى في الظلمات ظلمات ثلاث : ظلمة بطن الحوت ، وظلمة الليل ، وظلمة البحر . « أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ » « فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ » كهيئة الفرس المعسوط الذي ليس عليه ريش . وقالت فرقة منهم سالم بن أبي الجعد : ظلمة البحر ، وظلمة حوت التتم الحوت الأول . ويصح أن يبر بالظلمات عن جوف الحوت الأول فقط ، كما قال : « فِي غِيَابَاتِ الْجُبِّ » و في كل جهاته ظلمة بجمعها سائق . وذكر الماوردي : أنه يحتمل أن يبر بالظلمات من ظلمة الخلطية ، وظلمة الشدة ، وظلمة الوحدة . وروى : أن الله تعالى أوحى إلى الحوت : « لَا تَوَدَّ مِنْهُ شُعْرَةً فَانْجِ بطنك بجمه ولم أجعله طامك » وروى : أن يونس عليه السلام مجد في جوف الحوت حين سمع تسبيح الحيتان في قعر البحر . وذكر ابن أبي الدنيا حدثنا العباس بن يزيد العبدى حدثنا إسحق<sup>(١)</sup> ابن إدريس حدثنا جعفر بن سليمان عن عوف عن سعيد بن أبي الحسن قال : لما التتم الحوت يونس عليه السلام ظن أنه قد مات فطول رجله فإذا هو لم يمت فقام إلى طاقه يصل فقال في دعائه : « وَكُنْتُ لَكَ مَسْجُودًا لَمْ يَخْذُ أَحَدٌ » . وقال أبو المعلى : قوله صل عليه وسلم " لَا تَفْضَلُونِي عَلَى يُونُسَ بْنِ مَتَّى " المعنى فاني لم أكن وأنا في مدرة المنتهى بأقرب إلى الله منه ، وهو في قعر البحر في بطن الحوت . وهذا يدل على أن الباري سبحانه وتعالى

(١) كما في الأصل : والله « عبد الله بن إدريس » « فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ » حدث عنه العبدى  
كما في « تهذيب التهذيب » .

ليس في جهة . وقد تَقَهَّم هذا المعنى في « البقرة » و « الأعراف » . « أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ » يريد فيما خالف فيه من ترك مداومة قومه والصبر عليهم . وقيل : في الخروج من غير أن يؤذن له . ولم يكن ذلك من الله عتوبة ؛ لأن الأنبياء لا يجوز أن يعاقبوا ، وإنما كان ذلك تمحيصا . وقد يؤذَّب من لا يستحق العقاب كالصبيان ؛ ذكره الماوردي . وقيل : من الظالمين في دعائهم على قومي بالذاب . وقد دعا نوح على قومه فلم يؤخذ . وقال الواسطي في معناه : تزه ربه عن الظلم وأضاف الظلم إلى نفسه اعترافا واستحقاقا . ومثل هذا قول آدم ونحوه : « رَبَّنَا ضَلَلْنَا أَنْفُسَنَا » إذ كانا السبب في وضعهما أنفسهما في غير الموضع الذي أنزلا فيه .

الثانية - روى أبو داود عن سعد بن أبي وقاص عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «دعاه ذي النون في بطن الحوت « لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ » لم يدع به رجل مسلم في شيء ، قط إلا أنسجبه له » وقد قيل : إنه اسم الله الأعظم . ورواه سعد عن النبي صلى الله عليه وسلم . وفي الخبر : في هذه الآية شرط الله لمن دعاه أن يجيبه كما أجابه ويخبره كما أنجاه ، وهو قوله : « وَكَذَلِكَ نُخَيِّبُ الْمُؤْمِنِينَ » وليس هاهنا صريح دعاء ، وإنما هو مضمون قوله : « إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ » فاعترف بالظلم فكان تلويحا .

قوله تعالى : ( وَكَذَلِكَ نُخَيِّبُ الْمُؤْمِنِينَ ) أي نخلصهم من همهم بما سبق من عمام . وذلك قوله : « فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلِيتِّ فِي نَفْسِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ » وهذا حفظ من الله عز وجل لعبده يونس رعى له حق تعبه ، وحفظ زمام ما سلف له من الطاعة . وقال الأستاذ أبو إسحق : صحب ذو النون الحوت أياما فلائل فإلى يوم القيامة يقال له ذو النون ، فما ظنك بعبد عبده سبعين سنة يبطل هذا عنه ! لا يظن به ذلك . « مِنْ النَّفْسِ » أي من بطن الحوت .

قوله تعالى : « وَكَذَلِكَ نُخَيِّبُ الْمُؤْمِنِينَ » قراءة العامة بنونين من أنجي يخبي . وقرا ابن طاهر : « نُخَيِّبُ » بنون واحدة وجم مشددة وتسكين للباء على الفعل الماضي وإضمار المصدر أي وكذلك يخبي النجاة المؤمنين ؛ كما تقول : ضرب زيداً بمعنى ضرب زيداً وإنشد :

ولو وَلَدْتُ قُفْرَةً جَرَوُكَلْبٍ • لَسَبُّ بِذَلِكَ الْجَسْرِ الْكَلْبَاءُ  
 أراد لَسَبُّ السَّبِّ بِذَلِكَ الْجَسْرِ • وسكنت يَأْوُهُ على لغة من يقول بَيَّ وَرَضَى فلا يحرك الياء •  
 وقرأ الحسن « وَذَرُّوْا مَا بَيْنِي مِنَ الرَّبِّ » استقلاً لتحريك ياء قبلها كسرة • وانشد :  
 تَحْسِرُ الشَّيْبُ لِمَتْنِي تَحْسِرًا • وَحَدَّ بَنِي إِلَى الْقُبُورِ الْبَعِيرَا  
 لَبَتَ شَعْرَى إِذَا الْفِيَاةُ قَامَتْ • وَدُعَى بِالْحَسَابِ ابْنُ الْمَصِيرَا

سكن الياء في دعى استقلاً لتحريكها وقبلها كسرة وفاعل حدا المشيب ؛ أى وحدا المشيب  
 البعير ؛ لبث شعري المصيرين هو • هذا تأويل الفراء وأبى عبيد وتعلب في تصويب هذه  
 القراءة • وخطأها أبو حاتم والزجاج وقالوا : هو لحن ؛ لأنه نصب اسم ما لم يسم فاعله ؛ وإنما  
 يقال : نُجِيَ الْمُؤْمِنُونَ • كما يقال : كَرَّمَ الصَّالِحُونَ • ولا يجوز ضُرِبَ زَيْدًا بمعنى ضُرِبَ الضَّرْبُ  
 زَيْدًا ؛ لأنه لا فائدة [فيه] <sup>(١)</sup> إذ كان ضُرِبَ بدل على الضرب • ولا يجوز أن يحتاج بمثل ذلك  
 البيت على كتاب الله تعالى • ولأبى عبيد قول آخر - وقاله الفتي - وهو أنه أدغم النون في الجيم •  
 النحاس : وهذا القول لا يجوز عند أحد من النحويين ؛ لبعده مخرج النون من مخرج الجيم  
 فلا تدغم فيها • ولا يجوز في « مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ » « بَجَاءَ بِالْحَسَنَةِ » قال النحاس : ولم أسمع  
 في هذا أحسن من شيء سمعته من علي بن سليمان • قال : الأصل نَجَى خَذَفَ إحدى النونين ؛  
 لاجتماعهما كما خذف إحدى التاءين ؛ لاجتماعهما نحو قوله عز وجل : « وَلَا تَفَرَّقُوا » والأصل  
 تَتَفَرَّقُوا • وقرأ محمد بن السَّمِيعِ وأبو العالِية « وَكَذَلِكَ نَجَى الْمُؤْمِنِينَ » أى نَجَى الله المؤمنين ؛  
 وهى حسنة •

قوله تعالى : وَرَزَّ كَرِيًّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ  
 الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ نَجِيًّا وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ۚ إِنَّهُمْ  
 كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۚ وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ ﴿٩٠﴾

(١) قفرة ( بكهنة ) : أم القرزدق • واليت لمريم من قصيدة يهجو بها القرزدق •

(٢) الزيادة من « إعراب القرآن » للنحاس •

قوله تعالى : ( وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ ) أى وأذ كر زكريا . وقد تقدم فى « آل عمران » ذكره . ( رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا ) أى منفردا لا ولد لى وقد تقدم . ( وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ) أى خير من يبق بعد كل من يموت ، وإنما قال « وأنت خير الوارثين » لما تقدم من قوله : « يَرِثُنِي » أى أعلم أنك لا تصعب دينك ، ولكن لا تقطع هذه الفضيلة التى هى القيام بأمر الدين عن عيبي . كما تقدم فى « صريم » بيانه .

قوله تعالى : ( فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ) أى أجيبا دعاه : ( وَوَعَيْنَا لَهُ نَجِيًّا ) . تقدم ذكره مستوفى : ( وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ) قال قتادة وسعيد بن جبير وأكثر المفسرين : إنها كانت عاقرا فحملت ولودا . وقال ابن عباس وعطاء : كانت سينة الخلق ، طويلة اللسان ، فأصلحها الله فجعلها حسنة الخلق .

قلت : ويحتمل أن تكون جمعت المعنيين فجعلت حسنة الخلق ولودا . ( لَهُمُ ) أى الأبناء المسمين فى هذه السورة ( كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ) . وقيل : الكناية راجعة إلى زكريا وأسرته ويحيى .

قوله تعالى : ( وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ) فيه مستثنان :

الأولى - قوله تعالى : ( وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ) أى يفرعون إلينا فيدعوننا فى حال الرضا وحال الشدة . وقيل : المعنى يدعون وقت تبذلهم وهم بحال رغبة ورجاء ووهبة وخوف ، لأن الرغبة والرغبة متلازمان . وقيل : الرغب رفع بطون الألف إلى السماء ، والرهب رفع ظهورها ، قاله خصيف ، وقال ابن عطية : وتلخيص هذا أن عادة كل داع من البشر أن يستعين يديه بالرغب من حيث هو طلب يحسن منه أن يوجه باطن الراح نحو المطلوب منه ، إذ هو موضع إعطاء أو بها يملك ، والرهب من حيث هو دفع مضرة يحسن معه طرح ذلك ، والإشارة إلى ذهابه وتوقيه بنفض اليد ونحوه .

الثانية - روى الترمذى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رفع يديه فى الدعاء لم يحطهما حتى يحس بهما وجهه وقد مضى فى « الأهراف »<sup>(١)</sup>

(١) باب - ٤ ص ٧٤ وما بعدها طبعه المدار الآتية . (٢) باب - ٧ ص ٢٢٤ وما بعدها طبعه المدار الآتية .

الاختلاف في رفع الأيدي، وذكرنا هذا الحديث وغيره هناك : وعلى القول بالرفع فقد اختلف الناس في صفته وإلى أين ؟ فكان بعضهم يختار أن يسط كفيه رافعهما حذو صدره ويطونهما إلى وجهه ؛ وروى عن ابن عمر وابن عباس . وكان على يدعو بباطن كفيه ؛ وعن أنس مثله ، وهو ظاهر حديث الترمذی . وقوله صلى الله عليه وسلم : " إذا سلم الله فاستلوه ببطون أكفكم ولا تسالوه بظهورها وامسحوا بها وجوهكم " . وروى عن ابن عمر وابن الزبير برفعهما إلى وجهه ، واحتجوا بحديث أبي سعيد الخدري : قال : وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم بمرقة فجعل يدعو وجعل ظهر كفيه مما يلي وجهه ، ورفعهما فوق نديه وأسفل من منكبيه . وقيل : حتى يمازى هما وجهه وظهورهما مما يلي وجهه . قال أبو جعفر الطبري والصواب أن يقال : إن كل هذه الآثار المروية عن النبي صلى الله عليه وسلم متفقة غير مختلفة المعاني ، وجائز أن يكون ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم لاختلاف أحوال الدعاء كما قال ابن عباس : إذا أشار أحدكم بإصبع واحد فهو الإخلاص ، وإذا رفع يديه حذو صدره فهو الدعاء ، وإذا رفعهما حتى يمازى هما رأسه وظاهرهما مما يلي وجهه فهو الابتهاال . قال الطبري وقد روى قتادة عن أنس قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يدعو بظهر كفيه وباطنهما . و « رَغَبًا وَرَهَبًا » منصوبان على المصدر ؛ أي يرغبون رغبا ويرهبون رهبا . أو على المفعول من أجله ؛ أي للرغب والرهب . أو على الحال . وقرأ طلحة بن مصرف « وَيَدْعُونَآ » بنون واحدة . وقرأ الأعشى بضم الراء وإسكان النين والماء مثل الشَّمِّ والبُئْلِ ، والعدم والضّر لنتان . وابن وثاب والأعشى أيضا « رَغَبًا وَرَهَبًا » بالفتح في الراء والتخفيف في النين والماء ، وهما لنتان مثل تَهَرَوْتُهُ وَتَحَرَوْتُهُ . ورويت هذه القراءة عن أبي عمرو . ( وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ) أي متواضعين خاضعين .

قوله تعالى : **وَالَّتِي أَحْصَيْتَ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١١﴾**

قوله تعالى : ﴿وَالَّتِي أَحْصَيْتَ فَرْجَهَا﴾ أي واذا كرم مريم التي أحصت فرجها . وإنما ذكرها وليست من الأنبياء ليم ذكر صبي عليه السلام ؛ ولهذا قال : ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ ولم ينل آيتين لأن معنى الكلام : وجعلنا شأنهما وأمرهما وفستهما آية للعالمين . وقال الزجاج : إن الآية فيهما واحدة ؛ لأنها ولدته من غير خل ؛ وعلى مذهب سيبويه التقدير : وجعلناها آية للعالمين وجعلنا ابنتها آية للعالمين ثم حذف . وعلى مذهب الفراء : وجعلناها آية للعالمين وابنها ؛ مثل قوله جل ثناؤه : «وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ» . وقيل : إن من آياتها أنها أول امرأة قبلت في البذر في المتبد . ومنها أن الله عز وجل غذاها برزق من عنده لم يحره على يد عبد من عبده . وقيل : إنها لم تلقم نديا قط . «وَأَحْصَيْتَ» بمعنى عفت فامتعت من الفاحشة . وقيل : إن المراد بالفرج فرج القميص ؛ أي لم تعلق بشوبها ربية ؛ أي إنها طاهرة الأتواب . وفروج للقميص أربعة : الكنان والأعل والأسفل . قال السهيلي : فلا يذهب وهمك إلى غير هذا ؛ فإنه من لطيف الكتابة لأن القرآن أنزه معنى ، وأوزن لفظا ، والطف بإشارة ، وأحسن عبارة من أن يريد ما يذهب إليه وهم الجاحل ، لاسيما والفتح من روح القدس بأمر القدوس ، فأضف القدس إلى القدوس ، وزه المقدسة المطهرة عن الظن الكاذب والحدس . ﴿فَفَقَحْنَا فِيهَا مِنْ رُوْحِنَا﴾ يعني أمرنا جبريل حتى نفخ في درعها ، فأحدثنا بذلك النفخ المسيح في بطنها . وقد مضى هذا في «النساء» و «مريم» فلا معنى للإعادة . ﴿آيَةً﴾ أي علامة وأعجوبة للخلق ، وعلمنا نبوة عيسى ، ودلالة على نفوذ قدرتنا فيما نشاء .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾

قوله تعالى : ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ لما ذكر الأنبياء قال : هؤلاء كلهم مجتمعون حل التوحيد ؛ فالأمة هنا بمعنى الدين الذي هو الإسلام ؛ قاله ابن عباس ومجاهد وغيرهما . فاما المشركون فقد خالفوا الكل . ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ﴾ أي إلهكم وحدي . ﴿فَاعْبُدُونِي﴾ أي أفرودني بالعبادة . وقرأ عيسى بن عمرو بن أبي إسحق «إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً» ورواها

حسين عن أبي عمرو . الياقون «أُمَّةً وَاحِدَةً» بالنصب على القطع بحسب النكرة بعد تمام الكلام؛  
 قاله الفراء . الزجاج : انتصب «أُمَّةٌ» على الحال ؛ أى فى حال اجتماعها على الحق ؛ أى هذه  
 أمّتكم بما دامت أمة واحدة واجتمعتم على التوحيد ؛ فإذا تفرقتم وخالفتم فليس من خالف الحق  
 من جملة أهل الدين الحق ؛ وهو كما تقول : فلان صديق عفيف أى ما دام عفيفا فإذا خالف  
 العفة لم يكن صديق . وأما الرفع فيجوز أن يكون على البذل من «أمّتكم» أو على إضمار مبتدأ ؛  
 أى إن هذه أمّتكم ، هذه أمة واحدة . أو يكون خبرا بعد خبر . ولو نصبت «أمّتكم» على  
 البذل من «هذه» لجاز ويكون «أُمَّةً وَاحِدَةً» خبر «إن» .

قوله تعالى : وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلُّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴿١٣﴾ قَن  
 يَعْمَلُ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَنُتُبُونَ ﴿١٤﴾  
 قوله تعالى : ( وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ ) أى تفرقوا فى الدين ؛ قاله الكلبى . الأخفش :  
 اختلفوا فيه . والمراد المشركون ؛ ذمهم لخالفه الحق ، واتخاذهم أمة من دونه الله . قال  
 الأزهرى : أى تفرقوا فى أمرهم ؛ فنسب «أَمْرَهُمْ» بحذف «و» . فالتقطع على هذا  
 لازم وعلى الأثر متعد . والمراد جميع الخلق ؛ أى جعلوا أمرهم فى أديانهم قطعا وتقسيمه  
 بينهم ، فمن موحد ، ومن يهودى ، ومن نصرانى ، ومن عابد ملك أو صنم . ( كُلُّ إِلَيْنَا  
 رَاجِعُونَ ) أى إلى حكمتنا فنجازيهم .

قوله تعالى : ( قَن يَعْمَلُ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ) «من» للتبويض لا للجنس إذ  
 لا قدرة للكلف أن يأتى بجميع الطاعات فرضها ونفلها ؛ فالمعنى : من يعمل شيئا من الطاعات  
 فرضا أو نفلا وهو موحد مسلم . وقال ابن عباس : مصدقا بمحمد صلى الله عليه وسلم .  
 ( فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ ) أى لا يجود لمعلمه ؛ أى لا يضيع جزاؤه ولا ينطى . والكفر ضلته  
 الإيمان . والكفر أيضا بجود النعمة ، وهو ضد الشكر . وقد كفره كفورا وكفرانا . وفى حرف  
 ابن مسعود « فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ » . ( وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ) لمعلمه حافظون . نظيره «أَنى لَا أُضِغُّ  
 عَمَلُ مَا يَلِ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ نَحْيٍ» أى كل ذلك محفوظ ليجازى به .

قوله تعالى : وَحَرَّمَ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٤٥﴾  
 حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴿٤٦﴾  
 وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَقُولُونَ  
 قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٧﴾

قوله تعالى : ( وَحَرَّمَ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ) قراءة زيد بن ثابت  
 وأهل المدينة « وَحَرَّمَ » وحى أحيار بن عبيد وأبي ساتم . وأهل الكوفة « وَحَرَّمَ » ورويت  
 عن علي وابن مسعود وابن عباس رضى الله عنهم . وهما لغتان مثل جَلَّ وَحَلَّلَ . وقد روى  
 عن ابن عباس وسعيد بن جبير « وَحَرَّمَ » بفتح الحاء والميم وكسر الراء . وعن ابن عباس  
 أيضا وعكرمة وأبي العالية « وَحَرَّمَ » بضم الراء وفتح الحاء والميم . وعن ابن عباس أيضا  
 « وَحَرَّمَ » وعنه أيضا « وَحَرَّمَ » ، « وَحَرَّمَ » . وعن عكرمة أيضا « وَحَرَّمَ » . وعن قتادة  
 ومطر الوراق « وَحَرَّمَ » تسع قراءات . وقرأ السألى « عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا » . واختلف في « لا »  
 في قوله : « لَا يَرْجِعُونَ » فقيل : هى صلة ؛ روى ذلك عن ابن عباس ، واختاره أبو عبيد ؛  
 أى وحرام على قرية أهلكتها أن يرجعوا بعد الهلاك . وقيل : ليست بصلة ، وإنما هى  
 ثابتة ؛ ويكون الحرام بمعنى الواجب ؛ أى وجب على قرية ؛ كما قالت الخنساء :

وَإِنْ حَرَامًا لَا أَرَى الدَّهْرَ بَايِكًا • عَلَى تَجْبُوهٍ إِلَّا بَكَيْتُ عَلَى صَخْرٍ

تريد أخاها ؛ ف « لا » ثابتة على هذا القول . قال النحاس : والآية مشكلة ومن أحسن  
 ما قيل فيها وأجله ما رواه ابن عبيدة وابن عُلَيَّة وهشيم وابن إدريس ومحمد بن فضيل وسليمان بن  
 حيان وسمل عن داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس فى قول الله عز وجل : « وَحَرَامٌ  
 عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا » قال : وجب أنهم لا يرجعون ؛ قال : لا يتوبون . قال أبو جعفر ؛  
 واشتقاق هذا من فى اللغة ، وشرحه : أن معنى حَرَّمَ الشئ حُظِرَ وَمُنِعَ منه ، كما أن معنى أحل  
 أبيع ولم يمنع منه ، فإذا كان « حَرَامٌ » و « حَرَّمَ » بمعنى واجب فمعناه أنه قد ضيق الخروج



منه ومنع فقد دخل في باب المحظور بهذا؛ فأما قول أبي عبيد : إن « لا » زائدة فقد رده عليه جماعة ؛ لأنها لا تزداد في مثل هذا الموضع ، ولا فيما يقع فيه إشكال ، ولو كانت زائدة لكان التأويل بعيداً أيضاً ؛ لأنه إن أراد حرام على قرية أهلها أن يرجعوا إلى الدنيا فهذا ما لا فائدة فيه ، وإن أراد التوبة فالتوبة لا تُحْزَم . وقيل : في الكلام إضمار أى وحرام على قرية حكمتنا باستنصاها ، أو بالختم على قلوبها أن يتقبل منهم عمل لأنهم لا يرجعون أى لا يتوبون ؛ قاله الزجاج وأبو علي ؛ و « لا » غير زائدة . وهذا هو معنى قول ابن عباس .

قوله تعالى : ( حَتَّىٰ إِذَا تُفِخَتْ يَابُجُوجُ وَمَاجُوجُ ) تقدم القول فيهم . وفي الكلام حذف ؛ أى حتى إذا فتح سد يابجوج وماجوج ، مثل « وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ » . ( وَهَمَّ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ) قال ابن عباس : من كل شرف يُقبلون ؛ أى لكنتهم ينسلون من كل ناحية . والحذب ما ارتفع من الأرض ، والجمع الحُدَاب ؛ مأخوذ من حذبة الظهر ؛ قال عنترة :  
فما رِعِثت يداي ولا أزدعاني • توأرتُم إلى من الحُدَابِ  
وقيل : « يَنْسِلُونَ » يخرجون ؛ ومنه قول امرئ القيس :

• فَسَلَّ ثِيَابِي مِنْ ثِيَابِكَ تَنْسِلُ<sup>(١)</sup> .

وقيل : يسرعون ؛ ومنه قول النابغة<sup>(٢)</sup> :

عَسَلَانَ الذَّبِّ أَمْسَى قَارِبًا • بَرَدَ اللَّيْلُ عَلَيْهِ فَتَنَسَّلَ<sup>(٣)</sup>

يقال : عَسَلَ الذَّبُّ يَسْلُ عَسَلًا وَعَسَلَاتًا إذا عتق وأسرع . وفي الحديث : « كَذَبَ عَلَيْكَ الْعَسَلُ » أى عليك بسرعة المشى . وقال الزجاج : وَالْعَسَلَانُ مِثْلَةُ الذَّبِّ إِذَا أَسْرَعَ ؛ يقال : نَسَلَ فُلَانٌ فِي الْعَدُوِّ يَنْسِلُ بالكسر والضم نَسَلًا وَتَسَلًا وَأَسَلَاتًا ؛ أى أسرع . ثم قيل في الذين ينسلون من كل حدب : إنهم يابجوج وماجوج ، وهو الأظهر ؛ وهو قول ابن مسعود وابن عباس . وقيل : جميع الخلق ؛ فإنهم يحشرون إلى أرض الموقف ، وهم يسرعون من كل

(١) البيت من مقلته ومصدره : • وَإِنْ تِلْكَ قَدِ سَاءَتْكَ مِنْى حَلِيفَةٌ •

(٢) وقيل : هو لبيد ، كما « الحسن » مادة « عسل » . (٣) النارب : السائر لولا .

صوب . وقرئ في الشواذ « وَمَنْ مِنْ كُلِّ جَلَّتْ يَسْأَلُونَ » اخذاً من قوله : « فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ » . وحكى هذه القراءة المهدي عن ابن مسعود والنسفي عن مجاهد وأبي الصبيان .

قوله تعالى : ( وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ ) يعني القيامة . وقال الفراء والكسائي وغيرهما : الواو زائدة مقحمة ، والمعنى : حتى إذا فصحت يا جوج وءاجوج أقرب الوعد الحق « فَأَقْرَبَ » جواب « إذا » . وانشد الفراء :

« قَلْبُ أَجْرْنَا مَسَاحَةُ الْحَيِّ وَأَتَحَّى .

أى أتحي ، والواو زائدة ؛ ومنه قوله تعالى : « وَتِلْكَ الْفَجَيْنِ » . وناديتاه . أى للجهنم ناديتاه . وأجاز الكسائي أن يكون جواب « إذا » « فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارِ الَّذِينَ كَفَرُوا » ويكون قوله : « وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ » معطوفاً على الفعل الذى هو شرط . وقال البصريون : الحوالب محذوف والتقدير : قالوا يا ويلنا ؛ وهو قول الزجاج ، وهو قول حسن . قال الله تعالى : « وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى » المعنى : قالوا ما نعبدهم ، وحذف القول كثير .

قوله تعالى : ( فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ ) « هى » ضمير الأبصار ، والأبصار المذكورة بعدها تفسر لها ؛ كأنه قال : فإذا أبصار الذين كفروا شخصت عند محيى الوعد . وقال الشاعر :

لَسَمَرُ أَيُّهَا لَا تَفْشَلْ طَعْمِي . الْآ فَرَحْنِي مَالِكُ بْنُ أَبِي كَمْب

فكنى من الطعنة فى أيها ثم أظهرها . وقال الفراء : « هى » عماد ، مثل « فَإِنَّهَا لَا تَقْمَى الْأَبْصَارُ » . وقيل : إن الكلام تم عند قوله : « هى » التقدير : فإذا هى ؛ بمعنى القيامة بارزة واقعة ؛ أى من قربها كأنها آتية حاضرة ، ثم ابتداء فقال : ( شَاخِصَةٌ أَبْصَارِ الَّذِينَ كَفَرُوا ) على تقديم الخبر على الابتداء ؛ أى أبصار الذين كفروا شاخصة من هذا اليوم ؛ أى من هواله لا تكاد تطرف ؛ يقولون : يا ويلنا إنا كنا ظالمين بمصبتنا ، ووضعتا المباداة فى غير موضعها .

(٧) لَيْتَ لَأَمْرِي الْقَبَسَ مَعَهُ مِنْ سِقْتِهِ ، وَنَمَاهُ ،

• يا بلن حيث دى ضاف غفل •

قوله تعالى : **إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرِدُونَ** ﴿٩٨﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : **(إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ)** قال ابن عباس : آية لا يسألني الناس عنها ! لا أدري أعرفوها فلم يسألوا عنها ، أو جهلوا لا يسألون عنها ، ف قيل : وما هي ؟ قال : **« إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ »** لما أنزلت شق على كفار قريش ، وقالوا : شتم آلهتنا ، وأنابوا ابن الزبير وأخبروه ، فقال : لو حصرته لرددت عليه . قالوا : وما كنت تقول ؟ قال : كنت أقول له : هذا المسيح نعمة النصراني واليهود تعبدا عزيزا أنهما من حصص جهنم ؟ فمجبت قريش من مقالته ، ورأوا أنهما قد خُصم ، فأنزل الله تعالى : **« إِبْرَاهِيمَ الَّذِي بِنِيَ قَوْمٌ بِمَا الْكُفْرَى أُولَئِكَ عَتَقَهَا مُنْجُونَ »** وفيه نزل **« وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا »** يعني ابن الزبير « إِذَا قُومُوا إِلَيْهِ يَاجِدُونَ » بكسر الصاد أي يضحجون ، وصيغتي .

الثانية - هذه الآية أصل في القول بالعموم وأن له صبا محصورة ، خلافا لمن قال : ليست له صيغة موضوعة للدلالة عليه ، وهو غلط بما دلت عليه هذه الآية وغيرها ، فهذا عبد الله بن الزبير قد فهم « ما » في حاهليته جميع من عد ، ووافقه على ذلك قريش وهم العرب الفصحاء ، واللحن الباطل ، ولو لم تكن للعموم لما صح أن يستثنى منها ، وقد وجد ذلك فهي للعموم وهذا واضح .

الثالثة - قراءة العامة الصاد المهملة أي إنكم يا مشركي الكفار والأوثان التي تعبدونها من دون الله وفود جهنم ، قاله ابن عباس . وقال محمد وعكرمة وقتادة : حطها . وقرأ على ابن أبي طالب وعائشة رضوان الله عليهما **« حَطَّ جَهَنَّمَ »** بالطاء . وقرأ ابن عباس **« حَصَّبَ »** بالصاد المعجمة ، قال الفراء : يريد الحصب . قال : وذكرنا أن الحصب في لغة أهل

اتين المخطب ، وكل ما هجت به النار وأوقدتها به فهو حَصْبٌ ؛ ذكره الجوهري .  
 والموقد حَصْبٌ . وقال أبو عبيدة في قوله تعالى : « حَصْبُ جَهَنَّمَ » كل ما اليتى النار  
 فقد حصبتها به . ويظهر من هذه الآية أن الناس من انكفار وما يعبدون من الأصنام حطب  
 بلهيم . ونظير هذه الآية قوله تعالى : « فَأَتَوْهُا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ » . وقيل :  
 إن المراد بالحجارة الحجارة للكبريت ؛ كل ما تقدم في « البقرة » وأن النار لا تكون على الأصنام  
 صلاب ولا حقيرة ؛ لأنها لم تذب ، ولكن تكون عذابا على من عدها : أول شيء بالحسرة ،  
 ثم تجمع على النار فتكون نارها أشد من كل نار ، ثم يصدون بها . وقيل : تمنى فتلصق بهم  
 زيادة في تعذيبهم . وقيل : إنما جعلت في النار تيكيتا لعبادتهم .

الرابعة - قوله تعالى : ( أُنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ) أى فيها داخلون . واخطاب لشركين  
 عبدة الأصنام ، أى أتم واردوها مع الأصنام . ويعوز أن يقال : الخطاب للأصنام وعدتها ،  
 لأن الأصنام وإن كانت جمادات فقد يفرغ عنها كتابات الآدميين . وقال العلماء : لا يدخل  
 في هذا صبي ولا حرير ولا الملائكة صلوات الله عليهم ؛ لأن « ما » لغیر الآدميين . فلو أراد  
 ذلك لقال : « ومن » . قال الزجاج : ولأن المخاطبين بهذه الآية مشركو مكة دون غيرهم .

قوله تعالى : لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلَهِ مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٥﴾

لَمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ( لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلَهِ مَا وَرَدُوهَا ) أى لو كانت الأصنام آله لما ورد  
 ما بدوها النار . وقيل : ما وردوها المأبدون والممودون ، ولهذا قال : ( وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ) .  
 قوله تعالى : ( لَمْ فِيهَا زَفِيرٌ ) أى لهُؤُلَاءِ الذين وردوا النار من الكفار والشياطين ؛  
 فاما الأصنام فكل الخلاف فيها ، هل يحياها الله تعالى ويعذبها حتى يكون لها زفير أو لا ؟  
 قولان : والزفير صوت نفس المموم يخرج من القلب . وقد تقدم في « هود » . ( وَهُمْ فِيهَا

(١) راجع ١ ص ٢٢٥ وما بعدها الآية أو الآية .

(٢) راجع ٩ ص ٢٨ وما بعدها الآية أو الآية .



على الصراط حبات تلح أهل النار فيقولون : حَسَّ حَسَّ . وقيل : إذا دخل أهل الجنة لم يسمعوا حَسَّ أهل النار وقبل ذلك يسمعون ، فالله أعلم . ( وَهُمْ فِيهَا اشْتَبَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ ) أى دافعون وهم فيما تشبهه الأنفس وتلد الأعين . وقال : « وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْبَى أَنْفُسَكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّهُونَ » .

قوله تعالى : ( لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرْعُ الْأَكْبَرُ ) وفرا أبو جعفر وابن عيصن « لَا يَحْزَنُهُمُ » بضم الياء وكسر الزاى . الباقر بن فتح الياء وضم الزاى . قال اليزيدى : حزنه لغة قريب ، وأحزنه لغة تيم ، وقد قرئ بهما . والفزع الأكبر أهرال يوم القيامة والبعث ، عن ابن عباس . وقال الحسن : هو وقت يؤمر بالعباد إلى النار . وقال ابن جرير وسعيد بن جبير والضحاك : هو إذا أطبقت النار على أهلها ، وذبح الموت بين الجنة والنار . وقال ذو النون المصرى : هو القطيعة والفراق . وعن النبي صلى الله عليه وسلم : « ثَلَاثَةٌ يَوْمُ الْقِيَامَةِ فِي كَتِيبٍ مِنَ الْمَسْكِ الْأَذْفَرِ وَلَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرْعُ الْأَكْبَرُ رَجُلٌ أَمَّ قَوْمًا مَحْسَبًا وَهُمْ لَهُ رَاضُونَ وَرَجُلٌ أَذِنَ لِقَوْمٍ مَحْسَبًا وَرَجُلٌ ابْتَلَى رِقَاقَ الدُّنْيَا فَلَمْ يَسْخَرْهُ مِنْ طَاعَةِ رَبِّهِ » . وقال أبو سلمة بن عبد الرحمن : صردت برجل يضرب غلاما له ، فأشار إلى الغلام ، فكلمت مولاه حتى عفا عنه ، فلقبت أبا سعيد الخدري فأخبرته ، فقال : يا بن أمي ! من أغاث مكروبا أعقته الله من البار يوم الفزع الأكبر سمعت ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم . ( وَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ) أى تستقبلهم الملائكة على أبواب الجنة يهنئونهم ويقولون لهم : ( هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ) . وقيل : تستقبلهم ملائكة الرحمة عند خروجهم من القبور . عن ابن عباس : « هَذَا يَوْمُكُمْ » أى ويقولون لهم ، لحذف . « الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ » فيه الكرامة .

قوله تعالى : يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَاهُ أَوَّلَ خَلْقٍ نَعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠١﴾

قوله تعالى : ( يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ ) فرا أبو جعفر بن القمعاق وشيبة بن نصاح والأعرج والزهرى « نَطْوِي » بناء مضمومة « السَّمَاءُ » ربما على ما لم يسم فاعله . مجاهد « يَطْوِيهِ »

على معنى يطوى الله السماء . الباقون « تطوى » بنون العظمة . وانتصاب « يوم » على البدل من الماء المخلوطة في الصلابة ، التفسير : الذى كنتم توعده يوم تطوى السماء . أو يكون منصوباً بـ « خعيد » من قوله : « كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ » . أو بقوله : « لا يميزهم » أى لا يميزهم الفزع الأكبر فى اليوم الذى تطوى فيه السماء . أو على إضمار وأذكر ، وأراد بالسماء الجنس ؛ دليله : « وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ » . ( كَطَى السَّجْلَ لِلْكَتَابِ ) <sup>(١)</sup> قال ابن عباس ومجاهد : أى كطى الصحيفة على ما فيها ؛ فاللام بمعنى « على » . وعن ابن عباس أيضاً أسم كاتب رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس بالقوى ؛ لأن كُتِبَ رسول الله صلى الله عليه وسلم معروفون ليس هذا منهم ، ولا فى أصحابه من اسمه السجل . وقال ابن عباس أيضاً وابن عمر والسدى : « السجل » ملك ، وهو الذى يطوى كتب بنى آدم إذا رفعت إليه . ويقال : إنه فى السماء الثالثة ، ترفع إليه أعمال العباد ، يرفعها إليه الحفظة الموكلون بالخلق فى كل خميس وأثنين ، وكان من أعزانه فيها ذكروا هاروت وماروت . والسجل الصك ، وهو اسم مشتق من السجالة وهى الكتابة ؛ وأصلها من السجل وهو الذل ؛ تقول : ساجلت الرجل إذا زعت دلوا وزرع دلوا ، ثم استعيرت فسميت المكتبة والمراجعة مساجلة . وقد تجبل الحاكم تسجيلا . وقال الفضل بن العباس بن عتبة بن أبى لمب :

مَنْ يُسَاجِلُنِي يُسَاجِلُ مَا جَدَا • يَمْلَأُ الدَّلَا إِلَى عَقْدِ الْكَرْبِ <sup>(٢)</sup>

ثم بنى هذا الاسم على فِعَل مثل حَزَزَ وطمِزَ وبلَى . وقرأ أبو زرعة بن عمرو بن جرير « كَطَى السَّجْلَ » بضم السين والجيم وتشديد اللام . وقرأ الأعمش وطلحة « كَطَى السَّجْلَ » بفتح السين وإسكان الجيم وتخفيف اللام . قال النحاس : والمعنى واحد إن شاء الله تعالى . والتمام عند قوله : « لِلْكِتَابِ » . والعلل فى هذه الآية يحتمل معنيين : أحدهما — الدرج الذى هو ضد النشر ، قال الله تعالى : « وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ » . والثانى — الإخفاء والتسمية والمحو ؛ لأن الله تعالى يحو ويطمس رسومها ويكدر نجومها .

(١) « الكتاب » بالإنفراد قراءة نافع . (٢) الكرب : حبل يشد على مزالق الخلويم حتى تم يث يكون مزالق على الماء فلا يفتن الخيل الكبير .

قال الله تعالى : « إِنَّا الشَّمْسُ كُورَتْ . وَإِنَّا النُّجُومُ أَنْكَدَتْ » . وَإِنَّا السَّمَاءُ  
كُشِطَتْ . » . « لِإِكْتَابِ » . وتم الكلام . وقراءة الأعمش وحفص وحزرة والكسائي  
ويحيى وسلف : « لِإِكْتَابِ » . جمعا ثم استأنف الكلام فقال : ( كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ يُعِيدُهُ )  
أى نخسرهم حفاة عراة غرلا كما بدأنا فى البطون . وروى النسائي عن ابن عباس عن النبي  
صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يمحشر الناس يوم القيامة عراة غرلا أول الخلق يكسى يوم  
القيامة إبراهيم عليه السلام - ثم قرأ - « كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ يُعِيدُهُ » . أخرجه مسلم أيضا  
عن ابن عباس قال : قام فىنا رسول الله صلى الله عليه بموعظة فقال : « يا أيها الناس إنكم  
تمحشرون إلى الله عراة غرلا » كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ يُعِيدُهُ وَعَدْنَا طَبَقًا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ »  
ألا وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم عليه السلام « وذكر الحديث . وقد ذكرنا  
هذا الباب فى كتاب « التذكرة » مستوف . وذكر سفيان الثوري عن سلمة بن كهيل عن  
أبي الزعراء عن عبد الله بن مسعود قال : يرسل الله عز وجل ماء من تحت العرش كنى الرجال  
فنتبت منه لحناهم وجسانهم كما تنبت الأرض بالثرى . وقرأ « كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ يُعِيدُهُ » .  
وقال ابن عباس : المعنى نهلك كل شىء ونفيه كما كان أول مرة<sup>(١)</sup> ، وعلى هذا فالكلام متصل  
بقسوله : « يَوْمَ تَطْيَى السَّمَاءُ » أى تطويها فتعيدنها إلى الهلاك والفناء فلا تكون شيئا .  
وقيل : قضى السماء ثم تعيدنها مرة أخرى بعد طيها وزوالها ، كقوله : « يَوْمَ يُبَدَّلُ الْأَرْضُ  
غَيْرِ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ » والقول الأول أصح وهو نظير قوله : « وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا  
خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ » وقوله عز وجل : « وَعَرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ  
أَوَّلَ مَرَّةٍ » . ( وَعَدْنَا ) نصب على المصدر ، أى وعدنا وعدا ( عَلَيْنَا ) إيجابا له والوفاء به  
أى من البعث والإعادة ، ففى الكلام حذف . ثم أكد ذلك بقوله جل شأوه : ( إِنَّا كُنَّا  
فَاعِلِينَ ) قال الزجاج : معنى « إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ » إِنَّا كُنَّا قَادِرِينَ عَلَى مَا نَشَاءُ . وقيل : « إِنَّا كُنَّا  
فَاعِلِينَ » أى ما وعدناكم وهو كما قال : « كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا » . وقيل : « كَانَ » للإخبار  
بما سبق من قضائه . وقيل : صلة .

(١) هذا القول يحتاج إلى تدبر كما قال الألبانى .



قوله تعالى : وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٥٥﴾ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَالِمِينَ ﴿١٥٦﴾

قوله تعالى : ( وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ ) الزبور والكتاب واحد ؛ ولذلك جاز أن يقال للتوراة والإنجيل زبور . زبرت أى كتبت وجمعه زُبر . وقال سعيد بن جبير : « الزبور » التوراة والإنجيل والقرآن . ( مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ ) الذى فى السماء ( أَنَّ الْأَرْضَ ) أرض الجنة ( يَرْثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ) رواه سفيان عن الأعمش عن سعيد بن جبير . الشعي : « الزبور » زبور داود ، و « الذكر » توراة موسى عليه السلام . مجاهد وابن زيد : « الزبور » كتب الأنبياء عليهم السلام ، و « الذكر » أم الكتاب الذى عند الله فى السماء . وقال ابن عباس : « الزبور » الكتب التى أنزلها الله من بعد موسى على أنبيائه ، و « الذكر » التوراة الملقبة على موسى . وقرأ حمزة « فِي الزُّبُورِ » بضم الزاى جمع زُبر . « أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ » أحسن ما قيل فيه أنه يراد بها أرض الجنة كما قال سعيد بن جبير ؛ لأن الأرض فى الدنيا قد ورثها الصالحون وغيرهم . وهو قول ابن عباس ومجاهد وغيرهما . وقال مجاهد وأبو العالية : ودليل هذا التأويل قوله تعالى : « وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ » وعن ابن عباس : أنها الأرض المقدسة . وعنه أيضا : أنها أرض الأمم الكافرة ترثها أمة محمد صلى الله عليه وسلم بالفتوح . وقيل : إن المراد بذلك بنو إسرائيل ؛ بدليل قوله تعالى : « وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا » وأكثر المفسرين على أن المراد بالعباد الصالحين أمة محمد صلى الله عليه وسلم . وقرأ حمزة « عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ » بنسكين الياء . ( إِنَّ فِي هَذَا ) أى فيما جرى ذكره فى هذه السورة من الوعد والتنبيه . وقيل : إن فى القرآن ( بَلَاغًا لِقَوْمٍ عَالِمِينَ ) قال أبو هريرة وسفيان الثوري : هم أهل الصلوات الخمس . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : « عابدين » مطيعين . والعابد المتنزل الخاضع . قال القشيري : ولا يبعد أن يدخل فيه كل قائل ؛ لأنه من حيث الفطرة متذلل الخالق ، وهو بحيث لو تأمل القرآن واستعمله لأوصله ذلك إلى الجنة . وقال ابن عباس أيضا : هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم الذين يصلون الصلوات الخمس ويصومون شهر رمضان . وهذا هو القول الأول بینه .

قوله تعالى : وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ  
إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ قَهْلٌ أَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ ﴿١٥٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ  
عَلَّزْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ وَإِنْ أَتَدْرِى أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدُ مَا تُوعَدُونَ ﴿١٥٩﴾

قوله تعالى : ( وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ) قال سعيد بن جبير عن ابن عباس قال :  
كان محمد صلى الله عليه وسلم رحمة لجميع الناس فمن آمن به وصديق به سعد ، ومن لم يؤمن  
به سلم مما لحق الأمم من الخسف والفرق . وقال ابن زيد : أراد بالعالمين المؤمنين خاصة .  
قوله تعالى : ( قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ) فلا يحوز الإشراك به .  
( قَهْلٌ أَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ ) أى متقادون لتوحيد الله تعالى ؛ أى فاسلموا ؛ كقوله تعالى : ه قَهْلٌ  
أَنْتُمْ مُّتَّبِعُونَ ه أى آتبعوا .

قوله تعالى : ( فَإِنْ تَوَلَّوْا ) أى إن أعرضوا عن الإسلام ( فَقُلْ أَدْنَيْكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ )  
أى أعلوكم على بيان أنا وإياكم حرب لاصح بيننا ؛ كقوله تعالى : « وَإِنَّا نَخَافُ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ »  
فَأَنذِرُ الْيَوْمَ عَلَىٰ سَوَآءٍ أى أعلوهم أنك قضيت المهد قضا ، أى أسويت أنت وهم فليس لفرق  
عهد مقرر فى حق لفرق الآتى وقال الزجاج : المعنى أعلوكم بما يؤس إلى على استوائ العلم به ،  
ولم أظهر لأحد شيئا كتمته عن غيره . ( وَإِنْ أَتَدْرِى ) ه إن ه نافية بمعنى « ما » أى وما أدري .  
( أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدُ مَا تُوعَدُونَ ) يعنى أجل يوم القيامة لا يدربه أحد لا نبي مرسل ولا ملك  
مقرب ؛ قاله ابن عباس . وقيل : أدنكم بالحرب ولكنى لا أدري متى يؤذن لى فى محاربتكم .

قوله تعالى : إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١٦٠﴾  
وَإِنْ أَتَدْرِى لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكَ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٦١﴾ قُلْ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ  
وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٦٢﴾

قوله تعالى : ( إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ) أى من الشك وهو المجازى  
عليه . ( وَإِنْ أَتَدْرِى لَعَلَّهُ ) أى لعل الإهمال ( فِتْنَةٌ لَّكَ ) أى اختبار ليرى كيف صنيعكم

وهو أتم . ( وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ) قيل : إلى آتخذه الملة . ويدعى أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى بنى أمية في منامه يلون الناس ، تفرج الحُكم من عنده فأخبر بنى أمية بذلك ، فقالوا له : ارجع فسله متى يكون ذلك . فأنزل الله تعالى « وَإِنْ أَذْرَىٰ أَقْرَبُ أَمْ يَبِيدُ مَا يُنصِفُونَ » . « وَإِنْ أَذْرَىٰ لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ » يقول لبيه عليه السلام قل لهم ذلك .

قوله تعالى : ( قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ ) ختم السورة بأن أمر النبي صلى الله عليه وسلم بتبويض الأمر إليه وتوقيع الفرج من عنده ، أى أحكم بيني وبين هؤلاء المكذبين وانصرف عليهم . « روى سعيد عن قتادة قال : كانت الأنبياء تقول : « رَبَّنَا اقْضَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ » فأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقول : « رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ » فكان إذا لقي العدو يقول وهو يعلم أنه على الحق وعدوه على الباطل « رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ » أى أقض به . وقال أبو حنيفة : الصفة هاهنا أقيمت مقام الموصوف والتقدير : رب أحكم بحكك الحق . و « رب » في موضع نصب ؛ لأنه نداء مضاف . وقرأ أبو جعفر بن القعقاع وابن عبيس « قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ » بضم الباء . قال النحاس : وهذا لحن عند النحويين ؛ لا يجوز عندهم رجل أقبل ، حتى تقول ياربجل أقبل أو ما أشبهه . وقرأ الضحاك وطلحة ويعقوب « قَالَ رَبِّي أَحْكُم بِالْحَقِّ » بقطع الألف مفتوحة الكاف والميم مضمومة . أى قال عهدي ربِّي أَحْكُم بِالْحَقِّ من كل جاكم . وقرأ المجبري « قُلْ رَبِّي أَحْكُم » على معنى أحكم الأمور بالحق . ( وَرَبَّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا يَصِفُونَ ) أى تصفونه من الكفر والتكذيب . وقرأ المفضل والسبي « عَلَىٰ مَا يَصِفُونَ » بإلواء على الخبر . الباقيون بالناء على الخطأ .

(١) « قل » على صفة الأمر قراءة ناصح .





# بسم الله الرحمن الرحيم

## تفسير سورة الحج

وهي مكية، يسوى ثلاث آيات : قوله تعالى « هَذَانِ خَصْمَانِ <sup>(١)</sup> إِلَى تِهَامٍ ثَلَاثِ آيَاتٍ » قاله ابن عباس ومجاهد . وعن ابن عباس أيضا أنهن أربع آيات، إلى قوله « عَذَابُ الْحَرِيقِ » . وقال الضحاك وابن عباس أيضا : هي مدنية — وقاله قتادة — إلا أربع آيات : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ — إِلَى — عَذَابُ يَوْمِ حَقِيمٍ » فهن مكيات . وعند النقاش ما نزل بالمدينة عشر آيات . وقال الجمهور : السورة مختلطة، منها مكيات ومنها مدنية . وهذا هو الأصح ؛ لأن الآيات تنص في ذلك، لأن « يَا أَيُّهَا النَّاسُ » مكية، و « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا » مدنية . <sup>(٢)</sup> التَزَيُّوِي : وهي من أعاجيب السور، نزلت ليلا ونهارا، سَفَرًا وَحَضْرًا، مَكِّيًّا وَمَدَنِيًّا، سَلِيًّا وَحَرِيًّا، نَاجِمًا وَمُنْجَمًا، مُتَّحِكًا وَمُنْتَاجِمًا، يختلف العدد .

قلت : وجاء في فضلها ما رواه الترمذي . وأبو داود والدارقطني . عن عتبة بن عامر قال قلت : يا رسول الله، فُضِّلَتِ سورة الحج بأن فيها مجديتين ؟ قال : « نعم، ومن لم يسجدهما فلا يقرأهما » . لفظ الترمذي . وقال : هذا حديث حسن ليس إسناده بالقوي .

واختلف أهل العلم في هذا، فروى عن عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — وابن عمر أنهما قالَا : فُضِّلَتِ سورة الحج بأن فيها مجديتين . وبه يقول ابن المبارك والثاقبي وأحمد وإسحاق . ورأى بعضهم أن فيها سجدة واحدة ؛ وهو قول سفيان الثوري . روى الدارقطني عن عبد الله بن ثعلبة قال : رأيت عمر بن الخطاب يسجد في الحج مجديتين ؛ قلت في الصبح ؟ قال في الصبح .

(٢) آية ٥٢ وما بعدها .

(١) آية ١٩ وما بعدها .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : يَتَأْتِيَا النَّاسُ أَتَقُورَا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ①  
 وروى الترمذي عن عمران بن حصين أن النبي صلى الله عليه وسلم لما نزلت « يا أيها الناس  
 اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم - إلى قوله - ولكن عذاب الله شديد » قال : أنزلت  
 عليه هذه الآية وهو في سفر فقال : « أتدرون أي يوم ذلك ؟ » فقالوا : الله ورسوله أعلم ؛  
 قال : « ذاك يوم يقول الله لأدم أبعث بئس النار قال يا رب وما بعث النار قال تسعائة وتسعة  
 وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة » . فأنشأ المسمون ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه عليه  
 وسلم : « قَارِبُوا وَتَدَبَّرُوا فَإِنَّهُ لَمْ تَكُنْ شُبْرَةً قَطُّ إِلَّا كَانَ بَيْنَ يَدَيْهَا جَاهِلِيَةٌ - قال - فيؤخذ العدد  
 من الجاهلية فإن تمت وإلا كتلت من المنافقين وما مثلكم والأثم إلا كتلت الرقة ② في ذراع الدابة  
 أو كالشامة ③ في جنب البعير - ثم قال - إني لأرجو أن تكونوا رجع أهل الجنة - فكبروا ؛  
 ثم قال - إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة - فكبروا ؛ ثم قال - إني لأرجو أن تكونوا  
 نصف أهل الجنة » فكبروا . قال : لا أدري قال التلثين أم لا . قال : هذا حديث حسن  
 صحيح ، قد روى من غير وجه عن الحسن عن عمران بن حصين . وفيه : فينس القوم حتى  
 ما أبدوا بضاحكة ، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اعملوا وأبشروا فوالذي  
 نفس بيده إنكم لمخلفين ما كانت مع شيء إلا كثرتاه يا جوج وما جوج ومن مات من بني آدم  
 وبني إبليس » قال : فُسرَى عن القوم بصُ الذي يمدون ؛ فقال : « اعملوا وأبشروا فوالذي  
 نفس بيده ما أتم في الناس إلا كالشامة في جنب البعير أو كالرقة في ذراع الدابة » قال :  
 هذا حديث حسن صحيح . وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى  
 الله عليه وسلم : « يقول الله تعالى يا أدم فيقول لبيك وسعديك والخير في يديك - قال -  
 يقول أخرج بئس النار قال وما بعث النار قال من كل ألف تسعائة وتسعة وتسعين ④ قال فذاك

(١) الرقة : الهمة الثالثة في ذراع الدابة . (٢) الشامة : علامة تخالف اليد التي هي فيه .

(٣) في بعض النسخ : « تسعائة وتسعة وتسعون » قال نصب على المفعولية ، والرجح على الخبرية .

حين يَتَّبِعُ الصَّغِيرَ وَتَقَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلًا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ». قال : فاشتد ذلك عليهم ؛ قالوا : يا رسول الله ؛ أينا ذلك الرجل ؟ فقال : « أيسروا فإن من ياجوج ومأجوج ألفا ومنكم رجل ». وذكر الحديث بخبر ما تقدم في حديث عمران بن حصين . وذكر أبو جعفر النحاس قال : حدثنا أحمد بن محمد بن نافع قال حدثنا سلمة قال حدثنا عبد الزاق قال أخبرنا معمر عن قتادة عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال « يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم — إلى — ولكن عذاب الله شديد » قال : نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم وهو في مسير له ، فرفع بها صوته حتى تاب إليه أصحابه فقال : « أتهدون أي يوم هذا هذا يوم يقول الله عز وجل لآدم صلى الله عليه وسلم يا آدم قم فأبست بعت أهل النار من كل ألف تسمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة » . فكبر ذلك على المسلمين ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « سدّدوا وفاربوا وأبشروا فوالذي نفسي بيده ما أتم في الناس إلا الكاشمئة في جنب البعير أو كالرقة في ذراع الحمار وإن معكم خليقتين ما كانتا مع شيء إلا كثرناه ياجوج ومأجوج ومن هلك من كفره الجن والإنس » . قوله تعالى : ( يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ ) المراد بهذا النداء المكثفون ؛ أي أخشوه في أوامره أن تركوها ، ونواهيه أن تُقدِّموا عليها . والأتقاء : الاحتراس من المكروه ؛ وقد تقدم في أول « البقرة » القول فيه مستوفى ، فلا معنى لإعادته . والمعنى : احتسروا بطاعته عن عقوبته .

قوله تعالى : ( إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ) الزلزلة شدة الحركة ؛ ومنه « وَزَلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ <sup>(٢)</sup> » . وأصل الكلمة من زَلَّ عن الموضع ؛ أي زال عنه وتحرك . وزلزل الله قدمه ؛ أي حركها . وهذه اللفظة تستعمل في تهويل الشيء . وقيل : هي الزلزلة المعروفة التي هي إحدى شرائط الساعة ، التي تكون في الدنيا قبل يوم القيامة ؛ هذا قول الجمهور . وقد قيل : إن هذه الزلزلة تكون في النصف من شهر رمضان ، ومن بعدها طلوع الشمس من مغربها ؛ فانه لم يكن .

(١) راجع ج ٨ ص ٦٦٦ طبة ثمانية أرفائة . (٢) راجع ج ٣ ص ٢٢ طبة أول لموتية

قوله تعالى : **يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُفْعَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ۝**

قوله تعالى : ( **يَوْمَ تَرَوُنَّهَا** ) الماء في « **تَرَوُنَّهَا** » عائدة عند الجمهور على الزلزلة ؛ ويقوى هذا قوله عز وجل « **تَفْعَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا** » .  
والإرضاع والحمل إنما هو في الدنيا . وقالت فرقة : الزلزلة في يوم القيامة ؛ واحتجوا بحديث  
عمران بن حصين الذي ذكرناه ، وفيه : « **أُتَدْرَبُونَ أَيُّ يَوْمٍ ذَلِكَ ...** » الحديث . وهو الذي  
يقتضيه سياق مُسلم في حديث أبي سعيد الخدري .

قوله : ( **تَفْعَلُ** ) أي تستعمل ؛ قاله قُطْرُب . وانشد :

ضَرْبًا يُزِيلُ الْمَاءَ عَنْ قَبِيلِهِ • وَيُنْعِلُ الْخَلِيلَ عَنْ خَلِيلِهِ

وقيل تسمى . وقيل تمهؤ . وقيل تسلو ؛ والمعنى متقارب . ( **عَمَّا أَرْضَعَتْ** ) قال  
البرد : « ما » بمعنى المصدر ؛ أي تفعل عن الإرضاع . قال : وهذا يدل على أن هذه  
الزلزلة في الدنيا ؛ إذ ليس بعد البعث حمل وإرضاع . إلا أن يقال : من مات حاملا  
تُبِعَتْ حاملا فتضع حملها للهول . ومن مات مُرْضِعَةً بُعِثَ كذلك . ويقال : هذا  
كما قال الله عز وجل : « **يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِئًا** » . وقيل : تكون مع النفخة الأولى .  
وقيل : تكون مع قيام الساعة ، حتى يتحرك الناس من قورم في النفخة الثانية . ويحصل أن  
تكون الزلزلة في الآخرة عبارة عن أحوال يوم القيامة ؛ كما قال تعالى : « **مَسْتَهْمُ الْيَمَاءِ وَالْعَمْرَاءُ  
وَدَّرُورًا** » . وكما قال عليه السلام : « **أَلْقَهُمْ أَهْرَءَهُمْ وَزَلْزَلَهُمْ** » . وقائدة ذكر هول ذلك اليوم  
التحريض على التأهب له والاستعداد بالعمل الصالح . وتسمية الزلزلة به شيء . إما لأنها

(١) أي الأصول : « يضرب » والحسب من سيرة ابن هشام . وفيه :

فَمَنْ لَفَّظَ كَيْفَ يَلْزِمُ • كَمَا فَتَحَ كَيْفَ يَنْزِلُ

والمرجعه الله بن وراثة ، لم يخبره وهو يخرجه مائة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخل مكة في حرة  
الفضاء . (راجع سيرة ابن هشام) . (٢) آية ١٧ سورة الزلزال . (٣) آية ٢١١ سورة البقرة .



خاصة متيقن وفروها ، فيسبل لك أن تسمى شيا وهي معلومة ، إذ البقين بنه  
 الموجودات . وإما على المال ، أى من إذا وقعت شئ عظيم . وكأنه لم يطلق الاسم  
 الآن ، بل المعنى أنها إذا كانت فهي إن شئ عظيم ، وانك تعلم المراضع ونسك  
 الناس ؛ كما قال : ( وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى ) أى من هويا وما يدركهم من الخوف والفرع .  
 ( وَمَا هُمْ بِسُكَارَى ) من الخمر . وقال أهل المعاني : وترى الناس كأنهم سكارى . يدل عليه  
 قراءة أبي ذؤمة هريم بن عمرو بن جرير بن عبد الله . وَتَرَى النَّاسَ « بضم التاء ، أى تظن  
 ويغفل إليك . وقرا حمزة والكسائي « سَكَرَى » بغير ألف . الباقون « سُكَارَى » وهما لغتان  
 جمع سكران ؛ مثل كُتِلَ وكُتِلَى . والزلزلة : التحريك العنيف . والذهول : الغفلة عن  
 الشئ بطروء ما يشغل عنه من هم أو روجع أو غيره . قال ابن زيد : المسمى ترك ولده  
 للركب الذى نزل بها .

قوله تعالى : وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ  
 كُلَّ شَيْطَانٍ مُّرِيدٍ ① كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ  
 إِلَى عَذَابٍ أَلِيمٍ ②

قوله تعالى : ( وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ) قبل : المراد النضر بن الحارث ،  
 قال : إن الله عز وجل غير قادر على إحياء من قد بلى وعاد ترابا . ( وَيَتَّبِعُ ) أى فى قوله  
 ذلك . ( كُلَّ شَيْطَانٍ مُّرِيدٍ ) ممتد . ( كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ ) قال قتادة ومجاهد :  
 أى من تولى الشيطان . ( فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابٍ أَلِيمٍ )

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَيْتِ فَلَمَّا  
 خَلَقْنَاكُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّفُوسٍ ثُمَّ مِّن عَظْمٍ ثُمَّ مِّن مِّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ  
 وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لَّنَبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقَرِّرِي الْأَرْحَامَ مَا نَشَاءُ إِنَّ أَجَلَ مَسْئِ

ثُمَّ نُخْرِجُكَ طِفْلاً ثُمَّ لِنَبْلُغْهُ أَشُدَّهُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ  
إِلَى أَرْضِهِ الْغَيْرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِئَةً  
فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾  
قوله تعالى : ( يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَيْتِ - إل قوله - مُسَى )

فيه اثنا عشرة مسألة :

الأولى - قوله تعالى : ( إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَيْتِ ) هذا احتجاج على العالم  
بالبداءة الأولى . وقوله : « إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ » منضمته التوفيق . وقراء الحسن بن  
أبي الحسن « الْبَيْت » بفتح البين ؛ وهي لغة في « الْبَيْت » عند البصريين . وهي عند الكوفيين  
بتخفيف « بَيْت » . وللمنى : يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِنَ الْإِعَادَةِ . ( فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ )  
أى خلقنا إياكم الذى هو أصل البشر ؛ يعنى آدم عليه السلام ( مِنْ تُرَابٍ ) . ( ثُمَّ ) خلقنا  
ذريته ( مِنْ طِينَةٍ ) وهو التى ؛ تسمى طينة لقلته ، وهو الغليل من الماء ، وقد يقع على الكثرة  
منه ؛ ومنه الحديث " حتى يسير الراكب بين التطفنتين لا يمشى جَوْراً " . أراد بحر المشرق  
وبحر المغرب . والتطف : القطر . تَطْفٌ يَتَطَفُّ وَيَتَطَفُّ . ولبسة تَطُوفَةٌ دَائِمَةُ الْقَطْرِ .  
( ثُمَّ مِنْ طِينَةٍ ) وهو الدم الجامد . والعلق الدم العييط ؛ أى الطرى . وقيل : للتشديد  
الحمرة . ( ثُمَّ مِنْ مَضْغَةٍ ) وهي لحمه قليلة قدر ما يعضغ ؛ ومنه الحديث " ألا وإن في الجسد  
مَضْغَةً " . وهذه الأطوار أربعة أشهر . قال ابن عباس : وفي الشهر صيد الأشهر الأربعة  
يُنْفِخُ فِيهِ الرُّوحُ ، فذلك حَقْلُ التَّوْقِ عَنْهَا زَوْجَهَا ، أربعة أشهر وعشر .

الثانية - وصى يحيى بن زكريا من أبيه وإمامة حدثنا داود عن ماسر عن علقمة عن  
أبي مسعود وعن ثوبان عن عمران بن مسلمة إذا استخزنت في الرحم أخذها ملك بكلمة فقال « يَا رَبِّ »  
ذكر أم اتى ، شق أم سيده ما الأجل والأثر ، أى أرض تموت ؟ فيقال له أنطلق إلى أم

قوله الآخر ، الثاني ، حيي حقه إلى حسن .

الكتاب فإتاك تجد فيها قصة هذه النطفة ، فيطلق فيجد قصتها في أم الكتاب ، فتخلق  
فما كل رزقها وتطأ أرضها فإذا جاء أجلها قبضت فدفنت في المكان الذي قدر لها ، ثم قرأ  
عاصم « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ فِي رَبِّبٍ مِنَ الْبَئِثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ نَارٍ » . وفي الصحيح  
عن أنس بن مالك - وروى الحديث - قال : « إن الله قد وكل بالرحم ملكا يقول  
أَيُّ رَبِّ نطفةٌ . أَيُّ رَبِّ علقة . أَيُّ رَبِّ مُضغة . فإذا أراد الله أن يقضي خلقا قال قال  
الملك أَيُّ رَبِّ ذَكَرَ أو أَشَى شقٍّ أو سعيد . فما الرزق فما الأجل . فيكتب كذلك في بطن  
أمه » . وفي الصحيح أيضا عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال : سمعت رسول الله صلى  
الله عليه وسلم يقول : « إذا مرَّ بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكا فصورها  
وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها ثم يقول أَيُّ رَبِّ أذكر أم أنثى ... » وذكر  
الحديث . وفي الصحيح عن عبد الله بن مسعود قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم  
وهو الصادق المصدوق « إن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما ثم يكون في ذلك  
علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يُرسل الملك فينفخ فيه الروح ويُصور بأربع كلمات  
يكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد ... » الحديث . فهذا الحديث مفسر للأحاديث  
الأول ، فإن فيه : « يُجمع خلق أحدكم في بطن أمه أربعين يوما نطفة ثم أربعين يوما علقة  
ثم أربعين يوما مضغة ثم يُبعث الملك فينفخ فيه الروح » فهذه أربعة أشهر وفي الشهر ينفخ  
الملك الروح ، وهذه علة التوفيق [ عنها زوجها ] كما قال ابن عباس . وقوله « إن أحدكم  
يُجمع خلقه في بطن أمه » قد فسره ابن مسعود ، مثل الأعمش : ما يجمع في بطن أمه ؟ فقال :  
حدثنا خيشمة قال قال عبد الله : إذا وقعت النطفة في الرحم فأراد الله أن يخلق منها بشرا  
طارقت في بشرة المرأة تحت كل ظفر وشعر ثم تمكث أربعين يوما ثم تصير دما في الرحم ،  
فذلك جمعها ، وهذا وقت كونها علقة .

الثالثة - نسبة الخلق والتصوير للآلئ نسبة مجازية لا حقيقة ، وأن ما صدر عنه  
فعل ما في المضغة كان عند التصوير والتشكيل بقدرة الله وخلقته واختراعه ، ألا تراه سبحانه

قد أضاف إليه الخلقة الحقيقية ، وقطع عنها نسب جميع الخلقة فقال : « وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ » . وقال : « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ . ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ » . وقال : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِنْ الْبَيْتِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نَظْفَةٍ » . وقال تعالى : « هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَتَكُونُ كَافِرًا وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ » . ثم قال : « وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ » . وقال : « لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ » . وقال : « خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ » . إلى غير ذلك من الآيات ، مع ما دلّت عليه قاطعات البراهين أن لا خالق لشيء من المخلوقات إلا رب العالمين . وهكذا القول في قوله : « ثُمَّ يُرْسِلُ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ » أي أن النفخ سبب خلق الله فيها الروح والحياة . وكذلك القول في سائر الأسباب المتعاقبة ، فإنه بإحداث الله تعالى لا ينبره . فتأمل هذا الأصل وتسلّك به ، ففيه النجاة من مذاهب أهل الضلال الطبعيين وغيرهم .

الرابعة - لم يختلف العلماء أن نفخ الروح فيه يكون بعد مائة وعشرين يوماً ، وذلك تمام أربعة أشهر ودخوله في الخامس ؛ كما بيناه بالأحاديث . وعليه يقول فيما يحتاج إليه من الأحكام في الاستئذان عند التنازع ، وفي وجوب النفقات على حمل المطلقات ؛ وذلك لتيقنه بحركة الجنين في الجوف . وقد قيل : إنه الحكمة في عدّة المرأة من الوفاة بأربعة أشهر وعشر ، وهذا المدخول في الخامس يحقق براءة الرحم ببلوغ هذه المدة إذا لم يظهر حمل .

الخامسة - النطفة ليست بشيء يقيناً ، ولا يتعلق بها حكم إذا ألقته المرأة إذا لم تجتمع في الرحم ، فهي كما لو كانت في صلب الرجل ؛ فإذا طرحته طرفة فقد تحققت أن النطفة قد استقرت واجتمعت واستعالت إلى أول أحوال ما يتحقق به أنه ولد . وعلى هذا فيكون وضع العلقه لما فوقها من المضغة وضع حمل ، تبعاً به الرحم ، وتنقضي به العدة ، ويثبت به لها حكم أم الولد . وهذا مذهب مالك رضي الله عنه وأصحابه . وقال الشافعي رضي الله عنه :

- |                           |                            |                           |
|---------------------------|----------------------------|---------------------------|
| (١) آية ١١ سورة الأعراف . | (٢) آية ١٢ سورة المؤمنون . | (٣) آية ٢ سورة التنازين . |
| (٤) آية ٦٤ سورة طه .      | (٥) آية ٤ سورة التين .     | (٦) آية ٢ سورة الحلق .    |
| (٧) في الأصل : « الطائع » |                            |                           |

لا اعتبار بإسقاط الملقبة ، وإنما الاعتبار بظهور الصورة والتخطيط ؛ فإن خفي التخطيط وكان لحما قولان بالنقل والتخريج ، والمنصوص أنه تنقضي به المدة ولا تكون أم ولد . قالوا : لأن المدة تنقضي بالقم الجاري ، فيغيره أولى .

السادسة - قوله تعالى : ( **مُخَلِّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلِّقَةٍ** ) قال الفراء : « **مُخَلِّقَةٍ** تامة التلقين ، و **غَيْرِ مُخَلِّقَةٍ** » السقط ، وقال ابن الأعرابي : « **مُخَلِّقَةٍ** » قد بدأ خلقها ، « **وغير مُخَلِّقَةٍ** » لم تصور بعد . ابن زيد : المخلقة التي خلق الله فيها الرأس واليدين والرجلين ، و **غير مُخَلِّقَةٍ** التي لم يخلق فيها شيء . قال ابن العربي : إذا رجعنا إلى أصل الاشتقاق فإن النطفة والمعلقة والمضغة **مُخَلِّقَةٌ** ، لأن الكل خلق الله تعالى ، وإن رجعنا إلى التصوير الذي هو منتهى المخلقة كما قال الله تعالى : « **ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ** » فذلك ما قال ابن زيد .

قلت : التخليق من الخلق ، وفيه معنى الكثرة ، فما نتاج عليه الأطوار فقد خلق خلقا بعد خلق ، وإذا كان نطفة فهو مخلوق ؛ ولذا قال الله تعالى : « **ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ** » والله أعلم . وقد قيل : إن قوله « **مُخَلِّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلِّقَةٍ** » يرجع إلى الولد بعينه لا إلى السقط ؛ أي منهم من يتم الرب سبحانه مضفته فيخلق له الأعضاء أجمع ، ومنهم من يكون خديجا ناقصا غير تمام . وقيل : المخلقة أن تلد المرأة لتسام الوقت . ابن عباس : المخلقة ما كان حيا ، و **غير المخلقة** السقط . قال :

إني غير المخلقة البكاء . فإن الحزم ويحك والحياه

السابعة - أجمع العلماء على أن الأمة تكون أم ولد بما تسقطه من ولد تام الخلق . وعند مالك والأوزاعي و **غريهما** بالمضغة كانت **مُخَلِّقَةً** أو **غَيْرِ مُخَلِّقَةٍ** . قال مالك : إذا لم يولد منها مضغة . وقال الشافعي وأبو حنيفة : إن كان قد تئين له شيء من خلق بني آدم أصبح لوعين أو غير ذلك فهي له أم ولد . وأجمعوا على أن المولود إذا استهل صارنا يصل عليه ؛ فإن لم يستهل صارنا لم يصل عليه عند مالك وأبي حنيفة والشافعي وغيرهم . وروى عن ابن عمر أنه يصل عليه ؛ وقاله ابن المسيب وابن سيرين و **غريهما** . وروى عن المنية بن شعبة أنه

كَانَ بِأَمْرِ بِالصَّلَاةِ عَلَى السَّقَطِ ، وَيَقُولُ سَمِعْتُمْ وَأَعْلَسْتُمْ وَكَفَّيْتُمْ وَحَطَّوْهُمْ ، فَإِنَّ اللَّهَ أَكْرَمَ بِالْإِسْلَامِ كَبِيرَكُمْ وَصَغِيرَكُمْ ، وَيَتْلُو هَذِهِ آيَةَ « إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تَرَابٍ - إِلَى - وَغَيْرِ عِلْقَةٍ » . قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ : لَعَلَّ الْمَغْيِرَةَ بَنَ شُعْبَةَ أَرَادَ بِالسَّقَطِ مَا تَبَيَّنَ خَلْقُهُ فَهُوَ الَّذِي يُسَمَّى ، وَمَا لَمْ يَتَبَيَّنْ خَلْقُهُ فَلَا وَجُودَ لَهُ . وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ : يَصِلُ عَلَيْهِ مَتَى فُتِحَ فِيهِ الرُّوحُ وَتَمَّتْ لَهُ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ . وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « إِنَّا اسْتَهْلَ الْمَوْلُودَ وَرِثَ » . الْاسْتِهْلَالُ : رَفْعُ الصَّوْتِ ، فَكُلُّ مَوْلُودٍ كَانَ ذَلِكَ مِنْهُ أَوْ حَرَكَةً أَوْ مَطْلَسًا أَوْ تَفْسُّسًا فَإِنَّهُ يَوْرَثُ لَوْجُودَ مَا فِيهِ مِنْ دَلَالَةِ الْحَيَاةِ . وَإِلَى هَذَا نَعَبَ سَفِيَانُ الثَّوْرِيُّ وَالْأَوْزَاعِيُّ وَالشَّافِعِيُّ . قَالَ ابْنُ أَبِي حَتْمٍ : وَأَحْسَنُهُ قَوْلُ أَصْحَابِ الرَّأْيِ . وَقَالَ مَالِكٌ : لَا مِيرَاثَ لَهُ وَإِنْ تَحَرَّكَ أَوْ عَطَسَ مَا لَمْ يَسْتَهْلَ . وَرَوَى عَنْ عَبْدِ بْنِ سِيرِينَ وَالشَّعْبِيِّ وَالزُّهْرِيِّ وَتَفَادَا .

الثامنة - قَالَ مَالِكٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : مَا طَرَحَتْهُ الْمَرْأَةُ مِنْ مَضْغَةٍ أَوْ عِلْقَةٍ أَوْ مَا يَعْلَمُ أَنَّهُ وَلَدٌ إِذَا ضَرَبَ بَطْنُهَا فِيهِهِ الْفَرْزُ <sup>(١)</sup> . وَقَالَ الشَّافِعِيُّ : لَا شَيْءَ فِيهِ حَتَّى يَتَبَيَّنَ مِنْ خَلْقِهِ . قَالَ مَالِكٌ : إِذَا سَقَطَ الْبَحَيْنُ قَلَمَ يَسْتَهْلُ صَارِخًا فِيهِ الْفَرْزُ . وَسَوَاءٌ تَحَرَّكَ أَوْ عَطَسَ فِيهِ الْفَرْزُ أَبَدًا ، حَتَّى يَسْتَهْلُ صَارِخًا فِيهِ الدِّبَةُ كَامِلَةً . وَقَالَ الشَّافِعِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَسَائِرُ فَقَهَاءِ الْأَمْصَارِ : إِذَا طَلَتْ حَيَاتُهُ بِحَرَكَةٍ أَوْ مَطْلَسٍ أَوْ بِاسْتِهْلَالٍ أَوْ بِغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا تَسْتَفِيزُ بِهِ حَيَاتُهُ فِيهِ الدِّبَةُ .

التاسعة - ذَكَرَ الْقَاضِي إِسْمَاعِيلُ أَنَّ مَدَّةَ الْمَرْأَةِ تَنْقُضِي بِالسَّقَطِ لِلْمَوْضُوعِ ، وَاحْتِجَ عَلَيْهِ بِأَنَّهُ حَمْلٌ ، وَقَالَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « وَأُولَئِذْ الْأَحْزَالُ أَجْلَحُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ » <sup>(٢)</sup> . قَالَ الْقَاضِي إِسْمَاعِيلُ : وَالِدَلِيلِ عَلَى ذَلِكَ أَنَّهُ يَرِثُ أَبَاهُ ، فَدَلَّ عَلَى وَجُودِهِ خَلْقًا وَكَوْنَهُ وَلَدًا وَحَمْلًا . قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ : وَلَا يَرْتَبِعُ بِهِ شَيْءٌ مِنْ هَذِهِ الْأَحْكَامِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ عِلْقًا .

قلت : مَا ذَكَرَهُ مِنَ الْأَشْتِقَاقِ وَقَوْلُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : « إِنْ أَحَدُكُمْ تَبَيَّنَ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ » يَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ مَا قُلْنَا ، وَلِأَنَّ مُسْقِطَةَ الْعِلْقَةِ وَالْمَضْغَةَ يَصْدُقُ عَلَى الْمَرْأَةِ إِذَا

(١) هَرَفٌ مَعْدُودٌ ، مَا يَخُصُّ مَعْدُنَ الْمَرْءِ مِنَ الْبَيْدِ وَالْإِبَةِ . (٢) آيَةُ ١ : سُورَةُ الْحَجَّاتِ .

أفنت لأنها كانت حاملا وضمت ما استقر في رحمها، فيشملها قوله تعالى « وَأُولَئِكَ الْأَحْيَاءُ  
الْأَجَلُونَ الَّذِينَ يَضَعْنَ حَمْلَهُمْ » . ولأنها وضعت مبدأ الولد من نطفة متجسدا كالنطفة ،  
وهذا يـ .

السادسة - روى ابن ماجه حقا أبو بكر بن أبي شيبة حقا خالد بن عتق حقا  
يزيد بن عبد الملك التوفيل عن يزيد بن رومان عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله  
عليه وسلم : « لَسَقَطَ أَقْلَمُهُ بَيْنَ يَدَيَّ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ فَارِسٍ أَخْفَهُ [خَفَى] » . وأخرجه  
الحاكم في معرفة علوم الحديث له عن سبيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة فقال :  
« أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَلْفِ فَارِسٍ أَخْفَهُ وَرَأَى » .

الحادية عشرة - ( لَيْسَ لَكُمْ ) يريد : كمال قدرتنا بتصرفنا أطوار خلقكم . ( وَيَمُزُّ  
فِي الْأَرْحَامِ ) قرئ ينصب « قمر » و« يخرج » ، رواه أبو حاتم عن أبي زيد عن المفضل عن  
حاتم قال قال أبو حاتم : النصب على العطف . وقال الزجاج : « قمر » بالرفع لا غير ؛ لأنه  
ليس المعنى : فلما فك لتفر في الأرحام ما نشاء ، وإنما خلقهم عز وجل ليطلعهم على الرشد  
والصلاح . وقيل : المعنى لتبين لهم أمر البعث ، فهو اعتراض بين الكلامين . وقرأت هذه  
الفرقة بالرفع « وقرء » والمعنى : ونحن قرء . وهي قراءة الجمهور . وقرئ : « ووفرء » و« يخرجكم »  
باله ، والرفع على هذا صالح . وقرأ ابن وثاب « ما نشاء » بكسر النون . والأجل المسمى  
يختلف بحسب جبين جبين ، ثم من يسقط وثم من يكمل أمره ويخرج حيا . وقال « ما نشاء »  
ولم يقل من نشاء لأنه يرجع إلى الحمل ، أي يفرق الأرحام ما نشاء من الحمل ومن المضفة  
وهي جلد فكنتي عنها بلفظ ما .

الثانية عشرة - قوله تعالى : ( ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ) أي أطفالا ، فهو اسم جنس  
وأياضا فإن العرب قد تسمى الجمع باسم الواحد ، قال الشاعر ،  
يلعبتي في حبيبا ويلبني . إن الموائد ليس لي بأمير

ولم يقل أمراءه . وقال المبرد : وهو اسم يستعمل مصدرا كالرضا والعسل ، فيقع على الواحد والجمع ؛ قال الله تعالى : « <sup>(١)</sup> أَوِ الْطُّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى حَوَارِي النِّسَاءِ » . وقال الطبري : وهو نصب على التمييز ، كقوله تعالى : « <sup>(٢)</sup> فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا » . وقيل : للمنى ثم تخرج كل واحد منكم طفلا . والطفل يطلق من وقت انفصال الولد إلى البلوغ . وقد كُتِبَ وَحْشِيَّةٌ أيضا لطفل . ويقال : جارية طِفْلٌ ، وجاريتان طِفْلٌ ، وجوارِ طِفْلٌ ، وغلَامٌ طِفْلٌ ، وغلَمان طِفْلٌ . ويقال أيضا : طِفْلٌ وطِفْلةٌ وطفلان وطفلتان وأطفال . ولا يقال : طِفلات . وأطلقت المرأة صارت ذات طفل . والمُطِفِلةُ : الغبية معها طفلها ، وهي قرية عهد بالتاج . وكذلك الناقة ، [والجمع] مطافِلٌ ومطافيل . والطِفْلُ (بالفتح في الطاء) الثام ؛ يقال : جارية طِفْلةٌ أى ناعمة ، وبتان طِفْلٌ . وقد طَفَّلَ الليل إذا أقبل ظلامه . والطِفْلُ (بالتحريك) : بعد المصرا إذا طَفَّت الشمس للغروب . والطِفْلُ (أيضا) : مطر ؛ قال :  
 • لَوْعِدَ جَادَهُ طِفْلٌ نَرِيًّا <sup>(٣)</sup> .

( ثُمَّ تَلَفُّوا أَشَدَّكُمْ ) قيل : إن « ثم » زائدة كالواو في قوله « حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا » ؛ لأن ثم من حروف النسق كالواو . « أَشَدَّكُمْ » كمال عقولكم ونهاية قواكم . وقد مضى في « الأنعام » بيانه . ( وَيَمْنُكُم مِّنْ يَدٍ إِلَىٰ آُرْدَاقِ الْمَوْتِ ) أى أخشاه وأدومته ، وهو القسرم والخرف حتى لا يعقل ؛ ولهذا قال : ( لِيَكْلَأَ بَٰلِغٌ مِّنْ بَٰسِدٍ عَلِمَ شَيْئًا ) . كما قال في سورة يس : « وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّهْ فِي الْخَلْقِ » . وكان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو فيقول : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْبُخْلِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ أُرَدَّ لِي أُرْدَاقِ الْمَمْرُزِ أَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الدُّنْيَا وَعَذَابِ الْقَبْرِ » . أخرجه النسائي عن سعد ، وقال : وكان يعاهدون<sup>(٤)</sup> بنيه كما يعلم المكثيب<sup>(٥)</sup> الغلمان . وقد مضى في التحل هذا المعنى .

(١) آية ٣١ سورة النور . (٢) آية ٤ سورة النساء . (٣) الرعد والوعدة : الطلح من

(الجن) طلاقا كان المنخفض كأنه حفرة . (٤) آية ٧٣ سورة الزمر . (٥) طبع ٧ ص ١٢٤

(٦) آية ٧٤ (٧) المكثيب : العلم . (٨) راجع ٦ ص ١٤٠



قوله تعالى : ( وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً ) ذكر دلالة أقوى على البحث فقال في الأول : « فإنا خلقناكم من تراب » فغاطب جما . وقال في الثاني : « وَتَرَى الْأَرْضَ » فغاطب واحدا ، فافصل اللفظ عن اللفظ ، ولكن المعنى متصل من حيث الاحتجاج على منكرى البحث . ( هَامِدَةً ) يابسة لا تنبت شيئا ، قاله ابن جريج . وقيل : دارسة . والممود الدروس . قال الأعشى :

قالت قُبَيْلَةُ ما لجسمك شاحِبًا \* وأرى ثِيَابَكَ باليَاتِ هُمْدًا

المسروى : « هَامِدَةٌ » أى جافة ذات تراب . وقال ثعلب : يقال : همد شجر الأرض إذا بلى وذهب . وهدمت أصواتهم إذا سكنت . وهوود الأرض ألا يكون فيها حياة ولا نبت ولا عود ولم يصبها مطر . وفي الحديث : « حتى كاد يهدم من الجوع » أى يهلك . يقال : همد الثوب يهدم إذا بلى . وهدمت النار تهمد .

قوله تعالى : ( فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ ) أى تحركت . والاهتزاز : شدة الحركة ، يقال : هز زت الشيء ، فاهتز ، أى حركته فتحرك . وهز الحادي الإبل هززا فاهتزت هى إذا تحركت في سيرها بعدائه . واهتز الكوكب في انقباضه . وكوكب هاز . فالأرض تهتز بالنبات ، لأن النبات لا يخرج منها حتى يزول بعضها من بعض إزالة خفية ، فسماه اهتزازا مجازا . وقيل : اهتز نباتها ، لحذف المضاف ، قاله المبرد . واهتزازه شدة حركته ، كما قال الشاعر :

تَنَّى إِذَا قَامَتْ وَهَتَّرَ إِنْ مَشَتْ \* كما اهترغصن البان في ورق خُضْرٍ

والاهتزاز في النبات أظهر منه في الأرض . ( وَرَبَّتْ ) أى ارتفعت وزادت . وقيل : انتفخت ، والمعنى واحد ، وأصله الزيادة . ربأ الشيء يزود أو زاد ، ومنه الربا والربوة . وقرا يزيد بن النقعاع وخالد بن إلياس « وَرَبَّتْ » أى ارتفعت حتى صارت بمثابة الرينة ، وهو الذى يحفظ القوم على شئ مشرف ، فهو رابئ ورينة على المبالغة . قال امرئ القيس :

بَعَثْنَا رَيْبًا قَبْلَ ذَلِكَ مُخَمَّلًا • كَذَّبَ النَّصَائِي شِي الصَّرَاءَ وَيُنُقِي<sup>(١١)</sup>

(وَأَنْبِئْتُ) أَيِ أَنْجَرْتُ • (مِنْ كُلِّ زَوْجٍ) أَيِ لَوْنٍ • (يُبَيِّحُ) أَيِ حَسَنٍ • عَنْ قَتَادَةَ •  
أَيِ يُبَيِّحُ مِنْ يَرَاهُ • وَالْبَهْجَةُ الْحُسْنُ ؛ يُقَالُ : رَجُلٌ ذُو بَهْجَةٍ • وَقَدْ بَهَّجَ (بِالضَّمِّ) بَهْجَةً وَبَهْجَةً  
فَهُوَ بَهِيحٌ • وَأَبْهَجَنِي أَعْجَنِي بِحَسَنِهِ • وَلَمَّا وَصَفَ الْأَرْضَ بِالْإِنْبَاتِ دَلَّ عَلَى أَنَّ قَوْلَهُ :  
« لَعَنَتُ وَرَبَّتْ » يَرْجِعُ إِلَى الْأَرْضِ لَا إِلَى النَّبَاتِ • وَاللهُ أَعْلَمُ •

قوله تعالى : ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتُونَ وَأَنَّهُمْ عَلَى  
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ⑤ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ  
مَنْ فِي الْقُبُورِ ⑥

قوله تعالى : ( ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ ) لما ذكر انقطار الموجودات إليه وتسخيرها  
على وفق اقتداره واختياره في قوله : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنْ الْمِيعَةِ الَّتِي بَعَثْنَا فِيكُمْ مِنْ قَبْلِ  
يُسُوفَ » ، قَالَ بِعَدِّ ذَلِكَ : « ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتُونَ وَأَنَّهُمْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ  
قَدِيرٌ » وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ • فَنَبَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى  
عِزُّهُ عَلَى أَنْ كُلَّ مَا سِوَاهُ وَإِنْ كَانَ مَوْجُودًا حَقًّا فَإِنَّهُ لَا حَقِيقَةَ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ ؛ لِأَنَّهُ مُسَخَّرٌ  
مُصَرَّفٌ • وَالْحَقُّ الْحَقِيقُ ؛ هُوَ الْمَوْجُودُ الْمَطْلُوقُ النَّفْيُ الْمَطْلُوقُ ؛ وَأَنْ وَجُودَ كُلِّ ذِي وَجُودٍ  
مِنْ وَجُوبِ وَجُودِهِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ فِي آخِرِ السُّورَةِ : « وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ » •  
وَالْحَقُّ الْمَوْجُودُ الثَّابِتُ الَّذِي لَا يَتَنَبَّهُ وَلَا يَزُولُ ، وَهُوَ اللَّهُ تَعَالَى • وَقِيلَ : ذُو الْحَقِّ عَلَى  
عِبَادِهِ • وَقِيلَ : الْحَقُّ بِمَعْنَى فِي أَضَالَةٍ • وَقَالَ الزَّجَّاجُ : « ذَلِكَ » فِي مَوْضِعٍ رَفَعَ ؛ أَيِ الْأَمْرِ  
مَا وَصَفَ لَكُمْ وَيُؤَيِّنُ • ( بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ ) أَيِ لِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ • قَالَ : وَيَحْزَنُ أَنْ يَكُونَ  
(١) الْمُسْتَدَلُّ : الَّذِي يَجْعَلُ قَسَمَهُ ، أَيِ يَسْتَرْفَعُ وَيَسْتَعِزُّ بِشَيْءٍ سِوَاهِ اللَّهِ • وَالنَّفْيُ : النُّجْرُ ؛ وَهِيَ تَقُولُ :  
أَعْيَتْكَ الْقَدَابُ ذُتِبَ النَّفْيُ ؛ وَإِنَّمَا حَادِثُكَ لِأَنَّهُ لَا يَأْخُذُ النَّاسُ إِلَّا إِذَا أَرَادَ أَنْ يَقُولَ : وَالْقَدَارُ (بِالْفَتْحِ) وَالْمَلِكُ ؛  
النُّجْرُ الْكُفُّ فِي الْفَرَادَى يَسْتَرْفَعُ مِنْ حَقْلِ نَفْسِهِ • وَقَلَّانَ يَنْشِي الْقَدَارَ ؛ إِذَا شِئْنِي سَتَفْتَحُوا لِي بِمَعْنَى مَنْ الشُّعْرُ  
(٢) آيَةُ ١٢ (٣) فِي هَذِهِ نَفْسُ الْأَمَلِ « مَعْلُومُ الْحَقِّ أَيِ بِمَعْنَى كَمَا فِي آيَةِ ١٠ » •

« ذلك » نصبا ، أى فصل الله ذلك بأنه هو الحق . ( وَأَنَّهُ يَتَىٰ الْمَوْتَىٰ ) أى بأنه ( وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ) أى وبأنه قادر على ما أراد . ( وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ ) عطف على قوله : « ذلك » بأن الله هو الحق ، من حيث التفظه وليس عطفاً فى المعنى ، إذ لا يقال فصل الله ما ذكر بأن الساعة آتية ، بل لا بد من إضمار فصل يتضمنه ، أى وليعلموا أن الساعة آتية ( لَا رَيْبَ فِيهَا ) أى لا شك . ( وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ) يريد للثواب والعقاب .

قوله تعالى : ( وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ) ١٥ ثَانِي عَطْفُهُ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي النَّاسِ خِزْيٌ وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقَبْرِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ١٦ ذَلِكَ بِمَا قَسَمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَالِمٍ لِّلْعَالَمِينَ ١٧

قوله تعالى : ( وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ) أى يترى الجملة . زلت فى النضرب الحارث . وقيل : فى أبى جهل بن هشام ، قاله ابن عباس . والمعظم على أنها زلت فى النضرب الحارث كآية الأولى ، فهما فى فريق واحد ، واليكرو البالغة فى الدم ، كما تقول للرجل تذهب وتوابعه : أنت فلت هذا ! أنت فلت هذا ! ويحوز أن يكون التكرير لأنه وصفه فى كل آية بزيادة ، فكأنه قال : إن النضرب الحارث يجادل فى الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد ، والنضرب الحارث يجادل فى الله من غير علم ومن غير هدى وكذب منير ، ليضل عن سبيل الله . وهو كقولك : زيد يشتكى وزيد يضربنى ، وهو تكرر مفيد ، قاله الفسرى . وقد قيل : زلت فيه بضع عشرة آية . فالمراد بالآية الأولى إنكاره البعث ، والثانية إنكاره النبوة ، وأن القرآن منزل من جهة الله . وقد قيل : كان من قول النضرب الحارث أن الملائكة بنات الله ، وهذا يجادل فى الله تعالى . « مَنْ » فى موضع رفع بالابتداء . والخبر فى قوله : « وَمِنَ النَّاسِ » . ( ثَانِي عَطْفُهُ ) نصب على المحذوف . وتأكل على معنيين : أحدهما - روى عن ابن عباس أنه قال : هو النضرب الحارث .

لَوَّى صَفْهُ مَرَّةً وَتَطْلَمَ . والمضى الآخر - وهو قول الفراء - أن التفسير: ومن الناس من  
يحادل في الله بغير علم أتى عطفه ، أى مُصِرِّحاً من الذكر؛ ذكره الفلاس . وقال مجاهد  
وقلادة : لا ريباً صفة كقرا . ابن عباس : مُصِرِّحاً عما يُدْعَى إليه كقرا . والمضى واحد .  
وروى الأوزاعي عن محمد بن حسين عن هشام بن حسان عن ابن عباس في قوله من وجل :  
« أَتَى عِطْفُهُ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » قال : هو صاحب البدعة . للبرد : اللطف ما أتى من  
البرق . وقال المنفصل : واللطف الجانب ؛ ومنه قولهم : فلان ينظر في اصطافه ، أى في جوانبه .  
وعطفاً الرجل من لَدُنْ رأسه إلى وَرَئِهِ . وكذلك عطفاً كل شئ - جانباً . ويقال : تقي  
فلان حتى عطفه إذا أمرض منك . فالمضى : أى هو معرض عن الحق في جداله ومُؤَلِّ  
عن النظر في كلامه ؛ وهو كقوله تعالى : « وَوَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا » . وقوله تعالى :  
« قُوًّا رُدُّوهُمْ » . وقوله : « أَعْرَضَ وَتَأَيَّ بِمَآيِهِ » . وقوله : « دَخَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَمُتِلَى » .  
( لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ) أى عن طاعة الله تعالى . وقرئ « لِيُضِلَّ » بفتح الياء . واللام  
لام العاقبة ؛ أى يحادل فيضل ؛ كقوله تعالى : « لِيَكُونَ لَهُمْ عَذَابٌ وَخِيراً » . أى فكان لهم  
كذلك . وظاهره « وَإِذَا فَرَغْتَ مِنْكُمْ رَبِّهِمْ يَنْبِرُكُونَ » . لِيَكْفُرُوا . ( لَهُ فِي الدُّنْيَا نَزْرُ ) أى هو ان  
وفد بما يجري له من الذكر الفصح على السنة المؤمنين إلى يوم القيامة ؛ كما قال : « وَلَا تُطِيعُ  
كُلَّ جَلَّافٍ مِثْلِهِ » الآية . وقوله تعالى : « تَبَّتْ بَدَأُ أَيْ قَلْبٍ وَتَبَّ » . وقيل : الخزي  
ما هنا القتل ؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم قتل النضر بن الحارث يوم بدر صبراً ؛ كما خدم  
في أمر الأهل . ( وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ) أى نار جهنم . ( فَذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ  
بِمَاكَ ) أى يقال له في الآخرة إذا دخل النار : ذلك العذاب بما قدمت بك من المعاصي  
والكفر . ومعباً باليد عن الجملة ؛ لأن اليد التي تفعل وتطيش للجملة . و « ذَلِكَ » بمعنى هذا ،  
كما تقدم في أول البقرة :  
(١) آية ٧ سورة لقمان . (٢) آية ٥ سورة المائدة . (٣) آية ٨٣ سورة الإسراء .  
(٤) آية ٢٣ سورة قهاة . (٥) آية ٨ سورة انفص . (٦) آية ٥٤ سورة النسا .  
(٧) آية ١٠ سورة هلم . (٨) راجع ص ١٥٧ طبة ثانية أرفق .

قوله **صل** : **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ذَلِكَ هُوَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ۝**

قوله **صل** : ( **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ** ) « من » في موضع رفع بالابتداء ، والتمام « **وَأَنقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ** » هل قرأه اليهود « **خَيْرَ** » . وهذه الآية خبر عن المنافقين . قال ابن عباس : يريد شيعة بن ربيعة كان قد أسلم قبل أن يظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما أوسى إليه أوتد شيعة بن ربيعة . وقال أبو سعيد الخدري : أسلم رجل من اليهود فذهب بعيره وماله ، فتسلم بالإسلام فاتى النبي صلى الله عليه وسلم قال : **أَتَيْتُ** ! فقال : « **إِنَّ الْإِسْلَامَ لَا يُقَالُ** » فقال : **إِنِّي لَمْ أَصِبْ فِي دِينِي هَذَا خَيْرًا** ! ذهب بصرى ومالي وولدي ! فقال : « **يَا يَهُودِي** ! إِنَّ الْإِسْلَامَ يَمْسُكُ الرَّجُلَ كَمَا تَمْسُكُ النَّارُ خَبَثَ الْحَدِيدِ وَالنُّفْعَةَ وَالنَّعْبَ » ، فأنزل الله تعالى « **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ** » . وروى إسرائيل عن أبي حصين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : « **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ** » قال : كان الرجل يقدم للمدينة فإن ولدت كسرته علامة ونجحت خيله قال هذا دين صالح ، فإن لم تكد كسرته ولم تنجح خيله قال هذا دين سوء . وقال المفسرون : **نزلت في أمراء كانوا يقدمون على النبي صلى الله عليه وسلم فيسلبون ،** فإن نالوا رستم أقاموا ، وإن نالهم شتموا ارتفعوا . وقيل **نزلت في النصارى للخلوت .** وقال ابن زيد وغيره : **نزلت في المبغضين .** ومعنى ( **على حرف** ) **على شك** ، **قال** **بجاهد وغيره .** وحقيقته أنه على ضعف في جلده ، كضعف القائم على حرف مضطرب فيه . و**حرف** كل شيء طرفة وشيفه وحده ، ومنه حرف الجبل ، وهو أعلاه المحتد . وقيل : « **على حرفه** أي على وجه واحد ، أو هو أن يعبد على السراء دون الضراء ، ولو عبدوا الله على الشكر في السراء والصبر على الضراء لما عبدوا الله على حرف . » وقيل : « **على حرف** » على شرط ، وذلك أن شيعة بن ربيعة قال للنبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يظهر أمره : **أُوحِيَ لِي بِكَ أَنَّهُ يَزُوقُ مَلَأَ وَهَلَا**

وخلا وولنا حتى أؤمن بك وأطيع إلى دينك؛ فدعا له فرزقه الله عز وجل ما تمنى؛ ثم أراد  
 الله عز وجل فتنه واختباره وهو أعلم به فأخذ منه ما كان رزقه بعد أن أسلم فارتد عن الإسلام  
 فأنزل الله تبارك وتعالى فيه : « وَمِنَ النَّاسِ مَن يَبْعِدُ اللَّهُ عَلَىٰ حَرْفٍ » يريد شرط . وقال  
 الحسن : هو المنافق يبعد الله بلسانه دون قلبه . وبالجملة فهذا الذي يبعد الله على حرف ليس  
 داخلا بكتبه؛ وبين هذا بقوله : ( فَإِن أَصَابَهُ خَيْرٌ ) حصّة جسم ورخاء مديدة رضى وأقام  
 على دينه . ( وَإِن أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ) أى خلاف ذلك مما يختبر به ( أَغْلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ ) أى أرادت  
 فرجع إلى وجهه الذى كان عليه من الكفر . ( خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ )  
 قرأ مجاهد وحيد بن قيس والأعرج والزهرى وابن أبي إسحاق - وروى عن يعقوب -  
 « خَيْرَ الدُّنْيَا » بآلف، نصبا على الحال، وعليه فلا يوقف على « وجهه » . وخسرانه الدنيا  
 بأن لا حظ له فى غنيمة ولا ثناء، والآخرة بأن لا ثواب له فيها .

قوله تعالى : يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نَنْفَعُهُ ذَلِكَ  
 هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ١٧

قوله تعالى : ( يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ ) أى هذا الذى يرجع إلى الكفر يبعد الصنم الذى  
 لا ينفع ولا يضر . ( ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ) قال الزبيدي : الطويل .

قوله تعالى : يَدْعُوا لِمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَيْتَ لِمَوْلَىٰ  
 وَلَيْتَ لِّلْعَشِيرِ ١٨

قوله تعالى : ( يَدْعُوا لِمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ ) أى هذا الذى انقلب على وجهه يدعو  
 من ضره لدنى من نفعه؛ أى فى الآخرة لأنه بعبادته دخل النار، ولم ير منه نفعاً أصلاً، ولكنه  
 قال : ضره أقرب من نفعه ترفيعاً للكلام؛ كقوله تعالى : « وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَّ هُدًى  
 أَوْفَىٰ ضَلَالٍ مِّبِينَ » <sup>(١٩)</sup> وقيل : يبدونهم توهم أنهم يشعرون لهم ضلوكا؛ قال الله تعالى :  
 (١٩) آية ٢٤ سورة سبا .

« وَعِبَادُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ »  
 وقال تعالى : « مَا تَدْعُهُمْ إِلَّا لِيُقَرَّبُوا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى » . وقال الفراء والكسائي والزجاج : معنى  
 الكلام القسم والتأخير ؛ أى يدعو واقع لمن ضره أقرب من نفعه . فاللام مقدمة في غير  
 موضعها . و « مَنْ » في موضع نصب بـ « يدعو » واللام جواب القسم . و « ضره » مبتدأ  
 و « أقرب » خبره . وضعت النحاس تأخير اللام وقال : وليس لآمن أن التصرف ما يوجب  
 أن يكون فيها تقديم ولا تأخير .

قلت : حق اللام التقديم وقد تؤثر ؛ قال الشاعر :

خالي لانت ومن جريراً خاله • ينيل العلاء ويكرم الأخوالا

أى طال أنت ؛ وقد تقدم . النحاس : وحكى لنا على بن سليمان عن محمد بن يزيد قال :  
 في الكلام حذف ؛ والمعنى يدعو لمن ضره أقرب من نفعه إلهاً . قال النحاس : وأحسب  
 هذا القول غلطاً على محمد بن يزيد ؛ لأنه لا معنى له ؛ لأن ما بعد اللام مبتدأ فلا يجوز نصبه  
 إليه ، وما أحسب مذهب محمد بن يزيد إلا قول الأخفش ، وهو أحسن ما قيل في الآية  
 عندى ، واقع أعلم ، قال : « يدعو » بمعنى يقول . و « من » مبتدأ وخبره محذوف ، والمعنى  
 يقول لمن ضره أقرب من نفعه إلهه .

قلت : وذكر هذا القول القشيري رحمه الله عن الزجاج والمهدوي عن الأخفش ، وكُل  
 إعرابه فقال : « يدعو » بمعنى يقول ، و « من » مبتدأ ، و « ضره » مبتدأ ثان ، و « أقرب »  
 خبره ، والجملة صلة « مَنْ » ، وخبر « مَنْ » محذوف ، والتقدير يقول لمن ضره أقرب من  
 نفعه إلهه ؛ ومثله قول عنترة :

يدعون عنتراً والرياح كأنها • أنطوان بثر في لبنان الأدهم<sup>(٢)</sup>

قال القشيري : والكافر الذى يقول الصنم مبدوى لا يقول ضره أقرب من نفعه ؛ ولكن  
 المعنى يقول الكافر لمن ضره أقرب من نفعه في قول المسلمين مبدوى وإلهى . وهو كقولهم

(١) آية ٢٨ سورة يونس . (٢) آية ٢ سورة الزمر . (٣) الأنطوان : جمع شطن ، وهو جبل  
 كثير . والبيان (فتح اللام) : الصغر . والأدهم : القرس . ويدان الرياح في صدر هذا القرس بمنزلة حبال الطير من  
 الهاد ؛ لأن الطير إذا كانت كثيرة اضطربت اضطربت لقلوبها فيجبل لها حبلان ثلاثا تضرب . (عن شرح المحقق)

تعالى : « يَا أَيُّهَا السَّارُّ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ » ؛ أى يابها السارعه عند أولئك الذين يدعونك سارحاً . وقال الزجاج : يجوز أن يكون « يدعو » فى موضع الحال ، وفيه هاء محذوفة ؛ أى ذلك هو الضلال البعيد يدعو ، أى فى حال دعائه إياه ؛ ففى « يدعو » هاء مضمومة ، ويوقف على هنا على « يدعو » . وقوله : « لَمَنْ ضَرَّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ » كلام مستأنف مرفوع بالابتداء ، وخبره « لَيْتَنِي الْمَوْتَى » ، وهذا لأن اللام لليمين والتوكيد بفعلها أزل الكلام . قال الزجاج : ويلوز أن يكون « ذلك » بمعنى الذى ، ويكون فى محل النصب بوقوع « يدعو » عليه ؛ أى الذى هو الضلال البعيد يدعو ؛ كما قال : « وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَا مُوسَى » أى ما الذى . ثم قوله « لَمَنْ ضَرَّهُ » كلام مبتدأ ، و « لَيْتَنِي الْمَوْتَى » خبر المبتدأ ؛ وتقدير الآية على هذا : يدعو الذى هو الضلال البعيد ؛ قدم المفعول وهو الذى ؛ كما تقول : زيدنا يضرب ؛ واستحسنه أبو علي . وزعم الزجاج أن التحوين أغفلوا هذا القول ؛ وأنشد :

عَدَسٌ مَا لِعِبَادٍ عَلَيْكَ إِمَارَةٌ \* نَجْوَىٰ وَهَذَا تَحْمِيلٌ طَلِقُ (٢١)

أى والذى . وقال الزجاج أيضا والقراء : يجوز أن يكون « يدعو » مكررة على ما قبلها ، على جهة تكثير هذا الفعل الذى هو الدعاء ، ولا تعدبه إذ قد عدته أولاً ؛ أى يدعو من دون الله ما لا ينفعه ولا يضره يدعو ؛ مثل ضربت زيدا ضربت ، ثم حذف يدعو الإضافة إكفاء بالأولى . قال الفراء : ويجوز « يَدْعُو » بكسر اللام ؛ أى يدعو إلى من ضره أقرب من نفعه ، قال الله عز وجل : « بَانَ رَبُّكَ آتَوْنِي لَمَّا » أى إليها . وقال الفراء أيضا والقفال : اللام صلة ؛ أى يدعو من ضره أقرب من نفعه ، أى يبدئه . وكذلك هو فى قراءة عبد الله بن مسعود . (لَيْسَ الْمَوْتَى) أى فى التناصر (وَيَنْفَسُ الْعَسِيرُ) أى المعاصر والصاحب والغليل . مجاهد : معنى الوثن .

(١) آية ٤٩ سورة الزمر . (٢) هذا البيت أول أبيات ليزيد بن ربيعة بن مفرغ الحميري . وعبد  
 جبر لقتل يسر . وعبد هو ابن زباد أخو عبد الله بن زباد الذي قاتل الحسين بن علي رضي الله عنهما في كربلاء .  
 سماه ابن مفرغ هذا عادا لحقد عليه وسفاه ، فأخذ أخوه عبد الله وجبه وعذبه ، لما طالع جبه دخل أهل اليمن إلى  
 صنعاء فتفصوا فيه فأطلق سراحه . (راجع ترجمته في كتاب التمر والشراء لابن تيمية وتراية الأدب البغدادي في الشاهد  
 الثالث بعد النكتة والثامن والعشرين بعد الأربعمائة ) .



قوله تعالى : **إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ** ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ( **إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ** ) لما ذكر حال المشركين وحال المنافقين والشياطين ذكر حال المؤمنين في الآخرة أيضا . ( **إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ** ) أى شئب من يشاء ويغضب من يشاء ؛ فلهذا وسى الجنة بحكم وعده الصديق وبفضله ، وللكافرين النار بما سبق من عذبه ؛ لا أن فعل الرب معال بفعل العبيد .

قوله تعالى : **مَنْ كَانَ يَظُنْ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ** ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ( **مَنْ كَانَ يَظُنْ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ** ) قال أبو جعفر النحاس : من أحسن ما قيل فيها أن المعنى من كان يظن أن لن ينصر الله عما صلى الله عليه وسلم وأنه يتيأ له أن يقطع النصر الذى أوتيه . ( **فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ** ) أى فليطلب حيلة يصل بها إلى السماء . ( **ثُمَّ لْيَقْطَعْ** ) أى ثم ليقطع النصر إن يتيأ له . ( **فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ** ) وحيلته ما يغيظه من نصر النبي صلى الله عليه وسلم . والفائدة في الكلام أنه إذا لم يتيأ له الكيد والحيلة بأن يفعل مثل هذا لم يصل إلى قطع النصر . وكذا قال ابن عباس : إن الكفاية في « ينصره الله » ترجع إلى عهد صلى الله عليه وسلم ، وهو وإن لم يمر ذكره بجمع الكلام دال عليه ؛ لأن الإيمان هو الإيمان بالله وبمحمد صلى الله عليه وسلم ، والافتلاب من الدين افتلاب من الدين الذى أتى به عهد صلى الله عليه وسلم ؛ أى من كان يظن ممن يمادى عما صلى الله عليه وسلم ومن يعبد الله على حرف أنا لا تنصر عما ليفعل كذا وكذا . ومن ابن عباس أيضا أن الهاء تعود على « من » والمعنى : من كان يظن أن الله لا يرزقه فليقتل نفسه ؛ إذ لا خير في حياة تخلو من عون الله . والنصر على هذا القول الرزق ؛

تقول العرب : من ينصرني نصره الله ؛ أى من أعطاني أعطاء الله . ومن ذلك قول العرب : أرض منصورة ؛ أى منطورة . قال الفهري<sup>(١)</sup> :

وانك لا تعطى امرأ فوق حقه . ولا تملك الشئ الذى النيت ناصره

وكذا روى ابن أبى نجیح عن مجاهد قال : « من كان يظن أن لن ينصره الله » أى لن يرزقه . وهو قول أبى عبيدة . وقيل : إن الهاء تعود على الذين ؛ والمعنى : من كان يظن أن لن ينصر الله دينه . ( قَلِيمٌ دَسِيسٌ ) أى مجبل . والسبب ما يتوصل به إلى الشئ . ( إلى السماء ) إلى سقف البيت . ابن زيد : هى السماء المعروفة . وقرأ الكوفيون « ثم ليقطع » بإسكان اللام . قال النحاس : وهذا بعيد فى العربية ؛ لأن « ثم » ليست مثل الواو والفاء ؛ لأنها يوقف عليها وتنفرد . وفى قراءة عبد الله « فليقطعه ثم ليظهر هل يذهبن كيده ما يغيظ » . قيل : « ما » بمعنى الذى ؛ أى هل يذهبن كيده الذى يغيظه ، فحذف الهاء ليكون أخف . وقيل : « ما » بمعنى المصدر ؛ أى هل يذهبن كيده غيظه .

قوله تعالى : وَكَذَلِكَ أَرْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدَى  
مَنْ يُرِيدُ<sup>(١٦)</sup>

قوله تعالى : ( وَكَذَلِكَ أَرْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ) يعنى القرآن . ( وَأَنَّ اللَّهَ ) أى وكذلك أن الله ( يَهْدَى مَنْ يُرِيدُ ) ، علق وجود الهداية بإرادته ؛ فهو الهادى لا هادى سواه .

قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغِينَ وَالنَّصَارَى  
وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ  
إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ<sup>(١٧)</sup>

قوله تعالى : ( إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ) أى بالله وبمحمد صلى الله عليه وسلم . ( وَالَّذِينَ هَادُوا ) اليهود ، وهم المنتسبون إلى ملة موسى عليه السلام . ( وَالصَّابِغِينَ ) هم قوم يصبون للنجوم .

(١) فى الأصول الفهري . والمصوب عن تفسير القرطبي .

( وَالتَّعَارَى ) هم المنسوبون الى لغة عيسى . ( وَالْمُجُوسَ ) هم عبدة النيران القائلين أن العالم أصليين : نور وظلمة . قال قتادة : الأديان خمسة ، أربعة للشيطان وواحد للرحمن . وقيل : المجوس في الأصل النجوس لندبتهم باستهلاك النجاسات ، والميم والنون يتماقبان كالنيم والغبين ، والأزيم والأين . وقد مضى في البقرة هذا كله مستوفى . ( وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ) هم العرب عبدة الأوثان . ( إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ) أى يقضى ويحكم ، فالكافرين النار ، ولؤميين الجنة . وقيل : هذا الفصل بأن يترفع الحق من البطل بمعرفة ضرورية ، واليوم يتميز الحق عن البطل بالنظر والاستدلال . ( إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ) أى من أعمال خلقه وحركاتهم وأقوالهم ، فلا يترتب عنه شئ منها ، سبحانه ! وقوله « إن الله يفصل بينهم » خبر « إن » في قوله « إن الذين آمنوا » ، كما نقول : إن زيداً إن الخبر عنده . وقال الفراء : ولا يجوز في الكلام إن زيداً إن أخاه منطلق ، وزعم أنه إنما جاز في الآية لأن في الكلام معنى المجازاة ، أى من آمن ومن تهود أو تنصر أو صبا يفصل بينهم ، وحسابهم على الله عز وجل . ورد أبو إسحاق على الفراء هذا القول ، واستصح قوله : لا يجوز إن زيداً إن أخاه منطلق ، قال : لأنه لا فرق بين زيد وبين الذين و « إن » تدخل على كل مبتدأ فتقول إن زيداً هو منطلق ، ثم تأتى بإذن فتقول : إن زيداً إنه منطلق . وقال الشاعر :

إن الخليفة إن الله مَرَّبَلَهُ • يرمال عزته تَرَبَّى الخواتيم<sup>(١٧)</sup>

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَتَّى عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿١٨﴾

(١) راجع ١٦ ص ٤٢٢ طبة ثانية أو ثالثة . (٢) يريد « دحس » بلزى والجيم والازجا . السوق . والخواتيم جمع الخاتم لغة في الخاتم . يريد أن سلاطين الآفاق يرسلون إليه خواتيم خرقاً منه فيضاف ملكهم إلى ملكه . وهذا البيت من قصيدة لجرير يمدح بها عبد العزيز بن عبد الملك . ( عن خزنة الأديب ) .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾ هذه رؤية القلب ؛ أى ألم تربطك وعقلك . وتقدم معنى السجود في « البقرة » ، وسجود الجناد في « النمل »<sup>(١)</sup> .  
 ﴿ وَالشَّمْسُ ﴾ معطوفة على « مَنْ » . وكذا ﴿ وَالْقَمَرُ وَالْجُودُ وَالْجَبَلُ وَالشَّجَرُ وَالنَّوَابُ ﴾ وكثير من الناس . ثم قال : ﴿ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْمَذَابُ ﴾ وهذا مشكل من الإعراب ، كيف لم ينصب لمعطف ما عمل فيه الفعل على ما عمل فيه الفعل ؛ مثل « وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا »<sup>(٢)</sup> ؟  
 فزعم الكسائي والقرطبي أنه لو نصب لكان حسا ، ولكن أخير الرفع لأن المعنى وكثير أبى السجود ؛ فيكون ابتداء وخبراً ، وتم الكلام عند قوله « وكثير من الناس » . ويجوز أن يكون معطوفاً ، على أن يكون السجود التذلل والالتحاق لتدبير الله عز وجل من ضعف وقوة وصحة وسقم وحسن وقبح ، وهذا يدخل فيه كل شيء . ويجوز أن ينصب على تقدير : وأهان كثيراً حق عليه المذاب ، ونحوه . وقيل : تم الكلام عند قوله « والنَّوَابُ » ثم أبتدأ فقال : « وكثير من الناس » في الجنة « وكثير حق عليه المذاب » . وكذا روى عن ابن عباس أنه قال : المعنى وكثير من الناس في الجنة وكثير حق عليه المذاب ؛ ذكره ابن الأثير . وقال أبو العالية : ما في السموات نجم ولا قمر ولا شمس إلا يقع ساجداً لله حين يفتب ، ثم لا ينصرف حتى يؤذن له فيرجع من مطلعه . قال القشيري : وورد هذا في خبر مسند في حق الشمس ؛ فهذا يسجد حقيق ، ومن ضرورته تركيب الحياة والعقل في هذا الساجد .

قلت : الحديث المسند الذي أشار إليه خرجه مسلم ، وسأني في سورة « يس » عند قوله تعالى : « وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا » . وقد تقدم في البقرة معنى السجود لغة ومعنى .  
 قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَنْ يَنْ أَفَّا لَهُ مِنْ مَّكْرٍ ﴾ أى من أهانه بالشقاء والكفر لا يقدر أحد على دفع الهوان عنه . وقال ابن عباس : إن من تهان بعبادة الله صار إلى النار ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَقَعْلُ بِمَا يَتَّأَمُّ ﴾ يريد أن مصيرهم إلى النار فلا اعتراض لأحد عليه . وحكى الأخفش والكسائي والقرطبي : « وَمَنْ يَنْ يَنْ أَفَّا لَهُ مِنْ مَّكْرٍ » أى إكرام .

(١) راجع ج ١ ص ٢٩١ طبعة ثانية أو الثالثة .

(٢) راجع ج ١ ص ١٠٢

(٣) آية ٢٨

(٤) سورة الإنسان

قوله تعالى : هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَأَلْدَيْنَ كُفْرُوَا  
قُطِعَتْ لَهُمْ نِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ يُّصَّبُ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١١﴾ يُصْهِرُ بِهِ  
مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿١٢﴾ وَلَهُمْ مَقْمِعٌ مِّنْ حَدِيدٍ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : ﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ﴾ يخرج مسلم عن قيس بن عباد قال :  
سمعت أبا ذرٍّ يَحمُ قسماً إن « هذان خصمان اختصموا في ربهم » إنما نزلت في الذين برزوا يوم  
يدر : حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث رضي الله عنهم ورواية وثيبة بنت ربيعة والوليد بن عتبة .  
وبهذا الحديث ختم مسلم رحمه الله كتابه . وقال ابن عباس : نزلت هذه الآيات الثلاث  
على النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة في ثلاثة نفر من المؤمنين وثلاثة من الكافرين ؛ وسماهم ،  
كما ذكر أبو ذر . وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : إنى لأؤول من يبحو للخصومة بين  
يدى الله يوم القيامة ؛ يريد قصته في مبارزته هو وساحبه ؛ ذكره البخاري . وإلى هذا  
القول ذهب هلال بن يساف وعطاء بن يسار وغيرهما . وقال عكرمة : المراد بالخصمين الجنة  
والنار ؛ اختصمتا فقالت النار : خلقتي لعنوبته . وقالت الجنة خلقتي لرحمته .

قلت : وقد ورد بتخاصم الجنة والنار حديثٌ عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى  
الله عليه وسلم : ” إحتجت الجنة والنار فقالت هذا يدخلني الجبارون والمتكبرون وقالت  
هذه يدخلني الضعفاء والمساكين فقال الله تعالى لهذه أنت عذابي أعذب بك من أشاء وقال  
لهذه أنت رحمتي أرحم بك من أشاء ولكل واحدة منكما مئوذا “ . أخرجه البخاري ومسلم  
والترمذي وقال : حديث حسن صحيح . وقال ابن عباس أيضا : هم أهل الكتاب قالوا  
للمؤمنين نحن أولى بالله منكم ، وأقدم منكم كتابا ، ونينا قبل نبيكم . وقال المؤمنون : نحن أحق  
بالله منكم ، أمنا بمحمد وآمنا بنبيكم وبما أنزل إليه من كتاب ، وأتم تعرفون نينا وتركتموه  
وكفرتم به حسدا ؛ فكانت هذه خصومتهم ، وأزلت فيهم هذه الآية . وهذا قول قتادة ،  
والقول الأول أصح رواه البخاري عن عجاج بن ميثال عن هشيم عن أبي هاشم عن أبي مجلز عن

قيس بن عباد عن أبي ذر ، ومسلم عن عمرو بن زُرارة عن هُشم ، ورواه سليمان التيمي عن أبي عجلان عن قيس بن عباد عن علي قال : فينا نزلت هذه الآية وفي مبارزتنا يوم بُدِد « هذان خصمان اختصموا في ربهم » - إلى قوله - عذاب الحريق » . وقرأ ابن كثير « هذان خصمان » بتشديد النون من « هذان » . وتأول الفراء الخَصْمَين على أنهما فريقان أهل دينين ، وزعم أن الخصم الواحد المسلمون والآخرون اليهود والنصارى ، اختصموا في دين ربهم ؛ قال : فقال « اختصموا » لأنهم جمع ، قال : ولو قال « اختصما » لحاز . قال النحاس : وهذا تأويل من لا دراية له بالحديث ولا بكتب أهل التفسير ؛ لأن الحديث في هذه الآية مشهور ، رواه سفيان الثوري وغيره عن أبي هاشم عن أبي عجلان عن قيس بن عباد قال : سمعت أبا ذر يُقسم قسماً إن هذه الآية نزلت في حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب وعتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة . وهكذا روى أبو عمرو بن العلاء عن مجاهد عن ابن عباس . وفيه قول رابع أنهم المؤمنون كلهم والكافرون كلهم من أي ملة كانوا ؛ قاله مجاهد والحسن وعطاء بن أبي رباح وعاصم بن أبي النجود والكلبي . وهذا القول بالعموم يجمع المتزل فليسهم وغيرهم . وقيل : نزلت في الخصومة في البعث والجزاء ؛ إذ قال به قوم وأنكره قوم . ( فَأَلْذِنَ كُفْرُوا ) تعني من الفرق الذين تقدم ذكرهم . ( قُطِعَتْ لَهُمْ نِيَابٌ مِنْ نَارٍ ) أي خيطت وسُويت ؛ وشبهت النار بالنياب لأنها لباس لهم كالتياب . وقوله ( قُطِعَتْ ) أي تقطع لهم في الآخرة ثياب من نار ؛ وذكر بلفظ الماضي لأن ما كان من أخبار الآخرة فالمراد منه كالواقع الحقيق ؛ قال الله تعالى : « وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ «<sup>(١)</sup> أَلْبَسُواهُنَّ إِذَا صَارُوا إِلَى النَّارِ . وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جَبْرِ : « مِنْ نَارٍ » مِنْ نَحَاسٍ ؛ فَتِلْكَ الثِّيَابُ مِنْ نَحَاسٍ قَدْ أَذِيَتْ وَهِيَ السَّرَابِيلُ الْمَذْكُورَةُ فِي « قَطْرِ آيٍ »<sup>(٢)</sup> . وَلَيْسَ فِي الْآيَةِ شَيْءٌ إِذَا جِي

(١) آية ١١٦ سورة المائدة . (٢) أي في قوله تعالى : « سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطَرَانِ » آية ٥٠ سورة إبراهيم . فقد قرئ « مِنْ قَطَرَانِ » و« قَطْرِ آيٍ » الحُسن والغفر المذاب . والآي التي انتهى إلى حَرْفِ .  
راجع ص ٩٠ ص ٢٨٥

يكون أشدَّ حرًّا منه . وقيل : المعنى أن النار قد أحاطت بهم كإحاطة الثياب المقطوعة إذا لبسوها عليهم ؛ فصارت من هذا الوجه ثيابا لأنها بالإحاطة كالثياب ؛ مثل « وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا » . ( يُصَبُّ مِنْ قَوْقُ رُومِهِمُ الْحَمِيمُ ) أى الماء الحار المثلَّب بنار جهنم . وروى الترمذى عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الحميم يُصَبُّ على رومهم فينفذ الحميم حتى يتخلَّص إلى جوفه فيسبَّ ما في جوفه حتى يمرَّق من قدميه وهو الصَّهر ثم يعاد كما كان » . قال : حديث حسن صحيح غريب . ( يُصْهَرُ ) يذاب . ( يَدِّ مَا فِي بَطُونِهِمْ ) والصَّهر إذابة الشمع . والصَّهارة ما ذاب منه ؛ يقال : صهرت الشيء فأصهره ؛ أى أذنته فذاب ، فهو صهير . قال ابن حجر يصف فرخ قطاة :

تَرَوِي لَيَّ اللَّيِّ فِي صَفْصِفٍ • خَصْرُهُ الشَّمْسُ فَمَا يَتَصَهَّرُ<sup>(١)</sup>

أى تذيبه الشمس فيصبر على ذلك . ( وَالْجُلُودُ ) أى وتُحرق الجلد ، أو تُسوى الجلد ؛ فإن الجلد لا يذاب ، ولكن يُصَمِّم في كل شيء ما يليق به ؛ فهو كما تقول : أتيته فاطمئني ثريدا ، أى واقه ولينا قارصا ؛ أى وصفانى لبا . وقال الشاعر :

عَلَفَتْهَا تَبْنَا وَمَاءُ بَارِدَا •

( وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حديدٍ ) أى يضربون بها ويدفعون ؛ الواحدة مِقْمَعَة ، ويقمَع أيضا كما يفتحجن ، يضرب به على رأس الفيل . وقد قمعته إذا صرته بها . وقمعه وأقمعه بمعنى ؛ أى فهتره وأذلته فأقمعه . قال ابن السكيت : أقمعت الرجل عني إقصاء إذا طلع عليك فرددته عنك . وقيل : المقامع المطارق ، وهى المرازب أيضا . وفى الحديث « بيد كل ملك من تمرته جهنم مرزبة لها شعبتان فيضرب الضربة فيهوى بها سبعين ألفا » . وقيل : المقامع سياط من نار ، وتسميت بذلك لأنها تقمع المضروب ؛ أى تذله .

(١) آية ١٠ سورة الباء . (٢) تروى : تسوق إليه الماء ، أى نصبره كالزأوية . والقي ( بالفتح ) :

الشيء الملقى لهوائه . والصفصف : المستوى من الأرض . (٣) القارص : الحاضر من البان الزيل

خاصة . وقيل : القارص العين الذى يحذى اللسان ؛ ولم يخصص .

قوله تعالى : كَلَّمَآ أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا

وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : (كَلَّمَآ أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا) أى من النار . (أُعِيدُوا فِيهَا) بالضرب بالمقامع . وقال أبو طيآن : ذكر لنا أنهم يحاولون الخروج من النار حين تجيش بهم وتفور فتلقى من فيها إلى أعلى أبوابها فيريدون الخروج فتعيدهم الخزان إليها بالمقامع . وقيل : إذا اشتد غمهم فيها فروا؛ فن حلق منهم إلى شفيرها أعادتهم الملائكة فيها بالمقامع ، ويقولون لهم (ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ) أى المحرق؛ مثل الألم والوجيع . وقيل : الحريق الآسم من الاحتراق . تحرق الشيء بالنار وأحرق ، والاسم الحرقنة والحريق . والذوق : مائة يحصل منها إدراك الطعم ؛ وهو هنا توسع ، والمراد به إدراكهم الألم .

قوله تعالى : إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُجْلُونَ فِيهَا مِنْ أَسْوَدٍ مِنْ ذَهَبٍ وَلَوْؤَا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾

قوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) لما ذكر أحد الخصمين وهو الكافر ذكر حال الخصم الآخر وهو المؤمن . (يُجْلُونَ) فِيهَا مِنْ أَسْوَدٍ مِنْ ذَهَبٍ « من » صلة . والأسوار جمع أسورة ، وأسورة واحدة سوار ؛ وفيه ثلاث لغات : ضم السين وكسرها وإسوار . قال المفسرون : لما كانت الملوك تلبس في الدنيا الأساور والتيجان جعل الله ذلك لأهل الجنة ، وليس أحد من أهل الجنة إلا وفي يده ثلاثة أسورة : سوار من ذهب ، وسوار من فضة ، وسوار من لؤلؤ . قال هنا وفي فاطمة :<sup>(١)</sup>

(١) هذا على مذهب الأخفش وفكره في الذين يجزون زيادة « من » في الإيجاب . أما الذين لا يجزون زيادتها في الإيجاب قال بعضهم إنها تنجس ، وبعضهم إنها لا ابتداء ، وبعضهم إنها يائية . (راجع البحر المحيط وروح المعاني في الكلام عن هذه الآية) .  
(٢) آية ٢٢



« مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا » وقال في سورة الإنسان : « وَحُلُوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ . »  
 وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة سمعت خليل صلى الله عليه وسلم يقول : « تبلغ الحيلة  
 من المؤمن حيث يبلغ الوضوء » . وقيل : تُحَلَّى النساء بالذهب والرجال بالفضة . وفيه نظر ،  
 والقرآن يرده . ﴿ وَلُؤْلُؤًا ۚ قَرَأَ نَافِعُ وَابْنُ الْقَعْقَاعِ وَشَيْبَةُ وَعَاصِمٌ هُنَا وَفِي سُورَةِ الْمُلَاطَاةِ  
 « لُؤْلُؤًا » بالنصب ، على معنى وَيُحَلُّونَ لُؤْلُؤًا ، واستدلوا بأنها مكتوبة في جميع المصاحف هنا  
 بالثاء . وكذلك قرأ يعقوب والجدري وعيسى بن عمر بالنصب هنا والنقص في « ناطر » .  
 اتباما للمصحف ، ولأنها كتبت ها هنا بالثاء وهناك بنبر ألف<sup>(٢)</sup> . الباقيون بالنقص في الموضعين .  
 وكان أبو بكر لا يهزم « اللؤلؤ » في كل القرآن ، وهو ما يستخرج من البحر من جوف  
 الصدف . قال الفشيري : والمراد ترصيع السوار باللؤلؤ ، ولا يبعد أن يكون في الجنة سوار  
 من لؤلؤ مصمت<sup>(٣)</sup> .

قلت : وهو ظاهر القرآن بل نصه . وقال ابن الأنباري : من قرأ « ولؤلؤ » بالنقص  
 وقف عليه ولم يقف على الذهب . وقال السجستاني : من نصب « اللؤلؤ » فالوقف الكافي  
 « من ذهب » ؛ لأن المعنى ويحلون لؤلؤا . قال ابن الأنباري : وليس كما قال ، لأننا إذا  
 خفضنا « اللؤلؤ » نسقناه على لفظ الأساور ، وإذا نصبناه نسقناه على تأويل الأساور ، وكأننا  
 قلنا : يحلون فيها أساور ولؤلؤا ، فهو في النصب بمنزلة في النقص ، فلا معنى لقطعه من الأول .  
 قوله تعالى : ﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ أي وجميع ما يلبسونه من قُرُوشهم ولباسهم وستورهم  
 حرير ، وهو أعلى مما في الدنيا بكثير . وروى النسائي عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه  
 وسلم قال : « من ليس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة ومن شرب الخمر في الدنيا لم يشربه  
 في الآخرة ومن شرب في آنية الذهب والفضة لم يشرب فيها في الآخرة — ثم قال رسول الله  
 صلى الله عليه وسلم — لباس أهل الجنة وشراب أهل الجنة وآنية أهل الجنة » . فإن قيل :  
 قد سؤى النبي صلى الله عليه وسلم بين هذه الأشياء الثلاثة وأنه يُجرَّمُها في الآخرة ، فهل يجرَّمُها

(١) آية ٢١ (٢) الذي في المصنف طمة الحكوة المصرية أنها بالألف في الموصين .

(٣) المصمت : الذي لا يتخلله غيره .

إذا دخل الجنة ؟ قلنا : نعم ! إذا لم يَتَب منها حَرَمُها في الآخرة وإن دخل الجنة ؛ لاستعماله ما حرم الله عليه في الدنيا . لا يقال : إنما يُحَرَّم ذلك في الوقت الذي يَعْذِب في النار أو يطول مقامه في الموقف ، فاما إذا دخل الجنة فلا ؛ لأن حرمان شيء من لذات الجنة لمن كان في الجنة فروع عقوبة ومؤاخذه ، والجنة ليست بدار عقوبة ، ولا مؤاخذه فيها بوجه . فإذا نقول : ما ذكرتموه محتمل ، لولا ما جاء ما يدفع هذا الاحتمال ويرده من ظواهر الحديث الذي ذكرناه . وما رواه الأئمة من حديث ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم "من شرب الخمر في الدنيا ثم لم يَتَب منها حَرَمُها في الآخرة" . والأصل التمسك بالظاهر حتى يرد نص يدفعه ؛ بل قد ورد نص على صحة ما ذكرناه ، وهو ما رواه أبو داود الطيالسي في مسنده : حَدَّثَنَا هِشَامُ عَنْ قَتَادَةَ عَنْ دَاوُدَ السَّرَاجِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : "مَنْ لَبَسَ الْحَرِيرَ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَلْبَسْهُ فِي الْآخِرَةِ وَإِنْ دَخَلَ الْجَنَّةَ لَبَسَهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ وَلَمْ يَلْبَسْهُ هُوَ" . وهذا نص صريح وإسناده صحيح . فإن كان " وإن دخل الجنة لبسه أهل الجنة ولم يلبسه هو " من قول النبي صلى الله عليه وسلم فهو النافية في البيان ، وإن كان من كلام الراوي على ما ذكره فهو أعلم بالمقال وأقصد بالحال ، ومثله لا يقال بالرائي ، والله أعلم . وكذلك " من شرب الخمر ولم يَتَب " و " من استعمل آنية الذهب والفضة " وكما لا يشتهي مثله من هو أرفع منه ، وليس ذلك بعقوبة ، كذلك لا يشتهي نعيم الجنة ولا حريرها ولا يكون ذلك عقوبة . وقد ذكرنا هذا كله في كتاب التذكرة مستوفى ، والحمد لله ، وذكرنا فيها أن شجر الجنة ونحوها يتفق عن ثياب الجنة ، وقد ذكرناه في سورة الكهف <sup>(١)</sup> .

قوله تعالى : **وَهْدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهْدُوا إِلَى صِرَاطِ**

**الْحَمِيدِ ⑦**

قوله تعالى : ( **وَهْدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ** ) أى أرشدوا إلى ذلك . قال ابن عباس : يريد لا إله إلا الله والحمد لله . وقيل : القرآن ، ثم قيل : هذا في الدنيا ، هُتُوا إلى الشهادة ،

وقرأ القرآن . ﴿ وَهَدُّوا إِلَى صِرَاطٍ مُبِينٍ ﴾ أى إلى صراط الله . وصراط الله : دينه وهو الإسلام . وقيل : هُدُوا في الآخرة إلى الطيب من القول ، وهو الحمد لله ، لأنهم يقولون غدا الحمد لله الذى هدانا لهذا ، الحمد لله الذى أنجب عنا الحزن ، فليس في الجنة لغو ولا كذب فأقولونه فهو طيب القول . وقد هُدُوا في الجنة إلى صراط الله ، إذ ليس في الجنة شيء من مخالفة أمر الله . وقيل : الطيب من القول ما يأتيهم من الله من الإنشادات الحمسة . ﴿ وَهَدُّوا إِلَى صِرَاطٍ مُبِينٍ ﴾ أى إلى طريق الجنة .

قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَبَدِ فِيهِ وَالْأَبَادِ وَمَنْ يَرِذْ فِيهِ بِالْحُبِّاطِ يُظْلَمِ نَذْرُهُ مِنْ عَذَابِ إِلِيمٍ ﴿٥٥﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ ﴾ أعاد الكلام إلى مشرك الغرب حين صدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المسجد الحرام عام الحديبية ، وذلك أنه لم يعلم لهم صد قبل ذلك الجمع ، إلا أن يريد صدعهم لأفراد من الناس . فقد وقع ذلك في صدر البعثة . والصد : المنع ، أى وهم يصدون . وبهذا حسن عطف المستقبل على الماضي . وقيل : الواو زائدة « ويصدون » خبر « إن » . وهذا مفسد للنفى المقصود ، وإنما الخبر محذوف مقدر عند قوله « والباد » تقديره : خسروا إذ هلكوا . وجاء « ويصدون » مستقبلا إذ هو فصل يُدْعَوْنَ ، كما جاء قوله تعالى : « الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ » فكانه قال : إن الذين كفروا من شأنهم الصد . ولو قال إن الذين كفروا وصدوا لحاز . قال النحاس : وفي تخلي عن أبي إسحاق قال وجائز أن يكون - وهو الوجه - الخبر « نَذْرُهُ مِنْ عَذَابِ إِلِيمٍ » . قال أبو جعفر : وهذا غلط : ولست أعرف ما الوجه فيه ، لأنه جاء بخبر « إن » جزاء ، وأيضا

فانه جواب الشرط، ولو كان خبر « إن » لبقى الشرط بلا جواب، ولا سيما والفعل الذي في الشرط مستقبل فلا بُدَّ له من جواب .

الثانية - قوله تعالى : ( **وَالْمَسْجِدَ الْحَرَامَ** ) قيل : إنه المسجد نفسه، وهو ظاهر القرآن ؛ لأنه لم يذكر غيره . وقيل : الحرم كله ؛ لأن المشركين صدّوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه عنه عام الحديبية ، فنزل خروجا عنه ؛ قال الله تعالى : « **وَصَدَّكُمْ** عن المسجد الحرام » وقال : « **سُبْحَانَ الَّذِي أَمْرِي بِعِيدَ لَيْلًا** من المسجد الحرام » . وهذا صحيح ، لكنه قصد هنا بالذكر المهم المقصود من ذلك .

الثالثة - قوله تعالى : ( **الَّذِي جَعَلَنَاهُ لِلنَّاسِ** ) أى للصلاة والطواف والعبادة ؛ وهو كقوله تعالى : « **إِنَّا أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ** » . ( **سَوَاءٌ أَلَمَّا كُفَّ فِيهِ وَالْأَبَادُ** ) المالك : المقيم الملازم . والبايدى : أهل البادية ومن يقدّم عليهم . يقول : سواء في تعظيم حرمة وقضاء النسك فيه الحاضر وادى يأتيه من البلاد ؛ فليد . أهل مكة أحق من النازح إليه . وقيل : إن المساواة إنما هي في دوره ومنازله ؛ ليس المقيم فيها أولى من الطائر عليها . وهذا على أن المسجد الحرام الحرم كله ؛ وهذا قول مجاهد ومالك ، رواه عنه ابن القاسم . وروى عن عمرو بن عباس وجماعة إلى أن القادم له التزول حيث وُجد ، وعلى رب المنزل أن يؤويه شاء أو أبى . وقال ذلك سفيان الثوري وغيره . وكذلك كان الأمر في الصدر الأفل ، كانت دورهم بغير أبواب حتى كثرت السرقه ؛ فاتخذ رجل بابا فانكر عليه عمر وقال : أتتلق بابا في وجه حاج بيت الله ؟ فقال : إنما أردت حفظ متاعهم من السرقه ؛ فتركه فاتخذ الناس الأبواب . وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أيضا أنه كان يأمر في الموسم بقلع أبواب دور مكة ، حتى يدخلها الذي يقدم فيترل حيث شاء ، وكانت الفساطيط تضرب في الدور . وروى عن مالك أن الدور ليست كالمسجد ولأهلها الامتناع منها والاستيئاد ؛ وهذا هو العمل اليوم . وقال بهذا جمهور من الأمة .

وهذا الخلاف ينشأ على أصليين : أحدهما أن دور مكة هل هي ملك لأربابها أم للناس .  
والخلاف سيان : أحدهما هل فتح مكة كان عتوة فتكون مغنومة ، لكن النبي صلى الله عليه وسلم  
لم ينسبها وأفرها لأهلها ولمن جاء بعدهم ؛ كما فعل عمر رضي الله عنه بأرض السواد وعفا لهم  
عن الخراج كما عفا عن سبهم واسترقاقهم إحسانا إليهم دون سائر الكفار فتنبى على ذلك  
لا تباع ولا تُكرى ، ومن سبق إلى موضع كان أولى به . وبهذا قال مالك وأبو حنيفة  
والأوزاعي . أو كانت فتحها صلحا - وإليه ذهب الشافعي - فتنبى ديارهم بأيديهم ،  
وفي أملاكهم يتصرفون كيف شاؤوا . وروى عن عمر أنه اشترى دار صفوان بن أمية  
بأربعة آلاف وجعلها سجنًا ، وهو أول من حبس في السجن في الإسلام ، على ما تقدم بيانه  
في آية المحاربين من سورة « المائدة » <sup>(١)</sup> . وقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم حبس في ثُمة .  
وكان طاوس يكره السجن بمكة ويقول : لا ينبغي لبيت عذاب أن يكون في بيت رحمة .  
قلت : الصحيح ما قاله مالك ، وعليه تدل ظواهر الأخبار الثابتة بأنها فتحت عتوة .  
قال أبو عبيد : ولا نعلم مكة يشبهها شيء من البلاد . وروى الدارقطني عن علقمة بن نضلة  
قال : توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما وما تدعى رباع مكة  
إلا السوايب ؛ من احتاج سكن ومن استغنى أسكن . وزاد في رواية : وعثمان . وروى أيضا  
عن علقمة بن نضلة الكوفي قال : كانت تدعى بيوت مكة على عهد رسول الله صلى الله عليه  
وسلم وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما السوايب ، لا تباع ؛ من احتاج سكن ومن استغنى أسكن .  
وروى أيضا عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله تعالى حرم مكة  
لحرام بيع رباعها وأكل ثمنها - وقال - من أكل من أجر بيوت مكة شيئا فإنما يأكل بارا » .  
قال الهارقي : كذا رواه أبو حنيفة مرفوعا ووجه فيه ، ووجه أيضا في قوله عبيد الله بن أبي يزيد  
وإنما هو ابن أبي زياد الفساح ، والصحيح أنه موقوف ، وأسد الدارقطني أيضا عن  
عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مكة منأخ لا تباع ورباعها ولا تؤاجر »

بيوتها». وروى أبو داود عن غنثة رضى الله عنها قالت: قلت يا رسول الله، ألا أجى لك بمنى بينا أو بناء يطْلُك من الشمس؟ فقال: «لا، إنما هو مناح من سيق إليه». وتمسك الشافعي رضى الله عنه بقوله تعالى: «الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ» فأسافها إليهم. وقال عليه السلام يوم الفتح: «من أغلق بابهُ فهو آمن ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن».

الرابعة — قرأ جمهور الناس «سواء» بالرفع، وهو على الابتداء، و«الماكف» خبره. وقيل: الخبر «سواء» وهو مقدم؛ أى الماكف فيه وإنبادى سواء؛ وهو قول أبي علي، والمعنى: الذى جعلناه للناس قلة أو متعددا الماكف فيه والبادى سواء. وقرأ حفص عن عاصم «سواء» بالنصب. وهى قراءة الأعمش. وذلك يَحْتَمِلُ أيضا وجهين: أحدهما — أن يكون مفعولا ثانيا لجعل، ويرتفع «الماكف» به لأنه مصدر، فأعمل عمل أسم الفاعل لأنه فى معنى مستوي. والوجه الثانى — أن يكون حالا من الصمير فى جعله. وقرأت فرقة «سواء» بالنصب «الماكف» بالخفض: و «البادى» عطفا على الناس؛ التقدير: الذى جعلناه للناس الماكف والبادى. وقراءة ابن كثير فى الوقف والوصل بالياء، ووقف أبو عمرو بغير ياء ووصل بالياء. وقرأ نافع بغير ياء فى الوصل والوقف. وأجمع الناس على الاستواء فى نفس المسجد الحرام، واختلفوا فى مكة؛ وقد ذكرناه.

الخامسة — (وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ الْإِحَادِ يَظْلَمْ) شرط، وجوابه «يُنْذِقَهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ». والإحاد فى اللغة: الميل؛ إلا أن الله تعالى بين أن الميل بالظلم هو المراد. واختلف فى الظلم؛ فروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس «من يرد فيه بالإحاد يظلم» قال: الشرك. وقال عطاء: الشرك والقتل. وقيل: معناه صيد حمامه، وقطع شجره، ودخوله غير محرم. وقال ابن عمر: كما تحدث أن الإحاد فيه أن يقول الإنسان: لا والله! وبلى والله! وكلا والله! ولذلك كان له فسطاطان. أحدهما فى الجبل والآخرى الحرم؛ فكان إذا أراد الصلاة دخل فسطاط الحرم، وإذا أراد بعص شأنه دخل فسطاط الجبل، حيانة لقرم عن قولهم كلا والله وبلى والله، حين عظم الله الذنب فيه. وكذلك كان لعبد الله بن عمرو بن العاص فسطاطان أحدهما

في الليل والآخر في الحرم ، فإذا أراد أن يعاتب أهله عاتبهم في الليل ، وإذا أراد أن يصلّي في الحرم ، قيل له في ذلك فقال : إن كنا لتعلمت أن من الإلحاد في الحرم أن يقول كلا والله ويلي والله ، والمعاصي تضاعف بمكة كما تضاعف الحسنات ، فتكون المعصية معصيتين ، إحداهما بنفس المخالفة والثانية بإسقاط حرمة البلد الحرام ، وهكذا الأشهر الحرم سواء . وقد تقدم . وروى أبو داود عن يعل بن أمية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " احتكار الطعام في الحرم إلحاد فيه " . وهو قول عمر بن الخطاب . والمعوم يأتي على هذا كله .

السادسة — ذهب قوم من أهل التأويل منهم الضحاك وابن زيد إلى أن هذه الآية تدل على أن الإنسان يعاقب على ما ينويه من المعاصي بمكة وإن لم يعملها . وقد روى نحو ذلك عن ابن مسعود وابن عمر قالوا : لو هم رجل يقتل رجلاً بهذا البيت وهو ( بعدن آين )<sup>(١)</sup> لمذبه الله .

قلت : وهذا صحيح ، وقد جاء هذا المعنى في سورة « ن والقلم » ميئاً ، على ما يأتي بيانه هناك إن شاء الله تعالى .

السابعة — الباء في « بإلحاد » زائدة كزيادتها في قوله تعالى : « تَنبُتُ بِاللُّغْنِ »<sup>(٢)</sup> ، وعليه حملوا قول الشاعر :

من بنو جعدة أصحاب الفلج • نضرب بالسيف وترجو بالقرج

أراد : نرجو الفرج . وقال الأعمش :

• ضمنت برزق عيلانا أرمأحنا •

أي رزقي . وقال آخر<sup>(٣)</sup> :

ألم ياتيك والأنبياءُ تنبي • بما لاقت لبون بن زياد

(١) عدن : مدينة مشهورة واقعة بالقرب من مدخل البحر الأحمر ، وتضاف الـ « آين » وهو محلات عدن .

(٢) آية ٢٠ سورة المزمل . (٣) الطلح (شريك ثانية) : موضع لبن بسدة بن قيس نجد ، وهو في أهل بلاد قيس ( راجع سيم ما استعجم وكتاب نزاة الأدب في الشاهد التاسع والثمانين بعد السابعة ) .

(٤) القائل هو قيس بن زهير البسبي ، شاعر جاهلي . وهو من قصيدة دالية قالها غياً كأنه يمجده ويخبره الرجع ابن زياد البسبي . ( راجع نزاة الأدب في الشاهد السادس والثلاثين بعد السبعة ) .

أى ما لاقت؛ والباء زائدة، وهو كثير . وقال الفراء: سمعت أعرابيا وسأته عن شيء فقال:  
أرجو بذاك، أى أرجو ذاك . وقال الشاعر :

بِوَادِيٍّ يَمَانٍ يَنْهَتْ الشَّتَّ صَدْرُهُ • وَأَسْفَلَ بِالْمَرْخِ وَالشَّبَابِ<sup>(١)</sup>

أى المرخ . وهو قول الأخفش، والمعنى عنده : ومن يرد فيه إلحادا يظلم . وقال الكوفيون :  
دخلت الباء لأن المعنى بأن يلحد، والباء مع أن تدخل وتحذف . ويحوز أن يكون التقدير :  
ومن يرد الناس فيه بإلحاد . وهذا الإلحاد والظلم يجمع جميع المعاصي من الكفر إلى الصغائر؛  
فلعظم حرمة المكان توعد الله تعالى على نية السيئة فيه . ومن نوى سيئة ولم يعملها لم يحاسب  
عليها إلا في مكة . هذا قول ابن مسعود وجماعة من الصحابة وغيرهم ، وقد ذكرناه آنفا .

قوله تعالى : وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ فِي شَيْءًا  
وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾

فيه مستطان :

الأولى - قوله تعالى : (وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ) أى واذكر إذ بَوَّأْنَا لإبراهيم؛  
قال : بَوَّأْتُهُ مَثَلًا وبَوَّأْتُ لَهُ . كما يقال : مَكَّنْتُكَ وَمَكَّنْتُ لَكَ ؛ فاللام في قوله : « لإبراهيم »  
صلة للتأكيد ؛ كقوله : « رَدِّفْ لَكُمْ »<sup>(٢)</sup> ، وهذا قول الفراء . وقيل : « بَوَّأْنَا لإبراهيم مكان  
البيت » أى أَرَبْنَاهُ أَصْلَهُ لِيَتَنَبَّهُ ، وكان قد دَرَسَ بالطوفان وغيره ، فلما جُمِعَتْ مَدَّةُ إِبْرَاهِيمَ  
عليه السلام أَمَرَهُ اللهُ بِبَنَائِهِ ، بَغَاءَ إِلَى مَوْضِعِهِ وَجَعَلَ يَطْلُبُ أَثَرًا ، فَبَعَثَ اللهُ رِيحًا فَكَشَفَتْ  
عَنْ أَاسَاسِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَتَرَبَّ قَوَاعِدُهُ عَلَيْهِ ؛ حَسْبًا تَقْدِمُ بَيَانَهُ فِي « الْبَقَرَةِ »<sup>(٣)</sup> . وقيل :  
« بَوَّأْنَا » نَازِلَةٌ مَثَلَةٌ فَعَلَّ يَتَعَدَّى بِاللَّامِ ؛ كَنَحْوِ جَعَلْنَا ، أَيْ جَعَلْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ مَبُوءًا .  
وقال الشاعر :

كَمْ مِنْ أَخٍ لِي مَا جِدَ • بَوَّأْتُهُ بِيَدِي لِحَدَا<sup>(٤)</sup>

(١) الشَّت : شجر طيب الريح من العلم يندب به . والمَرْخ : شجر كثير النار . والشَّبَاب : نبت شائك  
له ورد ليف أحمر . (٢) آيَةُ ٧٢ سُورَةِ النَّمْلِ . (٣) رَابِعٌ ج ٢ ص ١٢٢ طَبْعَةٌ ثَانِيَةٌ .  
(٤) البيت من قصيدة لسرو بن عبدكرب الزبيدي .



الثانية - ( أَنْ لَا تُشْرِكْ ) هي مخاطبة لإبراهيم عليه السلام في قول الجمهور . وقرا  
 عكمة « أَنْ لَا يُشْرِك » بالياء، على نقل معنى القول الذي قيل له . قال أبو حاتم : ولا بد  
 من نصب الكاف على هذه القراءة ، بمعنى لئلا يشرك . وقيل : إن « أَنْ » مخففة من  
 التثنية . وقيل مفسرة . وقيل زائدة ؛ مثل « فلما أن جاء البشير<sup>(١)</sup> » . وفي الآية طعن  
 على من أشرك من قُطَّان البيت ؛ أي هذا كان الشرط على أبيكم فمن بعده وأتم ، فلم تقوا  
 بل أشركتم . وقالت فرقة : الخطاب من قوله « أَنْ لَا تُشْرِك » لمحمد صلى الله عليه وسلم ؛  
 وأمر بتطهير البيت والأذان بالبح . والجمهور على أن ذلك لإبراهيم ؛ وهو الأصح . وتطهير  
 البيت عام في الكفر والبدع وجميع الأنجاس والدماء . وقيل : عني به التطهير عن الأوثان ؛  
 كما قال تعالى : « فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ » ؛ وذلك أن جُرْهُمَا والعاقلة كانت لهم أصنام  
 في محل البيت وحوله قبل أن يبينه إبراهيم عليه السلام . وقيل : المعنى نزهة يبقى عن أن يعبد  
 فيه صنم . وهذا أمر بإظهار التوحيد فيه . وقد مضى ما للعلماء في تزيه المسجد الحرام وغيره  
 من المساجد بما فيه كفاية في سورة « براءة » . والقائمون هم المصلون . وذكر تعالى من أركان  
 الصلاة أعظمها ، وهو القيام والركوع والسجود .

قوله تعالى : وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَا تُؤَكُّ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ  
 يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾  
 فيه سبع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ( وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ ) قرا جمهور الناس « وَأَذِّنْ » بتشديد  
 الذال . وقرا الحسن بن أبي الحسن وابن محيى « وَأَذِّنْ » تخفيف الذال ومذ الألف .  
 ابن عطية : وتصحف هذا على ابن جني ، فإنه حكى عنهما « وَأَذِّنْ » على أنه فعل ماض ،  
 وأصرب على ذلك بأن جملة عطفها على « بؤانا » . والأذان الإعلام ، وقد تقدم في « براءة » .

(١) آية ٩٦ سورة يوسف . (٢) آية ٣٠ من هذه السورة . (٣) راجع ج ٨ ص ١٠٤  
 طبعة أول أو ثانية . (٤) ج ٨ ص ٦٩

الثانية - لما فرغ إبراهيم عليه السلام من بناء البيت ، وقيل له : أذن في الناس بالبح ، قال : يا رب ! وما يبلغ صوتي ؟ قال : أذن وعلى الإبلان ، فصعد إبراهيم خليل الله جبل أبي قيس وصاح : يا أيها الناس ! إن الله قد أمركم بحج هذا البيت ليثبتكم به الحجة ويحييكم من عذاب النار ، فحجوا ، فأجابه من كان في أصلاب الرجال وأرحام النساء : لَيْتَكَ اللَّهُمَّ لَيْتَكَ ! فن أجاب يومئذ على قدر الإجابة ، إن أجاب مرة فرة ، وإن أجاب مرتين فمرتين ، ووجرت التلبية على ذلك ؛ فله ابن عباس وابن جبير . وروى عن أبي الطفيل قال قال لي ابن عباس : أتدري ما كان أصل التلبية ؟ قلت لا ! قال : لما أمر إبراهيم عليه السلام أن يؤذن في الناس بالبح خفضت الجبال رموسها ورفعت له القرى ، فنادى في الناس بالبح فأجابه كل شيء : لَيْتَكَ اللَّهُمَّ لَيْتَكَ . وقيل : إن الخطاب لإبراهيم عليه السلام ثم عند قوله « السجود » ، ثم خاطب الله عز وجل عبدا عليه الصلاة والسلام فقال « وأذن في الناس بالبح » ؛ أي أعلمهم أن عليهم الحج . وقول ثالث - إن الخطاب من قوله « أن لا تشرك » مخاطبة للنبي صلى الله عليه وسلم . وهذا قول أهل النظر ؛ لأن القرآن أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم ، فكل ما فيه من مخاطبة فهمي له إلا أن يدل دليل قاطع على غير ذلك . وهاتان دليل آخر يدل على أن مخاطبة للنبي صلى الله عليه وسلم ، وهو « أن لا تشرك بي » بالثناء ، وهذا مخاطبة لمشاهد ، وإبراهيم عليه السلام غائب ؛ فالعنى على هذا : وإذ يؤنا لإبراهيم مكان البيت بفعلنا لك الدلائل على توحيد الله تعالى وعلى أن إبراهيم كان عبدا لله وحده . وقرأ جمهور الناس « بالبح » بفتح الحاء . وقرأ ابن أبي إسحاق في كل القرآن بكسرها . وقيل : إن نداء إبراهيم من جملة ما أمر به من شرائع الدين . والله أعلم .

الثالثة - قوله تعالى : ( يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ ) وعنه إجابة الناس إلى حج البيت ما بين راجل وزاكب ، وإنما قال « يأتوك » وإن كانوا يأتون الكعبة لأن المأدَى إبراهيم ، فن أتى الكعبة حاجا فكأنما أتى إبراهيم ؛ لأنه أجاب نداءه ، وفيه تشريف إبراهيم . ابن عطية : « رجالا » جمع راجل مثل ثاجر ويحار ، وصاحب ومحاب . وقيل : الرجال

جمع رَجُلٍ ، والرُّجُل جمع راجل ؛ مثل تجار وتجار ، ومحاب ومحاب ، وصاحب . وقد يقال في الجمع : رُجُل ، بالتشديد ؛ مثل كافر وكفار . وقرأ ابن أبي إسحاق وعكرمة « رُجُلًا » بضم الراء وتخفيف الجيم ، وهو قليل في أبنية الجمع ، ورويت عن مجاهد . وقرأ مجاهد « رُجُلًا » على وزن مُعَالٍ ؛ فهو مثل كسالى . قال النحاس : في جمع راجل خمسة أوجه ، رُجُل مثل رُكَّاب ، وهو الذى روى عن عكرمة ، ورجال مثل قيام ، ورجلة ، ورجل ، ورجالة . والذى روى عن مجاهد رُجُلًا غير معروف ، والأشبه به أن يكون غير منون مثل كسالى وسكاري ، ولو نُونَ لكان على مُعَالٍ ، ومُعَالٌ في الجمع قليل . وقدم الرجال على الرُّجُلان في الذكر لزيادة تعميم في المشى . ( وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ ) لأنَّ معنى « ضامر » معنى ضواصر . قال الفراء : ويحوز « يأتى » على اللفظ . والضاवर : البعير المهزول الذى أتبعه السفر ؛ يقال : ضَمَّرَ يَضْمُرُ ضُمُورًا ؛ فوصفها الله تعالى بالمسأل الذى انتهت عليه إلى مكة . وذكر سبب الضمور فقال : « يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ نَجْعٍ عَمِيقٍ » أى أثر فيها طول السفر . وردَّ الضمير إلى الإبل تكمة لها لفصدها الج مع أربابها ؛ كما قال : « وَالْمَادِيَاتِ ضَبْعًا » في خيل الجهاد تكمة لها حين سعت في سبيل الله .

الرابعة — قال بعضهم : إنما قال « رجلا » لأنَّ الغالب خروج الرجال إلى الحج دون الإناث ؛ فقلوه « رجالا » من قولك : هذا رجل ؛ وهذا فيه مد ؛ لقلوه « وعلى كل ضامر » يعنى الركبان ، فدخل فيه الرجال والنساء . ولما قال تعالى « رجلا » وبدأ بهم دل ذلك على أن حج الرجل أفضل من حج الزاك . قال ابن عباس : ما أتى على شيء فأتى إلا أن لا أكون سمجتُ ما شئت ، فأتى سمعت الله عز وجل يقول « يأتوك رجلا » . وقال ابن أبي نجیح : حج إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ماشيين . وقرأ أصحاب ابن مسعود « يأتون » وهى قراءة ابن أبي عبلة والضحاك ، والضمير للناس .

الخامسة — لا خلاف في جواز الركوب والمشى ، واختلفوا في الأفضل منهما ؛ فذهب مالك والشافعى في آخريْن إلى أن الركوب أفضل ؛ اقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم ، ولكثرة

الضفة وتعلم شوارعها بأجرة الركوب . وذهب غيرهم إلى أن المشي أفضل لما فيه من  
المشقة على النفس ، ولحديث أبي سعيد قال : حج النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه مشاة  
من المدينة إلى مكة ، وقال : « <sup>(١)</sup> اربطوا أوساطكم بأزركم » ومشي خلط المسرولة ، نحرجه  
ابن ماجه في سننه . ولا خلاف في أن الركوب عند مالك في المناسك كلها أفضل ، للاقتداء  
بالنبي صلى الله عليه وسلم .

السادسة - استدلل بعض العلماء بسقوط ذكر البحر من هذه الآية على أن فرض الحج  
بالبحر ساقط . قال مالك في الموازية : لا اسم للبحر ذكرًا ، وهذا تانس ، لا أنه يلزم من  
سقوط ذكره سقوط الفرض فيه ، وذلك أن مكة ليست في ضفة بحر فياتها الناس في السفن ،  
ولا بد لمن ركب البحر أن يصير في إتيان مكة إما راجلا وإما على ضامر ، فإنما ذكرت  
حالات الوصول ، وإسقاط فرض الحج بمجرد البحر ليس بالكثير ولا بالقوي . فاما إذا اقتصرت  
على خوف أو هول شديد أو مرض يلحق شخصا ، فمالك والشافعي وبجمهور الناس  
على سقوط الوجوب بهذه الأعذار ، وأنه ليس بسبيل استطاع . قال ابن عطية : وذكر  
صاحب الاستبصار في هذا المعنى كلاما ، ظاهره أن الوجوب لا يسقط بشيء من هذه  
الأعذار ، وهذا ضعيف .

قلت : وأضعف من ضعيف ، وقد مضى في « البقرة » بيان . والفج : الطريق  
الواسعة ، والجح : فجاج . وقد مضى في « الأبياء »<sup>(٢)</sup> . والمعيق معناه البعيد . وقراءة الجماعة  
« يأتين » . وقرأ أصحاب عبد الله « يأتون » وهذا للركبان و « يأتين » للجبال ، كأنه  
قال : وعلى إبل ضامرة يأتين ( <sup>(٣)</sup> مِنْ كُلِّ فَيْحٍ عَمِيقٍ ) أى بعيد ، ومنه بئر عميقة أى بعيدة  
القمر ، ومنه :

• وقام الأعماق خاوي المخترق<sup>(٤)</sup> •

(١) خلط المرولة ( بالكسر ) أى شيا مخلوطا بالمرولة ، بأن يمشى حينا ويهرول حينا أو متدلا .

(٢) راجع - ١٤ ص ٢٨٥ (٣) هذا أول أروجة من أراجيز روية بن العجاج ، وبه :

• شبه الأعلام لماع الخلق •

السابعة - واختلقوا في الواصل إلى البيت ، هل يرفع يديه عند رؤيته أم لا ؛ فروى أبو داود قال : سئل جابر بن عبد الله عن الرجل يرى البيت ويرفع يديه فقال : ما كنت أرى أن أحدا يفعل هذا إلا اليهود ، وقد حججنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم نكن نفعله . وروى ابن عباس رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ترفع الأيدي في سبع مواطن انتاح الصلاة واستقبال البيت والصفا والمروة والموقفين والجمرتين " . وإلى حديث ابن عباس هذا ذهب الثوري وابن المبارك وأحمد وإسحاق وضفوا حديث جابر ، لأن مهاجرا المكي راوية مجهول . وكان ابن عمر يرفع يديه عند رؤية البيت . وعن ابن عباس مثله .

قوله تعالى : لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا أَنَّمَا اللَّهُ فِي أَيَّامِ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةٍ آلَاتِنَا فَكَلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَلْبَاسَ الْفَقِيرِ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نُدُورَهُمْ وَلِيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾  
فيه ثلاث وعشرون مسألة :

الأولى - قوله تعالى : ( لِيَشْهَدُوا ) أى أذن بالحق يأتوك رجالا وربكنا يشهدوا ، أى ليحضروا . والشهود الحضور . ( مَنَافِعَ لَهُمْ ) أى المناسك ، كمرقات والمشعر الحرام . وقيل المغفرة . وقيل التجارة . وقيل هو عموم ، أى ليحضروا منافع لهم ، أى ما يرضى الله تعالى من أمر الدنيا والآخرة ، قاله مجاهد وعطاء واختاره ابن العربي ، فإنه يجمع ذلك كله من نسك وتجارة ومغفرة ومنفعة دنيا وأخرى . ولا خلاف في أن المراد بقوله : « ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم » التجارة .

الثانية - ( وَيَذْكُرُوا أَنَّمَا اللَّهُ فِي أَيَّامِ مَعْلُومَاتٍ ) قد مضى في « البقرة » الكلام في الأيام المعلومات والمعدودات . والمراد بذكر كرام الله ذكر التسمية عند الذبح والتحرر ، مثل

قوله: باسم الله والله أكبر، اللهم منك ولك . ومثل قولك عند الذبح « إن صلاتي ونسكي »  
الآية . وكان الكفار يذبحون على أسماء أصنامهم، فبين الرب أن الواجب الذبح على اسم الله؛  
وقد مضى في « الأنعام » .

الثالثة - وأختلف العلماء في وقت الذبح يوم النحر؛ فقال مالك رضي الله عنه: بعد  
صلاة الإمام وذبحه؛ إلا أن يؤخر تأخيراً يتعدى فيه فيسقط الاقتداء به . وراعى أبو حنيفة  
الفراغ من الصلاة دون ذبح . والشافعي دخول وقت الصلاة . ومقدار ما توقع فيه مع الخطبتين؛  
فاعتبر الوقت دون الصلاة . وهذه رواية المزني عنه، وهو قول الطبري . وذكر الربيع عن  
اليويني قال قال الشافعي : ولا يذبح أحد حتى يذبح الإمام إلا أن يكون ممن لا يذبح،  
فإذا صلى وفرغ من الخطبة حل الذبح . وهذا كقول مالك . وقال أحمد : إذا انصرف  
الإمام فاذبح . وهو قول إبراهيم . وأصح هذه الأقوال قول مالك؛ لحديث جابر بن عبد الله  
قال : صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم النحر بالمدينة، فتقدم رجال فحروا وظنوا  
أن النبي صلى الله عليه وسلم قد نحره فأمر النبي صلى الله عليه وسلم من كان نحر أن يعيد بنحر  
آخر، ولا ينحروا حتى ينحر النبي صلى الله عليه وسلم . أخرجه مسلم والترمذي . وقال : وفي الباب  
عن جابر وجندب وأنس وعويمر بن أشقر وآبن عمر وأبي زيد الأنصاري، وهذا حديث  
حسن صحيح ، والعمل على هذا عند أهل العلم ألا يضحي بالمصر حتى يصلي الإمام .  
وقد احتج أبو حنيفة بحديث البراء ، وفيه : " ومن ذبح بعد الصلاة فقد تم نسكه وأصاب  
سنة المسلمين " . أخرجه مسلم أيضاً . فعلق الذبح على الصلاة ولم يذكر الذبح . وحديث جابر  
يقيده . وكذلك حديث البراء أيضاً، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أول ما نبأ به  
في يومنا هذا أن نصلي ثم نرجع فننحر فنم فعل ذلك فقد أساب سنتنا " الحديث . وقال  
أبو سريين عبد البر : لا أعلم خلافا بين العلماء أن من ذبح قبل الصلاة وكان من أهل المصر  
أنه يرمضح؛ لقوله عليه السلام : " من ذبح قبل الصلاة فذلك شاة لحم " .

الرابعة - وأما أهل البوادي ومن لا إمام له فمشهور مذهب مالك يمتزى وقت ذبح الإمام، أو أقرب الأئمة إليه . وقال ربيعة وعطاء فيمن لا إمام له : إن ذبح قبل طلوع الشمس لم يجزه، ويمزیه إن ذبح بعده . وقال أهل الرأي : يجزهم من بعد الفجر . وهو قول ابن المبارك، ذكره عنه الترمذی . وتمسكوا بقوله تعالى : **هُوَ يَذْكُرُ مَا أَسَمَ اللَّهُ فِي أَيَّامِ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَيِّنَةِ الْآيَاتِ** ، فأضاف النحر إلى اليوم . وهل اليوم من طلوع الفجر أو من طلوع الشمس، قولان . ولا خلاف أنه لا يمتزى ذبح الأضحية قبل طلوع الفجر من يوم النحر .

الخامسة - واختلفوا كم أيام الحر؟ فقال مالك : ثلاثة، يوم النحر ويومان بعده . وبه قال أبو حنيفة والثوري وأحمد بن حنبل ، وروى ذلك عن أبي هريرة وأنس بن مالك من غير اختلاف عنهما . وقال الشافعي : أربعة، يوم النحر وثلاثة بعده . وبه قال الأوزاعي ، وروى ذلك عن علي رضي الله عنه وابن عباس وابن عمر رضي الله عنهم ، وروى عنهم أيضا مثل قول مالك وأحمد . وقيل : هو يوم النحر خاصة وهو العاشر من ذى الحجة ؛ وروى عن ابن سيرين . وعن سعيد بن جبير وجابر بن زيد أنهما قالا : النحر في الأمصار يوم واحد وفي مئة ثلاثة أيام . وعن الحسن البصري في ذلك ثلاث روايات : إحداها كما قال مالك ، والثانية كما قال الشافعي ، والثالثة إلى آخر يوم من ذى الحجة ؛ فإذا أهل هلال المحرم فلا أضحية .

قلت : وهو قول سليمان بن يسار وأبي سلمة بن عبد الرحمن ، ورويا حديثا مرسلًا مرفوعا خرجه الدارقطني : الضحايا إلى هلال ذى الحجة ؛ ولم يصح ، ودليلنا قوله تعالى : **فِي أَيَّامِ مَعْلُومَاتٍ** الآية ، وهذا جمع قلة ؛ لكن المتيقن منه الثلاثة ، وما بعد الثلاثة غير متيقن فلا يعمل به . قال أبو عمر بن عبد البر : أجمع العلماء على أن يوم النحر يوم أضحية ، وأجمعوا أن لا أضحية بعد انسلاح ذى الحجة ، ولا يصح عندى في هذه إلا قولان : أحدهما - قول مالك والكوفيين ، والآخر - قول الشافعي والشاميين ؛ وهذان القولان مرويان

عن الصحابة فلا معنى للاشتغال بما خالفهما ؛ لأن ما خالفهما لا أصل له في السنة ولا في قول الصحابة ، وما خرج عن هذين فتروك لهما . وقد روى عن قتادة قول سادس ، وهو أن الأضحية يوم النحر وستة أيام بعده ؛ وهذا أيضا خارج عن قول الصحابة فلا معنى له .

السادسة - واختلفوا في ليالي النحر هل تدخل مع الأيام فيجوز فيها الذبح أولا ؛ فروى عن مالك في المشهور أنها لا تدخل فلا يجوز الذبح بالليل . وعليه جمهور أصحابنا وأصحاب الرأي ؛ لقوله تعالى : « واذكروا اسم الله في أيام » فذكر الأيام ، وذكر الأيام دليل على أن الذبح في الليل لا يجوز . وقال أبو حنيفة والشافعي وأحمد وإسحاق وأبو ثور : الليالي داخلة في الأيام ويجزى الذبح فيها . وروى عن مالك وأشهب نحوه ، ولاشعب تفريق بين الهدى والضحية ، فأجاز الهدى ليلا ولم يجز الضحية ليلا .

السابعة - قوله تعالى : ( عَلَى مَا رَزَقَهُمْ ) أي على ذبح ما رزقهم . ( من بهيمة الأنعام ) والأنعام هنا الإبل والبقر والغنم . وبيمة الأنعام هي الأنعام ؛ فهو كقولك صلاة الأولى ، ومسجد الجامع .

الثامنة - ( فَكُلُوا مِنْهَا ) أمر بمعناه التذبح عند الجمهور . ويستحب للرجل أن يأكل من هديه وأحبيته وأن يتصدق بالأكثر ، مع تجوزهم الصدقة بالكل وأكل الكل . وشذت طائفة فأوجبت الأكل والإطعام بظاهر الآية ، ولقوله عليه السلام : « فكلوا فأتوا وتصدقوا » . قال النجاشي : قوله تعالى « فكلوا منها وأطعموا » يدل على أنه لا يجوز بيع جميعه ولا التصدق بجميعه .

التاسعة - دماء الكفارات لا يأكل منها أصحابنا . ومشهور مذهب مالك رضي الله عنه أنه لا يأكل من ثلاث : جزاء العبيد ، ونذر المساكين وقضية الأذى ، وبأكل ما سوى ذلك إذا بلغ عجله ، واجبا كان أو تطوعا . ووافقه على ذلك جماعة من السلف وفقهاء الأمصار .

العاشرة . فإن أكل ما منع منه فهل يقرم قدر ما أكل أو يقرم هديا كاملا ؛ قولان في مذهبنا ، وبالأول قال ابن الماجشون ، قال ابن العربي : وهو الحق ، لا شيء عليه غيره .



وكذلك لو نذر هدياً لساكنين فياكل منه بعد أن يبلغ محله لا يقرم إلا ما أكل — خلافاً للذوق — لأن الحر قد وقع، والتعدي إنما هو على اللحم، فيرم قدر ما تعدى فيه .  
قوله تعالى : ﴿ وَلْيُؤْتُوا نُذُورَهُمْ ﴾ يدل على وجوب إخراج النذر إن كان دماً أو هدياً أو غيره، ويدل ذلك على أن النذر لا يحسوز أن يأكل منه وفاء بالنذر ، وكذلك جزاء الذبيحة .  
وفدية الأذى ؛ لأن المطلوب أن يأتي به كاملاً من غير نقص لحم ولا غيره ، فإن أكل من ذلك كان عليه هدي كامل . والله أعلم .

الحادية عشرة — هل يقرم قيمة اللحم أو يقرم طعاماً ؛ ففي كتاب محمد عن عبد الملك أنه يقرم طعاماً . والأول أصح ؛ لأن الطعام إنما هو في مقابلة الهدي كله عند تدمره عبادة ، وليس حكم التعدي حكم العبادة .

الثانية عشرة — فإن عيطب من هذا الهدي المضمون الذي هو جزاء الصيد وفدية الأذى ونذر المساكين شيء ، قبل محله أكل منه صاحبه وأطعم منه الأغنياء والفقراء ومن أحب ، ولا يبيع من لحمه ولا جلده ولا من قلائده شيئاً . قال إسماعيل بن إسحاق : لأن الهدي المضمون إذا عيطب قبل أن يبلغ محله كان عليه بدنه . وسبب جزأ أن يأكل منه صاحبه ويطعم . فإذا عيطب الهدي التطوع قبل أن يبلغ محله لم يجز أن يأكل منه ولا يطعم ؛ لأنه لما لم يكن عليه بدله خيف أن يفعل ذلك بالهدي ويخرج من غير أن يعطب ، فأحيط على الناس ، وبذلك مضى العمل . وروى أبو داود عن ناجية الأسلمي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث معه بهدي وقال : " إن عيطب منها شيء فأتمره ثم أصبغ نعله في دمه ثم خل بينه وبين الناس " . وبهذا الحديث قال مالك والشافعي في أحد قوليه . وأحمد وإسحاق وأبو ثور وأصحاب الرأي ومن أتبعهم في الهدي التطوع : لا يأكل منها ساقها شيئاً ، ويخلى بينها وبين الناس يأكلونها . وفي صحيح مسلم : " ولا تأكل منها أنت ولا أحد من أهل رقتك " . وبظاهر هذا النهي قال ابن عباس والشافعي في قوله الأثر ، واختاره ابن المنذر ، فقالا : لا يأكل منها ولا أحد من أهل رقتك . قال أبو عمر : قوله عليه السلام " ولا يأكل منها أحد ولا أحد من أهل رقتك " لا يوجد إلا في حديث ابن عباس . وليس ذلك

في حديث هشام بن عروة عن أبيه عن ناجية، وهو عندنا أصح من حديث ابن عباس، وعليه السمل عند الفقهاء . ويدخل في قوله عليه السلام : " خَلَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَ النَّاسِ " أَهْلُ رَفَقَتِهِ وَغَيْرُهُمْ . وقال الشافعي وأبو ثور : ما كان من الهدى أصله واجبا فلا يأكل منه، وما كان تطوعا ونسكا أكل منه وأهدى وأذخر وتصتق، والمتعة والقران عنده نسك . ونحوه مذهب الأوزاعي . وقال أبو حنيفة وأصحابه : يأكل من هدى المتعة والتطوع، ولا يأكل مما سوى ذلك مما وجب بحكم الإحرام . وحكى عن مالك : لا يأكل من دم الفساد . وعلى قياس هذا لا يأكل من دم الجبر؛ كقول الشافعي والأوزاعي . تَمَسَّكَ مَالِكُ بِأَنْ جِزَاءَ الصَّيْدِ جَعَلَهُ اللَّهُ لِلسَّائِكِينَ بقوله تعالى : « أَوْ كَفَّارَةٌ لِّعَاصِمٍ مَّا كَانَتْ فِي ذِيئِهِ الْأَذَى : » « فَعِدَّةٌ مِنْ صِبَاغٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نَسِكَ » . وقال صلى الله عليه وسلم لكعب بن عُجْرَةَ : " أَطْعَمَ سِتَّةَ مَسَاكِينَ مُدَّيْنِ لِكُلِّ مَسْكِينٍ أَوْ صَمٍّ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ أَوْ أَنْتَ شَاةٌ " . ونذر المساكين مصرح به، وأما غير ذلك من الهدايا فهو باق على أصل قوله : « وَالْبَذَنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ - إِلَى قَوْلِهِ - فَكُلُوا مِنْهَا » . وقد أكل النبي صلى الله عليه وسلم وعلى رضي الله عنه من الهدى الذي جاء به وثيرة من مَرَقِهِ ، وكان عليه السلام قَارِنًا فِي أَصَحِّ الْأَقْوَالِ وَالرَّوَايَاتِ ؛ فَكَانَ هَدِيَّةً عَلَى هَذَا وَاجِبًا ، فَمَا تَلَقَّى بِهِ أَبُو حَنِيفَةَ غَيْرَ صَحِيحٍ . وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَإِنَّمَا أَذِنَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ مِنَ الْأَكْلِ مِنَ الْهَدَايَا لِأَجْلِ أَنَّ الْعَرَبَ كَانَتْ لَا تَرَى أَنَّ تَأْكُلَ مِنْ نَسِكِهَا ، فَأَمَرَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى نَبِيُّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِخَالِفَتِهِمْ ؛ فَلَا يَحْرَمُ كَذَلِكَ شَرْعًا وَبَلْعًا ، وَكَذَلِكَ فَعَلَ حِينَ أَهْدَى وَأَحْرَمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

الثلاثة عشرة - ( فَكُلُوا مِنْهَا ) قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : قَوْلُهُ تَعَالَى « فَكُلُوا مِنْهَا » نَاسِخٌ لِعَلَّهِمْ ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَحْرَمُونَ لَحْمَ الضَّحَايَا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَا يَأْكُلُونَ مِنْهَا - كَمَا قُلْنَا فِي الْهَدَايَا - فَنَسَخَ اللَّهُ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : « فَكُلُوا مِنْهَا » ، وَبِقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " مَنْ خَضَعِيَ فُلْيَا كُلَّ مَنْ أَخْضَعِيَتْهُ " وَلِأَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَكَلَ مِنْ أَخْضَعِيَّتِهِ وَهَدِيَّةٍ . وَقَالَ الزَّهْرِيُّ : مِنَ السَّنَةِ أَنْ تَأْكُلَ أَوْ لَا مِنَ الْكَيْدِ .

الرابعة عشرة - ذهب أكثر العلماء إلى أنه يستحب أن يتصدق بالثلث ويطعم الثلث  
ويأكل هو وأهله الثلث . وقال ابن القاسم عن مالك : ليس عندنا في الضحايا قسم معلوم  
موصوف . قال مالك في حديثه : وبلغني عن ابن مسعود . وليس عليه العمل . روى الصحيح  
وأبو داود قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم بشاة ثم قال : " يا ثوبان ، أصليح لحم  
هذه الشاة " قال : فما زلت أطعمه منها حتى قدم المدينة . وهذا نص في الفرض .  
واختلف قول الشافعي ؛ فتره قال : يأكل النصف ويتصدق بالنصف لقوله تعالى :  
« فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير » فذكر شخصين . وقال مرة : يأكل ثلثا ويهدي ثلثا  
ويطعم ثلثا ؛ لقوله تعالى : « فكلوا منها وأطعموا القانص والمعتّر » فذكر ثلاثة .

الخامسة عشرة - المسافر يخاطب بالأخصية كما يخاطب بها الحاضر ؛ إذ الأصل عموم  
الخطاب بها ، وهو قول كافة العلماء . وخالف في ذلك أبو حنيفة والنعمان ، وروى عن علي ؛  
والحديث حجة عليهم . واستثنى مالك من المسافرين الحاج عتي ، فلم ير عليه أخصية ؛ وبه قال  
الشافعي . وروى ذلك عن الخليفة أبي بكر وعمر وجماعة من السلف رضي الله عنهم ؛ لأن  
الحاج إنما هو مخاطب في الأصل بالهدى ، فإذا أراد أن يضحي جملته هديا ، والناس غير  
الحاج إنما أمروا بالأخصية لينشبهوا بأهل منى فيحصل لهم حظ من أجرهم .

السادسة عشرة - اختلف العلماء في الإذخار على أربعة أقوال . روى عن علي وابن عمر  
رضي الله عنهما من وجه صحيح أنه لا يذخر من الضحايا بعد ثلاث . ورواه عن النبي صلى  
الله عليه وسلم ، وسيأتي . وقالت جماعة : ما روى من النبي عن الإذخار منسوخ ؛ فيختار  
إلى أي وقت أحب . وبه قال أبو سعيد الخدري وبريدة الأسلمي . وقالت فرقة : يجوز  
الأكل منها مطلقا . وقالت طائفة : إن كانت بالناس حاجة إليها فلا يذخر ؛ لأن النبي إنما  
كان لمة وهي قوله عليه السلام : " إنما نهيكم من أجل الدأفة التي دقت " <sup>(١)</sup> ولما ارتفعت  
ارتفع المنع المتقدم لارتفاع موجهه ، لا لأنه منسوخ . وتنشأ هنا مسألة أصولية وهي :

(١) الدأفة : اللوم يسرون جماعة سرا ليس بالشديد . والدأفة : قوم من الأعراب يذبحون القرى يريد أنهم قوم  
تدبروا المدينة عند الأضي ، فنام عن إذخار لحوم الأضاحي لغير قوتها ويمنعوا بها فينزع أولئك القنادسون بها . (ابن الأثير).

• السابعة عشرة - وهى الفرق بين رفع الحكم بالنسخ ورفع له لأرتفاع عتبه . أعلم أن المرفوع بالنسخ لا يُحكم به أبداً ، والمرفوع لأرتفاع عتبه يعود الحكم لعود العلة ، فلو قدم على أهل بلدة ناس محتاجون فى زمان الأئمتين ؛ ولم يكن عند أهل ذلك البلد سعة يستدون بها فاقهم إلا الضحايا لتعين عليهم ألا يذبحوها فوق ثلاث كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم .

الثامنة عشرة - الأحاديث الواردة فى هذا الباب بالمنع والإباحة صحاح ثابتة . وقد جاء المنع والإباحة معاً كما هو منصوص فى حديث عائشة وسلمة بن الأكوع وأبى سعيد الخدرى رواها الصحيح . وروى الصحيح عن أبى عبيد مولى أبى أزهرة أنه شهد العبد مع عمر بن الخطاب قال : ثم صليت العبد مع علي بن أبى طالب رضى الله عنه ، قال : فصلى لنا قبل الخطبة ثم خطب الناس فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نهاكم أن تأكلوا لحوم نسككم فوق ثلاث ليال فلا تأكلوها . وروى عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نهى أن تؤكل لحوم الأضاحى فوق ثلاث . قال سالم : فكان ابن عمر لا يأكل لحوم الأضاحى فوق ثلاث . وروى أبو داود عن نيسة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنا كنا نبيناكم عن لحومها فوق ثلاث لى نسمعكم جاء الله بالسعة فكلوا واذبحوا وأنجزوا ألا إن هذه الأيام أيام أكل وشرب وذكر لله عز وجل " . قال أبو جعفر النحاس : وهذا القول أحسن ما قيل فى هذا حتى يتفق الأحاديث ولا تضاد ، ويكون قول أمير المؤمنين علي بن أبى طالب وعثمان محصور ؛ لأن الناس كانوا فى شدة محتاجين ، ففعل كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدمت الدافة . والدليل على هذا ما حدثنا إبراهيم بن شريك قال : حدثنا أحمد قال حدثنا ليث قال حدثني الحارث بن يعقوب عن يزيد بن أبى يزيد عن أمرائه أنها سألت عائشة رضى الله عنها عن لحوم الأضاحى فقالت : قدم علينا علي بن أبى طالب من صفر فقدمنا إليه منه ، فأبى أن يأكل حتى يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسأله فقال : " كُلْ من ذى الحجة إلى ذى الحجة " . وقال الشافعى : من قال بالنهى عن الاذخار بعد ثلاث لم يسمع الرخصة . ومن قال بالرخصة مطلقاً لم يسمع النهى عن الاذخار . ومن قال بالنهى

والرخصة سمهما جميعا فعيل بمقتضاهما . والله أعلم . وسأتي في سورة « الكوز »  
الاختلاف في وجوب الاضحية ونديتها وأنها ناسخة لكل ذبح تقدم ، إن شاء الله تعالى .

التاسعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَأَطِيعُوا الْبَاسِ الْفَقِيرَ ﴾ « الفقير » من صفة  
الباس ، وهو الذي ناله البؤس وشدة الفقر ؛ يقال : بئس لباسا إذا افتقر ؛ فهو بائس .  
وقد يستعمل فيمن نزلت به نازلة دهر وإن لم يكن فقيرا ؛ ومنه قوله عليه السلام : « لكن  
البائس سعد بن خولة » . ويقال : رجل بئس أى شديد . وقد يؤس يؤس باسا إذا اشتد ؛  
ومنه قوله تعالى : « وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَدَابِ بَنِي إِسْرَءِيلَ (١) » أى شديد . وكلما كان التصديق  
بلعم الاضحية أكثر كان الأجر أوفر . وفي القدر الذي يجوز أكله خلاف قد ذكرناه ؛ ف قيل  
النصف ؛ لقوله : « فَكُلُوا ، وَأَطِيعُوا » وقيل الثلثان ؛ لقوله : « أَلَا فَكُلُوا وَاقْتَرُوا  
وَأُتِمِّرُوا » أى اطلبوا الأجر بالإطعام . واختلف في الأكل والإطعام ؛ ف قيل واجب . وقيل  
مستحبان . وقيل بالفرق بين الأكل والإطعام ؛ فالأكل مستحب والإطعام واجب ؛ وهو  
قول الشافعي .

الموفية عشرين — قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ ﴾ أى ثم ليقضوا بعد نحر الضحايا  
والهدايا ما بقي عليهم من أمر الحج ؛ كالحلق ورمي الجمار وإزالة شعث ونحوه . قال ابن عرفة :  
أى ليزيلوا عنهم أدرانهم . وقال الأزهري : التفت الأخذ من الشارب وقص الأظفار  
وتنف الإبط وحلق العانة ؛ وهذا عند الخروج من الإحرام . وقال النضر بن شميل : التفت  
في كلام العرب إلحباب الشعث ، وسمعت الأزهري يقول : التفت في كلام العرب لا يعرف  
إلا من قول ابن عباس وأهل التفسير . وقال الحسن : هو إزالة قشفت الإحرام . وقيل :  
التفت مناسك الحج كلها ؛ رواه ابن عمرو وابن عباس . قال ابن العربي : لو مع منهما لكان  
حجة لشرف الصحبة والإحاطة باللغة ، قال : وهذه اللفظة غريبة لم يحد أهل العربية فيها  
شعرا ولا أحاطوا بها خبرا ؛ لكنني ثبتت التفت لأنه فرأيت أبا عبيدة معمر بن النخعي قال :  
(١) روى له النبي صلى الله عليه وسلم أن مات بمكة . بنى في الأرض التي جاورها . ( راجع ترجمته في كتاب  
الاستيعاب ) . ( ٢ ) آية ١٦٥ سورة الأعراف .

إنه قصر الأظفار وأخذ الشارب وكل ما يتحرم على المحرم إلا النكح . قال : ولم يحن فيا  
شريحته به . وقال صاحب العين : الثفت هو الرى والحلق والتجدير والذبح وقص الأظفار  
والشارب والإبط . وذكر الزجاج والفراء نحوه ، ولا أثره أخذه إلا من قول العلماء . وقال  
قُطْرُب : هَتَّ الرجل إذا كثرت سننه . قال أمية بن أبي الصلت :

حَقُّوا رِجْسَهُمْ لَمْ يَحْلِقُوا تَفْتًا • وَلَمْ يَسْلُوا لَمْ قَلَّا وَصِثًا

وما أشار إليه قُطْرُب هو الذى قاله ابن وهب عن مالك ، وهو الصحيح فى الثفت . وهذه  
صورة إلقاء الثفت لثة ، وأما حقيقة الشريعة فإذا بحر الحاج أو المتمرهديه وحن رأسه  
وأزال سننه وتطهر وتقي وأبس فقد أزال ثفته ووقى نذره ، والنذر ما لزم الإنسان وآثره .  
قلت : ما حكاه عن قُطْرُب وذكر من الشعر قد ذكره فى تفسيره الماوردى ، وذكر  
بنا آخر فقال :

قَضَوْا تَفْتًا وَنَجَبًا ثُمَّ سَارُوا • إِلَى تَجْدِيدٍ وَمَا انتظروا عِلَا

وقال الحملي : وأصل الثفت فى اللغة الوحش ، تقول العرب للرجل تستفذه : ما أفتك ،  
أى ما أوتحك وأقنوك . قال أمية بن أبي الصلت :

سَاحِينَ أَبَاطَهُمْ لَمْ يَقْذُوا تَفْتًا • وَبَرَعُوا عَنْهُمْ تَفْتًا وَصِثًا

الماوردى : قيل لبعض الصلحاء ما المعنى فى شمت المحرم ؟ قال : ليشهد الله تعالى منك  
الإعراض عن التوبة بنفسك فيعلم صدقك فى بنظا طاعته .

الحادية والعشرون - ﴿ وَلْيَسْأَلُوا نُذُورَهُمْ ﴾ أمروا بوفاء النذر مطلقا إلا ما كان  
محصية ؛ لقوله عليه السلام : " لا وفاء لنذر فى مصيبة الله " ، وقوله : " من نذر أن يطبخ  
الله فليطعمه ومن نذر أن يصيبه فلا يصبه " . ﴿ وَلْيَطَّوُّوا بِالْيَتِيمِ ﴾ الطواف المذكور  
فى هذه الآية هو طواف الإفاضة الذى هو من واجبات الحج . قال الطبرى : لا خلاف بين  
المؤولين فى ذلك .

الثانية والعشرون - للبح ثلاثة أطواف : طواف القدوم ، وطواف الإفاضة ، وطواف الوداع . قال إسماعيل بن إسماعيل : طواف القدوم سنة ، وهو ساقط عن المراهق وعن المكنت وعن كل من يحرم بالبح من مكة . قال : والطواف الواجب الذي لا يسقط بوجه من الوجوه ، وهو طواف الإفاضة الذي يكون بعد عرفة ؛ قال الله تعالى : « ثم ليقضوا تمتهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق » . قال : فهذا هو الطواف المفترض في كتاب الله عز وجل ، وهو الذي يشمل به الحجاج من إتمامه كله . قال الحافظ أبو عمر : ما ذكره إسماعيل في طواف الإفاضة هو قول مالك عند أهل المدينة ، وهي رواية ابن وهب وابن نافع وأشهب عنه . وهو قول جمهور أهل العلم من فقهاء أهل الجباز والمراق . وقد روى ابن القاسم وابن عبيد الحكم عن مالك أن طواف القدوم واجب . وقال ابن القاسم في غير موضع من المذونة ورواه أيضا عن مالك : الطواف الواجب طواف القادوم مكة . وقال : من نسي الطواف في حين دخوله مكة أو نسي شوطا منه ، أو نسي السعي أو شوطا منه حتى رجع إلى بلده ثم ذكره ، فإن لم يكن أصاب النساء رجع إلى مكة حتى يطوف بالبيت ويركع ويسعى بين الصفا والمروة ، ثم يسبى . وإن أصاب النساء رجع فطاف وسعى ، ثم اعتمر وأهدى . وهذا كقوله فيمن نسي طواف الإفاضة سواء . فعلى هذه الرواية الطوافان جميعا واجبان ، والسعي أيضا . وأما طواف الصدر وهو المسعى بطواف الوداع فروى ابن القاسم وغيره عن مالك فيمن طاف طواف الإفاضة على غير وضوء : أنه يرجع من بلده فيفيض إلا أن يكون تطوع بعد ذلك . وهذا مما أجمع عليه مالك وأصحابه ، وأنه يحزبه تطوعه عن الواجب المفترض عليه من طوافه . وكذلك أجمعوا أن من نفل في حجه شيئا تطوع به من عمل الحج ، وذلك الشيء واجب في الحج قد جاز وقته ، فإن تطوعه ذلك يصير لواجب لا للتطوع ؛ بخلاف الصلاة . فإذا كان التطوع ينوب عن الفرض في الحج كان الطواف لدخول مكة أحرى أن ينوب عن طواف الإفاضة ، إلا ما كان من الطواف بعد رمى جمرة التبة يوم النحر أو بعده للوداع . ورواية ابن عبيد الحكم عن مالك بخلاف ذلك ؛ لأن فيها أن طواف

الدخول مع السعي ينوب عن طواف الإفاضة لمن رجع إلى بلده مع الهدى، كما ينوب طواف الإفاضة مع السعي لمن لم يطف ولم يتسع حين دخوله مكة مع الهدى أيضا عن طواف التقويم . ومن قال هذا قال : إنما قيل لطواف الدخول وأجب ولطواف الإفاضة واجب لأن بعضهما ينوب عن بعض . ولأنه قد روى عن مالك أنه يرجع من نسي أحدهما من بلده على ما ذكرنا ، ولأن الله عز وجل لم يفترض على الحاج إلا طوافا واحدا بقوله : «وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ» . وقال في سياق الآية : «وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ» والواو عندهم في هذه الآية وغيرها لا توجب رتبة إلا بتوقيف . وأسند الطبري عن عمر بن أبي سلمة قال : سألت زهيرا من قوله تعالى : «وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ» فقال : هو طواف الوداع . وهذا يدل على أنه واجب ، وهو أحد قولي الشافعي ؛ لأنه عليه السلام رخص للمأخض أن يتغير دون أن تطوفه ، ولا يرخص إلا في الواجب .

الثالثة والعشرون - اختلف المتأولون في وجه صفة البيت العتيق ؛ فقال مجاهد والحسن : العتيق القديم . يقال : سيف عتيق ، وقد عتق أي قديم ؛ وهذا قول يعقده النظر . وفي الصحيح "أنه أول منسجد وضع في الأرض" . وقيل عتيقا لأن الله أعتقه من أن يتسلط عليه جبار بالموان إلى انقضاء الزمان ؛ قال معناه ابن الزبير ومجاهد . وفي الترمذي عن عبد الله بن الزبير قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنما سُمِّيَ البيت العتيق لأنه لم يظهر عليه جبار" . قل : هذا حديث حسن صحيح ؛ وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم مرثلا . فإن ذكر ذاكر الحجاج بن يوسف ونصبه المَجْنِيق على الكعبة حتى كسرهما قيل له : إنما أعتقها عن كفار الجبارة ؛ لأنهم إذا أتوا بأنفسهم مترودين ولحمة البيت غير معتدين ، وقصدوا الكعبة بالسوء فمُصِمت منهم ولم تسلم أيديهم ، كان ذلك دلالة على أن الله عز وجل صرفهم عنها قسرا . فأما المسلمون الذين اعتقدوا حرمتها فإنهم إن كفُّوا عنها لم يكن في ذلك من الدلالة على منزلتها عند الله مثل ما يكون منها في كف الأعداء ؛ فقصر الله تعالى هذه الطائفة عن الكف بالهوى والوعيد ، ولم يتجاوزها إلى الصرف بالإلحاء والاضطرار ،



وجعل الساعة موعدهم ، والساعة أذنًى وأمرته . وقالت طائفة : سُمِّيَ عتيقاً لأنه لم يُملك موضعه قط . وقالت فرقة : سُمِّيَ عتيقاً لأن الله عز وجل امتق فيه رقاب المذنبين من العذاب . وقيل : سُمِّيَ عتيقاً لأنه أعْتَقَ من غرق الطوفان ؛ قاله ابن جبير . وقيل : العتيق الكريم . والعتيق الكريم . قال طرفة يصف أذن الفرس :

مَوْلَانِ تَعْرِفُ الْعِتْقَ فِيهِمَا • كَسَامَتِي مَذْعُورَةٌ وَسَطَ رَبِّهِ <sup>(١)</sup>

وعتيق الرقيق : الخروج من ذل الرق إلى كرم الحرية . ويحتمل أن يكون العتيق صفة مدح تقتضى جودة الشيء ؛ كما قال عمر : حملت على فرس عتيق ، الحديث . والقول الأول أصح للنظر والحديث الصحيح . قال مجاهد : خلق الله البيت قبل الأرض بألفي عام ، وسَمِيَ عتيقاً لهذا ؛ والله أعلم .

قوله تعالى : ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ رَبِّهِ وَأَحَلَّتْ لَكُمْ لَكَرُّ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا بَيْنَ يَدَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ۖ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِينٍ ۖ <sup>(٢)</sup>

فيه ثمان مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ( ذَلِكَ ) يحتمل أن يكون في موضع رفع بتقدير : فرضكم ذلك ، أو الواجب ذلك . ويحتمل أن يكون في موضع نصب بتقدير : امتثلوا ذلك ؛ ونحو هذه الإشارة البليغة قول زهير :

هَذَا وَلَيْسَ كَنْ يَمِيًّا بِحُطَّتْهُ • وَسَطَ الْيَدَى إِذَا مَا قَاتِلَ نَظَفَا

(١) المزال : أُلْحِدَ - والربرب : القطيع من بقر الوحش ؛ وقيل الناء . وهذه الرواية في البيت مخالفة لما في ديوانه وصفته . والرواية فيهما :

مَوْلَانِ تَعْرِفُ الْعِتْقَ فِيهِمَا • كَسَامَتِي شَاةٌ بِجَوَلٍ مُعَرَّدٍ

ويريد بالشاة هنا الثور الوحشي .

والحرمت المقصودة هنا هي أفعال الحج المشار إليها في قوله : « ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفْتَهُمْ وَلْيُؤْفُوا نَذْوَهُمْ » ، ويدخل في ذلك تعظيم الموضع ، قاله ابن زيد وغيره . ويجمع ذلك أن نقول : الحرمت امتثال الأمر من فرائضه وسننه . وقوله : ( تَهُوَ خَيْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ) أى التعظيم خيره عند ربه من التهاون ببنى منها . وقيل : ذلك التعظيم خير من خبراته يُتَفَع به ، وليست التفضيل وإنما هي عِدَّة بخير .

الثانية - قوله تعالى : ( وَأَحَلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامَ ) أن تأكلوها ، وهى الإبل والبقرة والغنم . ( إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ ) أى فى الكتاب من المحرمات ، وهى الميتة والموقودة وأخواتها . ولهذا اتصال بأمر الحج ، فإن فى الحج الذبح ، فيمن ما يحل ذبحه وأكل لحمه . وقيل : « إلا ما يتلى عليكم » غير محلى الصيد وأتم حرم .

الثالثة - قوله تعالى : ( فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ ) الرجس : الشيء القدير . والأوثان : اختلال من خشب أو حديد أو ذهب أو فضة ونحوها ، وكانت العرب تصعبها وتعبدونها . والنصارى تصعب الصليب وتعبدونه ومنظمه فهو كالتمثال أيضا . وقال عدي بن حاتم : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وفى عنق صليب من ذهب فقال : " أتني هذا الوثن منك " أى الصليب ، وأصله من وثن الشيء أى أقام فى مقامه . وسعى الصنم وثنا لأنه ينصب ويركز فى مكان فلا يرح عنه . يريد اجتنبوا عبادة الأوثان ، روى عن ابن عباس وابن جرير . ومماها وجسا لأنها سبب الرجز وهو العذاب . وقيل : وصفها بالرجس ، والرجس النجس فهى نجسة حكا . وليست النجاسة وصفا ذاتيا للاعتيان وإنما هى وصف شرعى من أحكام الإيمان ، فلا تزال إلا بالإيمان كما لا تجوز الطهارة إلا بالماء .

الرابعة - ( من ) فى قوله : « مِنَ الْأَوْثَانِ » قيل : إنها لبيان الجنس ، فيقع نفيه من رجس الأوثان فقط ، وينتفى سائر الأرجاس نهيها فى غير هذا الموضع . ويحتمل أن تكون لا ابتداء للغاية ، فكانه نهالهم عن الرجس عاما ثم عين لهم مبداء الذى منه يلحقهم ، إذ عبادة الوثن جامعة لكل فساد ورجس . ومن قال إن « من » للتبعض ، قلب معنى الآية وأفسده .

الخامسة - قوله تعالى : ﴿ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾ والزور : الباطل والكذب .  
ومضى رورا لأنه أميل عن الحق ؛ ومنه « زَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ » ، ومدينة زوراء ؛ أى مائلة .  
وكل ما عدا الحق فهو كذب وباطل وزور . وفي الخبر أنه عليه السلام قام خطيبا فقال :  
« عَدَلْتُ شَهَادَةَ الزُّورِ الشَّرْكَ بالله » قالها مرتين أو ثلاثا . يعنى أنها قد جُمعت مع عبادة  
الوثن في التهيأ عنها .

السادسة - هذه الآية تضمنت الوعيد على الشهادة بالزور ، ويبنى المحاكم إذا عثر  
على الشاهد بالزور أن يمزره ويأدى عليه ليعرف لثلا ينتر بشهادته أحد . ويختلف الحكم  
في شهادته إذا تاب ؛ فإن كان من أهل العدالة المشهور بها المبرز فيها لم يقبل ؛ لأنه لا سبيل  
إلى علم حاله في التوبة ؛ إذ لا يستطيع أن يفعل من القربات أكثر مما هو عليه . وإن كان  
دون ذلك فشمّر في العبادة وزاغت حاله في التقي قبل شهادته . وفي الصحيح عن النبي صلى الله  
عليه وسلم أنه قال : « إِنْ مِنْ أَكْبَرَ الْكِبَائِرِ الْإِشْرَاكَ بالله وَعَقْوَقُ الْوَالِدَيْنِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ وَقَوْلُ  
الزُّورِ » . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم منكبا بغير فلس فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت .  
السابعة - ﴿ حُفَاءَ لِلَّهِ ﴾ معناه مستقيمين أو مسلمين مائتين إلى الحق . ولفظة  
« حفاء » من الأضداد تقع على الاستقامة وتقع على الميل . و « حفاء » نصب على الحال .  
وقيل : « حفاء » حجاج ؛ وهذا تخصيص لا حجة معه .

الثامنة - قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أى هو يوم القيامة  
بمترلة من لا يملك لنفسه نفعا ولا يدفع عن نفسه ضرا ولا عذابا ؛ فهو بمترلة من خرم  
السماء ، فهو لا يقدر أن يدفع عن نفسه . ومعنى ﴿ تَحْتَظِفُهُ الطَّيْرُ ﴾ أى تقطعه بمخالبها .  
وقيل : هذا عند خروج روحه وصعود الملائكة بها إلى سماء الدنيا ، فلا يُفتح لها فيرمى  
بها إلى الأرض ؛ كما في حديث البراء ، وقد ذكرناه في السذكرة . والبيد ؛ ومنه  
قوله تعالى : « قَسَحْنَا لِبَاقِحَابِ السَّيْرِ »<sup>(١)</sup> ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « قَسَحْنَا قَسَحًا » .

قوله تعالى : **ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظْ شَعَثًا لَّهِ فَاِنْبَاءٌ مِنْ نَقْوَى الْقُلُوبِ** ﴿٣٦﴾  
**لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحْلُهَا إِلَىٰ الْبَيْتِ الْمَكِيِّ** ﴿٣٧﴾  
 فيه سبع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : **ذَلِكَ** فيه ثلاثة أوجه . قيل : يكون في موضع رفع  
 بالابتداء ، أى ذلك أمر الله . ويجوز أن يكون في موضع رفع على خبر ابتداء محذوف .  
 ويجوز أن يكون في موضع نصب ، أى أتبعوا ذلك .

الثانية - قوله تعالى : **(وَمَنْ يُعِظْ شَعَثًا لَّهِ)** الشعائر جمع شعيرة ، وهو كل شيء لله  
 تعالى فيه أمر أشعر به وأعلم ، ومنه شعار القوم في الحرب ، أى علامتهم التى يتعارفون بها . ومنه  
 إشعار البدنة وهو الطعن في جانبها الأيمن حتى يسيل الدم فيكون علامة ، فهى تسمى شعيرة بمعنى  
 المشورة . فشعار الله أعلام دينه لاسيما ما يتعلق بالمسائل . وقال توم : المراد هنا تسمين البدن  
 والاهتمام بأمرها والمغالاة بها ، قاله ابن عباس ومجاهد وجماعة . وفيه إشارة لطيفة ، وذلك أن  
 راصل شراء البدن ربما يدخل على فعل ما لا تدبره ، فلا يدل على الإنسان . فإذا غفلت عن حصول  
 الأجزاء بمكة دونها فلا يظهر له عمل إلا تعظيم الشرع . وهو من نقوى القلوب . والله أعلم .  
 الثالثة - الضمير في «إنها» عائد على الفعلة التى يتضمنها الكلام ، ولو قال فإنه لحاز .  
 وقيل إنها راجعة إلى الشعائر ، أى فإن تعظيم الشعائر ، فحذف المضاف لدلالة الكلام عليه ،  
 فرجعت الكتابة إلى إشعار .

الرابعة - قوله تعالى : **(فَاِنْبَاءٌ مِنْ نَقْوَى الْقُلُوبِ)** قرئ «القلوب» بالرفع على أنها فاعلة  
 بالمصدر الذى هو «نقوى» وأضاف النقوى إلى القلوب لأنَّ <sup>(١)</sup> تقوية التقوى فى القلب ، ولهذا  
 قال عليه الصلاة والسلام فى صحيح الحديث : «التقوى هنا» وأشار إلى صدره .

الخامسة - قوله تعالى : **(لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ)** يعنى البُزْن من الركوب والدَّر والنَّسْل  
 والصوت ونحو ذلك ، إذا لم يبعثا رُبُّها حَلْبًا ، فإذا بعثا فهو الأجل المسعى ، قاله ابن عباس .  
 (١) فى الأصول : «وأضاف إلى القلب» .

فإذا صارت بُدْنًا هَدْيًا فالتامع فيها أيضا ركوبها عند الحاجة، وشرب لبنها بعد رِيّ نصيلاها .  
وفى الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رجلا يسوق بَدْنَةً فقال :  
” أركبها “ فقال : إنها بدنة . فقال : ” أركبها “ قال : إنها بدنة . قال : ” أركبها وَيْلَكَ “  
في الثانية أو الثالثة . وروى عن جابر بن عبد الله وسئل عن ركوب الهدى فقال : سمعت  
النبي صلى الله عليه وسلم يقول : ” أركبها بالمعروف إذا أُلِّحَتْ إليها حتى تجمد ظهرا “ .  
والأجل المسمى على هذا القول نحرها ؛ قاله عطاء بن أبي رباح .

السادسة — ذهب بعض العلماء إلى وجوب ركوب البدنة لقوله عليه الصلاة والسلام :  
” أركبها “ . ومن أخذ بظاهره أحمد وإسحاق وأهل الظاهر . وروى ابن نافع عن مالك :  
لا بأس بركوب البدنة ركوبا غير فادح . والمشهور أنه لا يركبها إلا إن أضطر إليها لحديث  
جابر فإنه مقيّد والمقيّد يقضى على المطلق . ونحو ذلك قال الشافعي وأبو حنيفة . ثم إذا  
ركبها عند الحاجة نزل ؛ قاله إسماعيل القاضي . وهو الذي يدل عليه مذهب مالك ، وهو خلافه .  
ما ذكره ابن القاسم أنه لا يلزمه النزول ، وحجته إباحة النبي صلى الله عليه وسلم له الركوب  
بغazole استصحابه . وقوله : ” إذا أُلِّحَتْ إليها حتى تجمد ظهرا “ يدل على صحة ما قاله الإمام  
الشافعي وأبو حنيفة رضي الله عنهما ؛ وما حكاه إسماعيل عن مذهب مالك . وقد جاء صريحا  
أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى رجلا يسوق بَدْنَةً وقد جهد ، فقال : ” أركبها “ . وقال  
أبو حنيفة والشافعي : إن قصها الركوب المباح فعليه قيمة ذلك ويتصدق به .

السابعة — قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ يريد أنها تنتهي إلى البيت ،  
وهو الطواف . فتقوله : ” مَحِلُّهَا “ مأخوذ من إحلال الحرم . والمعنى أن شعائر الحج كلها من  
الوقوف بعرفة ورمي الجمار والسعي ينتهي إلى طواف الإفاضة بالبيت العتيق . فإليت على  
هذا التأويل مراد بنفسه ؛ قاله مالك في الموطأ . وقال عطاء : ينتهي إلى مكة . وقال  
الشافعي : إلى الحرم . وهذا بناء على أن الشعائر هي البُدن ، ولا وجه لتخصيص الشعائر  
مع عمومها وإفاء خصوصية ذكر إليت . والله أعلم .

قوله تعالى : وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِّيَذْكُرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ  
 مِنْ بَرِيَّةٍ الْأَنْعَمَ فَإِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿١٩٩﴾  
 قوله تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا ﴾ لما ذكر تعالى الذبائح بين أنه لم يخل منها  
 أمة ، والأمة القوم مجتمعون على مذهب واحد ؛ أى ولكل جماعة مؤمنة جعلنا منسكا .  
 والمنسك الذبح وإراقة الدم ؛ قاله مجاهد . يقال : نَسَكَ إذا ذبح يَنْسِكُ نَسْكَ . والذبيحة  
 نسكة ، وجمعها نُسك ؛ ومنه قوله تعالى : «أَوْ صَدَقَةٌ أَوْ نَسِكٌ»<sup>(١)</sup> . والنسك أيضا الطاعة . وقال  
 الأزهري : في قوله تعالى « وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا » : إنه يدل على موضع التحرف في هذا  
 الموضع ؛ أراد مكان نَسَك . ويقال : مَنْسَكٌ وَمَنْسِكٌ ، لثان ؛ وقرئ بهما . قرأ الكوفيون  
 إلا عاصما بكسر السين ، الباقون بفتحها . وقال الفراء : الْمَنْسِكُ في كلام العرب الموضع  
 المعتاد في خير أو شر . وقيل مناسك الحج لترداد الناس إليها من الوقوف بعرفة روى ابن  
 السمع . وقال ابن عرفة في قوله « وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا » : أى مناسبا من طاعة الله  
 تعالى ؛ يقال : نَسَكَ نَسْكَ قومه إذا سلك مذهبهم . وقيل : منسكا عبدا ؛ قاله التزاد .  
 وقيل حججا ؛ قاله قتادة . والذبول الأول أظهر ؛ تنوله تعالى : ﴿ لِيَذْكُرُوا اللَّهَ عَلَىٰ  
 مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَرِيَّةٍ الْأَنْعَمَ ﴾ أى على ذبح ما رزقهم . فامر تعالى عند الذبح بذكره وأن يكون  
 الذبح له ؛ لأنه رازق ذلك . ثم رجع اللفظ من الخبر عن الأثم إلى إخبار الحاضرين بما مداه ؛  
 فالإله واحد بلبيحكم ، فكذلك الأمر في الذبيحة إنما ينبغي أن تخلص له .

قوله تعالى : ﴿ فَلَهُ أَسْلِمُوا ﴾ مضاف لحقه ولوجهه وإسماء آمنوا وأسلموا . ويحتمل أن  
 يريد الاستسلام ؛ أى له أطيعوا وأتقادوا .

قوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴾ الخبت : المتواضع الخاضع من المؤمنين . والخبت  
 انخفض من الأرض ؛ أى بشرهم بالتواب الجزيل . قال عمرو بن أوس : المخبتون الذين  
 لا يظلمون ، وإذا ظلموا لم يتصبروا<sup>(٢)</sup> . وقال مجاهد فيما روى عنه سفيان عن ابن أبي نجيح :  
 المخبتون المطعشون بأمر الله عز وجل .

(١) آية ١٩٦ سورة البقرة . (٢) مكة النون ؛ وبعضين . (٣) الانتصار : الانتقام .

قوله تعالى : الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٢٥﴾

فيه مسائل ثلاث :

الأولى - قوله تعالى : ( وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ) أى خافت وحذرت مخالفته . ووصفهم بالخوف والوجل عند ذكره ، وذلك لقوة يقينهم ومراعاتهم لربه ، وكأنهم بين يديه ، ووصفهم بالصبر وإقامة الصلاة وإدامتها . وروى أن هذه الآية قوله : « وَبَشِّرِ الْخَاسِرِينَ » نزلت في أبى بكر وعمر وعلى رضوان الله عليهم . وقرأ الجمهور « الصلاة » بالخفض على الإضافة ، وقرأ أبو عمرو « الصلاة » بالنصب على توهم النون ، وأن حذفها للتخفيف لطول الاسم . وأنشد سيويه :

• الحَافِظُ عَوْرَةَ الْعَشِيرَةِ ... •

الثانية - هذه الآية نظير قوله تعالى : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ » وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون <sup>(١)</sup> ، وقوله تعالى : « اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِي تَقْشِرُ عَنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ » . هذه حالة العارفين بالله ، الخائفين من سطوته وعقوبته ، لا كما يفعله جهال العوام والمتبعة الطغام من الزعيق والزئير ، ومن النفاق الذى يشبه نفاق الحجير ، فيقال لمن تعاطى ذلك وزعم أن ذلك وجد وخشوع : إنك لم تبلغ أن تساوى حال رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا حال أصحابه في المعرفة بالله تعالى والخوف منه والتعظيم لحلاله ، ومع ذلك فكانت حالم عند المواعظ الفهم عن الله والبكاء خوفاً من الله . وكذلك وصف الله تعالى أحوال أهل المعرفة عند سماع ذكره وتلاوة كتابه ، ومن لم يكن كذلك فليس على هديهم ولا على طريقهم ؟ قال الله تعالى : « وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ

(١) البيت بتمامه : الحافظ عورة العشيرة لا • يأتيهم من وراءنا خلف

(٢) آية ٢ سورة الأتقال . (٣) آية ٢٣ سورة الزمر .

تَفِيضُ مِنَ الدَّنْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتَبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ<sup>(١)</sup> . وهذا وصف  
 حالم وحكاية مقامهم ؛ فمن كان مُسْتَنًا فَلَيْسَتْ ، ومن تعاطى أحوال المجانين والجنون فهو من  
 أخسهم حالا ؛ والجنون فنون . روى الصحيح عن أنس بن مالك أن الناس سألوا النبي صلى  
 الله عليه وسلم حتى أَحَقَّوه في المسألة ، فخرج ذات يوم فصعد المِثْرَ فقال : « سلوني لا تسألوني  
 عن شيء إلا بيته لكم ما دمت في مقامى هذا » فلما سمع ذلك القومُ أَرْمَوْا ورهبوا أن يكون  
 بين [يدى] أمرٍ قد حضر . قال أنس : فجعلت أُلْتَفِتُ بينا وشمالا فإذا كل إنسان لَأَفْ<sup>(٢)</sup>  
 رأسه في نوبه يبكى . وذكر الحديث . وقد مضى القول في هذه المسألة بأشبع من هذا  
 في سورة « الأنفال<sup>(٣)</sup> » والحمد لله .

قوله تعالى : **وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ**  
**فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍّ فَإِذَا جِئْتِ جُنُوبَهَا فَكُلُوا مِنْهَا**  
**وَأَطِيعُوا أَلْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴿٦٦﴾  
 فيها عشر مسائل :

الأولى — قوله تعالى : **(وَالْبُدْنَ)** وقرأ ابن أبي إسحاق : **« وَالْبُدْنَ »** لفتان ؛ وأحدتها  
 بَدَنَةٌ . كما يقال : ثمرة **وُثْمَرُ وَثْمَر** ، وخشبة **وُخْشَبَ وَخُشِب** . وفي التزويل « وكان له ثمر »  
 وقرئ « ثمر » لفتان . وسميت بَدَنَةٌ لأنها تَبْدُنُ ، والبَدَانَةُ السَّمْنُ . وقيل : إن هذا الاسم  
 خاص بالإبل . وقيل : البُدْنُ جمع « بَدْن » بفتح الباء والدال . ويقال : بَدْنُ الرجل (بضم  
 الدال) إذا سَمِنَ . وبَدْن (بتشديد الباء) إذا كبر وأسن . وفي الحديث « إني قد بَدَنْتُ » أى  
 كبرت وأسنفت . وروى « بَدَنْتُ » وليس له معنى ؛ لأنه خلاف صفته صلى الله عليه وسلم ،  
 ومعناه كثرة اللحم . يقال : بَدْنُ الرجل يَبْدُنُ بَدْنًا وبَدَانَةً فهو بَادِنٌ ؛ أى ضخم .

(١) آية ٨٣ سورة المائدة . (٢) أى أكثر راحته . وأخى في السؤال والخلف بمعنى أخ .

(٣) اسم الرجل : سكت ، فهو مَرْمَرٌ . (٤) الزيادة عن صحيح مسلم . (٥) راجع به ٧ ص ٣٦٦

سنة أول . أو ثانية .



الثانية - اختلف العلماء في البُذْن هل تطلق على غير الإبل من البقر أم لا ؛ قال ابن مسعود وعطاء والشافعي : لا . وقال مالك وأبو حنيفة : نعم . وقائدة الخلاف فيمن نذر بذنة فلم يحصد البذنة أو لم يقدر عليها وقدر على البقرة ؛ فهل تجزيه أم لا ؛ فصل من مذهب الشافعي وعطاء لا تجزيه . وعمل من مذهب مالك تجزيه . والصحيح ما ذهب إليه الشافعي وعطاء ؛ لقوله عليه السلام في الحديث الصحيح في يوم الجمعة : " من راح في الساعة الأولى فكأنما قرب بذنة ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة " الحديث . فتفرقه عليه السلام بين البقرة والبذنة يدل على أن البقرة لا يقال عليها بذنة ؛ والله أعلم . وأيضاً قوله تعالى : « فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا » يدل على ذلك ؛ فإن الوصف خاص بالإبل . والبقر يضرع ويدبح كالغنم ؛ على ما يأتي . ودليلنا أن البذنة مأخوذة من البذانة وهو الضخامة ، والضخامة توجد فيهما جميعاً . وأيضاً فإن البقرة في التقرب إلى الله تعالى بإراقة الدم بمثلة الإبل ؛ حتى تجوز البقرة في الضحايا عن سبعة كالإبل . وهذا حجة لأبي حنيفة حيث وافقه الشافعي على ذلك ، وليس ذلك في مذهبي . وحكى ابن شجرة أنه يقال في الغنم بذنة ، وهو قول شاذ . والبُذْن هي الإبل التي تُهْدَى إلى الكعبة . والهُدَى عام في الإبل والبقر والغنم .

الثالثة - قوله تعالى : ( مِّنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ) نص في أنها بعض الشعائر . وقوله : ( لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ) يريد به المنافع التي تقدم ذكرها . والصواب عمومها في خير الدنيا والآخرة .

الرابعة - قوله تعالى : ( فَأَذْكُرُوا لِلَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ ) أى أعزوها على اسم الله . و« صواف » أى قد صفت قوائمها . والإبل تُحَرِّقُ قوائمها معقولة . وأصل هذا الوصف في الخيل ؛ يقال : صَفَنَ الفرس فهو صافن إذا قام على ثلاث قوائم وتبقى سُنْبُكُ الرابسة ؛ والسُنْبُكُ طرف الحافر . والبعير إذا أراد أن يمشي يُعْمَلُ إحدى يديه فيقوم على ثلاث قوائم وقرأ الحسن والأعرج ومجاهد وزيد بن أسلم وأبو موسى الأشعري « صوافي » أى خواص الله عز وجل لا يشركون به في التسمية على نحرها أحدا . وعن الحسن أيضاً « صواف » بكسر الهمزة وتووينها غنقة ، وهى بمعنى التي قبلها . لكن حذف الياء تخفيفاً على غير قياس

« صَوَافٍ » قراءة الجمهور بفتح الفاء وشدها ؛ من صَفَّ يَصِفُّ . وواحد صَوَافٍ صَانَةٌ ،  
 وواحد صَوَافٍ صَافِيَةٌ . وابن مسعود وابن عباس وابن عمرو وأبو جعفر محمد بن علي « صَوَافِي »  
 بالنون جمع صَافِنَةٍ . ولا يكون واحدا صَافَا ؛ لأن فاعلا لا يجمع على فواعل إلا في حروف  
 مختصة لا يقاس عليها ؛ وهي فارس وفارس ، وهالك وهوالك ، وخالف وخوالف<sup>(١)</sup> .  
 والصافنة هي التي قد رفعت إحدى يديها بالعقل لثلاثا تضطرب . ومنه قوله تعالى :  
 « الصَّافِنَاتُ الْيَاسِرَاتُ » . وقال عمرو بن كلثوم :

تَرَكَ الْخَلِيلَ عَاكِفًا عَلَيْهِ • مَقْلَدَةً أَعْتَبَهَا صُفُونًا

ويروى :

نَظَلَ جِيَادُهُ نَوَّحًا عَلَيْهِ • مَقْلَدَةً أَعْتَبَهَا صُفُونًا

وقال آخر :

أَلِفَ الصُّفُونِ فَمَا يَزَالُ كَانَهُ • مِمَّا يَقُومُ عَلَى الثَّلَاثِ كَسِيرًا

وهال أبو عمرو الجَرَمِيُّ : الصافن عرق في مقدم الرجل ، فإذا ضرب على الفرس :  
 رفع زجله . وقال الأعشى :

وَكَلَّ كُنَيْتٌ بِكَذَعِ السَّحْوِ • قِيَّزُو الْقِيَاءِ إِذَا مَا صَفَنَ

الخامسة - قال ابن وهب : أخبرني ابن أبي ذئب أنه سأل ابن شهاب عن الصواف  
 فقال : تقيدها ثم تضييقها . وقال لي مالك بن أنس مثله . وكافة العلماء على استحباب ذلك ؛  
 إلا أبا حنيفة والثوري فإنهما أجازا أن تحر بركة وقيامًا . وشذَّ عطاء نخالف واستحب  
 نحرها بركة . والصحيح ما عليه الجمهور ؛ لقوله تعالى : « فَإِذَا وَجِيتُ جُنُوبَهَا » معناه  
 سقطت بعد نحرها ؛ ومنه وَجِيتُ الشمس . وفي صحيح مسلم عن زياد بن جبير أن ابن عمر  
 أتى على رجل وهو يخبر بدنة بركة فقال : آيستها فائمة مقيدة سنة نبيكم صلى الله عليه وسلم .  
 وروى أبو داود عن أبي الزبير عن جابر ، وأخبرني عبد الرحمن بن سابط أن النبي صلى الله  
 عليه وسلم وأصحابه كانوا يخبرون البدنة معقولة اليسرى فائمة على ما بقي من قواعها .

(١) « فاعل » الذي لا يجمع على فواعل ؛ إذا كان وصفا لذكر فاعل ؛ أما « صافن » فليس وصفا لفاعل .

(٢) في شرح الأعرابي على ألفية ابن مالك أنها فارس وفارس وهالك وهوالك وغالب وشاهد . (٣) آية ٢١ سورة ص .

السادسة — قال مالك : فإن ضُفَّ إنسان أو تخوف أن تنفلت بدنته فلا أرى بأساً أن يضرها معقولة . والأختيار أن تُنحر الإبل فائمة غير معقولة ؛ إلا أن يتعذر ذلك فتعقل ولا تُعَرِّق إلا أن يخاف أن يضعف عنها ولا يقوى عليها . وغيرها بركة أفضل من أن تعرق . وكان ابن عمر يأخذ الحربة بيده في عفوان أيده فينحرها في صدرها ويخرجها على سنامها ، فلما أسن كان يضرها بركة لضعفه ، ويمسك معه الحربة وجل آخر ، وآخر يخطأها . وتضعج البقر والغنم .

السابعة — ولا يجوز النحر قبل الفجر من يوم النحر بإجماع . وكذلك الأضحية لا تجوز قبل الفجر . فإذا طلع الفجر حل النحر مئتي ، وليس عليهم انتظار نحر إمامهم ؛ بخلاف الأضحية في سائر البلاد . والمنحرمئني لكل حاج ، ومكة لكل معتمر . ولو نحر الحاج بمكة والمُعتمر مئتي لم يخرج واحد منهما ، إن شاء الله تعالى .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا ﴾ (١) يقال : وجبت الشمس إذا سقطت ، ووجب الحائط إذا سقط . قال قيس بن الخطيم  
أطاعت بنو عوف أميرا ناهم : عن السلم حتى كان أول واجب

وقال أوس بن حجر :

ألم تكسف الشمس والبدر وال • كواكب الجبل الواجب

فقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا ﴾ يريد إذا سقطت على جنوبها ميتة . كئى عن الموت بالسقوط على الجانب كما كئى عن النحر والذبح بقوله تعالى : ﴿ فاذكروا اسم الله عليها • • والكليات في أكثر المواضع أبلغ من التصريح . قال الشاعر

فركته جزر السباع يُلشَّته • ما بين قلة رأسه والمعصم

(١) هذه رواية البيت كافي ديوانه . ورواية في الأصول :

ألم تكسف الشمس ضوء النهار • والبدر الجبل الواجب  
ويريد بالجبل : فضالة بن كعدة . وهو من تصيدة يربيه بها ، وفيها :

هناك فضالة لا تسرى إل • فغود ولا غيلة القاصب

(٢) البيت من معلقة عترة . وأجزؤ : جمع جزرة ، وهي الشاة طائفة تذبح وتحر

وقال عترة : • وضربت قرني كيشها فتجذلا <sup>(١)</sup> •

أى سقط مقتولا إلى الجحالة ، وهى الأرض ، ومثله كثير . والأوجوب للجنب بعد النحر علامة نزف الدم وخروج الروح منها ، وهو وقت الأكل ، أى وقت قرب الأكل ، لأنها إنما تبدأ بالسليخ وقطع شئ من الذبيحة ثم يطبخ . ولا تسليخ حتى تبرّد لأن ذلك من باب التعذيب ، ولهذا قال عمر رضى الله عنه : لا تمجلوا الأنفس أن تزهق .

التاسعة - قوله تعالى : ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا ﴾ أمر معناه التذنب . وكل العلماء يستحب أن يأكل الإنسان من هذيه ، وفيه أجر ومثال ؛ إذ كان أهل الجاهلية لا يأكلون من هذيه كما تقدم . وقال أبو العباس بن شريح : لا كل والإطعام مستحبان ، وله الإقصار على أيهما شاء . وقال الشافعى : الأكل مستحب والإطعام واجب ، فإن أطعم جميعها أجزأ وإن أكل جميعها لم يجزه ، وهذا فيما كان تطوعا ، فأما واجبات الدماء فلا يجوز أن يأكل منها شيئا حسبما تقدم بيانه .

الماشرة - قوله تعالى : ﴿ وَأَطِيعُوا الْقَائِمَ وَالْمُعْتَرِى ﴾ قال مجاهد وإبراهيم والطبرى : قوله « وأطيعوا » أمر بإباحة . و « القائم » السائل . يقال : قنع الرجل قنعا فنوعا إذا سأل ، بفتح النون فى الماضى وكسرهما فى المستقبل ، يقنع قاعة فهو قنيس ، إذا تعفف واستغنى بيلته ولم يسأل ، مثل حميد بن محمد ، قاعة وقنما وقنانا ، قاله الخليل . ومن الأول قول الشاعر :

لَسَأَلَ الْمَرْءَ يُصْلِحُهُ فَيُثْنِي ۖ مَقَاقرَهُ أَعْفَ مِنَ الْقَنُوعِ

وقال ابن السكيت : من العرب من ذكر القنوع بمعنى القناعة ، وهى الرضا والتعفف وترك المسألة . وروى عن أبي رضاء أنه قرأ : « وأطيعوا القنيس » ومعنى هذا محالف للأول .

(١) هذا مديريت ، ويجزه كما فى ديوانه :

• رحلت مهري وسطها مضاما •

(٢) هذه النسبة لم نجدها فى الماضى ، على أن فى البارة حادثة اضطرابا . والذى فى كتب اللغة أنه يقال : مع الرجل يقنع (يقنع النون فهما) فنوعا إذا سأل . وقنع يقنع (بكسر النون فى الماضى ونحبا فى المستقبل) قاعة وقنما وقننا - كما ذكر المؤلف - إذا رضى . راجع معجم اللغة .

يقال : قَنِعَ الرجل فهو قَنِيعٌ إذا رَضِيَ . وأما الْمُعْتَرَفُ فهو الذي يُطِيفُ بك يطلب ما عندك ،  
مثلاً كان أوساً ثَمًّا . وقال محمد بن كعب القُرَظِيُّ : ومجاهد وإبراهيم والكَلْبِيُّ والحسن بن  
أبي الحسن : المعتَرُ المعترض من غير سؤال . قال زهير :

على مُكْثَرِهِمْ رَزَقٌ مِنْ يَمْتَرِهِمْ \* وعند المُقِلِّينَ السَّحَابَةُ وَالْبَدَلُ

وقال مالك : أحسن ما سمعت أن القانع الفقير ، والمعتَرُ الزائر . وروى عن الحسن أنه قرأ  
« والمُعْتَرَى » ومعناه كمنى المعتَر . يقال : اعتَرَه واعتراه وعمره وعمرَاه إذا تعرض لما عنده  
أو طلبه ؛ ذكره النحاس .

قوله تعالى : لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى  
مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيْتُمْ وَإِسْرَارَ  
الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٧﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ( لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا ) قال ابن عباس : كان أهل الجاهلية  
يُضْرَجُونَ البيت بدماء البُدن ، فأراد المسلمون أن يفعلوا ذلك فقلَّت الآية . والنيل لا يتعلق  
بالبرئ تعالى ، ولكنه عبر عنه تعبيراً مجازياً عن القبول ، المعنى : لن يصل إليه . وقال  
ابن عباس : لن يصعد إليه . ابن عيسى : لن يقبل لحومها ولا دماغها ، ولكن يصل إليه  
التقوى منكم ؛ أى ما أريد به وجهه ، فذلك الذى يقبله ويرفع إليه ويسمعه ويُسَبِّح عليه ؛  
ومنه الحديث : « إنما الأعمال بالنيات » . والقراءة « لن ينال الله » و « يناله » بإياء فیهما .  
وعن يعقوب بأثاء فيهما ، نظراً إلى اللحوم .

الثانية - قوله تعالى : ( كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ ) مَنْ سَبَّحَانَهُ عَلَيْنَا بِتَذِيلِهَا وَتَمَكِّنَا  
من تصرفها وهى أعظم منا أبداناً وأقوى منا أعضاء ، ذلك ليعلم العبد أن الأمور ليست على  
ما تظهر إلى البعد من التدبير ، وإنما هى بحسب ما يريدّها العزيز القدير ، فيَغْلِبُ الصَّغِيرُ  
الكبيرَ ليعلم الخلق أن التَّالِبَ هو الله الواحد القهار فوق عباده .

الثالثة - قوله تعالى : ( لِكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَذَاكُمْ ) ذكر سبحانه ذكر اسمه عليها في الآية قبلها فقال عز من قائل : « فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْهَا » ، وذكر هنا التكبير . وكان ابن عمر رضي الله عنهما يجمع بينهما إذا تكرر هذيه يقول : بأسم الله والله أكبر ؛ وهذا من تفهيمه رضي الله عنه . وفي الصحيح عن أنس قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يكبشين <sup>(١)</sup> أقرنين . قال : ورأيت يذبحهما بيده ، ورأيت واضعا قدمه على صفاحهما ، وسمي وكبر . وقد اختلف العلماء في هذا ؛ فقال أبو ثور : التسمية متبينة كالتكبير في الصلاة ؛ وكافة العلماء على استحباب ذلك . فلو قال ذكرا آخر فيه أسم من أسماء الله تعالى وأراد به التسمية جاز . وكذلك لو قال : الله أكبر فقط ، أولا لله إلا الله ؛ قاله ابن حبيب . فلو لم يرد التسمية لم يميز عن التسمية ولا يؤكل ؛ قاله الشافعي ومحمد بن الحسن . وكره كافة العلماء من أصحابنا وغيرهم الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم عند التسمية في الذبح أو ذكره ، وقالوا : لا يذكرها إلا الله وحده . وأجاز الشافعي الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم عند الذبح .

الرابعة - ذهب الجمهور إلى أن قول المضحى : اللهم تقبل مني ؛ جائز . وكره ذلك أبو حنيفة ؛ والجمعة عليه ما رواه الصحيح عن عائشة رضي الله عنها ، وفيه : ثم قال « باسم الله اللهم تقبل من عدي وآل عدي ومن أمة عدي » ثم مضى به . وأستحب بعضهم أن يقول ذلك بنص الآية « رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » . وكره مالك قولهم : اللهم منك وإليك ، وقال : هذه بدعة . وأجاز ذلك ابن حبيب من أصحابنا والحسن ؛ والجمعة لما رواه أبو داود عن جابر بن عبد الله قال : ذبح النبي صلى الله عليه وسلم يوم الذبح كبشين أقرنين <sup>(٢)</sup> موجهين أملين ، فلما وجههما قال : « إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَقِيقًا » . وقرأ إلى قوله : وَأَنَا أَقُولُ الْمُسْلِمِينَ - اللهم منك ولك عن عدي وأمة باسم الله والله أكبر . ثم ذبح . فلعل مالك لما يبلغه هذا الخبر ، أو لم يصح عنده ، أو رأى العمل يخالفه . وعلى هذا يدل قوله : إنه بدعة . والله أعلم .

(١) الأملح : الذي يباذه أكثر من سواده . وقيل : التي الياس . (٢) الصفاح (بكسر الصاد) : الجوانب ؛ المراد الجانب الواحد من وجه الأضحية ، وإني أتى إشارة إلى أنه ضل ذلك في كل منها . (٣) آية ١٢٧ سورة البقرة . (٤) أي ضيق .

الخامسة - قوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴾ رُوى أنها نزلت في الخلفاء الأربعة ؛  
حسباً تقدم في الآية التي قبلها . فاما ظاهر اللفظ فيقتضى العموم في كل حين .

قوله تعالى : **إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ**  
**كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ** ﴿٣٨﴾

روى أنها نزلت بسبب المؤمنين لما كثروا بمكة وآذاهم الكفار وهاجر من هاجر إلى  
أرض الحبشة ؛ أراد بعض مؤمنى مكة أن يقتل من أمكنه من الكفار وينال ويقتدر ويحتال ؛  
فنزلت هذه الآية إلى قوله : « كفور » . فوعدها سبعانه بالمداغة وهى أفصح نهى عن  
النجاسة والندرة . وقد مضى في « الأنفال » التشديد في الغدر ؛ وأنه « ينصب للغادر لواء عند  
أسنه بقدر غدرته يقال هذه غدره فلان » . وقيل : المعنى يدفع عن المؤمنين بأن يديم توفيقهم  
حتى يتمكن الإيمان من قلوبهم ، فلا تقدر الكفار على إمالتهم عن دينهم ؛ وإن جرى إكراه  
« فيعصمهم حتى لا يرتدوا بقلوبهم » . وقيل : يدفع عن المؤمنين بإعلائهم بالجمعة . ثم قتل كافر  
مؤمناً بادر ، وإن يدفع الله عن فلك المؤمن بالله قبضه إلى رحمة . وقرأ نافع « يدفع »  
« ولولا دفاع » . وقرأ أبو عمرو وابن كثير « يدفع » « ولولا دفع » . وقرأ عاصم وحمة  
والكسائي « يدفع » « ولولا دفع الله » . ويدافع بمعنى يدفع ؛ مثل عاقبت اللص ، وعافاه  
الله ؛ والمصدر دفعا . وحكى الزهراوى أن « دفاعا » مصدر دفع ؛ تحسب حساباً .

قوله تعالى : **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلُمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِم**  
**إِلْقَادِيرٌ** ﴿٣٩﴾

فيه مسائلتان :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ ﴾ قيل : هذا بيان قوله « إن الله يدفع  
عن الذين آمنوا » أى يدفع عنهم عوائل الكفار بأن يبيع لهم القتال وينصرهم ؛ وفيه إضمار ، أى

أُذُنَ الَّذِينَ يَصْلَحُونَ لِلْقِتَالِ فِي الْقِتَالِ ؛ حَذَفَ لِدَلَالَةِ الْكَلَامِ عَلَى الْحَذُوفِ . وَقَالَ الضَّعَّاكُ :  
 إِشَادَةً إِصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَالِ الْكُفَّارِ إِذْ أَذَوْهُمْ بِمَكَّةَ ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ « إِنْ اللَّهُ  
 لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ » فَلَمَّا هَابَ زَلْتُ « أَذِنَ لِلَّذِينَ يَقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلُمُوا » . وَهَذَا نَاسِخٌ  
 لِكُلِّ مَا فِي الْقُرْآنِ مِنْ إِعْرَاضٍ وَتَرْكِ صَفْحٍ . وَهِيَ أَوَّلُ آيَةٍ نَزَلَتْ فِي الْقِتَالِ . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ  
 وَابْنُ جَبْرِ : نَزَلَتْ عِنْدَ هِجْرَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمَدِينَةِ . وَرَوَى النَّسَائِيُّ  
 وَالتِّرْمِذِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : لَمَّا أُخْرِجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ مَكَّةَ قَالَ أَبُو بَكْرٍ :  
 أَخْرِجُوا نَبِيَّكُمْ لِيُهْلِكَكُمْ ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى « أَذِنَ لِلَّذِينَ يَقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلُمُوا وَإِنْ اللَّهُ عَلَى نَصْرِهِمْ  
 لَقَدِيرٌ » فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : لَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُ سَيَكُونُ قِتَالٌ . فَقَالَ : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ . وَقَدْ  
 رَوَى غَيْرُ وَاحِدٍ عَنْ سَفِيَّانٍ عَنِ الْأَعْمَشِ عَنْ مُسْلِمِ الْبَطِينِ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ مَرْسَلًا ، لَيْسَ  
 فِيهِ : عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ .

الثانية - في هذه الآية دليل على أن الإباحة من الشرع ، خلافاً للعترة ؛ لأن قولهُ :  
 « إِنْ » مَتَاهُ إِسْبَاحٌ ؛ وَهُوَ لَفْظٌ مُضَوِّعٌ فِي اللَّفْظِ لِإِبَاحَةِ كُلِّ مُنَوِّعٍ . وَقَدْ تَقَدَّمَ هَذَا الْمَعْنَى  
 فِي « الْبَقَرَةِ » وَغَيْرِ مَوْضِعٍ . وَقُرِئَ « أَذِنَ » بَفَتْحِ الْمِيمَةِ ؛ أَيْ أَذِنَ اللَّهُ . « يَقَاتِلُونَ » بِكَسْرِ التَّاءِ  
 أَيْ يَقَاتِلُونَ مَذْمُومٌ . وَقُرِئَ « يَقَاتِلُونَ » بَفَتْحِ التَّاءِ ؛ أَيْ يَقَاتِلُهُمُ الْمُشْرِكُونَ وَهُمْ الْمُؤْمِنُونَ .  
 وَلِهَذَا قَالَ : « وَأَنَّهُمْ ظُلُمُوا » أَيْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ .

قوله تعالى : الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِينِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَدْ يَصْصِرُ  
 وَلَكِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿١٠٠﴾

(١) يلاحظ أن الآية تنقسم في الجزء الثالث من ٢٤٧ طبة ثانية من قوله تعالى : « وَتَأْتُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ... »



فيه سبع مسائل :<sup>(١)</sup>

الأولى - قوله تعالى : ( الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ ) هذا أحد ما ظلموا به ، وإثما  
خرجوا لقولهم : ربنا الله وحده . فقوله : « إلا أن يقولوا ربنا الله » استثناء منقطع ، أى  
لكن لقولهم ربنا الله ؛ قاله سيويه . وقال الفراء يجوز أن تكون في موضع خفض ، يقدرها  
مردودة على الباء ؛ وهو قول أبى إسحاق الزجاج ، والمعنى عنده : الذين أخرجوا من ديارهم  
بغير حق إلا بأن يقولوا ربنا الله ؛ أى أخرجوا بتوجيههم ، أخرجهم أهل الأوثان . و « الَّذِينَ  
أُخْرِجُوا » في موضع خفض بدلاً من قوله : « الَّذِينَ يَمَاتُونَ » .

الثانية - قال ابن العربي : قال علماؤنا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بيعة  
العقبة لم يؤذن له في الحرب ولم تحمل له الدماء ؛ إنما يؤمر بالدعاء إلى الله والصبر على الأذى  
والصفح عن الجاهل مدة عشرة أعوام ؛ لإقامة حجة الله تعالى عليهم ، ورفاه بوعده الذى  
امتن به بفضلهم في قوله : « وما كنا مُعَذِّبِينَ حَتَّى تَبْتَغُوا رَسُولًا<sup>(٢)</sup> » . فاستقر الناس في الطغيان  
وما استدلووا بواضع البرهان ، وكانت قريش قد اضطهدت من آتبعه من قومه من المهاجرين  
حتى قتلهم عن دينهم وقومهم عن بلادهم ؛ فنهى من فز إلى أرض الحبشة ، ومنهم من خرج  
إلى المدينة ، ومنهم من صبر على الأذى . فلما عنت قريش على الله تعالى وردوا أمره وكذبوا  
نبيه عليه السلام ، وعذبوا من آمن به ووحده وعبدته ، وصدق نبيه عليه السلام واعتصم بدينه ،  
أذن الله لرسوله في القتال والامتناع والانتصار ممن ظلمهم ، وأذن للذين يقاتلون بأنهم  
ظلموا - إلى قوله - الأثوري .

الثالثة - في هذه الآية دليل على أن نسبة الفعل الموجود من الملبأ المكر إلى  
الذى أبله وأكرهه ؛ لأن الله تعالى نسب الإخراج إلى الكفار ، لأن الكلام في معنى  
تقدير الذنب والإلزام . وهذه الآية مثل قوله تعالى : « إِذْ أُخْرِجُوا الَّذِينَ كَفَرُوا » والكلام فيها  
واحد ؛ وقد تقدم في « براءة »<sup>(٣)</sup> والحمد لله .

(٢) آية ١٥ سورة الاسراء .

(١) يلاحظ أن المؤلف رحمه الله ذكر ثمانى مسائل

(٢) راجع ج ٨ ص ١٤٣ طيبة أبل أو ثانية .

الرابعة - (وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ) أى لولا ما شرعه الله تعالى للا نباء  
والمؤمنين من قتال الأعداء ، لأستولى أهل الشرك وعطلوا ما بينته أرباب الديانات من  
مواضع العبادات ، ولكنه دفع بأن أوجب القتال ليفترغ أهل الدين للعبادة . فالجهاد أمر  
متقدم فى الأئم ، وبه صلحت الشرائع وأجتمعت المنعمات ؛ فكأنه قال : أذن فى القتال ،  
فليقاتل المؤمنون . ثم قوى هذا الأمر فى القتال بقوله : « وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ » الآية ؛  
أى لولا القتال والجهاد لتغلب على الحق فى كل أمة . فمن استبشع من النصارى والصابئين  
الجهاد فهو مناقض لمذهبه ؛ إذ لولا القتال لما بق الدين الذى يذب عنه . وأيضا هذه  
المواضع التى اتخذا قبل تحريرهم وتبديلهم وقبل نسخ تلك الملل بالإسلام إنما ذكرت لهذا  
المعنى ؛ أى لولا هذا الدفع لهدم فى زمن موسى الكاظم ، وفى زمن عيسى الصوامع والبيع ،  
وفى زمن محمد عليه السلام المساجد . (لَسُدَّتْ) من هدمت البناء أى نقضته فأتهدم .  
قال ابن عطية : هذا أصوب ما قيل فى تأويل الآية . وروى عن علي بن أبي طالب رضى  
الله عنه أنه قال : ولولا دفع الله بأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم الكفار عن التابعين من  
بعدهم . وهذا وإن كان فيه دفع قوم يقوم إلا أن معنى القتال أبقى ، كما تقدم . وقال مجاهد :  
لولا دفع الله ظلم قوم بشهادة العدول . وقالت فرقة : ولولا دفع الله ظلم الظلمة بعدل الولاة .  
وقال أبو الدرداء : لولا أن الله عز وجل يدفع بمن فى المساجد عمن ليس فى المساجد ، ومن  
يفزو عمن لا يفزو ، لأتاهم العذاب . وقالت فرقة : ولولا دفع الله العذاب بدعاء الفضلاء  
والأخيار إلى غير ذلك من التفصيل المفسر لمعنى الآية ؛ وذلك أن الآية ولا بد تقتضى  
مدفوعا من الناس ومدفوعا عنه ، فتأمله .

الخامسة - قال ابن خزيمة : تضمنت هذه الآية المنع من هدم كنائس أهل  
الذمة ويسمهم ويؤت منهم ، ولا يتركون أن يحيدوا ما لم يكن ، ولا يزيدون فى البنيان  
لأمة ولا ارتفاعا ، ولا يذبحوا للسامية ، أن يدسوها ولا يصلوا فيها ، ومتى أسدوا زيادة  
وجب نقضها . وينقض ما وجد فى بلاد الحرب من البيع والكنائس . وإنما لم ينقض

ما في بلاد الإسلام لأهل الذمة ؛ لأنها جرت مجرى بيوتهم وأموالهم التي عاهدوا عليها في الصيانة . ولا يجوز أن يمتكوا من الزيادة لأن في ذلك إظهار أسباب الكفر . وجاز أن ينقض المسجد ليعاد بنيانه ؛ وقد فعل ذلك عثمان رضي الله عنه بمسجد النبي صلى الله عليه وسلم .

السادسة — قرئ « لهدت » بتخفيف الدال وتشديد هاء « صوامع » جمع صومعة ، وزنها قوعة ، وهي بناء مرتفع حديد الأعلی ؛ يقال : صمغ الثريدة أى رفع رأسها وحده . ورجل أصمغ القلب أى حاذئ العظنة . والأصمغ من الرجال الحديد القول . وقيل : هو الصغير الأذن من الناس وغيرهم . وكانت قبل الإسلام مختصة برهبان النصارى وبناد الصابئين — قاله قتادة — ثم استعمل في مثذنة المسلمين . والبيع جمع بيعة ، وهي كنيسة النصارى . وقال الطبري : قيل هي كنائس اليهود ؛ ثم أدخل عن مجاهد ما لا يقتضى ذلك . « وَصَلَوَاتٌ » قال الزجاج والحسن : هي كنائس اليهود ؛ وهي بالعبرانية صَلَوَاتُ . وقال أبو عبيدة : الصلوات بيوت تبنى للنصارى في البرارى يصلون فيها في أسفارهم ، تسمى صلواتا فتربت فقبل صلوات . وفي « صلوات » تسع قراءات ذكرها ابن عطية : صَلَوَاتُ ، صَلَوَاتُ ، صَلَوَاتُ ، صَلَوَاتُ على وزن فصولي ، صَلُوبٌ بالباء بواحدة جمع صليب ، صَلُوتٌ بالثاء المثناة على وزن فُعُول ، صَلَوَاتٌ بضم الصاد واللام وألف بعد الواو ، صَلُوتًا بضم الصاد واللام وقصر الألف بعد الثاء المثناة ، [ صَلُوتًا بكسر الصاد وإسكان اللام وواو مكسورة بعدها ياء بعدها ثاء متقوطة بثلاث بعدها ألف ] . وذكر النحاس : وروى عن عاصم الجحدري أنه قرأ « وَصُوبٌ » . وروى عن الضحاك « وَصُلوَاتٌ » بالثاء معجمة بثلاث ؛ ولا أدري أفتح الصاد أم ضمها .

قلت : فعلی هذا تجمیء هنا عشر قراءات . وقال ابن عباس : الصلوات الكنائس . أبو العالية : الصلوات مساجد الصابئين . ابن زيد : هي صلوات المسلمين تنقطع إذا دخل عليهم العدو وتهدم المساجد ؛ فعلی هذا استعير المهدم للصلوات من حيث تُهدم ، أو أزاود موضع صلوات لحذف المضاف . وعلى قول ابن عباس والزجاج وغيرهم يكون المهدم

(١) ما بين المربعين عبارة أبي حيان . والهدى في الأصل : صلواتًا بكسر الصاد والفاء المثناة .

حقيقة . وقال الحسن : هدم الصلوات تركها . قُطِرْب : هي الصوامع الصغار ولم يسمع لها واحد . وذهب خَصِيف إلى أن القصد بهذه الأسماء تقسيم متعبدات الأُمم . فالصوامع للرهبان ، والبيع للنصارى ، والصلوات لليهود ، والمساجد للمسلمين . قال ابن عطية : والأضهر أنها قصد بها المبالغة في ذكر المتعبدات . وهذه الأسماء تشترك الأُمم في سميائها ، إلا البيعة فإنها مختصة بالنصارى في لغة العرب . ومعاني هذه الأسماء هي في الأُمم التي لها كتاب على قديم الدهر . ولم يذكر في هذه الآية المجوس ولا أهل الإشراك ؛ لأن هؤلاء ليس لهم ما يجب حمايته ، ولا يوجد ذكر الله إلا عند أهل الشرائع . وقال النحاس : « يُدْكَرُ فيها أَسْمُ اللَّهِ » الذي يجب في كلام العرب على حقيقة النظر أن يكون « يُدْكَرُ فيها أَسْمُ اللَّهِ » عائداً على المساجد لا على غيرها ؛ لأن الضمير يلها . ويموز أن يعود على « صوامع » وما بعدها ؛ ويكون المعنى وقت شرائعهم وإقامتهم الحق .

السابعة — فإن قيل : لم قدمت مساجد أهل الذمة ومصلياتهم على مساجد المسلمين ؟ قيل : لأنها أقدم بناء . وقيل لتربها من الهدم وقرب المساجد من الذكر ؛ كما أشر السابق في قوله : « فَبَيْنَهُمْ ظُلُمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَائِقٌ بِالْخِطَايَةِ » .  
الثامنة — قوله تعالى : ﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ﴾ أى من ينصر دينه ونبيه . ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ ﴾ أى قادر . قال الخطابي : القوي يكون بمعنى القادر ، ومن قوي على شيء فقد قدر عليه . ﴿ عَزِيزٌ ﴾ أى جليل شريف ؛ قاله الزجاج . وقيل المنع الذي لا يرام ؛ وقد بينهما في الكتابين الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى .

قوله تعالى : الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿١١﴾  
قال الزجاج : ﴿ الَّذِينَ ﴾ في موضع نصب رداً على « مَنْ » ، يعني في قوله : « وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ » . وقال غيره : « الذين » في موضع خفض رداً على قوله : « أذن للذين

يَقَاتِلُونَ » ، ويكون « الذين إن مكناهم في الأرض » أربعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن في الأرض غيرهم . وقال ابن عباس : المراد المهاجرون والأنصار والتابعون بإحسان . وقال قتادة : هم أصحاب عهد صلى الله عليه وسلم . وقال عكرمة : هم أهل الصلوات الخمس . وقال الحسن وأبو العالية : هم هذه الأمة إذا فتح الله عليهم أقاموا الصلاة . وقال ابن أبي نجيح : يسى الولاية . وقال الضحاك : هو شرط بشرطه الله عز وجل على من آتاه الملك ، وهذا حسن . قال سهل بن عبد الله : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب على السلطان وعلى العالء الذين يأتونه . وليس على الناس أن يأمروا السلطان ؛ لأن ذلك لازم له واجب عليه ، ولا يأمروا العلماء فإن الحجة قد وجبت عليهم .

قوله تعالى : وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَهُمْ ۖ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ۚ وَأَنصَحْتُ مُدَيِّنَ وَكَذَّبَ مُؤْمِنٌ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ۝

هذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وتمزية ؛ أى كان قبلك أنبياء كُذِّبوا فصبروا إلى أن أهلك الله المكذبين ، فأقعد بهم وأصبر . ( وَكَذَّبَ مُوسَى ) أى كذبه فرعون وقومه . فأما بنو إسرائيل لما كذبوه ، فلهم لم يعطه على ما قبله فيكون وقوم موسى . ( فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ) أى أخرت عنهم العقوبة . ( ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ) فمأقتهم . ( فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ) استنهام بمعنى التنفير ؛ أى فانظر كيف كانت تغييرى ما كانوا فيه من النعم بالعذاب والهلاك ، فكذلك أفعل بالمكذبين من قريش . قال الجوهري : التكبير والإنكار تغيير المنكر ، والمنكر واحد المناكير .

قوله تعالى : فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْرِىٰ مُعْتَلَّةٌ وَقَصِيرٌ مَّشِيدٌ ۝

قوله تعالى : ( فَكَانَ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكَا ) أى أهلكا أهلها . وقد مضى في « آل عمران » الكلام في كآين . ( وَيَحْيَىٰ نَحْلِيَّةٌ ) أى بالكفر . ( فَيَحْيَىٰ نَحْلِيَّةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ) تهتم في الكهف . ( وَيُؤْتِي مَعْطَلَةً وَقَصِيرَ مَشِيدٍ ) قال الزجاج : « وَيُؤْتِي مَعْطَلَةً » معطوف على « مِنْ قَرْيَةٍ » أى ومن أهل قرية ومن أهل بئر . والفراء يذهب إلى أن « وَيُؤْتِي » معطوف على « عُرُوشِهَا » . وقال الأصمعي : سألت نافع بن أبي نعيم أيمنز البئر والذهب ؟ فقال : إن كانت العرب تهمزها فآهزهما . وأكثر الرواة عن نافع بهمزها ؛ إلا وَرَشًا فَإِنْ رَوَيْتَهُ عَنْهُ بغير همز فيها ، والأصل الهمز . ومعنى « مَعْطَلَةً » متروكة ؛ قاله الضحاك . وقيل : خالية من أهلها لملاكمهم . وقيل : غائرة الماء . وقيل : معطلة من دلائها وأرشيها ؛ والمعنى متقارب . ( وَقَصِيرَ مَشِيدٍ ) قال قتادة والضحاك ومقاتل : رفيع طويل . قال عدي بن زيد :

شاداً مَرَمَرًا وَبِلَّه كَلَّ • سَا فَلَطِيفِي ذَوَاهُ وَكُكُورِ

أى رفعة . وقال سعيد بن جبير وعطاء وعكرمة ومجاهد : مجصص ؛ من الشيد وهو الجصص . قال الزجاج :<sup>(١)</sup>

لَا تَحْتَسِبَنَّ وَإِنْ كُنْتَ أَسْرًا تَحْمِرًا • كَيْفَةَ الْمَاءِ بِنِ الطَّيْنِ وَالشَّيْدِ

وقال امرؤ القيس

• وَلَا أَلْمَأُ إِلَّا مَشِيدًا يَجْتَلِي •

وقال ابن عباس : « مَشِيدٌ » أى حصين ؛ وقاله الكلبي : وهو ثقيل . يعنى مفعول كسج يعنى ميوح . وقال الجوهري : والمَشِيدُ المعمول بالشيد . والشيد (بالكسر) : كل شيء طليت به الحائط من جص أو بلاط ، وبالفتح المصدر . تقول : شادته شيداً جصصه . والمَشِيدُ (بالشديد) المطول . وقال الكسائي : « المَشِيدُ » لواحد ، من قوله تعالى : « وَصَصِيرَ مَشِيدٍ » ، والمَشِيدُ الجمع ، من قوله تعالى : « فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ » . وفي الكلام مضمير

(١) راجع ج ٤ ص ٢٢٨ طبعه أدل أدلة . (٢) راجع ج ١٠ ص ١١٠ (٣) البيت للشاعر كافي اللسان . والشيد (فتح الشين وكسر الميم) لغة في الشعر (بضم الشين وسكون الميم) وهو القرائي لم يهرب الأعداء . (٤) هذا بحر البيت وسدس : • وتها لم يتركها جليح نخلة •

محذوف تقديره : وقصر مشيد مثلها معطل . ويقال : إن هذه البئر والقصر بمحضرموت معروفان ، فالقصر مشرف على قلة جبل لا يرتقى إليه بحال ، والبئر في سفحه لا يترجى شربا سقط فيه إلا أخرجته . وأصحاب القصور ملوك الحضرة ، وأصحاب الآبار ملوك البوادي ، أى فأهلكا هؤلاء وهؤلاء . وذكر الضحك وغيره فيما ذكر التعليل وأبو بكر محمد بن الحسن المقرئ وغيرهما أن البئر الرأس ، وكانت بسند باليمن بمحضرموت ، في بلد يقال له حضور ، نزل بها أربعة آلاف من آمن بصالح ، ونجوا من العذاب ومعهم صالح ، فبات صالح فستى المكان محضرموت ، لأن صالحا لما حضره مات فبنوا حضور وقعدوا على هذه البئر ، وآسروا عليهم رجلا يقال له العلس بن جلاس بن سويد ، فيما ذكر التزوي . التعليل : جلس بن جلاس . وكان حسن النسبة فيهم حاملا عليهم ، وجعلوا وزيره سنحاريب بن سودة ، فأقاموا دهرها وتنازلوا حتى كثروا ، وكانت البئر تسقى المدينة كلها وباديتها وجميع ما فيها من الدواب والغنم والبق وغير ذلك ، لأنها كانت لها بركات كثيرة منصوبة عليها ، ورجال كثيرون موكلون بها ، وأبازن ( بالنون ) من رخام وهى شبه الحياض كثيرة تملأ للناس ، وأمر للدواب ، وأمر للبقرة ، وأمر للغنم . والقوام يسقون عليها بالليل والنهار يتداولون ، ولم يكن لهم ماء غيرها . وطال عمر الملك الذى آسروه ، فلما جاءه الموت طلى بدعن لثيق صورته لا تتغير ، وكذلك كانوا يفعلون إذا مات منهم الميت وكان من بكرم عليهم . فلما مات شق ذلك عليهم ورأوا أن أسرهم قد فسد ، ونجوا جميعا بالبكاء ، واغتنمها الشيطان منهم فدخل فجثة الملك بعد موته بأيام كثيرة ، فكلهم وقال : إني لم أمت ولكن تفتت عنكم حتى أرى صيغكم ، ففرحوا أشد الفرح وأمر خاصته أن يضربوا له حجابا بينه وبينهم ويكلمهم من وراءه لئلا يعرف الموت في صورته . فصبوا صفاء من وراء الحجاب لا يأكل ولا يشرب . وأخبرهم أنه لا يموت أبدا وأنه لهم ، فذلك كله يتكلم به الشيطان على لسانه ، فصلى كثير منهم وارتاب به بعضهم ، وكان المؤمن المكتوب منهم أقل من المصدق له ، وكلما تكلم ناصح لهم زجره ففهم فاصفوا على عبادته ، فبعث الله إليهم نبيا كان الوحي يزل عليه في النوم دون اليقظة ، كان اسمه

حنظلة بن صفوان ، فأعلمهم أن الصورة صنم لا روح له ، وأن الشيطان قد أضلهم ، وأن الله لا يمثل بالخلق : وأن الملك لا يجوز أن يكون شريكاً له ، ووعظهم ونصحهم وحذرهم سطوة بهم وقمته ، فأذوه وعادوه وهو يتبعهم بالموعظة ولا يثيبهم بالنصيحة ، حتى قتلوه في السوق وطرحوه في بئر ، فعند ذلك أصابهم النجعة ، فباتوا شباعاً رؤاء من الماء وأصبحوا والبرق قد غار ماؤها وتعلل رشاؤها ، فصاحوا بأجمعهم ونج النساء والولدان ، ونجحت البهائم عطشا ، حتى صمهم الموت وتعللهم الهلاك ، وخلفتهم في أرضهم السباع ، وفي منازلهم الثعالب والضباع ، وتبدلت جثاتهم وأموالهم بالسدر وشوك العضاء والقناد ، فلا يسمع فيها إلا عزيف الجن وزئير الأسد ، نموذ باقه من سطواته ، ومن الإصرار على ما يوجب قيامه . قال السهيلي . وأما القصر المشيد فقصر بناء شقار بن حاد بن إرم ، لم ين في الأرض مثله — فيما ذكروا وزعموا — وحاله أيضا كحال هذه البئر المذكورة في إحصائه بعد الأنيس ، وإفقاره بعد السمران ، وإن أحدا لا يستطيع أن يدنو منه على أميال ، لما يسمع فيه من عزيف الجن والأصوات المنكرة بعد التيم والعيش الرغد وبهاء الملك وانتظام الأهل كالكسك فبادوا وما عادوا ، فذكرهم الله تعالى في هذه الآية موعظة وعبرة وتذكيرة ، وذكرنا وتحذيرا من مقبة المعصية وسوء ماقبة المخالفة ، نموذ باقه من ذلك ونستجيره من سوء المآل . وقيل : إن الذي أهلكهم يختصر على ما تقدم في سورة « الأنبياء » في قوله : « وكف قصصنا من قرية » . فتمطت بهم ونجرت قصورهم .

قوله تعالى : أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (١)

(١) الصدور الشجر ، وهو مدان : أحدهما يرى لا يفتح بخره ولا يملح ورثه لتسول ونعمه فصر لا يسوغ في الخلق ، والعرب تسميه الغال . والسدر الثاني : ينبت على الماء ونعمه التي دورته عسل . (٢) العضاء : كل شجر يثمر له شوك ، وأحدها شجيرة وعضة وعضة . (٣) القناد : شجر حله له شوك كالإبر .

(٤) راجع ج ١١ ص ٢٧٤



قوله تعالى : ( أَطْمَ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ) يعنى كفار مكة فيشاهدوا هذه القرى  
يَسْتَبْطِئُوا ، ويحذروا عقاب الله أن ينزل بهم كما نزل بمن قبلهم . ( تَتَكُونُ لَكُمْ قُلُوبٌ يَغْتُلُونَ  
بِهَا ) أضاف العقل إلى القلب لأنه عمله كما أن السمع عمله الأذن . وقد قيل : إن العقل عمله  
الدماغ ؛ وروى عن أبي حنيفة ، وما أراهه عنه صحبة . ( فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ ) قال  
الفراء : الهاء عماد ، ويجوز أن يقال فإنه ، وهى قراءة عبد الله بن مسعود ، والمعنى واحد ،  
التذكير على الخبر ، والتأنيث على الأبصار أو القصص ؛ أى فإن الأبصار لا تسمى ، أو فإن  
القصص . ( لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ ) أى أبصار المؤمنين ثابتة لهم . ( وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي  
فِي الصُّدُورِ ) أى عن ذلك الحق والاعتبار . وقال قتادة : البصر الناظر جعل بلفظة ومنفعة ،  
والبصر النافع في القلب . وقال مجاهد : لكل عين أربع أعين ؛ يعنى لكل إنسان أربع أعين :  
حيثان في رأسه لذيء ، وعينان في قلبه لأخبرته . فإن عمت عينا رأسه وأبصرت عينا قلبه  
فلم يضره عماء شيئا ، وإن أبصرت عينا رأسه وعميت عينا قلبه فلم ينفعه نظره شيئا . وقال  
قتادة وابن جرير : نزلت هذه الآية في ابن أم مكتوم الأعمى . قال ابن عباس ومقاتل :  
لما نزل « ومن كان في هذبة أعمى » قال ابن أم مكتوم : يا رسول الله ، فانا في الدنيا  
أعمى أفاكون في الآخرة أعمى ؟ فنزلت « فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي  
فِي الصُّدُورِ » . أى من كان في هذه أعمى قلبه عن الإسلام فهو في الآخرة في النار .

قوله تعالى : وَيَسْتَعْمِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنْ يَوْمًا  
عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ( وَيَسْتَعْمِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ) نزلت في النضر بن الحارث ، وهو قوله :  
« فَأَتَيْنَا يَوْمَ تَعْدَانَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ » . وقيل : نزلت في أبي جهل بن هشام ،  
وهو قوله : « اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ » . ( وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ) أى  
في إزال العذاب ، قال الزجاج : استعملوا العذاب فأعلمهم الله أنه لا يفوته شيء ؛ وقد نزل  
بهم في الدنيا يوم يدر .

قوله تعالى : ( وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ) قال ابن عباس ومجاهد:  
يعنى من الأيام التي خلق الله فيها السموات والأرض . عكمة : يعنى من أيام الآخرة؛ أعلمهم  
الله إذا استعملوه بالمذاب في أيام قصيرة أنه يأتيهم به في أيام طويلة . قال الفراء : هذا  
وعيدهم بامتداد عذابهم في الآخرة؛ أى يوم من أيام عذابهم في الآخرة ألف سنة . وقيل :  
المعنى وإن يوما في الحول والشدة في الآخرة كألف سنة من سنى الدنيا فيها خوف وشدة ؛  
وكذلك يوم النعم قياسا . وقرأ ابن كثير وحزرة والكاساني « مِما تعدون » بالياء المثناة  
تحس ، وأختره أبو عبيد لقوله : « ويستعملونك » . والباقون بالناء على الخطاب ،  
وأختره أبو حاتم .

قوله تعالى : وَكَانَ مِنْ قَرْيَةٍ أَتْلَيْتُهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ لِمَ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : ( وَكَانَ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَتْهَا ) أى أهلها مع عتوها . ( ثُمَّ أَخَذْنَاهُ )  
أى بالعذاب . ( وَآلِ الْمَصِيرِ )

قوله تعالى : قُلْ يَتَايِبُ النَّاسُ إِلَىٰ آثَانَا لَكَ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٦١﴾  
فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَالَّذِينَ  
سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٦٣﴾

قوله تعالى : ( قُلْ يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ ) بنى أهل مكة . ( إِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ ) أى منذر  
عُوف . وقد تقدم فى البقرة الإنذار فى أوّلها . ( مُبِينٌ ) أى آتٍ لکم ما تحتاجون إليه من  
أمر وبنکم . ( فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ) بنى الجنة .  
( وَالَّذِينَ سَمُوا فِي آيَاتِنَا ) أى فى إبطال آياتنا . ( مُعَاجِزِينَ ) أى مغالين مشاكين ؛ قاله  
ابن عباس . القراء : معاندين . وقال عبد الله بن الزبير : متبطلين عن الإسلام . وقال

الأخفش : معاندين مسابقين . الزجاج : أى ظانين أنهم يعجزوننا لأنهم ظنوا أن لا يهت ، وظنوا أن الله لا يقدر عليهم ، وقاله قتادة . وكذلك معنى قراءة ابن كثير وأبى عمرو « مُعْجِزِينَ » بلا ألف مشددا . ويجوز أن يكون معناه أنهم يعجزون المؤمنين فى الإيمان بالنبي عليه السلام وبآيات ، قاله السدى . وقيل : أى يتشبهون من اتبع عبدا صلى الله عليه وسلم إلى المعجز ، كقولهم : جهته وفقته . ( أولئك أصحاب الجحيم ) .

قوله تعالى : وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ( تَمَنَّى ) أى قرأ وتلا . و ( أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ) أى قرأه وتلاوته . وقد هضم فى البقرة . قال ابن عطية : وجاء عن ابن عباس أنه كان يقرأ « وما أرسلا من قبلك من رسول ولا نبي ولا محنت » ذكره مسلمة بن القاسم بن عبد الله ، ورواه سفيان عن عمرو بن دينار عن ابن عباس . قال مسلمة : فوجدنا المحدثين مستصحبين بالنبوة — على قراءة ابن عباس — لأنهم تكلموا بأدور عالية من إنباء النبي خطرات ، ونطقوا بالحكمة الباطنة فأصابوا فيما تكلموا وعصموا فيما نطقوا ، كتمر بن الخطاب فى قصة سارية ، وما تكلم به من البراهين العالية .

(١) راجع به ٢ ص . طية ثانية . (٢) المحدثون (فتح المال وشده يدا) قال ابن الأثير : أنهم المحدثون ، والهم هو الذى يلقي فيه الشيء . فخير به حذسا وراعاة ، وهو نوع يختص به الله عز وجل من يشاء من عباده الذين اصطفى مثل عمر ، كأنهم حدثوا بشي . قتالوه . (٣) حوسارية بن زتم بن عبد الله . وكان من قصته أن عمر بن عبد الله أتته أمه على جيش وسيره إلى فارس سنة ثلاث وعشرين ، فرجع فى خاطر سيده عمرو بن الخطاب يوم الجمعة أن الجيش الذى كور لاق العدو هم فى بلد وادى فقيدهم بالخرية ، وبالقرب منهم جبل ، فقال فى أثناء خطبة : يا سارية الجبل الجبل الذى وضع صوته ، فأقام الله فى . سارية فالحاز الناس إلى الجبل وقالوا العدو من جانب واحد . ففتح الله عليهم . ( راجع ترجمته فى كتب الصحابة )

قلت : وقد ذكر هذا الخبر أبو بكر الأنباري في كتاب الرد له ، وقد سئني أبي رحمه الله  
سئنا علي بن حرب حشاشا مفيان بن عيينة عن عمرو عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قرأ  
« وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ولا نوح » قال أبو بكر : فهذا حديث لا يؤخذ به  
على أن ذلك قرآن . والمحدث هو الذي يوحى إليه في نومه ؛ لأن رؤيا الأنبياء وحى .

الثانية - قال العلماء : إن هذه الآية مشكلة من جهتين : إحداهما - أن قوما  
يرون أن الأنبياء صلوات الله عليهم فيهم مرسلون وفيهم غير مرسلين . وغيرهم يذهب إلى أنه  
لا يجوز أن يقال نبي حتى يكون مرسلا . والدليل على صحة هذا قوله تعالى : « وما أرسلنا  
من قبلك من رسول ولا نبي » فأوجب للنبي صلى الله عليه وسلم الرسالة . وأن معنى « نبي » أنبا  
عن الله عز وجل ، ومعنى أنبا عن الله عز وجل الإرسال بعينه . وقال القراء : الرسول الذي  
أرسل إلى الخلق بإرسال جبريل عليه السلام إليه عيانا ، والنبي الذي تكون نبوته إلهاما  
و سماعا ؛ فكل رسول نبي وليس كل نبي رسولا . قال المهدوي : وهذا هو الصحيح ، أن  
كل رسول نبي وليس كل نبي رسولا . وكذا ذكر القاضي عياض في كتاب الشفا قال :  
والصحيح والذي عليه الجهم الغفير أن كل رسول نبي وليس كل نبي رسولا ؛ واحتج بحديث  
أبي ذر ، وأن الرسل من الأنبياء ثمانية وثلاثة عشر ، أولهم آدم وآخرهم محمد صلى الله عليه وسلم .  
والجهة الأخرى التي فيها الإشكال هي :

الثالثة - الأحاديث المروية في نزول هذه الآية ، وليس منها شيء يصح . وكان مما  
توجه به الكفار على عوامهم قولهم : حق الأنبياء ألا يسجزوا عن شيء ، فلم لا يأتيهم محمد  
بالمذاب وقد بلغنا في عدائهم ؟ وكانوا يقولون أيضا : ينبغي ألا يجرى عليهم سهو وغلط ؛  
فبين الرب سبحانه أنهم بشر ، والآتي بالمذاب هو الله تعالى على ما يريد ، ويجوز على البشر  
السهو والنسيان والغلط إلى أن يحكم الله آياته وينسخ جيل الشيطان . روى الألبان عن يونس  
عن الزهري عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام قال : قرأ رسول الله صلى الله  
عليه وسلم « وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى » فلما بلغ « أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْمَؤْتَى » ومئة الثالثة الأخرى :

بها فقال : " إن شفاعتهم تُرَجَّى " فلقبه المشركون والذين في قلوبهم مرض فأسأوا عليه  
 وفرخوا ؛ فقال : " إن ذلك من الشيطان " فأنزل الله تعالى « وما أرسلنا مِنْ قبْلِكَ مِنْ  
 رسولٍ وَلَا نبيٍّ » الآية . قال النحاس : وهذا حديث منقطع وفيه هذا الأمر العظيم . وكذا  
 حديث قتادة وزاد فيه " وإنهنَّ لَمِنَ الغَرَائِقِ الْعُلَا " . وأقطع من هذا ما ذكره الواقدي من  
 كثير بن زيد عن المطلب بن عبد الله قال : سجد المشركون كلهم إلا الوليد بن المغيرة فإنه  
 أخذ تراباً من الأرض فرفضه إلى جبهته وسجد عليه ، وكان شيخاً كبيراً . ويقال إنه أبو أحيحة  
 سعيد بن العاص ، حتى نزل جبريل عليه السلام فقرأ عليه النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فقال :  
 " ما جئتُك به " ! وأنزل الله « لَقَدْ كَذَبْتَ رَبُّكَ الْيَوْمَ شَيْئاً قَلِيلاً » . قال النحاس : وهذا حديث  
 منكر منقطع ولا سيما من حديث الواقدي . وفي البخاري أن الذي أخذ قبضة من تراب  
 ورفضها إلى جبهته هو أمية بن خلف . وسأقي تمام كلام النحاس على الحديث — إن شاء الله —  
 آخر الباب . قال ابن عطية : وهذا الحديث الذي فيه هي الغرائق العلاء وقع في كتب التفسير  
 ونحوها ، ولم يدخله البخاري ولا مسلم ، ولا ذكره في علمي مصنف مشهور ؛ بل يقتضي مذهب  
 أهل الحديث أن الشيطان ألقي ، ولا يمتنون هذا السبب ولا غيره . ولا خلاف أن إلقاء  
 الشيطان إنما هو لألفاظ مسموعة ؛ بها وقعت الفتنة . ثم اختلف الناس في صورة هذا الإلقاء ،  
 فالذي في التفسير وهو مشهور القول أن النبي صلى الله عليه وسلم تكلم بتلك الألفاظ على  
 لسانه . وحديث أبي رضى الله عنه أنه لقي بالشرق من شيوخ العلماء والمتكلمين من قال : هذا  
 لا يجوز على النبي صلى الله عليه وسلم وهو المعصوم في التبليغ ، وإنما الأمر أن الشيطان نطق  
 بلفظ أسمعه الكفار عند قول النبي صلى الله عليه وسلم : « أَمْرَائِمُ اللَّاتِ وَالْعُزَّى . وَمَنَاةُ الثَّالِثَةَ  
 الْأُخْرَى » ، وقرب صوته من صوت النبي صلى الله عليه وسلم حتى التبس الأمر على المشركين ،  
 وقالوا : عنهم قرأها . وقد روى نحو هذا التاويل عن الإمام أبي المعلى . وقيل : الذي ألقي  
 شيطانُ الإنسان ؛ كقوله عز وجل : « وَاللَّوْأُ فِيهِ » . قتادة : هو ما تلاه ناعسا .

وقال القاضي عياض في كتاب الشفا بعد أن ذكر الدليل على صدق النبي صلى الله عليه وسلم ، وأن الأمة أجمعت فيا طريقه البلاغ أنه معصوم فيه من الإخيار عن شيء بخلاف ما هو عليه ، لا قصدا ولا عمدا ولا سهواً وغلطا : أعلم أكرمك الله أن لنا في الكلام على مشكل هذا الحديث مأخذين : أحدهما — في توهين أصله ، والثاني على تسليمه . أما المأخذ الأول فيكفيك أن هذا حديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة ، ولا رواه بسند سليم متصل ثقة ، وإنما أولع به وبمثلته المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب ، المتلقفون من الصحف كل صحيح ومقيم . قال أبو بكر البزار : فهذا الحديث لا نعلمه يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم بإسناد متصل يجوز ذكره ؛ إلا ما رواه شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم كان بمكة ... وذكر القصة . ولم يسنده عن شعبة إلا أمية بن خالد ، وغيره يرسله عن سعيد بن جبير . وإنما يعرف عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس ؛ فقد بين لك أبو بكر رحمه الله أنه لا يعرف من طريق يجوز ذكره سوى هذا ، وفيه من الضعف ما نبه عليه مع وقوع الشك فيه الذي ذكرناه ، الذي لا يؤتى به ولا حقيقة منه . وأما حديث الكلبي فما لا تجوز الرواية عنه ولا ذكره لقوة ضعفه وكذبه ؛ كما أشار إليه البزار رحمه الله . والذي منه في الصحيح : أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ « والنجم » بمكة فسجد وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس ؛ هذا توهينه من طريق النقل .

وأما المأخذ الثاني فهو مبنى على تسليم الحديث لو صح . وقد أفاضنا الله من محنته ، ولكن على كل حال فقد أجاب آئمة المسلمين عنه بأجوبة ؛ منها الفتى والسمين . والذي يظهر ويترجح في تأويله على تسليمه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان كما أمره ربه يرتل القرآن ترتيلا ، ويفصل الآي تفصيلا في قراءته ؛ كما رواه الثقات عنه ، فيمكن رصد الشيطان لتلك السكك ودسه فيها ما أختلقه من تلك الكلمات ، مما يكاد نقمة النبي صلى الله عليه وسلم بحيث يسمعه من دأ إليه من الكفار ، فظنوها من قول النبي صلى الله عليه وسلم وأشاعوها .

لم يقدح ذلك عند المسلمين لحفظ السورة قبل ذلك على ما أنزلها الله ، وتحققهم من حال النبي صلى الله عليه وسلم في ذم الأوثان وعبثها ما عُرِف منه ؛ فيكون ما روى من حزن النبي صلى الله عليه وسلم لهذه الإشاعة والشبهة وسبب هذه الفتنة ، وقد قال الله تعالى : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي » الآية .

قلت : وهذا التأويل أحسن ما قيل في هذا . وقد قال سليمان بن حرب : إن « في » بمعنى عند ؛ أي ألقى الشيطان في قلوب الكفار عند تلاوة النبي صلى الله عليه وسلم بكفوله عز وجل : « وَلَيْسَتْ فِيهَا » أي عندنا . وهذا هو معنى ما حكاه ابن عطية عن أبيه عن علماء الشرق ، وإليه أشار القاضي أبو بكر بن العربي ، وقال قبله : إن هذه الآية نص في غرضنا ، دليل على صحة مذهبنا ، أصل في براءة النبي صلى الله عليه وسلم مما ينسب إليه أنه قاله ؛ وذلك أن الله تعالى قال : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمينه » أي في تلاوته . فأخبر الله تعالى أن من سئله في رسله وسيرته في أنبيائه إذا قالوا عن الله تعالى قولاً زاد الشيطان فيه من قبل نفسه كما يفعل سائر المعاصي . تقول : ألقيت في الدار كذا وألقيت في الكيس كذا ؛ فهذا نص في الشيطان أنه زاد في الذي قاله النبي صلى الله عليه وسلم ، لا أن النبي صلى الله عليه وسلم تكلم به . ثم ذكر معنى كلام عياض إلى أن قال : وما هُدى لهذا إلا الطبرى لجلالة قدره وصفاء فكره وسعة باعه في العلم ، وشيئة ساعده في النظر ؛ وكأنه أشار إلى هذا الغرض ، وصوب على هذا المرمى ، وقرطس بعدما ذكر في ذلك روايات كثيرة كلها باطل لا أصل لها ، ولو شاء ربك لما رواها أحد ولا سطرها ، ولكنه فقال لما يريد .

وأما غيره من التأويلات فمأحكاة قوم أن الشيطان أكرهه حتى قال كذا فهو محال ؛ إذ ليس للشيطان قدرة على سلب الإنسان الاختيار ، قال الله تعالى مخبراً عنه : « وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي » ؛ ولو كان للشيطان هذه القدرة لما بقي لأحد

(١) راجع كتابه الشفا لقاضي عياض ج ٢ ص ١١٦ ، ١٢١ طبع الآسفة .

(٢) آية ١٨ سورة الشعراء . بر (٣) آية ٢٢ سورة إبراهيم .

من بنى آدم قوة في طاعة ، ومن تَوَعَّم أن للشيطان هذه القوة فهو قول الثَّوَيَّة والمجوس في أن الخير من الله والشر من الشيطان . ومن قال جرى ذلك على لسانه سهوا قال : لا يبعد أنه كان سمع الكلبيين من المشركين وكاتبا على حفظه بجرى عند قراءة السورة ما كان في حفظه سهوا ؛ وعلى هذا يحوز السهو عليهم ولا يَقْرَءون عليه ، وأزل الله عز وجل هذه الآية تمهيدا لعذره وتسلية له ؛ لئلا يقال : إنه رجع عن بعض قراءته ، وبين أن مثل هذا جرى على الأنبياء سهوا ، والسهو إنما ينتهي عن الله تعالى ، وقد قال ابن عباس : إن شيطانا يقال له الأبيض كان قد أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم في صورة جبريل عليه السلام والتي في قراءة النبي صلى الله عليه وسلم : تلك الغرائب الملا ، وأن شفاعتهن لَتَرْجَى . وهذا التأويل وإن كان أشبه بما قبله فالتأويل الأول عليه الممؤول ، فلا يُعَدَّل عنه إلى غيره لأختيار العلماء المحققين إياه ، وضعف الحديث مُنْعِن عن كل تأويل ، والحمد لله . ومما يدل على ضعفه أيضا وتوحيته من الكتاب قوله تعالى : « وإن كادُوا لَيَفْتِنُوكَ » <sup>(١)</sup> الآيتين ؛ فإنهما رتدان الخبر الذي روَّاه ؛ لأن الله تعالى ذكر أنهم كادوا يفتنونه حتى يفتري ، وأنه لولا أن نبته لكان يركن إليهم . فضعف هذا ومفهومه أن الله تعالى عصمه من أن يفتري وبثته حتى لم يركن إليهم قليلا فكيف كثيرا ، وهم يروون في أخبارهم الواحية أنه زاد على الركون والاقتراب مدح آلهتهم ، وأنه قال عليه الصلاة والسلام : أقربت على الله وقلت ما لم يقل . وهذا ضد مفهوم الآية ، وهي تضعف الحديث لوضح ؛ فكيف ولا صحة له . وهذا مثل قوله تعالى : « ولولا فضل الله عليك ورحمته لمَتَّ طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء » <sup>(٢)</sup> . قال القشيري : ولقد طالبت قريش وقيف إذ مرَّ بالهتهم أن يُقبل بوجهه إليها ، ووعده بالإنسان به إن فصل ذلك ، فما فعل ! ولا كان ليفعل ! قال ابن الأنباري : ما قارب الرسول ولا ركن . وقال الزجاج : أي كادوا ، ودخلت إن واللام للتأكيد . وقد قبل : إن معنى « تخي » حدث ، لا « تلا » . روى عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله عز وجل « إلا إذا تخي » قال : إلا إذا حدث « أتى الشيطان في أميته » قال : في حديثه « فليست »



اللهُ مَا يُقِي الشَّيْطَانَ » قال : فيطُلُّ الله ما يلقى الشَّيْطَان . قال النعمان : وهذا من أحسن ما قيل في الآية وأعله وأجله . وقد قال أحمد بن محمد بن حنبل بمصر صحيفة في التفسير ، رواها جلي بن أبي طلحة لورجل رجل فيها إلى مصر قاصدا ما كان كثيرا . والمعنى عليه : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا حدث نفسه ألقى الشَّيْطَان في حديثه على جهة الخيطة فيقول : لو سألت الله عز وجل أن يضمنك لنفسك المسلمون ، ويعلم الله عز وجل أن الصلاح في غير ذلك ، فيطُلُّ ما يلقى الشَّيْطَان كما قال ابن عباس رضي الله عنهما . وحكى الكسائي والقراء جميعا « تمى » إذا حدث نفسه ؛ وهذا هو المعروف في اللغة . وحكى أيضا « تمى » إذا تلا . وروى عن ابن عباس أيضا وقاله مجاهد والضحاك وغيرهما . وقال أبو الحسن بن مهدي : ليس هذا التمى من القرآن ، الوحي في شيء ، وإنما كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا صغرت يده من المسال ، ورأى ما يسمعه من سوء الحال . تمى الدنيا بقلبه وورسمة الشَّيْطَان . وذكر المهدي عن ابن عباس أن المعنى : إذا حدث ألقى الشَّيْطَان في حديثه ؛ وهو اختيار الطبري .

قلت : قوله تعالى : ﴿ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً ﴾ الآية ، رد حديث النفس ، وقد قال ابن عطية : لا خلاف أن إلقاء الشَّيْطَان إنما هو لألفاظ مسموعة ، بها وقعت الفتنة ؛ فانه أعلم . قال النعمان : ولو صح الحديث واتصل إسناده لكان المعنى فيه صحيحا ، ويكون معنى سبأ أسقط ؛ ويكون تقديره : أفرايم اللات والعزى ؛ وتم الكلام ، ثم أسقط ( والفرائق الملا ) بمعنى الملائكة ( فإن شفاعتهم ) يعود الضمير على الملائكة . وأما من روى : فإنهم الفرائق الملا ، ففي روايته أجوبة ؛ منها أن يكون القول محذوفا كما تستعمل العرب في أشياء كثيرة ، ويجوز أن يكون يسير حذف ، ويكون توبيضا ؛ لأن قبله « أفرايم » ويكون هذا احتجا على عليهم ؛ فإن كان في الصلاة فقد كان الكلام مباحا في الصلاة . وقد روى في هذه القصة أنه كان مما يقرأ : أفرايم اللات والعزى . ومنه الثالثة الأخرى . والفراقة الملا . وأن شفاعتهم لترجي . روى معناه عن مجاهد . وقال الحسن : أراد بالفرائق الملا الملائكة ؛ وبهذا فسر الكسائي - الفارقة أنها الملائكة . وذلك أن الكفار كانوا يعتقدون [ أن ] الأوثان والملائكة يثبات

الله ، كما حكى الله تعالى عنهم ، ورد عليهم في هذه السورة بقوله « أَلَمْ نَذْكُرْ لَهُ الْآثِقَى » فانكر الله كل هذا من قولهم . ورجاء الشفاعة من الملائكة صحيح ؛ فلما تأوله المشركون على أن المراد بهذا الذكر أنهم وليس عليهم الشيطان بذلك ، نسخ الله ما أتى الشيطان ، وأحكم الله آياته ، ورفع تلاوة تلك اللفظتين اللتين وجد الشيطان بهما سبيلا للتليس ، كما نسخ كثير من القرآن ، ورفعت تلاوته . قال القشيري : وهذا غير سديد ؛ لقوله « فينسخ الله ما يأتي الشيطان » أي يبطله ، وشفاعة الملائكة غير باطلة . ( والله عليم حكيم ) « عليم » بما أوصى إلى نبيه صلى الله عليه وسلم : « حكيم » في خلقه .

وله تعالى : لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ  
وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾

قوله تعالى : ( لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً ) أي ضلالة . ( لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ) أي شرك وفاق . ( وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ) فلا تلين لأمر الله تعالى . قال الثعلبي : وفي الآية دليل على أن الأنبياء يجوز عليهم السهو والنسيان والغلط بوسواس الشيطان أو عند شغل القلب حتى يغلط ، ثم يقفه ويرجع إلى الصحيح ؛ وهو معنى قوله : « فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ » . ولكن إنما يكون الغلط على حسب ما يغلط أحدا ، فاما ما يضاف إليه من قولهم : تلك الفرائق الملا ، فكذب على النبي صلى الله عليه وسلم ، لأن فيه تعظيم الأصنام ، ولا يجوز ذلك على الأنبياء ، كما لا يجوز أن يقرأ بعض القرآن ثم ينشد شعرا ويقول : غلطت وغلطته قرآنا . ( وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ) أي الكافرين لفي خلاف وعصيان ومشاقة لله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم . وقد تقدم في « البقرة » والحمد لله وحده .

قوله تعالى : وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ  
فَتُخْفِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾

قوله تعالى : ( وَلَيَعْلَمَنَّ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ ) أى من المؤمنين . وقيل : أهل الكتاب ( أَنَّهُ ) أى أن الذى أحكم من آيات القرآن هو ( الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ) أى تخضع وتسكن . وقيل : تخلص . ( وَإِنَّ اللَّهَ لَهُادِى الَّذِينَ آمَنُوا ) قرأ أبو حنيفة « وإن الله لهادى الذين آمنوا » بالتونين . ( إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ) أى يثبتهم على الهداية .

قوله تعالى : وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : ( وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ ) يعنى فى شك من القرآن ، فإله ابن جريج . وغيره : من الذين ، وهو الصراط المستقيم . وقيل : مما ألقى الشيطان على لسان محمد صلى الله عليه وسلم ، ويقولون : ما إله دكر الأصنام بخير ثم ارتد عنها . وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي « فى مِرْيَةٍ » بضم الميم . والكسر أعرف ، ذكره النحاس . ( حَزَنَ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ ) أى القيامة . ( بَغْتَةً ) أى فجأة . ( أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ ) قال الضحاك : عذاب يوم لا ليلة له وهو يوم القيامة . النحاس : سعى يوم القيامة عقيباً لأنه ليس يعقب بعده يوماً مثله ، وهو معنى قول الضحاك . والعقيم فى اللغة عبارة عن لا يكون له ولد ، ولما كان الولد يكون بين الأبوين وكانت الأيام تنوال قبل وبعد ، جعل الاتباع فيها بالبعدية كهيئة الولادة . ولما لم يكن بعد ذلك اليوم يوم وصف بالعقيم . وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة : المراد عذاب يوم بدر ، ومعنى عقيم لا مثل له فى عظمته ، لأن الملائكة قالت فيه . ابن جريج : لأنهم لم ينظروا فيه إلى الليل ، بل قتلوا قبل المساء فصار يوماً لا ليلة له . وكذلك يكون معنى قول الضحاك أنه يوم القيامة ، لأنه لا ليلة له . وقيل : لأنه لم يكن فيه رافة ولا رحمة ، وكان عقيباً من كل خير ، ومنه قوله تعالى : « إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ » أى التى لا خير فيها ولا تأتى بمطر ولا رحمة .

قوله تعالى : أَلَمْ لِكُ يَوْمَئِذٍ لِّلّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ ءَانُونَا وَعَمِلُوا  
الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّتِ النَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا  
فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾

قوله تعالى : ( أَلَمْ لِكُ يَوْمَئِذٍ لِّلّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ) يعني يوم القيامة هو الله وحده لا منازع  
له فيه ولا مدافع . والملك هو اتساع المقصور لمن له تدبير الأمور . ثم بين حكمه فقال :  
( فالذين آمنوا وعملوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّتِ النَّعِيمِ . وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ  
عَذَابٌ مُّهِينٌ ؟ )

قلت : وقد يحتمل أن تكون الإشارة بـ « يومئذ » ليوم بدر ، وقد حكم فيه بإهلاك  
الكافر وسعادة المؤمن . وقد قال عليه السلام لعمر : « وما يدريك لعن الله أطلع على  
أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ  
اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا  
يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾

أفرد ذكر المهاجرين الذين ماتوا وقتلوا تفضيلاً لهم وتشريفاً على سائر الموق .  
وسبب نزول هذه الآية أنه لما مات بالمدينة عثمان بن مظعون وأبو سلمة بن عبد الأسد  
قال بعض الناس : من قُتل في سبيل الله أفضل ممن مات خُفَّ أنفه ؛ فزلت هذه الآية  
مُسَوِّيةً بينهم ، وأن الله يرزق جميعهم رزقاً حسناً . وظاهر الشريعة يدل على أن المقتول  
أفضل . وقد قال بعض أهل العلم : إن المقتول في سبيل الله والميت في سبيل الله شهيد ؛  
ولكن للمقتول منزلة ما أصابه في ذات الله . وقال بعضهم : هنا سواء ؛ واحتج بالآية ،  
وبقوله تعالى : « وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ

أَمَرَهُ عَلَى اللَّهِ ، وَبَعِثْتُ أُمَّ حَرَامَ ، فَأَتَاهَا صَرَعَتْ عَنْ دَابَّتِهَا ثَلَاثَ وَلَمْ تَقْتُلْ فَقَالَ لَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « أَتَيْتُ مِنَ الْأَوَّلِينَ » ، وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَدِيثٍ سَمِعَهُ اللَّهُ ابْنُ عَبَّاسٍ : « مَنْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ مَهَابِرًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَتَرَعَّبُ دَابَّتُهُ فَاتِ أَوْلَاسِهِ حَيَّةٌ فَاتِ أَوْ مَاتِ حَتْفٌ أَفْهٌ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَمَنْ مَاتَ قَتْمًا فَقَدْ اسْتَوْجِبَ الْمَأْتَبَ » .

وذكر ابن المبارك عن فضالة بن عيسى في حديث ذكر فيه رجلين أحدهما أصيب في غزاة بمُخَجَّبٍ فَاتِ وَالْآخَرُ مَاتَ هُنَاكَ ، فَبَلَغَ فَضَالَاتُهُ عِنْدَ الْمَيْتِ فَقِيلَ لَهُ : تَرَكْتَ الشَّهِيدَ وَلَمْ تَجْلِسْ عِنْدَهُ ؟ قَالَ : مَا أَبَالِي مِنْ أَى حَفْرَتِيمَا بُعِثَ ، ثُمَّ تَلَا قَوْلَهُ تَعَالَى : « وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا » الآية كلها . وقال سليمان بن عامر : كَانَ فَضَالَةُ بَرُودِسَ أَمِيرًا عَلَى الْأَرْبَاعِ فَيُخْرِجُ يَمْنَانِي رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا قَتِيلٌ وَالْآخَرُ مَوْتَى ، فَرَأَى مَيْسِلَ النَّاسِ مَعَ جَنَازَةِ الْقَتِيلِ إِلَى حَفْرَتِهِ ، فَقَالَ : أَرَأَيْتُمْ إِنْهَا النَّاسُ تَمِيلُونَ مَعَ الْقَتِيلِ ! فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أَبَالِي مِنْ أَى حَفْرَتِيمَا بُعِثَ ، اقْرَأُوا قَوْلَهُ تَعَالَى : « وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا » . كَذَلِكَ كَرِهَ التَّلْبِيَّ فِي تَفْسِيرِهِ ، وَهُوَ مَعْنَى مَا ذَكَرَهُ ابْنُ الْمُبَارَكِ . وَاحْتِجَ مِنْ تَالٍ :

إِنْ لَتَتَوَلَّى زِيَادَةُ فَضْلٍ بِمَا ثَبَتَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ سَأَلَ : أَى الْجَاهِلِيَّةِ أَفْضَلُ ؟ قَالَ : « مَنْ أَهْرَيْقَ دَمُهُ وَعُقِرَ جَوَادُهُ » . وَإِذَا كَانَ مِنْ أَهْرَيْقِ دَمِهِ وَعُقِرَ جَوَادُهُ أَفْضَلُ الشَّهَادَةِ عِلْمٌ ، مَنْ لَمْ يَكُنْ بِتِلْكَ الشَّعَةِ مَفْضُولٍ . قَرَأَ ابْنُ حَاصِرٍ وَأَهْلُ الشَّامِ « قُتِلُوا » بِالْتَشْدِيدِ عَلَى التَّكْثِيرِ . الْبَاقُونَ بِالتَّخْفِيفِ ، ( لِيُدْخِلَهُمْ مَدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ ) أَى الْجَنَانِ .

قِرَاءَةُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ « مَدْخَلًا » بِتَنْجِيسِ الْمِيمِ : أَى دَخُولًا . وَضَمُّهَا الْبَاقُونَ ، وَقَدْ مَضَى فِي « سُبْحَانَ » . ( وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ) تَالُ ابْنُ حَبَّاسٍ : عَلِيمٌ بِفَاتِهِمْ ، حَلِيمٌ عَنْ عِقَابِهِمْ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ذَلِكَ وَبَنَ عَاتَبَ بِمِثْلٍ مَا عُوْقِبَ بِهِ . ثُمَّ بَغَى عَلَيْهِ لِيَنْصُرَهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَزِيزٌ شَتَّورٌ

(١) النعش : أن يضرب الإنسان فيموت مكانه . وأرواد يوجب

(٢) رابع ج ١٠ ص ١١٢

(١) آية ١٠٠ سورة النساء .

المأتب حسن المرجع بعد الموت .

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ ﴾ « ذلك » في موضع رفع ، أى ذلك الأمر الذى  
نَحْصَنَّا عَلَيْكَ . قال مقاتل : نزلت في قوم من مشركى مكة لقوا قوماً من المسلمين للبين  
بيننا من المحترم فقالوا : إن أصحاب جد يكرهون القتال في الشهر الحرام فأحلوا عليهم ،  
فناشدهم المسلمون ألا يقاتلوه في الشهر الحرام ، فأبى المشركون إلا القتال ، فحلوا عليهم  
فقتل المسلمون وبصرهم الله على المشركين ، وحصل في أنفس المسلمين من القتال في الشهر  
الحرام شيء ، فزلت هذه الآية . وقيل : نزلت في قوم من المشركين ، مثلوا بقوم من  
المسلمين قتلهم يوم أحد فعاقبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثل<sup>(١)</sup> . فمضى « من عاقب بمثل  
ما عوقب به » أى من جازى الثالم بمثل ما ظلمه ، فمضى جزاء العقوبة عقوبة لإستواء  
الفاعلين في الصورة ؛ فهو مثل « وَجَاءَ سَيِّئَةٌ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا<sup>(٢)</sup> » . ومثل « فَمَنْ أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَأَعْدُوا  
عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ<sup>(٣)</sup> » . وقد تقدم « ثُمَّ يُبَيِّنْ عَلَيْهِ<sup>(٤)</sup> » أى بالكلام والإزعاج من وطنه ؛  
وذلك أن المشركين كذبوا نبينهم وأدوا من آمن به وأخرجوه وأخرجوه من مكة ، وظاهروا على  
إخراجهم . ﴿ لِيَصْرَعَهُ اللَّهُ ﴾ أى لينصرن الله عبداً صلى الله عليه وسلم وأصحابه ؛ فإن الكفار  
بنوا عليهم . ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ غَفُورٌ ﴾ أى عفا عن المؤمنين ذنوبهم وقالمهم في الشهر الحرام وستر.

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ  
فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ ﴾ أى ذلك الذى قصصت عليك من  
نصر المظلوم . ويأتى أنا الذى أُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ فلا يقدر أحد على ما أقدر عليه ؛ أى من  
قدر على هذا قدر على أن ينصر عبده . وقد مضى في « آل عمران » معنى يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ<sup>(١)</sup>  
﴿ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ بسمع الأقوال ويبصر الأفعال ، فلا يعتزب عنه مثقال ذرة ولا ديتب  
شئ إلا يظلمها ويبصرها .

(١) آية ٤٠ سورة النورى . (٢) آية ١٩٤ سورة البقرة . (٣) راجع ج ٤ ص ٥٦

قوله تعالى : **ذَلِكَ يَآنُّ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ** ﴿٣٧﴾

قوله تعالى : ﴿ **ذَلِكَ يَآنُّ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ** ﴾ أى ذو الحق ؛ فدينه الحق وعبادته حق . والمؤمنون يستحقون منه النصر بحكم وعده الحق . ﴿ **وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ** ﴾ أى الأصنام التى لا استحقاق لها فى العبادات . وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر وأبو بكر « وأن ما تدعون » بالنساء على الخطاب ، واختاره أبو حاتم . الباقون بالياء على الخبر هنا وفى لقمان ، واختاره أبو عبيد . ﴿ **وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ** ﴾ أى العالى على كل شئ ، بقدرته ، والعالى عن الأشياء والأنداد ، المقدس عما يقول الظالمون من الصفات التى لا تليق بجلاله . ﴿ **الْكَبِيرُ** ﴾ أى الموصوف بالمعظمة والجلال وكبر الشأن . وقيل : الكبير ذو الكبرياء . والكبرياء عبارة عن كمال الذات ؛ أهله الوجود المطلق أبدا وأزلا ، فهو الأول القديم ، والآخر الباقي بصد فناء خلقه .

قوله تعالى : **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ** ﴿٣٨﴾

قوله تعالى : ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً** ﴾ دليل على كمال قدرته ؛ أى من قدر على هذا قدر على إعادة الحياة بعد الموت ؛ كما قال الله عز وجل : **«فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ أَحْيَيْتُ وَرَبَّتْ»** . ومثله كثير . « **تُصْبِحُ** » ليس بجواب فيكون منصوبا ، وإنما هو خبر عند الخليل وسيبويه . فل الخليل : المعنى أنه ! أنزل الله من السماء ماء فكان كذا وكذا ؛ كما قال :

ألم تسال اربع الفسواء فينبق . وهل تحببتك اليوم بيضاء سماؤ

(١) آية ٣٠ (٢) البيت لجليل بن عبد الله صاحب شبة . والقواء (فتح القاف) : الذفر . وانبياء : القفر أيضا ، الذى يجرد من سلك فيه . والسلق (فتح السين وسكون الميم وضع اللام) : الأبرار التى لا تبوء . ومعى السهلة المستوية (شواهد النسخ) .

عنه قد سألته فطرق . وقيل استفهام تحقيق ؛ أى قد رأيت ، فأعلم كيف تصبح ! أو عاين .  
 لأذن المعنى ألم تر أن الله ينزل . وقال الفراء : « ألم تر » خبر ؛ كما تقول فى الكلام : أعلم  
 أن الله عز وجل ينزل من السماء ماء . ( فَتَصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَةً ) أى ذات خضرة ؛  
 كما تقول : مُثْقَلَةٌ وَمُسَبَّحَةٌ أى ذات بقل وسباع . وهو عبارة عن استعجالها أن نزول السماء  
 بالنبات واستمرارها كذلك عاده . قال ابن تينية : وروى عن عكرمة أنه قال : هذا لا يكون  
 إلا بمكة ونهاية . ومعنى هذا : أنه أخذ قوله « فتصبح » مقصودا به صباح ليلة المطر ،  
 وذهب إلى أن ذلك الأخضرار يتأخر فى سائر البلاد ، وقد شاهدت هذا [ فى ] السوس  
 الأقصى نزل المطر ليلا بعد حط أصبغت تلك الأرض الرملة التى نسفتها الرياح قد أخضرت  
 نبات ضعيف رقيق . ( إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ) قال ابن عباس : « خير » بما ينطوى عليه  
 الله من القنوط عند تأخير المطر . « لطيف » بأرزاق عباده . وقيل : لطيف باستخراج  
 الثمرات من الأرض ، خير بما جنتهم وفاقهم .

قوله تعالى : لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ أَوْ  
 الْحَمِيدُ (١٥)

قوله تعالى : ( لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ) خلقا وملكا؛ وكل محتاج إلى  
 تدبيره وإفقائه . ( وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ الْحَمِيدُ ) فلا يحتاج إلى شيء ، وهو المحمود فى كل حال .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَخَرِّجُ لَكُمْ مِمَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي  
 فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَخَنَقَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ  
 إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٦)

قوله تعالى : ( أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَخَرِّجُ لَكُمْ مِمَّا فِي الْأَرْضِ ) ذكر نعمة أخرى ، فأخبر أنه  
 يخرج لعباده ما يحتاجون إليه من الدواب والشجر والأنهار . ( وَالْفُلْكَ ) أى ويخرج لكم الفلك  
 فى حال جريها . وقرأ أبو عبد الرحمن الأعرج « وَالْفُلْكَ » رفعا على الابتداء وما بعده خبره .



الباقون بالنصب نسقا على قوله « ما في الأرض » . ( وَيُمِيتُ السَّاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ )  
 أى كراهية أن تقع . وقال الكوفيون : لتلا تقع . وإمساكه لما خلق السكون فيها حالا بعد  
 حال . ( إِلَّا بِإِذْنِهِ ) أى إلا بإذن الله لما بالوقوع ، تقع بإذنه ، أى بإرادته ويجلته .  
 ( إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَخَبِيرٌ ) أى فى هذه الأشياء التى تخبرها لهم .

قوله تعالى : وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾

قوله تعالى : ( وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ) أى بعد أن كنتم نطفًا . ( ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ) عند انقضاء  
 آجالكم . ( ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ) أى للناس . والنواب والمقاب . ( إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ) أى  
 لجحود لما ظهر من الآيات الدالة على قدرته ووحدانيته . قال ابن عباس : يريد الأسود  
 ابن عبد الأسد وأبا جهل بن هشام والناصر بن هشام وجماعة من المشركين . وقيل : إما  
 قال ذلك لأن الغالب على الإنسان كفر النعم ، كما قال تعالى : « وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشُّكُورُ » .

قوله تعالى : لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنْزِعُ عَنْكَ  
 فِي الْأُمَمِ وَاذْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : ( لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا ) أى شرعا . ( هُمْ نَاسِكُوهُ ) أى عاملون به .  
 ( فَلَا يُنْزِعُ عَنْكَ فِي الْأُمَمِ ) أى لا ينزع عنك أحد منهم فيما يُشرع لأمتك ؛ فقد كانت الشرائع  
 فى كل عصر . وروى فرقة أن هذه الآية نزلت بسبب جدال الكفار فى أمر الذبايح ،  
 وقولهم للؤمنين : نأكلون ما ذبحتم ولا نأكلون ما ذبح الله من الميتة ، فكان ما قتل الله أحق أن  
 تأكلوه مما قتلتم أتم بسكاكنكم ؛ فنزلت الآية بسبب هذه المنازعة . وقد مضى هذا  
 فى « الأنعام » والحمد لله . وقد تقدم فى هذه السورة ما للعلماء فى قوله تعالى « مَنْسَكًا » .  
 وقوله : « هُمْ نَاسِكُوهُ » يعطى أن المنسك المصدر ، ولو كان الموضع لقال هم ناسكون فيه .

وقال الزجاج : « فلا يَنَازِعُكَ في الأمر » أى فلا يجادلُكَ ؛ وذلك على هذا « وإن جَادُلُوكَ » . ويقال : قد نازعوه فكيف قال فلا يَنَازِعُكَ ؛ فالجواب أن المعنى فلا تنازعهم أنت . زلت الآية قبل الأمر بالقتال ؛ تقول : لا يضاربك فلان فلا تضارب به أنت ؛ فيجوز هذا في باب المفاعلة . ولا يقال : لا يضربك زيد وأنت تريد لا تضرب زيدا . وقسراً أبو جازٍ « فلا يَنَازِعُكَ في الأمر » أى لا يستخلفك ولا يظلمك عن دينك . وقراءة الجماعة من المنازعة . ولفظ النهى في القراءتين للكفار ، والمراد النبي صلى الله عليه وسلم . ( وَأَدْعُ إِلَى رَبِّكَ ) أى إلى توحيدِهِ ودينِهِ والإيمان به . ( إِنَّكَ لَمَلِ هُدًى ) أى دين . ( مُسْتَقِيمٌ ) أى قويم لا أعوجاج فيه .

قوله تعالى : وَإِن جَادُلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٣٨﴾  
 اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٣٩﴾  
 قوله تعالى : ( وَإِن جَادُلُوكَ ) أى خاصموك يا محمد ؛ يريد مشرك مكة . ( فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ) يريد من تكذيبهم هذا صلى الله عليه وسلم ؛ عن ابن عباس . وقال مقاتل : هذه الآية نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء وهو في السماء السابعة لما رأى من آيات ربه الكبرى ؛ فأوحى الله إليه « وَإِن جَادُلُوكَ » بالباطل فدافعهم بقوله « الله أعلم بما تعملون » من الكفر والتكذيب ؛ فأمره الله تعالى بالإعراض عن مماراتهم صيانة له عن الاشتغال بمتتهم ؛ ولا جواب لصاحب العناد . ( اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ) يريد بين النبي صلى الله عليه وسلم وقومه . ( فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ) يريد في خلافكم آياتي ، فتعرفون حينئذ الحق من الباطل .

مسألة - في هذه الآية أدب حسن عاينه الله عباده في الرد على من جادل ثمتاً ورماء إلا يحاب ولا يناظر ويُدفع بهذا القول الذي علمه الله لنبيه صلى الله عليه وسلم . وقد قيل : إن هذه الآية منسوخة بالسيف ؛ معنى السكوت عن مخالفته والاكتفاء بقوله : « الله يحكم بينكم » .

قوله تعالى : أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ  
إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٥﴾

قوله تعالى : ( أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ) أى وإن قد علمت يا محمد هذا وأيقنت فأعلم أنه يعلم أيضا ما أنتم مختلفون فيه فهو يحكم بكم . وقد قيل : إنه استفهام تفرير للنبر . ( إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ ) أى كل ما يجري في العالم فهو مكتوب عند الله في أم الكتاب . ( إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ) أى إن الفصل بين المختلفين على الله يسير . وقيل : المعنى إن كتاب القلم الذى أمره أن يكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة على الله يسير

قوله تعالى : وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانٌ  
وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٧٦﴾

قوله تعالى : ( وَيَعْبُدُونَ ) يريد كفار قريش . ( مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانٌ ) أى حجة وبرهان . وقد تقدم في « آل عمران » . ( وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ) .

قوله تعالى : وَإِذَا تُنْزِلُ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ  
الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا  
قُلْ أَقَاتِبْكُمْ بِشَرِّ مِنْ ذَلِكَ النَّارُ وَعَذَابُ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبَشِّرِ  
الْمَصِيرَ ﴿٧٧﴾

قوله تعالى : ( وَإِذَا تُنْزِلُ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ) يعنى القرآن . ( تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ  
الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ ) أى الغضب والبؤس . ( يَكَادُونَ يَسْطُونَ ) أى يبطشون . والسطوة  
شدة البطش ؛ يقال : سطا به يسطو إذا بطش به ؛ كان ذلك بضرب أو بشم ، وسطا

عليه . ( بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِ آيَاتِنَا ) . وقال ابن عباس : يسطون يسطون إليهم أيديهم . محمد بن كعب : أي يقومون بهم . الضحاك : أي يأخذونهم أخذاً باليد ، والمعنى واحد . وأصل السطو القهر . والله ذو سطوات ، أي أسذات شديدة . ( قُلْ أَفَأَنْتُمْ تُبْشِرُونَ بِذَلِكَ النَّارِ ) أي أكره من هذا القرآن الذي تسمعون هو النار ، فكأنهم قالوا : ما الذي هو شر ، فقيل هو النار . وقيل : أي هل أنبئكم بشر ما يلحق نالي القرآن منكم هو النار ، فيكون هذا وعيدا لهم على سطواتهم بالذين يتلون القرآن . ويجوز في « النار » الرفع والنصب والخفض ، فالرفع على هو النار ، أو هي النار . والنصب بمعنى أعنى ، أو على إضمار فعل مثل الثاني ، أو يكون موقولا على المعنى ، أي أمر فكم بشر من ذلك النار . والخفض على اليدل . ( وَعَذَابُ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا ) في القيامة . ( وَيَسَّ الْمُسِيرِ ) أي الموضع الذي يصيرون إليه وهو النار .

قوله تعالى : يَأْتِيهِمُ النَّاسُ ضَرْبٌ مِّثْلُ مَا سَمِعُوا لَهُ ، إِنْ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ، وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْعًا لَا يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ ضَعْفُ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٦﴾

قوله تعالى : ( يَأْتِيهِمُ النَّاسُ ضَرْبٌ مِّثْلُ مَا سَمِعُوا لَهُ ) هذا متصل بقوله : « وَيَسْمَعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا » . وإنما قال « ضَرْبٌ مِّثْلُ » لأن جميع الله تعالى عليهم بضرب الأمثال أقرب إلى أفهامهم . فإن قيل : فإن المثل المضروب ، ففيه وجوه : الأول — قال الأخفش : ليس قم مثل ، وإنما المعنى ضربوا لي مثلا فاستمعوا قولهم ، يعني أن الكفار جعلوا لله مثلا بعبادتهم غيره ، فكانه قال جعلوا لي شيئا في عبادتي فاستمعوا خبر هذا الشبه . الثاني — قول القتيبي : وأن المعنى يأيا الناس ، مثل من عبد آله لم تستطع أن تخلق ذبابة وإن سلها الذباب شيئا لم تستطع أن تستعده منه . وقال النحاس : المعنى ضرب الله عز وجل ما يعبد من دونه مثلا ، قال : وهذا من أحسن ما قيل فيه ، أي بين الله لكم شيئا

ولمعبودكم . ( إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قِرَاءَةُ الْعَمَاءِ « تدعون » بالهاء . وقرأ السلمي  
وأبو العالِية ويعقوب « يدعون » بالياء على الخبر . والمراد الأوثان الذين عبدوهم من دون  
الله ، وكانت حول الكعبة ، وهي ثمانية وستون صنمًا . وقيل : السادة الذين صرّفونهم عن  
طاعة الله عز وجل . وقيل : السباطين الذين حملوهم على معصية الله تعالى ؛ والأوّل أصوب .  
( لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا ) الذباب اسم واحد للذكر والأنثى ، والجمع القليل أذبة والكثير ذبّان ،  
على مثل غراب وأغربة وعمران ؛ وتُسمّى به لكثرة حركته . الجوهري : والذباب معروف  
الواحدة ذبابة ، ولا تغلّ ذبّانة . والمذبة ما يذبّ به الذباب . وذباب أسنان الإبل حدّها .  
وذباب السيف طرفه الذي يضرب به . وذباب العين إنسانها . والذبابة البقية من الدّين .  
وذباب التماس إذا لم يبق منه إلا بقية . والتذبذب التحرك . والذبذبة تؤس الشيء الملقى  
في الهواء . والذبذب الذكر لتردده . وفي الحديث « مَنْ وَفَى شَرَذْبَدِهِ » . [ وهذا مما  
لم يذكره ، أعني قوله : وفي الحديث ] . ( وَإِنْ يَسْأَلُكَ الذَّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِئْهُ مِنْهُ )  
الاستفاد والإعطاء التخفيض . قال ابن عباس : كانوا يطلّون أصنامهم بالزعران فجفت  
فيأتي فيختلّسه . وقال السّدي : كانوا يعملون للأصنام طعاما فيقع عليه الذباب فيأكله .  
( ضَمَفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ) قيل : الطالب الآلهة والمطلوب الذباب . وقيل بالعكس .  
وقيل : الطالب عابد الصنم والمطلوب الصنم ؛ فالطالب يطلب إلى هذا الصنم بالتقرّب إليه ،  
والصنم المطلوب إليه . وقد قيل : « وَإِنْ يَسْأَلُكَ الذَّبَابُ شَيْئًا » راجع إلى الله في قرص أبدانهم  
حتى يسلبهم الصبر لها والوقار معها . وخصّ الذباب لأربعة أمور تخصه : لمهانتها وضعفه  
بلاستقداره وكثرته ؛ فإذا كان هذا الذي هو أضعف الحيوان وأحقره لا يقدر من عبده من  
دون الله عز وجل على خلق مثله ودفع أذيته فكيف يجوز أن يكونوا آلهة معبودين وأربابا  
مطاعين . وهذا من أقوى حجة وأصح برهان .

موله تعالى : مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿١﴾

(١) ما بين المبرزين نبر واضح المعنى . وما ضله الخلف رحمه الله عن الجوهري ذكره في الصحاح إلى قوله :

« ... شَرَذْبَدِهِ » .

قوله تعالى : ( مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ) أى ما عظموه حتى عظمته ؛ حيث جعلوا هذه الأصنام شركاء له . وقد مضى فى « الأنعام » . ( إن الله لتتوَّى عِزْرُهُ ) تقدم .

قوله تعالى : اللَّهُ يَضْطَرُّنِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٧٦﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٧٧﴾

قوله تعالى : ( اللَّهُ يَضْطَرُّنِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ) ختم السورة بأن الله اضطرى عبدا صل الله عليه وسلم لتبليغ الرسالة ؛ أى ليس بعنه عبدا أمرا وديعيا . وقيل : إن الوليد بن المغيرة قال : أو أنزل عليه الذكر من بيننا ؛ فتزلت الآية . وأخبر أن الاختيار إليه سبحانه وتعالى . ( إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ ) لأقوال عباده ( بَصِيرٌ ) بمن يختاره من خلقه لرسالته . ( يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ) يريد ما قدموا . ( وَمَا خَلْفَهُمْ ) يريد ما خلفوا ؛ مثل قوله فى يس : « إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا » يريد ما بين أيديهم « وَأَنَّا نَرَاهُمْ » يريد ما خلفوا . ( وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ) .

قوله تعالى : يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٨﴾

قوله تعالى : ( يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا ) تقدم فى أول السورة أنها فضلت بسجدين ، وهذه السجدة الثانية لم يرها مالك وأبو حنيفة من العزائم ؛ لأنه قرن الركوع بالسجود ، وأن المراد بها الصلاة المفروضة ؛ وخص الركوع والسجود تقريفا للصلاة . وقد مضى القول فى الركوع والسجود صريحا فى « البقرة » والحمد لله وحده .

قوله تعالى : ( وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ ) أى استلوا أمره . ( وَافْعَلُوا الْخَيْرَ ) تنبأ بها عبدا للواجبات التى صح وجوبها من غير هذا الموضع .

(١) راجع ج ٧ ص ٣٦ (٢) آية ١٢ سورة يس . (٣) راجع ج ١ ص ٢٤٤ طبعة الثانية أو الثالثة .

قوله تعالى : وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِثْلَ مَا كَانَ لِإِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ مَنَّكُمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

قوله تعالى : ( وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ) قيل : عني به جهاد الكفار . وقيل : هو إشارة إلى امتثال جميع ما أمر الله به ، والابتغاء عن كل ما نهى الله عنه ، أى ساعدوا أنفسكم في طاعة الله وردوها عن الهوى ، وساعدوا الشيطان في رد وسوسته ، والظلمة في رد ظلمهم ، والكافرين في رد كفرهم . قال ابن عطية : وقال مقاتل وهذه الآية منسوخة بقوله تعالى : « فَأَتَوْا اللَّهَ مَا اسْتَطَعُوا » . وكذا قال هبة الله : إن قوله « حَقَّ جِهَادِهِ » وقوله في الآية الأخرى : « حَقَّ تَقَاتِيهِ » منسوخ بالتخفيف إلى الاستطاعة في هذه الأواخر . ولا حاجة إلى تقدير النسخ ، فإن هذا هو المراد من أزل الحكم ؛ لأن « حَقَّ جِهَادِهِ » ما ارتفع عنه المخرج . وقد روى سعيد بن المسيب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خَيْرُ دِينِكُمْ أَيْسَرُهُ » . وقال أبو جعفر النحاس : وهذا مما لا يجوز أن يقع فيه نسخ ؛ لأنه واجب على الإنسان . كما روى حيوة بن شريح يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال : « المجاهد من جاهد نفسه لله عز وجل » . وكما روى أبو غالب عن أبي أمامة أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم : أى الجهاد أفضل ؟ عند البجرة الأولى فلم يجبه ، ثم سألته عند البجرة الثانية فلم يجبه ، ثم سألته عند بجرة العقبة ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ابن السائل ؟ » فقال : أنا ذا ، فقال عليه السلام : « كلمة عدل عند سلطان جائر » .

قوله تعالى : ﴿ هُوَ أَجَبًاكُمْ ﴾ أى اختاركم للذب عن دينه والتزام أمره ؛ وهذا تأكد للأمر بالمجاهدة ؛ أى وجب عليكم أن تجاهدوا لأن الله اختاركم له .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ مِنْ حَرَجٍ ﴾ أى من ضيق . وقد تقدم في « الأنعام » .  
وهذه الآية تدخل في كثير من الأحكام ؛ وهى مما خص الله بها هذه الأمة . روى بمعمر عن قتادة قال : أعطيت هذه الأمة ثلاثاً لم يُعطها إلا نبي : كان يقال للنبي أذهب فلا حرج عليك ، وقيل لهذه الأمة : « وما جعل عليكم في الدين من حرج » . والنبي شهيد على أمته ، وقيل لهذه الأمة : « لتكونوا شهداء على الناس » . ويقال للنبي : سَلِّ تَطْعَةً ، وقيل لهذه الأمة : « ادعوني أستجب لكم » .

الثانية - واختلف العلماء في هذا الجرح الذى رفعه الله تعالى ؛ فقال عكرمة : هو ما أحل من النساء متى وثلاث ورابع ، وما ملكت يمينك . وقيل : المراد قصر الصلاة ، والإفطار للسافر ، وصلاة الإيماء لمن لا يقدر على غيره ، وحط الجهاد عن الأعمى والأعرج والمرضى والعديم الذى لا يجد ما ينفق في غزوه ، والغريم ومن له والدان ، وحط الإضراب الذى كان على بنى إسرائيل . وقد مضى تفصيل أكثر هذه الأشياء<sup>(١)</sup> . وروى عن ابن عباس والحسن البصرى أن هذا في تقديم الأئمة وتأخيرها في الفطر والأضحية والصوم ؛ فإذا أخطأت الجماعة هلال ذى الحجة فوقفوا قبل يوم عرفة بيوم أو وقفوا يوم النحر أجزأهم ، على خلاف فيه بيناه في كتاب المناسك في شرح موطأ مالك بن أنس رضى الله عنه . وما ذكرناه هو الصحيح في الباب . وكذلك الفطر والأضحية ؛ لما رواه حماد بن زيد عن أبيوب عن محمد بن المنكدر عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فطركم يوم تفطرون وأضحاكم يوم تضحون » . نخرجه أبو داود والدارقطني ، ولفظه ما ذكرناه . والمعنى : باجتماعكم من غير حرج يلحقكم . وقد روى الأئمة أنه عليه السلام مثل يوم النحر عن أشياء ؛ فما يدرى من

(١) راجع ج ٧ ص ٨٠ ، (٢) راجع ج ٢ ص ٤٣٠ ، ج ٧ ص ٣٠٠



أمر مما ينسى المرء أو يجهل من تقديم الأمور بعضها قبل بعض وأشباهها إلا قال فيها :  
 « أفضل ولا حرج » .

الثالثة - قال العلماء : رفع الحرج إنما هو لمن استقام على منهاج الشرع ، وأما السلافة  
 والشرائع وأصحاب الحدود فعليهم الحرج ، وهم جاعلوه على أنفسهم بمفارقة الدين ، وليس  
 في الشرع أعظم حرجاً من إلزام ثبوت رجل لأثنين في سبيل الله تعالى ؛ ومع محبة اليقين  
 وجودة الزم ليس يحرج .

قوله تعالى : ﴿ يَلَا أَيْبُكُمْ ﴾ قال الزجاج : المعنى آتبعوا ملة أبيكم . الفراء : انتصب  
 على تقدير حذف الكاف ؛ كأنه قال كَلِمَةً . وقيل : المعنى وآفعلوا الخير فعل أبيكم ؛ فأقام  
 الفاعل مقام الملة . وإبراهيم هو أبو العرب قاطبة . وقيل : الخطاب لجميع المسلمين ، وإن  
 لم يكن الكل من ولده ؛ لأن حرمة إبراهيم على المسلمين كحرمة الوالد على الولد . ( هُوَ سَمَّاكُمْ  
 الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلِ ) قال ابن زيد والحسن : « هو » راجع إلى إبراهيم ؛ والمعنى : هو سَمَّاكم  
 المسلمين من قبل النبي صلى الله عليه وسلم . ( وَفِي هَذَا ) أى وفى حكمه أن من أتبع هذا  
 صلى الله عليه وسلم فهو مسلم . قال ابن زيد : وهو معنى قوله : « رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ  
 وَمِنْ دُرِّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ » . قال النحاس : وهذا القول مخالف لقول عطاء الأمة . وروى  
 علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال : سَمَّاكم الله عز وجل المسلمين من قبل ، أى فى الكتب  
 المقدمة وفى هذا القرآن ؛ قاله مجاهد وغيره . ( لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ ) أى يتبينه  
 إياكم . ( وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ) أن رسلكم قد بلغتهم ؛ كما تقدمت فى « البقرة » .  
 ( فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ) تقدم  
 مستوفى والحمد لله .

(١) آية ١٢٨ سورة البقرة . (٢) راجع ج ٢ ص ١٥٤ طبع ثانية ٥

(٣) راجع ج ١ ص ١٦٤ ، ٢٤٣ طبع ثانية أرفأة . ج ٤ ص ١٥٦

## سورة المؤمنون

مكية كلها في قول الجميع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ  
 خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ النَّفْعِ مَعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ  
 فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ  
 أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنْ أَشْفَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ  
 فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاعِلُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رِعُونَ ﴿٨﴾  
 وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾  
 الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾

فيه تسع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ( قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ) روى البيهقي من حديث أنس عن النبي  
 صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لما خلق الله جنة عدن وغرس أشجارها بيده قال لما تكلم  
 فقالت قد أفلح المؤمنون " . وروى النسائي عن عبد الله بن السائب قال : حضرت رسول  
 الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح فصلى في قبيل الكعبة ، نخل نعليه فوضمهما عن يساره فأفتح  
 سورة المؤمنين ، فلما جاء ذكر موسى أو عيسى عليهما السلام أخذته سحلة فركع . خرجه مسلم  
 بمعناه . وفي الترمذي عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم  
 إذا أنزل عليه الوحي سمع عند وجهه كدوى النحل ، وأنزل عليه يوما فكنتا ساعة ففترنا .  
 فاستقبل القبلة فرفع يديه وقال : " اللَّهُمَّ زِدْنَا وَلَا تَقْصُصْنَا وَارْضَا وَارْضَ عَنَّا - ثم قال -

أنزل على عشر آيات من أقامهن دخل الجنة - ثم قرأ - قد أطع المؤمنون " حتى ختم  
عشر آيات ، صححه ابن العربي . وقال النحاس : معنى "من أقامهن" من أقام عليهن ولم  
يخالف ما فيهن ، كما تقول : فلان يقوم بعمله . ثم نزل بعد هذه الآيات فرض الوضوء والج  
فدخل مهن . وقرأ طلبة بن مُصَرَّف « قد أفأح المؤمنون » بضم الألف على الفعل المجهول ،  
أى أبْقُوا في الشواب والخير . وقد مضى في أول « البقرة » معنى الدلاح لغة ومعنى<sup>(١)</sup>  
والحمد لله وحده .<sup>١</sup>

الثانية - قوله تعالى : ( خَاشِعُونَ ) روى المعتمر عن خالد بن محمد بن سيرين  
قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم ينظر إلى السماء في الصلاة ، فأنزل الله عز وجل هذه الآية  
« الذين هم في صلاتهم خاشعون » . فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر حيث يسجد .  
وفي رواية هشيم : كان المسلمون يلتفتون في الصلاة وينظرون حتى أنزل الله تعالى « قد أفأح  
المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون » ، فأقبلوا على صلاتهم وجعلوا ينظرون أمامهم .  
وقد تقدم ما للعلماء في حكم المصل إلى حيث ينظر في « البقرة » عند قوله « قَوْلٌ وَجْهَكَ  
شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ » . وتقدم أيضا معنى الخشوع لغة ومعنى في البقرة أيضا عند قوله تعالى :  
« وَإِنهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ »<sup>(٢)</sup> . والخشوع محله القاب ، فإذا خشع خشعت الجوارح  
كلها لخشوعه ، إذ هو مَلِكُهَا ، حسبما بيأه أول البقرة . وكان الرجل من العلماء إذا أقام  
الصلاة وقام إليها يهاب الرحمن أن يمد بصره إلى شيء وأن يتحدث نفسه بشيء من الدنيا .  
وقال عطاء : هو ألا يبيت بشيء من جسده في الصلاة . وأبصر النبي صلى الله عليه وسلم  
رجلا يبيت بلحيته في الصلاة فقال : « لو خشع قلب هذا لخشت جوارحه » . وقال  
أبو ذر قال النبي صلى الله عليه وسلم . « إذا قام أحدكم إلى الصلاة فإن الرجمة تواجهه فلا يحركن  
الحصى » . رواه الترمذى . وقال الشاعر :

(١) راجع ج ١ ص ١٨١ طبة ثانية أرثاة .  
(٢) راجع ج ٢ ص ١٥٨ طبة ثانية .  
(٣) راجع ج ١ ص ٢٧٤ طبة ثانية أرثاة .

آلا في الصلاة الخَيْرُ والفضل أجمع . لأن بها الآرَابُ لله تخضعُ  
وأولُ فرض من شريعة ديننا . وآخر ما يبقى إذا الدينُ يُرفعُ  
فمن قام للتكبير لافته رحمة . وكان كعب بنُ مولاة يَقْرَعُ  
وصار لبُ العرش حين صَلَّاته . تَجِبُاً فَيَا طُوبَاهُ لو كان يَخْشَعُ

وروى أبو عمر أن الجَوْنِيَّ قال : قيل لعائشة مَا كَانَ خُلُقُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟  
قالت : أتَقْرَءون سورة المؤمنين ؟ قيل نعم . قالت : اقْرَءُوا ؛ فقرأ طيبا « قد أطلع  
المؤمنون - حتى بلغ - بما يَنْظُرُونَ » . وروى النَّسَائِيُّ عن ابن عباس رضى الله عنهما قال :  
كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يَلْحَظُ في صَلَّاته يَمِينًا وشِمَالًا ، ولا يَلْوِي عَقَبَهُ خَلْفَ ظَهْرِهِ .  
وقال كعب بن مالك في حديثه الطويل : ثم أَصْلَى قَرِيبًا مَهْ - يعني من النبي صلى الله  
عليه وسلم - وأَسَارَقَهُ النَّظَرُ ، فإذا أَقْبَلْتُ على صَلَاتِي نَظَرْتُ إِلَى - وإذا التَفْتُ نحوه أَعْرَضَ  
عَنِّي ... الحديث ؛ ولم يَأْمُرْ بِإِعَادَةِ .

الثالثة - اختلف الناس في الخشوع ، هل هو من فرائض الصلاة أو من فضائلها  
ومكلائها على قولين . والصحيح الأول ، وعمله القلب ، وهو أول علم يرفع من اللسان ؛ قاله  
عُبَادَةُ بن الصامت ، رواه الترمذى من حديث جُبَيْر بن نَفِير عن أَبِي التَّوْدَاءِ ، وقال : هذا  
حديث حسن غريب . وقد خرجهُ النَّسَائِيُّ من حديث جُبَيْر بن نَفِير أيضا عن عوف بن مالك  
الأنصاري من طريق صحبة . قال أبو عيسى : ومعاوية <sup>(٢١)</sup> بن صالح ثقة عند أهل الحديث ،  
ولا نعلم أحدا تكلم فيه غير يحيى بن سعيد القطان .

قلت : معاوية بن صالح أبو عمرو ويقال أبو عمر الحضرمي الحمصي قاضي الأندلس ،  
مثل عته أبو حاتم الرازي فقال : صالح الحديث ، يكتب حديثه ولا يخرج به . واختلف  
فيه قول يحيى بن معين ، ووثقه عبد الرحمن بن مهدي وأحمد بن حنبل وأبو زُرْعَةَ الرازي ؛  
واحتج به مسلم في صحيحه . وتقدم في « البقرة » معنى اللغو والزكاة فلا معنى للإعادة <sup>(٢٢)</sup> . وقال

(١) الآرَاب : جمع الإرب ( بكر فسكون ) وهو الضرب . (٢) هو أحد رجال سعة الحديث المتقدم .

الضحاك : إن اللغو هنا الشرك . وقال الحسن : إنه المعاصي كلها . فهذا قول جامع يدخل فيه قول من قال : هو الشرك ؛ وقول من قال هو الفناء ؛ كما روى مالك بن أنس عن محمد بن المنكدر ، على ما يأتي في « لقمان » بيانه . ومعنى « فاعلون » أى مؤدبون ؛ وهى فصيحة ، وقد جاءت في كلام العرب . قال أمية بن أبى الصلت :

المطعمون الطعام في السنة الأثر . مة والفاعلون للزكوات

« الرابعة — قوله تعالى : ( وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ) » قال ابن العربى : « من غُرب القرآن أن هذه الآيات العشر عامة في الرجال والنساء ، كسائر الفاظ القرآن التى هى محتملة لم فأنها عامة فيهم ، إلا قوله « والذين هم لفروجهم حافظون » فأنما خاطب بها الرجال خاصة دون الزوجات ؛ بدليل قوله : « إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم » . وإنما عُرف حفظ المرأة فرجها من أدلة أخر كآيات الإحصان عموما وخصوصا وغير ذلك من الأدلة » . قلت : وعلى هذا التأويل في الآية فلا يحل لأمرأة أن يطاها من تملكه إجماعا من العلماء ؛ لأنها غير داخله في الآية ، ولكنها لو اعتقته بعد ملكها له جاز له أن يزوجها كما يجوز لغيره عند الجمهور . وروى عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة والشَّعْبِيّ والنَّخَعِيّ أنها لو اعتقته حين ملكته كانا على نكاحها . قال أبو عمر : ولا يقول هذا أحد من فقهاء الأمصار ؛ لأن تملكها عندهم يبطل النكاح بينهما ، وليس ذلك بطلاق وإنما هو فسخ للنكاح ؛ وأنها لو اعتقته بعد ملكها له لم يراجعهما إلا بنكاح جديد ولو كانت في عدة منه .

الخامسة — قال محمد بن عبد الحكم : سمعت حُرْملة بن عبد العزيز قال : سألت مالكا عن الرجل يتخذ عُمرَةً ، فلا هذه الآية « والذين هم لفروجهم حافظون » — إلى قوله — العادون » . وهذا لأنهم يَكُونُونَ عن الذَّنْكِ عُمرَةً ؛ وفيه يقول الشاعر :

إذا حَلَّتْ بِرَأْدٍ لَا أُنَيْسَ بِهِ . فَأَجَلُهُ عُمرَةٌ لَا دَاءَ وَلَا حَرَجُ

ويسميه أهل العراق الاستماء ، وهو استعمال من المني . وأحمد بن حنبل على ودمه يجوزُه ، ويصحح بأنه إخراج فضلة من البدن بخاز عند الحاجة ؛ أصله القصد والمجاجة . وعامة

العلماء على تحريمه . وقال بعض العلماء : إنه كالفاعل بنفسه ، وهي معصية أحدها الشيطان وأجراما بين الناس حتى صارت قبيلة ، وبآلتها لم تقل . ولو قام الدليل على جوازها لكان ذو المروءة يعرض عنها لئلا يهتكم . فإن قيل : إنها خير من نكاح الأمة ، قلنا : نكاح الأمة ولو كانت كافرة على مذهب بعض العلماء خير من هذا ، وإن كان قد قال به قائل أيضا ، ولكن الاستمئاء ضعيف في الدليل عار بالرجل الذي فكيف بالرجل الكبير .

السادسة - قوله تعالى : ﴿ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ ﴾ قال الفراء : أى من أزواجهم اللاتي أحل الله لهم لا يحاذرون . ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ في موضع خفض معطوف على « أزواجهم » و « ما » مصدرية . وهذا يقتضى تحريم الزنى وما قلناه من الاستمئاء ونكاح المتعة لأن المتعة بها لا تجرى مجرى الزوجات ، لا ترث ولا تورث ، ولا يلحق به ولدها ، ولا يخرج من نكاحها بطلاق يستأنف لها . وإنما يخرج بأقضاء المدة التي عقدت عليها وصارت كالمتأنفة . ابن العربي : إن قلنا إن نكاح المتعة جائز فهو زوجه إلى أجل ينطلق عليها اسم الزوجية . وإن قلنا بالحق الذي أحمت عليه الأمة من تحريم نكاح المتعة لمساكنات زوجة فلم تدخل في الآية .

قلت : وفائدة هذا الخلاف هل يجب الحد ولا يلحق الولد كالزنى الصريح أو يدفع الحد لاشبهة ويلحق الولد ، قولان لأصحابنا . وقد كان للجنة في التحليل والتحريم أحوال ، فمن ذلك أنها كانت مباحة ثم حرّمها رسول الله صلى الله عليه وسلم زمن خير ، ثم خلتها في غزاة الفتح ، ثم حرّمها بعد ، قاله ابن خزيمة مداد من أصحابنا وغيره ، وإليه أشار ابن العربي . وقد مضى في « النساء » القول فيها مستوفى .<sup>(١)</sup>

السابعة - قوله تعالى : ﴿ فَمِنْ أَيْتَنِي وَرَأَىٰ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ فسعى من نكح ما لا يحل عايدا ، وأوجب عليه الحد لمدوانه ، واللائط طاردا قرآنا ولغة ، بدليل قوله تعالى : ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ وكما تقدم في « الأصناف » ، فوجب أن يقام الحد عليهم وهذا ظاهر لا غبار عليه .

(١) راجع به ٥ ص ١٢٩ (٢) راجع به ٧ ص ٢٤٢ وما بعدها .

قلت : فيه نظر ، ما لم يكن جاهلا او متأولا ، وإن كان الإجماع منعقا على أن قوله تعالى : « وَالَّذِينَ هُمْ يُقْرَوْنَ لَهُمْ حَافِظُونَ . إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ » خص به الرجال دون النساء ؛ فقد روى معمر عن قتادة قال : تسررت امرأة غلامها ، فذكر ذلك لعمرفأبها : ما حملك على ذلك ؟ قالت : كنت أراه يحمل لي يملك يميني كما يحمل للرجل المرأة يملك اليمين ؛ فاستشار عمر في رجمها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : تأولت كتاب الله عز وجل على غير تأويله ، لا رجم عليها . فقال عمر : لا تجرم ! والله لا أحملك لحريمه أبدا . عاقبها بذلك ودرأ الحد عنها ، وأمر العبد ألا يقربها . وعن أبي بكر بن عبد الله أنه سمع أباه يقول : أنا حضرت عمر بن عبد العزيز جاءته امرأة غلام لها وحيى ، فقالت : إني استمررتك فتمنى بنو عمي عن ذلك ، وإنما أنا بعتلة الرجل تكون له الوليدة فيطوؤها ، فأنت عني بنو عمي ؛ فقال عمر : أتزوجت قبله ؟ قالت نعم ؛ قال : أما والله لولا منزلتك من الجهالة لرجمتك بالحجارة . ولكن اذهبا به فيمويه إلى من يخرج به إلى غير بلدها . و « وَرَأَى » بمعنى سوى ، وهو معمول بـ « ما ابتغى » أى من طلب سوى الأزواج والولائد المملوكة له . وقال الزجاج : أى من ابتغى ما بعد ذلك ؛ ففعلوا الابتغاء محذوف ، و « وَرَأَى » ظرف . و « ذَلِكَ » يشار به إلى كل مذكور مؤنثا كان أو مذكرا . ( فَأَوَلَيْكَ مِنَ الْغَادُونَ ) أى المجاوزون الحد ؛ من عدا أى جاوز الحد وجازه .

الثامنة — قوله تعالى : ( وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَواتِهِمْ يُحَافِظُونَ ) قرأ الجمهور « لأماناتهم » بالجمع . وابن كثير بالإفراد . والأمانة والعهد يجمع كل ما يحمله الإنسان من أمر دينه ودنياه قولا وفعل . وهذا يعم معاشرته الناس والمواعيد وغير ذلك ؛ غاية ذلك حفظه والقيام به . والأمانة أعم من العهد ، وكل عهد فهو أمانة فيما تقدم فيه قول أو فعل أو معتقد .

الثامنة — قرأ الجمهور « صَلَواتِهِمْ » وحزرة والكسائي « صلاتهم » بالإفراد ؛ وهذا الإفراد اسم جنس فهو في معنى الجميع . والمحافضة على الصلاة إقامتها والمبادرة إليها أوائل .

أوقاتهما ، وإتمام ركوعها وسجودها . وقد تقدم في « البقرة » مستوفى . ثم قال : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴾ أى من عمل بما ذكر في هذه الآيات فهم الوارثون ؛ أى يرثون منازل أهل النار من الجنة . وفى الخبر عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الله تعالى جعل لكل إنسان مسكناً فى الجنة ومسكناً فى النار فاما المؤمنون فيأخذون منازلهم ويرثون منازل الكفار ويمثل الكفار فى منازلهم فى النار » . نخرجه ابن ماجه بمعناه . عن أبى هريرة أيضاً قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما منكم من أحد إلا وله منزلان منزل فى الجنة ومنزل فى النار فإذا مات قد دخل النار وراثته أهل الجنة منزله فذلك قوله تعالى : « أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ » . إسناده صحيح . ويحتمل أن يسمى الحصول على الجنة وراثة من حيث حصولها دون غيرها ، فهو اسم مستعار على وجهين . والفردوس ربوة الجنة وأوسطها وأفضلها . نخرجه الترمذى من حديث الربيع بنت النضر أم حارثة ، وقال : حديث حسن صحيح . وفى حديث مسلم « فإذا سألت الله فسلوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة ومنه تفتح أنهار الجنة » . قال أبو حاتم محمد بن حبان : قوله صلى الله عليه وسلم « فإنه أوسط الجنة » يريد أن الفردوس فى وسط الجنان فى العرض وهو أعلى الجنة ؛ يريد فى الارتفاع . وهذا كله يصحح قول أبى هريرة : إن الفردوس جبل الجنة الذى تفتح منه أنهار الجنة . واللفظة فيما قال مجاهد : روية عثريت . وقيل : هى فارسية عثريت . وقيل حبشية ؛ وإن ثبت ذلك فهو وفاق بين اللغات . وقال الضحاك : هو عربى وهو الكرم ؛ والعرب تقول للكرم فراديس . ﴿ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ فانت على معنى الجنة .

قوله تعالى : وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْقَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿١٧﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النَّفْثَةَ عَلَقَةً خَلَقْنَا أَلْعَلَّةَ مُضْغَةً خَلَقْنَا الْبُضْغَةَ عِظْماً فَكَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٨﴾



فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ( وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ ) الإنسان هنا آدم عليه الصلاة والسلام ؛ قاله قتادة وغيره ، لأنه استل من الطين . ويعنى الضمير في قوله : « ثم جعلناه » عائدا على ابن آدم ، وإن كان لم يذكر لشبهة الأمر ؛ فإن المعنى لا يصلح إلا له . نظير ذلك « حتى توارث بالمجايب » . وقيل : المراد بالسلالة ابن آدم ؛ قاله ابن عباس وغيره . والسلالة على هذا صفوة النساء ، يعنى المتى . والسلالة فمالة من السل وهو استخراج الشيء من الشيء ؛ يقال : سللت الشحم من العجين ، والسيوف من القمد فأنسل ؛ ومنه قوله .  
فَسَلَّ ثِيَابِي مِنْ ثِيَابِكَ تَنْسِلُ<sup>(١)</sup> .

فالتطفة سلالة ، والولد سليل وسلالة ؛ عنى به الماء يسيل من الظهر سلا . قال الشاعر :  
بظامت به عَضْبُ الأديمِ غَضْطَرًا • سلالة قَوْجٍ كان غيرَ حِصِينِ<sup>(٢)</sup>

وقال آخر :

وما يَهْدُ إلا مُهَرَّةً عَرَبِيَّةً • سِلَّةُ أَفْرَاسٍ تَجَلَّاهَا بَقْلُ<sup>(٣)</sup>

وقوله « من طين » أى أن الأصل آدم وهو من طين .

قلت : أى من طين خالص ؛ فأما ولده فهو من طين ومنى ، حسبما بيناه في أول سورة الأنعام . وقال الكوفي : السلالة الطين إذا عصرته أنسل من بين أصابعك ؛ فالذى يخرج هو السلالة .

الثانية — قوله تعالى : ( نَظْفَةً ) قد مضى القول في النطفة والعلة والمضفة وما في ذلك من الأحكام في أول الحج ، والحمد لله على ذلك .

الثالثة — قوله تعالى : ( ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ) اختلف الناس في الخلق الآخر ؛ فقال ابن عباس والشَّعْبِيُّ وأبو العالية والبصحاك وابن زيد : هو تنقيح الروح فيه بعد أن كان

(١) آية ٣٢ سورة ص . (٢) هذا مجزئيت من مقلة امرئ القيس . ومصدره :

• وإن تك قد ساء لك بنى خليفة •

(٣) البيت لحسان بن ثابت . (٤) نسب صاحب لبنان العرب هذا البيت لم يثبت لتمام (مادة سل) . وتجلها . ملاحا . وقوله « بقل » قال ابن ربي : وذكر بعضهم أنها تصحيف ، وأن صوابه « بقل » بالنون وهو التمسيس من الناس والدواب ؛ لأن البقل لا ينسل . (٥) راجع ج ٦ ص ٢٨٧ (٦) راجع ص ٦ من هذا الجزء .

بجاءه . وعن ابن عباس : خروجه إلى الدنيا . وقال قتادة عن فرقة : نبات شعره . الضحاك :  
خروج الأسنان ونبات الشعر . مجاهد : كمال شبابه ؛ وروى عن ابن عمر . والصحيح أنه  
عام في هذا وفي غيره من النطق والإدراك وحسن المحاولة وتحصيل المعقولات إلى أن يموت .

الرامسة - قوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ (١) يروى أن عمر بن الخطاب  
لما سمع صدر الآية إلى قوله « خلقا آخر » قال فتبارك الله أحسن الخالقين ؛ فقال رسول الله  
صلى الله عليه وسلم : « هكذا أنزلت » . وفي مسند الطيالسي : « ونزلت » ولقد خلقنا الإنسان  
من سُلالة من طين » الآية ؛ فلما نزلت قلت أنا : تبارك الله أحسن الخالقين ؛ فنزلت  
« تبارك الله أحسن الخالقين » . و يروى أن قائل ذلك معاذ بن جبل . وروى أن قائل  
ذلك عبد الله بن أبي سرح ، وبهذا السبب ارتد وقال : آق يمتل ما يأتي عهد ، وفيه نزل  
« وَمَنْ أَكْثَرُ مِمَّنْ أَتَى عَلَى اللَّهِ كَيْدًا أَوْ قَالَ أَوْسَى إِلَى وَلَمْ يُوحِ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ مَا نَزَّلَ  
بِمِثْلِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ » على ما تقدم بيانه في « الأنعام » . وقوله تعالى « تبارك » فاعمل من البركة .  
﴿ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ اتفق الصائغين . يقال لمن صنع شيئا خلقه ؛ ومنه قول الشاعر :

ولأت تقري ما خلقت ويد • ضُ القوم يخلق ثم لا يقري<sup>(٢)</sup>

وفذهب بعض الناس إلى قى هذه اللفظة عن الناس وإنما يضاف الخلق إلى الله تعالى .  
وقال ابن جرير : إنما قال « أحسن الخالقين » لأنه تعالى قد أذن لمبى عليه السلام  
أن يخلق ؛ واضطرب بعضهم في ذلك . ولا تنتهي اللفظة من البشر في معنى الصنع ؛ وإنما  
هي مغبة بمعنى الاختراع والإيجاد من العدم .

مسألة - من هذه الآية قال ابن عباس لعمر بن سالم مشيخة الصحابة عن ليلة القدر  
فقالوا : الله أعلم ؛ فقال عمر : ما تقول يا ابن عباس ؟ فقال : يا أمير المؤمنين إن الله تعالى  
خلق السموات سبعا والأرضين سبعا ، وخلق ابن آدم من سبع وجعل رزقه في سبع ، فأراها

(١) راجع ٧ ص ٢٩ (٢) بيت لزمير بن أبي سلمى يمدح هرم بن عثمان . والقرى : انقطع

(٢) ذكر المؤلف أن المسائل خمس ، ولم يذكر إلا أربعاً ؛ ولعل هذه الخامسة .

في ليلة سبع وعشرين . قتال عمرو بن لحي رضي الله عنه : <sup>(١)</sup> «عجزكم أن تأتوا بمثل ما أتى هذا السلام الذي لم يتجمع شؤون رأسه . وهذا الحديث بطوله في مسند ابن أبي شيبة . فأراد ابن عباس « خلق ابن آدم من سبع » بهذه الآية <sup>(٢)</sup> ، ويقول « وجعل رزقه في سبع » قوله « فأبنتا فيها جأ . وعنباً وقضباً . وزيتوناً ونخلًا . وحدائقاً غلباً . وفاكهةً وأباً » الآية . السبع منها لابن آدم ، والأب للأمام . والقضبُ يأكله ابن آدم ويسمن منه النساء ؛ هذا قول . وقيل : القضبُ البقول لأنها تقضب ؛ فهي رزق ابن آدم . وقيل : القضب والأب للأمام ، والسبب الباقية لابن آدم ، والسابعة هي للأمام ؛ إذ هي من أعظم رزق ابن آدم .

قوله تعالى : **ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٧﴾**

قوله تعالى : <sup>(٣)</sup> «ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ» أي بعد الخلق والحياة . النحاس : ويقال في هذا المعنى لما توتون . ثم أخبر بالبعث بعد الموت فقال : <sup>(٤)</sup> «ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ» .

قوله تعالى : **وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿١٧﴾**

قوله تعالى : <sup>(٥)</sup> «وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ» قال أبو عبيدة : أي سبع سموات . وحكي عنه أنه يقال : طارت الشيء ، أي جمعت بعضه فوق بعض ؛ ف قيل للسموات طرائق لأن بعضها فوق بعض . والعرب تسمى كل شيء فوق شيء طريقة . وقيل : لأنها طرائق الملائكة . <sup>(٦)</sup> «وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ» قال بعض العلماء : أي عن خلق السماء . وقال أكثر المفسرين : أي عن الخلق كلهم من أن تسقط عليهم قهلكهم .

قلت : ويحتمل أن يكون المعنى « وما كنا عن الخلق غافلين » أي في القيام بمصالحه وحفظه ؛ وهو معنى الحق القويم ؛ على ما تقدم <sup>(٧)</sup> .

(١) في المورد المختار : «عجزتم أن تقولوا كما قال هذا السلام» . (٢) كما في الأصول ، وسياق الكلام يقتضي أن تكون العبارة هكذا : فأراد ابن عباس بقوله « خلق ابن آدم من سبع هذه الآية ... » الخ . (٣) آية ٢٧ وما بعدها سورة عبس . (٤) راجع ج ٣ ص ٢٧١ .

قوله تعالى : **وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنْتَهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ** ﴿١١﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى - هذه الآية من نعم الله تعالى على خلقه ومما أمتن به عليهم ؛ ومن أعظم المنن الماء الذي هو حياة الأبدان ونماء الحيوان . والماء المنزل من السماء على قسمين : هذا الذي ذكر الله سبحانه وتعالى وأخبر بأنه استودعه في الأرض ، وجعله فيها مختزناً لسقي الناس يمدونه عند الحاجة إليه ؛ وهو ماء الأنهار والبحيرات وما يستخرج من الآبار . وروى عن ابن عباس وغيره أنه إنما أراد الأنهار الأربعة : سبجان وجبجان ونيل مصر والفرات . وقال مجاهد : ليس في الأرض ماء إلا وهو من السماء . وهذا ليس على إطلاقه ، وإلا فالأجاج ثابت في الأرض ، فيمكن أن يقيّد قوله بالماء العذب ، ولا محالة أن الله تعالى قد جعل في الأرض ماء وأنزل من السماء ماء . وقد قيل : إن قوله « وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً » إشارة إلى الماء العذب ، وأن أصله من البحر ، رفعه الله تعالى بلفظه وحسن تقديره من البحر إلى السماء ، حتى طاب بذلك الرفع والتصعيد ؛ ثم أنزله إلى الأرض ليُسقى به ، ولو كان الأمر إلى ماء البحر لما انتفع به من ملوحته .

الثانية - قوله تعالى : **(بِقَدَرٍ)** أي على مقدار مصلح ، لأنه لو كثر أهلك ؛ ومنه قوله تعالى : **« وَإِنْ مِنْ ثَمَرٍ إِلَّا عِنْدَنَا نِزْلُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ »** . **(وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ)** يعني الماء المختزن . وعذا تهديد ووعد ؛ أي في قدرتنا إذهابه وتوحيده ، ويهلك الناس بالعطش وتهلك مواشيهم ؛ وهذا كقوله تعالى : **« قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْحَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا - أَى ظَنًّا - فَن يَأْتِيَكُم مَّاءٌ مَّعِينٌ »** .

الثالثة - ذكر النحاس : قرئ على أبي يعقوب إسحاق بن إبراهيم بن يونس عن جامع بن سواده قال : حدثنا سعيد بن سابق قال حدثنا مسلمة بن علي عن مقاتل بن حيان

عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " أنزل الله عز وجل من الجنة إلى الأرض نعمة أنهار يتسبحون وهو نهر الهند وجيحون وهو نهر بلخ وديجلة والفرات وهما نهر المراق والنيل وهو نهر مصر أنزلها الله تعالى من عين واحدة من عيون الجنة في أسفل درجة من درجاتها على جناح جبريل عليه السلام فاستودعها الجبال وأجراها في الأرض وجعل فيها منافع للناس في أصناف ما يشربون ذلك قوله جل ثناؤه : « وأنزلنا من السماء ماء يقدر فأسكاه في الأرض » فإذا كان عند خروج ماجوج وأجوج أرسل الله عز وجل جبريل فوضع من الأرض القرآن والعلم وجميع الأنهار الخمسة فيرفع ذلك إلى السماء فذلك قوله تعالى : « وإنا على ذهاب به لقادرون » فإذا رفعت هذه الأشياء من الأرض فقد أهلها خير الدين والدنيا .

الرابعة - كل ما نزل من السماء مخترا كان أو غير مختر فهو طاهر مطهر يفتسل به ويتوضأ منه ؛ على ما يأتي في « الفرقان » بيانه .

قوله تعالى : فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٦﴾

فيه مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ( فَأَنشَأْنَا ) أى جعلنا ذلك سبب النبات ، وأوجدناه به وخلقناه . وذكر نال النخيل والأعناب لأنها ثمرة الخجاز والطائف والمدينة وغيرها ؛ قاله الطبري . ولأنها أيضا أشرف الثمار ؛ فذكرها تشريفا لها وتنبيها عليها . ( لَّكُمْ فِيهَا ) أى في الجنات . ( فَوَاكِهُ ) من غير الرطب والعنب . ويحتمل أن يعود على النخيل والأعناب خاصة إذ فيها مراتب وأنواع ؛ والأول أعم لاسائر الثمرات .

الثانية - من حلف ألا يأكل فاكهة ؛ ففى الرواية عندنا يبحث بالباقله الخضراء وما أشبهها . وقال أبو حنيفة : لا يبحث بأكل القثاء والخيار والجزر ؛ لأنها من البقول لا من الفاكهة . وكذلك الجوز واللوز والفسق ؛ لأن هذه الأشياء لا تؤخذ من الفاكهة .

( ١٦ ) في قوله تعالى : « وهو الذى أرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته ... » آية ٤٨

وإن أكل تفاحاً أو خوخاً أو مشمشاً أو تيناً أو إجاباً يحنت . وكذلك البطيخ ؛ لأن هذه الأشياء كلها تؤكل على جهة التفكه قبل الطعام ويده ؛ فكانت فاكهة . وكذلك يابس هذه الأشياء إلا البطيخ اليابس لأن ذلك لا يؤكل إلا في بعض البلدان . ولا يحنت بأكل البطيخ الهندى لأنه لا يمد من الفواكه . وإن أكل عنباً أو رماناً أو رطباً لا يحنت . وخالفه صاحباه فقالا يحنت ؛ لأن هذه الأشياء من أعز الفواكه ، وتؤكل على وجه التنعم . والإفراد لها بالذكر في كتاب الله عز وجل لكامل معانيها ؛ كتخصيص جبريل وميكائيل من الملائكة . واحتج أبو حنيفة بأن قال : عطف هذه الأشياء على الفاكهة مرة فقال « فيهما فاكهة ونخل ورمان » وصرة عطف الفاكهة على هذه الأشياء فقال : « وفاكهة وأبا » والمعطوف غير المعطوف عليه ، ولا يليق بالحكمة ذكر الشيء الواحد بلقطين مختلفين في موضع المنة . والعنب والرمان يكتفى بهما في بعض البلدان فلا يكون فاكهة ؛ ولأن ما كانت فاكهة لا فرق بين رطبه وياسه ، ويابس هذه الأشياء لا يعد فاكهة فكذلك رطبها .

قوله تعالى : وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذِّهْنِ وَصَبْنِجٍ

لِلْأَكْلَيْنِ ﴿٢٣﴾

فيه ست مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ( وَشَجَرَةً ) شجرة عطف على جنات ، وأجاز الفراء الرفع لأنه لم يظهر الفعل ، بمنى وثم شجرة ؛ ويريد بها شجرة الزيتون . وأفردها بالذكر لعظم منافعتها في أرض الشام والجزيرة وغيرها من البلاد ، وقلة تعاهدها بالسقي والحفر وغير ذلك من المراعاة في سائر الأشجار . ( وَتَخْرُجُ ) في موضع الصفة . ( مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ ) أى أنبتنا الله في الأصل من هذا الجبل الذى بارك الله فيه . وطور سيناء من أرض الشام وهو الجبل الذى كلم الله عليه موسى عليه السلام ؛ قاله ابن عباس وغيره ، وقد تقدم في البقرة والأعراف . والطور الجبل في كلام العرب . وقيل : هو مما عَرَبَ من كلام المعجم . وقال ابن زيد : هو جبل

بيت المقدس ممدود من مصر إلى أيلة<sup>(١)</sup> . واختلف في سِيَاء ؛ فقال قتادة : معناه الحسن ؛ ويلزم على هذا التأويل أن يَتَوَّنَ الطور على التثنية . وقال مجاهد : معناه مبارك . وقال معمر عن فرقة : معناه شجر ؛ ويلزمهم أن يَتَوَّنُوا الطور . وقال الجمهور : هو اسم الجبل ؛ كما تقول جبل أُحُد . وعن مجاهد أيضا : سِيَاءٌ حَجَرٌ بَيْنَهُ أَضْيَافُ الْجَبَلِ إِلَيْهِ لَوْجُودُهُ عِنْدَهُ . وقال مقاتل : كل جبل يحمل الثمار فهو سِيَاءٌ ؛ أى حسن . وقرأ الكوفيون بفتح السين على وزن فَعْلَاءَ ، وفعلَاءَ في كلام العرب كثير ؛ يمنع من الصرف في المعرفة والنكرة ؛ لأن في آخرها ألف التانيث ، وألِفُ التانيث ملازمة لما هي فيه ، وليس في الكلام فعلَاءَ ، ولكن من قرأ سِيَاءَ بكسر السين جعله فعلَاءَ ؛ فلهزمة فيه كهزمة جِرَاءَ ، ولم يصرف في هذه الآية لأنه جعل اسم بقعة . وزعم الأخفش أنه اسم أعجمي .

التانيث - قوله تعالى : ( تَبَتْ بِالْذَّهْنِ ) قرأ الجمهور « تَبَتْ » بفتح التاء وضم الباء ، والتقدير : تبنت ومعها الدهن ؛ كما تقول : خرج زيد بسلاحه . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بضم التاء وكسر الباء . واختلف في التقدير على هذه القراءة ؛ فقال أبو علي الفارسي : التقدير تبنت جناها وسعه الدهن ؛ فالمفعول محذوف . وقيل : الباء زائدة ؛ مثل « وَلَا تَلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ » وهذا مذهب أبي عبيدة . وقال الشاعر :

نضرب بالسيف وزجو بالقَرْجِ •

وقال آخر :

مَنْ الْحَارِثُ لَا رَبَّاتُ أَنْعَمَةٍ • سود المجاور لا يقرآن بالسُّورِ

ونحو هذا قاله أبو علي أيضا ؛ وقد تهتم . وقيل : تبت وأبنت بمعنى ؛ فيكون المعنى كما مضى في قراءة الجمهور ، وهو مذهب الفراء وأبي إسحاق ، ومنه قول زهير :

... حتى إذا أبنت البَقْلُ •

(١) آيلة : تعرف اليوم باسم « العقبة » . (٢) كذا في الأصول ولبيان الرب مادة « سور » بالخاء المعجمة . وأوردته صاحب ثمرات الأدب بالخاء المعجمة ، قال : « والأخيرة جمع حار (الخاء المعجمة) جمع فلة ، وخص الحار لأنها رُذَالُ الْمَالِ وشبهه ... وظل مصنفنا ما بين هذه الكلمة بالخاء المعجمة ، وقال والأخيرة جمع حار ، وهو ما تستدبه امرأة رأسها » . (راجع الشاهد الخامس بعد السجادة من الخزانة)

والأصمى ينكر أنبت، ويثتم قصيدة زهير التي فيها :

رَأَيْتُ لَدَى الْحَاجَاتِ حَوَّلَ بَيْوتِهِمْ - قَطِيتًا بِهَا حَتَّى إِذَا أَنْبَتَ الْبَقْلُ

أَيُّ نَيْتٍ . وقراء الزهرى والحسن والأعرج « تُنْبِتُ بالدهن » يرفع الماء ونصب الباء . قال ابن جني والزجاج : هي باء الحال ، أَي تُنْبِتُ ومعها دهنها . وفي قراءة ابن مسعود : « تخرج بالدهن » وهي باء الحال . أَيْ دَرَسَتْهُ : الدهن الماء اللين ، تنبت من الإنبات . وقراء زَرَيْنُ حُبَيْش « تُنْبِتُ - بضم التاء وكسر الباء - الدهن » يحذف الباء ونصبه . وقراء سليمان بن عبد الملك والأشهب « بالدهان » . والمراد من الآية تعديد نعمة الزيت على الإنسان ، وهي من أركان النعم التي لا تحصى بالصحة عنها . ويدخل في معنى الزيتون شجر الزيت كله على اختلافه بحسب الأقطار .

الثالثة - قوله تعالى : ( وَصَيِّغٌ لِلْأَكْلِينَ ) قراءة الجمهور . وقرأت فرقة « وأصباغ » بالجمع . وقراء عامر بن عبد قيس « ومتناع » ، ويراد به الزيت الذي يصطبغ به الأكل ، يقال : صَبَغَ وصباغ ، مَثَلُ دَبْغٍ وَدَبَاغٍ ، وليس ولياس . وكل إدام يؤتم به فهو صَبِغٌ ، حكاه المروى وغيره . وأصل الصَّبِغ ما يلون به الثوب ، وشبه الإدام به لأن الخبز يلون بالصَّبِغ إذا عُسِمَ فيه . وقال مقاتل : الأدم الزيتون ، والدهن الزيت . وقد جعل الله تعالى في هذه الشجرة أَدَمًا وَدُهْنًا ، فالصَّبِغ على هذا الزيتون .

الرابعة - لا خلاف أن كل ما يصطبغ فيه من المانعات كالزيت والسمن والمسل والرب والخل وغير ذلك من الأسراق أنه إدام . وقد نص رسول الله صلى الله عليه وسلم على الخل فقال : " نعم الإدام الخل " رواه تسعة من الصحابة ، سبعة رجال وأمرأتان . ومن رواه في الصحيح جابر وعائشة وخارجة وعمر وابنه عبيد الله وابن عباس وأبو هريرة وسمرة بن جندب وأنس وأم هانئ .

الخامسة - واختلف فيما كان جابدا كالخمر والتمر والزيتون وغير ذلك من الجوامد ، فاجمهور أن ذلك كله إدام ، فمن حلف ألا يأكل إداما فأكَل لَحْمًا أَوْ جَبْتًا حَنِيفَةً . وقال أبو حنيفة : لا يحنت ، وخالفه صاحباه . وقد روى عن أبي يوسف مثل قول أبي حنيفة . والبلل ليس بإدام في قولهم جميعا . وعن الشافعي في التمر وجهان ، والمشهور أنه ليس بإدام لقوله في التثنية .



وقبل يمحت ؛ والصحيح أن هذا كله إدام . وقد روى أبو داود عن يوسف بن عبد الله بن سلام قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم أخذ كسرة من خبز شعير فوضع عليها تمر فقال : "هذه إدام هذه" . وقال صلى الله عليه وسلم : "سيد إدام الدنيا والآخرة اللهم" . ذكره أبو عمر . وترجم البخاري (باب الإدام) وساق حديث عائشة ؛ ولأن الإدام مأخوذ من المؤدمة وهي الموافقة ، وهذه الأشياء نوافق الخبز فكان إداما . وفي الحديث عنه عليه السلام : "اشتموا ولو بالماء" . ولأبي حنيفة أن حقيقة الإدام الموافقة في الاجتماع على وجه لا يقبل الفصل ؛ كالخل والزيت ونحوهما ، وأما اللحم والبيض وغيرها لا يوافق الخبز بل يعاوزه كاليطبخ والتمر والجنب . والحاصل : أن كل ، يحتاج في الأكل إلى موافقة الخبز كان إداما ، وكل مالا يحتاج ويؤكل على حدة لا يكون إداما ، والله أعلم

السادسة - روى الترمذي من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كُأُوا الزيت وآدنهوا به فإنه من شجرة مباركة" . هذا حديث لا يعرف إلا من حديث عبد الرزاق ، وكان يضطرب فيه ، وربما يذكر فيه عن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وربما رواه على الشك فقال : أحسبه عن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وربما قال : عن زيد بن أسلم عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم . وقال مقاتل : خُصَّ الطور بالزيتون لأن أول الزيتون نبت منها . وقيل : إن الزيتون أول شجرة نبتت في الدنيا بعد الطوفان . والله أعلم .

قوله تعالى : وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١١﴾ وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ عَسَىٰ أَنْ تَكُونُوا مَأْكُورًا مِنْ آلِهِ غَيْرَهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٣﴾ فَقَالَ الْمَلَأُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ

اللَّهُ لَا تَزَلْ مَلَكُكُمْ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آيَاتِنَا الْأُولَى ۚ (١١) إِنْ هُوَ إِلَّا  
رَجُلٌ بِهِ جَنَّةٌ فَنَرَبُّوهُ بِهِ حَتَّى حِينٍ (١٢) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي  
يَمَا كَذَّبُونَ (١٣) فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوْحَيْنَا فَإِذَا  
جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ  
إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا  
إِنَّهُمْ مُعْرِضُونَ (١٤)

قوله تعالى: (وَأَنْ لَكُمْ فِي الْأَنْبَاءِ لَعْنَةُ إِبْرَاهِيمَ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ لَمَّا ظَنُّوا أَنَّهُمْ يَفْعَلُونَ مَا كَانُوا  
يَعْلَمُونَ . وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ) تقدم القول فيها في « النحل » والحمد لله .  
وفي هود قصة السفينة ونوح ، وركوب البحر في غير موضع .

قوله تعالى: (وَعَلَيْهَا) أى وعلى الأنعام فى البر . (وَعَلَى الْفُلْكِ) فى البحر . (تُحْمَلُونَ) وإنما  
يحمل فى البر على الإبل فيجوز أن ترجع الكتابة إلى بعض الأنعام . وروى أن رجلا رك  
بقرة فى الزمان الأول فأطبقها الله تعالى معه فمات : إنما لم يخلق لهذا ! وإنما حلفت للحوث .  
قوله تعالى: (مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ) قرئ بالخفض رداً على اللفظ ، وبالرفع رداً على  
المنى . وقد معنى فى « الأعراف » .

قوله تعالى: (مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْقُضَ عَلَيْكُمْ) أى يسودكم ويشرف عليكم  
بأن يكون منوعاً ونحن له تبع . (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَا تَزَلْ مَلَانِكَةُ) أى لو شاء الله ألا يبدى شئ .  
سواء لميل رسوله ملكاً . (مَا سَمِعْنَا بِهَذَا) أى بتل دعوته . وقيل : ما سمعنا بمثل: بشراً ،  
أى برسالة ربه . (فِي آيَاتِنَا الْأُولَى) أى فى الأنهم الماضية ، قاله ابن عباس . والباء فى « بهذا »  
زائدة ؛ أى ما سمعنا هذا كما فى آياتنا الأولى ، ثم عطف بعضهم على بعض فقالوا (إِنْ هُوَ)

(١) راجع ج ١٠ ص ٦٨ ٨٩ (٢) راجع ج ٩ ص ٢٠

(٣) راجع ج ٢ ص ١٩٥ طعة ثانية . (٤) راجع ج ٧ ص ٢٢٣

يعنون نوحاً ﴿إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جَنَّةٌ﴾ أى جنون لا يدري ما يقول . ﴿فَقَرَّبُوا بِهِ حَتَّى جِئَ﴾  
أى انتظروا موته . وقيل : حتى يستبين جنونه . وقال الفراء : ليس يراد بالحين هاهنا وقت  
عينه إنما هو كقوله : دعه إلى يومنا . فقال حين تهادوا على كفرهم : ﴿رَبِّ أَنْصُرْنِي  
يَمَّا كَذَّبُونَ﴾ أى انتقم من لم يطعنى ولم يسمع رسالتى . ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾ أى أرسلنا إليه  
رسلاً من السماء ﴿أَنِ اصْنَعْ الْفُلَّ﴾ على ما تقدم بيانه .

قوله تعالى : ﴿فَأَسْلَكْنَا فِيهَا﴾ أى أدخل فيها واجعل فيها ؛ يقال : سلكته فى كذا  
واسلكته فيه إذا أدخلته . قال عبد مناف بن ربيعة الهذلي :

حتى إذا أسلكهم فى قنائده . شلاً كما تطرد البهائم الشرداً<sup>(١)</sup>

﴿مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ قرأ حفص « مِنْ كُلِّ » بالتثنية ، الباقون بالإضافة ؛ وقد ذكر .  
وقال الحسن : لم يحمل نوح فى السفينة إلا ما يلد ويبيض ، فأما البقي والذباب والودود فلم يحمل  
شيئاً منها ، وإنما خرج من الطين . وقد مضى القول فى السفينة والكلام فيها مستوفى ،  
والحمد لله .

قوله تعالى : فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ فَقُلِ الْحَمْدُ

لِلَّهِ أَتَدْرِي نَجَّيْنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى : ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ﴾ أى علوت . ﴿أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ﴾ راجع  
﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أى أحمدوا الله على تخلصه بياكم . ﴿مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ومن الفرق .  
والحمد لله : كلمة كل شاكركه . وقد مضى فى الفائدة بيانه .

فيه تعالى : وَقُلْ رَبِّ أُنْزِلْنِي مُنْزَلاً مُّبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : ﴿وَقُلْ رَبِّ أُنْزِلْنِي مُنْزَلاً مُّبَارَكاً﴾ قراءة العامة « منزلاً » بضم الميم وفتح  
الزاي ، على المصدر الذى هو الإنزال ؛ أى أنزلنى أنزلاً مباركاً . وقرأ يز بن حبيش وأبو بكر

(١) فائدة : موضع بيه . والنشل : الطرد . والشرد : جمع شرد . (٢) راجع ج ٩ ص ٢٤

عن عاصم والمفضل «مَزَلًا» بفتح الميم وكسر الزاي على الموضع، أى أنزلى موضعا مباركا .  
الجوهرى : المَزَل (بفتح الميم والزاي) النزول وهو الحلول ؛ يقول : نزلت نزولا ومَزَلًا . وقال :  
أَنَّ ذِكْرَكَ الدَّارَ مَزَلًا جُمْلٌ \* بِكَتْ فَدَمْعُ الْمَيْنِ مُنْعَدَّرٌ جُمْلٌ

ينصب «المَزَل» لأنه مصدر .<sup>(١)</sup> وأنزله غيره وأسنله بمعنى . ونزله تنزيلا ، والنزِيل أيضا  
الترتيب . قال ابن عباس ومجاهد : هذا حين خرج من السفينة ؛ مثل قوله تعالى : « أَهْطِطْ  
بِسَلَامٍ يَمَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أَيْمِنٍ مِّنْ مَّعَكَ » . وقيل : حين دخلها ؛ فعلى هذا يكون قوله  
« مباركا » يعنى بالسلامة والنجاة .

قلت : و بالجملة «الآية تعلية من الله عز وجل لعباده إذا ركبوا وإذا نزلوا أن يقولوا  
هذا ؛ بل وإذا دخلوا بيوتهم وسلموا قالوا . وروى عن علي رضي الله عنه أنه كان إذا دخل  
المسجد قال : اللهم أنزلى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين .

قوله تعالى : إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٦﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ أى فى أمر نوح والنبوة وإهلاك الكافرين .  
﴿ لَآيَاتٍ ﴾ أى دلالات على كمال قدرة الله تعالى ، وأنه ينصر أنبياءه ويهلك أعداءهم .  
﴿ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴾ أى ما كنا إلا مبتلين الأمم قبلكم ؛ أى تخبرين لهم بإرسال الرسل إليهم  
ليظهر المطيع والعاصي فيتين للآئمة عالمهم ؛ لا أن يسجد الرب علما . وقيل : أى تعاملهم  
معاملة المختبرين . وقد تقدم هذا المعنى فى « الفقرة » وغيرها . وقيل : « وإِنْ كُنَّا »  
أى وقد كنا .

قوله تعالى : ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣٧﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ  
رُسُلًا مِّنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ؕ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٨﴾

(١) يلاحظ أن «مَزَلًا» بالنصب معمول لأن ذكرته . و «جمل» فاعل بالمصدر ، وهو أنزل .

(٢) آية ٤٨ سورة هود . (٣) راجع ج ٢ ص ١٧٣ طعة ثانية .

قوله تعالى : ( ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَيْنِهِمْ ) أى من بعد هلاك قوم نوح . ( قَوْمًا آخَرِينَ )  
 قه . ن : هم قوم عاد . ( فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ ) بنى هودا ، لأنه ما كانت أمة انشئت  
 فى إثر قوم نوح إلا عاد . وقيل : هم قوم نود « فأرسلنا فيهم رسولا » بنى صالحا . قالوا :  
 والدليل عليه قوله تعالى آخر الآية « فاخذتهم الصيحة » ، نظيرها : « وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا  
 الصَّيْحَةَ » .

قلت : ومن أخذ بالصيحة أيضا أصحاب مدين قوم شعيب ، فلا يبعد أن يكونوا هم ،  
 والله اعلم . ( مِنْهُمْ ) أى من عشيرتهم ، يعرفون مولده ومنشأه ليكون سكنهم الى قوله أكثر .

قوله تعالى : وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا  
 الْآخِرَةِ وَأُفِّرْنَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ  
 مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ  
 إِذْ ذَكَرْتُمْ إِذَا خَلْتُمْ سُرُورًا ﴿٦٧﴾ أَلَيْدُكُمْ أَنْتُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا  
 أَنْتُمْ تُخْرَجُونَ ﴿٦٨﴾

قوله تعالى : ( وَقَالَ الْمَلَأُ ) أى الأشراف والقادة والرؤساء . ( مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا  
 وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا الْآخِرَةِ ) يريد بالمش والحساب . ( وَأُفِّرْنَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ) أى وسعنا  
 عليهم ، نعم الدنيا حتى يطروا وصاروا يؤتون بالثقة ، وهى مثل الثقة . ( مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ  
 مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ) فلا فضل له عليكم لأنه محتاج الى  
 الطعام والشراب كأتم . وزعم القراء أن معنى « ويشرب مما تشربون » على حنف من ،  
 أى مما تشربون منه ؛ وهذا لا يجوز عند البصريين ولا يحتاج الى حنف الثبوت ؛ لأن « ما »  
 إذا كان مصدرا لم يمتنع الى عائد ، فإن جعلتها بمعنى الذى حذف المفعول ولم يمتنع الى إضمار  
 من . ( وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِذْ ذَكَرْتُمْ ) يريد لمشيرون بترككم أهلكم واتباعكم إياه

من غير فائدة له عليك . (أَيْدِيكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْكُمْ تُخْرَجُونَ) أى مخرجون من قبوركم . و « أَت » الأولى في موضع نصب بوقوع « يمدكم » عليها ، والثانية بدل منها ، هذا مذهب سيويه . والمعنى : أَيْدِيكُمْ أَنْكُمْ مخرجون إذا مِتُّمْ . قال الفراء : وفي قراءة جده الله « أَيْدِيكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْكُمْ تُخْرَجُونَ » ؛ وهو كقولك : أعلن إن خرجت أنك نادم . وذهب الفراء والجرى وأبو اللباس المبرد إلى أن الثانية مكررة للتوكيد ، لما طال الكلام كان تكررها حسنا . وقال الأخفش : المعنى أَيْدِيكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا يمدت إخراجكم ، فـ « بَات » الثانية في موضع رفع بفعل مضمر ، كما تقول : اليوم القتال ، فالمعنى اليوم يمدت القتال . وقال أبو إسحاق : ويموز « أَيْدِيكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْكُمْ تُخْرَجُونَ » ؛ لأن معنى « أَيْدِيكُمْ » أَيْقُولُ أَنْكُمْ .

قوله تعالى : هَيَّاتْ هَيَّاتْ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾

قال ابن عباس : هي كلمة للبعد ؛ كأنهم قالوا بعيد ما توعدون ، أى أن هذا لا يكون ما يذكر من الهبت . وقال أبو علي : هي بمنزلة الفعل ؛ أى يُعَدُّ ما تُوعَدُونَ . وقال ابن الأنباري : ولي « هَيَّات » عشر لئات : هَيَّاتُ لَكَ (بفتح التاء) وهي قراءة الجماعة . وهَيَّاتُ لَكَ (بخفض التاء) ؛ ويروى عن أبي جعفر بن القعقاع . وهَيَّاتُ لَكَ (بالخفض والتنوين) يروى عن عيسى بن عمر . وهَيَّاتُ لَكَ (برفع التاء) ؛ التعليل : وبها قرأ نصر بن عاصم وأبو العالبة . وهَيَّاتُ لَكَ (بالرفع والتنوين) وبها قرأ أبو حيوة الشامي ؛ ذكره التعليل أيضا . وهَيَّاتُ لَكَ (بالنصب والتنوين) قال الأصموص :

تَذَكَّرْتُ أَيَّامًا مَضِيَّةً مِنَ الصَّبَا . وهَيَّاتْ هَيَّاتَا إِلَهُ .

واللغة السابعة : أَيَّاتْ أَيَّاتْ ؛ وأنشد الفراء :

فَأَيَّاتْ أَيَّاتْ الْمَقِيْقُ وَمِنْ بَهْ . وَأَيَّاتْ خَلِّ بِالْفَقِيْقِ نَوَاصِلَهْ

قال المهدوي : وقرأ عيسى الممداني « هَيَّاتْ هَيَّاتْ » بالإسكان . قال ابن الأنباري . ومن العرب من يقول « أَيَّان » بالنون ، ومنهم من يقول « أَيَّاه » بالنون . وأنشد الفراء :

ومن دُونِ الْأَعْيَانِ وَلِفَتْحِ كَلِمَةٍ • وَكُنَّانُ أَيُّهَا مَا اشْتَرَا وَابْتَدَأَ

فهذه عشر لغات . فمن قال « هيات » بفتح الهمزة جملته مثل أين وكيف . وقيل : لأنها أدانان مركبتان مثل خمسة عشر وبتبكي ورام هرمرز ، وتقف على الثاني بالهاء ؛ كما تقول : خمس عشرة وسبع عشرة . وقال الفراء : نصبها كتنصب تُمَتَّ ورُبَّتْ ، ويموز أن يكون الفتح إتياءا للألف والفتحة التي قبلها . ومن كسره جملته مثل أميس وهؤلاء . قال :

• وَهَيَاتِ هَيَاتِ إِلَيْكَ رَجوعها •

قال الكسائي : ومن كسر الهمزة وقف عليها بالهاء ؛ فيقول هياه . ومن نصبها وقف بالهاء وإن شاء بالهاء . ومن ضمها فعل مثل منذ وقطَّ وحيث . ومن قرأ « هيات » بالتزوين فهو جمعٌ ذهب به إلى التنكير ؛ كأنه قال بُسْداً بُسْداً . وقيل : يُخْفَضُ وتَوْنٌ تشبهاً بالأصوات بقولهم : غايٍ وطايٍ . وقال الأخفش : يميز في « هيات » أن تكون جماعة فتكون الهمزة التي فيها تاء الجميع التي للتانيث . ومن قرأ « هيات » جاز أن يكون أخلصها أسما ممرها فيه معنى البعد ، ولم يجعله اسماً للفعل فيزيه . وقيل : شبه الهمزة بتاء الجمع ، كتوبه تعالى : « فَاذْأَفْتَضَمُ مِنْ عَرَاقَاتِ » . قال الفراء : وكأني استحب الوقف على التاء ؛ لأن من العرب من يخفف التاء على كل حال ؛ فكانت مثل عَرَاقَاتِ وملكوت وما أشبه ذلك . وكان مجاهد وعيسى بن عمر وأبو عمرو بن العلاء والكسائي وابن كثير يقرأون عليها « هياه » بالهاء . وقد روى عن أبي عمرو أيضا أنه كان يقف على « هيات » بالهاء ، وعليه بقية الفراء لأنها حرف . قال ابن الأنباري . من جعلها حرفاً واحداً لا يفردها من الآخر ، وقف على الثاني بالهاء ولم يقف على الأول ؛ فيقول : هيات هياه ، كما يقول خمس عشرة ، هل ما تقدم . ومن نوى إفراد أحدهما من الآخر وقف فيهما جميعاً بالهاء والتاء ؛ لأن أصل الهمزة تاء .

قوله تعالى : إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ

بِعَبْدٍ ثَمِينٍ ﴿٢٧﴾

(١) الأعيان والفتح وكنان ، كلها مواضع . وفي بعض الأصول بدل « الأعيان » الأعيار . وكذا في النسخة  
أية . وفي مادة جيه « الأعراض » والكل مواضع .

قوله تعالى : ( إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا ) « هي » كناية عن الدنيا ؛ أى ما الحياة إلا ما نحن فيه لا الحياة الآخرة التى تمدنا بعد البعث . ( نموت ونحيا ) يقال : كيف قالوا نموت ونحيا وهم لا يقرون بالبعث ؛ ففى هذا أجوبة ؛ منها أن يكون المعنى : نكون مواتا ، أى نطفأ ثم نحيا فى الدنيا . وقيل : فيه تقديم وتأخير ؛ أى إن هى إلا حياتنا الدنيا نحيا فيها ونموت ؛ كما قال : « واسجدى واركنى » . وقيل : « نموت » بنى الآباء ، « ونحيا » بنى الأولاد . ( وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ) بعد الموت .

قوله تعالى : ( إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ) (١٥) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ (١٦) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ (١٧) فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبَعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١٨)

قوله تعالى : ( إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ) يفترون الرسول . ( إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى ) أى اختلق . ( عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ) . قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ (١٥) تقدم . ( قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ ) أى عن قليل ، و « ما » زائدة مؤكدة . ( لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ) على كفرهم ، واللام لام القسم ؛ أى والله ليصبحن . ( فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ ) فى التفاسير : صاح بهم جبريل عليه السلام صيحة واحدة مع الريح التى أهلكهم الله تعالى بها فاتوا عن آخرهم . ( فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً ) أى هلكى هامدين كغثاء السيل ، وهو ما يجعله من بالى الشجر من الحشيش والقصب مما يس ويس وقفت . ( فَبَعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ) أى هلاكا لهم . وقيل بدءا لهم من رحمة الله ؛ وهو منصوب على المصدر . ومثله سقاه ورعيا .

قوله تعالى : ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ (١٩) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَفْخِرُونَ (٢٠) ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلًّا مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولًا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بِهِ طَائِفًا مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَهُمُ الْغَوْرُ لَا يُؤْمِنُونَ (٢١)



قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَيْنِهِمْ ﴾ أى من بعد هلاك هؤلاء . ﴿ قُرُونًا ﴾ أى أجيالاً .  
 ﴿ آخَرِينَ ﴾ قال ابن عباس : يريد بنى إسرائيل ؛ وفى الكلام حذف : فكذبوا أنبياءهم  
 فاهلكوا . ﴿ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَهْلَهَا ﴾ « من » صلة ؛ أى ما تسبق أمة الوقت المؤقت لها  
 ولا تسخره ؛ مثل قوله تعالى : « فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَانِجُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ » . ومعنى  
 ﴿ تَتَرَى ﴾ تنوارى ، ويتبع بعضهم بعضاً ترغيباً وترهيباً . قال الأصبهني : وارتدت كتبى عليه أثبتت  
 بعضها بعضاً ؛ إلا أن بين كل واحد منها وبين الآخر مهلة . وقال غيره : المواترة التابع بغير  
 مهلة . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو « تَتَرَى » بالتثنية على أنه مصدر أدخل فيه التثنية على  
 فتح الراء ؛ كقولك : تَحَدَّ وشَكَرَا ؛ فالوقف على هذا على الألف المعوضة من التثنية .  
 ويعر ز أن يكون ملحقا بيجفر ، فيكون مثل أرطى وعلقى ؛ كما قال :  
 « يَسْتَقْنِ فِي عُلُقَى وَفَى مُكُورِ » .

فإذا وقف على هذا الوجه جازت الإمامة ، على أن يروى الوقف على الألف الملاحقة . وقرأ  
 ورث بين اللفظتين ؛ مثل سكرى وغضبي ، وهو اسم جمع ؛ مثل شتى وأسرى . وأصله  
 وتَرَى من المواترة والتواتر ، فقلبت الواو ناء ؛ مثل التقوى والتكلمان ونجها ونحوها . وقيل :  
 هو الوتر وهو الفرد ؛ فالمعنى أرسلناهم فرداً فرداً . النحاس : وعلى هذا يجوز « يَتَرَا » بكسر  
 التاء الأولى ، وموضعها نصب على المصدر ؛ لأن معنى « ثم أرسلنا » وارتنا . ويجوز أن  
 يكون ؛ في موضع الحال أى متوازين . ﴿ فَاتَّبَعْنَاهُمْ بِمَنْعِهِمْ بَعْضًا ﴾ أى بالهلاك . ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ  
 أَحَادِيثَ ﴾ جمع أحادثة وهى ما يتحدث به ؛ كأعاجيب جمع أعجوبة ، وهى ما يستعجب منه .  
 قال الأخفش : إنما يقال هذا فى الشر « جعلناهم أحاديث » ولا يقال فى الخير ؛ كما يقال :  
 صا فلان حديثاً . مرة ومثلاً ؛ كما قال فى أية أخرى : « جعلناهم أحاديثاً ومزقناهم كلَّ  
 مُمَزَّقَةٍ » .

قلت : وقد يقال فلان حديثٌ حسن ، إذا كان مقيداً بذلك ؛ ومنه قول ابن جرير :

وإنما المرء حديثٌ بسده . فكن حديثاً حسناً لمن وقى .

قوله تعالى : ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ <sup>(١٥)</sup>  
إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ۚ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ <sup>(١٦)</sup> فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ  
لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ <sup>(١٧)</sup> فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ  
الْمُهْلَكِينَ <sup>(١٨)</sup>

قوله تعالى : ( ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ) تقدم . ومعنى  
( عَالِينَ ) متكبرين قاهرين لغيرهم بالظلم ، كما قال تعالى : « إن فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ » .  
( فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا ) الآية ، تقدم أيضا . ومعنى ( مِنَ الْمُهْلَكِينَ ) أى بالفرق في البحر .

قوله تعالى : وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ <sup>(١٩)</sup>  
قوله تعالى : ( وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ ) بنى التوراة ، وخص موسى بالذكرا لأن  
التوراة أنزلت عليه في الطور ، وهارون خليفة في قومه . ولو قال « ولقد آتيناها » جاز ؛  
كما قال : « ولقد آتينا موسى وهارون التوراة » .

قوله تعالى : وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ  
ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ <sup>(٢٠)</sup>

قوله تعالى : ( وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً ) تقدم في « الأنبياء » القول فيه :  
( وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ) الربوة المكان المرتفع من الأرض ؛ وقد تقدم  
في « البقرة » . والمراد بها هاهنا في قول أبي هريرة فلسطين . وعنه أيضا الرملة ؛ وروى  
عن النبي صلى الله عليه وسلم . وقال ابن عباس وابن المسيب وابن سلام : دمشق . وقال كعب  
وقائدة : بيت المقدس . قال كعب : وهي أقرب الأرض إلى السماء بمقاييس عشرين ميلا . قال :  
فكنت هيمدا تحت رُمس بربرة . تَمَاورُوى رِيحٌ جَنُوبٌ وَشَمَالٌ

(١) راجع ج ٩ ص ٩٣ (٢) آية ٤ سورة النقص (٣) آية ٤٨ سورة الأنبياء .

(٤) راجع ج ١١ ص ٢٢٧ (٥) راجع ج ٣ ص ٣١٥

(٦) الرملة : مدينة عظيمة بفلسطين وكانت نصيبها قد نزلت الآن ، وكانت رباطا للعين .

وقال ابن زيد : مصر . وروى سالم الأنطس عن سعيد بن جبيرة « وكوياما إلى روبة »  
قال : للنز من الأرض . ( ذات قرار ) أى مستوية يستقر عليها . وقيل : ذات نمار ،  
ولأجل التمار يستقر فيها الساكنون . ( ومعين ) ماء جار طاهر للعيون . يقال : معين  
ومعن ، كما يقال : رغيف ورغف ، قلله على بن سليمان . وقال الزجاج : هو الماء الجارى  
في العيون ، فاليم على هذا رائدة كزيادتها في مبع ، وكذلك الميم زائدة في قول من قال إنه  
الماء الذي يرى بالعين . وقيل : إنه فعل بمعنى مفعول . قال على بن سليمان : يقال ممن  
الماء إذا جرى فهو معين ومعيون . ابن الأعرابي : ممن الماء بمن سحونا إذا جرى  
وسهل ، وأمن أيضا وأمنته ، ومياه مئنان

قوله تعالى : يَنَّايَا الرُّسُلُ كُلُّوْا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي  
بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى - روى الصحيح عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :  
« يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ »  
فقال « يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوْا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ » وقال تعالى  
« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُّوْا مِنْ خَيْرَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ » - ثم ذكر - الرجل طِيلَ السِّفَرِ أَشْمَتِ  
أَفْبَرِ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَارَبُّ يَارَبِّ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَشَرُّهُ حَرَامٌ وَطَبْعُهُ حَرَامٌ وَقُدِّي بِالْحَرَامِ  
فَلَيْ يَسْتَجِيبَ لَكَ » .

الثانية - قال بعض العلماء : والمخاطب في هذه الآية النبي صلى الله عليه وسلم ،  
وأنه أقامه مقام الرسل ، كما قال : « الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ » يعني نعيم بن مسعود . وقال

(١) هذه الآية من كلام الرضى ، والضمير في النبي صلى الله عليه وسلم . (٢) الرجل ، بالفتح مجيء ،  
بذكر كل وجه الحكمة من قلته سيد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويجوز أن يجب على أنه يقول « ذكر » .

(٣) راجع في ٤ ص ٢٧٩

الزجاج : هذه مخاطبة للنبي صلى الله عليه وسلم ، ودلّ الجمع على أن الرسل كلهم كانوا أمراء ، أى كلوا من الحلال . وقال الطبري : الخطاب لميسى عليه السلام ، روى أنه كان يأكل من غزل أمه . والمشهور عنه أنه كان يأكل من بقل البرية . ووجه خطابه لميسى ما ذكرناه من تقديره لمحمد صلى الله عليه وسلم تشريفاً له . وقيل : إن هذه المقالة خطوب بها كل نبي ؛ لأن هذه طريقهم التي ينبغي لهم الكون عليها . فيكون المعنى : وقلنا يا أيها الرسل كلوا من الطيبات ؛ كما نقول لتاجر : يا تاجر ينبغي أن يتجنبوا الربا ؛ فانت مخاطبه بالمعنى . وقد اقرن بذلك أن هذه المقالة تصاح لجميع صفته ، فلم يخاطبوا قط مجتمعين صلوات الله عليهم أجمعين ، وإنما خطوب كل واحد في عصره . قال الفراء : هو كما تقول للرجل الواحد : كُفُوا عَنَّا أَفْئَكُم .

الثالثة - سوى الله تعالى بين النبيين والمؤمنين في الخطاب بوجوب أكل الحلال وتجنب الحرام ، ثم شمل الكل في الوعيد الذي تضمنه قوله تعالى : «إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ» صلى الله عليه وسلم وأتباعه . وإنا كان هذا معهم فما ظن كل الناس بأنفسهم . وقد مضى القول في الطيبات والرزق في غير موضع ، والحمد لله . وفي قوله عليه السلام «يعد يديه» دليل على مشروعية مذهب الدين عند الدعاء إلى السبأ ، وقد مضى الخلاف في هذا والكلام فيه والحمد لله . وقوله عليه السلام «فَأَنِّي يَسْتَجِابُ لَذَلِكَ» هل جهة الاستعداد ؛ أى أنه ليس أملاً لإجابة دعائه لكن يجوز أن يستجيب الله له تفضلاً ولطفاً وكرماً .

قوله تعالى : وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّةٌ أَمَّتْكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٥٧﴾ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلٌّ حِزْبٌ مِمَّا لَنِيبِهِمْ قِرْحُونٌ ﴿٥٨﴾ فَلَرَّهْمُ فِي عَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ ﴿٥٩﴾

(١) راجع ج ١ ص ١٧٧ طبة ثانية أو ثالثة ، وج ٧ ص ١٩٨ طبة أول أو ثانية .

(٢) راجع ج ٧ ص ٢٢٢

فيه أربع مسائل :

الأول - قوله تعالى : ( وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ) والمعنى : هذا الذي تقدم ذكره هو دينكم وملككم فالقرينة . والأئمة هنا الذين ، وقد تقدم مجمله ، ومنه قوله تعالى : « إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ » أي على دين . وقال النابتة :

حلفت فلم أترك لنفسك ريباً . وهل ياتين ذواتية وهو طائع

الثانية - قرئ « وإن هذه » بكسر « إن » على القطع ، وبفتحها وتشديد النون . قال الخليل : هي في موضع نصب لمطرزال الخلفاء ، أي أنا عالم بأن هذا دينكم الذي أمرتكم أن تؤمنوا به . وقال الفراء : « إن » متعلقة بفعل مضمر تقديره : وأصلوا أن هذه أمتكم . وهي عند سيويه متعلقة بقوله « فأتقون » ، والتقدير فأتقون لأن أمتكم واحدة . وهذا كقوله تعالى : « وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا » ، أي لأن المساجد فلا تدعوا معه غيره . وكقوله : « لِإِبْرَاهِيمَ قُرَيْشٍ » أي فليبدوا رب هذا البيت لإبراهيم قریش . الثالثة - وهذه الآية تقوى أن قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ » إنما هو مخاطبة لجميعهم ، وأنه بتقدير حضورهم . وإذا قدرت « يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ » مخاطبة لمحمد صل الله عليه وسلم قلقت اتصال هذه الآية واتصال قوله « فتنظروا » . أما إن قوله « وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ » وإن كان قيل للأنبياء فأمهم داخلون فيه بالمعنى ، فيحسن بعد ذلك اتصال « فَتَنْظُرُوا » أي اتقوا ، يعني الأمم ، أي جملوا دينهم أديانا بعد ما أمروا بالاجتماع . ثم ذكر تعالى أن كلا منهم معجب برايه وضلته وهذا غاية الضلال .

الرابعة - هذه الآية تنظر إلى قوله صل الله عليه وسلم : « أَلَا إِنَّ مَن قَبْلَكُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أَفْرَقُوا عَلَى ثَلَاثِينَ وَسَبْعِينَ مَلَّةً وَإِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ سَتَفْرَقُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِائَةً وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ وَاحِدَةً فِي الْجَنَّةِ » الحديث . نوجه أبو داود ، ورواه (١) داجع ج ٢ ص ١٢٧ طبة ثانية وج ٢ ص ٣٠ طبة ألداد ثانية . (٢) آية ٢٢ وما بعدها سورة الزنوف . (٣) آية ١٨ سورة الجن . (٤) كذا في نسخ الأمل . والمعنى المراد واضح ، وهو أن هذا التقدير يفتقر ويقطع الاتصال بين الاثنين .

تُرْمَذَى وَزَادَ : قَالُوا وَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : « مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي » نَزَّجَهُ مِنْ حَلِيبٍ عِنْدَ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو . وَهَذَا يَبَيِّنُ أَنَّ الْإِتْرَاقَ الْمُحْذَرَةَ فِي الْآيَةِ وَالْحَلِيبُ إِنَّمَا هُوَ فِي أَصُولِ الْبَقَرِ وَنَوَاصِدِهِ ، لِأَنَّهُ قَدْ أُطْلِقَ عَلَيْهِ سَلَالًا ، وَأَخْبَرَنَا الْقَسْكَسِيُّ شَيْءٌ مِنْ تِلْكَ الْمَلَلِ . مُوجِبٌ لِمَنْحُولِ النَّارِ . وَمِثْلُ هَذَا لَا يُقَالُ فِي الْفُرُوعِ ، فَإِنَّهُ لَا يُوجِبُ تَعْدِيدَ الْمَلَلِ وَلَا عَذَابِ النَّارِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « لِكُلِّ جُنَاحٍ مِنْكُمْ شِرْعةٌ وَمِنْهَا جَاءَ » .

قوله تعالى : ( زُبْرًا ) يعني كتبنا وضموها وضلالات أقوها ، قاله ابن زيد . وقيل : إنهم فزفوا الكتب فأتبعت فرقة الصحف وفرقة التوراة وفرقة الزبور وفرقة الإنجيل ، ثم حُزِفَ الْكَلِّ وَبُدِّلَ ، قاله قتادة . وقيل : أخذ كل فريق منهم كتاباً آمناً به وكفر بما سواه . و « زُبْرًا » بضم الباء قراءة نافع ، جمع زبور . والأعشى وأبو عمرو بخلاف عنه « زُبْرًا » بفتح الباء ، أى قطعاً كقطع الحديد ، كقوله تعالى : « آتُونِي زُبْرَ الْحَدِيدِ » . ( كُلُّ حَزْبٍ ) أى فريقٍ ويلة . ( يَا آلِهَتِهِمْ ) أى عندهم من الدين . ( فِرْحُونَ ) أى معجبون به . وهذه الآية مثال لقريش خاطب بها صلى الله عليه وسلم في شأنهم متصلاً بقوله ( فَذَرَهُمْ فِي عُصْرَتِهِمْ ) أى فذر هؤلاء الذين هم بمنزلة من تقدم ، ولا يضيق صدرك بتأخير العذاب عنهم ، فكل شيء وقت . والنقرة في اللغة ما ينفرك ويملوك ، وأصله السرة ، ومنه النمر الحقد لأنه ينطى القلب . والنمر الماء الكثير لأنه ينطى الأرض . وعُصْرُ الرِّدَاءِ الذى يشمل الناس بالمعطاء ، قال :

عُصْرُ الرِّدَاءِ إِذَا تَبَسَّمَ ضَاحِكًا . فَخَلَّتْ لَصَحْحَكَتِهِ رِقَابُ الْمَالِ

المراد هنا الحية والنظلة والضلالة . ودخل فلان في غمار الناس ، أى في زحمتهم . وقوله تعالى : ( حَتَّى جِئَ ) قال جماعة : حتى الموت ، فهو تهديد لا توقيت ، كما يقال : سياتى لك يوم .

قوله تعالى : أَيْحْسِرُونَ أَلَمْ نَأْتِهمْ بِهِ مِنْ قَبْلُ وَبَيْنَنا نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦١﴾

قوله تعالى : ( اٰتٰىسُوْنًا مَّا تُدْعَمُ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ ) « ما » بمعنى الذى ؛ اى اٰتٰىسُوْنًا يعيد بان الذى نعطيه فى الدنيا من المال والأولاد هو ثواب لهم ، إنما هو استعراج وإعلاء ، ليس إسراعاً فى الخيرات . وفى خبر « أن » ثلاثة أقوال ، منها أنه محذوف . وقال الزجاج : المعنى يسارع لهم به فى الخيرات ، وحذفت به . وقال هشام الضرير قولاً دقيقاً قال : « أنما » هى الخيرات ، فصار المعنى : يسارع لهم فيه ، ثم أظهر فقال « فى الخيرات » ، ولا حذف فيه على هذا التقدير . ومذهب الكشاف أن « أنما » حرف واحد فلا يحتاج إلى تقدير حذف ، ويموز الوقف على قوله « وبين » . ومن قال « أنما » حرفان فلا بد من ضمير يرجع من الخيرات إلى اسم « أن » ولم يتم الوقف على « وبين » . وقال الشَّخِيائى : لا يحسن الوقف على « وبين » ؛ لأن « يحسبون » يحتاج إلى مفعولين ، فقام المفعولين « فى الخيرات » . قال ابن الأثير : وهذا خطأ ؛ لأن « أن » كافية من اسم أن خبرها ولا يجوز أن يؤق بعد « أن » بمفعول ثان . وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَمِىّ وعبد الرحمن بن أبى بكرة « يسارع » بالياء ، على أن يكون فاعله إمدادنا . وهذا يجوز أن يكون على غير حذف ؛ اى يسارع لهم الإمداد . ويجوز أن يكون فيه حذف ، ويكون المعنى يسارع الله لهم . وقرأ « يسارع لهم فى الخيرات » وفيه ثلاثة أوجه : أحدها على حذف به . ويجوز أن يكون يسارع الإمداد . ويجوز أن يكون « لهم » اسم ما لم يسم فاعله ، ذكره النحاس . قال المهلبى : وقرأ الحزى النحوى « تسرع لهم فى الخيرات » وهو معنى قراءة الجماعة . قال الخطبى : والصواب قراءة العامة ؛ لقوله « ندعم » . ( بَلْ لَا يَشْكُرُوْنَ ) أن ذلك فتنة لهم واستدراج .

قوله تعالى : اِنَّ الَّذِيْنَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُوْنَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِيْنَ هُمْ بِعَابِيَّتٍ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُوْنَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِيْنَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُوْنَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِيْنَ يُؤْتُوْنَ مَّا ءَاتَوْا وَقُلُوْبُهُمْ وَجِلَةٌ اَتَّهُمْ اِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُوْنَ ﴿٦٠﴾

قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ لما فرغ من ذكر الكمية وتوعدهم عقب ذلك بذكر المؤمنين المسارعين في الخيرات ووعدهم ، وذكر ذلك بأبلغ صفاتهم . و ﴿مُشْفِقُونَ﴾ خائفون وجلون مما خوفهم الله تعالى . ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ . وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ . وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ ﴿قال الحسن : يؤتون الإخلاص ويخافون ألا يقبل منهم . وروى الترمذى عن عائشة رضى الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية «والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجة» قالت عائشة : أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون ؟ قال : «لا يا بنت الصديق ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون وهم يخافون ألا يقبل منهم أولئك الذين يسارعون في الخيرات» . وقال الحسن : لقد أدركا أقواما كانوا من حسانتهم أن ترد عليهم أشفق منكم على سيئاتكم أن تصذبوا عليها . وقرأت عائشة رضى الله عنها وابن عباس والضحى «والذين يأتون ما أتوا» مقصورا من الإتيان . قال الفراء . ولو صححت هذه القراءة عن عائشة لم تخالف قراءة الجماعة ؛ لأن المذموم من العرب من يلزم فيه الألف في كل الحالات إذا كتب ؛ فيكتب سئل الرجل بألف بعد السين ، ويستترئون بألف بين الزاى والواو ، وشيء وشيء بألف بعد الياء ، فغير مستنكر في مذهب هؤلاء . أن يكتب «يؤتون» ألف بعد الياء ، فيحتمل هذا اللفظ بالبناء على هذا الخط قراءتين «يؤين ما أتوا» و «يأتون ما أتوا» . وينتد ما عليه الجماعة باحتال تأويلين : أحدهما — والذي يعطون ما أعطوا من الزكاة والصدقة وقلوبهم خائفة . والآخر — والذين يؤتون الملاحة الذين يكتبون الأعمال على العباد ما أتوا وقلوبهم وجة ؛ تحذف مفعول في هذا البار . لوضوح معناه ؛ كما حذف في قوله عز وجل : «فِيهِ يَمُتُ النَّاسُ وَفِيهِ يَبْعَثُونَ» المعنى يمضون السمع والعنب ؛ فاخترل المفعول لوضوح تأويله . ويكون الأصل في الحرف على هجائه الموجود في الإمام «يأتون» بألف مبدلة من المعزة فكتبت الألف



وأولاً لتأني حروف المد واللين في الخفاء ؛ حكاه ابن الأثيري . قال النحاس : المعروف من قراءة ابن عباس « والذين يأتون ما أتوا » وهي القراءة المروية عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن عائشة رضي الله عنها ، ومنها يعملون ما عملوا ؛ كما روى في الحديث . والوجه نحو الإشفاق والخوف ؛ فالتي والتائب خوفه أمر العاقبة وما يطلع عليه بعد الموت . وفي قوله ﴿ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاغِبُونَ ﴾ تنبيه على الخاتمة . وفي صحيح البخاري « وإنما الأعمال بالنيات » . وأما المخطئ فينبغي له أن يكون تحت خوف من أن يَفُذَّ عليه الوعيد بتخطئه . وقال أصحاب الخواطر : وبل العارف من طاعته أكثر وجلا من وجهه من مخافته ؛ لأن المخالفة تعدىها التوبة ، والطاعة تطلب بتصحيح الفرض . ﴿ أَنَّهُمْ ﴾ أي لأنهم ، أو من أجل أنهم إلى . بهم راجعون .

قوله تعالى : أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿١١﴾  
 نوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾ أي في الطاعات ، كي ينالوا بذلك أعلى الدرجات والنفقات . وقرئ « يُسْرِعُونَ » في الخيرات ، أي يكونوا سراعاً إليها . ويسارعون على معنى يسابقون من سابقهم إليها ؛ فالمفعول محذوف . قال الزجاج : يسارعون أبلغ من يسرعون . ﴿ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ أحسن ما قيل فيه : أنهم يسبقون إلى أوقاتها . ودل بهذا أن الصلاة في أول الوقت أفضل ؛ كما تقدم في « البقرة » . وكل من تقدم في شيء فهو سابق إليه ، وكل من تأخر عنه فقد سبقه وفاته ؛ فاللام في « لها » على هذا القول بمعنى إلى ؛ كما قال « بَأَنَّ رَبَّكَ أَوَّلُ لَهَا » أي أوحى إليها . وأنشد سيوريه :

تَجَانَّفَ عَنْ جَوْ الْإِسَامَةِ نَاقِي \* وَمَا قَصَدَتْ مِنْ أَهْلِهَا لَسَوَانِكَا

وعن ابن عباس في معنى « وهم لها سابقون » سبقت لهم من الله السعادة ؛ فذلك . وا في الخيرات ، وقيل : المعنى وهم من أجل الخيرات سابقون .

قوله تعالى : **وَلَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ** ﴿٣٢﴾

قوله تعالى : **( وَلَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا )** قد مضى في « البقرة » وأنه ناسخ لجميع ما ورد في الشرع من تكليف ما لا يطاق . **( وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ )** أظهر ما قيل فيه : إنه أراد كتاب إحصاء الأعمال الذي ترفعه الملائكة ؛ وأضافه إلى نفسه لأن الملائكة كتبت فيه أعمال العباد بأمره ، فهو ينطق بالحق . وفي هذا تهديد وتأييس من الحيف والظلم . ولفظ النطق يجوز في الكتاب ؛ والمراد أن التبيين تنطق بما فيه . والله أعلم . وقيل : معنى اللوح المحفوظ ، وقد أثبت فيه كل شيء ، فهم لا يحاوزون ذلك . وقيل : الإشارة بقوله « ولدينا كتاب » القرآن ، فانه أعلم ، وكل عمل والأول أظهر .

قوله تعالى : **بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَلٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمِلُونَ** ﴿٣٣﴾ **حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجِيءُ** ﴿٣٤﴾ **لَا يُجِيرُوا الْيَوْمَ أَنْكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ** ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : **( بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا )** قال مجاهد : أى في غطاء وغفلة وعمية عن القرآن . ويقال : غمره الماء إذا غطاه . ونهر غمر يغطى من دخله . ورجل غمر يغمره آراء الناس . وقيل : « غمرة » لأنها تغطى الوجه . ومنه دخل في غمار الناس وغمارهم ، أى فيما يظلمه من الجوع . وقيل : « بل قلوبهم في غمرة » أى في حيرة وعمى ؛ أى مما وصف من أعمال البر في الآيات المتقدمة ؛ قاله قتادة . أو من الكتاب الذى يطق بالحق . **( وَلَهُمْ أَعْمَلٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمِلُونَ )** قال قتادة ومجاهد : أى لهم خطايا لا بد أن يعملوها من دون الحق . وقال الحسن وابن زيد : المعنى ولم أعمال رديئة لم يعملوها من

(١) راجع به ٣ ص ٤٢٧ (٢) كذا في الأصول . والذى في كتب النسخة : « ورجل غمر وغمر » لا تجر به بحرب ولا أمر ، ولم تحنك التجارب .

دون ما هم عليه، لابد أن يعملوها دون أعمال المؤمنين، فيدخلون بها النار، لما سبق لهم من الشقوة. ويحمل ثالثاً - أنه ظلم الخلق مع الكفر بالخالق؛ ذكره الماوردي. والمعنى متقارب.

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمُ بِالْعَذَابِ ﴾ يعني باليف يوم بدر؛ قال ابن عباس . وقال الضحاك : يعني بالجوع حين قال النبي صلى الله عليه وسلم : "اللَّهُمَّ أَشَدَّ وطأكَ على مُضَرَّ اللَّهُمَّ اجعلها عليهم سين كسين يوسف" . فابتلاهم الله بالفقط والجوع حتى أكلوا العظام والميتة والكلاب والجيف ، وهلك الأموال والأولاد . ﴿ إِذَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ أي يضيئون ويستغيثون . وأصل الجؤار رفع الصوت بالتضرع كما يفعل الثور . وقال الأعشى يصف بقرة :

فطافت ثلاثاً بين يوم وليلة • وكان الكيران تضيف وتجارا

قال الجوهري : الجؤار مثل الخوار؛ يقال : جأر الثور يجأر أي صاح . وقرأ بعضهم «عجلاً جَسَدًا لَهُ جؤار» حكاه الأخفش . وجأر الرجل إلى الله عز وجل تضرع بالدعاء . قتادة : يهرعون بالتوبة فلا تقبل منهم . قال :

يرواح من صلوات المليك • فطؤراً مجوداً وطؤراً جؤاراً

وقال ابن جريج : «حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب» هم الذين قتلوا هدر «إذا هم يحزنون» هم الذين بكوا ؛ بجمع بين القواين المتقدمين ، وهو حسن . ﴿ لَا تَجَارُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنْهُ ﴾ أي من عذابنا . ﴿ لَا تَتَصَرَّوْنَ ﴾ لا تمنون ولا يتفعم بزعكم . وقال الحسن : لا تصرون بقبول التوبة . وقيل : معنى هذا النهي الإغياؤ أي إنكم إن تضرعتم لم يتفعم .

قوله تعالى : قَدْ كَانَتْ آيَاتِي عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ آعْيَكُمْ

تَنكِصُونَ ﴿١٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سِمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُنْشَلِّ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تُنْكِبُونَ ﴾ (الآيات يريد بها القرآن . ﴿ تُنْشَلِّ عَلَيْكُمْ ﴾ أى قرأ . قال الضحاك : قبل أن تذبذبا بالقتل و ﴿ تُنْكِبُونَ ﴾ ترجعون وراءكم . مجاهد : تستأخرون؛ وأصله أن ترجع القهقري . قال الشاعر :

زعموا بأنهم على سبيل النجا • • وإنا أنكص على الأعقاب

وهو هنا استعارة للإعراض عن الحق . وقرأ علي بن أبي طالب رضى الله عنه « على أدباكم » بدل « على أعقابكم » ، « تنكصون » بضم الكاف . و ﴿ مُسْتَكْبِرِينَ ﴾ حال ، والله يرفى به « قال الجمهور : هو عائد على الحرم أو المسجد أو البلد الذى هو مكة ، وإن لم يتقدم له ذكر لشهرته فى الأمر ؛ أى يقولون نحن أهل الحرم فلا نخاف . وقيل : المعنى أنهم يستقدون فى نفوسهم أن لم بالمسجد والحرم أعظم الحقوق على الناس والمنازل ؛ فيستكبرون لذلك ، وليس الاستكبار من الحق . وقالت فرقة : الضمير عائد على القرآن من حيث ذكرت الآيات ؛ والمعنى : يُحدث لكم سماع آياتي كبرا وطغيانا فلا تؤمنوا به . قال ابن عطية : وهذا قول جيد . النحاس : والقول الأول أولى ، والمعنى : أنهم يستخرون بالحرم ويقولون نحن أهل حرم الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ سَآئِرًا تَهْجُرُونَ ﴾ فيه أربع مسائل .

الأولى - قوله تعالى : ﴿ سَآئِرًا تَهْجُرُونَ ﴾ « سائرا » نصب على الحال ، ومعناه ستمارا . وهو الجماعة يتحدثون بالليل . مأخوذ من السمر وهو طل القمر ؛ ومنه ثمرة اللوز . وكانوا يتحدثون حول الكعبة فى سمر القمر ؛ فسعى النحدر به . قال الثوري : يقال لظل القمر سمر ، ومنه السمر في اللوز . ويقال له : القمعة ؛ ومنه قيل فاختة . وقرأ أبو رجاء « ستمارا » وهو جمع سامر ؛ كما قال :

• أَلَسْتَ تَرَى لِلشَّامِ وَالنَّاسِ أحوال <sup>(١)</sup> .

(١) فى الأصول : « أنهم » وليت لا يبين إلا بدخول الباء ، ومنه ما زائدة ؛ كقول الباقية :

• زَمِ النَّدَّافَ يَأْتِ رَحْطًا عدا

(٢) هذا بمن بيت لامرئ القيس - ومصدره :

• قَالَتْ سَبَّكَ اللَّهُ إِنَّكَ قَاضٍ •

وفي حديث قسيلة : إذا جاء زوجها من السامر ؛ يعني من القوم الذين يسمرون بالليل ، فهو أسم مفرد بمعنى الجمع ، كالخاضروهم القوم النازلون على الماء ، والباقر جمع البقر ، والجامل جمع الإبل ، ذكورتها وإناثها ؛ ومنه قوله تعالى : « ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً » أى أطفالاً . يقال : قوم سمرو سمرو وسامر ، ومعناه سمر الليل ، مأخوذ من السمر وهو ما يقع على الأشجار من ضوء القمر . قال الجوهري : السامر أيضا السمار . وهم القوم الذين يسمرون ؛ كما يقال للحاج حجاج ، وقول الشاعر .

• وسامر طال فيه الأهو والسمر •

كانه سمي المكان الذي يجمع فيه للسمر بذلك . وقيل : وحد سامرا وهو بمعنى السمار ؛ لأنه وضع موضع الوقت ، كقول الشاعر :

بين دونهم إن جنتهم سمرا • عزف القيان ويميلن غمر

نقال : سمرا ، لأن معناه : إن جنتهم ليلا وجنتهم وهم يسمرون . وأبنا سيمر : الليل والنهار ؛ لأنه يسمر فيهما ، يقال : لا أنفسله ما سمر أبنا سيمر أبدا . ويقال : السمر الدهر ، وأبناؤه الليل والنهار . ولا أنفسله السمر والقمر ؛ أى ما دام الناس يسمرون في ليلة قراءه . ولا أنفسله سيمر الليالي . قال الشفري :

هناك لا أرجو حياة تُسرني • سيمر الليالي بسلا بالجرار

والسمار ( بالفتح ) اللبن الرقيق . وكانت العرب تجلس للسمر تحدث ، وهذا أوجب معرفتها بالنجوم ؛ لأنها تجلس في الصحراء فترى الطوالع من النواوب . وكانت قريش تسمر حول الكعبة يجالس في أباطيلها وكفرها ، فباهم الله بذلك . و « تهجرون » قرئ بضم التاء وكسر الجيم من أجهر ، إذا طلق بالفحش . وينصب التاء وضم الجيم من تجهر المريض إذا هدأ . ومعناه : يتكلمون بهوس وسيئ من القول في النبي صلى الله عليه وسلم وفي القرآن ؛ عن ابن عباس وغيره .

الثانية - روى سعيد بن جبيرة عن ابن عباس قال : إنما كره السمر حين نزلت هذه الآية « متكبرين » سامرا تهجرون ؛ يعني أن الله تعالى ذم أقواما يسمرون في غير

طاعة الله تعالى ، إما في هَذَبَان وإما في إِذَايَة . وكان الأعمش يقول : إذا رأيت الشيخ ولم يكتب الحديث فاصممه فإنه من شيوخ القمر ؛ يعني يمتعون في ليالي القمر فيتحدثون بأيام الخلفاء والأمراء ولا يحسن أحدهم يتوضأ للصلاة .

الثالثة - روى مسلم عن أبي بَرْزَةَ قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يؤخر المشاء إلى ثلث الليل ويكره النوم قبلها وأُخْدِثَ بعدها . قال العلماء : أما الكراهية للنوم قبلها فثلاثا يترضا للقوات عن كل وقتها أو أفضل وقتها ؛ ولهذا قال عمر : فمن نام فلا نامت عينه ؛ ثلاثا . وممن كره النوم قبلها عمر وأبنته عبد الله وابن عباس وغيرهم ، وهو مذهب مالك . ورخص فيه بعضهم ، منهم علي وأبو موسى وغيرهم ؛ وهو مذهب الكوفيين . وشرط بعضهم أن يعمل معه من يوقطه للصلاة . وروى عن ابن عمر مثله ، وإليه ذهب الطحاوي . وأما كراهية الحديث بعدها فلا لأن الصلاة قد كُفِّرَتْ خطاياها فينام على سلامة ، وقد ختم الكتاب صحيفته بالبادة ؛ فَإِنْ هَوَّيْتُمْ وَتَحَدَّثْتُمْ فَمَلَأُوهَا بِالْمَوْتِ وَيَعْمَلُ خَاتَمُهَا اللَّذْوُ وَالْبَاطِلُ ، وليس هذا من فعل المؤمنين . وأيضا فإن السمر في الحديث مظنة غلبة النوم آخر الليل فينام عن قيام آخر الليل ، وربما ينام عن صلاة الصبح . وقد قيل : إنما يكره السمر بعدها لما روى جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لِمَا كُمُ السَّمَرُ بَعْدَ هَذِهِ الرَّحْلِ فَإِنْ أَحَدُكُمْ لَا يَدْرِي مَا يَأْتِي اللَّهُ تَعَالَى مِنْ خَلْقِهِ أَغْلِقُوا الْأَبْوَابَ وَأَوْكُوا السَّقَاةَ وَتَحَرَّوْا الْإِنَاءَ وَأَطْفِئُوا الْمَصَابِيحَ » . وروى عن عمر أنه كان يضرب الناس على الحديث بعد المشاء ، ويقول : أسمرا أوّل الليل ونوما آخره ! أريحوا نكباتكم . حتى أنه روى عن ابن عمر أنه قال : من قرض بيت شعر بعد المشاء لم تقبل له صلاة حتى يصبح . وأسند شقاديّ أَوْسَ إلى النبي صلى الله عليه وسلم . وقد قيل : إن الحكمة في كراهية الحديث بعدها إنما هو لما أن الله تعالى جعل الأبل سَكَنًا ، أى يسكن فيه ، فإذا تحدث الإنسان فيه فقد جعله في النهار الذي هو متصرف المباش ؛ فكانه قصد إلى مخالفة حكمة الله تعالى التي أجرى عليها وجوده فقال « وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِيَأْسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ تُسْوَرًا » .

الرابعة - هذه الكراهة إنما تختص بما لا يكون من قبيل القرب والأدكار، بتدعيم العلم، ومسامحة الأهل بالعلم، وتعليم المصالح وما شابه ذلك؛ فقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن السلف ما يدل على جواز ذلك، بل على نديته. وقد قال البخاري: (باب السمر في الفقه والخير بعد العشاء) وذكر أن قُتَيْبَةَ بن خالد قال: انتظرنا الحسن وراث<sup>(١)</sup> علينا حتى جاء قريبا من وقت قيسامه، فجاء فقال: دعانا جيراننا هؤلاء. ثم قال أنس: انتظرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة حتى كان شطر الليل فجاء فصل ثم خطبنا فقال: "إن الناس قد صلّوا وإنكم لم تزالوا في صلاة ما انتظرتهم الصلاة". قال الحسن: فإن القوم لا يزالون في خير ما أنتظروا الخير. قال: (باب السمر مع الضيف والأهل) وذكر حديث أبي بكر بن عبد الرحمن أن أصحاب الصفة كانوا قسراء... الحديث. أخرجه مسلم أيضا. وقد جاء في حراسة الثور وحفظ السكار بالليل من الثواب الجزيل والأجر العظيم ما هو مشهور في الأخبار. وقد مضى من ذلك جملة في آخر «آل عمران» والمجد لله وحده.

قوله تعالى: أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمْ

الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾

قوله تعالى: (أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ) يعني القرآن؛ وهو كقوله تعالى: «أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ»<sup>(٢)</sup>. وسمى القرآن قولا لأنهم خوطبوا به. (أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ) فانكروه وأعرضوا عنه. وقيل: «أم» بمعنى بل؛ أي بل جاءهم ما لا عهد لأبائهم به، فذلك أنكروه وتركوا التدبر له. وقال ابن عباس: وقيل المعنى أم جاءهم أمان من العذاب، وهو شيء لم يأت آبائهم الأولين فتركوا الأعرز.

قوله تعالى: أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُمْ مُنْكَرُونَ ﴿٣٩﴾

(١) راث: أبطأ. (٢) راجع ج ٤ ص ٢٢٢ وما بعدها. (٣) آية ٨٢ سورة النساء.

هذا تسعمله العرب على معنى التوقيف والتتبع ، فيقولون : الخير أحب إليك أم الشر ؛ أى قد أخبرت الشر فتجبه . وقد عرفوا رسولهم وأنه من أهل الصدق والأمانة ؛ ففى اتباعه النجاة والخير لولا اللّنت . قال سبيان : بل ! قد عرفوه ولكنهم حسدوه !

قوله تعالى : **أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَكَثُرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ** (٧٠)

قوله تعالى : ( **أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ** ) أى أم يدعون فى ترك الإيمان به بأنه مجنون ، فليس هو هكذا ! لزوال أمارات الجنون عنه . ( **بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ** ) يعنى القرآن والتوحيد الحق والذين الحق . ( **وَأَكْثَرُهُمْ** ) أى أكثرهم ( **لِلْحَقِّ كَارِهُونَ** ) حسدا وبغيا وتقليدا .

قوله تعالى : **وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ** (٧١)

قوله تعالى : ( **وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ** ) « الحق » هنا هو الله سبحانه وتعالى ؛ قاله الأكثرون ، منهم مجاهد وابن حريج وأبو صالح وغيرهم . وتقديره فى العربية : ولو اتبع صاحب الحق ؛ قاله النحاس . وقد قيل : هو مجاز ، أى لو وافق الحق أهواهم ؛ فحمل موافقته اتباعا مجازا ؛ أى لو كانوا يكفرون بالرسول ويعصون الله عز وجل ثم لا يعاقبون ولا يحاسبون على ذلك إنا نجزيهم وإنا جهلا لفست السموات والأرض . وقيل : المعنى ولو كان الحق ما يقولون من اتخاذ آلهة مع الله تعالى لتنافت الآلهة ، وأراد بعضهم ما لا يريد بعض ، فاضطرب التدبير وفست السموات والأرض ، وإذا فسدنا فسد من فيهما . وقيل : « لو اتبع الحق أهواهم » أى بما يهواه الناس ويشتهونه ليطل نظام العالم ؛ لأن شهوات الناس تختلف وتتضاد ، وسبيل الحق أن يكون متبوعا ، وسبيل الناس الانقياد للحق . وقيل : « الحق » القرآن ؛ أى لو تزل القرآن بما يحبون لفست السموات والأرض . ( **وَمَنْ فِيهِنَّ** ) إشارة إلى من يعقل من ملائكة السموات وإنس الأرض وحياتها المأوردي . وقال الكلبي : يعنى وما بينهما من



خلق ؛ وحى قراءة ابن مسعود « نفسدت السموات والأرض وما بينهما » . فيكون على تأويل الكليّ وقراءة ابن مسعود محولا على فساد من يعقل وما لا يعقل من حيوان وجماد . وظاهر التذييل في قراءة الجمهور يكون محولا على فساد ما يعقل من الحيوان ؛ لأن ما لا يعقل تابع لما يعقل في الصلاح والفساد ، فعلى هذا ما يكون من الفساد يعود على من في السموات من الملائكة بأن جعلت أربابا وهي مبرورة ، وعُبدت وهي مستعبدة . وفساد الإنس يكون على وجهين : أحدهما — باتباع الهوى ، وذلك مهلك . الثاني — بعبادة غير الله ، وذلك كفر . وأما فساد ما عدا ذلك فيكون على وجه التبع ؛ لأنهم مدبرون بنوى العقول فعاد فساد المدبرين ما بهم .

قوله تعالى : ( يَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ ) أى بما فيه شرفهم وعزمهم ؛ قاله السدي وسفيان . وقال قتادة : أى بما لهم فيه ذكر ثوابهم وعقابهم . ابن عباس : أى بيان الحق وذكر ما له به حاجة من أمر الدين . ( فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ) .

قوله تعالى : أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا نَخْرَاجُ رِبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ( أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا ) أى أجرا على ما جنتهم به ؛ قاله الحسن وغيره . ( نَخْرَاجُ رِبِّكَ خَيْرٌ ) وقرا حمزة والكسائي والأعمش ويحيى بن وثاب « خراجا » بالفتح . الباقون بغير ألف . وكلهم قد قرعوا « نخرجا » بالألف إلا ابن عاصم وأبا حيوة فإنهما قرأا بغير الألف . والمعنى : أم تسألهم رزقا فرزق ربك خير . ( وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ) أى ليس يقدر أحد أن يرزق مثل رزقه ، ولا يُنعم مثل إنعامه . وقيل : أى ما يؤتيك الله من الأجر على طاعتك له والدعاء إليه خير من عرض الدنيا ، وقد عرضوا عليك أموالهم حتى تكون كاعين وجل من قريش فلم تجبهم إلى ذلك ؛ قال معناه الحسن . والنخرج والنخراج واحد ، إلا أن اختلاف الكلام أحسن ؛ قاله الأخفش . وقال أبو حاتم : النخرج الجعل ، والنخراج العطاء .

المبرد : الخرج المصدر ، والخراج الأسم . وقال الضر بن شميل : سألت أبا عمرو بن العلاء عن الفرق بين الخرج والخراج فقال : الخراج ما زهك ، والخرج ما تبرعت به . وعنه أن الخرج من الرقاب ، والخراج من الأرض . ذكر الأول العلوي والثاني الماوردي .

قوله تعالى : وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَيِّبُونَ ﴿٧٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ : أى إلى دين قويم . والصراط فى اللغة الطريق ؛ فسمى الدين طريقا لأنه يؤدى إلى الجنة فهو طريق إليها . ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾ أى بالبعث . ﴿ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَيِّبُونَ ﴾ : قيل : هو نسل الأول . وقيل : إنهم عن طريق الجنة لن يكون حتى يصيروا إلى الدار . نكب عن الطريق ينكب نكوبا إذا عدل عنه ومال إلى غيره ؛ ومنه نكبت الريح إذا لم تستقم على مجرى . ونثر الريح النجاء .

قوله تعالى : وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ ﴾ أى لو رددناهم إلى الدنيا ولم ندخلهم النار وأمتحناهم ﴿ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ ﴾ قال السدى : فى معصيتهم . ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ قال الأعمش : يترددون . وقال ابن جريج : « ولو رحمتهم » بنى فى الدنيا « وكشفنا ما بهم من ضر » أى من حلق وجوع « لَجُّوا » أى لسادوا « فِي طُغْيَانِهِمْ » وضلاتهم وتجاوزهم الحد « يَعْمَهُونَ » يتذبذبون ويخبطون .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَتَذَرُهُمْ بِالْعَذَابِ ﴾ قال الضحاك : بالجوع . وقيل : بالأمراض والحاجة والجوع . وقيل : بالقتل والجوع . ﴿ وَمَا اسْتَكَانُوا لِلرَّبِّمْ ﴾ أى ما خضعوا . ﴿ وَمَا يَنْتَفِعُونَ ﴾ أى ما ينفعون الله عز وجل في الشدائد تصييم . قال ابن عباس : نزلت في قصة ثمامة بن أثال لما أسرته السرية وأسلم وحتى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبيله ، حال بين مكة وبين الميرة وقال : والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأخذ الله قريشا بالقحط والجوع حتى أكلوا الميتة والكلاب والعليز ؛ قيل وما العليز ؟ قال : كانوا يأخذون الصوف والوبر فيلونه بالدم ثم يشوونه ويأكلونه . فقال له أبو سفيان : أنشدك الله والرحم ! أليس تزعم أن الله بعثك رحمة للعالمين ؟ قال " بل " . قال : فوالله ما أراك إلا قتل الآباء بالسيف ، وقتلت الأبناء بالجوع ، أقول قوله « وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَجِئُوا فِي غُلْيَانِهِمْ بِعَمَهُونَ » .

قوله تعالى : حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾

قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ قال عكرمة : هو باب من أبواب جهنم ، عليه من الخزنة أربعة آلاف ، سود وجوهم ، كاللغة أنيابهم ، قد قُلت الرحمة من قلوبهم ، إذا بلغوه فتحه الله عز وجل عليهم . وقال ابن عباس : هو قتلهم بالسيف يوم بدر . مجاهد : هو القحط الذي أصابهم حتى أكلوا العليز من الجوع ؛ على ما تقدم . وقيل فتح مكة . ﴿ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ أى يأسون متحيرين لا يدرون ما يصنعون ، كالآيس من الفرج ومن كل خير . وقد تقدم في « الأنعام » .

قوله تعالى : وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ ۖ عَرَفْتُمْ كَثْرَةَ نِعْمِهِ وَكَأَلِ قَدْرِهِ .  
 ﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ ) أى ما تشكرون إلا شكرا قليلا . وقيل : أى لا تشكرون البتة .

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ ٨٦  
 قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ ) أى أنشاكم وبنيكم وخلقكم . ﴿ وَإِلَيْهِ  
 تُحْشَرُونَ ﴾ ) أى يجمعون للجزاء .

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ  
 أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ٨٧ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ٨٨ قَالُوا أَأُفَاةً أَوْ أَتَمْنَاةً  
 وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَوْنَا لَمَعْبُودُونَ ٨٩ لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا  
 مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ٩٠ قُلْ لَعِنَ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا  
 إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ٩١ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٩٢ قُلْ مَنْ رَبُّ  
 السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ٩٣ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا  
 تَتَّقُونَ ٩٤ قُلْ مَنْ يَدْعُو مَلَائِكَةَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ  
 إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ٩٥ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنِّي تُسْحَرُونَ ٩٦

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ ) أى جعلهما  
 غنائمين ، كقولك : لك الأجر والصلوة ، أى إنك تؤجر وتوصل ، قاله الفراء . وقيل :  
 اختلافهما نقصان أحدهما وزيادة الآخر . وقيل : اختلافهما في النور والظلمة . وقيل :  
 تكرهما يوما بعد ليلة وليلة بعد يوم . ويحتمل خامسا : اختلاف ما مضى فيهما من سعادة  
 وشقاء وضلال وهدى . ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ) كنه قدرته وربوبيته ووحدانيته ، وأنه لا يجوز  
 أن يكون له شريك من خلقه ، وأنه قادر على البعث . ثم عيرهم بقولهم وأخبر عنهم أنهم

قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ . قَالُوا أَإِنذَارًا وَنَذَارًا وَعِظَانًا أَيْنَا لِمَجْعُوتُونَ ) هذا لا يكون ولا يتصور . ( لَقَدْ وَعِدْنَا نَحْنُ وَأَبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ ) أى من قبل عيسى . محمد صلى الله عليه وسلم ، فلم نزله حقيقة . ( إِنْ هَذَا ) أى ما هذا ( إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ) أى أباطيلهم وزهاتهم ؛ وقد تقدم هذا كله . قال الله تعالى : ( قُلْ ) يا محمد جواباً لم عما قالوه ( لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا ) يخبر بربوبيته ووحدانيته وملكوته الذى لا يزول ، وقدرته التى لا تحول ؛ فـ ( سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ) . ولا بد لهم من ذلك . فـ ( خُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ) أى أفلا تتفكرون وتعلمون أن من قدر على خلق ذلك ابتداء فهو على إحياء الموتى بعد موتهم قادر . ( قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ) يريد أفلا تحافون حيث تجمعون لى ما تكرهون ؛ زعمتم أن الملائكة بناتى ، وكرهتم لأنفسكم البنات . ( قُلْ مَنْ يَدِينُ مَلَكُوتَ كُلِّ شَيْءٍ ) يريد السموات وما فوقها وما بينهن ، والأرضين وما تحتهن وما بينهن ، وما لا يعلمه أحد إلا هو . وقال مجاهد : « ملكوت كل شيء » خزائن كل شيء . الضمماك : ملك كل شيء . والمملكوت من صفات المبالغة كالجبروت والرهبوت ؛ وقد مضى فى « الأعمام » . ( وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ) أى يمنع ولا يمنع منه . وقيل : « يجير » يؤمن من شاء . « ولا يجار عليه » أى لا يؤمن من أخافه . ثم قيل : هذا فى الدنيا ؛ أى من أراد الله إهلاكه وخوفه لم يمنعه منه مانع ، ومن أراد نصره وأمنه لم يدفعه من نصره وأمنه دافع . وقيل : هذا فى الآخرة ؛ أى لا يمنعه من مستحق الثواب مانع ولا يدفعه عن « استوجبه العذاب دافع » . ( فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ) أى فكيف تخدعون وتصرفون عن طاعته وتوجيهه . أو كيف يتخيل إليكم أن تشركوا به ما لا يضر ولا ينفع ! والسر هو التخيل . وكل هذا احتجاج على العرب المقرين بالصانع . وقرأ أبو عمرو « سيقولون الله » فى الموضعين الأخيرين ؛ وهى قراءة أهل العراق . الباقون « لله » ، ولا خلاف فى الأول أنه « لله » ؛ لأنه جواب لهقل لمن الأرض ومن فيها » فلما تقدمت اللام فى « لمن » رجعت فى الجواب . ولا خلاف أنه

مكتوب في جميع المصاحف بغير ألف . وأما من قرأ «سيقولون الله» فلان السؤال بغير لام  
بذاء الجواب على لفظه ، وجاء في الأول « الله » لما كان السؤال باللام . وأما من قرأ « الله »  
باللام في الأخيرين وليس في السؤال لام فلأن معنى « قل من رب السموات السبع ورب  
العرش العظيم » : قل لمن السموات السبع ورب العرش العظيم . فكان الجواب « الله » ؛ حين  
قذرت اللام في السؤال . وعلة الثالثة كلمة اثنائية . وقال الشاعر :  
إذا قبل من رب المزالف والقرى • ورب الجياد الجرد قلت لخالد<sup>(١)</sup>  
أى لمن المزالف .

ودلت هذه الآيات على جواز جدال الكفار في إقامة الحجة عليهم . وقد تقدم في «البقرة» .  
ونبّهت على أن من ابتدأ بالخلق والاعتراع والإيجاد والإبداع هو المستحق للألوهية والعبادة .

قوله تعالى : ﴿ بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ  
مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ  
بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ﴿ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ  
فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

قوله تعالى : ﴿ بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ ﴾ أى بالقول الصدق ، لا ما نقوله الكفار من إثبات  
الشريك ونفى البعث . ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ أن الملائكة بنات الله . فقال الله تعالى :  
﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ ﴾ « من » صلة . ﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ ﴾ « من » زائدة ؛ والتعدير ؛  
ما اتخذ الله ولدا كما زعمتم ، ولا كان معه إله فيما خلق . وفي الكلام حذف ؛ والمعنى : لو كانت  
معه آلهة لأفرد كل إله بخلقه . ﴿ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ أى ولنساب وطلب القوى  
الضعيف كالمادة بين الملوك ، وكان الضعيف المناوب لا يستحق الإلمية . وهذا الذى يدل  
على نفي الشريك يدل على نفي الولد أيضا ؛ لأن الولد ينازع الأب في الملك منازعة الشريك .

(١) المراتف : القرى التى من البر والبحر ، الواحدة مزلة . والأجرد من الحيل والدواب ؛ التصغير الشعر .

(سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ) تزيها له عن الولد والشرىك . (عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ تَعَالَى) عَمَّا يُشْرِكُونَ) تزيه وتقديس . وقرأ نافع وأبو بكر وحمزة واليكافى « عالم » بالرفع مل الاستثاف ؛ أى هو عالم الغيب . الباقون بالجر على الصفة لله . وروى رويس عن يعقوب « عالم » إذا وصل خفضا . و « عالم » إذا ابتدا رفعاً .

قوله تعالى : قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيدُنِي مَا يُوعَدُونَ ﴿١٦٧﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي

فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٦٨﴾

عَلَيْهِ مَا يَدْعُوهُ ؛ أى قل رب ، أى يارب إن أريدنى ما يوعدون من العذاب . (فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) أى فى نزول العذاب بهم ، بل أخرجنى منهم . وقيل : النداء معترض ؛ و « ما » فى « إِمَّا » زائدة . وقيل : إن أصل إمّا إن ما ؛ ف « إن » شرط و « ما » شرط ، فجمع بين الشرطين توكيدا ، والجواب « فلا تجعلنى فى القوم الظالمين » ؛ أى إذا أردت بهم عقوبة فأخرجنى منهم . وكان عليه السلام يعلم أن الله تعالى لا يجعله فى القوم الظالمين إذا نزل بهم العذاب ، ومع هذا أمره الرب بهذا الدعاء والسؤال لعظم أجره ويكون فى كل الأوقات ذاكرة للرب تعالى .

قوله تعالى : وَإِنَّا عَلَى أَنْ تَرْيِكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَلِيلُونَ ﴿١٦٩﴾

نبه على أن خلاف المعلوم مقدور ، وقد أراه الله تعالى ذلك فيهم بالجووع والسيف ، ونجاة الله ومن آمن به من ذلك .

قوله تعالى : أَدْفَعْ يَأْتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ تَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿١٧٠﴾

قوله تعالى : (أَدْفَعْ يَأْتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ) أمر بالصفع ومكارم الأخلاق ؛ فإكان منها لهذه الأمة فيما بينهم فهو محكم باق فى الأمة أبدا . وما كان فيها من موادعة الكفار وتزك التعرض لهم والصفع عن أمورهم فنسوخ بالقتال . (تَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ) أى من الشرك والكذب . وهذا يقتضى أنها آية - وادعة ، والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٥٧﴾ وَأَعُوذُ

بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونَ ﴿٥٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴾ فيه مستثنان :

الأول - قوله تعالى : ﴿ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴾ الهمزات هي جمع همزة . والهمز في اللغة النخس والنفخ ؛ يقال : همزته ولمزه ونخسه دفعه . قال الليث : الهمز كلامٌ من وراء القفا ، والألز مواجهة . والشيطان يوسوس فيمسه في وسواسه في صدر ابن آدم ؛ وهو قوله : « أعوذ بك من همزات الشياطين » أي نزغات الشياطين المشاغلة عن ذكر الله تعالى . وفي الحديث : كان يتعوذ من همز الشيطان ولمزه وهمه . قال أبو الهيثم : إذا أسر الكلام وأغفاه فذلك الهمس من الكلام . وصي الأسد قهوسا ؛ لأنه يمشي بخفة فلا يسمع صوت وطه . وقد تقدم في « طه » .

الثانية - أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بالتعوذ من الشيطان في همزاته ، وهي سورات الغضب التي لا يملك الإنسان فيها نفسه ، وكأنها هي التي كانت نصيب المؤمنين مع الكفار ففزع المحادة فذلك اتصلت بهذه الآية . فالنزغات وسورات الغضب الواردة من الشيطان هي المتعوذ منها في الآية ؛ وقد تقدم في آخر « الأعراف » بيانه مستوفى ، وفي أول الكتاب أيضا . وروى عن علي بن حرب بن محمد الطائي حدثنا سفيان عن أيوب عن محمد بن حبان أن خالدا كان يؤرق من الليل ؛ فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ، فأمره أن يتعوذ بكلمات الله التامة من غضب الله وعقابه ومن شر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون . وفي كتاب أبي داود قاله عمر : وتمرز السوء ؛ قال ابن ماجه : الموتة يعني الجنون . والتعوذ أيضا من الجنون ويكيد . وفي قراءة أبي « رَبِّ عَانِقًا بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ، وَعَانِقًا بِكَ أَنْ يَحْضُرُونَ » ؛ أي يكرهوا معنى في أموري ،

(١) راجع ١١ ص ٢٤٧ طبة أول أو ثانية . (٢) راجع ٧ ص ٢٤٧

(٣) راجع ١ ص ٨٦ طبة ثانية أو ثالثة .



فإنهم إذا حضروا الإنسان كانوا معدين للهمز ، وإذا لم يكن حضور فلا همز . وقد صحح مسلم من جابر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الشيطان يخضر أحدكم عند كل شيء من شأنه حتى يحضره عند طعامه فإذا سقطت من أحدكم اللقمة فليطأ ما كان بها من أذى ثم ليأكلها ولا يدعها للشيطان فإذا فرغ فليلق أصابعه فإنه لا يدري في أي طعامه البركة » .

قوله تعالى : **حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ۝۱۱۱ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝۱۱۲**

قوله تعالى : ( حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ) عاد الكلام إلى ذكر المشركين ، أى قالوا « أنما منا - إلى قوله - إن هذا إلا أساطير الأولين » ، ثم احتج عليهم وذكّرهم قدرته على كل شيء ، ثم قال هم مصرّون على ذلك حتى إذا جاء أحدهم الموت يتيقن ضلّاته وعين الملائكة التي تقبض روحه ، كما قال تعالى : « وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَلَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ ۚ » . ( قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ) نفى الرجعة كي يعمل صالحا فيما ترك . وقد يكون القول في النفس ، قال الله عز وجل : « وَبَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُهُمْ اللَّهُ بِمَا يَفْعَلُونَ ۚ » . فاما قوله « ارْجِعُونِ » وهو مخاطب ربه عز وجل ولم يقل « أرجعني » جاء على تعظيم الذكر للمخاطب . وقيل : اسلمناؤا بالله عز وجل أفلا ، فقال قائلهم : رب ، ثم رجع إلى مخاطبة الملائكة فقال : ارجعون إلى الدنيا ، قاله ابن جرير . وقيل : إن معنى « ارجعون » على جهة التكرير ، أى أرجعنى أرجعنى أرجعنى وهكذا . قال المزيّن في قوله تعالى « أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ » قال : معناه ألقني ألقني ، قال الضحاك : المراد به أهل الشرك .

قلت : ليس سؤال الرجعة مخصصا بالكافر فقد يسألها المؤمن كما في آخر سورة المنافقين على ما باتى . ودلت الآية على أن أحدًا لا يموت حتى يعرف اضطرابا أهو من أولياء

الله أم من أعداء الله، ولولا ذلك لما سأل الرجعة، فعملوا ذلك قبل نزول الموت وذوانه .  
**( تَسَلُّ أَعْمَلُ صَالِحًا )** قال ابن عباس : يريد أشهد أن لا إله إلا الله . **( فَيَا تَرَكْتُ )**  
أي فيا ضيقت وتركت العمل به من الطاعات . وقيل : « فيا تركت » من المال فأصدق .  
وهو لعل ، تتضمن تردداً ، وهذا الذي يسأل الرجعة قد استيقن العذاب ، وهو يوطن نفسه على  
العمل الصالح قطعا من غير تردد . فالتردد يرجع إما إلى رده إلى الدنيا ، وإما إلى التوفيق ؛ أي  
أعمل صالحا إن وفقني ، إذ ليس على قطع من وجود القدرة والتوفيق لو رُدَّ إلى الدنيا .  
**( كَلَّا )** هذه كلمة ردِّ ، أي ليس الأمر على ما يظه من أنه يجاب إلى الرجوع إلى الدنيا ،  
بل هو كلام يطيح في أدراج الرجح . وقيل : لو أجيب إلى ما يطلب لما وقى بما يقول ،  
كما قال : « وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا هُوَ عَنْهُمْ » . وقيل : « كَلَّا إِنَّمَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا » ترجع  
إلى الله تعالى ، أي لا خلف في خبره ، وقد أخبر أنه ان يؤخر نفسا إذا جاء أجلها ، وأخبر بأن  
هذا الكافر لا يؤمن . وقيل : « إِنَّمَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا » عند الموت ، ولكن لا تنفع . **( وَمِنْ  
وَرَائِهِمْ بَرَزَخٌ )** أي من أمامهم وبين أيديهم . وقيل : من خلفهم . « **بَرَزَخٌ** » أي حاجز بين  
الموت والبعث ، قاله الضحاك ومجاهد وابن زيد . وعن مجاهد أيضا أن البرزخ هو الحاجز  
بين الموت والرجوع إلى الدنيا . وعن الضحاك : هو ما بين الدنيا والآخرة . ابن عباس :  
حجاب السدى : أجل . قتادة : بقية الدنيا . وقيل : الإمهال إلى يوم القيامة ؛ حكاية  
ابن ميسرة . الكلبي : هو الأجل ما بين التفخيتين ، وبينهما أربعون سنة . وهذه الأقوال  
متقاربة . وكلُّ حاجز بين شيئين فهو بَرَزَخٌ . قال الجوهري : البرزخ الحاجز بين الشيئين .  
والبرزخ ما بين الدنيا والآخرة من وقت الموت إلى البعث ؛ فن مات فقد دخل في البرزخ .  
وقال رجل بحضرة النبي : رحم الله فلانا فقد صار من أهل الآخرة ! فقال : لم يصبر من  
أهل الآخرة ، ولكنه صار من أهل البرزخ ، وليس من الدنيا ولا من الآخرة . وأضيف  
« يوم » إلى « يبعثون » لأنه ظرف زمان ، والمراد بالإضافة المصدر .

قوله تعالى : فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ ﴾ المراد بهذا النفخ النفخة الثانية . ﴿ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ قال ابن عباس : لا يفتخرون بالأنساب في الآخرة كما يفتخرون بها في الدنيا ، ولا يتساءلون فيها كما يتساءلون في الدنيا ، من أى قبيلة أنت ولا من أى نسب ، ولا يتعارفون لمول ما أذله لهم . وعن ابن عباس أن ذلك في النفخة الأولى حين يصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ، وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون . وسأل رجل ابن عباس عن هذه الآية وقوله : « فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ » فقال : لا يتساءلون في النفخة الأولى ، لأنه لا يبقى على الأرض حي ، فلا أنساب ولا تسائل . وأما قوله « فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ » فأنهم إذا دخلوا الجنة تساءلوا . وقال ابن مسعود : إنما عظم في هذه الآية النفخة الثانية . وقال أبو عمر زاذان : دخلت على ابن مسعود فوجدت أصحاب الخبر وإيمته قد سبقوني إليه ، فاديت بأعلى صوتي : يا عبد الله بن مسعود ! من أجل أنى رجل أعجمى أذنت هؤلاء وأفصيتنى ! فقال : أذنته قد نوت ، حتى ما كان بيني وبينه جليس فسمعتة يقول : يؤخذ بيد العبد أو الأمة يوم القيامة فينصب على رموس الأولين والآخرين ثم يشادى مناد : هذا فلان بن فلان ، من كان له حق فليأت إلى حقه ، ففرح المرأة أن يدور لها الحق على أيها أو على زوجها أو على أخيها أو على أبنها ، ثم قرأ ابن مسعود : « فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ » فيقول الرب سبحانه وتعالى « آت هؤلاء حقوقهم » فيقول : يا رب قد فئت الدنيا فمن أين أوتيهم ؟ فيقول الرب للأنكة : « خذوا من حسناته فأعطوا كل إنسان بقدر طلبته » فإن كان ولياً فله فضل من حسناته متقال حبة من نردل فيضاعفها الله تعالى حتى يدخله بها الجنة ، ثم قرأ ابن مسعود : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ

يُنْقَالَ دَرَّةً وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا . وَإِنْ كَانَ شَقِيًّا قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ : رَيْبٌ ! فَبَيَّتْ حَسَنَاتِهِ وَبَيَّتْ طَالِبُونَ ؛ فيقول الله تعالى : « خذوا من أعمالهم فأضيفوها إلى سيئاته وصُكُّوا له صَكًّا إِلَى جَهَنَّمَ » .

قوله تعالى : قَفْنٌ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٦٧﴾  
 تقدم الكلام فيها<sup>(١)</sup> .

قوله تعالى : تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٦٨﴾ أَلَمْ تَكُنْ إِتَيْنِي تثنى عَلَيْكَ فَاكُنْتُمْ بِهَا تُكْذِبُونَ ﴿١٦٩﴾

قوله تعالى : ( تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ) ويقال « تلفح » بمعنى « ومنه » وَلَئِنْ مَسَّتْهُمُ نَفْثَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ « . إلا أن « تلفح » أبلغ بأسا ؛ يقال : لنفث النار والسُّومُ بجرها أحرقت . وافتحه بالسيف لفحة إذا ضربته به [ ضربة ] خفيفة . ( وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ) قال ابن عباس : عابسون . وقال أهل اللغة : الكاوح تَكَثَّرَ فِي عُيُوسٍ . والكالج : الذي قد تَسَمَّرَتْ شَفَتَاهُ وَبَدَتْ أَسْنَانُهُ . قال الأعشى :

وَلَهُ الْمُقَدَّمُ لَا يَمِثْلُ لَهُ . سَاعَةَ الشَّدَقِ عَنِ النَّابِ كَلَجٌ

وقد كَلَجَ الرجل كَلَحًا وكَلَحًا . وما أبيض كَلَجَتِهِ ؛ يراد به التَّمُّ وما حوَالِهِ . ودهر كَالِحٌ أى شديد . وعن ابن عباس أيضا « وهم فيها كالون » يريد كَالِدَى كَلَجٌ وتقلعت شفتاه وسال صديده . وقال ابن مسعود : ألم تر إلى الرأس المُشَبَّطَ بالنار ، وقد بدت أسنانه وقَلَصَتْ شَفَتَاهُ . وفي الترمذي عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « وهم فيها كالون » - قال - قسويه النار فتَقْلِصُ شَفَتَهُ المِلا حتى تبلغ وَسَطَ رَأْسِهِ وتَسْتَرِجِي شَفَتَهُ السفلى حتى تضرب مُرَّتَهُ » قال : هذا حديث حسن صحيح غريب .

(١) آية ٤٠ سورة النساء . (٢) رابع - ٧ ص ١٦٦ (٣) آية ٤٦ سورة الأنبياء .

قوله تعالى : قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٧٦﴾  
 رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٧٧﴾ قَالَ اخْسَءُوا فِيهَا  
 وَلَا تُكَلِّمُونَ ﴿١٧٨﴾

قوله تعالى : ( قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا ) قراءة أهل المدينة وأبي عمرو وعاصم  
 « شِقْوَتُنَا » وقرأ الكوفيون إلا عاصم « شَقَاتُنَا » . وهذه القراءة مروية عن ابن مسعود  
 والحسن . ويقال : شقاء وشقا ، بالمد والتصر . وأحسن ما قيل في معناه : غلبت علينا لذاتنا  
 وأهوائنا ، فسمى اللذات والأهواء شِقْوَةً ، لأنها يؤذيان إليها ، كما قال الله عز وجل :  
 « إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا » ، لأن ذلك يؤذيهم إلى  
 النار . وقيل : ما سبق في علمك ، وكتب علينا في أم الكتاب من الشقاوة . وقيل : حسن  
 الظن بالنفس وسوء الظن بالخلق . ( وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ) أى كنا في فعلنا ضالين عن الهدى .  
 وليس هذا احتذاراً منهم إنما هو إقرار ، ويدل على ذلك قولهم ( رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا  
 ظَالِمُونَ ) طلبوا الرجعة إلى الدنيا كما طلبوها عند الموت . ( فَإِنْ عُدْنَا ) إلى الكفر ( فَإِنَّا  
 ظَالِمُونَ ) لأنفسنا بالعود إليه فيجابون بعد ألف سنة : ( اخْسَءُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ ) أى  
 أبعدوا في جهنم ، كما يقال للكلب : اخسأ ، أى أبعد . خسات الكلب خسأ طرده .  
 وخسأ الكلب بنفسه خوفاً ، يتعدى ولا يتعدى . وخسأ الكلب أيضاً . وذكر ابن المبارك  
 قال : حدثنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة يذكره عن أنس بن مالك عن عبد الله بن عمرو بن  
 العاصي قال : إن أهل جهنم يدعون مالكاً فلا يجيبهم أربعين عاماً ، ثم يرد عليهم : أنكم  
 ما كنتم . قال : هانت والله دعوتهم على مالك ورب مالك . قال : ثم يدعون ربهم  
 فيقولون : « رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ » . رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا  
 فَإِنَّا ظَالِمُونَ » . قال : فيسكت عنهم قدر الدنيا مرتين . قال : ثم يرد عليهم اخسأوا  
 فيها . قال : أفواه ما تبس القوم بعدها بكلمة ، وما هو إلا الزفير والشهيق في نار جهنم .

فشبه أصواتهم بصوت الحير ، أولها زفير وآخرها شيق . خربه الترمذى صرفوها بمناه من حديث أبي الترقاء . وقال قتادة : صوت الكفار في النار كصوت الحمار ، أوله زفير وآخره شيق . وقال ابن عباس : يصير لهم شبح كنيح الكلاب . وقال محمد بن كعب القرظي : بلغني أو ذكر لي أن أهل النار استغاثوا بالخزنة ... الخبير بطوله . ذكره ابن المبارك ، وقد ذكرناه بكافه في التذكرة ، وفي آخره : ثم مكث عنهم ما شاء الله ، ثم ناداهم « أَلَمْ تَكُنْ أَتَانِي نَسْلَ تَلِيكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ » قال : فلما سمعوا صوته قالوا الآن يرجعنا ربنا فقالوا عند ذلك « رَبَّنَا عَلَبْتَ عَلَيْنَا شَقَوَاتًا » أي الكلاب الذي كذب علينا « وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ . رَبَّنَا أَنْزِلْنَا مِنَّا قَوْمًا مَعَنَا ظَالِمُونَ » فقال عند ذلك « آخَسُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ » فاقطع عند ذلك الدماء والرجاء ، وأقبل بعضهم على بعض ينبغ بعضهم في وجوه بعض ، وأطبقت عليهم .

قوله تعالى : **إِنَّهُمْ كَانُوا فَرِيقَيْنِ مَنِ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠١﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًا حَتَّىٰ أَنْسَوَكُمُ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضَعُونَ ﴿١٠٢﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا إِنَّهُمْ هُمُ الْفَاقِرُونَ ﴿١٠٣﴾**

قوله تعالى : ( إِنَّهُمْ كَانُوا فَرِيقَيْنِ مَنِ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ) الآية . قال مجاهد : هم بلال وخباب وصهيب ، وفلان وفلان من ضعفاء المسلمين ، كان أبو جهل وأصحابه يهزمونهم . ( فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًا ) بالضم قراءة نافع وحزمة والكسائي هاهنا وفي « س » . وكسر الباقون . قال النحاس : وقرئ أبو عمرو بإنها ، بفعل المكسورة من جهة التهزؤ ، والمضمومة من جهة السخرة ، ولا يعرف هذا الفرق الخليل ولا سيويه ولا الكسائي ولا الفراء . قال الكسائي : هما لئتان بمعنى واحد كما يقال : عُصِيَّ وعِصِيَّ ، وُلِيَّ وولِيَّ . وحكى التلحي عن الكسائي والنفراء الفرق الذي ذكره أبو عمرو : وأن الكسر بمعنى الاستزاء .

والسخرية بالقول ، والقلم بمعنى التسخير والاستبعاد بالفعل . وقال المبرد : إنما يؤخذ التفريق بين الماتى عن العرب ، وأما التأويل فلا يكون . والكسر في سخرى في المؤمنين جميعاً ؛ لأن الضمة تستقل في مثل هذا . ( حَتَّى أَنْتَوَكُمُ ذِكْرِي ) أى اشتغلتم بالاستهزاء بهم عن ذكرى . ( وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضَحَكُونَ ) استهزاء بهم ، وأضاف الإنشاء إلى المؤمنين لأنهم كانوا سبباً لاشتغالهم عن ذكره ؛ وتعدي شؤم استهزائهم بالمؤمنين إلى استيلاء الكفر على قلوبهم . ( إِنِّي بَرَزْتُهمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا ) على أذاكم ، وصبروا على طاعتي . ( أَنْتُمْ هُمْ الْفَائِزُونَ ) فרא حزمة والكسائي بكسر الهزة على ابتداء المدح من الله تعالى لهم ، ونفع الباقون ، أى لأنهم هم الفائزون . ويجوز نصبه بوقوع الجزاء عليه ، تقديره : إني جزيتهم اليوم الفوز بالجنة .

قلت : وينظر إلى معنى هذا قوله تعالى في آخر المطففين : « قَالِیَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ » إلى آخر السورة ، على ما يأتي بيانه هناك إن شاء الله تعالى . ويستفاد من هذا : التحذير من السخرية والاستهزاء بالضعفاء والمساكين والاحتقار لهم ، والإضرار عليهم والاشتغال بهم فيما لا ينفع ، وأن ذلك مبعد من الله عز وجل .

قوله تعالى : قُلْ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسَلِ الْعَادِیْنَ ﴿١١٣﴾ قُلْ إِنْ لَبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنْتُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾

قوله تعالى : ( قَالِ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ ) قيل : يعنى في القبور . وقيل : هو سؤال لهم عن مدة حياتهم في الدنيا ، وهذا السؤال للشرکین في عرصات القيامة أو في النار . ( عَدَدَ سِنِينَ ) بفتح النون على أنه جمع مسلم ، ومن العرب من يخفضها ويؤنثها . ( قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ) أناسهم شدة العذاب مدة مكثهم في القبور . وقيل : لأن العذاب رفع عنهم بين النضجتين ففسوا ما كانوا فيه من العذاب في قبورهم . قال ابن عباس : أناسهم ما كانوا فيه من العذاب من النضجة الأولى إلى الثانية ؛ وذلك أنه ليس من أحد قتله نبي أو حل نيا

أو مات بضرة نبي إلا عذب نبي إلا عذب من ساعة يموت إلى النسخة الأولى ، ثم يمسك عنه العذاب فيكون كالماء حتى يُنفع الثانية . وقيل : استقصوا مدة لبثهم في الدنيا وفي القبور وراوه يسيرا بالنسبة إلى ما هم بصدد . ( فَأَنبَأَ الْعَادَّةِينَ ) أي سلب الحساب الذين يعرفون ذلك فإنما قد نسيه ، أو فأسأل الملائكة الذين كانوا معنا في الدنيا ؛ الأول قول قتادة ، والثاني قول مجاهد . وقرأ ابن كثير وحزرة والكسائي « قل كم لبثتم في الأرض » على الأمر . ويحتمل ثلاثة معاني : أحدها - قولوا كم لبثتم ، فأنخرج الكلام مخرج الأمر للواحد والمراد الجماعة ؛ إذ كان المعنى مفهوما . الثاني - أن يكون أمرا للكل لبثتم يوم البعث عن قدر مكثهم في الدنيا . أو أراد قل أي الكافر كم لبثتم . وهو الثالث . الباقون « قال كم » على الخبر ؛ أي قال الله تعالى لهم ، أو قالت الملائكة لهم كم لبثتم . وقرأ حمزة والكسائي أيضا ( قل إن لبثتم إلا قليلا ) الباقون « قال » على الخبر ، على ما ذكر من التأويل في الأول ؛ أي ما لبثتم في الأرض إلا قليلا ؛ وذلك أن مكثهم في القبور وإن طال كان متناهيا . وقيل : هو قليل بالنسبة إلى مكثهم في النار ؛ لأنه لا نهاية له . ( لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ) ذلك .

قوله تعالى : **الْحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ إِلَيْنَا لَا تَرْجِعُونَ** (١١٥)

قوله تعالى : ( **الْحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا** ) أي مهملين كما خلقت البهائم لا نواب لها ولا عقاب عليها ؛ مثل قوله تعالى : « **أَلَيْسَ الْإِنْسَانُ أَنْ يَتْرَكَ سُدًى** » يريد كالبهائم مهملا غير فائدة . قال الترمذي الحكيم أبو عبد الله محمد بن علي : إن الله تعالى خلق الخلق عبدا ليعبدوه ، فيشبههم على العبادة ويعاقبهم على تركها ، وإن عبدوه فهم اليوم له عبيد أحرار كرام من رق الدنيا ، ملوك في دار الإسلام ؛ وإن رفضوا العبودية فهم اليوم عبيد أباقي سقاط لنار ، وغدا أعداء في السجون بين أطباق النيران . و « **عَبَثًا** » نصب على الحال عند سيويه وقطرب . وقال أبو عبيدة : هو نصب على المصدر أو لأنه مفعول له . ( **وَأَنْتُمْ إِلَيْنَا لَا تَرْجِعُونَ** ) فجازون بالناسك . قرأ حمزة والكسائي « **تَرْجِعُونَ** » بفتح التاء وكسر الجيم من الرجوع .



قوله تعالى : فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾

قوله تعالى : ( فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ) أى تَعَزَّ وَتَقَدَّسَ اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ عَنِ الْأَوْلَادِ وَالشُّرَكَاءِ وَالْإِنْدَادِ ، وَعَنِ أَنْ يَخْلُقَ شَيْئًا عِنَّا أَوْ سَفْهًا ؛ لِأَنَّهُ الْحَكِيمُ . ( لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ) أَيْ لَيْسَ فِي الْقُرْآنِ غَيْرُهَا . وَقَرَأَ ابْنُ مُحَيْصِنٍ وَرَوَى عَنْ ابْنِ كَثِيرٍ « الْكَرِيمُ » بِالرَّفْعِ نَتَأَلَّى .

قوله تعالى : وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٨﴾

قوله تعالى : ( وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ ) أى لَا حُجَّةَ لَهُ عَلَيْهِ ( فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ) أى هُوَ بِعَاقِبِهِ وَيَحْسَابِهِ . ( إِنَّهُ ) الْمَاءُ ضَمِيرُ الْأَمْرِ وَالشَّانِ . ( لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ) وَقَرَأَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةَ « لَا يُفْلَحُ » — بِالْفَتْحِ — مِنْ كَذِبٍ وَجَهْدٍ مَا جِئَتْ بِهِ وَكَفَرٍ نَعْنَى . ثُمَّ أَمَرَ نَبِيَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِالْإِسْتِغْفَارِ لِنَفْسِهِ بِهِ الْأَمَّةُ . وَقِيلَ : أَمْرُهُ بِالْإِسْتِغْفَارِ لِأَنَّهُ . وَأَسَدُ النَّحْلِيِّ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ لُحْيَةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ هُبَيْرَةَ عَنْ حَنْشِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الصَّنَعَانِيِّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ مَرَّ بِمَصَابٍ مَبْنِيٍّ فَقَرَأَ فِي أَذَنِهِ « أَغْفِرْ لَهُمْ إِنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ مِثْنًا » حَتَّى خَتَمَ السُّورَةَ قُبْرًا . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « مَاذَا قَرَأْتَ فِي أَذَنِهِ ؟ » فَأَخْبَرَهُ ، فَقَالَ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ رَجُلًا مَوْفَقًا قَرَأَهَا عَلَى جَبَلٍ لَزَالَ » .

(١) فِي دَوَاجِ الْمَاءِ : « الْكَرِيمُ بِالرَّفْعِ عَلَى أَنَّهُ مَقْدَرُ الرَّبِّ ، وَجَزْزَانُ يَكُونُ مَقْدَرُ الْعَرْشِ عَلَى الْقَطْعِ » .

## سورة النور

مدينة بالإحساء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ①

مقصود هذه السورة ذكر أحكام المعاف والنذر . وكتب عمر رضى الله عنه إلى أهل الكوفة : علموا ماكم سورة النور . وذلك عائشة رضى الله عنها : لا يُلَوِّا النساء الترف ولا تلهوهن الكتابة وعلموهن سورة النور والعزل . ( وَفَرَضْنَا ) قرئ تخفيف الزاء ، أى فرضنا عليكم وعلى من صدكم ما فيها من الأحكام . وبالتشديد : أى أرلنا فيها فرائض مختلفة . وفرا أبو عمرو . « وفرضناها » بالتشديد أى قطعناها فى الإزال نَجْمًا نَجْمًا . والفرض القطع ؛ ومه قرصة القوس . وفرائض المبرات وفرض العقبة . وعنه أيضا « فرضناها » فصلناها وبناها . وقيل . هو على التكنيز ، لكثرة ما فيها من الفرائض . والسورة فى اللغة اسم لليلة الشريعة ؛ ولذلك سُميت السورة من القرآن سورة . قال زهير :

الم تر أن الله أعطاك سورة . ترى كل ملك دونها يتدبذب

وقد مضى فى مقدمة الكتاب القول فيها . وقرئ « سورة » بالرفع على أنها مبتدأ وخبرها « أنزلناها » قاله أبو عبيدة والأخفش . وقال الزجاج والمترجم . « سورة » بالرفع لأنها خبر الابتداء ؛ لأنها نكرة ولا يتبدأ بالنكرة فى كل موضع ، أى هذه سورة . ويحتمل أن يكون قوله « سورة » ابتداء وما بعدها صفة لما أخرجها عن حد النكرة المحضة فحسن الابتداء لذلك ، ويكون الخبر فى قوله « الزانية والزاني » . وقرئ « سورة » بالصب ، على تقدير أنزلنا سورة أنزلناها . وقال الشاعر ② :

(١) كما فى الأصول . والمعروف أن هذا البيت لما فىه الديان من نصبة يمدح بها النبان وبتدبر .

(٢) راجع ج ١ ص ١٦ طبة ثانية تأليفه . (٣) هو الريحين ضيعين وهب (عن شرح الشواهد الكبرى للشيخ) .

والذئب أخشاه إن مررت به • وحيدى وأخفى الرياح والمطر  
أو تكون منصوبة بإضمار فعل، أى آتت سورة • وقال الفراء : هى حلال من الماء والألف ،  
والحال من المكى يجوز أن يتقدم عليه •

قوله تعالى : **الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ**  
**وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ**  
**وَلَيَشْهَدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ** ①

فيه إحدى وعشرون مسألة :

الأول — قوله تعالى : **( الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي )** كان الزنى فى اللغة معروفا قبل الشرع ، مثل  
اسم السرقة والقتل • وهواسم لوطه الرجل امرأة فى فرجها من غير نكاح ولا شبهة نكاح  
بمطامعها • وإن شئت قلت : هو إدخال فرج فى فرج مشتهى طبعاً محرم شرعاً ، فإذا كان  
ذلك وجب الحد • وقد مضى الكلام فى حد الزنى وحقيقته وما للعلماء فى ذلك • وهذه  
الآية ناحية لآية الحبس وآية الأذى اللتين فى سورة «النساء» ② باتفاق •

الثانية — قوله تعالى : **( مِائَةَ جَلْدَةٍ )** هذا حد الزانى الحر البالغ البكر ، وكذلك  
الزانية البالغة البكر الحرة • وثبت بالسنة تقريب عام ، على الخلاف فى ذلك • وأما المملوكات  
فالواجب بحسن جلدته لقوله تعالى : **« فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْنَّ نِصْفَ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ**  
**مِنَ الْعَذَابِ »** ③ وهذا فى الأمة ، ثم البعد فى معناها • وأما المحسن من الأحرار فعليه الزجر دون  
الجلد • ومن العلماء من يقول : يجلد مائة ثم يُرجم • وقد مضى هذا كله ممهداً فى « النساء »  
فأغنى عن إعادته ، والحمد لله •

الثالثة — قرأ الجمهور « الزَّانِيَةَ وَالزَّانِي » بالرفع • وقرأ عيسى بن عمر الثقفى « الزانية »  
بالنصب ، وهو أوجه عند سيويه ؛ لأنه عند كفوك : زيدا أضرب ، وفيه الرفع عنده :

(١) راجع ج ٥ ص ٨٢ وما بعدها • (٢) آية ٢٥ سورة النساء •

سبر ابتدأه، وتقديره : فيما يتل عليك [حكم] الزانية والزاني . وأجمع الناس على الرضخ وإن كان القياس عند مسيو به النصب . وأما الفراء والمبرد والراجح فإن الرضخ عندهم هو الأوجه ، والخبر في قوله « فأجلدوا » ؛ لأن المعنى : الزانية والزاني مجلودان بحكم الله ؛ وهو قول جيد ، وهو قول أكثر النحاة . وإن شئت فذرت الخبر : ينبغي أن يحلدا . وقرأ ابن مسعود « والزاني » بغير ياء .

الرابعة - ذكر الله سبحانه وتعالى الذكر والأنثى ، والزاني كان يكنى منهما ؛ فقيل : ذكرهما للتأكيد ، كما قال تعالى : « وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا » . ويحتمل أن يكون ذكرهما هنا لئلا يظن ظان أن الرجل لما كان هو الواطئ والمرأة محل إيست بواطنة فله يجب عليها حد ؛ فذكرها رفعا لهذا الإشكال الذي أوقع جماعة من العلماء منهم الشافعي . فقوا : لا كفارة على المرأة في الوطء في رمضان ، لأنه قال جماعت أهل في نهار رمضان ؛ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « كفر » . فأمره بالكفارة ، والمرأة لو است بمعاملة ولا واطنة .

الخامسة - قُتِلَت « الزانية » في هذه الآية من حيث كان في ذلك الزمان زنى الفداء فاش ، وكان لإماء العرب وبنايا الوقت رايات ، وكُنَّ مجاهرات بذلك . وقيل : لأن الزنى في النساء أمر وهو لأجل الحبل أضر . وقيل : لأن الشهوة في المرأة أكثر وعليها أغلب ؛ فصنبرها تغليظا لتردع شهوتها ، وإن كان قد رُكِبَ فيها حياء لكنها إذا زنت ذهب الحياء كله . وأيضاً فإن العار بالنساء ألحق إذ موضوعهن الجنب والصيانة فقدم ذكرهن تغليظا واهتماما .

السادسة - الألف واللام في قوله « الزانية والزاني » فليفس ، وذلك يعطى أنها عامة في جميع الزناة . ومن قال بالجلد مع الرجم قال : السنة جاءت بزيادة حكم فيقام مع الجلد . وهو قول إسماعيل بن رَاحُوَيْه بن الحسن بن أبي الحسن ، وفعله علي بن أبي طالب رضي الله عنه بشرحة ، وقد مضى في « النساء » بيانه . وقال الجمهور : هي خاصة في البكرين ، واستلوا على أيا غير طامة بمخرج العييد والإماء منها .

(١) في هذه البارة تسامح ؛ فان التقدير الذي ذكره يقتضي أن يكون مبتدأ بحرف الخبر ؛ كما ذكر ذلك غير واحد من المفسرين . (٢) زيادة من كتب التفسير . (٣) في الأصول : « الحجة » . (٤) راجع ص ٨٧

**السابعة** - نص الله سبحانه وتعالى [على] ما يجب على الزائنين إذا شهد بذلك عليهما ؛ على ما يأتي ، وأجمع العلماء على القول به . واختلفوا فيما يجب على الرجل يوجد مع المرأة في ثوب واحد ، فقال إسماعيل بن راهويه : يصرب كل واحد منهما مائة جلدة . وروى ذلك عن عمرو بن عثمان ، وليس يثبت ذلك عنهما . وقال عطاء وسفيان الثوري : يؤذبان . وبه قال مالك وأحمد ؛ على قدر مذاهبهم في الأدب . قال ابن المذير : والأكثر من رأيه يرى على من وجد على هذه الحال الأدب . وقد مضى في « هود » اختيار ما في هذه المسئلة ، والحمد لله وحده .

**الثامنة** - قوله تعالى : ﴿ فَأَجْلِدُوا ﴾ دخلت الفاء لأنه موضع أمر والأمر مضارع للشرط . وقال المبرد : فيه معنى الجزاء ، أى إن زنى زان فاعلوا به كذا ، ولهذا دخلت الفاء ؛ وهكذا « السارق والسارقة فاقطعوا أيديهما » .

**التاسعة** - لا خلاف أن الخطاب بهذا الأمر الإمام ومن ناب عنه . وزاد مالك والشافعي : السادة في العبيد . قال الشافعي : في كل جلد وقطع . وقال مالك : في الجلد دون القطع . وقيل : الخطاب للمسلمين ؛ لأن إقامة مراسم الدين واجبة على المسلمين ، ثم الإمام ينوب عنهم ؛ إذ لا يمكنهم الاجتماع على إقامة الحدود .

**العاشرة** - أجمع العلماء على أن الجلد بالسوط يجب . والسوط الذي يجب أن يجلد به يكون سوطاً بين سوطين ، لا شديداً ولا ليناً . وروى مالك عن زيد بن أسلم أن رجلاً اعترف على نفسه بالزنى على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم بسوط ، فأتى بسوط مكسور ، فقال : « فوق هذا » فأتى بسوط جديد لم تقطع ثمرته ، فقال : « دون هذا » فأتى بسوط قد ركب به ولان . فأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم بجلده ... الحديث . قال أبو عمر : هكذا روى هذا الحديث مرسلًا جميع

(١) كذا في الأصول ، وله يرد سورة النساء . راجع المسألة الثانية ص ٨٦ .

(٢) الثمرة : اللرف . يريد أن طرقة محد لم تكسر حدة ولم ينحني بعد .

(٣) يريد أنه انكسرت حدة ولم ينحني ولا بلغ من اللين مبلغاً لا يألم من ضرب به . (راجع الموطأ كتاب الحدود) .

رواة الموطأ، ولا أعلمه يستند بهذا اللفظ بوجه من الوجوه، وقد روى معمر عن يحيى بن أبي كثير عن النبي صلى الله عليه وسلم مثله سواء . وقد تقدم في « المائدة » ضرب عمر قدامة في الخمر بسوط تام . يريد وسطا .

الحادية عشرة - اختلف العلماء في تجريد المجلود في الزنى ، فقال مالك وأبو حنيفة وغيرهما : يجوز ، ويترك على المرأة ما يسترنا دون ما يقيها الضرب . وقال الأوزاعي ، الإمام محمد بن إسماعيل ، وإن شاء ترك . وقال الشافعي والنحوي : لا يجوز ، ولكن يترك عليه قميص . قال ابن مسعود : لا يخل في هذه الآية تحريد ولا مئة ، وبه قال الثوري .

الثانية عشرة - اختلف العلماء في كيفية ضرب الرجال والنساء ؛ فقال مالك : الرجل والمرأة في الحدود كلها سواء ، لا ينال واحد منهما ؛ ولا يجرى عنده إلا في الظهر . وأصحاب الرأي والشافعي يرون أن يُجْلَد الرجل وهو واقف ، وهو قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه . وقال الليث وأبو حنيفة والشافعي : الصرب في الحدود كلها وفي التعزير مجزأ قائما غير ممدود ؛ إلا حد القذف فإنه يصرب وعليه ثيابه . وحكا المهدوي في التحصيل عن مالك . ويتبرع عنه الحشو والقرو . وقال الشافعي : إن كان مده صلاحا مده .

الثالثة عشرة - اختلفوا في المواضع التي تضرب من الإنسان في الحدود ؛ فقال مالك : الحدود كلها لا تضرب إلا في الظهر ، وكذلك التعزير . وقال الشافعي وأصحابه : يُتَّقَى الوجه والفرج وتضرب سائر الأعضاء ؛ وروى عن علي . وأشار ابن عمر بالضرب إلى رجل آتة جلدها في الزنى . قال ابن عطية : الإجماع في تسليم الوجه والعمود والمقاتل . واختلفوا في ضرب الرأس ؛ فقال الجمهور : يُتَّقَى الرأس . وقال أبو يوسف : يضرب الرأس . وروى عن عمر وابنه فقالا : يضرب الرأس . وصرب عمر رضي الله عنه صبيغا في رأسه وكان تمزيقا لا حدا . ومن حجة مالك ما أدرك عليه الناس ، وقوله عليه السلام : « البينة وإلا حد في ظهرك » وسيأتي .

- (١) في الأصول : « الجارود » وهو شريف ؛ لأن له سرية سيدا مجرورا رضي الله عنه هو قدامة بن مطعون . وقد ذكر المؤلف رحمه الله تعالى قصته في ج ٦ ص ٢٩٧ فراجع هناك ، وراجع ترجمته في كتب السامية .  
(٢) هو صبيح ( كأمير ) بن عسل . كان يصت الناس بالمواضع والسؤالات ؛ فغاه سيدنا عمر إلى البصرة .

الرابعة عشرة - الضرب الذي يجب أن يكون مؤلّا لا يجرّح ولا يتّقع ، ولا يُخرج الضارب يده من تحت إبطه . وبه قال الجمهور ، وهو قول عليّ وابن مسعود رضي الله عنهما . وأُتِيَ عمر رضي الله عنه برجل في حدّ فأتى بسوط بين سوطين وقال للضارب : اضرب ولا يَرى إبطك ؛ وأعط كلّ عضو حقه . وأُتِيَ رضي الله عنه بشارب فقال : لأبشّك إلى رجل لا تأخذه فيك هواة ؛ فبعت إلى مطيع بن الأسود المدويّ فقال : إذا أصبحت القد فأضربه الحد ؛ بقاء عمر رضي الله عنه وهو يضربه ضرباً شديداً فقال : قتل الرجل ! كم ضربته ؟ فقال ستين ؛ فقال : أقصّ عنه عشرين . قال أبو عبيدة : « أقصّ عنه عشرين » يقول : اجعل شدة هذا الضرب الذي ضربته قصاصاً بالعشرين التي بقيت ولا تضربه العشرين . وفي هذا الحديث من الفقه أن ضرب الشارب ضرب خفيف . وقد اختلف العلماء في أشد الحدود ضرباً وهي :

الخامسة عشرة - فقال مالك وأصحابه والليث بن سعد : الضرب في الحدود كلها سواء ، ضربٌ غير مُبرّح ، ضربٌ بين ضربين . وهو قول الشافعيّ رضي الله عنه . وقال أبو حنيفة وأصحابه : التعزير أشدّ الضرب ؛ وضرب الزنى أشدّ من الضرب في الخمر ، وضرب الشارب أشدّ من ضرب القذف . وقال الثوريّ : ضرب الزنى أشدّ من ضرب القذف ، وضرب القذف أشدّ من ضرب الخمر . احتج مالك بورود التوقيف على عدد الجلدات ، ولم يرد في شيء منها تخفيف ولا تقبيل عن يجب التسليم له . احتج أبو حنيفة بفعل عمر ، فإنه ضرب في التعزير ضرباً أشدّ منه في الزنى . احتج الثوريّ بأن الزنى لما كان أكثر معدداً في الجلدات استحال أن يكون القذف المبلغ في النكابة . وكذلك الخمر ؛ لأنه لم يثبت فيه الحد إلا بالاجتهاد ، وسبيل مسائل الاجتهاد لا يقوى قوة مسائل التوقيف .

السادسة عشرة - الحد الذي أوجب الله في الزنى والخمر والقذف وغير ذلك ينبغي أن يقام بين أيدي الحكام ، ولا يقيمه إلا فضلاء الناس وخيارهم يتشارف الإمام لذلك . وكذلك كانت الصحابة تفعل كلما وقع لهم شيء من ذلك ، رضي الله عنهم . وسبب ذلك أنه

قيام بقاعدة شرعية وقُرْبَة تَبْدِيَّة ، تَجِبُ المحافظة على فعلها وقدرها ومحالها وحالها ، بحيث لا يُتَعَدَّى شَيْءٌ مِنْ شُرُوطِهَا وَلَا أَحْكَامِهَا ؛ فَإِنَّ دَمَ الْمُسْلِمِ وَحَرَمَتَهُ عَظِيمَةٌ ، فَيَجِبُ مِرَاعَاتُهُ بِكُلِّ مَا امْكُنَ . رَوَى الصَّحِيحُ عَنْ حُضَيْنِ بْنِ الْمُنْذَرِابِيِّ سَاسَانَ قَالَ : شَهِدْتُ عَثَانَ بْنَ عِفَّانٍ وَأَيُّ بِالْوَلِيدِ قَدْ صَلَّى الصُّبْحَ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ قَالَ : أَرَيْدُكُمْ ؟ فَشَهِدَ عَلَيْهِ رَجُلَانِ ، أَحَدُهُمَا حُمْرَانُ أَنَّهُ شَرِبَ الْخَمْرَ ، وَشَهِدَ آخَرُهُ أَنَّهُ رَأَى يَتَقِيًّا ؛ فَقَالَ عَثَانُ : إِنَّهُ لَمْ يَتَقِيًّا حَتَّى شَرِبَهَا ؛ فَقَالَ : يَا عَلِيٌّ قُمْ فَأَجْلِدْهُ . فَقَالَ عَلِيٌّ : قُمْ يَا حُسَيْنُ فَأَجْلِدْهُ . فَقَالَ الْحَسَنُ : وَلَوْ حَازَهَا مِنْ تَوَلَّى قَازَهَا (فَكَأَنَّهُ وَجَدَ عَلَيْهِ) فَقَالَ : يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ جَعْفَرٍ قُمْ فَأَجْلِدْهُ ؛ بَغْدَهُ وَعَلِيٌّ يَدُ ... الْحَدِيثِ . وَتَوَدَّ تَقَدُّمُ فِي الْمَائِدَةِ . فَانْظُرْ قَوْلَ عَثَانَ لِلْإِمَامِ عَلِيٍّ : قُمْ فَأَجْلِدْهُ .

السَّابِعَةُ عَشْرَةَ - نَصَّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى عِدَدِ الْجَلْدِ فِي الزَّانِ وَالزَّانِيَةِ ، وَثَبَتَ التَّوْقِيفُ فِي الْخَمْرِ عَلَى ثَمَانِينَ مِنْ فَعْلٍ عَمَرَ فِي جَمِيعِ الصَّحَابَةِ - عَلَى مَا تَقَدَّمَ فِي الْمَائِدَةِ (٢٣) - فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُتَعَدَّى اسْتِدْ فِي ذَلِكَ كَلَّةٌ ؛ قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ : « وَهَذَا مَا لَمْ يَتَابِعِ النَّاسُ فِي الشَّرِّ وَلَا اسْتَأْذَنُوا لَهُمْ الْمَعَاصِي . حَتَّى يَنْتَفِذُوا ضَرَارَةَ وَيَعْطُوهَا عَلَيْهِا بِالْمَوَادَّةِ فَلَا يَنْهَاهَا عَنْ مَنَظَرِ فُسْلُوهِ ؛ فَيَنْتَفِذُ تَعْيِينَ الشَّدَّةِ وَيَزِيدُ الْحَدَّ لِأَجْلِ زِيَادَةِ الذَّنْبِ . وَقَدْ أَتَى عَمْرٌو بَسْكَرَانَ فِي رَمَضَانَ فَضَرَبَهُ مِائَةً ؛ ثَمَانِينَ حَدَّ الْخَمْرِ وَعِشْرِينَ لِمَنَاسِكَ حَرَمَةِ التَّهْنِ . فَهَكَذَا يَجِبُ أَنْ تَرْكَبَ الْمُقَوِّبَاتُ عَلَى تَقْلِيطِ الْجَنَابَاتِ وَهَتَكَ الْحُرَمَاتِ . وَقَدْ لَمِبَ رَجُلٌ بَصِيٍّ فَضَرَبَهُ الْوَالِي ثَلَاثَةَ سَوَطٍ فَلَمْ يَنْتَفِرْ [ذَلِكَ] مَالِكٌ حِينَ بَلَغَهُ ، فَكَيْفَ لَوْ رَأَى زَمَانَنَا هَذَا يَهْتِكُ الْحُرَمَاتِ وَالْإِسْتِهْنَاءَ بِالْمَعَاصِي ، وَالظَّاهِرَ بِالْمُنَاكَرِ وَبَيْعَ الْحُدُودِ وَاسْتِيفَاءَ الْعِيدِ لَهَا فِي مَصِيبِ الْقَضَاءِ ، لَمَاتَ كَيْدًا وَلَمْ يَجَالَسْ أَحَدًا ؛ وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ » .

(١) بِمَاءٍ مَهْلَةٍ مَضْمُونَةٍ وَصَادَ مَحْمَةٍ . (٢) قَالَ الرَّوِّيُّ فِي شَرْحِ هَذَا الْحَدِيثِ « الْخَارِ : الشَّدِيدُ الْمَكْرُوهُ ، وَالْقَازُ : الْبَارِدُ الْخَفِيُّ . الطَّيِّبُ . وَهَذَا مَثَلٌ مِنْ أَمْثَالِ الْغَرَبِ ، مَعْنَاهُ : وَلَوْ شَقَّيْتُهَا وَأَوْسَاغَهَا مِنْ تَوَلَّى هَتَيْتَهَا وَلَدَاتِهَا ؛ وَلَصَمِرَ عَائِدَةُ إِلَى الْخِلَافَةِ وَالْوَلَايَةِ ؛ أَيْ كَمَا أَنَّ عَائِدَةَ وَأَقَارِبَهُ يَقُولُونَ عَلَى الْخِلَافَةِ وَيَتَنَصَّوْنَ بِهَا يَقُولُونَ نَكَبْهَا وَقَاذِرَاتِهَا . وَمَعْنَاهُ : لَيَتَوَلَّى هَذَا الْجَلْدُ عَثَانَ بِعِصْمَةِ أَوْ بِعِصْمَةِ حَاصَةِ أَقَارِبِهِ الْأَدْنَى » .

(٣) رَاسِحٌ جَدُّ ٦ ص ٢٩٧ (٤) الضَّرَاوَةُ : الْعَادَةُ . (٥) زِيَادَةُ عَمْرِو بْنِ الْعَرَبِيِّ .



قلت : ولهذا المعنى - والله أعلم - زيد في حد الخبر حتى انتهى إلى ثمانين . وروى  
 الثارقي « حدثنا القاضي الحسين بن إسماعيل حدثنا يعقوب بن إبراهيم الثوري - حدثنا  
 صفوان بن عيسى حدثنا أسامة بن زيد عن الزهري - قال أخبرني عبد الرحمن بن أضرم قال :  
 رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين وهو يخجل الناس يسأل عن منزل خالد بن الوليد ،  
 فأبى بسكران ، قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن عنده فضر به بما في أيديهم .  
 وقال : وحثا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه التراب . قال : ثم أتى أبو بكر رضى الله عنه  
 بسكران ، قال : فتوتى الذى كان من ضربهم يومئذ ؛ فضرب أربعين . قال الزهري :  
 ثم أخبرني حميد بن عبد الرحمن عن ابن وبرة الكلبي قال : أرسلني خالد بن الوليد إلى عمر ،  
 قال فأتيته ومعه عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وعلى وطلحة والزبير وهم معه متكئون  
 في المسجد فقلت : إن خالد بن الوليد أرسلني إليك وهو يقرأ عليك السلام ويقول : إن  
 الناس قد انهكموا في الخبر ! وتحاقروا العقوبة فيه ؛ فقال عمر : هم هؤلاء عندك فسلهم .  
 فقال على : نراه إذا سكر هذى وإذا هذى افترى وعلى المقرئ ثمانون ؛ قال فقال عمر :  
 أبلغ صاحبك ما قال . قال : فجلد خالد ثمانين وعمر ثمانين . قال : وكان عمر إذا أتى بالرجل  
 الضعيف الذى كانت منه الذلة ضربه أربعين . قال : وجلد عثمان أيضا ثمانين وأربعين .  
 ومن هذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم : " لو تأخر لجلال زدتكم " كلنكل لم حين أئوا  
 أن يتهاوا . في رواية " لو مد لنا الشهر لو اصلنا وصلا يدع المتعمقون تعمقهم " . وروى  
 حامد بن يحيى عن يلفيان عن مسعر عن عطاء بن أبي سريان أن عليا ضرب النجاشي في الخبر  
 مائة جلدة ؛ ذكره أبو عمر ولم يذكر سببا .

الثامنة عشرة - قوله تعالى : ( وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ) أى لا تمتنعوا  
 عن إقامة الحدود شفقة على المحدث ، ولا تحففوا الضرب من غير إيجاب ؛ هذا قول جماعة  
 أهل التفسير . وقال الشعبي والنخعي وسعيد بن جبير : « لا تأخذكم بهما رأفة » قالوا  
 (١) الحديث ذكر في صحيح مسلم في ( كتاب الصوم . باب التهيؤ من الصوم ) . وصحيح البخاري  
 في ( كتاب الاضام . باب ما يكره من التمتع والتأخر ... الخ ) .

في الضرب والجلد . وقال أبو هريرة رضى الله عنه : إقامة حد بارض خير لأهلها من مطر أربعين ليلة ؛ ثم قرأ هذه الآية . والرافة أرق الرحمة . وقرئ « رافة » بفتح الألف على وزن فَعْلَةٍ . وقرئ « رافة » على وزن فَعَالَةٍ ثلاث لغات ، وهى كلها مصادر ، أشهرها الأولى ؛ من رَوَّفَ إذا رَقَّ وَرَّجِمَ . ويقال : رافة ورافة ؛ مثل كُأبة وكأبة . وقد رَافَتْ به ورؤفت به . والمعروف من صفات الله تعالى : العطوف الرحيم .

التاسعة عشرة ١٠ قوله تعالى : ﴿ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾ أى فى حكم الله ؛ كما قال تعالى : « مَا كَانَ لِأَخِيذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ » أى فى حكمه . وقيل : « فى دِينِ اللَّهِ » أى فى طاعة الله وشرعه فيما أمركم به من إقامة الحدود . ثم قرهم على معنى التثيت والحض بقوله تعالى : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ . وهذا كما تقول رجل تحضه : إن كنت رجلاً فأفعل كذا ! أى هذه أفعال الرجال .

الموفية عشرين - قوله تعالى : ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قيل : لا يشهد التعذيب إلا من لا يستحق التأديب . قال مجاهد : رَجُلٌ فَا فَوْقَهُ إِلَى أَلْفٍ . وقال ابن زيد : لابد من حضور أربعة قياسا على الشهادة على الزنى ، وأن هذا باب منه ؛ وهو قول مالك والليث والشافعى . وقال عكرمة وعطاء : لابد من اثنين ؛ وهذا مشهور قول مالك ، فأما موضع شهادة . وقال الزهرى : ثلاثة ؛ لأنه أقل الجمع . الحسن : واحد فصاعدا ، وعنه عشرة . الربيع : ما راد على الثلاثة . وحجة مجاهد قوله تعالى : « قُلُوبًا تَقَرُّ بِسُكُلٍ قَرَفَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ » ، وقوله : « وَإِنْ طَائِفَتَانِ » ، وزلت فى تفاعل رجلين ؛ فكذلك قوله تعالى : « وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ » . والواحد يسمى طائفة إلى الألف ؛ وقاله ابن عباس وإبراهيم . وأمر أبو برزة الأسلمى بجارية له قد زنت وولدت فأتى عليها نوبا ، وأمر ابنه أن يضربها خمسين ضربة غر مبرح ولا خفيف لكن مؤلم ، ودعا جماعة ثم تلا « وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ » .

(١) آية ٢٦ سورة يوسف . (٢) آية ١٢٢ سورة البقرة . (٣) آية ٩ سورة الحرات .

الحادية والعشرون - اختلف في المراد بحضور الجماعة ، هل المقصود بها الإخلاط على الزناة والتوبيخ بمحضرة الناس ، وأن ذلك يُردع المحدود ، ومن شهده وحضره يتعظ به ويذجر لأجله ، وتبيح حديثه فيعتبره من بعده ، أو الدعاء لها بالتوبة والرحمة ؛ قولان للعلماء .  
 الثانية والعشرون <sup>(١)</sup> - روى عن حذيفة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :  
 " يا معاشر الناس اتقوا الزنى فإن فيه ست خصال ثلاثا في الدنيا وثلاثا في الآخرة فأما اللواتي في الدنيا فيذهب البهاء ويورث الفقر وينقص العمر وأما اللواتي في الآخرة فيوجب السخط وسوء الحساب والخلود في النار " . وعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن أعمال أمي تعرض علي في كل جمعة مرتين فاشتد غضب الله على الزناة " . وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إذا كان ليلة النصف من شعبان أطلع الله على أمي فغفر لكل مؤمن لا يشرك بالله شيئا إلا خمسة ساءرا أو كاهنا أو عاقا لوالديه أو مدين نمرأ ميصرا على الزنى " .

قوله تعالى : **الْزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحَرَّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ** ﴿٢١﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى - اختلف العلماء في معنى هذه الآية على ستة أوجه من التأويل :  
 الأول - أن يكون مقصد الآية تشنيع الزنى وتبيح أمره ، وأنه محرم على المؤمنين . واتصال هذا المعنى بما قبل حسن بليغ . ويريد بقوله « لا يَنْكِحُ » أي لا يبطأ ؛ فيكون النكاح بمعنى الجماع . وردد القصة مبالغة وأخذا من كلا الطرفين ، ثم زاد تقسيم المشتركة والمشارك من حيث الشرك أعم في المعاصي من الزنى ؛ فالمعنى : الزنى لا يبطأ في وقت زناه إلا زانية من المسلمين ، أو من هي أحسن منها من المشركات . وقد روى عن ابن عباس وأصحابه أن النكاح في هذه الآية الوطء . وأنكر ذلك الزجاج وقال : لا يعرف النكاح في كتاب الله تعالى إلا

(١) يلاحظ أن المؤلف رحمه الله ذكر أن المسائل إحدى وعشرون مسألة .

بمعنى الترويج . ولبس كما قال ، وفي القرآن « حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ » وقد بينه النبي صلى الله عليه وسلم أنه بمعنى الوطء ، وقد تقدم في « البقرة » . وذكر الطبري ما ينحو إلى هذا التأويل عن سعيد بن جبيرة وابن عباس وعكرمة ، ولكن غير مخلص ولا مكمل . ونحكا الخطابي عن ابن عباس ، وأن معناه الوطء ؛ أى لا يكون زنى إلا بزانية ، وفيه أنه زنى في الجهتين ؛ فهذا قول .

الثاني — ما رواه أبو داود والترمذي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن مرثد ابن أبي مرثد كان يحمل الأسارى بمكة ، وكان بمكة يثنى يقال لها « عناق » وكانت صديقتها ، قال : بلغت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله ، أنكح عناق ؟ قال : فسكت عني ، فقلت : والزانية لا ينكحها إلا زانٍ أو مُشْرِكٌ ، فدعاني فقراها على وقال : « لا تنكحها » . لفظ أبي داود ، وحديث الترمذي أكل . قال الخطابي : هذا خاص بهذه المرأة إذ كانت كافرة ، فأما الزانية المسلمة فإن العقد عليها لا يصح .

الثالث — أنها مخصوصة في رجل من المسلمين أيضا استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في نكاح امرأة يقال لها « أم مهزول » وكانت من بنات الزانيات ، وشرطت أن تنفق عليه ، فانزل الله تعالى هذه الآية ؛ قاله عمرو بن العاصي ومجاهد .

الرابع — أنها نزلت في أهل الصفّة ، وكانوا قوما من المهاجرين ، ولم يكن لهم في المدينة مساكن ولا عشار ففعلوا صفّة المسجد ، وكانوا أربعمائة رجل يتسوّون الزق بالنهار ويأوون إلى الصفّة بالليل ، وكان بالمدينة بنات متعالت بالفجور ، محاصيب بالكسوة والطعام ؛ فهم أهل الصفّة أن يترجوهن فيأووا إلى مساكنهن ويأكلوا من طعامهن وكسوتهن ؛ فنزلت هذه الآية صيانة لهم عن ذلك ؛ قاله ابن أبي صالح .

الخامس — ذكره الزجاج وغيره عن الحسن ، وذلك أنه قال : المراد الزاني المحدود والزانية المحدودة ، قال : وهذا حكم من الله ، فلا يجوز لزان محذور أن يتزوج إلا محدودة .

وقال إبراهيم النخعي نحوه . وفي مصنف أبي داود عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا ينكح الزاني المحدود إلا مثله » . وروى أن محدودا تزوج غير محدودة ففترق على رضى الله عنه بينهما . قال ابن العربي : وهذا معنى لا يصح نظرا كما لم يثبت تقلا ، وهل يصح أن يوقف نكاح من حد من الرجال على نكاح من حد من النساء ! فبأي أثر يكون ذلك ، وعلى أى أصل يقاس من الشريعة !

قلت — وحكى هذا القول اليكأ عرب . بمنى أصحاب الشافعى المتأخرين ، وإن الزانى إذا تزوج غير زانية فترق بينهما لظاهر الآية . قال اليكأ : وإن هو عمل بالظاهر فيلزمه عليه أن يجوز للزاني التزوج بالمشركة ، ويجوز للزانية أن تزوج نفسها من مشرك ، وهذا فى غاية البعد ، وهو خروج عن الإسلام بالكلية ، وربما قال هؤلاء : إن الآية منسوخة فى المشرك خاصة دون الزانية .

السادس — أنها منسوخة ، روى مالك عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب قال : « الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك » قال : نسخت هذه الآية التى بعدها « وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ » ، وقاله ابن عمرو ، قال : دخلت الزانية فى أيامى المسلمين . قال أبو جعفر النحاس : وهذا القول عليه أكثر العلماء . وأهل الفتيا يقولون : إن من زنى بامرأة فله أن يتزوجها ولغيره أن يتزوجها . وهو قول ابن عمر وسالم وجابر ابن زيد وعطاء وطاوس ومالك بن أنس ، وهو قول أبي حنيفة وأصحابه . وقال الشافعى : القول فيها كما قال سعيد بن المسيب ، إن شاء الله هى منسوخة . قال ابن عطية : وذكر الإيثراء فى هذه الآية بضمف هذه المتأشى . قال ابن العربى : والذى عندى أن النكاح لا يخلو أن يراد به الوطء كما قال ابن عباس أو المقدس ، فإن أريد به الوطء فإن معناه : لا يكون زنى إلا بزانية ، وذلك عبارة عن أن الوطأين من الرجل والمرأة زنى من الجهتين ؛ ويكون تقدير الآية : . وطء الزانية لا يقع إلا من زان أو مشرك ، وهذا يؤثر عن ابن عباس ، وهو معنى صحيح .

فإن قيل : فإذا زنى بالغٌ بصبية ، أو عاقلٌ بمجنونة ، أو مستيقظٌ بنائمة فإن ذلك من جهة الرجل زنى ؛ فهذا زانٌ ينكح غير زانية ، فيخرج المراد عن بابه الذى تقدم . قلنا : هو زنى من كل جهة ، إلا أن أحدهما سقط فيه الحد والآثر ثبت فيه . وإن أريد به العقد كان معناه : أن متزوج الزانية التى قد زنت ودخل بها ولم يستبرئها يكون بمنزلة الزانى ، إلا أنه لا حد عليه لاختلاف العلماء فى ذلك . وأما إذا عقد عليها ولم يدخل بها حتى يستبرئها فذلك جائز إجماعا . وقيل : ليس المراد فى الآية أن الزانى لا ينكح قط إلا زانية ؛ إذ قد يتصور أن يتزوج غير زانية ، ولكن المعنى أن من تزوج بزانية فهو زان ؛ فكأنه قال : لا ينكح الزانية إلا زان ؛ فقلب الكلام ، وذلك أنه لا ينكح الزانية إلا وهو راض بزناها ، وإنما يرضى بذلك إذا كان هو أيضا زنى .

الثانية - فى هذه الآية دليل على أن التزوج بالزانية صحيح . وإذا زنت زوجة الرجل لم يفسد النكاح ، وإذا زنى الزوج لم يفسد نكاحه مع زوجته ؛ وهذا على أن الآية منسوخة . وقيل إنها محكمة . وسيأتى .

الثالثة - روى أن رجلا زنى باسراة فى زمن أبى بكر رضى الله عنه فجلدها مائة جلدة ، ثم تزوج أحدهما من الآخر مكانه ، وفماهما سنة . وروى مثل ذلك عن عمرو بن مسعود وجابر رضى الله عنهم . وقال ابن عباس : أوله سفاح وآخره نكاح . ومثل ذلك مثل رجل سرق من حائط ثمره ثم أتى صاحب البستان فأشترى منه ثمره ؛ فما سرق حرام وما اشترى حلال .<sup>(١)</sup> وبهذا أخذ الشافعى وأبو حنيفة ، ورأوا أن الماء لا حرمة له . وروى عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال : إذا زنى الرجل بالمرأة ثم نكحها سد ذلك فهما زانيان أبدا . وبهذا أخذ مالك رضى الله عنه ؛ فرأى أنه لا ينكحها حتى يستبرئها من مائه الفاسد ؛ لأن النكاح له حرمة ، ومن حرمة ألا يُصَلَّبَ على ماء السفاح ؛ فيختلط الحرام بالحلال ، ويخرج ماء المراجعة بماء المرأة .

(١) حياة ابن العربي كافى أحكامه : « مثل رجل سرق ثم اشتراها » .

الرابعة - قال ابن خُوَيْرِمَتَداد : من كان معروفاً بالزنى أو غيره من الفسوق مُعْلَناً به  
فترُوج إلى أهل بيت ستروا عنهم من نفسه ظلم الخيار في البقاء معه أو فرائه؛ وذلك ككتب  
من العيوب ، واحتج بقوله عليه السلام : " لا ينكح الزاني المجلود إلا مثله " . قال ابن  
خُوَيْرِمَتَداد : وإنما ذكر المجلود لا شهراره بالفسق ، وهو الذي يجب أن يفترق بينه وبين غيره ؛  
فأما من لم يشتهر بالفسق فلا .

الخامسة - قال قوم من المتقدمين : الآية محكمة غير منسوخة ، وعند هؤلاء : من  
زنى فسد النكاح بينه وبين زوجته ، وإذا زنت الزوجة فسد النكاح بينها وبين زوجها .  
وقال قوم من هؤلاء : لا ينسخ النكاح بذلك ، ولكن يؤمر الرجل بطلاقها إذا زنت ،  
ولو أسكنها أئيم ، ولا يجوز التزوج بالزانية ولا من الزاني ، بل لو ظهرت التوبة غُفِرَ له  
يموز النكاح .

السادسة - ( وَحَرَّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ) أى نكاح أولئك البغايا ؛ فيزم بعض أهل  
الناويل أن نكاح أولئك البغايا حرمه الله تعالى على أمة محمد عليه السلام ، ومن أشهرهن عناق .

السابعة - حرم الله تعالى الزنى في كتابه ؛ غنياً زنى الرجل فعليه الحد . وهذا قول مالك  
والشافعي وأبي ثور . وقال أصحاب الرأي في الرجل المسلم إذا كان في دار الحرب بأمان وزنى  
هناك ثم خرج لم يحد . قال ابن المنذر : دار الحرب ودار الإسلام سواء ، ومن زنى فعليه  
الحد ؛ على ظاهر قوله « الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة » .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَا يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ  
فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ  
الْفَاسِقُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ  
غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٤٢﴾

فيه ست وعشرون مسألة :

الأولى - هذه الآية نزلت في المنافقين . قال سعيد بن جبير : كان سبها ما قبل في عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها . وقيل : بل نزلت بسبب القذف عاماً لا في تلك النازلة . وقال ابن المنذر : لم نجد في أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم خبراً يدل على تصريح القذف ، وظاهر كتاب الله تعالى مستغنى به ، دالاً على القذف الذي يوجب الحد ، وأهل العلم على ذلك مجمعون .  
الثانية - قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ ﴾ يريد يسبون ، واستعمل له اسم الرمي لأنه

إذابة بالقول ، كما قال النابغة :

• وجرح اللسان بجرح اليد •

وقال آخر :

رماي بأمر كنت منه واليدي • بريثا ومن أجل العلوي رماي<sup>(١)</sup>

ويسمى قذفاً ، ومنه الحديث : إن ابن أمية قذف امرأته بشريك بن السجاء ، أي رماها .  
الثالثة - ذكر الله تعالى في الآية النساء من حيث هن أمه ، ورسمين بالفاحشة أشنع وأنكى للنفوس . وقذف الرجال داخل في حكم الآية بالمعنى ، وإجماع الأمة على ذلك . وهذا هو نفسه على تحريم لحم الخنزير ودخل شحمه وغضاريفه ، ونحو ذلك بالمعنى والإجماع .  
وعن الزهراوى أن المعنى : والأفحش المحصنات ، فهى لفظها تم الرجال والنساء ، ويدل على ذلك قوله : « والمحصنات من النساء » . وقال قوم : أراد بالمحصنات الفروج ، كما قال تعالى : « واللاتى أحصنت فرجهن<sup>(٢)</sup> » ، فيدخل فيه فروج الرجال والنساء . وقيل : إننا ذكر المرأة الأجنبية إننا قذفنا لمعطف عليها قذف الرجل زوجته ، والله أعلم . وقرأ الجمهور « المحصنات » بفتح الصاد ، وكسرهما يحيى بن وثاب . والمحصنات المفاتيح في هذا الموضع . وقد مضى في « النساء » ذكر الإحصان<sup>(٣)</sup> ومرتبه . والمجدة .

(١) البيت لزين أحمد . والعلوي : البثر . (٢) في الأصول : « من حيث هو أمه » . وبعبارة البحر المحيط لأبي حيان أمين ، ومى : « ونحو النساء . بذلك وإن كان الرجال يشركهن في الحكم لأن القسلف فيهن أشنع وأنكى للنفوس ، ومن حيث هن هوى الرجال » الخ . (٣) آية ٢٨ سورة النساء .  
(٤) آية ٩١ سورة الأنبا . (٥) راجع ج ٢ ص ١٢٩ وما بعدها .



الرابعة - للقذف شروط عند العلماء تسعة : شرطان في القاذف، وهما العقل والبلوغ، لأنهما أصلا التكليف، إذ التكليف ساقط دونهما. وشرطان في الشيء المقذوف به، وهو أن يقذف بوطء يلزمه فيه الحد، وهو الزنى واللواط، أو بتفويه من أبيه دون سائر المعاصي. ونحوه في المقذوف، وهى العقل والبلوغ والإسلام والحرية والنفقة عن الفاحشة التى رُوى بها كان ضيفا من غيرها أم لا. وإنما شرطنا في المقذوف العقل والبلوغ كما شرطناهما في القاذف وإن لم يكونا من معاني الإحصان لأجل أن الحد إنما وضع للزجر عن الإذابة بالمضرة الداخلة على المقذوف، ولا مضرة على من عدم العقل والبلوغ؛ إذ لا يوصف اللواط فيهما ولا منهما بأنه زنى.

الخامسة - اتفق العلماء على أنه إذا صرح بالزنى كان قذفا ورتباً موجبا للحد، فإن عارض ولم يصرح فقال مالك : هو قذف. وقال الشافعى وأبو حنيفة : لا يكون قذفا حتى يقول أردت به القذف. والدليل لما قاله مالك هو أن موضوع الحد في القذف إنما هو إزالة المعزة التى أوقفها القاذف بالمقذوف، فإذا حصلت المعزة بالتمريض وجب أن يكون قذفا كالتمريض والمأمول على الفهم؛ وقد قال تعالى تخبا عن شيب : « إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَكِيمُ الرَّشِيدُ » أى السفيه الضال؛ فعرضوا له بالسب بكلام ظاهره المدح في أحد التاويلات، حسبما تقدم في هود. وقال تعالى في أبى جهل : « دُقْ لَكَ أَنْتَ الْقَزِيرُ الْفَكِيمُ » . وقال حكاية عن صريم : « يَا أَخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَسْرَأُ سَوْءَ مَا كَانَتْ أُمُّكَ بَيْتًا » ؛ فلدحوا أباهم ونقصوا عن أمها البناء، أى الزنى. وعرضوا لمريم بنفك؛ ولذلك قال تعالى : « وَكَفَرُوهَا وَقَوْلِيهِمْ عَلَى صَدْرِي هَيْتَا عَظِيمًا » ، وكفرهم معروف، والبهتان العظيم هو التعريض لها، أى ما كان أبوك أسوأ سوءا وما كانت أمك بئيا، أى أنت بخلافهما وقد أتيت بهذا الولد. وقال تعالى : « قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَمَلَكُ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » ؛ فهذا اللفظ قد فهم منه أن المراد به أن الكفار على غير هدى، وأن الله تعالى ورسوله على الهدى؛ ففهم من هذا التعريض ما يفهم من صريحه. وقد حسس عمر رضى الله عنه الخطيئة لما قال :

(١) راجع به ص ٨٧ طبعه أول أو ثانية . (٢) آية ٩؛ سورة المعات .

(٣) آية ٢٨ سورة مريم . (٤) آية ١٥٦ سورة النساء . (٥) آية ٢٤ سورة سبا .

دَجَّ الْمَكَارِمَ لَا تَرْحَسِلْ بُنْيَتَهَا • وَأَقْعِدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّائِمُ الْكَاسِي  
لأنه شبهه بالفناء في أنهن يَطْمَعْنَ وَيَسْقِينَ وَيُكْسُونَ • ولما سمع قول النجاشي :  
قِيلَتْ لَا يَفْدِرُونَ بِذِمَّةٍ • وَلَا يَظْلُمُونَ النَّاسَ حَبَّةَ خَرْدَلٍ  
قال : لَيْتَ الْخَطَّابُ كَذَلِكَ • وَإِنَّمَا أَرَادَ الشَّاعِرُ ضَعْفَ الْقَبِيلَةِ • وَمِثْلَهُ كَثِيرٌ .

السادسة - الجمهور من العلماء على أنه لا حدَّ على من قذف رجلاً من أهل الكتاب  
أو امرأة منهم • وقال الزُّهْرِيُّ وسعيد بن المسيَّب وأَبْنُ أَبِي لَيْلَى : عليه الحدُّ إِذَا كَانَ لَهَا وَلَدٌ  
من مسلم • وفيه قول ثالث - وهو أنه إِذَا قَذَفَ النَّصْرَانِيَّةَ تَحْتَ الْمُسْلِمِ جُلْدُ الْحَدِّ • قال  
أَبْنُ الْمُنْذِرِ : وَيُجْلِدُ الْعُلَمَاءُ يَجْمَعُونَ وَقَائِلُونَ بِالْقَوْلِ الْأَوَّلِ ، وَلَمْ أَدْرِكْ أَحَدًا وَلَا لِقِيْتَهُ يَخَالِفُ  
فِي ذَلِكَ • وَإِذَا قَذَفَ النَّصْرَانِيَّ الْمُسْلِمَ الْحَزْرَ فَمِليهِ مَا عَلَى الْمُسْلِمِ ثَمَانُونَ جَلْدَةً • لَا أَعْلَمُ  
فِي ذَلِكَ خِلَافًا .

السابعة - والجمهور من العلماء على أن العبد إِذَا قَذَفَ حُرًّا يَجْلِدُ أَرْبَعِينَ • لِأَنَّهُ حَدٌّ  
يَنْشَطِرُ بِالرَّقِّ كَحَدِّ الزَّانِي • وَرَوَى عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ وَعُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَقَبِيصَةُ بْنُ ذُوَيْبٍ يَجْلِدُ  
ثَمَانِينَ • وَجَلْدُ أَبِي بَكْرٍ عَمْدُ عِبَادٍ قَذَفَ حُرًّا ثَمَانِينَ • وَبِهِ قَالَ الْأَوْزَاعِيُّ • أَحْبَبُّ الْجَاهِلِينَ  
بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : « فَإِنْ أَتَيْنَ بِغَاحِثَةٍ فَعَلَيْنَّ يَنْصُفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ »<sup>(١)</sup> .  
وقال الآخرون : فهما هناك أَنَّ حَدَّ الزَّانِي اللَّهُ تَعَالَى • وَأَنَّهُ دِيمَا كَانَ أَخْفَ فِيمَنْ قَتَلَتْ نَفْسُ  
اللهِ عَلَيْهِ ، وَأَخْفَرُ فِيمَنْ عَظُمَتْ نَفْسُ اللهِ عَلَيْهِ • وَأَمَّا حَدُّ الْقَذْفِ فَحَقٌّ لِلْأَدَمِيِّ وَجِبُّ لِلْغَنَاءِ  
عَلَى عَرَضِ الْمَقْدُوفِ ، وَالْجَنَابَةِ لَا تَخْتَلِفُ بِالرَّقِّ وَالْحَرِيَةِ • وَرَبَّمَا قَالُوا : لَوْ كَانَ يَخْتَلِفُ  
لَدُرَّ كَمَا ذَكَرَ فِي الزَّانِي . قَالَ ابْنُ الْمُنْذِرِ : وَالَّذِي عَلَيْهِ عُلَمَاءُ الْأَمْصَارِ الْقَوْلُ الْأَوَّلُ ، وَبِهِ أَقُولُ .

الثامنة - وأجمع العلماء على أَنَّ الْحَزْرَ لَا يَجْلِدُ لِلْعَبْدِ إِذَا اقْتَرَى عَلَيْهِ • لِأَنَّهُ مَرَّتَيْنِ  
وَلِقَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : " مَنْ قَذَفَ مَمْلُوكَهُ بِالزَّانِي أَقِيمَ عَلَيْهِ الْحَدُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ  
كَمَا قَالَ " نَزَّجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ • وَفِي مَعْضِ طَرَفِهِ : " مَنْ قَذَفَ عَبْدَهُ زَنْيًا لَمْ يُثَبِّتْ أَقِيمَ

عليه يوم القيامة الحدّ ثمانون“ ذكره الدارقطني . قال العلماء : وإنما كان ذلك في الآخرة لأرفع المالك واستواء الشريف والوضيع والحز والعبد ، ولم يكن لأحد فضل إلا بالتقوى ؛ ولما كان ذلك تكافؤ الناس في الحدود والحرمات ، وأقص من كل واحد لصاحبه إلا أن يصفو المظلوم عن الظالم . وإنما لم يتكافؤوا في الدنيا لئلا تدخل الفاحشة على المساكين في مكافأتهم لهم ، فلا تصح لهم حرمة ولا فضل في منزلة ، وتبطل فائدة التسخير ؛ حكمة من الحكيم العليم ، لا إله إلا هو .

الثامنة — قال مالك والشافعي : من قذف من يحسبه عبداً فإذا هو حر عليه الحدّ وقاله الحسن البصري واختاره ابن المنذر . قال مالك : ومن قذف أم الولد حدّ ؛ وروى عن ابن عمر ، وهو قياس قول الشافعي . وقال الحسن البصري : لا حدّ عليه .

العاشرة — واختلف العلماء فيمن قال لرجل : يا من وطئ بين الصغدين ؛ فقال ابن القاسم : عليه الحدّ ؛ لأنه تعريض . وقال أشهب : لا حدّ فيه ؛ لأنه نسبة إلى فعل لا يعدّ زنى إجماعاً .

الحادية عشرة — إذا رمى صبية يمكن طؤها قبل البلوغ بالزنى كان قذفاً عند مالك . وقال أبو حنيفة والشافعي وأبو ثور : ليس بقذف ؛ لأنه ليس بزنى إذ لا حدّ عليها ، ويعزّر . قال ابن العربي : والمسئلة محتملة مشككة ، لكن مالك طلب حماية عرض المقدوف ، وغيره راعى حماية ظهر القاذف ؛ وحماية عرض المقدوف أولى ؛ لأن القاذف كشف ستره بطرف لسانه فلزمه الحدّ . قال ابن المنذر : وقال أحمد في الجارية بنت تسع : يجلد قاذفها ، وكذلك الصبي إذا بلغ عشرين ضرب قاذفه . قال إسحاق : إذا قذف غلاماً يطأ مثله عليه الحدّ ، والجارية إذا تجاوزت تسعاً مثل ذلك . قال ابن المنذر : لا يحدّ من قذف من لم يبلغ ؛ لأن ذلك كذب ، ويعزّر على الأذى . قال أبو عبيد : في حديث علي رضي الله عنه أن امرأة جاءت فذكرت أن زوجها يأتي جاريته فقال : إن كنت صادقة رجمتك وإن كنت كاذبة

جلدناك . قالت : رُدوني إلى أهل غَيْرِي نِزْرَةً<sup>(١)</sup> . قال أبو عبيد : في هذا الحديث من الفقه أن على الرجل إذا واقع جارية أمر أنه الحد .

وفيه أيضا إذا قذفه بذلك قاذف كان على قاذفه الحد ؛ ألا تسمع قوله : وإن كنت كاذبة جلدناك . ووجه هذا كله إذا لم يكن الفاعل جاهلا بما يأتي وبما يقول ، فإن كان جاهلا وادعى شبهة دُرِيء عنه الحد في ذلك كله .

وفيه أيضا أن رجلا لو قذف رجلا بحصرة حاكم وليس المقذوف بحاضره لاشيء على القاذف حتى يبيىء فيطلب حقه ؛ لأنه لا بدري لعله بصدقه ؛ ألا ترى أن عليا عليه السلام لم يعرض لها .

وفيه أن الحاكم إذا قُذِفَ عنده رجل ثم جاء المقذوف بطلب حقه أحذه الحاكم الحد بعباه ؛ ألا تراه يقول : وإن كنت كاذبة جلدناك ؛ وهذا لأنه من حقوق الناس .

قلت : اختلف هل هو من حقوق الله أو من حقوق الآدميين ؛ وسيأتي . قال أبو عبيد : قال الأصمعي سألني شعبة عن قوله « غَيْرِي نِزْرَةً » ؛ فقلت له : هو مأخوذ من نَزَرَ القِدْرَ ، وهو غليانها وقورها ؛ يقال منه : نَبَرَتْ تَنْبَرُ ، وتَبَرَتْ تَنْبَرُ إذا غلت . فعنه أنها أرادت أن جوفها يَنْبَلِي من النفط والفترة لما لم يجد عنده ما تريد . قال : ويقال منه رأيت فلانا يَنْبَرُ على فلان ؛ أي يَنْبَلِي جوفه عليه غيظا .

البابية عشرة - من قذف زوجة من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم حدّ حدين ، قاله مسروق . قاله ابن العربي : والصحيح أنه حد واحد ؛ لعموم قوله تعالى : « وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ » الآية ، ولا يقتضي شرفهن زيادة في حد من قذفهن ؛ لأن شرف المزلّة لا يؤثر في الحدود . ولا نقصها يؤثر في الحد بتقصيص . والله أعلم . وسيأتي الكلام فيمن قذف عائشة رضي الله عنها ، هل يقتل أم لا .

للتالثة عشرة - قوله تعالى : « ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ » الذي يفتقر إلى أربعة شهداء دون سائر الحقوق هو الزنى ؛ رحمة بعباده وسرا لهم . وقد تقدم في سورة النساء .

(١) سيأتي الكلام على هذه الكلمة بعد قليل . (٢) راجع ج ٥ ص ٨٢ طبعه أيد أرناطة .

الرابعة عشرة — من شرط أداء الشهود الشهادة عند مالك رحمه الله أن يكون ذلك في مجلس واحد ؛ فإن افرقت لم تكن شهادة . وقال عبد الملك : تقبل شهادتهم مجتمعين ومفترقين . فرأى مالك أن اجتمعهم تبعاً ؛ وبه قال ابن الحسن . ورأى عبد الملك أن المقصود أداء الشهادة واجتماعها وقد حصل ؛ وهو قول عثمان بن عيسى وأبي ثور واختاره ابن المنذر لقوله تعالى : « ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ » وقوله : « فَإِنْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ » ولم يذكر مفترقين ولا مجتمعين .

الخامسة عشرة — فإن تمت الشهادة إلا أنهم لم يعدلوا ؛ فكان الحسن البصري والشعبي يريان أن لا حد على الشهود ولا على المشهود ؛ وبه قال أحمد والتمام ومحمد بن الحسن . وقال مالك : إذا شهد عليه أربعة بالزنى فإن كان أحدهم مسقوفاً عليه أو عبداً يجلدون جميعاً . وقال سفيان النوري وأحمد وإسحاق في أربعة عريان يشهدون على امرأته بالزنى : يضربون . السادسة عشرة — فإن رجع أحد الشهود وقد رجم المشهود عليه في الزنى ؛ فقالت طائفة : يفرم ربح الذية ولا شيء على الآخرين . وكذلك قال قتادة وحماد وعكرمة وأبو هاشم ومالك وأحمد وأصحاب الرأي . وقال الشافعي : إن قال عمدت ليقول ؛ فالأولياء بالخيار إن شاءوا قتلوا وإن شاءوا عفواً وأخذوا ربح الذية ، وعليه الحد . وقال الحسن البصري : يقتل ، وعلى الآخرين ثلاثة أرباع الذية . وقال ابن سيرين : إذا قال أخطأت وأردت غيره فعليه الذية كاملة ، وإن قال تمتدت قتل ، وبه قال ابن شبرمة .

السابعة عشرة — واختلف العلماء في حد القذف هل هو من حقوق الله أو من حقوق الأدميين أو فيه شائبة منهما ؛ الأول — قول أبي حنيفة . والثاني — قول مالك والشافعي . والثالث — قاله بعض المتأخرين . وفائدة الخلاف أنه إن كان حقاً لله تعالى وبلغ الإمام أقامه وإن لم يطلب ذلك المقدوف ، وضعت الناذف التوبة فيما بينه وبين الله تعالى ، ويستظهر فيه الحد بالزنى كالزنى . وإن كان حقاً للأدمي فلا يقيم الإمام إلا بمطالبة المقدوف ، ويسقط بعفوه ، ولم تنفع القاذف التوبة حتى يحمله المقدوف .

الثامنة عشرة - قوله تعالى : ﴿ يَا رِبِّمَّةُ شُهَدَاءَ ﴾ قراءة الجمهور على إضافة الأربعة إلى الشهداء . وقرأ عبد الله بن مسلم بن يسار وأبو زرعة بن عمرو بن حرير « ياربمة » (بالتونين) « شُهَدَاءَ » . وفيه أربعة أوجه : يكون في موضع جر على التثنية لأربعة ، أو بدلا . ويموز أن يكون حالا من نكرة أو تمييزا ، وفي الحال والتمييز نظرا ، إذ الحال من نكرة ، والتمييز مجموع . وسيبويه يرى أنه تنوين المبدى ، وترك إضافته إنما يجوز في الشعر . وقد حسن أبو الفتح عثمان ابن جني هذه القراءة وجب على قراءة الجمهور . قال النحاس : ويموز أن يكون « شهداء » في موضع نصب ، بمعنى ثم لم يحضروا أربعة شهداء .

التاسعة عشرة - حكم شهادة الأربعة أن تكون على معاينة يرؤن ذلك كالمرؤد في المكحلة ؛ على ما تقدم في « النساء » في نص الحديث . وأن تكون في موطن واحد ، على قول مالك . وإن اضطرب واحد منهم جلد الثلاثة ؛ كما فعل عمر في أمر المنيرة بن شعبة ؛ وذلك أنه شهد عليه بالزنى أبو بكر بن نعيم بن الحارث وأخوه نافع ؛ وقال الزهراوى : عبد الله بن الحارث ، وزيد أخوها لأم وهو مستلحق معاوية ، وشبل بن معبد البجلي ، فلما جاءوا لأداء الشهادة وتوقف زيد ولم يؤدها ، جلد عمر الثلاثة المذكورين .

الوفية عشرين - قوله تعالى : ﴿ قَاتِلُوهُمْ ﴾ الجلد الصرب . والمجالد المضايرة في الجلود أو بالجلود ؛ ثم استعير الجلد لغير ذلك من سيف أو غيره . ومنه قول قيس بن الخطيم :  
أجالدهم يوم الحديقة حاسرا • كأن يدي بالسيف يحرق لاعب  
(ثمانين) نصب على المصدر . (جلدة) تميز . ﴿ وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ﴾ هذا يقتضى مدة أعمارهم ، ثم حكم عليهم بأنهم فاسقون ؛ أى خارجون عن طاعة الله عز وجل .

الحادية والعشرون - قوله تعالى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا ﴾ في موضع نصب على الاستثناء . ويموز أن يكون في موضع خفض على البدل . والمعنى ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا إلا الذين تابوا وأصلحوا من بعد القذف ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ . ف تضمنت الآية ثلاثة أحكام في الفاظ :  
(١) وردت هذه الكلمة مضطربة في نسخ الأصل ؛ فنسخة « غبت » وفي أخرى « وبت »  
(٢) رابعة « وجيت » . (٣) رابع - ص ٨٣

جلده، وردّ شهادته أبداً، وفسقه. فالاستثناء غير عامل في جلده بإجماع؛ إلا ما روى عن الشعبي على ما يأتي. وعاملٌ في فسقه بإجماع. واختلف الناس في عمله في ردّ الشهادة؛ فقال شرح القاضي وإبراهيم النخعي والحسن البصري وسفيان الثوري وأبو حنيفة: لا يعمل الاستثناء في ردّ شهادته، وإنما يزول فسقه عند الله تعالى. وأما شهادة القاذف فلا تقبل أبداً ولو تاب وأكذب نفسه ولا بحال من الأحوال. وقال الجمهور: الاستثناء عامل في ردّ الشهادة، فإذا تاب الناذف قبلت شهادته؛ وإنما كان ردّها لسبب الفسق فإذا زال بالتوبة قبلت شهادته مطلقاً قبل الحد وبمده، وهو قول عامة الفقهاء. ثم اختلفوا في صورة توبته؛ فذهب عمر بن الخطاب رضي الله عنه والشعبي وغيره، أن توبته لا تكون إلا بأن يكذب نفسه في ذلك القذف الذي حدّ فيه. وهكذا فعل عمر؛ فإنه قال للذين شهدوا على المغيرة: من أكذب نفسه أجرت شهادته فيما استقبل، ومن لم يفعل لم أجز شهادته؛ فأكذب النّيل بن معبد ونافع بن الحارث بن كلفة أفسهما وتابا، وأبى أبو بكر أن يفعل؛ فحان لا يقبل شهادته. وحكى هذا القول النحاس عن أهل المدينة. وقالت فرقة — منها ما لا رحمه الله تعالى وغيره —: توبته أن يصالح ويحسن حاله وإن لم يرجع عن قوله بتكذيب؛ وحسبه الندم على قذفه والاستغفار منه وترك المسود إلى مثله؛ وهو قول ابن جرير. وروى عن الشعبي أنه قال: الاستثناء من الأحكام الثلاثة، إذا تاب وظهرت توبته لم يحّد وقبلت شهادته وزال عنه الفسق؛ لأنه قد صار ممن يرضى من الشهداء؛ وقد قال الله عز وجل: «وإني لَغَفَّارٌ لِّنَّاسٍ» (١) الآية.

الثانية والمثرون — اختلف علماءنا رحمهم الله تعالى متى تسقط شهادة الناذف؛ فقال ابن المسيّبون: بنفس قذفه. وقال ابن النّاسم وأشباهه ومثّنون: لا تسقط حتى يحلّده؛ فإن منع من جلده مانعٌ عفو؛ أو غيره لم تردّ شهادته. وقال الشيخ أبو الحسن النخعي: شهادته في مدة الأجل موقوفة؛ ورجح القول بأن التوبة إنما تكون بالتكذيب في القذف، وإلا فأي رجوع لتدلّ إن قُذِفَ وحُدّ وبقى على عدالته.

الثالثة والنهرون - واختلقوا أيضا على القول بجواز شهادته بعد التوبة في أى شيء تجوز؛ فقال مالك رحمه الله تعالى : تجوز في كل شيء مطلقا ؛ وكذلك كل من حُد في شيء من الأشياء ؛ رواه نافع وابن عبد الحكم عن مالك ، وهو قول ابن كثة . وذكر الوفا<sup>(١)</sup> عن مالك أنه لا تقبل شهادته فيما حُد فيه خاصة ، وتقبل فيما سوى ذلك ؛ وهو قول مطرف وابن الماجشون . ورؤي العتي عن أصبغ ومحنون مثله . قال مَحْنُون : من حُد في شيء من الأشياء فلا تجوز شهادته في مثل ما حُد فيه . وقال مطرف وابن الماجشون : من حُد في قذف أو زنى فلا تجوز شهادته في شيء من وجوه الزنى ، ولا في قذف ولا إيمان وإن كان عدلا ؛ ورواه عن مالك . واتفقوا على ولد الزنى أن شهادته لا تجوز في الزنى .

الرابعة والعشرون - الاستثناء إذا تعقب بحملا معطوفة عاد إلى جميعها عند مالك والشافعي وأصحابهما . وعند أبي حنيفة وجُل أصحابه يرجع الاستثناء إلى أقرب مذكور وهو الفسق ؛ ولهذا لا تقبل شهادته ؛ فإن الاستثناء راجع إلى الفسق خاصة لا إلى قبول الشهادة . وسبب الخلاف في هذا الأصل سببان : أحدهما - هل هذه الجمل في حكم الجملة الواحدة للعطف الذى فيها ، أو لكل جملة حكم نفسها في الاستقلال وحرف العطف محسن لا مُشْكِر ، وهو الصحيح في عطف الجمل ؛ لجواز عطف الجمل المختلفة بعضها على بعض ، على ما يعرف من النحو .

السبب الثانى - يشبه الاستثناء بالشرط في عوده إلى الجمل المتقدمة ، فإنه يعود إلى جميعها عند الفقهاء ، أولا يُشَبَّه به ، لأنه من باب القياس في اللغة وهو فاسد على ما يعرف في أصول الفقه . والأصل أن كل ذلك محتمل ولا ترجيح ، فتعين ما قاله القاضي من الوقف . ويتأيد الإشكال بأنه قد جاء في كتاب الله عز وجل كَلَامُ الْأَمْرَيْنِ ؛ فإن آية المحاربة فيها عود الضمير إلى الجميع باتفاق . وآية قتل المؤمن خطأ فيها رد الاستثناء إلى الأخيرة باتفاق ، وآية القذف محتملة للوجهين ، فتعين الوقف من غير مَيِّز . قال علماؤنا : وهذا نظر

(١) الوفا (كسب) : لقب ذكره ابن يحيى الفقيه المصرى .



كلّ أصولي . ويرجح قول مالك والشافعي رحمهما الله من جهة نظر الفقه الجزئي بأن يقال : الاستثناء راجع إلى الفسق والنهي عن قبول الشهادة جميعا إلا أن يفرق بين ذلك بخبر يجب التسليم له . وأجمعت الأمة على أن التوبة نحو الكفر ، فيجب أن يكون مادون ذلك أولى ؛ والله أعلم . قال أبو عبيد : الاستثناء يرجع إلى الجمل السابقة ؛ قال : وليس من نسب إلى الزنى بأعظم جرما من مرتكب الزنى ، ثم الزاني إذا تاب قبلت شهادته ؛ لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، وإذا قبل الله التوبة من العبد كان العباد بالقبول أولى ؛ مع أن مثل هذا الاستثناء موجود في مواضع من القرآن ؛ منها قوله تعالى : « إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ — إلى قوله — إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا » . ولا شك أن هذا الاستثناء إلى الجميع ؛ وقال الزجاج : وليس القاذف بأشد جرما من الكافر ، لحقه إذا تاب وأصلح أن تقبل شهادته . قال : وقوله « أَبَدًا » أي مادام قاذفا ؛ كما يقال : لا تقبل شهادة الكافر أبدا ؛ فإن معناه مادام كافرا . وقال الشعبي للمخالف في هذه المسألة : يقبل الله توبته ولا تقبلون شهادته ! ثم إن كان الاستثناء يرجع إلى الجملة الأخيرة عند أقوام من الأصوليين بقوله : « وأولئك هم الفايقون » تعليق لاحقة مستقلة بنفسها ؛ أي لا تقبلوا شهادتهم لفسقهم ، فإذا زال الفسق فلم لا تقبل شهادتهم . ثم توبة القاذف إكراهه خسه ، كما قال عمر لقدغة المغيرة بمضرة الصعابة من غير تكبر ، مع إشاعة القضية وشهرتها من البصرة إلى الحجاز وغير ذلك من الأقطار . ولو كان تأويل الآية ما تأوله الكوفيون لم يحز أن يذهب علم ذلك عن الصعابة ؛ ولقالوا لعمر : لا يجوز قبول توبة القاذف أبدا ، ولم يسمهم السكوت عن القضاء تحريف تأويل الكتاب ؛ فقط قولهم ، والله المستعان .

الخامسة والعشرون — قال القشيري : ولا خلاف أنه إذا لم يحلده القاذف بأن مات المقدوف قبل أن يطالب القاذف بالحد ، أو لم يرفع إلى السلطان ، أو عفا المقدوف ، فالشهادة مقبولة ؛ لأن عند النخعي في المسألة النهي عن قبول الشهادة معطوف على الحد ؛ قال الله تعالى :

(١) عبارة الأصل : « الاستثناء راجع إلى الفسق والتوبة جميعا ... » والتصويب من كتب الفقه .

(٢) آية ٢٣ سورة المائدة .

« فَأَجْلَاهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا » . وعند هذا قال الشافعي : هو قول أن  
يُحْدِثُ مِنْهُ حِينَ حُدِّدَ ، لِأَنَّ الْحُدُودَ كَفَّارَاتٌ فَكَيْفَ تَرُدُّ شَهَادَتَهُ فِي أَحْسَنِّ حَالِهِ دُونَ أَخْسَنِهَا .  
قلت : هكذا قال ولا خلاف . وقد تقدم عن ابن الملاجشون أنه بنفس القذف تَرُدُّ شَهَادَتَهُ .  
وهو قول الليث والأوزاعي والشافعي : تَرُدُّ شَهَادَتَهُ وَإِنْ لَمْ يَحْدِثْ ، لِأَنَّهُ بِالْقَذْفِ يَفْسُقُ ، لِأَنَّهُ  
مِنَ الْكَافِرِ فَلَا تَقْبَلُ شَهَادَتَهُ حَتَّى تَصَحَّ بَرَاهُ بِإِقْرَارِ الْمَقْذُوفِ لَهُ بِالزُّفْرِ ، أَوْ بِقِيَامِ الْبَيِّنَةِ عَلَيْهِ .  
السادسة والعشرون - قوله تعالى : ﴿ وَأَصْلَحُوا ﴾ يريد إظهار الذوبة . وقيل :  
وَأَصْلَحُوا الْعَمَلَ . ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ حيث تابوا وقبل توهم .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ  
إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ①  
وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ② وَيَدْرَؤُا عَنْهَا  
الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ③  
وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ④ وَلَوْلَا  
فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ⑤ ﴾

فيه ثلاثون مسألة .

الأولى - قوله تعالى : ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ ﴾ « أَنْفُسُهُمْ » بالرفع على  
البدل ، ويموز النصب على الاستثناء ، وعلى خبر « يكن » . ﴿ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ ﴾  
بالرفع قراءة الكوفيين على الابتداء والخبر ، أى شهادة أحدهم التى تزيد عن حد القذف أربع  
شهادات . وقرا أهل المدينة وأبو عمرو « أربع » بالنصب ، لأن معنى « شهادة » أن  
يشهد ، والتقدير : فليعلم أن يشهد أحدهم أربع شهادات ، أو فالأمر أن يشهد أحدهم أربع  
شهادات ، ولا خلاف فى السانى أنه منصوب بالشهادة . ﴿ وَالْخَامِسَةَ ﴾ رفع بالابتداء .

والخبر « أن » وصلها ؛ ومعنى المخنفة كمنى المثقلة لأن معناها أنه . وقرأ أبو عبد الرحمن  
وطيحة وعاصم في رواية حفص « والخامسة » بالنصب ، بمعنى وتشهد الشهادة الخامسة . الباقون  
بالرفع على الابتداء ، والخبر في « أن لعنة الله عليه » ؛ أى والشهادة الخامسة قوله لعنة الله عليه .  
الثانية - في سبب نزولها ، وهو ما رواه أبو داود عن ابن عباس أن هلال بن أبيه  
قذف امرأته عند النبي صلى الله عليه وسلم بترك بن تميم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم :  
« اليئة أو حد في ظهرك » قال : يا رسول الله ، إذا رأى أحدنا رجلا على امرأته يتمس اليئة !  
يفعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « اليئة وإلا حد في ظهرك » قال هلال : والذي  
بعتك بالحق إني لصادق ، وليرزق الله في أمري ما يرى ظهري من الحد ؛ فزلت « والذين  
يزنون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم » فقرأ حتى بلغ « من الصادقين » الحديث  
كجاء . وقيل : لما زلت الآية المتقدمة في الذين يرمون المحصنات وتناول ظاهرها الأزواج  
وغيرهم قال سعد بن معاذ : يا رسول الله ، إن وجدت مع امرأتى رجلا أمهله حتى أتى  
بأربعة ! والله لأضربنّه بالسيف غير مضجع عنه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :  
« أتعجبون من غيرة سعد لما أغرمته والله أغرمتنى » . وفي ألفاظ سعد روايات مختلفة ،  
هذا نحو معناها . ثم جاء من بعد ذلك هلال بن أمية الواقفي فرمى زوجته بترك بن تميم  
الباوي على ما ذكرنا ، وعزم النبي صلى الله عليه وسلم على ضربه حد القذف ؛ فزلت هذه  
الآية بعد ذلك ، فجمعهما رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد وتلاعنا ، فلكأت المرأة  
عند الخامسة لما وعظت وقيل إنها موجبة<sup>(١)</sup> ، ثم قالت : لا أنضح قومي سائر اليوم ؛ فالتفت<sup>(٢)</sup> ،  
وفرق رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما ، وولدت غلاما كأنه جمل أودق<sup>(٣)</sup> - على التثنية  
المكروه - ثم كان الغلام بعد ذلك أميرا بمصر ، وهو لا يعرف لنفسه أباً . وجاء أيضا  
عويمر الجعلاي فرمى امرأته ولاعن . والمشهور أن نازلة هلال كانت قبل ، وأنها سبب  
الآية . وقيل : نازلة عويمر بن أشقر كانت قبل ؛ وهو حديث صحيح مشهور ترجمه الأئمة .

١ - أى الشهادة الخامسة موجبة للعدا الأليم ان كانت كاذبة . (٢) أريد باليوم الجنس ؛  
أى جميع الأيام . (٣) الأودق من الإبل : الذى فى لونه يباصر الى سواد .

قال أبو عبد الله بن أبي صُفرة : الصحيح أن الفاذف لزوج عويمر ، وهلال بن أمية خطأ .  
قال الطبري يستكر قوله في الحديث هلال بن أمية : وإنما الفاذف عويمر بن زيد بن الحنظل  
ابن العجلاني ، شهد أحدًا مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وماها بشريك بن السَّهْماء ، والسَّهْماء  
أمه ، قيل لها ذلك لسوادها ، وهو ابن عبدة بن الحنظل بن العجلاني ؛ كذلك كان يقول أهل  
الأخبار . وقيل : قرأ النبي صلى الله عليه وسلم على الناس في الخطبة يوم الجمعة « والذين  
يؤمنون المحصنات » فقال عاصم بن عدي الأنصاري : جعلني الله فداك ! لو أن رجلاً مات وجد  
على بطن امرأته رجلاً ، فتكلم فأخبر بما جرى جلد ثمانين ، وسماء المسلمون فاسقا فلا تقبل  
شهادته ؛ فكيف لأحدنا عند ذلك بأربعة شهداء ، وإلى أن يلتمس أربعة شهود فقد فرغ  
الرجل من حاجته ! فقال عليه السلام : « كذلك أنزلت يا عاصم بن عدي » . ففرج عاصم سامعا  
مطعيا ؛ فاستقبله هلال بن أمية يسترجع ؛ فقال : ما واصلك ؟ فقال : شر ! وجدت شريك بن  
السَّهْماء على بطن امرأتى خولة يزني بها ؛ وخولة هذه بنت عاصم بن عدي ، كذا في هذا الطريق  
أن الذي وجد مع امرأته شريكا هو هلال بن أمية ، والصحيح خلافه حسبما تقدم بيانه .  
قال الكلبي : والأظهر أن الذي وجد مع امرأته شريكا عويمر العجلاني ؛ لكثرة ما روى أن  
النبي صلى الله عليه وسلم لادن بين العجلاني وامرأته . واتفقوا على أن هذا الزاني هو شريك  
ابن عبدة وأمه السَّهْماء ، وكان عويمر وخولة بنت قيس وشريك بن عاصم ، وكانت هذه  
القصة في شعبان سنة تسع من الهجرة ، منصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من تبوك إلى  
المدينة ؛ قاله الطبري . وروى الدراطيني عن عبد الله بن جعفر قال : حضرت رسول الله  
صلى الله عليه وسلم حين لادن بين عويمر العجلاني وامرأته ، مرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم  
من غزوة تبوك ، وأنكر حملها الذي في بطنها وقال هو لادن السَّهْماء ؛ فقال له رسول الله صلى  
الله عليه وسلم : « لِمَ أتت امرأتك فقد نزل القرآن فيكما » ؛ فلاعن بينهما بعد العصر عند المنبر  
على تمل . في طريقه الواقدي عن الضحاک بن عثمان عن عمران بن أبي أنس قال : سمعت  
عبد الله بن جعفر يقول ... .. فذكره .

الثالثة - قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ ﴾ عام في كل رَمَى ، سواء قال : زنيته أو بازانيتها أو رأيتها زنى ، أو هذا الولد ليس منى ؛ فإن الآية مشتملة عليه . ويجب اللعان إن لم يأت بأربعة شهداء ؛ وهذا قول جمهور العلماء وعامة الفقهاء وجماعة أهل الحديث . وقد روى عن مالك مثل ذلك . وكان مالك يقول : لا يلاعن إلا أن يقول : رأيتك تزنى ؛ أو ينفي حملا أو ولدا منها . وقول أبي الزناد ويحيى بن سعيد والبقى مثل قول مالك : إن الملاعة لا تجب بالقذف ، وإنما تجب بالرؤية أو نفي الحمل مع دعوى الاستبراء ؛ هذا هو المشهور عند مالك ، وقاله ابن القاسم . والصحيح الأول لمعوم قوله : « وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ » . قال ابن العربي : وظاهر القرآن يكفى لإيجاب اللعان بمجرد القذف من غير رؤية ؛ فتقوموا عليه ، لا سيما وفي الحديث الصحيح : رأيت رجلا وجد مع امرأته رجلا ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « فأذهب فات بها » ولم يكلفه ذكر الرؤية . وأجمعوا أن الأعمى بلاعن إذا قذف امرأته . ولو كانت الرؤية من شرط اللعان ما لاعن الأعمى ؛ قاله ابن عمر رضى الله عنهما . وقد ذكر ابن القصاص عن مالك أن لسان الأعمى لا يصح إلا أن يقول : لمست فرجه في فرجها . والجهة لمالك ومن أتبعه ما رواه أبو داود عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : جاء هلال بن أمية وهو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم ، فجاء من أرضه عشاء فوجد عند أهله رجلا ، فرأى بينه وسمعه بأذنه فلم يَبْجِهْ حتى أصبح ، ثم غدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، إني جئت أهل عشاء فوجدت عندهم رجلا ، فرأيت بيني وسمعت بأذني ؛ ففكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ما جاء به واشتد عليه ؛ فزلت « والذين يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ ولم يكن لهم شُهداء إلا أَنْفُسُهُمْ » الآية ؛ وذكر الحديث . وهو نص على أن الملاعة التي قضى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما كانت في الرؤية ، فلا يجب أن يُتَمَدَّى ذلك . ومن قذف امرأته ولم يذكر رؤية حد ؛ لمعوم قوله تعالى : « وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ » .

الرابعة - إذا نفي الحمل فإنه يلحق ؛ لأنه أقوى من الرؤية ولا بد من ذكر عدم الوطء والاستبراء بعده . واختلف عما إذا نفي الاستبراء ؛ فقال النخعي ومالك في أحد قوليهما : يحزى في ذلك حيضة . وقال مالك أيضا : لا ينبغي إلا بثلاث حيض . والصحيح الأول ؛ لأن برائة الرحم من الشغل يقع بها كما في استبراء الأمة ، وإنما رأتها الثلاث حيض في العدد لحكم آخر يأتي بيانه في الطلاق إن شاء الله تعالى . وحكى النخعي عن مالك أنه قال مرة : لا يثنى الولد بالاستبراء ؛ لأن الحيض يأتي على الحمل . وبه قال أشهب في كتاب ابن المؤاز ؛ وقاله النخعي . وقال : لا يثنى الولد إلا بنحو سنين لأنه أكثر مدة الحمل على ما تقدم .

الخامسة - اللعان عندنا يكون في كل زوجين حرين كانا أو عبيدين ، مؤمنين أو كافرين ، فاسقين أو عدلين . وبه قال الشافعي . ولا لدان بين الرجل وأمه ، ولا بينه وبين أم ولده . وقيل : لا يثنى ولد الأمة عنه إلا بين واحدة ؛ بخلاف اللعان . وقد قيل : إنه إذا نفي ولد أم الولد لآخر . والأوّل تحصيل مذهب مالك ، وهو الصواب . وقال أبو حنيفة : لا يصح اللعان إلا من زوجين حرين مسلمين ؛ وذلك لأن اللعان عنده شهادة ، وعندنا وعند الشافعي يمين ، فكل من صحت يمينه صح قذفه ولعانه . وأتفقوا على أنه لا بد أن يكونا مكففين . وفي قوله : « وجد مع امرأته رجلا » . دليل على أن الملاعة تجب على كل زوجين ؛ لأنه لم يخص رجلا من رجل ولا امرأة من امرأة ، ونزلت آية اللعان على هذا الجواب فقال : « والذين يرمون أزواجهن » ولم يخص زوجا من زوج . وإلى هذا ذهب مالك وأهل المدينة ؛ وهو قول الشافعي وأحمد وإسحاق وأبي عبيد وأبي ثور . وأيضاً فإن اللعان يوجب مسح النكاح فاشبه الطلاق ؛ فكل من يجوز طلاقه يجوز لعانه . واللعان إيمان لا شهادات ؛ قال الله تعالى وهو أصدق القائلين : « لَشَّاهَدَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا » أي إيماننا . وقال تعالى : « إذا جاءك المنافقون قَالُوا اتَّبِعْنَا إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ » ثم قال تعالى : « اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً » .

(١) أي قول عمر ، أو غيره على الخلاف المتقدم . وفي الأصول : « وفي قوله مسل الله طبعه ومسل وجه ... الخ » وهو محرف .  
(٢) آية ١٠٧ سورة المائدة . راجع ج ٦ ص ٢٥٩  
(٣) آية ١١٦ سورة المجادلة .

وقال عليه السلام: "لولا الأيمان لكان لي ولها شأن". وأما ما أحتج به الثوري وأبو حنيفة فهمي جميع لا تقوم على سابق؛ منها حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أربعة ليس بينهم إيمان ليس بين الحر والأمة لعان وليس بين الحرة والعبد لعان وليس بين المسلم واليهودية لعان وليس بين المسلم والنصرانية لعان". أخرجه الدارقطني من طرق ضعفها كلها. وروى عن الأوزاعي وابن جريج وهما إمامان عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قوله، ولم يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم. واحتجوا من جهة النظر أن الأوزاعي لما استنوا من جملة الشهداء بقوله « ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم » وجب ألا يلعن إلا من تحوز شهادة. وأيضاً فلو كانت ميتاً ما رُدَّتْ، والحكمة في ترديدها قياماً في الأعداد مقام اليهود في الرن. قلنا: هذا يسلط بيمين القسامة فإنها تُكرَّر وليست بشهادة إجماعاً؛ والحكمة في تكرارها التليظ في الفروج والدماء. قال ابن العربي: والقبيل في أنها عين لا شهادة أن الزوج يحلف لنفسه في إثبات دعواه وتخليصه من المذاب، وكيف يجوز لأحد أن يدعى في الشريعة أن شاهداً يشهد لنفسه بما يوجب حكماً على غيره! هذا بعيد في الأصل معدوم في النظر.

السادسة — واختلف العلماء في ملائحة الأخرس؛ فقال مالك والشافعي: يلعن؛ لأنه ممن يصح طلاقه وظهاره وإبلاؤه، إذا فهم ذلك عنه. وقال أبو حنيفة: لا يلعن؛ لأنه ليس من أهل الشهادة، ولأنه قد ينطق بلسانه فينكر اللعان، فلا يمكننا إقامة الحد عليه. وقد تقدم هذا المعنى في سورة « مريم » والدليل عليه، والحمد لله.

السابعة — قال ابن العربي: رأى أبو حنيفة عموم الآية فقال: إن الرجل إذا قذف زوجته بالزنى قبل أن يتزوجها فإنه يلعن؛ ونسى أن ذلك قد تضمنه قوله تعالى: « والذين يرمون المحصنات » وهذا وماها عصمة غير زوجة؛ وإنما يكون اللعان في قذف يلحق فيه النسب، وهما قذف لا يلحق فيه نسب فلا يوجب لعاناً، كما لو قذف أختية.

الثامنة — إذا قذفها بعد الطلاق سرت ، فإن كان هناك نسب يريد أن يتبعه أو حمل يتبرأ منه لاعتن وإلا لم يلاعن . وقال عثمان البتي : لا يلاعن بحال لأنها ليست بزوجة . وقال أبو حنيفة : لا يلاعن في الوصيين ؛ لأنها ليست بزوجة . وهذا يقتض عليه بالقذف قبل الزوجية كما ذكرناه آنفاً ، بل هذا أولى ؛ لأن النكاح قد تقدم وهو يريد الانتفاء من النسب وتبرئته من ولد يلحق به فلا بُدَّ من اللعان . وإذا لم يكن هناك حمل يرجى ولا نسب يخاف تناقله لم يكن للمان فائدة فلم يحكم به ، وكان قذفاً مطلقاً داخلاً تحت عموم قوله تعالى : « والذين يرمون المحصنات » الآية ، فوجب عليه الحد و بطل ما قاله البتي لظهور فساد .

التاسعة — لا ملاعنة بين الرجل وزوجته بعد انقضاء العدة إلا في مسئلة واحدة ، وهي أن يكون الرجل غائباً فأتى امرأته بولد في مغيبه وهو لا يعلم فيقطعها فتنتقض عقتها ، ثم يقدم فيتبعه فله أن يلاعنها حاجتها بعد العدة . وكذلك لو قدم بعد وفاتها ونفى الولد لاعتن لنفسه وهي ميتة بعد مدة من العدة ، ورثها لأنها ماتت قبل وقوع الفرقة بينهما .

العاشرة — إذا انتفى من الحمل ووقع ذلك بشرطه لاعتن قبل الوضع ؛ وبه قال الشافعي . وقال أبو حنيفة : لا يلاعن إلا بعد أنت تضع ، لأنه يحتمل أن يكون ريماء أو داء من الأدواء . ودليلنا النص الصريح بأن النبي صلى الله عليه وسلم لاعتن قبل الوضع ، وقال : « أنت جاءت به كذا فهو لأبيه وإن جاءت به كذا فهو لفلان » بغابت به على النعت المذكور .

الحادية عشرة — إذا قذف بالوطء في الدبر [زوجته] لاعتن . وقال أبو حنيفة : لا يلاعن ؛ وبناء على أصله في أن اللواط لا يوجب الحد . وهذا فاسد ؛ لأن الرمي به فيه معزة وقد دخل تحت عموم قوله تعالى : « والذين يرمون أزواجهم » وقد تقدم في « الأعراف » ، والمؤمنون أنه يجب به الحد .

(١) راجع ٧ من ٢٤٣ وما بعدها . (٢) راجع ١٠٦ من هذا المجلد .



الثانية عشرة - قال ابن العربي: من غريب أمر هذا الرجل أنه [قال] إذا قذف زوجته وأمتها بالزنى: إنه إن حد للأُم سقط حد البنت، وإن لآعن البنت لم يسقط حد الأم؛ وهذا لا وجه له، وما رأيت لم [فيه] شيئا يحكى، وهذا باطل جداً؛ فإنه خص عموم الآية في البنت وهي زوجة بحد الأم من غير أنزول أصل قاسه عليه.

الثالثة عشرة - إذا قذف زوجته ثم زنت قبل النكاح فلا حد ولا لعان. وبهذا قال أبو حنيفة والثقات؛ وأكثر أهل العلم. وقال الثوري والمزني: لا يسقط الحد عن القاذف؛ وزنى المقدوف بعد أن قذف لا يقدح في حصاته المتقدمة ولا يرفعها؛ لأن الاحتياط الحصانة والعفة في حال القذف لا يبدء. كما لو قذف مساماً فارتد المقدوف بعد القذف وقبل أن يحذف القاذف لم يسقط الحد عنه. وأيضاً فإن الحدود كلها معتبة بوقت الوجوب لا وقت الإقامة. ودليلنا هو أنه قد ظهر قبل استيفاء اللعان والحد معنى لو كان موجوداً في الابتداء منع صحة اللعان وجوب الحد، فكذلك إذا طرأ في الثاني؛ كما إذا شهد شاهدان ظاهرهما المدللة فلم يحكم الحاكم بشهادتهما حتى ظهر فسقهما بأن زنيا أو شرباً عمراً فلم يحز لهما أن يحكم بشهادتهما ذلك. وأيضاً فإن الحكم بالعفة والإحصان يؤخذ من طريق الظاهر لا من حيث القطع واليقين، وقد قال عليه السلام: "ظهور المؤمن جرمي"، فلا يحذف القاذف إلا بدليل قاطع، وبالله التوفيق.

الرابعة عشرة - من قذف امرأته وهي كبيرة لا تحمل تلعن؛ وهولنع الحد، وهي لدرء العذاب. فإن كانت صغيرة لا تحمل لا لعن؛ وهولنع الحد ولم تلعن هي لأنها لو أنكرت لم يلزمها شيء. وقال ابن المايثون: لا حد على قاذف من لم تبلغ. قال القتيبي: فعلى هذا لا لعان على زوج الصغيرة التي لا تحمل.

الخامسة عشرة - إذا شهد أربعة على امرأة بالزنى أحدهم زوجها فإن الزوج يلعن ويحذف الشهود الثلاثة؛ وهو أحد قولي الشافعي. والقول الثاني أنهم لا يحذفون. وقال أبو حنيفة: إذا شهد الزوج والثلاثة ابتداءً قبلت شهادتهم وحلت المرأة. ودليلنا قوله

تعالى : « والذين يرمون المحصنات » الآية . فاخبر أن من قذف عصباً ولم يأت بآربعة شهداء ، حُدِّ فظاهره يقتضى أن يأتى بآربعة شهداء سوى الراى ، والزوج راى زوجته فخرج عن أن يكون أحد الشهود . والله أعلم .

السادسة عشرة - إذا ظهر بامرأته حمل فترك أن ينفيه لم يكن له نفيه بعد سكوته . وقال سُريج ومجاهد : له أن ينفيه أبداً . وهذا خطأ ، لأن سكوته بعد العلم به رضى به ؛ كما لو أقر به ثم ينفيه فإنه لا يقبل منه ، والله أعلم .

السابعة عشرة - فإن أئردك إلى أن وضعت وقال : رجوت أن يكون ربحاً ينقش أو تسقط فاسترجع من القذف ؛ فهل لنفيه بعد وضعه مدة ما فإذا تجاوزها لم يكن له ذلك ؛ فقد اختلف فى ذلك ، فنحن نقول : إذا لم يكن له عذر فى سكوته حتى مضت ثلاثة أيام فهو راض به ليس له نفيه ؛ وبهذا قال الشافى . وقال أيضا : متى أمكنه نفيه على ما جرت به العادة من تمكنه من الحاكم فلم يفعل لم يكن له نفيه من بعد ذلك . وقال أبو حنيفة : لا اعتبر مدة . وقال أبو يوسف ومحمد : يعتبر فيه أربعون يوما ، مدة الفاس . قال ابن القصار : والدليل لقولنا هو أن تى ولده محرم عليه ، وأستحاق ولد ليس منه محرم عليه ، فلا بد أن يوسع عليه لكى ينظر فيه ويحكم ، هل يجوز له نفيه أولا . وإنما جعلنا الحد ثلاثة لأنه أول حد الكثرة وأحرحد القلة ، وقد جعلت ثلاثة أيام يختبر بها حال المرأة ؛ فكذلك ينبغي أن يكون هنا . وأما أبو يوسف ومحمد فليس اعتبارهم بأولى من اعتبار مدة الولادة والرضاع ؛ إذ لا شاهد لهم فى الشريعة ، وقد ذكرنا نحن شاهدا فى الشريعة من مدة الحضرة .

الثامنة عشرة - قال ابن القصار : إذا قالت امرأة زوجها أو لأجنبى يازانيه - باللهاء - وكذلك الأجنبى لأجنبى ، فليست أعرف فيه نصاً لأصحابنا ، ولكنه عندى يكون قذفاً وعلى قائله الحد ، وقد زاد حرقاً ؛ وبه قال الشافى ومحمد بن الحسن . وقال أبو حنيفة وأبو يوسف :

(١) المرأة : ثلاثة أو الفقرة أو الشاة تمرأ أخلانها ولا تحلب ألبانها حتى يمنع اللبن من ضررها ، فإذا حلبها المشتري استقرها . ومن الحديث : " من اشترى امرأة فهو بخير النظرين " أى خير الأمرين ؛ إما إنساك المبيع أو رده .

لا يكون قذفاً . واتفقوا أنه إذا قال لأمرأته يازان أنه قذف . والدليل على أنه يكون في الربيل قذفاً هو أن الخطاب إذا فهم به معناه ثبت حكمه ، سواء كان بلفظ أجمعى أو عربى .  
 ألا ترى أنه إذا قال لمرأة زيت ( يفتح التاء ) كان قذفاً ؛ لأن معناه بضمهم منه . ولأبى حنيفة وأبى يوسف أنه لما جاز أن يُخاطب المؤن بخطاب المذكر لقوله تعالى : « وقال نسوة » صالح أن يكون قوله يازان للؤن قذفاً . ولما لم يحز أن يؤن فصل المذكر إذا تقدم عليه لم يكن مخاطبه بالمؤن حكماً ، والله أعلم .

التاسعة عشرة - يلاعن في النكاح الفاسد زوجته لأنها صارت فراشا ويلحق بالنسب فيه بغيري اللعان عليه .

المؤسفة عشرين - اختلفوا في الزوج إذا أبى من الألتعان ؛ فقال أبو حنيفة : لاخذ عليه ؛ لأن الله تعالى جعل على الأجنبي الحد وعلى الزوج اللعان ، فلما لم ينتقل اللعان إلى الأجنبي لم ينتقل الحد إلى الزوج ، ويسجن أبداً حتى يلاعن لأن الحدود لا تؤثر قياساً .  
 وقال مالك والشافعى وجهود الفقهاء : إن لم يلتمن الزوج حدّاً ؛ لأن اللعان له برائة كالشهود للأجنبي ، فإن لم يأت الأجنبي بأربعة شهداء حدّاً ، فكذلك الزوج إن لم يلتمن . وفى حديث السجلاين ما يدل على هذا ؛ لقوله : إِنْ سَكَتَ بَكَتْ عَلَى غَيْظٍ وَإِنْ قُتِلَتْ قُتِلَتْ وَإِنْ نَطَقَتْ نَبِلَتْ .

الحادية والعشرون - واختلفوا أيضاً هل للزوج أن يلاعن مع شهوده ؛ فقال مالك والشافعى : يلاعن كان له شهود أو لم يكن ؛ لأن الشهود ليس لهم عمل في غير درة الحد ؛ وأما رفع القرائن ونفى الولد فلا بد فيه من اللعان . وقال أبو حنيفة وأصحابه : إنما جعل اللعان للزوج إذا لم يكن له شهود غير نفسه ؛ لقوله تعالى : « وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ » .  
 الثانية والعشرون - البداءة في اللعان بما بدأ الله به ، وهو الزوج ؛ وقائمه درة الحد عنه ونفى النسب منه ؛ لقوله عليه السلام : « الْيَنَةُ وَالْإِخْدُ فِي ظَهْرِكَ » . ولو بُدئَ المرأة قبله لم يحز ؛ لأنه عكس ما رتبته الله تعالى . وقال أبو حنيفة : يجوز . وهذا باطل ؛ لأنه

خلاف القرآن، وليس له أصل يرد إليه ولا معنى يقوى به، بل المعنى لنا، لأن المرأة إذا بدأت باللعان فتفى ما لم يثبت وهذا لا وجه له.

الثالثة والمشرون - وكيفية اللعان أن يقول الحاكم للاعم: قل أشهد بالله لأيتها زنى ورأيت فرج الزانى في فرجها كالمرود في المكحلة وما وطنها بعد رؤيى. وإن شئت قلت: لقد زنت وما وطنها بعد زناها. يردّد ماشاء من هذين اللفظين أربع مرّات، فإن تكلم من هذه الأيمان أو عن شيء منها حدّ، وإذا تى حملا قال: أشهد بالله لقد استبرأتها وما وطنها بعد، وما هذا الحمل منى؛ ويشير إليه؛ فيحلف بذلك أربع مرّات ويقول في كل يمين منها: وإنى لمن الصادقين في قولى هذا عليها. ثم يقول فى الخامسة «على لعنة الله إن كنت من الكاذبين». وإن شاء قال: إن كنت كاذبا فيما ذكرت عنها. فإذا قال ذلك سقط عنه الحدّ وانتهى عنه الولد. فإذا فرغ الرجل من التعمانه قامت المرأة بعده خلعت بالله أربعة أيمان، تقول فيها: أشهد بالله إنه لكاذب، أو إنه لمن الكاذبين فيما أذعاه على وذكر عنى. وإن كانت حاملا قالت: وإن حمل هذا منه. ثم تقول فى الخامسة: وعلى غضب الله إن كان صادقا، أو إن كان من الصادقين في قوله ذلك. ومن أوجب اللعان بالخذف يقول في كل شهادة من الأربع: أشهد بالله إنى لمن الصادقين فيما رميت به فلانة من الزنى. ويقول فى الخامسة: على لعنة الله إن كنت كاذبا فيما رميت به من الزنى. وتقول هى: أشهد بالله إنه لكاذب فيما رمانى به من الزنى. وتقول فى الخامسة: على غضب الله إن كان صادقا فيما رمانى به من الزنى. وقال الشافعى: يقول الملاعن أشهد بالله إنى لمن الصادقين فيما رميت به زوجى فلانة بنت فلان، ويشير إليها إن كانت حاضرة، يقول ذلك أربع مرّات، ثم يوعظه الإمام ويذكره الله تعالى ويقول: إنى أخاهم إن لم تكن صدقت أن تبوء لعنة الله؛ فإن رآه يريد أن يعضى على ذلك أسر من يضع يده على فيه، ويقول: إن قولك وعلى لعنة الله إن كنت من الكاذبين موجبا؛ فإن أبى تركه يقول ذلك: لعنة الله على إن كنت من الكاذبين فيما رميت به فلانة من الزنى. احتج بما رواه أبو داود عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أسر رجلا حيث أمر الملائكتين أن يضع يده على فيه عند الخامسة يقول: إنها سرجية.

الرابعة والعشرون — اختلف العلماء في حكم من قذف امرأته برجل سماه ، هل يحذف أم لا ؛ فقال مالك : عليه اللعان لزوجه ، رسته لريم . وبه قال أبو حنيفة ؛ لأنه قاذب لمن لم يكن له ضروره إلى قذفه . وقال الشافعي : لا حد عليه ؛ لأن الله عز وجل لم يجعل على من رمى زوجته بالزنى إلا حداً واحداً بقوله : « والذين يرمون أزواجهم » ، ولم يفرق بين من ذكر رجلا بعينه وبين من لم يذكره ؛ وقد رمى العجلاني زوجته بشريك وكذلك هلال ابن أمية ؛ فلم يحذف واحد منهما . قال ابن العربي : وظاهر القرآن لنا ؛ لأن الله تعالى وضع الحد في قذف الأجنبية والزوجة حطمتين . ثم خفف حد الزوجة بالخص باللعان وبقي الأجنبية على مطابق الآية . وإنما لم يُعَدَّ عجلاني لشريك ولا هلال لأنه لم يطلبه ؛ وحد القذف لا يقيمه الإمام إلا بعد المطالبة إجماعاً ، متا ومته .

الخامسة والعشرون — إذا فرغ المتلاعنان من تلاعتهما جميعاً فترقا وخرج كل واحد منهما على باب من المسجد الجامع غير الباب الذي يخرج منه صاحبه ، ولو خرجا من باب واحد لم يضر ذلك لاعتنهما . ولا خلاف في أنه لا يكون اللعان إلا في مسجد جامع تجمع فيه الجمعة بحضرة السلطان أو من يقوم مقامه من الحكام . وقد استحب جماعة من أهل السلم أن يكون اللعان في الجامع بسد مصر . وتقتن النصراية من زوجها المسلم في الموضع الذي تعظم من كنيستها مثل ما تلتفت به المسلمة .

السادسة والعشرون — قال مالك وأصحابه : وبجسام اللعان تقع الفرقة بين المتلاعتين ، فلا يجتمعان أبداً ولا يتوارثان ، ولا يحل له مراجعتها أبداً لا قبيل زوج ولا بعده ؛ وهو قول الليث بن سعد وزُقر بن الهذيل والأوزاعي . وقال أبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد بن الحسن : لا تقع الفرقة بعد فراغهما من اللعان حتى يفرق الحاكم بينهما ؛ وهو قول الثوري ؛ لقول ابن عمر : فرق رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المتلاعتين ؛ فأضاف الفرقة إليه ، وقوله عليه السلام : " لا سبيل لك عليها " . وقال الشافعي : إذا أكل الزوج الشهادة والأكتنان فقد زال فراش أمرائه ، التنتت أو لم تنتن . قال : وأما الثمان المرأة فإنما هو لدنر الحد عنها لا غير ؛ وليس لأكتننها في زوال الفراش معنى . ولما كان لعان الزوج ينفي

الولد ويسمى الخد رفع الفراش . وكان عثمان البتي لا يرى التلاع ينقص شيئا من عصمة الزوجين حتى يطلق . وهذا قول لم يتقدمه إليه أحد من الصحابة ؛ على أن البتي قد استحب للتلاع أن يطلق بعد اللعان ، ولم يستحسنه قبل ذلك ؛ فدل على أن اللعان عنده قد أحدث حكما . ويقول عثمان قال جابر بن زيد فيما ذكره الطبري ، وحكاه القتيبي عن محمد بن أبي صفرة . ومشهور المذهب أن نفس تمام اللعان بينهما فرقة . واحتج أهل هذه المقالة بأنه ليس في كتاب الله تعالى إذا لاعن أو لاعتن يجب وقوع الفرقة ، ويقول عويمر : كذبت عليها إن أمسكتها ؛ فطلقها ثلاثا ، قال : ولم ينكر النبي صلى الله عليه وسلم ذلك عليه ولم يقل له لم قلت هذا ، وانت لا تحتاج إليه ؛ لأن باللعان قد طلقت . والحجة لمالك في المشهور ومن وافقه قوله عليه السلام " لا سبيل لك عليها " . وهذا إعلام منه أن تمام اللعان رفع سبيله عنها وليس تفريقه بينهما باستئناف حكم ، وإنما كان تنفيذا لما أوجب الله تعالى بينهما من المبادأة ، وهو معنى اللعان في اللغة .

السابعة والعشرون - ذهب الجمهور من العلماء أن المتلاعنين لا يتناكحان أبدا ، فإن أكذب نفسه جلد الخد ولحق به الولد ، ولم ترجع إليه أبدا . وعلى هذا السنة التي لا شك فيها ولا اختلاف . وذكر ابن المنذر عن عطاء أن الملاعن إذا أكذب نفسه بعد اللعان لم يحد ، وقال : قد تفرقا لمعنة من الله . وقال أبو حنيفة ومحمد : إذا أكذب نفسه جلد الخد ولحق به الولد ، وكان خاطبا من الخطاب إن شاء ؛ وهو قول سعيد بن المسيب والحسن وسعيد بن جبير وعبد العزيز بن أبي سلمة . وقالوا : يعود النكاح حلالا كما لحق به الولد ؛ لأنه لا فرق بين شيء من ذلك . وحجة الجماعة قوله عليه السلام : " لا سبيل لك عليها " ؛ ولم يقل إلا أن تكذب نفسك . وروى ابن إسحاق وجماعة عن الزهري قال : فضت السنة أنهما إذا تلاعنا فزق بينهما فلا يجتمعان أبدا . ورواه الدارقطني ، ورواه مرفوعا من حديث سعيد بن جبير عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " المتلاعنان إذا اتفقا لا يجتمعان أبدا " . روى عن علي وعبد الله قالوا : مضت السنة ألا يجتمع المتلاعنان . عن علي : أبدا .

الثامنة والعشرون - اللعان يقتصر على أربعة أشياء :

عدد الألفاظ - وهو أربع شهادات على ما تقدم .

والمكان - وهو أن يقصد به أشرف البقاع بالبلدان، إن كان بمكة فعند الزكن والمقام، وإن كان بالمدينة فعند المنبر، وإن كان بيت المقدس فعند الصخرة، وإن كان في سائر البلدان ففي مساجدها، وإن كانا كافرين بُعث بهما إلى الموضع الذي يستقدان تعظيمه، إن كانا يهوديين فالكنيسة، وإن كانا مجوسيين ففي بيت النار، وإن كانا لا دين لهما مثل الوثنيين فإنه يلاع بينهما في مجلس حكمة .

والوقت - وذلك بعد صلاة العصر .

وجمع الناس - وذلك أن يكون هناك أربعة أنفس فصامداً ؛ فاللفظ وجمع الناس ؛

مشروطان ، والزمان والمكان مستحجان .

التاسعة والعشرون - من قال : إن الفراق لا يقع إلا بتام التانها ، ف عليه لو مات أحدهما قبل تمامه ورثه الآخر . ومن قال : لا يقع إلا بتفريق الإمام مات أحدهما قبل ذلك وتام اللعان ورثه الآخر . وعلى قول الشافعي : إن مات أحدهما قبل أن تثنى المرأة لم يتوارثا .

الموفية ثلاثين - قال ابن القصار : تفريق اللعان عندنا ليس بفسخ ؛ وهو مذهب المدونة : فإن اللعان حكم تفريقه حكم تفريق الطلاق ، ويعطى لغير المدخول بها نصف الصداق ، وفي مختصر ابن الجلاب : لا شيء لها ؛ وهذا على أن تفريق اللعان فسخ .

قوله تعالى : **إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِآيَاتِكَ عُصْبَةٌ مِّنْكَ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلٌّ هُوَ خَيْرٌ لِّكُم لِّكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِنْفِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبِيرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ الْمُشْرِكِينَ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَاءُوا**

لَيْسَ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ  
الْكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ  
لَنَسَكَّرَ فِي مَا تَقْتَضِي فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْتَ  
وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسِبُونَهُ هينًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ  
عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا  
سُبْحَنَكَ هَذَا بَيْنُنَا عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعْظُمُكَ اللَّهُ أَنْ تَعُدُّوا لِعِزَّتِهِ أَبَدًا  
إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيَبِينُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾  
إِنَّ الَّذِينَ يُجَاهِدُونَ أَنْ تَشِيعَ الْفِتْنَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ  
فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ  
عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٢٠﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا  
لَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوبَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ  
بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ  
مَنْ أَحَدٌ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾  
وَلَا يَأْتِلِ أُولَئِكَ الْفَضْلَ مِنْكُمْ وَالسَّعَةَ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى  
وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَصْفَحُوا أَلَا يُحِبُّونَ  
أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢﴾



فيه ثمان وعشرون مسألة :<sup>(١)</sup>

الأول - قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ ﴾ « عُصْبَةٌ » خبر  
« إِنَّ » . ويعوز نصبها على الحال ، ويكون الخبر « لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ » .  
وسبب نزولها ما رواه الأئمة من حديث الإفك الطويل في قصة عائشة رضوان الله عليها ،  
وهو خير صحيح مشهور ، أغنى اشتغاره عن ذكره ، وسيأتي مختصرا . وأخرجه البخاري تعليقا ،  
وحديثه أتم . قال : وقال أسامة عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة : « وأخبره أيضا  
عن محمد بن كثير عن أخيه سليمان من حديث مسروق عن أم رومان أم عائشة أنها قالت :  
لما رُئيت عائشة نعتت منسيا عليها . وعن موسى بن إسماعيل من حديث أبي وائل قال :  
حدثني مسروق بن الأجدع قال حدثتني أم رومان وهي أم عائشة قالت : بينا أنا قاضية  
أنا وعائشة إذ ولحت امرأة من الأنصار فقالت : فعل الله بفلان وفعل [ بفلان ] ! فقالت  
أم رومان : وما ذاك ؟ قالت آبن فيمن حدث الحديث ! قالت : وما ذاك ؟ قالت : كذا  
وكذا . قالت عائشة : سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت نعم . قالت : وأبو بكر ؟  
قالت نعم ! فغزت منسيا عليها ، فما أفاقت إلا وعليها حمى بنافض ، فطرحت عليها ثيابها  
فغطيتها ، فبها النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « ما شأن هذه ؟ » فقلت : يا رسول الله ،  
أخذتها الحمى بنافض . قال : « فمسل في حديث محمد <sup>(٢)</sup> » . قالت نعم . فقدمت عائشة  
فقال : والله ، إني حلفت لا تصدقوني ! ولئن قلت لا تصدقوني ! مثل وستكم كيغوبه  
وبله ، والله المستعان على ما تصفون . قالت : وانصرف ولم يقل شيئا ، فأنزل الله طهرها .  
قالت : بحمد الله لا بحمد أحد ولا بحمدك . قال أبو عبد الله الهيدى : كان بعض من لقينا من الحفاظ  
البناديين يقول الإرسال في هذا الحديث آيين ، واستدل على ذلك بأن أم رومان توفيت  
في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وضروقه لم يشاهد النبي صلى الله عليه وسلم بلا خلاف .  
ولا بخاري من حديث عبيد الله بن عبد الله بن أبي مليكة أن عائشة كانت تقرأ « إِذْ تَقُولُ :  
(١) يلاحظ أن المسائل سبع وعشرون . (٢) أي ردة . (٣) إذ قال في محبة :  
والله المستعان ... الخ .

وَالْيَسِيَّتُمْ . وَتَقُولُ : الْوَلِيُّ الْكَذِبُ . قَالَ ابْنُ أَبِي مَلِيكَةَ : وَكَانَتْ أَعْلَمُ بِذَلِكَ مِنْ غَيْرِهَا لِأَنَّهَا  
 نَزَلَتْ فِيهَا . قَالَ الْبَخَارِيُّ : وَقَالَ مَعْمَرُ بْنُ زَائِدٍ عَنْ الزَّهْرِيِّ : كَانَ حَدِيثُ الْإِنْفَكِ فِي غَزْوَةِ  
 الْكُرَيْبِ . قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ : وَذَلِكَ سَنَةُ سِتٍّ . وَقَالَ مُوسَى بْنُ عَقِبَةَ : سَنَةُ أَرْبَعٍ . وَأَخْرَجَ  
 الْبَخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ مَعْمَرٍ عَنْ الزَّهْرِيِّ قَالَ قَالَ لِي الْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ : أَيْبَلُكَ إِنْ عَلِمْتَ أَنَّكَ  
 فِيمَنْ قَتَفَ ؟ قَالَ : قُلْتُ لَا ، وَلَكِنْ قَدْ أَخْبَرَنِي رَجُلَانِ مِنْ قَوْمِكَ أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ  
 وَأَبُو بَكْرٍ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ أَنَّ عَاشَةَ قَالَتْ لَهَا : كَانَ عَلِيٌّ مُسْلِمًا فِي شَأْنِهَا ،  
 وَأَخْرَجَهُ أَبُو بَكْرٍ الْإِسْمَاعِيلِيُّ فِي كِتَابِهِ الْمُنْجَرِجِ عَلَى الصَّحِيحِ مِنْ وَجْهِ آخَرٍ مِنْ حَدِيثِ مَعْمَرٍ عَنْ  
 الزَّهْرِيِّ ، وَفِيهِ : قَالَ كُنْتُ عِنْدَ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ فَقَالَ : الَّذِي تَوَلَّى كِبَرَهُ مِنْهُمْ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي  
 طَالِبٍ ؟ قُلْتُ لَا ، حَدَّثَنِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ وَعُرْوَةُ وَطَلْقَةُ وَعَبِيدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَتَبَةَ  
 كُلُّهُمْ يَقُولُ سَمِعْتُ عَاشَةَ تَقُولُ : وَالَّذِي تَوَلَّى كِبَرَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي . وَأَخْرَجَ الْبَخَارِيُّ أَيْضًا  
 مِنْ حَدِيثِ الزَّهْرِيِّ عَنْ عُرْوَةَ عَنْ عَاشَةَ : وَالَّذِي تَوَلَّى كِبَرَهُ مِنْهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي .

الثانية - قوله تعالى : ( يَا أَيُّهَا الْإِنْفَكُ ) الْإِنْفَكُ الْكَذِبُ . وَالْعَصْبَةُ ثَلَاثَةُ رِجَالٍ ؛ قَالَ  
 ابْنُ مَاسٍ . وَعَنْهُ أَيْضًا مِنَ الثَّلَاثَةِ إِلَى الْعَشْرِ . ابْنُ عُيَيْنَةَ : أَرْبَعُونَ رَجُلًا . مجاهد : من  
 عشرة إلى خمسة عشر . وأصلها في اللغة وكلام العرب الجماعة الذين يتعصب بعضهم لبعض .  
 والخير حقيقته ما زاد نفعه على ضرره . والشَّرُّ ما زاد ضرره على نفعه . وإِنَّ خَيْرًا لَا شَرَّ فِيهِ  
 هُوَ الْجَنَّةُ . وَشَرٌّ لَا خَيْرَ فِيهِ هُوَ جَهَنَّمُ . فَأَمَّا الْبَلَاءُ فَالْغُلُوزُ عَلَى الْأَوْلِيَاءِ فَهُوَ خَيْرٌ ؛ لِأَنَّ ضَرَرَهُ  
 مِنَ الْأَلَمِ قَلِيلٌ فِي الدُّنْيَا ، وَخَيْرُهُ هُوَ الثَّوَابُ بِالْكَثِيرِ فِي الْآخِرَةِ . فَبِهِ اللَّهُ تَعَالَى مُبَاشَّةً وَأَهْلًا  
 وَصَفْوَانِ ؛ إِذِ الْخَطَابُ لَهُمْ فِي قَوْلِهِ « لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلَى هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ » ؛ لِرَجْحَانِ النُّفْعِ  
 وَالْخَيْرِ عَلَى جَانِبِ الشَّرِّ .

الثالثة - لما أخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بمائنة معه في غَزْوَةِ بَنِي الْمُصْطَلِقِ  
 وَهِيَ غَزْوَةُ الْكُرَيْبِ ، وَقُتِلَ وَدَّانُ مِنَ الْمَدِينَةِ آذَنُ لَيْلَةَ بَارِئِيلَ قَامَتْ حِينَ أَذْنُوا بِالرَّحِيلِ  
 (١) أَيْ بَاقِي تَرَاتُبه . (٢) الَّذِي فِي الْبَخَارِيِّ « النَّهْانُ بْنُ وَائِدٍ » . (٣) قَوْلُهُ : « سَلَا »  
 بِكَسْرِ الْأَمِّ الْمُشَدَّدَةِ مِنَ الشَّيْءِ ؛ أَيْ سَاكَ فِي شَأْنِهَا . وَقِيلَ يَضَعُ النَّوْمَ مِنَ السَّلَاةِ مِنَ الْفَرَضِ فِيهِ .

فبقيت حتى جاوزت الجيش، فلما فرغت من شأنها أبلغت إلى الرسول فليست صدورها فإذ  
 عقد من بزع ظفاري قد انقطع، فرجعت فالتفتت فحسبها ابتناؤه، فوجدته وانصرف فلم يجد  
 أحدا، وكانت شابة قليلة العلم، فرجع الرجال فوجدوها ولم يشعروا بزوالها منه، فلما لم يجد أحدا  
 اضطلعت في مكانها رجاء أن تفتقد ففرج إليها، فقامت في الموضع ولم يوقظها إلا قول  
 صفوان بن المعطل: إنا لله وإنا إليه راجعون، وذلك أنه كان تخلف وراء الجيش لحفظ الساقة.  
 يقول: إنها استيقظت لاسترجاعه، ونزل عن ناقته وتيمى جنبها حتى ركبت عاتشة، وأخذ  
 يقودها حتى بلغ بها الجيش في نحر الظليمة؛ فوقع أهل الإفك في مقاتلهم، وكان الذي يجمع  
 إليه فيه ويستوشيه ويُسلمه عبدالله بن أبي أسول المناقي، وهو الذي رأى صفوان أخذ  
 بزمام ناقه عاتشة فقال: والله ما نجت منه ولا نجا منها، وقال: امرأة نيك بات مع رجل.  
 ركان من فائه حسان بن ثابت وسطح بن أتابمة وحمنة بنت جحش. هذا اختصار الحديث،  
 وهو بكاله وإتقانه في البخاري ومسلم، وهو في مسلم أكل. ولما بلغ صفوان قول حسان  
 في الإفك جاء فضربه بالسيف ضربة على رأسه وقال:

تلقى دباب السيف عنى فإنى . غلام إذا هوجيت ليس بشاعر

فأخذ جماعة حسان ولبيوه وجاءوا به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأهدر رسول الله صلى الله عليه  
 وسلم جرح حسان واستوحيه إياه. وهذا يدل على أن حسان ممن تولى الكبر؛ على ما يأتي والله أعلم.  
 وكان صفوان هذا صاحب ساقة رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزواته لشجاعته،  
 وكان من خيار الصحابة. وقيل: كان حصورا لا يأتي النساء؛ ذكره ابن إسحاق من طريق  
 عاتشة. وقيل: كان له ابنان؛ يدل على ذلك حديثه المروى مع أمراته، وقول النبي صلى  
 الله عليه وسلم في ابنه: "لما أشبه به من الغراب بالغراب". وقوله في الحديث: والله ما كتفت  
 كنف أثنى قط؛ يريد بؤنى. وقيل شهيدا رضى الله عنه في غزوة أرمينية سنة تسع عشرة  
 في زمان عمر؛ وقيل: ببلاد الروم سنة ثمان وخمسين في زمان معاوية.

- (١) الجزع (فتح الجيم وسكون الزاى) : خنز معروف في سواد بلاد كالعروق . وظفار (تكضار) :  
 يشبه بالخنزير . ينوشه : يستخرجه بالبحث والمالاة ثم يقشه ويشبهه ويحركه .  
 (٢) لب ثلاث قلائد : أخذ ثلاثة ؛ أجمع ثيابه عند صدره ونحوه في الخصومة ثم جره .

الرابعة - قوله تعالى : ( لِكُلِّ أُمَرٍي مِنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِنِّمِ ) يعني من يكلم  
بالإفك . ولم يُسم من أهل الإفك إلا حسان وسطع وحمنة وعبد الله ؛ ويجهل الغير ؛ قاله  
عروة بن الزبير ، وقد سأل عن ذلك عبد الملك بن مروان ، وقال : إلا أنهم كانوا عصبة ؛  
كما قال الله تعالى . وفي مصحف حفصة « عصبة أربعة » .

الخامسة - قوله تعالى : ( وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ ) وقرا حيد الأعرج وسقوط  
« كبره » بضم الكاف ؛ قال القراء : وهو وجه جيد ؛ لأن العريب يقول : فلان تولى عظم  
كذا وكذا ؛ أي اكبره . روى عن عائشة أنه حسان ، وأنها قالت حين حمي : لعل العذاب  
المعظم الذي أودعه الله به ذهاب بصره ؛ رواه عنها متروق . وروى عنها أنه عبد الله بن أبي  
وهو الصحيح ، وقاله ابن عباس . وحكى أبو عمر بن عبد البر أن عائشة برأت حسان من  
الغيرة ، وقالت : إنه لم يقل شيئا . وقد أنكر حسان أن يكون قال شيئا من ذلك في قوله ..

حَصَانٌ رَزَانٌ مَا تَزَنَ بَرِيَّةٌ • وَصَحَّ غَرَنِي مِنْ لُحُومِ الْفَوَاضِلِ  
حَلِيلُهُ خَيْرُ النَّاسِ دِينًا وَنَيْبًا • نَبِيُّ الْمُدَى وَالْمَكْرَمَاتِ الْفَوَاضِلِ  
عَقِيلَةٌ سَخٍ مِنْ لُسُوِيٍّ بِنِ ظَالِبٍ • كَرَامِ الْمَسَاعِي تَجِدُهَا غَيْرَ زَائِلِ  
بِهَدْبَةٍ قَدْ طَلَبَ اللَّهُ خِيَمَهَا • وَطَهَرَهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَبَاطِلِ  
فَإِنْ كَانَتْ مَا بَلَّغَتْ أَتَى فَتْنَهُ • فَلَا رَفْعَ سَوَاطِي إِلَى أَنَامِلِ  
فَكَيْفَ وَوُدِّي مَا حَيْثُ وَضُرِقَ • لَأَلَّ رَسُولَ اللَّهِ زَيْنَ الْحَافِلِ  
لَهُ رَبٌّ عَلَيَّ عَلَى النَّاسِ فَفَنَلَهَا • تَقَاصَّرَ عَنْهَا سُورَةُ الْمُتَطَاوِلِ

وقد روى أنه لما أتدها : حسان رزان ؛ قالت له : لست كذلك ؛ تريد أنك وقعت  
في الفوائل . وهذا تناقض . ويمكن الجمع بأن يقال : إن حسانا لم يقل ذلك نصا ونصريحا ،  
ويكون عرض بذلك وأوفا إليه فغضب ذلك إليه ؛ والله أعلم .

(١) الحسان : الحميفة . ورزان : ذات ثياب ورقار وعفاف . وغرنى : جافة . ما تهم : الفوائل  
جمع ناقة ؛ أي لا تزغ في أعراض الناس . (٢) الخيم (الكسر) : الشبهة والطبعة والخلق والأمسل .

وقد اختلف الناس فيه هل خاض في الإفك أم لا ، وهل جلد الحد أم لا ، فانه أعلم  
أى ذلك كان ، وهى المسألة :

السادسة - فروى محمد بن إسحاق وغيره أن النبي صلى الله عليه وسلم جلد في الإفك  
رجلين وامرأة : مسطحا وحسان وحنّة ، وذكره الترمذى . وذكر القشيري عن ابن عباس  
قال : جلد رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن أبي ثمانين جلدة ، وله في الآخرة عذاب النار . قال  
القشيري : والذي ثبت في الأخبار أنه ضرب ابن أبي وضرب حسان وحنّة ، وأما مسطح فلم  
يثبت عنه قذف صريح ، ولكنه كان يسمع ويشيع من غير تصريح . قال المسوردي وغيره :  
اختلفوا هل حد النبي صلى الله عليه وسلم أصحاب الإفك ، على قولين : أحدهما أنه لم يحده  
أحد من أصحاب الإفك لأن الحدود إنما تنام بإقرار أو بيعة ، ولم يتبعه الله أن يقيمها  
بإخباره عنها ، كما لم يتبعه بقتل المنافقين ، وقد أخبره بكفرهم .

قلت : وهذا فاسد مخالف لنص القرآن ، فإن الله عز وجل يقول : « وَالَّذِينَ يَرْمُونَ  
الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ » أى على صدق قولهم « فَأَجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً » .  
والقول الثانى - أن النبي صلى الله عليه وسلم حد أهل الإفك عبد الله بن أبي وسطح

ابن أئانة وحسان بن ثابت وحنّة بنت جحش ، وفى ذلك قال شاعر من المسلمين :

لقد ذاق حسان الذى كان أهله • وحنّة إذ قالوا هجيراً ومسطحاً

وإبن سأل ذاق فى الحد نزيّة • كما خاض فى إفك من القول يفتضح

نماطوا برجم الغيب زوج بينهم • وسخطة ذى العرش الكريم فابزحوا

وآذوا رسول الله فيها بخللوا • غايزى تبتقى عثمونها وقصّحوا

وصب عليهم محصّسات كأنها • شأيب قطر من ذرى المزن تسفح

قلت : المشهور من الأخبار والمعروف عند العلماء أن الذى حد حسان ومسطح وحنّة ،  
ولم يسمع بحد لعبد الله بن أبي . روى أبو داود عن عائشة رضى الله عنها قالت : لما نزل  
عندى قام النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك ، وتلا القرآن ، فلما نزل من المنبر أمر بالرجلين  
(١) أى جازا بأمر مفرد فى الإجم .

والمرأة فُضِرُوا حُذْمٌ، وسَمَامٌ : حسان بن ثابت ومسطح بن أثانة وحننة بنت جحش  
وفي كتاب الطحاوي « ثمانين ثمانين » . قَالَ عَلَامَاؤُنَا . وَإِنَّمَا لَمْ يُحَدِّثْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي لَاحِظٍ أَنَّ اللَّهَ  
تَعَالَى قَدْ أَعَدَّ لَهُ فِي الْآخِرَةِ عَذَابًا عَظِيمًا ؛ فَلَوْ حُدِّثَ فِي الدُّنْيَا لَكَانَ ذَلِكَ نَقَصًا مِنْ عَذَابِهِ فِي الْآخِرَةِ  
وَتَحْقِيقًا عَنْهُ مَعَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ شَهِدَ بِرَأَاةِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وَبِكَذِبِ كُلِّ مَنْ رَمَاهَا ؛  
فَقَدْ حَصَلَتْ فَائِذَةُ الْحَدِّثِ ، إِذْ مَقْصُودُهُ إِظْهَارُ كَذِبِ الْقَاضِفِ وَبَرَاءَةِ الْمُقْدُوفِ ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى :  
« فَإِذَا لَمْ يَأْتُوا بِالْبَشْهَادِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ » . وَإِنَّمَا حَدَّثَ هَؤُلَاءِ الْمُسْلِمُونَ لِيَكْفُرَ عَنْهُمْ  
إِثْمُ مَا صَدَرَ عَنْهُمْ مِنَ الْقَذْفِ حَتَّى لَا يَبْقَى عَلَيْهِمْ نَبْعَةٌ مِنْ ذَلِكَ فِي الْآخِرَةِ ، وَقَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ  
وَسَلَّمَ فِي الْحَدُودِ « إِنَّمَا كُفَّارَةٌ لِمَنْ أَقْبِضْتُ عَلَيْهِ » ؛ كَمَا فِي حَدِيثِ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ . وَيَحْتَمِلُ  
أَنْ يُقَالَ : إِنَّمَا تَرَكَ حَدَّثَ ابْنِ أَبِي أَسْمَثَلَانَا اقْوَمَهُ وَاحْتَرَامًا لِكَبْنِهِ ، وَإِطْفَاءً لِثَأْرَةِ الْفِتْنَةِ الْمُتَوَدِّةِ  
مِنْ ذَلِكَ ، وَقَدْ كَانَ ظَهَرَ مِبَادِئُهَا مِنْ نَعْدِنِ عِبَادَةٍ وَمِنْ قَوْمِهِ ؛ كَمَا فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .  
السَّابِعَةُ - قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾  
هَذَا عَنَابٌ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ فِي ظَنِّهِمْ حِينَ قَالَ أَصْحَابُ الْإِنْفَكِ مَا قَالُوا . قَالَ  
ابْنُ زَيْدٍ : ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ أَنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يَفْجُرُ بِأَمْرِهِ ؛ قَالَهُ الْمُهَذَّبِيُّ . وَهَلْ لَوْلَا . بِمَعْنَى هَلَّا .  
وَقِيلَ : الْمَعْنَى أَنَّهُ كَانَ يُبْنَى أَنْ يُقَيَسَ فَضْلُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ الْأَمْرِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ؛ فَإِنْ  
كَانَ ذَلِكَ يَبْعُدُ فِيهِمْ فَذَلِكَ فِي عَائِشَةَ وَصَفْوَانَ أَبْسَدَ . وَرَوَى أَنَّ هَذَا النَّظَرَ السَّيِّدَ وَقَعَ  
مِنْ أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ وَأَمْرَاتِهِ ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ دَخَلَ عَلَيْهَا فَقَالَتْ لَهُ : يَا أَبَا أَيُّوبَ ، أَصَحَّ  
مَا قِيلَ ! فَقَالَ نَعَمْ ! وَذَلِكَ الْكَذِبُ ! أَكُنْتُ أَنْتَ يَا أُمَّ أَيُّوبَ تَغْلِبِينَ ذَلِكَ ! قَالَتْ :  
لَا وَاقِهِ ! قَالَ : ضَائِعَةٌ وَاللَّهِ أَفْضَلُ مِنْكَ ؛ قَالَتْ أُمُّ أَيُّوبَ نَعَمْ . فَهَذَا الْقَوْلُ وَنَحْوُهُ هُوَ الَّذِي  
عَاتَبَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ لَمْ يَفْعَلْهُ جَمِيعُهُمْ .

الثَّامِنَةُ - قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿يَأْتِئْسِمُ﴾ قَالَ النَّحَّاسُ : مَعْنَى « بِأَنفُسِهِمْ » بِأَخْوَانِهِمْ .  
فَأَوْجَبَ اللَّهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ إِذَا سَمِعُوا رَجُلًا يَقْتِفُ أَحَدًا وَيَذْكُرُهُ بِجَبِّحٍ لَا يَرْفَعُهُ بِهِ أَنْ يَنْكَرُوا  
عَلَيْهِ وَيَكْذِبُوهُ . وَتَوَاعَدَ مَنْ تَرَكَ ذَلِكَ وَمَنْ تَقَلَّه .

(١) فِي الْأَمْرِ وَتَحْصِيهِ ابْنُ عَطِيَّةٍ : « عَاتَبَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الْقَبِيلَيْنِ » .

قلت : ولأجل هذا قال العلماء : إن الآية أصل في أن درجة الإيمان التي حازها الإنسان، ومثالة الصلاح التي حلها المؤمن، وثبته للعفاف التي يستربها المسلم لا يزيلها عنه خبر محتمل وإن شاع، إذا كان أصله فاسدا أو مجهولا .

التاسعة - قوله تعالى : ﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ هذا توبيخ لأهل الإنك . و «لولا» بمعنى هلأ؛ أى هلأ جاءوا بأربعة شهداء على ما زعموا من الاقتراء . وهذا رد على الحكم الأول، وإحالة على الآية السابعة في آية التذنب .

العاشر - قوله تعالى : ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ أى هم في حكم الله كاذبون . وقد يعجز الرجل عن إقامة البينة وهو صادق في قذفه، ولكنه في حكم الشرع وظاهر الأمر كاذب لأن الله تعالى؛ وهو سبحانه إنما رتب الحدود على حكم الذي شرعه في الدنيا لا على مقتضى عادته الذي تعلق بالإنسان على ما هو عليه، فلما ينفي على ذلك حكم الآخرة .

قلت : وما يقوى هذا المعنى ويضبطه ما أخرجه البخارى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : أيها الناس إن الوحي قد أقطع وإنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم، فن أظهر لنا خيرا أمثله وقربناه؛ وليس لنا من سريرته شيء الله يحاسبه في سريرته، ومن أظهر لنا سوءا لم نؤمنه ولم نصدق، وإن قال إن سريرته حسنة . وأجمع العلماء أن أحكام الدنيا على الظاهر، وأن السرائر إلى الله عز وجل .

الحادية عشرة - قوله تعالى : ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ «فضل» رفع بالابتداء عند سبويه، والخبر محذوف لا تظهره العرب . وحذف جواب «لولا» لأنه قد ذكر مثله بعد؛ قال الله عز وجل «ولولا فضل الله عليكم ورحمته لمسكم» أى بسبب ما عظم من عذابه عظيم في الدنيا والآخرة . وهذا عتاب من الله تعالى يبلغ، ولكنه برحمته مقرر عليكم في الدنيا ويرحم في الآخرة من أتاه تابيا . والإفاضة : الأخذ في الحديث؛ وهو الذي وقع عليه العتاب؛ يقال : أفاض التوم في الحديث أى أخذوا فيه .

(١) يرد آية ١٠ ومضى قوله تعالى : «ولولا فضل الله عليكم ورحمته وإن الله تواب حكيم» .

الثانية عشرة - قوله تعالى : ( إِذْ تَقُولُ لِلَّذِينَ أَقْرَبُوا ) قراءة محمد بن السميع بضم التاء وسكون اللام وضم القاف ؛ من الإلقاء ، وهذه قراءة بينة . وقرا أبو وابن مسعود « إِذْ تَقُولُهُ » من التلقى ، يتأمن . وقرا جمهور السبعة بحرف التاء الواخدة وإظهار الدال دون إدغام ، وهذا أيضا من التلقى . وقرا أبو عمرو وحزمة والكسائي بإدغام الدال في التاء . وقرا أبو تميم بإظهار الدال وإدغام التاء في التاء ، وهذه قراءة قليلة ؛ لأنها تقتضى اجتماع ساكنين ، وليست كالإدغام في قراءة من قرأ « فَلَا تَنَابَهُوا » ولا تَنَابَهُوا ، لأن دونه الألف الساكنة ، وكونها حرف لين حسنت هالك ما لا تحسن مع سكون الدال . وقرا أبو تميم وعائشة رضي الله عنهما - وهم أعلم الناس بهذا الأمر - « إِذْ تَقُولُهُ » بفتح التاء وكسر الهمزة وضم القاف ؛ ومعنى هذه القراءة من قول العرب : وَلَقِيَ الرَّجُلَ يَلْقَى وَلَقَاءً إِذَا كَذَبَ وَاسْتَمَرَّ عَلَيْهِ ، بَخَاؤُهُ بِالْمُتَعَدِّ شَاهِدًا عَلَى غَيْرِ الْمُتَعَدِّ . قال ابن عطية : وعندى أنه أراد إِذْ تَقُولُونَ فيه ؛ لحذف حرف الجر ما اتصل بالضمير . وقال الخليل وأبو عمرو : أصل اللَّوْقَى الإسراع . يقال : جاءت الإبل تَلْقَى ، أى تسرع . قال :

لما رأوا جيشا عليهم قد طرق • جاءوا بأسراب من الشام ولقوا  
إِنَّ الْمُحْصِنِينَ زَلَقُوا وَزُلُوقًا • جاءت به عَنَسٌ<sup>(١)</sup> من الشام تلقوا

يقال : رجل زَلَقٌ وَزُلُوقٌ ، مثال حُدَيْدٍ ، وَرَمَانِي وَزُلُوقٍ (بشديد الميم) وهو الذى يتزلزل  
أن يجامع ، قال الزبير :

• إِنَّ الْمُحْصِنِينَ زَلَقُوا وَزُلُوقًا •

وَالْوَقَى أيضا أخف الطعن . وقد وَلَقَهُ يُلْقُهُ وَلَقًا . يقال : وَلَقَهُ بالسيف وَلَقَاتٌ ، أى ضربات ، فهو مشترك .

الثالثة عشرة - قوله تعالى : ( وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ ) بمبالغة وإلزام وتأكيد . والضمير  
في « تَحْسَبُونَهُ » غائد على الحديث والغرض فيه والإذاعة له . و ( هَئِذَا ) أى ههنا يصبر  
لا يلحقكم فيه إثم . ( وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ ) في الوزر ( عَظِيمٌ ) . وهذا مثل قوله عليه السلام  
في حديث القبرين : « إِنَّهُمَا يُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ » أى بالنسبة إليكم .

(١) العنس : الناقة القوية .



الرابعة عشرة - قوله تعالى : ( وَأَوَّلًا إِذْ تُبَشِّرُهُمْ فَلَمَّا مَ يَكُونُوا لَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِهِذَا مَعَانِكُمْ هَذَا بَيِّنَاتٌ عَظِيمٌ . يَعْظُمُكُمْ اللَّهُ أَنْ تَوَدُّوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . وَيَسِّرُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَأَنَّ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ) عتاب لجميع المؤمنين ؛ أى كان ينبغي عليكم أن تذكروه ولا يتعاطاه بعضهم من بعض على جهة الحكاية والنقل ، وأن تترجوا الله تعالى عن أن يقع هذا من زوج نبيه عليه الصلاة والسلام ، وأن تحكوا على هذه المقالة بأنها بَيِّنَاتٌ ، وحقيقة البَيِّنَاتُ أن يقال في الإنسان ما ليس فيه ، واليُبَيِّنُ أن يثبت في الإنسان ما فيه . وهذا المعنى قد جاء في صحيح الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم . ثم وعظهم تعالى في العودة إلى مثل هذه الحالة . و « أَنْ » نفعل من أجله ، بتقدير : كراهية أن ، ونحوه .

الخامسة عشرة - قوله تعالى : ( إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ) توقيف وتوكيد ؛ كما نقول : ينبغي لك أن تفعل كذا وكذا إن كنت رجلاً .

السادسة عشرة - قوله تعالى : ( يَعْظُمُكُمْ اللَّهُ أَنْ تَوَدُّوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا ) يعنى في عائشة ؛ لأن مثله لا يكون إلا نظير القول في القول عنه بعينه ، أو فيمن كان في مرتبته من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لما في ذلك من إذابة رسول الله صلى الله عليه وسلم في عرضه وأهله ؛ وذلك كفر مل فاعله .

السابعة عشرة - قال هشام بن عمار سمعت مالكا يقول : من سب أبابكر وعمر أذب ، ومن سب عائشة قُتل ؛ لأن الله تعالى يقول : « يَعْظُمُكُمْ اللَّهُ أَنْ تَوَدُّوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » ؛ فمن سب عائشة فقد خالف القرآن ، ومن خالف القرآن قُتل . قال ابن العربي : « قال أصحاب الشافعي من سب عائشة رضى الله عنها أذب كما في سائر المؤمنين ، وليس قوله « إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » في عائشة [لأن ذلك] كفر ، وإنما هو كما قال عليه السلام : « لا يؤمن من لا يأمن جاره بوائعه » . ولو كان سلب الإيمان في سب من سب عائشة حقيقة لكان سلبه في قوله : « لا يؤمن الزاني حين يزنى وهو مؤمن » حقيقة . قلنا : ليس كما زعمتم ؛ لأن

(١) زيادة من ابن العربي . (٢) في الأصول : « لن كان كما رعمت أمه أهل » والتصويب من ابن العربي . (٣) في الأصول وأثر العرب : « أن » بدون هاء .

أهل الإلَاق رَمَوْا عائِشةَ المَظهُورَةَ بالفاحِشَةَ فَبَرَأَها اللهُ تَعَالَى فَكُلُّ مَنْ سَبَّها بِمَا بَرَأَها اللهُ مِنْهُ  
مَكْذُوبٌ لله ، وَمَنْ كَذَّبَ اللهُ فَهُوَ كَافِرٌ ؛ فَهَذَا طَرِيقُ قَوْلِ مالِكٍ ، وَهِيَ سَبِيلٌ لِمَحَبَّةِ لَأَهْلِ  
البَصَائِرِ . وَلَوْ أَنَّ رَجُلًا سَبَّ عائِشَةَ بِغَيْرِ مَا بَرَأَها اللهُ مِنْهُ لَكَانَ جَزَاءُهُ الْأَدَبُ .<sup>(١)</sup>

الثامنة عشرة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ ﴾ أى فُشَوْا ؛ يقال :  
شاع الشيء شُيُوعًا وشُيْعًا وشُيعَانًا وشُيُوعَةً ؛ أى ظَهِرَ وَتَفَرَّقَ . ﴿ فِي الَّذِينَ آمَنُوا ﴾  
أى فِي الْمُحْسِنِينَ وَالْمُحْسِنَاتِ . وَالْمُرَادُ بِهَذَا اللَّفْظِ السَّامِ عَائِشَةُ وَصَفْوَانُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا .  
وَالْفَاحِشَةُ : الْفِعْلُ الْقِيحُ الْمُفْرِطُ الْقِيحُ . وَقِيلَ : الْفَاحِشَةُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْقَوْلُ السَّيِّئُ .  
﴿ لَمْ عَذَابُ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا ﴾ أى الْحَذُّ . وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ؛ أَى لِلنَّافِقِينَ ، فَهُوَ مُخْصِصٌ .  
وَقَدْ بَيَّنَّا أَنَّ الْحَذَّ لِلْمُؤْمِنِينَ كِفَارَةٌ . وَقَالَ الطَّبْرِيُّ : مَعْنَاهُ إِنْ مَاتَ مُصِرًّا غَيْرَ تَائِبٍ .

الثامنة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ﴾ أى يَعْلَمُ مَقْدَارَ عَظَمِ هَذَا الذَّنْبِ وَالْمُجَازَاةِ  
عَلَيْهِ ، وَيَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ . ﴿ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ رَوَى مِنْ حَدِيثِ أَبِي الدَّرْدَاءِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ  
صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : " أَيُّمَا رَجُلٍ شَدَّ عَصَدَ أَمْرِي مِنَ النَّاسِ فِي خُصُومَةٍ لَا عِلْمَ لَهُ بِهَا  
فَهُوَ فِي سَخَطِ اللهِ حَتَّى يَتَرَعَ عَنْهَا . وَأَيُّمَا رَجُلٍ قَالَ بِشَفَاعَتِهِ دُونَ حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللهِ أَنْ يَقَامَ  
فَقَدْ عَادَ اللهُ حَقًّا وَأَقْدَمَ عَلَى سَخَطِهِ وَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ تَتَابِعُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ . وَأَيُّمَا رَجُلٍ أَشَاعَ عَلَى  
رَجُلٍ مُسْلِمٍ كَلِمَةً وَهُوَ مِنْهَا بَرِيءٌ ، يَرَى أَنَّ تَشْيِينَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ تَعَالَى أَنْ يَرْمِيَهُ بِهَا  
فِي السَّارِ — ثُمَّ تَلَا مُصَدِّقَهُ مِنْ كِتَابِ اللهِ تَعَالَى : — إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ  
فِي الَّذِينَ آمَنُوا " الْآيَةُ .

الموفية عشرين — قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ ﴾ بِنِى  
مَسَالِكِهِ وَمَذَاهِبِهِ ؛ الْمَعْنَى : لَا تَتَّبِعُوا الطَّرِيقَ الَّذِي يَدْعُوكُمْ إِلَيْهَا الشَّيْطَانُ . وَوَاحِدُ الْخُطُواتِ  
خُطْوَةٌ ، وَهُوَ مَا بَيْنَ الْقَدَمَيْنِ . وَالْخُطْوَةُ (بِالْفَتْحِ) الْمَصْدَرُ ؛ يُقَالُ : خَطَوْتُ خُطْوَةً ، وَجَمْعُهَا  
خُطُواتٌ . وَتَخْطِي إِلَيْنَا فُلَانٌ ؛ وَمِنَ الْحَدِيثِ أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا يَخْطِي رِقَابَ النَّاسِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ .

(١) فِي الْأَصُولِ : « الْآيَةُ » . (٢) فِي الْأَصُولِ : « وَلَوْ أَنَّ رَجُلًا سَبَّ عائِشَةَ بِغَيْرِ مَا بَرَأَها اللهُ مِنْهُ  
لَكَانَ جَزَاءُهُ الْكَفَرُ » . وَالنَّصِيبُ عَنْ أَبِي الْعَرَفِ .

وقرأ الجمهور « خُطُوات » بضم الطاء . وسكنها عاصم والأعمش . وقرأ الجمهور « مَازَكِي » بخفيف الكاف ؛ أى ما اهدى ولا أسلم ولا عرف رُشداً . وقيل : « مازكي » أى ما صلح ؛ يقال : رَكَأَ يَزْكُو رَكَاءً ، أى صلح . وشهدوا الحسن وأبو حَبِوة ؛ أى أن تركبته لكم وتطهيره وهدايته إنما هى بفضل لا بأعمالكم . وقال الكشاف : « يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان » معترض ، وقوله « مازكي منكم من أحد أبداً » جواب لقوله أولا وثانيا « ولولا فضل الله عليكم » .

الحادية والعشرون — قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتِلُ أَوْلُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ ﴾ الآية . المشهور من الروايات أن هذه الآية نزلت فى قصة أبى بكر بن أبى حَفَافَةَ رضى الله عنه ومسطح بن أثَّامَةَ . وذلك أنه كان ابن بنت خالته وكان من المهاجرين البَدَوِيِّينَ المساكين . وهو مسطح بن أثَّامَةَ ابن عُبَاد بن المطلب بن عبد مناف . وقيل : اسمه عَوَفٌ ، ومسطح لقب . وكان أبو بكر رضى الله عنه ينفق عليه لمسكته وقربائه ؛ فلما وقع أمر الإفك وقال فيه مسطح ما قال ، حلف أبو بكر ألا ينفق عليه ولا ينفعه بنافعة أبداً ، بغض مسطح فاعتذر وقال : إنما كنت أغشى مجالس حسان فاسمع ولا أقول . فقال له أبو بكر : لقد صحتك وشاركت فيما قيل ؛ ومرة على يمينه ، فنزلت الآية . وقال الضحاك وابن عباس : إن جماعة من المؤمنين قطعوا منافعهم عن كل من قال فى الإفك وقالوا : والله لا نصلى من تكلم فى شأن عائشة ؛ فنزلت الآية فى جميعهم . والأول أصح ؛ غير أن الآية تناول الأمة إلى يوم القيامة بالألأ ينشأ ذو فضل وسعة فيحلف ألا ينفع من هذه صفته ظاهراً الدهر . روى الصحيح أن الله تبارك وتعالى لما أنزل « إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم » العشر آيات ، قال أبو بكر وكان ينفق على مسطح لقربائه وفقره : والله لا أنفق عليه شيئاً أبداً بعد الذى قال لعائشة ؛ فأنزل الله تعالى « وَلَا يَأْتِلُ أَوْلُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ » — إلى قوله — « أَلَا يُحِيزُونَ أَنَّ يَقْفَرُ اللَّهُ لَكُمْ » . قال عبد الله بن المبارك : هذه أرجح آية فى كتاب الله تعالى ؛ فقال أبو بكر : والله إنى لأحِبُّ أن ينقر الله لى ؛ فرجع إلى مسطح الثقة التى كان ينفق عليه وقال : لا أترُحها منه أبداً .

الثانية والعشرون - في هذه الآية دليل على أن القذف وإن كان كثيراً لا يُحيط بالأعمال؛ لأن الله تعالى وصف مستظماً بعد قوله بالهجرة والإيمان؛ وكذلك سائر الكبار؛ ولا يحيط الأعمال غير الشرك بالله، قال الله تعالى: «لَنْ أَشْرَكَتَ لِيَجِبَنَّ عَلَيْكَ»<sup>(١)</sup>.

الثالثة والعشرون - من حلف على شيء لا يفعله فرأى فعله أولى منه أتاه وكفر عن يمينه، أو كفر عن يمينه وأتاه؛ كما تقدم في «المائدة»<sup>(٢)</sup>. ورأى الفقهاء أن من حلف ألا يفعل سنة من السنن أو مندوباً وأبد ذلك أنها بجرمة في شهادته؛ ذكره الباجي في المتقى.

الرابعة والعشرون - قوله تعالى: «وَلَا يَأْتِلُ أَوْلُوا الْقَفِيلِ»<sup>(٣)</sup> «ولا يأتل» معناه يحلف؛ وزنها يفتعل، من الأتية وهي اليمين؛ ومنه قوله تعالى: «لِلَّذِينَ يَقُولُونَ مَنْ نَسِيتُمْ»؛ وقد تقدم في «البقرة»<sup>(٤)</sup>. وقالت فرقة: معناه يقصر؛ من قولك: ألوت في كذا إذا قصرت فيه؛ ومنه قوله تعالى: «لَا يَأْلُوَنَكُمْ خِيَالًا»<sup>(٥)</sup>.

الخامسة والعشرون - قوله تعالى: «أَلَا تَحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ»<sup>(٦)</sup> تمثيل وحجة؛ أي كما تحبون غفر الله عن ذنوبكم فكذلك اغفروا لمن دونكم؛ وينظر إلى هذا المعنى قوله عليه السلام: «من لا يرحم لا يرحم».

السادسة والعشرون - قال بعض العلماء: هذه أرجى آية في كتاب الله تعالى، من حيث لطف الله بالقذفة العصابة بهذا اللفظ. وقيل: أرجى آية في كتاب الله عز وجل قوله تعالى: «وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنْ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا»<sup>(٧)</sup>. وقد قال تعالى في آية أخرى: «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ»<sup>(٨)</sup>؛ فشرح الفضل الكبير في هذه الآية، وبشر به المؤمنين في تلك. ومن آيات الرجاء قوله تعالى: «قُلْ يَا بَنِي آدَمَ الَّذِينَ آسَرُفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ»<sup>(٩)</sup> وقوله تعالى: «اللَّهُ لَطِيفٌ

(١) آية ٦٥ - سورة الزمر. (٢) راجع ج ٦ ص ٢٦٤ وما بعدها. (٣) راجع ج ٣ ص ١٠٣.

(٤) راجع ج ٤ ص ١٧٨. (٥) آية ٢٤ - سورة الأزاب. (٦) آية ٢٢ - سورة التوبة.

(٧) آية ٥٢ - سورة الزمر.

﴿١١﴾ وقال بعضهم: أُرِجَ آية في كتاب الله عز وجل: «وَلَسَوْفَ يَسْئَلُكَ رَبُّكَ عَنْ نِعْمَةٍ»<sup>(١)</sup> وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يرضى ببقاء أحد من أمته في النار.

السابعة والعشرون — قوله تعالى: ﴿أَنْ يُؤْتُوا﴾ أي ألا يؤتوا، خفف «لا» كقول القائل: فقلت بين الله أبرح قاعداً.

ذكره الزجاج. وعمل قول أبي عبيدة لا حاجة إلى إختار «لا». ﴿وَلَيَسْئَلَنَّ مِنْ عَذَابِ الرِّيحِ﴾ أي قدس، فهو نحو الذنب حتى يعفوكما يعفو أثر الريح.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلِينَ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٦﴾

فيه مسائل ثلاث:

الأولى — قوله تعالى: ﴿الْمُحْصَنَاتِ﴾ عَذَمَ في «النساء». واجمع العلماء على أن حكم المحصنين في القذف حكم المحصنات قياساً واستدلالاً، وقد بيناه أول السورة والمحمد في. واختلف فيمن المراد بهذه الآية، فقال سعيد بن جبير: هي في رمة عائشة رضوان الله عليها خاصة. وقال قوم: هي في عائشة وبنات أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، قاله ابن عباس والضحاك وغيرهما. ولا تنفع التوبة. ومن قذف غيرهن من المحصنات فقد جمل الله له توبة؛ لأنه قال: «والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء» — إلى قوله — إلا الذين تابوا فجعل الله هؤلاء توبة، ولم يجعل لأولئك توبة، قاله الضحاك. وقيل: هذا الوحيد لمن أصر على القذف ولم يتب. وقيل: نزلت في عائشة، إلا أنه يراد بها كل من أتصف بهذه الصفة. وقيل: لأنه عام لجميع الناس القذفة من ذكر وأنثى، ويكون التقدير: إن الذين يرمون الأتقى المحصنات، فدخل في هذا الذكر والمؤنث، واختاره النحاس. وقيل: نزلت في مشرك مكة؛ لأنهم يقولون للراة إذا حاجرت إنما خرجت لتفجر.

(١) آية ١٩ من: النور. (٢) آية سورة النحر. (٣) هذا حديث لامرئ القيس، وقامه ولو نقلوا رأسك وأوصال.

(٤) راجع ص ١٤٠

الثانية : ﴿ لِنُؤَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ قال العلماء : إن كان المراد بهذه الآية المؤمنين من القنفة فالمراد باللعنة الإبعاد وضرب الحد واستيحاش المؤمنين منهم وجرحهم لهم ، وزوالهم عن رتبة العدالة والبعد عن الثناء الحسن على ألسنة المؤمنين . وعلى قول من قال : هي خاصة لعائشة ترتب هذه الشذائد في جانب عبد الله بن أبي وأشباهه . وعلى قول من قال : نزلت في مشركي مكة فلا كلام ، فإنهم مبدعون ، ولم في الآخرة عذاب عظيم ، ومن أسلم فالإسلام يحب ما قبله . وقال أبو جعفر النحاس : من أحسن ما قيل في تأويل هذه الآية إنه عام لجميع الناس القنفة من ذكر وأنى ، ويكون التقدير : إن الذين يرمون الأنفس المحصنات ، فدخل في هذا المذكر والمؤنث ، وكذا في الذين يرمون ، إلا أنه غلب المذكر على المؤنث .

قوله تعالى : يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

قراءة العامة بالتاء ، واختاره أبو حاتم . وقرأ الأعمش ويحيى وحزمة والكسائي وخلف « يشهد » بالياء ، واختاره أبو عبيد ، لأن الجار والمجرور قد حال بين الاسم والفعل ، والمعنى : يوم تشهد ألسنة بعضهم على بعض بما كانوا يعملون من القذف والبهتان . وقيل : تشهد عليهم ألسنتهم ذلك اليوم بما تكلموا به . ﴿ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ ﴾ أى وتكلم الجوارح بما عملوا في الدنيا .

قوله تعالى : يَوْمَئِذٍ يُؤْقِعُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾

أى حسابهم جزاؤهم . وقرأ مجاهد « يومئذ يؤقِعُ الله دينهم الحق » برفع « الحق » على أنه نعمت الله عز وجل . قال أبو عبيد : ولولا كراهة خلاف الناس لكان الوجه الرفع ؛ ليكون نعتا لله عز وجل ، وتكون موافقة لقراءة أبي ، وذلك أن حرير بن حازم قال : رأيت في نسخة أبي « يؤقِعُ الله الحق دينهم » . قال النحاس : وهذا الكلام من أبي عبيد غير

عَرَضِيٌّ ؛ لأنه احتج بما هو مخالف للسواد الأعظم . ولا حجة أيضا فيه لأنه لو صح هذا أنه في مصحف أبي كذا جاز أن تكون القراءة : يومئذ يوفيه الله الحق دينهم ، يكون «دينهم» بدلا من الحق . وعلى قراءة العامة « دِينُهُمُ الْحَقُّ » يكون « الحق » نعتا لدينهم ، والمعنى حسن ؛ لأن الله عز وجل ذكر المسيئين وأعلم أنه يميزهم بالحق ؛ كما قال الله عز وجل : «وَهَلْ يُجَازَى إِلَّا الْكَفُورَ» ؛ لأن مجازاة الله عز وجل للكافر والمسيء بالحق والعدل ، ومجازاته للحسن الإحسان والفضل . ( وَيَسْمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ) إسمان من أسمائه سبحانه . وقد ذكرناهما في غير موضع ، وخاصة في الكتاب الأسنى .

قوله تعالى : **الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ** ﴿٦٦﴾

قال ابن زيد : المعنى الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال ، وكذا الخبيثون للخبيثات ، وكذا الطيبات للطيبين والطيبون للطيبات . وقال مجاهد وابن جبير وعطاء وأكثر المفسرين : المعنى الكلمات الخبيثات من القول للخبيثين من الرجال ، وكذا الخبيثون من الناس للخبيثات من القول ، وكذا الكلمات الطيبات من القول للطيبين من الناس ، والطيبون من الناس للطيبات من القول . قال النحاس في كتاب معاني القرآن : وهذا أحسن ما قيل في هذه الآية . ودل على صحة هذا القول « أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ » أى عائشة وصفوان مما يقول الخبيثون والخبيثات ، وقيل : إن هذه الآية مبنية على قوله « الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً » الآية ؛ فالخبيثات الزواني ، والطيبات المفاتن ، وكذا الطيبون والطيبات . واختار هذا القول النحاس أيضا ، وهو معنى قول ابن زيد . ( أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ) يعنى به المجلس . وقيل : عائشة وصفوان ، فجمع ؛ كما قال : « فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ » والمراد أخوان ؛ قاله الفراء .

و ( مُبْرَعُونَ ) يعني مبرهنين بما رُمُوا به . قال بعض أهل التحقيق : إن يوسف عليه السلام لما رُئِيَ بالفاحشة برأه الله على لسان صبيّ في المهدي ، وإن مريم لما رُميت بالفاحشة برأها الله على لسان ابنها عيسى صلوات الله عليه ، وإن عائشة لما رُميت بالفاحشة برأها الله تعالى بالقرآن ، فما رضى لها براءة صبيّ ولا نبيّ حتى برأها الله بكلامه من القذف والبهتان . وروى عن عليّ بن زيد بن جدعان عن جده عن عائشة رضى الله عنها قالت : لقد أعطيت سمعا ما أعطيتن امرأة : لقد نزل جبريل عليه السلام بصورتي في راحته حين أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتزوجني ، ولقد تزوجني بكرا وما تزوج بكرا غيري ، ولقد تُوفّي صلى الله عليه وسلم وإن رأسه نقي حجرى ، ولقد قُبر في بيتي ، ولقد حُفّت الملائكة بيتي ، وإن كان الوحي لي نزل عليه وهو في أهله فينصرفون عنه ، وإن كان لي نزل عليه وأنا معه في لحافه فإني بُنيتُ عن جسده ، وإني لأبنة خليفته وصديقه ، ولقد نزل عذري من السماء ، ولقد خلقت طيبة وعند طبيب ، ولقد وُعدت مغفرة ورزقا كريما ، تثنى قوله تعالى « لَمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ » وهو الجنة .

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾  
فيه سبع عشرة مسألة :

الأولى - قوله تعالى : ( يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا ) لما خصص الله سبحانه ابن آدم الذي كرمه وفضلته بالمنازل وسترهم فيها عن الأبصار ، وملكهم الاستمتاع بها على الأفراد ، وحججهم على الخلق أن يطلعوا على ما فيها من خارج أو يلجوها من غير إذن أربابها ، أذنهم بما يرجع إلى السرطيم لئلا يطلع أحد منهم على عورة . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من أطلع في بيت قوم من غير إذنهم حلّ لهم أن يفتقوا عينه » . وقد اختلف في تأويله ؛ فقال بعض العلماء : ليس هذا على ظاهره ،



فإن قفا ضلعي الضيآن، والخبر ملسوخ، وكان قبل نزول قوله تعالى : «وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا». ويحتمل أن يكون خرج على وجه التوعيد لا على وجه الحتم، والخبر إذا كان غافلاً للكتاب الله تعالى لا يجوز العمل به. وقد كانت النبي صلى الله عليه وسلم يتكلم بالكلام في الظاهر وهو يريد شيئاً آخر؛ كما جاء في الخبر أن عباس بن مرداس لما مدحه قال لبلال : «قم فاقطع لسانه» وإنما أراد بذلك أن يدفع إليه شيئاً، ولم يرد به القطع في الحقيقة. وكذلك هذا يحتمل أن يكون ذكر قفء العين والمراد أن يعمل به عمل حتى لا ينظر بعد ذلك في بيت غيره. وقال بعضهم : لا ضمان عليه ولا قصاص؛ وهو الصحيح إن شاء الله تعالى؛ لحديث أنس، على ما يأتي.

الثانية - سبب نزول هذه الآية ما رواه الطبري وغيره عن عدي بن ثابت أن امرأة من الأنصار قالت : يا رسول الله، إني أكون في بيتي على حال لا أحب أن يراني عليها أحد، لا والد ولا ولد فيأتي الأب فيدخل عليّ وإنه لا يزال يدخل عليّ رجل من أهلي وأنا على تلك الحال، فكيف أصنع؟ فزلت الآية. فقال أبو بكر رضي الله عنه : يا رسول الله، أفرأيت الخانات والمساكن في طرق الشام ليس فيها ساكن؛ فأرسل الله تعالى : «لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ».

الثالثة - مد الله سبحانه وتعالى التحريم في دخول بيت ليس هو ببيتك إلى غاية هي الاستئناس، وهو الاستئذان. قال ابن وهب قال مالك : الاستئناس فيما يرى والله أعلم الاستئذان؛ وكذا في قراءة أبي وابن عباس وسعيد بن جبيرة «حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا». وقيل : إن معنى «تستأفوا» تستعلموا؛ أي تستعلموا من في البيت. قال مجاهد : بالتحنج أو بأى وجه أمكن، ويستأني قدر ما يعلم أنه قد شيعه به، ويدخل إثر ذلك. وقال معناه الطبري؛ ومنه قوله تعالى : «فَإِنْ آتَيْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا» أي علمتم. وقال الشاعر :  
آتَيْتُ نَبَاةً وَأَفْرَصَهَا الْقَدَّ • لاص عصراً وقد دنا الإسماء

قلت : وفي سنن ابن ماجه : حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا عبد الرحمن بن سليمان عن واصل ابن السائب عن أبي سؤرة عن أبي أيوب الأنصاري قال قلنا : يا رسول الله ، هذا السلام ، فما الاستئذان ؟ قال : " يتكلم الرجل بتسبيحة وتكبيرة وتحميدة ويتنصع ويؤذن أهل البيت " .  
قلت : وهذا نص في أن الاستئناس غير الاستئذان ؛ كما قال مجاهد ومن وافقه .

الرابعة - وروى عن ابن عباس وبعض الناس يقول عن سعيد بن جبير « حتى »  
تَسْتَأْنِسُوا ، خطأ أو وهم من الكاتب ، إنما هو « حتى تستأذنوا » . وهذا غير صحيح عن ابن عباس وغيره ، فإن مصاحف الإسلام كلها قد ثبت فيها « حتى تستأنسوا » ، ومع الإجماع فيها من لُذُنْ مَدَّة عِيَان ، فهي التي لا يجوز خلافها . وإطلاق الخطأ والوهم على الكاتب في لفظ أجمع الصعابة عليه قول لا يصح عن ابن عباس ؛ وقد قال عز وجل : « لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ » ، وقال تعالى : « إِنَّا نَحْنُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ » . وقد روى عن ابن عباس أن في الكلام تقديم وتأخير ، والمعنى : حتى تستأمنوا على أهلها وتستأمنوا ؛ حكاه أبو حاتم . قال ابن عطية : وما ينفي هذا القول من ابن عباس وغيره أن « تستأمنوا » ممكنة في المعنى ، بينة الوجه في كلام الصرب . وقد قال عمر للنبي صلى الله عليه وسلم : استأنس يا رسول الله ؛ وعمر واقف على باب الفرفة ، الحديث المشهور . وذلك يقتضي أنه طلب الأئس به صلى الله عليه وسلم ، فكيف يخطئ ابن عباس أصحاب الرسول في مثل هذا .

قلت : قد ذكرنا من حديث أبي أيوب أن الاستئناس إنما يكون قبل السلام ، وتكون الآية على بابها لا تقديم فيها ولا تأخير ، وأنه إذا دخل سلم . والله أعلم .

الخامسة - السنة في الاستئذان ثلاث مرات لا يزداد عليها . قال ابن وهب قال مالك : الاستئذان ثلاث ، لا أحب أن يزيد أحد عليها ، إلا من علم أنه لم يسمع ، فلا يرى بأساً أن يزيد إذا استيقن أنه لم يسمع . وصورة الاستئذان أن يقول الرجل : السلام عليكم أأدخل ، فإن أُذِنَ له دخل ، وإن أمر بالرجوع انصرف ، وإن سكوت منه استأذن

ثلاثا؛ ثم ينصرف من بعد الثلاث . وإنما قلنا : إن السنة الاستئذان ثلاث مرات لا يزداد عليها لحديث أبي موسى الأشعري ، الذي استعمله مع عمر بن الخطاب وشهد به لأبي موسى أبو سعيد الخدري ، ثم أبي بن كعب . وهو حديث مشهور أخرجه الصحيح ، وهو نص صريح ، فإن فيه : فقال — يعني عمر — ما منعك أن تأتينا ؟ قلت : أتيت فسألت على بابك ثلاث مرات فلم ترد عليّ فرجعت ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فليرجع " . وأما ما ذكرناه من صورة الاستئذان فما رواه أبو داود عن ربيّ قال : حدثنا رجل من بني عامر استأذن على النبي صلى الله عليه وسلم وهو في بيت ، فقال : أيج ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم لخادمه : " أخرج إلى هذا فقل له الاستئذان — فقال له — قل السلام عليكم أدخل " فسمعه الرجل فقال : السلام عليكم أدخل ؟ فأذن له النبي صلى الله عليه وسلم فدخل . وذكره الطبري وقال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمة له يقال لها « روضة » : " قولي لهذا يقول السلام عليكم أدخل ؟ " الحديث . وروى أن ابن عمر أذنه الزمضاء يوما فأتى فسطاطا لامرأة من قریش فقال : السلام عليكم أدخل ؟ فقالت المرأة : أدخل بسلام ، فأعاد فأعادت ، فقال لها : قولي أدخل . فقالت ذلك فدخل ، فتوقف لما قالت : بسلام ، لاحتمال اللفظ أن تريد بسلامك لا بشخصك .

السادسة — قال علماؤنا رحمة الله عليهم : إنما خص الاستئذان بثلاث لأن الغالب من الكلام إذا كرر ثلاثا سمع وفهم ؛ ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثا حتى يفهم عنه ، وإذا سلم على قوم سلم عليهم ثلاثا . وإذا كان الغالب هذا ؛ فإذا لم يؤذن له بعد ثلاث ظهر أن ربّ المنزل لا يريد الإذن ، أو لعله يمنعه من الجواب عنه عذر لا يمكنه قطعه ؛ فيبني للاستأذن أن ينصرف ؛ لأن الزيادة على ذلك قد تقلق ربّ المنزل ، وربما يضره الإلحاح حتى ينقطع عما كان مشغولا به ؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي أيوب حين استأذن عليه فخرج مستعجلا فقال : " لعلنا أعجلناك ... " الحديث . وروى عقيل عن ابن شهاب قال : أما سنة التسليّات الثلاث فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى سعد

ابن عبادة فقال : "السلام عليكم" فلم يرتدوا ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "السلام عليكم" فلم يرتدوا ، فأنصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما تقدم سعد تسليمه صرف أنه قد انصرف ؛ ففرج سعد في أثره حتى أدركه ، فقال : وعليك السلام يا رسول الله ، إنما أردنا أن نستكثر من تسليمك ، وقد والله سمعنا ؛ فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم مع سعد حتى دخل بيته . قال ابن شهاب : فإِذَا أَخَذَ التَّسْلِيمَ ثَلَاثًا مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ ؛ رَوَاهُ الْوَلِيدُ ابْنُ مَسْلَمٍ عَنِ الْأَوْزَاعِيِّ قَالَ : سَمِعْتُ يَحْيَى بْنَ أَبِي كَثِيرٍ يَقُولُ حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَسَدَ بْنِ زُرَّارَةَ [عَنْ قَيْسِ بْنِ سَعْدٍ<sup>(١)</sup>] قَالَ : زَارَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مِثْرَتَنَا فَقَالَ : "السلام عليكم ورحمة الله" قال فردَّ سعد ردًّا خفياً ، قال قيس : قللت ألا تأذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : ذره يكثر علينا من السلام ... الحديث ، أخرجه أبو داود وليس فيه « قال ابن شهاب فإِذَا أَخَذَ التَّسْلِيمَ ثَلَاثًا مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ » . قال أبو داود : ورواه عمر بن عبد الواحد وابن سماعة عن الأوزاعي مرسلًا لم يذكر قيس بن سعد .

السابعة - روى عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الاستئذان ترك العمل به الناس . قال علماؤنا رحمة الله عليهم : وذلك لاختلاف الناس الأبواب وقرعها ؛ والله أعلم . روى أبو داود عن عبد الله بن بسر قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر فيقول : "السلام عليكم السلام عليكم" وذلك أن النور لم يكن عليها يومئذ ستور .

الثامنة - فإن كان الباب مردوداً فله أن يقف حيث شاء منه ويستأذن ، وإن شاء دق الباب ؛ لما رواه أبو موسى الأشعري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان في حائط بالمدينة على قف البئر فمد رجله في البئر فدق الباب أبو بكر فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إِيذَنْ لَهُ وَبَشْرَهُ بِالْحَنَّةِ " . هكذا رواه عبد الرحمن بن أبي الزناد وتابعه صالح بن كيسان ويونس بن يزيد ؛ فرووه جميعاً عن أبي الزناد عن أبي سلمة عن عبد الرحمن بن قاف

(١) زيادة من سنن أبي داود يقتضيا السياق .

(٢) قف البئر : هو الفتك التي تحمل حرمها . وأصل القف : ما غلط من الأرض وارتفع .

عن أبي موسى . وخالقهم محمد بن عمرو الليثي فرواه عن أبي الزناد عن أبي سلمة عن نافع ابن عبد الحارث عن النبي صلى الله عليه وسلم كذلك ؛ وإسناده الأول أصح ، والله أعلم .

التاسعة — وصفه الدق أن يكون خفيفا بحيث يسمع ، ولا يستغ في ذلك ؛ فقد روى أنس بن مالك رضى الله عنه قال : كانت أبواب النبي صلى الله عليه وسلم تخرج بالأظفار ؛ ذكره أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب في جامعه .

العاشرة — روى الصحيحان وغيرهما عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : استأذنت على النبي صلى الله عليه وسلم فقال : " من هذا ؟ " فقلت أنا ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " أنا أنا ! " كأنه كره ذلك . قال علماءنا : إنما كره النبي صلى الله عليه وسلم ذلك لأن قوله أنا لا يحصل بها تعريف ، وإنما الحكم في ذلك أن يذكر اسمه كما فعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه وأبو موسى ؛ لأن في ذكر الاسم إسقاط لكلفة السؤال والجواب . ثبت عن عمر بن الخطاب أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم وهو في مشربة له فقال : السلام عليك يا رسول الله ، السلام عليكم أيدخل عمر ؟ وفي صحيح مسلم أن أبا موسى جاء إلى عمر بن الخطاب فقال : السلام عليكم ، هذا أبو موسى ، السلام عليكم ، هذا الأشعري ... الحديث .

الحادية عشرة — ذكر الخطيب في جامعه عن علي بن عاصم الواسطي قال : قدمت البصرة فأتيت منزل شعبة فدققت عليه الباب فقال : من هذا ؟ قلت أنا ؛ فقال : يا هذا ! ما لي صديق يقال له أنا ؛ ثم نرجع إلى فقال : حدثني محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم في حاجة لي فطرقت عليه الباب فقال : " من هذا ؟ " فقلت أنا ؛ فقال : " أنا أنا ! " كأت رسول الله صلى الله عليه وسلم كره قولي هذا ، أو قوله هذا . وذكر عن عمر بن شبة حدثنا محمد بن سلام عن أبيه قال : دققت على عمرو بن عبيد الباب فقال لي : من هذا ؟ فقلت أنا ؛ فقال : لا يعلم الغيب إلا الله . قال الخطيب : سمعت علي بن الحسن القاضي يحكي عن بعض الشيوخ أنه كان إذا دق بابه قال من ذا ؟ فقال الذي على الباب أنا ، يقول الشيخ : أنا م دق .

الثانية عشرة - ثم لكل قوم في الاستئذان عُرْفُهُمْ في العبارة؛ كما رواه أبو بكر الخطيب مستندا عن أبي عبد الملك مولى أم مسكين بنت عاصم بن عمر بن الخطاطب قال : أرسلني مولائي إلى أبي هريرة بجاء معي ، فلما قام بالباب قال : أندرو؟ قالت أندرون . وترجم عليه (باب الاستئذان بالفارسية) . وذكر عن أحمد بن صالح قال : كان الثراوردي من أهل أصبهان<sup>(١)</sup> نزل المدينة ، فكان يقول للرجل إذا أراد أن يدخل : أندرون ، فلقبه أهل المدينة الدراوردي .

الثالثة عشرة - روى أبو داود عن كلب بن حنبل أن صفوان بن أمية بعثه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن وجداية وضغائيس والنبي صلى الله عليه وسلم بأهل مكة ، فدخلت ولم أسلم فقال : "ارجع فقل السلام عليكم" وذلك بعد ما أسلم صفوان بن أمية . وروى أبو الزبير عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "من لم يبدأ بالسلام فلا تأذنوا له" . وذكر ابن جريح أخبرني عطاء قال : سمعت أبا هريرة يقول : إذا قال الرجل أدخل؟ ولم يسلم فقل لا حتى تأتي بالفتح؛ فقلت السلام عليكم؟ قال نعم . وروى أن حذيفة جاء رجل فنظر إلى ما في البيت فقال : السلام عليكم أدخل؟ فقال حذيفة : أما بعينك فقد دخلت ! وأما بأستك فلم تدخل .

الرابعة عشرة - ومما يدخل في هذا الباب ما رواه أبو داود عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "رسول الرجل إلى الرجل إذنه" : أي إذا أرسل إليه فقد أذن له في الدخول ، يبينه قوله عليه السلام : "إذا دُعِيَ أَحَدُكُمْ [ إلى طعام ] بجاء مع الرسول فإن ذلك له إذن" . أخرجه أبو داود أيضا عن أبي هريرة .

الخامسة عشرة - فإن وقعت العين على العين فالسلام قد تعين ، ولا تعد رؤيته إذا لك في دخولك عليه ، فإذا قضيت حق السلام لأنك الوارد عليه تقول : أدخل؟ فإن أذن لك وإلا رجعت .

(١) هو عبد الزبير بن محمد بن عيينة أبي عيد . (راجع ترجمته في كتاب تهذيب التهذيب) . (٢) الهداية : التذكار والأخبر من أولاد النبا . إذا بلغ ستاً أشهر أوسجه ؛ بمنزلة الجدي من الحز . والغضائيس : الثنا . واحداً ضغيس . وقيل : هي بنت يثرب في أصول الشام ، يسكن بطنل والزيت ويقول . (٣) زيادة عن سنن أبي داود .

السابعة عشرة - هذه الأحكام كلها إنما هي في بيت ليس لك ، فأما بيتك الذي تسكنه فإن كان فيه أهلك فلا إذن عليها ، إلا أنك تسلم إذا دخلت . قال قتادة : إذا دخلت بيتك تسلم على أهلك ، فهم أحق من سلمت عليهم . فإن كان فيه مملوك أمك أو أختك فقالوا : تصح وأضرب برجلك حتى ينثبها لدخولك ؛ لأن الأهل لا حشمة بينك وبينها . وأما الأم والأخت فقد يكونان على حالة لا تحب أن تراهما فيها . قال ابن القاسم قال مالك : ويستأذن الرجل على أمه وأخته إذا أراد أن يدخل عليهما . وقد روى عطاء بن يسار أن رجلا قال للنبي صلى الله عليه وسلم : أستاذن على أمي ؟ قال " نعم " قال : إني أخدمها ؟ قال : " أستاذن عليها " فعاوده ثلاثا ؛ قال " أتعجب أن تراها عريانة " ؟ قال لا ؛ قال : " فأستاذن عليها " ذكره الطبري .

السابعة عشرة - فإن دخل بيت نفسه وليس فيه أحد ؛ فقال علماؤنا : يقول السلام علينا ، من ربنا التحيات الطيبات المباركات ، لله السلام . رواه ابن وهب عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وسنده ضعيف . وقال قتادة : إذا دخلت بيتا ليس فيه أحد قتل السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، فإنه يؤمر بذلك . قال : وذكر لنا أن الملائكة ترد عليهم . قال ابن العربي : والصحيح ترك السلام والاستئذان ، والله أعلم .

قلت : قول قتادة حسن .

قوله تعالى : فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ آرْجِعُوا فَآرْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾  
فيه أربع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ( فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا ) الضمير في « تجدوا فيها » لليوت التي هي بيوت الغير . وحكي الطبري عن مجاهد أنه قال : معنى قوله « فإن لم تجدوا فيها أحدا » أي لم يكن لكم فيها متاع . وضعف الطبري هذا التأويل ، وكذلك هو في غاية الضعف ؛ وكان مجاهدا رأى أن البيوت غير المسكونة إنما تدخل دون إذن إذا كان للدخول فيها متاع .

ورأى لفظة « المتاع » متاع البيت ، الذي هو البُسط والنياب ؛ وهذا كله ضعيف . والصحيح أن هذه الآية مرتبطة بما قبلها والأحاديث ؛ التقدير : يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأسوا وتسألوا ، فإن أذن لكم فادخلوا وإلا فارجعوا ؛ كما فعل عليه السلام مع سعد ، وأبو موسى مع عمر رضي الله عنهما . فإن لم يجدوا فيها أحدا يأذن لكم فلا تدخلوها حتى تجدوا إذنا . وأسد الطبري عن قتادة قال قال رجل من المهاجرين : لقد طلبت عمرى هذه الآية فما أدركتها أن أستاذن على بعض إخواني فيقول لي أرجع فارجع وأنا مقبض ؛ لقوله تعالى : « هو أذكى لكم » .

الثانية - سواء كان الباب مغلقا أو مفتوحا ؛ لأن الشرع قد أغلقه بالتحريم للدخول حتى يفتح الإذن من ربه ، بل يجب عليه أن يأتى الباب ويحاول الإذن على صفة لا يطلع منه على البيت لا في إقباله ولا في انقلابه . فقد روى علماؤنا عن عمر بن الخطاب أنه قال : من ملا عبية من قاعة بيت فقد فسق . وروى الصحيح عن سهل بن سعد أن رجلا أطلع في بئر في باب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم يندرى رجل به رأسه ؛ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو أعلم أنك تنظر لقطعنتُ به في عينك إنما جعل الله الإذن من أجل البصر » . وروى عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لو أن رجلا أطلع عليك بغير إذن لخذفته بمحصة ففقات عينه ما كان عليك من جناح » .

الثالثة - إذا ثبت أن الإذن شرط في دخول المنزل فإنه يجوز من الصغير والكبير . وقد كان أنس بن مالك دون البلوغ يستأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكذلك الصحابة مع آبائهم وعلماهم رضي الله عنهم . وسيأتى لهذا مزيد بيان في آخر السورة إن شاء الله تعالى .

الرابعة - قوله تعالى : ( وَأَنَّهُ يَبْأُتَمَلُونَ عَلِيمٌ ) توعده لأهل التجسس على البيوت وطلب الدخول على غفلة العاصي والنظر إلى ما لا يحل ولا يجوز ، ولغيرهم ممن يقع في محذور .

(١) المدي والمراة : هي ؛ يعمل من حديد أو خشب على شكل سن من أسنان المشط وأطول منه يصرح به الشعر .

(٢) الخلف : ديك حياء أو فؤاة يأخذها بين سباتيك وترى بها .



قوله تعالى : لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَبْذُلُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٦٥﴾  
فيه مسائل ثلاث :

الأولى — روى أن بعض الناس لما نزلت آية الاستئذان تعمق في الأمر ، فكان ذلك يأتي موصفا تخريبا ولا مسكونا إلا سلم واستأذن ، فزلت هذه الآية ، أباح الله تعالى فيها رفع الاستئذان في كل بيت لا يسكنه أحد ، لأن العلة في الاستئذان إنما هي لأجل خوف الكشفة على الحرمات ، فإذا زالت العلة زال الحكم .

الثانية — اختلف العلماء في المراد بهذه البيوت ، فقال محمد بن الحنفية وقادة ومجاهد : هي الفنادق التي في طرق السابلة . قال مجاهد : لا يسكنها أحد بل هي موقوفة لياوى إليها كل ابن سبيل ، وفيها متاع لهم ، أى استمتاع بمنفعتها . وعن محمد بن الحنفية أيضا أن المراد بها دور مكة ؛ وبينه قول مالك . وهذا على القول بأنها غير مغلقة ، وأن الناس شركاء فيها ، وأن مكة أخذت عتوة . وقال ابن زيد والشَّعْبِيُّ : هي حوايت القيساريات . قال الشعبي : لأنهم جاءوا ببيعهم بفعلوها فيها ، وقالوا للناس هلم . وقال عطاه : المراد بها الحرب التي يدخلها الناس للبول والتناطح ، ففى هذا أيضا متاع . وقال جابر بن زيد : ليس معنى بالمتاع الجهاز ، ولكن ما سواء من الحاجة ، أما مقل يقره قوم من ليل أو نهار ، أو تحرية يدخلها لقضاء حاجة ، أو دار ينظر إليها ، فهذا متاع وكل منافع الدنيا متاع . قال أبو جعفر النعمان : وهذا شرح حسن من قول إمام من أئمة المسلمين ، وهو موافق لفظة . والمتاع في كلام العرب : المنفعة ، ومنه أمتع الله بك . ومنه « فتتوهج » .

قلت : واختاره أيضا القاضي أبو بكر بن العربي وقال : أما من فسر المتاع بأنه جميع الاستغناء فقد طبق المفصل وجاء بالتفصيل ، وبين أن الداخل فيها إنما هو لما له من الاستمتاع ، فالطالب يدخل في الخانات وهي المدارس لطلب العلم ، والسكن يدخل الخانات

وهي الهناتى ، أى الفنادق ، والزبون يدخل الدكان للابتياح ، والخاص يدخل الخلاء الحاجة ، وكل يؤتى حل وجهه من بابه . وأما قول ابن زيد والشعبي تقول ! وذلك أن يسوت القيساريات محظورة بأموال الناس ، غير مباحة لكل من أراد دخولها بإجماع ، ولا يدخلها إلا من أذن له ربها ، بل أربابها موكلون بدفع الناس .

قوله تعالى : **قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ** (١)

فيه سبع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : **(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)** وصل تعالى بذكر الشر ما يتعلق به من أمر النظر ، يقال : غَضَّ بصره يَغْضُهُ غَضًّا ، قال الشاعر :

فَنَضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ مُبِيرٍ • فَلَا كُفًّا لَفَتَ وَلَا كِلَا

وقال عنترة :

وأغض طرفي ما بدت لي جاري • حتى يساوي جاري ماوتها • و  
ولم يذكر الله تعالى ما يُغْضُ البصر عنه ويحفظ الفرج ، غير أن ذلك معلوم بالمادة ، وأن المراد منه المحرم دون المحلل . وفي البخارى : « وقال سعيد بن أبى الحسن الحسن إن نساء العجم كشفن صدورهن ورمسن ؟ قال : أصرف بصرك ؛ يقول الله تعالى **« قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ »** وقال قتادة : عما لا يحل لهم ؛ « وقل للؤمنات يَغُضُّنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ » خاتمة الآية [ من ] النظر إلى ما نهى عنه » .

الثانية - قوله تعالى : **(مِنْ أَبْصَارِهِمْ)** « من » زائدة ؛ كقوله « فما منكم من أحد عنه حاجزين » (٢) . وقيل : « من » للتبويض ؛ لأن من النظر ما يباح . وقيل : الغض الغضاض ؛ يقال : غَضَّ فلان من فلان أى وضع منه ؛ فالبصر إذا لم يمكن من عمله فهو موضوع منه ومتغوص . فـ « من » صلة للغض ، وليست للتبويض ولا للزيادة .

(١) زيادة من صحيح البخارى . (٢) آية ٤٧ سورة الحاقة .

الثالثة - البصر هو الباب الأكبر إلى القلب، وأتمم طرق الحواس إليه، وبحسب ذلك كثرة السقوط من جهته . ووجب التحذير منه ، وغضه واجب عن جميع المخرجات ، وكل ما يخشى الفتنة من أجله ؛ وقد قال صلى الله عليه وسلم : « إياكم والجلوس على الطرقات » فقالوا : يا رسول الله ، ما لنا من مجالسنا بدئًا تختلث فيها . قال : « فإذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه » قالوا : وما حق الطريق يا رسول الله ؟ قال : « غش البصر وكف الأذى ورد السلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » . رواه أبو سعيد الخدري ، أخرجه البخاري ومسلم . وقال صلى الله عليه وسلم لعل : « لا تُبْع النظر النظره فلأنك الأولى وليست لك الثانية » . وروى الأوزاعي قال : حدثني هارون بن رباب أن غزوان وأبا موسى الأشعري كانا في بعض منازلهم ، فكشفت جارية فنظر إليها غزوان ، فرفع يده فغط عينه حتى قُتِرَتْ ، فقال : إنك لحاظاة إلى ما يضرك ولا ينفعك ، فقيأ أبا موسى فسأله فقال : ظلمت عينك ، فأستغفر الله وتب ، فإن لما أول نظرة وعليها ما كان بعد ذلك . قال الأوزاعي : وكان غزوان ملك نفسه فلم يضحك حتى مات رضى الله عنه ، وفي صحيح مسلم عن جرير بن عبد الله قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نظرة النجاة ؛ فأمرني أن أصرف بصرى . وهذا يقوى قول من يقول : إن « من » للتبويض ؛ لأن النظرة الأولى لا تملك فلا تدخل تحت خطاب تكليف ، إذ وقوعها لا يتأتى أن يكون مقصودا ، فلا تكون مكتسبة فلا يكون مكلفا بها ؛ فوجب التبويض لتلك ، ولم يقل ذلك في الفرج ؛ لأنها تملك . ولقد كره الشعبي أن يُدِيم الرجل النظر إلى ابنته أو أمه أو أخته ؛ وزمانه خير من زماننا هذا !! وحرام على الرجل أن ينظر إلى ذات عزمة نظر شهوة يرقدها .

الرابعة - قوله تعالى : ( وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ) أى يستروها عن أن يراها من لا يمل . وقيل : « ويحفظوا فروجهم » أى عن الزنى ؛ وعلى هذا القول لو قال : « من فروجهم » لجاز . والصحيح أن الجمع مراد واللفظ عام . وروى بهز بن حكيم بن معاوية القشيري عن أبيه عن جده قال : قلت يا رسول الله ، حورائنا ما تأتي منها وما نذر ؟ قال : « احفظ » (١) قُتِرَتْ العين ونهرها من الأعضاء تغير قورها ؛ حاجت وورثت .

عودتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك . قال : الرجل يكون مع الرجل ؟ قال :  
 " إن استطعت ألا يراها فافعل . " قلت : فالرجل يكون خاليا ؟ فقال : " الله أحق أن  
 يُستعجا منه من الناس . " وقد ذكرت عائشة رضى الله عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم  
 وحالها معه فقالت : ما رأيت ذلك منه ، ولا رأى ذلك منى .

الخامسة - بهذه الآية حرّم العلماء نصّا دخول الحمام بغير مئزر . وقد روى عن  
 ابن عمر أنه قال : أطب ما أنفق الرجل درهم يعطيه للحمام في خلوة . وضح عن ابن عباس أنه  
 دخل الحمام وهو مُحْمَرٌ بالمحفة . فدخله جازر للرجال بالمآزر ، وكذلك النساء للضرورة كنسَلْنِ  
 من الخيض أو النفاس أو مرض يلحقهن ؛ والأوْفَى بين والأفضل لمن غسلن إن أمكن  
 ذلك في بيوتن ، فقد روى أحمد بن منيع حدثنا الحسن بن موسى حدثنا ابن قتيبة حدثنا  
 زَبَّان عن سهل بن معاذ عن أبيه عن أم الدرداء أنه سمعها تقول : لقيني رسول الله صلى الله  
 عليه وسلم وقد خرجت من الحمام فقال : " من أين يا أُم الدرداء ؟ " فقالت من الحمام ؛  
 فقال : " والذي نفسى بيده ما من امرأة تضع ثيابها في غير بيت أحد من أمتهاتها إلا وهى  
 هاتكة كل ستر بينها وبين الرحمن عز وجل . " وخرج أبو بكر البرزاري عن طاوس عن ابن عباس  
 رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " احذروا بيتا يقال له الحمام . " قالوا :  
 يا رسول الله ، ينقى الريح ؟ قال : " فاستقروا . " قال أبو محمد عبد الحق : هذا أصح إسناد  
 حديث في هذا الباب ، هل أن الناس يرسلونه عن طاوس ، وأما ما خرجه أبو داود في هذا  
 من الحظر والإباحة فلا يصح منه شيء لضعف الأسانيد ؛ وكذلك ما خرجه الترمذى .

قلت : أما دخول الحمام في هذه الأزمان فحرام على أهل الفضل والدين ؛ لنفلة الجهل  
 على الناس واستعجالهم إذا توسطوا الحمام روى ما زرعهم ، حتى يرى الرجل البيّ ذوال الشية قائما  
 متصبيا وسط الحمام وحارجه ناذيا عن عورته ضامّا بين نغذيه ولا أحد ينير عليه . هذا أمر  
 بين الرجال فكيف من النساء ! لا سيما بالديار المصرية إذ حماماتهم خالية عن المظاهر التى  
 هى عن أمين الناس سواتر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ! .

السادسة — قال العلماء : فإن استر فليدخل بشرة شروط :

الأول — ألا يدخل إلا بنية التداوى أو بنية التطهير عن الرِّحَاء <sup>(١)</sup> .

الثاني — أن يعتمد أوقات الخلو أو قلة الناس .

الثالث — أن يستر عورته بإزار صفيق .

الرابع — أن يكون نظره إلى الأرض أو يستقبل الحائط لئلا يقع بصره على محظور .

الخامس — أن يُتَبرَّما يرى من منكرو برفق ، يقول : استر سترك الله !

السادس — إن ذلك أحد لا يمكنه من عورته ، من سره إلى ركبته إلا امرأته

أو جاريته . وقد اختلف في الفضل هل هما عورة أم لا .

السابع — أن يدخله بأجرة معلومة بشرط أو عبادة الناس .

الثامن — أن يصب الماء على قدر الحاجة .

التاسع — إن لم يقدر على دخوله وحده آتفق مع قوم يحفظون أديانهم على كرائته .

العاشر — أن يتذكر به جهنم . فإن لم يمكنه ذلك كله فليستر وليجتهد في غش البصر .

ذكر الترمذي أبو عبد الله في نوادر الأصول من حديث طاوس عن عبد الله بن عباس قال

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " آتقوا بيتا يقال له الحمام " . قيل : يا رسول الله ، إنه

يذهب به الوسغ ويذكر النار ، فقال : " إن كنتم لابد فاعلين فأدخلوه مستترين " . وخرج

من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " نيم البيت يدخله الرجل

المسلم بيت الحمام — وذلك لأنه إذا دخله سأل الله الحنة وأستأذنه من النار — وبش البيت

يدخله الرجل بيت المروس " . وذلك لأنه يرغب في الدنيا وينسب الآخرة . قال أبو عبد الله :

فهذا لأهل النافلة ، صبر الله هذه الدنيا بما فيها سبيلاً للذكر لأهل النافلة ليدركوا بها آخرتهم ؛

فأما أهل اليقين فقد صارت الآخرة تُصب أعينهم فلا يبت حمام يرغب ولا بيت عروس

(١) الرِّحَاء : العرق في أثر الحر .

يستغفره، لقد دَفَّت الدنيا بما فيها من المصغين والضمرين في جنب الآخرة، حتى أن جمع نعيم الدنيا في أعينهم كثارة الطعام من مائدة عظيمة، وجمع شدائد الدنيا في أعينهم كفلة عوقب بها جرم أو مسمى قد كان استوجب القتل أو الصلب من جميع عقوبات أهل الدنيا.

السابعة - قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لَأَزِيْكَ لَمْ﴾ أى غَضُّ البصر وحفظ الفرج أطهر في الدين وأبعد من دنس الأثام. ﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ﴾ أى عالم. ﴿بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ تهديد ووعد.

قوله تعالى: وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِهِنَّ أَوْ أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ بَنَى أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ بَنَى أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَاءِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولَى الْإِرَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الْبَطْلُ الَّذِينَ لَا يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢١﴾

قوله تعالى: (وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ) أى قوله (يَنْ زِينَتَهُنَّ) فيه ثلاث وعشرون مسألة:

الأولى - قوله تعالى: (وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ) خص الله سبحانه وتعالى الإناث هنا بالتطلب على طريق التأكيد؛ فإن قوله «قل للمؤمنين» يكتفى؛ لأنه قول عام يتناول الذكر والإناث من المؤمنين، حسب كل خطاب عام في القرآن. وظهر التضييق في «يَغْضُضْنَ» ولم يظهر في «يَضْرِبْنَ» لأن لام الفعل من الثاني ساكنة ومن الأول متحركة، وهما في موضع

بجزم جواباً . وبدأ بالنقض قبل الفرج لأن البصر رائد للقلب ؛ كما أن الحى رائد الموت .  
وأخذ هذا المعنى بعض الشعراء فقال :

ألم ترأت العين للقلب رائد • فما تألف العيان فالقلب الف

وفي الخبر "النظر سهم من سهام إبليس مسموم فمن غص بصره أورثه الله الخلاوة في قلبه" .  
وقال مجاهد : إذا أقبلت المرأة جلس الشيطان على رأسها فزيتها لمن ينظر؛ فإذا أدبرت جلس على عجزها فزيتها لمن ينظر . وعن خالد بن أبي عمران قال . لا تَبْحِنَ النظرة النظرة فرما نظر العبد نظرة <sup>(١)</sup> نَظِلَ منها قلبه كما ينزل الأديم فلا يُتَفَع به . فأمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين والمؤمنات بنقض الأبصار عما لا يحل ؛ فلا يحل للرجل أن ينظر إلى المرأة ، ولا المرأة إلى الرجل ؛ فإن علاقتها به كملقاته بها ؛ وقصدتها منه كقصده منها . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنى أدرك ذلك لا محالة فالعينان تزنا وفتنهما النظر ..." الحديث . وقال الزهري في النظر إلى التي لم يُحِض من النساء : لا يصلح النظر إلى شيء منهن ممن يُشْتَمَى النظرُ إليهن وإن كانت صغيرة . وكره عطاء النظر إلى الجوارى اللاتي يمين بمكة إلا أن يريد أن يشتري . وفي الصحيحين عنه عليه السلام أنه صرف وجه الفضل عن الخنثية حين سألته ، وطفق الفضل ينظر إليها <sup>(٢)</sup> . وقال عليه السلام : " التتيرة من الإيمان والمذاء من النفاق " . والمذاء هو أن يجمع الرجل بين النساء والرجال ثم يغلهم يُماذِي بعضهم بعضاً ؛ مأخوذ من المَذَى . وقيل : هو إرسال الرجال إلى النساء ؛ من قولهم : مَذَيْتُ الفرس إذا أرسلتها تَرعى . وكل ذكْر يَمْدَى ، وكل أنثى قَلْدَى ؛ فلا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تبدي زفتها إلا لمن تحل له ، أو لمن هي محزومة عليه حتى التأبسد ؛ فهو آمن أن يتحرك طبعه إليها لوقوع اليأس له منها .

(١) النفل (بالضرب) : القصاد . وتل الأديم إذا غص وتبهرى في الدباغ فيضد ويك .

(٢) في البخاري : «عن ابن عباس قال : كان الفضل وديف النبي صلى الله عليه وسلم بقات امرأة من خثعم فل الفضل ينظر إليها وتنظر إليه ، فغل النبي صلى الله عليه وسلم وجه الفضل إلى التثي الآخر ؛ فقالت : فرضة الله أدركت أي شيئاً كبيراً لا يثبت على الراحة فأخجعه ؟ قال نعم » .

الثانية - روى الترمذي عن نهبان مولى أم سلمة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لها ولميمونة وقد دخل عليا ابن أم مكتوم: "احتجبا" فقالتا: إنه أعمى؛ قال: "أفمما وإن اتقما ألتما تبصرانه". فإن قيل: هذا الحديث لا يصح عند أهل النقل لأن راويه عن أم سلمة نهبان مولاها وهو ممن لا يحتج بحديثه. وعلى تقدير صحته فإن ذلك منه عليه السلام تنظيظ على أزواجه لحرمتهن كما غلط عليهن أمر الحجاب؛ كما أشار إليه أبو داود وغيره من الأئمة. ويبقى معنى الحديث الصحيح الثابت وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر فاطمة بنت قيس أن تمتد في بيت أم شريك؛ ثم قال: "تلك امرأة يشاها أصحابي أحدى عند ابن أم مكتوم فإنه رجل أعمى تضعين ثيابك ولا يراك". قلنا: قد استدلى بعض العلماء بهذا الحديث على أن المرأة يجوز لها أن تطلع من الرجل على ما لا يجوز للرجل أن يطلع من المرأة كالرأس ومعانق القُرط؛ وأما المورة فلا. فلي هذا يكون مخصصا لمعوم قوله تعالى: «وقل للؤمنات يَغْضُضْنَ من أبصارهن»، وتكون «من» للتبعض كما هي في الآية قبلها. قال ابن العربي: وإنما أمرها بالانتقال من بيت أم شريك إلى بيت ابن أم مكتوم لأن ذلك أولى بها من بقائها في بيت أم شريك؛ إذ كانت أم شريك مؤثرة بكثرة الداخل إليها، فيكثر الزاى لها، وفي بيت ابن أم مكتوم لا يراها أحد؛ فكان إمساك بصرها عنه أقرب من ذلك وأولى، فرخص لها في ذلك، والله أعلم.

الثالثة - أمر الله سبحانه وتعالى النساء ألا يبدن زينةهن للناظرين، إلا ما استثناه من الناظرين في باقى الآية حذارا من الاغتصاب، ثم استثنى ما يظهر من الزينة؛ واختلف الناس في قدر ذلك؛ فقال ابن مسعود: ظاهر الزينة هو الثياب. وزاد ابن جبير الوجه. وقال سعيد بن جبير أيضا وعطاء والأوزاعي: الوجه والكفان والثياب. وقال ابن عباس وقتادة والمسيور بن محرمة: ظاهر الزينة هو الكحل والسوار والخضاب إلى نصف الذراع والقرطة والفتخ؛ ونحو هذا فباح أن يُبدى المرأة لكل من دخل عليها من الناس. وذكر الطبري عن

(١) الفتخ (يختص جمع الفتحة): غزائم كبار تلبس في الأيدي.



قائدة في معنى نصف القراع حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وذكر آخر عن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لا يمل لأمرأة تؤمن بالله واليوم الآخر إذا عرَّكت أن تظهر إلا وجهها ويديها إلى عاهتا " وقبض على نصف القراع . قال ابن عطية : و يظهر لي بحكم ألفاظ الآية أن المرأة مأمورة بالأبدي وأن تجتهد في الإخفاء لكل ما هو زينة ، ووقع الاستثناء فيما يظهر بحكم ضرورة حركة فيما لا بد منه ، أو إصلاح شأن ونحو ذلك . فدعا ظهر ، على هذا الوجه مما تؤدي إليه الضرورة في النساء فهو المعفو عنه . قلت : هذا قول حسن ، إلا أنه لما كان الغالب من الوجه والكفين ظهورهما عادة وعبادة وذلك في الصلاة والجم ، فيصلح أن يكون الاستثناء راجعاً إليهما . يدل على ذلك ما رواه أبو داود عن عائشة رضي الله عنها أن أسماء بنت أبي بكر رضى الله عنها دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليها ثياب رقاق ، فأعرض عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لها : " يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا " وأشار إلى وجهه وكفيه . فهذا أقوى في جانب الاحتياط ، وللمراعاة فساد الناس فلا تُبدى المرأة من زينتها إلا ما ظهر من وجهها وكفيها ، والله الموفق لا رب سواه . وقد قال ابن خُوَيْرِمَتَداد من علمائنا : إن المرأة إذا كانت جميلة ويخيف من وجهها وكفيها الفتنة فعليها ستر ذلك ، وإن كانت عجوزاً أو مُقْبِعة جاز أن تكشف وجهها وكفيها .

الرأسة - الزينة على قسمين : خَلْقِيَّةٌ ومُكْتَسَبَةٌ ، فالخلقية وجهها فإنه أصل الزينة وجمال اللقطة ومعنى الحيوانية ؛ لما فيه من المناع وطرق العلوم . وأما الزينة المكتسبة فهي ما تحاوله المرأة في تحسين خلقتها ، كالتياب والحلي والكحل والخصاب ، ومنه قوله تعالى : **« خُذُوا زِينَتَكُمْ »** . وقال الشاعر :

يَأْخُذْنَ زَيْنَتَهُنَّ أَحْسَنَ مَا تَرَى . وَإِذَا عَطَلْنَ فَنَهِنَ خَيْرَ عَوَاطِلِ

الخامسة - من الزينة ظاهره وباطن ، فظاهره فباح أبداً لكل الناس من المحارم والأجانب ، وقد ذكرنا ما للملاء فيه . وأما ما باطن فلا يمل إبدائه إلا لمن ستم الله تعالى في هذه

الآية ، أو حلّ عليهم . واختلف في السوار ، فقالت عائشة : هي من الزينة الظاهرة لأنها في الدين . وقال مجاهد : هي من الزينة الباطنة ؛ لأنها خارج عن الكفين وإنما تكون في القراع . قال ابن العربي : وأما الخضاب فهو من الزينة الباطنة إذا كان في القدمين . السادسة - قوله تعالى : ﴿ وَلَيُضِرَّنَّ بُحْرَهُنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ﴾ قرأ الجمهور بسكون اللام التي هي للامر . وقرأ أبو عمرو في رواية ابن عباس بكسرها على الأصل ؛ لأن الأصل [ في لام ] الأمر الكسر ، وحذفت الكسرة لثقلها ، وإنما تسكينها لتسكين عَصْدٍ ونَحْذ . و « يَضِرَّنَّ » في موضع جزم بالامر ، إلا أنه بُحِيَ على حالة واحدة إتباعاً للماضي عند سيويه . وسبب هذه الآية أن النساء كنّ في ذلك الزمان إذا غطين رءوسهنّ بالأنحمة وهي المفاتيح سَدَلَتْهُنَّ من وراء الظهر . قال النقاش : كما يصنع النبط ؛ فيبقى الشعر والعنق والأذنان لا ستر على ذلك ؛ فأمر الله تعالى بليّ الخمار على الجيوب ، وهيئة ذلك أن تضرب المرأة بخمارها على جيبها لتستر صدرها . روى البخاري عن عائشة أنها قالت : رحم الله نساء المهاجرات الأولى ؛ لما نزل « وليضرنّ بخرهن على جيوبهن » شَقَّقْنَ أُرُجَهُنَّ فاخترن بها . ودخلت على عائشة حفصة بنت أخيها عبد الرحمن رضى الله عنهم وقد اختمرت بشيء يَشِيفُ عن عنقها وما هنا لك ؛ فشقته طيباً وقالت : إنما يُضْرَبُ بالكِثْفِ الذي يستر .

السابعة - الخمر : جمع الخمار ، وهو ما تغطى به رأسها ؛ ومنه آخترت المرأة وتخمرت ، وهي حسنة الخمرة . والجيوب : جمع الجيب ، وهو موضع القطع من الثرى والقميص ؛ وهو من الجيوب وهو القطع . ومشهور القراءة ضم الجيم من « جيوبهن » . وقرأ بعض الكوفيين بكسرها بسبب الياء ؛ كقراءتهم ذلك في : بيوت وشيوخ . والصويون القدماء لا يميزون هذه القراءة ويقولون : بيت وبيوت كقُلُسٍ وقُلُوس . وقال الزجاج : يجوز على أن تبدل من الضمة كسرة ؛ فأما ما روى عن حمزة من الجمع بين الضم والكسر فعال ، لا يقدر أحد أن ينطق به إلا على الإيلاء إلى ما لا يجوز . وقال مقاتل : « على جيوبهن » أى على صدورهن ؛ يعني على مواضع جيوبهن .

(١) أى النساء المهاجرات . وهو نحر شجر الأراك ؛ أى شجره الأراك .

الثامنة - في هذه الآية دليل على أن الحِيبَ إنما يكون في الثوب موضع الصدر . وكذلك كانت الجيوب في ثياب السلف رضوان الله عليهم ؛ على ما يصنعه النساء عندنا بالأندلس وأهل الديار المصرية من الرجال والصبيان وغيرهم . وقد ترجم البخاري رحمة الله تعالى عليه ( باب جيب القميص من عند الصدر وغيره ) وساق حديث أبي هريرة قال : ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل البجل والمتصدق كمثل رجلين عليهما جَبَّان من حديد قد آصطرت أيديهما إلى نُدْبَيْهما وتراقيهما ... " الحديث ، وقد تقدم بكآله <sup>(١)</sup> ، وفيه : قال أبو هريرة : فأننا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول بأصبعيه هكذا في جَبَّيه ؛ فلورأيتُه يوسعُهما ولا تنوسع . فهذا يبين لك أن جَبَّيه عليه السلام كان في صدره ؛ لأنه لو كان في مِكه لم تكن يدها مصطرة إلى نُدْبَيْه وتراقيه . وهذا استدلال حسن .

التاسعة - قوله تعالى : ﴿ إِلَّا لِيَعْلَمَنَ ﴾ البَعل هو الزوج والسيد في كلام العرب ؛ ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم في حديث جبريل : " إذا ولدت الأمة بعلها " يعني سيدها ؛ إشارة إلى كثرة السراى بكثرة الفتوحات ، فيأتى الأولاد من الإمام فتتق كل أم بولدها وكأنه سيدها الذى من عليها بالعتق ، إذ كان العتق حاصلًا لها من سببه ؛ قاله ابن العري . قلت : ومنه قوله عليه السلام في مارية : " أعتقها ولدها " فنسب العتق إليه . وهذا من أحسن تأويلات هذا الحديث . والله أعلم .

مسألة - فالزوج والسيد يرى الزينة من المرأة وأكثر من الزينة إذ كل محل من بدنهما حلال له لذّة ونظرا . ولهذا المعنى بدأ بالعبوة ؛ لأن أطلاعهم يقع على أعظم من هذا ، قال الله تعالى : « والذين هم لقروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فهم غير ملومين » . <sup>(٢)</sup>

الماشرة - اختلف الناس في جوار نظر الرجل إلى مِرَج المرأة ؛ على قولين : أحدهما - يجوز ؛ لأنه إذا جاز له التلذذ به فالتنظر أولى . وقيل : لا يجوز ، لقول عائشة

(١) راجع ج ١٠ ص ٢٥٠ . (٢) جواب « لو » محذوف ؛ أى لم يجبت .

(٣) راجع ص ١٠٥ من هذا الجزء .

رضى الله عنها في ذكر حالها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما رأيت ذلك منه ولا رأى ذلك مني . والأول أصح ، وهذا محمول على الأدب ؛ قاله ابن العربي . وقد قال أصبغ من علمائنا : يجوز له أن يلحسه بلسانه . وقال ابن خُوَزِمَتَاد : أما الزوج والسيد فيجوز له أن ينظر إلى سائر الجسد وظاهر الفرج دون باطنه . وكذلك المرأة يجوز أن تنظر إلى عورة زوجها ، والأمة إلى عورة سيدها .

قلت : و . وى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " النظر إلى الفرج يورث الطمس " أى العمى ، أى فى الناظر . وقيل : إن الولد بينهما يولد أعمى . والله أعلم .

الحادية عشرة — لما ذكر الله تعالى الأزواج وبدأ بهم حتى بنوى المحارم ومضى بينهم فى إبداء الزينة ، ولكن تختلف مراتبهم بحسب ما فى نفوس البشر . فلا مَرِيَّة أن تكشف الأب والأخ على المرأة أحوط من كشف ولد زوجها . وتختلف مراتب ما يُبْدَى لهم ؛ فيبدى للاب مالا يجوز إبدائه لولد الزوج . وقد ذكر القاضي إسماعيل عن الحسن والحسين رضى الله عنهما أنهما كانا لا يريان أمهات المؤمنين . وقال ابن عباس : إن رؤيتهما لمن نحل . قال إسماعيل : أحسب أن الحسن والحسين ذعبا فى ذلك إلى أن أبناء البُؤلة لم يذكروا فى الآية التى فى أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، وهى قوله تعالى : « لَا جُنَاحَ عَلَى الَّذِينَ فِي آبَائِهِمْ <sup>(١)</sup> » . وقال فى سورة النور : « وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ <sup>(٢)</sup> » الآية . فذهب ابن عباس إلى هذه الآية ، وذهب الحسن والحسين إلى الآية الأخرى .

الثانية عشرة — قوله تعالى : ( أَوْ أَبْنَاءَ بُعُولَتِهِمْ ) يريد ذكر أولاد الأزواج ، ويدخل فيه أولاد الأولاد وإن سَقَلُوا ، من ذكران كانوا أو إناث ؛ كبنى البتين وبنى البات . وكذلك آباء البؤلة والأجداد وإن سَقَلُوا من جهة الذكران لآباء الآباء وآباء الأمهات ، وكذلك أبنائهن وإن سَقَلُوا . وكذلك أبناء البات وإن سَقَلُوا ؛ فيستوى فيه أولاد البتين وأولاد البات . وكذلك أخواتهن ، وهم من ولده الآباء والأمهات أو أحد الصنفين . وكذلك بنو الإخوة

وبنو الأخوات وإن سفلوا من ذكركم كانوا أو إناث كني بنى الأخوات وبنى بنات الأخوات . وهذا كله في معنى ما حرم من المناع ، فإن ذلك على المعاني في الولادات وهؤلاء محارم ، وقد تقدم في « النساء » . والجمهور على أن الميم والخال كسائر المحارم في جواز النظر لها إلى ما يجوز لهم . وليس في الآية ذكر الرضاع ، وهو كالنسب على ما تقدم . وعقد الشعي وعكرمة ليس الميم والخال من المحارم . وقال عكرمة : لم يذكرا في الآية لأنهما تبعا لأبائهما .

الثالثة عشرة - قوله تعالى : ( أَوْ نِسَائِهِنَّ ) يعني المسلمات ، ويدخل في هذا الإماء المؤمنات ، ويخرج منه نساء المشركين من أهل الذمة وغيرهم ، فلا يحل لأمرأة مؤمنة أن تكشف شيئا من بدنهما بين يدي امرأة مشركة إلا أن تكون أمة لها ، فذلك قوله تعالى : « أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ » . وكان ابن جريح وعبيدة بن نسي وهشام القاري يكرهون أن تقبل النصرانية المسلمة أو ترى عورتها ، ويتأولون « أَوْ نِسَائِهِنَّ » . وقال عبيدة بن نسي : وكتب عمر رضي الله عنه إلى أبي عبيدة بن الجراح : أنه يلحق أن نساء أهل الذمة يدخلن الحمامات مع نساء المسلمين ، فامنع من ذلك ، وحل دونه ، فإنه لا يجوز أن ترى الذنبة عريّة المسلمة . قال : فعند ذلك قام أبو عبيدة وأبتهل وقال : أيما امرأة تدخل الحمام من غير عذر لا تريد إلا أن تبيض وجهها فسود الله وجهها يوم تبيض الوجوه . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : لا يحل للسلمة أن تراها يهودية أو نصرانية ، فلا تصفها لزوجها . وفي هذه المسألة خلاف للفقهاء . فإن كانت الكافرة أمة مسلمة جاز أن ينظر إلى سيدتها ، وأما غيرها فلا ، لا قطاع الولاية بين أهل الإسلام وأهل الكفر ، ولما ذكرناه . والله أعلم .

الرابعة عشرة - قوله تعالى : ( أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ ) ظاهر الآية يشمل للمسيح والإماء المسلمات والكنائيات . وهو قول جماعة من أهل العلم ، وهو الظاهر من منقب عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما . وقال ابن عباس : لا بأس أن ينظر المملوك إلى شعر مولاه . وقال أشهب : سئل مالك أطلع المرأة محاربا بين يدي الخبي؟ فقال نعم ، إن كان

مملوكا لها أولغيرها ، وأما الحزفلا . وإن كان غلاما كبيرا وَغَدًا تملكه ، لا هيئة له ولا منظر  
 فليُنظر إلى شعرها . قال أشهب قال مالك : ليس بوسع أن تدخل جارية الولد أو الزوجة  
 على الرجل المرحاض ، قال الله تعالى : « أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ » . وقال أشهب عن مالك :  
 ينظر الغلام الوغد إلى شعر سيده ، ولا أحبه لسلام الزوج . وقال سعيد بن المسيب :  
 لا تنظرنكم هذه الآية « أوما ملكت أيمانن » إنما عني بها الإمام ولم يئن بها العبد . وكان الشعبي  
 يكره أن ينظر المملوك إلى شعر مولاه . وهو قول مجاهد وعطاء . وروى أبو داود عن أنس  
 أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى فاطمة ببعد قد وجه لها ، قال : وعلى فاطمة توب إذا  
 غطت به رأسها لم يبلغ إلى رجلها ، وإذا غطت به رجلها لم يبلغ إلى رأسها ، فلما رأى النبي  
 صلى الله عليه وسلم ما تلقى من ذلك قال : « إنه لا بأس عليك إنما هو أبوك وغلماك » .

الخامسة عشرة - قوله تعالى : ( أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولَى الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ ) أى غير  
 أولى الحاجة . والإربة الحاجة ، يقال : أربت كذا آرب آربا . والإرب والإربة والمأربة  
 والأرب : الحاجة ، والجمع مأرب ، أى حوايج . ومنه قوله تعالى : « وَلِي فِيمَا مَأْرَبٌ  
 أُخْرَى » وقد تقدم <sup>(١)</sup> . وقال طرفة :

إذا المرء قال الجهل والحب والحنأ . تفنم يوما ثم ضاعت مأربه

واختلف الناس فى معنى قوله : « أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولَى الْإِرْبَةِ » فقيل : هو الأحمق  
 الذى لا حاجة به إلى النساء . وقيل الأبله . وقيل : الرجل يتبع القوم فى كل معهم ويرتفق  
 بهم ، وهو ضعيف لا يكثرث النساء ولا يشتهن . وقيل العيين . وقيل الحصى . وقيل  
 الخنث . وقيل الشيخ الكبير ، والصبي الذى لم يدرك . وهذا الاختلاف كله متقارب المعنى ،  
 ويجمع فيمن لا فهم له ولا هيئة ينخبه بها إلى أمر النساء . وبهذه الصفة كان هيئة الخنث  
 عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما سمع منه ما سمع من وصف محاسن المرأة : بادية بنة  
 غيلان ، أمر بالاحتجاب منه . أخرج حديثه مسلم وأبو داود ومالك فى الموطأ وغيرهم عن

(١) راجع ج ١١ ص ١٨٧ (٢) الحبيب (بضم الحاء وفتحها) : الإثم . والحنأ : القش .

هشام بن عروة عن عروة عن عائشة . قال أبو عمر : ذكر عبد الملك بن حبيب عن حبيب كاتب مالك قال قلت لمالك : إن سفيان زاد في حديث ابنة خيلان : «أن غنثا يقال له هيت» وليس في كتابك هيت ؟ فقال مالك : صدق ، هو كذلك وغيره النبي صلى الله عليه وسلم إلى الجملى وهو موضع من ذى الحليفة ذات الشمال من مسجدهما . قال حبيب وقلت لمالك : وقال سفيان في الحديث : إذا فعلت تبتت ، وإذا تكلمت تفتت . قال مالك : صدق ، هو كذلك . قال أبو عمر : ما ذكره حبيب كاتب مالك عن سفيان أنه قال في الحديث يعني حديث هشام بن عروة «أن غنثا يدعى هيتا» فغير معروف عند أحد من رواه عن هشام ، لا ابن عينة ولا غيره ، ولم يقل في نسق الحديث «إن غنثا يدعى هيتا» ، وإنما ذكره عن ابن جريج بعد تمام الحديث ، وكذلك قوله عن سفيان أنه يقول في الحديث : إذا فعلت تبتت وإذا تكلمت تفتت ، هذا ما لم يقله سفيان ولا غيره في حديث هشام بن عروة ، وهذا اللفظ لا يوجد إلا من رواية الواقدي ، والسجب أنه يحكيه عن سفيان ويحكي عن مالك أنه كذلك ، فصارت رواية عن مالك ، ولم يروه عن مالك غير حبيب ولا ذكره عن سفيان غيره أيضا ، واهه أعلم . وحبيب كاتب مالك متروك الحديث ضعيف عند جميعهم ، لا يكتب حديثه ولا يفتى إلى ما يحكي به . ذكر الواقدي والكوفي أن هيتا الخنثى قال لعبد الله بن أبيه الخنزومي وهو أخو أم سلمة لأبيها وأمه عائكة عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال له وهو في بيت أخته أم سلمة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع : إن فتح الله عليكم الطائف فليكن بيادية بنت خيلان بن سلمة التثني ، فإنها تقبل بأربع وتذير بثمان ، مع تمر كالأقشوان ، إن جلست تبتت وإن تكلمت تفتت ، بين رجلها كالإناء المكفوء ، وهي كما قال قيس بن الخطيم :

تُسْقِرُكَ الطَّرْفُ وَهِيَ لَابِقَةٌ • كَأَنَّمَا شَفَّ وَجْهَهَا زُرْفُ<sup>(١)</sup>

(١) أى سارت كالبيضة من سمها وحدها . قال ابن الأثير : أى قربت رجلها لخصم زوجها (فرجها) ، كأنه شبهها بالقبية من الأدم . (٢) أى تقبل بأربع مكن وتذير بثمان مكن . ولكن والأعكان : ما اطرى وتقى من لم يلين منها . (٣) أى ضم زوجها (فرجها) ونهوده كأنه إناء مكبوب . (٤) يقول : من نظر إليها استقرت طرفه وجره وشكله عن النظر إلى غيرها ، وهي لاهية غير محتفة . والنزف (يضم فسكون) ، موكها لضرورة الشعر) : تخرج الدم . وفي شرح ديوان قيس : «أراد أن في لونها مع البياض صفرة» وذلك أحسن .

بين شُكُول النساءِ خَفَّتْهَا • قَصَدُ فَلَاجِلَةٍ وَلَا قَصَفٌ<sup>(١)</sup>  
 تنام عن كُفْرِ شَانِهَا إِذَا • قَامَتْ رُوَيْدًا تَكَادُ تَنْقِصُفُ

فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " لَقَدْ ظَلَمْتَ النَّظَرَ إِلَيْهَا يَا عَبْدَ اللَّهِ " . ثُمَّ أَجْلَاهُ عَنْ  
 الْمَدِينَةِ إِلَى الْيَمَى . قَالَ : فَلَمَّا أَقْبَحَتْ الطَّائِفُ تَرْوُجَهَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ فَوَلَدَتْ لَهُ مِنْهُ  
 بَرِيَّةً ، فِي قَوْلِ الْكَلْبِيِّ . وَلَمْ يَزَلْ هَيْتَ بِذَلِكَ الْمَكَانِ حَتَّى قُبِضَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ،  
 فَلَمَّا وَلَّى أَبُو بَكْرٌ كُلَّمَا فِيهِ فَأَبَى أَنْ يَرْقَهُ ، فَلَمَّا وَلَّى عُمَرُ كُلَّمَا فِيهِ فَأَبَى ، ثُمَّ كَلَّمَ فِيهِ عُثْمَانُ بَعْدُ .  
 وَقِيلَ : إِنَّهُ قَدْ كَبِرَ وَضَعُفَ وَاجْتَنَحَ ، فَأَذِنَ لَهُ أَنْ يَدْخُلَ كُلَّ جُمُعَةٍ فَيَسَّالُ وَيَرْجِعُ إِلَى مَكَانِهِ .  
 قَالَ : وَكَانَ هَيْتَ مَوْلًى لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ [أَبِي] أُمَيَّةَ الْخَزَزِيِّ ، وَكَانَ لَهُ طُورٌ<sup>(٢)</sup> أَيْضًا ، فَمِنْ ثَمَّ قِيلَ<sup>(٣)</sup>  
 الْخَنْثُ . قَالَ أَبُو عَمْرٍ : يَقَالُ « بَادِيَّةٌ » بِالْيَاءِ وَ « بَادَنَةٌ » بِالنُّونِ ، وَالضُّوَابُ فِيهِ عِنْدَهُمْ بِالْيَاءِ ،  
 وَهُوَ قَوْلُ أَكْثَرِهِمْ ، وَكَذَلِكَ ذَكَرَهُ الزَّيْرِيُّ بِالْيَاءِ .

السَّادَةُ عَشْرَةَ — وَصَفَ التَّابِعِينَ بِـ « خَيْرٍ » لِأَنَّ التَّابِعِينَ غَيْرُ مَقْصُودِينَ بِأَعْيَانِهِمْ ،  
 فَصَارَ اللَّفْظُ كَالنَّكَرَةِ . وَ « غَيْرٍ » لَا يَتَخَصُّ نَكَرَةً بِقَازٍ أَنْ يَجْرِيَ وَصْفًا عَلَى الْمَعْرِفَةِ . وَإِنْ شِئْتَ  
 قُلْتَ هُوَ بَدَلٌ . وَالْقَوْلُ فِيهَا كَالْقَوْلِ فِي « غَيْرِ الْمَقْصُوبِ عَلَيْهِمْ » . وَقَرَأَ عَاصِمٌ وَابْنُ حَاصِرٌ « غَيْرَ »  
 بِالنَّصْبِ فَيَكُونُ اسْتِثْنَاءٌ أَيْ يَبْدِينَ زَيْتَيْنِ لِلتَّابِعِينَ إِلَّا إِذَا الْإِزْبَةُ مِنْهُمْ . وَيَحْزُونَ أَنْ يَكُونَ  
 حَالًا ، أَيْ وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَهُمْ عَاجِزِينَ عَنْهُمْ ، قَالَهُ أَبُو حَاسِمٍ . وَذُو الْحَالِ مَا فِي « التَّابِعِينَ » مِنَ الذِّكْرِ .

السَّابِعَةُ عَشْرَةَ — قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَوْ الطُّفُلُ ﴾ اسمُ جِنْسٍ بِمَعْنَى الْجَمْعِ ، وَالِدَلِيلِ عَلَى ذَلِكَ  
 مَعْنُهُ بِـ « الْبَالِغِينَ » . وَفِي مَصْحُفِ حَفْصَةَ « أَوْ الْأَطْفَالُ » عَلَى الْجَمْعِ . وَيُقَالُ : طِفْلٌ مَا لَمْ  
 يَرَاهُ الْقَلَمُ . وَ ﴿ يَظْهَرُوا ﴾ مَعْنَاهُ يَظْلَمُوا بِالْوَطءِ ، أَيْ لَمْ يَكْشِفُوا عَنْ عَوْرَاتِهِنَّ لِلْجَمَاحِ  
 لَصُغْرِهِنَّ . وَقِيلَ : لَمْ يَبْلُغُوا أَنْ يَطِيقُوا النِّسَاءَ ، بِقَالَ : ظَهَرَتْ عَلَى كَذَا أَيْ عَلِمَتْ ، وَظَهَرَتْ

(١) الشُّكُولُ : الصُّرُوبُ . وَقَصَدُ : لَيْسَتْ بِالْجَسِيَّةِ وَلَا النَّجِيَّةِ . وَالْجَلِيَّةُ : الطَّيْظَةُ ، مِنْ جَبَلٍ (كَفَرَجٍ) فَهُوَ  
 جَبَلٌ وَجَبَلٌ . وَالْقَصَفُ : الدَّقَّةُ وَقَوْلُهُ هَهُمُ . (٢) طُورٌ قَبْلَ طَبِّ عَلَيْهِ ، وَاسْمٌ عَيْسَى بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ، مَوْلَى  
 بَنِي حِزْرَمٍ ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ عَنِ الْعَرَبِ بِالْمَدِينَةِ ، وَأَوَّلُ مَنْ أَلْفَ الْخَنْثَ بِهَا . (رَاجِعْ رَجْعَةً فِي الْأَغَانِي ج ٣ ص ٢٧  
 طَبْعُ دَارِ الْكُتُبِ الْقَاهِرَةِ) . (٣) فِي الْأَصُولِ : « قِيلَ الْخَنْثُ » وَالتَّصْوِيبُ عَنِ الْأَغَانِي .



على كذا أى قهرته . والجمهور على سكن الواو من « عورات » لاستغفال الحركة على الواو .  
وروى عن ابن عباس فتح الواو؛ مثل جَفَنَة وجَفَنَات . وحكى الفراء أنها لغة قيس « عورات »  
[بفتح] الواو . النحاس : وهذا هو القياس ؛ لأنه ليس بنعت ، كما تقول : جفنة وجففات ؛  
إلا أن التسكين أجد في « عورات » وأشباهه ، لأن الواو إذا تحوكت وتحرك ما قبلها قلبت  
ألفاء ؛ فلو قبل هذا لذهب المعنى .

الثامنة عشرة — اختلف العلماء في وجوب ستر ما سوى الوجه والكفين منه على قولين :  
أحدهما — لا يلزم ؛ لأنه لا تكليف عليه ، وهو الصحيح . والاخر — يلزم ؛ لأنه قد يشتهى  
وقد تشتهى أيضا ؛ فإن راحق حكمه حكم البالغ في وجوب السترة . ومثله الشيخ الذى سقطت  
شهوته ؛ اختلف فيه أيضا على قولين كما في الصبي ، والصحيح بقاء الحرمة ؛ قاله ابن العربي .  
التاسعة عشرة — أجمع المسلمون على أن السَّوَتَيْن عورة من الرجل والمرأة ، وأن المرأة  
كلها عورة ، إلا وجهها ويديها فإنهم اختلفوا فيها . وقال أكثر العلماء في الرجل : من  
سرتة إلى ركبته عورة ؛ لا يجوز أن تُرى . وقد مضى في « الأعراف » القول في هذا مستوفى<sup>(١)</sup> .  
الْعُوفِيَّة عشرين — قال أصحاب الرأى : عورة المرأة مع عبدها من السرة إلى الركبة .  
ابن العربي : وكأنهم ظنوها رجلا أو ظنوه امرأة ، والله تعالى قد حرم المرأة على الإطلااق  
لنظر أولده ، ثم آستنى اللذة للأزواج ومِلْكُ الْيَمِين ، ثم آستنى الزينة لأخفى عشر شخصها العبد  
منهم ، فما لنا ولذلك ! هذا نظر فاسد واجتهاد عن السداد متباعد . وقد تأول بعض الناس  
قوله « أو ما ملكت أيمانهن » على الإمام دون العبيد ؛ منهم سعيد بن المسيب ، فكيف يحملون  
على العبيد ثم يلحقون بالنساء ، هذا بعيد جدًا ! وقد قيل : إن التقدير أو ما ملكت أيمانهن  
من غير أولى الإربة أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال ؛ حكاه المهدوي .

الحادية والعشرون — قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَضْرِبَنَّ يَارْجُلَيْنِ ﴾ الآية ؛ أى لا تضرب  
المرأة برجلها إذا مشت لتسمع صوت خَلْطَها ؛ فإسماع صوت الزينة كإبداء الزينة وأشد ،

والفرض التستر . أسند الطبري عن المعتز عن أبيه أنه قال : زعم حضرمي أن امرأة أخذت برتين من فضة وأخذت جرماً فجعلت في ساقها فتزت على القوم فضربت برجلها الأرض فوقع الخلخال على الخنجر فصوت ؛ فزلت هذه الآية . وسماع هذه الزينة أشد تحريكا للشهوة من إبدائها ؛ قاله الزجاج .

الثانية والعشرون — من فعل ذلك منهن قرحاً مجلّين فهو مكروه . ومن فعل ذلك منهن تبرجاً وتعرضاً للرجال فهو حرام مذموم . وكذلك من ضرب بنعله من الرجال ، إن فعل ذلك محجّباً حرم ، فإن العُجب كبيرة . وإن فعل ذلك تبرجاً لم يحرّم .

الثالثة والعشرون — قال مكّي رحمه الله تعالى : ليس في خطاب الله تعالى آية أكثر ضمائر من هذه ، جمعت خمسة وعشرين ضميراً للؤمات من خفض ورفوع .

قوله تعالى : ( وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ) فيه سائلتان :

الأولى — قوله تعالى : ( وَتُوبُوا ) أمرٌ . ولا خلاف بين الأئمة في وجوب التوبة ، وأنها فرض متعين ؛ وقد مضى الكلام فيها في « النساء » .<sup>(١)</sup> وغيرها فلا معنى لإعادة ذلك . والمعنى : وتوبوا إلى الله فإنكم لا تخلون من سهو وتقصير في أداء حقوق الله تعالى ، فلا تركوا التوبة في كل حل .

الثانية — قرأ الجمهور « آية » بفتح الهاء . وقرأ ابن عامر بضمها ؛ ووجهه أن تجعل الهاء من نفس الكلمة ، فيكون إعراب المنادي فيها . وضعف أبو علي ذلك جداً وقال : آخر الأسماء هو الياء الثانية من أي ، فالمضموم ينبغي أن يكون آخر الاسم ، ولو جاز ضم الهاء هاءنا لأقترانها بالكلمة لجاز ضم الميم في « اللهم » لأقترانها بالكلمة في كلام طويل . والصحيح أنه إذا ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم قراءة فليس إلا اعتقاد الصحة في اللغة ، فإن القرآن هو الحجة . وأشدّ القراء :

يَا أَيُّهَا الْقَلْبُ الْجِسْمُ النَّفْسُ \* أنق من البيض الحسان اللبس

(١) الآية : الخلخال ، وكل لفة من سوار وقرط . (٢) الجزع (فتح الجيم) ضرب من الخمر .

(٣) راجع ج ٥ ص ٩٠

الأمس : لون الشَّفة إذا كانت تضرب إلى السواد قليلا ، وذلك يستلح ؛ يقال : شَفَّة لساء ، وفتية ونسوة لئس . وبعضهم يقف « آية » . وبعضهم يقف « آية » بالالف ؛ لأن طلة حذفتها في الوصل إنما هو سكنها وسكون اللام ، فإذا كان الوقف ذهبت الطلة فرجعت الألف كما ترجع الياء إذا وقفت على « حِلٌّ » من قوله تعالى : « قَبْرٌ حِلٌّ الصَّيْدِ » . وهذا الاختلاف الذي ذكرناه كذلك هو في « آية الساحر » . « آية الثقلان » .

قوله تعالى : وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٧﴾  
فيه سبع مسائل :

الأولى — هذه المخاطبة تدخل في باب السر والصلاح ؛ أي زوجوا من لا زوج له منكم فإنه طريق التمكف ؛ والمخاطب للأولياء . وقيل للأزواج . والصحيح الأول ؛ إذ لو أراد الأزواج لقال « وأنكحوا » بغير همز ، وكانت الألف للوصل . وفي هذا دليل على أن المرأة ليس لها أن تنكح نفسها بغير ولي ؛ وهو قول أكثر العلماء . وقال أبو حنيفة : إذا زوجت الثيب أو البكر نفسها بغير ولي كُفَّتْ لها جاز . وقد مضى هذا في « البقرة » مستوفى .

الثانية — اختلف العلماء في هذا الأمر على ثلاثة أقوال ؛ فقال علماؤنا : يختلف الحكم في ذلك باختلاف حال المؤمن من خوف العنت ، ومن عدم صبره ، ومن قوته على الصبر وزوال خشية العنت عنه . وإذا خاف الهلاك في الدين أو الدنيا أو فيها فالتكاح حرم . وإن لم يخش شيئا وكانت الحال مطلقة فقال الشافعي : التكاح مباح . وقال مالك وأبو حنيفة : هو مستحب . تعلق الشافعي بأنه قضاء لنية فكان مباحا كالأكل والشرب . وتعلق علماؤنا بالحديث الصحيح : « من رزب عن سُنَّتِي فليس مِنِّي » .

الثالثة — قوله تعالى : ( الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ ) أي الذين لا أزواج لهم من الرجال والنساء ؛ واحدم أيم . قال أبو عمرو : أياى مقلوب أيايم . وأحق أهل اللغة على أن الأيمى والأيمى

هي المرأة التي لا زوج لها، بكرا كانت أو ثيباً، حكى ذلك أبو عمرو والكاسي وغيرهما. تقول العرب: تأيئت المرأة إذا أقامت لاتزوج. وفي حديث النبي صلى الله عليه وسلم: «أنا وأمرأة<sup>(١)</sup> سقما الخلقين تأيئت على ولدهما الصغار حتى يبلغوا أو يفتنهم الله من فضله كهاتين في الجنة». وقال الشاعر:

فإن تنكحني أنكح وإن تشأني • وإن كنت أقتي منكم أنايم

ويقال: أيم بين الأئمة. وقد آمت هي، وإمت أنا. قال الشاعر:

لقد إمت حتى لا يني كل صاحب • رجاء بسلتي أن تيم كما إمت

قال أبو عبيد: يقال رجل أيم وأمرأة أيم؛ وأكثر ما يكون ذلك في النساء، وهو كالاستعارة في الرجال. وقال أنية بن أبي الصلت:

له دُرٌ بسني عِلَسي أيم منهم وناع

وقال قوم: هذه الآية ناسخة لحكم قوله تعالى: «وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ». وقد بيناه في أول السورة والحمد لله.

الرابعة - المقصود من قوله تعالى: «وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ» الحوائر والأحرار؛ ثم بين حكم المسالك فقال «وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ». وقرأ الحسن «وَالصَّالِحِينَ عبيدكم»، وعبيد اسم للجمع. قال الفراء: ويجوز «وإمامكم» بالنصب، يرده على «الصالحين» يعني الذكور والإناث؛ والصالح الإيمان. وقيل: المعنى ينبغي أن تكون الرغبة في تزويج الإماء والعبيد إذا كانوا صالحين فيجوز تزويجهم، ولكن لا ترغيب فيه ولا استحباب؛ كما قال «فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا». ثم قد تجوز الكتابة وإن لم يعلم أن في العبد خيراً، ولكن الخطاب ورد في الترغيب والاستحباب، وإنما يستحب كتابة من فيه خير.

الخامسة - أكثر العلماء على أن للسيد أن يكره عبده وأنته على النكاح؛ وهو قول مالك وأبي حنيفة وغيرهما. قال مالك: ولا يجوز ذلك إذا كان ضرراً. وروى نحوه عن

(١) السنع: السواد والشعر. أراد أنها بذلك قسما وتركت الزينة والقره حتى تحب لونها واسودت إقامه على ولدها بعد وفاة زوجها. (٢) راجع ص ١٦٧ من هذا الجزء.

الشافعي، ثم قال : ليس للسيد أن يكره العبد على النكاح . وقال النخعي : كانوا يكرهون المالك على النكاح ويقولون عليهم الأجراب . تمسك أصحاب الشافعي فقالوا : العبد مكلف فلا يجبر على النكاح ، لأن الكليف يدل على أن العبد كامل من جهة الآدمية ، وإنما يتعلق به المملوكة فيما كان حظاً للسيد من ملك الرقبة والمغنة ، بخلاف الأمة فإنه له حق المملوكة في بضعها ليستوفيه ، فأما بضع العبد فلا حق له فيه ، ولأجل ذلك لا تباح السيدة لمبدها . هذه عمدة أهل خراسان والعراق ، وعمدتهم أيضاً الطلاق ، فإنه يملكه العبد بتملك عقده . ولعلنا نكتة العظمى في أن مالكية العبد استغرقتها مالكية السيد ، ولذلك لا يتزوج إلا بإذنه بإجماع . والنكاح وبأيه إنما هو من المصالح ، ومصلحة العبد موكولة إلى السيد ، هو يراها ويقيمها للعبد .

السادسة - قوله تعالى : ﴿ إِنْ يَكُونُوا قُرَّاءَ بَيْنِهِمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ رجع الكلام إلى الأحرار ، أي لا تمتنعوا عن التزوج بسبب فقر الرجل والمرأة ؛ « إِنْ يَكُونُوا قُرَّاءَ بَيْنِهِمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ » . وهذا وعدٌ بالثمن للزوجين طلب رضا الله واعتصاما من مآصيه . وقال ابن مسعود : اتحموا الفنى في النكاح ؛ وتلا هذه الآية . وقال عمر رضى الله عنه : تنجى من لا يطلب الفنى في النكاح ، وقد قال الله تعالى « إِنْ يَكُونُوا قُرَّاءَ بَيْنِهِمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ » . وروى هذا المعنى عن ابن عباس رضى الله عنهما أيضاً . ومن حديث أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ثلاثة كلهم حق على الله عونهُ المجاهد في سبيل الله والناصح يريد العفاف والمكاتب يريد الأداء » . أخرجه ابن ماجه في سننه . فإن قيل : فقد نجد الناح لا يستغنى ؛ قلنا : لا يلزم أن يكون هذا على الدوام ، بل لو كان في لحظة واحدة لصدق الوعد . وقد قيل : يصنيه ؛ أي يفنى النفس . وفي الصحيح « ليس النّنى عن كثرة العرض إنما النّنى غنى النفس » . وقد قيل : ليس وعد لا يقع فيه خلف ؛ بل المعنى أن المال غداً ورائح ، فأوجوا الفنى . وقيل : المعنى يشتم الله من فضله إن شاء ؛ كقوله تعالى :

« فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ » ، وقال تعالى : « يَسْأَلُ الرَّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ » . وقيل :  
المعنى إن يكونوا فقراء إلى التكاح بينهم الله بالحلال ليعقّبوا عن الرزق .

السابعة - هذه الآية دليل على تزويج الفقير ، ولا يقول كيف أتزوج وليس لي مال ؛  
فإن رزقه على الله . وقد زوج النبي صلى الله عليه وسلم المرأة التي آتته تهب له نفسها لمن ليس  
له إلا إزار واحد ، وليس لها بعد ذلك فسخ التكاح بالإحصار لأنها دخلت عليه ؛ وإنما يكون ذلك  
إذا دخلت على البسار فخرج مفسرا ، أو طرأ الإحصار بعد ذلك لأن الجوع لا صبر عليه ؛ قاله  
علمائنا . وقال الغاشي : هذه الآية حجة على من قال : إن الفاضى يفرق بين الزوجين إذا  
كان الزوج فقيرا لا يقدر على النفقة ؛ لأن الله تعالى قال « بينهم الله » ولم يقل يفرق . وهذا  
اتراح ضعيف ، وليس هذه الآية حكاية من عجز عن النفقة ، وإنما هي وعد بالإغناء لمن تزوج  
فقيرا . فأتينا من تزوج موصرا وأصر بالنفقة فإنه يفرق بينهما ؛ قال الله تعالى : « وَإِنْ يَتَفَرَّقَا  
يُفْنِ اللَّهُ كَلَامَ بَيْنِهِمَا » . ونقضات الله تعالى ما موله في كل حال موعود بها .

قوله تعالى : وَلَيْسَتِ الْيَتَامَى الَّذِينَ لَا يَحْكُمُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُفْغِنَهُمُ اللَّهُ  
مِنْ فَضْلِهِ . وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الْكِتَابَ بِمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ  
إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُمْ مِّنْ مَّالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا  
فَتَبَاتِكُمْ عَلَى الْإِبْعَاءِ إِنْ أَرَدْتُمْ مَحْصَنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا  
وَمَن يَكْرِهْنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا  
إِلَيْكَ ءَايَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكَ وَمَوْعِظَةً  
لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾

قوله تعالى : ( وَلَيْسَتِ الْيَتَامَى الَّذِينَ لَا يَحْكُمُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُفْغِنَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ )

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ( وَلَيْسَتِغْفِرَ الَّذِينَ ) الخطاب لمن يملك أمر نفسه ، لا لمن  
 زمامه بيد غيره فإنه يقوده إلى ما يراه ، كالمجبور — قولاً واحداً — والأمة والعبد ، على  
 أحد قول العلماء .

الثانية — « وأستغف » وزنه استغفل ، ومعناه طلب أن يكون عفيفاً ، فأمر الله  
 تعالى بهذه الآية كل من تمذّر عليه النكاح ولا يجده بأي وجه تمذّر أن يستغف . ثم لما كان  
 أغلب الموانع على النكاح عدم المال وعد بالإساء من فضله ، فبرزفه ما يترّج به ، أو يحد  
 امرأة ترضى باليسير من الصداق ، أو تزول — بهوة النساء . وروى النسائي عن أبي هريرة  
 عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ثلاثة كلّم من علي الله عزّ وجلّ عنهم المجاهد في سبيل  
 الله والثام الذي يريد الصفاف والمكاتب الذي يريد الأداء » .

الثالثة — قوله تعالى : ( لَا يَحْمِلُونَ نِكَاحاً ) أى طول نكاح ، غسب المضاف .  
 وقيل : النكاح هاهنا ما تنكح به المرأة من المهر والنفقة ، كالتفاف اسم لما يتخف به .  
 واللباس اسم لما يلبس ، فعل هذا لا حذف في الآية ، قاله جماعة من المفسرين ، وحملهم على  
 هذا قوله تعالى : « حَتَّى يَفْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ » فظنوا أن المأمور بالاستغفار إنما هو من عدم  
 المال الذي يترّج به . وفي هذا القول تخصيص المأمورين بالاستغفار ، وذلك ضعيف ،  
 بل الأمر بالاستغفار متوجه لكل من تمذّر عليه النكاح بأي وجه تمذّر ، كما قدمناه ،  
 والله تعالى أعلم .

الرابعة — من تأقت نفسه إلى النكاح فإن وجد الطول فاستحبّ له أن يترّج ،  
 وإن لم يجد الطول فليبه بالاستغفار ما أمكن ولو بالصوم فإن الصوم له وجاء ، كما جاء في الخبر  
 الصحيح . ومن لم تنق نفسه إلى النكاح فالأولى له التخلّ لعبادة الله تعالى . وفي الخبر « خيركم  
 الخفيف الخلاء الذي لا أهل له ولا ولد » . وقد تقدّم جواز نكاح الإمام عند عدم الطول للمرة  
 في « النساء » والحمد لله . ولما لم يعمل الله له من العفة والنكاح درجة دلّ على أن ما عداها

محرم، ولا يدخل فيه ملك اليمين؛ لأنه بنص آمر مباح، وهو قوله تعالى: «أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ» بغامت فيه زيادة، ويبقى على التحريم الاستثناء ودنا على أحمد<sup>(١)</sup>. وكذلك يخرج عنه نكاح التمتع بنسخه، وقد تقدم هذا في «المؤمنين».

قوله تعالى: «وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مَكَاتِبُهُمْ إِنْ عَلِمَتْ فِيهِمْ خَيْرًا» فيه ست عشرة مسألة:

الاولى - قوله تعالى: «وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ» «الذين» في موضع رفع. وعند الخليل وسبويه في موضع نصب على إصتمام فعل؛ لأن بعده أمراً. ولما جرى ذكر العبد والإماء فيما سبق وصل به أن العبد إن طلب الكتاب فالمستحب كتابته؛ فربما يقصد بالكتابة أن يستقل ويكتسب ويتزوج إذا أراد، فيكون أعف له. قيل: نزلت في غلام لحويطب ابن عبد العزى يقال له صبيح - وقيل صبيح - طلب من مولاه أن يكتبه فأبى؛ فانزل الله تعالى هذه الآية، فكتبه حويطب على مائة دينار ووهب له منها عشرين دينارا فأذاها، وقتل بجنين في الحرب؛ ذكر القشيري وحكاه القفاش. وقال مكي: هو صبيح القبطي غلام حاطب بن أبي بلتعة. وعلى الحلة فإن الله تعالى أمر المؤمنين كافة أن يكتب منهم كل من له مملوك وطلب المملوك الكتابة وعلم سيده منه خيرا.

الثانية - الكتاب والمكتبة سواء؛ مفاعلة مما لا تكون إلا بين اثنين، لأنها معادلة بين السيد وعبيده؛ يقال: كاتب يكتب كتابا ومكتبة؛ كما يقال: قاتل قتالا ومقاتلة. فالكتاب في الآية مصدر كالقتال والجلاد والدفاع. وقيل: الكتاب هاهنا هو الكتاب المعروف الذي يكتب فيه الشيء؛ وذلك أنهم كانوا إذا كاتبوا العبد كتبوا عليه وعلى أنفسهم بذلك كتابا. فالمنى يطلبون المتى الذي يكتب به الكتاب فيدفع إليهم.

الثالثة - معنى المكتبة في الشرع: هو أن يكتب الرجل عبده على مال يؤدبه متجرا عليه؛ فإذا آذاه فهو حر. ولها حالتان: الأولى - أن يطلبها العبد ويبيعه السيد؛ فهذا



مطلق الآية وظاهرها . الثانية - أن يطلب العبد وبأباها السيد؛ وفيها قولان : الأول  
لكرمة وعطاء ومسروق وعمرو بن دينار والضحاك بن مزاحم وجماعة أهل الظاهر أن ذلك  
واجب على السيد . وقال علماء الأمصار : لا يجب ذلك . وتعلق من أوجبها بمطلق الأمر،  
وأفضل بمطلقه على الوجوب حتى يأتي الدليل بغيره . وروى ذلك عن عمر بن الخطاب وابن  
عباس، واختاره الطبري، واحتج داود أيضا بأن سيرين أبو محمد بن سيرين سأل أنس بن مالك  
الكتابة وهو مولاة أنس؛ فوضع عمر عليه النقرة، وتلا « فكتبتم إن علمتم فيهم خيرا »،  
فكتبه أنس . قال داود : وما كان عمر ليرفع النقرة على أنس فيأله مباح ألا يفعل .  
وتعسك الجمهور بأن الإجماع معتقد على أنه لو سأل أن يذمه من غيره لم يلزمه ذلك ، ولم يجبر  
عليه وإن ضوعف له في الثمن . وكذلك لو قال له أعطني أو دبرتي أو زوني لم يلزمه ذلك  
بإجماع، فذلك الكتابة؛ لأنها معاوضة فلا تصح إلا عن تراض . وقولهم : مطلق الأمر يقتضي  
الوجوب صحيح، لكن إذا عيرى عن قرينة تقتضي صرفه عن الوجوب، وتعلقه هنا بشرط  
علم الخير فيه؛ فتعلق الوجوب على أمر باطن وهو علم السيد بالخيرية . وإذا قال العبد : كاتبي؛  
وقال السيد : لم أعلم فيك خيرا؛ وهو أمر باطن، فيرجع فيه إليه ويؤمل عليه . وهذا قوي في بابه .

الرابعة - واختلف العلماء في قوله تعالى : ( خيرا ) فقال ابن عباس وعطاء :  
المال . مجاهد : المال والأداء . الحسن والنخعي : الدين والأمانة . وقال مالك : سمعت  
بعض أهل العلم يقولون هو القوة على الاكتساب والأداء . وعن الليث نحوه ، وهو قول  
الثانبي . وقال عبيدة السلماني : إقامة الصلاة والخير . قال الطحاوي :<sup>(١)</sup> وقول من قال إنه  
المال لا يصح عندنا ؛ لأن العبد مال لمولاه ، فكيف يكون له مال . والمعنى عندنا : إن  
علمتم فيهم الدين والصدق، وعلمتم أنهم ياملونكم على أنهم متعبدون بالوفاء لكم بما عليهم من  
الكتابة والصدق في المعاملة فكتبتم . وقال أبو عمر : من لم يقل إن الخير هنا المال أنكر  
أن يقال إن علمتم فيهم مالا ، وإنما يقال : علمتم فيه الخير والصلاح والأمانة ؛ ولا يقال :  
علمتم فيه المال ، وإنما يقال علمتم عندك المال .

قلت : وحديث بريدة قول من قال : إن الخير المال ؛ على ما يأتي .

الخامسة - اختلف العلماء في كتابة من لا حرفة له ؛ فكان ابن عمر يكره أن يكتب عبده إذا لم تكن له حرفة ، ويقول : أنا امرئ أن أكل أوساخ الناس ؛ ونحوه من سلمان الفارسي . وروى حكيم بن حزام قال : كتب عمر بن الخطاب إلى عمر بن سعد : أما بعد ؛ فإنه من قبلك من المسلمين أن يكتبوا أرقاعهم على مسألة الناس . وكرهه الأوزاعي وأحمد وإسحاق . وروى في ذلك مالك وأبو حنيفة والشافعي . وروى عن علي رضي الله عنه أن ابن أبي العباس مؤذنه قال له : أكتب وليس لي مال ؟ قال نعم ؛ ثم حض الناس على الصدقة علي ؛ فأعطوني ما فضل عن مكاتبي ، فأنتيت طيباً فقال : اجعلها في الزقاب . وقد روى من مالك كراهة ذلك ، وإن الأمة التي لا حرفة لها يكره مكاتبها لما يؤدي إليه من فسادها . والوجه في السنة لا فيما خالفها . روى الأئمة عن عائشة رضي الله عنها قالت : دخلت على بريدة فقالت : أهمل كاتبتي على تسع أواق في تسع سنين ، كل سنة أوقية ، فأعطيني ... الحديث . فهذا دليل على أن للسيد أن يكتب عبده وهو لا شيء معه ؛ ألا ترى أن بريدة جاءت عائشة تخبرها بأنها كانت أهلها وسألها أن تعينها ، وذلك كان في أول كتابتها قبل أن تؤدي منها شيئاً ؛ كذلك ذكره ابن شهاب عن عمرو أرواح - عائشة أخبرته أن بريدة جاءت تستعينها في كتابتها ولم تكن قضت من كتابتها شيئاً ؛ أخرجه البخاري وأبو داود . وفي هذا دليل على جواز كتابة الأمة ، وهي غير ذات صنعة ولا حرفة ولا مال ، ولم يسأل النبي صلى الله عليه وسلم هل لما كسب أو عمل أو مال<sup>(١)</sup> ، ولو كان هذا واجباً لسأل عنه ليقع حكمه عليه ؛ لأنه بُعث مبيحاً مما كان صلى الله عليه وسلم . وفي هذا الحديث ما يدل على أن من تأول قوله تعالى : « إن علمتم فيهم خيراً » أن المال الخير ، ليس بالتأويل الجيد ، وأن الخير المذكور « القوة على الاتصاف مع الأمانة » والله أعلم .

السادسة - الكتابة تكون بقليل المال وكثيره ، وتكون على التيمم ؛ لحديث بريدة . وهذا ما لا خلاف فيه بين العلماء . واخترت .

عليه بقدر ميعاته وإن كره السيد . قال الشافعي : لا بُدَّ فيها من أجل ؛ وأقلها ثلاثة أنجم .  
واختلفوا إذا وقست على نجم واحد فأكثر أهل العلم يجربونها على نجم واحد . وقال الشافعي :  
لا تجوز على نجم واحد ، ولا تجوز حالة ألْبَنَةِ ، وإنك نلكت عَقَقَ على صفة ؛ كأنه : إذا  
أُتِيَتْ كَذَا وكَذَا فانت حر وليست تخابة . قال ابن العربي : اختلف العلماء والسَّلَبُ في الكتابة  
إذا كانت حالة على قولين ، واختلف قول علمائنا كالخلافهم . والصحيح في النظر أن الكتابة  
مؤجلة ؛ كما ورد بها الأثر في حديث بَريرة حين كتبت أهلها على تسع أوراق في كل عام أوقية ،  
وكما فعلت الصحابة ؛ ولذلك سُمِّيَتْ كتابة لأنها تُكْتَبُ ويُشْهَدُ عليها ، فقد استوسق الأسم  
والأثر ، وعَصِدَ المعنى ؛ فإن المال إن جعله حالاً وكان سند العبد شيء فهو مال مقاطعة  
وعقد مقاطعة لا عقد كتابة . وقال ابن خُوَيْرِ مَنَاد : إذا كتبه على مال معجل كان عقداً  
على مال ، ولم تكن كتابة . وأجاز غيره من أصحابنا الكتابة الحالة وسماها مقاطعة ، وهو القياس ؛  
لأن الأجل فيها إنما هو فسحة للعبد في التَّكْسِبِ . ألا ترى أنه لو جاء بالمنجم عليه قبل عَمَلِهِ  
لوجب على السيد أن يأخذه ويتعجل للكَاتِبِ عَقَقَهُ . وتجوز الكتابة الحالة ؛ قاله الكوفيون .

قلت : لم يرد عن مالك نص في الكتابة الحالة ؛ والأصحاب يقولون : إنها جائزة ،  
ويسمونها مقاطعة . وأما قول الشافعي إنها لا تجوز على أقل من ثلاثة أنجم فليس بصحيح ؛  
لأنه لو كان صحيحاً لجاز لغيره أن يقول : لا يجوز على أقل من خمسة نجوم ؛ لأنها أقل النجوم  
التي كانت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم في بَريرة ، وعلم بها النبي صلى الله عليه وسلم  
وقضى فيها ، فكان بصواب المجبة الأولى . روى البخاري عن عائشة أن بَريرة دخلت عليها  
تستعينها في كتابتها وعليها خمسة أواق نُجْمَتْ عليها في خمس سنين ... الحديث . كذا قال الليث  
عن يونس عن ابن شهاب عن عمرو عن عائشة : وعليها خمسة أواق نُجْمَتْ عليها في خمس  
سنين . وقال أبو أسامة عن هشام بن عمرو عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت :  
جاءت بَريرة فقالت : إني كتبت أهلي على تسع أواق ... الحديث . وظاهر الروايتين

تطوؤ، فبر أن حديث هشام أولي لأتصاله وانقطاع حديث يونس؛ لقول البخاري : وقال  
الليث حدثني يونس؛ ولأن هشاما أثبت في حديث أبيه وجده من غيره، والله أعلم .

السابعة - المكتب عبد ما بنى عليه من مال الكتابة شيء؛ لقوله عليه السلام :  
"المكتب عبد ما بنى عليه من مكاتبه درهم" . أخرجه أبو داود عن عمرو بن شعيب عن  
أبيه عن جده . وروى عنه أيضا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " أيما عبد كاتب على  
مائة دينار فأداها إلا عشرة دنانير فهو عبد" . وهذا قول مالك والشافعي وأبي حنيفة وأصحابهم  
والثوري وأحمد وإسحاق وأبي ثور وداود والطبري . وروى ذلك عن ابن عمر من وجوه،  
وعن زيد بن ثابت وعائشة وأم سلمة ، لم يختلف عنهم في ذلك رضى الله عنهم . وروى  
ذلك عن عمر بن الخطاب ، وبه قال ابن المسيب والقسام وسالم وعطاء . قال مالك : وكل  
من أدركنا ببلده ما يمول ذلك . وفيها قول آخر روى عن علي أنه إذا أدى الشطر فهو غريم ؛  
وبه قال الثعني . وروى ذلك عن عمر رضى الله عنه ، والإستاد عنه بأن المكتب عبد ما بنى  
عليه درهم ، خبر من الإستاد عنه بأن المكتب إذا أدى الشطر فلا ريق عليه ؛ قاله أبو عمر .  
وعن علي أيضا يستحق منه بقدر ما أدى . وعنه أيضا أن العنافة تجري فيه بأقل نعيم يؤذيه .  
وقال ابن مسعود : إذا أدى ثلث الكتابة فهو عتيق غريم ؛ وهذا قول شريح . ومن  
ابن مسعود : لو كانت الكتابة مائة دينار وقيمة العبد مائة دينار فأدى العبد المائة التي هي  
قيمته عتيق ؛ وهو قول الثعني أيضا . وقول ساج - إذا أدى الثلاثة الأرباع وبقي الربع  
فهو غريم ولا يعود عبدا ؛ قاله عطاء بن أبي رباح ، رواه ابن جريج عنه . وحكى عن بعض  
السلف أنه بنفسه قد كُتِبَ حرًا، وهو غريم بالكتابة ولا يرجع إلى الرق أبدا . وهذا القول  
يرقه حبيب بن ريرة لصحة عن النبي صلى الله عليه وسلم . وفيه دليل واضح على أن المكتب  
عبد ، ولولا ذلك ما بيعت بربرة ، ولو كان فيها شيء من العتيق ما أجاز بيع ذلك ؛ إذ من  
سنته المجمع عليها ألا يساع الحز . وكذلك كتابة سلمان وجويرة ؛ فإن النبي صلى الله عليه  
وسلم حكم بجمعهم بالرق حتى أدوا الكتابة . وهي حجة للمجهور في أن المكتب عبد ما بنى

عليه شيء . وقد ناظر علي بن أبي طالب زيد بن ثابت في المكاتب ، فقال لعلي : أكنت راجعاً لوزني ، أو مجيزاً لشهادته لو شهد ؟ فقال علي : لا . فقال زيد : هو عبد ما بقي عليه شيء . وقد روى النسائي عن علي وابن عباس رضي الله عنهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " المكاتب يتق من بعد ما أدى ويقام عليه الحد بقدر ما أدى ويرث بقدر ما عتق منه " . وإسناده صحيح . وهو حجة لما روى عن علي ، ويستفد بما رواه أبو داود عن ثوبان مكاتب أم سلمة قال سمعت أم سلمة تقول : قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا كنت لإحدائكم مكاتب وكان عنده ما يؤذى فلتحتجب منه " . وأخرجه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح ، إلا أنه يمتثل أن يكون خطاباً مع زوجته ، أخذاً بالأخياط والورع في حقهن ؛ كما قال لسودة : " احتجبي منه " مع أنه قد حكم بأخوتها له ، وبقوله لعائشة وحفصة : " أضميآوان أتما ألسا تبصرانه " يعني ابن أم مكتوم ، مع أنه قال لفاطمة بنت قيس : " اعتدي عند ابن أم مكتوم " وقد قدم هذا المعنى .

الثامنة - أجمع العلماء على أن المكاتب إذا حل عليه نكح من نجوه أو نكحها أو نجوه كلها فوقف السيد عن مطالبته وتركه بحاله أن الكتابة لا تنسخ مادام على ذلك ثابتين .

التاسعة - قال مالك : ليس للسيد أن يجز نفسه إذا كان له مال ظاهر ، وإن لم يظهر له مال فذلك إليه . وقال الأوزاعي : لا يمكن من تعجز نفسه إذا كان قوياً على الأداء . وقال الشافعي : له أن يجز نفسه ، علم له مال أو قوة على الكتابة أو لم يعلم ؛ فإذا قال : قد تعجزت وأبطلت الكتابة فذلك إليه . وقال مالك : إذا تعجز المكاتب فكل ما قبضه منه سيده قبل العجز حل له ، كان من كسبه أو من صدقة عليه . وأما ما أعيين به على فكك رقبته فلم يبق ذلك بكتابه كان لكل من أعانه الرجوع بما أعطى أو غفل منه المكاتب . ولو أعانوه صدقة لا على فكك رقبته فذلك إن عجز حل لسيده ولو تم به فكاه وبقيت منه فضلة . فإن كان بمعنى الفكك ردها إليهم بالخصص أو يخلونه منها . هذا كله مذهب مالك فيما ذكر ابن القاسم . وقال أكثر أهل العلم : إن ما قبضه السيد منه من كتابته ، وما فضل بيده بعد عجزه

من صدقة أو غيرها فهو لسيدته ، يطيب له أخذ ذلك كله . هذا قول الشافعي وأبي حنيفة وأصحابهما وأحمد بن حنبل ، ورواية من شريح . وقال الثوري : يحل السيد ما أعطاه في الزقاب ؛ وهو قول مسروق والنخعي ، ورواية عن شريح . وقالت طائفة : ما قبض منه السيد فهو له ، وما فضل بيده بعد العجز فهو له دون سيده ؛ وهذا قول بعض من ذهب إلى أن العبد يملك . وقال إصحاق : ما أعطى بحال الكتابة رد على أربابه .

العاشرة - حديث بريرة على اختلاف طرقه وألفاظه يتضمن أن بريرة وقع فيها بيع بعد كتابة تخدمت . واختلف الناس في بيع المكاتب بسبب ذلك . وقد ترجم البخاري ( باب بيع المكاتب إذا رضى ) . وإلى جواز بيعه للعتق إذا رضى المكاتب بالبيع ولو لم يكن عاجزا - ذهب ابن المنذر والداودي ، وهو الذي أرتضاه أبو عمر بن عبد البر ، وبه قال ابن شهاب وأبو الزناد وربيعة ؛ غير أنهم قالوا : لأن رضاه بالبيع عجز منه . وقال مالك وأبو حنيفة وأصحابهما : لا يجوز بيع المكاتب ما دام مكاتباً حتى يصير ، ولا يجوز بيع كتابته بحال ، وهو قول الشافعي بمصر . وكان بالعراق يقول : بيعه جائز ، وأما بيع كتابته فغير جائزة . وأجاز مالك بيع الكتابة ؛ فإن أداها عتق ، وإلا كان رقيقاً لمشتري الكتابة . ومنع من ذلك أبو حنيفة ؛ لأنه يبيع غرر . واختلف قول الشافعي في ذلك بالمنع والإجازة . وقالت طائفة : يجوز بيع المكاتب على أن يمضي في كتابته ؛ فإن أدى عتق وكان ولاؤه للذي أبتاعه ، ولو عجز فهو عبد له . وبه قال النخعي وعطاء والليث وأحمد وأبو ثور . وقال الأوزاعي : لا يباع المكاتب إلا للعتق ، ويكره أن يباع قبل عجزه ؛ وهو قول أحمد وإصحاق . قال أبو عمر : في حديث بريرة إجازة بيع المكاتب إذا رضى بالبيع ولم يكن عاجزاً عن أداء نجه قد حل عليه ؛ بخلاف قول من زعم أن بيع المكاتب غير جائز إلا بالعجز ؛ لأن بريرة لم تذكر أنها عجزت عن أداء نجه ، ولا أخبرت بأن النجم قد حل عليها ، ولا قال لها النبي صلى الله عليه وسلم أعاجرة أنت أم هل حل عليك نجه . ولو لم يحز بيع المكاتب والمكاتب إلا بالعجز عن أداء ما قد حل لكان النبي صلى الله عليه وسلم قد سألها أعاجرة هي أم لا ، وما كان لابن

في شرائها إلا بعد علمه صلى الله عليه وسلم أنها عاجزة ولو عن أداء نجم واحد قد حل عليها .  
وفي حديث الزهري أنها لم تكن قضت من كتابها شيئا . ولا أعلم في هذا الباب حجة أصح  
من حديث بريرة هذا ، ولم يُروَ عن النبي صلى الله عليه وسلم شيء يمارضه ، ولا في شيء من  
الأخبار دليل على عجزها . استدلت من منع من بيع المكاتب بأمر : منها أن قالوا إن الكتابة  
المذكورة لم تكن أتممت ، وإن قولها كانت أهل معناه أنها راوضتهم عليها ، وقدرها مبلغها  
وأجلها ولم يقدرها . وظاهر الأحاديث خلاف هذا إذ تؤول مساقيها . وقيل : إن بريرة  
عجزت عن الأداء فاتخذت هي وأهلها على فسخ الكتابة ، وحينئذ صرح البيع ؛ إلا أن هذا إنما  
يتمشى على قول من يقول : إن تمييز المكاتب غير مفتر إلى حكم حاكم إذا أخفى العبد والسيد  
عليه ؛ لأن الحق لا يمدوهما ، وهو المذهب المعروف . وقال مُحْتَمُونَ : لا بد من السلطان ؛  
وهذا إنما خاف أن يتواطأ على ترك حق الله تعالى . ويدل على صحة أنها عجزت ما روى أن  
بريرة جاءت عائشة تستعينها في كتابتها ولم تكن قضت من كتابتها شيئا ؛ فقالت لها عائشة :  
ارجعي إلى أهلك فإن أحبوا أن أفضي عنك كتابتك فلت . فظاهر هذا أن جميع كتابها  
أو بعضها استحق عليها ؛ لأنه لا يُقضى من الحقوق إلا ما وجبت المطالبة به ، والله أعلم  
هذه التاويلات أشبه ما لم وفيها من الدخيل ما يتناه . وقال ابن المنذر : ولا أعلم حجة لمن  
قال ليس له بيع المكاتب إلا أن يقول لعل بريرة عجزت . قال الشافعي : وأظهر معانيه أن  
لمالك المكاتب بيعة .

الحادية عشرة - المكاتب إذا أدى كتابته عتق ولا يحتاج إلى ابتداء عتق من السيد .  
وكذلك ولده الذي ولدوا في كتابته من أمته ، يتقنون بعته ويرقون برقه ؛ لأن ولد الإنسان  
من أمته بمثابة اعتبارا بالحر وكذلك ولد المكاتب ، فإن كان له ولد قبل الكتابة لم يدخل  
في الكتابة إلا بشرط .

الثانية عشرة - ( وَأَنْتُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ) هذا أمر لآلئهم بإعائتهم في مال  
الكتابة ؛ إما أن يعطوهم شيئا مما في أيديهم - أعني أيدي السادة - أو يحطوا عنهم شيئا

من مال الكتابة . قال مالك : يوضع عن المكاتب من آخر كتابته . وقد وضع ابن عمر خمسة آلاف من خمسة وثلاثين ألفا . واستحسن علي رضي الله عنه أن يكون ذلك ربع الكتابة . قال الزهراوي : روى ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم . واستحسن ابن مسعود والحسن بن أبي الحسن ثلثها . وقال قتادة : عشرها . ابن جبير : يقطع عنه شيئا ، ولم يحذره ، وهو قول الشافعي ، واستحسنه الثوري . قال الشافعي : والشيء أقل شيء يقع عليه اسم شيء ، ويحبر عليه السيد ويحكم به الحاكم على الورقة إن مات السيد . ورأى مالك رحمه الله تعالى هذا الأمر على الندب ، ولم ير لقدرة الوضعية حذرا . احتج الشافعي بمطلق الأمر في قوله « وآتوهم » ، ورأى أن عطف الواجب على الندب معلوم في القرآن ولسان العرب ؛ كما قال تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى » وما كان مثله . قال ابن العربي : وذكره قبله إسماعيل بن إسحاق القاضي ، جعل الشافعي الإيتاء واجبا ، والكتابة غير واجبة ؛ فجعل الأصل غير واجب والفرع واجبا ، وهذا لا نظير له ، فصارت دعوى محضة . فإن قيل : يكون ذلك كالنكاح لا يجب فإذا انعقد وجبت أحكامه ، منها المتعة . قلنا : عندنا لا تجب المتعة فلا معنى لأصحاح الشافعي . وقد كتب عثمان بن عفان عبده وحلف ألا يحطه ... ، في حديث طويل .

قلت : وقد قال الحسن والتخفي وبريدة إنما الخطاب بقوله « وآتوهم » للناس أجمعين في أن يتصدقوا على المكاتبين ، وأن يبينوهم في فكأن رقابهم . وقال زيد بن أسلم : إنما الخطاب للولاة بأن يمطوا المكاتبين من مال الصدقة حفظهم ، وهو الذي تضمنه قوله تعالى « وفي الرقاب » . وعلى هذين القولين فليس لسيد المكاتب أن يضع شيئا من مكتبته . ودليل هذا أنه لو أراد حط شيء من نجوم الكتابة لقال وضَّعُوا عنهم كذا .

الثالثة عشرة - إذا قلنا : إن المراد بالخطاب السادة فرأى عمر بن الخطاب أن يكون ذلك من أول نجومه ، مبادرة إلى الخير خوفا ألا يدرك آخرها . ورأى مالك رحمه الله تعالى وغيره أن يكون الوضع من آخر نجم . وعلّة ذلك أنه إذا وضع من أول نجم ربما عجز العبد



فرجع هو وماله إلى السيد ، فصدت إليه وضيعة وهي شبه الصدقة . وهذا قول عبد الله بن عمرو على . وقال مجاهد : يترك له من كل نعيم . قال ابن العربي : والأقوى عندى أن يكون في آخرها ؛ لأن الإسقاط أبدا إنما يكون في آخرت الديون .

الرابعة عشرة - المكتاب إذا بيع للمتع رضاء منه بعد الكتابة وقبض بائنه ثمنه لم يجب عليه أن يعطيه من ثمنه شيئا ، سواء باعه لمتع أو لغيره ، وليس ذلك كالسيد يؤدى إليه مكاتب كتابته فيؤتيه منها ، أو يضع عنه من آخرها نجما أو ما شاء ، على ما أمر الله به في كتابه ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يأمر موالى بريرة بإعطائها عما قبضوا شيئا ، وإن كانوا قد باعوها للمتع .

الخامسة عشرة - اختفوا في صفة عقد الكتابة ؛ فقال ابن خزيمة متلدا : صفتها أن يقول السيد لعبده كاتبك كل كذا وكذا من المال ، في كذا وكذا نجما ، إذا آتيت فانت حر . أو يقول له أذ إلى ألفا في عشرة أنعم وأنت حر . فيقول العبد قد قبلت ونحو ذلك من الألفاظ ؛ فتى أداها عتق . وكذلك لو قال العبد كاتبى ، فقال السيد قد فلت ، أو قد كاتبك . قال ابن العربي : وهذا لا يلزم ؛ لأن لفظ القرآن لا يقتضيه والحال يشهد له ؛ فإن ذكره لحسن ، وإن تركه فهو معلوم لا يحتاج إليه . ومسائل هذا الباب وفروعه كثيرة ، وقد ذكرنا من أصوله جملة ، فيها لمن اقتصر عليها كفاية ، والله الموفق للهداية .

السادسة عشرة - في ميراث المكتاب ؛ واختلف العلماء في ذلك على ثلاثة أقوال : فذهب مالك أن المكتاب إذا هلك وترك ما لا أكثر مما بقى عليه من كتابته وله ولد ولدا في كتابته أو كاتب عليهم ، وورثوا ما بقى من المال بعد قضاء كتابته ؛ لأن حكمهم حكمه ، وعليهم السعى فيما بقى من كتابته لو لم يخلف مالا ، ولا يعقون إلا بعتقه ، ولو أدى عنهم ما رجع بذلك عليهم ، لأنهم يعقون عليه ؛ فهم أولى بميراثه لأنهم مساوون له في جميع حاله . والقول الثانى - أنه يؤدى عنه من ماله جميع كتابته ، وجعل كأنه قد مات حرا ، ويرثه جميع ولده ، وسواء في ذلك من كان حرا قبل موته من ولده ومن كاتب عليهم أو ولدا .

في كتابته؛ لأنهم قد استولوا في الحرية كلهم حين تأتت عنهم كتابتهم . روى هذا القول عن علي وابن مسعود، ومن التابعين عن عطاء والحسن وملاوس وإبراهيم، وبه قال فقهاء الكوفة سفيان الثوري وأبو حنيفة وأصحابه والحسن بن صالح بن حتح، وإليه ذهب إمامنا .

والقول الثالث - أن المكتب إذا مات قبل أن يؤدي جميع كتابته فقد مات عبداً، وكل ما يخلفه من المال فهو لسيدته، ولا يرثه أحد من أولاده، لا الأحرار ولا الذين معه في كتابته؛ لأنه لما مات قبل أن يؤدي جميع كتابته فقد مات عبداً وماله لسيدته، فلا يصح عتقه بعد موته؛ لأنه محال أن يعتق عبد بعد موته، وعلى ولده الذين كاتب عليهم أو ولدوا في كتابته أن يسعوا في باقي الكتابة، ويسقط عنهم منها قدر حصته، فإن أدوا عتقوا لأنهم كانوا فيها تباعاً لأبيهم، وإن لم يؤديوا ذلك رقبوا . هذا قول الشافعي، وبه قال أحمد بن حنبل، وهو قول عمر بن الخطاب وزيد بن ثابت وعمر بن عبد العزيز والزهري وقتادة .

قوله تعالى: (وَلَا تُكْرِهُوا قِيَابَتَكُمْ عَلَى الْإِيَّاءِ إِنْ أَرَدْتُمْ تَحَصُّنًا) روى عن جابر بن عبد الله وابن عباس رضي الله عنهم أن هذه الآية نزلت في عبد الله بن أبي، وكانت له جارتان أحدهما تسمى معاذة والأخرى مسيكة، وكان يكرههما على الزنى ويضربهما عليه آتباء الأجر وكسب الولد؛ فشكا ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم فزلت الآية فيه وفيمن فعل فعله من المنافقين . ومعاذة هذه أم خولة التي جادلت النبي صلى الله عليه وسلم في زوجها . وفي صحيح مسلم عن جابر أن جارية لعبد الله بن أبي يقال لها مسيكة وأخرى يقال لها أميمة فكان يكرههما على الزنى، فشكا ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله عز وجل: «وَلَا تُكْرِهُوا قِيَابَتَكُمْ عَلَى الْإِيَّاءِ - إلى قوله - غفور رحيم» .

قوله تعالى: (إِنْ أَرَدْتُمْ تَحَصُّنًا) راجع إلى القِيَات، وذلك أن الفتاة إذا أرادت التحصن فينشد يمكن ويتصور أن يكون السيد مكرهاً، ويمكن أن ينهى عن الإكراه . وإذا كانت الفتاة لا تريد التحصن فلا يتصور أن يقال للسيد لا يكرهها؛ لأن الإكراه لا يتصور فيها وهي مريدة للزنى . فهذا أمر في سادة وفتيات حالمهم هذه . وإلى هذا المعنى أشار ابن العربي

فقال : إنما ذكر الله تعالى إرادة التحصن من المرأة لأن ذلك هو الذى يصور الإكراه ؛ فأما إذا كانت هى راغبة فى الزنى لم يتصور إكراه ، فخصّوه . وذهب هذا النظر عن كثير من المفسرين ؛ فقال بعضهم قوله : « إن أردن تحصناً » راجع إلى الأباى . قال الزجاج والحسين بن الفضل : فى الكلام تقديم وتأخير ؛ أى وأنكحوا الأباى والصالحين من عبادكم إن أردن تحصناً . وقال بعضهم : هذا الشرط فى قوله : « إن أردن » ملغى ، ونحو ذلك مما يضمف . والله الموفق .

قوله تعالى : ﴿ لَتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أى الشئ الذى تَكْبِه الأمة بفرجها ، والولد يُسْتَرَفّ ببيع . وقيل : كان الزانى يَتَدَي ولده من المزنى بها بمائة من الإبل يدفعها إلى سيدها .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَكْذِبْهُنَّ ﴾ أى يفهرهن . ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ ﴾ لمن ﴿ رَجِمَ ﴾ . بن . وقرا ابن مسعود وجابر بن عبد الله وابن جبر « لمن غفور » بزيادة لمن وقد مضى الكلام فى الإكراه فى « النمل » والحمد لله . ثم عتد تعالى على المؤمنين نعمه فيما أنزل إليهم من الآيات المنبئات ، وفيها ضرب لهم من أمثال الماضين من الأمم ليقع التحفظ مما وقع أولئك فيه .

قوله تعالى : اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِثْلَةِ  
فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ  
مِنْ شَجَرَةٍ مَبْرُكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ  
وَلَوْ لَا تَمَسُّهُ نَارٌ نَارٌ عَلَى نَارٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ  
اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾

النور في كلام العرب : الأضواء المدركة بالبصر . وأستعمل مجازاً فيما مع من المعاني  
 ولاح ، يقال منه : كلام له نور . ومنه : الكتاب المتيقن ، ومنه قول الشاعر :  
 نسب كأن عليه من شمس الضحا • نورا ومن فائق الصباح عمودا  
 والناس يقولون : فلان نور البلد ، وشمس مصر وقره • قال :  
 • فإنك شمس والملوك كواكب •  
 وقال آخر :

هلا خصصت من البلاد بمقصد • فسر القبايل خالد بن يزيد  
 وقال آخر :

إذا سار عبد الله من سرور ليله • فقد سار منها ورها وجمالها

فيجوز أن يقال : لله تعالى نور ، من جهة المدح لأنه أوجد الأشياء ، ونور جميع الأشياء منه  
 ابتناؤها وعنه صدورها ، وهو سبحانه ليس من الأضواء المدركة بل تعالى عما يقول الظالمون  
 علواً كبيراً . وقد قال هشام الجواليقي وطائفة من المجسمة : هو نور لا كالأضواء ، وجسم  
 لا كالأجسام . وهذا كله محال على الله تعالى عقلاً وقسلاً على ما يعرف في موضعه من علم  
 الكلام . ثم إن قولهم متناقص ؛ فإن قولهم جسم أو نور حكمٌ عليه بحقيقة ذلك ، وقولهم  
 لا كالأضواء ولا كالأجسام تنافي لما أثبتوه من الجسمية والنور ؛ وذلك متناقض ، وتحقيقه  
 في علم الكلام . والذي أوقفهم في ذلك ظواهر اتبعوها منها هذه الآية ، وقوله عليه السلام  
 إذا قام من الليل يتهجد : **«اللَّهُمَّ لك الحمد أنت نور السموات والأرض»** . وقال عليه السلام  
 وقد سئل : هل رأيت ربك ؟ فقال **«رأيت نورا»** . إلى غير ذلك من الأحاديث .

وأختلف العلماء في تأويل هذه الآية ؛ ف قيل : المعنى أى به وبقدرته أثارت أضواؤها ،  
 واستقامت أمورها ، وقامت مصنوعاتنا . فالكلام على التقريب للذهن ؛ كما يقال : الملك نور  
 أهل البلد ؛ أى به قوام أمرها وصلاح حلتها ؛ بخير أن أموره على سنن السداد . بهو في الملك

(١) هذا صدر بيت لطيفة الديلمي من قصيدة يمدح بها العنان . وعمره :

• إذا طلت لم يدر منين كوكب •

بجاز ، وهو في صفة الله حقيقة محضة ؛ إذ هو الذي أبدع الموجودات وخلق العقل نوراً  
هادياً ؛ لأن ظهور الموجود به حصل كما حصل بالقوة ظهور البصائر ، تبارك الله تعالى  
لا رب غيره . قال منه مجاهد والزهرى وغيرهما . قال ابن عرفة : أى متور السموات  
والأرض . وكذا قال الضحاك والقرظي . كما يقولون : فلان غائب ؛ أى مفيننا . وفلان  
زادى ؛ أى مزقضى . قال جرير :

وأتت لنا نور وقتت وعصمة • وثبت لمن يرجو ندادك ويرى

أى ذورق . وقال مجاهد : مذهب الأمور في السموات والأرض . أبق بن كعب والحسن  
وأبو العالية : مذهب السموات بالشمس والقمر والنجوم ، ومذهب الأرض بالأنبياء والعلماء  
والمؤمنين . وقال ابن عباس وأنس : المعنى الله هادى أهل السموات والأرض . والأول  
أعم للمعنى وأصح مع التأويل .

قوله تعالى : ( مَثَلُ نُورِهِ ) أى صفة دلالته التي ينفذها في قلب المؤمن ؛ والدلائل  
تسمى نورا . وقد سمي الله تعالى كتابه نُوراً فقال : « وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مِيناً »<sup>(١)</sup> وسمى نبيه نوراً  
فقال : « قَدْ جَاءَكُمْ مِنْ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مِينٌ » . وهذا لأن الكتاب يهdy ويبين ، وكذلك  
الرسول . ووجه الإضافة إلى الله تعالى أنه مثبت الدلالة ومينها وواضعها . وتحتمل الآية  
معنى آخر ليس فيه مقابلة جزء من المثال بجزء من المثل به ، بل وقع التشبيه فيه جملة بجملة ،  
وذلك إن يريد مَثَلُ نور الله الذي هو هداى وإقانه صفة كل مخلوق وبراهينه الساطعة على  
الجملة ، كهذه الجملة من النور الذي تنفذونه أتم على هذه الصفة ، التي هي أبلغ صفات النور  
الذى بين أيدى الناس ؛ فمثل نور الله في الوضوح كهذا الذى هو منهاكم أيبا البشر .  
والمشكاة : الكوة في الحائط غير النافذة ؛ قاله ابن جبر وجمهور المفسرين ، وهى أجمع  
للضوء ، والمصباح فيها أكثر إضاءة منه في غيرها ، وأصلها الوعاء يحمل فيه الشئ . والمشكاة وعاء  
من آدم كالدلو يرد فيها الماء ؛ وهو على وزن مفعلة كالقراءة والمصفاة . قال الشاعر :

(١) آية ١٧٤ سورة الساء . (٢) آية ١٥ سورة المائدة . (٣) القراءة : النعمة التي يقرى الضيف فيها .

كَانَ عَيْنِهِ مِشْكَانَانِ فِي حَجَرٍ • قِيضًا اقْتِيصًا بِأَطْرَافِ الْمُنَاقِيرِ

وقيل : المِشْكَةُ عَمُودُ الْقِنْدِيلِ الَّذِي فِيهِ الْفَتِيلَةُ • وقال مجاهد : هي القنديل • وقال  
« في زجاجة » لأنه جسم شفاف ، والمصباح فيه أنور منه في غير الزجاج • والمصباح : القنديل  
بناره • ( كَانَتْهَا كَوَكَبٌ دُرِّيٌّ ) أى في الإنارة والضوء • وذلك يحتمل معنيين : إما أن يريد  
أنها بالمصباح كذلك ، وإما أن يريد أنها في نفسها لصفاتها وجودة جوهرها كذلك • وهذا  
التأويل أبلغ في التعاون على النور • قال الضحاك : الكوكب الدُرِّيُّ هو الزُّهْرَةُ •

قوله تعالى : ( يُوَقَّدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ ) أى من زيت شجرة ، فحذف المضاف •  
والمباركة المُنْتَأة ، والزيتون من أعظم النامات ، والمان كذلك • والمصان <sup>(١)</sup> يقتضى ذلك  
ويقول أبى طالب يرى مسافرين أبى عمرو بن أمية بن جد شمس :

لَيْتَ شِعْرِي مَسَافِرِينَ أَبَى عَمْرٍو وَلَيْتَ يَقُولُهَا الْمُحْزُونُ  
بِوَرْدِ الْمَيْتِ الْقَصْرِيبِ كَمَا بُو • رِكَ نَبْعُ الرِّمَانِ وَالزَّيْتُونُ

وقيل : من بركتهما أن أغصانهما تُورَق من أسفلها إلى أعلاها • وقال ابن عباس :  
في الزيتون منافع ، يُسْرَجُ بِالزَّيْتِ ، وهو إدام ودهان ودباغ ، ويُوقَدُ يوقد بحطبته ويُقْلَهُ ،  
وليس فيه شيء إلا وفيه مضمة ، حتى الرَّمَادُ ينسل به الإبريسم • وهى أول شجرة نبتت في الدنيا ،  
وأول شجرة نبتت بعد الطوفان ، وتنت في منازل الأنبياء والأرض المقدسة ، ودعا لها سيمون  
نبيًا بالبركة ، منهم إبراهيم ، ومنهم محمد صلى الله عليه وسلم فإنه قال : « اللَّهُمَّ بَارِكْ فِي الزَّيْتِ  
وَالزَّيْتُونِ » • قاله مرتين •

قوله تعالى : ( لَا شَرْقِيَّةً وَلَا غَرْبِيَّةً ) اختلف العلماء في قوله تعالى « لَا شَرْقِيَّةً  
وَلَا غَرْبِيَّةً » فقال ابن عباس وعكرمة وقتادة وغيرهم : الشرقية التى تصيبها الشمس إذا شَرَقَتْ

(١) ورد هذا البيت برواية أخرى في كتاب الصالحين لأن طلال السكري وقد نسب لأبى زيد - والرواية به •

كَانَ مِنْهُ فِي وَقْتَيْنِ مِنْ حَجَرٍ • قِيضًا ... .. نَيْضًا ... الخ

والوقت : فترة في الصخرة يجتمع فيها الماء • وقِيضًا : تقطأ • والمناقير : واحدة منقار ، وهى حديدة كالنَّاسِ  
يشترها الجربوع • (٢) هكذا وردت هذه الكلمة في بعض نسخ الأمل وفى بعضها : « والحنيان يقتضى »

ولها « والمضى يقتضى » • (٣) الإبريسم : مغرب ، وفيه ثلاث لغات ، وهو المربر •

ولا تصيبها إذا غرمت؛ لأن لها سقا . والقرية عكسها؛ أي أنها شجرة في صحراء وتنكشف من الأرض لا يوارىها عن الشمس شيء وهو أجدو لزيها ، فليست خالصة للشرق فتسمى شرقية ولا للغرب فتسمى غربية، بل هي شرقية غربية . وقال الطبري عن ابن عباس : إنها شجرة في قوحة قد أحاطت بها؛ فهي غير منكشفة من جهة الشرق ولا من جهة الغرب . قال ابن عطية : وهذا قول لا يصح عن ابن عباس؛ لأن الثمرة التي بهذه الصفة يفسد جناها، وذلك مشاهد في الوجود . وقال الحسن : ليست هذه الشجرة من شجر الدنيا، وإنما هو مثل ضربه الله تعالى لنوره، ولو كانت في الدنيا لكانت إما شرقية وإما غربية . الثعلبي : وقد أفصح القرآن بأنها من شجر الدنيا؛ لأنها بدل من الشجرة، فقال « زيتونة » . وقال ابن زيد : إنها من شجر الشام؛ فإن شجر الشام لا شرق ولا غرب، وشجر الشام هو أفضل الشجر، وهي الأرض المباركة . و « شرقية » نعت لـ « زيتونة » و « لا » ليست تحول بين النعت والمنعوت، « ولا غربية » عطف عليه .

قوله تعالى : ( يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ) مبالغة في حسنه وصفائه وجوده . ( نُورٌ عَلَى نُورٍ ) أي اجتمع في المشكاة ضوء المصباح إلى ضوء الزجاجة وإلى ضوء الزيت فصارت لذلك نور على نور . واعتقلت هذه الأنوار في المشكاة فصارت كأنور ما يكون؛ فكذلك براهين الله تعالى واضحة، وهي برهان بعد برهان، وتبته بعد تبته؛ كإرساله الرسل وإزاله الكتب، ومواظب تتكرر فيها لمن له عقل معتبر . ثم ذكر تعالى هداه لنوره من شاء وأسعد من عباده، وذكر تفضله للعباد في ضرب الأمثال لتقع لهم العبرة والنظر المؤدى إلى الإيمان . وقرأ عبد الله بن عباس بن أبي ربيعة وأبو عبد الرحمن السلمي « الله نور » بفتح النون والواو المشددة . واختلف المتأولون في عود الضمير في « نوره » على من يهود؛ فقال كعب الأحبار وابن جبير : هو عائذ على عهد صلى الله عليه وسلم؛ أي مثل نور عهد صلى الله عليه وسلم . قال ابن الأنباري : « الله نور السموات والأرض » وقف حسن، ثم يتلى « مثل نور كمشكاة فيها مصباح » على معنى نور عهد صلى الله عليه وسلم . وقال أبي بن كعب وابن جبير

أيضا والضحاك : هو عائد على المؤمنين . وفي قراءة أبيّ « مثل نور المؤمنين » . وروى أن  
في قرأته « مثل نور المؤمن » . وروى أن فيها « مثل نور من آمن به » . وقال الحسن :  
هو عائد على القرآن والإيمان . قال مكّي : وعلى هذه الأقوال يوقف على قوله « والأرض » .  
قال ابن عطية : وهذه الأقوال فيها عود الضمير على من لم يحمله ذكره ، وفيها مقابلة جزء من  
المثال بجزء من الممثل ؛ فعلى من قال : الممثل به عهد صلى الله عليه وسلم ، وهو قول كعب الجبّريّ<sup>(١)</sup>  
فرسول الله صلى الله عليه وسلم هو المشكاة أو صدره ، والمصباح هو النور وما يتصل بها من  
عمله<sup>(٢)</sup> وهدهد ، والزجاجة قلبه ، والشجرة المباركة هي الوحي ، والملائكة رسل الله إليه وسببه  
المتصل به ، والزيت هو الحجج والبراهين والآيات التي تضمنها الوحي . ومن قال : الممثل به  
المؤمن ، وهو قول أبيّ ؛ فالمشكاة صدره ، والمصباح الإيمان والعلم ، والزجاجة قلبه ، وزيتها  
هو الحجج والحكمة التي تضمنها . قال أبيّ : فهو على أحسن الحال يمشي في الناس كالرجل  
الحقّ يمشي في قبور الأموات . ومن قال : إن الممثل به هو القرآن والإيمان ؛ فتقدير الكلام :  
مثل نوره الذي هو الإيمان في صدر المؤمن في قلبه كشكاة ؛ أي كهذه الجملة . وهذا القول  
ليس في مقابلة التشبيه كالأولين ؛ لأن المشكاة ليست تقابل الإيمان . وقالت طائفة : الضمير  
في « نوره » عائد على الله تعالى . وهذا قول ابن عباس فيما ذكر الثعلبيّ والمأورديّ والمهديّ ،  
وقد تقدم معناه . ولا يوقف على هذا القول على « الأرض » . قال المهديّ : الهاء لله عز وجل ؛  
والتقدير : الله هادئ أهل السموات والأرض ، مثل هدهد في قلوب المؤمنين كشكاة ؛ وروى  
ذلك عن ابن عباس . وكذلك قال زيد بن أسلم ، والحسن : إن الهاء لله عز وجل . وكان  
أبيّ وابن مسعود يقرآنها « مثل نوره في قلب المؤمن كشكاة » . قال محمد بن علي الترمذی :  
ذُما عيرهما فلم يقرأها في التزويل هكذا ، وقد وافقهما في التأويل أن ذلك نوره في قلب المؤمن ،  
وتصديقه في آية أخرى يقول « أَقْنِ شَرَحَ اللَّهِ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ »<sup>(٣)</sup>  
وَأَعْتَلِ الْأَوَّلُونَ بَانَ قَالُوا : لا يجوز أن يكون الهاء لله عز وجل ؛ لأن الله عز وجل لا حد

(١) الحبر (بالفتح والكسر) : العلم ذنبا كان أو مسلما . وكعب الجبّريّ (بالكسر) : منسوب إلى الجبّريّ الذي  
كتبه ، لأنه صاحب كتب . (٢) في ابن عطية : « من علمه » . (٣) آية ٢٢ سورة الزمر .



لنوره . وأمال الكسائي فيما روى عنه أبو عمر الشورى الألف من «مشكاة» وكسر الكاف  
التي قبلها . وقرأ نصر بن عاصم « زجاجة » بفتح الزاي و « الزجاجة » كذلك ، وهي لغة .  
وقرأ ابن عامر وحفص عن عاصم « دزى » بضم الدال وشد الياء ، ولهذه القراءة وجهان :  
إما أن ينسب الكوكب إلى النزل لرياضه وصفائه ، وإما أن يكون أصله دزى مهموز ،  
فُقيل من الدز وهو الدفع ، وخُففت الهمزة . ويقال للنجوم العظام التي لا تعرف أسماءها :  
الدردارى ، بنير همز ؛ فتلهم خففتوا الهمزة ، والأصل من الدز الذى هو الدفع . وقرأ حمزة  
وأبو بكر عن عاصم « دزى » بالهمز والمد ، وهو فُقيل من الدز ؛ بمعنى أنها يدفع بعضها .  
وقرأ الكسائي وأبو عمرو « دزى » بكسر الدال والهمز من الدز والدفع ؛ مثل التكبير  
والفسيق . قال سيويه : أى يدفع بعض ضوئه بعضا من لمعانه . قال النحاس : وضعف  
أبو يد قراءة أبى عمرو والكسائي تضعيفا شديدا ، لأنه تأولوا من درأت أى دفعت ؛ أى  
كوب يجرى من الأفق إلى الأفق . وإذا كان التأويل على ما تأوله لم يكن فى الكلام فائدة ،  
ولا كان لهذا الكوكب منزلة على أكثر الكواكب ، ألا ترى أنه لا يقال جاءنى إنسان من  
بنى آدم . ولا ينبغي أن يتأول مثل أبى عمرو والكسائي مع علمهما وجلالتهما هذا التأويل  
البعيد ، ولكن التأويل لما على ما روى عن محمد بن يزيد أن معناه فى ذلك : كوكب  
متدفع بالنور ؛ كما يقال : اندرأ الحريق أى اندفع . وهذا تأويل صحيح لهذه القراءة . وحكى  
سعيد بن مسعدة أنه يقال : درأ الكوكب بضوئه إذا أمتد ضوءه . وقال الجوهري  
فى الصراح : ودرا علينا فلان بدرأ دروفاً أى طلع مفاجأة . ومنه كوكب دزى ، على فُقيل ؛  
مثل سيكر وخجير ؛ لشدة توقده وتلألؤه . وقد درأ الكوكب دروفا . قال أبو عمرو بن العلاء :  
سألت رجلا من سعد بن بكر من أهل ذات عرق قلت : هذا الكوكب الضخم ما تُسمونه ؟  
قال : الدزى ، وكان من أنصح الناس . قال النحاس : فأما قراءة حمزة فأهل اللغة جميعا  
قالوا : هى لحن لا تجوز ، لأنه ليس فى كلام العرب أسم على فُقيل . وقد اعترض أبو عبيد  
فى هذا فاتح حمزة فقال : ليس هو فُقيل وإما هو فُقول ، مثل سيوح ، أبدل من الواو ياء ؛  
كما قالوا : عُقى . قال أبو جعفر النحاس : وهذا الاعتراض والاحتجاج من أعظم الغلط

أشده؛ لأن هذا لا يجوز اليتية، ولو جاز ما قال لقليل في سُبُوح سُبُح، وهذا لا يقوله أحد،  
وليس عُتِيَّ من هذا، والفرق بينهما واضحٌ، لأنه ليس يخلو عُتِيَّ من إحدى جهتين؛ إما أن  
يكون جمع عاتٍ فيكون البذل فيه لازماً، لأنَّ الجمع باب تغيير، والواو لا تكون طرفاً  
في الأسماء وقبلها ضمة، فلما كان قبل هذه ساكن وقبل الساكن ضمة والساكن ليس بحاجز  
حصين أبذل من الضمة كسرة قلبت الواو ياء. وإن كان عُتِيَّ واحداً كان بالواو أولى،  
وجاز قلبها لأنها طرف، والواو في قول ليست طرفاً فلا يجوز قلبها. قال الجوهري: قال  
أبو عبيد إن ضمنت الدال قلت دُرَى، يكون منسوباً إلى الدر، على فُعْلٍ ولم تهمزه لأنه ليس  
في كلام العرب فُعْل. ومن همزه من القراء فأنما أراد فُعُولاً مثل سُبُوح فاستقل فرد بعضه  
إلى الكسر. وحكى الأخفش عن بعضهم «دُرَى» من درأته، وهمزها وجعلها على فَعْل  
مفتوحة الأول. قال: وذلك من ثلاثة. قال النحلي: وقرأ سعيد بن المسيب وأبو  
«دُرَى» بفتح الدال مهموزاً. قال أبو حاتم: هذا خطأ لأنه ليس في الكلام فُعْل فإذ  
صح عنهما فهما حجة. (يُوقَدُ) قرأ شبة ونافع وأيوب وسلام وآبن عامر وأهل الشد  
وحفص «يوقد» بياء مضمومة وتخفيف القاف وضم الدال. وقرأ الحسن والسلمي  
وأبو جعفر وأبو عمرو بن العلاء البصري «توقد» مفتوحة الحروف كلها مشددة القاف.  
واختارها أبو حاتم وأبو عبيد. قال النحاس: وهاتان القراءتان متقاربتان؛ لأنهما جئتا  
لصباح، وهو أشبه بهذا الوصف؛ لأنه الذي ينير ويبضي، وإنما الزجاجة وعاء له.  
و «توقد» فعل ماضٍ من توقد يتوقد، ويوقد فعل مستقبل من أوقد يوقد. وقرأ نصر  
ابن عاصم «توقد» والأصل على قراءته تتوقد حذف إحدى التاءين لأن الأخرى تدل عليها.  
وقرأ الكوفيون «توقد» بالتاء يمتنون الزجاجة. فهاتان القراءتان على تأنيث الزجاجة.  
(مِنْ تَجَرَّةٍ مَبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ) تقدم القول فيه. (يَكَادُ زَيْتَانًا يَبْضِي) ولَوْلَمْ  
تَمَسَّهُ نَارُ نُورٍ عَلَى نُورٍ على تأنيث النار. وزعم أبو عبيد أنه لا يعرف إلا هذه القراءة.  
حكى أبو حاتم أن السدي روى عن أبي مالك عن آبن عباس أنه قرأ «وتولم يمسسه نار»  
بالياء. قال محمد بن يزيد: التذكير على أنه تأنيث غير حقيق، وكذا سبيل المؤنث عنده.

وقال ابن عمر : المشكاة جَوْفَ محمد صلى الله عليه وسلم ، والزجاجة قلبه ، والمصباح النور الذي جعله الله تعالى في قلبه يوقد من شجرة مباركة ؛ أى أن أصله من إبراهيم وهو شجرته ، فإوقد الله تعالى في قلب محمد صلى الله عليه وسلم النور كما جعله في قلب إبراهيم عليه السلام . وقال محمد بن كعب : المشكاة إبراهيم ، والزجاجة إسماعيل ، والمصباح محمد صلوات الله عليهم أجمعين ؛ سماه الله تعالى مصباحاً كما سماه سراجاً فقال : « وَدَاعِجاً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيرًا » يوقد من شجرة مباركة وهى آدم عليه السلام ، بورك في نسله وكثر منه الأنبياء والأولياء . وقيل : هى إبراهيم عليه السلام ، سماه الله تعالى مباركا لأن أكثر الأنبياء كانوا من صلبه . ( لَا شَرْقِيَّةَ وَلَا غَرْبِيَّةَ ) أى لم يكن يهودياً ولا نصرانياً وإنما كان حقيقاً مسلماً . وإنما قال ذلك لأن اليهود تصلّى قبل المغرب والنصارى تصلّى قبل المشرق . ( يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ ) أى يكاد عاصن محمد صلى الله عليه وسلم تظهر للناس قبل أن أوحى الله تعالى إليه . ( نُورٌ عَلَى نُورٍ ) نبيٌّ من نسل نبي . وقال الضحاك : شبه عبد المطلب بالمشكاة وعبد الله بالزجاجة والنبي صلى الله عليه وسلم بالمصباح كانت في قلبها ، فورث النبوة من إبراهيم . ( مِنْ شَجَرَةٍ ) أى شجرة التّقيّ والرضوان وعشيرة الهدى والإيمان ، شجرة أصلها نبوة ، وفروعها مروءة ، وأغصانها تزيّل ، وورقها تأويل ، وخدمها جبريل وميكائيل . قال القاضي أبو بكر ابن العربي : ومن غريب الأمر أن بعض الفقهاء قال إن هذا مثل ضربه الله تعالى لإبراهيم ومحمد ولعبد المطلب وابنه عبد الله ؛ فالمشكاة هى الكوة بلنسة الحبشة ، فشبّه عبد المطلب بالمشكاة فيها القنديل وهو الزجاجة ، وشبّه عبد الله بالقنديل وهو الزجاجة ؛ ومحمد كالمصباح يعنى من أصلهما ، وكأنه كوكب درى وهو المشتري « يوقد من شجرة مباركة » يعنى إرث النبوة من إبراهيم عليه السلام هو الشجرة المباركة ، يعنى حنيفية لاشرقية ولا غربية ، لا يهودية ولا نصرانية . « يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ » ولو لم تمسه نار » يقول : يكاد إبراهيم يتكلم بالوحى من قبل أن يوحى إليه . « نُورٌ عَلَى نُورٍ » إبراهيم ثم محمد صلى الله عليه وسلم . قال القاضي : وهذا كله عدول عن الظاهر ، وليس يمتنع في التمثيل أن يتوسع المرء فيه .

قلت : وكذلك في جميع الأقوال لعدم ارتباطه بالآية ما عدا القول الأول ، وأن هذا مثل ضربه الله تعالى لنوره ، ولا يمكن أن يضرب لنوره المعظم مثلاً سببها خلقه إلا ببعض خلقه ، لأن الخلق لقصورهم لا يفهمون إلا بأنفسهم ومن أنفسهم ، ولو لا ذلك ما عرف الله إلا الله وحده ، قاله ابن العربي . قال ابن عباس : هذا مثل نور الله وهُداء في قلب المؤمن كما يكاد الزيت الصافي يضيء قبل أن تحس النار ، فإن مسته النار زاد ضوؤه ، كذلك قلب المؤمن يكاد يعمل بالمهدي قبل أن يأتيه العلم ، فإذا جاء العلم زاده هدى على هدى ونورا على نور ، كقول إبراهيم من قبل أن تجيئه المعرفة : « هذا ربِّي » ، من قبل أن يخبره أحد أن له رباً ؛ فلما أخبره الله أنه ربّه زاد هدى ، فقال له ربّه : « أسلم قال أسلمت لرب العالمين » . ومن قال إن هذا مثل للقرآن في قلب المؤمن قال : كما أن هذا المصباح يستضاء به ولا ينقص فكذلك القرآن يُهْدَى به ولا ينقص ؛ فالمصباح القرآن ، والزجاجة قلب المؤمن ، والمشكاة لسانه وفهمه ، والشجرة المباركة شجرة الوحي . ( يكادُ زَيْتُهَا يَضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ) تكاد جميع القرآن تضيئ ولو لم يهراق . ( نُورٌ عَلَى نُورٍ ) يبنى أن القرآن نور من الله تعالى خلقه ، مع ما أقام لهم من الدلائل والإعلام قبل نزول القرآن ، فأزدادوا بذلك نوراً على نور . ثم أخبر أن هذا النور المذكور عزيز ، وأنه لا يناله إلا من أراد الله هداياه فقال : ( يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ) أي يبين الأشياء تقريباً إلى الأفهام . ( وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ) أي بالمهدي والصال . وروى عن ابن عباس أن اليهود قالوا : يا محمد ، كيف يخلص نور الله تعالى من دون السماء ؟ فضرب الله تعالى ذلك مثلاً لنوره .

قوله تعالى : فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذَكِّرَ فِيهَا أَنَّهُمْ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٨﴾ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٩﴾ لِيَجْزِيََهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ أُذِنَ اللَّهُ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْقُدُّو وَالْأَصَالِ .  
 رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ﴾ فيه تسع عشرة مسألة :

الأولى - قوله تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ أُذِنَ اللَّهُ أَنْ تَرْفَعَ ﴾ الباء في « بيوت » تضم وتكسر؛  
 وقد تقدّم . واختلف في الفاء من قوله « في » فقيل : هي متعلقة بـ « حمصباح » . وقيل :  
 بـ « يسبح له » ؛ فعل هذا التأويل يوقف على « علم » . قال ابن الأنباري : سمعت أبا العباس  
 يقول هو حال للمصباح والزجاجة والكوكب ؛ كأنه قال وهي في بيوت . وقال الترمذی الحكيم  
 محمد بن علي : « في بيوت » منفصل ، كأنه يقول : الله في بيوت الله أن ترفع ؛ وبذلك  
 جاءت الأخبار أنه « من جلس في المسجد فإنه يحالس ربه » . وكذا ما جاء في الخبر فيما يحكى  
 عن التوراة « أن المؤمن إذا مشى إلى المسجد قال الله تبارك اسمه عبيد زارني وعلى قراه  
 ولن أرضى له قرى دون الجنة » . قال ابن الأنباري : إن جعلت « في » متعلقة بـ « يسبح »  
 أو رافعة للرجال حسن الوقف على قوله « والله بكل شيء عليم » . وقال الرمائي : هي  
 متعلقة بـ « يوقد » وعليه فلا يوقف على « علم » . فإن قيل : فما الوجه إذا كان البيوت  
 متعلقة بـ « يوقد » في توحيد المصباح والمشكاة و جمع البيوت ، ولا يكون مشكاة واحدة  
 إلا في بيت واحد . قيل : هذا من الخطاب المتلون الذي يفتح بالتوحيد ويختم بالجمع ؛ كقوله  
 تعالى : يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ « ونحوه . وقيل : رجع إلى كل واحد من البيوت . وقيل :  
 هو كقوله تعالى : « وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِي سُوْرًا » وإنما هو في واحدة منها . واختلف الناس  
 في البيوت هنا على خمسة أقوال : الأول - أنها المساجد المخصوصة لله تعالى بالعبادة ، وأنها  
 تضيء لأهل السماء كما تضيء النجوم لأهل الأرض ؛ قاله ابن عباس ومجاهد والحسن .  
 الثاني - هي بيوت بيت المقدس ؛ عن الحسن أيضا . الثالث - بيوت النبي صلى الله  
 عليه وسلم ؛ عن مجاهد أيضا . الرابع - هي البيوت كلها ؛ قاله عكرمة . وقوله « يُسَبِّحُ لَهُ  
 فِيهَا بِالْقُدُّو وَالْأَصَالِ » يقوى أنها المساجد . وقول خامس - أنها المساجد الأربعة التي

لم يبنها إلا بنى : الكعبة وبيت أريحا ومسجد المدينة ومسجد قباء؛ قاله ابن بريده . وقد تقدم ذلك في « برائة » .

قلت - الأظهر القول الأول ؛ لما رواه أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من أحب الله عز وجل فليحبني ومن أحبني فليحب أصحابي ومن أحب أصحابي فليحب القرآن ومن أحب القرآن فليحب المساجد فإنها أفضى الله أبنته أذن الله في رفعها وبارك فيها ميمونة ميمون أهلها محفوظ أهلها هم في صلاحهم والله عز وجل في حوائجهم هم في مساجدهم والله من ورائهم » .

الثانية - قوله تعالى : ( أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ ) « أذن » معناه أمر وقضى . وحقيقة الإذن العلم والتمكن دون حظر ؛ فإن اقترن بذلك أمر وإنفاذ كان أقوى . و « رفع » قيل : معناه تبنى وتعل ؛ قاله معاهد وعكرمة . ومنه قوله تعالى : « وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ » . وقال صلى الله عليه وسلم : « من بنى مسجدا من ماله بنى الله له بيتا في الجنة » . وفي هذا المعنى أحاديث كثيرة تخص على بنان المساجد . وقال الحسن البصري وغيره : معنى « رفع » تعظم ، ويرفع شأنها ، وتظهر من الانجاس والأفشار ؛ ففي الحديث « أن المسجد يستروى من النجاسة كما يتروى الجلود من النار » . وروى ابن ماجه في سننه عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أخرج أذى من المسجد بنى الله له بيتا في الجنة » . وروى عن عائشة قالت : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نتخذ المساجد في الدور وأن تطهر وتطيب .

الثالثة - إذا قلنا : إن المراد ببنائها فهل تزين وتنقش ؟ اختلف في ذلك ؛ فكرهه قوم وأباحه آخرون . فروى حماد بن سلمة عن أيوب عن أبي قلابة عن أنس وقتادة عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تقوم الساعة حتى تنبأه الناس في المساجد » . أخرجه أبو داود . وفي البخاري - وقال أنس : « يَبَاهَوْنَ بِهَا ثُمَّ لَا يَمْعُرُونَهَا إِلَّا قَلِيلًا » . وقال

ابن عباس : لَتَرْخِفُنَهَا كَمَا زَخَرَفَ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى . وروى الترمذى الحكيم أبو عبد الله في نوادر الأصول من حديث أبي الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا زخرفتم مساجدكم وحبّتم مصاحفكم فالدّبار عليكم " . احتجّ من أباح ذلك بأن فيه تعظيم المساجد والله تعالى أمر بتعظيمها في قوله « في بيوت أذن الله أن ترفع » يعنى تعظم . وروى عن عثمان أنه بنى مسجد النبي صلى الله عليه وسلم بالسّاج وحسنه . قال أبو حنيفة : لا بأس بنقش المساجد بماء الذهب . وروى عن عمر بن عبد العزيز أنه نقش مسجد النبي صلى الله عليه وسلم وبالف في عمارته وتزيينه ، وذلك في زمن ولايته قبل خلافة ، ولم ينكر عليه أحد ذلك . وذكر أن الوليد بن عبد الملك أنفق في عمارة مسجد دمشق وفي تزيينه مثل خراج الشام ثلاث مرّات . وروى أن سليمان بن داود عليهما السلام بنى مسجد بيت المقدس وبالف في تزيينه .

الرابعة - ومما تصان عنه المساجد ونزه عنه الرواح الكربة والأقوال السيئة وغير ذلك على ما نبهت ؛ وذلك من تعظيمها . وقد صحّ من حديث ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في غَزْوَةِ ثُبُوك : " من أكل من هذه الشجرة - يعنى الثّوم - فلا يأتين المساجد " . وفي حديث جابر بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من أكل من هذه البقلة الثّوم " وقال مرة : " من أكل البصل والثوم والكراث فلا يقربن مسجدنا فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم " . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه في خطبته : ثم إنكم أيها الناس تأكلون شجرتين ولا أراهما إلا خيبتين ، هذا البصل والثّوم ، لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا وجد وبجعهما من رجل في المسجد أمر به فأخرج إلى البقيع ، فن أكلهما فليئسثما طبعنا . نخرجه مسلم في صحيحه . قال العلماء : وإذا كانت العلة في إخراجها من المسجد أنه يتأذى به ففى القياس أن كل من تأذى به جيرانه في المسجد بأن يكون قريب اللسان سفيها عليهم ، أو كان ذا رائحة قبيحة لا تريه لسوء صناعته ، أو عاهة مؤذية كالجلزام

(١) السّاج : شجر يمتد جدا ، لا ينبت إلا ببلاد الهند ، وغشبه أسود رزين ، لا تكاد الأرض تبنيه .

(٢) أى لا تماره .

وشبهه . وكل ما يتأذى به الناس كان لم إخراجها ما كانت الصلة موجودة فيه حتى تزول . وكذلك يحتمل مجتمع الناس حيث كان لصلاة أو غيرها كجالس العلم والولائم وما أشبهها ، من أكل الثوم وما في معناه ، مما له رائحة كريهة تؤذى الناس . ولذلك جمع بين البصل والثوم والكراث ، وأخبر أن ذلك مما يتأذى به . قال أبو عمر بن عبد البر : وقد شاهدت شيخنا أبا عمر أحمد بن عبد الملك بن هشام رحمه الله أتى في رجل شكاه جيرانه وأتفقوا عليه أنه يؤذيهم في المسجد بلسانه ويده فشؤروا فيه ، فأقنى بإخراجه من المسجد وإبعاده عنه ، ولا يشاهد معهم الصلاة ؛ إذ لا سبيل مع جنونه واستطالته إلى السلامة منه ، فذاكرته يوما أمره وطالبته بالدليل فيما أتى به من ذلك وواجهته فيه القول ؛ فاستدل بحديث الثوم ، وقال : هو عندى أكثر أدنى من أكل الثوم ، وصاحبه يمنع من شهود الجماعة في المسجد .

قلت : وفي الآثار المرسلة « أن الرجل ليكذب الكذبة فيتباعد عنه الملك من تن ريحه » . فعل هذا يخرج من عرف منه الكذب والتقول بالباطل فإن ذلك يؤذى .

الخامسة - أكثر العلماء على أن المساجد كلها سواء ؛ لحديث ابن عمر . وقال بعضهم : إنما خرج النبي على مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم من أجل جبريل عليه السلام وزوله فيه ؛ ولقوله في حديث جابر : « فلا يقربن مسجدا » . والأول أصح ، لأنه ذكر الصفة في الحكم وهي المسجدية ، وذكر الصفة في الحكم تعليل . وقد روى الثعلبي بإسناده عن أنس رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يأتي الله يوم القيامة بمساجد الدنيا كأنها نجائب بيض قوائمها من العبر وأعناقها من الزعفران ورعوسها من المسك وأزمتها من الزبرجد الأخضر وقوائمها والمؤذنون فيها يقودونها وأئمتها يسوقونها وعمارها متعلقون بها فتجوز عرصات القيامة كالبرق الخاطف فيقول أهل الموقف هؤلاء ملائكة مقربون وأنبياء مرسلون فيتأذى ما هؤلاء بملائكة ولا أنبياء ولكنهم أهل المساجد والمخاضون على الصلوات من أمة محمد صلى الله عليه وسلم » . وفي الترتيل « إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِإِلَهِهِ » . وهذا عام



في كل مسجد . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : " إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فأشهدوا له بالإيمان إن الله تعالى يقول « إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر » . وقد قدم .

السادسة - وتصاب المساجد أيضا عن البيع والشراء وجميع الاشتغال ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم للرجل الذي دعا إلى الجمل الأحمر : <sup>(١)</sup> " لا وَجَدْتْ إِنَّمَا بُنِيتِ الْمَسَاجِدَ لِمَا بُنِيتَ لَهُ " . أخرجه مسلم من حديث سليمان بن بريدة عن أبيه أن النبي صلى الله عليه وسلم لما صلى قام رجل فقال : من دعا إلى الجمل الأحمر ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " لا وَجَدْتْ إِنَّمَا بُنِيتِ الْمَسَاجِدَ لِمَا بُنِيتَ لَهُ " . وهذا يدل على أن الأصل ألا يعمل في المسجد غير الصلوات والأذكار وقراءة القرآن . وكذا جاء مفسرا من حديث أنس قال : بينما نحن في المسجد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاء أعرابي فقام يبول في المسجد ، فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : مَهْ مَهْ ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " لَا تَزِرُ وَهُوَ دَعَاؤُهُ " <sup>(٢)</sup> . فتركوه حتى بال ، ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاه فقال له : " إِنْ هَذِهِ الْمَسَاجِدُ لَا تَصْلُحُ لَشَيْءٍ مِنْ هَذَا الْبَوْلِ وَلَا الْقَذَرِ إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ اللَّهِ وَالصَّلَاةِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ " . أو كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : فأمر رجلا من القوم بجاء ، بَدَلُو مِنْ مَاءٍ فَشَنَّهُ عَلَيْهِ . أخرجه مسلم . وثما يدل على هذا من الكتاب قوله الحق : « وَذَكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ » . وقوله صلى الله عليه وسلم لما وى بن الحكم السلمي : " إِنْ هَذِهِ الْمَسَاجِدُ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ إِنَّمَا هِيَ لِلتَّسْبِيحِ وَالتَّكْبِيرِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ " . أو كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . الحديث بطوله أخرجه مسلم في صحيحه ، وحديثك ! وسمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه صوت رجل في المسجد فقال : ما هذا الصوت ! أتدري أين أنت ! وكان خلف بن أيوب جالسا في مسجده فأتاه غلامه يسأله عن شيء فقام وخرج من المسجد وأجابه ؛ فقيل له في ذلك فقال : ما تكلمت في المسجد بكلام الدنيا منذ كذا وكذا ، فكرهت أن أتكم اليوم .

(١) أي من وجد ضالتي ، وهو الجمل الأحمر دعاه إليه . (٢) أي لا تظنوا عليه بوله ؛ يقال : ردم البول (بالكسر) أظنط ؛ وأزمره يزم . (٣) الشئ : البت المتقطع ؛ أي رثه عليه وشامقرا . (٤) الذي في صحيح مسلم : « إِنْ هَذِهِ الصَّلَاةُ ... الخ » .

السابعة - روى الترمذي من حديث عمرو بن شبيب عن أبيه عن جده عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه نهى عن تناشد الأشجار في المسجد ، وعن البيع والشراء فيه ، وأن يخلق الناس يوم الجمعة قبل الصلاة . قال : وفي الباب عن بُريدة وجابر وأنس حديث عبادة ابن عمرو حديث حسن . قال محمد بن إسماعيل : رأيت محمدا وإسحاق وذكر غيرهما يحتجون بحديث عمرو بن شبيب . وقد ذكره قوم من أهل العلم البيع والشراء في المسجد ؛ وبه يقول أحمد وإسحاق . وروى أن عيسى بن مريم طهيم السلام أتى على قوم يتسايمون في المسجد بفعل رداء عِراقا ، ثم جعل يمسى عليهم ضربا ويقول : يا أبناء الأفاعي ، اتخذتم مساجد الله أسواقا ! هذا سوق الآخرة .

قلت : وقد ذكره بعض أصحابنا تلعب الصبيان في المساجد ، ورأى أنه من باب البيع . وهذا إذا كان بأجرة ، فلو كان بغير أجرة لمنع أيضا من وجه آخر ، وهو أن الصبيان لا يتحززون عن الأقدار والوحي ؛ فيؤدى ذلك إلى عدم تنظيف المساجد ، وقد أمر صلى الله عليه وسلم بتنظيفها وتطهيرها فقال : ” جَنَّبُوا مَسَاحِدَكُمْ صِبْيَانَكُمْ وَمَجَانِيزَكُمْ وَمَلَّ سَيُوفَكُمْ وَإِقَامَةَ حَدُودِكُمْ وَرَفَعَ أَصْوَاتَكُمْ وَخُصُومَاتَكُمْ وَأَجْرُوهَا فِي الْجَمْعِ وَأَجْلُوا عَلَى أَبْوَابِهَا الْمَظَاهِرِ “ . في إسناده العلاء بن كثير الدمشقي مولى بني أمية ، وهو ضعيف عندهم ؛ ذكره أبو أحمد بن عدي الجرجاني الحافظ . وذكر أبو أحمد أيضا من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : صليت العصر مع عثمان أمير المؤمنين فرأى خطا في ناحية المسجد فأمر بإخراجه ؛ فقيل له : يا أمير المؤمنين ، إنه يكتسب المسجد وينلق الأبواب ويرش أحيانا . فقال عثمان : إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ” جَنَّبُوا صَنَاعَكُمْ مِنْ مَسَاجِدِكُمْ “ . هذا حديث غير محفوظ ، في إسناده محمد بن مجيب الثقفي ، وهو ذاهب الحديث .

قلت : ما ورد في هذا المعنى وإن كان طريقه ليس فهو صحيح معنى ؛ يدل على صحته ما ذكرناه قبل . قال الترمذي : وقد روى عن بعض أهل العلم من التابعين رخصة في البيع

(١) الذي في الترمذي : « أحد » . (٢) الخرق : ثوب يلف ويضرب به الصبيان بعضهم بعضا .

والشراء في المسجد . وقد رُوِيَ عن النبي صلى الله عليه وسلم في غير حديث رخصة في إنشاد الشعر في المسجد .

قلت : أما تناشد الأشعار فاختلف في ذلك ، فمن مانع مطلقاً ، ومن يجيز مطلقاً . والأولى التفصيل ، وهو أن يُنظر إلى الشعر فإن كان مما يقتضي التناء على الله عز وجل أو على رسوله صلى الله عليه وسلم أو الذَّبَّ عنهما كما كان شعر حسان ، أو يتضمن الحُص على الخير والوعظ والزهد في الدنيا والتفأل منها ، فهو حسن في المساجد وغيرها ؛ كقول القائل :

طَوَّفَ يَا قَسَّ كِي أَقْصَدَ فَرْدًا صَمِدًا \* وَذَرَيْتِي لَسْتُ أَبْنَى غَيْرَ رَبِّي أَحَدًا

فهو أنسى وجليسى ودعى الناس \* فإِنْ تَجِدْنِي مِنْ دُونِهِ مُتَحِدًا<sup>(١)</sup>

وما لم يكن كذلك لم يحجز ؛ لأن الشعر في الغالب لا يخلو عن الفواحش والكذب والقرين بالباطل ، ولو سلم من ذلك فإقل ما فيه اللَّغْوُ والمُحَذَّرُ ، والمساجد مكرهة عن ذلك ؛ لقوله تعالى : « فِي بُيُوتٍ إِذْنُ اللَّهِ أَنْ تَرْفَعَ » . وقد يجوز إنشاده في المسجد ؛ كقول القائل :

كَفَعَلِ الْعَذَابُ الْقَرْدَ بِضَرْبِهِ الْتَدَى \* تَعَلَّى التَّدَى فِي مَتْنِهِ وَتَحَدَا

وقول الآخر :

إِذَا سَقَطَ السَّمَاءُ بِأَرْضِ قَوْمٍ \* رَعِيَاهُ وَإِنْ كَانُوا غَضَابًا

فهذا النوع وإن لم يكن فيه حمد ولا ثناء يجوز ؛ لأنه خالٍ عن الفواحش والكذب . وسيأتي ذكر الأشعار الجائزة وغيرها بما فيه كفاية في « الشعراء » إن شاء الله تعالى . وقد روى الدارقطني من حديث هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت : ذُكِرَ الشعراء عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « هُوَ كَلَامٌ حَسَنٌ وَفِيهِ قَبِيحٌ » . وفي الباب عن عبد الله بن عمرو بن العاص وأبي هريرة وابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم . ذكره في السنن .

قلت : وأصحاب الشافعي يأتون هذا الكلام عن الشافعي وأنه لم يتكلم به غيره ؛ وكأنهم لم يقفوا على الأحاديث في ذلك . وانه أصل .

(١) هكذا ورد هذا الشعر في نسخ الأصل ؛ ولم نعرف من أي وزن هو . (٢) العذاب (بفتح) والقفال المهمة) : ما استقر من الزل . وقيل : جانب القى يرق على الجند من الأرض . الواحد رابيع سواء .

الثامنة - وأما رفع الصوت فإن كان مما يقتضى مصلحة للرائع صوته دُعى عليه بتقيض قصده؛ لحديث بَرَّةَ المتقدم ، وحديث أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من سمع رجلا يَنشُدُ ضالَّةً في المسجد فليقل لا رَدَّها الله عليك فإن المساجد لم تُبْنَ لهذا " . وإلى هذا ذهب مالك وجماعة ، حتى كرهوا رفع الصوت في المسجد في العلم وغيره . وأجاز أبو حنيفة وأصحابه وعبد بن مسلمة من أصحابنا رفع الصوت في الخصومة والسلام ؛ قالوا : لأنهم لا يَدَّلم من ذلك . وهذا مخالف لظاهر الحديث ، وقولهم : « لا يَدَّلم من ذلك » ، ممنوع ، بل لم يَدَّلم من ذلك لوجهين : أحدهما بملزمة الوقار والحرمه ، وبإحضار ذلك بالبال والتحرز من تقيضه . والثاني أنه إذا لم يتمكن من ذلك فليَتَعَدَّ لذلك موضعاً يَنْصَحُ به ، كما فعل عمر حيث بنى رجة تُسمى البطيحاء ، وقال : من أراد أن يَلْقَطَ أو يَنْشُدَ شعراً - يعنى في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم - فليخرج إلى هذه الرجة . وهذا يدل على أن هجر كان يكره إنشاء الشعر في المسجد ، ولذلك بنى البطيحاء خارجه .

التاسعة - وأما النوم في المسجد لمن احتاج إلى ذلك من رجل أو امرأة من الغرباء ومن لا بيت له بغائر ؛ لأن في البخارى - وقال أبو قلابة عن أنس : قَدِمَ رَهْطٌ مِنْ عُكْلٍ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَانُوا فِي الصُّفَّةِ <sup>(١)</sup> ، وقال عبد الرحمن بن أبي بكر : كان أصحاب الصفة فقراء . وفي الصحيحين عن ابن عمر أنه كان ينام وهو شاب أعزب لا أهل له في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم . لفظ البخارى . وترجم ( باب نوم المرأة في المسجد ) وأدخل حديث عائشة في قصة السوداء التى اتهمها أهلها بالوشاح ، قالت عائشة : وكان لها خِباءٌ في المسجد أو حُشٌّ <sup>(٢)</sup> ... الحديث . ويقال : كان ميت عطاء بن أبى رباح في المسجد أربعين سنة .

(١) موضع مظلل في آخريات المسجد النبوى تأوى إليه المساكين . (٢) السوداء : يريد أمة سوداء كانت على من العرب ، فاتهموها بسرقة وشاح وطفوا يفتشون حتى قَتَلُوا قَبْلَهَا . قالت : والله إنى لقائمة بهمهم إذمرت الحديَّةُ فأقته بينهم ... بَلَّغَتْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَسْلَمَتْ ، فَكَانَ لَهَا خِباءٌ فِي الْمَسْجِدِ .... (راجع صحيح البخارى (باب المساجد) . (٣) الخباء : الخيمة من صوف أو وبر . والخفش (بكسر الخاء وسكون الفاء) : بيت صغير .

العاشرة - روى مسلم عن أبي حميد أو عن أبي أسيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا دخل أحدكم المسجد فليقل اللهم افتح لي أبواب رحمتك وإذا خرج فليقل اللهم إني أسألك من فضلك " . خرجه أبو داود كذلك ؛ إلا أنه زاد بعد قوله " إذا دخل أحدكم المسجد : فليسلم ويصل على النبي صلى الله عليه وسلم ثم يقل اللهم افتح لي ... " الحديث . وروى ابن ماجه عن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل المسجد قال " باسم الله والسلام على رسول الله اللهم أغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك وإذا خرج قال باسم الله والصلاة على رسول الله اللهم أغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك وفضلك " . وروى عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إذا دخل أحدكم المسجد فليصل على النبي صلى الله عليه وسلم وليقل اللهم افتح لي أبواب رحمتك وإذا خرج فليسلم على النبي صلى الله عليه وسلم وليقل اللهم أعصمني من الشيطان الرجيم " . وخرجه أبو داود عن حيوة بن شريح قال : بقيت عقبه بن مسلم فقلت له بلغني أنك حدثت عن عبد الله بن عمرو بن العاصي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا دخل المسجد قال " أعوذ بالله العظيم وبوجهه الكريم وسلطانه القديم من الشيطان الرجيم " قال نعم . قال : فإذا قال ذلك قال الشيطان حُفِظَ مِنِّي سائرَ اليوم .

الحادية عشرة - روى مسلم عن أبي قتادة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إذا دخل أحدكم المسجد فليركع ركعتين قبل أن يجلس " وعنه قال : دخلت المسجد ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس بين ظهراني الناس ، قال بغاست فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما منعك أن ترع ركعتين قبل أن تجلس " ؟ فقلت : يا رسول الله رأيتك جالسا والناس جلوس . قال : " فإذا دخل أحدكم المسجد فلا يجلس حتى يركع ركعتين " . قال العلماء : بفعل صلى الله عليه وسلم للمسجد منزلة يتميز بها عن سائر البيوت ، وهو ألا يجلس حتى يركع . وفاقدة العلماء على أن الأمر بالركوع على الندب والترغيب .

وقد ذهب داود وأصحابه إلى أن ذلك على الوجوب؛ وهذا باطل، ولو كان الأمر على ما قالوه لحرم دخول المسجد على المحدث الحدث الأصغر حتى يتوضأ، ولا قائل به فيما أعلم، والله أعلم. فإن قيل: فقد روى إبراهيم بن يزيد عن الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن عبد الرحمن عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا دخل أحدكم المسجد فلا يجلس حتى يركع ركعتين وإذا دخل أحدكم بيته فلا يجلس حتى يركع ركعتين فإن الله جاعل من ركعتيه في بيته خيراً"، وهذا يقتضي التسوية بين المسجد والبيت. قيل: هذه الزيادة في الركوع عند دخول البيت لا أصل لها، قال ذلك البخاري. وإنما يصح في هذا حديث أبي قتادة الذي تقدم لمسلم، وإبراهيم هذا لا أعلم روى عنه إلا سعد بن عبد الحميد، ولا أعلم له إلا هذا الحديث الواحد؛ قاله أبو محمد عبد الحق.

الثانية عشرة - روى سعيد بن زبّان حدثني أبي عن أبيه عن جده عن أبي هند رضي الله عنه قال: حمل تميم - يعني الناري - من الشام إلى المدينة فتأديل وزبّان ومقطّاء، فلما انتهى إلى المدينة وافق ذلك ليلة الجمعة فأمر غلاماً يقال له أبو البراد فقام فلنشط المقطّ <sup>(١)</sup> وعلق القناديل وصبّ فيها الماء والزيت وجعل فيها الفئيل؛ فلما غربت الشمس أمر أبو البراد فأخرجها، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد فإذا هو بها ترهب؛ فقال: "من فعل هذا؟" قالوا: تميم الناري يا رسول الله؛ فقال: "تورت الإسلام توراه عليك في الدنيا والآخرة أما إنه لو كانت لي ابنة لزوّجتها". قال نوفل بن الحارث: لي ابنة يا رسول الله تسمى المغيرة بنت نوفل فأصل بها ما أردت؛ فأنكحه إياها. زبّان (فتح الزاي والباء وتشديدها بنقطة واحدة من تحتها) ينفرد بالتسمي به سعيد وحده، فهو أبو عثمان سعيد بن زبّان بن قائد بن زبّان بن أبي هند، وأبو هند هذا مولى آبن بياضة حجام النبي صلى الله عليه وسلم. والمقطّ: جمع المقاط، وهو الحبل، فكانه مقلوب القياط. والله أعلم. وروى ابن ماجه عن أبي سعيد الخدري قال: أول من أخرج في المساجد تميم الناري. وروى عن أنس أن النبي

(١) نشط الحبل: ربه.

صلى الله عليه وسلم قال : " من أخرج في مسجد مرآجا لم تزل الملائكة وحملته العرش يصلون عليه ويستغفرون له ما دام ذلك الضوء فيه وإن كفس غيار المسجد قد انحور العين " .  
قال العلماء : ويستحب أن يتوزر البيت الذي يقرأ فيه القرآن بتعليق القناديل ونصب الشموع فيه ، ويزاد في شهر رمضان في أنوار المساجد .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ( يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ . رِجَالٌ ) اختطف العلماء في وصف الله تعالى المسبحين ؛ فقيل : هم المراقبون أمر الله ، الطالبون رضاه ، الذين لا يشغلهم عن الصلاة وذكر الله شيء من أمور الدنيا . وقال كثير من الصحابة : نزلت هذه الآية في أهل الأسواق الذين إذا سمعوا النداء بالصلاة تركوا كل شغل وبادروا . وروى سالم بن عبد الله أهل الأسواق وهم مقبلون إلى الصلاة فقال : هؤلاء الذين أراد الله بقوله « لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله » . وروى ذلك عن ابن مسعود . وقرأ عبد الله بن عاصم وعاصم في رواية أبي بكر عنه والحسن « يسبح له فيها » بفتح الباء على ما لم يسم فاعله . وكان نافع وابن عمر وأبو عمرو وحزرة يقرءون « يُسَبِّح » بكسر الباء ؛ وكذلك روى أبو عمرو عن عاصم . فمن قرأ « يسبح » بفتح الباء كان على معنيين : أحدهما أن يرتفع « رجال » بفعل مضمر دلل عليه الظاهر ؛ بمعنى يسبحه رجال ؛ فيوقف على هذا على « الآمال » . وقد ذكر سيويه مثل هذا . وأشد :

لِيَكَّ زَيْدٌ ضَارِعٌ لِمُصَوِّمَةٍ . وَتُحْتَبَطُ مِمَّا تُطْلِحُ الطَّوَائِفُ

المعنى : يبكيه ضارع . وعلى هذا نقول : ضرب زيد عمرو ؛ على معنى ضربه عمرو .  
والوجه الآخر — أن يرتفع « رجال » بالابتداء ، والخبر « في بيوت » ؛ أي في بيوت أذن الله أن ترفع رجال . و « يسبح له فيها » حال من الضمير في « ترفع » ؛ كأنه قال : أن ترفع ؛

(١) اختطف في قائله ؛ ونسبه صاحب الخزانة لثعلب بن جحرى . وهذا البيت من أبيات في مرثية أبيه زيد ، ومطالعها :

لمرى لئن أسمى زيد بن ثعلب \* سنا جدت قسنى طيه الروائح

وقوله : « ضارع » من الضراعة ، وهو التضرع والتذلل . و « المحتبط » الذي يسلك من غير مرة كانت يتكاثر وأراد به هنا الاحتياج . و « تطلع » تذهب وتبتك . و « الطوائف » جمع طليعة ، وهي القوافل . و « الحشا » ما في البطن . و « جدت » بفتح الجيم والفاء . القبر . و « الروائح » : الألبان والروائح .

مسيحاً له فيها ، ولا يوقف على « الآصال » على هذا التقدير . ومن قرأ « يسبح » بكسر  
 الباء لم يوقف على « الآصال » ، لأن « يسبح » فعل للرجال ، والفعل مضطر إلى قاعه  
 ولا إضار فيه . وقد تقدم القول في « الندوة والآصال » في آخر « الأعراف » والحمد لله وحده .  
 الرابعة عشرة - قوله تعالى : ( **يَسْبَحُ لَهُ يَمِينًا** ) قيل : معناه يصلي . وقال ابن عباس :  
 كل تسبيح في القرآن صلاة ، ويدل عليه قوله « **الندوة والآصال** » ، أي بالندوة والعشي .  
 وقال أكثر المفسرين : أراد الصلاة المفروضة ، فالندوة صلاة الصبح ، والآصال صلاة الظهر  
 والعصر والمغرب ، لأن أكرم الآصال يجمعها .

الخامسة عشرة - روى أبو داود عن أبي أمامة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :  
 « من نخرج من بيته متطهراً إلى صلاة مكتوبة فأجره كأجر الحاج المحرم ومن نرجع إلى تسبيح  
 الضمآن لا ينصبه إلا إياه فأجره كأجر المتخير وصلاة على إثر صلاة [ لا تشوب بينهما ] كتاب  
 في عليين » . ونرجع عن بريدة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « بشر المشائين في الظلم  
 إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة » . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله  
 عليه وسلم قال : « من غدا إلى المسجد أودع الله له نزلًا في الجنة كلما غدا أودع » .  
 في غير الصحيح من الزيادة « كما أن أحدكم لو زار من يحب زيارته لأحتد في كرامته » ،  
 ذكره التلبي . ونرجع مسلم من حديث أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله  
 عليه وسلم : « من تطهر في بيته ثم مشى إلى بيت من بيوت الله ليقضى فريضة من فرائض  
 الله كانت خطواته إحداهما تحط خطيئة والأخرى ترفع درجة » . وعنه قال رسول الله صلى  
 الله عليه وسلم : « صلاة الرجل في جماعة تزيد على صلاة في بيته وصلاته في سوقه بضعاً  
 وعشرين درجة وذلك أن أحدهم إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم أتى المسجد لا يتزهد إلا الصلاة  
 لا يريد إلا الصلاة فلم يتخط خطوة إلا رفع له بها درجة وحط عنه بها خطيئة حتى يدخل  
 المسجد فإذا دخل المسجد كان في الصلاة ما كانت الصلاة هي تحبسه والملائكة يصلون من

(١) راجع ج ٧ ص ٢٥٥ وما بعدها طبعه أدل أو ثانية . (٢) زيادة عن سنن أبي داود .

(٣) التبر : الفخ .



أحدكم ما دام في مجلسه صلى فيه يقولون اللهم أرحمه اللهم أغفر له اللهم تَبَّ عليه ما لم يُؤذ فيه ما لم يُبْعث فيه . في رواية : ما يُحدث ؟ قال " يَصُورُ أو يَصِيرُ " . وقال حكيم بن زريق : قيل لسميد بن المسيب أحضور الجنائز أحب إليك أم الجلوس في المسجد ؟ فقال : من صلى على جنازة فله قيراط ، ومن شهد دفنها فله قيراطان ، والجلوس في المسجد أحب إلي ، لأن الملائكة تقول : اللهم أغفر له اللهم أرحمه اللهم تَبَّ عليه . وروى عن الحكم بن عمير صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " كونوا في الدنيا أضيافاً وأخذوا المساجد بيوتاً وعزودوا قلوبكم الرقة وأكثروا التفكر والبكاء ولا تختلف بكم الأهواء . تنون مالا تسكنون وتجمعون مالا تاكلون وتقولون مالا تدركون " . وقال أبو الدرداء لاكنه : ليكن المسجد بيتك فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن المساجد بيوت المتقين . ومن كانت المساجد بيته ضمن الله تعالى له الروح والراحة والجواز على الصراط " . وكتب أبو صادق الأزدي إلى شبيب بن الحجاب : أن عليك بالمساجد فأزيمها ، فإنه بلغني أنها كانت مجالس الأنبياء . وقال أبو إدريس الخولاني : المساجد مجالس الكرام من الناس . وقال مالك بن دينار : بلغني أن الله تبارك وتعالى يقول " إني أُمُّ بعباد عبادي فأُنظر إلى ثمار المساجد وجلنائه القرآن وتؤدان الإسلام فيسكن غضبي " . وروى عنه عليه السلام أنه قال : سيكون في آخر الزمان رجال يأتون المساجد فيقعدون فيها حلقاً ذكراً الدنيا وحبها فلا يجالسوهم فليس لله بهم حاجة " . وقال ابن المسيب : من جلس في مسجد فأنما يجالس ربه ، فما حقه أن يقول إلا خيراً . وقد مضى من تعظيم المساجد وحرمتها ما فيه الكفاية . وقد جمع بعض العلماء في ذلك خمس عشرة خصلة ، فقال : من حرمة المسجد أن يسلم وقت الدخول إن كان يقوم جلوساً ، وإن لم يكن في المسجد أحد قال : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، وأن يركع ركعتين قبل أن يجلس ، وألا يشترى فيه ولا يبيع ، ولا يسئل فيه سهماً ولا سيفاً ، ولا يطلب فيه خالة ، ولا يرفع فيه صوتاً

بغير ذكر الله تعالى، ولا يتكلم فيه بأحاديث الدنيا، ولا يتخطى رقاب الناس، ولا ينازع في المكان، ولا يضيّق على أحد في الصف، ولا يميز بين يدي مصلٍّ، ولا يبتصق، ولا يتنخّم، ولا يتخطّ فيه، ولا يفرق أصابعه، ولا يجث بشيء من جسده، وأن يُترّ عن النجاسات والصبيان والمجانين، وإقامة الحدود، وأن يكثر ذكر الله تعالى ولا يغفل عنه . فإذا فعل هذه الخصال فقد أدى حق المسجد، وكان المسجد حرزاً له وحصناً من الشيطان الرجيم . وفي الخبر " أن مسلماً ارتفع بأهله إلى السماء يشكروهم إلى الله لما يتحدثون فيه من أحاديث الدنيا " . وروى الدارقطني عن طاهر الشعبي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من أقتراب الساعة أن يرى الهلال قبلًا <sup>(١)</sup> فيقال لليتين وأن تقبض المساحد طُرُقاً وأن يظهر موت الفجأة " . هذا يرويه عبد الكبير بن المعافى عن شريك عن العباس بن ذريح عن الشعبي عن أنس . وغيره يرويه عن الشعبي مرسلًا، والله أعلم . وقال أبو حاتم : عبد الكبير بن معافى ثقة كان يُعَدُّ من الأبدال <sup>(٢)</sup> . وفي البخاري عن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من مرَّ في شيء من مساجدنا أو أسواقنا ببئيل فليأخذ على نصالها لا يتغير بكتفه مسلمًا " . وخرج مسلم عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " البُزاق في المسجد خطيئة وكفارتها دفنها " . وعن أبي ذرٍّ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " عُرضت عليّ أعمال أمتي حسنًا وسيئًا فوجدت في عاصم أعمالها الأذى يُحاط عن الطريق ووجدت في مساوي أعمالها النخاعة تكون في المسجد لا تُدفن " . وخرج أبو داود عن القرظ بن فضالة عن أبي سعيد الحميري قال : رأيت وائلة بن الأسقع في مسجد دمشق يَصق على الحصى ثم مسح به رجله ؛ فقيل له : لم فعلت هذا ؟ قال : لأنّي رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فعله . فرج بن فضالة ضعيف، وأيضاً فلم يكن في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم حُصْر . والصحيح أن رسول الله صلى

(١) قال ابن الأثير : « أي يرى ساعة ما يطالع لظنه ووضوحه من غير أن يطلب » . وهو فتح القاف والياء .  
 (٢) الأبدال : قوم من الصالحين ، بهم يقم الله الأرض ، أربعون في الشام وثلاثون في سائر البلاد ، لا يموت منهم أحد الا قام مكانه آخر ؛ فخلقهم الله أبدالاً . وواحد الأبدال القياد بذل ويكَل . وقال ابن دويد : الواحد بذيل .  
 (٣) النخاعة : الثناة . (٤) في الأصول : « عن أبي سعيد الخدري » وهو تحريف ؛ لأن فرج بن فضالة لم يرو عن أبي سعيد الخدري ، وإنما روى عن أبي سعد الحميري ، وأبو سعد هذا صاحب وائلة بن الأسقع .

الله عليه وسلم إنما بصق على الأرض وذلك بنباله اليسرى ، ولعل وائلة إنما أراد هذا خفيل الحصر عليه .

السابعة عشرة - لما قال تعالى : « رجال » وخصهم بالذكر دلّ على أن النساء لا حظ لهنّ في المساجد؛ إذ لا جمعة عليهن ولا جماعة، وأن صلاتهن في بيوتهن أفضل، روى أبو داود عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « صلاة المرأة في بيتها أفضل من صلاتها في مسجد » وصلاؤها في مسجدها أفضل من صلاتها في بيتها .

السابعة عشرة - قوله تعالى : ﴿ لَا تُلْهِيهِمْ ﴾ أى لاتشتغلهم . (تجارة ولا بيع عن ذكر الله)  
 خص التجارة بالذكر لأنها أعظم ما يشتغل بها الإنسان من الصلاة . فإن قيل : فلم كرر ذكر  
 البيع والتجارة شمله . قيل له : أراد بالتجارة الشراء لقوله « ولا بيع » . نظيره قوله تعالى :  
 « وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً آفَقُوا <sup>(١)</sup> لَهَا » قاله الواقدي . وقال الكلبي : التجار هم الحُلَّابُ  
 المسافرين ، والباعه هم المقيمون . ﴿ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ اختلف في تأويله ، فقال عطاء : يبنى  
 حضور الصلاة ؛ وقاله ابن عباس ، وقال : المكتوبة . وقيل عن الأذان ؛ ذكره يحيى بن سلام .  
 وقيل : عن ذكره بأسمائه الحسنی ، أى يوحّدونه ويعبدونه . والآية نزلت في أهل الأسواق ؛  
 قاله ابن عمر . قال سالم : جاز عبد الله بن عمر السوق وقد أغلقوا حوائثهم وقاموا ليصلوا  
 في جماعة فقال : فيهم نزلت « رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ » الآية . وقال أبو هريرة عن  
 النبي صلى الله عليه وسلم : هم الذين يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله . وقيل :  
 إن رجلين كانا في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، أحدهما يبايع فإذا سمع النداء بالصلاة فإن  
 كان الميزان بيده طرحه ولا يضعه وضماً ، وإن كان بالأرض لم يرفعه . وكان الآخر قريباً  
 يعمل السيوف للتجارة ، فكان إذا كانت مطرقة على السندان أبغها موضوعة ، وإن كان قد  
 رفعها ألقاها من وراء ظهره إذا سمع الأذان ؛ فأنزل الله تعالى هذا ثناء عليهما وعلى كل من

(١) آتوسورة الجمعة .

الثامنة عشرة - قوله تعالى : ( وَأَقَامِ الصَّلَاةَ ) هذا يدل على أن المراد بقوله « عن ذكر الله » غير الصلاة؛ لأنه يكون تكراراً . يقال : أقام الصلاة إقامةً، والأصل إقواماً فقلبت حركة الواو على القاف فاحلقت الواو ألفاً وبعدها ألف ساكنة فحذفت إحداهما، وأثبتت الهاء لتلا تحذفها فتُجحف، فلما أضيفت قام المضاف مقام الهاء بخاز حذفها، وإن لم تضاف لم يحز حذفها؛ ألا ترى أنك تقول : وعدَ عِدَّةً، ووَزَنَ زِنَةً، فلا يجوز حذف الهاء لأنك قد حذفت الواو؛ لأن الأصل وعدَ وعدَّةً، ووَزَنَ وزنةً، فإن أضفت حذف الهاء، وأنشد القراء :

إِنَّا نَخْلِطُ أَجْدُوا الْيَنِّ فَأَنْجَرَدُوا \* وَأَخْفُوكَ عِدَ الْأَمْرِ الَّذِي وَعَدُوا

يريد عِدَّةً، فحذف الهاء لما أضاف . وروى من حديث أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يَأْتِي اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَسَاجِدِ الدُّنْيَا كَأَنَّهَا تُجَبُّ بِيضُ قَوَائِمِهَا مِنَ الْمَنِيِّ وَأَعْنَاقُهَا مِنَ الزَّعْفَرَانِ وَرُءُوسُهَا مِنَ الْمَسْكِ وَإِذْقَتِهَا مِنَ الزَّرْبَدِ الْأَخْضَرِ وَقَوَائِمُهَا وَالْمُؤَذِّنُونَ فِيهَا يَقُودُونَهَا وَأَتَمَّتِهَا يَسُوقُونَهَا وَتُعْمَارُهَا مَنَاطِفُونَ بِهَا فَتَجُوزُ عَرَصَاتُ الْقِيَامَةِ كَالْبَرْقِ الْخَاطِفِ يَقُولُ أَهْلُ الْمَوْقِفِ هَؤُلَاءُ مَلَائِكَةٌ مَقْرَبُونَ أَوْ أَنْبِيَاءُ مَرْسَلُونَ فَيُنَادِي مَا هَؤُلَاءُ بِلَائِكُمْ وَلَا أَنْبِيَاءَ وَلَكِنَّهُمْ أَهْلُ الْمَسَاجِدِ وَالْمُحَافِظُونَ عَلَى الصَّلَاةِ مِنْ أُمَّةٍ مَعَدَّ صَلَاتُهَا عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ». وعن علي رضي الله عنه أنه قال : يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يَبْقَى مِنَ الْإِسْلَامِ إِلَّا أَسْمُهُ، وَلَا مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا رِسْمُهُ، يَصْمُرُونَ مَسَاجِدَهُمْ وَهِيَ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ خَرَابٌ، شَرُّ أَهْلِ ذَلِكَ الزَّمَنِ عُلَمَاؤُهُمْ، مِنْهُمْ تَخْرُجُ الْفِتْنَةُ وَالْهَيْمُ تَعُودُ، يَنْبَغِي أَنْهُمْ يَطْمَنُونَ وَلَا يَحْمِلُونَ بَوَاجِبَاتِ مَا عَلِمُوا .

الثانية عشرة - قوله تعالى : ( وَإِيَّاكَ الزَّكَاةَ ) قيل : الزكاة المفروضة، قاله الحسن . وقال ابن عباس : الزكاة هنا طاعة الله تعالى والإخلاص؛ إذ ليس لكل مؤمن مال . ( يَخَافُونَ يَوْمًا ) يعني يوم القيامة . ( تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ) يعني من هولاء وحذر الملاك . والتقلب التحول، والمراد قلوب الكفار وأبصارهم . تنقلب القلوب أثرها من أماكنها إلى الخناجر، فلا هي ترجع إلى أماكنها ولا هي تخرج . وأما قلب الأبصار فالزرق بعد الكحل والعمى بعد البصر . وقيل : تنقلب القلوب بين الطمع في النجاة والخوف من

الهلاك ، والأبصار تنظر من أى ناحية يَطَّوْنُ كتبهم ، وإلى أى ناحية يؤخذ بهم .  
وقيل : إن قلوب الشاكين تحول عما كانت عليه من الشك ، وكذلك أبصارهم لرؤيتهم اليقين ،  
وذلك مثل قوله تعالى : « فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ »<sup>(١)</sup> ؛ فما كان يراه في الدنيا  
غَيًّا يراه رُشْدًا ؛ إلا أن ذلك لا ينفعهم في الآخرة . وقيل : تَقَلَّبَ على حجر جهنم ؛ كقوله  
تعالى : « يَوْمَ تَقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ »<sup>(٢)</sup> ، « وَقَلْبُ أَقْدَتِهِمْ وَأَبْصَارُهُمْ »<sup>(٣)</sup> . في قول من جعل  
المعنى تَقَلَّبًا على لب النار . وقيل : تَقَلَّبَ بأن تَلْفَحُهَا النار مرة وتُضِجُهَا مرة . وقيل إن  
تَقَلَّبَ القلوب وَجَّيْهَا ، وتَقَلَّبَ الأبصار النظر بها إلى نواحي الأحوال . ( لِيَجْزِيَهمَ اللَّهُ أَحْسَنَ  
مَا عَمِلُوا ) فذكر الجزاء على الحسنات ، ولم يذكر الجزاء على السيئات وإن كان يجازى عليها  
لأمرين : أحدهما — أنه ترغيب ، فأقتصر على ذكر الرغبة . الثاني — أنه في صفة قوم  
لا تكون منهم الجائزة ؛ فكانت صغائرهم مغفورة . ( وَبِزَيْدٍ مِنْ فَضْلِهِ ) يحتمل وجهين :  
أحدهما — ما يضاعفه من الحصة بعشر أمثالها . الثاني — ما يفضل به من غير جزاء .  
( وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ) أى من غير أن يحسبه على ما أعطاه ؛ إذ لا نهاية  
لعطائه . وروى أنه لما نزلت هذه الآية أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ببناء مسجد قباء ،  
فحضر عبد الله بن رواحة فقال : يا رسول الله ، قد أطلع من بنى المساجد ؟ قال : « نعم  
يا بن رواحة » قال : وصلى فيها قائما وقاعدا ؟ قال : « نعم يا بن رواحة » قال : ولم يبت  
فيه إلا ساجدا ؟ قال : « نعم يا بن رواحة . كُفِّ عن السَّجْعِ فأعطى عبد شيتا شرا من طلاقة  
في لسانه » ؛ ذكره الماوردي .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوهُمْ كَسْرَابٍ بِقَيْعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ  
مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُمْ فَوْقَهُمْ حُسَابًا وَاللَّهُ  
مَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٦٦﴾

(١) آية ٢٢ سورة ق . (٢) آية ٦٦ سورة الأنزباب . (٣) آية ١١٠ سورة الأنعام .

(٤) وجب القلب وجها ؛ اضطرب .

قوله تعالى : ( وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيَةٍ ) لما ضرب مثل المؤمن ضرب مثل الكافر . قال مقاتل : نزلت في شيبة بن ربيعة بن عبد شمس ، كان يترهب متلبسا للدين ، فلما خرج صلى الله عليه وسلم كفر . أبو سهل : في أهل الكتاب . الضحلك : في أعمال الخير للكافر ، كصلة الرحم ونفع الجيران . والسراب : ما يرى نصف النهار في اشتداد الحر ، كالماء في الفاو ز يلتصق بالأرض . والآل الذي يكون تحفا كالماء إلا أنه يرتفع عن الأرض حتى يصير كأنه بين الأرض والسماء . وتسمى السراب سرايا لأنه يترب أى يجرى كالماء . ويقال : سرب الفحل أى مضى وسار في الأرض . ويسمى الآل أيضا ، ولا يكون إلا في البرية والحريف تتربه العطشان . قال الشاعر .

فكنت كتهريق الذى فى سقائه • لرقراق آل فوق رابية صلد

وقال آخر :

فلما كففتا الحرب كانت عهودهم • ككعب سراب بالقلأ متانق

وقال امرؤ القيس :

ألم أنيس المطى بكل تحرق • أمتى الطول لمآج السراب

والقيعة جمع القاع ، مثل جيرة وجار ، قاله الحرورى وقال أبو عبيدة : قيعة وقاع واحد ، حكاه النحاس . والقاع ما أنبسط من الأرض وأتسع ولم يكن فيه نبت ، وفيه يكون السراب . وأصل القاع الموضع المنخفض الذى يستقر فيه الماء ، وجمعه قيعان . قال الجوهري : والقاع المستوى من الأرض ، والجمع أقوع وأقواع وقيعان ، صارت الواو ياء لكسر ما قبلها ، والقيعة مثل القاع ، وهو أيضا من الواو . وبعضهم يقول : هو جمع . ( يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ ) أى العطشان . ( ماء ) أى يحسب السراب ماء . ( حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ) مما قدره ووجد أرضا لا ماء فيها . وهذا مثل ضربه الله تعالى للكفار ، يقولون على ثواب أعمالهم فإذا

(١) فى الأصول : « طويل الطول » والتصويب من ديوان امرئ القيس . والأمتى : الطول . قال الوزير أبو بكر طامس بن أيوب ( شارح الديوان ) : وق البيت ما يسأل عنه من طريق العربية ، وهو إضافة « أمتى » إلى « الطول » فيجزم أنه من إضافة التثنية . لئلا تفسد ، لأن الأمتى هو الطويل ، وليس على ما يترجم ، إنما هو كما تقول : « سيد البعد »

قدموا على الله تعالى وجدوا نواب أعمالهم محبطة بالكفر؛ أى لم يجدوا شيئاً كما لم يجد صاحب السراب إلا أرضاً لا ماء فيها؛ فهو يهلك أو يموت . ( وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ ) أى وجد الله بالمصاد . ( فَوَقَّاهُ حِسَابَهُ ) أى جزاء عمله . قل أمرؤ الفيس :

قَوْلِي مُذِرًا يَهْوِي حَيِّثَا \* وَأَيُّنَ أَنَّهُ لَاقَى الْحِسَابَا

وقيل : وَجَدَ وَعَدَ الله بالجزاء على عمله . وقيل : وجد أمر الله عند حشره؛ والمعنى متقارب . وقريء « يقيعات » . المهدي : ويمحوز أن تكون الألف مُشَبَّعة من فتحة العين . ويمحوز أن تكون مثل رَجُلٍ عَزَمَ وَعِزَّاهُ ، للذى لا يقرب النساء . ويمحوز أن يكون جمع قِيعَة ، ويكون على هذا بالنساء في الوصل والوقف . وروى عن نافع وأبي جعفر وشيبة « الظمان » بغير همز ، والمشهور عنهما الممزة ؛ يقال : ظمى يظماً ظمناً فهو ظمآن ، وإن خَفَّتْ الممزة قلت الظمان . وقوله « وَالَّذِينَ كَفَرُوا » ابتداء « أَعْمَالُهُمْ » ابتداء ثان . والكاف من « كَسْرَابِ » الخبر ، والجملة خبر عن « الذين » . ويمحوز أن تكون « أعمالهم » بدلا من « الذين كفروا » ؛ أى وأعمال الذين كفروا كسراب ، فحذف المضاف .

قوله تعالى : أَوْ كُظِّلِمَتْ فِي بَحْرِ لَحْيِي يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظَلَمْتُ بَعْضَهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكُنْ يَرْنَهَا وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : ( أَوْ كُظِّلِمَاتٍ فِي بَحْرِ لَحْيِي ) ضرب تعالى مثلا أتى للكفار؛ أى أعمالهم كسراب ببيعة أو كظلمات . قال الزجاج : لَمْ شَتَّ مِثْلَ السَّرَابِ وَإِنْ شَتَّ مِثْلَ بِالظلمات ؛ فـ « أَوْ » للإباحة حسبا تقدم من القول في « أَوْ كَبُيِّبِ » . وقال الجرجاني : الآية الأولى في ذكر أعمال الكفار ، والثانية في ذكر كفرهم ، ونسق الكفر على أعمالهم لأن الكفر أيضا من أعمالهم ، وقد قال تعالى : « يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ » ؛ أى من الكفر إلى

الإيمان . وقال أبو علي : « أوكظلمات » أوكذى ظلمات ؛ ودل على هذا المضاف قوله تعالى : « إذا أخرج يده » فالكلية تعود إلى المضاف المحذوف . قال القشيري : فعند الزجاج التمثيل وقع لأعمال الكفار ، وعند الجرجاني لكفر الكافر ، وعند أبي علي للكافر . وقال ابن عباس في رواية : هذا مثل قلب الكافر . ( في بحر الجمل ) قيل : هو منسوب إلى الجثة ، وهو الذي لا يدرك قعره . والجثة معظم الماء ، والجمع لج . وأنتج البحر إذا تلاطمت أمواجه ؛ ومنه ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من ركب البحر إذا أنتج فقد برئت منه الذمة » . وأنتج الأمر إذا عظم وأختلط . وقوله تعالى : « حَبِطَتْ لُجَّةُ » أي ماله عمق . ولججت السفينة أي خاضت اللجة ( بضم اللام ) . فاما اللجة ( بفتح اللام ) فأصوات الناس ؛ يقول : سمعت لجة الناس ؛ أي أصواتهم وتحدثهم . قال أبو النعمان :

• في لجة أنيسك فلانا عن قُل •

وأنتجت الأصوات أي اختلطت وعظمت . ( ينشأ موج ) أي يسيل ذلك البحر اللجتي موج . ( من فوقه موج ) أي من فوق الموج موج ، ومن فوق هذا الموج الشانى سحاب ؛ فيجتمع خوف الموج وخوف الريح وخوف السحاب . وقيل : المعنى ينشأ موج من بعده موج ؛ فيكون المعنى : الموج ينبع بعضه بعضا حتى كأن بعضه فوق بعض ، وهو أخوف ما يكون إذا توالى موجه وتقارب ، ومن فوق هذا الموج سحاب . وهو أعظم للخوف من وجهين : أحدهما - أنه قد غطى النجوم التي يهتدى بها . الثاني - الريح التي تنشأ مع السحاب والمطر الذي يترل منه . ( ظلمات تعضها فوق بغيض ) قرأ ابن محيصن والبرقي عن ابن كثير « سحاب ظلمات » بالإضافة والخفض . فنبيل « سحاب » متونا « ظلمات » بالجر والتثوين . الباقر بالرفع والتثوين . قال المهدوي : من قرأ « من فوقه سحاب ظلمات » بالإضافة فلأن السحاب يرتفع وقت هذه الظلمات فأضيف إليها ؛ كما يقال : سحاب رحمة ، إذا ارتفع في وقت المطر . ومن قرأ « سحاب ظلمات » بحر ظلمات » على التأكيد لظلمات »



الأولى أو البديل منها . و « محاب » ابتداء و « من فوقه » الخبر . ومن قرأ « محاب ظلمات » فظلمات خبر ابتداء محذوف ؛ التقدير : هي ظلمات أو هذه ظلمات . قال ابن الأثير : « من فوقه موج » غير تام ؛ لأن قوله « من فوقه محاب » صلة للموج ، والوقف على قوله « من فوقه محاب » حسن ، ثم تجددت « ظلمات بعضها فوق بعض » على معنى هي ظلمات بعضها فوق بعض . وروى عن أهل مكة أنهم قرءوا « ظلمات » على معنى أو كظلمات ظلمات بعضها فوق بعض ؛ فلي هذا المذهب لا يحسن الوقف على السحاب . ثم قيل : المراد بهذه الظلمات ظلمة السحاب وظلمة الموج وظلمة الليل وظلمة البحر ؛ فلا يُبصر من كان في هذه الظلمات شيئا ولا كوكبا . وقيل : المراد بالظلمات الشدائد ؛ أى شدائد بعضها فوق بعض . وقيل : أراد بالظلمات أعمال الكافر ، وبالبحر الجلى قلبه ، وبالموج فوق الموج ما يشئ قلبه من الجهل والشك والحيرة ، وبالسحاب الرزق والختم والطبع على قلبه . وروى معناه عن ابن عباس وغيره ؛ أى لا يُبصر بقلبه نور الإيمان ، كما أن صاحب الظلمات في البحر إذا أخرج يده لم يكد يراها . وقال أنس بن كعب : الكافر يتقلب في محس من الظلمات : كلامه ظلمة ، وعمله ظلمة ، ومدخله ظلمة ، ومخرجه ظلمة ، ومصيره يوم القيامة إلى الظلمات في النار وبئس المصير . ( إنا أخرج يده ) بمعنى الناظر . ( لم يكد يراها ) أى من شدة الظلمات . قال الزجاج وأبو عبيدة : المعنى لم يرها ولم يكد ؛ وهو معنى قول الحسن . ومعنى « لم يكد » لم يطمع أن يراها . وقال الفراء : كاد صلبة ، أى لم يرها ؛ كما تقول : ما كدت أعرفه . وقال المبرد : معنى لم يرها إلا من بعد الجهد ؛ كما تقول : ما كدت أدراك من الظلمة ، وقد رآه بعد ياس وشدة . وقيل : معناه قُرب من الرؤية ولم يرها ؛ كما يقال : كاد العروس يكون أميرا ، وكاد النعام يطير ، وكاد المتامل يكون راجا . النحاس : وأصح الأقوال في هذا أن المعنى لم يقارب رؤيتها ، فلذا لم يقارب رؤيتها فلم يرها رؤية بعيدة ولا قريبة . ( ومن لم يحمل الله له نورا ) يهتدى به أظلمت عليه الأمور . وقال ابن عباس : أى من لم يحمل الله له ديناً فإله من دين ، ومن لم يحمل الله له نورا يمشى به يوم القيامة لم يهتد

إلى الجنة، كقوله تعالى : « وَيَجْعَلُ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ » . وقال الزجاج : ذلك في الدنيا، والمعنى : من لم يهده الله لم يهتد . وقال مقاتل بن سليمان : نزلت في عتبة بن ربيعة ، كان يمتس الدين في الجاهلية ، وليس المسوح ، ثم كفر في الإسلام . الماوردي : في شية ابن ربيعة ، وكان يترهب في الجاهلية ويلبس الصوف ويطلب الدين ، فكفر في الإسلام . قلت : وكلاهما مات كافرا ، فلا يبعد أن يكونا هما المراد بالاية وغيرهما . وقد قيل : نزلت في عبد الله بن جحش ، وكان أسلم وهاجر إلى أرض الحبشة ثم تنصر بعد إسلامه . وذكر التبرلي : وقال أنس قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الله تعالى خلقني من نور وخلق أبا بكر من نوري وخلق عمر وعائشة من نور أبي بكر وخلق المؤمنين من أمي من نور عمر وخلق المؤمنين من أمي من نور عائشة فمن لم يحبني ويحب أبا بكر وعمر وعائشة فإله من نور » . فتركت « ومن لم يجعل الله له نورا فإنه من نور » .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَّاتٍ كُلِّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿١١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ( أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَّاتٍ ) لما ذكر وضوح الآيات زاد في الحجة والبيّنات ، وبين أن مصنوعاته تدل بتفصيلها على أن لها صانعا قادرا على الكمال ، فله هيئة الرسل ، وقد بعثهم بأيدهم بالمعجزات ، وأخبروا بالجنة والنار . والخطاب في « ألم تر » للنبي صلى الله عليه وسلم . ومعناه : ألم تعلم ، والمراد الكل . ( أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ ) من الملائكة . ( وَالْأَرْضِ ) من الجن والإنس . ( وَالطَّيْرِ صَفَّاتٍ ) قال مجاهد وغيره : الصلاة للإنسان والتسبيح لما سواه من الخلق . وقال سفيان : للطير صلاة ليس فيها ركوع ولا سجود . وقيل : إن ضربها بأجنحتها صلاة ، وإن أصواتها

تسبيح؛ حكاية النقاش . وقيل : التسبيح هاهنا ما يرى في المخلوق من أثر الصنعة . ومعنى « صافات » مصطفات الأجنحة في الهواء . وقرأ الجماعة « والطيّر » بالرفع عطفا على « من » . وقال الزجاج : ويعجز « والطيّر » بمعنى مع الطير . قال النحاس : وسمعت يخبروا قُتُ وزيداً بمعنى مع زيد . قال : وهو أجود من الرفع . قال : فإن قلت قُتُ أنا وزيد ، كان الأجود الرفع ، ويعجز النصب . ( كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ) يجوز أن يكون المعنى : كُلُّ قَدْ علم الله صلاته وتسبيحه ؛ أى علم صلاة المصلّي وتسبيح المسيح . ولهذا قال : ( وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ) أى لا يخفى عليه طاغتهم ولا تسبيحهم . ومن هذه الجهة يجوز نصب « كل » عند البصريين والكوفيين بإضمار فعل يفسره ما بعده . وقد قيل : المعنى قد علم كل مُصَلٍّ ومُسَبِّح صلاة نفسه وتسبيحه الذى كُلفه . وقرأ بعض الناس « كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ » غير مسيئ الفاعل . وذكر بعض النحويين أن بعضهم قرأ « كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ » ؛ فيجوز أن يكون تقديره : كُلُّ قَدْ علمه الله صلاته وتسبيحه . ويجوز أن يكون المعنى : كُلُّ قَدْ علم غيره صلاته وتسبيحه ، أى صلاة نفسه ؛ فيكون التعليل الذى هو الإيفاء والمراد الخصوص ؛ لأن من الناس من لم يُعَلِّمْ . ويجوز أن يكون المعنى كُلُّ قَدْ استدل منه المستدل ، فعبّر عن الاستدلال بالتعليل ؛ قاله المهدوى . والصلاة هنا بمعنى التسبيح ، وكرر تأكيداً ؛ كقوله « يَعْلَمُ السِّرَّ وَالنَّجْوَى » . والصلاة قد تسمى تسبيحاً ؛ قاله القشيري . ( وَفِيهِ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ) تقدم في غير موضع .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَرْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَافِيحُهَا أَنْ تَبْصُرَ بِذَهَبٍ بِالْأَبْصَرِ ﴿٤٤﴾ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾

قوله تعالى : ( أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ سَحَابًا ) ذكر من حجبته شيئا آخر، أى ألم تر بعنى قلبك . « يَرْزُقُ سَحَابًا » أى يسوق إلى حيث يشاء . والريح تَرْزُقُ السحاب ، والبقرة تَرْزُقُ ولعنا أى تسوقه . ومنه زبا الخراج يزجو زجاء ( عمدونا ) إذا تسمرت جبايته . وقال النابغة :  
إني أنيتك من أهل ومن وطني • أزرى حُشاشة تقيس ما بها رزق  
وقال أيضا : أسرت عليه من الجوزاء سارية • تَرْزُقُ النمل عليه جامد البرد  
( ثُمَّ يُولَّفُ بِهِ ) أى يجمعه عند انتشائه ؛ ليقوى ويتصل ويكتف . والأصل فى التأليف الممز ، قول : تالف . وقرئ « يُولَّفُ » بالواو تخفيفا . والسحاب واحد فى اللفظ ، ولكن معناه جمع ؛ ولهذا قال : « يَنْشِئُ السَّحَابَ » . و« بين » لا يقع إلا لاثنين فصاعدا ، فكيف جاز بينه ؟ فالجواب أن « بينه » هنا جماعة السحاب ؛ كما تقول : الشجر قد جلس بينه لأنه جمع ، وذكر الكفاية على اللفظ ؛ قال معناه الفراء . وجواب آخر - وهو أن يكون السحاب واحدا بخلاف أن يقال بينه ؛ لأنه مشتمل على قطع كثيرة ، كما قال :

• ... بين السُّحُولِ وَحَوِيلِ •

فأوقع « بين » على الدخول ، وهو واحد لا مشتماله على مواضع . وكما تقول : ما زلت أدور بين الكوفة ؛ لأن الكوفة أماكن كثيرة ؛ قاله الزجاج وغيره . وزعم الأحمسي أن هذا لا يجوز ، وكان يروى :

• ... بين السُّحُولِ وَحَوِيلِ •

( ثُمَّ يَجْمَعُهُ رُكْنًا ) أى مجتمعاً ، يركب بعضه بعضاً ؛ كقوله تعالى : « وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ » . والركم جمع الشيء ؛ يقال منه : ركم الشيء يركمه ركاً إذا جمعه وألقى بعضه على بعض . وأرتمك الشيء وتراكم إذا اجتمع . والركمة الطين المجموع . والركام : الرمل المتراكم . وكذلك السحاب وما أشبهه . ومُرْتَكَمُ الطريق ( بفتح الكاف ) جاذبه . ( فَفَرَى الْوَدْقُ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ) فى « الْوَدْقِ » قولان : أحدهما - أنه البرق ؛ قاله أبو الأشهب القبلى . ومنه قول الشاعر :

أثرتا عجاوبة ونرجين منها • خروج الْوَدْقِ من خَللِ السحاب

الثاني — أنه المطر؛ قاله الجمهور . ومنه قول الشاعر .

فلا مُزْنَةٌ وَدَقَّتْ وَدَقَّتْهَا • ولا أرض أبْلَ إِبْهَامَا

وقال امرؤ القيس :

فدسهما وَدَقَّ وَحَّ وَدِيمَةً • وَسَكَبَ وَتَوَكَّاهُ وَتَهْلَانِ

يقال : ودقت السحابة فهي وادقة . وودق المطر يدق ودقا ؛ أى تسطر . وودقت إليه دنوت منه . وفي المثل : ودق العير إلى الماء ؛ أى دنا منه . يضرب لمن خضع للشيء لحرصه عليه . والموضع مودق . وودقت [ به ] ودقا استأنست به . ويقال لنات الحافر إذا أرادت الضل : ودقت تدق ودقا ، وأودقت وأستودقت . وأنان ودوق ونرس ودوق ، ووديق أيضا ، وبها وداق . والوديقة : شدة الحر . وخلال جمع خلل ؛ مثل الجبل والجبال ، وهى قُرْبُهُ ومخارج الفطر منه . وقد تقدم فى « البقرة » أن كعبا قال : إن السحاب غير مال المطر؛ لولا السحاب حين ينزل الماء من السماء لأفسد مايقع عليه من الأرض . وقرأ ابن عباس والضحاك وأبو السالية « من خلله » على التوحيد . وتقول : كنت فى خلال القوم ؛ أى وسطهم . ( وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ ) قيل : خلق الله فى السماء جبالا من برد ، فهو ينزل منها بردا ؛ وفيه إشعار ، أى ينزل من جبال البرد بردا ، فالمفعول محذوف . ونحو هذا قول الفراء ؛ لأن التقدير عنده : من جبال برد ؛ فالجبال عنده هى البرد . و « برد » فى موضع خفض ؛ ويجب أن يكون على قوله المنى : من جبال برد فيها ، فنون جبال . وقيل : إن الله تعالى خلق فى السماء جبالا فيها برد ؛ فيكون التقدير : وينزل من السماء من جبال فيها برد . و « من » صلة . وقيل : المنى وينزل من السماء قدر جبال ، أو مثل جبال من برد إلى الأرض ؛ ف « من » الأولى للنهاية لأن ابتداء الإنزال من السماء ، والثانية للتبعيض لأن البرد بعض الجبال ، والثالثة لتبيين الجنس لأن جنس تلك الجبال من البرد . وقال الأخفش : إن « من » فى الجبال و « برد » زائدة فى الموضعين ، والجبال والبرد فى موضع نصب ؛ أى ينزل من السماء بردا يكون كالجبال . والله أعلم . ( فَيَصْبُغُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشَاءُ )

فيكون إصابته تهمة، وصرفه تهمة. وقد مضى في « البقرة » . و « الرعد » أن من قال حين يسمع الرعد : سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ثلاثا عُوفى مما يكون في ذلك الرعد . ( يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ ) أى ضوء ذلك البرق الذى فى السحاب ( يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ) من شدة بَرْقه وضوئه . قال التَّيَّاح :

وما كادت إذا رَفَتْ سَنَاها • لِيُبْصِرَ ضَوْعُهَا إِلَّا الْبَصِيرُ

وقال امرؤ القيس :

بضِيء سَنَاهُ أَوْ مَصَابِيحُ رَاهِبٍ • أَهَانَ السَّيْلُطُ فِي الذُّبَالِ الْمُفْتَلِ

فَأَلَسْنَا (مقصور) ضَوْءُ البرق. وَأَلَسْنَا أيضا بنت يتداوى به . والنساء من الرقة ممدود . وكذلك قرأ طلحة بن مُصَرِّف « سناء » بالمد على المبالغة فى شدة الضوء والصفاء؛ فأطلق عليه اسم الشرف . قال المبرد : أَلَسْنَا (مقصور) وهو اللع؛ فإذا كان من الشرف والحسب فهو ممدود، وأصلهما واحد وهو الائتاع . وقرأ طلحة بن مُصَرِّف « سَنَاءُ بَرْقِهِ » قال أحمد بن يحيى : وهو جمع بُرْقَةٍ . قال النحاس : البرقة المقدار من البرق، والبرقة المرة الواحدة . وقرأ الجحدري وابن القفعاغ « يَنْهَبُ بِالْأَبْصَارِ » بضم الياء وكسر الهاء ؛ من الإنهاب ، وتكون الباء فى « بالأبصار » صلة زائدة . الباقون « يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ » بفتح الباء والهاء ، والباء للإعصاق . والبرق دليل على تكاثف السحاب ، وبشير بقوة المطر ، ومخذر من نزول الصواعق . ( يُلْقِبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالتَّهَارَ ) قيل : تليهما أن يأتى بأحدهما بعد الآخر . وقيل : تليهما قصصهما وزاداتهما . وقيل : هو تخير النهار بظلمة السحاب مرة وبضوء الشمس أخرى ؛ وكذا الليل مرة بظلمة السحاب ومرة بضوء القمر؛ قاله النقاش . وقيل : تليهما باختلاف ما يقتدر فيهما من خير وشروفع وضرر . ( إِنَّ فِي ذَلِكَ ) أى فى ذكراته من قلب الليل والنهار ، وأحوال المطر والصفى والشتاء ( لَعِبْرَةٌ ) أى اعتبارا ( لِأَوَّلَى الْأَبْصَارِ ) أى لأهل البصائر من خلقى .

(١) راجع ج ١ ص ٢١٨ طبة ثانية أرفأفة - وج ٩ ص ٢٩٨

(٢) السليط - الزيت - والقبال - جمع ذبالة ، ومعى التنية .

قوله تعالى : **وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** (١٥) **لَقَدْ أُنزِلَتْ آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** (١٦)

قوله تعالى : **( وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ )** فقرأ يحيى بن وثاب والأعمش وحمزة والكسائي **« وَاللَّهُ خَالِقُ كُلِّ »** بالإضافة . الباقون **« خلق »** على الفعل . قيل : إن المعنيين في القراءتين صحيحان . أخبر الله عز وجل بغيرين ، ولا ينبغي أن يقال في هذا : إحدى القراءتين أصح من الأخرى . وقد قيل : إن **« خلق »** لشيء مخصوص ، وإنما يقال خالق على العموم ؛ كما قال الله عز وجل : **« الخالق الباري »** . وفي الخصوص **« الحمد لله الذي خلق السموات والأرض »** وكذا **« هو الذي خلقكم من نفس واحدة »** . فكذا يجب أن يكون **« الله خلق كل دابة من ماء »** . والدابة كل ما دب على وجه الأرض من الحيوان ؛ يقال : دب يدب فهو داب ؛ وإلهاء للبالغة . وقد تقدم في **« البقرة »** . (١) **« من ماء »** لم يدخل في هذا الجن والملائكة ؛ لأننا لم نشاهدكم ، ولم يثبت أنهم خلقوا من ماء ، بل في الصحيح **« أن الملائكة خلقوا من نور والجن من نار »** . وقد تقدم . وقال المفسرون : **« من ماء »** أي من نطفة . قال القاسم : أراد أمية الذكور . وقال جمهور النظار : أراد أن خلقه كل حيوان فيها ماء كما خلق آدم من الماء والطين ؛ وعلى هذا يخرج قول النبي صلى الله عليه وسلم للشيخ الذي سأله في غزاة بدر : ممن أتيا ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **« نحن من ماء »** . الحديث . وقال قوم : لا يستثنى الجن والملائكة ، بل كل حيوان خلق من الماء ؛ وخلق النار من الماء ، وخلق الريح من الماء ؛ إذ أول ما خلق الله تعالى من العالم الماء ، ثم خلق منه كل شيء .

(١) راجع ج ٢ ص ١٩٦ طبع ثانية . (٢) راجع ج ١٠ ص ٢٣ وما بعدها .

قلت : ويدل على صحة هذا قوله تعالى : « قَتَّهِمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ » المشي على البطن  
 للحيات والحُوت، ونحوه من الدود وغيره . وعلى الرُّجلين للإنسان والطير إذا مشى . والأرج  
 لساائر الحيوان . وفي مصحف أبي « ومنهم من يمشي على أكثر » ، فعم بهذه الزيادة جميع  
 الحيوان كالسرطان والحشاش ؛ ولكنه قرآن لم يشته إجماع ، لكن قال النقاش : إنما اكتفى  
 في القول بذكر ما يمشي على أربع عن ذكر ما يمشي على أكثر ؛ لأن جميع الحيوان إنما اعتمده  
 على أربع ، وهي قوائم مشيه ، وكثرة الأرجل في بعضه زيادة في خلقته ، لا يحتاج ذلك الحيوان  
 في مشيه إلى جميعها . قال ابن عطية : والظاهر أن تلك الأرجل الكثيرة ليست باطلا بل هي  
 محتاج إليها في تنقل الحيوان ، وهي كلها تتحرك في تصرفه . وقال بعضهم : ليس في الكتاب  
 ما يمنع من المشي على أكثر من أربع ؛ إذ لم يقل ليس منها ما يمشي على أكثر من أربع .  
 وقيل فيه إجماع : ومنهم من يمشي على أكثر من أربع ؛ كما وقع في مصحف أبي . والله أعلم .  
 و « دَانَهُ » تشعل من يعقل ومالا يعقل ؛ فقلب من يعقل لما اجتمع مع من لا يعقل ؛ لأنه  
 المخاطب والمتعبد ؛ ولذلك قال « فمنهم » . وقال « من يمشي » فأشار بالاختلاف إلى ثبوت  
 الصانع ؛ أي لولا أن الجميع صانعا مختارا لما اختلفوا ، بل كانوا من جنس واحد ؛ وهو  
 كقوله : « يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَفُضِّلَ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ » .  
 (يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ) مما يريد خلقه ( قَدِيرٌ ) .  
 (لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ) تقدم بيانه  
 في غير موضع .

قوله تعالى : وَيَقُولُونَ ءَأَمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرُّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ  
 مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾



قوله تعالى : ( وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ ) بنى المنافقين ، يقولون بالسهم آما بالله وبالرسول من غير يقين ولا إخلاص . ( وَأَطَعْنَا ) أى ويقولون ، وكذبوا . ( ثُمَّ يَتَوَلَّى فِرْيَقًا مِنْهُمْ مِنْ بَيْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ) .

قوله تعالى : وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٨﴾ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٢٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٠﴾  
فيه أربع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ( وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ) قال الطبري وغيره : إن رجلا من المنافقين اسمه بشر كانت بينه وبين رجل من اليهود خصومة في أرض ، فدعاه اليهودي إلى الحاكم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان المنافق مبطلا ، فإي من ذلك وقال : إن محمدا يحيف عليا ، فلنحكم كعب بن الأشرف ، فزلت الآية فيه . وقبل : زلت في المغيرة بن وائل من بنى أمية ، كان بينه وبين علي بن أبي طالب رضى الله عنه خصومة في ماء وأرض فامتنع المغيرة أن يحاكم عليا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : إنه يفضني ، فزلت الآية ، ذكره الماوردي . وقال : « ليحكم » ولم يقل ليحكم لأن المعنى به الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإنما بدأ بذكر الله إعظاما له واستفتاح كلام .

الثانية - قوله تعالى : ( وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ) أى طامعين متقادين ، لهم أن عليه السلام يحكم بالحق . يقال : أذعن فلان لحكم فلان يذعن إذعانا وقال القاش : « مذعن » خاضعين ، مجاهد : مسرعين . الأخفش وآبن الأعرابي : مؤزرين . ( أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ) شك ورَّيب . ( أَمْ ارْتَابُوا ) أم حدث لهم شك في نبوته

وعده . ( أَمْ يَتَأْتُونَ أَنْ يَحْيِيَ اللَّهُ مَوْتَهُمْ وَرَسُولَهُ ) أى يجوز فى الحكم والظلم . وأتى بلفظ الاستفهام لأنه أشد فى التوبيخ وأبلغ فى الذم ؛ كقول جرير فى المدح :  
 أَلَسَمَ خَيْرٌ مِنْ رَكْبِ الْمَطَايَا • وَأَتَدَى الْعَالَمِينَ طُطُونٌ رَاجٍ  
 ( بَلْ أَوْلَيْكَ هُمْ الظَّالِمُونَ ) أى الماعدون الكافرون ؛ لإعراضهم عن حكم الله تعالى .

الثالثة - القضاء يكون للسلمين إذا كان الحكم بين المأاهد والمسلم ولا حق لأهل الذمة فيه . وإذا كان بين ذميين فذلك إليهما . فإن جاء قاضى الإسلام فإن شاء حكم وإن شاء أهرىض ؛ كما تقدم فى « المسألة » .

الرابعة - هذه الآية دليل على وجوب إجابة الداعى إلى الحاكم لأن الله سبحانه ذم من دعى إلى رسوله ليحكم بينه وبين خصمه بأقبح الذم فقال : « أَلَيْ قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ » الآية . قال ابن خزيمة متناد : واجب على كل من دعى إلى مجلس الحاكم أن يجيب ، ما لم يعلم أن الحاكم فاسق ، أو صداوة بين المدعى والمدعى عليه . وأسند الزهراوى عن الحسن ابن أبى الحسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من دعاه خصمه إلى حاكم من حكام المسلمين فلم يجيب فهو ظالم ولا حق له » . ذكره الماوردى أيضا . قال ابن العربى : وهذا حديث باطل ، فأما قوله « فهو ظالم » فكلام صحيح ، وأما قوله « فلا حق له » فلا يصح ، ويحتمل أن يريد أنه على غير الحق .

قوله تعالى : ( إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ) وَأَوْلَيْكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ (٥١)

قوله تعالى : ( إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ) أى إلى كتاب الله وحكم رسوله . ( أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ) قال ابن عباس : أخبر بطاعة المهاجرين والأنصار ، وإن كان ذلك فيما يكرهون ؛ أى هذا قولهم ، وهؤلاء لو كانوا مؤمنين لكانوا

يقولون سمعنا وأطعنا . فالقول نصب على خبر كان ، واسمها في قوله « ان يقولوا » نحو  
 « وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا » . وقيل : إنما قول المؤمنين ، وكان  
 صلة في الكلام ؛ كقوله تعالى : « كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا » . وقرا ابن القمقاع  
 « لِيُحَكِّمَ بَيْنَهُمْ » غير مستى الفاعل . على بن أبي طالب « إنما كان قول » بالرفع .

قوله تعالى : وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٧﴾

قوله تعالى : ( وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ) فيها أمر به وحكم . ( وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ )  
 قرا حفص « وَيَتَّقِهِ » بإسكان الخاف على نية الجزم ؛ قال الشاعر :  
 ومن يتق فإن الله معه . وورق الله مؤتاب وعادي

وكسرهما الباقون ، لأن جزه بحذف آخره . وأسكن الماء أبو عمرو وأبو بكر . واختلص  
 الكسرة يعقوب وقألون عن نافع والبصري عن أبي عمرو وحفص . وأشبع كسرة الماء الباقون  
 ( فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ) ذكر أسلم أن عمر بن الخطاب هو قائم في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم  
 وإذا رجل من دعاة الروم قائم على رأسه وهو يقول : أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد  
 أن محمدا رسول الله . فقال له عمر : ما شأنك ؟ قال : أسلمت لله . قال : هل لهذا سبب !  
 قال : نعم ! إني قرأت التوراة والزبور والإنجيل وكثيرا من كتب الأنبياء ، فسمعت أسيرا  
 يقرأ آية من القرآن جمع فيها كل ما في الكتب المتقدمة ، فعلمت أنه من عند الله فأسلمت .  
 قال : ما هذه الآية ؟ قال قوله تعالى : « وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ » في السنن  
 « وَيَخْشِ اللَّهَ » فيما مضى من عمره « وَيَتَّقِهِ » فيما بقى من عمره « فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ » والفائز  
 من نجا من النار وأدخل الجنة . فقال عمر : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « أَوْتِيتُ  
 جوامع الكلم » .

قوله تعالى : **وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُفْسِمُوا طَاعَةً مَعْرُوفَةً إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** ﴿٥٧﴾

قوله تعالى : **(وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ)** عاد إلى ذكر المناقضين ، فإنه لما بين كراهتهم لحكم النبي صلى الله عليه وسلم أنوه فقالوا : والله لو أمرتنا أن نخرج من ديارنا ونسائنا وأموالنا نخرجنا ، ولو أمرتنا بالجهاد لمجاهدنا ، فزلت هذه الآية . أى وأقسموا بالله أنهم يخرجون معكم فى المستأنف ويطيعون . **(جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ)** أى طاعة ما قدروا أن يخلصوا . وقال مقاتل : من حلف بالله فقد أجهد فى اليمين . وقد مضى فى « الأقسام » بيان هذا . و « جَهْدٌ » منصوب على مذهب المصدر قدره : إقساماً بلفظ . **(قُلْ لَا تُفْسِمُوا)** وتم الكلام . **(طَاعَةً مَعْرُوفَةً)** أوتى بكم من أيمانكم ، أو ليكن منكم طاعة معروفة ، وقول معروف بإخلاص القلب ، ولا حاجة إلى اليمين . وقال مجاهد : المعنى قد عرفت طاعتكم وهى الكذب والتكذيب ؛ أى المعروف منكم الكذب دون الإخلاص . **(إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)** من طاعتكم بالقول ومخالفكم بالفعل .

قوله تعالى : **قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْأَمِينُ** ﴿٥٨﴾

قوله تعالى : **(قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ)** بإخلاص الطاعة وترك النفاق . **(فَإِنْ تَوَلَّوْا)** أى فإن تتولَّوا ، خفف إحدى التامين . ودل على هذا أن بعده «وعليكم» ولم يقل وعليهم . **(فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ)** أى من تبليغ الرسالة . **(وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ)** أى من الطاعة له ؛ من ابن عباس وغيره . **(وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا)** جعل الاعتداء مقروناً بطاعته . **(وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ)** أى التبليغ **(الأمين)** .

قوله تعالى : وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾

نزلت في أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ؛ قاله مالك . وقيل : إن سبب هذه الآية أن بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم شكّا بجهد مكلفه العدو ، وما كانوا فيه من الخوف على أنفسهم ، وأنهم لا يضعون أسلحتهم ؛ فنزلت الآية . وقال أبو العالية : مكث رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة عشر سنين بعد ما أوحى إليه خائفا هو وأصحابه ، يدعون إلى الله سرا وجهرا ، ثم أُمِر بالمهجرة إلى المدينة ، وكانوا فيها خائفين يصبحون ويمسون في السلاح . فقال رجل : يا رسول الله ، أما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح ؟ فقال عليه السلام : " لا تبشرون إلا يسيرا حتى يجلس الرجل منكم في الملاء العظيم محتجبا ليس عليه حديدة " . ونزلت هذه الآية ، وأظهر الله نية على جزيرة العرب فوضعوا السلاح وأمنوا . قال النحاس : فكان في هذه الآية دلالة على نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الله جل وعز أنجز ذلك الوعد . قال الضحاك في كتاب النقاش : هذه تتضمن خلافة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ؛ لأنهم أهل الإيمان وعملوا الصالحات . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الخلافة بعدى ثلاثون " . وإلى هذا القول ذهب ابن العربي في أحكامه ، وأخبره وقال : قال علماؤنا هذه الآية دليل على خلافة الخلفاء الأربعة رضي الله عنهم ، وأن الله استخلفهم ورضى أماتهم ، وكانوا على الدين الذي ارتضى لهم ، لأنهم لم يتقدمهم أحد في الفضيلة إلى يومنا هذا ، فاستقر الأمر لهم ، وقاموا بسياسة المسلمين ، وذبوا عن حوزة الدين ؛ فغذ الوعد فيهم ، وإذا لم يكن هذا الوعد لم تجز ، وفيهم نفع ، وعليهم ورد ، فيمين يكون إنّا ، وليس بدمهم ملهم إلى يومنا هذا ، ولا يكون فيما بعده . رضي الله عنهم . وحكي هذا القول القشيري عن

ابن عباس . واحتجوا بما رواه سفيانة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الخلافة بعدى ثلاثون سنة ثم تكون ملكا » . قال سفيانة : أمسك [عليك] خلافة أبي بكر ستين ، وخلافة عمر عشرة ، وخلافة عثمان ثلثي عشرة سنة ، وخلافة علي سنا . وقال قوم : هذا وعد لجميع الأمة في ملك الأرض كلها تحت كلمة الإسلام ، كما قال عليه الصلاة والسلام : « زُوِيَتْ لِي الْأَرْضُ فَرَأَيْتُ مِشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا وَسَيْلُغُ مَلِكٌ أُمَّتِي مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا » . واختار هذا القول ابن عطية في تفسيره حيث قال : والصحيح في الآية أنها في استخلاف الجمهور ، واستخلافهم هو أن يملكهم البلاد ويعلمهم أهلها ؛ كالذي جرى في الشام والعراق ونهراسان والمغرب . قال ابن العربي : قلنا لم هذا وعد عام في النبوة والخلافة وإقامة الدعوة وعموم الشريعة ، فنفذ الوعد في كل أحد بقدره وعلى حاله ؛ حتى في المفتين والقضاة والأئمة ، وليس للخلافة محل تنفذ فيه الموعدة الكريمة إلا من تقدم من الخلفاء . ثم ذكر اعتراضا وانفصالا معناه : فإن قيل هذا الأمر لا يصح إلا في أبي بكر وحده ، فاما عمر وعثمان فقتلا غيلة ، وعلى قد توزع في الخلافة . قلنا : ليس في ضمن الأمن السلامة من الموت بأى وجه كان ، وأما علي فلم يكن نزاهة في الحرب مُدْبِجًا للأمن ، وليس من شرط الأمن رفع الحرب إنما شرطه ملك الإنسان لنفسه باختياره ، لا كما كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بمكة . ثم قال في آخر كلامه : وحقيقة الحال أنهم كانوا مفهولين فصاروا قاهرين ، وكانوا مطلولين فصاروا طالين ؛ فهذا نهاية الأمن والعز .

قلت : هذه الحال لم تختص بالخلفاء الأربعة رضى الله عنهم حتى يُحصوا بها من عموم الآية ، بل شاركهم في ذلك جميع المهاجرين بل وغيرهم . ألا ترى إلى إغراء قرش المسلمين في أحد وغيرها وخاصة الخندق ، حتى أخبر الله تعالى عن جميعهم فقال : « إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ وَأَنَّهُ قُلُوبًا . هَٰئِلًا ابْتِلَى الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا <sup>(٧)</sup> » . ثم إن الله رد الكافرين لم ينالوا خيرا ، وأمن

(١) زيادة عن ابن العربي . والخطاب لسعد بن حذان راوى الحديث عن سفيانة .

(٢) آية ١٠ وما بعدها سورة الأحزاب .

المؤمنين وأوزنهم أرضهم وديارهم وأموالهم ، وهو المراد بقوله : « لَيْسَتْ خِلْفَتُهُمْ فِي الْأَرْضِ » .  
 وقوله « كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » يعنى بنى إسرائيل ، إذ أهلك الله الجبارة بمصر ،  
 وأورثهم أرضهم وديارهم فقال : « وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ  
 وَمَغَارِبَهَا » . وهكذا كان الصحابة مستضعفين خائفين ، ثم إن الله تعالى أنعمهم ومكنهم  
 وملكهم ، فصح أن الآية عامة لأمة محمد صلى الله عليه وسلم غير مخصوصة ؛ إذ التخصيص  
 لا يكون إلا بخبر من يجب [ له ] التسليم ، ومن الأصل المعلوم التمسك بالعموم . وجاء فى معنى  
 تبديل خوفهم بالأمن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قال أصحابه : أما يأتى علينا يوم  
 نأمن فيه ونضع السلاح ؟ فقال عليه السلام : « لا تلبثون إلا قليلا حتى يجلس الرجل منكم  
 فى الملاء العظيم محتجيا ليس عليه حديدة » . وقال صلى الله عليه وسلم : « والله لَيُثَمِّنَ الله هذا  
 الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم  
 تستعجلون » . خرجه مسلم فى صحيحه ؛ فكان كما أخبر صلى الله عليه وسلم . فالآية بمعجزة  
 النبوة ؛ لأنها إخبار عما سيكون فكان .

قوله تعالى : ( لَيْسَتْ خِلْفَتُهُمْ فِي الْأَرْضِ ) فيه قولان : أحدهما — يعنى أرض مكة ؛  
 لأن المهاجرين سألوا الله تعالى ذلك فوعدها كما وعدت بنو إسرائيل ؛ قال معناه النقاش .  
 الثانى — بلاد العرب والحجم . قال ابن الربيع : وهو الصحيح ؛ لأن أرض مكة محزمة على  
 المهاجرين ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لكن البأسُ سعد بن خولة » . يرى له رسول  
 الله صلى الله عليه وسلم أن مات بمكة . وقال فى الصحيح أيضا : « يمكث المهاجر بمكة بعد  
 قضاء نسكه ثلاثا » . واللام فى « لَيْسَتْ خِلْفَتُهُمْ » جواب قسم مضمر ؛ لأن الوعد قول ،  
 مجازها : قال الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات والله ليستخلفنهم فى الأرض فيجعلهم ملوكها  
 وسكانها . ( كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ) يعنى بنى إسرائيل ، أهلك الجبارة بمصر والشام  
 وأورثهم أرضهم وديارهم . وقراءة العامة « كَمَا اسْتَخْلَفَ » بفتح التاء واللام ؛ لقوله « وَعَدَ » .  
 وقوله « لَيْسَتْ خِلْفَتُهُمْ » . وقرأ عيسى بن عمر وأبو بكر والمفضل عن عاصم « اسْتَخْلَفَ » بضم

الثناء وكسر اللام على الفعل المجهول . ( وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ ) وهو الإسلام ؛ كما قال تعالى : « وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا » وقد تقدم . وروى سليم بن عامر عن المقداد ابن الأسود قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما على ظهر الأرض بيت حجر ولا مندر إلا أدخله الله كلمة الإسلام يزعمون أني أدخل ذليل أنا بزمهم فيجعلهم من أهلها وأما بذلم فيدينون بها » . ذكره الماوردي حجة لمن قال : إن المراد بالأرض بلاد العرب والعجم ؛ وهو القول الثاني ، على ما تقدم آنفاً . ( وَلَيَسِّدَنَّ لَهُمْ ) قرأ ابن محيصة وابن كثير ويعقوب وأبو بكر بالتخفيف ؛ من أبدل ، وهي قراءة الحسن ، واختيار أبي حاتم . الباقر بالتشديد ؛ من بدل ، وهي اختيار أبي عبيد ؛ لأنها أكثر ما في القرآن ، قال الله تعالى : « لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ » . وقال : « وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً » ونحوه ، وهما لغتان . قال النحاس : وحكى محمد بن الجهم عن القراء قال : قرأ عاصم والأعمش « وليبدلهم » مشددة ، وهذا غلط على عاصم ؛ وقد ذكر بعده غلطاً أشد منه ، وهو أنه حكى عن سائر الناس التخفيف . قال النحاس : وزعم أحمد بن يحيى أن بين التثقيب والتخفيف فرقا ، وأنه يقال : بدلته أى غيرته ، وأبدلته أزلته وجعلت غيره . قال النحاس : وهذا القول صحيح ؛ كما تقول : أبدل لي هذا الدرهم ، أى أزله وأعطيني غيره . وتقول : قد بدلت بعدنا ، أى غيرت ؛ غير أنه قد يستعمل أحدهما موضع الآخر ؛ والذي ذكره أكثر . وقد مضى هذا في « النساء » والحمد لله ، وذكرنا في سورة « إبراهيم » الدليل من السنة على أن بدل معناه إزالة العين ؛ فتأمله هناك . وقرئ « عَمَى رَبِّتَا أَنْ يَبْدُلَنَا » مخففاً ومثقلاً . ( يَبْدُوْنِي ) هو في موضع الحال ؛ أى في حال عبادتهم الله بالإخلاص . ويحوز أن يكون استئنافاً على طريق الثناء عليهم . ( لَا يَشْرُكُونَ بِي شَيْئًا ) فيه أربعة أقوال : أحدها - لا يعبدون إلهاً غيري ؛ حكاه النحاس . الثاني - لا يراعون عبادتي أحداً . الثالث - لا يخافون غيري ؛ قاله ابن عباس . الرابع - لا يحبون غيري ؛ قاله مجاهد . ( وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ ) أى بهذه النعم . والمراد بكفران النعمة ؛ لأنه قال تعالى ( فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ) والكافر بالله فاسق بعد هذا الإنعام وقبلة .



قوله تعالى : **وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاطِيعُوا الرُّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** ﴿٥٨﴾

تقدم ، فأعاد الأمر بالعبادة تأكيداً .

قوله تعالى : **لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ مِنَ النَّارِ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ** ﴿٥٩﴾

قوله تعالى : ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ووعد بالنصرة . وقراءة العامة « تَحْسَبَنَّ » بالياء خطاباً . وقرأ ابن عامر وحزرة وأبو حيوة « يَحْسَبَنَّ » بالياء ، بمعنى لا يحسبن الذين كفروا أنفسهم معجزين الله في الأرض ؛ لأن الحسبان يتعدى إلى مفعولين . وهذا قول الزجاج . وقال الفراء وأبو علي : يجوز أن يكون الفعل للنبي صلى الله عليه وسلم ؛ أي لا يحسبن مجد الذين كفروا معجزين في الأرض . ذ « الذين » مفعول أول ، و « معجزين » مفعول ثان . وعلى القول الأول « الذين كفروا » فاعل « أنفسهم » مفعول أول ، وهو محذوف مراد « معجزين » مفعول ثان . قال النحاس : وما علمت أحداً من أهل العربية بصيراً ولا كوفياً إلا وهو يحطى قراءة حمزة ؛ فنهى من يقول : هي لحن ؛ لأنه لم يأت إلا بمفعول واحد ليحسبن . ومن قال هذا أبو حاتم . وقال الفراء : هو ضعيف ؛ وأجازه على ضعفه ، على أنه يحذف المفعول الأول ، وقد بناء . قال النحاس : وسمعت علي بن سليمان يقول في هذه القراءة : يكون « الذين كفروا » في موضع نصب . قال : ويكون المعنى ولا يحسبن الكافر الذين كفروا معجزين في الأرض .

قلت : وهذا موافق لما قاله الفراء وأبو علي ؛ لأن الفاعل هناك النبي صلى الله عليه وسلم . وفي هذا القول الكافر . و « معجزين » معناه فأتين . وقد تقدم . ﴿وَمَا لَهُمْ مِنَ النَّارِ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ﴾ أي المرجع .

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَعِذَّكُمْ اللَّهُ مِنَ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ  
وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ  
وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ  
عَوْرَاتٍ لَكُمُ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوْفُونَ عَلَيْكُمْ  
بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قال العلماء . هذه الآية خاصة والتي قبلها عامة ؛ لأنه قال : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ  
ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَأَّلُوا عَلَى أَهْلِهَا » ثم خص هنا فقال :  
« لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ » خص في هذه الآية بعض المستأذنين ، وكذلك أيضا  
يتناول القول في الأولى في جميع الأوقات عموما . وخص في هذه الآية بعض الأوقات ،  
فلا يدخل فيها عبد ولا أمة ولا غدا كان أو ذا منظر إلا بعد الاستئذان . قال مقاتل : نزلت  
في أسماء بنت مرثد . دخل عليها غلام لها كبير ، فأشكت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛  
فنزلت عليه الآية . وقيل : بسبب زولها دخول مدج على عمر ؛ وسيأتي .

الثانية — اختلف العلماء في المراد بقوله تعالى « لِيَسْتَأْذِنَكُمْ » على ستة أقوال :

الأول — أنها منسوخة ، قاله ابن المسيب وابن جبير .

الثاني — أنها نذبة غير واجبة ؛ قاله أبو قلابة ، قال : إنما أمروا بهذا نظرا لهم .

الثالث — عنى بها النساء ؛ قاله أبو عبد الرحمن السلمي . وقال ابن عمر : هي في الرجال  
دون النساء . وهو القول الرابع .

الخامس — كان ذلك واجبا ، إذ كانوا لا علق لهم ولا أبواب ، ولو عاد الحمال لعاد

للجوب ؛ حكاه المهدوي عن ابن عباس .

السادس - أنها حكمة واجبة ثابتة على الرجال والنساء؛ وهو قول أكثر أهل العلم، منهم أقسام وجابر بن زيد والثعلبي. وأضعفها قول الثعلبي لأن «الذين» لا يكون للنساء في كلام العرب، إنما يكون للنساء «اللاتي والأوائ» . وقول ابن عمر يستحسنه أهل النظر، لأن «الذين» للرجال في كلام العرب، وإن كان يجوز أن يدخل معهم النساء فإنما يقع ذلك بدليل، والكلام على ظاهره، غير أن في إسناده ثبوت بن أبي سليم. وأما قول ابن عباس فروى أبو داود عن عبيد الله بن أبي يزيد سمع ابن عباس يقول: آية لم يؤمر بها أكثر الناس آية الاستئذان وإنى لأمر جاريتي هذه تستأذن علي. قال أبو داود: وكذلك رواه طاء عن ابن عباس «بأمر به». وروى عكرمة أن قرا من أهل العراق قالوا: يا ابن عباس، كيف ترى في هذه الآية التي أمرنا فيها بما أمرنا ولا يعمل بها [أحد]، قول الله عز وجل «يا أيها الذين آمنوا أليست أذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث صرايات من قبل صلاة الفجر وحين تغطون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة النساء ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم». قال أبو داود: قرأ الثعلبي إلى «عليكم حكيم» قال ابن عباس: إن الله حليم رحيم للمؤمنين يحب السر، وكان الناس ليس ليوتهم ستر ولا حياء، فربما دخل الخادم أو الولد أو نعمة الرجل والرجل على أهله، فأمرهم الله بالاستئذان في تلك العورات، فجاءهم الله بالستر والخير، فلم أر أحدا يعمل بذلك [بعد].

قلت: هذا متن حسن، وهو يرد قول سعيد وابن جبير، فإنه ليس فيه دليل على نسخ الآية، ولكن على أنها كانت على حال ثم زالت، فإن كان مثل ذلك الحال حكما قائم كما كان، بل حكما لليوم ثابت في كثير من مساكن المسلمين في البوادي والصحارى ونحوها. وروى

(١) في تهذيب التهذيب: «قال ابن حبان اختلط في آخر عمره، مكان خلف الأساية وريح المراسيل، وبقي من الصفات ما ليس من حديثهم. وقال البراء: كان أحد العباد، إلا أنه أصابه اختلاط ما اضطرب حديثه... الخ».

(٢) زيادة من سنن أبي داود. (٣) الجلاء: جمع الجلة (بالضرب) وهويت كافة يستريح بالجاب ويكون له أذواد يجار.

وَكَيْعَ عَنْ سَفْيَانَ عَنْ مُوسَى بْنِ أَبِي عَاشَةَ عَنِ الشَّعْبِيِّ « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ  
مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ » قَالَ : لَيْسَتْ بِمَنْسُوخَةٍ . قُلْتُ : إِنْ النَّاسُ لَا يَعْمَلُونَ بِهَا ، قَالَ : اللَّهُ  
عَزَّ وَجَلَّ الْمُسْتَأْذِنُ

الثالثة - قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ : إِنْ الْإِسْتِئْذَانُ ثَلَاثًا مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ  
آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَلْبِسُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ » قَالَ يَزِيدُ :  
ثَلَاثٌ وَضَعَاتٌ . قَالَ : فَوُورِدَ الْقُرْآنُ فِي الْمَالِكِ وَالصَّيَّانِ ، وَسُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ  
فِي الْجَمِيعِ . قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ : مَا قَالَهُ مِنْ هَذَا وَإِنْ كَانَ لَهُ وَجْهٌ فَإِنَّهُ غَيْرُ مَعْرُوفٍ عَنِ الْعُلَمَاءِ  
فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ الَّتِي تَرَجَّعَ بِهَا ، وَالَّذِي عَلَيْهِ جَمْعُهُمْ فِي قَوْلِهِ « ثَلَاثَ مَرَّاتٍ » أَيْ فِي ثَلَاثِ  
أَوْقَاتٍ . وَيَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ هَذَا الْقَوْلِ ذِكْرُهُ فِيهَا « مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ  
مِنَ الظُّهْرِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ » .

الرابعة - أَدَّبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عِبَادَهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِأَنْ يَكُونَ الْعَبِيدُ إِذْ لَا مَالَ لَهُمْ ،  
وَالْأَطْفَالُ الَّذِينَ لَمْ يَلْبِسُوا الْحُلُمَ إِلَّا أَنَّهُمْ عَقَلُوا مَعَانِيَ الْكَشْفَةِ وَنَحْوَهَا ، يَسْتَأْذِنُونَ عَلَى أَهْلِهِمْ  
فِي هَذِهِ الْأَوْقَاتِ الثَّلَاثَةِ ، وَهِيَ الْأَوْقَاتُ الَّتِي تَقْتَضِي عَادَةَ النَّاسِ الْإِنْكَشَافَ فِيهَا وَمُلَازِمَةَ  
التَّعَرَّى . فَمَا قَبْلَ الْفَجْرِ وَقْتُ انْتِهَاءِ النَّوْمِ وَقْتُ الْخُرُوجِ مِنْ ثِيَابِ النَّوْمِ وَلَيْسَ ثِيَابُ  
النَّهَارِ . وَقْتُ الْغَائِلَةِ وَقْتُ التَّجَرُّدِ أَيْضًا وَهِيَ الظُّهْرُ ، لِأَنَّ النَّهَارَ يَظْهَرُ فِيهَا إِذَا عَلَا شِعَاعُهُ  
وَأَشْتَدَّ حَرُّهُ . وَبَعْدَ صَلَاةِ الْعِشَاءِ وَقْتُ التَّعَرَّى لِلنَّوْمِ ، فَالْإِنْكَشَافُ غَالِبٌ فِي هَذِهِ الْأَوْقَاتِ .  
يُرْوَى أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ غُلَامًا مِنَ الْأَنْصَارِ يَقَالُ لَهُ مُدْجِلٌ إِلَى عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ  
ظَهِيرَةً لِيَدْعُوهُ ، فَوَجَدَهُ نَائِمًا قَدْ أَغْلَقَ عَلَيْهِ الْبَابَ ، فَدَقَّ عَلَيْهِ الْغُلَامُ الْبَابَ فَتَدَاوَى وَدَخَلَ ،  
فَاسْتَقْبَلَ عَمْرٌ وَجَلَسَ فَانْكَشَفَ مِنْهُ شَيْءٌ ، فَقَالَ عَمْرٌ : وَدِدْتُ أَنَّ اللَّهَ نَهَى أَبْنَاءَنَا وَنِسَاءَنَا  
وَحَدَمَنَا عَنِ الدَّخُولِ عَلَيْنَا فِي هَذِهِ السَّاعَاتِ إِلَّا بِإِذْنٍ ، ثُمَّ انْطَلَقَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ  
وَوَجَدَهُ هَذِهِ الْآيَةَ قَدْ أُنْزِلَتْ ، نَغْرًا سَاجِدًا شَكَرًا لَهُ . وَهِيَ مَكِّيَّةٌ .

الخامسة — قوله تعالى : ( وَالَّذِينَ لَمْ يَلْفَوْا الْحِلْمَ مِنْكُمْ ) أى الذين لم يحتلموا من أحراركم ، قاله مجاهد . وذكر إسماعيل بن إسحاق كأن يقول : ليستأذنكم الذين لم يلفوا الحلم مما ملكت إيمانكم ، على التقديم والتأخير ، وأن الآية في الإمام . وقرا الجمهور بضم اللام ، وسكنها الحسن بن أبى الحسن لتقل الضمة . وكان أبو عمرو يستحسنها . و « ثلاث مرآت » نصب على الظرف ؛ لأنهم لم يؤمروا بالاستئذان ثلاثا ، إنما أمروا بالاستئذان في ثلاثة مواطن ، والظرفية في « ثلاث » بيّنة : من قبل صلاة الفجر ، وحين تَصْعُون ثيابكم من الظهيرة ، ومن بعد صلاة العشاء . وقد مضى معناه . ولا يجب أن يستأذن ثلاث مرآت في كل وقت . ( ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ ) قرا جمهور السبعة « ثلاثُ عَوْرَاتٍ » برفع « ثلاث » . وقرا حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم « ثلاث » بالنصب على البدل من الظرف في قوله « ثلاثُ مرآت » . قال أبو حاتم : النصب ضعيف مرصود . وقال الفراء : الرفع أحب إلى . قال : وإنما اخترت الرفع لأن المعنى : هذه الخصال ثلاثُ عورات . والرفع عند الكسائي بالابتداء ، والخبر عنده ما بعده ، ولم يقل بالعائد ، وقال نصبا بالابتداء . قال : والعورات الساعات التي تكون فيها العورة ، إلا أنه قرأ بالنصب ، والنصب فيه قولان : أحدهما — أنه مرصود على قوله « ثلاثُ مرآت » ؛ ولهذا استبعده الفراء . وقال الزجاج : المعنى ليستأذنكم أوقات ثلاث عورات ؛ فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه . و « عَوْرَات » جمع عورة ، وبابه في الصحيح أن يميء على فعلات (فتح العين) بحَقْنَةٍ وَجَفَّاتٍ ، ونحو ذلك . وسكنوا العين في المعتل كيَيْضَةٍ ويَيْضَاتٍ ؛ لأن فتحه دافع إلى اعتلاله فلم يفتح لذلك ؛ فأما قول الشاعر :

أبو يَيْضَاتٍ رَائِحٌ مُتَأَوِّبٌ • رَفِيقٌ بِمَسْحِ الْمَنِيكِينِ سُبُوحٌ<sup>(١)</sup>

[فناذ] .

(١) كما في نسخ الأصل ، وظاهر أن في العبارة سقط .

(٢) كما في اللسان مادة « ييض » . والذي في نسخ الأصل :

أبو يَيْضَاتٍ رَائِحٌ أَوْسَعُهُ • مَعْلَانٌ ذَا زَادٍ وَمَعْرٍ مَرْقَدُهُ

وهذا البيت للناجية الديلمية ، وصراب يشاهده : أمير آل مية رايح أَوْسَعُهُ • ... .. انه ... الخ .

السادسة - قوله تعالى : ( لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ ) أى فى الدخول من غير أن يسأذنوا وإن كنتم متبذلين . ( طَوَافُونَ ) يعنى هم طوافون . قال القراء : كقولك فى الكلام إنما هم خدمكم وطوافون عليكم . وأجاز القراء نصب « طوافين » لأنه نكرة ، والمضمر فى « عليكم » معرفة . ولا يميز البصريون أن يكون حالا من المضمرين اللذين فى « عليكم » وى « مصكم » لاختلاف العاملين . ولا يحسوز مررت بزيد ونزلت على عمرو العاقلين ، على التثنية لما . فمضى « طَوَافُونَ عليكم » أى يطوفون عليكم وتطوفون عليهم ، ومنه الحديث فى الهزة « إنما هى من الطوافين عليكم أو الطوافات<sup>(١)</sup> » . فنع فى الثلاث العورات من دخولهم علينا ، لأن حقيقة العودة كل شئ ، لا مانع دونه ، ومنه قوله « إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ » أى سهلة للدخول ، فبقيت العلة الموجبة للإذن ، وهى الخلوة فى حال العودة ، فنعين أمثاله ونعذر نسخه . ثم رفع الجناح بقوله « لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ » أى يطوف بعضهم على بعض . ( كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ ) الكاف فى موضع نصب ، أى يبين الله لكم آياته الدالة على متبذانه بيانا مثل ما بين لكم هذه الأشياء . ( وَاقْعُ عَلَيْهِمُ الْحِكْمُ ) قدم .

السابعة - قوله تعالى : ( وَمَنْ بَعْدَ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ) يريد العتمة . وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا تأتيناكم الأعراب على أسم صلاتكم ألا إنها العشاء وهم يعزيمون بالإبل . وفى رواية « فلما فى كتاب الله العشاء وإياها تختم بحلاب الإبل » . وفى البحارى عن أبي بزة : كان النبي صلى الله عليه وسلم يؤثر العشاء . وقال أنس : أخر النبي صلى الله عليه وسلم العشاء . وهذا يدل على العشاء الأولى . وفى الصحيح : فصلها ، يعنى الصبرين العشاءين المغرب والعشاء . وفى الموطأ وغيره : ولو ينامون ما فى العتمة والصبح لأتوهما ولو حيويا . وفى مسلم عن جابر

(١) قوله « أو الطوافات » يحتمل أن يكون على سنى التثنية من الراوى . ويحتمل أن يكون صلى الله عليه وسلم قال ذلك ، يريد أن هذا الحيوان لا يظن أن يكون من جنس المذكور الطوافين أو الإناث الطوافات ( عن تاجى ) .

(٢) راجع ج ١ ص ٢٨٧ طية ثانية أو ثالثة .

أَبْنُ سُرَّةٍ قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَصِلُ الصَّلَاةَ نَحْوًا مِنْ صَلَاتِنَا . وَكَانَ يُؤَخِّرُ التَّعَمُّةَ بَعْدَ صَلَاتِنَا شَيْئًا ، وَكَانَ يُخَيِّفُ الصَّلَاةَ . قَالَ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ بْنُ الْعَرَبِيِّ : وَهَذِهِ أَخْبَارُ مُتَعَارِضَةٌ ، لَا يُسَلِّمُ مِنْهَا الْأَوَّلُ مِنَ الْآخَرِ بِالنَّارِخِ ، وَنَبِيهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ تَسْمِيَةِ الْمَغْرِبِ عِشَاءً وَعَنْ تَسْمِيَةِ الْمَشَاءِ عَمَّةً ثَابِتٌ ، فَلَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ أَقْوَالِ الصَّحَابَةِ فَضْلًا عَنْ مَدَامِ . وَقَدْ كَانَ أَبُو عَمْرٍو يَقُولُ : مَنْ قَالَ صَلَاةَ الْعَمَّةِ فَقَدْ أَثِمَ . وَقَالَ أَبُو النَّاسِمِ قَالَ مَالِكٌ : « وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْمَشَاءِ » فَافْهَمْ سَمَاءَ صَلَاةِ الْمَشَاءِ فَأَحَبَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ تَسْمَى بِمَا سَمَّاهَا اللَّهُ تَعَالَى بِهِ ، وَبِطَلْسَمِهَا الْإِنْسَانُ أَهْلَهُ وَوَلَدَهُ ، وَلَا يُقَالُ عَمَّةٌ إِلَّا عِنْدَ خُطَابٍ مِنْ لَا يَفْهَمُ . وَقَدْ قَالَ حَسَنٌ :

وَكَانَتْ لَا يَزَالُ بِهَا أَنْيَسُ • خَلَالَ مُرُوجِهَا نَمٌّ وَشَاءُ

فَدَغَّ هَذَا وَلَكِنْ مَنْ لَطِيفٌ • يُؤَزِّقِي إِذَا ذَهَبَ الْمَشَاءُ

وَقَدْ قِيلَ : إِنَّ هَذَا التَّهْمَى عَنْ اتِّبَاعِ الْأَعْرَابِ فِي تَسْمِيَتِهِمُ الْمَشَاءَ عَمَّةً ، إِنَّمَا كَانَ لِثَلَاثِ أَيْدٍ بِهَا عَمَّا سَمَّاهَا اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ إِذْ قَالَ : « وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْمَشَاءِ » ؛ فَكَأَنَّهُ نَبِيُّ إِرْشَادٍ إِلَى مَا هُوَ الْأَوَّلَى ، وَلَيْسَ عَلَى جِهَةِ التَّحْرِيمِ ، وَلَا عَلَى أَنَّ تَسْمِيَتَهَا الْعَمَّةَ لَا يَحُوزُ إِلَّا تَرَى أَنَّهُ قَدْ ثَبِتَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ أَطْلَقَ عَلَيْهَا ذَلِكَ ، وَقَدْ أَبَاحَ تَسْمِيَتَهَا بِذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ وَعَمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا . وَقِيلَ : إِنَّمَا نَهَى عَنْ ذَلِكَ تَعْرِيفًا لِهَذِهِ الْمُبَادَةِ الشَّرِيفَةِ الدِّينِيَّةِ عَنْ أَنْ يُطْلَقَ عَلَيْهَا مَا هُوَ أَسْمُ لِفَعْلَةٍ دُنْيَوِيَّةٍ ، وَهِيَ الْحَبْلَةُ الَّتِي كَانُوا يَحْلُبُونَهَا فِي ذَلِكَ الْوَقْتُ وَيَسَمُّونَهَا الْعَمَّةَ ؛ وَيَشْهَدُ لِهَذَا قَوْلُهُ : « فَإِنَّمَا تُنَمِّ بِحِلَابِ الْإِبِلِ » .

(١) الثامنة — رَوَى ابْنُ مَاجَةَ فِي سنَنِ حَدَّثَنَا عُمَانُ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ عِيَّاشٍ عَنْ عُمَارَةَ بْنِ غَزِيَّةَ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ : « مَنْ صَلَّى فِي جُمُعَةٍ أَوْ مِائِينَ لَيْلَةٍ لَا تَحْصُوهُ الرُّكْعَةُ الْأُولَى مِنْ صَلَاةِ الْمَشَاءِ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِهَا عِتْقًا مِنَ النَّارِ » . وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عُمَانَ بْنِ عَفَّانَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى

الله عليه وسلم : " من صلى المشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل ومن صلى الفجر في جماعة فكأنما قام الليل كله " . وروى الدارقطني في سننه عن سبيع أو يثيع عن كعب قال : من نوحاً فأحسن الوضوء وصل المشاء الآخرة وصل بعدها أربع ركعات فأتهم ركوعهم ومجوسهم ويعلم ما يقتري فيمن كن له بمقالة ليلة القدر .

قوله تعالى : وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَمِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾  
قرأ الحسن « الحُلُم » . حذف القصة لظها . والمعنى : أن الأطفال أمروا بالاستئذان في الأوقات الثلاثة المذكورة ؛ وأبج لم الأمر في غير ذلك كما ذكرنا . ثم أمر تعالى في هذه الآية أن يكونوا إذا بلغوا الحلم على حكم الرجال في الاستئذان في كل وقت . وهذا بيان من الله من وجب لأحكامه وإيضاح حلاله وحرامه ، وقال « فَلْيَسْتَأْذِنُوا » ولم يقل فليستأذنوكم . وقال في الأولى « لِيَسْتَأْذِنُكُمْ » لأن الأطفال غير عاقلين ولا متبدين . وقال ابن جرير : قلت لعطاء « وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا » قال : واجب على الناس أن يستأذنوا إذا احتلموا أحراراً كانوا أو عبيداً . وقال أبو إسحاق الفزاري : قلت للأوزاعي ما حدّ الطفل الذي يستأذن ؟ قال : أربع سنين ، قال : لا يدخل على امرأة حتى يستأذن . وقال الزهري : أي يستأذن الرجل على أمه ، وفي هذا المعنى نزلت هذه الآية .

قوله تعالى : وَالنِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لهنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٢﴾



فيه خمس مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ القواعد واحدتها قاعدة ، بلاهاء ، ليدل حذفها على أنه قصود الكبير ، كما قالوا : امرأة حامل ، ليدل بحذف الهاء أنه حمل حبل . قال الشاعر :  
فلو أن ما في بطنه بين نسوة - حِلْن وإن كثر القواعد عُقراً  
وقالوا في غير ذلك : قاعدة في بيتها ، وحاملة على طهرها ، بالهاء . والقواعد أيضا : إساس البيت ، واحده قاعدة ، بالهاء .

الثانية - القواعد : العجز اللواقى قعدن عن التصرف من السن ، وقعدن عن الولد والمحيض ، هذا قول أكثر العلماء . قال ربعة : هي التي إذا رأيته تستقدرها من كبرها . وقال أبو عبيدة : اللاتي قعدن عن الولد ، وليس ذلك بمستقيم ، لأن المرأة تقعد عن الولد وفيها مستمتع ، قاله المهدوي .

الثالثة - قوله تعالى : ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ يَصْنَعَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ زِينَةً ﴾ إنما خص القواعد بذلك لأنصرف الأنفس عنهن ، إذ لا مذهب للرجال فيهن ، فأبيع لمن ما لم يبع لغيرهن ، وأزيل عنهن كُلفة التحفظ المتعب لمن .

الرابعة - قرأ ابن مسعود وأبو عباس « أَنْ يَصْنَعَ مِنْ ثِيَابِهِنَّ » بزيادة « من » . قال ابن عباس : وهو الخلباب . وروى عن ابن مسعود أيضا « من جلابيهن » . والعرب تقول : امرأة واضع ، للتي كبرت فوضعت ثمارها . وقال قوم : الكبية التي ألبست من النكاح ، لو بدا شعرها فلا بأس ، فعلى هذا يجوز لها وضع الخمار . والصحيح أنها كالنثابة في التستر ، إلا أن الكبية تضع الخلباب الذي يكون فوق الدرع والخمار ، قاله ابن مسعود وابن جبير وغيرهما .

الخامسة - قوله تعالى : ﴿ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ زِينَةً ﴾ أى غير مظهرات ولا متبرجات بالزينة ليُنظر إليهن ، فإن ذلك من أقبح الأشياء وأبعده عن الحق . والتبرج : التكتشف والظهور للعيون ، ومنه : بروج مشيلة . وروج السماء والأسوار ، أى لا حائل دونها يسرها .

وقيل لعائشة رضي الله عنها: يا أم المؤمنين، ما تقولين في الخُطاب والصَّبَاغ والتَّامِّم والقرطبين والخَلْطَل وخاتم الذهب ورقاق الثياب؟ قالت: يا معشر النساء، قصتُكِ قصة امرأة واحدة، أحلَّ الله لكن الزينة غير متبرجات لمن لا يعمل لكن أن يروا منك محرماً. وقال عطاء: هذا في بيوتهن، فلذا خرجت فلا يعمل لها وضع الجلاباب. وعلى هذا «غَيْرُ مُتَبَرِّجَاتٍ» غير خارجات من بيوتهن. وعلى هذا يلزم أن يقال: إذا كانت في بيتها فلا بد لها من جلاباب فوق الدَّرْع، وهذا بعيد، إلا إذا دخل عليها أجنبي. ثم ذكر تعالى أن تحفظ الجميع منهن، واستغفنهن عن وضع الثياب والتزامهن ما يلزم الشباب أفضل لمن وخير. وقرأ ابن مسعود «وَأَنْ يَتَغَفَّنَ» غير سين. ثم قيل: من التبرج أن تلبس المرأة ثوبين رقيقين يصفانها. روى الصحيح عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا قَوْمٌ مَعَهُمْ سَبَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَّاتٌ يُبَيِّلَاتُ مَا لَتَلَتِ رُمُوسُهُنَّ كَأَنَّمَا الْخُبُثُ الْمَائِلَةُ لَا يَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ وَلَا يَجِدَنَّ رِيحَهَا وَإِنْ رِيحُهَا لِيُوجِدُ مِنْ مَسِيَّةٍ كَذَا وَكَذَا». قال ابن العربي: وإنما جعلهن كاسيات لأن الثياب عليهن، وإنما وصفهن بأنهن عاريات لأن الثوب إذا رُقَّ بصفتهن، ويبدى محاسنهن، وذلك حرام. قلت: هذا أحد التأويلين للعالماء في هذا المعنى. والثاني — أنهنَّ كاسيات من الثياب عَارِيَّاتٌ من لباس التقوى الذي قال الله تعالى فيه: «وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ». وأنشدوا:

إذا المرء لم يلبس ثياباً من التَّقَى • تغلب عُريَانَا وإن كان كَاسِيَا

وخير لباس المرء طاعةُ رَبِّهِ • ولا خيرَ فيمن كانَ لله عَاصِيَا

وفى صحيح مسلم عن أبي سعيد الخُدْرِيِّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بينا أنا قائم رأيت الناس يُعرضون عليّ وعليهم قُصَصٌ منها ما يبلغُ الثُّدْيَ ومنها ما دون ذلك ومَرَّ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ وعليه قيصٌ يمزّه» قالوا: ما ذا أولت ذلك يا رسول الله؟ قال: «الدين». فتأويله صلى الله عليه وسلم التقيص بالدين مأخوذ من قوله تعالى: «وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ». والعرب تكتي عن الفضل والعطف بالثياب؛ كما قال شاعرهم:

(١) آية ٢٦ سورة الأعراف. (٢) انتهى في صحيح مسلم: «يعرضون وعليهم ...»

### • ثياب بنى عوف طهارى قبة •

وقد قال صلى الله عليه وسلم لعثمان : "إن الله سيليك قميصا فإن أرادوك أن تخلعه فلا تخلعه" . فعبر عن الخلافة بالقميص ، وهى استعارة حسنة معروفة .

قلت : هذا التأويل أصح التأويلين ، وهو اللائق بهن فى هذه الأزمان ، وخاصة الشباب ، لأنهن يترن ويخرجن متبرجات ؛ فهن كاسيات بالثياب عاريات من التقوى حقيقة ، ظاهرا باطنا ، حيث تُبْدِي زيتها ، ولا تبالى بن ينظر إليها ، بل ذلك مقصودهن ، وذلك مشاهد فى الوجود منهن ، فلو كان عندهن شيء من التقوى لما فعلن ذلك ، ولم يعلم أحد ما هنالك . ومما يقوى هذا التأويل ما ذكر من وصفهن فى بقية الحديث فى قوله : "رموسهن كأسفة البخت" . والبخت ضرب من الإبل عظام الأجسام ، عظام الأسنمة ؛ شبه رموسهن بها لما رفن من ضغائر شعورهن على أوساط رموسهن . وهذا مشاهد معلوم ، والناظر إليهن ملوم . قال صلى الله عليه وسلم : "ما تركت بعدى فتنة أضرب على الرجال من النساء" . خرجه البخارى .

قوله تعالى : لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتْكُمْ مَفَاتِحُهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْهَا أَوْ أَشْتَاتَا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَالْتَمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِمَّنْ عِنْدَ اللَّهِ مُبْرَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١﴾

(١) هذا صدر بيت لأمرى القيس ، وبجزءه كما فى ديوانه :

• وأودعهم عند المقادير غرانا •

فيه إحدى عشرة مسألة :

الأولى - قوله تعالى : ( لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ ) اختلف العلماء في تأويل هذه الآية على أقوال ثمانية . أقربها - هل هي منسوخة أو ناسخة أو مُحْكَمَةٌ ؛ فهذه ثلاثة أقوال : الأول - أنها منسوخة من قوله تعالى : « وَلَا عَلَى الْأَعْيُسِ » إلى آخر الآية ؛ قاله عبد الرحمن ابن زيد ، قال : هذا شيء قد أقطع ، كانوا في أول الإسلام ليس على أعياسهم أطلاق ، وكانت السور مرخاة ، فربما جاء الرجل فدخل البيت وهو جائع وليس فيه أحد ؛ فسوغ الله عز وجل أن يأكل منه ، ثم صارت الأغلاق على البيوت فلا يحل لأحد أن يفتحها ، فذهب هذا واقطع . قال صلى الله عليه وسلم : « لَا يَحْتَلِينَ أَحَدٌ مَالِيَةَ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِهِ ... » الحديث ، خرجه الأئمة .

الثاني - أنها ناسخة ؛ قاله جماعة . روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال : لما أزل الله عز وجل « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ » قال المسلمون : إن الله عز وجل قد نهانا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل ، وأن الطعام من أفضل الأموال ، فلا يحل لأحد منا أن يأكل عند أحد ، فكف الناس عن ذلك ؛ فأنزل الله عز وجل « لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ - إلى - أو مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ » . قال : هو الرجل يوكل الرجل بضعته .

قلت : علي بن أبي طلحة هذا هو مولى بن هاشم سكن الشام ، يُكْنَى أبا الحسن ويقال أبا محمد ، واسم أبيه أبي طلحة سالم ، يُكَلِّمُ في تفسيره ؛ فقيل : إنه لم ير ابن عباس ، والله أعلم .

الثالث - أنها محكمة ؛ قاله جماعة من أهل العلم عن يُقْتَدَى بقولهم ؛ منهم سعيد بن المسيب وعبد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود . وروى الزهري عن عمرو بن عاصم رضي الله عنها قالت : كان المسلمون يُوعِبُونَ في التَّيْمَرِ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكانوا يدفعون مفاتيحهم إلى صناديقهم ويقولون : إن احتجتم فكلوا ؛ فكانوا يقولون إنما أسلوه لنا عن غير طيب نفس ؛ فأنزل الله عز وجل « وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ » إلى آخر الآية . قال النحاس : « يُوعِصُونَ » أي يخرجون بأجمعهم في المغازي ؛

يقال : أَوْعِبْ بَنُو فلان لِنِي فلان إذا جاءوهم بإجمعهم . وقال ابن السكيت : يقال أَوْعِبْ بَنُو فلان جلاءً ، فلم يبق بيلدهم منهم أحد . وجاء الفرس بِرَقِصٍ وَعَيْبٍ ، أى باقى ما عنده . وفي الحديث : " في الأنف إذا أَسْتَوْعِبَ جَدُّهُ الدَّيَّةُ " إذا لم يترك منه شيء . واستنصاب الشيء استنصاله . ويقال : يَتَّ وَعَيْبٌ إذا كان واسعا يَسْتَوْعِبُ كُلَّ ما جُلَّ فيه . والضمي هم الزنبي ، واحدهم ضَمَنٍ مثل زين . قال النحاس : وهذا القول من أجل ما روى في الآية ؛ لما فيه عن الصحابة والتابعين من التوفيق أن الآية نزلت في شيء بينه . قال ابن العربي : وهذا كلام مستظلم لأجل تخلفهم عنهم في الجهاد وبقاء أموالهم بأيديهم ، لكن قوله « أَوْما مَلَكْتُمْ مَقَاتِحَهُ » قد اقتضاه ؛ فكان هذا القول بعيدا جدا . لكن المختار أن يقال : إن الله رفع الحرج عن الأعمى فيما يتعلق بالتكليف الذي يشترط فيه البصر ، وعن الأعمرج فيما يشترط في التكليف به من الشيء ؛ وما يتعذر من الأعمال مع وجود العرج ، وعن المريض فيما يؤثر المرض في إسقاطه ، كالصوم وشروط الصلاة وأركانها ، والجهاد ونحو ذلك . ثم قال بعد ذلك ميّنا : وليس عليكم حرج في أن تأكلوا من بيوتكم . فهذا معنى صحيح ، وتفسير بين مفيد ، يعضده الشرع والعقل ، ولا يحتاج في تفسير الآية إلى قتل .

قلت : وإلى هذا أشار ابن عطية فقال : فظاهر الآية وأمر الشريعة يدل على أن الحرج عنهم مرفوع في كل ما يضطرم إليه المذر ، وتقتضى نيهم فيه الإتيان بالأكل ، ويقتضى المذر أن يقع منهم الأقص ، فالحرج مرفوع عنهم في هذا . فاما ما قال الناس في هذا الحرج هنا وهى :

الثانية — فقال ابن زيد : هو الحرج في الفزو ، أى لا حرج عليهم في تأخيرهم . وقوله تعالى : « وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ » الآية ، معنى مقطوع من الأول . وقالت فرقة : الآية كلها في معنى الطعام . قالت : وكانت العرب ومن بالمدينة قبل المبعث لتجنب الأكل مع أهل الأمان ؛ فبعضهم كان يفعل ذلك تقدرا لجولان اليد من الأعمى ، ولا يسطط الحلة من الأخرج ، وإلحاجة المريض وعلاته ؛ وهى أخلاق جاهلية وكبر ، فنزلت الآية مؤذنة .

وبعضهم كان يفعل ذلك تحزبا من غير أهل الأعداء ، إذ هم مقصرون عن درجة الأخصاء في الأكل ، لعدم الرؤية في الأعمى ، وللعجز عن المزاولة في الأعرج ، ولضعف المريض ؛ فزلت الآية في إباحة الأكل معهم . وقال ابن عباس في كتاب الزهر أوى : إن أهل الأعداء تحزبوا في الأكل مع الناس من أجل عذرهم ؛ فزلت الآية مسيحة لهم . وقيل : كان الرجل إذا ساق أهل المنذر إلى بيته فلم يجد فيه شيئا ذهب به إلى بيوت قرابته ؛ فخرج أهل الأعداء من ذلك ؛ فزلت الآية .

الثالثة - قوله تعالى : ﴿ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾ هذا ابتداء كلام ؛ أى ولا عليكم أيها الناس . ولكن لما اجتمع المخاطب وغير المخاطب غلب المخاطب ليقظم الكلام . وذكر بيوت القرابات وسقط منها بيوت الأبناء ؛ فقال المفسرون : ذلك لأنها داخلة في قوله « في بيوتكم » لأن بيت ابن الرجل بيته ؛ وفي الخبر « أنت ومالك لأبيك » . ولأنه ذكر الأقرباء بعد ولم يذكر الأولاد . قال النحاس : وعارض بعضهم هذا القول فقال : هذا تحكّم على كتاب الله تعالى ؛ بل الأولى في الظاهر ألا يكون الابن مخالفا لهؤلاء ، وليس الاحتجاج بما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم « أنت ومالك لأبيك » بقوى لومى هذا الحديث ، وأنه لو صح لم تكن فيه حجة ؛ إذ قد يكون النبي صلى الله عليه وسلم علم أن مال ذلك المخاطب لأبيه . وقد قيل إن المعنى : أنت لأبيك ، ومالك مبتدأ ؛ أى ومالك لك . والقاطع لهذا التوارث بين الأب والابن . وقال الترمذى الحكيم : ووجه قوله تعالى « ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم » كأنه يقول مساكنكم التي فيها أهاليكم وأولادكم ؛ فيكون للأهل والولد هناك شيء قد أفادهم هذا الرجل الذي له المسكن ، فليس عليه حرج أن يأكل معهم من ذلك الثروت ، أو يكون للزوجة والولد هناك شيء من ملكهم فليس عليه في ذلك حرج .

الرابعة - قوله تعالى : ﴿ أَوْ يُبَيِّنَ آيَاتِكُمْ أَوْ يُبَيِّنَ أَمْرَاتِكُمْ أَوْ يُبَيِّنَ إِخْوَانَكُمْ أَوْ يُبَيِّنَ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ يُبَيِّنَ أَعْمَالَكُمْ أَوْ يُبَيِّنَ عَمَلَاتِكُمْ أَوْ يُبَيِّنَ أَخْوَالَكُمْ أَوْ يُبَيِّنَ خَالَاتِكُمْ ﴾ قال بعض العلماء : هذا إذا أذنوا له في ذلك . وقال آخرون : أذنوا له أول ما يذنبوا فله أن يأكل ؛ لأن القرابة التي بينهم هي إذن منهم . وذلك لأن في تلك القرابة عطفًا تسمح النفوس منهم بذلك المطف أن يأكل هذا من شئهم ويُسروا بذلك إذا علموا . ابن العربي : أباح لنا الأكل من جهة النسب من غير استئذان إذا كان الطعام مبدولاً ، فإذا كان محرماً دونهم لم يكن لهم أخذه ، ولا يجوز أن يمازوا إلى الأذكار ، ولا إلى ما ليس بما كُول وإن كان غير محرر عنهم إلا بإذن منهم .

الخامسة - قوله تعالى : ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْهُم مِّقَاتُهُ ﴾ يعني مما اخترتم وصار في قبضتكم . وعظم ذلك ما ملكه الرجل في بيته وتحت غلقه ؛ وذلك هو ناويل الضحك وقناعة وجهه . وعند جمهور المفسرين يدخل في الآية الكلاء والعبيد والأجراء . قال ابن عباس : غنى وكيل الرجل على ضيعته ، وخازنه على ماله ؛ فيجوز له أن يأكل مما هو قيم عليه . وذكر معمر عن قتادة عن عكرمة قال : إذا ملك الرجل المفتاح فهو خازن ، فلا بأس أن يطعم الشيء البسر . ابن العربي : ولما كان أن يأكل مما يُخزن إجماعاً ؛ وهذا إذا لم تكن له أجرة ، فأما إذا كانت له أجرة على الخزن حرم عليه الأكل . وقرأ سعيد بن جبيرة « مَلَكْتُمْ » بضم الميم وكسر اللام وشدها . وقرأ أيضاً « مِفَاتِيحِهِ » بياء بين التاء والهاء ، جمع مفتاح ؛ وقد مضى في « الأنعام » . وقرأ قتادة « مفتاحه » على الإفراد . وقال ابن عباس : نزلت هذه الآية في الحارث ابن عمرو ، خرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم غازياً وخلف مالك بن زيد على أهله ، فلما رجع وجده مجهوداً فسأله عن حاله فقال : تمزجت أن آكل من طعامك بنير إذنك ؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية . السادسة - قوله تعالى : ﴿ أَوْ صَدِيقَكُمْ ﴾ الصديق بمعنى الجمع ، وكذلك المدوّ ؛ قال الله تعالى : « فَانْتَبِهْ صَدُوقِي » . وقال جرير :

دَعَوْنِ الْمَسْوِي شِمَ آرْتَمِينَ قُلُوبِنَا هـ بِأَسْمَاءِ أَعْلَاءِ وَهْنِ صَدِيقُ

والصديق من يصدقك في موذنه وتصدق في موذك . ثم قيل : إن هذا منسوخ بقوله « لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ<sup>(١)</sup> » ، وقوله تعالى : « فَإِنْ لَمْ يَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا » الآية ، وقوله عليه السلام : « لَا يَحِلُّ مَالُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِطَبِيعَةِ نَفْسٍ مِنْهُ » .  
وقيل : هي محكمة ، وهو أصح . ذكر محمد بن ثور عن معمر قال : دخلت بيت قتادة فأبصرت فيه رطباً فجعلت آكله ، فقال : ما هذا ؟ فقلت : أبصرت رطباً في بيتك فأكلت ، قال : أحسنت ، قال الله تعالى : « أَوْصِيكُمْ<sup>(٢)</sup> » . وذكر عبد الزقاق عن معمر عن قتادة في قوله « أَوْصِيكُمْ<sup>(٣)</sup> » قال : إذا دخلت بيت صديق من غير مؤامرتة لم يكن بذلك بأس . وقال معمر قلت لقتادة : ألا أشرب من هذا الحب ؟ قال : أنت لي صديق ! فما هذا الاستئذان . وكان صلى الله عليه وسلم يدخل حائط أبي طلحة المسمى ببيرحا ويشرب من ماء فيها طيب بغير إذنه ، على ما قاله علماءنا ، قالوا : والماء متملك لأهله . وإذا جاز الشرب من ماء الصديق بغير إذنه جاز الأكل من ثماره وطعامه إذا علم أن نفس صاحبه تطيب به لتفاحته ويسير مؤنته . أولاً بينهما من المودة . ومن هذا المعنى إطعام أُمِّ حرام له صلى الله عليه وسلم إذ نام عندها ؛ لأن الأكل غالب أن ما في البيت من الطعام هو للرجل ، وأن يد زوجته في ذلك عارية .  
وهذا كله مالم يتخذ الأكل خُبنة<sup>(٤)</sup> ، ولم يقصد بذلك وقاية ماله ، وكان تأنفها يسيراً .

السابعة - قرن الله عز وجل في هذه الآية الصديق بالقرابة المحضة الوكيدة ، لأن قرب المودة لصيق . قال ابن عباس في كتاب النقاش : الصديق أوكد من القرابة ؛ ألا ترى استغاثة الجهميين « قَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ . وَلَا صِدِّيقِي حِمِيمٍ<sup>(٥)</sup> » .  
قلت : ولهذا لا تجوز عندنا شهادة الصديق لصديقه ، كما لا تجوز شهادة القريب لقريبه .  
وقد مضى بيان هذا والعلة فيه في « النساء » . وفي المثل « أيهم أحب إليك أخوك أم صديقك » قال : أنى إذا كان صديق .

(١) آية ٥٣ سورة الأحزاب . (٢) الحب (بضم الحاء المهملة) : المرة الضخمة ، والخاصية . وقال ابن دريد : هو الذي يحل فيه الماء ؛ لم يتوهمه . (٣) راجع الكلام على شيطها في معجم البلدان لابن قوت . (٤) الخبنة : مسطوف الإزار وطرف الثوب ؛ أي لأياحه منه في ثوبه . (٥) آية ١٠٠ سورة الشعراء . (٦) راجع ج ١ ص ١٠ وما بعدها .



الثامنة - قوله تعالى : ( لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ) قيل : إنما نزلت في بني ليث بن بكر ، وهم حتى من بني كنانة ، كان الرجل منهم لا يأكل وحده ويمكث أياما جائعا حتى يميد من يؤاكله . ومنه قول بعض الشعراء :

إذا ما صنعت الزاد فالتقي له • أَيْكَلًا فإني لست آكله وَحْدِي

قال ابن عطية : وكانت هذه السيرة موروثة عندهم عن إبراهيم صلى الله عليه وسلم ، فإنه كان لا يأكل وحده . وكان بعض العرب إذا كان له ضيف لا يأكل إلا أن يأكل مع ضيفه ؛ فنزلت الآية مبينة سنة الأكل ، ومذهبة كل ما خالفها من سيرة العرب ، ومبيحة من أكل المنفرد ما كان عند العرب محرما ، نحت به نحو كرم الخلق ، فأفرطت في إلزامه ، وإن إحصاء الأكل لحسن ، ولكن بالأحرى المنفراد .

التاسعة - قوله تعالى : ( جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ) «جميعا» نصب على الحال . و«أشتاتا» جمع شَتَّ ، والشَّتُّ المصدر بمعنى التفرق ؛ يقال : شَتَّ القوم أى تفرقوا . وقد ترجم البخارى في صحيحه ( باب - ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ) الآية . و( التَّهْدُ والاجتماع ) . ومقصوده فيما قاله علماؤنا في هذا الباب : إباحة الأكل جميعا وإن اختلفت أحوالهم في الأكل . وقد سوغ النبي صلى الله عليه وسلم ذلك ، فصارت تلك سنة في الجماعات التى تدعى إلى الطعام في التَّهْدِ والولائم وفي الإملاق في السفر . وما ملكت مفاتيحه بأمانة أو قرابة أو صداقة فلك أن تأكل مع القريب أو الصديق ووحده . والتَّهْدُ : ما يجمعه الرضاء من مال أو طعام على قدر في الثقة ينفقونه بينهم ؛ وقد تناهدوا عن صاحب العين . وقال ابن دُرَيْد : يقال من ذلك : تناهد القوم لشيء بينهم . **المحرورى :** وفي حديث الحسن «أخرجوا تهديكم فإنه أعظم للبركة وأحسن لأخلاقكم» . التَّهْدُ : ما تخرجه للرفقة عند المناجدة ؛ وهو استقسام الثقة بالسوية في السفر وغيره . والعرب تقول : هات تهديك بكسر التون . قال المهلب : وطعام التَّهْدِ لم يوضع للآكلين على أنهم يأكلون بالسواء ، وإنما يأكل كل واحد على قدر تهنته ، وقد يأكل الرجل أكثر من غيره . وقد قيل : إن

زكها أشبه بالورع . وإن كانت الرقة تجتمع كل يوم على طعام أحدهم فهو أحسن من التهد ؛ لأنهم لا يتأهلون إلا ليصيب كل واحد منهم من ماله ، ثم لا يدري لعل أحدهم يقصر عن ماله ، وياكل غيره أكثر من ماله ؛ وإذا كانوا يوما عند هذا ويوما عند هذا بلا شرط فإما يكونون أضيافا والضياف يأكل يطيب نفس مما يقدم إليه . وقال أيوب السخني : إنما كان التهد أن القوم كانوا يكونون في السفر فيسقي بعضهم إلى المتزل فيذبح ويبي الطعام ثم يأتيهم ، ثم يسبق أيضا إلى المتزل فيفعل مثل ذلك ؛ فقالوا : إن هذا الذي تصنع كئنا نحب أن تصنع مثله فتعالوا نجعل بيتنا شيئا لا يتفضل بعضنا على بعض ، فوضوا التهد بينهم . وكان الصلحاء إذا تهادوا تحزى أفضلهم أن يزيد على ما يخرج به أصحابه ؛ وإن لم يرضوا بذلك منه إذا علموه فله سرا دونهم .

العاشر - قوله تعالى : ( فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ كَذَلِكَ بَيِّنَ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ) اختلف المتأولون في أي البيوت أراد ؛ فقال إبراهيم النخعي والحسن : أراد المساجد ؛ والمعنى : سلموا على من فيها من ضيفكم . فإن لم يكن في المساجد أحد فالسلام أن يقول المرء : السلام على رسول الله . وقيل : يقول السلام عليكم ؛ يريد الملائكة ، ثم يقول : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . وذكر عبد الزاق أخبرنا معمر عن عمرو بن دينار عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : « فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ » الآية ، قال : إذا دخلت المسجد فقل السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . وقيل : المراد بالبيوت البيوت المسكونة ؛ أي فسلموا على أنفسكم . قاله جابر بن عبد الله وابن عباس أيضا وعطاء بن أبي رباح . وقالوا : يدخل في ذلك البيوت غير المسكونة ، ويسلم المرء فيها على نفسه بأن يقول : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . قال ابن العربي : القول بالعموم في البيوت هو الصحيح ، ولا دليل على التخصيص ؛ وأطلق القول ليدخل تحت هذا العموم كل بيت كان للغير أو لنفسه ، فإذا دخل بنا لغيره استأذن كما هتم ، فإذا دخل بيتا لنفسه سلم كما ورد في الخبر ، يقول : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ؛ قاله ابن عمر . وهذا إذا كان فارغا ، فإن كان فيه أهله وخمسه

فليقل : السلام عليكم . وإن كان مسجدا فليقل : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين .  
وعليه حمل ابن عمر البيت الفارغ . قال ابن العربي : والذي أحاطه إذا كان البيت فارغا  
الآيتم السلام ، فإنه إن كان المقصود الملائكة فالملائكة لا تخاف البعد بحال ، أما إنه  
إذا دخلت بيتك يستحب لك ذكر الله بأن تقول : ما شاء الله لا قوة إلا بالله . وقد فهم  
في سورة « الكهف » . وقال التفسير في قوله « إذا دخلتم بيوتا » : والأوجه أن يقال  
إن هذا عام في دخول كل بيت ، فإن كان فيه ساكن مسلم يقول السلام عليكم ورحمة الله  
وبركاته ، وإن لم يكن فيه ساكن يقول السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، وإن كان  
في البيت من ليس بمسلم قال السلام على من أتبع الهدى ، أو السلام علينا وعلى عباد الله  
الصالحين . وذكر ابن خزيمة متنادا قال : كتب إلى أبو العباس الأصم قال حدثنا محمد بن  
عبد الله بن عبد الحكم قال حدثنا ابن وهب قال حدثنا جعفر بن مسيرة عن زيد بن أسلم  
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إذا دخلتم بيوتا فسلموا على أهلها وأذكروا اسم الله  
فإن أحذكم إذا سلم حين يدخل بيته وذكر اسم الله تعالى على طعامه يقول الشيطان لأصحابه  
لا ميت لكم ها هنا ولا عشاء وإذا لم يسلم أحذكم إذا دخل ولم يذكر اسم الله على طعامه قال  
الشيطان لأصحابه أدركم الميت والعشاء " .

قلت : هذا الحديث ثبت معناه مرفوع من حديث جابر ، أخرجه مسلم . وفي كتاب  
أبي داود عن أبي مالك الأشجعي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا وُجِعَ الرجل  
بيته فليقل اللهم إني أسألك خير الوُجُوح وخير الخُروج باسم الله ولحنا وباسم الله نخرجنا وعلى  
الله ربنا توكلنا ثم يسلم على أهله " .

الحادية عشرة — قوله تعالى : ( تَحِيَّاتٌ ) مصدر ؛ لأن قوله « فسلموا » معناه تحيوا .  
وصفها بالبركة لأن فيها الدعاء واستجلاب مودة المسلم عليه . ووصفها أيضا بالطيب لأن  
سامعها يستطيها . والكاف من قوله « كذلك » كاف تشبيه . و « ذلك » إشارة إلى هذه  
السنن ؛ أي كما بين لكم سنة دينكم في هذه الأشياء يبين لكم سائر ما بكم حاجة إليه في دينكم ،

(١٥) راجع ١٠٦ ص ٤٠ : (٢) كذا في الأصول . وقد ورد في هذا الحديث في كتب الأدب  
المعروفين من رواية جابر .

قوله تعالى : **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ** إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَفْتُونَكَ **أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَفْتَوْكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : **﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ ﴾** فيه مائلتان :

الأولى - قوله تعالى : **﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ ﴾** « إِنَّمَا » في هذه الآية للحصر ، المعنى : لا يتم ولا يكمل إيمان من آمن بالله ورسوله إلا بأن يكون من الرسول سامعا غير معنت في أن يكون الرسول يريد له كمال أمر فيريد هو إفساده بزواله في وقت الجمع ، ونحو ذلك . وبين تعالى في أول السورة أنه أنزل آيات بينات ، وإنما النزول على عهد صل الله عليه وسلم ، فخم السورة بتأكيد الأمر في متابعتها عليه السلام ، يعلم أن أوامره كأوامر القرآن .

الثانية - وأخطف في الأمر الجامع ما هو ؛ فقيل : المراد به ما للإمام من حاجة إلى جمع الناس فيه لإنفاة مصلحة ، من إقامة سنة في الدين ، أو لترهيب عدو باجتماعهم وللمحروب ؛ قال الله تعالى : **« وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ »** . فلذا كان أمر يشملهم فعه وضره جمعهم للتشاور في ذلك . والإمام الذي يترقب إذنه هو إمام الإمرة ، فلا يذهب أحد لعذر إلا بإذنه ، فلذا ذهب بإذنه ارتفع عنه الظن السيئ . وقال مكحول والزهري : الجمعة من الأمر الجامع . وإمام الصلاة ينبغي أن يستأذن إذا قدمه إمام الإمرة ، إنا كان يرى المستأذن . قال ابن سيرين : كانوا يستأذنون الإمام على المنبر ؛ فلما كثر ذلك قال زياد : من جبل يده على فيه فلخرج دون إذن ، وقد كان هذا بالمدينة . حتى أن سهل بن أبي صالح رآه يوم الجمعة فاستأذن الإمام . وظاهر الآية يقتضي أن يستأذن أمير الإمرة الذي هو في مقصد النبوة ، فإنه ربما كان له رأى في حبس ذلك الرجل لأمر من أمور الدين . فأما إمام الصلاة فقط

فليس ذلك إليه؛ لأنه وكل على جزء من أجزاء العين الذي هو في مقعد النبوة . وروى أن هذه الآية نزلت في حفر الخندق حين جاءت قريش وقائدها أبو سفيان، وغلطان وقائدها عتبة بن حصن؛ فضرب النبي صلى الله عليه وسلم الخندق على المدينة، وذلك في شوال سنة خمس من الهجرة، فكان المناقون يسألون لؤدًا من العمل ويتذرون بأعداء كاذبة . ونحوه روى أشهب وابن عبد الحكم عن مالك، وكذلك قال محمد بن إسحاق . وقال مقاتل : نزلت في عمر رضى الله عنه ، استأذن النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك في الرحلة فأذن له وقال : " اطلق فواءه ما أنت بمناسق " يريد بذلك أن يُسمع المناقنين . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : إنما استأذن عمر رضى الله عنه في العمرة فقال عليه السلام لما أذن له : " يا أبا حفص لا تنسنا في صالح دعائك " .

قلت : والصحيح الأول لتناوله جميع الأقوال . واختار ابن العربي ما ذكره في نزول الآية عن مالك وابن إسحاق ، وأن ذلك مخصوص في الحرب . قال : والذي يبين ذلك أمران : أحدهما - قوله في الآية الأخرى : « قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْأَلُونَ مِنْكُمْ لَوْ آذَنَّا » . وذلك أن المناقنين كانوا ينتدزون ويخرجون عن الجماعة ويتركون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمر الله جميعهم ألا يخرج أحد منهم حتى يأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وبذلك يتبين إيمانه .

الثاني - قوله « لَمْ يَدْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ » وأى - إذن في الحدث والإمام مخاطب ، وليس للإمام خيار في منعه ولا إبقائه ، وقد قال « فَأَذْنُ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ » ؛ فبين بذلك أنه مخصوص في الحرب .

قلت : القول بالمعوم أولى وأرفع وأحسن وأعل . « فَأَذْنُ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ » فكان النبي صلى الله عليه وسلم بالتأخير إن شاء أن يأذن وإن شأه منع . وقال قتادة : قوله « فَأَذْنُ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ » مملوحة بقوله « عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَمْ » . « ( وَاسْتَغْفِرَ لَهُمُ اللَّهُ ) » أى لخروجهم من الجماعة إن طمت لهم عذرا . « ( إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ) » .

قوله تعالى : لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا  
 قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلُونَ مِنْكُمْ لَوْ آذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ  
 أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : ( لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ) يريد : يصبح من  
 بيد : يا أبا القاسم ! بل عظموه كما قال في المحررات « إِنَّ الَّذِينَ يَعْضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ »  
 الآية . وقال سعيد بن جبير ونجاح : المعنى قولوا يا رسول الله ، في رفق ولين ، ولا تقولوا  
 يا محمد بتجهم . وقال قتادة : أمرهم أن يشرفوه ويفخموه . ابن عباس : لا تعرضوا لدعاء  
 الرسول عليكم بإسقاطه فإن دعوته موجبة . ( قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلُونَ مِنْكُمْ لَوْ آذًا ) التسلل  
 والانسلاخ : الخروج . واللواذ من الملازمة ، وهي أن تستدب شيئا مخافة من يراك ، فكان  
 المنافقون يستلّون عن صلاة الجمعة . « لَوْ آذًا » مصدر في موضع الحال ؛ أي متلاذين ،  
 أي يلوذ بعضهم ببعض ، ينضم إليه استناراً من رسول الله صل الله عليه وسلم ، لأنه لم يكن  
 على المنافقين أقل من يوم الجمعة وحضور الخطبة ؛ حكاية القماش ، وقد مضى القول فيه .  
 وقيل : كانوا يستلّون في الجهاد رجوعاً عنه يلوذ بعضهم ببعض . وقال الحسن : لو آذا  
 فرأوا من الجهاد ؛ ومنه قول حسان :

وقريش تجبول منا لؤذا \* لم تحافظ وخف منها الخلو

ومحت وأوما لتحركها في لؤذا . يقال : لاوذ بلاء ملازمة ولؤذا . ولاد بلود [ لؤذا ]  
 ولؤذا ؛ أهلبت الواو يا . لا نكار ما قبلها اتباعاً للاذ في الأغلال ؛ فإذا كان مصدر فاعل  
 لم يُمل ؛ لأن فاعل لا يجوز أن يُمل .

قوله تعالى : ( فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ) بهذه الآية احتج الفقهاء على أن  
 الأمر على الوجوب . ووجهها أن الله تبارك وتعالى قد حذر من مخالفة أمره ، وتوعد

(١) آية ٢ (٢) في الأصول : « منك » وتصوب عن الهيواد ، والرواية فيه :

ولرسول حمزة منا لؤذا \* لم يقيروا وخف منها الحرم

بالعقاب عليها بقوله : ( أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ مَذَابٌ أَلِيمٌ ) فحرم مخالفتها ، فيجب امتثال أمره . والفتنة هنا القتل ؛ قاله ابن عباس . عطاء : الزلازل والأهوال . جعفر بن محمد : سلطان جائر سَلَطَ عليهم . وقيل : الطبع على القلوب بشؤم مخالفة الرسول . والضمير و « أَمْرِهِ » قيل هو عائد إلى أمر الله تعالى ؛ قاله يحيى بن سلام . وقيل : إلى أمر رسوله عليه السلام ؛ قاله قتادة . ومعنى « يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ » أى يُرْضَوْنَ عَنْ أَمْرِهِ . وقال أبو عبيدة والأخفش : « عن » فى هذا الموضع زائدة . وقال الخليل وسيبويه : ليست بزائدة ؛ والمعنى : يخالفون بعد أمره ؛ كما قال :

« ... لَمْ تَتَّقِ عَنْ تَقْضِيلٍ »

ومنه قوله : « فَتَسْقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ » أى بعد أمر ربه . و« أن » فى موضع نصب به يحذر . ولا يجوز عند أكثر النحويين حذر زيدا ، وهو فى « أن » جائز ؛ لأن حروف الخفض تخفف معها .

قوله تعالى : أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ رُجْعُونَ إِلَيْهِ فِىُنْبِتُهُمْ مِمَّا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾  
قوله تعالى : ( أَلَا إِنَّ فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ) خلقا وملاكا . ( قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ ) فهو يجازيكم به . و« يعلم » هنا بمعنى علم . ( وَيَوْمَ رُجْعُونَ إِلَيْهِ ) بعد ما كان فى خطاب رجوع فى خبر ؛ وهذا يقال له : خطاب التلوين . ( فِىُنْبِتُهُمْ مِمَّا عَمِلُوا ) أى يجزيهم بأعمالهم ويجازيهم بها . ( وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ) من أعمالهم وأحوالهم .

ختمت السورة بما تضمنت من التفسير ، والحمد لله على التيسير .

(١) هذا من صفات امرئ القيس . والبيت بتمامه :

وتضى فئت المك فرق فرائها • شوم الضى لى تنطق عن تنفل



ثم بعون الله تعالى الجزء الثانى عشر من تفسير القرطبى  
يتلو إن شاء الله تعالى الجزء الثالث عشر ، وأوله سورة « الفرقان »





# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## سورة الفرقان

مكية كلها في قول الجمهور . وقال ابن عباس وقادة : إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة ، وهي : « وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ » إلى قوله : « وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا » . وقال الضحاك : هي مدنية ، وفيها آيات مكية ، قوله : « وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ » الآيات .

ومقصود هذه السورة ذكر موضع عظم القرآن ، وذكر مطاعن الكفار في النبوة والرد على مقالاتهم ؛ فمن جعلها قولهم : إن القرآن أقراءه محمد ، وإنه ليس من عند الله .

قوله تعالى : تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ . لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ① الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الْخَزَايِرُ وَلَهُ الْيَمِينُ ② وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا ③ وَأَن تَأْخُذُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوةً وَلَا نُشُورًا ④

قوله تعالى : ( تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ ) « تبارك » آخطف في معناه ؛ فقال الفراء : هو في العربية و « قدس » واحد ، وهما للعظمة . وقال الزجاج : « تبارك » تفاعل من البركة . قال : ومعنى البركة الكثرة من كل ذي خير . وقيل : « تبارك » تلى . وقيل : تعالى عطافه ، أى زاد وكثر . وقيل : المعنى دام وثبت إقامته . قال النحاس : وهذا أولامها في اللغة والأستغراق ؛ من برك الشيء إذا ثبت ؛ ومنه برك الجبل والطير على الماء ، أى دام

وثبت . فاما القول الأول فنخط ؛ لأن التقديس إنما هو من الطهارة وليس من ذاتي شيء .  
قال النبطي : ويقال تبارك الله ، ولا يقال تبارك ولا مبارك ؛ لأنه ينتهي في أسمائه وصفاته  
إلى حيث ورد التوقيف . وقال الطبري :

تباركت لا تميط لشيء منته . وليس لما أعطيت يا رب مانع  
وقال آخر :

• تَبَارَكْتَ مَا تَقْدِرُ بِهِ وَكَ الشُّكْر •

قلت : قد ذكر بعض العلماء في أسمائه الحسنی « المبارك » وذكرناه أيضا في كتابنا .  
فإن كان وقع اتفاق على أنه لا يقال فيسلم للإجماع ، وإن كان وقع فيه اختلاف فكثير من  
الأسماء اختلف في منه ؛ كالعزير وغيره . وقد نبهنا على ذلك هناك ، والحمد لله .

و « الفرقان » القرآن . وقيل : إنه اسم لكل مُتَرَكِّل كما قال : « وَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَرُونَ  
الْفُرْقَانَ » . وفي تسميته فرقانا وجهان : أحدهما — لأنه فرق بين الحق والباطل ، والمؤمن  
والكافر . الثاني — لأن فيه بيان ما شرع من حلال وحرام ؛ حكاية النقاش . ( عَلَى عِبَادِهِ )  
يريد عبدا صلى الله عليه وسلم . ( لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ) اسم « يكون » ضمير يعود على « عبده »  
وهو أولى لأنه أقرب إليه . ويحوز أن يكون يعود على « الفرقان » . وقرأ عبد الله بن الزبير  
« عَلَى عِبَادِهِ » . ويقال : أنذر إذا خُوف ؛ وقد تقدم في أول « البقرة » . والنذر : المحذّر من  
الهلاك . الجوهرى : والنذر المنذر ، والنذر الإنذار . والمراد بـ « الْعَالَمِينَ » هنا الإنس  
والجن ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قد كان رسولا إليهما ، ونذيرا لهما ، وأنه خاتم الأنبياء ،  
ولم يكن غيره عام الرسالة إلا لنوح فإنه عم رسالته جميع الإنس بعد الطوفان ، لأنه بدأ به الخلق .  
قوله تعالى : ( الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ) عظم تعالى نفسه . ( وَلَمْ يَجِدْ وَلَدًا )  
زوجه سبحانه وتعالى نفسه عما قاله المشركون من أن الملائكة أولاد الله ؛ يعنى بنات الله سبحانه  
وتعالى . وعما قالت اليهود : عزير آبن الله ؛ جلّ الله تعالى . وعما قالت النصارى : المسيح  
آبن الله ؛ تعالى الله عن ذلك . ( وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ) كما قال عبدة الأوثان .

(وَمَخْلَقَ كُلِّ شَيْءٍ) لا كما قال المجوس والتَّوَيَّة: إن الشيطان أو الظلمة يخلق بعض الأشياء.. ولا كما يقول من قال: المخلوق قدرة الإيجاد. فالآية رد على هؤلاء. (قَدْرُهُ تَقْدِيرًا) أى قدر كل شيء. مما خلق يحكمه على ما أراد، لا عن سهوة وغفلة، بل جرت المقادير على ما خلق الله إلى يوم القيامة وبعد القيامة، فهو الخالق المقتدر، فإياه فأعبدوه.

قوله تعالى: (وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً) ذكر ما صنع المشركون على جهة التحجيب في اتخاذهم الآلهة، مع ما أظهر من الدلالة على وحدانيته وقدرته. (لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا) بنى الآلهة. (وَهُمْ يُخْلَقُونَ) لما اعتقد المشركون فيها أنها تضر وتنفع، عبر عنها كما يعبر عما يفعل. (وَلَا يَمْلِكُونَ لِنَفْسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا) أى لا دفع ضرر وجلب نفع، لحذف المضاعف. وقيل: لا يقدرون أن يضروا أنفسهم أو ينفعوها بشيء، ولا لمن يبدعهم، لأنها جمادات. (وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا) أى لا يميتون أحدا، ولا يحيونه. والنشور: الإحياء بعد الموت، أنشر الله الموتى فنشروا. وقد تقدم. وقال الأعشى:

حتى يقول الناس مما رأوا • يا عجباً لبيّ الناسير

قوله تعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعْلَاهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آتَمَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلُمًا وَزُورًا) ❶ وَقَالُوا اسْتَطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَكْتَنَّبَهَا فِيهِ تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكَرَةٌ وَأَصِيلًا ❷ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ❸

قوله تعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا) بنى مشركي قريش. وقال ابن عباس: الغائل منهم ذلك الضر بن الحشر، وكذا كل ما في القرآن فيه ذكر الأساطير. قال محمد بن إسحق: وكان مؤذبا للبي صلى الله عليه وسلم. (إِنْ هَذَا) بنى القرآن. (إِلَّا إِنْكَ افْتَرَاهُ) أى كذب آخذه. (وَأَطَاعَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آتَمَرُونَ) بنى اليهود، قاله مجاهد. وقال ابن عباس:

المراد بقوله « قَوْمٌ آخَرُونَ » أبو فُكَيْمَةَ مولى بنى الحضرمي وعداس وجبر، وكان هؤلاء الثلاثة من أهل الكلاب . وقد مضى في « النحل »<sup>(١)</sup> ذكرهم . ( قَدْ جَاءُوا ظُلُمًا ) أى بظلم . وقيل : المعنى فقد أتوا ظلمًا . ( وَزُورًا ) وَقَالُوا أَسَاطِيرَ الْأَوَّلِينَ ) قال الزجاج : واحد الأساطير أسطورة ؛ مثل أهدونة وأحاديث . وقال غيره : أساطير جمع أسطار ؛ مثل أقوال وأقاول . ( أَكْتَبْنَا ) يعنى عدا . ( هِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ ) أى تلقى عليه وتقرأ . ( بُكْرَةً وَأَصِيلًا ) حتى تحفظ . و « تمل » أصله تملأ ؛ فأبدلت اللام الأخيرة ياء من التضعيف ؛ كقولهم : تنقضى البازي ؛ وشبهه

قوله تعالى : ( قُلْ أَتَزِلُّ الَّذِي يَمْلِكُ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ ) أى قل يا عباد أنزل هذا القرآن الذى يعلم السر ، فهو عالم الغيب ، فلا يحتاج إلى معلم . وذكر « السر » دون الجهر ؛ لأنه من علم السر فهو فى الجهر أعلم . ولو كان القرآن مأخوذًا من أهل الكلاب وغيرهم لما زاد عليها ، وقد جاء بنون تخرج عنها ، فليس مأخوذًا منها . وأيضًا ولو كان مأخوذًا من هؤلاء لتمكن المشركون منه أيضًا كما تمكّن محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فهلا عارضوه فبطل اعتراضهم من كل وجه . ( إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ) يريد غفورًا لأوليائه رحيما بهم .

قوله تعالى : وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٨﴾

قوله تعالى : ( وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ) .  
فيه مثلتان :

الأولى - قوله تعالى : « وَقَالُوا » ذكر شيئا آخر من مطاعهم . والضمير فى « قالوا » لقريش ؛ وذلك أنهم كان لهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلس مشهور ، وقد تقدم (١) راجع جـ ١٠ ص ١٧٧ وما بعدها طبعه أول أو ثالثة :

في « سبحان » . ذكره ابن إسحق في السيرة وغيره . مضمته - أن سادتهم عتبة بن ربيعة وغيره اجتمعوا معه فقالوا : يا عبد ! إن كنت تحب الرئاسة وليك علينا ، وإن كنت تحب المال جمعنا لك من أموالنا ؛ فلما أبى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك رجعوا في باب الاحتجاج معه فقالوا : ما بالك وأنت رسول الله تأكل الطعام ، وتقف بالأسواق ! فيعبروه بأكل الطعام ؛ لأنهم أرادوا أن يكون الرسول ملكاً ، وعبروه بالمشي في الأسواق حين رأوا الأكاسرة والقباصرة والملوك الجبابرة يترفعون عن الأسواق ، وكان عليه السلام يخالفهم في أسواقهم ، ويأمرهم وينهاهم ؛ فقالوا : هذا يطلب أن يتملك علينا ، فإله يخالف سيرة الملوك ؛ فاجابه الله بقوله ، وأتزل على نبيه : « وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا أَنْهُمْ لِيَاكُونُوا الْعِلَامَ وَيَتَشَوْا فِي الْأَسْوَاقِ » فلا تتم ولا تحزن ، فإنها شكاية ظاهر عتك عارها .

الثانية - دخول الأسواق مباح للتجارة وطلب الماش . وكان عليه السلام يدخلها لحاجته ، ولتذكرة الخلق بأمر الله ودعوته ، ويعرض نفسه فيها على القبائل ، لعل الله أن يرجع بهم إلى الحق . وفي البخاري في صفته عليه السلام : « ليس بفطن ولا غليظ ولا حطاب في الأسواق » وقد تقدم في « الأعراف »<sup>(٢)</sup> . وذكر السوق المذكور في غير ما حديث ، ذكره أهل الصحيح . وتجارة الصحابة فيها معروفة ، وخاصة المهاجرين ؛ كما قال أبو هريرة : وإن إخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق ؛ نخرجه البخاري . وسيأتي لهذه المسئلة زيادة بيان في هذه السورة إن شاء الله .

قوله تعالى : ( تَوَلَّا أَنْزَلَ إِلَيْنَا مَكَ ) أى هلا . ( فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ) جواب الاستفهام . ( أَوْ يُلْقَى ) في موضع رفع ؛ والمعنى : أو هلا يلقي ( إِلَيْنَا كَثْرًا ) ( أَوْ ) هلا ( تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ بِأَكْلٍ مِنْهَا ) « يأكل » بالياء قرأ المدنيون وأبو عمرو وطاعم . وقرأ سائر الكوفيين بالنون ، والقرءان حستان تَوَدَّانِ عن معنى ، وإن كانت القرءاة بالياء آيين ؛ لأنه

(١) راجع - ١٠ ص ٣٢٨ طبة أول أو ثمانية . (٢) راجع - ٧ ص ٢٩٩ طبة أول أو ثمانية .

(٣) الصفق : التبايع .

قد تقدم ذكر النبي صلى الله عليه وسلم وحده فإن يمود الضمير عليه أين ؛ ذكره النحاس .  
 ﴿ وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴾ تقدم في « سبحان » والفاصل عبد الله بن  
 الزبيري فيما ذكره الماوردي .

قوله تعالى : أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ  
 سَبِيلًا ﴿١٠﴾ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ  
 تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ ﴾ أى ضربوا لك هذه الأمثال ليتوصلوا  
 إلى تكذيبك . ﴿ فَضَلُّوا ﴾ عن سبيل الحق وعن بلوغ ما أرادوا . ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾  
 إلى تصحيح ما قالوه فيك .

قوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ ﴾ شرط ومجازاة ،  
 ولم يدغم « جَعَلَ لَكَ » لأن الكلمتين منفصلتان ، ويجوز الإدغام لاجتماع المثنيين . ﴿ وَيَجْعَلُ  
 لَكَ ﴾ في موضع نجزم عطفا على موضع « جعل » . ويجوز أن يكون في موضع رفع مقطوعا  
 من الأول . وكذلك قرأ أهل الشام . ويروى عن عاصم أيضا « وَيَجْعَلُ لَكَ » بالرفع ؛  
 أى وسيجعل لك في الآخرة قصورا . قال مجاهد : كانت قريش ترى البيت من حجارة قصرا  
 كأنها ما كان . والقصر في اللغة الحبس ، وسمى القصر قصرا لأن من فيه مقصور عن أن يوصل  
 إليه . وقيل : العرب تسمى بيوت الطين القصر . وما يتخذ من الصوف والشعر البيت .  
 حكاة القشيري . وروى سفيان عن حبيب بن أبي ثابت عن خزيمة قال : قيل للنبي صلى الله  
 عليه وسلم : إن شئت أن نعطيك خزائن الدنيا ومفاتيحها ولم يسل ذلك من قبلك ولا يعطاه  
 أحد بعدك ، وليس ذلك يناقصك في الآخرة شيئا ؛ وإن شئت جمعنا لك ذلك في الآخرة ؛  
 فقال : « يجمع ذلك لي في الآخرة » فأنزل الله عز وجل « تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا

مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْمَعُ لَكَ قُصُورًا . . . و يروى أن هذه الآية أنزلها  
 رضوان حازن الجنان إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي الخبر : إن رضوان لما نزل سلم على النبي  
 صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : يا محمد ! رب العزة يقرئك السلام ، وهذا سقط <sup>(١)</sup> — فإذا سقط  
 من نور يتلأل — يقول لك ربك : هذه مفاتيح خزائن الدنيا ، مع أنه لا ينقص مالك في حرفة  
 مثل جناح بموضة ، فنظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى جبريل كالستدير له ، فضرب جبريل  
 بيده الأرض يسير أن تواضع ، فقال : ” يا رضوان لا حاجة لي فيها الفقر أحب إلى وأن  
 أكون عبدا صابرا شكورا “ . فقال رضوان : أصبت ! الله لك . وذكر الحديث .

قوله تعالى : **بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا** ﴿١١﴾  
**إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَّانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا** ﴿١٢﴾ **وَإِذَا أَلْقَا**  
**مِنْهَا مَكَّانًا ضَيْقًا مَقْرِنِينَ دَعَوْا هُنَاكَ ثُبُورًا** ﴿١٣﴾ **لَا تَدْعُوا أَلْيَوْمَ**  
**ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا** ﴿١٤﴾

قوله تعالى : **( بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ )** يريد يوم القيامة . **( وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ**  
**سَعِيرًا )** يريد جهنم تتلظى عليهم . **( إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَّانٍ بَعِيدٍ )** أى من مسيرة خمسمائة عام .  
**( سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا )** قيل : المعنى إذا رأتهم جهنم سمعوا لها صوت التنظير عليهم .  
 وقيل : المعنى إذا رأتهم خزائنها سمعوا لهم تنظيرًا وزفيرًا حرصًا على عذابهم . والأقول أصح ؛  
 لما روى مرفوعا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ” من كذب على متعمدا فليتبوأ  
 بين عيني جهنم مقعدا “ قيل : يا رسول الله ! ولها عيان ؟ قال : ” أما سمعت الله عز وجل  
 يقول : « إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَّانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا » يخرج عُنًى من النار له عيان  
 تبصران ولسان ينطق فيقول وكَلَّتْ بكل من جمل مع الله إنما آخر ظهروا أبصرهم من العبد  
 بحسب السمسم فيلغظه “ في رواية ” فيخرج عُنًى من النار فيلغظه الكفار لقط الطائر حب

(١) السقط : الذى يبي فيه الحبيب وما أشبه من أدوات النساء . وقيل : كالجملات .

السمسم " ذكره رزين في كتابه ، وصححه ابن العربي في قيسه ، وقال : أى تفصلهم عن الخلق في المعرفة كما يفصل الطائر حب السمسم من التربة . وخرجه الترمذى من حديث أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . " يخرج عنى من النار يوم القيامة له عينان تبصران : سمعان ولسان ينطق بقول أبى وكُلت بثلاث بكل جبار عنيد وبكل من دعا مع الله إلها آخر والمصورين " . وفى الباب عن أبى سعيد قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب صحيح . وقال الكلبي : سمعوا لها تغيطا كتنيط بنى آدم وصوتها كهووت الحمام . وقيل : فيه تقديم وتأخير ، سمعوا لها زفيرا وعلما لها تنيطا . وقال قطرب : التنيط لا يسمع ، ولكن يرى ، والمعنى : راوا لها تغيطا وسمعوا لها زفيرا ، كقول الشاعر :

ورأيت زوجك في الورى • متغللدا مسيقا ورُحيا

أى وحائلا رعا . وقيل : « سمعوا لها » أى فيها ، أى سمعوا فيها تغيطا وزفيرا للعددين . كما قال تعالى : « لَمْ يَهَيِّأْ لَهُمْ فِيهَا زَوْجٌ وَشَيْقٌ » و « فى واللام » يتقاربان ، تقول : أفضل هذا فى الله وقته .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ ﴾ قال قتادة : ذكر لنا أن عبد الله كان يقول : إن جهنم لتضيق على الكافر كتنضيق الزج على الزجاج ، ذكره ابن المبارك فى رقايقه . وكذا قال ابن عباس ، ذكره الثعلبي والفشيري عنه ، وحكاه الماوردى عن عبد الله بن عمرو . ومعنى « مُقَرَّنِينَ » مكتفين ، قاله أبو صالح . وقيل : مصفدين قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم فى الأغلال . وقيل : قروا مع الشياطين ، أى قرن كل واحد منهم إلى شيطانه ، قاله يحيى بن سلام . وقد مضى هذا فى « إبراهيم » وقال عمرو بن كلثوم :

فأبوا بالنَّهَابِ وبالسَّيْبَاءِ • وأبنا بالمُلُوكِ مُقَرَّنِينَ<sup>(٢)</sup>

﴿ دَعَا هَٰذَاكَ ثُورًا ﴾ أى هلاكاً ، قاله الضحاك . ابن عباس : ولا . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أول من يقوله إبليس وذلك أنه أول من يكسى حلة من النار

(١) الزج (الضم) : الحديدة التى فى أسفل الزج . (٢) راجع ج ٩ ص ٣٨٤ طبعة أملا أو ثانية .

(٣) الرواية فى البيت : « مصفديا » .



فتوضع على حاجبيه ويسحبها من خلفه وفريته من خلفه وهو يقول وثابروا . " . وانتصب على المصدر، أى ثبنا ثبورا؛ قاله الزجاج . وقال غيره : هو مفعول به .

قوله تعالى : ( لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ) فإن حلاكم أكثر من أن تدعوا مرة واحدة . وقال ثبورا لأنه مصدر يقع للقليل والكثير فلذلك لم يجمع؛ وهو كفولك : ضربته ضربا كثيرا، وقصد قصودا طويلا . وزلت الآيات في ابن خنبل وأصحابه .

قوله تعالى : قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ<sup>٩</sup> كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا<sup>١٠</sup> لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خُلْدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْفُورًا<sup>١١</sup>

قوله تعالى : ( قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ ) . إن قيل : كيف قال « أَذَلِكَ خَيْرٌ » ولا خير في النار ؛ فالجواب أن سيويه حكى عن العرب : الشقاء أحب إليك أم السعادة ، وقد علم أن السعادة أحب إليه . وقيل : ليس هو من باب أفضل منك ، وإنما هو كفولك : عنده خير . قال النحاس : وهذا قول حسن ؛ كما قال<sup>١٢</sup> .  
« فشر كما لخير كما الفداء » .

قيل : إنما قال ذلك لأن الجنة والنار قد دخلتا في باب المنزل ؛ فقال ذلك لتفاوت ما بين المتقين . وقيل : هو مردود على قوله : « تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ » الآية . وقيل : هو مردود على قوله : « أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَثرٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا » . وقيل : إنما قال ذلك على معنى علمكم واعتقادكم أنها الكفار ؛ وذلك أنهم لما كانوا يعملون عمل أهل النار صاروا كأنهم يقولون إن في النار خيرا .

قوله تعالى : ( لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ ) أى من النعم . ( خُلْدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْفُورًا ) قال الكلبي : وعد الله المؤمنين الجنة جزاء على أعمالهم ، فسألوه ذلك الوعد فقالوا : « رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ » . وهو معنى قول ابن عباس . وقيل : إن الملازمة تسأل لم

(١) هو حسان بن ثابت - رضي الله عنه - يمدح النبي صلى الله عليه وسلم ويحجج بأصحابه ،  
ومصدر البيت :  
« أتبهروا ولست له بكف » .

الجنة؛ دليله قوله تعالى : « رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ » الآية . وهذا قول محمد بن كعب القرظي . وقيل : معنى « وَعَدًا مَسْئُولًا » أى واجبا وإن لم يكن يسأل كالتدين ؛ حكى عن العرب : لأعطيك ألفا . وقيل : « وَعَدًا مَسْئُولًا » ببنى أنه واجب لك قتالها . وقال زيد بن أسلم : سألوا الله الجنة في الدنيا ورجعوا إليه بالدعاء ، فاجابهم في الآخرة إلى ما سألوا وأعطاهم ما طلبوا . وهذا يرجع إلى القول الأول .

قوله تعالى : وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿٧﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ مَا كَانَ يُنَبِّئُنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَا تَسْتَطِبُّونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمِ مَسْكْرًا نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿٩﴾

قوله تعالى : ( وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ ) قرأ ابن محيصن وحيد وابن كثير وحفص و يعقوب وأبو عمرو في رواية الدوري « يَحْشُرُهُمْ » بالياء . واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ؛ لقوله في أول الكلام « كَانَ عَلَى رَبِّكَ » وفي آخره « أَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ » . الباقون بالنون على التعظيم . ( وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ) من الملائكة والإنس والجن والمسح وعزير ؛ قاله مجاهد وابن جريج . الضحك وعكرمة : الأصنام . ( فَيَقُولُ ) قراءة العامة بالياء وهو اختيار أبي عبيد وأبي حاتم . وقرأ ابن عامر وأبو حيوة بالنون على التعظيم . ( أَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ) وهذا استنفاهم توبيخ للكفار . ( قَالُوا سُبْحَانَكَ ) أى قال المعبودون من دون الله سبحانه ؛ أى عجزا لك ( مَا كَانَ يُنَبِّئُنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ ) . فإن قيل : فإن كانت الأصنام التى تعبد تحشر فكيف تنطق وهى جماد ؟ قيل له : ينطقها الله تعالى يوم القيامة كما ينطق الأيدي والأرجل . وقرأ الحسن وأبو جعفر « أَنْ تُنْقَضَ » بضم النون وقطع الخاء على الفعل المجهول . وقد تكلم في هذه القراءة النحويون ؛ فقال أبو عمرو بن الملاء وعيسى بن عمر :

لا يجوز « تُخَذَّ » . وقال أبو عمرو : لو كانت « تُخَذَّ » لحذفت « من » الثانية فقلت أن  
 تُخَذَّ من دونك أولياء . كذلك قال أبو عبيدة : لا يجوز « تُخَذَّ » لأن الله تعالى ذكر « من »  
 مرتين ، ولو كان كما قرأ قال : أن تُخَذَّ من دونك أولياء . وقيل : إن « من » الثانية صلة ،  
 قال النحاس : ومثل أبي عمرو على جلالة وعمله يستحسن ما قال ؛ لأنه جاء بيته . وشرح  
 ما قال أنه يقال : ما اتخذت رجلا وليا ؛ فيجوز أن يقع هذا للواحد بيته ؛ ثم يقال :  
 ما اتخذت من رجل وليا فيكون نفيًا عامًا ، وقولك « وليا » تابع لما قبله فلا يجوز أن تدخل  
 فيه « من » لأنه لا فائدة في ذلك . ( وَلَكِنْ مَتَّعْتُهُمْ وَأَبَاسَهُمْ ) أى فى الدنيا بالصحة والغنى وطول  
 العمر بعد موت الرسل صلوات الله عليهم . ( حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ ) أى تركوا ذكرك فأنشروا بك  
 بطرا وجهلا فيبدوننا من غير أن أمرناهم بذلك . وفى الذكر قولان : أحدهما — القرآن المتزل على  
 الرسل ؛ تركوا العمل به ؛ قاله ابن زيد . الثانى — الشكر على الإحسان إليهم والإنعام عليهم . إنهم  
 ( كَانُوا قَوْمًا بُورًا ) أى هلكى ؛ قاله ابن عباس . مأخوذ من البوار وهو الهلاك . وقال أبو الدرداء  
 رضى الله عنه وقد أشرف على أهل حمص : يا أهل حمص ! هلم إلى أخ لكم ناصح ، فلما اجتمعوا  
 حوله قال : ما لكم لا تستنحون ! تبثون مالا تسكنون ، وتجمعون مالا تأكلون ، وتأملون  
 مالا تتركون ، إن من كان قبلكم بنوا مشيدا وجعوا عيدا وأملوا بيذا ، فأصبح جمهم بورا ،  
 وآمالهم غرورا ، ومساكنهم قبورا ؛ فقوله « بورا » أى هلكى . وفى خبر آخر : فأصبحت  
 منازلهم بورا ؛ أى خالية لا شئ فيها . وقال الحسن : « بورا » لا خير فيها . مأخوذ من بوار  
 الأرض ، وهو تمطيلها من الزرع فلا يكون فيها خير . وقال شهر بن حوشب : البوار الفساد  
 والكساد ؛ مأخوذ من قولهم : بارت السلعة إذا كسدت كساد الفاسد ؛ ومنه الحديث « نمود  
 باقه من بوار الأيام » . وهو أسم مصدر كالزور يستوى فيه الواحد والاثان والجمع والمذكر  
 والمؤنث . قال ابن الزمى :

يارسول المليك إنا لسانى . رَأَيْتُ مَا قَعْتُ إِذْ أَنَا بُورٌ  
 إِذْ أَبْرَى الشَّيْطَانَ فِي سَنَنِ اللَّهِ . حَتَّى وَمِنْ مَالٍ مِثْلَهُ مَثْبُورٌ

وقال بعضهم : الواحد باثروا الجمع نور . كما يقال : عائد وعُود، وهائد وهُود . وقال :  
« بؤراً » عيا عن الحق .

قوله تعالى : ( فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ ) أى يقول الله تعالى عند تبرى المعبودين :  
« فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ » أى فى قولكم إنهم آلهة . ( فَمَا يَسْطِيعُونَ ) يعنى الآلهة صرف  
العذاب عنكم ولا نصركم . وقيل : فَمَا يَسْطِيعُ هؤلاء الكفار لما كذبهم المعبودون ( صَرَفاً )  
للعذاب ( وَلَا تَصْرًا ) من الله . وقال ابن زيد : المعنى قد كذبكم أيها المؤمنون هؤلاء  
الكفار بما جاء به محمد ، وعلى هذا فعنى « بما تقولون » بما تقولون من الحق . وقال  
أبو عبيد : المعنى ؛ فيما تقولون فما يستطيعون لكم صرفاً عن الحق الذى هداكم الله إليه ،  
ولا نصراً لأنفسهم مما يزل بهم من العذاب بتكذيبهم إياكم . وقراءة العامة « بِمَا تَقُولُونَ » بالثاء  
على الخطاب . وقد بينا معناه . وحكى الفراء أنه يقرأ « فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ » مخففاً ، « بِمَا يَقُولُونَ » .  
وكذا قرأ مجاهد واليزى بالياء . « تكون معنى « يَقُولُونَ » بقولهم . وقرأ أبو حنيفة « بِمَا يَقُولُونَ »  
بياء « فَمَا يَسْطِيعُونَ » بناء على الخطاب ليتخذى الشركاء . ومن قرأ بالياء فالمعنى : فَمَا يَسْطِيعُ  
الشركاء . ( وَمَنْ يَظْلِمِ مِنْكُمْ ) قال ابن عباس : من يشرك منكم ثم مات عليه . ( نَذِقْهُ )  
أى فى الآخرة . ( عَذَابًا كَبِيرًا ) أى شديداً ؛ كقوله تعالى : « وَلَنَلْعَنَ عُلُوًّا كَبِيرًا » أى شديداً .

قوله تعالى : وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ  
الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ  
وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٥٥﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ( وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ) نزلت جواباً للمشركين حيث  
قالوا : « مَا لِي هَذَا الرَّسُولِ يَا كُلُّ الطَّعَامِ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ » . قال ابن عباس : لما  
عبر المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفاقة وقالوا : « مَا لِي هَذَا الرَّسُولِ يَا كُلُّ الطَّعَامِ »

الآية حزن النبي صلى الله عليه وسلم لتلك فتلت تعزية له ؛ فقال جبريل عليه السلام : السلام عليك يا رسول الله ! الله ربك يقرئك السلام ويقول لك : « وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ » أى يتنعمون بالمعيش في الدنيا .

الثانية - قوله تعالى : ( إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ ) إذا دخلت اللام لم يكن في « إن » إلا الكسر ، ولو لم تكن اللام ما جاز أيضا إلا الكسر ؛ لأنها سناقة . هذا قول جميع النحويين . قال النحاس : إلا أن علي بن سليمان حكى لنا عن محمد بن يزيد قال : يجوز في « إن » هذه الفتح وإن كان بعدها اللام ؛ وأحسبه وقها منه . قال أبو إسحق الزجاج : وفي الكلام حذف ؛ والمعنى وما أرسلنا قبلك رسلا إلا أنهم لياكلون الطعام ، ثم حذف رسلا ، لأن في قوله : « من المرسلين » ما يدل عليه . فالوصف محذوف عند الزجاج . ولا يجوز عنده حذف الموصول وتبقي الصلة كما قال الفراء . قال الفراء : والمحذوف « من » والمعنى إلا من أنهم لياكلون الطعام . وشبهه بقوله : « وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ » ، وقوله : « وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا » أى ما منكم إلا من هو واردها . وهذا قول الكسائي أيضا . ويقول العرب : ما بعثت إليك من الناس إلا من إنه لطبيخك . فتقولك : إنه يطبخك صلة من . قال الزجاج : هذا خطأ ؛ لأن من موصولة فلا يجوز حذفها . وقال أهل المعاني : المعنى ؛ وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا قيل أنهم لياكلون ؛ دليله قوله تعالى : « مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ » . وقال ابن الأثيري : كسرت « إنهم » بعد « إلا » للاستئناف بإضمار واو . أى إلا وإنهم . وذهبت فرقة إلى أن قوله : « لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ » كناية عن الحدث .

قلت : وهذا بلغ في معناه ، ومثله « مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأَمَّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ » . ( وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ) قرأ الجمهور « يَمْشُونَ » بفتح الباء وسكون الميم وتعفيف الشين . وقرأ علي وآبن عوف وآبن مسعود بضم الباء وفتح الميم وشد الشين المفتوحة ، بمعنى يُدْعَوْنَ إلى المشي ويمشون عليه . وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي بضم الباء وفتح الميم وضم الشين المشددة ، وهى بمعنى يَمْشُونَ ؛ قال الشاعر :

وَمَتَّى بِأَطْلَانِ الْمِبَاةِ وَأَبْتَنِي • قَلَانَصُ مِنْهَا صَعْبَةٌ وَرُكُوبٌ<sup>(١)</sup>

وقال كعب بن زهير :

منه تظل سباعُ الجَوْضَانِزَةِ<sup>(٢)</sup> • ولا تُنْمَتِي بِوَادِيهِ الْأَرَاخِيلُ

بمعنى تَمَتَّى •

الثالثة - هذه الآية أصل في تناول الأسباب وطلب المعاش بالتجارة والصناعة وغير ذلك • وقد مضى هذا المعنى في غير موضع ، لكنا نذكر هنا من ذلك ما يكفي فنقول : قال لي بعض مشايخ هذا الزمان في كلام جرى : إن الأنبياء عليهم السلام إنما بنوا ليسوا الأسباب للضعفاء ؛ فقلت بجياله : هذا قول لا يصدر إلا من الجهال والأغبياء ، والرعاة السفهاء ، أو من طاعن في الكتاب والسنة العلية ؛ وقد أخبر الله تعالى في كتابه عن أصفياه ورسله وأتنياته بالأسباب والاحتراف فقال وقوله الحق : « وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُؤْسٍ لَكُمْ » وقال : « وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّامِنَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ » قال العلماء : أي يجيرون ويمتفرون . وقال عليه الصلاة والسلام : « يُجْعِلُ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُغْمِي » وقال تعالى : « فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا » وكان الصحابة رضي الله عنهم يجيرون ويمتفرون في أموالهم يعملون ، ومن خالفهم من الكفار يقاتلون ؛ أترامهم ضعفاء ؛ بل هم كانوا والله الأقوياء ، وجهم الخلف الصالح أقنذى ، وطريقهم فيه الهدى والاحتداء • قال : إنما تناولوها لأنهم أئمة الاقتداء ، فتناولوها مباشرة في حق الضعفاء ، فأما في حق أنفسهم فلا ؛ وبيان ذلك أصحاب الصفة •

قلت : لو كان ذلك لوجب عليهم وعلى الرسول معهم البيان ؛ كما ثبت في القرآن « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ » وقال : « إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى » الآية • وهذا من البينات والهدى • وأما أصحاب الصفة فإنهم كانوا ضيف الإسلام

(١) في روح المعاني : « ذلول » بدل « ركوب » • (٢) الجوز : البر الواسع • وضامة : ساكنة ،

وكل ساكن نهر ضامر • والأراجيل : جمع أرجال كأنهم جمع أنعام ، وأرجال جمع رجل • يصف الشاعر أسدا بأن الأسود والرجال تحفه ، فالأسود ساكنة من هيبه والرجال ممتة عزائمه براديه •

هند ضيق الحال، فكان عليه السلام إذا أنتم صدقة خصم بها، وإذا أنتم هدية أكلها منهم، وكأمرنا مع هذا محتطون ويسوقون الماء إلى أبيات رسول الله صلى الله عليه وسلم . كنا وصفهم البخارى وغيره . ثم لما أفتح الله عليهم البلاد ومهد لهم المهاد تأمروا ، وبالأسياب أمروا . ثم إن هذا القول يدل على ضعف النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ؛ لأنهم أيدوا بالملائكة وتبنتوا بهم ، فلو كانوا أقوياء ما احتاجوا إلى تأييد الملائكة وتأيدهم إذ ذلك سبب من أسباب النصر ؛ نعوذ بالله من قول وإطلاق يؤول إلى هذا ، بل القول بالأسباب والوسائط سنة الله وسنة رسوله ، وهو الحق المين ، والطريق المستقيم الذى أنعم الله عليه إجماع المسلمين ؛ وإلا كان يكون قوله الحق : « وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ » - الآية - مقصورا على الضعفاء ، وجميع الخطابات كذلك .

وفى التثريب حيث خاطب موسى الكليم « اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ » وقد كان قادرا على فلق البحر دون ضرب عصا . وكذلك مريم عليها السلام « وَهَرِّى إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ » وقد كان قادرا على . سوط الرطب دون هنز ولا تعب ؛ ومع هذا كله فلا شكر أن يكون رجل يأنف به ويهان ، أو تحاب دعوته ، أو يكرم بكرامة فى خاصة نفسه أو لأجل غيره ، ولا تهذ لذلك القواعد الكلية والأمور الجلية . هيئات هيئات ! لا يقال فقد قال الله تعالى : « وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ » فإنا نقول : صدق الله العظيم ، وصدق رسوله الكريم ، وأن الرزق هنا المطر بإجماع أهل التأويل ؛ بدليل قوله : « وَبُتْرَلْ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا » وقال : « وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ » ولم يشاهد يتزل من السماء على الخلق أطباق الخبز ولا جفان اللحم ، بل الأسباب أصل فى وجود ذلك ؛ وهو معنى قوله عليه السلام : « اطأبوا الرزق فى خبايا الأرض » أى بالحراث والحفر والغرس . وقد يسمى الشيء بما يؤول إليه ، وسمى المطر رزقا لأنه عنه يكون الرزق ، وذلك مشهور فى كلام العرب . وقال عليه السلام : « لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ جَبَلَهُ فَيُحْطَبَ عَلَى ظَهْرِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسَالَ أَحَدًا أَعْطَاهُ أَوْ مِنْهُ » وهذا فيما يخرج من غير تعب من الحشيش والخطب . ولو قدر رجل بالجلال مقطعا عن الناس لساكن له بد من الخروج إلى ما تخرجه الآكام وسهور الأعلام حتى يتناول من ذلك ما يعيش

به؛ وهو معنى قوله عليه السلام: "لو أنكم كنتم تكونون على الله حق توكله لرزقكم كما تُرزق الطير تسدون بها وتروح يطانا" فسدوها ورواحها سبب؛ فالعجب العجب ممن يدعى التجريد والتوكل على التحقيق، ويقعد على ثنيات الطريق، ويدع الطريق المستقيم، والمنهج الواضح القويم. ثبت في البخاري عن ابن عباس قال: كان أهل اليمن يمجون ولا يترددون ويقولون نحن المتوكلون، فإذا قدموا سألو الناس؛ فأنزل الله تعالى «وَتَزَوَّدُوا». ولم ينقل عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان الله عليهم أنهم خرجوا إلى أسفارهم بغير زاد، وكانوا المتوكلين حقا. والتوكل اعتماد القلب على الرب في أن يلم شئنه ويجمع عليه أربه؛ ثم يتناول الأسباب بمجرد الأمر. وهذا هو الحق. سأل رجل الإمام أحمد بن حنبل فقال: إني أريد الحج على قدم التوكل. فقال: أخرج وحدك؛ قال: لا، إلا مع الناس. فقال له: أنت إذن متكل على أجرة بهم. وقد أتينا على هذا في كتاب «قم الحرس بالزهد والفناعة وردّ ذل السؤال بالكتب والشفاعات».

الرابعة - خرج مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أحب البلاد إلى الله مساجدها وأبغض البلاد إلى الله أسواقها". وخرج البراء عن سلمان الفارسي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تكونن إن استطعت أول من يدخل السوق ولا آخر من يخرج منها فإنها معركة الشيطان وبها ينصب رايته". أخرجه أبو بكر البرقاني مستندا عن أبي محمد عبد الله بن سعيد الحافظ - من رواية حاصم - عن أبي عثمان النهدي عن سلمان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تكن أول من يدخل السوق ولا آخر من يخرج منها فيها باض الشيطان وفرخ". ففى هذه الأحاديث ما يدل على كراهة دخول الأسواق، لا سيما في هذه الأزمان التي يخالط فيها الرجال النسوان. وهكذا قال صلواتنا لما كثرت الباطل في الأسواق وظهرت فيها المناكر؛ كره دخولها لأرباب الفضل والمقتدى بهم في الدين تنزيها لهم عن البقاع التي يعضى الله فيها. لحق على من آتاه الله بالسوق أن يخطر بباله أنه قد دخل محل الشيطان ومحل جنوده، وأنه إن أقام هناك هلك، ومن كانت هذه حاله أقصر منه على قدر ضرورته، وتحرز من سوء عاقبته وبلية.



الخامسة - تنبيه النبي صلى الله عليه وسلم السوق بالمعركة تشبيه حسن ؛ وذلك أن المعركة موضع القتال، سمي بذلك لتمامك الأبطال فيه، ومصارعة بعضهم بعضاً. فتنبيه السوق وفعل الشيطان بها ونيله منهم مما يحلهم من المكروا الخديعة، والتساهل في البيوع الفاسدة والكذب والإيمان الكاذبة، واختلاط الأصوات وغير ذلك بمعركة الحرب ومن يصرع فيها.

السادسة - قال ابن العربي : أما أكل الطعام فضرورة الخلق لا عار ولا درك فيه، وأما الأسواق فسمعت مشيخة أهل العلم يقولون : لا يدخل إلا سوق الكتب والسلاح، وعندى أنه يدخل كل سوق لحاجة إليه ولا يأكل فيها ؛ لأن ذلك إسقاط للروعة وهدم للشمة ؛ ومن الأحاديث الموضوعة<sup>(٢١)</sup> "الأكل في السوق دناءة" .

قلت : ما ذكرته مشيخة أهل العلم فنعما هو ؛ فإن ذلك خالٍ عن النظر إلى النسوان ومخاطبتن ؛ إذ ليس بذلك من حاجتن . وأما غيرها من الأسواق فشحونة منهن ، قلة الحياء قد غلبت عليهن ، حتى ترى المرأة في القيساريات وغيرهن قاعدة متبرجة بزيتها ، وهذا من المنكر الفاشي في زماننا هذا . نموذج بالله من مخضله .

السابعة - خرج أبو داود الطيالسي في مسنده حدثنا حماد بن زيد قال حدثنا عمرو بن دينار قهرمان آل الزبير عن سالم عن أبيه عن عمر بن الخطاب قال : "من دخل سوقاً من هذه الأسواق فقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير كتب الله له ألف ألف حسنة ومحا عنه ألف ألف سيئة وبني له قصر في الجنة" أخرجه الترمذي أيضاً وزاد بعد "ومحا عنه ألف ألف سيئة" : "ورفع له ألف ألف درجة وبني له بيتا في الجنة" . وقال : هذا حديث غريب . قال ابن العربي : وهذا إذا لم يقصد في تلك البقعة سواء ليعمرها بالطاعة إذ عمرت بالمعصية، وليحليها بالذكر إذ عظمت بالنفلة، وليعلم الجهلة ويذكر الناسين .

(١) المراك (يسكن ويحرك) : البية . (٢) الحديث رواه الطبراني عن أبي أمامة والخليلي عن أبي هريرة وضعفه السيوطي . (٣) القهرمان : هو كانغازن والوكيل الحافظ لما تحت يده والقائم بأمر الرجل ، لغة القهرس . (٤) سواء : أي سوى الله تعالى .

الثامنة - قوله تعالى : ( وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَنْتَصِرُونَ ) أى إن الدنيا دار  
بلاء وأمتحان ، فأراد سبحانه أن يجعل بعض العبد فتنة لبعض على العموم في جميع الناس  
مؤمن وكافر ، فالصحيح فتنة للريض ، والفتى فتنة للفقير ، والفقير الصابر فتنة للفتى . ومعنى  
هذا أن كل واحد مختبر بصاحبه ؛ فالفتى مختن بالفقير ، عليه أن يواسيه ولا يسخر منه .  
والفقير مختن بالفتى ، عليه ألا يحسده ولا يأخذ منه إلا ما أعطاه ، وأن يصبر كل واحد منهما  
على الحق ؛ كما قال الضحاك في معنى « أَنْتَصِرُونَ » : أى على الحق ، وأصحاب البلاء يقولون :  
لِمَ لَمْ نَأْفَ ؟ والأعمى يقول : لِمَ لَمْ أَجْعَلْ كالبصير ؟ وهكذا صاحب كل آفة . والرسول المخصوص  
بكرامة النبوة فتنة لأشراف الناس من الكفار في عصره . وكذلك العلماء وحكام العدل .  
ألا ترى إلى قولهم : « تَوَلَّاهُ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرِيَّتَيْنِ عَظِيمٍ » . فالفتنة أن يحسد  
المبتلى المعافى ، ويحقر المعافى المبتلى . والصبر : أن يحبس كلاهما نفسه ، هذا عن البطر ، وذاك  
عن الضجر . « أَنْتَصِرُونَ » مخوف الجواب ، يعنى أم لا تصبرون . فيقتضى جوابا كما قاله  
المنزى ، وقد أخرجته الفاقة فرأى خصيا في مراكب ومناكب ، فخطر بباله شيء فسمع من  
يقرا الآية « أَنْتَصِرُونَ » فقال : بلى ربنا ! نصبر ونحسب . وقد تلا ابن القاسم صاحب  
مالك هذه الآية حين رأى أشهب بن عبد العزيز في مملكته عابرا عليه ، ثم أجاب نفسه  
بقوله : سنصبر . وعن أبي الدرداء أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ويل  
للعالم من الجاهل وويل للجاهل من العالم وويل للمالك من المملوك وويل للمملوك من  
المالك وويل للشديد من الضعيف وويل للضعيف من الشديد وويل للسلطان من  
الرعية وويل للرعية من السلطان وبعضهم لبعض فتنة وهو قوله « وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ  
فِتْنَةً أَنْتَصِرُونَ » " أسنده الثعلبي تنمده الله برحمته . وقال مقاتل : نزلت في أبي جهل  
أبن هشام والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل ، وعقبة بن أبي معيط وعتبة بن ربيعة والنضر  
أبن الحرث حين رأوا أبا ذر وعبد الله بن مسعود ، وعمارا وبلالا وصهيبا وعامرا بن قهزة ،  
وسالما مولى أبي حذيفة ومهتجا مولى عمر بن الخطاب وجبرا مولى الحضرمي ، وذوهم ؛  
فألوا على سبيل الاستهزاء : أنسلم فتكون مثل هؤلاء ؟ فأنزل الله تعالى يخاطب هؤلاء

المؤمنين : « أَتَصْبِرُونَ » على ما ترون من هذه الحال الشديدة والفقر؛ فالوقوف بـ « أَتَصْبِرُونَ » خاص للمؤمن المحققين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم . كأنه جعل إهمال الكفار والتوسعة عليهم فتنة للمؤمنين ، أى اختبارا لهم . ولما صبر المسلمون أنزل الله فيهم « إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا » .

التاسعة - قوله تعالى : ( وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ) أى بكل أمرئ وبمن يبصر أو يميز ، ومن يؤمن ومن لا يؤمن ، ومن أذى ما عليه من الحق ومن لا يؤذى . وقيل : « أَتَصْبِرُونَ » أى أصبروا . مثل « قَهْلَ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ » أى أنهوا ؛ فهو أمر للنبي صلى الله عليه وسلم بالصبر .

قوله تعالى : ( وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا <sup>(١١)</sup> يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَأِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا <sup>(١٢)</sup> ) قوله تعالى : ( وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ) يريد لا يخافون البعث ولقاء الله ، أى لا يؤمنون بذلك . قال :

إذا لَسَعَتْهُ النَّحْلُ لَمْ يَرْجُ لَسَعَهَا \* وَخَالَفَهَا فِي بَيْتِ نُوبٍ عَوَامِلُ

وقيل : « لَا يَرْجُونَ » لا يبالون . قال :

لعمرك ما أرجو إذا كنت مسلماً \* على أى جنب كان في الله مضرعى

أبن شجرة : لا يبالون ؛ قال :

أَرْجُو أَسْفَةً قُلْتُ حَسْبُنَا \* شَفَاعَةُ جَدِّهِ يَوْمَ الْحِسَابِ

( لَوْلَا أُنْزِلَ ) أى هلا أنزل . ( عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ ) فيخبروا أن محمدا صادق . ( أَوْ نَرَى رَبَّنَا ) عيانا فيخبرنا برسائه . نظيره قوله تعالى : « وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَجْعَلَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ

(١) البيت لأبي ذؤيب وتقدم شرحه في ج ٨ ص ٣١١ طبعه أول أوثانية .

(٢) البيت من قصيدة لحبيب بن عدي قالها حين بلغه أن الكفار قد اجتمعوا عليه .

يُنْبِئُونَا» إلى قوله «أَوْتَأْنِي بِإِلَهِهِ وَالْمَلَائِكَةِ قِيَلًا» . قال الله تعالى : ﴿لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَثِيرًا﴾ حيث سألوا الله الشعلط ؛ لأن الملائكة لا ترى إلا عند الموت أو عند نزول العذاب ، والله تعالى لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ، فلا عين تراه . وقال مقاتل : «عُتُوًّا» علوا في الأرض . والعتو : أشد الكفر وأخش الظلم . وإذا لم يكفوا بالمعجزات وهذا القرآن فكيف يكفون بالملائكة ؟ وهم لا يميزون بينهم وبين الشياطين ، ولا بد لهم من معجزة يقيما من يدعى أنه ملك ، وليس للقوم طلب معجزة بعد أن شاهدوا معجزة ، وأن ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْجَحِيمِ﴾ يريد أن الملائكة لا يراها أحد إلا عند الموت ، فبشر المؤمنين بالجنة ، وتضرب المشركين والكفار بمقارع الحديد حتى تخرج أنفسهم . ﴿وَيَقُولُونَ نَحْمَرُ مَحْجُورًا﴾ يريد تقول الملائكة حراما محرما أن يدخل الجنة إلا من قال لا إله إلا الله ، وأقام شرائعها ؛ عن ابن عباس وغيره . وقبل : إن ذلك يوم القيامة ؛ قاله مجاهد وعطية العوفي . قال عطية : إذا كان يوم القيامة تلقى المؤمن بالبشرى ، فإذا رأى ذلك الكافر تمناه فلم يره من الملائكة . وأنصب «يَوْمَ يَرَوْنَ» بتقدير لا بشرى للجرمين يوم يرون الملائكة . «يَوْمَئِذٍ» تأكيد لـ «يَوْمَ يَرَوْنَ» . قال النحاس : لا يجوز أن يكون «يَوْمَ يَرَوْنَ» منصوبا بـ «بُشْرَى» لأن ما في حيز النفي لا يعمل فيما قبله ، ولكن فيه تقدير أن يكون المعنى يمتعون بالبشارة يوم يرون الملائكة ؛ ودل على هذا الخلف ما بعده . ويجوز أن يكون التقدير : لا بشرى تكون يوم يرون الملائكة ، و «يَوْمَئِذٍ» مؤكدة . ويجوز أن يكون المعنى : أذكر يوم يرون الملائكة ، ثم أبدأ فقال : «لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْجَحِيمِ وَيَقُولُونَ نَحْمَرُ مَحْجُورًا» أى تقول الملائكة حراما محرما أن تكون لهم البشرى إلا للؤمنين . قال الشاعر :

أَلَا أَصْبَحْتُ أَسْمَاءُ نَحْمَرُ مَحْرَمًا . وَأَصْبَحْتُ مِنْ أَدْنَى مَوْتِهَا حَمًا<sup>(١)</sup>

أراد ألا أصبحت أسماء حراما محرما .

(١) قاله رجل كانت له امرأة فلقها وتزوجها أخوه ؛ أى أصبحت أنا زوجها بعد ما كنت زوجها .

وقال آخر :

حَتَّىٰ إِلَى النَّفْثَةِ الْقُصْوَى فَقُلْتُ لَهَا • نَجْزُرُ حَرَامُ إِلَّا تِلْكَ الْبُهَارِيَّ (١)

وروى عن الحسن أنه قال : « وَيَقُولُونَ نَجْرًا » وقف من قول المجرمين ؛ فقال الله عز وجل : « نَجْزُرًا » عليهم أن يمازوا أو يماروا ؛ فحجر الله ذلك عليهم يوم القيامة . والأول قول ابن عباس وبه قال الفراء ؛ قاله ابن الأنباري . وقرأ الحسن وأبو دجا « نَجْرًا » بضم الحاء والناس على كسرهما . وقيل : إن ذلك من قول الكفار قالوه لأنفسهم ؛ قاله قتادة فيما ذكر الماوردي . وقيل : هو من قول الكفار للملائكة . وهي كلمة استعانة وكانت معروفة في الجاهلية ؛ فكان إذا لقي الرجل من يمانه قال : حجرا محجورا ؛ أى حراما عليك التعرض لى . وانتصابه على معنى : سمجت عليك ، أو حجرا الله عليك ؛ كما تقول : سقيا ورعا ، أى إن المجرمين إذا رأوا الملائكة يلقونهم في النار قالوا : نموذ بالله منكم ؛ ذكره القشيري ، وحكى معناه المهدوي عن مجاهد . وقيل : « نَجْرًا » من قول المجرمين . « نَجْزُرًا » من قول الملائكة ؛ أى قالوا للملائكة نموذ بالله منكم أن تعرضوا لنا . فنقول الملائكة : « نَجْزُرًا » أن تمازوا من شر هذا اليوم ؛ قاله الحسن .

قوله تعالى : وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا ﴿١٦﴾  
أُصْحَبُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ( وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ ) هذا تنبيه على عظم قدر يوم القيامة ؛ أى قصدها في ذلك إلى ما كان يعمل المجرمون من عمل بر عند أنفسهم . يقال : قدم فلان إلى أمر كذا أى قصده . وقال مجاهد : « قَدِمْنَا » أى عمدنا . وقال الرازي :  
وقدِم الحوارج الضَّالُّونَ • إلى عباد ربهم فقالوا  
• إني فداءكم لنا حلال •

(١) البيت الطس ؛ والنفثة القصوى : واد . والبهاريس : الفواهي . يقول الله : هذا الذى حثت إليه ،  
منزع . وبهذه : أى تأية إذا حرق لنا • فوما نردم إذ قومنا شرس

وقيل : هو قدوم الملائكة ، أخبر به عن نفسه تعالى فاعله . ( بِسْمَةِ هَبَاءٍ مُنْتَوَرَةٍ ) أى لا ينفع به أى أبطائه بالكفر . وليس « هَبَاءٌ » من ذوات الهمز وإنما همزت لالتقاء الساكنين . والتصغير مجيء في موضع الرفع ، ومن التحوين من يقول : هبى في موضع الرفع ؛ حكاه النحاس . وواحدة هباءة والجمع أهباء . قال الحرث بن حِزْرة يصف [ ناقة ] :

فَتَرَى خَلْقَهَا مِنَ الرَّجْعِ وَالْوَقْدِ \* جِجَ مَيْنَنَا كَأَنَّهُ أَهْبَاءُ<sup>(١)</sup>

وروى الحرث عن علي قال : الهباء المنتور شعاع الشمس الذي يدخل من الكوة . وقال الأزهري : الهباء ما يخرج من الكوة في ضوء الشمس شبهه الفبار . تأويله : إن الله تعالى أحبط أعمالهم حتى صارت بمنزلة الهباء المنتور . فأما الهباء المنبت فهو ما تثيره الخيل بسنابكها من الفبار . والمنبت المنفوق . وقال ابن عرفة : الهبوة والهباء التراب الدقيق . الجوهرى : ويقال له إذا ارتفع هباً يهبو هبوا وأهينته أنا . والهبوة الغبرة . قال رؤبة :

تَبْدُونَا أَعْلَامُهُ بَعْدَ الْفَرْقِ \* فِي قِطْعِ الْإِلِّ وَهَبَوَاتِ الدَّقِيقِ<sup>(٢)</sup>

وموضع هبى التراب أى كأن ترابه مثل الهباء في الرقة . وقيل : إنه ما ذرته الرياح من يابس أوراق الشجر ؛ قاله قتادة وابن عباس . وقال ابن عباس أيضاً : إنه المساء المهرق . وقيل : إنه الرماد ؛ قاله عبيد بن يعلى .

قوله تعالى : ( أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ) .

تقدم القول فيه عند قوله تعالى : « قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ » . قال النحاس : والكوفيون يميزون « العسل أحل من الخلل » وهذا قول مردود ؛ لأن معنى فلان خير من فلان أنه أكثر خيراً منه ولا حلاوة في الخلل . ولا يجوز أن يقال : النصراني خير من اليهودي ؛ لأنه لا خير فيهما فيكون أحدهما أزيد في الخير . لكن يقال : اليهودي شر

(١) كذا في الأصل ؛ وعبارة ابن عطية : « أسدء إليه لأنه عن أمره » . (٢) قال النحاس : والفقير عنده هب . (٣) قوله « خلقها » أى خلف الناقة . والرجع : رجوع فرائها . والرفع : رفع خلفها . والمهين : الفبار المفقن الذى تثيره . (٤) الحق : ما دق من التراب ، والواحد من الحق كما تقول الجمل والجمل والجمل . (٥) كذا في الأصل وفى « روح المعاني » : يمل بن مريد . (٦) راجع ص ٩ من هذا الجزء .

من النصراني؛ فعلى هذا كلام العرب . و « مُسْتَقَرًّا » نصب على الظرف إذا قدر على غير باب « أفضل منك » والمعنى لم خير من مستقر . وإذا كان من باب « أفضل منك » فاتصايه على البيان؛ قاله النحاس والمهدوي . قال قتادة : « وأحسن ميلا » متزلا وماوى . وقيل : هو على ما تعرفه العرب من مقييل نصف النهار . ومنه الحديث المرفوع " إن الله تبارك وتعالى يفرغ من حساب الخلق في مقدار نصف يوم قَيِّيلُ أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار " ذكره المهدوي . وقال ابن مسعود : لا ينتصف النهار يوم القيامة من نهار الدنيا حتى يقبل هؤلاء في الجنة وهؤلاء في النار، ثم قرأ « ثم إن مقيلهم لآلئ الجيم » كذا هي في قراءة ابن مسعود . وقال ابن عباس : الحساب من ذلك اليوم في أوله ، فلا ينتصف النهار من يوم القيامة حتى يقبل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار . ومنه ما روى " قِيلُوا لَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَا يَحْزِلُ " . وذكر قاسم ابن أصبغ من حديث أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة " فقلت : ما أطول هذا اليوم . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " والذي نفسى بيده إنه ليخفف عن المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة المكتوبة يصلها في الدنيا " .

قوله تعالى : وَيَوْمَ تَشْقُقُ السَّمَاءُ بِالْغَمِّمْ وَتُزَلُّ أَمْلُكُمْ تَزِيلًا ﴿٥٥﴾  
أَلَمْ تَكُنْ يَوْمَئِذٍ حَاقَّةً لِلرَّحْنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴿٥٦﴾

قوله تعالى : ( وَيَوْمَ تَشْقُقُ السَّمَاءُ بِالْغَمِّمْ ) أى وأذكر يوم تشقق السماء بالتمام . وقرأه حاصم والأعشى ويحيى وحمزة والكسائي وأبو عمرو « تشقُّ » بتخفيف الشين وأصله تشقق يتأين لحذفوا الأولى تخفيفا ، وأختره أبو عبيد . الباقون « تَشْقُقُ » بتشديد الشين على الإدغام ، وأختره أبو حاتم . وكذلك في « ق » . « بِالْغَمِّمْ » أى عن الغمام . والباء وعن يثاقبان ؛ كما نقول : رميت بالقوس وعن القوس . روى أن السماء تشقق عن صحاب

أبيض رقيق مثل الضباب، ولم يكن إلا لبني إسرائيل في تبعهم فنشق السماء عنه؛ وهو الذى قال تعالى: «جِبَلٌ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ» (وَنَزَلَ الْمَلَائِكَةُ) من السموات، وأتى الرب جل وعز في الثانية الذين يحملون العرش لفصل القضاء، على ما يجوز أن يحمل عليه إتيانه؛ لا على ما يحمل عليه صفات المخلوقين من الحركة والانتقال. وقال ابن عباس: تنشق سماء الدنيا فيترل أهلها وهم أكثر ممن في الأرض من الجن والإنس، ثم تنشق السماء الثانية فيترل أهلها وهم أكثر ممن في سماء الدنيا، ثم كذلك حتى تنشق السماء السابعة، ثم يترل الكروبيون وحمة العرش؛ وهو معنى قوله: «وَنَزَلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا» أى من السماء إلى الأرض لحساب الثقلين. وقيل: إن السماء تنشق بالتمام الذى بنىها وبين الناس؛ فبتشق الغمام تنشق السماء، فإذا أنشقت السماء آتت صفات تركيبها وطوبت وزلت الملائكة إلى مكان سواها. وقرأ ابن كثير «وَنَزَلَ الْمَلَائِكَةُ» بالنصب من الإنزال. الباقون «وَنَزَلَ الْمَلَائِكَةُ» بالرفع. دليله «تَنْزِيلًا» ولو كان على الأول لقال إنزالا. وقد قيل: إن نزول وأترل بمعنى؛ بغاء «تَنْزِيلًا» على «نَزَلَ» وقد قرأ عبد الوهاب عن أبي عمرو «وَنَزَلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا». وقرأ ابن مسعود «وَأَنزَلَ الْمَلَائِكَةُ». أى: بك كعب: «وَنَزَلَتِ الْمَلَائِكَةُ». وعنه «ونزلت الملائكة».

قوله تعالى: «الْمَلَكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ» «الملك» مبتدأ و«الحق» صفة له و«لِلرَّحْمَنِ» الخبر؛ لأن الملك الذى يزول وينقطع ليس بملك؛ فبطلت يومئذ أملكه المالكة وأقطعت دعاوهم، وزال كل ملك وملكه، وبقي الملك الحق لله وحده. «وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ» أى لما ينالهم من الأحوال ويحققهم من الخزي والهوان، وهو على المؤمنين أخف من صلاته مكتوبة؛ على ما تقدم في الحديث. وهذه الآية دالة عليه؛ لأنه إذا كان على الكافرين عذابا فهو على المؤمنين يسير. يقال: عَسِرَ عَسْرًا، وعَسِرَ عَسْرًا.

(١) الكروبيون (جنح الكاف): سادة الملائكة، منهم جبريل وميكائيل وإسرايل هم المقربون.

نكرب القرب.



قوله تعالى : وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلْبِغُنِي أَخَذْتُ  
مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٧٧﴾ يَتَوَلَّوْنَ لِيَنفِرَ لِيَخَذَ فَلَانًا خَلِيلًا ﴿٧٨﴾  
لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ  
خَذُولًا ﴿٧٩﴾

قوله تعالى : ( وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ ) الماضي عيضت . وحكى الكسائي  
عوضت بفتح الضاد الأولى . وجاء التوقيف عن أهل التفسير ، منهم ابن عباس وسعيد  
ابن المسيب أن الظالم ها هنا يراد به عقبة بن أبي معيط ، وأن خليله أمية بن خلف ، فعبه  
قتله على بن أبي طالب رضي الله عنه ، وذلك أنه كان في الأسارى يوم بدر فأمر النبي  
صلى الله عليه وسلم بقتله ، فقال : أقتل دونهم ؟ قال . نعم ، بكفرك وعتوك . فقال :  
من للصبيبة ؟ فقال : النار . فقام على رضي الله عنه فقتله . وأميه قتله النبي صلى الله عليه وسلم ،  
فكان هذا من دلائل نبوة النبي صلى الله عليه وسلم ، لأنه خبرتهما بهذا قتلًا على الكفر .  
ولم يسما في الآية لأنه أبلغ في الفائدة ، ليعلم أن هذا سبيل كل ظالم قيل من غيره في مصبة  
الله عز وجل . قال ابن عباس وقادة وغيرهما : وكان عقبة قد هزم بالإسلام فنهه منه  
أبي بن خلف وكانا خديين ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قتلها جميعا : قُتل عقبة يوم بدر  
صبرا ، وأبي بن خلف في المبارزة يوم أحد ؛ ذكره الفسيري والعليني ، والأول ذكره  
النحاس . وقال السبيل : « وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ » هو عقبة بن أبي معيط ، وكان  
صديقا وأميه بن خلف الجعفي ويروي لأبي بن خلف أخ أميه ، وكان قد صنع وليمة  
فدعا إليها قريشا ، ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأبى أن يأتيه إلا أن يسلم . وكره  
عقبة أن يتأخر عن طعامه من أشراف قريش أحد فأسلم ونطق بالشهادتين ، فأتاه  
رسول الله صلى الله عليه وسلم وأكل من طعامه ، فعاتبه خليله أمية بن خلف ، أو أبي بن  
خلف وكان غائبا . فقال عقبة : رأيت عظيما ألا يحضر طعامي وجل من أشراف قريش .  
فقال له خليله : لا أراضني حتى ترجع وتبصق في وجهه وتطأ عقه وتقول كبت وكبت . ففعل

عدو الله ما أمره به خليله ؛ فأنزل الله عز وجل : « وَيَوْمَ يَصْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ » . قال الضحاك : لما بصق عقبة في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم رجع بصاقه في وجهه وشوى وجهه وشفتيه ، حتى أنرق في وجهه وأحرق خديه ، فلم يزل أتردك في وجهه حتى قبل . وعضه يديه فمل النادم الحزين لأجل طاعته خليله . ( يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ) في الدنيا ، يعني طريقا إلى الجنة . ( يَا وَيْلَتَا ) دعه بالويل والثبور على مخالفة الكافر وتابعته . ( لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فَلَانًا خَلِيلًا ) يعني أمية ، وكفى عنه ولم يصرح باسمه لئلا يكون هذا الوعد مخصوصا به ولا مقصورا ، بل يتناول جميع من فعل مثل فعلهما . وقال مجاهد وأبو رجا : الظالم عام في كل ظالم ، وفلان : الشيطان . واحتج لصاحب هذا القول بأن يمدده « وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَدُولًا » . وقرأ الحسن « يَا وَيْلَتَا » وقد مضى في « هود » بيانه . والخليل : الصاحب والصديق وقد مضى في « النساء » بيانه . ( لَقَدْ أَضَلَّتْ عَنِ الذِّكْرِ ) أى يقول هذا النادم : لقد أضلنى من اتخذه في الدنيا خليلا عن القرآن والإيمان به . وقيل : « عَنِ الذِّكْرِ » أى عن الرسول . ( وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَدُولًا ) قيل : هذا من قول الله لا من قول الظالم . وعام الكلام على هذا عند قوله : « بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي » . والخلل الترك من الإغاة ؛ ومنه خذلان إبليس للشركين لما ظهر لهم في صورة سرافقة بن مالك ، فلما رأى الملائكة نبأ منهم . وكل من صد عن سبيل الله وأطاع في معصية الله فهو شيطان للإنسان ، خذولا عند نزول العذاب والبلاء . ولقد أحسن من قال :

تَجَنَّبَ قَرِينَ السُّوءِ وَأَصِرْتُ حَبَالَهُ • فَإِن لَّمْ تَجِدْ عَنْهُ حَيْصًا فَدَارِهِ  
وَأَحْبَبَ حَيْبَ الصَّدِيقِ وَأَحْذَرُ مِرَاءَهُ • تَنَلُّ مِنْهُ صَفْوُ الدُّودِ مَا لَمْ تَمَارِهِ  
وَفِي الشَّيْبِ مَا يَنْهَى الْحَلِيمَ عَنِ الْعَبَا • إِذَا أَشْتَغَلْتَ نَبْرَانَهُ فِي عِزَارِهِ

آخر :

أَحَبُّ خِيَارِ النَّاسِ حَيْثُ لَقِيْتَهُمْ • خَيْرُ الصَّحَابَةِ مَنْ يَكُونُ عَفِيفًا

وَالنَّاسُ مِثْلُ دِرَاهِمٍ مِيزَتُهَا • فَوَجَدْتُ مِنْهَا فِضَّةَ زُرِّيُوفَا

(١) راجع ج ٩ ص ٦٩ طبة أول أرتانية . (٢) راجع ج ٥ ص ٤٠٠ طبة أول أرتانية .

وفي الصحيح من حديث أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافع الكبير فحامل المسك إما أن يُحذيك<sup>(١)</sup> وإما أن يتباع منه وإما أن تجهد ريحا طيبة ونافع الكبير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجهد ريحا خبيثة " لفظ مسلم . وأخرجه أبو داود من حديث أنس . وذكريا أبو بكر البزار عن ابن عباس قال : قيل يا رسول الله ؛ أي جلسائنا خير ؟ قال : " من ذكركم بالله رؤيته وزاد في علمكم منطقه وذكركم بالآخرة عمله " . وقال مالك بن دينار : إنك إن تقل الأجر مع الأبرار خير لك من أن يأكل الخبيث مع الفجار . وأشد :

وصاحب خيار الناس تنج مسلماً • وصاحب شرار الناس يوما فتدما

قوله تعالى : وَقَالَ الرَّسُولُ يَسْرِبُ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴿٢٥﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : ( وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ ) يريد عبدا صلى الله عليه وسلم ، يشكروهم إلى الله تعالى . ( إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ) أي قالوا فيه غير الحق من أنه محرر وشعره عن مجاهد والنخعي . وقيل : معنى « مَهْجُورًا » أي متروكا ؛ فعزاه الله تبارك وتعالى وسأله قوله : ( وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ ) أي كما جعلنا لك يا عبد عدوا من مشركي قومك — وهو أبو جهل في قول ابن عباس — فكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من مشركي قومه ، فأصبر لأمرى كما صبروا ، فإني هاديك وتاصرك على كل من نأوك . وقد قيل : إن قول الرسول « يَا رَبِّ » إنما يقوله يوم القيامة ؛ أي هجروا القرآن وهجروني وكذبوني . وقال أنس قال النبي صلى الله عليه وسلم : " من تعلم القرآن وعلق مصحفه لم يتأهده ولم ينظر فيه جاه

(١) أحذاه : أعلاه . (٢) الخبيث : حواء ، تعدل من التروالسن . (٣) في الأصل : « من تعلم القرآن وعلق مصحفه ... » وتصحح هذا الأثر من روح المعاني والبيان والكتاب هل أنهم تكلموا في صحته إذ في سنده أبو هريرة وهو كذاب .

يوم القيامة متلفاً به يقول يارب العالمين إن عبدك هذا أخذني مهجوراً فأقض بيني وبينه .  
ذكره التلمني . ( وَكَتَبَ رَبُّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ) نصب على الحال أو التمييز، أي يهديك وينصرك  
قلا تبال بن ماداك . وقال ابن عباس : عذو النبي صلى الله عليه وسلم أبو جهل لعنه الله .

قوله تعالى : وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً  
وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٦﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ  
بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٧﴾

قوله تعالى : ( وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ) اختلف في قائل  
ذلك على قولين : أحدهما - أنهم كفار قريش؛ قاله ابن عباس . الثاني - أنهم اليهود حين  
رأوا نزول القرآن مفزقا قالوا : هلا أنزل عليه جملة واحدة كما أنزل التوراة على موسى والإنجيل  
على عيسى والزبور [ على داود ] . فقال الله تعالى : ( كَذَلِكَ ) أي فطنا ( لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ )  
قوى به قلبه فثيبه وتمحله ؛ لأن الكتب المتقدمة أنزلت على أنبياء يكتبون ويقرءون ،  
والقرآن أنزل على نبي أمي ؛ ولأن من القرآن النسخ والمنسوخ ، ومنه ما هو جواب لمن سأل  
عن أمور ، فمعرفة ما يكون أوعى للنبي صلى الله عليه وسلم ، وأيسر على العامل به ؛ فكان كلما  
نزل وحى جديد زاده قوة قلب .

قلت : فإن قيل هلا أنزل القرآن دفعة واحدة وحفظه إذ كان ذلك في قدرته ؟ . قيل :  
في قدرة الله أن يعلمه الكتاب والقرآن في لحظة واحدة ، ولكنه لم يفعل ولا معترض عليه  
في حكمه ، وقد يتأوجه الحكمة في ذلك . وقد قيل : إن قوله « كَذَلِكَ » من كلام المشركين ،  
أي لولا أنزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك ، أي كالتوراة والإنجيل ، فيم الوقف على « كَذَلِكَ »  
ثم يندى « لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ » . ويجوز أن يكون الوقف على قوله : « جُمْلَةً وَاحِدَةً » ثم يتدنى  
« كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ » على معنى أنزلناه عليك كذلك متفرقا لنثبت به فؤادك . قال

آبْنُ الْأَنْبَارِيِّ : والوجه الأول أجود وأحسن ، والقول الثاني قد جاء به التفسير ، حدثنا محمد آبْنُ عُمَانَ الشَّيْبِيِّ قال حدثنا مُنْجَابٌ قال حدثنا بِشْرُ بْنُ عَمْرَةَ عَنْ أَبِي رَوْحٍ عَنْ الضَّحَّاكِ عَنْ آبْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ » قَالَ : أَنْزَلَ الْقُرْآنَ جَمْلَةً وَاحِدَةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ إِلَى السَّفَرَةِ الْكَرَامِ الْكَاتِبِينَ فِي السَّمَاءِ ، فَجَمَعَهُ السَّفَرَةُ الْكَرَامُ عَلَى جَبْرِيلَ عَشْرِينَ لَيْلَةً ، وَنَجَّهَ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى عَهْدِ عَشْرِينَ سَنَةً . قَالَ : فَهُوَ قَوْلُهُ « فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ » يَعْنِي نَجْمُ الْقُرْآنِ « وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَطَلَّعُونَ عَظِيمٌ » . إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ . قَالَ : فَلَمَّا لَمْ يَنْزِلْ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَمْلَةً وَاحِدَةً ، قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نَزَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جَمْلَةً وَاحِدَةً ؟ فَقَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : « كَذَلِكَ لِنُنَبِّئَ بِهِ قُرْآنًا » يَأْتِيهِ . ( وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ) يَقُولُ : وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ، يَقُولُ : شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ .

( وَلَا يَأْتُوكَ بِمِثْلِ الْإِنْجِيلِ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ) يَقُولُ . لَوْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ جَمْلَةً وَاحِدَةً ثُمَّ سَأَلُوكَ لَمْ يَكُنْ عِنْدَكَ مَا تَجِيبُ بِهِ ، وَلَكِنْ نَسَكَ عَلَيْكَ إِذَا سَأَلُوكَ أَجَبْتَ . قَالَ النَّحَّاسُ : وَكَانَ ذَلِكَ مِنْ عِلَامَاتِ النَّبُوَّةِ ، لِأَنَّهُمْ لَا يَسْأَلُونَ عَنْ شَيْءٍ إِلَّا أَجَبُوا عَنْهُ ، وَهَذَا لَا يَكُونُ إِلَّا مِنْ نَبِيٍّ ، فَكَانَ ذَلِكَ تَبَيُّنًا لِقَوْلِهِ وَأَنْتَدْتَهُمْ ، وَيَدُلُّ عَلَى هَذَا « وَلَا يَأْتُوكَ بِمِثْلِ الْإِنْجِيلِ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا » وَلَوْ نَزَلَ جَمْلَةً بِمَا فِيهِ مِنَ الْفَرَائِضِ لَنَقَلَ عَلَيْهِمْ ، وَعَلِمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ الصَّلَاحَ فِي إِزَالِهِ مُتَّفَقٌ ، لِأَنَّهُمْ يَنْهَوْنَ بِهِ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ ، وَلَوْ نَزَلَ جَمْلَةً وَاحِدَةً لَزَالَ مَعْنَى التَّنْبِيهِ فِيهِ فَاسُخٍّ وَمَنْسُوخٍ ، فَكَانُوا يَتَعَبَّدُونَ بِالشَّيْءِ إِلَى وَقْتٍ بَعِيْثِهِ قَدْ عَلِمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ الصَّلَاحَ ، ثُمَّ يَنْزِلُ النِّسْخَ بَعْدَ ذَلِكَ ، فَحَالَ أَنْ يَنْزِلَ جَمْلَةً وَاحِدَةً : أَفْعَلُوا كَذَا وَلَا فَعَلُوا . قَالَ النَّحَّاسُ : وَالْأَوَّلَى أَنْ يَكُونَ التَّمَامُ « جُمْلَةً وَاحِدَةً » لِأَنَّهُ إِذَا وَقَفَ عَلَى « كَذَلِكَ » صَارَ الْمَعْنَى كَالْتَوَارَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالزَّبُورِ وَلَمْ يَتَقَدَّمْ لَهَا ذِكْرٌ . قَالَ الضَّحَّاكُ : « وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا » أَيْ تَفْصِيلًا . وَالْمَعْنَى : أَحْسَنَ مِنْ مِثْلِهِمْ تَفْصِيلًا ، خَفِيفًا لِمَعْنَى السَّامِعِ . وَقِيلَ : كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَسْتَمْتُونَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَكَانَ قَدْ غَلَبَ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ التَّحْرِيفُ

والتبديل، فكان ما يأتي به النبي صلى الله عليه وسلم أحسن تفسيراً مما عندهم؛ لأنهم كانوا يخلطون الحق بالباطل، والحق المحض أحسن من حق مختلط بباطل، ولهذا قال تعالى: «وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ». وقيل: «لَا يَأْتُوكَ بِمِثْلِ» كقولهم في صفة عيسى إنه خلق من غير أب. «(إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ)» أي بما فيه نقض حججهم كآدم إذ خلق من غير أب وأم.

قوله تعالى: «الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا» (٣٤)

قوله تعالى: «الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ» تقدم في «سبحان». «(أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا)» لأنهم في جهنم. وقال مقاتل: قال الكفار لأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم هو شر الخلق؛ فزلت الآية. «(وَأَضَلُّ سَبِيلًا)» أي دينا وطريقا. «وعلم الآية: ولا يثبوت بمثل إلا جنناك بالحق، وأت منصور عليهم بالجمع الواحصة. وهم محشورون على وجوههم.

قوله تعالى: «وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا» (٣٥) «فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمْغْنَاهُمْ نَذْمِيرًا» (٣٦)

قوله تعالى: «(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ)» يريد التوراة. «(وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا)» تقدم في «طه». «(فَقُلْنَا أَذْهَبَا)» الخطاب لهما. وقيل: إنما أمر موسى صلى الله عليه وسلم بالذهاب وحده في المعنى. وهذا بمنزلة قوله: «نَبِيًّا حُوثِمًا». وقوله: «يَخْرُجُ مِنْهُمَا الْأُولَىٰ وَالْمَرْجَانُ» وإنما يخرج من أحدهما. قال النحاس: وهذا مما لا ينبغي أن يجترأ به على كتاب الله تعالى، وقد قال جل وعز: «فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيًّا لَعَلَّ هَذَا يَنْدَرُ أَوْ يُخَشَىٰ». قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُقْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطَّيَّنَ. قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ. فَأَيُّاهُ فَقُولَا

إِنَّا رَسُولًا رَبِّكَ . ونظير هذا « وَمِنْ دُونِهِمَا جَبَّتَانِ » . وقد قال جل ثناؤه « ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا » قال القشيري : وقوله في موضع آخر : « أَنْعَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى » لا ينافي هذا ؛ لأنهما إذا كانا هارين فكل واحد مأمور . ويجوز أن يقال : أمر موسى أولاً ، ثم لما قال « وَاجْعَلْ لِي وَزِيْرًا مِنْ أَهْلِي » قال « أَنْعَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ » . ( إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا ) يريد فرعون وهامان والقبط . ( قَدَمَرْنَاهُمْ ) في الكلام إضمار ؛ أى فكذبوهما ( قَدَمَرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا ) أى أهلكناهم إهلاكاً .

قوله تعالى : وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٧٧﴾

قوله تعالى : ( وَقَوْمَ نُوحٍ ) في نصب « قوم » أربعة أقوال : العطف على الماء والميم في « دَمَرْنَاهُمْ » . الثاني — بمعنى أذكر . الثالث — بإضمار فعل يفسره ما بعده ؛ والتقدير : وأغرقنا قوم نوح أغرقناهم . الرابع — أنه منصوب بـ « أغرقناهم » قاله الصراة . ورده الناس قال : لأن « أغرقنا » ليس مما يتعدى إلى مفعولين فيعمل في المضمر وفي « قَوْمَ نُوحٍ » . ( لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ ) ذكر الجنس والمراد نوح وحده ؛ لأنه لم يكن في ذلك الوقت رسول إليهم إلا نوح وحده ؛ فوجع إضمارت بلا إله إلا الله ، وبالإيمان بما ينزل الله ، فلما كذبه كان في ذلك تكذيب لكل من بعث بعده بهذه الكلمة . وقيل : إن من كذب رسولاً فقد كذب جميع الرسل ؛ لأنهم لا يفرق بينهم في الإيمان ، ولأنه ما من نبي إلا يصدق سائر أنبياء الله ، فمن كذب منهم نياً فقد كذب كل من صدقه من النبيين . ( أَغْرَقْنَاهُمْ ) أى بالطوفان ، على ما تقدم في « هود » . ( وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً ) أى علامة ظاهرة على قدرتنا ( وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ ) أى المشركين من قوم نوح ( عَذَابًا أَلِيمًا ) أى في الآخرة . وقيل : أى هذه سبيل في كل ظالم .

قوله تعالى : وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَسْخَبَ الرِّسَ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴿٧٨﴾

قوله تعالى : ( وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرُّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ) كله معطوف على « قَوْمُ نُوحٍ » إذا كان « قوم نوح » منصوبا على المطف ، أو بمعنى أذكر . ويعوز أن يكون كله منصوبا على أنه معطوف على المضمر في « دَمَرْنَاَهُمْ » أو على المضمر في « جَعَلْنَاهُمْ » وهو اختيار النحاس ؛ لأنه أقرب إليه . ويعوز أن يكون منصوبا بإختصار فصل ؛ أي أذكر عاد الذين كذبوا هودا فأهلكهم الله بالريح العقيم ، وثمودا كذبوا صالحا فأهلكوا بالزحفة . و ( وَأَصْحَابَ الرُّسِّ ) والرس في كلام العرب البر التي تكون خير مطوية ، والجمع رساس . قال :

• تَسَالُفٌ يَتَغَيَّرُونَ الرُّسَاسَا •

يعنى آبار المادن . قال ابن عباس : سألت كعبا عن أصحاب الرُّس قال : صاحب « يس » الذي قال : « يَا قَوْمِ آمِنُوا الرُّسَّيْنَ » قتله قومه ورسوه في برء لم يقال له الرُّس طرحوه فيها ، وكذا قال مقاتل . السدى : هم أصحاب قصة « يس » أهل أنطاكية ، والرس برء أنطاكية قتلوا فيها حبيبا التجار مؤمن آل « يس » فنسبوا إليها . وقال علي رضي الله عنه : هم قوم كانوا يُعبدون شجرة صنوبر فدعا عليهم نبيهم ؛ وكان من ولد يهوذا ، فبيست الشجرة قتلوه ورسوه في برء ، فأظلمت صحابة سوداء فأحرقهم . وقال ابن عباس : هم قوم بأذربيجان قتلوا أنبياء بغت أشجارهم وزرعهم فأتوا جوعا وعطشا . وقال وهب بن منبه : كانوا أهل برء يعمدون عليها وأصحاب مواشى ، وكانوا يعبدون الأصنام ، فأرسل الله إليهم شعيا فكذبوه وآذوه ، وتعادوا على كفرهم وطنيانهم ، فبينما هم حول البرء في منازلهم أنهارت بهم وبديارهم ؛ خسف الله بهم فهلكوا جميعا . وقال قتادة : أصحاب الرُّس وأصحاب الأيكة أتان أرسل الله إليهما شعيا فكذبوه فذهبهما الله بمغناين . قال قتادة : والرس قرية بَقَّاج اليامة . وقال عكرمة : هم قوم رسوا نبيهم في برء حيا . دليله ما روى محمد بن كعب القرظي - عن حذته أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أول الناس يدخل الجنة يوم القيامة عبد أسود وذلك أن الله تعالى بعث نبيا إلى قومه فلم يؤمن به إلا ذلك الأسود فخر أهل القرية براء وألقوا فيه نبيهم حيا وأطبقوا عليه حجرا ضخما »



وكان العبد الأسود يحتطب على ظهره ويأتيه بطعامه وشرابه فيعبته الله على رفع تلك الصخرة حتى يديه إليه فيبئها هو يحتطب إذ نام فضرب الله على أذنه سبع سنين نائما ثم هب من نومه فتمطى وانكأ على شقه الآخر فضرب الله على أذنه سبع سنين ثم هب فأحتمل حُرمة الخطب فباعها وأتى بطعامه وشرابه إلى البئر فلم يجدوه وكان قومه قد أراهم الله آية فاستخرجوه وآمنوا به وصنقوه ومات ذلك النبي . قال النبي صلى الله عليه وسلم : " إن ذلك العبد الأسود لأول من يدخل الجنة " وذكر هذا الخبر المهدوي والثعلبي ، واللفظ للثعلبي ، وقال : هؤلاء آمنوا بينهم فلا يجوز أن يكونوا أصحاب الرس ؛ لأن الله تعالى أخبر عن أصحاب الرس أنه دمرهم ، إلا أن يدمروا بأحداث أحدثوها بعد نبيهم . وقال الكلبي : أصحاب الرس قوم أرسل الله إليهم نيا فأكلوهم . وهم أول من عمل نساؤهم السحق ؛ ذكره الماوردي . وقيل : هم أصحاب الأخدود الذين حفروا الأخاديد وحرقوا فيها المؤمنين ، وسيأتي . وقيل : هم بقايا من قوم نوح ، وأن الرس البئر المذكورة في «البحر» في قوله : « وَيَبْرُ مُعْطَلَةٌ » على ما تقدم . وفي الصحاح : والرس أسم بئر كانت لبقية من نوح . وقال جعفر بن محمد عن أبيه : أصحاب الرس قوم كانوا يستحسنون لنساؤهم السحق ، وكان نساؤهم كلهم مصافات . وروى من حديث أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن من أشرار الساعة أن يكفى الرجال بالرجال والنساء بالنساء ، وذلك السحق " وقيل : الرس ماء ويخل لبن أسد . وقيل : التلج المتراكم في الجبال ؛ ذكره القشيري . وما ذكرناه أولا هو المعروف ، وهو كل خفر أحتفر كالقبر والمعدن والبئر . قال أبو عبيدة : الرس كل ركبة لم تطل ؛ وجمعها راس . قال الشاعر :

وهم سائرون إلى أرضهم • فبالسهم يخفرون الراسا

والرس أسم واد في قول زهير :

بَكْرَنُ بَكْرًا وَأَسْتَحَرَنُ بُسْحَرَةً • فَهَنَ لَوَادِي الرُّسِّ كَالْيَدِ لِلْفَمِ

ورسست رؤسا : حفرت بئرا . ورُسُ الميت أي قبر . والرُس : الإصلاح بين الناس ، والإصلاح أيضا وقد رَسَّتْ بينهم ؛ فهو من الإصلاح . وقد قيل في أصحاب الرس غير ما ذكرناه ؛ ذكره

الطلي وغيره . ( وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ) أى إنما لا يعلمهم إلا الله بين قوم نوح وعاد وثمود وأصحاب الرس . وعن الربيع بن خيثم أشتكى فقيل له : ألا تتداوى فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمر به ؟ قال : لقد هممت بذلك ثم فكرت فيما بينى وبين نفسى فإذا عاد وثمود وأصحاب الرس وقرون بين ذلك كثيرا كانوا أكثر وأشد حرجا على جمع المال ، فكان فيهم أطباء ، فلا الناعت منهم بقى ولا الملعون ، فابى أن يتداوى فامكث إلا خمسة أيام حتى مات ، رحمه الله .

قوله تعالى : ( وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ) ﴿١٦٦﴾

قوله تعالى : ( وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ ) قال الزجاج . أى وأنذرنا كلا ضربنا له الأمثال وبيننا لهم الحجة ، ولم نضرب لهم الأمثال الباطلة كما يفعله هؤلاء الكفرة . وقيل . انتصب على تقدير ذكرنا كلا ونحوه ، لأن ضرب الأمثال تذكير ووعظ ، ذكره المهدوى . والمعنى واحد . ( وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ) أى أهلكنا بالمناب . وتبتر الشيء كسره . وقال المؤرج والأخفش : دمرناهم تدميرا . تبدل التاء والباء من الدال والميم .

قوله تعالى : ( وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرًا سَوْءًا فَلَمْ يَكُونُوا بِرَوْثِهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُصُورًا ) ﴿١٦٧﴾

قوله تعالى : ( وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ ) بنى مشرك مكة . والقرية قرية قوم لوط . ( وَمَطَرْنَا سَوْءًا ) المجارة التي أمطروا بها . ( فَلَمْ يَكُونُوا بِرَوْثِهَا ) أى فى أسفارهم ليعتبروا . قال ابن عباس : كانت قريش فى تجارتها إلى الشام تمر بمدائن قوم لوط كما قال الله تعالى : « وَإِنَّكُمْ تَسُورُونَ عَلَيْهِمْ مُمْسِكِينَ » وقال : « وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ » وقد تقدم <sup>(١)</sup> . ( بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُصُورًا ) أى لا يصدقون بالبست . ويموز أن يكون معنى « يَرْجُونَ » يخافون . ويموز أن يكون على بابه ويكون معناه : بل كانوا لا يرجون نواب الأخرى .

قوله تعالى : وَإِذَا رَأَوْكَ إِذَا يَخْذُوكَ إِلَّا هُرُؤًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ الْمَعِينَةِ لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلَّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾

قوله تعالى : (وَإِذَا رَأَوْكَ إِذَا يَخْذُوكَ إِلَّا هُرُؤًا) جواب «إذا» «إن يخذونك» لأن معناه يخذونك . وقيل : الجواب محذوف وهو قالوا أو يقولون : «أهَذَا الَّذِي» وقوله : «إِنْ يَخْذُوكَ إِلَّا هُرُؤًا» كلام معترض . وزلت في أبي جهل كان يقول للنبي صلى الله عليه وسلم مستهزئا : (أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا) والعايد محذوف ، أى بعثه الله . «رَسُولًا» نصب على الحال والتقدير : أهذا الذى بعثه الله مرسلًا . «أَهَذَا» رفع بالابتداء و «الَّذِي» خبره . «رَسُولًا» نصب على الحال . و «بَعَثَ» في صلة «الَّذِي» واسم الله عز وجل رفع . «بَعَثَ» . ويجوز أن يكون مصدرًا ؛ لأن معنى «بَعَثَ» أرسل ويكون معنى «رَسُولًا» رسالة على هذا . والألف للاستفهام على معنى التقرير والاحتقار . (إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا) أى قالوا قد كاد أن يضلنا . (عَنْ الْمَعِينَةِ لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا) أى حبسنا أنفسنا على عبادتها . قال الله تعالى : (وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلَّ سَبِيلًا) يريد من أضل دينًا أهم أم عهد ، وقد رآوه في يوم بدر .

قوله تعالى : أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾

قوله تعالى : (أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ) عَجَب نبيه صلى الله عليه وسلم من إضمارهم على الشرك وإصرارهم عليه مع إقرارهم بأنه خالفهم ورأفهم ، ثم يمد إلى حجر يبيده من غير حجة . قال الكلبي وغيره : كانت العرب إذا هوى الرجل منهم شيئًا عبده من دون الله ، فإذا رأى أحسن منه ترك الأول وعبد الأحسن ؛ فلهذا يعنى : أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ؛ فحذف الجار . وقال ابن عباس : الهوى إله يبيد من دون الله ، ثم تلا هذه الآية .

قال الشاعر :

لعمري أيا لو تبنت لناسك • قد أعتل الدنيا بإحدى المنايك  
لصلّي لها قبل الصلاة لره • ولا أرتد في الدنيا بأعمال فاك

وقيل : « اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ » أى أطاع هواه . وعن الحسن لا يهوى شيئا إلا أتبعه ، والمعنى واحد . ( أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ) أى حفيظا وكفيلا حتى تردّه إلى الإيمان وتخرجه من هذا الفساد . أى ليست الهداية والضلالة موكلتين إلى مشيئتكم ، وإنما عليك التبليغ . وهذا رد على القدورية . ثم قيل إنها منسوخة بآية القتال . وقيل لم تنسخ ؛ لأن الآية تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤١﴾

قوله تعالى : ( أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ) ولم يقل أنهم لأن منهم من قد علم أنه يؤمن . وذقهم جل وعز بهذا . « أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ » سماع قبول أو يشكرون فيما تقول فيقولونه ؛ أى هم بمنزلة من لا يعقل ولا يسمع . وقيل : المعنى أنهم لما لم يتفهموا بما يسمعون فكأنهم لم يسمعوا ؛ والمراد أهل مكة . وقيل : « أَمْ » بمعنى بل في مثل هذا الموضع . ( إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ) أى فى الأكل والشرب لا يفكرون فى الآخرة . ( بَلْ هُمْ أَضَلُّ ) إذ لا حساب ولا عقاب على الأنعام . وقال مقاتل : البهائم تعرف ربها وتتهدى إلى مراعيها وتتقاد لأربابها التى تعلقها ، وهؤلاء لا يتقادون ولا يعرفون ربهم الذى خلقهم ورزقهم . وقيل : لأن البهائم إن لم تعقل صحة التوحيد والنبوة لم تعتقد بطلان ذلك أيضا .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٢﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٣﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظَّلَّ ﴾ يجوز أن تكون هذه الرؤية من رؤية العين ، ويجوز أن تكون من العلم . وقال الحسن وقتادة وغيرهما : مد الظل من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس . وقيل : هو من غيوبة الشمس إلى طلوعها . والأول أصح ، والدليل على ذلك أنه ليس من ساعة أطيب من تلك الساعة ؛ فإن فيها يجد المريض راحة والمسافر وكل ذي علة ، وفيها ترد نفوس الأموات والأرواح منهم إلى الأجساد ، وتطيب نفوس الأحياء فيها . وهذه الصفة مفقودة بعد المغرب . وقال أبو العالية : نهار الجنة هكذا ، وأشار إلى ساعة المصلين صلاة الفجر . أبو عبيدة : الظل بالنداء والنفى بالعشى ؛ لأنه يرجع بعد زوال الشمس ؛ سمي فيثا لأنه فاء من المشرق إلى جانب المغرب . قال الشاعر ، وهو حميد بن ثور يصف سرعة<sup>(١)</sup> وكفى بها عن امرأة :

فلا الظل من برد الضمحا تستطيعه \* ولا النقي من برد العشي تدوق

وقال ابن السكيت : الظل ما نسخته الشمس والنفى ما نسخ الشمس . وحكى أبو عبيدة عن رؤية قال : كل ما كانت عليه الشمس فزالت عنه فهو في ظل ، وما لم تكن عليه الشمس فهو ظل . ﴿ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ﴾ أى دائماً مستقراً لا تنسخه الشمس . ابن عباس : يريد إلى يوم القيامة ، وقيل : المعنى لو شاء لمنع الشمس الطلوع . ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴾ أى جعلنا الشمس بنسخها الظل عند مجيئها دالة على أن الظل شيء ومعنى ؛ لأن الأشياء تعرف بأضدادها ولولا الشمس ما عرف الظل ، ولولا النور ما عرفت الظلمة . فالدليل فعيل بمعنى الفاعل . وقيل بمعنى المفعول كالقتيل والذهين والخضيب . أى دللنا الشمس على الظل حتى ذهبت به ؛ أى أبعثناها إياه . فالشمس دليل أى حجة وبرهان ، وهو الذى يكشف المشكل ويوضحه . ولم يؤنث الدليل وهو صفة الشمس لأنه فى معنى الاسم ؛ كما يقال : الشمس برهان والشمس حق . ﴿ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ ﴾ يريد ذلك الظل المحدود . ﴿ إِنَّا قَبَضْنَا يُسِيرًا ﴾ أى يسيراً قبضه علينا . وكل أمر ربنا عليه يسير . فالظل مكتفى فى هذا الجو بمقدار طلوع

(١) السرعة : واحدة السرح ، وهو سحر كبار عظام لا ترى وإنما يستغل فيه .

الفجر إلى طلوع الشمس ، فإذا طلعت الشمس صار الظل مقبوضا ، وخلفه في هذا الجوع شعاع الشمس فاشرق على الأرض وعلى الأشياء إلى وقت غروبها ، فإذا غربت فليس هناك ظل ، إنما ذلك بقية نور النهار . وقال قوم : قبضه بغروب الشمس ؛ لأنها ما لم تغرب فالظل فيه بقية ، وإنما يتم زواله بجيء الليل ودخول الظلمة عليه . وقيل : إن هذا القبض وقع بالشمس ؛ لأنها إذا طلعت أخذ الظل في الذهاب شيئا فشيئا ؛ قاله أبو مالك وإبراهيم التيمي . وقيل : « ثُمَّ قَبَضَتْهُ » أى قبضنا ضياء الشمس بالنقى « قَبْضًا يَسِيرًا » . وقيل « يَسِيرًا » أى سريعا ؛ قاله الضحاك . قتادة : خفيا ؛ أى إذا غابت الشمس قبض الظل قبضا خفيا ؛ كلب قبض جزء منه فجعل مكانه جزء من الظلمة ، وليس يزول دفعة واحدة . فهذا معنى قول قتادة ، وهو قول مجاهد .

قوله تعالى : وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴿١٧﴾  
فيه أربع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ( وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا ) ببنى ستر للخلق يقوم مقام اللباس في ستر البدن . قال الطبري : وصف الليل باللباس تشبيها من حيث يستر الأشياء ويغشاها .  
الثانية - قال ابن العربي : ظن بعض الفغلة أن من صلى عريانا في الظلام أنه يحرته ؛ لأن الليل لباس . وهذا يوجب أن يصل في بيته عريانا إذا أغلق عليه بابه . والستر في [ الصلاة ] عبادة تخص بها ليست لأجل نظر الناس . ولا حاجة إلى الإطتاب في هذا .  
الثالثة - قوله تعالى : ( وَالنَّوْمَ سُبَاتًا ) أى راحة لأبدانكم بأقطاعكم عن الأشغال . وأصل السبات من التمدد . يقال : سبت المرأة شعرها أى قصضته وأرسلته . ورجل مسبوت أى ممدود الخلقة . وقيل للنوم سبات لأنه بالتمدد يكون ، وفي التمدد معنى الراحة . وقيل :

(١) في الأصول : « في الظلام » . والنصوب من « أحكام القرآن لابن العربي » .

السبت القطع ؛ فالنوم آقطاع عن الاشتغال ؛ ومنه سبت اليهود لآقطاعهم عن الأعمال فيه . وقيل : السبت الإقامة في المكان ؛ فكأن السبات سكون ما وثبت عليه ؛ فالنوم سبات على معنى أنه سكون عن الاضطراب والحركة . وقال الخليل : السبات نوم ثقيل ؛ أى جعلنا نومكم ثقيلًا ليكل الإجمام والراحة

الرابعة - قوله تعالى : ﴿ وَجَمَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴾ من الانتشار للماش ؛ أى النهار سبب الإحياء للانتشار . شبه البقطة فيه بتطابق الإحياء مع الإمامة . وكان عليه السلام إذا أصبح قال : " الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور " .

قوله تعالى : وَهُوَ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ  
وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٥٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيحَ نُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ تقدم فى « الأعراف » مستوفى .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾ .

فيه خمس عشرة مثلة :

الأولى - قوله تعالى : « مَاءً طَهُورًا » يتطهر به ؛ كما يقال : وضوء لئال الذى يتوضأ به . وكل طهور طاهر وليس كل طاهر طهورا . فالطهور ( يفتح الطاء ) الاسم . وكذلك الضوء والوقود . وبالضم المصدر ، وهذا هو المعروف فى اللغة ؛ قاله ابن الأنبارى . فبين أن الماء المنزل من السماء طاهر فى نفسه مطهر لغيره ؛ فإن الطهور بناء مبالغة فى طاهر ، وهذه المبالغة آتت أن يكون طاهرا مطهرا . وإلى هذا ذهب الجمهور . وقيل : إن « طَهُورًا » بمعنى طاهر ؛ وهو قول أبى حيفة ؛ وتعلق بقوله تعالى : « وَسَقَاهُمْ رَبِّمْ شَرَابًا طَهُورًا » يعنى طاهرا .

ويقول الشاعر :

خليلٌ هل في نظرة يسد توبة • أداوى بها قلبي على بفسود  
إلى رُجيع الأكفال غيد من الظبا • عذاب الثنايا ريقهن طهور<sup>(١)</sup>

فوصف الريق بأنه طهور وليس بمطهر . ويقول العرب : رجل قويم وليس ذلك بمعنى أنه منيع لغيره ، وإنما يرجع ذلك إلى فعل نفسه . ولقد أجاب علماءنا عن هذا فقالوا : وصف شراب الجنة بأنه طهور يفيد التطهير عن أوضار الذنوب وعن خساس الصفات كالفيل والحسد ، فإذا شربوا هذا الشراب يطهرهم الله من رخص الذنوب وأوضار الاعتقادات الذميمة ، فاعوا الله بقلب سليم ، ودخلوا الجنة بصفات التسليم ، وقيل لهم حينئذ : « سلام عليكم يطيعتم فأدخلوها خالدين » . ولما كان حكمه في الدنيا بزوال حكم الحدث بمران الماء على الأعضاء كانت تلك حكمته ورحمته في الآخرة . وأما قول الشاعر :

• ... ريقهن طهور •

فإنه قصد بذلك المبالغة في وصف الريق بالطهورية لمدوبته وتعلقه بالقلوب ، وطيبه في النفوس ، وسكون غليل الحب برشفه حتى كأنه الماء الطهور . وبالجملة فإن الأحكام الشرعية لا تثبت بالمجازاة الشعرية ، فإن الشعراء يتجاوزون في الاستفراق حد الصدق إلى الكذب ، ويستعملون في القول حتى يخرجهم ذلك إلى البدعة والمعصية ، وربما وقعوا في الكفر من حيث لا يشعرون . ألا ترى إلى قول بعضهم :

ولولم تلاميذ صفحة الأرض رجلها • لما كنت أدرى علة للنسيم

وهذا كفر صراح ، نموذ بالله منه . قال القاضي أبو بكر بن العربي : هذا منتهى لباب كلام العلماء ، وهو بالغ في فنه ؛ إلا أنني تأملت من طريق العربية فوجدت فيه

(١) في ابن العربي والسان مائة « ريج » :

• إلى ريج الأكفال هيف خصورها

بمرأة رجاح وراجح ، قبلة المبيزة ، من نسوة ريج .



مطلما مشرفاً، وهو أن بناء فـُـول للبالغة ، إلا أن البالغة قد تكون في الفعل المصطفى كما قال الشاعر :

• ضَرُوبٌ بِنَصْلِ السِّيفِ سُوْقٌ يَمَانِهَا <sup>(١)</sup> •

وقد تكون في الفعل الفاعل كما قال الشاعر :

• تَزُومُ الضُّمَّا لَمْ تَتَّقِ عَنْ تَحْضِلِ <sup>(٢)</sup> •

وإنما تؤخذ طهورية الماء لنسبه من الحسن نظافة ومن الشرع طهارة ؛ كقوله عليه السلام : " لا يقبل الله صلاة بغير طهور " . وأجمعت الأمة لفئة وشريعة على أن وصف طهور يختص بالماء ولا يتعدى إلى سائر المائعات وهي طاهرة ؛ فكان اقتصارهم بذلك على الماء أدل دليل على أن الطهور هو المطهر، وقد يأتي فـُـول لوجه آخر ليس من هذا كله وهو العبارة به عن الآلة للفعل لا عن الفعل كقولنا : وقود وسحور بفتح الفاء، فإنها عبارة عن الحطب والطعم المتسحر به ؛ فوصف الماء بأنه طهور ( بفتح الطاء ) أيضاً يكون خبراً عن الآلة التي يطهر بها . فإذا ضمت الفاء في الوقود والسحور والطهور عاد إلى الفعل وكان خبراً عنه . فثبت بهذا أن أسم القومول ( بفتح الفاء ) يكون بناء للبالغة ويكون خبراً عن الآلة، وهو الذي خطر ببال الحنفية، ولكن قصرت أشدها عن لوكة، وبعد هذا يقف البيان عن المبالغة وعن الآلة على الدليل بقوله تعالى : « وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا » . وقوله عليه السلام : " جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً " يحتمل المبالغة ويحتمل العبارة به عن الآلة؛ فلا حجة فيه لعلمائنا، لكن يبقى قوله : « لِيُطَهَّرَ بِهِ » نص في أن فعله يتعدى إلى غيره .

الثانية - المياه المنزلة من السماء والمودعة في الأرض طاهرة مطهرة على اختلاف ألوانها وطعومها وأرياحها حتى يخالطها غيرها، والمخالط للاء على ثلاثة أحزاب : ضرب يوافق

(١) هذا صغرييت من قصيدة لأبي طالب بن عبد المطلب يمدح بها مسافرين عمرو والقريش ؛ وقامه .

• إذا عدوا زاداً فذلك طاهر •

(٢) هذا مجرييت من مسقة أمرى القيس ؛ وصدره :

• ويضئ فقيت المسك فوق فراشها •

والاستدق : الأتزان للعمل - والفضل : الترخ؛ وهو لبسها أدنى ثيابها .

في صفته جميعا، فإذا خالطه فغيره لم يسلبه وصفا منها لموافقته لها وهو التراب . والضرب الثاني يوافقه في إحدى صفتيه وهي الطهارة، فإذا خالطه فغيره سلبه ما خالفه فيه وهو التطهير؛ كما ورد وسائر الطهارات . والضرب الثالث يخالفه في الصفتين جميعا، فإذا خالطه فغيره سلبه الصفتين جميعا لمخالفته له فيهما وهو النجس .

الثالثة - ذهب المصريون من أصحاب مالك إلى أن قليل الماء يفسده قليل النجاسة، وأن الكثير لا يفسده إلا ما غير لونه أو طعمه أو ريحه من المحرمات . ولم يحدوا بين القليل والكثير حدًا يوقف عنده، إلا أن ابن القاسم روى عن مالك في الجنب ينقل في حوض من الحياض التي تسقى فيها الدواب ولم يكن غسل ما به من الأذى أنه قد أفسد الماء؛ وهو مذهب ابن القاسم وأشهب وابن عبد الحكم ومن أتبعهم من المصريين . إلا أن وهب فإنه يقول في الماء بقول المدنيين من أصحاب مالك . ويقول ما حكاه أبو مصعب عنهم وعنه : أن الماء لا يفسده النجاسة الحائلة فيه قليلا كان أو كثيرا إلا أن تظهر فيه النجاسة وتغير منه طما أو ريحا أو لونا . وذكر أحمد بن المعتل أن هذا قول مالك بن أنس في الماء . وإلى هذا ذهب إسماعيل بن إسحاق ومحمد بن بكر وأبو الفرج الأجهري وسائر المتأخرين لمذهب مالك من البخاريين؛ وهو قول الأوزاعي والليث بن سعد والحسن بن صالح وداود بن علي . وهو مذهب أهل البصرة، وهو الصحيح في النظر وجيد الأثر . وقال أبو حنيفة : إذا وقعت نجاسة في الماء أفسدته كثيرا كان أو قليلا إذا تحققت عموم النجاسة فيه . ووجه تحققها عنده أن تقع مثلا نقطة بول في بركة، فإن كانت البركة يتحرك طرفاها يتحرك أحدها فالحكل نجس، وإن كانت حركة أحد الطرفين لا تحرك الآخر لم نجس . وفي المجموعة نحو مذهب أبي حنيفة . وقال الشافعي بحديث الثقلين، وهو حديث مطعون فيه؛ اختلف في إسناده ومثناه؛ أخرجه أبو داود والترمذي وخاصة الدارقطني، فإنه صدّره بكتابيه وجمع طرقه . قال ابن العربي : وقد رام الدارقطني على إمامته أن يصحح حديث الثقلين فلم يقدر . وقال أبو عمر بن عبد البر : وأما ما ذهب إليه الشافعي من حديث الثقلين فذهب ضعيف من جهة النظر، غير ثابت

في الآخر؛ لأنه قد تكلم فيه جماعة من أهل العلم بالنقل، ولأن القلتين لا يوقف على حقيقة مبلنهما في أثر ثابت ولا إجماع، فلو كان ذلك حقاً لازماً لوجب على العلماء البحث عنه ليقتفوا على حد ما حقه النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنه من أصل دينهم وفرضهم، ولو كان ذلك كذلك ما ضيعوه، فقد بحثوا عما هو أدون من ذلك والطف.

قلت : وفيما ذكر ابن المنذر في القلتين من الخلاف يدل على عدم التوقيف فيها والتحديد .  
وفي سنن الدارقطني عن حماد بن زيد عن عاصم بن المنذر قال : القليل الخواوي المظالم . وعاصم هذا هو أحد رواة حديث القلتين . ويظهر من قول الدارقطني أنها مثل قلال حجر . لسياقه حديث الإسراء عن أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لما رقت إلى سدرة المنتهى في السماء السابعة نبتها مثل قلال حجر وورقها مثل آذان الفيلة " وذكر الحديث .  
قال ابن العربي : وتعلق علماؤنا بحديث أبي سعيد الخدري في برضاة ، ورواه النسائي<sup>(١)</sup> والترمذي وأبو داود وغيرهم . وهو أيضاً حديث ضعيف لا قدم له في الصحة فلا تعويل عليه . وقد فاوضت الطوسي الأكبر في هذه المسئلة فقال : إن أخلص المذاهب في هذه المسئلة مذهب مالك ، فإن الماء طهور ما لم يتغير أحد أوصافه ؛ إذ لا حديث في الباب يقول عليه ، وإنما المعول على ظاهر القرآن وهو قوله تعالى : « وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا » وهو ماء بصفاته ، فإذا تغير عن شيء منها خرج عن الاسم لخروجه عن الصفة ، ولذلك لما لم يجد البخاري إمام الحديث والفقهاء في الباب خبراً يقول عليه قال : ( باب إذا تغير وصف الماء ) وأدخل الحديث الصحيح : " ما من أحد يكتم في سبيل الله والله أعلم بمن يكتم في سبيله إلا جاء يوم القيامة وجرحه يشب<sup>(٢)</sup> دماً اللون لون الدم والريح ريح المسك " . فأخبر صلى الله عليه وسلم أن الدم بحاله وعليه رائحة المسك ، ولم يخرجها الرائحة عن صفة الدموية . ولذلك قال علماؤنا : إذا تغير الماء بريح جيفة على طرفه وساحله لم يمنع ذلك الوضوء منه . ولو تغير بها وقد وضعت فيه لكان ذلك تيميساً له للعاطلة والأولى عاورة لا تعويل عليها .

(١) برضاة : بريالدية . ويقال إن برضاة اسم المرأة نبت إليها البز . (٢) يشب : يجمد .

قلت : وقد استدل به أيضا على تقيض ذلك ، وهو أن تغير الرائحة يخرج عن أصله .  
 ووجه هذا الاستدلال أن الدم لما استحالت رائحته إلى رائحة المسك خرج عن كونه مستجيبا  
 بجسأ ، وأنه صار مسكاً ، وإن المسك بعض دم الفزال .

فكذلك الماء إذا تغيرت رائحته . وإلى هذا التأويل ذهب الجمهور في الماء .  
 وإلى الأول ذهب عبد الملك . قال أبو هرير : جعلوا الحكم للرائحة دون اللون ، فكان الحكم  
 لها فاستدلوا عليها في زعمهم بهذا الحديث . وهذا لا يفهم منه معنى تسكن إليه النفس ،  
 ولا في الدم معنى الماء يقاس عليه ، ولا يشتغل بمثل هذا الفقهاء ، وليس من شأن أهل العلم  
 اللزبه وإشكاله ؛ وإنما شأنهم إيضاحه وبيانه ، ولذلك أخذ الميثاق عليهم لبيئته للناس  
 ولا يكتفونه ، والماء لا يخلو بتغيره نجاسة أو غير نجاسة ، فإن كان نجاسة وتغير فقد أجمع  
 العلماء على أنه غير طاهر ولا مطهر ، وكذلك أجمعوا أنه إذا تغير بغير نجاسة أنه طاهر على  
 أصله . وقال الجمهور : إنه غير مطهر إلا أن يكون تغيره من ترية وحماة . وما أجمعوا عليه  
 فهو الحق الذي لا إشكال فيه ، ولا التباس معه .

الرابعة - الماء المتغير بقراره كزرنخ أو جير يجرى عليه ، أو تغير بطحلب أو ورق  
 شجر ينبت عليه لا يمكن الاحتراز عنه فأفتى العلماء أن ذلك لا يمنع من الوضوء به ، لعدم  
 الاحتراز منه والافتكالك عنه ؛ وقد روى ابن وهب عن مالك أن غيره أولى منه .

الخامسة - قال علماءنا رحمة الله عليهم : ويكره سؤر النصراني وسائر الكفار والمدمن  
 الخمر ، وما أكل الحيف ؛ كالكلاب وغيرها . ومن توضأ بسؤرهم فلا شيء عليه حتى  
 يستيقن النجاسة . قال البخاري : وتوضأ عمر رضي الله عنه من بيت نصرانية . ذكر سفيان  
 ابن عيينة قال : حدثونا عن زيد بن أسلم عن أبيه قال : لما كنا بالشام أتيت عمر بن الخطاب  
 بماء فتوضأ منه فقال : من أين جئت بهذا الماء ؟ ما رأيت ماء عذبا ولا ماء سماء أطيب منه .  
 قال قلت : جئت به من بيت هذه المجوز النصرانية ؛ فلما توضأ أتاها فقال : أيتها المجوز  
 أسيمي تسليبي ، بعت الله محمدا صلى الله عليه وسلم بالحق . قال : فكشفت عن رأسها ؛ فإذا

مثل الثَّغَامَةِ، قالت : عجوز كبيرة ، وإنا أموت الآن ! فقال عمر رضى الله عنه : اللهم أشهد . نزيجه الدارقطني ، حدثنا الحسين بن إسماعيل قال حدثنا أحمد بن إبراهيم البوشنجي قال حدثنا سفيان .. فذكره . ورواه أيضا عن الحسين بن إسماعيل قال حدثنا خلاد بن أسلم حدثنا سفيان عن زيد بن أسلم عن أبيه أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه توضأ من بيت نصرانية أتاها فقال : أيتها العجوز أسلمى ... ، وذكر الحديث بمثل ما تقدم .

السادسة — فأما الكلب إذا ولغ في الماء فقال مالك : يسل الإناء سبعا ولا يتوضأ منه وهو طاهر . وقال الثوري : يتوضأ بذلك الماء ويتمم معه . وهو قول عبد الملك ابن عبد العزيز ومحمد بن مسلمة . وقال أبو حنيفة : الكلب نجس ، ويسل الإناء منه لأنه نجس . وبه قال الشافعي وأحمد وإسحق . وقد كان مالك يفرق بين ما يحوز أخذه من الكلاب وبين ما لا يحوز أخذه منها في غسل الإناء من ولوغه . وتحصيل مذهبه أنه طاهر عنده ، لا ينجس ولوغه شيئا ولغ فيه طعاما ولا غيره ، إلا أنه استحب هراقة ما ولغ فيه من الماء لیسارة مؤنته . وكتب البادية والحاضرة سواء . ويسل الإناء منه على كل حال سبعا تبعيدا . هذا ما استقر عليه مذهبه عند المناظرين من أصحابه . ذكر ابن وهب قال : حدثنا عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن عطاء عن أبي هريرة قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحياض التي تكون فيما بين مكة والمدينة ، قيل له : إن الكلاب والسباع ترد عليها . فقال : " لما ما أخذت في بطونها ولثا ما بقي شراب وطهور " أخرجه الدارقطني . وهذا نص في طهارة الكلاب وطهارة ما تلغ فيه . وفي البخاري عن ابن عمر أن الكلاب كانت تقبل وتدبر في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يرشون شيئا من ذلك . وقال عمر بن الخطاب لصاحب الخوض الذي سأله عمرو بن العاص : هل ترد حوضك السباع . قال عمر : بإصاحب الخوض ، لا تخبرنا فإنا نرد على السباع وترد علينا . أخرجه مالك والدارقطني . ولم يفرق بين السباع ، والكلب من جملتها ، ولا هجة للخالف

في الأمر بإراقة ما ولد فيه وأن ذلك للنجاسة، وإنما أمر بإراقة لأن النفس تافهة لا لنجاسته؛ لأن اتزهر من الإقذار مندوب إليه، أو تظيلا عليهم لأنهم نهوا عن أقتنائها كما قاله ابن عمر والحسن؛ فلما لم يتهوا عن ذلك غلظ عليهم في الماء لقلته عندهم في البادية، حتى يشتد عليهم فيمتنوا من أقتنائها. وأما الأمر بغسل الإثاء فعبادة لا لنجاسة كما ذكرناه بدليلين: أحدهما - أن النسل قد دخله العدد. الثاني - أنه قد جعل للتراب فيه مدخل لقوله عليه السلام: "ومعقوره الثامنة بالتراب". ولو كان للنجاسة لما كان للعدد ولا للتراب فيه مدخل كالبلبل. وقد جعل صلى الله عليه وسلم المز وما ولد فيه طاهرا، والمز سبع لا خلاف في ذلك؛ لأنه يغترس ويأكل الميتة؛ فكذلك الكلب وما كان مثله من السباع؛ لأنه إذا جاء نص في أحدهما كان نصا في الآخر. وهذا من أقوى أنواع القياس. هذا لو لم يكن هناك دليل، وقد ذكرنا النص على طهارته فسقط قول المخالف. والحمد لله.

السابعة - ما مات في الماء مما لا دم له فلا يضر الماء إن لم يغير ريحه؛ فإن أتن لم يتوضأ به. وكذلك ما كان له دم سائل من دواب الماء كالخوت والضفدع لم يفسد ذلك الماء موته فيه؛ إلا أن تتغير رائحته، فإن تغيرت رائحته وأتن لم يميز التطهر به ولا الوضوء منه، وليس نجس عند مالك. وأما ما له نفس سائلة فمات في الماء وترح مكانه ولم يغير لونه ولا طعمه ولا ريحه فهو طاهر مطهر سواء كان الماء قليلا أو كثيرا عند المدنيين. وأستحب بعضهم أن يترح من ذلك الماء دلاء لتطيب النفس به، ولا يحنثون في ذلك حدا لا يمتدئ. ويكرهون استعمال ذلك الماء قبل نزح الدلاء، فإن آتت حله أحد في غسل أو وضوء جاز إذا كانت حاله ما وصفنا. وقد كان بعض أصحاب مالك يرى لمن توضأ بهذا الماء وإن لم يتغير أن يقيم، فيجمع بين الطهارة احتياطا، فإن لم يفعل وصلى بذلك الماء أجزاء. وروى الدارقطني عن محمد بن سيرين أن زنجيا وقع في زمزم - يعني فمات - فأمر به ابن عباس رضي الله عنه فأخرج فأمر بها أن تترح. قال: فغلبهم حين جاءتهم من

الركي فأمر بها فُدِست بالقباطي<sup>(١)</sup> والمطارف حتى نزحوها ، فلما نزحوها أنفجرت طيم .  
وأخرجه عن أبي الطفيل أن غلاما وقع في بئر زمزم فمزقته . وهذا يحتمل أن يكون الماء  
تغير ، والله أعلم . وروى شعبة عن مغيرة عن إبراهيم أنه كان يقول : كل نفس سائلة  
لا يتوضأ منها ، ولكن رخص في الخنفساء والعقرب والجراد والبلجند إذا وقعن في الركاء<sup>(٢)</sup> فلا  
بأس به . قال شعبة : وأظنه قد ذكر الوزغة . أخرجه الدارقطني ، حدثنا الحسين بن إسماعيل  
قال حدثنا محمد بن الوليد قال حدثنا محمد بن جعفر قال حدثنا شعب ... في ذكره .

الثامنة — ذهب الجمهور من الصفة وفقهاء الأصناف وسائر التابعين بالجماز والعراق  
أن ما ولغ فيه الهز من الماء طاهر ، وأنه لا بأس بالوضوء بسوره ؛ لحديث أبي قتادة ، أخرجه  
مالك وغيره . وقد روى عن أبي هريرة في خلاف . وروى عن عطاء بن أبي رباح وسعيد  
أبن المسيب ومحمد بن سيرين أنهم أمروا بإراقة ماء ولغ فيه الهز وغسل الإنا ، منه . واختلف  
في ذلك عن الحسن . ويحتمل أن يكون الحسن رأى في فقه نجاسة ليصح مخرج الروايتين عنه .  
قال الترمذي لما ذكر حديث مالك : « وفي الباب عن عائشة وأبي هريرة ، هذا حديث حسن  
صحيح ، وهو قول أكثر أهل العلم من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم والتابعين ومن بعدهم ؛  
مثل الشافعي وأحمد وإسحق ، لم يروا بسور الهزة بأسا . وهذا أحسن شيء في الباب ، وقد  
جوز مالك هذا الحديث عن إسحق بن عبد الله بن أبي طلحة ، ولم يأت به أحد أتم من مالك »  
قال الحافظ أبو عمر : المجلة عند النزاع والاختلاف سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ،  
وقد صح من حديث أبي قتادة أنه أصفى لها الإنا حتى شربت . الحديث . وعليه اعتماد  
الفقهاء في كل مصر إلا أبا حنيفة ومن قال بقوله ؛ فإنه كان يكره سوره . وقال : إن توضأ  
به أحد أجزاء ، ولا أعلم حجة لمن كره الوضوء بسور الهزة أحسن من أنه لم يبلغه حديث أبي  
قتادة ، ولغنه حديث أبي هريرة في الكلب فقاى الهز عليه ، وقد فرقت الستة بينهما في باب

(١) دسم الشيء يدسمه دسما : سده . والقباطي ( القم ) : ثياب من كان يرقق يسل بمصر ؛ فنية إلى القبط  
على غير قياس . والمطارف : جمع مطرف ، وهو رداء من خز مريح ذو أعلام . (٢) البلجند كهدد طيور  
شبه الجراد . (٣) الركاء ( جمع ركوة ) : إنا صغير من جد يشرب فيه الماء .

اتعبد في غسل الإناء ، ومن حَجَّته السنة خاصته ، وما خالفها مطروح . وبالله التوفيق .  
ومن حجَّتهم أيضا ما رواه قزعة بن خالد عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة عن النبي صلى الله  
عليه وسلم قال : " طهور الإناء إذا ولغ فيه المِزْ أن يغسل مرة أو مرتين " شك قزعة . وهذا  
الحديث لم يرفعه إلا قزعة بن خالد ، وقرة ثقة ثبت .

قلت : هذا الحديث أخرجه الدارقطني ، ووثقه : " طهور الإناء إذا ولغ فيه الكلب  
أن يغسل سبع مرات الأولى بالتراب والمِزْ مرة أو مرتين " . قزعة شك . قال أبو بكر :  
كذا رواه أبو عاصم مرفوعا ، ورواه غيره عن قزعة ( ولوغ الكلب ) مرفوعا و ( ولوغ المِزْ )  
موقوفا . وروى أبو صالح عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يغسل  
الإناء من المِزْ كما يغسل من الكلب " قال الدارقطني : لا يثبت هذا مرفوعا والمخفوظ من قول  
أبي هريرة وأختلف عنه . وذكر معمر وأبن جريح عن ابن طاوس عن أبيه أنه كان يعمل  
المِزْ مثل الكلب . وعن مجاهد أنه قال في الإناء يُلغ فيه السُّنور قال : أغسله سبع مرات .  
قاله الدارقطني .

الثامنة - الماء المستعمل طاهر إذا كانت أعضاء المتوضئ به طاهرة ؛ إلا أن  
مالكا وجماعة من الفقهاء الحسنة كانوا يكرهون الوضوء به . وقال مالك : لا خير فيه ،  
ولا أحب لأحد أن يتوضأ به ، فإن فعل وصل لم أر عليه إعادة الصلاة ويتوضأ لما يستقبل .  
وقال أبو حنيفة والثوري وأصحابهما : لا يجوز استعماله في رفع الحدث ، ومن توضأ به أعاد ؛  
لأنه ليس بماء مطلق ، ويتم واجده لأنه ليس بواجد ماء . وقال بقولهم في ذلك أصبغ بن الفرج ،  
وهو قول الأوزاعي . وأحسبوا بحديث الصنابحي أخرجه مالك وحديث عمرو بن عبسة  
أخرجه مسلم ، وغير ذلك من الآثار . وقالوا : الماء إذا توضئ به خرجت الخطايا معه ؛  
فوجب التزهد عنه لأنه ماء الذنوب . قال أبو عمر : وهذا عندى لا وجه له ؛ لأن الذنوب  
لا تجس الماء لأنها لا اختصاص لها ولا أجسام تمازج الماء فتفسده ، وإنما معنى قوله  
" تخرجت الخطايا مع الماء " إعلام منه بأن الوضوء للصلاة عمل يكفر الله به السيئات عن عباده



المؤمنين رحمة منه بهم وتفضلا عليهم . وقال أبو ثور وداود مثل قول مالك ، وأن الوضوء بالماء المستعمل جائز ؛ لأنه ماء طاهر لا ينضاف إليه شيء وهو ماء مطلق . واحتجوا بإجماع الأمة على طهارته إذا لم يكن في أعضاء المتوضئ نجاسة . وإلى هذا ذهب أبو عبد الله المروزي - محمد بن نصر . وروى عن علي بن أبي طالب وأبن عمر وأبي أمامة وعطاء بن أبي رباح والحسن البصري والنخعي ومكحول والزهري أنهم قالوا فيمن نسي مسح رأسه فوجد في لحيته بلا : إنه يحزئه أن يمسح بذلك البلل رأسه ؛ فهؤلاء كلهم أجازوا الوضوء بالماء المستعمل . روى عبد السلام بن صالح حدثنا إسحق بن سويد عن العلاء بن زياد عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم مرضى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج عليهم ذات يوم وقد أغتسل وقد بقيت لمعة من جسده لم يصبها الماء ، فقلنا : يا رسول الله ، هذه لمعة لم يصبها الماء ، فكان له شعروارد<sup>(١)</sup> ، فقال بشعره هكذا على المكان قبله . أخرجه الدارقطني ، وقال : عبد السلام بن صالح هذا بصرى وليس بقوى ، وغيره من الثقات يرويه عن إسحق عن العلاء مرسلًا ، وهو الصواب .

قلت : الراوى الثقة عن إسحق بن سويد العدوي عن العلاء بن زياد العدوي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أغتسل ... ، الحديث فيما ذكره هشيم . قال ابن العربي : «مسئلة الماء المستعمل إنما تنهى على أصل آخر ، وهو أن الأكلة إذا أتى بها فرض هل يؤدي بها فرض آخر أم لا ؛ فنع ذلك المخالف قياسا على الرقية إذا أتى بها فرض عتي لم يصلح أن يتكرر في أداء فرض آخر ؛ وهذا باطل من القول ، فإن المتي إذا أتى على الرق أتلفه فلا يبقى عمل لأداء الفرض بعتي آخر . ونظيره من الماء ما تلف على الأعضاء فإنه لا يصح أن يؤدي به فرض آخر لتلف فيه حسا كما تلف الرق في الرقية بالمتى حكما ، وهذا تقيس فتأملوه » .

(١) أي مسرسل طويل . (٢) الشرب يجعل القول عبارة من جمع الأنال ، وتلفه على غير الكلام والسان ؛ فتقول : قال يده ، أي أخذ . وقال برجله ؛ أي مشى . وقال بالماء على يده ؛ أي قلب . وقال بثوبه ؛ أي ربه . وكل ذلك على الجواز والاتساع .

العاشرة - لم يفرق مالك وأصحابه بين الماء تقع فيه النجاسة وبين النجاسة يرد عليها الماء ، راكدا كان الماء أو غير راكد ؛ لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الماء لا ينجسه شيء إلا ما غلب عليه فغير طعمه أو لونه أو ريحه " . وفرقت الشافعية فقالوا : إذا وردت النجاسة على الماء تنجس ؛ واختاره ابن العربي . وقال : من أصول الشريعة في أحكام المياه أن ورود النجاسة على الماء ليس كورود الماء على النجاسة ؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم : " إذا استيقظ أحدكم من نومه فلا يغمس يده في الإناء حتى يغسلها ثلاثا فإن أحدكم لا يدري أين باتت يده " . فنع من ورود اليد على الماء ، وأمر بإيراد الماء عليها ، وهذا أصل يديح في الباب ، ولولا وروده على النجاسة - قليلا كان أو كثيرا - لما طهرت . وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في بول الأعرابي في المسجد : " صبوا عليه <sup>(١)</sup> من ماء " . قال شيخنا أبو العباس : وأستدلوا أيضا بحديث الثقلين ، فقالوا : إذا كان الماء دون الثقلين غلبته نجاسة تنجس وإن لم يغيره ، وإن ورد ذلك القدر فأقبل على النجاسة فذهب عنها بقى الماء على طهارته وأزال النجاسة وهذه مناقضة ، إذ المخالطة قد حصلت في التصويت . وتفرقتهم بورد الماء على النجاسة وورودها عليه فوق صورتي ليس فيه من الفقه شيء . وليس الباب باب التعبدات بل من باب إزالة المعاني ، فإنه من باب إزالة النجاسة وأحكامها . ثم هذا كله منهم يردده قوله عليه الصلاة والسلام : " الماء طهور لا ينجسه شيء إلا ما غلب لونه أو طعمه أو ريحه " .

قلت : هذا الحديث أخرجه الدارقطني عن ريشدين بن سعد أبي الحجاج عن معاوية بن صالح عن راشد بن سعد عن أبي أمامة الباهلي وعن ثوبان عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وليس به ذكر اللون . وقال : لم يرضه غير رشدين بن سعد عن معاوية بن صالح وليس بالقوى . وأحسن منه في الاستدلال ما رواه أبو أمامة عن الوليد بن كثير عن محمد بن كعب عن عبيد الله بن عبد الله بن ربح بن خديج عن أبي سعيد الخدري قال قيل : يا رسول الله ،

أتوضأ من بثر بضاعه ، وهى بثر تلقى فيها الحيض ولحوم الكلاب والنتن ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الماء طهور لا ينجسه بثر " أخرجه أبو داود والترمذى والدارقسى . كلهم بهذا الإسناد . وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن ، وقد جؤد أبو أسامة هذا الحديث ولم يرو أحد حديث أبى سعيد فى بثر بضاعه أحسن مما روى أبو أسامة . فهذا الحديث من ورود النجاسة على الماء ، وقد حكم صلى الله عليه وسلم بطهارته وطهوره . قال أبو داود : سمعت قتيبة بن سعيد قال سألت قيم بثر بضاعه عن عمقها ؛ قلت : أكثر ما يكون الماء فيها ؟ قال : إلى العانة . قلت : فإذا نقص ؟ قال : دون الدورة . قال أبو داود : وفقرت بثر بضاعه برداى مددته طليا ثم ذرعتة فإذا عرضها ستة أذرع ، وسألت الذى فتح لى باب البستان فأدخلنى إليه : هل غير بناؤها عما كانت عليه ؟ فقال لا . ورأيت فيها ماء متغير اللون . فكان هذا دليلا لنا على ما ذكرناه ، غير أن ابن العربى قال : إنها فى وسط السبعة ، فإذا ما يكون متغيرا من قراوها ، والله أعلم .

الحادية عشرة - الماء الطاهر المطهر الذى يحوز به الوضوء وغسل النجاسات هو الماء القراح الصافى من ماء السماء والأنهار والبحار والعيون والآبار ، وما عرفه الناس ماء مطلقا غير مضاف إلى شئ خالطه كما خلقه الله عز وجل صافيا ولا يصره لون أرضه على ما بيناه . وخالف فى هذه الجملة أبو حنيفة وعبد الله بن عمرو وعبد الله بن عمر فأما أبو حنيفة فأجاز الوضوء بالنبيذ فى السفر ، وجوز إزالة النجاسة بكل مائع طاهر . فأما بالدهن والمرق فعنه رواية أنه لا يجوز إزالتها به . إلا أن أصحابه يقولون : إذا زالت النجاسة به جاز . وكذلك عنده النار والشمس ؛ حتى أن جلد الميتة إذا جف فى الشمس طهر من غير دباغ . وكذلك النجاسة على الأرض إذا جفت بالشمس فإنه يطهر ذلك الموضع ، بحيث تجوز الصلاة عليه ، ولكن لا يحوز التيمم بذلك التراب . قال ابن العربى : لما وصف الله سبحانه الماء بأنه طهور وآمن بإزاله من السماء ليطهرنا به دل على اختصاصه بذلك ؛ وكذلك قال عليه الصلاة

والسلام بآسماء بنت الصديق حين سألته عن دم الحيض يصيب الثوب : "حَتَّى تَمَّ أَفْرِضِيهِ  
ثُمَّ اغْسِلِيهِ بِالمَاءِ" . فذلك لم يلحق غير الماء بالماء لما في ذلك من إبطال الإكتمان ،  
وليست النجاسة معنى محسوساً حتى يقال كل ما أزالها فقد قام به الغرض ، وإنما النجاسة حكم  
شرعي عين له صاحب الشرع الماء فلا يلحق به غيره إذ ليس في معناه ، ولأنه لو لحق به  
لأسقطه ، والفرع إذا عاد إلجأته بالأصل في إسقاطه سقط في نفسه . وقد كان تاج السنة  
ذو العزآين المرتضى الديلمي يسميه فرج زنى .

قلت : وأما ما استدل به على استعمال التبيذ فأحاديث واهية ، ضعاف لا يقوم شيء منها  
على ساق ؛ ذكرها الدارقطني وضعفها وبص عليها . وكذلك ضعف ما روى عن ابن عباس  
موقوفاً "التبيذ وضوء لمن لم يجد الماء" . في طريقه آبن حمز متروك الحديث . وكذلك  
ما روى عن علي أنه قال : لا بأس بالوضوء بالتبيذ . المجاج وأبو ليل ضعيفان . وضعف  
حديث آبن مسعود وقال : نمرذ به آبن حبة وهو ضعيف الحديث . وذكر عن علفية بن  
فيس قال قلت لعبد الله بن مسعود : أشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدكم ليلة آناه  
داعى الجن ؟ فقال لا .

قلت : هذا إساد صحيح لا يختلف في عدالة رواته . وأخرج الترمذى حديث آبن مسعود  
قال : سألت النبي صلى الله عليه وسلم : " ما في إدوائك<sup>(١)</sup> " فقلت : نبيذ . فقال : " تمر  
طيبة وماء طهور " قال : فتوضأ منه . قال أبو عيسى : وإنما روى هذا الحديث عن أبي  
زيد عن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وأبو زيد رجل مجهول عند أهل الحديث  
لا نعرف له رواية غير هذا الحديث ، وقد رأى بعض أهل العلم الوضوء بالتبيذ ؛ منهم سفيان  
وغیره ، وقال بعض أهل العلم : لا يتوضأ بالتبيذ ، وهو قول الشافعى وأحمد وإسحق ، وقال  
إسحق : إن آبتل رجل بهذا فتوضأ بالتبيذ وتيمم أحب إلى . قال أبو عيسى : وقول من يقول  
لا يتوضأ بالتبيذ أقرب إلى الكتاب والسنة وأشبه ؛ لأن الله تعالى قال : « قُلْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا<sup>(٢)</sup> »

(١) الإدالة ( بالكسر ) : آاء . صغير من به يخذله .

صَعِيدًا طَيِّبًا . . وهذه المسئلة مطولة في كتب الخلاف ؛ وعملتهم التمسك بلفظ الماء حسبا  
تقدم في « المائدة » بيانه والله أعلم .

الثانية عشرة - لما قال الله تعالى : « وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا » وقال « يُطَهِّرُكُمْ  
بِهِ » توقف جماعة في ماء البحر ؛ لأنه ليس بمثل من السماء ؛ حتى رووا عن عبد الله  
ابن عمرو بن عمرو مما أنه لا يتوضأ به ؛ لأنه نار ولأنه طبق جهنم . ولكن النبي صلى الله  
عليه وسلم بين حكمه حين قال لمن سأله : « هو الطهور ماؤه الحل ميتة » أخرجه مالك . وقال  
فيه أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . وهو قول أكثر الفقهاء من أصحاب النبي  
صلى الله عليه وسلم ، منهم أبو بكر وعمر وعمر بن الخطاب ، لم يروا بأما بماء البحر ، وقد كره بعض  
أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم الوضوء بماء البحر ؛ منهم ابن عمر وعبد الله بن عمرو ، وقال  
عبد الله بن عمرو : هو نار . قال أبو عمر : وقد سئل أبو عيسى الترمذي عن حديث مالك  
هذا عن صفوان بن سليم فقال : هو عندي حديث صحيح . قال أبو عيسى فقلت للبخاري :  
هشيم يقول فيه ابن أبي بزة . فقال : ويعم فيه ، إنما هو المغيرة بن أبي بزة . قال أبو عمر :  
لا أدرى ما هذا من البخاري رحمه الله ، ولو كان صحيحا لأخرجه في مصنفه الصحيح عنه ،  
ولم يفعل لأنه لا يمول في الصحيح إلا على الإسناد . وهذا الحديث لا يمتنع أهل الحديث بمثل  
إسناده ، وهو عندي صحيح لأن العلماء تلقوه بالقبول له والعمل به ، ولا يخالف في جلته أحد  
من الفقهاء ، وإنما الخلاف بينهم في بعض معانيه . وقد أجمع جمهور من العلماء وجماعة  
أئمة الفتوى بالأمصار من الفقهاء : أن البحر طهور ماؤه ، وأن الوضوء به جائز ؛ إلا ما روى  
عن عبد الله بن عمرو بن الخطاب وعبد الله بن عمرو بن العاصي أنهما كرها الوضوء بماء البحر ،  
ولم يتأبهما أحد من فقهاء الأمصار على ذلك ولا عرج عليه ، ولا التفت إليه لحديث هذا  
الباب . وهذا يترك على أشتار الحديث عندهم ، وعملهم به وقبولهم له ، وهو أولى عندهم من  
الإسناد الظاهر الصحة لمخني ترده الأصول . والله التوفيق .

قال أبو عمر : وصفوان بن سليم مولى حميد بن عبد الرحمن بن عوف الزهرري ، من عباد أهل المدينة وأتقاهم لله ، ناسكاً ، كثير الصدقة بما وجد من قليل وكثير ، كثير العمل ، خافاً لله ، يكنى أبا عبد الله ، سكن المدينة لم ينتقل عنها ، ومات بها سنة اثنتين وثلاثين ومائة . ذكر عبد الله بن أحمد بن حنبل قال : سمعت أبي يسأل عن صفوان بن سليم فقال : ثقة من خيار عباد الله وفضلاء المسلمين . وأما سعيد بن سامة فلم يرو عنه فيما علمت إلا صفوان - والله أعلم - ومن كانت هذه حاله فهو مجهول لا تقوم به حجة عند جميعهم . وأما المغيرة بن أبي بردة فثقل عنه إنه غير معروف في حملة العلم كسعيد بن سامة . وقيل : ليس بمجهول . قال أبو عمر : المغيرة بن أبي بردة وجدت ذكره في منازل موسى بن نصير بالمغرب ، وكان موسى يستعمله على الخليل ، وفتح الله له في بلاد البربر فتوحات في البر والبحر . وروى الدارقطني من غير طريق مالك عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من لم يطهره ماء البحر فلا طهره الله " . قال إسناده حسن .

الثالثة عشرة - قال ابن العربي : توهم قوم أن الماء إذا فُضِّلَ للجَنبِ منه فضله لا يتوضأ به ، وهو مذهب باطل ، فقد ثبت عن ميمونة أنها قالت : أجببت أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم وأغتسلت من جَفَنَةٍ وفضلت فضله ، بغاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ليفضل منه قلقت : إني قد أغتسلت منه . فقال : " إن الماء ليس عليه نجاسة - أو - إن الماء لا ينجب " . قال أبو عمر : وردت آثار في هذا الباب مرفوعة في النهي عن أن يتوضأ الرجل بفضل المرأة . وزاد بعضهم في بعضها : ولكن يغتفرها جميعاً . فقالت طائفة : لا يجوز أن يتعرف الرجل مع المرأة في إناء واحد ، لأن كل واحد منهما متوضئ بفضل صاحبه . وقال آخرون : إنما كره من ذلك أن تتفرد المرأة بالإتيان ثم يتوضأ الرجل بعدها بفضلها . وكل واحد منهم روى بما ذهب إليه أئمة . والذي ذهب إليه الجمهور من العلماء وجماعة فقهاء الأمصار أنه لا بأس أن يتوضأ الرجل بفضل المرأة ويتوضأ المرأة من فضله ، أنفردت المرأة بالإتيان أو لم تتفرد . وفي مثل هذا آثار كثيرة صحاح . والذي نذهب إليه أن

الماء لا ينجسه شيء إلا ما ظهر فيه من النجاسات أو غلب عليه منها ، فلا وجه للائتنال بما لا يصح من الآثار والأقوال . والله المستعان .

روى الترمذى عن ابن عباس قال حدثني ميمونة قالت : كنت أغتسل أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم من إناء واحد من الجنابة . قال هذا حديث حسن صحيح . وروى البخارى عن عائشة قالت : كنت أغتسل أنا والنبي صلى الله عليه وسلم من إناء واحد يقال له الفرق <sup>(١)</sup> . وفى صحيح مسلم عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يغتسل بفضل ميمونة . وروى الترمذى عن ابن عباس قال : أغتسل بعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم في جفنة فأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتوضأ منه فقالت : يا رسول الله ، إني كنت جنباً . قال : "إن الماء لا ينجب" . قال : هذا حديث حسن صحيح ، وهو قول سفيان الثورى ومالك والشافعى . وروى الدارقطنى عن عمرة عن عائشة رضى الله عنها قالت : كنت أتوضأ أنا والنبي صلى الله عليه وسلم من إناء واحد وقد أصابت المرة منه قبل ذلك . قال : هذا حديث حسن صحيح . وروى أيضاً عن رجل من بنى غفار قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن فضل طهور المرأة . وفى الباب عن عبد الله بن سرجس ، وكره بعض الفقهاء فضل طهور المرأة ، وهو قول أحمد وإسحق .

الرابعة عشرة — روى الدارقطنى عن زيد بن أسلم مولى عمر بن الخطاب أن عمر بن الخطاب كان يسخن له الماء في قمعة <sup>(٢)</sup> ويغتسل به . قال : وهذا إسناده صحيح . وروى عن عائشة قالت : دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد سحخت ماء في الشمس . فقال " لا تفعل يا - إيه فإنه يورث البرص " . رواه خالد بن إسماعيل المخزومى عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة ، وهو متروك . ورواه عمرو بن محمد الأشعث عن طليح عن الزهرى عن عروة عن عائشة . وهو منكر الحديث ، ولم يروه غيره عن طليح ، ولا يصح عن الزهرى ، قاله الدارقطنى .

(١) الفرق ( بالتحريك ) : مكال يسع ستة عشر رطلاً . وبالسكون مائة وعشرون رطلاً .

(٢) القمعة والقسم ( كقدهد ) : ما يسخن فيه الماء من نحاس وضرة .

الخامسة عشرة -- كل إناء طاهر يغاثر الوضوء منه إلا إناء الذهب والفضة ؛ لنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن اتخاذها . وذلك -- والله أعلم -- للتشبه بالأعاجم والجبارة لانجاسة فيها . ومن توضأ فيهما أجزاء وضوءه وكان عاصيا باستعمالها . وقد قيل : لا يميز الوضوء في أحدهما . والأقول أكثر ؛ قاله أبو عمر . وكل جلد ذكي يغاثر استعماله للوضوء وغير ذلك . وكان مالك يكره الوضوء في إناء جلد الميتة بعد الدباغ ؛ على اختلاف من قوله . وقد تقدم في « النحل »<sup>(١)</sup> .

قوله تعالى : لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مِّيتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٥٦﴾

قوله تعالى : ( لِنُحْيِيَ بِهِ ) أى بالمطر . ( بَلْدَةً مِّيتًا ) بالجدوبة والمحل وعدم النبات . قال كعب : المطر روح الأرض يحييها الله به . وقال : « مَيِّتًا » ولم يقل ميتة لأن معنى البلدة والبلد واحد ؛ قاله الزجاج . وقيل : أراد بالبلد المكان . ( وَنُسْقِيَهُ ) قراءة العامة بضم النون . وقرأ عمر بن الخطاب وعاصم والأعمش فيما روى المفضل عنهما « نُسْقِيَهُ » ( بفتح ) النون . ( مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ) أى بشرا كثيرا وأناسى واحده أنسى نحو جمع الفرقور قَرَاقِيرَ وقَرَاقِرَ في قول الأخفش والمبرد وأحد قول الفراء ؛ وله قول آخر وهو أن يكون واحده إنسانا ثم تبدل من النون ياء ؛ فنقول : أناسى ، والأصل أناسين ، مثل سرحان وسراحين ، وبستان وبساتين ؛ فجعلوا الياء عوضا من النون ، وعلى هذا يجوز سراسى وبساقى ، لا فرق بينهما . قال الفراء : ويجوز « أَنَاسِي » بتخفيف الياء التى بين لام الفعل وعينه ؛ مثل قراقير وقراقر . وقال « كثيرا » ولم يقل كثيرين ؛ لأن فى فيلا قد يراد به الكثرة ؛ نحو « وَحَسَنَ أَوْلَئِكَ رَفِيقًا » .

(١) راجع ج ١٠ ص ١٥٦ طبعة أول أناتنية . (٢) فى الاصول : « مصم النون » . وهو محم بن النسيب من أبى حبان وغيره . . (٣) الفرقور : صرمت من السفن . وقيل : هى السفينة المطيعة أو العارية .



قوله تعالى : وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ  
إِلَّا كُفُورًا ﴿٥﴾

قوله تعالى : ( وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ ) معنى الفرقان ، وقد جرى ذكره في أول السورة :  
قوله تعالى : « تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ » . وقوله : « لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ إِذْ جَاءَنِي »  
وقوله : « اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا » . ( لِيَذَّكَّرُوا فَأَنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا )  
أي مجموعاً له وتكديماً به . وقيل : « وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ » هو المطر . روى عن ابن عباس  
وآبن مسعود : وأنه ليس عام بأكثر مطراً من عام ولكن الله يصرِّفه حيث يشاء ، فما زيد  
لبعض قصب من غيرهم . فهذا معنى التصريف . وقيل « صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ » وأبلا وطشاً وطلاً  
وريحاًما — الجسومى : الرهام الأمطار اللينة — ورذاذاً . وقيل : تصريفه تسوية  
الاستفاح به في الشرب والسقي والزرعات به والطهارات وسقي البساتين والفصل وشبهه .  
« لِيَذَّكَّرُوا فَأَنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا » قال عكرمة : هو قولهم في الأنواء : مطراً بنوء كذا .  
قال النحاس : ولا نعلم بين أهل التفسير اختلافاً أن التكفر هاهنا قولهم مطراً بنوء كذا وكذا ؛  
وأن ظنهم فعل التعم كذا ، وأن كل من نسب إليه فعلاً فهو كافر . وروى الربيع بن صبيح  
قال : مُطِرَ الناس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة ، فلما أصبح قال النبي  
صلى الله عليه وسلم : « أصبح الناس فيها رجلين شاكراً وكافراً فما الشاكراً فيحمد الله تعالى  
على سقياه وغياحه وأما الكافر فيقول مُطِرَنا بنوء كذا وكذا » . وروى من حديث آبن مسعود  
عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما من سنة بأكثر من أخرى ولكن إذا عمل قوم  
بالمعاصى صرف الله ذلك إلى غيرهم فإذا عصوا جميعاً صرف الله ذلك إلى الفياق والبعار » .  
وقيل : التصريف راجع إلى الريح ، وقد مضى في « البقرة » بياته . وقرأ حمزة والكسائي  
« لِيَذَّكَّرُوا » غنقة اللال من الذكر . الباقون متلاً من التذكر ؛ أي لِيَذَّكَّرُوا نعم الله  
يرسلوا أن من أتم بها لا يحوز الإشراك به ؛ فالتذكر قريب من الذكر غير أن التذكر  
يطلق فيما بعد عن القلب فيحتاج إلى تكلف في التذكر .

قوله تعالى : وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُلَاحِظُ  
الْكَافِرِينَ وَجَهَنَّمَ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾

قوله تعالى : ( وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ) أى رسولا يندبهم كما قسمنا المطر  
ليخف عليك أعباء النبوة ، ولكالم فعل بل جطاك نذيرا لكل لترفع درجتك فأشكر نعمة  
الله عليك . ( فَلَا تُلَاحِظُ الْكَافِرِينَ ) أى فيما يدعووك إليه من أتباع آلهتهم . ( وَجَهَنَّمَ بِهِ )  
قال ابن عباس بالقرآن . ابن زيد : بالإسلام . وقيل : بالسيف ؛ وهذا فيه بده ؛ لأن  
السورة مكية نزلت قبل الأمر بالقتال . ( جِهَادًا كَبِيرًا ) لا يغالطه نور .

قوله تعالى : وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا  
مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴿٥٣﴾

قوله تعالى : ( وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ ) عاد الكلام إلى ذكر النعم . و« مَرَجَ »  
خَلَّ وَخَلَطَ وَأَرْسَلَ . قال مجاهد : أرسلهما وأفاض أحدهما في الآخر . قال ابن عرفة :  
« مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ » أى خلطهما فهما يلتقيان ؛ يقال : مرجه إذا خلطته . و« مَرَجَ الدِّينُ »  
والأمرُ أخلط وأضطرب ؛ ومنه قوله تعالى : « فِي أَمْرِ مَرْيَمَ » . ومنه قوله عليه الصلاة  
والسلام لعبد الله بن عمرو بن العاصي <sup>(١)</sup> : « إِذَا رَأَيْتَ النَّاسَ مَرَجَتْ عُهُودُهُمْ وَخَفَّتْ أَمَانَتُهُمْ  
وَكَانُوا هَكَذَا وَهَكَذَا » وشبك بين أصابعه فقلت له : كيف أصنع عند ذلك ، جئني الله  
فذاك ! قال : « أَرَأَيْتَ عَلَيْكَ لِسَانُكَ وَخَذَ بِمَا تَعْرِفُ وَدَعَا مَا تَكْفُرُ وَعَلَيْكَ  
بِخَاصَةِ أَمْرِ نَفْسِكَ وَدَعَا عَنْكَ أَمْرَ الْعَامَةِ » خرجه النسائي وأبو داود وغيرهما . وقال  
الأزهري : « مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ » خل بينهما ؛ يقال مَرَجَتْ الدَّابَّةُ إِذَا خَلَّتْهَا رَعْيُ . وقال  
نحسب : المَرَجُ الإجماع ؛ فقلوه : « مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ » أى أجزأهما . وقال الأخفش : يقول قوم  
أمرج البحرين مثل مرج فعل وأفعل بمعنى . ( هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ ) أى حلو شديد المنومة .

(١) الحديث في الفتحة .

( وَهَذَا مَلْحٌ أَجَاجٌ ) أى فيه ملوحة ومرارة . وروى طلحة أنه قرئ « وَهَذَا مَلْحٌ »  
 بفتح الميم وكسر اللام . ( وَجَمَلٌ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ ) أى حائزا من قدرته لا يظلب أحدهما  
 على صاحبه ؛ كما قال في سورة الرحمن « مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ . بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْتِغِيَانِ » .  
 ( وَيَجْمَرُ تَحْجُورًا ) أى سقرا مستورا يمنع أحدهما من الاختلاط بالآخر . فالبرزخ الحاجز ،  
 والجمر المساع . وقال الحسن : يعنى بحر فارس وبحر الروم . وقال ابن عباس وابن جبير : يعنى  
 بحر السماء وبحر الأرض . قال ابن عباس : يلتقيان في كل عام وبينهما برزخ قضاء من قضائه .  
 « وَيَجْمَرُ تَحْجُورًا » حراما محزوما أن يذب هذا الملح بالذنب ، أو يلع هذا الذنب بالمح .  
 قوله تعالى : وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا جَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا  
 وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٥﴾

فيه مستطان :

الأول — قوله تعالى : ( وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا ) أى خلق من الطلقة إنسانا .  
 ( جَعَلَهُ ) أى جعل الإنسان « نَسَبًا وَصِهْرًا » . وقيل : « مِنَ الْمَاءِ » إشارة إلى أصل الخلق  
 في أن كل حي مخلوق من الماء . وفي هذه الآية تعديد النعمة على الناس في إيجادهم بعد العدم ،  
 والتنبيه على العبرة في ذلك .

الثانية — قوله تعالى : ( جَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ) النسب والصحر معنيان بيان كل قرى تكون  
 بين آدميين . قال ابن العربي : النسب عبارة عن خلط الماء بين الذكر والأنثى على وجه الشرع ؛  
 فإن كان بمعية كان خلقا مطلقا ولم يكن نسبا محققا ، ولذلك لم يدخل تحت قوله « حُرِّمَتْ  
 عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ » . بثته من الزنى ؛ لأنها ليست ببنت له في أصح القولين لعلنا تأم  
 القولين في الدين ؛ وإذا لم يكن نسب شرعا فلا صهر شرعا ، فلا يحزم الزنى بنت أم ولا أم بنت ،  
 وما يحزم من الحلال لا يحزم من الحرام ؛ لأن الله آتمن بالنسب والصحر على عباده ورفع  
 قدرهما ، وعاقب الأحكام في الحل والحرم عليهما فلا يلحق الباطل بهما ولا يساويهما .

قلت : أختلف الفقهاء في نكاح الرجل أبنته من زنى أو أخته أو بنت أبنته من زنى ؛  
فحرم ذلك قوم منهم ابن القاسم ، وهو قول أبي حنيفة وأصحابه ، وأجاز ذلك آخرون منهم  
عبد الملك بن الماجشون ، وهو قول الشافعي ، وقد مضى هذا في « النساء » مجزئاً . قال  
الفراء : النسب الذي لا يحل نكاحه . وقاله الزجاج ، وهو قول علي بن أبي طالب رضي الله  
عنه . واشتقاق الصهر من صهرت الشيء إذا خلطته ؛ فكل واحد من الصهرين قد خلط  
صاحبه ، فسميت المتاح صهراً لاختلاط الناس بها . وقيل : الصهر قرابة النكاح ؛ قرابة  
الزوجة هم الأختان ، قرابة الزوج هم الأعمام . والأصهار يقع عاماً لتلك كله ؛ قاله الأصمعي .  
وقال ابن الأعرابي : الأختان أبو المرأة وأخوها وعمها — كما قال الأصمعي — والصهر زوج  
أبنة الرجل وأخوه وأبوه وعمه . وقال محمد بن الحسن في رواية أبي سليمان الجوزجاني : أختان  
الرجل أزواج بناته وأخواته وعماته وخالاته ، وكل ذات محرم منه ، وأصهاره كل ذي رحم محرم  
من زوجته . قال النحاس : الأولى في هذا أن يكون القول في الأصهار ما قال الأصمعي ، وأن  
يكون من قبلهما جميعاً . يقال صهرت الشيء أي خلطته ؛ فكل واحد منهما قد خلط صاحبه .  
والأولى في الأختان ما قال محمد بن الحسن للجهتين : إحداهما الحديث المرفوع ، روى محمد  
ابن إسحاق عن يزيد بن عبد الله بن قسيط عن محمد بن أسامة بن زيد عن أبيه قال قال رسول  
الله صلى الله عليه وسلم : «أما أنت يا عليّ نخني وأبو ولدي وأنت مني وأنا منك» . فهذا على  
أن زوج البنت حتن . والجهة الأخرى أن اشتقاق الحتن من حنته إذا قطعه ؛ وكان الزوج  
قد أقطع عن أهله . وقطع زوجته عن أهلها . وقال الضحاك : الصهر قرابة الرضاع . قال  
ابن عطية : وذلك عندي وهم أوجه أن ابن عباس قال : حرم من النسب سبع ، ومن الصهر  
نحس . وفي رواية أخرى من الصهر سبع ؛ يريد قوله عز وجل « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ  
وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ » فهذا هو النسب . ثم يريد  
بالصهر قوله تعالى : « وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ » إلى قوله « وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ » .  
ثم ذكر المحصنات . ومحل هذا أن ابن عباس أراد حرم من الصهر ما ذكر معه ، فقد أشار

بما ذكر إلى عظمه وهو الصبر ، لا أن الرضاع صبر ، وإنما الرضاع عديل النسب يحرم منه ما يحرم من النسب بحكم الحديث المأثور فيه . ومن روى : وحرم من الصبر خمس أسقط من الآيتين الجمع بين الأخنين والمحصنات ؛ وهن ذوات الأزواج .

قلت : فأين عطية جبل الرضاع مع ما تقدم نقبا ، وهو قول الزجاج . قال أبو إسحق : النسب الذي ليس بصهر من قوله جل ثناؤه : « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ » إلى قوله « وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ » والصهر من له الترويح . قال ابن عطية : وحكى الزمراوى قولاً أن النسب من جهة البنين والصهر من جهة البنات .

قلت : وذكر هذا القول الحاس ، وقال : لأن المصاهرة من جهتين تكون . وقال ابن سيرين : نزلت هذه الآية في سمى صلى الله عليه وسلم وعلى رضى الله عنه ؛ لأنه جمعه به نسب وصهر . قال ابن عطية : فأجمعهما وكلاهما إلى يوم القيامة . ( وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ) على خلق ما يريد .

قوله تعالى : وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ  
وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : ( وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ) لما عدد النعم وبين كمال قدرته عجب من المشركين في إشراكهم به من لا يقدر على نفع ولا ضرر ؛ أى إن الله هو الذى خلق ما ذكره ، ثم هؤلاء يلجأون من دونه أمواتا بجادات لا تنفع ولا تضر . ( وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا ) روى عن ابن عباس : « الكافر » هنا أبو جهل ؛ وشرحه أنه يستظهر بعبادة الأوثان على أوليائه . وقال عكرمة : « الكافر » إبليس ، ظهر على عداوة ربه . وقال مطرف : « الكافر » هنا الشيطان . وقال الحسن : « ظهيرا » أى مينا للشيطان على المعاصى . وقيل : المعنى ؛ وكان الكافر على ربه هنا ذليلا لا يقوله ولا وزن عنده ؛ من قول الرب : ظَهَرَتْ بِهِ أَى جِئْتُه خَلْفَ ظَهْرِكَ وَلَمْ تَنْتَفِ إِلَيْهِ . ومنه قوله تعالى : « وَاتَّخَذُوا وِرَاءَهُمْ ظَهْرًا » أى هينا .

ومنه قول القرزدي :

تَسْمِي بِنَفْسٍ لَا تَكُونُ حَاجِقًا • يَظْهَرُ فَلَا يَبِيا عَلَى جَوَابِهَا

هذا معنى قول أبي عبيدة • وظهير بمعنى مظهر • أى كفر الكافرين حين على الله تعالى ، والله مستهين به لأن كفره لا يضره • وقيل : وكان الكافر على ربه الذى يعبده وهو الصنم قويا غالبا يصل به ما يشاء ، لأن الجساد لا قدرة له على دفع ضرر وقع •

قوله تعالى : وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾

قوله تعالى : ( وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ) يريد بالجنة مبشرا ونذيرا من النار؛ وما أرسلناك وكلا ولا مسيطرا • ( قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ) يريد على ما جئتم به من القرآن والوصى • و « من » التأكيد • ( إِلَّا مَنْ شَاءَ ) لكن من شاء ، فهو استثناء منقطع ، والمعنى : لكن من شاء ( أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ) بإغناقه من ماله فى سبيل الله فليفتق • ويموز أن يكون متصلا ويقدر حذف المضاف ، التقدير : إلا أجر « مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا » أتباع دينى حتى ينال كرامة الدنيا والآخرة •

قوله تعالى : وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ يَذُنُوبٍ عِبَادَةٍ خَيْرًا ﴿٥٨﴾

قوله تعالى : ( وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ) تقدم معنى التوكل فى « آل عمران » وهذه السورة وأنه اعتماد القلب على الله تعالى فى كل الأمور ، وأن الأسباب وسائط أمر بها من غير اعتماد عليها • ( وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ) أى تراه الله تعالى عما يصفه هؤلاء الكفار به من الشركاء • والتسبيح التزويه ، وقد تقدم • وقيل : « وَسَبِّحْ » أى صل له ، وتسمى الصلاة تسبيحا • ( وَكَفَىٰ بِهِ يَذُنُوبٍ عِبَادَةٍ خَيْرًا ) أى عليا فيجازيهم بها •

قوله تعالى : **الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَلِّ بِهِ خَيْرًا** ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : **(الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ)** تقدم في الأعراف <sup>(١)</sup> . و« الَّذِي » في موضع خفض نعتا لله . وقال « بَيْنَهُمَا » ولم يقل بَيْنَ ؛ لأنه أراد الصغين والنوعين والشئيين ؛ كقول القطامي :

ألم يحزنك أن حبال قيس • وتلب قد تبايخا أقطاما

أراد وحبال تلب فخي ، والحبال جمع ؛ لأنه أراد الشئيين والنوعين . **(الرَّحْمَنُ فَاسْتَلِّ بِهِ خَيْرًا)** قال الزجاج : المعنى فأسأل عنه . وقد حكى هذا جماعة من أهل اللغة أن الباء تكون بمعنى عن ؛ كما قال تعالى : **« سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ »** وقال الشاعر :

هَلَّا سَأَلْتُ الخيل يَابْنَ مَالِك • إن كنت جاهلة بما لم تعلمي <sup>(٢)</sup>

وقال [علقمة بن عبدة] <sup>(٣)</sup> :

فأنت تسألوني بالنساء فإني • خيرٌ بأدواء النساء طيبٌ

أى عن النساء وعمما لم تعلمي . وأنكره علي بن سليمان وقال : أهل النظر ينكرون أن تكون الباء بمعنى عن ؛ لأن في هذا إفسادا لمعاني قول العرب : لو لقيت فلانا للقيك به الأسد ؛ أى للقيك بفلائك إياه الأسد . المعنى فأسأل بسؤالك إياه خبيرا . وكذلك قال ابن جبير : الخبير هو الله . فـ « خَيْرًا » نصب على المفعول به بالسؤال .

قلت : قول الزجاج يخرج على وجه حسن ، وهو أن يكون الخبير غير الله ؛ أى فأسأل عنه خيرا ، أى عاى به ، أى بصفاته وأسمائه . وقيل : المعنى فأسأل له خيرا ، فهو نصب

(١) راجع ج ٧ ص ٢١٨ وما بعدها طبعه أول أو ثانية . (٢) البيت من معلقة عترة .

(٣) في نسخ الأصل : « وقال أمرؤ القيس » وهو تحريف . والبيت من قصيدة لعلقمة مظلما :

طما بك قلب في الحسان طروب • بعيد الشباب صرحان مشبه

على الحال من المياء المضرة . قال المهدوي : ولا يحسن حالا إذ لا يخلو أن تكون الحال من السائل أو المسئول ، ولا يصح كونها حالا من الفاعل ؛ لأن الخبير لا يحتاج أن يسأل غيره . ولا يكون من المفعول ؛ لأن المسئول عنه وهو الرحمن خير أبدا ، والحال في أغلب الأمر يتغير ويقتل ؛ إلا أن يحمل على أنها حال مؤكدة ؛ مثل « وهو الحق مُصَدِّقًا » فيجوز . وأما « الرحمن » ففى رفته ثلاثة أوجه : يكون بدلا من المضر الذى فى « أَسْتَوَى » . ويجوز أن يكون مرفوعا بمعنى هو الرحمن . ويجوز أن يكون مرفوعا بالابتداء وخبره « فاستل به خَيْرًا » . ويجوز الخفض بمعنى وتوكل على الحى الذى لا يموت الرحمن ؛ يكون نعتا . ويجوز النصب على المدح .

قوله تعالى : وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : ( وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ ) أى لله تعالى . ( قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ ) على جهة الإنكار والتعجب ، أى ما نعرف الرحمن إلا الرحمن الجامعة ، يتون مسيلة الكتاب . وزعم القاضى أبو بكر بن العربى أنهم إنما جهلوا الصفة لا الموصوف ، وأستدل على ذلك بقوله : « وَمَا الرَّحْمَنُ » ولم يقولوا ومن الرحمن . قال ابن الحصار : وكأنه رحمه الله لم يقرأ الآية الأخرى « وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ » . ( أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا ) هذه قراءة المدنيين والبصريين ، أى لما تأمرنا أنت يا عبد . وأختره أبو عبيد وأبو حاتم . وقرأ الأعشى وحمة والكسائى « يَاْمُرُنَا » بالياء . يتون الرحمن ؛ كذا تأوله أبو عبيد ، قال : ولو أقروا بأن الرحمن أمرهم ما كانوا كفارا . فقال النحاس : وليس يجب أن يتأول عن الكوفيين فى قراءتهم هذا التأويل البعيد ، ولكن الأولى أن يكون التأويل لهم « أَنَسْجُدُ لِمَا يَأْمُرُنَا » النبى صلى الله عليه وسلم ؛ فصح القراءة على هذا ، وإن كانت الأولى أين وأقرب تناولا . ( وَزَادَهُمْ نُفُورًا ) أى زادهم قول القائل لم أسجدوا للرحمن نفورا عن الدين . وكان صفيان الثوري يقول فى هذه الآية : إلهى زادنى لك خضوعا ما زاد عندك نفورا .



قوله تعالى : تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا  
وَقَرَأَ مُبِينًا ﴿٦١﴾

قوله تعالى : ( تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا ) أى منازل ؛ وقد تقدم ذكرها .  
( وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا ) قال ابن عباس : يعنى الشمس ؛ نظيره « وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا » .  
وقراءة العامة « سِرَاجًا » بالتوحيد . وقرا حزة والكسائي « سُرْجًا » يريدون النجوم العظام  
الوقادة . والقراءة الأولى عند أبي عبيد أولى ؛ لأنه تأول أن السُّرْجَ النجوم ، وأن البروج النجوم ،  
فيجىء المعنى نجومًا ونجومًا . النحاس : ولكن التأويل لم أن أبان بن تغلب قال : السرج النجوم  
الدرارى . الثعلبي : كالزهرة المشتري وزحل والماكين ونحوها . ( وَقَرَأَ مُبِينًا ) ينير الأرض  
إذا طلع . وروى عصمة عن الأعمش « وَقَرَأَ » بضم القاف وإسكان الميم . وهذه قراءة شاذة ،  
ولا يمكن فيها إلا أن أحمد بن حنبل وهو إمام المسلمين في وقته قال : لا تكتبوا ما يحكيه  
عصمة الذى يروى القراءات ، وقد أوقع أبو حاتم السجستاني بذكر ما يرويه عصمة هذا .

قوله تعالى : وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَن أَرَادَ  
أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ( خِلْفَةً ) قال أبو عبيدة : الخلفة كل شئ ، بعد شئ .  
وكل واحد من الليل والنهار يخلف صاحبه . ويقال للبطون : أصابته خلفة ؛ أى قيام وقعود  
يخلف هذا ذاك . ومنه خلفة النبات ، وهو ورق يخرج بعد الورق الأول في الصيف .  
ومن هذا المعنى قول زهير بن أبى سلمى :

بها العين والأرَامُ يَبْشِيشُ خِلْفَةً ۝ وَأَطْلَاؤُهَا يَنْهَضَنَّ مِنْ كُلِّ مَجْنَمٍ

(١) راجع ج ١٠ ص ٩ طيبة أول أورثانية . (٢) العين (بالكسر) جمع عين وعينا . وهو بقر الوحش ؛  
سميت بذلك لسهة أعبانها . والأطلاؤ : جمع طلاء ، وهو ولد البقرة وولد الظبية الصغير . والمجنم : الموضع الذى  
يجمع فيه ؛ أى مقام فيه .

النوم ولد الظبي وجمعه آرام ؛ يقول : إذا ذهب فوج جاء فوج . ومنه قول الآخر يصف امرأة تنقل من منزل في الشتاء إلى منزل في الصيف دأبا :

ولما بالماطرين إذا • أكل الغل الذي جمعا

خفّة حتى إذا أرتبمت • سكنت من جلتي ييما

في بيوت وسط دسكرة • حولها الزيتون قد ينما

قال مجاهد : « خفّة » من الخلاف ؛ هنا أبيض وهذا أسود ؛ والأوّل أقوى . وقيل : يتعاقبان في الضياء والظلام والزيادة والنقصان . وقيل : هو من باب حذف المضاف ؛ أى جعل الليل والنهار ذوى خفّة ، أى اختلاف . ( لَمِنْ أَرَادَ أَنْ يَذْكُرَ ) أى يتذكر ، فيعلم أن الله لم يجعله كذلك عبثا فيمتدّ في مصنوعات الله ، ويشكر الله تعالى على نعمه عليه في العقل والذكر والفهم . وقال عمر بن الخطاب وأبن عباس والحسن : معناه من فاته شيء من الخير . أدركه بالنهار ، ومن فاته بالنهار أدركه بالليل . وفي الصحيح : « ما من أمرئ تكون له صلاة بالليل فغلب عليها نوم فيصلى ما بين طلوع الشمس إلى صلاة الظهر إلا كتب الله له أجر صلاته وكان نومه عليه صدقة » . وروى مسلم عن عمر بن الخطاب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من نام عن شيء من شيء منه فقرأه فيما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر كتب له كأنما قرأه من الليل » .

الثانية - قال ابن العربي : سمعت ذا الشهيد الأكبر يقول : إن الله تعالى خلق العبد حيا عالما ، وبذلك كماله ، وسلط عليه آفة النوم وضرورة الحدث ونقصان الخفّة ؛ إذ الكمال للأوّل الخالق ، فما أمكن الرجل من دفع النوم بخلة الأكل والسهو في طاعة الله فيفعل . ومن الغبن العظيم أن يعيش الرجل ستين سنة ينام ليلا فيذهب النصف من عمره لغوا ، وينام سدس النهار راحة فيذهب ثلثه ويبقى له من العمر عشرون سنة . ومن الجهالة والسفاهة أن يتلف الرجل ثلثي عمره في لذة فانية ، ولا يتلف عمره بسهر في لذة باقية عند الفنى الرفى الذى ليس بقديم ولا ظلم .

(١) هوزيد بن ساهرة . والماطرين : موضع بالشام قرب دمشق .

الثالثة - الأشياء لا تتفاضل بأفضها؛ فإن الجواهر والأعراض من حيث الوجود متماثلة، وإنما يقع التفاضل بالصفات. وقد اختلف أى- الوقتين أفضل، الليل أو النهار. وفى الصوم غنية فى الدلالة، والله أعلم؛ قاله ابن العربى -

قلت : والليل عظيم قدره؛ أمر نبيه عليه الصلاة والسلام بقيامه فقال : «وَيْنَ اللَّيْلِ قَتَمَجْدِيهِ نَافِلَةً لَكَ»، وقال : «قُمِ اللَّيْلَ» على ما يأتى بيانه. ومدح المؤمنين على قيامه فقال : «تَعَبَأَ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ». وقال عليه الصلاة والسلام : «والصدقة تطفى الخليفة كما يطفى الماء النار وصلاة الرجل فى جوف الليل وفيه ساعة يستجاب فيها الدعاء وفيه ينزل الرب تبارك وتعالى» حسب ما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى .

الرابعة - قرأ حزة وحده «يَذْكُرَ» بسكون الذال وضم الكاف . وهى قراءة ابن وثاب وطلحة والنخعي . وفى مصحف أبى- «يَذْكُرُ» بزيادة تاء . وقرأ الباقون «يَذْكُرُ» بتشديد الكاف . ويَذْكُرُ ويَذْكُرُ بمعنى واحد . وقيل : معنى «يَذْكُرُ» بالتخفيف أى يذكر ما نسيه فى أحد الوقتين فى الوقت الثانى، أو ليدكر تزيه الله وتسبيحه فيها . (أَوْ أَرَادَ شُكُورًا) يقال : شكر شكر شكرًا وشكورا، بثل كفى يكفر كفرا وكفورا . وهذا الشكور على أنهما جعلهما قواما لمعانيهما . وكأنهم لما قالوا : «وَمَا الرَّحْمَنُ» قالوا : هو الذى يقدّر على هذه الأشياء .

قوله تعالى : وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾

قوله تعالى : (وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا) لما ذكر جهالات المشركين وطعنهم فى القرآن والنبوة ذكر عباده المؤمنين أيضا وذكر صفاتهم؛ وأضافهم إلى عبوديته تشريفا لهم، كما قال : «سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِسَيِّدِهِ» وقد تقدم . فمن أطاع الله وعبدته وشغل سمعه وبصره ولسانه وقلبه بما أمره فهو الذى يستحق

أسم العبودية، ومن كان بكس هذا شمله قوله تعالى : «أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلَّيْهُمْ أَضَلُّ» يعنى فى عدم الاعتبار؛ كما تقدم فى «الأعراف» . وكأنه قال : وعباد الرحمن هم الذين يمشون على الأرض ، غفد هم ؛ كقولك : زيد الأمير ، أى زيد هو الأمير . فـ«الَّذِينَ» خبر مبتدأ محذوف؛ قاله الأخفش . وقيل الخبر قوله فى آخر السورة : «أُولَئِكَ يُعْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا» وما بين المبتدأ والخبر أوصاف لهم وما تعلق بها؛ قاله الزجاج . قال : ويجوز أن يكون الخبر «الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ» . و«يَمْشُونَ» عبارة عن عيشهم ومدة حياتهم وتصرفاتهم، فذكر من ذلك المظم، لا سيما وفى ذلك الانتقال فى الأرض؛ وهو معايشة الناس وغلطتهم .

قوله تعالى : «هُوَ» الهون مصدر المهيئ ، وهو من السكينة والوقار . وفى التفسير : يمشون على الأرض حلما متواضعين، يمشون فى اقتصاد . والقصد والتؤدة وحسن السمات من أخلاق النبوة . وقال صلى الله عليه وسلم : «أبها الناس عليكم بالسكينة فإن البر ليس فى الإيضاع» وروى فى صفته صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا زال زال قلما ، ويخوذ تكفؤا ، ويمشى هونا ، ذريع المشية إذا مشى كأنما يخط من صَبَب . التقلع : رفع الرجل بقوة . والتكفؤ : الميل إلى سنن المشى وقصده . والهون الزفق والوقار . والذريع الواسع الخطأ ؛ أى أن مشيه كان يرفع فيه رجله بسرعة ويمد خطوه ؛ خلاف مشية المختال ، ويقصد سمته ؛ وكل ذلك برفق وتثبت دون عجلة . كما قال : كأنما يخط من صَبَب ؛ قاله القاضى عياض . وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يسرع جبلة لا تكلفا . قال الزهرى : سرعة المشى تذهب بهاء الوجه . قال ابن عطية : يريد الإسراع الحثيث لأنه يخل بالوقار ؛ والخير فى التوسط . وقال زيد بن أسلم : كنت أسأل عن تفسير قوله تعالى : «الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا» فما وجدت من ذلك شفاء ، فرأيت فى المنام من جاءنى فقال لى : هم الذين لا يريدون أن يفسدوا فى الأرض . قال القشيري : وقيل لا يمشون لإفساد ومعصية ، بل فى طاعة الله والأمور المباحة من غير هوك . وقد قال الله تعالى : «وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ

كُلُّ مُخْتَالٍ فَخُورٌ • وقال ابن عباس : بالطاعة والمعروف والتواضع . الحسن : حسنه  
إن جهل عليهم لم يجهلوا . وقيل : لا يتكبرون على الناس .

قلت : وهذه كلها معاني متقاربة ، ويجمعها العلم بالله والخوف منه ، والمعرفة بأحكامه  
والخشية من عذابه وعقابه ؛ جلنا الله منهم بفضلهم ومنه . وذهبت فرقة إلى أن « هوتا »  
مرتبط بقوله « يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ » أن المشي هو هون . قال ابن عطية : ويشبه أن  
يتأول هذا على أن تكون أخلاق ذلك الماشي هوتا مناسبة لمشي ، فيرجع القول إلى نحو  
ما بيناه . وأما أن يكون المراد صفة المشي وحده فباطل ؛ لأنه رب ما يشي هوتا رويدها  
وهو ذنب أطلس<sup>(١)</sup> . وقد كانت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتكفا في مشيه كأنما يعني  
في صلب . وهو عليه الصلاة والسلام الصدر في هذه الأمة . وقوله عليه الصلاة والسلام :  
« من مشى معكم في طمع فليمش رويدها » إنما أراد في عقد نفسه ، ولم يرد المشي وحده .  
الآثرى أن المبطلين المتحلين بالدين تمسكوا بصورة المشي فقط ؛ حتى قال فيهم الشاعر ذمالم :  
كلهم يمشي رويده • كلهم يطلب صيد  
قلت : وفي عكسه أشد ابن العربي لنفسه :

تواضعت في المليء والأصل كابر • وحزنت فصاب السبق بالهون في الأمر  
سكون فلا خبت السريرة أصله • وجل سكون الناس من عظم الكبر

قوله تعالى : ( وَإِنَّا خَاطَبُهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ) قال النحاس : ليس « سَلَامًا »  
من التسليم إنما هو من السلم ؛ بقول العرب : سلاما ، أى تسلمنا منك ، أى براءة منك .  
منصوب على أحد أمرين : يجوز أن يكون منصوبا بـ « قَالُوا » ، ويجوز أن يكون منصوبا بـ  
وهذا قول سيويه . قال ابن عطية : والذي أقوله : أن « قَالُوا » هو العامل في « سَلَامًا »  
لأن المعنى قالوا هذا اللفظ . وقال مجاهد : معنى « سَلَامًا » سَدَادًا . أى يقول للجاهل كلاما

(١) الأطلس من الذئاب : هو الذي تساقط شعره ، وهو أعيث ما يكون . وقيل : هو الذي في لونه خضرة  
للحمر . (٢) هذا من كلام ابن سبويه المنصور الخليفة في مدح عمر بن عبد العزيز المشهور . وقيل :  
غير محمود بن حنبل •

يدفعه به برفق ولين . فـ « قَالُوا » على هذا التأويل عامل في قوله : « سَلَامًا » على طريقة التحوين ؛  
 وذلك أنه بمعنى قولاً . وقالت فرقة : ينبغي التناطح أن يقول للجاهل سلاماً ؛ بهذا اللفظ .  
 أي سلمنا سلاماً أو تسليماً ، ونحو هذا ؛ فيكون العامل فيه فعلاً من لفظة على طريقة التحوين .  
 مسألة : هذه الآية كانت قبل آية السيف ، نسخ منها ما يخص الكفرة وبقى أديها  
 في المسلمين إلى يوم القيامة . وذكر سيويه النسخ في هذه الآية في كتابه ، وما تكلم فيه على نسخ  
 سواء ؛ رجع به أن المراد السلامة لا التسليم ؛ لأن المؤمنين لم يؤمروا قط بالسلام على الكفرة .  
 والآية مكية فسختها آية السيف . قال النحاس : ولا تعلم لسيويه كلاماً في معنى النسخ  
 والمنسوخ إلا في هذه الآية . قال سيويه : لم يؤمر المسلمون يومئذ أن يسلموا على المشركين  
 لكنه على معنى قوله : « سَلَامًا مِنْكُمْ » ، ولا خير ولا شريفنا ويتكم . المبرد : كلف ينبغي أن  
 يقال : لم يؤمر المسلمون يومئذ بحربهم ثم أمروا بحربهم . محمد بن يزيد : أخطأ سيويه  
 في هذا وأساء العبارة . ابن العربي : لم يؤمر المسلمون يومئذ أن يسلموا على المشركين  
 ولا نهوا عن ذلك ، بل أمروا بالصفح والمعجزة الجميل ، وقد كان عليه الصلاة والسلام يقف  
 على أنديتهم ويحييهم ويدانهم ، ولا يداهم . وقد آخى الناس على أن السفيه من المؤمنين  
 إذا جفاك يجوز أن تقول له سلام عليك .

قلت : هذا القول أشبه بدلائل السنة . وقد بينا في سورة « مريم »<sup>(١)</sup> اختلاف العلماء  
 في جواز التسليم على الكفار ، فلا حاجة إلى دعوى النسخ ؛ والله أعلم . وقد ذكر البصريين  
 شميل قاله حديث الخليل قال : أتيت أبا ربيعة الأعرابي وكان من أعلم من رأيت ، فإذا هو  
 على سطح ، فلما سلمنا ردة علينا السلام وقال لنا : آسنوا . وبقينا متحيرين ولم ندر ما قال .  
 فقال لنا أعرابي إلى جنبه : أمركم أن ترضعوا . قال الخليل : هو من قول الله عز وجل :  
 « ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ » فصعدنا إليه فقال : هل لكم في خبز فطير ، ولبن هببر ،  
 وماء عير ؟ قلنا الساعة فارقاء . فقال سلاماً . فلم ندر ما قال . قال فقال الأعرابي : إنه

(١) راجع ج ١١ ص ١١١ وما بعدها طبعه أول أو ثانية .

(٢) الفطير : خلاف الخبز ، وهو العجين الذي لم يختمر . والهبير : الحنظل . والنخير : الناجح في الرى .

سالكين مشاركة لا خيف فيها ولا شر . فقال الخليل : هو من قول الله عز وجل : « وَإِنَّا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا » . قال ابن عطية : ورأيت في بعض التواريخ أن إبراهيم بن المهدي — وكان من المائلين على علي بن أبي طالب رضى الله عنه — قال يوما بمحضرة المأمون وعنده جماعة : كنت أرى علي بن أبي طالب في النوم فكنت أقول له من أنت ؟ فكان يقول : علي بن أبي طالب . فكنت أجيء معه إلى قنطرة فيذهب فيقتدني في عبورها . فكنت أقول : إنما تدعى هذا الأمر بأمرأة ونحن أحق به منك . فلما رأيت له في الجواب بلاغة كما يذكر عنه . قال المأمون : وبمأنا جابوك ؟ قال : فكان يقول لي سلاما . قال الراوى : فكان إبراهيم بن المهدي لا يحفظ الآية أو ذهبت عنه في ذلك الوقت . فيه المأمون على الآية من حضره وقال : هو والله ياعم علي بن أبي طالب ، وقد جابوك بأبلغ جواب ، نفذى إبراهيم وأستجبا . وكانت رؤيا لا محالة صحيحة .

قوله تعالى : « وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا » (١١)

قوله تعالى : ( « وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا » ) قال الزجاج : بات الرجل بيت إذا أدركه الليل ، ثم أولم يمه . قال زهير :

فبتنا قياما عند رأس جلودنا • يزاولنا عن قمه وتزاوله

وأنشدوا في صفة الأولياء :

امنع جفونك أن تذوق مناما • وأذير الدموع على الخلود مجاما  
واعلم بانك ميت ومحاسب • يا من على سخط الخليل أقاما  
فه قوم اخلصوا في حبه • فرضى بهم واختصم خداما  
قوم إذا جنى الظلام عليهم • باتوا هناك سجدا وقياما  
نحمن البطون من التحف ضمرا • لا يعرفون سوى الحلال طاماما

(١) في نسخ الأصل : « قال أمرؤ القيس » . وهو تحريف . والبيت من تصدع لغير طلبها :

سقط القلب من سلى وأضر باله • ومضى أفراس الصبا ودواحه

وقال ابن عباس : من صلى ركعتين أو أكثر بعد العشاء فقد بات لله ساجدا وقائما .  
وقال الكلبي : من أقام ركعتين بعد المغرب وأربعا بعد العشاء فقد بات ساجدا وقائما .

قوله تعالى : **وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ**  
**إِنْ عَذَابُهَا كَانَ غَرَامًا ۖ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۝١٦**

قوله تعالى : **(وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ)** أى هم مع طاعتهم مشفقون خائفون ويحسون من عذاب الله . ابن عباس : يقولون ذلك في مجيئهم وقيامهم .  
**(إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا)** أى لازما دائما غير مفارق . ومنه سمي الغريم للملازمة . ويقال : فلان مغرم بكذا أى لازم له مولج به . وهذا معناه في كلام العرب فيما ذكر ابن الأعرابي وآبن حرفة وغيرهما . وقال الأعشى :

إن يعاقب يكن غراما وإن يسطى جزيلاً فإنه لا يسأل

وقال الحسن : قد علموا أن كل غريم يفارق غريمه إلا غريم جهنم . وقال الزجاج : الغرام أشد العذاب . وقال ابن زيد : الغرام الشر . وقال أبو عبيدة : الهلاك . والمعنى واحد .  
وقال محمد بن كعب : طالبهم الله تعالى بنج النعم في الدنيا فلم يأتوا به ، فأغرمهم منها بإدخالهم النار . **(إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا)** أى بس المسقر وبس المقام . أى إنهم يقولون ذلك عن علم ، وإذا قالوه عن علم كانوا أعرف بعظم قدر ما يطلبون ، فيكون ذلك أقرب إلى النجح .

قوله تعالى : **وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ**  
**ذَلِكَ قَوَامًا ۝١٧**

قوله تعالى : **(وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا)** اختلف المفسرون في تأويل هذه الآية . فقال النحاس : ومن أحسن ما قيل في معناه أن من أنفق في غير طاعة الله فهو الإسراف ، ومن أمسك عن طاعة الله عز وجل فهو الإقتار ، ومن أنفق في طاعة الله تعالى فهو القوام .



وقال ابن عباس : من أغنى مائة ألف في حق فليس بسرف ، ومن أنفق درهمي في غير حقه فهو سرف ، ومن منع من حق عليه فقد قتر . وقاله مجاهد وابن زيد وغيرهما . وقال عون ابن عبد الله : الإسراف أن تنفق مال غيرك . قال ابن عطية : وهذا ونحوه غير مرتبط بالآية ، والوجه أن يقال . إن النفقة في معصية أمر قد حظرت الشريعة قليله وكثيره ، وكذلك التمدى على مال الغير ، وهؤلاء الموصوفون متزهون عن ذلك ، وإنما التأديب في هذه الآية هو في نفقة الطامعات في المباحات ، فأدب الشرع فيها ألا يفرط الإنسان حتى يضع حقا آخر أو حياء ونحو هذا ، وألا يضيق أيضا ويقتصر حتى يبيع العيال ويغري في الشح ، والحسن في ذلك هو القوام ، أي السد ، والقوام في كل واحد بحسب عياله وحاله ، ونفقة ظهره وصبره وجلده على الكسب ، أو ضد هذه الخصال ، وغير الأمور أو ما ظاهرها ، ولهذا ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر الصديق يتصدق بجميع ماله ، لأن ذلك وسط بنسبة جلده وصبره في الدين ، ومنع غيره من ذلك . ونعم ما قال إبراهيم النخعي : هو الذي لا يبيع ولا يعز ولا ينفق نفقة يقول الناس قد أسرف . وقال يزيد بن أبي حبيب : هم الذين لا يلبسون الثياب بجمال ، ولا ياكلون طعاما لذنة . وقال يزيد أيضا في هذه الآية : أولئك أصحاب عبد الله صلى الله عليه وسلم كانوا لا ياكلون طعاما للتم واللذة ، ولا يلبسون ثيابا للجمال ، ولكن كانوا يريدون من الطعام ما يستغنونهم الجوع ويخوهم على عبادة ربهم ، ومن اللباس ما يستر حوراتهم ويكتمهم من الحر والبرد . وقال عبد الملك ابن مروان لعمر بن عبد العزيز حين زوجه أبنته فاطمة : ما فعلتك؟ فقال له عمر : الحسنه بين سيئين ، ثم تلا هذه الآية . وقال عمر بن الخطاب : كفى بالمرء سرفا ألا يشتهي شيئا إلا اشتراه فأكله . وفي سنن ابن ماجه عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن من السرف أن تأكل كل ما أشتيت " وقال أبو عبيدة : لم يزيدوا على المعروف ولم يخلوا . كقوله تعالى : « وَلَا تَجْمَلْ بِلَدِّكَ مَثَلَوَاتٌ إِلَى حَبْثِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسِطِ » وقال الشاعر :

ولا تفل في شيء من الأمر وأقتصد • ككلا طرقت قصيد الأمور نعيم

وقال آخر :

إذا المرء أعطى نفسه كل ما آشتت • ولم يَنْهها نأقت إلى كل باطل

وسأقت إليه الإثم والعار بالذي • دعت إليه من حلاوة عاجل

وقال عمر لابنه عاصم : يا بني ، كل في نصف بطنك ؛ ولا تطرح ثوبا حتى تستنقه ،

ولا تكن من قوم يعملون ما رزقهم الله في بطونهم وعلى ظهورهم . ولحاتم طي :

إذا أنت قد أعطيت بطنك سؤله • وفرجك نالا منتهى الذم أجمعا

( ولم يَقْتُرُوا ) قرأ حمزة والكسائي والأعمش وعاصم ويحيى بن وثاب على اختلاف عنهما

« يَقْتُرُوا » بفتح الياء وضم التاء ، وهي قراءة حسنة ؛ من قترقت . وهذا القياس في اللزوم ،

مثل قد يقعد . وقرأ أبو عمرو بن العلاء وابن كثير بفتح الياء وكسر التاء ، وهي لغة معروفة

حسنة . وقرأ أهل المدينة وابن عامر وأبو بكر عن عاصم بضم الياء وكسر التاء . قال التلمي :

كلها لغات صحيحة . النحاس : وتعجب أبو حاتم من قراءة أهل المدينة هذه ؛ لأن أهل

المدينة عنده لا يقع في قراءتهم الشاذ ، إنما يقال : أقرقت إذا أقرض ، كما قال عز وجل :

« وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَنْدَرُهُ » وتأول أبو حاتم لم أن المسرف يقتصر مرسعا . وهذا تأويل بعيد ،

ولكن التأويل لم أن أبا عمر الجرمي حكى عن الأصمعي أنه يقال للإنسان إذا ضيق : قترقت

ويقرت ، وأقرقت . فعل هذا تصح القراءة ، وإن كان فتح الياء أصح وأقرب تناولا ،

وأشهر وأعرف . وقرأ أبو عمرو والناس « قَوَّامًا » بفتح القاف ؛ يعني عدلا . وقرأ حسان

ابن عبد الرحمن « قَوَّامًا » بكسر القاف ؛ أي مبلغا وسدانا وملاك حال . والقوام بكسر

القاف : ما يدوم عليه الأمر ويستقر . وهما لتان بمعنى . و « قَوَّامًا » خبر كان ، وأسمها

مقدر فيها ، أي كان الإفلاق بين الإسراف والقتير قواما ؛ قاله الفراء . وله قول آخر يحصل

« يمين » اسم كان وينصبها ؛ لأن هذه الألفاظ كثير استعمالها فتركت على حالها في موضع الرفع .

قال النحاس : ما أدري ما وجه هذا ؛ لأن « يمين » إذا كانت في موضع رفع رفعت ؛ كما يقال :

يمين عليه أحرر .

قوله تعالى : **وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ  
النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ  
أَثَامًا ۖ يَضْعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَانًا ۝**

قوله تعالى : **( وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ )** إخراج لعباده المؤمنين من صفات  
الكفرة في عبادتهم الأوثان ، وقتلهم النفس بوأد البنات ، وغير ذلك من الظلم والاعتباط ،  
والنارات ، ومن الزنى الذى كان عندهم مباحا . وقال من صرف هذه الآية عن ظاهرها  
من أهل المعاني : لا يليق بمن أضاعهم الرحمن إليه إضافة الاختصاص ، وذكروهم ووصفهم  
من صفات المعرفة والتشريف وقوع هذه الأمور القبيحة منهم حتى يمدحوا بنفها عنهم لأنهم  
أهل وأشرف ، فقال : معناها لا يدعون الهوى إليها ، ولا يذلون أنفسهم بالمعاصي فيكون  
قتلا لها . ومعنى **( إِلَّا بِالْحَقِّ )** أى إلا بسكين الصبر وسيف المجاهدة فلا ينظرون إلى نساء  
ليست لهم بحرم بشهوة فيكون سفاحا ؛ بل بالضرورة فيكون كالنكاح . قال شيخنا أبو العباس :  
وهذا كلام رائق غير أنه عند السرماتى . وهى نعمة باطنية ونزعة باطنية . وإنما صح تشريف  
عباد الله باختصاص الإضافة بعد أن تحلوا بتلك الصفات الحميدة وتخلوا عن قائص ذلك من  
الأوصاف الذميمة ، فبدأ فى صدر هذه الآيات بصفات التحل تشريفا لهم ، ثم أعقبها بصفات  
التخل تقييدا لها ؛ والله أعلم .

قلت : وما يدل على بطلان ما أدعاه هذا القائل من أن تلك الأمور ليست على ظاهرها  
ما روى مسلم من حديث عبد الله بن مسعود قال قلت : يا رسول الله ، أى الذنب أكبر  
عند الله ؟ قال : " أن تدعوه ندا وهو خلقك " قال : ثم أى ؟ قال : " أن تقتل ولدك  
حافة أن يطعم ملك " قال : ثم أى ؟ قال : " أن تزاني حيلة جارك " فأزل الله تعالى تصديقها :  
**« وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ  
يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا »** . والأثام فى كلام العرب العقاب ، وبه قرأ ابن زيد وقادة هذه الآية .

ومنه قول الشاعر :

جَزَى اللهُ ابْنَ عُرْوَةَ حَيْثُ أَمْسَى • عُقُوقًا وَالْمُفُوقُ لَهُ أُنَامُ

أى جزاء وعقوبة . وقال عبد الله بن عمرو وعكرمة ومجاهد : إن « أُنَامًا » واد في جهنم جعله الله عقابا للكفرة . قال الشاعر :

لَقِيتُ الْمَهَالِكُ فِي حَرْبِنَا • وَبَعْدَ الْمَهَالِكُ تَلَقَى أُنَامَا

وقال السدي : جبل فيها . قال :

وَكَانَ مُقَامًا نَدَعُو عَلَيْهِم • بِأَبْطَحِ ذِي الْجَبَالِ لَهُ أُنَامُ

وفي صحيح مسلم أيضا عن ابن عباس : أن ناسا من أهل الشرك قتلوا فاكثروا وزنوا فاكثروا؛ فاتوا عدا صل الله عليه وسلم فقالوا : إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن ، وهو يخبرنا بأن لما عملنا كفارة ، نزلت « وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَتَامًا » . ونزل « يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ » الآية . وقد قيل : إن هذه الآية « يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا » نزلت في وحيثي قاتل حمزة؛ قاله سعيد بن جبيرة وابن عباس ، وسيأتي في « الزمر » بيانه .

قوله تعالى : (إِلَّا بِالْحَقِّ) أى بما يحق أن تقتل به النفوس من كفر بعد إيمان أو زنى بعد إحصان؛ على ما تقدم بيانه في « الأنعام » . (وَلَا يَزْنُونَ) فيستحلون الفروج بين نكاح ولا ملك يمين . ودلت هذه الآية على أنه ليس بعد الكفر أعظم من قتل النفس بين الحق ثم الزنى ، ولهذا ثبت في حد الزنا القتل لمن كان محصنا أو أقمى الجلد لمن كان غير محصن . قوله تعالى : (وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَتَامًا) يُضَاعَفُ لَهُ الْعَذَابُ ) قرأ نافع وابن ماسر وحمزة والكسائي « يُضَاعَفُ » وَيَحْتَدُّ . جزيا . وقرأ ابن كثير « يُضَعَّفُ » بشد العين وطرح الألف؛ وبالجزم في « يُضَعَّفُ » وَيَحْتَدُّ . وقرأ طلحة بن سليمان « تُضَعَّفُ » بضم النون وكسر العين المشددة . « الْعَذَابُ » نصب « وَيَحْتَدُّ » جزم ، وهى قراءة أبى جعفر رثيبة .

وقرأ ماسم في رواية أبي بكر « يُضَاعَف . وَيُحْلَد » بالرفع فهما على العطف والاستئناف .  
 وقرأ طلحة بن سليمان « وَيُحْلَد » بالياء على معنى مخاطبة الكافر . وروى عن أبي عمرو « وَيُحْلَد »  
 بضم الياء من تحت وفتح اللام . قال أبو علي : وهي غلط من جهة الرواية . و« يُضَاعَف »  
 بالجرم بدل من « يَلْقَى » الذي هو جزاء الشرط . قال سيويه : مضاعفة المذاب لئلا يُؤام .  
 قال الشاعر :

مَتَى تَأْتِنَا تُتْلِمُ بِنَا فِي دِيَارِنَا • تَجِدُ حَطَبًا جَزَلًا وَتَارًا تَأْتِجِنَا

وقال آخر :

إِن مَلَى اللَّهُ أَنْفَ تُبَايَعَا • تُؤَخِّدُ كَرْهًا أَوْ تَجِيءَ طَائِفَا

وأنا الرفع ففيه قولان : أحدهما أن تحطه مما قبله . والآخر أن يكون محمولاً على المعنى ؛  
 كان قائلاً قال : ما لئى الأثم ؟ قليل له : بضاعف له العذاب . و ( مُهَانًا ) معناه ذليلاً  
 خاصاً مبعداً مطروداً .

قوله تعالى : ( إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ  
 يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ) (٧)

قوله تعالى : ( إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا ) لاخلاف بين العلماء أن الاستثناء  
 عامل في الكافر والزاني . واختلفوا في القائل من المسلمين على ما تقدم بيانه في « النساء »  
 ومضى في « المائدة » القول في جواز التراخي في الاستثناء في اليقين ، وهو مذهب ابن عباس  
 مستدلاً بهذه الآية .

قوله تعالى : ( فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ) قال النحاس : من أحسن ما قيل  
 فيه أنه يكتب موضع كافر مؤمن ، وموضع عاصٍ مطيع . وقال مجاهد والضحاك : أن يبديهم

(١) الشاعر في حل تؤخذ على تابع وإيداله م . وأراد بقوله « الله » القسم ، والمعنى إنك تلي والله  
 نسا حلف الجار نصب . (٢) راجع ج ٥ ص ٣٣٢ وما بعدها طبعه أول أو ثانية .  
 (٣) راجع ج ٦ ص ٢٧٣ طبعه أول أو ثانية .

الله من الشرك الإيمان وروى نحوه عن الحسن . قال الحسن : قوم يقولون التبديل في الآخرة ، وليس كذلك ، إنما التبديل في الدنيا ؛ يسدلم الله إيماناً من الشرك ، وإخلاصاً من الشرك ، وإحصاناً من الفجور . وقال الزجاج : ليس يجعل مكان السيئة الحسنة ، ولكن يجعل مكان السيئة التوبة ، والحسنة مع التوبة . وروى أبو ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم : " أن السيئات تبدل بحسنات " . وروى معناه عن سلمان الفارسي وسعيد بن جبير وغيرهما . وقال أبو هريرة : ذلك في الآخرة فيمن غلبت حسناته على سيئاته ، فيبدل الله السيئات حسنات . وفي الخبر : " لَيَتَمَيَّنُّ أَقْوَامٌ أَنَّهُمْ أَكْثَرُوا مِنَ السَّيِّئَاتِ " قليل : ومن هم ؟ قال : " الذين يبدل الله سيئاتهم حسنات " . رواه أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم ؛ ذكره الثعلبي والقشيري . وقيل : التبديل عبارة عن الصفحان ؛ أي يغفر الله لهم تلك السيئات لا أن يبدلها حسنات .

قلت : فلا يبعد في كرم الله تعالى إذا محت توبة العبد أن يضع مكان كل سيئة حسنة ؛ وقد قال صلى الله عليه وسلم لمعاذ : " أتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن " . وفي صحيح مسلم عن أبي ذر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولا الجنة وآخر أهل النار خروجا منها رجل يؤرق به يوم القيامة فيقال أمرضوا عليه صغار ذنوبه وأرضعوا عنه كبارها فتعرض عليه صغار ذنوبه فيقال عملت يوم كذا وكذا وكذا وكذا وعملت يوم كذا وكذا وكذا فيقول نعم لا يستطيع أن ينكر وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تعرض عليه فيقال له فإن لك مكان كل سيئة حسنة فيقول يا رب قد عملت أشياء لا أراها ها هنا " فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحك حتى بدت نواجذه . وقال أبو طویل : يا رسول الله ، أ رأيت رجلا عمل الذنوب كلها ولم يترك منها شيئا ، وهو في ذلك لم يترك حاجة ولا داجة إلا أقطعها فهل له من توبة ؟ قال : " هل أسألت " قال : أنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنك عبد الله ورسوله . قال : " نعم .

(١) أبو طویل : كنية شطب المذود ، رجل من كندة .

فعل الخسرات وترك البشاة يحلن الله كلهن خيرات . قال : وغدواي وبغراتي  
يا نبي الله قال : " نعم " . قال : الله أكبر ! فما زال يكرها حتى توارى . ذكره النطفي .  
قال مبشر ابن عبيد ، وكان عالما بالنحو والعربية : الحاجة التي تقطع على الحاج إذا توجهوا ،  
والحاجة التي تقطع عليهم إذا قفلوا . ( وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ) .

قوله تعالى : وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧٦﴾

قوله تعالى : ( وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ) لا يقال : من قام  
فإنه يقوم ، فكيف قال من تاب فإنه يتوب ؟ فقال ابن عباس : المعنى من آمن من أهل  
مكة وهاجر ولم يكن قتل وزنى بل عمل صالحا وأدى الفرائض فإنه يتوب إلى الله متابا ،  
أي فإني قد نسيتهم وفضلتهم على من قاتل النبي صلى الله عليه وسلم واستحل المحارم . وقال الفقهاء :  
يحمل أن تكون الآية الأولى فيمن تاب من المشركين ، ولهذا قال : « إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ »  
نعم عطف عليه من تاب من المسلمين وأنجع توبته عملا صالحا فله حكم التائبين أيضا . وقيل :  
أي من تاب بلسانه ولم يحقق ذلك بفعله ، فليست تلك التوبة نافعة ، بل من تاب وعمل  
صالحا لحقق توبته بالأعمال الصالحة فهو الذي تاب إلى الله متابا ، أي تاب حق التوبة وهي  
النصح ، ولذا أكد بالمصدر . فـ « متابا » مصدر منه التأكيد ، كقوله : « وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى  
تَكْلِيمًا » أي فإنه يتوب إلى الله حقا فيقبل الله توبته حقا .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا

كِرَامًا ﴿٧٧﴾

فيه مستثنان :

الأولى - قوله تعالى : ( وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ) أي لا يحضرون الكتب والباطل  
ولا يشاهدونه . والزور كل باطل زور وزحرف ، وأعظمه الشرك وتعظيم الأنداد . وبه فسر  
الضحاك وابن زيد وابن عباس . وفي رواية عن ابن عباس أنه أعياد المشركين . عكرمة : لب

كان في الجاهلية يسمى بالزور. مجاهد: الفناء؛ وقاله محمد بن الحنفية أيضا، ابن جريج: الكذب؛ وروى عن مجاهد . وقال علي بن أبي طلعة ومحمد بن علي: المعنى لا يشهدون بالزور؛ من الشهادة لا من المشاهدة . قال ابن العربي: أما القول بأنه الكذب فصحيح، لأن كل ذلك إلى الكذب يرجع . وأما من قال إنه لِبُّ كان في الجاهلية فإنه يحرم ذلك إذا كان فيه قار أو جهالة، أو أمر يعود إلى الكفر. وأما القول بأنه الفناء فليس ينتهي إلى هذا الحد . قلت: من الفناء ما ينتهي سماعه إلى التجريم، وذلك كالأشعار التي توصف فيها الصور المستحسنة والخمر وغير ذلك مما يحرك الطباع ويخرجها عن الاعتدال، أو يشركا منا من حب الله؛ مثل قول بعضهم:

ذهبي اللون تحسب من • وجنيته النار تُتَدَحُّ

خَوْفوني من فضيحه • ليسه وافي وأُنْضِحُ

لا سيما إذا اقترن بذلك شَبَابَاتٌ وطلارات مثل ما يفعل اليوم في هذه الأزمان، على ما بيناه في غير هذا الموضوع . وأما من قال إنه شهادة الزور، وهي:

الثانية - فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يجلد شاهد الزور أربعين جلدة، ويسخّم وجهه، ويحلق رأسه، ويطوف به في السوق . وقال أكثر أهل العلم: ولا تقبل له شهادة أبدا وإن تاب وحسنت حاله فأمره إلى الله . وقد قيل: إنه إذا كان غير مبرز غسنت حاله قبلت شهادته حسبما تقدم بيانه في سورة «الحج» <sup>(٢)</sup> فتأمل هناك .

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ قد تقدم الكلام في اللغو، وهو كل سقط من قول أو فعل؛ فيدخل فيه الفناء واللهو وغير ذلك مما قاربه، ويدخل فيه سفه المشركين وأذام المؤمنين وذكر النساء وغير ذلك من المنكر . وقال مجاهد: إذا أودوا صفحوا . وروى عنه إذا ذكر التكاح كفوا عنه . وقال الحسن: اللغو المعاصي كلها . وهذا جامع . و«كراما» معناه معرضين منكرين لا يرصونه، ولا يمالئون عليه، ولا يخالسون أهله .

(١) الثبابة (بالفتحة): نوع من الزمار (مودة) . (٢) راجع ج ١٢ ص ٥٥ طبة أول أو ثانية .

(٣) راجع ج ٣ ص ٩٩ وما بعدها طبة أول أو ثانية .



أى مروا مر الكرام الذين لا يدخلون فى الباطل . يقال : تكرم فلان عما يشينه ؛ أى تتره  
وأكرم نفسه عنه . وروى أن عبد الله بن مسعود سمع غناء فأسرع وذعب ، فبلغ رسول الله  
صل الله عليه وسلم فقال : " لقد أصبح ابن أمّ عبد كريماً " . وقيل : من المرور بالفتو كريمة  
أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر .

قوله تعالى : **وَالَّذِينَ إِذَا دُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا** ﴿٣٩﴾  
فيه مطلقان :

الأول - قوله تعالى : ( **وَالَّذِينَ إِذَا دُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ** ) أى إذا قرئ عليهم القرآن  
ذكروا آخرتهم ومعادهم ولم يتناقلوا حتى يكونوا بمنزلة من لا يسمع . وقال : ( **لَمْ يَخِرُّوا** )  
وليس تمّ خرورج كما يقال : قد سبى وإن كان غير قاعد ، قاله الطبري - واخساره ؛ قال  
ابن عطية : وهو أن يخرو صمًا وعميانًا هى صفة الكفار ، وهى عبارة عن إعراضهم ؛  
وقرن ذلك بقولك : قد فلان يشتمنى وقام فلان يسكى وأنت لم تقصد الإخبار بقمود  
ولا قيام ، وإنما هى توطئات فى الكلام والعبارة . قال ابن عطية : فكان المستمع للذكر  
قائم القناعة قويم الأمر ، فإذا أعرض وضل كان ذلك خرورجا ، وهو السقوط على غير نظام  
وترتيب ؛ وإن كان قد شبه به الذى يخرساجدا لكن أصله على غير ترتيب . وقيل : أى إذا  
نلت عليهم آيات الله وجلت قلوبهم غفروا مجدا وبكيا ، ولم يخروا عليها صمًا وعميانًا . وقال  
القراء : أى لم يقدموا على حالم الأول كأن لم يسمعوا .

الثانية - قال بعضهم : إن من سمع رجلا يقرأ سجدة يسجد معه ؛ لأنه قد سمع  
آيات الله تنلى عليه . قال ابن العربي : وهذا لا يلزم إلا القارئ وحده ، وأما غيره فلا يلزمه  
ذلك إلا فى مسألة واحدة ؛ وهو أن الرجل إذا تلا القرآن وقرأ السجدة فإن كان الذى جلس  
معه جلس يسمعه فليسجد معه ، وإن لم يلزم الدماغ فلا يجود عليه . وقد مضى هذا  
فى « الأعراف » .

قوله تعالى : **وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا** (١) **أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا مِنْ حَسَنَةٍ وَسَلَامًا** (٢) **خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا** (٣) **قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا** (٤) قوله تعالى : **(وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ)** قال

الضحاك : أى مطيعين لك . وفيه جواز الدعاء بالولد وقد تقدم . والذرية تكون واحدا وجما . فكونها للواحد قوله : « رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً » « هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا » وكونها للجمع « ذُرِّيَّةً ضِعَامًا » وقد مضى في « البقرة » اشتقاقها مستوف . وقرا نافع وأبن كثير وأبن عامر والحسن « وَذُرِّيَّاتِنَا » وقرا أبو عمر وحسرة والكسائي وطلمعة وعيسى « وَذُرِّيَّتِنَا » بالافراد . « قُرَّةَ أَعْيُنٍ » نصب على المفعول ، أى قرة أعين لنا . وهذا نحو قوله عليه الصلاة والسلام لأبيس : « اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيه » وقد تقدم بيانه في « آل عمران » و « صريم » . وذلك أن الإنسان إذا يورك له في ماله وولده قوت عينه بأهله وعياله ، حتى إذا كانت عنده زوجة اجتمعت له فيها أمانيه من جمال وعفة ونظر وحوطة أو كانت عنده ذرية يحافظون على الطاعة ، معاونون له على وظائف الدين والدنيا ، لم يلتفت إلى زوج أحد ولا إلى ولده ، تسكن عينه عن الملاحظة ، ولا تمتد عينه إلى ما ترى ؛ فذلك حين قرة العين ، وسكون النفس . ووجد « قُرَّة » لأنه مصدر ؛ تقول : قوت عينك قُرَّة . وقُرَّة العين يحتمل أن تكون من القرار ، ويحتمل أن تكون من القُسر وهو الأشهر . والقُسر البرد ؛ لأن العرب تنادى بالحر وتستريح إلى البرد . وأيضا فإن دمع السرور بارد ، ودمع الحزن سخن ، فمن هذا يقال : أقر الله عينك ، وأخفى الله عين العدو . وقال الشاعر :

فكم تخنث بالأمس عين قسيرة . وقوت عيون دمعها اليوم ساكب

(١) راجع ج ٤ ص ٧٢ وما بعدها طبع أول مرة ثانية . (٢) راجع ج ٢ ص ١٠٧ طبع ثانية .

(٣) راجع ج ٤ ص ٧٣ و ١١١ ص ٨٠ طبع أول مرة ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ أى قدوة يقتدى بنا فى الخير، وهذا لا يكون إلا أن يكون الداعى متقيا قدوة ؛ وهذا هو قصد الداعى . وفى الموطأ : " إنكم أيها الرهط أئمة يقتدى بكم " فكان ابن عمر يقول فى دعائه : اللهم اجعلنا من أئمة المتقين . وقال : « إماما » ولم يقل أئمة على الجمع ؛ لأن الإمام مصدر . يقال : أتم القوم فلان إماما ؛ مثل الصيام والقيام . وقال بعضهم : أراد أئمة ، كما يقول القائل أميرنا هؤلاء ، بنى أمراءنا . وقال الشاعر :

يا عاذلانى لا تزدن ملامتى • إن السواذل لسنن لى بأمير

أى أمراء . وكان القشيري أبو القاسم شيخ الصوفية يقول : الإمامة بالدعاء لا بالدعوى ، معنى بتوفيق الله وتيسيره ومثله لا بما يدعيه كل أحد لنفسه . وقال إبراهيم النخعي : لم يطلبوا الرياسة بل بأن يكونوا قدوة فى الدين . وقال ابن عباس : اجعلنا أئمة هدى ، كما قال تعالى : « وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا » وقال مكحول : اجعلنا أئمة فى التقوى يقتدى بنا المتقون . وقيل : هذا من المقلوب ؛ مجازة : واجعل للمتقين لنا إماما ؛ وقاله مجاهد . والقول الأول أظهر وإليه يرجع قول ابن عباس ومكحول ، ويكون فيه دليل على أن طلب الرياسة فى الدين ندى . وإمام واحد يدل على جمع ؛ لأنه مصدر كالقيام . قال الأخفش : الإمام جمع آتم من آتم يؤتم جمع على فعال ، نحو صاحب وصحاب ، وقائم وقيام .

قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرَّةَ وَمَا صَبَرُوا ﴾ « أولئك » خبر و « عباد الرحمن » فى قول الزجاج على ما تقدم ، وهو أحسن ما قيل فيه . وما تخلل بين المبتدأ وخبره أوصافهم من التحل والتخل ؛ وهى إحدى عشرة : التواضع ، والحلم ، والتهجد ، والخوف ، وترك الإبراف والإقتار ، والزهادة عن الشرك ، والزنى والقتل ، والتوبة وتجنب الكتب ، والغفو عن المسئء ، وقبول المواعظ ، والابتغال إلى الله . و « الغرقة » الدرجة الرفيعة وهى أعلى منازل الجنة وأفضلها كما أن الغرقة أعلى مساكن الدنيا ، حكاه ابن شجرة . وقال الضحاك : الغرقة الجنة . « وَمَا صَبَرُوا » أى بصبرهم على أمر دينهم ، وطاعة نبيهم عليه أفضل الصلاة والسلام . وقال محمد ابن على بن الحسين : « وَمَا صَبَرُوا » على الفقر والفاقة فى الدنيا . وقال الضحاك : « وَمَا صَبَرُوا » عن الشهوات . ﴿ وَيُلْقُونَ فِيهَا تِجْمَةً وَسَلَامًا ﴾ قرأ أبو بكر والمفضل والأعمش ويحيى

وحمرة والكسائي وخلف « وَيَقْوَنَ » مخففة ، وأختره الفراء ، قال لأن العرب تقول :  
 فلان يَتَلَقَّى بالسلام وبالتيه وبالخير (بالتاء) ، ولما يقولون فلان يَتَلَقَّى السلامة . وقرأ الباقون  
 « وَيُلْقَوْنَ » وأختره أبو عبيد وأبو حاتم ؛ لقوله تعالى : « وَلَقَاهُمْ نَصْرٌ وَسُرُورٌ » . قال  
 أبو جعفر النحاس : وما ذهب إليه الفراء وأختره غلط ؛ لأنه يزعم أنها لو كانت « يُلْقَوْنَ »  
 كانت في العربية بفتح وسلام ، وقال كما يقال : فلان يَتَلَقَّى بالسلام وبالخير ؛ فن عجيب  
 ما في هذا الباب أنه قال يتلقى والآية « يُلْقَوْنَ » والفرق بينهما بين ؛ لأنه يقال فلان يتلقى  
 بالخير ولا يجوز حذف (الباء) ، فكيف يشبه هذا ذلك ! وأعجب من هذا أن في القرآن  
 « وَلَقَاهُمْ نَصْرٌ وَسُرُورٌ » ولا يجوز أن يقرأ ضميره . وهذا بين أن الأولى على خلاف ما قال .  
 والتيه من الله والسلام من الملائكة . وقيل : التيه البقاء الدائم والملك العظيم ؛ والأظهر  
 أنهما بمعنى واحد ، وأنهما من قبل الله تعالى ؛ دليله قوله تعالى : « يَجِئُكُمْ يَوْمَ يُلْقَوْنَهُ سَلَامٌ »  
 وسيأتي . (خَالِدِينَ) نصب على الحال (فِيهَا حَسَنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا) .

قوله تعالى : (قُلْ مَا يَتَّبِعُكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ) هذه آية مشككة تعلقت بها الملحدة .  
 يقال : ما عبأت بفلان أى ما باليت به ؛ أى ما كان له عندى وزن ولا قدر . وأصل عبأ  
 من السب وهو الثقل . وقول الشاعر<sup>(١)</sup> :

كَأَنِّ بِصَدْرِهِ وَيَجَانِيهِ • قَبِيرًا بَاتَ يَبْهَوُهُ عَرُوسُ

أى يحصل بعضه على بعض . فالسب الحمل الثقيل ، والجمع أعباء . والسب المصنر .  
 وما استفهامية ؛ ظهر في أثناء كلام الزجاج ، وصرح به الفراء . وليس يبعد أن تكون نافية ؛  
 لأنك إذا حكمت بأنها استفهام فهو تى خرج مخرج الاستفهام ؛ كما قال تعالى : « هَلْ جَزَاءُ  
 الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ » قال ابن السجري : وحقيقة القول عندى أن موضع « ما » نصب ؛  
 والتقدير : أى سب يعبأ بكم ؛ أى أى مبالاة يسأل ربي بكم لولا دعائكم ؛ أى لولا دعائهم  
 إياكم لتبذروهم ، فالمصدر الذى هو الدعاء على هذا القول مضاف إلى مفعوله ؛ وهو اختيار

(١) هو أبو زيد يصف أسدا ، كما في اللسان مادة « مأ » . ورواه هكذا :

كَأَنِّ بِجَرِّهِ وَيَمْنِكِيهِ • عَيْرًا بَاتَ يَبْهَوُهُ عَرُوسُ

الفراء . وفاعله محذوف وجواب لولا محذوف كما حذف في قوله : « وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ  
الْجِبَالُ » تقديره : لم يعبأ بكم . ودليل هذا القول قوله تعالى : « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ  
إِلَّا لِيَعْبُدُونِ » فالخطاب لجميع الناس ؛ فكأنه قال لقريش منهم : أى ما يبالي الله بكم لولا  
عبادتكم إياه أن لو كانت ؛ وذلك الذى يعبا بالبشر من أجله . ويؤيد هذا قراءة ابن الزبير  
وغيره « فَقَدْ كَذَّبَ الْكَافِرُونَ » فالخطاب بما يعبأ بجميع الناس ، ثم يقول لقريش : فأنتم قد  
كذبتم ولم تعبدوه فسوف يكون التكذيب هو سبب العذاب لزما . وقال النقاش وغيره :  
المعنى ؛ لولا استغاثتكم إليه في الشدائد ونحو ذلك . بيانه : « فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَا إِلَهُ  
مُخْلِصِينَ » ونحو هذا . وقيل : « مَا يَبْتَغِيكُمْ » أى بمغفرة ذنوبكم ولا هو عنده عظيم  
« لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ » مع الآلهة والشركاء . بيانه : « مَا يَقُولُ اللَّهُ يُعَذِّبُكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ » ؛  
قاله الضحاك . وقال الوليد بن أبى الوليد : بئنى فيها أى ما خلقتكم ولى حاجة إليكم  
إلا تسألونى فأغفر لكم وأعطىكم . وروى وهب بن منبه أنه كان في التوراة : يا بن آدم  
وعزنى ما خلقتك لأزيج عليك إنما خلقتك لترجى على فأخذنى بدلا من كل شيء فأنا خير لك  
من كل شيء . قال ابن جنى قرا ابن الزبير وابن عباس « فَقَدْ كَذَّبَ الْكَافِرُونَ » .  
قال الزهراوى والنحاس : وهى قراءة ابن مسعود وهى على التفسير؛ للتاء والميم في « كذبتم » .  
وذهب القتيبي والفارسي إلى أن الدعاء مضاف إلى الفاعل والمفعول محذوف ، الأصل لولا  
دعائكم آلهة من دونه ، وجواب « لولا » محذوف تقديره في هذا الوجه : لم يهذبكم . ونظير  
قوله : لولا دعاؤكم آلهة قوله : « إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَتَاهُمُ » . ( فَقَدْ كَذَّبْتُمْ )  
أى كذبتم بما دعيت إليه ؛ هذا على القول الأول ؛ وكذبتم بتوحيد الله على الثانى . ( فَسَوْفَ  
يَكُونُ لِرَأْمَا ) أى يكون تكذيبكم ملازما لكم . والمعنى : فسوف يكون جزاء التكذيب كما قال :  
« وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا » أى جزاء ما عملوا وقوله : « فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ »  
أى جزاء ما كنتم تكفرون . وحسن إضمار التكذيب لتقدم ذكر فعله ؛ لأنك إذا ذكرت  
الفعل دل بلفظه على مصدره ، كما قال : « وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ » أى لكان  
الإيمان . وقوله : « وَإِنْ تَسْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ » أى يرضى الشكر . ومثله كثير . وجمهور المفسرين

على أن المراد باللزام هنا ما نزل بهم يوم بدر، وهو قول عبد الله بن مسعود وأبي بن كعب وأبي مالك وعبد الله بن مسعود وغيرهم. وفي صحيح مسلم عن عبد الله: وقد مضت البطشة والدخان واللزام. وسبق في سورة «الدخان» إن شاء الله تعالى. وقالت فرقة: هو توعدهم بعذاب الآخرة. وعن ابن مسعود أيضا: اللزام التكذيب نفسه؛ أي لا يُعطون التوبة منه؛ ذكره الزهراوى؛ فدخل في هذا يوم بدر وغيره من العذاب الذي يلزمونه. وقال أبو عبيدة: لزاما فيصلا [أي] فسوف يكون فيصلا بينكم وبين المؤمنين. والجمهور من القراء على كسر اللام؛ وأنشد أبو عبيدة لصخر:

فَإِنَّمَا يَتَّبِعُونَ مَنْ خَسَفَ أَرْضُ • فَتَقْدَرُ لِقَا حُتُوفِهِمَا لِزَامًا

ولزاما وملازمة واحد. وقال الطبري: «لزاما» يعني عذابا دائما لازما، وهلاكا مفضيا يلحق بعضهم ببعض؛ كقول أبي ذؤيب:

فَجَاءَهُ بِسَادِيَّةٍ لِسَازِمٍ • كَمَا يَتَفَجَّرُ الْحَوْضُ اللَّقِيفُ

يعني باللزام الذي يتبع بعضه بعضا، وباللقيف المتساقط المجارة المتهدم. النحاس: وحكى أبو حاتم عن أبي زيد قال سمعت قتبنا أبا النبال يقرأ «لِزَامًا» بفتح اللام. قال أبو جعفر: يكون مصدر لَزِمَ والكسر أولى، يكون مثل قَتَلَ ومقاتلة، كما أجمعوا على الكسر في قوله عز وجل: «وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى». قال غيره: اللزَام بالكسر مصدر لازم لزاما مثل خاضم خصاما، واللزَام بالفتح مصدر لَزِمَ مثل سلم سلاما أى سلامة؛ فاللزام بالفتح اللزوم، واللزَام الملازمة، والمصدر في القراءتين وقع موقع اسم الفاعل، فاللزام وقع موقع ملازم، واللزَام وقع موقع لازم. كما قال تعالى: «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا» أى غائرا. قال النحاس: وللغراء قول في اسم يكون؛ قال: يكون مجهولا وهذا غلط؛ لأن المجهول لا يكون خبره إلا جملة، كما قال تعالى: «إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ» وكما حكى النحويون كان زيد منطلق ويكون المبتدأ وغيره خبر المجهول، والتقدير: كان الحديث؛ فاما أن يقال كان منطلقا، ويكون في كان مجهول فلا يجوز عند أحد علمناه. و**بأنه التوفيق وهو المستعان والحمد لله رب العالمين**.

(١) العادة: يقوم يمشي على أرجلهم؛ أى غلبهم لزام كأنهم لزوم لا ينفرون ما هم فيه. وشبه حلتهم هدم الحوض إذا تهدم. ويرى: • ظم غير عادية لزاما •

## مسورة الشعراء

هي مكة في قول الجمهور . وقال مقاتل : منها مدني ؛ الآية التي يذكر فيها الشعراء ،  
وقوله : « أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَأْتِيَهُمْ طَائِفَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ آتِيَةً يَقُولُ لَكُمُ الْمَلَأُ مِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا فِي الْأَرْضِ خُذُوا هَذِهِ هِيَ الْأَرْضُ الَّتِي كُنتُمْ تُكَذِّبُونَ » . وقال ابن عباس وقتادة :  
مكة إلا أربع آيات منها نزلت بالمدينة من قوله : « وَالشُّعْرَاءُ يَقِيمُهَا النَّارُ » إلى آخرها .  
وهي مائتان وسبع وعشرون آية . وفي رواية : ست وعشرون . وعن ابن عباس قال النبي  
صلى الله عليه وسلم : " أعطيت السورة التي تذكر فيها البقرة من الذكر الأول وأعطيت طه  
وطسم من الأواح موسى وأعطيت فوائح القرآن وخواتيم سورة البقرة من تحت العرش وأعطيت  
المفصل نافلة " . وعن البراء بن عازب أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله أعطاني  
السبح الطوال مكان التوراة وأعطاني المئين مكان الإنجيل وأعطاني الطواسين مكان الزبور  
وفضاني بالحوام والمفصل ما قرأهن نبي قبل " .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : طَسَمَ ① تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ② لَعَلَّكَ  
بِخَبْرِ نَفْسِكَ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ③ إِنْ نَشَأْ نُنزِلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ  
ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْيُنُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ④ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ  
مُعْذِرٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ⑤ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَاءَ لِهِمْ أُنْبُؤًا  
مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ⑥ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ  
كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ⑦ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ⑧  
وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ⑨

قوله تعالى : (طسم) قرأ الأعمش ويحيى وأبو بكر والمفضل وحمة والكسائي وخلف  
بإزالة الطاء مشبعا في هذه السورة وفي اختيارها . وقرأ نافع وأبو جعفر وشيبة والزهرى بين  
اللفظين ؛ واختاره أبو عبيد وأبو حاتم . وقرأ الباقون بالفتح مشبعا . قال الثعلبي : وهي  
كلها لفات فصيحة . وقد مضى في « طه » قول النحاس في هذا . قال النحاس : وقرأ  
المدينيون وأبو عمرو وعاصم والكسائي « طسم » بإدغام النون في الميم ، والقراء يقول بإخفاء  
النون . وقرأ الأعمش وحمة « طسين ميم » بإظهار النون . قال النحاس : النون الساكنة  
والنونين أربعة أقسام عند سيبويه : يبتنان عند حروف الحلق ، ويدغمان عند الزاء واللام  
والميم والواو والياء ، ويقبلان ميمًا عند الباء ويكونان من الخياشيم ؛ أي لا يبتنان ؛ فعل هذه  
الأربعة الأقسام التي نصبها سيبويه لا تجوز هذه القراءة ؛ لأنه ليس هاهنا حرف من حروف  
الحلق فتبتن النون عنده ، ولكن في ذلك وجبته : وهو أن حروف المسجم حكما أن يوقف  
عليها ، فإذا وقف عليها تبتت النون . قال الثعلبي : الإدغام اختيار أبي عبيد وأبي حاتم  
قياسا على كل القرآن ، وإنما أظهرها أولئك للتبيين والتمكين ، وأدغمها هؤلاء لمجاورتها حروف  
النم . قال النحاس : وحكى أبو إسحق في كتابه « فيما يجرى وفيما لا يجرى » أنه يحسوز أن  
يقال « طسين ميم » بفتح النون وضم الميم ، كما يقال هنا معدى كرب . وقال أبو حاتم :  
قرأ خالد « طسين ميم » . ابن عباس : « طسم » قسم وهو أسم من أسماء الله تعالى ، والمقسم  
عليه « إِنَّ تَسَاءَلُونَ عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ فَاصْبِرْ إِنَّهَا بِالْعَيْنِ ذَاتُ حَقٍّ » . وقال قتادة : أسم من أسماء القرآن أقسم الله به .  
بجاهد : هو أسم السورة ؛ ويمسح افتتاح السورة . الربيع : حساب مدة قوم . وقيل :  
قائمة تحمل يقوم . « طسم » و « طس » واحد . قال :

وَقَالُوا كَمَا كَلَّمَكَ اللَّهُ حَتَّى تُنَاجِيَهُ . بَانَ تُسَمِّدًا وَالدَّعِشُ أَشْفَاءُ سَاحِجُهُ

(١) راجع ج ١١ ص ١٦٨ طبة أدل أدنانية . (٢) هو الخبي ؛ واليت طلع فصدته له ملح بها  
أيا الحسن علي بن عبد الله العري . راجع : أرنه . والقاسم : الفارس . والاسم : السائل . والمعنى : طلب  
وقاموا بالإسماء على الإجابة على البكاء والموافقة ، وذلك قال : (والله أشفاء ساجه) والمعنى ابتكاس يدع  
في غاية الجرم فهو أشقى لمرج . فإن الرج في غاية العلوم وهو أشقى لعب . وأراد بالرفاء هنا البكاء لأنها عاده  
على الإسعاد . « شرح البيان ج ٢ لمكبرى » .



وقال القرطبي : أفسم الله بطوله وسنائه ومملكه . وقال عبد الله بن محمد بن عجيل : الطاء طور سيناء والسين إسكندرية والميم مكة . وقال جعفر بن محمد بن علي : الطاء شجرة طوبى ، والسين يسرة المنتهى ، والميم محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : الطاء من الطاهر والسين من القدوس — وقيل من السميع وقيل من السلام — والميم من المجد . وقيل : من الرحيم . وقيل : من الملك . وقد مضى هذا المعنى في أول سورة « البقرة » . والطوايسم والطوايسم سور في القرآن جمعت على غير قياس . وأنشد أبو عبيدة :

وبالطوايسم التي قد تُلَّت \* وبالحواميم التي قد بُبِتْ

قال الجوهرى : والصواب أن تجمع بنوات وتضاف إلى واحد ، فيقال : ذوات طم وذوات حم .

قوله تعالى : ( تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ) رفع على إضمار مبتدأ أى هذه « تلك آيات الكتاب المبين » التي كنتم وعدتم بها ؛ لأنهم قد وعدوا في التوراة والإنجيل بإتزال القرآن . وقيل : « تلك » بمعنى هذه . ( تِلْكَ بِأَيْحُ نَفْسِكَ ) أى قاتل نفسك ومهاكمها . وقد مضى في « الكهف » بيانه . ( أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ) أى تركهم الإيمان . قال القراء : « أن » في موضع نصب ؛ لأنها جزء . قال النحاس : وإنما يقال : بأن مكسورة لأنها جزء ؛ كذا المتعارف . والقول في هذا ما قاله أبو إسحق في كتابه في القرآن ، قال : « أن » في موضع نصب مفعول من أجله ؛ والمعنى لهلك قاتل نفسك تركهم الإيمان . ( إِنْ تَنْتَهِ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً ) أى معجزة ظاهرة وقدرة باهرة فصير معارفهم ضرورية ، ولكن سبق القضاء بأن تكون المعارف نظرية . وقال أبو حمزة الثمالي في هذه الآية : صوت يسمع من السماء في النصف من شهر رمضان ؛ تخرج به الياقوت من البيوت وتضج له الأرض . وهذا فيه بعد ؛ لأن المراد قريش لا غيرهم . ( فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ ) أى فظلت أعناقهم ( لَمَّا خَاضِعِينَ ) قال مجاهد : أعناقهم كبرائهم ؛ وقال النحاس : ومعروف في اللغة ؛ يقال : جاءني عني من الناس أى رؤساء منهم . أبو زيد والأخفش : « أَعْنَاقُهُمْ » جماعاتهم .

(١) راجع ج ١ ص ١٥٤ طبع ثانية أرتاة . (٢) راجع ج ١ ص ٣٤٨ طبع أول أرتاة .

يقال : جاءني عُنَى من الناس أى جماعة . وقيل : إنما أراد أصحاب الأعناق ، فحذف  
 المضاف وأقام المضاف إليه مقامه . قتادة : المعنى لو شاء لأتزل آية يذلون بها فلا يلبى أحد  
 منهم عنقه إلى معصية . ابن عباس : نزلت فينا وفي بنى أمية ستكون لنا عليهم الدولة فنزل لنا  
 أعناقهم بعد معاوية ؛ ذكره الثعلبي والفريزوى . وخاضعين وخاضعة هنا سواء ؛ قاله عيسى بن  
 عمر وأختره المبرد . والمعنى : إنهم إنما ذلّت رقابهم ذلّوا ؛ فالإخبار عن الرقاب لإخبار عن  
 أصحابها . ويسوغ في كلام العرب أن تترك الخبر عن الأول وتخبر عن الثانى ؛ قال الرازي :  
 طولُ الليالى أسرعُ في تقضى • طَوَيْنَ طُويلَ وطَوَيْنَ قَصرى  
 فأخبر عن الليالى وترك الطول . وقال جرير :

أَرَى مَرَّ السَّيْنِ أَخَذَنَ مَتَى • كَمَا أَخَذَ السَّرَادُ مِنَ اللَّيْلِ

وإنما إجاز ذلك لأنه لو أسقط مرّ طول من الكلام لم يفسد معناه ، فكذلك رد الفعل  
 إلى الكاية في قوله : « فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ » لأنه لو أسقط الأعناق لما فسد الكلام ، ولأدى  
 ما بنى من الكلام عنه حتى يقول : فظلوا لها خاضعين . وعلى هذا أخذ الفراء وأبو مينة .  
 والكسائي يذهب إلى أن المعنى خاضعيا هم ، وهذا خطأ عند البصريين والفراء . ومثل هذا  
 الحذف لا يقع في شيء من الكلام ؛ قاله النحاس .

قوله تعالى : ( وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدِّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ) تقدم  
 في « الأنبياء » . ( فَقَدْ كَذَّبُوا ) أى أعرضوا ومن أعرض عن شيء ولم يقبله فهو  
 تكذيب له . ( فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ) وعيد لهم ؛ أى سوف يأتهم عاقبة  
 ما كذبوا والذي استهزؤا به .

قوله تعالى : ( أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ) نبه على عظمتها  
 وقدرته وأنهم لو راوا قلوبهم ونظروا ببصائرهم لعلوا أنه الذى يستحق أن يعبد ؛ إذ هو  
 القادر على كل شيء . والزوج هو اللون ؛ قاله الفراء . و « كريم » حسن شريف ، وأصل

(١) تقدم البيت في ص ٧٦ طبعة الأولى أرطانية . (٢) راجع ج ١ ص ٢٦٨ وما بعدها طبعة الأولى أرطانية .

الكرم في اللغة الشرف والفضل، فخلعة كريمة أى فاضلة كثيرة أنقر، ودجل كريم شريف فاضل صفوح. ونبت الأرض وأنبت بمعنى. وقد تقدم في سورة « البقرة » . والله سبحانه الخرج والمثبت له. وروى عن الشعبي أنه قال: الناس من نبات الأرض فمن صار منهم إلى الجنة فهو كريم، ومن صار إلى النار فهو لئيم. ( وَإِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ) أى فيما ذكر من الإنبات في الأرض لدلالته على أن الله قادر، لا يسجزه شيء. ( وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ) أى مصدقين لما سبق من على فيهم. و« كان » هنا صلة في قول سيويه، تقديره: وما أكثرهم مؤمنين. ( وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ) يريد المنيع المتقم من أعدائه، الرحيم بأوليائه.

قوله تعالى: ( وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنْ أَنْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ )  
 قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ (١١) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ  
 وَيَضِيقُ صُدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ (١٢) وَلَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ  
 فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (١٣) قَالَ كَلَّا فَإِذْ هَبَا بَيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ (١٤)

قوله تعالى: ( وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى ) « إذ » في موضع نصب، المنى: وأتل عليهم « إذ نادى ربك موسى » ويدل على هذا أن بعده « وأتل عليهم نبا إبراهيم » ذكره النحاس. وقيل: المنى؛ وأذكر إذ نادى كما صرح به في قوله: « وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ » وقوله: « وَأَذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ » وقوله: « وَأَذْكُرْ فِي الْغَابِ مُرْيَمَ ». وقيل: المنى؛ « وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى » كان كذا وكذا. والنساء الدعاء بياض، أى قال ربك يا موسى ( أَنْ أَنْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ) ثم أخبر من هم فقال: ( قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ) فـ « قَوْمَ » بدل، ومعنى « أَلَا يَتَّقُونَ » ألا يخافون عقاب الله؟ وقيل هذا من الإيحاء إلى الشيء لأنه أمره أن يأتي القوم الظالمين، ودل قوله: « يَتَّقُونَ » على أنهم لا يتقون، وعلى أنه أمرهم بالتقوى. وقيل: المنى؛ قل لهم « أَلَا يَتَّقُونَ » وجاء بالياء لأنهم غيب وقت الخطاب، ولو جاء بالياء

لجاز . ومثله « قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سُنُوبُونَ » بالناء والياء . وقد قرأ عبيد بن عمير وأبو حازم  
« أَلَا تَتَّقُونَ » يتأمن أي قل لهم « أَلَا تَتَّقُونَ » . ( قَالَ رَبِّ ) أي قال موسى ( رَبِّ إِنِّي  
أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ) أي في الرسالة والنبوة . ( وَيَضِيقُ صَدْرِي ) لتكذيبهم إياي . وقراءة  
العامية « وَيَضِيقُ » « وَلَا يَنْطَلِقُ » بالرفع على الاستئناف . وقرأ يعقوب وعيسى بن عمر  
وأبو حيوه « وَيَضِيقُ - وَلَا يَنْطَلِقُ » بالنصب فيهما رداً على قوله : « أَنْ يُكَذِّبُونِ »  
قال الكسائي : القراءة بالرفع ؛ بمعنى في « يَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي » بمعنى نسفاً  
على « إِنِّي أَخَافُ » . قال القراء : وقرأ بالنصب . حكى ذلك عن الأعرج وطلحة وعيسى  
ابن عمر وكلامهما له وجه . قال النحاس : الوجه الرفع ؛ لأنَّ النصب عطف على  
« يُكَذِّبُونِ » وهذا بيد يدل على ذلك قوله عز وجل : « وَأَحْلَلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي  
يَقْفُوهَا قَوْلِي » فهذا يدل على أن هذه كذا . ومعنى « وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي » في الحاجة  
على ما أحب ؛ وكان في لسانه عُقْدَةٌ على ما تقدم في « طه » . ( فَأَرْسِلْ إِلَى مَرْوَانَ ) أرسل  
إليه جبريل بالوحى ، واجعله رسولا معي لبؤازرتي وبظاهرتي وبماوتى . ولم يذكر هنا  
لبعيتي ؛ لأنَّ المعنى كان معلوماً ، وقد صرح به في سورة « طه » : « وَأَجْعَلْ لِي وَزِيْرًا »  
وفي القصص : « أَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي » وكان موسى أذن له في هذا السؤال ، ولم يكن  
ذلك استعفاء من الرسالة بل طلب من يمينه . ففي هذا دليل على أن من لا يستقل بأمر ،  
ويخاف من نفسه قصيرا ، أن يأخذ من يستعين به عليه ، ولا يلحقه في ذلك لوم .  
( وَلَمْ يَلَمْسْ دَبَّ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ) الذنب ها قتل القبطى واسمه فانور على ما يأتي في « القصص »  
بيانه ، وقد مضى في « طه » ذكره . وخاف موسى أن يقتلوه به ، ودل على أن الخوف  
قد يصحب الأنبياء والفضلاء والأولياء مع معرفتهم بالله وأن لا فاعل إلا هو ؛ إذ قد بسط  
من شاء على من شاء . ( قَالَ كَلَّا ) أي كلا لن يقتلوك . فهو ردع وزجر عن هذا الظن ،  
وأمر بالثقة بالله تعالى ؛ أي ثق بالله وانزعج عن خوفك منهم ؛ فإنهم لا يقدرُونَ على قتلك ،

ولا يقولون عليه . ( فَأَنصَبْ ) أى أنت وأخوك فقد جعله رسولا ملك . ( يَا أَيُّهَا )  
 أى يبراهيمنا وبالمعجزات . وقيل : أى مع آيتنا . ( إِنَّا نَعْلَمُكُمْ ) يريد نفسه سبحانه وتعالى .  
 ( مُسْتَمِعُونَ ) أى سامعون ما يقولون وما يقولون . وإنما أراد بذلك تقوية قلوبهم  
 وأنه يبينها ويحفظها . والاستماع إنما يكون بالإصغاء ، ولا يوصف الباري سبحانه بذلك .  
 وقد وصف سبحانه نفسه بأنه السميع البصير . وقال فى « طه » : « أَسْمِعْ وَأَرْى » وقال :  
 « نَعْلَمُكُمْ » فأجرهما جرى الجمع ، لأن الاثنين جماعة . ويجوز أن يكون لما ولئى أرسلنا إليه .  
 ويجوز أن يكون لجميع بنى إسرائيل .

قوله تعالى : فَأَيُّهَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾  
 إِنْ أَرْسَلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ تُزَيِّنْ لِي فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا  
 مِنْ عُمُرِكَ مِينِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾  
 قَالَ فَعَلْنَاهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنْكَ لَمَّا خِفْتُكَ  
 فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُتَرَسِّلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنَّهَا  
 عَلَى أَنْ عَبَّدْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ( فَأَيُّهَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ) قال أبو صيدة : رسول  
 بمعنى رسالة والتقدير على هذا ، إنا نذو رسالة رب العالمين . قال المفسر :  
 أَلَكُنِي إِلَيْهَا وَخَيْرُ الرُّسُو . لِي أَعْلَمَهُمْ بِنَوَاحِي الْخَبَرِ  
 أَلَكُنِي إِلَيْهَا مَعْنَاهُ أَرْسَلَنِي . وقال آخر :

لَقَدْ كَذَّبَ الْوَائِثُونَ مَا بَحَثُ عَنْهُمْ • يَسِرُّ وَلَا أَرْسَلْتُهُمْ بِرَسُولٍ ﴿٢٣﴾

(١) هو كعب بن زيد أيضا في اللسان مادة « رسل » :

• يسر ولا أرسلتهم برسول •

آخر: <sup>(١)</sup> أَلَا بُلِّغَ بَنِي عَمْرٍو رَسُولًا • بَاقِيَ عَنْ قُتَاتِكُمْ عَنِّي

وقال العباس بن مرداس :

أَلَا مَنْ مُبْلِغٌ عَنِّي خُفَاتًا • رَسُولًا يَتُّ أَهْلِكَ مُنْتَهَا

يعني رسالة فقلتك أنها • قال أبو عبيد : ويجوز أن يكون الرسول في معنى الاثنين والجمع ؛ فنقول العرب : هذا رسولى ووكيل ، وهذا ن رسولى ووكيل ، وهؤلاء رسولى ووكيل . ومنه قوله تعالى : ( فَاتَّبَعْنَاهُ عَشْرًا ) • وقيل : معناه إن كل واحد منا رسول رب العالمين . ( أَنَّ أَرْسَلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ) أى أطلقهم وخل سبيلهم حتى يسبروا معنا إلى فلسطين ولا تستبدعهم ؛ وكان فرعون استعبدهم أربعة سنة ، وكانوا في ذلك الوقت ستمائة ألف وثلاثين ألفا . فأنطلقا إلى فرعون فلم يؤذن لهما سنة في الدخول عليه ، فدخل البواب على فرعون فقال : ها هنا إنسان يزعم أنه رسول رب العالمين . فقال فرعون : أيدن له لعلنا نضحك منه ؛ فدخلا عليه وأديا الرسالة . وروى وهب وغيره : أنهما لما دخلا على فرعون وجداه وقد أخرج سباعا من أسد وغور وفهود يتفرج عليهما ، تخاف سواهما أن تبطش بموسى وهرون ، فأسرعا إليها ، وأسرعت السباع إلى موسى وهرون ، فأقبلت تلحس أقدامهما ، وتبصص إليهما بأذنانها ، وتلتصق خدودها بفخذيهما ، فعجب فرعون من ذلك فقال : ما أتتا ؟ قالا : « إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ » فعرف موسى لأنه نشأ في بيته ؛ فد ( قَالَ أَلَمْ نَرْبِكَ فِيَا وَلَدًا ) على جهة المثل عليه والاحترار . أى ربيناك صغيرا ولم نقتلك من جملة من قتلنا ( وَلَيْسَتْ فِيَا مِنْ عَمَلِكَ سِنِينَ ) ففى كان هذا الذى تدعيه . ثم قرره بقتل القبطى بقوله : ( وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ ) والفعل بفتح الفاء المرة من الفعل . وقرأ الشعبي « فِعْلَتِكَ » بكسر الفاء والفتح أولى ؛ لأنها المرة الواحدة ، والكسر بمعنى الهيئة والحال ، أى فعلتك التى تعرف فكيف تدعى مع علينا أحوالك بأن الله أرسلك . وقال الشاعر :

كَأَنَّ مِشِيَّتَهَا مِنْ بَيْتِ جَارَتِهَا • مَرُّ السَّحَابَةِ لَا رَيْثُ وَلَا عَجَلُ

(١) هو الأسر الجسر . من قاتحك : أى عن حككم .

ويقال : كان ذلك أيام الردة والردة . ( وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ) قال الضحاك : أى فى قتلك القبطى إذ هو نفس لا يحمل قتله . وقيل : أى بنعمتى التى كانت لنا عليك من التربة والإحسان إليك ؛ قاله ابن زيد . الحسن : « من الكافرين » فى أى إهلك . السدى : « من الكافرين » بالله لأنك كنت معنا على ديننا هذا الذى نعبه . وكان بين خروج موسى عليه السلام حين قتل القبطى وبين رجوعه نبيا أحد عشر مائتا غير أشهر . ف ( قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا ) أى فعلت تلك الفعلة يريد قتل القبطى ( وَأَنَا ) إذ ذاك ( مِنَ الضَّالِّينَ ) أى من الجاهلين ؛ ففى عن نفسه الكفر ، وأخبر أنه فعل ذلك على الجهل . وكذا قال مجاهد « مِنَ الضَّالِّينَ » من الجاهلين . ابن زيد : من الجاهلين بأن الوكرة تبلغ القتل . وفى مصحف عبد الله « مِنَ الْجَاهِلِينَ » ويقال لمن جهل شيئا ضل عنه . وقيل : « وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ » من الناسين ؛ قاله أبو عبيدة . وقيل : « وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ » عن النبوة ولم يأتى عن الله فيه شيء ، فليس على فمائه فى تلك الحالة توبيخ . وبين بهذا أن التربة فيه لا تنافى النبوة والحلم على الناس ، وأن القتل خطأ أو فى وقت لم يكن فيه شرع لا ينافى النبوة .

قوله تعالى : ( فَهَرَدْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُمْ ) أى خرجت من بينكم إلى مدين كما فى سورة القصص : « تَخْرُجُ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ » وذلك حين القتل . ( فَهَرَبَ لِي رُؤْيُ حُكَّاءٍ ) بنى النبوة ؛ عن السدى وغيره . الزجاج : تعليم التوراة التى فيها حكم الله . وقيل علما وهما . ( وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ) .

قوله تعالى : ( وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَى أَنْ عَبَّدَتْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ) آخفف الناس فى معنى هذا الكلام ؛ فقال السدى والطبرى والقراء : هذا الكلام من موسى عليه السلام على جهة الإقرار بالنعمة ؛ كأنه يقول : نعم ! وتربيتك نعمة على من حيث عبدت غيرى وتركتنى ، ولكن لا يدفع ذلك رسالتى . وقيل : هو من موسى عليه السلام على جهة الإنكار ؛ أى أتمنى على بأن ربى ولدا وأنت قد أصبحت بنى إسرائيل وقتلهم ؟ ! أى ليست بنعمة ؛ لأن الواجب كان لا تقتلهم ولا تستبد بهم فأنهم قوى ؛ فكيف تذكر إحسانك إلى على

الخصوص ؟ ! قال معناه قتادة وغيره . وقيل : فيه تقدير استفهام ؛ أي أو تلك نعمة ؟  
قاله الأخفط والفراء أيضا وأنكره النحاس وغيره . قال النحاس : وهذا لا يجوز لأن الله  
الاستفهام تحدث معنى ، وهذا محال إلا أن يكون في الكلام أم ، كما قال الشاعر :  
• تَرُوحُ مِنَ الْحَيِّ أَمْ تَجِيءُ •

ولا أعلم بين النحويين اختلافا في هذا إلا شيئا قاله الفراء . قال : يجوز حذف ألف  
الاستفهام في أمثال الشك ؛ وحكي ثرى زيدا مطلقا ؟ بمعنى أترى . وكان علي بن سليمان .  
يقول في هذا : إنما أخذه من ألفاظ العامة . قال النحلي : قال الفراء ومن قال إنها إنكار  
قال معناه أو تلك نعمة ؟ على طريق الاستفهام ، كقوله : « هَذَا رَبِّي » « قَتَلَهُ الْخَالِدُونَ » .  
قال الشاعر <sup>(١)</sup> :

رَقَوْنِي وَقَالُوا يَا غَوِيلُ لَا تُرَخَّ • فَعَلْتُ وَأَنْكَرْتُ الْوَجْهَ ثُمَّ مُمَّ  
وَأَنْشَدَ الْفَرَزْدَقُ شاعدا على ترك الألف قولم :

لَمْ أُنْسَ يَوْمَ الرَّحِيلِ وَقَفَّتْهَا • وَجَفْنَهَا مِنْ دَمْعِهَا شَرِيقُ  
وَقَوْمَهَا وَالرَّكَابُ وَاقِفَةٌ • تَرَكْنِي هَكُنَا وَتَنْطَلِقُ

قلت : قفى هذا حذف ألف الاستفهام مع عدم أم خلاف قول النحاس . وقال الضحاك :  
إن الكلام نخرج مخرج التبكيت والتبكيت يكون بأستفهام وبغير استفهام ؛ والمعنى : لو لم  
تقتل بني إسرائيل لرباني أبواي ، فأى نعمة لك علي ! فانت تمن علي بما لا يجب أن تمن به .  
وقيل : معناه كيف تمن بالترية وقد أهنت قومي ؟ ومن أهين قومه ذل . و « أَنْ جَبَلَتْ »  
في موضع رفع على البدل من « نعمة » ويجوز أن تكون في موضع نصب بمعنى : لأن جبدت  
بني إسرائيل ؛ أي أمتختهم عيدا . يقال : عبدته وأعبدته بمعنى ؛ قاله الفراء وأنشد :

عَلَامٌ يُبَيِّدُنِي قَوْمِي وَقَدْ كَثُرَتْ • فَيَهْمُ أَبَاهُمْ مَا شَامُوا وَعَبَدَانُ

(١) هو أبو نوحاش الهذلي ، وقد تقدم شرح البيت في ١١ ص ٢٨٧ طبعه أول مرة ثانية .



قَوْلَهُ تَعَالَى : قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ رَبِّ السَّمَوَاتِ  
 وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا  
 تَسْمِعُونَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ  
 الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٤١﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا  
 إِن كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَنْ أَمْلَأَنَّهَا غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ  
 السَّجُرِينَ ﴿٤٣﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٤٤﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ  
 كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٤٥﴾ فَأَتَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٤٦﴾  
 وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ ﴿٤٧﴾ قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِن هَذَا  
 لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَاذًا تَامِرُونَ ﴿٤٩﴾  
 قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْنَيْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٠﴾ يَا تَوَكُّ بِكُلِّ صَغِيرٍ  
 عَلَيْهِ ﴿٥١﴾ جَمِيعَ السَّحَرَةِ لِيَمِيقَ يَوْمَ مَعْلُومٍ ﴿٥٢﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ  
 هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿٥٣﴾ لَعَلَّنَا تَتَّبِعَ السَّحَرَةُ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿٥٤﴾  
 فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَأَعْرَابٌ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٥٥﴾  
 قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٥٦﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ  
 مُلْقُونَ ﴿٥٧﴾ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ  
 الْغَالِبُونَ ﴿٥٨﴾ فَأَتَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٥٩﴾  
 فَأَتَى السَّحَرَةُ سَجِدِينَ ﴿٦٠﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ رَبِّ مُوسَى  
 وَهَارُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي

عَلَيْكُمْ السَّحَرُ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَا تَقْطَعْنَ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ  
وَلَا صُلْبَكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ قَالُوا لَا ضَرِيرٌ إِنَّا إِلَٰك رَبَّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿٥٦﴾  
إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبَّنَا خَطِيئَتَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾

قوله تعالى : ( قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ) لما غلب موسى فرعون بالهجة ولم يجد  
العلمين من تحريره على التريسة وغير ذلك حجة رجع إلى معارضة موسى في قوله : رسول  
رب العالمين ؛ فاستغهم استغها ما عن مجهول من الأشياء . قال مكي وغيره : كما يستغهم  
من الأجناس فلذلك استغهم بـ « حا » . قال مكي : وقد ورد له استغها بـ « حن » في موضع  
آخر ويشبه أنها موطن ؛ فأتى موسى بالصفات الدالة على الله من خلقه التي لا يشاركه فيها  
مخلوق ، وقد سأل فرعون عن الجنس ولا جنس لله تعالى ؛ لأن الأجناس محدثة ، فلم موسى  
بجهله فأضرب عن سؤاله وأعلمه بعظيم قدرة الله التي تين السامع أنه لا مشاركة لفرعون  
فيها . فقال فرعون : ( أَلَا تَسْتَعْمُونَ ) على معنى الإغراء والتعجب من سفه المقالة إذ كانت  
عقيدة القوم أن فرعون ربههم ومعبودهم والفراغة قبله كذلك . فزاد موسى في البيان بقوله :  
( رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ) بجاء بدليل يفهمونه عنه ؛ لأنهم يعلمون أنه قد كان لهم  
آباء وأنهم قد فسوا وأنه لا بد لهم من مغير ، وأنهم قد كانوا بعد أن لم يكونوا ، وأنهم لا بد  
لهم من مكوّن . فقال فرعون حينئذ على جهة الاستخفاف : ( إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ  
إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ) أي ليس يميني عما أسأل ؛ فأجابه موسى عليه السلام عن هذا بأن قال :  
( رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ) أي ليس ملكه كملكك ؛ لأنك إنما تملك بلدا واحدا لا يمحور أمرك  
في غيره ، ويموت من لا تحب أن يموت ، والذي أرسلني يملك المشرق والمغرب ( وَمَا يَنْهَمَا  
إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ) . وقيل : علم موسى عليه السلام أن قصده في السؤال معرفة من سأل عنه ،  
فأجاب بما هو الطريق إلى معرفة الرب اليوم . ثم لما أقطع فرعون لعنه الله في باب الهجة  
رجع إلى الاستسلام والخضوع فوعده موسى بالسجن ، ولم يقل ما ذلك على أن هذا الإله  
أرسلك ؛ لأن فيه الاعتراف بأن ثم إلها غيره . وفي توعده بالسجن ضعف . وكان فيما يروى

يُفْرَعُ مِنْهُ فَرَعًا شَدِيدًا حَتَّى كَانَ اللَّعِينُ لَا يُمْسِكُ بُولَهُ . وَرَوَى أَنَّ مِجَنَّهُ كَانَ أَشَدَّ مِنَ الْقَتْلِ .  
وَكَانَ إِنَّمَا مِجَنُّ أَحَدًا لَمْ يُخْرِجْهُ مِنْ مِجَنَّهُ حَتَّى يَمُوتَ ، فَكَانَ خَوْفًا . ثُمَّ لَمَّا كَانَ عِنْدَ مُوسَى  
عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى مَا لَا يَرَعُهُ تَوَعَّدُ فِرْعَوْنَ ( قَالَتْ ) لَهُ عَلَى جِهَةِ الْطَلْفِ بِهِ وَالطَّمَعِ  
فِي إِيمَانِهِ : ( أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِبَنِي إِمِّيَن ) فَيُضْهِجُكَ بِهِ صَدَقَ ، فَلَمَّا سَمِعَ فِرْعَوْنَ ذَلِكَ طَمَعَ  
فِي أَنْ يَحْدُثَ أَتْنَاهُ مَوْضِعَ مَارَضَةٍ ( قَالَتْ ) لَهُ ( فَأَتَيْتُ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ) . وَلَمْ  
يُخْجِجِ الشَّرْطَ إِلَى جَوَابِ عِنْدَ سَيُوءِهِ ؛ لِأَنَّهُ مَا تَقَدَّمَ يَكْفِي مِنْهُ . ( فَأَتَى مُوسَى عَصَاهُ ) مِنْ  
يَدِهِ فَكَانَ مَا أَخْرَجَهُ مِنْ قِصَّةِهِ . وَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُ ذَلِكَ وَشَرَحُهُ فِي « الْأَعْرَافِ » إِلَى آخِرِ  
الْقِصَّةِ . وَقَالَ السَّحَرَةُ لَمَّا تَوَعَّدَهُمْ فِرْعَوْنَ بِقَطْعِ الْأَيْدِي وَالْأَرْجُلِ ( لَا خَيْرَ ) أَيْ لَا ضَرَرَ  
عَلَيْهَا فِيمَا يَلْحَقُنَا مِنْ عَذَابِ الدُّنْيَا ؛ أَيْ إِنَّمَا مَذَابُكَ سَاعَةٌ تَنْصِبُهَا وَقَدْ لَقِينَا اللَّهَ مُؤْمِنِينَ .  
وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى شِدَّةِ اسْتَبْصَارِهِمْ وَقُوَّةِ إِيمَانِهِمْ . قَالَ مَالِكٌ : دَعَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِرْعَوْنَ  
أَرْبَعِينَ سَنَةً إِلَى الْإِسْلَامِ ، وَأَنَّ السَّحَرَةَ آمَنُوا بِهِ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ . يَقَالُ : لَا خَيْرَ وَلَا ضَرَرَ  
وَلَا ضَرَرَ وَلَا ضَرَرَ وَلَا ضَرَرَ بِمَعْنَى وَاحِدٍ ؛ قَالَهُ الْحَرَوِيُّ . وَأَنشَدَ أَبُو عُبَيْدَةَ :  
فَإِنَّكَ لَا بَضُورَكَ بَعْدَ حَوْلٍ • أَطْبِقِي كَأَنَّكَ أُمُّ حِمَارٍ  
وَقَالَ الْجَوْهَرِيُّ : ضَارَهُ يَضُورُهُ وَيَضِيرُهُ ضَيْرًا وَضُورًا أَيْ ضَرَّهُ . قَالَ الْكِسَائِيُّ : سَمِعْتُ  
بَعْضَهُمْ يَقُولُ لَا يَنْغْنِي ذَلِكَ وَلَا يَضُورُنِي . وَالضُّورُ الصَّبَاحُ وَالتَّلَوُّ عِنْدَ الضَّرْبِ أَوْ الْجُوعِ .  
وَالضُّورَةُ بِالضَمِّ الرَّجُلُ الْخَفِيرُ الصَّغِيرُ الشَّانُ . ( إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُتَقِلُونَ ) يُرِيدُ نَقْلَهُ إِلَى رَبِّهِ  
كَرِيمٍ رَحِيمٍ ( إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبَّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ) . « أَنْ » فِي مَوْضِعِ  
نَصَبٍ أَيْ لِأَنَّ كَذَا . وَأَجَازَ الْفَرَاءَ كَسْرَهَا عَلَى أَنْ تَكُونَ مُجَازَةً . وَمَعْنَى « أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ »  
أَيْ عِنْدَ ظُهُورِ الْآيَةِ مَنْ كَانَ فِي جَانِبِ فِرْعَوْنَ . الْفَرَاءُ : أَوَّلُ مَوْثِي زِمَانِنَا . وَأَنكَرَهُ الزَّمَاجُ  
وَقَالَ : قَدْ رَوَى أَنَّهُ آمَنَ مَعَهُ سِتَّمِائَةُ أَلْفٍ وَسَبْعُونَ أَلْفًا ، وَهُمْ الشَّرْدَمَةُ الْقَلِيلُونَ الَّذِينَ قَالَ  
فِيهِمْ فِرْعَوْنَ : « إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشَرْدَمَةٌ قَلِيلُونَ » رَوَى ذَلِكَ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ وَغَيْرِهِ .

(١) راجع ج ٧ ص ٢٥٦ وما بعدها طبع أول أو ثالثة . (٢) البيت لخداش بن زهير ، وأسنده به  
سبيويه في كتابه على جبل آسم كان نكوة وغيرها مرة ضرورة . والمحق : لا تبالى بعد قيامك نفسك وأستناك من  
أبريك من أكتسبت إليه من شريف أو وضيع ، وضرب الخلل بالظلي أو الحمار .

قوله تعالى : وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكَ مُتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾  
 فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ خَشِيرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾  
 وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَاظُونَ ﴿٥٥﴾ وَلَئِنَّا بِجَمِيعِ خَلْدُونِ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْتَهُمْ مِنْ  
 جَنَّتِ وَعُبُونِ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزِ وَمَقَالِدِ كَرِيمِ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بِنِي  
 إِسْرَءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَتَخْشَوْنَ  
 مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا  
 إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَأَنْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ  
 الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزَلَّغْنَا فِئْمِ الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَتَّخَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾  
 ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾  
 وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾

قوله تعالى : ( وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكَ مُتَّبَعُونَ ) لما كان من سته  
 تعالى في عباده إجماع المؤمنين المصدقين من أوليائه ، المعترفين برسالته وأنبياؤه ، وإهلاك  
 الكافرين المكذبين لهم من أعدائه ، أمر موسى أن يخرج بني إسرائيل ليلا وسجما عباده ،  
 لأنهم آمنوا بموسى . ومعنى « إِنَّكَ مُتَّبَعُونَ » أى يتبعكم فرعون وقومه ليردوكم . وفى ضمن  
 هذا الكلام تعريفهم أن الله يجيبهم منهم ، فخرج موسى عليه السلام ببني إسرائيل سحرا ، فترك  
 الطريق إلى الشام على يساره وتوجه نحو البحر ، فكان الرجل من بني إسرائيل يقول له فى ترك  
 الطريق فيقول : هكذا أمرت . فلما أصبح فرعون وعلم بفرار موسى ببني إسرائيل ، خرج  
 فى أثرهم ، وبعث إلى مدائن مصر لتلحقه المساكر ، فروى أنه لحقه ومعه مائة ألف آدم من  
 الخليل سوى سائر الألوان . وروى أن بني إسرائيل كانوا سقاة ألف وسبعين ألفا . واه أعلم  
 بصحته . وإنما اللازم من الآية الذى يقطع به أن موسى عليه السلام خرج بجمع عظيم من

بني إسرائيل وأن فرعون تبعه بأضعاف ذلك . قال ابن عباس : كان مع فرعون ألف جبار كلهم طبعه تاج وكلهم أمير خيل . والشَّرْذِمَةُ الجمع القليل المحتقر والجمع الشَّرَازِمُ . قال الجوهري : الشَّرْذِمَةُ الطائفة من الناس والقطعة من الشيء . وثوب شرادم أى قطع . وأنشد التلمبي قول الراجز :

جاء الشتاء ونشأ بي أخلاق \* شرادِمٌ يَصْصَكُ منها النِّسَاقُ

النِّسَاقُ من الرجال الذى يروض الأمور ويصلحها ؛ قاله فى الصحاح . واللام فى قوله : « لَشِرْذِمَةٌ » لام تركيد وكثيرا ما تدخل فى خبر إن ، إلا أن الكوفيين لا يميزون إن زيدا لسوف يقوم . والدليل على أنه جائز قوله تعالى : « فَسَوْفَ نَسُوءُ » وهذه لام التوكيد بعينها وقد دخلت على سوف ؛ قاله النحاس . ( وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ) أى أعداء لنا لغائظتهم ديننا وفجائهم بأموالنا التى استماروها على ما تقدم . ومات أبكارهم تلك الليلة . وقد مضى هذا فى « الأعراف » و « طه » مستوف . يقال : غاظنى كذا وأغاظنى . والغيط الغضب ومنه الغيط والاختياط . أى غاظونا بخروجهم من غير إذن . ( وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَازِرُونَ ) أى مجتمع أخذنا حذرنا وأسلحتنا . وقرئ « حَازِرُونَ » ومعناه معنى « حَزْرُونَ » أى فرقتون خائفون . قال الجوهري : وقرئ « وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَازِرُونَ » و « حَزْرُونَ » و « حَزْرُونَ » بضم الذال حكاة الأخفش ؛ ومعنى « حَازِرُونَ » متاهبون ، ومعنى « حَزْرُونَ » خائفون . قال النحاس : « حَزْرُونَ » قراءة المدنيين وأبى عمرو ، وقراءة أهل الكوفة « حَازِرُونَ » وهى معروفة عن عبد الله بن مسعود وابن عباس ؛ و « حَازِرُونَ » بالمدال غير المعجمة قراءة أبى عباد وحكاها المهدسوى عن ابن أبى عمير ، والماوردي والتلمبي من شبيب بن عجلان . قال النحاس : أبو عبيدة يذهب إلى أن معنى « حَزْرُونَ » « حَازِرُونَ » واحد . وهو قول سيويه وأجاز : هو حَزْرٌ زيدا ؛ كما يقال : حازر زيدا ، وأنشد :

حَزْرٌ أُمُورًا لَا تَقْصِيرُ وَأَمِنْ \* ما ليس سُنْجِيهً من الأفتار

وزعم أبو عمر الجرمي أنه يجوز هو حذرٌ زيداً على حذفٍ من . فاما أكثر النحويين فيفرون بين حيدر وحاذر ، منهم الكسائي والقرءاء ومحمد بن يزيد ؛ فيذهبون إلى أن معنى حذر في خلقته الحذر ، أى يتيقظ منه ، فإذا كان هكذا لم يتمد ، ومعنى حاذر مستعدٌ وبهذا جاء التفسير عن المتقدمين . قال عبد الله بن مسعود في قول الله عز وجل : « وَلَمَّا بَلَغَ حُدُودَ » قال : مُؤَدُونَ في السلاح والكرأع مُقُون ، فهذا ذاك بينه . وقوله مُؤَدُونَ معهم أداة . وقد قيل : إن المعنى : معنا سلاح وليس معهم سلاح يمرضهم على القتال ؛ فاما « حاديرون » بالمال المهملة فاشتق من قولهم عين حذرة أى ممتلئة ؛ أى نحن ممتلئون غيظاً عليهم ؛ ومنه قول الشاعر<sup>(١)</sup> :

وَمِنْ لَهَا حَذَرَةٌ بَدْرَةٌ • شُقَّتْ مَاقِبَهُمَا مِنْ أُنْثَرِ

وحكى أهل اللغة أنه يقال : رجل حاذرٌ إذا كان ممتلئاً بالحلم ؛ فيجوز أن يكون المعنى الامتلاء من السلاح . المهدي : الحاذر القوى الشديد .

قوله تعالى : ( فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ) بنى من أرض مصر . وعن عبد الله ابن عمرو قال : كانت الجنات بمقاي النبل في الشقين جميعاً من أسوان إلى رشيد ، وبين الجنات زروع . والنبل سبعة خلجان : خليج الإسكندرية ، وخليج سخا ، وخليج دباط ، وخليج سرُدوس ، وخليج مَنَف ، وخليج القيوم ، وخليج المنهى<sup>(٢)</sup> متصلة لا ينقطع منها شيء عن شيء ، والأزروع ما بين النبلجان كلها . وكانت أرض مصر كلها تروى من ستة عشر ذراعاً بما دبروا وقدروا من قناطرها وجسورها وخليجاتها ؛ ولذلك سمي النيل إذا غلق ستة عشر ذراعاً نيل السلطان ؛ ويُحْمَل على ابن أبي الرقاد ؛ وهذه الحال مستمرة إلى الآن . وإنما قيل نيل السلطان لأنه حينئذ يجب الخروج على الناس . وكانت أرض مصر جميعها تروى

(١) هو أمرؤ القيس . (٢) وهو بحر يوسف عليه السلام . (٣) هو عبد الله بن عبد السلام ابن عبد الله بن أبي الرقاد الخوذن ؛ قدم مصر من البصرة وحدث بها ، وجعل على نياس النيل في ولاية يزيد بن عبد الله التكري . وكانت النصارى تقول قياسه — وأجرى عليه سبعة دنانير في كل شهر ، وأسفر قياسه في بنة زماناً طويلاً . وتوفي أبو الرقاد سنة ٢٦٦ هـ . عن خط المهرزي - ص ٨٨

من أصبع واحدة من سبعة عشر ذراعا، وكانت إذا غلق النيل سبعة عشر ذراعا ونودي عليه اصبح واحد من ثمانية عشر ذراعا، أزداد في خراجها ألف ألف دينار . فإذا خرج عن ذلك ونودي عليه اصبحا واحدا من تسعة عشر ذراعا تقص خراجها ألف ألف دينار . ومبب هذا ما كان ينصرف في المصالح والخلجان والجسور والاهتمام ببلدتها . فاما الآن فإن أكثرها لا يروى حتى ينادى اصبح من تسعة عشر ذراعا بمقياس مصر . وأما أعمال الصعيد الأعلى، فإن بها ما لا يتكامل ربه إلا بعد دخول الماء في القراع الثاني والعشرين بالصعيد الأعلى .

قلت : أما أرض مصر فلا تروى جميعها الآن إلا من عشرين ذراعا وأصابع ؛ لعلو الأرض وعدم الاهتمام ببلدة جسورها . وهو من عجائب الدنيا ؛ وذلك أنه يزيد إذا أنصبت المياه في جميع الأرض حتى يسبح على جميع أرض مصر، وتبقى البلاد كالأعلام لا يوصل إليها إلا بالراكب والقياسات . وروى عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال : نيل مصر سد الأنهار ، سخر الله له كل نهر بين المشرق والمغرب ، وذلك الله له الأنهار ؛ فإذا أراد الله أن يجري نيل مصر أمر كل نهر أن يمد ، فأمدته الأنهار بمائها ، وحرّقه له عيونا ، فإذا أتتهى إلى ما أراد الله عز وجل ، أوحى الله تبارك وتعالى إلى كل ماء أن يرجع إلى عنصره . وقال قيس بن المجلج : لما افتتحت مصر أتى أهلها إلى عمرو بن العاص حين دخل بثوبة من أشهر القبط فقالوا له : أيها الأمير إن لنيلنا هذا سنة لا يجري إلا بها ، فقال لهم : وما ذاك ؟ فقالوا : إذا كان لا تبقى عشرة ليلة غلوم من هذا الشهر عمدنا إلى جارية يكرين أبوها ؛ أرضينا أبوها ، وحملنا عليها من الحلى والثياب أفضل ما يكون ، ثم ألقيناها في هذا النيل ؛ فقال لهم عمرو : هذا لا يكون في الإسلام ؛ وإن الإسلام ليهدم ما قبله . فاقاموا أيوب ومسرى لا يجري قليل ولا كثير ، وهروا بالجلالة . فلما رأى ذلك عمرو بن العاص كتب إلى عمرو بن الخطاب رضى الله عنهما ، فأعلمه بالقصة ، فكتب إليه عمرو بن الخطاب : إنك قد أصبت بالذي فعلت ، وإن الإسلام يهدم ما قبله ولا يكون هذا . وبعث إليه ببطاقة في داخل كتابه . وكتب إلى عمرو : إنى قد بعثت إليك ببطاقة داخل كتابي ، فألقها في النيل

إذا أتاك كتابي ، فلما قدم كتاب عمر إلى عمرو بن العاص أخذ البطاقة ففتحها فإذا فيها : من عبد الله أمير المؤمنين عمر إلى نيل مصر - أما بعد - فإن كنت إنما تجرى من قبلك فلا تجسر وإن كان الله الواحد القهار هو الذي يُحرك ففسأل الله الواحد القهار أن يُحرك . قال : فألقى البطاقة في النيل قبل الصليب بيوم وقد تبا أهل مصر للجلاء والخروج منها ؛ لأنه لا تقوم مصلحتهم فيها إلا بالنيل . فلما ألقى البطاقة في النيل ، أصبحوا يوم الصليب وقد أجراه الله في ليلة واحدة ستة عشر فراسا ، وقطع الله تلك السيرة عن أهل مصر من تلك السنة . قال كعب الأحبار : أربعة أنهار من الجنة وضعها الله في الدنيا سيحان وجيحان والنيل والفرات ، فسيحان نهر الماء في الجنة ، وجيحان نهر اللبن في الجنة ، والنيل نهر العسل في الجنة ، والفرات نهر الخمر في الجنة . وقال ابن لهيعة : الدجلة نهر اللبن في الجنة .

قلت : الذي في الصحيح من هذا حديث أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سَيحَانٌ وَجِيحَانٌ وَالنَّيْلُ وَالْفُرَاتُ كُلُّهُ مِنْ أَنْهَارِ الْجَنَّةِ » لفظ مسلم . وفي حديث الإمراء من حديث أنس بن مالك عن مالك بن صَعَصَعَةَ وجلي من قومه قال : « وَحَدَّثَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ رَأَى أَرْبَعَةَ أَنْهَارٍ يَخْرُجُ مِنْ أَصْلَها نَهْرَانِ ظَاهِرَانِ وَنَهْرَانِ بَاطِنَانِ فَقُلْتُ يَا جَبْرِيلُ مَا هَذِهِ الْأَنْهَارُ قَالَ أَمَّا النَّهْرَانِ الْبَاطِنَانِ فَنَهْرَانِ فِي الْجَنَّةِ وَأَمَّا الظَّاهِرَانِ فَالنَّيْلُ وَالْفُرَاتُ » لفظ مسلم . وقال البخاري من طريق شريك عن أنس « فَإِذَا هُوَ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِنَهْرَيْنِ يُطْرِدَانِ فَقَالَ مَا هَذَانِ النَّهْرَانِ يَا جَبْرِيلُ قَالَ هَذَا النَّيْلُ وَالْفُرَاتُ عَنَصَرُهُمَا نَمُ مَضَى فِي السَّمَاءِ فَإِذَا هُوَ بِنَهْرٍ آخَرٍ عَلَيْهِ قَصْرٌ مِنَ الْقَوَاقِيزِ وَالزُّبُرِجِدِ فَضَرَبَ بِيده إِذَا هُوَ مَسْكٌ أَذْفَرُ فَقَالَ مَا هَذَا يَا جَبْرِيلُ فَقَالَ هَذَا هُوَ الْكَوْثَرُ الَّذِي خَبَأَ لَكَ رَبُّكَ . » وذكر الحديث . والجمهور على أن المراد باليمن حيون الماء . وقال سعيد بن جبير : المراد عيون الذهب . وفي الدخان « تَمَّ تَرْكُوهَا مِنْ جَسَائِدٍ وَجَبُونِ وَزُرُوعٍ » . قيل : إنهم كانوا يزرعون ما بين الجليلين من أول مصر إلى آخرها . وليس في الدخان « وَكَنْوُزٌ » . « وَكَنْوُزٌ » جمع كنز ، وقد مضى هذا



في سورة « برأءة » . والمراد بها هاهنا الخزائن . وقيل : الدقائق . وقال الضحاك : الأنهار؛ وفيه نظره؛ لأن العيون تشملها . ( وَمَقَامٌ كَرِيمٌ ) قال ابن عمر وابن عباس وبجاهد : المقام الكريم المتأخر؛ وكانت ألف منبر لألف جبار يُعْظَمُونَ عليها فرعون ومُلْكُهُ . وقيل : مجالس الرؤساء والأمرأء؛ حكاه ابن عيسى وهو قريب من الأول . وقال سعيد بن جبير : المساكن الحسان . وقال ابن لُحَيْمَةَ : سمعت أن المقام الكريم القيوم . وقيل : كان يوسف عليه السلام قد كتب على مجلس من مجالسه ( لا إله إلا الله إبراهيم خليل الله ) فيهاها الله كريمة بهذا . وقيل : مرابط الخليل لتفرد الرعاء بارتباطها صَلة وزينة ؛ فصار مقامها أكرم منزل بهذا؛ ذكره الساجدي . والأظهر أنها المساكن الحسان كانت تكرم عليهم . والمقام في الفسة يكون الموضع ويكون مصدرا . قال النحاس : المقام في اللغة الموضع؛ من قولك قام يقوم، وكذا المقامات واحدها مقامة؛ كما قال <sup>(١)</sup> :

وفيه مَقَامَاتٌ حَسَنٌ وجوهُهُمْ • وأنديةٌ يشأبها القسُوفُ والفعلُ

والمقام أيضا المصدر من قام يقوم . والمقام ( بالضم ) الموضع من أقام . والمصدر أيضا من أقام يقيم .

قوله تعالى : ( كَذَلِكَ وَأَوَدَّتْهَا آتَنِي إِسْرَائِيلَ ) يريد أن جميع ما ذكره الله تعالى من الجنات والعيون والكنوز والمقام الكريم أورثه الله بنى إسرائيل . قال الحسن وغيره : رجع بنو إسرائيل إلى مصر بعد هلاك فرعون وقومه . وقيل : أراد بالورثة هنا ما استماروه من حل آل فرعون بأمر الله تعالى .

قلت : وكلا الأمرين حصل لهم . والحمد لله . ( تَتَّبِعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ) أى تتبع فرعون وقومه بنى إسرائيل . قال السدى : حين أشرقت الشمس بالشعاع . وقال قتادة : حين أشرقت الأرض بالضياء . قال الزجاج : يقال شَرَقَتِ الشَّمْسُ إذا طلعت ، وأشرقت إذا أضاءت . وأختلف في تأخر فرعون وقومه عن موسى وبنى إسرائيل على قولين : أحدهما —

(١) راجع ج ٨ ص ١٢٣ طبة أدل أورثانية . (٢) هزجيين أى سلمى؛ ويغنيا : أي يقال فيها الجمل ويقبل به .

لاشتغالهم بدفن أبنائهم في تلك الليلة ؛ لأرب الوباء في تلك الليلة وقع فيهم ؛ فقوله : « مشرقين » حال لقوم فرعون . الثاني - إن محابة أظلمتهم وظلمة فقالوا : نحن بعد في الليل فما تقشمت عنهم حتى أصبحوا . وقال أبو عبيدة : معنى « قَاتَبُوهُمْ مُشْرِقِينَ » ناحية المشرق . وقرأ الحسن وعمر بن ميمون « قَاتَبُوهُمْ مُشْرِقِينَ » بالتشديد وألف الوصل ؛ أى نحو المشرق ؛ مأخوذ من قولهم : شرق وغرب إذا سار نحو المشرق والمغرب . ومعنى الكلام قدرنا أن يرثها بنو إسرائيل فأتبع قوم فرعون بنى إسرائيل مشرقين فهلكوا ، وورث بنو إسرائيل بلادهم .

قوله تعالى : ( فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَانِ )<sup>(١)</sup> أى تقابلا الجمعان بحيث يرى كل فريق صاحبه ، وهو تفاعل من الرؤية . ( قَالَ أَفْتَحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ) أى قرب منا العدو ولا طاقة لنا به . وقرأ الجماعة « لَمُدْرِكُونَ » بالتخفيف من أدرك . ومنه « حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْفَرَقُ » . وقرأ عبيد بن عمير والأصمعي والزهرى « لَمُدْرِكُونَ » بتشديد الدال من أدرك . قال الفراء : حفر وأحفر بمعنى واحد ، وكذلك « لَمُدْرِكُونَ » و « لَمُدْرِكُونَ » بمعنى واحد . النعاس : وليس كذلك يقول النحويون الحداق ؛ إنما يقولون : مُدْرِكُونَ ملحقون ، ومُدْرِكُونَ مجتهد في لحاقهم ، كما يقال : كسبت بمعنى أصبت وظفرت ، واكتسبت بمعنى اجتهدت وطلبت وهذا معنى قول سيويه .

قوله تعالى : ( قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ) لما لحق فرعون بجمعه جمع موسى وقرب منهم ، ورأت بنو إسرائيل العدو القوي والبحر أمامهم سامت ظنونهم ، وقالوا لموسى على جهة التوبيخ والنفاء : « إِنَّا لَمُدْرِكُونَ » فرد عليهم قولهم وزجرهم وذكروهم وعد الله سبحانه له بالهداية والظفر « كَلَّا » أى لم يدركوكم « إِنَّ مَعِيَ رَبِّي » أى بالصر على العدو . « سَيَهْدِينِ » أى سيدلني على طريق النجاة ؛ فلما عظم البلاء على بنى إسرائيل ، ورأوا من الحيوش ما لا طاقة لهم بها ، أمر الله تعالى موسى أن يضرب البحر بعصاه ؛ وذلك أنه

(١) كما في نسخ الأصل . (٢) وكسر الراء - كما في البحر وروح المعاني والكناف - على وزن ن-فتعل وهو لازم بمعنى الفاعل ، ولا ضم لعل . من أدرك الشيء إذا تابعه حتى .

مزيجاً أراد أن تكون الآية متصلة بموسى ومتعلقة بفعل يفعله ؛ وإلا فغضب المعاص  
ليس يفارق للبحر ، ولا معين على ذلك بذاته إلا بما اقترن به من قدرة الله تعالى واختراعه .  
وقد مضى في « البقرة » قصة هذا البحر . ولما أخلق صاريه أثنا عشر طريقاً على عدد  
أسباط بني إسرائيل ، ووقف الماء بينها كالطود العظيم ؛ أى الجبل العظيم . والطود  
الجبل ؛ ومنه قول امرئ القيس :

فِينَا الْمَرْءُ فِي الْأَحْيَاءِ طَوْدٌ • رَمَاهُ النَّاسُ مِنْ كَثْبٍ فَلَا

وَقَالَ الْأَسْوَدُ بْنُ يَعْقَرٍ :

حَلُّوا بِأَنْقَرَةِ يَسِيلُ عَلَيْهِمْ • مَاءُ الْفُرَاتِ يَمِيءُ مِنْ أَطْوَادِ

جمع طود أى جبل . فصار لموسى وأصحابه طريقاً في البحر يسيرون ؛ فلما خرج أصحاب موسى  
وتكامل آخر أصحاب فرعون على ما تقدم في « يونس » انصب عليهم وغرق فرعون ؛ فقال  
بعض أصحاب موسى : ما غرق فرعون ؛ فنذب على ساحل البحر حتى نظروا إليه . وزوى  
ابن القاسم عن مالك قال : خرج مع موسى عليه السلام رجلان من التجار إلى البحر فلما  
أتوا إليه قال له لم أمرك الله ؟ قال : أمرت أن أضرب البحر بمصاى هذه فينشق ؛ فقال له :  
أفضل ما أمرك الله فلن ينشقق ؛ ثم ألقيا أنفسهما في البحر تصديقا له ؛ فما زال كذلك البحر  
حتى دخل فرعون ومن معه ، ثم ارتد كما كان . وقد مضى هذا المعنى في سورة « البقرة » .  
قوله تعالى : ( وَأَزَلَقْنَا ثُمَّ الْآخَرِينَ ) أى قربناهم إلى البحر ؛ يعنى فرعون وقومه . قاله  
ابن عباس وغيره ؛ قال الشاعر :

وَكُلُّ يَوْمٍ مَقَى أَوْ لَيْلَةٍ سَلَقْتُ • فِيهَا الْغُفُوسُ إِلَى الْأَجَالِ تَرْدَقُ

أبو عبيدة : « أَزَلَقْنَا » جمعاً ومنه قيل ليلة المزدلفة ليلة جمع . وقرأ أبو عبد الله بن الحرث  
وأبو بن كعب وابن عباس « وَأَزَلَقْنَا » بالفتح على معنى أهلكتهم ؛ من قوله : أزلقت  
الثاقة وأزلقت القرس فهى مُزَلَّقٌ إذا أزلقت ولها . ( وَأَجْمَعْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ •  
ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ) يعنى فرعون وقومه . ( إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ) أى علامة على قدرة الله تعالى .  
( ١ ) راجع ج ١ ص ٢٨٩ وما بعدها طبع ثانية أرواحه . ( ٢ ) راجع ج ٨ ص ٢٧٨ طبعته أملا أدلة .

(وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ) لأنه إن يؤمن من قوم فرعون إلا مؤمن آل فرعون وأحمه  
 حزقيل، وأبنته آسية امرأة فرعون، ومريم بنت دا موسى العجوز التي دلت على قبر يوسف  
 الصديق عليه السلام. وذلك أن موسى عليه السلام لما خرج بني إسرائيل من مصر  
 أظلم عليهم القدر فقال لقومه: ما هذا؟ فقال ملأؤهم: إن يوسف عليه السلام  
 لما حضره الموت أخذ علينا موثقا من الله ألا نخرج من مصر حتى ننقل عظامه معنا.  
 قال موسى: فأين يدري قبره؟ قال: ما يعلمه إلا عجوز لبني إسرائيل؛ فأرسل إليها؛  
 فقال: دليني على قبر يوسف، قالت: لا والله لا أفعل حتى تعطيني حكي، قال: وما حكيك؟  
 قالت: حكي أن أكون معك في الجنة؛ فهل عليه، قيل له: أعطها حكيها؛ فدلتهم  
 عليه، فاحتفروه واستخرجوا عظامه، فلما أفلوها، فإذا الطريق مثل ضوء النهار. في رواية:  
 فأوحى الله إليه أن أعطها ففعل، فأتت بهم إلى بحيرة، فقالت لهم: أنضبوا هذا الماء  
 فأنضبوه واستخرجوا عظام يوسف عليه السلام؛ فتبنت لهم الطريق مثل ضوء النهار.  
 وقد مضى في «يوسف»<sup>(١)</sup>. وروى أبو بردة عن أبي موسى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم  
 نزل بأعرابي فأكرمه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «حاجتك؟» قال: ناقة أرحلها  
 وأصترأ أهلها؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لم عجزت أن تكون مثل عجوز  
 بني إسرائيل؟» فقال أصحابه: وما عجوز بني إسرائيل؟ فذكر لهم حال هذه العجوز التي  
 احتكت على موسى أن تكون معه في الجنة.

قوله تعالى: وَأَتَىٰ عَلَيْهِمْ نَبَأٌ لِّمَرِّهِمْ ﴿٥٥﴾ إِذْ قَالَ لِأَيُّهِ وَقَوْمِهِ  
 مَا تَعْبُدُونَ ﴿٥٦﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظُلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴿٥٧﴾ قَالَ هَلْ  
 يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٥٨﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا  
 آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٦٠﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٦١﴾ أَنْتُمْ  
 وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٦٢﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٣﴾

قوله تعالى : ( وَأَتَىٰ طَهُيمٌ نَّبَأَ إِبْرَاهِيمَ ) نبيه المشركين على فرط جهلهم إذ رغبوا عن اعتقاد إبراهيم ودينه وهو أبوه . والنبا الخبر ؛ أى أنقص طعيم يا محمد خبره وحديثه وعيه على قومه ما يبدون . وإنما قال ذلك ملزماً لهم الحجة . واليهود من القراء على تخفيف الهزمة الثانية وهو أحسن الوجوه ؛ لأنهم قد أجمعوا على تخفيف الثانية من كلمة واحدة نحو آدم . وإن شئت حَقَّقْتُمَا قُلْتُ : « نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ » . وإن شئت خَفَّفْتُمَا قُلْتُ : « نَبَا إِبْرَاهِيمَ » . وإن شئت خَفَّفْتُ الْأَوَّلَى . وَتَمَّ وَجْهُ خَامِسٌ إِلَّا أَنَّهُ بَعِيدٌ فِي الرِّبْعَةِ وَهُوَ أَنَّ يَدْفَعُ الْهَمْزَةُ فِي الْهَمْزَةِ كَمَا يُقَالُ رَأْسٌ لِلَّذِي يَبِيعُ الرُّيُوسَ . وَإِنَّمَا يَدْفَعُ لِأَنَّكَ تَجْمَعُ بَيْنَ هَمَزَيْنِ كَانَتْهُمَا فِي كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَحَسَنٌ فِي قَوْلِكَ لِأَنَّهُ لَا يَأْتِي إِلَّا مَدْغَمًا . ( إِذْ قَالَ لِأَيُّهِمْ وَقْوِيهِ مَا تَعْبُدُونَ ) أى أى شئ تعبدون ( قَالُوا تَعْبُدُ أَصْنَامًا ) وكانت أصنامهم من ذهب وفضة ونحاس وحديد وخشب . ( فَتَنَّا لَهُمَا مَا كُفِينِ ) أى فقيم على عبادتها . وليس المراد وقتاً معيناً بل هو إخبار عما هم فيه . وقيل : كانوا يبدلون بالتأريخ دون الليل ، وكانوا في الليل يبدلون الكواكب . فيقال : ظل يفعل كذا إذا فعله نهاراً وبات يفعل كذا إذا فعله ليلاً . ( قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ ) قال الأخفش : فيه حذف ؛ والمعنى : هل يسمعون منك ؟ أو هل يسمعون دعاءك ؛ قال الشاعر<sup>(١)</sup> :

القائد الخليل منكوباً دوايرها • قد أحكمت حكايت القيد والأبها

قال : والأبقي الكائن لحذف . والمعنى ؛ وأحكمت حكايت الأبيق . وفي الصحاح : والأبقي بالتحريك القَيْب . وروى عن قتادة أنه قرأ « هَلْ يَسْمَعُونَكَ » بضم الياء ؛ أى هل يسمعونكم أصواتهم ( إِذْ تَدْعُونَ . أَوْ يَنْفَعُونَكَ أَوْ يَضُرُّونَ ) أى هل تنفعكم هذه الأصنام وترزقكم ، أو تملك لكم خيراً أو ضراً إن عصيتهم ؟ وهذا استفهام لتقرير الحجة ؛ فإذا لم ينفعوكم ولم يضرؤا فما معنى عبادتكم لها . ( قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ) فترعوا إلى التقليد

(١) هو هزبر بن أبي سلمى . والبيت من قصيدة يمدح بها هرم بن سنان . وأحكمت : جعلت لها حكايت من القيد والحكايت جمع حكمة وهى ما تكون على أنف الهابة . ودوايرها : مؤثر حوافرها . ومنكوب : أى أصابت المجازة دوايرها وأدبتها .

من غير حجة ولا دليل . وقد مضى القول فيه . ( قَالَ ) إبراهيم ( أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ) من هذه الأصنام ( أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ) الأولون ( فَانْتَهَمَ عَدُوِّي ) واحد يؤدى عن جماعة ، وكذلك يقال للراة هي عدوة الله وعدوة الله ؛ حكاهما الفراء . قال علي بن سليمان : من قال عدوة الله وأثبت المساء قال هي بمعنى معادية ، ومن قال عدوة للوث والجمع جملة بمعنى النسب . ووصف الجساد بالعداوة بمعنى أنهم عدوى إن عيشتهم يوم القيامة ؛ كما قال : « كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِمِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا » . وقال الفراء : هو من المقلوب ؛ مجازة : فإني عدو لهم لأن من عاديتهم عاداك . ثم قال : ( إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ) قال الكلبي : أى إلا من عبد رب العالمين ؛ إلا ما عبد رب العالمين ؛ تخفف المضاف . قال أبو إسحق الزجاج : قال الصوريون هو استثناء ليس من الأول ؛ وأجاز أبو إسحق أن يكون من الأول على أنهم كانوا يعبدون الله عز وجل ويعبدون معه الأصنام ، فأعلمهم أنه تبرا مما يعبدون إلا الله . وتأوله الفراء على الأصنام وحدها والمعنى عنده : فإنهم لو عيشتهم عدوى يوم القيامة ؛ على ما ذكرناه وقال الجرجاني : تحديده : أفرايت ما كنتم تعبدون أتم وأباكم الأقدمون إلا رب العالمين فإنهم عدوى . وإلا بمعنى دون وسوى ؛ كقوله : « لَا يَدْعُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى » أى دون الموة الأولى .

قوله تعالى : الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾

قوله تعالى : ( الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ) أى يرشدني إلى الدين . ( وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ) أى يرزقني . ودخول « هو » تيه على أن غيره لا يطعم ولا يسقي ؛ كما تقول : زيد هو الذي فعل كذا ؛ أى لم يفعله غيره . ( وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ) قال : « مرضت » رعاية للأدب وإلا فالمرض والشفاء من الله عز وجل جميعا . وظنني قول

قضى موسى : « وَمَا أَتَسَاءِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ » . ( وَالَّذِي يُبَيِّنُ لَكُمْ مَخْرَجَ ) يريد البعث وكانوا ينسبون الموت إلى الأسباب ؛ فبين أن الله هو الذى يميت ويحيى . وكله بغيرياء : « يهدين » يشفين » لأن الخلف في رموس الآى حسن لتتفق كلها . وقرأ ابن أبى إسحق على جلالة وعلمه من العربية هذه كلها بإيلاء ؛ لأن الإيلاء أسم وإنما دخلت النون لعله . فإن قيل : فهذه صفة تجمع الخلق فكيف جعلها لإبراهيم دليلا على هدايته ولم يهتد بها غيره ؟ قيل : إنما ذكرها احتجاجا على وجوب الطاعة ؛ لأن من أنعم وجب أن يطاع ولا يصحى ليقترن غيره من الطاعة ما قد التزمها ؛ وهذا إلتزام صحيح .

قلت : وتجاوز بعض أهل الإشارات في غوامض المعانى فعدل عن ظاهر ما ذكرناه إلى ما تدفعه بدائه العقول من أنه ليس المراد من إبراهيم . فقال : « وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي » أى يطعمنى لذة الإيمان ويسقين حلاوة القبول . ولم في قوله : « وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي » وجهان : أحدهما -- إذا مرضت بخالفته شفاى برحمته . الثانى -- إذا مرضت بمقاساة الخلق ، شفاى بمشاهدة الحق . وقال جعفر بن محمد العبادق : إذا مرضت بالذنوب شفاى بالتوبة . وتناولوا قوله : « وَالَّذِي يُبَيِّنُ لَكُمْ مَخْرَجَ » على ثلاثة أوجه : فالذى يبيتى بالمعامى يبيتى بالطاعات . الثانى : يبيتى بالخوف يبيتى بالرجاء . الثالث : يبيتى بالطمع ويبيتى بالقناعة . وقول رابع : يبيتى بالعدل ويبيتى بالفضل . وقول خامس : يبيتى بالفراق ويبيتى بالطلاق . وقول سادس : يبيتى بالجهل ويبيتى بالعقل ؛ إلى غير ذلك مما ليس بشئ منه مراد من الآية ؛ فإن هذه التأويلات الفاضلة ، والأمور الباطنة ، إنما تكون لمن حقق وعرف الحق ، وأما من كان في عمى عن الحق ولا يعرف الحق فكيف ترمز له الأمور الباطنة ، وتترك الأمور الظاهرة ؟ هذا محال . والله أعلم .

قوله تعالى : ( وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ) « أَطْمَعُ » أى أرجو . وقيل : هو بمعنى اليقين في حقه ، وبمعنى الرجاء في حق المؤمنين سواء . وقرأ الحسن وابن أبى إسحق « خَطَايَاى » وقال : ليست خطيئة واحدة . قال النحاس : خطيئة بمعنى

خطايا معروف فى كلام العرب ، وقد أجمعوا على التوحيد فى قوله عز وجل « فَأَعْتَبُوا  
يَذُنِبُهُمْ » ومعناه بذنوبهم . وكذا « وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ » معناه الصلوات ، وكذا « خَطِيئَتِي »  
إن كانت خطايا . والله أعلم . قال مجاهد : يعنى بخطيئته قوله : « بَلْ قَسَلَهُ كِبَرُهُمْ هَذَا »  
وقوله : « إِنِّى سَمِيعٌ » وقوله : إن سارة أخته . زاد الحسن وقوله للكوكب : « هَذَا رَبِّى »  
وقد مضى بيان هذا مستوفى . وقال الزجاج : الأنبياء بشر فيجوز أن تقع منهم الخطيئة ؛  
نعم لا تجوز عليهم الكآثر لأنهم معصومون عنها . ( يَوْمَ الدِّينِ ) يوم الجزاء حيث يجازى العباد  
بأعمالهم . وهذا من إبراهيم إظهار للعبودية وإن كان يعلم أنه مغفوره . وفى صحيح مسلم  
عن عائشة ؛ قلت يا رسول الله : ابن جدعان كان فى الجاهلية يصل الرحم ، ويعلم المسكين ،  
فهل ذلك نافعه ؟ قال : « لا ينفعه إنه لم يقل يوما « رب أغفر لى خطيئتى يوم الدين » .

قوله تعالى : رَبِّ هَبْ لى حُكْماً وَالْحَقْنِى بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٧﴾ وَأَجْعَلْ لى  
لِسَانَ صِدْقٍ فِى الْآخِرِينَ ﴿٨٨﴾ وَأَجْعَلْنى مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٩﴾  
وَأَغْفِرْ لِأَبْنِى إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٩٠﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٩١﴾  
يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٩٢﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٩٣﴾

قوله تعالى : ( رَبِّ هَبْ لى حُكْماً وَالْحَقْنِى بِالصَّالِحِينَ ) « حُكْماً » معرفة بك وبمحدودك  
وأحكامك ؛ قاله ابن عباس . وقال مقاتل : فهما وعلم ؛ وهو راجع إلى الأول . وقال  
الكلبى : نبوة ورسالة إلى الخلق . « وَالْحَقْنِى بِالصَّالِحِينَ » أى بالنبيين من قبلى فى الدرجة .  
وقال ابن عباس : بأهل الجنة ؛ وهو تأكيد قوله : « هَبْ لى حُكْماً » .

قوله تعالى : ( وَأَجْعَلْ لى لِسَانَ صِدْقٍ فِى الْآخِرِينَ ) قال ابن عباس : هو اجتماع  
الأمم عليه . وقال مجاهد : هو الثناء الحسن . قال ابن عطية : هو الثناء وخلد المكانة بإجماع  
المفسرين ؛ وكذلك أجاب الله دعوته ، وكل أمة تتمسك به وتعظمه ، وهو على الحنيفية التى جاء  
بها محمد صلى الله عليه وسلم . وقال مكى : وقيل معناه سؤاله أن يكون من ذريته فى آخر الزمان



من يقوم بالحق ؛ فأجبت الدعوة في عهد صلى الله عليه وسلم . قال ابن عطية : وعنا معنى حسن إلا أن لفظ الآية لا يعطيه إلا يتحكم على اللفظ . وقال القشيري : أراد الدعاء الحسن إلى قيام الساعة ؛ فإن زيادة التواب مطلوبة في حق كل أحد .

قلت : وقد فصل الله ذلك إذ ليس أحد يصل على النبي صلى الله عليه وسلم إلا وهو يصل على إبراهيم وخاصة في الصلوات ، وعلى المنابر التي هي أفضل الحالات وأفضل الدرجات . والصلوة دعاء بالرحمة . والمراد باللسان القول ، وأصله جارة الكلام . قال الفتي : وموضع اللسان موضع القول على الاستعارة ، وقد تكنى العرب بها عن الكلمة . قال الأعشى :

إِنِّي أَتَيْتُ لِسَانًا لَا أُسْرُهَا \* مِنْ عُلُوٍّ لَا تَجِبُ مِنْهَا وَلَا تَحَرُّ

قال الجوهري : يروى مِنْ عُلُوٍّ بضم الواو وفصحها وكسرهما . أى أتاني خبر من أعلى ، والتأنيث للكلمة . وكان قد أتاه خبر مقتل أخيه المنتشر . روى أنسب عن مالك قال ، قال الله عز وجل : « وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ » لا بأس أن يحب الرجل أن يثنى عليه صالحا ويرى في عمل الصالحين ، إذا قصد به وجهه الله تعالى ؛ وقد قال الله تعالى : « وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي » وقال : « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا » أى حبا في قلوب عباده وثناء حسنا ، فبه تعالى بقوله : « وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ » على استحباب اكتساب ما يورث الذكر الجميل . الليث بن سليمان : إذ هي الحياة الثانية . قيل :

\* قد مات قوم وهم في الناس أحياء \*

قال ابن العربي : قال المحققون من شيوخ الزهد على هذا دليل على الترغيب في العمل الصالح الذي يكسب الثناء الحسن ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إذا مات ابن آدم أقطع عمله إلا من ثلاث » [ الحديث ] وفي رواية أنه كذلك في النرس والزرع وكذلك فيمن مات مرابطا يكتب له عمله إلى يوم القيامة . وقد بئناه في آخر « آل عمران » والمحمد لله .

قوله تعالى : ( وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ) دعاء بالجنة وبين يرثها ، وهو يرد قول بعضهم : لا أسأل جنة ولا ناراً .

قوله تعالى : ( وَأَغْفِرْ لِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الصَّاحِّينَ ) كان أبوه وعده في الظاهر أن يؤمن به فاستغفره لهذا ، فلما بان أنه لا يفي بما قال تبرأ منه . وقد تخدم هذا المعنى . « إِنَّهُ كَانَ مِنَ الصَّاحِّينَ » أى المشركين . « وكان » زائدة . ( وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُخْزُونَ ) أى لا تخفضنى على رموس الأَشْهاد ، أو لا تعذبى يوم القيامة . وفي البخارى عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن إبراهيم يرى أباه يوم القيامة عليه النبرة والفترة » والنبرة هى الفترة . وعنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يلقى إبراهيم أباه فيقول يا رب إنك وعدتني ألا تخزنى يوم يغفون فيقول الله تعالى إني حرمت الجنة على الكافرين » أفرد بهما البخارى رحمه الله .

قوله تعالى : ( يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ) « يوم » بدل من « يوم » الأول . أى يوم لا ينفع مال ولا بنون أحدا . والمراد بقوله : « ولا بنون » الأَعوان ؛ لأن الابن إذا لم ينفع فغيره متى ينفع ؟ وقيل : ذكر البنين لأنه جرى ذكر والد إبراهيم ، أى لم ينفعه إبراهيم . « إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » هو استثناء من الكافرين ؛ أى لا ينفعه ماله ولا بنوه . وقيل : هو استثناء من غير الجنس ، أى لكن « من أتى الله بقلب سليم » ينفعه لسلامة قلبه . وخص القلب بالذكر ؛ لأنه الذى إذا سلم سلمت الجوارح ، وإذا فسد فسدت سائر الجوارح . وقد تقدم فى أول « البقرة » . واختلف فى القلب السليم فقليل : من الشك والشرك ، فاما الذنوب فليس يسلم منها أحد ؛ قاله قتادة وأبن زيد وأكثر المفسرين . وقال سعيد بن المسيب : القلب السليم الصحيح هو قلب المؤمن ؛ لأن قلب الكافر والمنافق مريض ؛ قال الله تعالى : « فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ » وقال أبو عثمان السيارى : هو القلب الخالى عن البدعة المظلمة إلى السنة . وقال الحسن : سليم من آفة المال والبيتين . وقال الجنييد : السليم فى اللغة اللدغ ؛ فمعناه أنه قلب كاللدغ من خوف الله . وقال الضحاك : السليم الخالص .

قلت : وهذا القول يجمع شتات الأقوال بعمومه وهو حسن ، أى الخالص من الأوصاف  
الذميمة ، والنصف بالأوصاف الجميلة ؛ والله أعلم . وقد روى عن عمرو أنه قال : يا بنى  
لا تكونوا لعائن فإن إبراهيم لم يلعن شيئاً قط ، قال الله تعالى : « إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » .  
وقال محمد بن سيرين : القلب السليم أن يعلم أن الله حق ، وأن الساعة قائمة ، وأن الله يبعث  
من فى القبور . وفى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :  
« يدخل الجنة أقوامٌ أفئدتهم مثل أفئدة الطير » يريد - والله أعلم - أنها مثلها فى أنها  
خالية من كل ذنب ، سليمة من كل عيب ، لا خيرة لهم بأمور الدنيا ، كما روى أنس بن مالك  
قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أكثر أهل الجنة البله » وهو حديث صحيح .  
أى البله عن معاصي الله . قال الأزهري : الأبله هنا هو الذى طبع على الخبر وهو غافل عن  
الشر لا يعرفه . وقال القتيبي : البله هم الذين غلبت عليهم سلامة الصدور وحسن الظن بالناس .

قوله تعالى : **وَأَزَلَّتِ الْجَنَّةُ الْمُتَّقِينَ** (١١) **وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ** (١٢)  
**وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ** (١٣) **مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ**  
**أَوْ يَنْتَصِرُونَ** (١٤) **فَكَذَّبُوا فِيهَا لَهُمْ وَالْغَاوُونَ** (١٥) **وَجُنُودُ إِبْلِيسَ**  
**أَجْمَعُونَ** (١٦) **قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ** (١٧) **تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَنَافِلُ**  
**مُتَبِينَ** (١٨) **إِذْ نُسَوِّجُكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ** (١٩) **وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ** (٢٠)  
**قَالُوا لَنَا مِنْ شَفِيعِينَ** (٢١) **وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ** (٢٢) **فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً**  
**فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** (٢٣) **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ** (٢٤)  
**وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ** (٢٥)

قوله تعالى : **(وَأَزَلَّتِ الْجَنَّةُ الْمُتَّقِينَ)** أى قربت وأدنت ليدخلوها . وقال الزجاج :  
نرب دخولهم إليها . **(وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ)** أى أظهرت **(الْجَحِيمُ)** من جهنم . **(الْمُتَقِينَ)**

أى الكافرين الذين ضلوا عن الهدى . أى تظهر جهنم لأهلها قبل أن يدخلوها حتى يستشعروا  
الروع والحزن ، كما يستشعر أهل الجنة الفرح لما بهم أنهم يدخلون الجنة . ( وَقِيلَ لَهُمْ أَتَيْتُمْ كُنُفَكُمْ  
تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ) من الأصنام والأنداد ( هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ ) من عذاب الله ( أَوْ يَتَصَرَّوْنَ )  
لأنفسهم . وهذا كله توبيخ . ( فَكَبِّكُوا فِيهَا ) أى قلوبا على رؤوسهم . وقيل : دهوروا وألقى  
بعضهم على بعض . وقيل : جمعوا . «أخوذ من الكِبْكة وهى الجماعة؛ قاله المروى . وقال  
النحاس : هو مشتق من كَوَّكِب الشيء أى مَعْظَمه . والجماعة من الخليل كَوَّكِب وكِبْكة .  
وقال ابن عباس : جمعوا فطرحوا في النار . وقال مجاهد : دهوروا . وقال مقاتل : قذفوا .  
والمعنى واحد . تقول : دهورت الشيء إذا جمعته ثم قذفته في مهواة . يقال : هو يدهور  
القم إذا كبرها . ويقال : في الدعاء كب الله عدو المسلمين ولا يقال أكبه . وكبكه ،  
أى كبه وقلبه . ومنه قوله تعالى : « فَكَبِّكُوا فِيهَا » والأصل كُبِّبُوا فأبدل من الباء الوسطى  
كاف استقالا لاجتماع الباءات . قال السدى : الضمير في « كُبِّبُوا » لشركى العرب  
( وَالْقَاوُونَ ) الآلهة . ( وَجُنُودُ إِبْلِيسَ ) من كان من ذريته . وقيل : كل من دعاه إلى  
عبادة الأصنام فأتبعه . وقال قتادة والكلبي ومقاتل : « الْقَاوُونَ » هم الشياطين . وقيل :  
إنما تلقى الأصنام في النار وهى حديد ونحاس ليعذب بها غيرهم . ( قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ )  
يعنى الأنس والشياطين والنساوين والمعبودين اختصموا حيثخذ . ( تَأْتِيهِمْ ) حلقوا بالله  
( إِنَّ كُنَّا لَنَاقِلِينَ ) أى في خسار وتبار وحيرة عن الحق بينة إذا اتخذنا مع الله آلهة  
فعبدناها كما يبدى ؛ وهذا معنى قوله : ( إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ السَّالِكِينَ ) أى في العبادة وأتم  
لا نستطيعون الآن نصرنا ولا نصر أنفسكم . ( وَمَا أَضَلُّوا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ) بنى الشياطين الذين  
زبنوا لنا عبادة الأصنام . وقيل : أسلافنا الذين قلدناهم . قال أبو العالية وعكرمة : «المجرمون»  
إبليس وآبى آدم القاتل هما أول من سنن الكفر والقتل وأنواع المعاصي . ( قَالُوا مَنْ شَافِعِينَ )  
أى شفعا يشفعون لنا من الملائكة والنبين والمؤمنين . ( وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ) أى صديق  
مشفق ؛ وكان على رضى الله عنه يقول : عليكم بالإخوان فإنهم عدة الدنيا وعدة الآخرة ؛

ألا تسمع إلى قول أهل النار « قَاتِلْنَا مِنْ شَافِيَيْنَ وَلَا صَدِيقِي حَمِيمٍ » . الزمخشري : وجمع الشافع لكثرة الشافعين ووحيد الصديق لقلته ؛ ألا ترى أن الرجل إذا امتنع بإرهاق ظالم مضت جماعة وافرة من أهل بلده لشفاعته ؛ رحمة له وحسبة وإن لم تسبق له بأكثرهم معرفة ؛ وأما الصديق فهو الصادق في ودائك الذي يحمي ما يملك فأعز من يبيض الأثوب ؛ وعن بعض الحكماء أنه مثل عن الصديق فقال : أسمى لأمضى له . ويجوز أن يريد بالصديق الجمع . والحميم القريب والخاص ؛ ومنه حادثة الرجل أى أقرباه . وأصل هذا من الحميم وهو الماء الحار ؛ ومنه الحمام والحُمَّى ؛ حادثة الرجل الذين يحرقهم ما أحرقه ؛ يقال : هم حُرَّتْهم أى يحزنهم ما يحزنه . ويقال : حَمَّ الشيءُ وأَحَمَّ إذا قرب ، ومنه الحُمَّى ؛ لأنها تقرب من الأجل . وقال علي بن عيسى : إنما سمي القريب حمياً ؛ لأنه يتحى لنضوب صاحبه ، بفعله مأخوذاً من الحمية . وقال قتادة : يذهب الله عز وجل يوم القيامة مودة الصديق ورقة الحميم . ويجوز « وَلَا صَدِيقٌ حَمِيمٌ » بالرفع على موضع « مِنْ شَافِيَيْنَ » ؛ لأن « مِنْ شَافِيَيْنَ » في موضع رفع . وجمع صديق أصدقاء ، وصُدُقاً ، وصدق . ولا يقال صُدُق للفرق بين النعت وغيره . وحكى الكوفيون : أنه يقال في جمعه صُدُقان . النحاس : وهذا بعيد ؛ لأن هذا جمع ما ليس بنعت نحو رغيف ورغفان . وحكوا أيضاً صديق وأصديق . وأفاعل إنما هو جمع أقفل إذا لم يكن تتأ نحو أُنْصَح وأُشَاجِع . ويقال : صديق للواحد والجماعة وللأمة ؛ قال الشاعر <sup>(١)</sup> :

نَصَبَنيَ الهَمَوَى ثُمَّ أَرْتَمَنيَ قَلْبُونَا • بَاعِينَ أَعْدَاءِ وَهُنَّ صَدِيقُ

ويقال : فلان صَدِيقُ أى أخص أصدقائى ، وإنما يصغر على جهة المدح ؛ كقول حُباب ابن المنذر : (أَنَا جُدَيْلِيَا الْحَكَّاءُ ، وَمُدَيْقِيهَا الْمَرْجَبُ) ذكره الجوهري . النحاس : وجمع حميم أحماء وأيمحة وكرموا أصلاء للتضعيف . (قَلَوْنَا لَكَ كَرَّةً) « أن » في موضع رفع ، المعنى ولو وقع لنا رجوع إلى الدنيا لآمنا حتى يكون لنا شفعاء . تمنوا حين لا ينفعهم التنى .

(١) هو جرير . (٢) عن مجذليها المحكك الأصل من الشجرة — أو عود ينصب — تحك به الإبل فتشقى به ؛ أى قد جرتى الأوردى ولم وراى يشقى بها كما تشقى هذه الإبل الجردى بهذا الجذيل . والقرعيب هنا يقرأ النغلة من جانب يمينها من السقوط ؛ أى إن لى مشيرة تضيق وتحنى . والصديق تصغير صدق (بالفتح) وهو النغلة يجعلها .

إنما قالوا ذلك حين شفع الملائكة والمؤمنون . قال جابر بن عبد الله قال النبي صلى الله عليه وسلم : " إن الرجل ليقول في الجنة ما فعل فلان وصديقه في الجحيم فلا يزال يشفع له حتى يُشفعه الله فيه فإذا نجا قال المشركون « مَا تَسَاءَلُ مِنْ شَافِعِينَ وَلَا صِدِّيقٍ حَمِيمٍ » . وقال الحسن : ما أجمع ملاء على ذكر الله ، فهم عبدٌ من أهل الجنة إلا شفعه الله فيهم ، وإن أهل الإيمان لبشفع بعضهم في بعض وهم عند الله شافعون مشفعون . وقال كعب : إن الرجلين كانا صديقين في الدنيا ، فيمر أحدهما بصاحبه وهو يمر إلى النار فيقول له أخوه : والله ما بقي لي إلا حسنة واحدة أنجو بها ، خذها أنت يا أخي فتجوها بما أرى ، وأبني أنا وإياك من أصحاب الأعراف . قال : فيأمر الله بهما جميعا فيدخلان الجنة . ( إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ) تقدم والحمد لله .

قوله تعالى : كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِلَى لَكَ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١١٠﴾ قَالُوا انْزُومُنْ لَكَ وَاتَّبِعَكَ الْأَرْدَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَانجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾

قوله تعالى : ( كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ) قال « كَذَّبَتْ » والقوم مذكور؛ لأن المني كذبت جماعة قوم نوح، وقال « الْمُرْسَلِينَ » لأن من كذب رسولا فقد كذب الرسل؛ لأن كل رسول يأمر بتصديق جميع الرسل . وقيل : كذبوا نوحا في النبوّة وفيما أخبرهم به من بحى المرسلين بعده . وقيل : ذكر الجنس والمراد نوح عليه السلام . وقد مضى هذا في « الفرقان » .  
 ( إِذْ قَالَ لَمَنْ أَخُوهُمْ نُوحٌ ) أى ابن أيمم وهى أخوة نسب لا أخوة دين . وقيل : هى أخوة المجانسة . قال الله تعالى : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوِيٍّ » وقد مضى هذا في « الأعراف » . وقيل : هو من قول العرب يا أخا بنى تميم . يريدون يا واحدا منهم .  
 الزخشرى : ومنه بيت المجانسة :

لَا يَسْأَلُونَ أَهْلَهُمْ حِينَ يَنْتَبِهِمْ • فِي الثَّانِيَةِ عَلَى مَا قَالَ بُرْهَانًا

( أَلَا تَتَّقُونَ ) أى الا تتقون الله في عبادة الأصنام . ( إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ) أى صادق فيما أخبركم من الله تعالى . وقيل : « أمين » فيما بينكم ؛ فانهم كانوا عرفوا أمانته وصدقه من قبل ؛ كحمد صلى الله عليه وسلم في قريش . ( فَاتَّقُوا اللَّهَ ) أى فاستروا بطاعة الله تعالى من عقابه . ( وَأَطِيعُوا ) فيما أمركم به من الإيمان . ( وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ) أى لا طمع لى في مالكم . ( إِنْ أَجْرِيَ ) أى ما جزأنى ( إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ) . ( فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ) كسر تاء كيدا .

قوله تعالى : ( قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ) فيه مستطاب :

الأولى — قوله تعالى : « قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ » أى نصديق قواك . « وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ » الواو للحال وفيه إضمار قد ، أى وقد اتبعتك . « الْأَرْذَلُونَ » جمع الأرذل ، المكسر الأراذل والأنتى الرذل والجمع الرذّل . قال النحاس : ولا يجوز حذف الألف واللام في شيء من هذا عند أحد من النحويين طيناه . وقرا ابن مسعود والضحاك ويعقوب الحضرمي وغيرهم ،

(١) وأبج ص ٣١ من هذا الجزء .

(٢) وأبج ص ٧ ص ٢٣ طبة أول أو ثانية .

« وَأَتَّبَعْتُكَ الْأَرْدَلُونَ » . النحاس : وهي قراءة حسنة ؛ وهذه الواو أكثرها تبعها الأسماء والأفعال بقدر . وأتباع جمع تبع وتبع يكون للواحد والجمع . قال الشاعر :

لَه تَبِعٌ قَدْ يَسْلُمُ النَّاسُ أَنَّهُ • عَلَى مَنْ يُدَايِي صَيْفٌ وَرَبِيعٌ

أرغفاع . أتباعك . يجوز أن يكون بالابتداء و « الْأَرْدَلُونَ » الخبر ؛ التقدير أنؤمن لك وإنما أتباعك الأردلون . ويجوز أن يكون معطوفا على الضمير في قوله : « أَنْتُمْ لَكَ » والتقدير : أنؤمن لك نحن وأتباعك الأردلون فتمت منهم ؛ وحسن ذلك الفصل بقوله : « لك » وقد مضى القول في الأردال في سورة « هُود » <sup>(١)</sup> مستوفى . وزيد هنا بياناً وهي المسئلة :

الثانية - فقيل : إن الذين آمنوا به بنوه وفساؤه ونكاته وبنو بنيه . وأختلف هل كان معهم عيرهم أم لا . وعلى أي الوجهين كان فالكل صالحون ؛ وقد قال نوح : « وَتَجَنَّبْ وَتَتَّعِبْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » والذين معه هم الذين أتبعوه ، ولا يلحقهم من قول الكفرة شين ولا ذم ، بل الأردلون هم المكذبون لهم . قال السجلى : وقد أغرى كثير من العوام بمقالة رويت في تفسير هذه الآية : هم الحاككة والمجأمون . ولو كانوا حاككة كما زعموا لكان إيمانهم بنبي الله وأتباعهم له مشرفاً كما تشرف بلال وسلمان بسبقهما للإسلام ؛ فهما من وجوه أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ومن أكابرهم ، فلا ذرية نوح كانوا حاككة ولا مجأمين ، ولا قول الكفرة في الحاككة والمجأمين إن كانوا آمنوا بهم أردلون ما يلحق اليوم بما كنا ذقنا ولا قصا ؛ لأن هذه حكاية عن قول الكفرة إلا أن يجعل الكفرة حجة ومقاتلهم أصلاً ؛ وهذا جهل عظيم وقد أعلم الله تعالى أن الصناعات ليست بضائرة في الدين .

قوله تعالى : ( قَالَ وَمَا عَلَّمِي مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ) « كان » زائدة ؛ والمعنى : وما علمي بما يعملون ؛ أي لم أكلف العلم بأعمالهم إنما كلفت أن أدعوهم إلى الإيمان ، والاعتبار بالإيمان لا بالحرف والصناعات ؛ وكأنهم قالوا : إنما أتبعك هؤلاء الضمفاء طمعاً في العزة والمال . فقال : إني لم أقف على باطن أمرهم وإنما على ظاهرهم . وقيل : المعنى إني

(١) راجع ٩ ص ٢٢ وما بعدها طبعه أول أو ثانية .



لم أعلم أن الله يهديم ويضلكم ويرسلهم ويؤيكم ويفقههم ويغفلكم . ( إِنْ حِسَابُهُمْ )  
 أى فى أعمالهم وإيمانهم ( إِنْ عَلَى رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ ) وجواب « لَوْ » مخوف ، أى لو شعرت  
 أن حسابهم على ربهم لما عبتوهم بصنائعهم . وقراءة العائنة « تَشْعُرُونَ » بالهاء على المخاطبة  
 للكفار وهو الظاهر . وقرأ ابن أبى جيلة ومحمد بن السقيع « لَوْ تَشْعُرُونَ » بالياء كأنه خبر  
 عن الكفار وترك الخطاب لهم ، نحو قوله : « حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفَلِكِ وَبَرِّيَ بِهِمْ » . وروى  
 أن رجلا سأل سفيان عن امرأة زنت وقتلت ولدها وهى مسلمة هل يقطع لها بالنار ؟ فقال :  
 « إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ » . ( وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ) أى نلحاسة أحوالهم  
 واشغالهم . وكانهم طلبوا منه طرد الضعفاء كما طلبته قريش . ( إِنِّ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ )  
 يعنى : إن الله ما أرسلنى أخص نوى النفى دون الفقراء ، إنما أنا رسول أبلغكم ما أرسلت به ،  
 فمن أطاعنى فذلك السعيد عند الله وإن كان فقيرا .

قوله تعالى : ( قَالُوا لَيْنَ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ ) أى عن سب آلهمنا وعيب ديننا ( لَتَكُونَنَّ  
 مِنَ الْمَرْجُومِينَ ) أى بالمجارة ؛ قاله قتادة . وقال ابن عباس ومقاتل : من المقتولين . قال  
 الثمالي : كل مرجومين فى القرآن فهو القتل إلا فى مريم : « لَيْنَ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُفَنَّكَ »  
 أى لأسبكن . وقيل « مِنَ الْمَرْجُومِينَ » من المستومين ؛ قاله السدى . ومنه قول أبى ذؤاد<sup>(١)</sup> :  
 ( قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذِبُونَ فَاقْضِ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ قَدْجًا وَبِحَبْنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ) قال ذلك  
 لما يس من إيمانهم ، والفتح الحكم وقد تقدم . ( فَانجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلِكِ الْمَشْحُونِ )  
 يريد السفينة وقد مضى ذكرها . والمشحون المملوء ، والشحن ملء السفينة بالناس والدواب  
 وغيرهم . ولم يؤت الفلك هاهنا ؛ لأن الفلك هاهنا واحد لاجمع . ( ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ )  
 أى بعد إيماننا نوحا ومن آمن . ( إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ  
 لَهُوَ الْغَزِيرُ الرَّحِيمُ ) .

(١) كما فى جميع نسخ الأصل ، وما سقط له بيت من الشعر أورده المؤلف شاهدا على أن الهم معناه الشعر ؛  
 كما أورده بيت الجدي شاهدا على ذلك عند تفسير قوله تعالى : « وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ » . راجع ج ٩ ص ٩١

قوله تعالى : كَذَّبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ  
 أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٣٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٣٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا  
 وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣٩﴾  
 أَتُتْبَنُونَ بِكُلِّ رِيحٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٤٠﴾ وَتَخْدُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ ﴿١٤١﴾  
 وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٤٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٤٣﴾ وَأَنْتَقُوا  
 إِلَيْهِ أَمَدَكُمْ يَمَّا تَعْلَمُونَ ﴿١٤٤﴾ أَمَدَكُمْ بِأَنعَمِ وَبَيْنَ ﴿١٤٥﴾ وَجَنَّتِ  
 وَهَبُونَ ﴿١٤٦﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٤٧﴾ قَالُوا سَوَاءٌ  
 عَلَيْنَا أَوْعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٤٨﴾ إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ  
 الْأَوَّلِينَ ﴿١٤٩﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿١٥٠﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ  
 لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٥١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ  
 الرَّحِيمُ ﴿١٥٢﴾

قوله تعالى : ( كَذَّبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ ) التائيت بمعنى القليلة والجماعة . وتكذيبهم المرسلين  
 كما تقدم . ( إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ . إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا .  
 وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ) بين المعنى وقد تقدم .

قوله تعالى : ( أَتُتْبَنُونَ بِكُلِّ رِيحٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ) الريح ما أرتفع من الأرض في قول ابن  
 عباس وغيره ، جمع ريعة . وكل ريح أرضك أي كم أرتفعها . وقال قتادة : الريح الطريق .  
 وهو قول الضحاك والكلبي ومقاتل والسدي . وقوله ابن عباس أيضا . ومنه قول المسئب  
 ابن علس :

فِي الْأَيْلِ يَخْفِضُهَا وَيَرْفَعُهَا • رِيحٌ يَلُوحُ كَأَنَّهُ تَحُلُّ

شبه الطريق بشوب أبيض . النحاس : ومعروف في اللغة أن يقال لما أرتفع من الأرض  
ريح وللطريق ريح . قال الشاعر<sup>(١)</sup> :

طَرَأَ الخَوَافِ مَشْرِقَ رِيْمَةٍ \* نَدَى لَيْلِيٍّ فِي رِيْشِهِ يَتَرَقُّ

وقال عماره : الريح الجبل الواحد ريمة والجمع رياح . وقال مجاهد : هو الفج بين الجبلين .  
وعنه : التنية الصنيرة . وعنه : المنطرة . وقال عكرمة ومقاتل : كانوا يستدون بالنجوم  
إذا سافروا ، فبنوا على الطريق أمثالا طوالا ليهتدوا بها ، يدل عليه قوله « آية » أى علامة .  
وعن مجاهد : الريح ببيان الحمام دليله « تَبَيَّنُوْا » أى تلمبوا ، أى تبينون بكل مكان مرتفع  
آية علما تلمبون بها على معنى أبنية الحمام وبروجها . وقيل : تبينون بمن يمر في الطريق .  
أى تبينون بكل موضع مرتفع لتشرقوا على السابلة فتسفروا منهم . وقال الكلبي : إنه عبت  
المشارين بأموال من يمر بهم ؛ ذكره الماوردي . وقال ابن الأعرابي : الريح الصومعة ،  
والزيع البرج من الحمام يكون في الصحراء . والزيع التل العالي . وفي الزيع لتان : كسر الزاء  
وفتحها وجمعها أرياع ؛ ذكره التلبي .

قوله تعالى : ( وَتَحْدُوثُ مَصَانِعَ ) أى منازل ؛ قاله الكلبي . وقيل : حصونا مشيدة ؛  
قاله ابن عباس ومجاهد . ومنه قول الشاعر :

تَرَكَّا دِيَارَهُمْ مِنْهُمْ قَفَارًا \* وَعَلَّمْنَا الْمَصَانِعَ وَالْبُرُوجَا

وقيل : قصورا مشيدة ؛ وقاله مجاهد أيضا . وعنه : بروج الحمام ؛ وقاله السدي .

قلت : وفيه بعد عن مجاهد ؛ لأنه قدّم عنه في الريح أنه ببيان الحمام فيكون تكرار  
في الكلام . وقال قتادة : ما جلّ لئلا تحت الأرض . وكذا قال الزجاج : إنها مصانع الماء ،  
واحدتها مَصْنَعَةٌ وَمَصْنَعٌ . ومنه قول لبيد :

لَيْلِيَا وَمَا تَلَى النُّجُومُ الطُّوَالُ \* وَتَتْبَى الْجِبَالُ بَدَنًا وَالْمَصَانِعُ

(١) حذو الزمة يصف بازيا . وفي ديوانه — طبع أوردبا — « واقع » بدل « مشرق » .

الجوهري : المصنعة كالخوض يمتنع فيها ماء المطر ، وكذلك المصنعة بضم النون . والمصانع الحصون . وقال أبو عبيدة : يقال لكل بناء مصنعة . حكاه المهدوي . وقال عبد الرزاق : المصانع عندنا بلغة اليمن القصور العادية . ( تَمْلِكُ تَمْلِكُونَ ) أى كى تملكون . وقيل : لعل استغمام بمعنى التوبيخ أى فهل « تَمْلِكُونَ » كقولك : لملك تستمنى أى هل تستمنى . روى عنه ابن زيد . وقال الفراء : كما تملكون لا تفكرون فى الموت . وقال ابن عباس وقناة : كأنكم خالدون باقون فيها . وفى بعض القراءات « كأنكم تَمْلِكُونَ » ذكره النحاس . وحكى قناة : أنها كانت فى بعض القراءات « كأنكم خالدون » .

قوله تعالى : ( وَإِنَّا بَلَّغْتُمْ بِطَشْمَ جَبَّارِينَ ) البطش السطوة والأخذ بالنف . وقد بَطَشَ به يَبِطِشُ ويَبِطِشُ بطشا . وباطشه مباطشة . وقال ابن عباس ومجاهد : البطش السيف قتلا بالسيف وضربا بالسوط . ومعنى ذلك قطع ذلك ظمسا . وقال مجاهد أيضا : هو ضرب بالسياط ؛ ورواه مالك بن أنس عن نافع عن ابن عمر فى ذكر ابن العري . وقيل : هو القتل بالسيف فى غير حق . حكاه يحيى بن سلام . وقال الكلبي والحسن : هو القتل على الغضب من غير تبنت . وكله يرجع إلى قول ابن عباس . وقيل : إنه المواخذة على العمد والخطأ من غير حق ولا إبقاء . قال ابن العري : ويؤيد ما قال مالك قول الله تعالى عن موسى : « فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبِطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَا يَمْوَسَىٰ أَرِيدُ أَنْ نَبُنِيَّ بِمَا كُنَّا قَتَلْنَا نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ » وذلك أن موسى طيه السلام لم يسئل طيسيفا ولا طمنه برمح ، وإنما ذكره وكانت منيته فى ذكره . والبطش يكون باليد وأفعله الوكر والدفع ، وبيه السوط والعصا ، وبيه الحديد ، والكل مذموم إلا بحق . والآية نزلت خبرا عن قتل من الأمم ، ووعظا من الله عز وجل لنا فى مجانبة ذلك الفعل الذى ذمهم به وأنه عليهم . قلت : وهذه الأوصاف المذمومة قد صارت فى كثير من هذه الأمة ، لا سيما بالديار المصرية منذ وليها البحري<sup>(١)</sup> ؛ فيبطشون بالناس بالسوط والعصا فى غير حق . وقد أخبر صلى

(١) منى القول غفلا وشذبا . (٢) البحري : من من الممالك الأتراك الذين استقدمهم الملك السالح الأيوبي ، وأسلمهم جزيرة الروضة . وأول ملوكهم عن اليمن أليك . وكانت مدة حكمهم من سنة ٦٤٨ - ٧٨٤ هـ .

الله عليه وسلم أن ذلك يكون . كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «صنفان من أهل النار لم أرهما قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات رومهن كأسخمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا» . ونرج أبو داود من حديث ابن عمر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم أذناب البقر ووضيتم بالزور وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلاً لا يقره حتى ترجعوا إلى دينكم» . «جَبَّارِينَ» قتالين . والجبار القتال في غير حق . وكذلك قوله تعالى : «إِنْ تُرِيدُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ» قاله المروى . وقيل : الجبار المتسلط العاقى ومنه قوله تعالى : «وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ» أى بسلط . وقال الشاعر :

سَلَبْنَا مِنَ الْجَبَّارِ بِالسِّيفِ مُلْكَهُ • عَيْشًا وَأَطْرَافَ الرِّيحِ شَوَارِعُ

قوله تعالى : ( فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ) تقدم . ( وَأَتَقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ ) أى من الخسرات ؛ ثم فسرهما بقوله : ( أَمَدَّكُمْ بِتَارِيحٍ وَبَيْنَ . وَجَنَاتٍ وَعُيُونٍ ) أى مخر ذلك لكم وتفضل بها عليكم ، فهو الذى يجب أن يعبد ويشكر ولا يكفر . ( إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ) إن كفرتم به وأصررتم على ذلك . ( قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَصْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ) كل ذلك عندنا سواء لا نسمع منك ولا نأوى على ما نقوله . وروى العباس عن أبي عمرو وبشر عن الكسائي : «أَوَعَصْتَ» مدغمة الظاء فى التاء وهو بعيد ، لأن الظاء حرف إطباق إنما يدغم فيها قرب منه جداً وكان مثله ومخرجه . ( إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ) أى دينهم ؛ عن ابن عباس وغيره . وقال الفراء : عادة الأولين . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي «خُلُقُ الْأَوَّلِينَ» . الباقون «خُلُقُ» . قال المروى : وقوله عز وجل «إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ» أى اختلافهم وكذبهم ، ومن قرأ «خُلُقُ الْأَوَّلِينَ» فعناه عاداتهم ، والعرب تقول : حشاش فلان بأحاديث الخلق أى بالخرافات والأحاديث المفتعلة . وقال ابن الأعرابي :

(١) البية أن تبع من رجل طعة بنى سلوم إلى أجل معلوم ثم اشتريته به بأقل من الثمن الذى ابتها به .

اُخْلِقَ الدين والخلق الطبع والخلق المروءة . قال النحاس : « خُلِقَ الْأَوَّلِينَ » عند الفراء  
يعنى عادة الأولين . وحكى لنا محمد بن الوليد عن محمد بن يزيد قال : « خُلِقَ الْأَوَّلِينَ »  
مذهبهم وما جرى عليه أمرهم ؛ قال أبو جعفر : والقولان متقاربان ، ومنه الحديث عن النبي  
صل الله عليه وسلم " أَكَلِ الْمُؤْمِنِينَ إِمَانًا أَحْسَنَهُمْ خُلُقًا " أى أحسنهم مذهباً وعادة وما يجرى  
عليه الأمر في طاعة الله عز وجل ، ولا يجوز أن يكون من كان حسن الخلق فاجراً فاضلاً ،  
ولا أن يكون أكل إيماناً من السيئ الخلق الذى ليس بفاجر . قال أبو جعفر : حكى لنا  
عن محمد بن يزيد أن معنى « خُلِقَ الْأَوَّلِينَ » تكذيبهم وتخريفهم غير أنه كان يميل إلى القراءة  
الأولى ؛ لأن فيها مدح آبائهم ، وأكثر ما جاء القرآن في صفتهم مذهبهم لأبائهم ، وقولهم :  
« إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ » . وعن أبي قلابة : أنه قرأ « خُلِقَ » بضم الخاء وإسكان اللام  
تخفيف « خُلِقَ » . ورواهما ابن جبير عن أصحاب نافع عن نافع . وقد قيل : إن معنى « خُلِقَ  
الْأَوَّلِينَ » دين الأولين . ومنه قوله تعالى : « فَلْيَعْبُدُوا خَلْقَ اللَّهِ » أى دين الله . و « خُلِقَ  
الْأَوَّلِينَ » عادة الأولين : حياة ثم موت ولا بث . وقيل : ما هذا الذى أنكرت علينا من  
البيان والبطش إلا عادة من قبلنا فنحن نقسدى بهم ( وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ) على ما نفعل  
وقيل : المعنى خلق أجسام الأولين ؛ أى ما خلقنا إلا تخلق الأولين الذين خلقوا قبلنا وما تواروا ،  
ولم يزل بهم شيء مما تخفون به من العذاب . ( فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ) أى برح صرصر طانية  
على ما بآى في « الحاقة » . ( إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ) قال بعضهم : أسلم  
معه ثمانية ألف ومثون وهلك باقيهم . ( وَإِنَّ رَبَّكَ لَمَوْعِزُّ الرَّحِيمِ ) .

قوله نعال : كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ  
أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١١٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١١٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا  
وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنِّي أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٤﴾  
أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَنُتْنَا ءَامِنِينَ ﴿١١٥﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١١٦﴾ وَزُدُّوا وَنَحْلُ

طَلَعَهَا هَظِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَنُحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ ﴿١٢٩﴾ فَأَنْتَقُوا اللَّهَ  
وَاطِيعُونَ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٣١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ  
وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٣٢﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٣٣﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ  
مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٣٤﴾ قَالَ هَٰذِهِ نَارُ اللَّهِ لَمَّا  
شَرِبْتُ وَلَٰكِنَّ شَرْبَ يَوْمٍ مَّعْلُومٌ ﴿١٣٥﴾ وَلَا تَحْسَبُوهُ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ عَذَابَ  
يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٦﴾ فَعَقَرُوهُمَا فَأُصْبِحُوا نَلِيمِينَ ﴿١٣٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي  
ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٣٩﴾

قوله تعالى : ( كَذَّبَتْ بُدُودُ الْمُرْسَلِينَ ) ذكر قصة صالح وقومه وهم ثمود ، وكانوا  
يسكنون الحجر كما تقدم في « الحجر » وهي ذوات نخل وزروع وبياض . ( أَنْتَرْتُونَا فَيَا هَٰعِنَا  
أَمِينِينَ ) يعني في الدنيا آمينين من الموت والعذاب . قال ابن عباس : كانوا معمرين لا يبق  
البيان مع أعمارهم . ودل على هذا قوله : « وَأَسْتَعْمَرُكُمْ فِيهَا » ففزعهم صالح ووبخهم وقال :  
أَتُظَنُّونَ أَنْكُمْ بَاقُونَ فِي الدُّنْيَا بَلَا مَوْتٍ ( فِي جَنَاتٍ وَجُودٍ . وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلَعُهَا هَظِيمٌ ) .  
الزخشرى : فإن قلت لم قال « وَنَخْلٍ » بعد قوله « وَجَنَاتٍ » والجنان تناول النخل أقل شيء  
كما تناول النعم الإبل كذلك من بين الأزواج حتى إنهم ليدكرون الجنة ولا يقصدون إلا النخل ؛  
كما يدكرون النعم ولا يريدون إلا الإبل قال زهير :

كَأَنَّ عَيْنِي فِي غَرْبِي مُقَلَّةٌ \* مِنَ النُّوَاضِحِ نَسَقِي جَنَّةً مُخَفَّاءُ

يعني النخل ؛ والنخلة السُّحُوق البعيدة الطول

قلت : فيه وجهان ؛ أحدهما — أن يخص النخل بإفراده بعد دخوله في جملة سائر الشجر  
تنبيها على أفراده عنها بفضله عنها . والثاني — أن يريد بالجنات غيرها من الشجر ؛ لأن اللفظ

يصلح لذلك ثم يعطف عليها النخل . والطلعة هي التي تطلع من النخلة كتميل السيف ؛ في جوفه  
شماريح القنويو ، والقنويو أمم تخرج من الجذع كما هو يبرجونه وشماريغهم . و « هَضِيمٌ »  
قال ابن عباس : لطيف مدام في كُفْرَاه . والمضيم اللطيف الدقيق ؛ ومنه قول امرئ القيس :  
« عَلَى هَضِيمِ الْكَشَجِ رَبًّا الْمُنْتَخِلِ<sup>(١)</sup> » .

الجوهري : ويقال للطلع هضم ما لم يخرج من كُفْرَاه ؛ لدخول بعضه في بعض . والمضيم  
من النساء اللطيفة الكشمين . ونحوه حكى المروى ؛ قال : هو المنضم في وعائه قبل أن يظهر ؛  
ومنه رجل هضم الجنين أى منضهما ؛ هذا قول أهل اللغة . وحكى الماوردي وغيره  
في ذلك أمي عشر قولاً : أحدها - أنه الرطب اللين ؛ قاله عكرمة . الثاني - هو المذنب  
من الرطب ؛ قاله سعيد بن جبير . قال النحاس : وروى أبو إسحق عن يزيد - هو ابن أبي زياد  
كوفي ويزيد بن أبي مريم شامي - « وَتَحُلُّ طَلْمَهَا هَضِيمٌ » قال : منه ما قد أُرطب ومنه مذنب .  
الثالث - أنه الذي ليس فيه نوى ؛ قاله الحسن . الرابع - أنه المتهشم المنفتح إذا مس نفت ؛  
قاله مجاهد . وقال أبو العالية : يتهشم في القم . الخامس - هو الذي قد ضمير يركوب بعضه  
بعضاً ؛ قاله الضحاك ومقاتل . السادس - أنه المتلاصق ببعضه ببعض ؛ قاله أبو محضر .  
السابع - أنه الطلع حين يتفرق ويخضر ؛ قاله الضحاك أيضاً . الثامن - أنه الياض النضيج ؛  
قاله ابن عباس . التاسع - أنه المكتنز قبل أن ينشق عنه القشر ؛ حكاه ابن خبزة ؛ قال :  
كَانَ حَمَلَةً تُجَلَّ طَلْمُهُ هَضِيمٌ مَا يُحْسِرُ لَهُ شُقُوقٌ

الماثر - أنه الرخو ؛ قاله الحسن . الحادي عشر - أنه الرخص اللطيف أول ما يخرج  
وهو الطلع التضيد ؛ قاله المروى . الثاني عشر - أنه البرقي<sup>(٢)</sup> ؛ قاله ابن الأعرابي ؛ فيل  
بمعنى فاعل أى هنى مريء من أنهضام الطعام . والطلع أمم مشتق من الطلوع وهو الظهور ؛  
ومنه طلوع الشمس والقمر والنبات .

(١) صدر البيت . هضرت يهودى رأسها تبايت .

(٢) البرقي : ضرب من الترو وهو أجوده ؛ واحدة برقية .



قوله تعالى : « وَتَخْتَوْنَ مِنَ الْجِبَالِ أَنْ يَقُولَ قَارِهَيْنِ » التَّحْتَ النَّجْرَ وَالْبَرَى ؛ نَحْتُ يَحْتِ  
 (بِالْكَسْرِ) نَحْتًا إِذَا بَرَاهِ وَالنَّهْمَانَةُ الْبُرَايَةُ . وَالْمِنَحَتْ مَا يَحْتِ بِهِ . وَفِي « وَالصَّافَاتِ » قَالَ :  
 « أَتَعْبُدُونَ مَا تَخْتَوْنَ » . وَكَانُوا يَخْتَوْنَهَا مِنَ الْجِبَالِ لِمَا طَالَتْ أَعْمَارُهُمْ وَتَهْدَمُ بِنَاظِمٍ مِنَ الْمَدَرِ .  
 وَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ وَأَبُو عَمْرٍو وَنَافِعٌ « قَارِهَيْنِ » بِغَيْرِ الْفَاءِ . الْبَاقُونَ : « قَارِهَيْنِ » بِالْفَاءِ وَهُمَا بِمَعْنَى  
 وَاحِدٍ فِي قَوْلِ أَبِي عُبَيْدَةَ وَغَيْرِهِ ؛ مِثْلُ « عِظَامًا نَجْرَةً » وَ « نَاجِرَةً » . وَحَكَاهُ قُطْرُبٌ . وَحَكَى  
 قُرَيْشٌ بَغْرُهُ فَهُوَ قَارُهُ وَبَغْرُهُ فَهُوَ قَرِيهُ وَقَارُهُ إِذَا كَانَ نَسِيطًا . وَهُوَ نَصَبٌ عَلَى الْحَالِ . وَفَرَّقَ  
 بَيْنَهُمَا قَوْمٌ فَقَالُوا : « قَارِهَيْنِ » حَازِقَيْنِ يَحْتَمِيهِمَا ؛ قَالَهُ أَبُو عُبَيْدَةَ ؛ وَرَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَأَبِي صَالِحٍ  
 وَغَيْرِهِمَا . وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ شَدَادٍ : « قَارِهَيْنِ » مُتَجَبِّرَيْنِ . وَرَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا  
 أَنَّ مَعْنَى « قَارِهَيْنِ » بِغَيْرِ الْفَاءِ أَشْرَيْنِ بِطَرَيْنِ ؛ وَقَالَهُ مُجَاهِدٌ . وَرَوَى عَنْهُ شُرَيْحٌ . الضَّحَّاكُ :  
 كَيْسَيْنِ . قَتَادَةُ : مُجَبِّبَيْنِ ؛ قَالَهُ الْكَلْبِيُّ ؛ وَعَنْهُ نَاصِعِينَ . وَعَنْهُ أَيْضًا آمَنَيْنِ ؛ وَهُوَ قَوْلُ الْحَسَنِ .  
 وَقِيلَ : مُتَجَبِّرَيْنِ ؛ قَالَهُ الْكَلْبِيُّ وَالسُّدِّيُّ . وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ :

إِلَى قَرِيٍّ يَمَاجِدُ كُلِّ أَمْرٍ • قَصِدْتُ لَهُ لِأَخْتَرِ الْعُلَمَاءِ

وَقِيلَ : مُتَجَبِّبَيْنِ ؛ قَالَهُ خُصَيْفٌ . وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ : أَقْوِيَاءُ . وَقِيلَ : قَارِهَيْنِ فَرَجَيْنِ ؛ قَالَهُ  
 الْأَخْفَشُ . وَالرَّبْرَبُ تَعَاقُبٌ بَيْنَ الْمَاءِ وَالْهَاءِ ؛ قَوْلٌ . مَدَحَتْهُ وَمَدَحَتْهُ ؛ فَالْفَرِهُ الْأَشْرُ الْفَرِجُ  
 ثُمَّ الْفَرَجُ بِمَعْنَى الْمَرْجِ مَذْمُومٌ ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا » . وَقَالَ : « إِنَّ اللَّهَ  
 لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ » . « فَأَتَقُوا اللَّهَ وَالْطَّيِّمُونَ وَلَا تَطِيعُوا أَمْرَ الْمُتَسْرِفِينَ » قِيلَ : الْمُرَادُ الَّذِينَ عَقَرُوا  
 النَّاقَةَ . وَقِيلَ : التَّسْمَةُ الرَّهْطُ الَّذِينَ يَفْسُدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يَصْلَحُونَ . قَالَ السُّدِّيُّ وَغَيْرُهُ :  
 أَوْسَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى صَالِحٍ : إِنَّ قَوْمَكَ سَيَعْقِرُونَ نَاقَتَكَ ؛ فَقَالَ لَهُ ذَلِكَ ، فَقَالُوا : مَا كُنَّا لَنَفْعَلَ .  
 فَقَالَ لَهُ صَالِحٌ : إِنَّهُ سَيُولَدُ فِي شَهْرِكُمْ هَذَا غِلَامٌ يَعْقَرُهَا وَيَكُونُ هَلَاكَكُمْ عَلَى يَدَيْهِ ؛ فَقَالُوا :  
 لَا يُولَدُ فِي هَذَا الشَّهْرِ ذَكَرٌ إِلَّا قَتَلَهُ . فَوُلِدَ تِسْعَةٌ مِنْهُمْ فِي ذَلِكَ الشَّهْرِ فَذَبَحُوا أَبْنَاءَهُمْ ، ثُمَّ وَلَدَ  
 لِلْمَاشِرِ فَبَيَّ أَنْ يَذْبَحَ أَبْنَاهُ وَكَانَ لَمْ يُولَدْ لَهُ قَبْلَ ذَلِكَ . وَكَانَ ابْنُ الْعَاشِرِ أَزْرَقُ أَحْمَرُ فَنَبَتْ نَبَاتًا  
 سَرِيحًا ، وَكَانَ إِذَا حَرَّ بِالتَّسْمَةِ فَرَاوَهُ قَالُوا : لَوْ كَانَ أَبْنَاؤُنَا أَحْيَاءَ لَكَاتُوا مِثْلَ هَذَا . وَغَضِبَ

التسعة على صالح؛ لأنه كان سبب قتلهم أبناءهم فتمصبوا وقاسموا بالله لنيتته وأهله . قالوا : نخرج إلى سفر فترى الناس سفرتا فنكون في غار، حتى إذا كان الليل وخرج صالح إلى مسجده أتياه فقتلاه ، ثم قلنا ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون؛ فيصدقونا ويعلمون أننا قد خرجنا إلى سفر . وكان صالح لا يتام معهم في [ القرية وكان<sup>(١)</sup> يأوى إلى ] مسجده، فإذا أصبح أتاهم فوعظهم ، فلما دخلوا النار أرادوا أن يخرجوا فسقط عليهم النار فقتلهم ، فرأى ذلك ناس ممن كان قد أطلع على ذلك، فصاحوا في القرية : يا عباد الله ! أما رضى صالح أن أمر بقتل أولادهم حتى قتلهم ؛ فاجمع أهل القرية على قتل الناقة . وقال ابن إسحق : إنما أجمع التسعة على سب صالح بعد قهرم الناقة وإنذارهم بالعذاب على ما يأتي بيانه في سورة « النمل » إن شاء الله تعالى . ( قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ) هو من السحرة في قول مجاهد وقادة على ما قال المهدوي . أى أصبت بالسحر فبطل عقلك ؛ لأنك بشر مثلنا فلم تدع الرسالة دوننا . وقيل : من المعلقين بالطعام والشراب ؛ قاله ابن عباس والكلي وقادة ومجاهد أيضا فيما ذكر التلمبي . وهو على هذا القول من السحر وهو الزمة أى بشر لك تحترى أى رثة تأكل وتشرب مثلنا كما قال [ ليد<sup>(٢)</sup> ] :

فإن تسألنا فيم نحن فإنا • عصافير من هذا الأنعام المسحر

وقال [ أصرؤ القيس ]

• ونُسحرُ بالطعام والشراب •

( قَالَتْ يَايَہٗٓ إِن كُنْتِ مِنَ الصَّادِقِينَ ) في قولك . ( قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لِّمَا شِئْتُمْ وَلَكُمْ نِسْرُ يَوْمَ مَعْلُومٍ ) قال ابن عباس : قالوا إن كنت صادقا فادع الله يخرج لنا من هذا الجبل ناقة حمراء عشرة<sup>(٣)</sup> تضع ونحن ننظر، وترد هذا الماء فتشرب وتندو علينا بمثله لبنا . فدعا الله

(١) الزيادة من «فصم الأنبياء» التلمبي . (٢) في تفسير قوله تعالى : «وكان في المدينة تسعة رهط» .

(٣) في نسخ الأصل : أصرؤ القيس ؛ والنصوب من ديوان ليد . (٤) صدر البيت :

• أرايا موضعين لأمر عيب •

موضعين : مسرعين . وأمر عيب يريد الموت وأنه قد عيب ما وقفه ونحن نهى عنه بالطعام والشراب .

(٥) ناقة عشرة : مضى لها عشرة أشهر .

وفضل الله ذلك في « قَالَ هَذِهِ نَاقَةُ لِمَا شَرِبْتُمْ » أي حظ [ من الماء ] ؛ أي لكم شرب يوم ولما شرب يوم ؛ فكانت إذا كان يوم شربها شربت ماعهم كله أول النهار وتقسيم اللبن آخر النهار ، وإذا كان يوم شربهم كان لأفئمتهم ومواشيهم وأرضهم ، ليس لهم في يوم ورودها أن يشربوا من شربها شيئا ، ولا لها أن تشرب في يومهم من مائهم شيئا . قال الفراء : الشرب الحظ من الماء . قال النحاس : فأما المصدر فيقال فيه شرب شرباً وشرباً وشرباً وأكثرها المضمومة ؛ لأن المكسورة والمفتوحة يشتركان مع شيء آخر فيكون الشرب الحظ من الماء ، ويكون الشرب جمع شارب كما قال :

• قُلْتُ الشَّربُ فِي دُرَّةٍ وَقَدْ تَجَلَّوْا •

إلا أن أبا عمرو بن العلاء والكاسي يختاران الشرب بالفتح في المصدر ، ويحتجان برواية بعض العلماء أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إنها أيام أكل وشرب » . ( وَلَا تَمْسُوهُا بِسُوءٍ ) لا يجوز إظهار التضعيف هاهنا ؛ لأنهما حرفان متحركان من جنس واحد . ( فَيَأْخُذْكُمْ ) جواب التهيئ ، ولا يجوز حذف الفاء منه ، والجزم كما جاء في الأمر إلا شيئا روى عن الكاسي أنه يحذفه . ( فَمَقْرُوهَا فَاصْبَحُوا تَائِبِينَ ) أي على عقربها لما أيقنوا بالعباد . وذلك أنه أنظرهم ثلاثا فظهرت عليهم العلامة في كل يوم ، وتدموا ولم ينفعهم الندم عند معاينة العذاب . وقيل : لم ينفعهم الندم لأنهم لم يتوبوا ، بل طلبوا صالحا عليه السلام ليقتلوه لما أيقنوا بالعذاب . وقيل : كانت ندامتهم على ترك الولد إذ لم يقتلوه معها . وهو بعيد . ( إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ) إلى آخره مخدوم . ويحال : إنه ما آمن به من تلك الأنم إلا ألقان وثمانمائة رجل وأمرأة . وقيل : كانوا أربعة آلاف . وقال كعب : كان قوم صالح آخى عشر ألف قبيل كل قبيل نحو آخى عشر ألقا من سوى النساء والفرية ، ولقد كان قوم عاد مثلهم ست مرات .

(١) زيادة يقتضيا المعنى . (٢) هو الأضنى وتسماه :

• شعرا فكيف يشرب النار القمل •

ودرة (بضم الدال والفتح) موضع زعموا أنه صاحبة البهامة . السان .

قوله تعالى : كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١١٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ  
لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١١٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١١٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿١١٨﴾  
وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٩﴾  
أَتَأْتُونَ الذَّكَرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٠﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ  
أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٢١﴾ قَالُوا لَنْ لَّا نَنْتَهِيَ بِلُوطٍ لَتَكُونَنَّ  
مِنَ الْمَخْرُجِينَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٢٣﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي  
مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٤﴾ فَجَئْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٥﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٢٦﴾  
ثُمَّ دَرَأْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٢٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٢٨﴾  
إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٢٩﴾ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ  
الرَّحِيمُ ﴿١٣١﴾

قوله تعالى : ( كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ) مضي معناه وقصته في « الأعراف »  
و « هود » مستوفى والحمد لله .

قوله تعالى : ( أَتَأْتُونَ الذَّكَرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ) كانوا ينكحونهم في أديارهم وكانوا يفعلون  
ذلك بالفرأء على ما تقدم في « الأعراف » . ( وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ )  
يعني فروج النساء فإن الله خلقها للتكاح . قال إبراهيم بن مهابر : قال لي مجاهد كيف يقرأ  
عبد الله « وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ » قلت : « وتذرون ما أصنع لكم ربكم  
من أزواجكم » قال : الفرج ؛ كما قال : « فَأَتَوْهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمُ اللَّهُ » . ( بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ  
عَادُونَ ) أي متجاوزون لحدود الله . ( قَالُوا لَنْ لَّا نَنْتَهِيَ بِلُوطٍ ) عن قولك هذا . ( لَتَكُونَنَّ

مِنَ الْمُخْرِجِينَ ) أى من بلدنا وقريننا . ( قَالَ إِنِّي لَمَلِكٌ ) بِنى اللواط ( مِنَ الْقَالِينَ )<sup>(١)</sup>  
أى المبغضين والقتل البغض ؛ فليته أفضله قَلَّ وَقَلَّ . قال :

• نَلَسْتُ بِمَقْلٍ لِّلْجَلَالِ وَلَا قَالِي •

وقال آخر :

عليك السلام لَا مِلَّتِ قَرْيَةٌ • وَمَالِكٍ عِنْدِي إِنْ نَأَيْتَ قَلَاءُ

( رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَمْلَكُونَ ) أى من عذاب عملهم . دعا الله لما أيس من إيمانهم  
ألا يصيبه من عذابهم •

قال تعالى : ( فَجَنَّبَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ) ولم يكن إلا أبناؤه على ما تقدم فى « هود » •  
( أَلَا نَجْزُوا فِي الْفَاسِرِينَ ) روى سعيد عن قتادة قال : خبرت فى عذاب الله عز وجل  
أى بقيت • وأبو عبيدة يذهب إلى أن المعنى من الباقيين فى الحرم أى بقيت حتى هُرمِت •  
قال النحاس : يقال للناهب غابر والباقي غابر كما قال :

لَا تَكْخِمْ الشُّوْلُ بِأَعْيَارِهَا • أَتْلَكُ لَا تَدْرِي مِنَ النَّاسِ

وكم قال :

لَمَّا وَتَى عِدْ مَذَانُ فَقَرَّ • لَهُ إِلَهٌ مَا مَضَى وَمَا قَبَرُ

أى ما بقى • والأغيار بقيات الألبان • ( ثُمَّ دَمَرْنَا الْآتِخِينَ ) أى أهل كلهم بالسيف والحصب ؛  
قال مقاتل : خسف الله بقوم لوط وأرسل المجارة على من كان خارجا من القرية • ( وَأَمْطَرْنَا  
عَلَيْهِمْ مَطَرًا ) بِنى المجارة ( قَسَاءَ مَطَرُ الْمُتَلَدِّينَ ) • وقيل : إن جبريل خسف بقريتهم  
وجعل عاليها سافلها ، ثم أتبعها الله بالمجارة • ( إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ )  
لم يكن فيها مؤمن إلا بيت لوط وأبناؤه •

(١) هو أمرؤ القيس ؛ ومصدر البيت :

• صرفت الهوى فنهت من عشية الردى •

(٢) هو الحارث بن حذافه ؛ وكعب النخعي يبرأ تركى ضرعا بقية من الجن •

وبسند : وأحلب لأضيائك ألبانها • فإن شر البئس الزواج

يقول : لا تنظر إليك تطلب بذلك قوة نسائها ، وأحلبيا لأضيائك ، قبل مدوا يبيع عليها فيكون تاجها له دونك •

(٣) هو البياض •

قوله تعالى : كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ  
شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَاطِيعُونَ ﴿١٧٩﴾  
وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾  
أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ  
الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ  
مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِيلَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوا إِنَّمَا  
أَنْتَ مِنَ الْمُسْحَرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ  
الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ  
الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ  
يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ  
أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾

قوله تعالى : ( كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ) الأيك الشجر الملتف الكثير الواحدة  
أيكة . ومن قرأ « أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ » فهي النخضة . ومن قرأ « لَيْكَةِ » فهو أسم القرية .  
ويقال : ههنا مثل بكة ومكة ، قاله الجوهري . وقال النحاس : وقرأ أبو جعفر ونافع  
« كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ » وكذا قرأ في « من » . واجمع القراء على الخفض في التي  
في سورة « الحجر » والتي في سورة « ق » فيجب أن يرد ما أختلقوا فيه إلى ما أجمعوا عليه  
إذ كان المعنى واحدا . وأما ما حكاه أبو عبيد من أن « ليكة » هي أسم القرية التي كانوا  
فيها ، إن « الأيكة » أسم البلد فشيء لا ينهت ولا يعرف من قاله فيثبت علمه ، ولو عرف  
من قاله لكان فيه نظر ، لأن أهل العلم جميعا من أهل التفسير والعلم بكلام العرب على خلافه .

وروى عبدالله بن وهب عن جرير بن حازم عن قتادة قال : أرسل شبيب<sup>١</sup> عليه السلام إلى أمتين : إلى قومه من أهل مدين ، وإلى أصحاب الأيكة ؛ قال : والأيكة غيضة من شجر ملتف . وروى سعيد عن قتادة قال : كان أصحاب الأيكة أهل غيضة وشجر وكانت طائفة يجرهم الدم وهو شجر المقل . وروى ابن جبير عن الضحاك قال : نرج أصحاب الأيكة — يعني حين أصابهم الحز — فأنضموا إلى الغيضة والشجر ، فأرسل الله عليهم بحابة فاستظلوا تحتها ، فلما تكاملوا تحتها أحرقوا . ولو لم يكن في هذا إلا ما روى عن ابن عباس قال : و « الأيكة » الشجر . ولا نعلم بين أهل اللغة اختلافا لئن الأيكة الشجر الملتف ، فاما احتجاج بعض من احتج بقراءة من قرأ في هذين الموضعين بالفتح أنه في السواد « ليكة » فلا حجة له ؛ والقول فيه : إن أصله الأيكة ثم خففت الهمزة فالتفت حركتها على اللام فسقطت واستغنت عن ألف الوصل ؛ لأن اللام قد تحركت فلا يجوز على هذا إلا الخفض ؛ كما تقول بالأحر تحرق الهمزة ثم تخففها فتقول يلحمر ؛ فإن شئت كتبت في الخط على ما كتبه أولا ، وإن شئت كتبت بالخلف ؛ ولم يجر إلا الخفض ؛ قال سيويه : وأعلم أن ما لا ينصرف إذا دخلت عليه الألف واللام أو أضيف أنصرف ؛ ولا نعلم أحدا خالف سيويه في هذا . وقال الخليل : « الأيكة » غيضة نبت السدر والأراك ونحوها من ناعم الشجر . ( إِذْ قَالَ لَهُمْ شَيْبٌ ) ولم يقل أخوهم شبيب ؛ لأنه لم يكن أخا لأصحاب الأيكة في النسب ؛ فلما ذكر مدين قال : « أَخَاهُمْ شَيْبًا » ؛ لأنه كان منهم . وقد مضى في « الأعراف » القول في نسبه . قال ابن زيد : أرسل الله شعبيا رسولا إلى قومه أهل مدين ، وإلى أهل البادية وهم أصحاب الأيكة ؛ وقاله قتادة . وقد ذكرناه . ( أَلَا تَتَّقُونَ ) يخافون الله ( إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ . وإنما كان جواب هؤلاء الرسل واحدا على صيغة واحدة ؛ لأنهم متفقون على الأمر بالتقوى ، والطاعة والإخلاص في العبادة ، والامتناع من أخذ الأجر على تبليغ الرسالة . ( أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ) الناقصين للكيل

والرزن. (وَزَنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ) أى أعطوا الحق. وقد معنى في «سبعان» وغيرها.  
 (وَلَا تَحْسَبُوا النَّاسَ شَيْئًا وَلََّا تَمْتَدُّوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ) حَسَمَ في «هود» وغيرها.  
 (وَاتَّخَذُوا الَّذِينَ خَلَقُوا خَلْقَكُمْ وَالْجِبَّةَ الْأُولَى) قال مجاهد: الجِبَّةُ هى الخليقة. وجِبْلُ فلان على  
 كذا أى خلق؛ فالخلق جِبَّةٌ وَجِبَّةٌ وَجِبَّةٌ وَجِبَّةٌ وَجِبَّةٌ ذكروا النحاس في «معاني القرآن».  
 «وَالْجِبَّةُ» حطف على الكاف والميم. قال المروى: الجِبَّةُ والجِبَّةُ والجِبْلُ والجِبْلُ والجِبْلُ  
 لغات؛ وهو الجمع ذو العدد الكثير من الناس؛ ومنه قوله تعالى: «جِبِلًّا كَثِيرًا».  
 قال النحاس في كتاب «إعراب القرآن» له: ويقال جِبَّةٌ والجمع فيها جِبَالٌ، وتحذف  
 الضمة والكسرة من الباء، وكذلك التشديد من اللام؛ فيقال: جِبَّةٌ وَجِبْسٌ، ويقال:  
 جِبَّةٌ وَجِبَالٌ؛ وتحذف الهاء من هذا كله. وقرأ الحسن بأخلاف عنه «وَالْجِبَّةُ الْأُولَى»  
 بضم الجيم والباء؛ وروى عن شعبة والأعرج. الباقون بالكسر. قال:

والموتُ أعظمُ حادثٍ • فيما يمرُّ على الجِبَّةِ

(قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ) الذين يأكلون الطعام والشراب على ما تهتم. (وَإِنْ  
 تَطَّلَكُ لِمَنْ الْكَافِرِينَ) أى ما تظنك إلا من الكافرين فى أنك رسول الله تعالى. (فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا  
 كَيْفًا مِنَ السَّمَاءِ) أى جانباً من السماء قطعة منه، فننظر إليه؛ كما قال: «وَإِنْ يَرَوْا كَيْفًا  
 مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ». وقيل: أرادوا أنزل علينا العذاب. وهو مبالغة  
 فى التكذيب. قال أبو عبيدة: الكَيْفُ جمع كَيْفَةٍ مثل يَذِرُ ويَذِرَةٌ. وقرأ السلمي وحفص  
 «كَيْفًا» جمع كَيْفَةٍ أيضاً وهى القطعة والجانب تقديره كِسْرَةٌ وكِسْرٌ. قال الجوهري:  
 الكَيْفَةُ الإِطْمَةُ من الشيء؛ يقال أعطنى كَيْفَةً من ثوبك والجمع كَيْفٌ وكَيْفٌ. ويقال:  
 الكَيْفُ والكَيْفَةُ واحد. وقال الأخفش: من قرأ «كَيْفًا» جملة واحداً ومن قرأ  
 «كَيْفًا» جملة جماعاً. وقد مضى هذا فى سورة «سبعان». وقال المروى: ومن قرأ  
 «كَيْفًا» على التوحيد بجمعه أ كساف وكسوف؛ كأنه قال أو تسقطه علينا طبقاً واحداً،

(١) «كفا» بإسكان السين قراءة نافع. (٢) راجع ج ٦٠ ص ٢٢٠ طبة أندل أو ثانية.



وهو من كسفت الشيء كسفا إذا غطيته . ﴿ إِنَّ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . قَالَ رَبِّیْ أَعْلَمُ بِمَا  
تَعْمَلُونَ ﴾ تهديد ؛ أى إنما على التبليغ وليس العذاب الذى سألتم إلى وهو يحاذيكم .  
﴿ نَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ ﴾ قال ابن عباس : أصابهم حر شديد ، فأرسل الله سبحانه  
سحابة فهربوا إليها ليستظلوا بها ، فلما صاروا تحتها صبح بهم فهلكوا . وقيل : أقامها الله  
فوق رؤوسهم ، وألهبها حرا حتى ماتوا من الرمء . وكان من أعظم يوم فى الدنيا عذابا . وقيل :  
بعث الله عليهم سموما فخرجوا إلى الأيكة يستظلون بها فأضرها الله عليهم نارا فأحترقوا . وعن  
ابن عباس أيضا وغيره : إن الله تعالى فتح عليهم بابا من أبواب جهنم ، وأرسل عليهم هذّة  
وحرا شديدا فأخذ بأنفاسهم ، فدخلوا بيوتهم فلم ينفعهم ظل ولا ماء ، فأنفضهم الحرق ، فخرجوا  
هربا إلى البرية ، فبعث الله عز وجل سحابة فأظلمت فوجدوا لها بردا وروحا وريحاً طيبة ،  
فنادى بعضهم بعضا ، فلما اجتمعوا تحت السحابة أهبها الله تعالى عليهم نارا ، ورجفت بهم  
الأرض ، فأحترقوا كما يحترق الجراد فى المقل ، فصاروا رمادا ، فذلك قوله : « فَأَصْبَحُوا  
فِي دِيَارِهِمْ جَائِعِينَ . كَانُوا لَمْ يَنْتَوُوا فِيهَا » وقوله : ﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ  
يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ . وقيل : إن الله تعالى حبس عنهم الريح سبعة أيام ، وسلط عليهم الحر حتى  
أخذ بأنفاسهم ، ولم ينفعهم ظل ولا ماء فكانوا يدخلون الأسراب ، ليعردوا فيها فيجدوها أشدّ  
حرا من الظاهر ، فهربوا إلى البرية ، فأظلمت سحابة وهى الظلّة ، فوجدوا لها بردا ونسima ،  
فأمطرت عليهم نارا فأحترقوا . وقال يزيد الجُرَيرى : سلط الله عليهم الحر سبعة أيام  
وليلتين ثم رفع لهم جبل من بريد ، فأتاه رجل فإذا تحته أنهار وعيون وشجر وماء بارد ،  
فاجتمعوا كلهم تحته ، فوقع عليهم الجبل وهو الظلّة . وقال قتادة : بعث الله شعبيا إلى أمتين :  
أصحاب مدين وأصحاب الأيكة فأهلك الله أصحاب الأيكة بالظلّة ، وأما أصحاب مدين فصاح  
بهم جبريل صيحة فهلكوا أجمعين . ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ قيل :  
أمن بشيب من الفتيين تسعمائة نفر .

قوله تعالى : **وَأَنَّهُ لَنَتَنَزِّلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴿١٩٧﴾ **نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ** ﴿١٩٨﴾ **عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ** ﴿١٩٩﴾ **بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ** ﴿٢٠٠﴾ **وَأَنَّهُ لَنِي ذُرِّيُّ الْأَوَّلِينَ** ﴿٢٠١﴾

قوله تعالى : **(وَأَنَّهُ لَنَتَنَزِّلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ)** عاد إلى ما تقدم بيانه في أول السورة من اعراض المشركين عن القرآن . **(نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ)** « نَزَلَ » مخففاً قرأ نافع وآبن كثير وأبو عمرو . الباقون « نَزَلَ » مشدداً « بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ » نصباً وهو اختيار أبي حاتم وأبي عبيد لقوله ؛ **«وَأَنَّهُ لَنَتَنَزِّلُ»** وهو مصدر نزل . والوجه لمن قرأ بالتخفيف أن يقول ليس هذا بمقدر ؛ لأن المعنى وإن القرآن لتنزيل رب العالمين نزل به جبريل إليك ؛ كما قال تعالى : **« قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ »** أى يتلو عليك فيه قلبك . وقيل : ليثبت قلبك . **(لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ)** أى لتلا بقولوا لسانا تفهم ما تقول . **(وَأَنَّهُ لَنِي ذُرِّيُّ الْأَوَّلِينَ)** أى وإن ذكر نزوله لنى كتب الأولين يعنى الأنبياء . وقيل : أى إن ذكر محمد عليه السلام فى كتب الأولين ؛ كما قال تعالى : **« يَسْجُدُونَهُ كُفُّوا عَنْ عَدُوِّهِمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ »** والذُرِّيُّ الكتب الواحد ذُرِّيُّور كرسول ورسول ؛ وقد تقدم .

قوله تعالى : **أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَن يَكَلِّمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَءِيلَ** ﴿٢٠٢﴾ **وَلَوْ زُلْزِلَتْهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ** ﴿٢٠٣﴾ **فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ** ﴿٢٠٤﴾ **كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ** ﴿٢٠٥﴾ **لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ** ﴿٢٠٦﴾ **فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ** ﴿٢٠٧﴾ **فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ** ﴿٢٠٨﴾

قوله تعالى : **(أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَن يَكَلِّمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَءِيلَ)** قال مجاهد : يعنى عبد الله ابن سلام وسلمان وغيرهما من أسلم . وقال ابن عباس : بعث أهل مكة إلى اليهود وهم بالمدينة

يسألونهم عن محمد عليه السلام، قالوا : إن هذا زمانه، وإنا لنجد في التوراة نته وصفته .  
 فيرجع لفظ العلماء إلى كل من كان له علم بكتبهم أسلم أو لم يسلم على هذا القول، وإنما صارت  
 شهادة أهل الكتاب حجة على المشركين، لأنهم كانوا يرجعون في أشياء من أمور الدين إلى أهل  
 الكتاب، لأنهم مظنون بهم علم . وقرأ ابن عامر «أَوَلَمْ تَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ» . الباقون «أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ  
 آيَةٌ» بالنصب على الخبر وأسم يكن «أَنْ يَعْلَمَهُ» والتقدير أولم يكن لهم علم علماء بني إسرائيل الذين  
 أسلموا آية واضحة، وعلى القراءة الأولى أسم كان «آيَةٌ» والخبر «أَنْ يَعْلَمَهُ علماء بني إسرائيل» .  
 وقرأ عاصم الجحدري «أَنْ تَعْلَمَهُ علماء بني إسرائيل» . ( وَلَوْ تَرَأَيْتُمْ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ )  
 أى على رجل ليس بعربي اللسان ( فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ ) غير لغة العرب لما آمنوا ولقالوا لا نفقه .  
 نظيره « وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَجَبًا » الآية . وقيل : معناه ولو زلزاله على رجل ليس من العرب  
 لما آمنوا به أفنة وكبرا . يقال : رجل أعجم وأعجمي إذا كان غير فصيح وإن كان عربيا ،  
 ورجل عجمي وإن كان فصيحيا ينسب إلى أصله ؛ إلا أن الفراء أجاز أن يقال رجل عجمي  
 بمعنى أعجمي . وقرأ الحسن « عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ » مشددة بباء من جعله نسبة . ومن قرأ  
 « الْأَعْجَمِينَ » فقبل : إنه جمع أعجم . وفيه بعد ؛ لأن ما كان من الصفات الذي مؤنثة فعلاء  
 لا يجمع بالواو والتون، ولا بالالف والتاء، لا يقال أحمران ولا حمراوات . وقيل : إن أصله  
 الأعجمين كقراءة الجحدري ثم حذفت ياء النسب، وجعل يجمعه بالياء والتون دليلا عليها .  
 قاله أبو الفتح عثمان بن جني . وهو مذهب سيويه .

قوله تعالى : ( كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ ) يعني القرآن أى الكفر به ( فِي قُلُوبِ الْمُتَوَكِّلِينَ .  
 لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ) . وقيل : سلكا التكذيب في قلوبهم ؛ فذلك الذى منعهم من الإيمان ؛ قاله  
 يحيى بن سلام . وقال عكرمة : الفسوة . والمعنى متقارب وقد مضى في « الحجر » . وأجاز  
 الفراء الجزم في « لَا يُؤْمِنُونَ » ؛ لأن فيه معنى الشرط والمجازاة . وزعم أن من شأن العرب  
 إذا وضعت لا موضع كى لا فى مثل هذا ربما جزم ما بعدها وربما رفعت، فتقول : وبطلت

القرص لا ينقل بالرفع والجزم ؛ لان معناه إن لم أربطه ينقلت ، والرفع بمعنى كذا ينقلت .  
وأشد لبعض بنى عقيل :

وحق رأينا أحسن الفعل بيتنا • مُسَاكَنَةً لَا يَعرِفُ الشَّرَّ قَارِفُ

بالرفع لما حذف كي . ومن الجزم قول الآخر :

لَطَالَمَا حَلَامُهَا لَا تَرِدُ • نَفْلِيَاهَا وَالسَّجَالُ تَبْتَرِدُ<sup>(١)</sup>

قال النحاس : وهذا كله في « يؤمنون » خطأ عند البصريين ؛ ولا يجوز الجزم بلا جازم ، ولا يكون شئ يعمل عملا فإذا حذف عمل عملا أقوى من عمله وهو موجود ؛ فهذا احتجاج بين .  
( حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ • قِيَاتِيَهُمْ بَشْتَةً ) أى العذاب . وقرا الحسن « قَاتِيَهُمْ » بالتاء ؛ والمعنى : فتأتيهم الساعة بفتنة فاضمرت لدلالة العذاب الواقع فيها ، ولكثرة ما في القرآن من ذكرها . وقال رجل للحسن وقد قرا « قَاتِيَهُمْ » : يا أبا سعيد إنما يأتيهم العذاب بفتنة . فاتبره وقال : إنما هي الساعة تأتيهم بفتنة أى بفتنة . ( وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ) بإنائها . ( يَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ) أى مؤثرون وممهلون . يطلبون الرحمة هناك فلا يجابون إليها . قال القشيري : وقوله « قِيَاتِيَهُمْ » ليس عطفا على قوله : « حَتَّى يَرَوْا » بل هو جواب قوله : « لَا يُؤْمِنُونَ » فلما كان جوابا للنفي آتتصب ، وكذلك قوله : « يَقُولُوا » .

قوله تعالى : أَفَعِدَّائِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٤٤﴾ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٤٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٤٦﴾ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَحِنُونَ ﴿٢٤٧﴾ وَمَا أَهْلَكَكَ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ﴿٢٤٨﴾ ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٤٩﴾

قوله تعالى : ( أَفَعِدَّائِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ) قال مقاتل : قال المشركون للنبي صلى الله عليه وسلم يا محمد إلى متى تعدنا بالعذاب ولا تأتي به ! فترلت « أَفَعِدَّائِنَا يَسْتَعْجِلُونَ » . ( أَفَرَأَيْتَ

(١) حلاها : منها من ورود الماء . والسجال : ( جمع سجل ) وهو الدلو الصخمة الملوثة ماء . وتبتود :

تقرب الماء لئلا يبرد به كبدها . والبيت قاله بعض النسوة لبعض لما زود امرأة قد تزوجت من رجل كان عاشقا لها .

إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ) يعنى فى الدنيا والمراد أهل مكة فى قول الضحاك وغيره . ( ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ) من العذاب والهلاك ( مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَنُونَ ) . « ما » الأولى استفهام معناه التقرير ، وهو فى موضع نصب بـ « أغنى » و « ما » الثانية فى موضع رفع ، ويجوز أن تكون الثانية نعتاً لا موضع لها . وقيل : « ما » الأولى حرف نفي ، و « ما » الثانية فى موضع رفع بـ « أغنى » والماء العائدة ههنا . والتقدير : ما أغنى عنهم الزمان الذى كانوا يتمتعونه . وعن الزهرى : إن عمر بن عبد العزيز كان إذا أصبح أمسك بجلجته ثم قرأ « أَمَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ . ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ . مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَنُونَ » ثم يبكى ويقول :

نَهَارُكَ يَا مُسْرُورٌ سَهْوٌ وَغَفْلَةٌ • وَلَيْسُ لَكَ نَوْمٌ وَالرَّدَى لَكَ لَازِمٌ  
فَلَا أَنْتَ فِي الْأَقَاظِ بِعَظَائِمٍ حَازِمٌ • وَلَا أَنْتَ فِي النُّوَامِ نَاجٍ فَسَالِمٌ  
نَسْرٌ بِمَا بَقِيَ وَنَفْرَحُ بِالْمَنَى • كَمَا سُرَّ بِاللَّذَاتِ فِي النَّوْمِ حَالِمٌ  
وَتَسْمَى إِلَى مَا سَوْفَ تَكُونُ غَيْبَةٌ • كَذَلِكَ فِي الدُّنْيَا تَمِيشُ الْبِهَائِمُ

قوله تعالى : ( وَمَا أَهْلَكَا مِنْ قَرْيَةٍ ) « مِنْ » صلة ؛ للمنى ؛ وما أهلكنا قرية .  
( إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ) أى رسل . ( ذِكْرَى ) . قال الكسائى : « ذِكْرَى » فى موضع نصب على الحال . النحاس : وهذا لا يحصل ، والقول فيه قول القراء وإبى إسحق أنها فى موضع نصب على المصدر ؛ قال القراء : أى يذكرون ذِكْرَى ؛ وهذا قول صحيح ؛ لأن معنى « إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ » إلا لها مذكرون . و « ذِكْرَى » لا يتبين فيه الإعراب ؛ لأن فيها ألفاً مقصورة . ويجوز « ذِكْرَى » بالتثنية ، ويجوز أن يكون « ذِكْرَى » فى موضع رفع على إضمار مبتدأ . قال أبو إسحق : أى إنذارنا ذِكْرَى . وقال القراء : أى ذلك ذِكْرَى ، وذلك ذِكْرَى . وقال ابن الأنبارى قال بعض المفسرين : ليس فى « الشعراء » وقف تام إلا قوله « إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ » وهذا عندنا وقف حسن ؛ ثم يتدنى « ذِكْرَى » على معنى هى ذِكْرَى أى يذكرهم ذِكْرَى ، والوقف على « ذِكْرَى » أجود . ( وَمَا كُنَّا طَالِبِينَ ) فى تذييلهم حيث قدمنا الحجة عليهم وأعذرنا إليهم :

قوله تعالى : وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ  
وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعَزُولُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ  
إِلَهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى : ( وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ) معنى القرآن بل ينزل به الروح الأمين .  
( وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ . إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعَزُولُونَ ) أى يرى الشعب كما مضى  
في سورة « الحجر » بيانه . وقرأ الحسن وعبد بن السميقع « وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطُونُ » قال  
المهدوى : وهو غير جائز في العربية ومخالف لخط . وقال النحاس : وهذا غلط عند جميع  
التحويين ؛ وسمعت علي بن سليمان يقول سمعت محمد بن يزيد يقول : هذا غلط عند العلماء ،  
إنما يكون بدخول شبهة ؛ لما رأى الحسن في آخره ياء ونونا وهو في موضع رفع أشبه عليه  
بالجمع المسلم فغلط ، وفي الحديث : « آخذوا زلة العالم » وقد قرأ هو مع الناس « وَإِذَا خَلَوْا  
إِلَى شَيَاطِينِهِمْ » ولو كان هذا بالواو في موضع رفع لوجب حذف النون للإضافة . وقال  
العلابي قال الفراء : غلط الشيخ - معنى الحسن - فقيل ذلك للتضرب في تجميل فقال : إن  
جاز أن يحتج بقول رؤبة والمعاج وذوهمما جاز أن يحتج بقول الحسن وصاحبه مع أنا نعلم  
أنهما لم يقرأ بذلك إلا وقد سما في ذلك شيئا ؛ وقال المؤرج : إن كان الشيطان من شاط  
يشيط كان لقراءتهما وجه . وقال يونس بن حبيب : سمعت أعرابيا يقول دخلنا بساتين من  
ورائها بساتون ؛ قلت : ما أشبه هذا بقراءة الحسن .

قوله تعالى : ( فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ) قيل : المعنى قل لمن  
كفر هذا . وقيل : هو مخاطبة له عليه السلام وإن كان لا يفعل هذا ؛ لأنه معصوم مختار  
ولكنه خوطب بهذا والمقصود غيره . ودل على هذا قوله : « وَأَنْتَ عَشِيرَتُكَ الْأَقْرَبِينَ »  
أى لا يتكلمون على نسبهم وقرابتهم فيدعون ما يجب عليهم .

قوله تعالى : وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٦﴾ وَاخْضَعْ جَنَاحَكَ لِمَنْ  
اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٧﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٨﴾  
وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٩﴾ الَّذِي يَرْفَعُ رَنَدَكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢٢٠﴾ وَتَقَلِّبَكَ  
فِي السَّجَدِينَ ﴿٢٢١﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٢٢﴾

قوله تعالى : ( وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ) فيه مستطاب :

الأولى — قوله تعالى : « وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ » خص عشيرته الأقربين بالإنذار ؛  
لتحسم أطاع سائر عشيرته وأطاع الأجنبي في مفارقه إياهم على الشرك ؛ وعشيرته الأقربون  
قريش . وقيل : بنو عبد مناف . ووقع في صحيح مسلم : « وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ وَرَهْطَكَ  
مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ » . وظاهر هذا أنه كان قرآنا يتلى وأنه نسخ ؛ إذ لم يثبت نقله في المصحف  
ولا تواتر . ويلزم على ثبوته إشكال ؛ وهو أنه كان يلزم عليه ألا يندثر إلا من آمن من عشيرته ؛  
فإن المؤمنين هم الذين يوصفون بالإخلاص في دين الإسلام وفي حب النبي صلى الله عليه وسلم  
لا المشركون ؛ لأنهم ليسوا على شيء من ذلك ، والنبي صلى الله عليه وسلم دعا عشيرته كلهم  
مؤمنهم وكافرهم ، وأنذر جميعهم ومن معهم ومن يأتي بعدهم صلى الله عليه وسلم ؛ فلم يثبت  
ذلك نقلا ولا معنى . وروى مسلم من حديث أبي هريرة قال : لما نزلت هذه الآية  
« وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ » دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشا فاجتمعوا فم  
وخص فقال : « يا بني كعب بن لؤي أقمذوا أنفسكم من النار يا بني مرة بن كعب أقمذوا  
أنفسكم من النار يا بني عبد شمس أقمذوا أنفسكم من النار يا بني عبد مناف أقمذوا أنفسكم  
من النار يا بني هاشم أقمذوا أنفسكم من النار يا بني عبد المطلب أقمذوا أنفسكم من النار  
يا فاطمة أقمذى نفسك من النار فإني لا أملك لكم من الله شيئا غير أن لكم رجما مابها  
يسلوا » .

(١) « مابها يسلوا » : أي أملك في الدنيا ولا أغني عنكم من الله شيئا .

الثانية - في هذا الحديث والآية دليل على أن القرب في الأنساب لا يرفع مع البعد في الأسباب ، ودليل على جواز صلة المؤمن الكافر وإرشاده ونصيحته ؛ لقوله : " إِنْ لَكُمْ رَحِمًا سَأَلْتُهَا بِأَهْلِهَا " وقوله عز وجل : « لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ » الآية ، على ما يأتي بيانه هناك .

قوله تعالى : ( وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ) تقدم في سورة « المجهر » و « سبحان » يقال : خفض جناحه إذا لَانَ . ( فَإِنْ عَصَوْكَ ) أى خالفوا أمرك . ( قُلْ إِنْ يَرَوْهُ يُدْمِنُ عَلَى عَمَلِهِمْ ) أى يرى من مصيبتكم إياي ؛ لأن عصيانهم إياه عصيان لله عز وجل ؛ لأنه عليه السلام لا يأمر إلا بما يرضاه ، ومن تبرأ منه فقد تبرأ الله منه .

قوله تعالى : ( وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ) أى فوض أمرك إليه فإنه العزيز الذى لا يغال ، الرحيم الذى لا يخذل أوليائه . وقرأ العامة « وَتَوَكَّلْ » بالواو وكذلك هو في مصاحفهم .

وقرأ نافع وابن عامر « قَوَّكَلْ » بالفاء وكذلك هو في مصاحف المدينة والشام . ( الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ) أى حين تقوم إلى الصلاة في قول أكثر المفسرين : ابن عباس وغيره . وقال مجاهد : يعنى حين تقوم حيناً كنت . ( وَتَهَلَّلَكَ فِي السَّاجِدِينَ ) قال مجاهد وقناة : في المصلين . وقال ابن عباس : أى في أصلاب الآباء آدم ونوح وإبراهيم حتى أنزله نبياً . وقال عكرمة : يراك قائماً وراكماً وساجداً ؛ وقاله ابن عباس أيضاً . وقيل : المعنى ؛ إنك ترى قلبك في صلاتك من خلفك كما ترى بينك من قدامك . وروى عن مجاهد ؛ ذكره الماوردي والتلميذ . وكان عليه السلام يرى من خلقه كما يرى من بين يديه ، وذلك ثابت في الصحيح وفي تأويل الآية بعيد . ( إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ) قدم .

قوله تعالى : هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ

كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾



قوله تعالى : ( هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَزُولُ الشَّيَاطِينُ . تَزُولُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ) إنما قال « تَزُولُ » لأنها أكثر ما تكون في الهواء ، وأنها تمر من الريح . ( يُلْقُونَ السَّعْجَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ) تقدم في « الحجر » . فـ « يُلْقُونَ السَّعْجَ » صفة الشياطين « وَأَكْثَرُهُمْ » يرجع إلى الكهنة . وقيل : إلى الشياطين .

قوله تعالى : وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٧﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسِعِلُّمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيُّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٢٢٩﴾

قوله تعالى : ( وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ) فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : « وَالشُّعْرَاءُ » جمع شاعر مثل جاهل وجهلاء ؛ قال ابن عباس : هم الكفار « يَتَّبِعُهُمُ » ضلال الجن والإنس . وقيل : « الْغَاوُونَ » الزائلون عن الحق ، ودل بهذا أن الشعراء أيضا غاؤون ؛ لأنهم لو لم يكونوا غاوين ما كان أتباعهم كذلك . وقد قدمنا في سورة « النور » أن من الشعر ما يجوز إنشاده ، ويكره ، ويحرم .

وروي مسلم من حديث عمرو بن الشريد عن أبيه قال : ردف رسول الله صلى الله عليه وسلم [ يوما ] فقال : « هل معك من شعراية بن أبي الصلت شيء » قلت : نعم . قال « هيه » فأنشدته بيتا . فقال « هيه » ثم أنشدته بيتا . فقال « هيه » حتى أنشدته مائة بيت . هكذا صواب هذا السند وصحيح روايته . وقد وقع لبعض رواة كتاب مسلم : عن عمرو بن الشريد عن الشريد أبيه ؛ وهو وهم ؛ لأن الشريد هو الذي أودعه رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأسم أبي الشريد سويد . وفي هذا دليل على حفظ الأشعار والاعتناء بها إذا تضمنت الحكم والمعاني المستحسنة شرما وطبعها ، وإنما استكثر النبي صلى الله عليه وسلم من شعراية ؛ لأنه

كان حكيماً ، ألا ترى قوله عليه السلام : " وكاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم " فاما ما تضمن  
ذكر الله وحده والثناء عليه فذلك مندوب إليه ، كقول القائل :

الحمد لله المثل المأثَر • صار التريد في رموس الميدان<sup>(١)</sup>

أو ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أو مدحه كقول العباس :

مِنْ قَبْلِهَا طَبَّتْ فِي الظَّلَالِ وَفِي مُنْ • تَوَدَّعَ حَيْثُ يُحَصِّفُ السَّوْرُ  
ثُمَّ هَبَطَ الْبِلَادَ لَا بَشْرَ أَد • تَ لَا مُضْغَةً وَلَا حَلَقَ  
بَلْ نَطْفَةَ زَكَبِ السَّيْفِينَ وَقَدْ أَلَّ • حَتَّمْ تَسْرًا وَأَهْلَهُ النَّسْرُ  
تَنْقُلُ مِنْ صَالِبٍ إِلَى رَحِيمٍ • إِذَا مَضَى عَالَمٌ بَدَأَ طَبَقُ<sup>(٢)</sup>

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : " لَا يَقْصِصُ اللَّهُ فَالِكَ " . أو الذَّبَّ عنه كقول حسان :

هَجَوْتَ عَمْدًا فَاجِبْتُ عَنْهُ • وَعَنْدَ أَهْلِ ذَاكَ الْجَزَاءِ

وهي أبيات ذكرها مسلم في صحيحه وهي في السير أتم . أو الصلاة عليه ؛ كما روى زيد بن أسلم ؛

نخرج بعمريلة يجرس فرأى مصباحا في بيت ، وإذا عجوز تنفش صوفا وتقول :

عَلِ عَجْدٍ صَلَاةُ الْأَبْرَارِ • صَلَّى عَلَيْهِ الطَّيُّونُ الْأَخْيَارُ

قَدْ كُنْتُ قَوَامًا بَكَ بِالْأَسْحَارِ • يَا لَيْتَ شِعْرِي وَالْمَنَابِيا أَطْوَارُ

• هَلْ يَمْحَى وَحْيِي النَّارِ •

يعني النبي صلى الله عليه وسلم ؛ مجلس عمر يكي . وكذلك ذكر أصحابه ومدحهم رضي الله عنهم ؛

ولقد أحسن محمد بن سابق حيث قال :

إِنِّي رَضِيتُ طَلِبًا لِلْهُدَى عَلَمًا • كَمَا رَضِيتُ عَتِيقًا صَاحِبَ الْفَارِ

وَقَدْ رَضِيتُ أَبَا حَفِصٍ وَشَيْمَةَ • وَمَا رَضِيتُ بِقَتْلِ الشَّيْخِ فِي الدَّارِ

كُلُّ الصَّحَابَةِ عِنْدِي قُدْرَةٌ عَظِيمٌ • فَهَلْ عَلَيَّ بِهَذَا الْقَوْلِ مِنْ عَارِ

إِنْ كُنْتُ نَعْلَمُ أَنِّي لَا أَحِبُّهُمْ • إِلَّا مِنْ أَجْلِكَ فَاعْتَقْنِي مِنَ النَّارِ

(١) كما في الأصول . (٢) طبع : قرن . أراد إذا مضى قرن ظهر قرن آخر .

وقال آخر فاحسن :

حُبُّ النَّبِيِّ رَسُولِ اللَّهِ مُقَرَّرٌ • وَحُبُّ أَصْحَابِهِ سَوْرٌ يَرْمَعَانِ  
 مَنْ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ خَالِقُهُ • لَا يَرْمِيَنَّ أَبَا بَكْرٍ يَهْتَانِ  
 وَلَا أَبَا حَفِصٍ الْفَارُوقَ صَاحِبَهُ • وَلَا الْخَلِيفَةَ عُمَانَ بْنَ عَفَّانٍ  
 إِنَّمَا عَمِلُ فَمَشْهُورٌ فَضَائِلُهُ • وَالْيَتَّى لَا يَسْتَوِي إِلَّا بِأَرْكَانِ

قال ابن العربي : أما الاستعارات والتشبيهات فاذن فيها وإن استغرقت الحد  
 وتجاوزت المعتاد ؛ فبذلك يضرب الملك الموكل بالزُّبَا المثل ، وقد أشد كعب بن زهير النبي  
 صل الله عليه وسلم :

مَاتَ سَعَادُ فَقَلْبِي الْيَوْمَ مَتَبُولٌ • مُنِمَّ إِيَّاهُ لَمْ يُقَدِّ مَكْبُولٌ  
 وَمَا سَعَادُ عَدَاةَ الْيَتَّى إِذْ رَحَلُوا • إِلَّا أَعْنَى غَضَبُ الطَّرْفِ مَكْحُولٌ  
 تَجَلَّوْا حَوَارِضَ ذِي ظُلَمٍ إِذَا أَبْصَمْتُ • كَأَنَّهُ مَنَهْلٌ بِالرَّاحِ مَقْلُولٌ

بغاء في هذه القصيدة من الاستعارات والتشبيهات بكل بدیع ، والتي صل الله عليه وسلم  
 يسمع ولا ينكر في تشبيهه رفيقها بالراح . وأشد أبو بكر رضى الله عنه :

فَقَدْنَا الْوَحْيَ إِذْ وَلَّيْتَ عَنَّا • وَوَدَّعْنَا مِنْ اللَّهِ الْكَلَامُ  
 سَوَى مَا قَدْ تَرَكْتَ لَنَا رَهِيًا • نَوَارِثُهُ الْفَرَاطِيْسُ الْكِرَامُ  
 فَقَدْ أَوْرَثَنَا مِيرَاثَ صَدِيقٍ • عَلَيْكَ بِهِ التَّجَبُّ وَالسَّلَامُ

فإذا كان رسول الله صل الله عليه وسلم يسمعه وأبو بكر يشهده ، فهل للتقليد والاعتقاد  
 موضع أرفع من هذا . قال أبو عمر : ولا ينكر الحسن من الشعر أحد من أهل العلم ولا من  
 أولي النهى ، وليس أحد من كبار الصحابة وأهل العلم وموضع القدوة إلا وقد قال الشعر ،  
 أو تمثل به أو سمعه فرضيه ما كان حكمة أو مباحا ، ولم يكن فيه غش ولا خنا ولا لمسلم أذى ،  
 فإذا كان كذلك فهو والمشهور من القول سواء لا يحل سماعه ولا قوله ؛ وروى أبو هريرة قال

(١) قال ذلك في رواية النبي صل الله عليه وسلم -

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر يقول : " أصدق كلمة - أو أشعر كلمة -  
قالتها العرب قول لبيد : • أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ • "

أنكره مسلم وزاد " وكاد أمية بن أبي الصلت أن يُسلم " وروى عن ابن سيرين أنه أنشد  
شعرا فقال له بعض جلسائه : مثلك ينشد الشعرا أبا بكر . فقال : ويحك بالكُفِّ وهل الشعر  
إلا كلام لا يخالف سائر الكلام إلا في التوافي ، فحسنة حسن وفيحه قبيح ! قال : وقد  
كانوا يتناكرون الشعر . قال : وسمعت ابن عمر ينشد :

يُحِبُّ الخمرَ من مال النداءى • ويكره أن يفارقه الفلوس

وكان عيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أحد فقهاء المدينة العشرة ثم المشيخة السبعة  
شاعرا مجيدا مقدما فيه . وللازير بن بكار القاضي في أشعاره كتاب ، وكانت له زوجة حسنة  
تسمى عثمة فعشبت عليها في بعض الأسر فطلقها ، وله فيها أشعار كثيرة ؛ منها قوله :

تَفْلَنْ حُبَّ عَثْمَةَ فِي فَوَادِي • فبأديه مع الخلق يسيرُ  
تَفْلَنْ حَيْثُ لَمْ يَبْلُغْ شَرَابٌ • وَلَا حَزَنٌ وَلَمْ يَبْلُغْ سُرُودُ  
أَكَادَ إِذَا ذَكَرْتُ الْهَدَى مِنْهَا • أَطِيرُ لَوْ أَنَّ إِنْسَانًا يَطِيرُ

وقال ابن شهاب : قلت له تقول الشعر في نكك وفضلك ! فقال : إن المصدر  
إذا نكث برأ •

الثانية - وأما الشعر المذموم الذي لا يحمل سماعه وصاحبه ملوم ، فهو المختم بالباطل  
حتى يفضلوا أجبن الناس على عترة ، واتهمهم على حاتم ، وأن يبهتوا البرىء ويفسقوا التقى ،  
وأن يفرطوا في القول بما لم يفعله المرء ؛ رغبة في تسلية النفس وتعمين القول ؛ كما روى عن  
الفريزدق أن سليمان بن عبد الملك سمع قوله :

فِي تَنَبُّؤِي بِمَآئِي مُصْرَطٍ • وَبِتَأْنُؤِي أَغْلَاقِ الْخَتَامِ

فقال : قد وجب عليك الحد . فقال : يا أمير المؤمنين قد درأ الله عنى الحد بقوله : « وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ » . وروى أن النعمان بن مدي بن فضالة كان عاملاً لعمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال :

مَنْ مَبْلُغُ الْحَسَاءِ أَتَ حَلِيلَهَا • بَيْتَانِ يُسْقَى فِي زُبَاجٍ وَحْتَهُ  
إِذَا شَتَّ غَتَّى دَهَاتَيْنِ قُصْرِيَّةٍ • وَرَقَاصَةً تَجْنُو عَلَى كُلِّ مَنِيْمٍ  
فَإِنْ كُنْتَ تَدْمَانِي فَبِأَلَّا كَبْرَاسِقِي • وَلَا تَسْقِي بِالْأَصْفَرِ الْمُنْتَلِمِ  
لَسَلَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِسُوءِهِ • تَنَادَمْنَا بِالْجَوْثِيِّ الْمَتَهِّمِ

فبلغ ذلك عمر فارسل إليه بالقدم عليه . وقال : إى والله إى ليسوى ذلك . فقال : يا أمير المؤمنين ما فعلت شيئا مما قلت ؛ وإنما كانت فضلة من القول ، وقد قال الله تعالى : « وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْفَأْوُونَ • أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ • وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ » فقال له عمر : أما عذرك فقد درأ عنك الحد ؛ ولكن لا تعمل لى عملا أبداً وقد قلت ما قلت . وذكر الزبير بن بكار قال : حدثني مصعب بن عثمان أن عمر بن عبد العزيز لما ولى الخلافة لم يكن له هم إلا عمر بن أبى ربيعة والأخوص فكتب إلى ما له على المدينة : إنى قد عرفت عمر والأخوص بالشر والخبث فإذا أتاك كتابى هذا فأشدد عليهما وأحلهما إلى . لما أتاه الكتاب حللها إليه ، فأقبل على عمر ، فقال : هبه !

فلم أرَ كالتجوير منظرَ فاطم • ولا كالبلى الخ أفتن ذا هوى  
وكم مالى عيليه من شئ غيره • إذا راح نحو الجمره البيض كالدمى

أما والله لو أهتممت بمحبك لم تنظر إلى شئ غيرك ؛ فإذا لم يفلت الناس منك فى هذه الأيام فتى يفلتون ! ثم أمر بنفيه . فقال : يا أمير المؤمنين ! أو خير من ذلك ؟ فقال : ما هو ؟ قال : أعاهد الله أنى لا أعود إلى مثل هذا الشعر ، ولا أذكر النساء فى شعر أبداً ، وأجند توبة ؛ فقال : أو تفعل ؟ قال : نعم ؛ فعاهد الله على توبته وخلاه ؛ ثم دعا بالأخوص ، فقال هبه !

الله بينى وبين قيميها • يقرئ بها وأتبع

(١) تجند : تقوم على أطراف الأسابح . (٢) الجوق : القصر ؛ فارسى عرب .

بل الله بين قيمها وبينك ! ثم أمر بنفيه؛ فكله فيه رجال من الأنصار فأبى، وقال : والله لا أردّه ما كان لي سلطان ، فإنه فاسق مجاهر . فهذا حكم الشعر المذموم وحكم صاحبه ، فلا يحل سماعه ولا إنشاده في مسجد وفي غيره ، كثور الكلام الفحيح ونحوه . وروى إسماعيل بن عيَّاش عن عبد الله بن عون عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "حَسَنُ الشَّعْرِ كَسَنُ الْكَلَامِ وَفَاحُهُ كَفَاحُ الْكَلَامِ" رواه إسماعيل عن عبد الله الشامي وحديثه عن أهل الشام صحيح فيما قال يحيى بن معين وضعفه . وروى عبد الله ابن عمرو بن الماص قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الشعر بمنزلة الكلام حسنة لكسن الكلام وفحيه كفحيح الكلام" .

الثالثة - روى مسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لَأَنْ يَمُوتَ جَوْفٌ أَحَدَكُمْ قِيحًا حَتَّى يَرِيَهُ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَمُوتَ شِعْرًا" وفي الصحيح أيضا عن أبي سعيد الخدري قال : بينا نحن نسبح رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ عرض شاعر يُشَدُّ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "غذوا الشيطان - أو أمسكوا الشيطان - لَأَنْ يَمُوتَ جَوْفٌ رَجُلٍ قِيحًا خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمُوتَ شِعْرًا" قال عطاءة : وإنما فعل النبي صلى الله عليه وسلم هذا مع هذا الشاعر لما علم من حاله ؛ فلعل هذا الشاعر كان ممن قد عرف من حاله أنه قد اتخذ الشعر طريقا للتكسب ؛ فيغتر في المدح إذا أعلی ، وفي الهجو والذم إذا مُنع ، فيؤذى الناس في أموالهم وأعراضهم . ولا خلاف في أن من كان على مثل هذه الحالة فكل ما يكتسبه بالشعر حرام . وكل ما يقوله من ذلك حرام عليه ، ولا يحل الإصفاء إليه ؛ بل يجب الإنكار عليه ؛ فإن لم يمكن ذلك لمن خاف من لسانه قطعا تبين عليه أن يمدحه بما استطاع ، ويذامه بما أمكن ، ولا يحل له أن يعطى شيئا ابتداء ، لأن ذلك عون على المعصية ؛ فإن لم يجد من ذلك بدا أعطاه بنية وقاية العرض ؛ فإما وقى به المرأة عرضة كُتِبَ له به صدقة . قوله : "لَأَنْ يَمُوتَ جَوْفٌ أَحَدَكُمْ قِيحًا حَتَّى يَرِيَهُ" الفحيح الميتة يخالطها دم . يقال منه : قاح الجُرح يقيح ويقيح ويقيح . و "يَرِيَهُ" قال الأصمعي : هو من الورى على

مثال الرمي وهو أن يتوَّى جوفهُ ، يقال منه : رَجُلٌ مُؤَوَّى - مُشَقَّدٌ غير مهموز . وفي الصحيح :  
وَرَى الْقُبْحُ جَوْفَهُ يَرِيهِ وَرِيًّا إِذَا أَكَلَهُ . وأُشْدُّ الزَيْدِي :  
• قَالَتْ لَهُ وَرِيًّا إِذَا تَحَنَّنَا •

وهذا الحديث أحسن ما قيل في تأويله : إنه الذي قد غلب عليه الشعر ، وأمتلأ صدره منه دون علم سواء ولا شيء من الذكر ممن يخوض به في الباطل ، ويسلك به مسالك لا تحمد له ، كالمكثرين من اللفظ والمفرد والغنية وقبح القول . ومن كان الغالب عليه الشعر لزنته هذه الأوصاف المذمومة الدينية ، لحكم العادة الأدبية . وهذا المعنى هو الذي أشار إليه البخاري في صحيحه لما يوجب على هذا الحديث « باب ما يكره أن يكون الغالب على الإنسان الشعر » .  
وقد قيل في تأويله : إن المراد بذلك الشعر الذي عُجِيَ به النبي صلى الله عليه وسلم أو غيره .  
وهذا ليس بشيء ، لأن القليل من هو النبي صلى الله عليه وسلم وكثيره سواء في أنه كفر ومنعوم ، وكذلك هو غير النبي صلى الله عليه وسلم من المسلمين محرم قليله وكثيره ، وحينئذ لا يكون تخصيص الذم بالكثير معنى .

الرابسة - قال الشافعي : الشعر نوع من الكلام حسنه كحسن الكلام وقبيحه كقبيح الكلام ، يعني أن الشعر ليس يكره لذاته وإنما يكره لمضامته ، وقد كان عند العرب عظيم الموقع . قال الأول منهم :  
• وَجُرْحُ السَّائِنِ بِكُرْحِ الْيَدِ •

وقال النبي صلى الله عليه وسلم في الشعر الذي يرد به حسان على المشركين : « إنه لأمرع فيهم من رَشَقِ النَّبْلِ » أخرجه مسلم . وروى الترمذي وصححه عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل مكة في عمرة القضاء وعبد الله بن رَوَاحَةَ يمشي بين يديه ويقول :

خَلُّوا بَنِي الْكَفَرَاءِ عَنْ مَيْلِهِ • الْيَوْمَ تَغْرِبُكُمْ عَلَى تَرْيَلِهِ

ضَرْبًا يَزِيلُ الْمَامَ عَنْ مَقِيلِهِ • وَيُنْعِلُ الْخَلِيلَ عَنْ خِيلِهِ

فقال عمر : يابن رَوَاحَةَ ! في حرم الله وبين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خل عنه يا عمر فلهو أسرع فيهم من نضج التبل » .

الخامسة - قوله تعالى : ( وَالشُّرَكَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْفَقْرُ ) لم يختلف القراء في رفع « وَالشُّرَكَاءُ » فيما علمت . ويعرّض النصب على إضمار فعل يفسره « يَتَّبِعُهُم » وبه قرأ عيسى ابن عمر؛ قال أبو عبيد : كان الغالب عليه حب النصب؛ قرأ « وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ » و« حَالَةٌ الْحُلُب » و« سُورَةُ أَرْزَلْنَاهَا » . وقرأ نافع وشيبة والحسن والسلمي « يَتَّبِعُهُم » خففاً، الباقون « يَتَّبِعُهُم » . وقال الضحاك : تهاجى رجلان أحدهما أنصاري والآخر مهاجري على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مع كل واحد غواة قومه وهم السفهاء فزلت؛ وقوله ابن عباس . وعنه هم الرواة للشعر . وروى عنه علي بن أبي طلحة أنهم هم الكفار يتبعهم ضلال الجن والإنس؛ وقد ذكرناه . وروى فضيل عن النبي صلى الله عليه وسلم : « من أحدث هجاء في الإسلام فافطعوا لسانه » وعن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أفتتح مكة رَدَّ إبليس دنة وجمع إليه ذريته؛ فقال آيئوها أن تريدوا أمة محمد على الشرك بعد يومكم هذا؛ ولكن أنشأوا فيها - بينى مكة والمدينة - الشعر .

السادسة - قوله تعالى : ( أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ) يقول : في كل لفويخوضون ، ولا ينبغي سنّ الحق ؛ لأن من أتبع الحق وعلم أنه يكتب عليه ما يقوله ثبت ، ولم يكن هاهنا ينذهب على وجهه لا يبايى ما قال . نزلت في عبد الله ابن الزُبَيْري ومُصَافِع بن عبد مناف وأمية بن أبي الصلت . ( وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ) يقول : أكثرهم يكذبون ؛ أي يدلون بكلامهم على الكرم والخير ولا يفعلونه . وقيل : إنها نزلت في أبي عزة الجمحي حيث قال :  
أَلَا أُلْبَسَا عَنِّي النَّبِيُّ مُحَمَّدًا • بَأَنَّكَ حَقٌّ وَالْمَلِكُ حَمِيدٌ  
وَلَكِنْ إِنَّا ذُكِّرْتُ بِدَرٍّ وَأَهْلُهُ • تَبَوَّءَ مِنِّي أَعْظَمُ وَجُلُودُ

ثم استثنى شعر المؤمنين : حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك وكعب بن زهير ومن كان على طريقهم من القول الحق ؛ فقال : ( إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا ) في كلامهم ( وَأَتَنَصَّرُوا مِنِّي يُعِدِّ مَا ظَلَمُوا ) وإنما يكون الانتصار بالحق ،



وما حذو الله عز وجل ، فإن تجاوز ذلك فقد آتصر بالباطل . وقال أبو الحسن المبرد :  
 لما نزلت « وَالشُّعْرَاءُ » جاء حسان وكعب بن مالك وابن رَوَاحَةَ فيكون إلى النبي صلى الله  
 عليه وسلم فقالوا : يا بني الله ! أنزل الله تعالى هذه الآية ، وهو تعالى يعلم أنا شعراء ؟ فقال :  
 « أقرموا ما بعدها » إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ « - الآية - أتم « وَأَتَّصَرُّوا مِنْ  
 بَعْدِ مَا عَلِمُوا » أتم « أى بالرد على المشركين . قال النبي صلى الله عليه وسلم : « أَتَّصَرُّوا  
 ولا تخولوا إلا حقاً ولا تذكروا الآباء والأمهات » فقال حسان لأبي سفيان :  
 هجوت محمداً فاجبت عنه . وعند الله في ذلك الجزء  
 وإن أبي والوالدني وعرضي • ليمرض محمد منك وقاءً  
 اتنمته ولست له بكفٍ • فشركا لخبركما الفداء  
 لاني صارم لا عيب فيه • وبحسرى لا تُكدره الدلاء

وقال كعب يا رسول الله ! إن الله قد أنزل في الشعر ما قد علمت فكيف ترى فيه ؟ فقال النبي  
 صلى الله عليه وسلم : « إن المؤمن يحاهد نفسه وسيفه ولسانه والذي نفسى بيده لكان ما ترمونهم به  
 نصح النبل » . وقال كعب :

جاءت شجينة<sup>(١)</sup> كي تُتالَبَ ربياً • وليُظنَّ مُتَالِبُ الفلَّابِ

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لقد مدحك الله يا كعب في قولك هذا » . وروى الضحاك  
 عن ابن عباس أنه قال في قوله تعالى : « وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْفَاوُونَ » مفسوخ بقوله :  
 « إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » . قال المهدوي : وفي الصحيح عن ابن عباس أنه  
 استثناء . « وَسَيَمْلِكُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيْ مُتَقَلِّبِينَ » في هذا تهديد لمن آتصر بظلم [ أى ]  
 سيعلم الظالمون كيف يخلصون من بين يدي الله عز وجل ؛ فالظالم ينتظر العقاب ، والمظلوم  
 ينتظر النصرة . وقرأ ابن عباس « أَيْ مُتَقَلِّبِينَ يَنْقَلِبُونَ » بالفاء والتاء ومعناها واحد ، التعلبي .  
 ومعنى « أَيْ مُتَقَلِّبِينَ يَنْقَلِبُونَ » أى مصير يصبرون وأى مرجع يرجعون ؛ لأن مصيرهم إلى

(١) الشجينة : طام حاريج من دقيق ومن - وقيل من دقيق ونمر - أغظم من الحسا . وأرق من الصيدة ،  
 وكانت فريسة تكثر من أكلها نصرت بها حتى سموا شجينة . (٢) زيادة يقتضها السياق .

النار، وهو أقيع مصر، ومرجمهم إلى المقاب وهو شر مرجع . والفرق بين المقلب والمرجع أن المقلب الانتقال إلى ضد ما هو فيه، والمرجع العودة من حال هو فيها إلى حال كان عليها فصار كل مرجع مقبلا، وليس كل مقلب مرجعا؛ والله أعلم؛ ذكره الساوردي . و«أَيَّ» منصوب بـ «يَتَقَلَّبُونَ» وهو بمعنى المصدر، ولا يجوز أن يكون منصوبا بـ «سَيَلَّمُ» لأن أيا وسائر أسماء الاستفهام لا يعمل فيها ما قبلها فيها ذكر النحويون، قال النحاس: وحقيقة القول في ذلك أن الاستفهام معنى وما قبله معنى آخر فلو عمل فيه ما قبله لدخل بعض المعاني في بعض.

### سورة النمل

مكية كلها في قول الجميع، وهي ثلاث وتسعون آية . وقيل : أربع وتسعون آية .

#### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : طَسَّ نِلَكَ ءَايَتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابِ مُبِينٍ ① هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ② الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ③ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ④ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ ⑤ وَإِنَّكَ لَنُلْقِي الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ⑥

قوله تعالى : ( طَسَّ نِلَكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابِ مُبِينٍ ) مضي الكلام في الحروف المقطعة في « البقرة » وغيرها . و« نِلَكَ » بمعنى هذه ؛ أي هذه السورة آيات القرآن وآيات كتاب مبين . وذكر القرآن بلفظ المعرفة، وقال : « وَكِتَابِ مُبِينٍ » بلفظ النكرة وهما في معنى المعرفة؛ كما تقول : فلان رجل مافل وفلان الرجل المافل . والكتاب هو القرآن ، فجعل له بين الصفتين : بأنه قرآن وأنه كتاب ؛ لأنه ما يظهر بالكتابة ، ويظهر بالقراءة . وقد مضى

أشتقاقهما في « البقرة » . وقال في سورة الحجر : « أَرَأَيْتَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ »  
فأخرج الكتاب بلفظ المعرفة والقرآن بلفظ النكرة ؛ وذلك لأن القرآن والكتاب آسان يصلح  
لكل واحد منهما أن يعمل معرفة ، وأن يعمل صفة . ووصفه بالبين لأنه من فيه أمره ونهيه  
وحلاله وحرامه ووعده ووعيده ؛ وقد تقدم .

قوله تعالى : ( هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ) « هُدًى » في موضع نصب على الحال  
من الكتاب ؛ أى تلك آيات الكتاب هادية ومبشرة . ويموز فيه الرفع على الابتداء ؛ أى هو  
هدى . وإن شئت على حذف حرف الصفة ؛ أى فيه هدى . ويموز أن يكون الخبر  
« لِلْمُؤْمِنِينَ » ثم وصفهم فقال : ( الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ  
يُوقِنُونَ ) وقد مضى في أول « البقرة » بيان هذا .

قوله تعالى : ( إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ) أى لا يستقون بالبعث . ( زِينًا لَهُمْ  
أَعْمَالُهُمْ ) قيل : أعمالهم السيئة حتى رأوها حسنة . وقيل : زينا لم أعمالهم الحسنة فلم  
يعملوها . وقال الزجاج : جعلنا جزاءهم على كفرهم أن زينا لهم ما هم فيه . ( فَهُمْ يَمُحُّونَ )  
أى يترددون في أعمالهم الخبيثة ، وفي ضلالتهم . عن ابن عباس . أبو العالبة : يمحون .  
فتادة : يلبون . الحسن : يمحرون ؛ قال الرازي :

وَمَهْمَهُ أَطْسِرَافُهُ فِي مَهْمِهِ . أَغْمَى الْهُدًى بِالْحَاثِرِينَ الْعَمِيَّةِ<sup>(١)</sup>

قوله تعالى : ( أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ ) وهو جهنم . ( وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ  
الْآخِرُونَ ) . « في الآخرة » تبيين وإيسر بمتعلق بالآخرين فإن من الناس من خسر الدنيا  
وربح الآخرة ، وهؤلاء خسروا الآخرة بكفرهم فهم أخسر كل خاسر .

قوله تعالى : ( وَإِنَّكَ تُلَقِّي الْقُرْآنَ ) أى يلقي عليك فلقاه وتعلمه وتأخذه . ( مِنْ لَدُنْ  
حَكِيمٍ عَلِيمٍ ) « لَدُنْ » بمعنى عند إلا أنها مبنية غير معربة ؛ لأنها لا تتمكن ، وفيها لغات  
ذكرت في « الكهف » . وهذه الآية بساط وتمهيد لما يريد أن يسوق من الأفاصيص ،  
وما في ذلك من لطائف حكمته ، ودقائق علمه .

(١) البيت (نونية) ويرى : بالحاظين العمه . (٢) راجع ج ١٠ ص ٣٥٢ طبعة أول أوتانية .

فوله تعالى : إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَتَابِيتُمْ مِنْهَا  
يَجْزِي أَوْ تَنْجِيكُمْ يَسْهَابٌ قَبَسٌ لَئَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ  
أَنْ بُرِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾  
يَمْوَسَّى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا  
تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْرِياً وَلَّى يُعْقِبُ يَمْوَسَّى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ  
لَدَى الْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلْ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ  
رَحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي ثِيَابٍ  
عَايِلَتْ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ  
ءَايَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا  
أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾

فوله تعالى : ( إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ ) « إِذ » منصوب بمضمر وهو أذكر ؛ كانه قال  
على أثر قوله « وَإِنَّكَ تَلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ » : خذ يا عبد من آثار حكمته وعلمه قصة  
موسى إذ قال لأهله . ( إِنِّي آنَسْتُ نَارًا ) أى أبصرتها من بعد . قال الحرث بن حِزْزَةَ :  
آنَسْتُ نَبَأَةً وَأَفْرَعَهَا الْقُنَاصُ عَصْرًا وَقَدْ دَنَا الْإِسَاءُ

( سَتَابِيتُمْ مِنْهَا يَجْزِي أَوْ تَنْجِيكُمْ يَسْهَابٌ قَبَسٌ لَئَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ) قرأ عامر وحسنة والكاظم  
« يَسْهَابٌ قَبَسٌ » بتووين « يَسْهَابٌ » . والباقون بغير تنوين على الإضافة ؛ أى بشعلة نار ؛  
وأختره أبو عبيد وأبو حاتم . وزعم الفراء فى ترك التنوين أنه بمنزلة قولهم : وليل النار ،  
ومسجد الجامع ، وصلاة الأولى ؛ يضاف الشيء إلى نفسه إذا اختلفت أسماءه . قال النحاس :  
إضافة الشيء إلى نفسه محال عند البصريين ، لأن معنى الإضافة فى اللغة ضم شيء إلى شيء .

( ١ ) آنَسْتُ : أحس . والنبأ : الخبر .

لعل أن يضم الشيء إلى نفسه، وإنما يضاف الشيء إلى الشيء ليتين به معنى الملك أو النوع،  
 لعل أن يبين أنه ملك نفسه أو من نوعها . و « شهاب قيس » إضافة النوع والجنس ،  
 كما قول : هذا ثوب نر ، وختم حديد وشبهه . والشهاب كل ذى نور ، نحو الكوكب والنود  
 الموقد . والقيس اسم لما يمتس من حمر وما أشبهه ، فالعنى شهاب من قيس . يقال :  
 أقيست قيساً ، والأسم قيس . كما قول : قبضت قبضاً . والأسم القبض . ومن قرأ « يشهب  
 قيس » جملة بدلا منه . المهدي : أوصفه له ، لأن القيس يجوز أن يكون اسماً غير صفة ،  
 ويجوز أن يكون صفة ، فاما كونه غير صفة فلأنهم قالوا قبسته أنهبه قيساً والقيس المقبوس ،  
 وإذا كان صفة فالأحسن أن يكون نعتاً . والإضافة فيه إذا كان غير صفة أحسن . وهى  
 إضافة النوع إلى جنسه تكاتم نضة وشبهه . ولو قرئ بنصب قيس على البيان أو الحال كان  
 أحسن . ويجوز في غير القرآن شهاب قيساً على أنه مصدر أو بيان أحوال . « لعلكم تصطلون »  
 أصل الطاء تاء فأبدل منها ها طاء ، لأن الطاء مطبقة والصاد مطبقة فكان الجمع بينهما حسناً ،  
 ومعناه يستدفنون من البرد . يقال : أصطل يصطل إذا استدفأ . قال الشاعر :

النار فأكهة الشتاء فمن يرد . أكل الفواكه شاتياً فليصطل

الزجاج : كل أبيض ذى نور فهو شهاب . أبو عبيدة : الشهاب النار . قال أبو النجم :

كأنما كان شهاباً واقداً . أضاء ضوءاً ثم صار خامداً

أحمد بن يحيى : أصل الشهاب عود في أحد طرفيه جرة والآخر لا تار فيه ، وقول النحاس  
 فيه حسن : والشهاب الشراع المضي ومنه الكوكب الذى يد ضوؤه في السماء . وقال الشاعر :

في كفه صعدة متفئة<sup>١</sup> . فيها سنان كشمس القيس

قوله تعالى : ( قلنا جامعاً ) أى فلما جاء موسى الذى ظن أنه نار وهى نور ، قاله  
 وهب بن منبه . فلما رأى موسى النار وقف قريباً منها ، فرأها تخرج من فرع شجرة  
 خضراء شديدة الخضرة يقال لها اللقي ، لا تزداد النار إلا عظماً وتضربها ، ولا تزداد الحرارة

إلا خضرة وحشا ؛ فنجب منها وأهوى إليها بضفت في يده ليقبس منها ؛ قالت إليه ؛  
 تخافها فتأخر عنها ؛ ثم لم تزل تطعمه ويطعم فيها إلى أن وضح أمرها على أنها مأمورة لا يدرى  
 من أمرها ، إلى أن « **تُودَى أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا** » . وقد مضى هذا المعنى  
 في « طه » . « **(تُودَى)** » أى ناداه الله ؛ كما قال : « **وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ** » .  
**(أَنْ بُورِكَ)** قال الزجاج : « **أَنْ** » في موضع نصب ؛ أى بأنه . قال : ويجوز أن تكون  
 في موضع رفع جعلها اسم ما لم يسم فاعله . وحكى أبو حاتم أن في قراءة أبيّ وابن عباس  
 ومجاهد « **أَنْ بُورِكَ النَّارُ وَمِنْ حَوْلَهَا** » . قال الحاس : ومثل هذا لا يوجد بإسناد صحيح ،  
 ولو صح لكان على التفسير ، فتكون البركة راجعة إلى النار ومن حولها الملائكة وموسى .  
 وحكى الكاظمي عن العرب : **باركك الله ، وبارك بك** . التعلي : العرب تقول **باركك الله ،**  
**وبارك بك ، وبارك عليك ، وبارك لك ، أرحم لفات** . قال الشاعر :

فبوركت مولوداً وبوركت نائساً • وبوركت عند الشيب إذ أنت أشيبُ

الطبري : قال « **بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ** » ولم يقل **بورك** [في من في] النار على لغة من يقول  
**باركك الله** . ويقال **باركه الله ، وبارك له ، وبارك عليه ، وبارك فيه** بمعنى ؛ أى **بورك** على  
 من في النار وهو موسى ، أو على من في قرب النار ؛ لأنه كان في وسطها . وقال السدي :  
 كان في النار ملائكة فالتبرك عائد إلى موسى والملائكة ؛ أى **بورك** فيك يا موسى وفي الملائكة  
 الذين هم حولها . وهذا تحية من الله تعالى لموسى وتكرمة له ، كما حيا إبراهيم على السنة الملائكة  
 حين دخلوا عليه ؛ قال : « **وَحَمِّمَهُ أَهْلُ بَرَكَاتِهِ عَلَيْكُمْ أَهْلُ الْبَيْتِ** » . وقول ثالث قاله ابن عباس  
 والحسن وسعيد بن جبير : **قُدْسٌ مَنْ فِي النَّارِ وَهُوَ أَهْلُ سُبْحَانِهِ وَتَعَالَى** ، غنى به نفسه تقدس  
 وتعالى . قال ابن عباس ومحمد بن كعب : النار نور الله عز وجل ؛ نادى الله موسى وهو  
 في النور ؛ وتأويل هذا أن موسى عليه السلام رأى نوراً عظيماً فظنه ناراً ؛ وهذا لأن الله تعالى  
 ظهر لموسى آياته وكلامه من النار لا أنه يتميز في جهة « **وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهُ** »

لا أنه يتميز فيهما، ولكن يظهر في كل فعل فيعلم به وجود الفاعل. وقيل على هذا: أي يورك من في النار سلطانه وقدرته. وقيل: أي يورك ما في النار من أمر الله تعالى الذي جعله علامة.

قلت: ومما يدل على صحة قول ابن عباس ما أخرجه مسلم في صحيحه، وابن ماجه في سننه واللفظ له عن أبي موسى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه فإله النور لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كل شيء أدركه بهره" ثم قرأ أبو عبيدة "أَنَّ يُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ" أخرجه البيهقي أيضا. ولفظ مسلم عن أبي موسى قال: قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس كلمات؛ قال: "إن الله عز وجل لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل حجابه النور - وفي رواية أبي بكر النار - لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه"

قال أبو عبيد: يقال السُّبْحَاتُ إنها جلال وجهه، ومنها قيل: سبحان الله إنما هو تعظيم له وتزيه. وقوله: "لو كشفها" يعني لو رفع الحجاب عن أعينهم ولم ينهتهم لرؤيته لاحترقوا وما استطاعوا لها. قال ابن جرير: النار حجاب من الحجب وهي سبعة حجب؛ حجاب العزة، وحجاب الملك، وحجاب السلطان، وحجاب النار، وحجاب النور، وحجاب النمام، وحجاب الماء. وبالْحَقِيقَةُ فالخلق المحجوب والله لا يحجب شيء؛ فكانت النار نورا وإنما ذكره بلفظ النار؛ لأن موسى حسبه نارا، والعرب تضع أحدهما موضع الآخر. وقال سعيد بن جبير: كانت النار بينها فاسمعه تعالى كلامه من ناحيتها، وأظهر له ربوبيته من جهتها.

وهو كما روى أنه مكتوب في التوراة: «جاء الله من سيناء وأشراف من ساعير وأستمل من جبال فاران». فجاءه من سيناء بعنه موسى منها، وإشرافه من ساعير بعنه المسيح منها، وأستملؤه من فاران بعنه محمد صلى الله عليه وسلم، وفاران مكة. وسيأتي في «القصص» بإسماعه سبحانه كلامه من الشجرة زيادة بيان إن شاء الله تعالى.

(١) لعل تأنيث الضمير تأويل للنور الأنوار. (عائش ابن ماجه).

قوله تعالى : ( وَبَيَّنَّا لِلرَّبِّ الْعَالَمِينَ ) تزيها وتحميها به رب العالمين . وقد عظم  
في غير موضع ، والمعنى : أى ويقول من حولها «وَبَيَّنَّا لِلَّهِ» حنفا . وقيل : إن موسى  
عليه السلام قال حين فرغ من سماع النداء : استعانة بالله تعالى وتزيها له ؛ قاله السدى .  
وقيل : هو من قول الله تعالى . وسماء . وبورك فبين سبحانه الله تعالى رب العالمين ؛ حكاه  
أبو خزيمة .

قوله تعالى : ( يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ) الهاء حماد وليست بكناية في قول  
الكوفيين . والصحيح أنها كناية عن الأمر والشأن . «أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ» الثالب الذى ليس  
كنهه شيء «الْحَكِيمُ» في أمره وقوله . وقيل : قال موسى يا رب من الذى نادى ؟ فقال  
له : «إِنَّهُ» أى إني أنا الذى لك «أَنَا اللَّهُ» .

قوله تعالى : ( وَأَلْقِ عَصَاكَ ) قال وهب بن منبه : ظن موسى أن الله أمره أن يرفضها  
فرفضها . وقيل : إنما قال له ذلك ليعلم موسى أن المكلم له هو الله ، وأن موسى رسوله ؛  
وكل نبي لا بد له من آية في نفسه يعلم بها نبوته . وفي الآية حنف : أى وألقى عصاك  
فألقاها من يده فصارت حية تهرأ كأنها جاة ، وهى الحية الخفيفة الصغيرة الجسم . وقال  
الكلبي : لا صغيرة ولا كبيرة . وقيل : إنما قلت له أولا حية صغيرة فلما أنس منها قلت  
حية كبيرة . وقيل : أهلبت مرة حية صغيرة ، ومرة حية تسمى وهى الأفعى ، ومرة ثعبانا  
وهو الذكر الكبير من الحيات . وقيل : المعنى أهلبت ثعبانا تهرأ كأنها جاة لما عظم الثعبان  
وخفة الجاة وأهترأه وهى حية تسمى . وجمع الجاثج جثجان ؛ ومنه الحديث «نهى عن قتل  
الجثجان إلى فى البيوت» . ( وَلَى مُذْذِرًا ) خاتما على طاعة البشر ( وَلَمْ يَعْصِ ) أى لم يرجع ؛  
قاله مجاهد . وقال قتادة : لم يخف . ( يَا مُوسَى لَا تَحْزَنْ ) أى من الحية وضررها .  
( إِنْ لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ ) وتم الكلام ثم استثنى استثناء مقطعا فقال : ( إِلَّا مَنْ  
ظَلَمَ ) . وقيل : إنه استثناء من محذوف ؛ والمعنى : إني لا يخاف لدى المرسلون وإنما  
يخاف فيهم من ظلم ( إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسًّا بَعْدَ سُوءٍ ) فإنه لا يخاف ؛ قاله الفراء .



قال النحاس : استثناء من محذوف محال ؛ لأنه استثناء من شيء لم يذكر ولو جاز هذا لجاز  
إني لأضرب القوم إلا زيدا بمعنى إني لا أضرب القوم وإنما أضرب غيرهم إلا زيدا ؛ وهذا  
ضد البيان ، والوجه بما لا يعرف معناه . وزعم الفراء أيضا : أن بعض النحويين يجعل إلا  
بمعنى الواو أى ولا من ظلم ؛ قال :

وكلُّ أخٍ مفارقُهُ أخُوهُ • لَمَعَرْتُ أَبِيكَ إِلَّا الْقَرَقَدَانِ

قال النحاس : وكون « إلا » بمعنى الواو لا وجه له ولا يجوز في شيء من الكلام ، ومعنى  
« إلا » خلاف الواو ؛ لأنك إذا قلت : جاني إخوتك إلا زيدا أخرجت زيدا مما دخل  
فيه الإخوة فلا نسبة بينهما ولا تقارب . وفي الآية قول آخر : وهو أن يكون الاستثناء  
متصلا ؛ والمعنى إلا من ظلم من المرسلين بإتيان الصغار التي لا يسلم منها أحد ، سوى ما روى  
عن يحيى بن زكريا عليه السلام ، وما ذكره الله تعالى في نبيا عليه السلام في قوله : « لِيُغْفِرَ  
لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ » ذكره المهدوي وأختره النحاس ؛ قال : علم الله من  
عصى منهم [ يسر الخيفة ] فأستثناء فقال : « إلا من ظلم ثم بدل حسا بعد سوء » فإنه يخاف  
وإن كنت قد غفرت له . الضحاك : يعني آدم وداود عليهما السلام . الزمخشري : كالذي  
فرط من آدم ويونس وداود وسليمان وإخوة يوسف ، ومن موسى عليه السلام بركه القبطي .  
فإن قال قائل : فما معنى الخوف بعد التوبة والمغفرة ؟ قيل له : هذه سبيل السوء بالله عز  
وجل أن يكونوا خائفين من معاصيهم وجلين ، وهم أيضا لا يأمنون أن يكون قد بقي من  
أشراط التوبة شيء لم يأتوا به ، فهم يخافون من المطالبة به . وقال الحسن وآبن جريح :  
قال الله لموسى إني أخفكت لفتلك النفس . قال الحسن : وكانت الأنبياء تذب فتعاقب .  
قال التلمبي والقشيري والماوردي وغيرهم : فالاستثناء على هذا صحيح ؛ أى إلا من ظلم نفسه من  
النبين والمرسلين فيما فعل من صغيرة قبل النبوة . وكان موسى خاف من قتل القبطي وتائب منه .  
وقد قيل : إنهم بعد النبوة معصومون من الصغائر والكبائر . وقد مضى هذا في « البقرة » .

قلت : والأول أحسن لتصلهم من ذلك في القيامة كما في حديث الشفاعة ، وإذا أحدث المقرب حدثا فهو وإن غفر له ذلك الحدث فآثر ذلك الحدث باق ، وما دام الأمر والتهمة قاعة فالخوف كائن لا خوف العقوبة ولكن خوف العظمة ، والتميم عند السلطان يحد التهمة حرازة تؤديه إلى أن يكدر عليه صفاء الثقة . وموسى عليه السلام قد كان منه الحدث في ذلك الفرعوني ، ثم استغفر وأقر بالظلم على نفسه ، ثم غفر له ، ثم قال بعد المنفرة « رَبِّ إِنِّي أَتَمَمْتُ عَلَى قَلْنٍ أَكُونُ ظَاهِرًا لِلشَّجَرَيْنِ » ثم أبطل من القند بالفرعونى الآخر وأراد أن يبطش به ، فصار حدثا آخر بهذه الإرادة . وإنما أبطل من القند قوله : « قَلْنٍ أَكُونُ ظَاهِرًا لِلشَّجَرَيْنِ » وتلك كلمة اقتدار من قوله لن أضل ، فوقف بالإرادة حين أراد أن يبطش ولم يفعل ، فسلط عليه الإسرائيل حتى أمضى أمره ، لأن الإسرائيل لما رآه تسمر لبطش ظن أنه يريد ، فأنسى عليه ذ « قَلْ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ نَخْلُقَ لَكَ قَصَاً بِالْأَثْنِ » فهرب الفرعونى وأخبر فرعون بما أنسى الإسرائيل حل موسى ، وكان القتل بالأسس مكتوما أمره ، لا يدرى من قتله ، فلما علم فرعون بذلك ، وجه في طلب موسى ليقطعه ، وأشدت الطلب وأخذوا بجامع الطرق ، جاء رجل يسمى ذ « قَلْ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَائِكَةَ يُتِمُّونَ بِكَ الْقَتْلَ » الآية . فخرج كما أخبر الله . فخوف موسى إنما كان من أجل هذا الحدث ، فهو وإن قتر به وأكرمه وأصطفاه بالكلام فالتهمة الباقية ولت به ولم يعقب .

قوله تعالى : ( وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرُّجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ) تقدم في ذ طه « القول فيه . ( في تسع آيات ) قال النحاس أحسن ما قيل فيه أن المعنى : هذه الآية داخلة في تسع آيات . المهدوى : المعنى « أَلْقَى عَصَاكَ » « وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ » فهما آيتان من تسع آيات . وقال القشيري معناه : كما تقول تخرجت في عشرة ثروانت أحدهم . أى تخرجت عاشر عشرة . ذ « نَحْنُ » بمعنى « من » قريبا منها كما تقول خذنى عشرا من الإبل فيها فحلان أى منها . وقال الأصمى في قول امرئ القيس :

وَهَلْ يَتَمَنَّيَنَّ مَنْ كَانَ آخِرُ عَهْدِهِ • ثَلَاثِينَ شَهْرًا فِي ثَلَاثَةِ أَحْوَالٍ

(١) راجع ج ١١ ص ١٩١ طبعه عبد الله أرتانة . (٢) بقى رواية : « وهل بمن » .

في يميني من . وقيل : في يميني مع ؛ فَلَايَاتٍ عَشْرَةَ مِنْهَا آيَةٌ ، والتسع : الفلق والسماء والبراد والقمل والطوفان والدم والصفادع والسين والطمس . وقد تَهَمَّ يَسَانِ جَمِيعِهِ .  
(إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ) قال القرطبي : في الكلام إضمار لدلالة الكلام عليه ، إى إنيك مبعوث أو مرسل إلى فرعون وقومه . (إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ) أى خارجين عن طاعة الله ؟ وقد تَهَمَّ :

قوله تعالى : (فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً) أى واضحة بينة . قال الأخفش : ويحوزُ مُبْصِرَةً وهو مصدر كما يقال الولد مجتنب . (قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ) جروا على مادتهم في التكذيب فلهمنا قال : (وَجَعَلُوا بَيْنَهُمَا وَاسْطِفْتَاهُ أَتَمَّهُمْ ظُلُمًا وَعُلُوًّا) أى تيقنوا أنها من عند الله وأنها ليست سحرا ، وسكنهم كفروا بها وتكبروا أن يؤمنوا بموسى . وهذا يدل على أنهم كانوا معاندين . و «ظُلُمًا» و «عُلُوًّا» منصوبان على نعت مصدر عنف ، أى وجحدوا بها جحودا ظلما وعلوا . والباء زائدة أى وجحدوها ، قاله أبو عبيدة . (فَانظُرْ) يا محمد (كَفَّ كَانَ حَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ) أى أنظر أضر الكافرين الطاغين ، أنظر ذلك بين قلبك وتدبر فيه . الخطاب له والمراد غيره .

قوله تعالى : وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَبْنَئِيهَا النَّاسُ عَلَيْنَا مِنْطَقُ الطَّيْرِ وَأَوْفِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُمْ الْفَضْلُ الْأَمِينُ ﴿٥٧﴾

قوله تعالى : (وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا) أى فهما ؛ قاله قتادة . وقيل : علما بالدين والحكم وفيهما كما قال : «وَعَلَّمْنَاهُ صِنْتَهُ لِيُؤْتِيَنَّا لَكُمُ» . وقيل : صنعة الكيمياء . وهو شاذ . وإنما الذى آتاهما الله النبوة والخلافة فى الأرض والزبور . «وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ

(٢) الطمس : طمس الشيء . إنفاذ من صورة . وقد صبر أشاعرهم وجرهم جرة . راجع ٨ ص ٢٧٤ طبعه أملا أو أمانة ما

الذي فضلنا كل كبير من عبيده المؤمنين « وفي الآية دليل على شرف العلم وإتانة عمله وتقديم حله وأهله ، وأن نعمة العلم من أجل الله وأجل القسم ، وأن من أوتيته فقد أوتي فضلا على كثير من عباد الله المؤمنين . » يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات . » وقد تقدم هذا في غير موضع .

قوله تعالى : ( وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنَاطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ) قال الكلبي : كان لداود صلى الله عليه وسلم تسعة عشر ولدا فوُثِرَ سليمان من بينهم نبوته وملكه ، ولو كان وراثته مال لكان جميع أولاده فيه سواء ؛ وقاله ابن العربي ؛ قال : فلو كانت وراثته مال لاقسمت على العدد ؛ فخلص الله سليمان بما كان لداود من الحكمة والنبوة ، وزاده من فضله ملكا لا ينفى لأحد من بعده . قال ابن عطية : داود من بني إسرائيل وكان ملكا ووُثِرَ سليمان ملكه ومزنته من النبوة ، بمعنى صار إليه ذلك بعد موت أبيه فسمى ميراثا تجوزا ؛ وهذا نحو قوله : « العلماء ورثة الأنبياء » ويحتمل قوله عليه السلام : « إنا معشر الأنبياء لآخرون » أن يريد أن ذلك من فعل الأنبياء وسيرتهم ، وإن كان فيهم من وُثِرَ ماله كزكرياء على أشهر الأقوال فيه ؛ وهذا كما تقول : إنا معشر المسلمين إنا شغلنا العبادة ، والمراد أن ذلك فعل الأكثر . ومنه ما حكى سيويه : إنا معشر العرب أقرى الناس للضيف .

قلت : قد تقدم هذا المعنى في « سرزم » وأن الصحيح القول الأول لقوله عليه السلام : « إنا معشر الأنبياء لآخرون » فهو عام ولا يخرج منه شيء إلا بدليل . قال مقاتل : كان سليمان أعظم ملكا من داود وأفضى منه ، وكان داود أشد تعبدا من سليمان . قال غيره : ولم يبلغ أحد من الأنبياء ما بلغ ملكه ؛ فإن الله سبحانه وتعالى مخرجه الإنس والجن والطير والوحش ، وآذاه ما لم يؤث أحدا من العالمين ، ووُثِرَ آباءه في الملك والنبوة ، وقام بعده بشريته ، وكل نبى جاء بعد موسى ممن بعث أو لم يبعث وإنما كان بشرية موسى ، إلى أن بعث المسيح عليه السلام فنسخها . وبينه وبين الهجرة نحو من ألف وثلاثمائة سنة . واليهود تقول ألف

وثلاثمائة وأثنان وستون سنة . وقيل : إن بين موته وبين مولد النبي صلى الله عليه وسلم نحواً من ألف وسبعمائة ، واليهود تنقص منها ثمانية سنة ، وعاش نيفاً وخمسين سنة .

قوله تعالى : « وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ » أي قال سليمان لبني إسرائيل من جهة الشكر لعماد الله . « مَا مَنَّا بِمَنْطِقِ الطَّيْرِ » أي بفضل الله علينا على ما ورثنا من داود من العلم والنبوة والخلافة في الأرض في أن فهمنا من أصوات الطير المعاني التي في قلوبها . قال مقاتل في الآية : كان سليمان جالساً ذات يوم إذ مر به طائر يطوف ، فقال بلسانه : أتدرون ما يقول هذا الطائر ؟ إنها قالت لي : السلام عليك أيها الملك المسلط والتي طينى إسرائيل ! أعطاك الله الكرامة ، وأظهرك على عدوك ، إني مطلق إلى أفراسي ثم أمرت بك الشانية ؛ وإنه سرجع إليها الثانية ثم رجع ، فقال إنه يقول : السلام عليك أيها الملك المسلط ، إن شئت أن تأذن لي كيما أكتسب من أفراسي حتى يشبوا ثم أتيتك فأفعل بي ما شئت . فأخبرهم سليمان بما قال ، وأذن له فامطلق . وقال فرقد السبخي : مر سليمان على بلبل فوق شجرة يمزك رأسه ويميل ذنبه ، فقال لأصحابه : أتدرون ما يقول هذا البلبل ؟ قالوا لا يا بني الله . قال إنه يقول : أكلتُ نصف ثمرة نخل الدنيا المقاه . ومر بهدق فوق شجرة وقد نصب له صبي نخاً فقال له سليمان : أحذر إهدد ! فقال : يا بني انه ! هذا صبي لا عقل له فانا أخضر به . ثم رجع سليمان فوجد قد وقع في جباله الصبي وهو في يده ، فقال : همدد ما هذا ؟ قال : ما رأيته حتى وقعت فيها يا بني الله . قال : ويحك ! فانت ترى السماء تحت الأرض أما ترى الفخ ! قال : يا بني الله إذا نزل الغضاء على البصر . وقال كعب . صاح ورثان عند سليمان ابن داود ، فقال : أتدرون ما يقول ؟ قالوا لا . قال إنه يقول : ليؤا لوت وأبنا هجراب . وصاحت فاختة ، فقال : أتدرون ما تقول ؟ قالوا لا . قال إنها تقول : ليت هذا الخلق لم يخلقوا وليتهم إذ خلقوا ملأوا المساكنا خلقوا . وصاح عنده طلوس ، فقال : أتدرون ما يقول ؟ قالوا لا . قال إنه يقول : كما تدنين نذان . وصاح عنده همدد ، فقال : أتدرون ما يقول ؟ قالوا لا . قال إنه يقول : من لا يرمم لا يرمم . وصاح سرمد عنده ، فقال : أتدرون ما يقول ؟

قالوا : لا . قال إنه يقول : استغفروا الله يا منسين ؛ فمن ثم نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتله . وقيل : إن الصرد هو الذي دل آدم على مكان البيت . وهو أول من صام ؛ ولذلك يقال للصرد الصوم ؛ روى عن أبي هريرة . وصاحت عنده طيطوى فقال : أندرون ما تقول ؟ قالوا : لا . قال إنها تقول : كل من ميت وكل جديد بال . وصاحت خطانة عنده ؛ فقال : أندرون ما تقول ؟ قالوا : لا . قال إنها تقول : قدموا خيرا تجدوه ؛ فمن ثم نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتلها . وقيل : إن آدم نرج من الجنة فاشتكى إلى الله الوحشة ، فأنه الله تعالى بالخطأ والزها البيوت ، فهي لا تخافق بن آدم أنسا لم . قال : ومهما أريج آيات من كتاب الله عز وجل : « لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ إِلَى آخِرِهِا وَتَمَدَّ صَوْتُهَا بِقَوْلِهِ « الْغَزِيرُ الْحَكِيمُ » . وهدوت حمامة عند سليمان فقال : أندرون ما تقول ؟ قالوا : لا . قال إنها تقول : سبحان ربى الأعلى عدد ما فى سمواته وأرضه . وصاح قمرى عند سليمان ، فقال أندرون ما يقول ؟ قالوا : لا . قال إنه يقول : سبحان ربى العظيم المهيمن . وقال كعب : وحدهم سليمان ، فقال الغراب يقول : اللهم أكلن العنَّار ؛ والحذأة تقول : « كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ » . والنقطة تقول : من سكت سليم . والبيضاء تقول : ويل لمن الدنيا همه . والضفدع يقول : سبحان ربى الفلوس . والبازى يقول : سبحان ربى وبجده . والسرطان يقول : سبحان المذكور بكل لسان فى كل مكان .

وقال مكحول : صاح دجاج عند سليمان ، فقال : أندرون ما يقول ؟ قالوا : لا . قال إنه يقول : « الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى » . وقال الحسن قال النبي صلى الله عليه وسلم : « الديك إذا صاح قال أذكروا الله يا غافلين » . وقال الحسن بن علي بن أبى طالب قال النبي صلى الله عليه وسلم : « النسر إذا صاح قال يا بن آدم عيش ما عشت فاترك الموت وإذا صاح العنَّاب قال فى البعد من الناس الراحة وإذا صاح القنبر قال إلى العن مبغضى آل محمد وإذا صاح الخطاف قرأ « الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » إلى آخرها فيقول « وَلَا الضَّالِّينَ » ويمد بها صوته كما يمد القارئ » . قال قتادة والشَّيْء : إنما هذا الأمر فى الطير خاصة ، لقوله : « عَلِمَتْ

مَنطِقَ الطَّيْرِ . والنملة طائر إذ قد يوجد له أجنحة . قال الشَّيْ : وكذلك كانت هذه النملة ذات جناحين . وقالت فرقة : بل كان في جميع الحيوان ، وإنما ذكر الطير لأنه كان جنفاً من جند سليمان يحتاجه في التغلب على الشمس وفي البعث في الأمور تخص بالذكر لكثرة ملاحظته ؛ ولأن أمر سائر الحيوان نادر وغير متكرر ترداد أمر الطير . وقال أبو جعفر النحاس : والمنطق قد يقع لما يفهم بغير كلام ، ولقد جل وعز أعلم بما أراد . قال ابن العربي : من قال إنه لا يعلم إلا منطق الطير فتقصان عظيم ، وقد أخفق الناس على أنه كان يفهم كلام من لا يتكلم ويخفى له فيه القول من النبات ، فكان كل نبت يقول له : أنا شجر كذا ؛ أضع من كذا وأضر من كذا ، فما ظنك بالحيوان .

قوله تعالى : **وَحِشْرَ لِّلِّيمَنَ جُنُودَهُ مِّنَ الْإِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ**  
**فَهُمْ يُوزَعُونَ** (٧)

فيه مستثنان :

الأول - قوله تعالى : **« وَحِشْرَ لِّلِّيمَنَ »** « حشر » جميع والحشر الجمع ومنه قوله عز وجل : **« وَحِشْرَ تَائِمٍ فَلَمَّ تَغَادَرِ مِنْهُمْ أَهْلَهُ »** واختلف الناس في مقدار جند سليمان عليه السلام ؛ فيقال : كان معسكره مائة فرسخ في مائة : خمسة وعشرون الف ، وخمسة وعشرون الف إنس ، وخمسة وعشرون للطير ، وخمسة وعشرون للوحش . وكان له ألف بيت من قوارير على الخشب فيها ثلاثمائة منكوحة وسبعمائة سرية . ابن عطية : واختلف في معسكره ومقدار جنده اختلافاً شديداً غير أن الصحيح أن ملكه كان عظيماً ملا الأرض ، وأقامت له المصورة كلها . ( فهُم يُوزَعُونَ ) معناه يرد أولهم إلى آخرهم ويكفون . قال قتادة : كان لكل صف وزعة في رتبهم ومواضعهم من الكرسي ومن الأرض إذا مشوا فيها . يقال : وزعته أوزمه وزعاً أي كففته . والوزع في الحرب الموكل بالمعوق يزع من قدامهم . روى عبد بن إسحق عن أسماء بنت أبي بكر قالت : لما وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم بذي طوى - نعى

يوم الفتح - قال أبو خاقان وقد كُفَّ بصره يومئذ لأبيه : أظهرى بنى على أبى قُبَيْس .  
 قالت : فأشرت به عليه فقال : ما ترين ؟ قالت : أرى سوادا مجتمعا . قال ذلك الخليل .  
 قالت وأرى رجلا من السواد مقبلا ومدبرا . قال : ذلك الوازع بمنها أن تنتشر . وذكر  
 تمام الخبر . ومن هذا قوله عليه السلام : « ما روى الشيطان يوما هو فيه أصفر ولا أدهر  
 ولا أحقر ولا أغيط منه في يوم عرفة وما ذاك إلا لما رأى من تنزل الرحمة وتجاوز الله عن  
 الذنوب العظيم إلا ما رأى يوم بدر » قيل : وما رأى يا رسول الله ؟ قال : « أما أنه رأى  
 جبريل يزع الملائكة » نزع الموطأ . ومن هذا المعنى قول النابغة :

على حين طابت المشب على الصبا • وقلت المأ أسمع والشب وإزع  
 آخر :

ولما تلاقينا جرت من جفوننا • دموع وزعنا قربها بالأصابع  
 آخر :

ولا يزع النفس الجرج من الهوى • من الناس إلا وأقر العقل كله  
 وقيل : هو من التوزيع بمعنى التصريق . والقوم أوزاع أى طوائف . وفي القصة : إن  
 الشياطين نسجت له بساطا فرمحا في فرج ذعبا في إبريسم ، وكان يوضع له كرسي من ذهب  
 وحوله ثلاثة آلاف كرسي من ذهب وفضة فيقعد الأتيةاء على كراسي الذهب ، والعلماء على  
 كراسي الفضة .

الثانية - في الآية دليل على اتخاذ الإمام والحكام ومة يكفون الناس ويمسونهم  
 من تطاول بعضهم على بعض ؛ إذ لا يمكن الحكام ذلك بأنفسهم . وقال ابن حون : سمعت  
 الحسن يقول وهو في مجلس قضائه لما رأى ما يصنع الناس قال : والله ما يصلح هؤلاء الناس  
 إلا ومة . وقال الحسن أيضا : لا بد للناس من وازع ، أى من سلطان يكفهم . وذكر ابن  
 القاسم قال حدثنا مالك أن عثمان بن عفان كان يقول : ما يزع الإمام أكثر مما يزع القرآن ،  
 أى من الناس . قال ابن القاسم : قلت لمالك ما يزع ؟ قال : يكف . قال القاضي أبو بكر  
 ابن العربي : وقد جهل قوم المراد بهذا الكلام ، فظنوا أن المعنى فيه أن قدرة السلطان تزود



الناس أكثر مما ندرهم حدود القرآن وهذا جهل بالله وحكمه . قال : فإن الله ما وضع  
الحفود إلا معلومة مائة كاملة قائمة لقيام الخلق ، لا زيادة عليها ، ولا نقصان منها ، ولا يصلح  
سواها ، ولكن الظلمة غشوا بها ، وقصروا عنها ، وأتوا ما أتوا بخيرية ، ولم يقصدوا وجه  
الله في القضاء بها ، فلم يردع الخلق بها ، ولو حكوا بالعدل ، وأخلصوا النية ، لاستقامت  
الأمور ، وصلح الجمهور .

قوله تعالى : **حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ  
ادْخُلُوا مَسَكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمُنُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾**  
**فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي  
أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأُدْخِلْنِي رَحْمَتَكَ  
فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾**

فيه ست مسائل :

الأولى - قوله تعالى : **( حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ )** قال قتادة : ذكر لنا أنه واد  
بأرض الشام . وقال كعب : هو الطائف . **( قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ )** قال الشعبي : كان  
النملة جناحان فصارت من الطير ، فذلك علم متلقها ولولا ذلك لما علمه . وقد مضى هذا  
ورأى . وفرأ سليمان اليمى بمكة «نملة» و«النمل» ففتح النون وضم الميم . وعنه أيضا ضمها  
جميعا . وسببت النملة نمل تنملها وهو كثرة حركتها وقلة قرارها . قال كعب : مر سليمان عليه  
السلام برادى السدير من أودية الطائف ، فأتى على وادى النمل ، فقامت نملة تمشى وهى عرجاء  
تتكلم مثل النمل فى العظم ، فنادت « يا أيها النمل » الآية . فترغى : سمع سليمان  
كلامها من ثلاثة أعيال ، وكانت تمشى وهى عرجاء تتكلم ، وقيل : كان اسمها طائفة .  
وقال السبيل : ذكروا اسم النملة المكلمة لسليمان عليه السلام ، وقالوا اسمها حرياء ، ولا أدرى  
كيف يتصور النملة اسم علم والنمل لا يسمى بعضهم بضا ، ولا الآسيون يمكنهم تسمية

واحدة منهم باسم علم، لأنه لا يتميز للاثنين بعضهم من بعض، ولا هم أيضا والقون تحت  
 منكبة بن آدم كاخليل والكلاب ونحوها، فإن العلية فيما كان كذلك موجودة عند العرب. فإن  
 قلت: إن العلية موجودة في الأجسام كغزالة وأسامة وجبار وقحاص في الضبع ونحو هذا كثيرا  
 فليس أسم الغزالة من هذا، لأنهم زعموا أنه اسم علم فغزالة واحدة معينة من بين سائر الغزل، وغزالة  
 ونحوه لا يختص بواحد من الجنس، بل كل واحد رأيت من ذلك الجنس فهو غزالة، وكذلك أسامة  
 وأبن آوى وأبن عرس وما أشبه ذلك. فإن مع ما قالوه فله وجه، وهو أن تكون هذه  
 الغزالة الناطقة قد سميت بهذا الاسم في التوراة أو في الزور أو في بعض الصحف سماها الله  
 تعالى بهذا الاسم، وعرفها به الأنبياء قبل سليمان أو بعضهم. ونخصت بالتسمية لتعلقها  
 وإيمانها فهذا وجه. ومعنى قولك بإيمانها أنها قالت للنمل: (لَا يَحِطُّ بِكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ  
 وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) فقولها «وَمَنْ لَا يَعْلَمُونَ» الثغارة مؤمن. أي من عدد سليمان وفضلته  
 وفضل جنوده لا يحيطون غلة لما فوقها إلا بالآبشعروا. وقد قيل: إن تبسم سليمان سرور  
 بهذه الكلمة منها؛ ولذلك أكد التبسم بقوله: «ضاحكا» إذ قد يكون التبسم من غير ضحك  
 ولا رضا، ألا تراهم يقولون تبسم التبسم تبسم الضبان وتبسم المستهزئين. وتبسم الضحك إنما  
 هو عن سرور، ولا يسترجي بأمر دنيا؛ وإنما سر بما كان من أمر الآخرة والدين. وقولها:  
 «وَمَنْ لَا يَعْلَمُونَ» إشارة إلى الدين والمثل والرأفة. ونظير قول الغزالة في جند سليمان «وَمَنْ  
 لَا يَعْلَمُونَ» قول الله تعالى في جند محمد صلى الله عليه وسلم «تَقْصِيصُكُمْ مِنْهُمْ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ».  
 الثغارة إلى أنهم لا يقصدون هدر مؤمن. إلا أن المثنى على جند سليمان هي الغزالة بإذن الله  
 تعالى، والمثنى على جند محمد صلى الله عليه وسلم هو الله عز وجل بنفسه؛ لما جلود محمد صلى  
 الله عليه وسلم من الفضل على جند غيره من الأنبياء؛ كما محمد صلى الله عليه وسلم فضل على  
 جميع النبيين صلى الله عليهم وسلم أجمعين. وقرأ شيرين حوشب «مَسَكْنُكُمْ» يسكون  
 السين على الإفراد. وفي مصحف أبي «مَسَاكِنُكُمْ لَا يَحِطُّ بِكُمْ». وقرأ سليمان التيمي  
 «مَسَاكِنُكُمْ لَا يَحِطُّ بِكُمْ» ذكره النحاس؛ أي لا يكرهكم بوطنتهم عليكم وهم لا يحيطون بكم.

قال المهدوي : وأنهم الله تعالى التملة هذا لتكون معجزة سليمان . وقال وهب : أمر الله تعالى الريح ألا يتكلم أحد بشيء إلا طرحت في سمع سليمان ؛ بسبب أن الشياطين أرادت كيد . وقد قيل : إن هذا الوادي كان ببلاد اليمن وأنها كانت تملأ صغرة مثل النمل المتداد قاله الكلبي . وقال توفى الشامي وشقيق بن سلمة : كان نمل ذلك الوادي كهية الذئب في العظم . وقال بريدة الأسلمي : كهية النعاج . قال محمد بن علي الزمذني : فإن كان على هذه الخلقة فلها صوت ، وإنما أخفد صوت النمل لصغر خلقها ، وإلا فلأصوات في الطيور والبهائم كائنة ، وذلك منقطعهم ، وفي تلك المناطق معاني التسبيح وغير ذلك ، وهو قوله تعالى : « وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ » .

قلت : وقوله « لَا يَحِيطُ بِكُمْ » يدل على صحة قول الكلبي ؛ إذ لو كانت كهية الذئب والنعاج لما حطمت بالوطء ؛ والله أعلم . وقال : « أَدْخَلُوا مَسَاجِدَكُمْ » بقاء على خطاب الآدميين لأن النمل هاهنا أجرى مجرى الآدميين حين تطلق كما ينطق الآدميون . قال أبو إسحق التلمبي : ورأيت في بعض الكتب أن سليمان قال لها لم حذرت النمل ؟ أخفت ظلمي ؟ أما علمت أني نجي عند ؟ فلم قلت « يَحِيطُ بِكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ » فقالت التملة : أما سمعت قولي « وَمَنْ لَا يَعْلَمُونَ » مع أني لم أرد حطم النفوس ، وإنما أردت حطم القلوب خشية أن يفتن مثل ما أعطيت ، أو يفتن بالدنيا ، ويستغل بالنظر إلى ملكك عن التسبيح والذكر . فقال لها سليمان : عظمي . فقالت التملة : أما علمت لم سئى أبوك داود ؟ قال : لا . قالت : لأنه دأى براحه فؤاده ؛ هل علمت لم سميت سليمان ؟ قال : لا . قالت : لأنك سلم الناحية على ما أوتيته بسلامة صدرك ، وإن لك أن تلحق بأبيك . ثم قالت : أندري لم سخر الله لك الريح ؟ قال : لا . قالت : أخبرك أن الدنيا كلها ريح . ( قَبَسَ صَاحِبُكَ مِنْ قَوْلِهَا ) متعجباً ثم مضت مسرعة إلى قومها ، فقالت : هل عندكم من شيء نهدي به إلى

(١) العبارة في «قصص الأنبياء» التلمبي : « قالت لأنك سلمت بسلامة صدرك ، وسئى لك

لأن تلحق بأبيك داود » .

نبي الله ؟ قالوا : وما قدر ما نهدي له ! والله ما عندنا إلا نبقة واحدة . قالت : حسنة ؛  
أيتروني بها . فأتوها بها فحملتها فيها ، فأنطلقت تجرها ، فأمر الله الريح لحملتها ، وأقبلت تنشق  
الأنس والجفن والعلاء والأنبياء على البساط ، حتى وقعت بين يديه ، ثم وضعت تلك النبقة  
من فيها في كفه ، وأنشأت تحول :

ألم ترنا نُهْدِي إلى الله مَالَهُ • وإن كان عنه ذاغِي فهو قَابِلُهُ  
ولو كان يُهْدَى لجليل بقدرة • لقصر عنه البحر يوما وساحلُهُ  
ولكننا نُهْدِي إلى من نُحِبُّ • فيرضى به عنا ويشكر قَاعِلُهُ  
وما ذاك إلا من كريم فَصَالُهُ • وإلا فما في ملكنا ما يَنَالُهُ

قال لما : بارك الله فيكم ؛ فهم بتلك الدعوة أشكر خلق الله وأكثر خلق الله : وقال ابن  
عباس : نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن قتل أربع من الدواب : المذئذ والصراد والتملة  
والنحلة ؛ خرج أبو داود وصححه أبو محمد عبد الحق وروى من حديث أبي هريرة . وقد  
مضى في « الأعراف » . فالتمة أتت على سليمان وأخبرت بأحسن ما تفكر عليه بأنهم  
لا يشعرون إن حطموك ، ولا يفعلون ذلك عن عمد منهم ، ففتت عنهم الجور ؛ ولذلك  
نهى عن قتلها ، وعن قتل المذئذ ؛ لأنه كان دليل سليمان على الماء ورسوله إلى بلقيس .  
وقال عكرمة : إنما صرف الله شر سليمان عن المذئذ لأنه كان باراً بالديه . والصراد يقال له  
الصوام . وروى عن أبي هريرة قال : أول من صام الصرد ولما خرج إبراهيم عليه السلام  
من الشام إلى الحرم في بناء البيت كانت السكينة معه والصراد<sup>(١)</sup> فكان الصرد دليله على الموضع  
والسكينة مقداره ، فلما صار إلى البقعة وقعت السكينة على موضع البيت وتادت وقالت :  
أبن يا إبراهيم على مقدار ظلي . وقد تقم في « الأعراف » سبب النهي عن قتل الضفدع  
وفي « النحل » النهي عن قتل النحل . والحمد لله .

(١) راجع ج ٧ ص ٢٧٠ طبة أول أو ثانية .

(٢) السكينة : حماية كآفة القصة . وفي حديث علي رضي الله عنه إن السكينة ربح سريرة المرء . وليس بواضح .

(٣) راجع ج ١٠ ص ١٢٤ طبة أول أو ثانية .

الثانية - قرأ الحسن « لَا يَحْطِمَنَّكُمْ » وعنه أيضا « لَا يَحْطِمَنَّكُمْ » وعنه أيضا وعن أبي رباح « لَا يَحْطِمَنَّكُمْ » والحطّم الكسر . حطّمه حطّا أى كسره وتَحَطَّم ، والتَحَطَّيْم التكسير . « وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » يجوز أن يكون حالا من سليمان وجنوده ، والفاعل في الحال « يَحْطِمَنَّكُمْ » . أو حالا من النملة والفاعل « قالت » . أى قالت ذلك في حال غفلة الجنود ؛ كقولك : قتت والناس غافلون . أو حالا من النمل أيضا والفاعل « قَالَتْ » على أن المعنى : والنمل لا يشعرون أن سليمان يهزم مقاتلها . وفيه بعد ومبأى .

الثالثة - روى مسلم من حديث أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم " أن نملة قرصت نيا من الأضياء فأصر بقرية النمل فأحرقت فأومى الله تعالى إليه أنى أن فرصتك نملة أهلكت أمة من الأمم تسبح " وفي طريق آخر : " فهلا نملة واحدة " . قال طلائعنا : يقال إن هذا النبي هو موسى عليه السلام ، وإنه قال : يارب تمذب أهل قرية بمصاصهم وفيهم الطائع . فكانه أحب أن يريه ذلك من عنده ، فسلط عليه الحزح حتى أتجأ إلى شجرة مستروحا إلى ظلها ، وعندها قرية النمل ، فغلبه النوم ، فلما وجد لذة النوم لدغته النملة فاضمرته ، فدلكنه بقدمه فأهلكه ، وأحرق تلك الشجرة التي عندها مساكنهم ، فأراه الله العبرة في ذلك آية : لما لدغتك نملة فكيف أصبت الباقيين بمقوبتها ! يريد أن ينبه أن العقوبة من الله تعالى تتم فتصير رحمة على المضجع وطهارة وبركة ، وشرا وفتنة على العاصي . وعلى هذا فليس في الحديث ما يدل على كراهية ولا حظير في قتل النمل ، فإن من آذاك حل لك دفعه عن نفسك ، ولا أحد من خلقه أعظم حرمة من المؤمن ، وقد أبيع لك دفعه عنك بقتل وضرب على المقدر ، فكيف بالموام والدواب التي قد سخرت لك وسلطت عليها ، فإذا آذاك أبيع لك قتله . وروى عن إبراهيم : ما آذاك من النمل فاقتله . وقوله : " ألا نملة واحدة " دليل على أن الذى يؤذى يؤذى ويقتل ، وكلما كان القتل لرفع أو دفع ضرر فلا بأس به عند العلماء . وأطلق له نملة ولم يخص تلك النملة التي لدغت من غيرها ، لأنه ليس المراد التخصيص ؛ لأنه لو أراد له فقال ألا تملك التي لدغتك ، ولكن قال : ألا نملة مكان نملة ؛ فهم البرية

والخاني بذلك، ليعلم أنه أراد أن يبينه لمستهربه في عذاب أهل قرية وفيهم المطيع والمعاصي .  
وقد قيل : إن هذا النبي كانت العقوبة للحيوان بالتحريق جائرة في شرعه ؛ فذلك إنما عاتبه  
الله تعالى في إحراق الكثير من النمل لا في أصل الإحراق . ألا ترى قوله : ” فهلا نملة  
واحدة “ أي هلا حرق نملة واحدة . وهذا بخلاف شرعنا ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم  
قد نهى عن التعذيب بالنار . وقال ” لا يعذب بالنار إلا الله “ وكذلك أيضا كان قتل النمل  
مباحا في شرعية ذلك النبي ؛ فإن الله لم يعتبه على أصل قتل النمل . وأما شرعنا فقد جاء من  
سليث ابن جساس وأبي هريرة النبي عن ذلك . وقد كره مالك قتل النمل إلا أن يضر  
ولا يقدر على دفعه إلا بالقتل . وقد قيل : إن هذا النبي إنما عاتبه الله حيث أنتمم لنفسه  
بإهلاك جمع آذاه واحد ، وكان الأولى الصبر والصفيح ؛ لكن وقع للنبي أن هذا النوع مؤذ  
لبنى آدم ، وحرمة بنى آدم أعظم من حرمة غيره من الحيوان غير الناطق . فلو أفرد له هذا النظر  
ولم ينضم إليه الشئ الطيب لم يعاتب . والله أعلم . لكن لما أنضاف إليه الذئبي الذي دل  
عليه سياق الحديث عوب عليه .

الرابعة - قوله : ” أفي أن فرصتك نملة أهلكت أمة من الأمم تسبح “ مقتضى  
هذا أنه تسبيح بمقال ونطق ؛ كما أخبر الله عن النمل أن لها منطقا وفهمه سليمان عليه السلام  
- وهذا معجزة له - وتيسر من قولها . وهذا يدل دلالة واضحة أن للنمل نطقا وقولا ،  
لكن لا يسمعه كل أحد ، بل من شاء الله تعالى ممن نطق له العادة من نبي أو ولي . ولا تنكر  
هنا من حيث أنا لا نسمع ذلك ؛ فإنه لا يلزم من عدم الإدراك عدم المدرك في نفسه .  
ثم إن الإنسان يحد في نفسه قولا وكلاما ولا يسمع منه إلا إذا نطق بلسانه . وقد نطق الله  
المادة لنبي محمد صلى الله عليه وسلم فاستمع كلام النفس من قوم تحدثوا مع أنفسهم وأخبرهم  
بما في قلوبهم ، كما قد نقل من الكثير من أئمتنا في كتب معجزات النبي صلى الله عليه وسلم ؛  
وكذلك وقع لكثير من أكرمه الله تعالى من الأولياء مثل ذلك في غير ما قضية . وإياه عنى  
النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : ” إن في أمي عتدين وإن عمر منهم “ . وقد مضى هذا المعنى

في [تسبيح] الجهاد في «ميجان»<sup>(١)</sup> ، وأنه تسبيح لسان ومقال لا تسبيح دلالة حال .  
والجهد .

الخامسة - قوله تعالى : « وَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِنَا » وقرا ابن السميع « ضحكا »  
بغير ألف ، وهو منصوب على المصدر بفعل محذوف يدل عليه تبسم ، كأنه قال ضحك ضحكا ،  
هذا مذهب ميويه . وهو عند غير ميويه منصوب بنفس « تبسم » لأنه في معنى ضحك .  
ومن قرا « ضاحكا » فهو منصوب على الحال من الضمير في « تبسم » . والمعنى تبسم  
مقدار الضحك ؛ لأن الضحك يستغرق التبسم ، والتبسم دون للضحك وهو أوله . يقال :  
تبسم (بالفتح) تبسم تبسمًا فهو باسم وأبسم وتبسم ، والتبسم التفرغ مثل المجلس من جلس مجلس  
ورجل يسام وبسام كثير التبسم ، فالتبسم ابتداء الضحك ، والضحك عبارة عن الابتداء  
والإتهاء ، إلا أن الضحك يقتضى مزيدا على التبسم ، فإذا زاد ولم يضبط الإنسان نفسه قبل  
فهفه . والتبسم ضحك الأنبياء عليهم السلام في غالب أمرهم . وفي الصحيح عن جابر بن سمرة  
وقيل له : أكنت تجالس النبي صلى الله عليه وسلم ؛ قال : نعم كثيرا ؛ كأن لا يقوم من مصلاته  
التي يصلي فيه الصبح - أو العشاء - حتى تطلع الشمس فإذا طلعت قام ، وكانوا يتحدثون  
ويأخذون في أمر الجاهلية فيضحكون ويتبسم . وفيه عن سعد قال : كان رسول من المشركين  
قد أحرق المسلمين<sup>(٢)</sup> ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « أرم فذاك أبي وأمي » قال فترعت  
له . بهم ليس فيه نصل فأصبت جنبه فسقط فأنكشفت عورته ، فضحك رسول الله صلى الله  
عليه وسلم حتى نظرت إلى نواجزه . فكان عليه السلام في أكثر أحواله يتبسم . وكان أيضا  
يضحك في أحوال أخر ضحكا أعل من التبسم وأقل من الاستفراق الذي تبدو فيه اللهوات .  
وكان في النادر عند إفراط تعجبه ربما ضحك حتى بدت نواجزه . وقد ذكره العلماء منه الكثرة ؛  
كما قال لقمان لابنه : يا بني إياك وكثرة الضحك فإنه يمت القلب . وقد روى مرفوعا من

(١) زيادة يقتضيا السياق . (٢) راجع ج ١٠ ص ٢٦٦ وما بعدها طبعه أول أرثاقية .

(٣) « أحرق المسلمين » أي أقتلهم ، وعمل بهم نحر عمل النار . « حاشى مسلم »

سجبت أبي ذر وغيره . وضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه حين روى سعدا الرجل فأصابه ، إنما كانت مروراً بإصابته لا بانكشاف عورته ؛ فإنه المستر عن ذلك صلى الله عليه وسلم .

السادسة - لا اختلاف عند العلماء أن الحيوانات كلها لها أفعال وعقول . وقد قال القاضي : الحمام أغفل الطير . قال ابن عطية : واتقيل حيوان فطن قوى شمام جدا ينتر ويهخذ القرى ويشق الحب بقطعين ثلاثين ، ويشق الكربة بأربع قطع ؛ لأنها تنبت إذا قصمت شقين ، وبما كل في عامه نصف ما جمع ويستيق سائر علة . قال ابن العربي : وهذه خواص العلوم عندنا ، وقد أدركتها التمل يخفى الله ذلك لها ؛ قال الأستاذ أبو المظفر شاهنور الإسفرايني : ولا يبعد أن تترك البهائم حدوث العالم وحدث المخلوقات ؛ ووجدانية الإله ، ولكننا لا نفهم منها ولا نفهم عنها ، أما أنا نطلبها وهي تهر ما فبحكم الجنسية .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ ﴾ فعدان ، مصدره . و « أوزعني » أى المكنى ذلك . وأصله من وزع فكأنه قال : كفى مما يحسطن . وقال محمد بن إسحق : يزعم أهل الكتاب أن أم سليمان هى امرأة أوريا التى آمنن الله بها داود ، أو أنه بعد موت زوجها تزوجها داود فولدت له سليمان عليه السلام . وسيأتى لهذا مزيد بيان فى سورة « ص »<sup>(١)</sup> إن شاء الله تعالى .

﴿ وَأَذِّنْ لِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادَتِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ أى مع عبادك ، من ابن زيد . وقيل : للمنى فى جملة عبادك الصالحين .

قوله تعالى : ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدًى أَمْ كَانَ مِنْ الْغَايِبِينَ ﴾<sup>(٢)</sup> لَأَعَذِّبَهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَنٍ مُّبِينٍ ﴾<sup>(٣)</sup> فَكَتَّ غَيْرَ يَبْعِدُ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَئِىَ لِحُطِّ يَدِهِ وَجِئْتُكَ

(١) فى تفسير قوله تعالى : « واذن لى برحمتك فى عبادتك الصالحين » الآية ٢٤ من السورة المذكورة .



مِنْ سَبِيلٍ يَنْظُرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ  
 شَيْءٍ وَلَمَّا عَزَّشَ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدْنَاهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ  
 دُونِ اللَّهِ وَزَيْنُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ  
 لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ إِلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ  
 وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ  
 الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾  
 أَذْهَبَ بِكُنْتِي هَذَا فَاَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾

فيه ثمان عشرة مسألة :

الأولى - قوله تعالى : ( وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ ) ذكر شيئا آخر مما جرى له في مسيره الذي  
 كان فيه من النمل ما تقدم . والتفقد تطلب ما غاب عنك من شيء . والطير اسم جامع والواحد  
 طائر ، والمراد بالطير هنا جنس الطير وجماعتها ، وكانت تصعبه في سفره ونظله بأجنحتها .  
 واختلف الناس في معنى تفقده للطير ؛ فقالت فرقة : ذلك بحسب ما تقتضيه العناية بأمر  
 الملك ، والتهمم بكل جزء منها ؛ وهذا ظاهر الآية . وقالت فرقة : بل تفقد الطير لأن الشمس  
 دخلت من موضع المهدد حين غاب ؛ فكان ذلك سبب تفقد الطير ؛ ليتبين من أين دخلت  
 الشمس . وقال عبيد الله بن سلام : إنما طلب المهدد لأنه يحتاج إلى معرفة الماء على  
 كم هو من وجه الأرض ؛ لأنه كان زل في مفازة عديم فيها الماء ، وأن المهدد كان يرى  
 باطن الأرض وظاهرها ؛ فكان يخبر سليمان بموضع الماء ، ثم كانت الحن تخرجه في ساعة  
 يسيرة ؛ تساخ عنه وجه الأرض كما تساخ الشاة ؛ قاله ابن عباس فيما روى عن ابن سلام .  
 قال أبو جعفر قال ابن عباس لعبد الله بن سلام : أريد أن أسألك عن ثلاث مسائل . قال .  
 آتاني وأنت تقرأ القرآن ؟ قال : نعم ثلاث مرات . قال : لم تفقد سليمان المهدد دون

سائر الطير؟ قال : أحناج إلى الماء ولم يعرف عمقه - أو قال سائته - وكان المدهد يعرف ذلك دون سائر الطير فنقصده . وقال في كتاب النقاش : كان المدهد مهندساً . وروى أن نافع بن الأزرق سمع ابن عباس يذكر شأن المدهد فقال له : قف يا وقاف كيف يرى المدهد باطن الأرض وهو لا يرى الفتح حين يقع فيه ؟ ! فقال له ابن عباس : إذا جاء القدر عمى البصر . وقال مجاهد : قيل لأن عباس كيف تخفد المدهد من الطير ؟ فقال : نزل متلاً ولم يدرك ما بعد الماء ، وكان المدهد مهتدياً إليه ، فاراد أن يسأله . قال مجاهد : فقلت كيف يتدنى والصبي يضع له الحبال فيصيده ؟ ! فقال : إذا جاء القدر عمى البصر . قال ابن العربي : ولا يقدر على هذا الجواب إلا عالم القرآن .

قلت : هذا الجواب قد قاله المدهد لسليمان كما تقدم . وأنشدوا :  
 إذا أراد الله أمراً بأمرئ \* وكان ذا عقلٍ ورأيٍ وتظنرٍ  
 وحيلةٍ يعملها في دفع ما \* يأتي به مكروه أسباب القدر  
 غفلى عليه سمعه وعقله \* وسله من ذهنه سل الشعر  
 حتى إذا أغد فيه حكه \* رذ عليه عقله لينبر  
 قال الكلبي : لم يكن له في مسيره إلا هدهد واحد . والله أعلم .

الثانية - في هذه الآية دليل على تفقد الإمام أحوال رعيته ، والمحافظة عليهم . فانظر إلى المدهد مع صفه كيف لم يخف على سليمان حاله ، فكيف بنظام الملك . ويرحم الله عمر فإنه كان على سيرته ؛ قال : لو أن سمكة على شاطئ الفرات أخذها الدب لبأسل عنها عمر . فذا ظلك بوال تذهب على يديه البلدان ، وتضع الرعية ويضع الرعيان . وفي الصحيح عن عبيد الله ابن عباس أن عمر بن الخطاب خرج إلى الشام ، حتى إذا كان <sup>(١)</sup> يسرع لقيه أمراء الأجناد : أبو عبيدة وأصحابه فأخبروه أن الوباء قد وقع بالشام . الحديث ؛ قال علماءنا : كان هذا الخروج من عمر بعد ما فتح بيت المقدس سنة سبع عشرة على ما ذكره خليفة بن خياط .

(١) سرع (يكون الراء ونحها) : قرية يراى توك من طريق الشام .

وكان يتفقد أحوال رعيته وأحوال أمرائه بنفسه، فقد دل القرآن والسنة وبيناً ما يجب على الإمام من تفقد أحوال رعيته، ومباشرة ذلك بنفسه، والسفر إلى ذلك وإن طال .  
ورحم الله ابن المبارك حيث يقول :

وهل أفسد الدين إلا الملوك . وأجبر مسوء وربهائس<sup>(١)</sup>

الثالثة - قوله تعالى : « مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدُودَ » أى ما للهدد لا أراه ؛ فهو من القلب الذى لا يعرف معناه . وهو كقولك : ما لي أراك كئيباً . أى مالك . والهدد طير معروف وهددته صوته . قال ابن عطية : إنما مقصد الكلام الهدد غالب لكنه أخذ اللازم عن منفيه وهو أن لا يراه ، فاستفهم على جهة التوقيف على اللازم وهذا ضرب من الإيجاز . والاستفهام الذى فى قوله : « مَا لِيَ » ناب مناب الألف التى تحتاجها أم . وقيل : إنما قال : « مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدُودَ » ؛ لأنه اعتبر حال نفسه ، إذ علم أنه أوفى الملك العظيم . ومغزله الخلق ، فقد لزمه حق الشكر بإقامة الطاعة وإدامة العدل ، فلما فقد نعمة الهدد توقع أن يكون قصر فى حق الشكر ، فلاجله سلبها بفعل يتفقد نفسه ؛ فقال : « مَا لِيَ » . قال ابن العربي : وهذا بفعله شيوخ الصوفية إذا فقدوا ما لهم<sup>(٢)</sup> ، فنقدوا أعمالهم ؛ هذا فى الآداب ، فكيف بنا اليوم ونحن نقصر فى الفرائض ! . وقرأ ابن كثير وابن عيصم وعاصم والكسافى وهشام وأيوب « مَا لِيَ » بفتح الـياء وكذلك فى « بَس » « وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي » . وأسكنها حمزة ويعقوب . وقرأ الباقر المديني وأبو عمرو بفتح التى فى « بَس » . وأسكن هذه . قال أبو عمرو : لأن هذه التى فى « النمل » استفهام ، والآخرى أبتساف . واختار أبو حاتم وأبو عبيد الإسكان « فَقَالَ مَا لِيَ » . وقال أبو جعفر النحاس : زعم قوم أنهم أرادوا أن يفرقوا بين ما كان مبتدأ ، وبين ما كان معطوفاً على ما قبله ، وهذا ليس بشئ ؛ وإنما هى ياء النفس من العرب من يفتحها ومنهم من يسكنها ، ففرعوا باللغتين ؛ واللغة الفصيحة فى ياء النفس أن تكون مفتوحة ؛ لأنها اسم وهى على حرف واحد ، وكان الاختيار ألا تسكن فيجحف بالأكس . « أَمْ كَانَ مِنَ الْفَائِضِينَ » بمعنى بل .

(١) فى بعض النسخ : «ورعياً» . (٢) فى أحكام القرآن لابن العربي : «لذا فقدوا ما لهم... الخ» .

**الرابعة -** قوله تعالى : ( لَا أُعَذِّبُهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَا أُذَيِّبُهُ ) دليل على أن الملائكة على قدر الجسد ، أما أنه يرقى بالحدود في الزمان والصفة . روى عن ابن عباس ومجاهد وابن جرير أن تعذيبه للطير كان بأن ينفخ فيه . قال ابن جرير : وبنيته أجمع . وقال يزيد بن رومان : جناحه . فعل سليمان هذا بالمهدد إغلاظا على العصاة ، وعقابا على إخلاله بنوّه ورتبه ؛ وكان الله إباح له ذلك ، كما إباح ذبح البهائم والطير للأكل وغيره من المنافع . وافته أمه . وفي « نوادر الأصول » قال : حدثنا سليمان بن حميد أبو الربيع الإباضي ، قال حدثنا حور بن عمار ، عن الحسين الجعفي ، عن الزبير بن الحريث ، عن عكرمة ، قال : إنما صرف الله شر سليمان عن المهدد لأنه كان بارا بوالديه . وسيأتي . وقيل : تعذيبه أن يعمل مع أضداده . وعن بعضهم : أضيق السجون مباشرة الأضداد . وقيل : لأثرته خدمة أقرانه . وقيل : إبداءه القفص . وقيل : بأن يعمل للشمس بسد شفه . وقيل : ببعده عن خدمتي ، والمملوك يؤذون بالمجران الجسد بتفريق إلفه . وهو مؤكد بالنون التثنية ، وهي لازمة حتى أو الخفيفة . قال أبو حاتم : ولو قرئت « لَا أُعَذِّبُهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَا أُذَيِّبُهُ » جاز . ( أَوْ لِيَأْتِيَنَّ سُلْطَانٌ مِّنْهُ ) أي بحجة ينة . وليست اللام في « لِيَأْتِيَنَّ » لام القسم لأنه لا قسم سليمان على فعل المهدد ، ولكن لما جاء في أثر قوله : « لَا أُعَذِّبُهُ » وهو مما جاز به القسم أجراه مجراه . وقرأ ابن كثير وحده « لِيَأْتِيَنَّ » بنونين .

**الخامسة -** قوله تعالى : ( فَكَيْفَ يُعَذِّبُهُ ) أي المهدد . والجمهور من القراء على ضم النكاف ، وقرأ عاصم وحده بفتحها . ومعناه في القراءتين أقام . قال سيويه : مكث يمكث مكوثا كما قالوا قصد يقصد قصودا . قال : ومكث نسل ظرّف . قال غيره : والفتح أحسن لقوله تعالى : « مَا كَيْفَ » إذ هو من مكث ؛ يقال : مكث يمكث فهو ماكث ؛ ومكث يمكث مثل عظم يعظم فهو ميكت ؛ مثل عظيم . ومكث يمكث فهو ماكث ؛ مثل حمض يحمض فهو حامض . والضمير في « مكث » يحتمل أن يكون لسليمان ؛ والمعنى : متى سليمان بعد التفقد والوعيد غير طويل أي غير وقت طويل . ويحتمل أن يكون للمهدد وهو الأكثر . يقال : لمكثت وما لم يمتطيه . وهي :

السادسة - أى طلت ما لم تمله من الأمر فكان في هذا ردة على من قال : إن الأحياء تعلم النيب . وحكى الفراء : أخط ، يدغم التاء في الساء . وحكى : أعت ، يغلطه الطاء تاء وتدغم .

السابعة - قوله تعالى : ( وَيَجْعَلُكَ مِنْ سِبْطِ يَسْعَى بْنِ قَيْنِ ) أطم عليك ما لم يكن يعلمه ، ودفع عن نفسه ما توعد من العذاب والذبح . وقرأ الجمهور : سَيْبٌ ، بالصرف . وابن كثير وأبو عمرو : سَبًّا ، بفتح الهزنة وترك الصرف ، فالأول على أنه أسم رجل نسب إليه قوم ، وعليه قول الشاعر :

الواردون ويتم في ذرى سبى • قد عَصَّ اعتاقهم جلد الجواميس

وأكثر الزجاج أن يكون أسم رجل ، وقال : • سبأ • أسم مدينة تعرف بأرب يابن يثنا فزين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام ، وأنشد للناطقة الجعدى :

من سبأ الحاضرين مأرب إذ • بتئون من دون سبيل القريما

قال : فمن لم يصرف قال إنه أسم مدينة ، ومن صرف وهو الأكثر فلائه أسم البلد فيكون مذكرا سمي به مذكر . وقيل : أسم امرأة سميت بها المدينة . والصحيح أنه أسم رجل ، كذلك في كتاب الترمذى من حديث فروة بن سُبَيْك الماردى عن النبي صلى الله عليه وسلم • وسبأى إن شاء الله تعالى . قال ابن عطية : وخفى هذا الحديث على الزجاج فخطب عشواء • وزعم الفسزاء أن الرُّؤاسى سأل أبا عمرو بن السلاء عن سبى فقال : ما أدري ما هو • قال النحاس : وتأول الفراء على أبى عمرو أنه منه من الصرف لأنه مجهول ، وأنه إذا لم يعرف الشيء لم يصرف . وقال النحاس : وأبو عمرو أجل من أن يقول مثل هذا ، وليس في حكاية الرُّؤاسى حة دليل أنه إنما منه من الصرف لأنه لم يعرفه ، وإنما قال لا أعرفه ، ولو سئل بخوى عن أسم فقال لا أعرفه لم يكن في هذا دليل على أنه بمنه من الصرف ، بل الحق على غير هذا ، والواجب إذا لم يعرفه أن يصرفه ؛ لأن أصل الأسماء الصرف ؛ وإنما يمنع الشيء من الصرف لطفة داخلية عليه ؛ فالأصل ثابت يتيقن فلا يزول بما لا يعرف . وذكر كلاما كثيرا

من النماء وقال في آخره : والقول في « سبيل » ما جاء التوقيف فيه أنه في الأصل أسم وجعل  
فإن صرحه فلائمه قد صار أسما لله ، وإن لم نعرفه جعله أسما للقيلة مثل نمود إلا أن  
الاختيار عند سيويه الصرف وحجة في ذلك قاطعة ؛ لأن هذا الاسم لما كان يقع له التذكير  
والثاني كان التذكير أولى ؛ لأنه الأصل والأخف .

الثامنة - وفي الآية دليل على أن الصغير يقول للكبير والمتعلم للعالم جندى ما ليس  
هناك إذا تحقق ذلك وتيقنه . هذا عمر بن الخطاب مع جلالة رضى الله عنه وعلمه لم يكن  
ههنا علم بالاستئذان . وكان علم التيمم عند عمر وغيره ، وغاب عن عمر وابن مسعود حتى  
قالا : لا يتيمم الجنب . وكان حكم الإذن في أن تنفر الحائض عند ابن عباس ولم يعلمه عمر  
ولا زيد بن ثابت . وكان غسل رأس المحرم معلوما عند ابن عباس وخفى عن السور بن  
نخعمة . ومثله كثير فلا يطول به .

التاسعة - قوله تعالى : ( إِنِّي وَجَدْتُ أُمَّرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ) لما قال المدهد :  
وَوَجَدْتُكَ مِنْ سَبِيلٍ بَيِّنِينَ ، قال سليمان : وما ذلك الخبر ؟ قال : « إِنِّي وَجَدْتُ أُمَّرَأَةً  
تَمْلِكُهُمْ » يعنى بلفظ بنت شراحيل تملك أهل سبيل . ويقال : كيف خفى على سليمان  
مكانها وكانت المسافة بين محطته وبين بلدها قرية ، وهى من سيرة ثلاث بين صنعاء ومأرب ؟  
والجواب أن الله تعالى أخفى ذلك عنه لمصلحة ، كما أخفى على يعقوب مكان يوسف . ويرى  
أن أحد أبويها كان من الجن . قال ابن العربي : وهذا أمر تنكره المصلحة ، ويقولون :  
الجن لا ياكلون ولا يلدون ، كذبوا لعنهم الله أجمعين ، ذلك صحيح ونكاحهم جائز عقلا فإن  
صح تقلا فيها ونعمت .

قلت : خرج أبو داود من حديث عبد الله بن مسعود أنه قال : قدم وفد من الجن  
هل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : يا عبد الله أشك أن يستنجوا بظلم أو روثة  
أو جمجمة فإن الله جاعل لنا فيها وزقا . وفي صحيح مسلم قال : « لكم كل عظم ذكر اسم الله  
عليه يقع في أيديكم أو فرما يكون لها وكل مرة طوف للدوابكم » فقال رسول الله صلى الله

عليه وسلم : " فلا تستنجوا بهما فإنهما طعام إخوانكم الجن " وفي البخاري من حديث أبي هريرة قال قلت : ما بال العظم والزوطة ؟ قال : " هما من طعام الجن وإنه لثاني وفدٍ من تصيين ونهم الجن فسألوني الزاد فدعوت الله تعالى ألا يمروا بعظم ولا زوطة إلا وجدوا عليها طعاما " وهذا كله نص في أنهم يطعمون . وأما نكاحهم فقد تقدمت الإشارة إليه في « سبحان » عند قوله : « وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ » - وروى وهيب بن جرير ابن حازم عن الخليل بن أحمد عن عثمان بن حضر قال : كانت أم بلقيس من الجن يقال لها بلعمة بنت شيسان . وسيأتي لهذا مزيد بيان إن شاء الله تعالى .

المانسرة - روى البخاري من حديث ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم لما ملئه أن أهل فارس قد ملكوا بنت كسرى قال : " لن يخلص قوم ولّوا أمرهم أمرأه " قال القاضي أبو بكر بن العربي : هذا نص في أن المرأة لا تكون خليفة ولا خلاف فيه ؛ ونقل عن محمد بن جرير الطبري أنه يجوز أن تكون المرأة قاضية ، ولم يصح ذلك عنه ، ولعله نقل عنه كما نقل عن أبي حنيفة أنها إنما تقضى فيما تشهد فيه وليس بأن تكون قاضية على الإطلاق ؛ ولا بأن يكتب لها مسطور بأن فلانة مقدمة على الحكم ، وإنما سبيل ذلك التحكم والاستنباط في القضية الواحدة ، وهذا هو الظن بأبي حنيفة وأبن جرير . وقد روى عن عمر أنه قدم أمراء على حلبة السوق . ولم يصح فلا تنفتوا إليه ، وإنما هو من دسائس المشدعة في الأحاديث . وقد تناظر في هذه المسئلة القاضي أبو بكر بن الطيب المالكي الأشعري مع أبي الفرج بن طرأ شيخ الشافعية ، فقال أبو الفرج : الدليل على أن المرأة يجوز أن تحكم أنه الفرض من الأحكام تنفيذ القاضي لها ، وسماع البينة عليها ، والفصل بين الخصوم فيها ، وذلك ممكن من المرأة كما مكانه من الرجل . فأعرض عليه القاضي أبو بكر ونقض كلامه بالإمامة الكبرى ؛ فإن الفرض منه حفظ الثغور ، وتدير الأمور وحماية اليقظة ، وقبض الخراج وردعه على مستحقه ، وذلك لا يتأتى من المرأة ككاتبته من الرجل . قال ابن العربي : وليس

كلام الشيخين في هذه المسئلة بشيء؛ فإن المرأة لا يتأق منها أن تبرز إلى المجلس، ولا تخالط الرجال، ولا تخاوضهم مفارقة النظر للنظر؛ لأنها إن كانت فتاة حرم النظر إليها وكلامها، وإن كانت برة لم يجعها والرجال مجلس واحد تزدحم فيه معهم، وتكون مناظرة لهم؛ ولن يفلح قط من تصور هذا ولا من اعتقده .

الحادية عشرة - قوله تعالى : ﴿ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ مبالغة؛ أي مما تحتاجه الملكة . وقيل : المعنى أوتيت من كل شيء في زمانها شيئا لحذف المفعول؛ لأن الكلام دل عليه . ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ أي سرير؛ ووصفه بالعظم في الهيئة ورتبة السلطان . قيل : كان من ذهب تجلس عليه . وقيل : العرش هنا الملك؛ والأول أصح؛ لقوله تعالى : « أَيُّكُمْ يُأْتِيَنِ بِثَرْثَبَةٍ » . الرخشي : فإن قلت كيف سوى المدهد بين عرش بلقيس وعرش الله في الإوصاف بالعظيم ؟ قلت : بين الوصفين بون عظيم؛ لأن وصف عرشها بالعظيم تعظيم له بالإضافة إلى عرش أبناء جنسها من الملوك، ووصف عرش الله بالعظيم تعظيم له بالنسبة إلى ما خلق من السموات والأرض . قال ابن عباس : كان طول عرشها ثمانين ذراعا، وعرشه أربعين ذراعا، وأرتفاعه في السماء ثلاثين ذراعا، مكلل بالدر والياقوت الأحمر، والزبرجد الأخضر . قتادة : وقوائمه لؤلؤ وجوهر، وكان مستورا بالسجاج والحرير، عليه سبعة منالين . مقاتل : كان ثمانين ذراعا، وأرتفاعه من الأرض ثمانون ذراعا، وهو مكلل بالجواهر . ابن إسحق : وكان يخدمها النساء، وكان يخدمها سقانة أمراء . قال ابن عطية : وللأزام من الآية أنها امرأة ملكت على مدائن اليمن، ذات ملك عظيم، وسرير عظيم، وكانت كافرة من قوم كفار .

الثانية عشرة - قوله تعالى : ﴿ وَجَنَّتْهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ قيل : كانت هذه الأمة ممن يعبد الشمس، لأنهم كانوا زنادقة فيما يروى . وقيل : كانوا مجوسا يعبدون الأنوار . وروى عن أنس بن مالك قال : قال المحدثون : « عرش » . قال المهدي :

(١) البرزة هنا : الكلمة التي لا تحجب أحجاب الثواب؛ وهي مع ذلك ضيقة مائة مجلس لناس ومحتشم .



عظيم مل هذا متعلق بما بعده، وكان ينبغي مل هذا أنت يكون عظيم أن وجدت؛ أي  
 وجودى إليها كآخرة. وقال ابن الأثيري: «وَلَمَّا عَرَّشَ عَظِيمٌ» وقف حسن، ولا يجوز  
 أن يقف مل «عرش» ويتدنى «عَظِيمٌ وَجَدَتْهَا» إلا على من فتح؛ لأن عظيمًا تمت لعرش  
 فلو كان متعلقًا بوجدتها لقلت عظيمة وجدت؛ وهذا حال من كل وجه. وقد حدثنى أبو بكر  
 محمد بن الحسين بن شهریار، قال: حدثنا أبو عبد الله الحسين بن الأسود البجلي، عن بعض  
 أهل العلم أنه قال: الوقف على «عرش» والابتداء «عظيم» مل معنى عظيم عبادتهم الشمس  
 والقمر. قال: وقد سمعت من يؤيد هذا المنصب، ويخرج بأن عرشها أحقر وأدق شأنًا من  
 أن يصفه الله بالعظيم. قال ابن الأثيري: والاختيار عندى ما ذكرته أولاً؛ لأنه ليس مل إسماعيل  
 عبادة الشمس والقمر دليل. وغير منكر أن يصف المسعد عرشها بالعظيم إذا رآه متاهي  
 الطول والمرض؛ وجريه على إعراب «عرش» دليل مل أنه نته. (وَزَيْنَ لَمْ الشَّيْطَانُ  
 أَعْمَلَهُمْ) أي ما هم فيه من الكفر. (فَصَدَّمُوا السَّيْلَ) أي عن طريق التوحيد. وَيَتَن  
 بهذا أن ما ليس بسبيل التوحيد فليس بسبيل ينفع به على التحقيق. (فَهُمْ لَا يَتَذَكَّرُونَ)  
 إلى الله وتوحيده.

الثلاثة عشرة — قوله تعالى: (أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ) فَرَأَى ابْنُ عَبَّاسٍ وَعَاصِمٌ وَحَمَزَةُ  
 «أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ» بتشديد «أَلَّا» قال ابن الأثيري: «فَهُمْ لَا يَتَذَكَّرُونَ» غير تام لمن شدد  
 «أَلَّا» لأن المعنى: وزين لهم الشيطان ألا يسجدوا. قال النحاس: هي «أن» دخلت عليها  
 «لا» و«أن» في موضع نصب؛ قال الأخفش: بهذين «أي وزين لهم ثلاثا يسجدوا لله.  
 وقال الكسائي: «ب» فصدم «أي فصدم ألا يسجدوا» وهو في الوجهين مفعول له.  
 وقال الزبيدي وعلي بن سليمان: «أن» بدل من «أعمالهم» في موضع نصب. وقال  
 أبو عمرو: و«أن» في موضع خفض مل البدل من السيل. وقيل العامل فيها «لا يتذكرون»  
 أي فهم لا يتذكرون أن يسجدوا لله؛ أي لا يسلطون أن ذلك واجب عليهم. وعلى هذا القول  
 «لا» زائدة؛ كقوله: «مَا مَلَكَ إِلَّا تَسْجُدَ» أي ما منك أن تسجد. وعلى هذه القراءة

فليس بموضع سجدة؛ لأن ذلك خبر عنهم بترك السجود، إما بالترين، أو بالصّد، أو بمنع  
الاعتناء. وقرأ الزهري والكسائي وغيرهما « أَلَّا تَسْجُدُوا لِلَّهِ » بمعنى ألا يهؤلاء أعبدوا،  
لأن « يا » ينادى بها الأسماء دون الأفعال. وأنشد سيويه :

يَا لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْأَقْوَامِ كُلِّهِمْ • وَالصَّالِحِينَ عَلَى سِمَانٍ مِنْ جَارٍ

قال سيويه : ( يا ) لعن اللعنة؛ لأنه لو كان لعنة لنصبها؛ لأنه كان يصير منادى مضافا، ولكن  
تقديره يا هؤلاء لعنة الله والأقوام على سيمان. وحكى بعضهم سمنا عن العرب : ألا يا أرحوا  
ألا يا أصدقوا. يريدون ألا ياقوم أرحوا أصدقوا؛ فعلى هذه القراءة « آجبدوا » في موضع  
جزم بالأمر والوقف على « أَلَّا يَا » ثم تبدى فنقول « آجبدوا ». قال الكسائي : ما كنت  
أسمع إلا شيخا يرمونها إلا بالتخفيف على نية للأمر. وفي قراءة عبد الله « أَلَّا هَلْ تَسْجُدُونَ لِلَّهِ »  
بالتاء والنون. وفي قراءة أبي « أَلَّا تَسْجُدُونَ لِلَّهِ » فهذان القراءةان حجة لمن خفف. الزجاج :  
وقراءة التخفيف تقتضي وجوب السجود دون التشديد. وأخيار أبو حاتم وأبو عبيدة  
قراءة التشديد. وقال : التخفيف وجه حسن إلا أن فيه أقطاع الخبر عن أمر سباء، ثم رجع  
بعد إلى ذكرهم، والقراءة بالتشديد خبر يتبع بعضه بعضا لا أقطاع في وسطه. ونحوه قال  
النعاس . قال : قراءة التخفيف بعيدة؛ لأن الكلام يكون معترضا، وقراءة التشديد يكون  
الكلام بها متسقا، وأيضاً فإن السواد على غير هذه القراءة؛ لأنه قد حذف منها ألفان،  
وإنما يختصر مثل هذا بحذف ألف واحدة نحو يا عيسى بن مريم . ابن الأنباري : وسقطت  
ألف « آجبدوا » كما سقطت مع هؤلاء، إذا ظهر، ولما سقطت ألف « يا » وأتصلت بها ألف  
« آجبدوا » سقطت، فقد سقطت دلالة على الاختصار وإثارة لما ينبغي ونقل ألفاظه. وقال  
الموهري في آخر كتابه : قال بعضهم إن « يا » في هذا الموضع إنما هو للتنبيه كأنه قال :  
ألا آجبدوا لله . فلما أدخل عليه « يا » للتنبيه متطت الألف التي في « آجبدوا » لأنها

(١) الألويس : « أَلَا » بالتخفيف على أنها للاستفتاح و « يا » حرف ندا، والنادى محذوف ؛ أي ألا يا قوم  
آجبدوا وسقطت ألف يا وألف الهمزة في « آجبدوا » وكتبت الياء صلة بالعين على خلاف القياس .

ألف وصل ، وفهبت الألف التي في « يا » لاجتماع الساكنين ؛ لأنها والسين ساكنتان .  
قال ذو الرمة :

أَلَا يَا أَسْلَمِي بِأَدَارَتِي عَلَى الْبَيْلِ • وَلَا زَالَ مُتَهَلًا بِمِجْرَعَانِكَ الْقَطْرِ

وقال الجرجاني : هو كلام معترض من المهدد أو سلبان أو من الله . أى ألا ليسجدوا ؟  
كقوله تعالى : « قُلِ الَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ » قيل : إنه أمر أى يغفروا .  
وتنظم على هذا كتابة المصحف ؛ أى ليس ها هنا نداء . قال ابن عطية : قيل هو من كلام  
المهدد إلى قوله « العظیم » وهو قول ابن زيد وابن إسحق ؛ وبمعنى بأنه غير مخاطب فكيف  
يتكلم فى معنى شرع . ويحتمل أن يكون من قول سليمان لما أخبره المهدد عن القوم .  
ويحتمل أن يكون من [ قول ] الله تعالى فهو اعتراض بين الكلامين وهو الثابت مع التأمل ،  
وقراءة التشديد فى « أَلَا » تعطى أن الكلام للمهدد ، وقراءة التخفيف تمنعه ، والتخفيف  
يفتضى الأمر بالسجود لله عز وجل للأمر على ما بيناه . وقال الزمخشري : فإن قلت أجمدة  
التلاوة واجبة فى القراءتين جميعاً أم فى إحدهما ؟ قلت : هى واجبة فيهما جميعاً ؛ لأن مواضع  
السجدة إما أمر بها ، أو مدح لمن أتى بها ، أو ذم لمن تركها <sup>(١)</sup> ، وإحدى القراءتين أمر  
بالسجود والأخرى ذم للترك .

قلت : وقد أخبرنا عن الكفار بأنهم لا يسجدون كما فى « الانشقاق » وسجد النبي صلى  
الله عليه وسلم فيها ، كما ثبت فى البخارى وغيره ، فكذلك « النمل » . والله أعلم . الزمخشري :  
وما ذكره الزجاج من وجوب السجدة مع التخفيف دون التشديد فغير مرجوع إليه .  
( الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَّ ) خَبَّ السماء قطرها ، وَخَبَّ الأرض كنوزها ونباتها . وقال قتادة :  
الخب السر . النحاس : وهذا أولى . أى ما غلب فى السموات والأرض ، ويدل عليه  
« مَا يُخْفُونَ وَمَا يُبْلِغُونَ » . وقرأ عكرمة ومالك بن دينار « الْخَبَّ » بفتح الباء من غير همز .  
قال المهدوى : وهو التخفيف القياسى ؛ وذكر من يترك الهمز فى الوقف . وقال النحاس :

(١) الزيادة من « الكتاب » . (٢) فى نسخ الأصل بالواو وهى قراءة العامة كاسمات .

وحكى أبو حاتم أن عكرمة قرأ « الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْأَ » بالف غير مهموزة، وزعم أن هذا لا يجوز في العربية، وأعلل بأنه إن خُففت الهززة أتت حركتها على الباء فقال « الْخَبْأُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » وأنه إن حوّل الهززة قل الخبْأَ بِإِسْكَانِ الْبَاءِ، وبصددها ياء . قال النحاس : وسمعت علي بن سليمان يقول سمعت محمد بن يزيد يقول : كان أبو حاتم دون أصحابه في النحو ولم يلحق بهم إلا أنه إذا خرج من بلده لم يلق أعلم منه . وحكى سيويه عن العرب أنها تبدل من الهززة ألفا إذا كان قبلها ساكن وكانت مفتوحة، وتبدل منها واوا إذا كان قبلها ساكن وكانت مضمومة، وتبدل منها ياء إذا كان قبلها ساكن وكانت مكسورة ؛ فنقول : هذا الِوَوُوعَجِبْتُ مِنَ الْوَوِي وَرَأَيْتُ الْوَوَا ؛ وهذا من وَثَّتَ يَدُهُ ؛ وكذلك هذا الْخَبْأُ وَعَجِبْتُ مِنَ الْخَبْأِ ؛ ورأيت الْخَبْأَ ؛ وإنما فعل هذا لأن الهززة خفيفة فبُذِلَ منها هذه الحروف . وحكى سيويه عن قوم من بني تميم وبني أسد أنهم يقولون : هذا الْخَبْأُ ؛ يضمون الساكن إذا كانت الهززة مضمومة ، ويثبوتون الهززة ويكسرون الساكن إذا كانت الهززة مكسورة ، ويضعون الساكن إذا كانت الهززة مفتوحة . وحكى سيويه أيضا أنهم يكسرون وإن كانت الهززة مضمومة ؛ إلا أن هذا عن بني تميم ؛ فيقولون : الرَّدْيُ<sup>(١)</sup> ؛ وزعم أنهم لم يضموا الدال لأنهم كرموا ضمة قبلها كسرة ؛ لأنه ليس في الكلام قِيلُ . وهذه كلها لغات داخلية على اللغة التي قرأ بها الجماعة ؛ وفي قراءة عبد الله « الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْأَ مِنَ السَّمَوَاتِ » و « من » و « في » يتعاقبان ؛ تقول العرب : لأستخرجن العلم فيكم يريد بئكم ؛ قاله الفراء . ( وَيَقْلُمُ مَا يُخْفُونَ وَمَا يُبْلِغُونَ ) قراءة السامة فيهما بياء ، وهذه القراءة تعطى أن الآية من كلام الملهد ، وأن الله تعالى خصه من المعرفة بتوحيده وجوب السجود له ، وإنكار مجردهم للشمس ، وإضافته للشيطان ، وتزيده لم ، ما خص به غيره من الطيور وسائر الحيوان ؛ من المعارف اللطيفة التي لا تكاد العقول الراجحة تهتدي لها . وقرأ الجحدري وعيسى بن عمر وحفص والكسائي « تُخْفُونَ » و « تُبْلِغُونَ » بإثاء على الخطاب ؛ وهذه القراءة تعطى أن الآية

(١) الرد، بمعنى السحاب .

من خطاب الله عز وجل لأمة محمد صلى الله عليه وسلم. (الله لا إله إلا هو ربُّ العرش العظيم)   
 قرأ ابن عيينة « العظيم » وقامنا لله . الباقون بالغض ننا العرش . وخص بالذكر لأنه   
 أعظم المخلوقات وما عداه في ضمه وقبضه .

الرابعة عشرة - قوله تعالى : ( سَنَنْظُرُ ) من النظر الذي هو التأمل والتصفح .   
 ( أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ) في مقاتل . و « كنت » بمعنى أنت . وقال :   
 « سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ » ولم يقل سنظر في أمرك ؛ لأن المحدث لما صرح بفسخ العلم في قوله :   
 « أَصَدَقْتَ بِمَا آمُتُ بِهِ » صرح له سليمان بقوله : سنظر أصدقت أم كذبت ، فكان ذلك   
 [ كفاء ] لما قاله .

الخامسة عشرة - في قوله : « أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ » دليل على أن الإمام   
 يجب عليه أن يقبل مذرعيته ، ويدبر العنوة عنهم في ظاهر أحوالهم بإطاع أعلامهم ؛   
 لأن سليمان لم يقاب المحدث حين اعتذر إليه . وإنما صار صدق المحدث مذكراً لأنه أخبر   
 بما يقتضي الجهاد ، وكان سليمان عليه السلام حبيب إليه الجهاد . وفي الصحيح : « ليس   
 أحد أحب إليه المذوم من الله من أجل ذلك أنزل الكتاب وأرسل الرسل » . وقد قبل عمر   
 مذر النعمان بن عدى ولم يعاقبه . ولكن للإمام أن يمتنع فك إذا تعلق به حكم من أحكام   
 الشريعة . كما فعل سليمان ؛ فإنه لما قال المحدث : « إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ   
 مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَقَدْ عَرِشٌ عَظِيمٌ » لم يستغزه الطمع ، ولا استجزه حب الزيادة في الملك إلى   
 أن يعرض له حتى قال : « وَجَدْتُنَا وَقَوْمَنَا يَجْسُودُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ » فناظره حيث قد   
 ماسح ، وطلب الانتباه إلى ما أخبر ، وتحصيل علم ما غاب عنه من ذلك ، فقال : « سَنَنْظُرُ   
 أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ » ونحوه ما رواه الصحيح عن المسود بن عمرمة ، حين   
 استشار عمر الناس في إبلان المرأة وهي التي يضرب بطنها فتلقى جنتها ؛ فقال المنيرة بن   
 شعبة : شهدت النبي صلى الله عليه وسلم قضى فيه بقرعة عبد أو أمة . قال فقال عمر : أيتي   
 بمن يشهد معك ؛ قال : فنهد له محمد بن مسلمة وفي رواية قال : لا يخرج حتى تأتي بالخروج   
 (١) في الأصول «جذام» والتصويب من «أحكام القرآن» لابن العربي .

من ذلك ؛ فخرجت فوجدت محمد بن مسلمة جلست به فتشهد . ونحوه حديث أبي موسى في الاستئذان وغيره .

السابعة عشرة - قوله تعالى : ( أَنْعَبَ وَيَكْأِي هَذَا قَالَتْهُ الْيَتِيمُ ) قال الزجاج : فيها خمسة أوجه « قَالَتْهُ الْيَتِيمُ » بإثبات الياء في اللفظ . وبجذف الياء وإثبات الكسرة دالة عليها « قَالَتْهُ الْيَتِيمُ » . وبضم الميم وإثبات الواو على الأصل « قَالَتْهُ الْيَتِيمُ » . وبجذف الواو وإثبات الضمة « قَالَتْهُ الْيَتِيمُ » . واللفظة الخامسة قرأ بها حنيفة بإسكان الميم « قَالَتْهُ الْيَتِيمُ » . قال النحاس : وهذا عند النحويين لا يجوز إلا على حيلة بعيدة تكون : يفتقر الوقف ؛ وصحت على بن سليمان يقول : لا تنفت إلى هذه العلة ، ولو جاز أن يصل وهو ينوي الوقف بلجاز أن يحذف الإعراب من الأسماء . وقال : « الْيَتِيمُ » على لفظ الجمع ولم يقل إليها ؛ لأنه قال : « وَجَدْتَهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ » فكانه قال : قالت له إلى الذين هذا دينهم ؛ أحيانا منه بأسر الدين ، وأستغلا به عن غيره ، وبني الخطاب في الكتاب على لفظ الجمع لذلك . وروى في قصص هذه الآية أن المدهد وصل فالتى دون هذه الملكة فحجب جدران ؛ فمد إلى كوة كانت بقوس صنتها لتدخل منها الشمس عند طلوعها لمضى جادتها إياها ، فدخل منها وروى الكتاب على بقرى وهي - لها يروى - نائمة ؛ فلما أنقبت وجدته فراعها ، وظنت أنه قد دخل عليها أحد ، ثم قامت فوجدت حالمها كما عهدت ، فنظرت إلى الكوة تهتما بأسر الشمس ، فرأت المدهد فصلت . وقال وهب وأبن زيد : كانت لما كوة مستقبلة مطلع الشمس ، فإذا طلعت صبحت ، فسد لها المدهد يمتاحه ، فأرغمت الشمس ولم تعلم ، فلما استبطلت الشمس قامت تنظر فرى الصحيفة إليها ، فلما رأت انطام آرمعت وخضمت ، لأن ملك سليمان عليه السلام كان في خاتمه ؛ فقرأته فجمعت الملا من قومها فغاطبهم بما يأتي بعد . وقال مقاتل : حمل المدهد الكتاب بمنقاره ، وطار حتى وقف على رأس المرأة وحولها الجنود والمساكر ، ففرق سامة والناس ينظرون إليه ، فركعت المرأة ورأسها فالتى الكتاب في حجرها .

السابعة عشرة - في هذه الآية دليل على إرسال الكتب إلى المشركين وتبليغهم الدعوة، ودعائهم إلى الإسلام . وقد كتب النبي صلى الله عليه وسلم إلى كسرى وقبصر وإلى كل جبار كما تقدم في « آل عمران » :

الثامنة عشرة - قوله تعالى : ( ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُمْ ) أمره بالتولي حسن أدب ليعني حسب ما يتأدب به مع الملوك . يعني : ولكن قريبا حتى ترى مراجعتهم ، قاله وهب بن منبه . وقال ابن زيد : أمره بالتولي يعني الرجوع إليه ، أي الله وأرجع . قال وقوله : « فَأَنْظُرْنَا مَا يَكُونُ » في معنى التقديم على قوله : « ثُمَّ تَوَلَّوْا » وأنصاق رتبة الكلام أظهر ، أي الله ثم تول ، وفي خلال ذلك فأنظر أي أنتظر . وقيل : فأعلم ، كقوله : « يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ » أي أعلم ماذا يرجعون أي يبيعون وماذا يردون من القول . وقيل : « فَأَنْظُرْنَا مَا يَكُونُ » بينهم من الكلام .

قوله تعالى : قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٣٦﴾  
إِنَّهُمْ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَى  
وَأَتَوْنِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾  
فيه ست مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ( قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ ) في الكلام حذف ، والمعنى : فذهب فالتقاء إليهم فسميها وهي تقول : « يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ » ثم وصفت الكتاب بالكريم إما لأنه من عند عظيم في قسما وقبوسهم فظلمته إجلالا لسلطان عليه السلام ، وهذا قول ابن زيد . وإما أنها أشارت إلى أنه مطبوع عليه بالخاتم ، فكرامة الكتاب ختمه ؛ وروى ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقيل : لأنه بدأ فيه بـ « بسم الله الرحمن الرحيم » وقد قال صلى الله عليه وسلم : « كل كلام لا يبدأ فيه بسم الله الرحمن الرحيم فهو أجفم » . وقيل : لأنه بدأ

فيه بنفسه ، ولا يضل ذلك إلا الجلة . وفي حديث ابن عمر أنه كتب إلى عبد الملك بن مروان يبايعه : من عدا الله لعبد الملك بن مروان أمير المؤمنين ؛ إلى آخره بالسبع والطاعة ما استطعت ، وإن نبي قد أتوا لك بذلك . وقيل : توجهت أنه كاتب جاء من السماء إذ كان الموصل طيارا . وقيل : « كريم » حسن ؛ كقوله : « ومقام كريم » أي مجلس حسن . وقيل : وصفته بذلك ؛ لما تضمن من لين القول والموصظة في الدماء إلى عبادة الله عز وجل ، وحسن الاستطاف والاستطاف من غير أن يتضمن سباً ولا لعناً ، ولا ما يثير الغضب ، ومن غير كلام فازل ولا مستغنى ؛ على عادة الرسل في الدماء إلى الله عز وجل ؛ ألا ترى إلى قول الله عز وجل لتبیه صل الله عليه وسلم : « أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْظِعَةِ الْحَسَنَةِ » وقوله لموسى وهرون : « قُولَا لَهُ قَوْلًا لَيًّا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَحْشَى » . وكلها وجوه حسان وهذا أحسنها . وقد روى أنه لم يكتب بسم الله الرحمن الرحيم أحد قبل سليمان . وفي قراءة [ عبد الله <sup>(١)</sup> ] « وَإِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ » بزيادة وار .

الثانية - الوصف بالكريم في الكتاب غاية الوصف ؛ ألا ترى قوله تعالى : « إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ » وأهل الزمان يصفون الكتاب بالخطير والأثير وبالبرور ؛ فإن كان ملك قالوا : المرز وأسطوا الكريم غفلة ، وهو أفضلها خصلة ، فاما الوصف بالعزيز فقد وصف به القرآن في قوله تعالى : « وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ . لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ » فهذه عزه . وليس لأحد إلا له ؛ فاجتنبوها في كتبكم ، وأجملوا بدمى العلى ؛ توفية لحق اللولية ، وحياطة للديانة ؛ قاله القاضي أبو بكر بن العربي .

الثالثة - كان رسم المتقدمين إذا كتبوا أن يسدوا بأنفسهم من فلان إلى فلان ، وبذلك جاءت الآثار . وروى الربيع عن أنس قال : ما كان أحد أعظم حرمة من النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان أصحابه إذا كتبوا بدوا بأنفسهم . وقال ابن سيرين قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن أهل فارس إذا كتبوا بدوا بغطائهم فلا يبدأ الرجل إلا بنفسه »

(١) في الأصل : « وفي قراءة أبي » وهو غالف لما عليه كتب التفسير ، فالمرى من أي أنه قرأ « أن من سليمان وأن بسم الله الرحمن الرحيم » بنح الهزلة وتحتف التون وصف الماء .



قال أبو الليث في كتاب «البيان» له: ولو بدأ بالكتاب إليه جاز، لأن الأمة قد أجمعت عليه وقوله لمصلحة رأوا في ذلك، أو نسخ ما كان من قبل، فالأحسن في زماننا هذا أن يبدأ بالكتاب إليه، ثم بنفسه، لأن البداية بنفسه تمتد منه استخفافا بالكتاب [إليه] وتكريها عليه؛ إلا أن يكتب إلى عبد من عبده، أو غلام من غلمانه.

الرابعة - وإذا ورد على إنسان كتاب بالتحية أو نحوها ينبغي أن يرد الجواب؛ لأن الكتاب من النائب كالسلام من الحاضر، وروى عن ابن عباس أنه كان يرى رد الكتاب واجبا كما يرى رد السلام. والله أعلم.

الخامسة - أغفوا على كتب «بسم الله الرحمن الرحيم» في ثلث الكتب والرسائل، وعلى ختمها؛ لأنه أبعد من الرتبة، وعلى هذا جرى الرسم، وبه جاء الأثر من عمر بن الخطاب أنه قال: «أما كتاب لم يكن غنوما فهو أغلف». وفي الحديث: «كرم الكتاب ختمه». وقال بعض الأدباء: هو ابن المقفع: من كتب إلى أخيه كتابا ولم يختمه فقد استخف به؛ لأن الختم ختم. وقال أنس: لما أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يكتب إلى النجم قيل له: «إنهم لا يقبلون إلا كتابا عليه ختم» فأصطح خاتما ونقش على فوهه (لا إله إلا الله محمد رسول الله) وكأني أنظر إلى ويبسه ويباضه في كفه.

السادسة - قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا بَسِّمُوا بِاللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» والله بالكسر فيهما أي وإن الكلام، أو إن مبتدأ الكلام «بسم الله الرحمن الرحيم». وأجاز الفراء «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا» بفتحهما جميعا على أن يكونا في موضع رفع بدل من الكتاب؛ بمعنى التي إلى أنه من سليمان. وأجاز أن يكونا في موضع نصب على حذف الناقص؛ أي لأنه من سليمان ولأنه؛ كأنها عالت كرمه بكونه من سليمان وتصديره بسم الله. وقرأ الأنشوب العقيلي - ومحمد بن السميع «أَلَا تَنْقُلُوا» بالفتح المعجمة؛ وروى عن وهب بن منبه؛ من غلا ينلو إذا تجاوز وتكبر. وهي راجعة إلى معنى قراءة الجماعة. «وَأَتَوَيْنَا فِي سُلَيْمِينَ» أي متفادين طائعين مؤمنين.

قوله تعالى : **قَالَتْ يَأْيُهَا الْمَلَأُ أَفْتُونُ فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ** ﴿٣٢﴾ **قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأَوْلُوا بِأُسْ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ** ﴿٣٣﴾ **قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَءَ أَهْلِهَا أُذَلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ** ﴿٣٤﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأول - قوله تعالى : **( قَالَتْ يَأْيُهَا الْمَلَأُ أَفْتُونُ فِي أَمْرِي )** الملاء أنشرف القوم وقد مضى في سورة البقرة ، القول فيه . قال ابن عباس : كان معها ألف قيل . وقيل : اثنا عشر ألف قيل مع كل قيل مائة ألف . والقيل الملك دون الملك الأعظم . فاخذت في حسن الأدب مع قومها ، ومشاورتهم في أمرها ، وأعلمتهم أن ذلك مطرد عندها في كل أمر يبرض ، بقولها : **( مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ )** فكيف في هذه النازلة الكبرى . فراجعها الملاء بما يقر عينها ، من إعلامهم إياها بالقوة والبأس ، ثم سلموا الأمر إلى نظرها ، وهذه محاورة حسنة من الجميع . قال قتادة : ذكر لنا أنه كان لها ثلثانة وثلاثة عشر رجلا هم أهل مشورتها ، كل وجل منهم على عشرة آلاف .

الثانية - في هذه الآية دليل على صحة المشاورة . وقد قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : **« وَتَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ »** في « آل عمران » إما استئانة بالأراء ، وإما مشاركة للأولياء . وقد مدح الله تعالى الفضلاء بقوله : **« وَأَسْرُمُ سُورَى بَيْنَهُمْ »** . والمشاورة من الأمر القديم وخاصة في الحرب ، فهذه بلقيس امرأة جاهلية كانت تبعد الشمس : **« قَالَتْ يَأْيُهَا الْمَلَأُ أَفْتُونُ فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ »** لتختبر عزمهم على مقاومة عدوهم ، وحزمهم فيما يقيم أمرهم ، وإمضاءهم على الطاعة لها ، بدلها بأنهم إن لم يسيئوا أنفسهم وأموالهم وديارهم دونها لم يكن لها طاقة بمقاومة عدوها ، وإن لم يمتنع أمرهم وحزمهم ويحكم كان ذلك حرا لعدوهم عليهم ، وإن لم تختبر ما عندهم ، وتعلم قدر عزمهم لم تكن على بصيرة

من أمرهم ، ووبخا كان في استبدادها برأيها وعن في طاعتها ، ودخيلة في تقدير أمرهم ، وكان في مشاورتهم وأخذ رأيهم عون على ما تريد من قوة شوكتهم ، وشقة مناقضتهم ، ألا ترى إلى قولهم في جوابهم : ﴿ تَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ . قال ابن عباس : كان من قوة أحسنم أنه يركض فرسه حتى إذا أخذ ضم تغذيه لحسه بقوة .

الثالثة - قوله تعالى : ﴿ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ سلموا الأمر إلى نظرها مع ما أظهرها لها من القوة والبأس والشدة ، فلما فعلوا ذلك أخبرت عند ذلك بفعل الملوك بالقرى التي يتقلبون عليها . وفي هذا الكلام خوف على قومها ، وحيلة واستنظام لأمر سليمان عليه السلام . ﴿ وَكَذَلِكَ يَقُولُونَ ﴾ قيل : هو من قول بلقيس تأكيداً للنبي الذي أرادته . وقال ابن عباس : هو من قول الله عز وجل مرةً محمد صلى الله عليه وسلم وأخته بذلك وخبراً به . وقال وهب : لما قرأت عليهم الكتاب لم تعرف اسم الله ، قالت : ما هذا ؟ قال بعض القوم : ما نظن هذا إلا عفريةً عظيمةً من الجن يقتدر به هذا الملك على ما يريد ، فسكتوه . وقال الآخر : أراهم ثلاثة من المفاريت ، فسكتوه ، فقال شاب قد علم : يا سيدي الملوك ! إن سليمان ملك قد أعطاه ملك السماء ملكاً عظيماً فهو لا يتكلم بكلمة إلا بدأ فيها بتسمية إلهه ، والله اسم ملك السماء ، والرحمن الرحيم نعوته ؛ ففعلها قالت : « أَتَوْنِي فِي أَمْرِي » فقالوا : « تَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ » في القتال « وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ » في الحرب واللقاء « وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ » ردوا أمرهم إليها لما جربوا على رأيها من البركة « فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ » فـ « قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً » أهانوا شرفها لتستقيم لهم الأمور ، فصدق الله قولها . « وَكَذَلِكَ يَقُولُونَ » قال ابن الأنباري : « وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً » هذا وقف تام ، فقال الله عز وجل تحقيقاً لقولها : « وَكَذَلِكَ يَقُولُونَ » وشبهه به في سورة « الأعراف » « قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ » ثم الكلام ، فقال فرعون : « فَأَنَّا تَأْمُرُونَ » ، وقال ابن شبر : هو قول بلقيس ، فالوقف « وَكَذَلِكَ يَقُولُونَ » أي وكذلك يفعل سليمان إذا دخل بلاده .

قوله تعالى : وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَظَرُوا بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٠﴾

فيه ست مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ( وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ ) هذا من حسن نظرهما وتديروهما ؛ أى إلى أحرب هذا الرجل بهدية ، وأعطيه فيها نفاس من الأموال ، وأغرب عليه بأمور الملكة ، فإن كان ملكا دناويا أراضاه المال وعملنا معه بحسب ذلك ، وإن كان نيا لم يرضه المال ولأزمتنا في أمر الدين ، فينبغي لنا أن تؤمن به وتبسه على دينه ، فبعت إليه بهدية عظيمة أكثر الناس في تفصيلها ، فقال سعيد بن جبير عن ابن عباس : أرسلت إليه بآنية من ذهب ، زرات الرسل الحيطان من ذهب فصعتر عندهم ما جاؤا به . وقال مجاهد : أرسلت إليه بآنية غلام وماتى جارية . وروى عن ابن عباس : بأنتى عشرة وصيفة مذكرين قد ألبسهم زى الغلمان ، وأتى عشر غلاما مؤنثين قد ألبسهم زى النساء ، وعلى يد الوصائف أطباق مسك وعبر ، وبأنتى عشرة نجبية تحمل لبن الذهب ، ويجوز زين إحداهما غير مثقوبة ، والأخرى مثقوبة تقبا معوجا ، وبقدح لاشئ فيه ، وبمصا كان يتوارثها ملوك حير ، وأخذت الهدية مع جماعة من قومها . وقيل : كان الرسول واحدا ولكن كان في صحبته أتباع وخدم . وقيل : أرسلت رجلا من أشراف قومها يقال له المنذر بن عمرو ، وضمت إليه رجلا ذوى رأى وعقل . والهدية مائة وصيف ومائة وصيفة ، قد خولف بينهم في اللباس ، وقالت للغلمان : إذا كنتم سليات فكلوه بكلام فيه تأنيث يشبه كلام النساء ، وقالت لجوارى : كلنه بكلام فيه غلط يشبه كلام الرجال ، فيقال : إن الهدىء جاء وأخبر سليات بذلك كله . وقيل : إن الله أخبر سليات بذلك ، فأمر منيان عليه السلام أن يسط من موضعه إلى قس فواخ ريلات الذهب والفضة ، ثم قال : أمة الله أب رأيت أحسن في البر والبحر ؟ قالوا : يا نبي الله رأينا في بحر كنا دواب مقلقة ألوانها . فما أجنحة وأمراف وتوامى ، فأمر بها فجاءت فشتت على عيين الميخان وعلى يسا وعلى لينات الذهب والفضة ، وألقوا لها صلواتنا ، ثم قال : لئن علمت بأولادكم ، فاقامهم - أحسن ما يكون من الشباب - من عيين

الميدان ويساره . ثم قد سليمان عليه السلام على كربه في مجلسه ، ووضع له أربعة آلاف كرسى من ذهب عن يمينه ومثلها عن يساره ، وأجلس عليها الأنبياء والعلماء ، وأمر الشياطين والجن والإنس أن يصطفوا صفوفا فرائح ، وأمر السباع والوحوش والطيور فأصطفوا فرائح عن يمينه وشماله ، فلما دنا القوم من الميدان ونظروا إلى ملك سليمان ، ورأوا الدواب التي لم تراعيهم أحسن منها تروث على لبنات الذهب والفضة ، تقاصرت إليهم أنفسهم ، وردوا ما معهم من الهدايا . وفي بعض الروايات : إن سليمان لما أمرهم بفرض الميدان بلبنات الذهب والفضة أمرهم أن يتركوا على طريقهم موضعا على قدر موضع بساط من الأرض غير مفروش ، فلما مروا به خافوا أن يتهموا بذلك فطرحوا ما معهم في ذلك المكان ، فلما رأوا الشياطين رأوا منظرا هائلا فظلموا ففزعوا وخافوا ، فقالت لهم الشياطين : جُوزُوا لا بأس عليكم ، فكانوا يمشون على كُردوس كُردوس من الجن والإنس والبهائم والطيور والسباع والوحوش حتى وقفوا بين يدي سليمان ، فنظر إليهم سليمان نظرا حسنا بوجه طلق ، وكانت قالت لرسولها : إن نظر إليك نظر مضرب فأعلم أنه ملك فلا يهلك منظره فأذا أعز منه ، وإن رأيت الرجل بشا لطيفا فأعلم أنه نبي مرسل فتفهم قوله ورد الجواب ، فأخبر الملعن سليمان بذلك على ما تقدم . وكانت عمدت إلى حقة من ذهب بغملت فيها دزة يتبعها غير متعوبة ، وخرزة معوجة الثقب ، وكتبت كتابا مع رسولها تقول فيه : إن كنت نيا فليزين الوصفاء والوصائف ، وأخبر بها في الحقة ، وعرضني رأس العصا من أسفلها ، وأذهب الدزة تقبا مستويا ، وأدخل خيط الخرزة ، وأملأ الفتح ماء من ندى ليس من الأرض ولا من السماء ، فلما وصل الرسول ووقف بين يدي سليمان أعطاه الملكة ففكر فيه ، وقال : أين الحقة ؟ فأتى بها ففكرها ، فأخبره جبريل بما فيها ، ثم أخبرهم سليمان . فقال له الرسول : صدقت ، فألقب الدزة ، وأدخل الخيط في الخرزة ، فقال سليمان الجن والإنس عن تقبها فحجزوا ، فقال للشياطين : ما الرأي فيها ؟ فقالوا : ترسل إلى الأرض ، بلغات الأرض فأخذت شمرة في فيها حتى خرجت من الجانب الآخر ، فقال لها سليمان : ما حاجتك ؟ قالت : تصبر رزقي في الشجر

فقال لها : لك ذلك . ثم قال سليمان : من لهذه الخُرزة يسلكها الخيط ؟ قالت دودة بيضاء : أنا لما يا نبي الله ؛ فأخذت الدودة الخيط في فيها ودخلت الثقب حتى خرجت من الجانب الآخر ؛ فقال لها سليمان : ما حاجتك ؟ قالت تجعل رزقي في القواكه ؛ قال : ذلك لك . ثم ميز بين النملان [ والجواري ] <sup>(١)</sup> . قال السدي : أصرهم بالوضوء ، فجعل الرجل يحدر الماء على اليد والرجل حذرا ، وجعل الجواري يصيبن من اليد اليسرى على اليد اليمنى ، ومن اليمنى على اليسرى ، فميز بينهم بهذا . وقيل : كانت البخارية تأخذ الماء من الآنية بإحدى يديها ، ثم تحمله على الأخرى ، ثم تضرب به على الوجه ، والغلام كان يأخذ الماء من الآنية يضرب به في الوجه ، والبخارية تصب على بطن ساعدها ، والغلام على ظهر الساعد ، والبخارية تصب الماء صبا ، والغلام يحدر على يديه ؛ فميز بينهم بهذا . وروى يعلى بن مسلم عن سعيد بن جبير قال : أرسلت بقيقس بمائة وصيفة ووصيف ، وقالت : إن كان نيا فسيعلم الذكور من الإناث ؛ فأمرهم فتوضؤوا ؛ فن توضأ منهم قيدا بمرقعه قبل كفه قال هو من الإناث ، ومن بدأ بكفه قبل مرقعه قال هو من الذكور ؛ ثم أرسل العصا إلى الهواء فقال : أي الرأسين سبق إلى الأرض فهو أصلها ، وأمر بالخليل فأجريت حتى عرقت وملأ القدح من مرقعها ، ثم رد سليمان الهدية ؛ فخرى أنه لما صرف الهدية إليها وأخبرها رسولها بما شاهد ؛ قالت تقومها : هذا أمر من السماء .

الثانية - كان النبي صلى الله عليه وسلم يقبل الهدية ويثيب عليها ولا يقبل الصدقة ؛ وكذلك كان سليمان عليه السلام وسائر الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين . وإنما جعلت بقيقس قبول الهدية أو ردّها علامة على مافي نفسها ؛ على ما ذكرناه من كون سليمان ملكا أو نبيا ؛ لأنه قال لها في كتابه : « أَلَا تَقُولُوا عَلَىٰ وَآثَرِي مُسْلِمِينَ » وهذا لا تقبل فيه فدية ، ولا يؤخذ عنه هدية ، وليس هذا من الباب الذي تقر في الشريعة عن قبول الهدية بسبيل ، وإنما هي رشوة وبيع الحق بالباطل ، وهي الرشوة التي لا محل . وأما الهدية المطلقة للتجيب والتواصل فإنها جائزة من كل أحد وعلى كل حال ، وهذا ما لم يكن من مشرك .

(١) الزيادة من « تحف الأنبياء » لتلى .

الثالثة - فإن كانت من مشرك قبي الحديث "ثبت من زيد المشركين" يعني يقدم وعطايهم. وروى عنه عليه السلام أنه قبلها كما في حديث مالك عن ثور بن زيد الديلي وغيره، قال جماعة من العلماء بالنسخ فيما، وقال آخرون: ليس فيها ناسخ ولا منسوخ، والمعنى فيها: أنه كان لا يقبل هدية من يطعم بالظهور عليه وأخذ بده ودخله في الإسلام، وهذه الصفة كانت حالة إيمان عليه السلام، فمن مثل هذا نرى أن قبل هديته حلال على الكف عنه، وهذا أحسن تأويل للعلماء في هذا، فإنه جمع بين الأحاديث. وقيل غير هذا.

الرابعة - الهدية مندوب إليها، وهي مما تورث المودة وتذهب العداوة؛ روى مالك عن عطاء بن عبد الله الخراساني قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "تصالحوا يذهب الغل وتهادوا تحابروا وتذهب الشحناء". وروى معاوية بن الحكم قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "تهادوا فإنه يضعف الود ويذهب بنوازل الصدر". وقال الدارقطني: تفرد به ابن أبي عمير عن أبيه عن مالك، ولم يكن بالرضى، ولا يصح عن مالك ولا عن الزهري. وعن ابن شهاب قال: بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "تهادوا بينكم فإن الهدية تذهب الشحناء". قال ابن وهب: سألت يونس عن الشيخة ما هي فقال: النمل. وهذا الحديث وصله الواقفي عثمان عن الزهري وهو ضعيف. وعلى الجملة: فقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقبل الهدية، وفيه الأسوة الحسنة. ومن فضل الهدية مع اتباع السنة أنها تزيد حازات النفوس، وتكسب المهدي والمهدي إليه رنة في اللقاء والجلوس. ولقد أحسن من قال: -

هدايا الناس بعضهم لبعض • تُؤلف في قلوبهم الوصالا  
وترد في الضمير هوى وودنا • وتكسبهم إذا حضروا جمالا  
آخر: إن الهدايا لها حظ إذا وردت • أحظى من الابن عند والده المالحب

الخامسة - روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "جسأوكم شركاؤكم في الهدية" واختلف في معناه؛ قيل: هو محمول على ظاهره. وقيل يشاركونهم على وجه

الكرم والمروءة ، فإن لم يفعل فلا يجبر عليه . وقال أبو يوسف : ذلك في الفواكه ونحوها .  
وقال بعضهم : هم شركاؤه في السرور ولا في الهديّة . والخبر محمول في أمثال أصحاب الصفة  
والخوارج والزبائط ؛ أما إذا كان قريبا من الفقهاء أخص بها فلا شركة فيها لأصحابه ، فإن  
اشركهم فذلك كرم وجود منه .

السادسة - قوله تعالى : ( فَتَنَّاظِرَةً ) أي متظرة ( يَمْرُجِعُ الْمُرْسَلُونَ ) قال قتادة :  
يرجعها الله أن كانت لعاقلة في إسلامها وشركها ؛ قد علمت أن الهديّة جمع موقعا من الناس .  
وسقطت الألف في « م » للفرق بين « ما » الخبرية . وقد يجوز إتيانها ؛ قال :  
على ما قام يشتدني لكم . تكسّر تمزج في رواية

قوله تعالى : فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَنُ قَالَ أُمِّدُونِي بِعَمَلٍ قَاسٍ وَأَنبِئْهُ اللَّهُ  
خَيْرَ مِمَّا ءَاتَيْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِبَدِيئَتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ  
بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾  
قَالَ يَأْتُيَا آلُكُمْ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾  
قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي  
ظَلِيهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ  
قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَلْذَا مِن فَضْلِ  
رَبِّي لَيْسَ لِي بِهِ شَيْءٌ بَلْ أَنشَكُرُكُمْ إِنِّي أَنشَكُرُكُمْ وَمَن شَكَرَ فَاغْنَاهُ يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ  
فَلَنَآ دَرِيٌّ عَنِّي كَرْيَمٌ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : ( فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَنُ قَالَ أُمِّدُونِي بِعَمَلٍ ) أي جاء الرسول سليمان بالهديّة قال :  
« أُمِّدُونِي بِعَمَلٍ » . قرأ حمزة ويعقوب والأعمش بنون واحدة مشددة وياء ثابتة بعدها .

(١) هو حسان بن المنذر جرجي فاذن بن عمرو بن غزوم وقوله :

وإن صلح فإن قالوا : \* وطلع العاتق إلى لسان



الباقون بنونين وهو اختيار أبي عبيد؛ لأنها في كل المصاحف بنونين . وقد روى أحمد بن  
 من نافع أنه كان يقرأ : « أَتُمِدُّونَ » بنون واحدة مخففة بعدها ياء في اللفظ . قال  
 ابن الأنباري : فهذه القراءة يجب فيها إثبات الياء عند الوقف ، ليصح لها موافقة هاء  
 المصحف . والأصل في النون التشديد ، تخفف التشديد من ذا الموضع كما خفف من :  
 أشهد أنك عالم ، وأصله : أنك عالم . وعلى هذا المعنى بنى الذي قرأ « يَسْأَلُونَ فِيهِمْ »  
 « أَسْأَلُونَ فِي اللَّهِ » . وقد قالت العرب : الرجال يضرِبون ويغصدون ، وأصله يضرِبون  
 ويغصدون ، لأنه إدغام يضرِبوني ويغصدوني قال الشاعر :

تَرْهِيْنِ وَالْجِدُّ مِنْكَ لِلنَّيْلِ . وَالْحَسْبُ وَالْبَطْمُ وَالْعَيْنَانِ

والأصل ترهينى تخفف . ومعنى « أَتُمِدُّونِي » أتريدونى مالا إلى ما تشاهدونه من أموال .  
 قوله تعالى : ( فَأَتَيْنَا اللَّهَ خَيْرِمَا آتَيْنَاكُمْ ) أى لما أعطانى من الإسلام والمملك والنبوة  
 خير مما أعطاكم ، فلا أفرح بالمال . و « آتَانِ » وقعت في كل المصاحف بغير ياء . وقرأ  
 أبو عمرو ونازع وحفص « آتَانِ اللَّهَ » بياء مفتوحة ؛ فإذا وقفوا حذفوا . وأما يعقوب  
 فإنه يثبتها في الوقف ويحذف في الوصل لالتقاء الساكنين . الباقر بن بزيار في الحاليين .  
 ( بَلْ أَنْتُمْ يَدَيُنَا تَقْرَعُونَ ) لأنكم أهل مفارقة ومكافرة في الدنيا .

قوله تعالى : ( أَرْجِعْ إِلَيْنَا ) أى قال سليمان للنفر بن عمرو أمير الوفد : أرجع إليهم  
 يهديتهم . ( فَلَنُؤَيِّنَنَّهُمْ مِّمَّنْ دُونِهَا ) لا قبل لهم بها ) لا م قسم والنون لها لازمة . قال النحاس :  
 وسقط أبا الحسن بن كيسان يقول : هي لا م تأكيد وكذا كان عنده أن اللامات كلها ثلاث  
 لا غير ؛ لا م تأكيد ، ولا م أمر ، ولا م خفض ؛ وهذا قول الحناني من النحويين ؛ لأنهم يردون  
 الشيء إلى أصله ؛ وهذا لا يتبع إلا لمن دُوب في العربية . ومعنى « لَا يُقْبَلُ لَهُمْ يَسَاءٌ »  
 أى لا طاقة لهم عليها . ( وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا ) أى من أرضهم ( آيَةً لَهُمْ فَاصْبِرُونَ ) .  
 وقيل : « منها » أى من قرية سبأ . وقد سبق ذكر القرية في قوله : « إِنَّ لِلْمَلُوكِ إِذَا دَخَلُوا

قُرْبَةً أَقْسَدُوهَا . . « أَفَلَا » قَدْ سَلَبُوا مَلِكَهُمْ وَعَزَمَهُ ، وَفَمَّ صَاحِرُونَ ، أَيْ مِهَاتُونَ  
 أَذْلَاءَ مِنَ الصَّغَرِ وَهُوَ الْقُلُوبُ لَمْ يَسْلَمُوا ، فَرَجَعَ إِلَيْهَا رَسُولُهَا فَأَخْبَرَهَا ، قَالَتْ : قَدْ عَرَفْتُ  
 أَنَّهُ لَيْسَ بِمَلِكَ وَلَا طَائِفَةٌ لَنَا بِقِتَالِ نَبِيٍّ مِنْ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ . ثُمَّ أَمَرَتْ بِرَشْمِهَا بِحُمَلٍ فِي سَبْعَةِ  
 آيَاتٍ بَعْضُهَا فِي جُوفِ بَعْضٍ ، فِي أَتْرَقَصَرٍ مِنْ سَبْعَةِ قُصُورٍ ، وَفَلَقَتْ الْأَبْوَابَ ، وَجَعَلَتْ  
 الْحَرَسَ عَلَيْهِ ، وَتَوَجَّهَتْ إِلَيْهِ فِي أَتْنَى عَشَرَ أَلْفَ قَيْلٍ مِنْ مُلُوكِ الْإِمْنِ ، تَحْتَ كُلِّ قَيْلٍ  
 مِائَةُ أَلْفٍ . قَالَ آيْنُ حَبَاسٍ : وَكَانَ سَلْيَانٌ مَهِيًا لَا يَجِدُا بَشِيءَ حَتَّى يَكُونَ هُوَ الَّذِي  
 يُسَالُّ عَنْهُ ، فَظَنَرَاتِ يَوْمَ رُحْبَا قَرِيْبَا مَنَّهُ ، قَالَ : مَا هَذَا ؟ قَالُوا : بِقَبْسٍ يَا نَبِيَّ اللَّهِ .  
 فَقَالَ سَلْيَانٌ لِحَنُودِهِ - وَقَالُوا هَبْ وَفِيهِ الْإِمْنُ - (أَيْكُمْ يَا بَنِي بَرَشْمَا قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَنِي مُسْلِمِينَ)  
 وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ شُعَادٍ : كَانَتْ بِقَبْسٍ عَلَى فَرْحٍ مِنْ سَلْيَانِ لَهَا قَالَ : « أَيْكُمْ يَا بَنِي بَرَشْمَا »  
 وَكَانَتْ خَلْفَتْ عَرَشَهَا بِبَاءً ، وَوَكَلَتْ بِهِ حَفْظَةً . وَقِيلَ : إِنَّمَا لَمَّا بَعَثَتْ بِالْمَدِيَةِ بَعَثَتْ رُسُلَهَا  
 فِي جَنْدِهَا لِنَاقِصِ سَلْيَانٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْقِتَالِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَهُمْ سَلْيَانٌ لَهَا إِنْ كَانَ طَالِبَ مَلِكٍ ،  
 فَلَمَّا عَلِمَ ذَلِكَ قَالَ : « أَيْكُمْ يَا بَنِي بَرَشْمَا » . قَالَ آيْنُ حَبَاسٍ : كَانَ أَمْرُهُ بِالْإِتْيَانِ بِالْعَرْشِ  
 قَبْلَ أَنْ يَكْتُبَ لِلْكَتَّابِ إِلَيْهَا ، وَلَمْ يَكْتُبْ إِلَيْهَا حَتَّى جَاءَهُ الْعَرْشُ . وَقَالَ آيْنُ حَبَاسٍ : وَظَاهَرِ  
 الْآيَاتُ أَنَّ هَذِهِ الْمَقَالَةَ مِنْ سَلْيَانٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِمَدِيَّتِهِ هَدَيْتَهَا وَرَدَّهَا لَهَا ، وَبَعَثَ الْمُدَّعِدَ  
 بِالْكَتَّابِ ، وَعَمِلَ هَذَا جُفُودُ الْمُتَوَلِّينَ . وَأَخَذُوا فِي فَائِذَةِ اسْتِعْدَادِ عَرَشِهَا ، فَقَالَ قَتَادَةُ :  
 ذَكَرَ لَهُ بِعَظْمٍ وَجُودَةٍ ، فَأَرَادَ اخْذَهُ قَبْلَ أَنْ يَعْصِمَهَا وَقَوْمَهَا الْإِسْلَامَ وَيَمْسِي أَسْوَاحَهُ ، وَالْإِسْلَامَ  
 عَلَى هَذَا الدِّينِ ، وَهُوَ قَوْلُ آيْنِ جَرَجٍ . وَقَالَ آيْنُ زَيْدٍ : اسْتَعْدَدَ لِيَرْبِحَ الْقُدْرَةَ الَّتِي هِيَ مِنْ  
 عِنْدِ اللَّهِ ، وَيَعْمَلَهُ دَلِيلًا عَلَى نُبُوَّتِهِ ، لِأَخْذِهِ مِنْ بَيْتِهَا دُونَ جَيْشٍ وَلَا حَرْبٍ ، وَ « مُسْلِمِينَ »  
 عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ بِمَعْنَى مُسْتَلِمِينَ ، وَهُوَ قَوْلُ آيْنِ حَبَاسٍ . وَقَالَ آيْنُ زَيْدٍ أَيْضًا : أَرَادَ أَنْ يَخْبِرَ  
 حَقْلَهَا وَلِهَذَا قَالَ : « نَكَّرُوا لَهَا عَرَشَهَا تَنْقَرُ أَنْتَهَيْدِي » . وَقِيلَ : خَلَقَتْ الْإِمْنُ أَنْ يَرْتَجِعَ بِهَا  
 سَلْيَانٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَيُؤَدِّهِ لَهَا مِنْهَا ، فَلَا يَزَالُونَ فِي السَّخَرَةِ وَالْخُلَعَةِ لِنَسْلِ سَلْيَانٍ قَالَتْ لِسَلْيَانٍ

في عقلها خيل؛ فأراد أن يتحننها برشها، وقيل: [أراد] أن يختبر صدق الملعن في قوله: «وَلَمَّا عَرَثَ غَاسِقٌ عَظِيمٌ» قاله الطبري. ومن قتادة: أحب أن يراه لما وصفه الملعن. والقول الأول عليه أكثر العلماء؛ لقوله تعالى: «قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ». ولأنها لو أرسلت لحظر عليه ما لم يأتني به إلا بإذنها. وروى أنه كان من فضة وذهب مرمحا بالياتوت الأحمر والجوهر، وأنه كان في جوف سبعة أيات عليه سبعة أغلاق.

قوله تعالى: (قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ) كنا قرأ الجمهور وقرأ أبو رجاء وعيسى التميمي «عِفْرِيتٌ» ورويت عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه. وفي الحديث: «إن الله يفيض العفريّة البُغريّة». إنباع لعفريّة. قال قتادة: هي الناعبة. قال النحاس: يقال للشديد إذا كان معه خبث ودهاء عفر وعفريّة وعفريت وعُفاريّة. وقيل «عفريت» أي رئيس. وقرأت فرقة «قَالَ عِفْرٌ» بكسر الهمزة، حكاه ابن عطية؛ قال النحاس: من قال عفريّة جمعه على عفار، ومن قال عفريت كان له في الجمع ثلاثة أوجه؛ إن شاء قال عفاريت، وإن شاء قال عفار؛ لأنّ النساء زائلة؛ كما يقال طواغ في جمع طاغوت، وإن شاء عوض من التاء ياء فقال عفاي. والعفريت من الشياطين القوي المارد. والنساء زائدة. وقد قالوا تَعَفَّرَتْ الرجل إذا تخلق بخلق الأنابة. وقال وهب بن منبه: اسم هذا العفريت كودن؛ ذكره النحاس. وقيل: ذكوان؛ ذكره السيل. وقال شعيب الجبائي: اسمه دعوان. وروى عن ابن عباس أنه حضر الجني. ومن هذا الاسم قول ذي الرمة:

كَأَنَّهُ كَوَكْبٌ فِي إِثْرِ عَفْسِرِيَّةٍ • مُصَوَّبٌ فِي سَوَادِ اللَّيْلِ مُتَغَيَّبٌ  
وَأَتَسَدُ الْكَسَائِيَّةِ:

إِذْ قَالَ شَيْطَانُهُمُ الْيَفْسِرِيَّةُ • لَيْسَ لَكُمْ مَلِكٌ وَلَا نَقِيْتُ

(١) ولي ديوانه طبع أورد «بمزم» بدل «مصوب» وهو يعني علم متغيب واليت في وصف نور وحشي؛  
كان التور كوكب مصوب متغيب في إثر عفريّة في سواد الليل. (٢) البيت لزوجة من قصيدة يمدح بها  
صلبة بن عبد الملك.

وفي الصحيح عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن عفريتاً من الجن جعل يفتك على البارية ليقطع على الصلاة وإن الله أمكنني منه فذعه " (١) وذكر الحديث .  
وفي البخاري " قلَّت على البارية " مكان " جِلس يفتك " . وفي " الموطأ " عن يحيى ابن سعيد أنه قال : أُمرى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرأى عفريتاً من الجن يطلبه بشعلة من نار ، كلما التفت رسول الله صلى الله عليه وسلم رآه ، فقال جبريل : أغلا أظلمك كلمات تقولن إذا قلتهن طُفئت شعله وترقبه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :  
" لي " قال : " أعوذ بالله الكريم وبكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما ينزل من السماء وشر ما يُعْرَج فيها [ وشر ما ذُرا في الأرض ، وشر ما يخرج منها ] ومن ين الليل والنهار ومن طوارق الليل والنهار إلا طارقاً يطرق بخير يارحم " .

قوله تعالى : ( أَنَا أَنبِئُكَ بِهُ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ ) يعني في جملة الذي يحكم فيه .  
( وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيَّ أُمِينٌ ) أي قوياً على حله . " أُمِينٌ " هل ما فيه . ابن عباس : أمين على فرج المرأة ؛ ذكره المهدوي . فقال : سليمان أريد أسرع من ذلك ؛ فد ( قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ) أكثر المفسرين على أن الذي عنده علم من الكتاب أصف بن برخيا وهو من بني إسرائيل ، وكان صديقاً يحفظ اسم الله الأعظم الذي إذا سئل به أعطى ، وإذا دعي به أجاب . وقالت عائشة رضي الله عنها قال النبي صلى الله عليه وسلم " إن أسم الله الأعظم الذي دعا به أصف بن برخيا يا حي يا قيوم " قيل : وهو بلسانهم ، أهايا شراهايا ؛ وقال الزهري : دعاه الذي عنده أسم الله الأعظم ؛ يا لها والله كل شيء لها واحداً لا إله إلا أنت أبتى بعشرها ؛ فسل بين يديه . وقال مجاهد : دعا فقال : يا لها والله كل شيء يا ذا الجلال والإكرام . قال السبيل : الذي عنده علم من الكتاب هو أصف بن برخيا ابن خالة سليمان ؛ وكان عنده أسم الله الأعظم من أسماء الله تعالى .

(١) التذك : الأخذ في ثقة وعديته . (٢) ذعه : أي دفعه دفعا شديدا . وفي رواية " ذعه " .

باللح المعبية ومسا عطفه . (٣) " قلَّت " أي تعرض لفتة أي بفتة . (٤) الزيادة من ( الموطأ ) .

وقيل : هو سليمان نفسه ؛ ولا يصح في سياق الكلام مثل هذا التأويل . قال ابن عطية :  
وقالت فرقة هو سليمان عليه السلام ، والمخاطبة في هذا التأويل للمفريت لما قال ،  
« أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَعْلَمَ مِنْ مَقَامِكَ » كأن سليمان استبطأ ذلك فقال له على جهة تحقير :  
« أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ » واستدل قائلوه هذه المقالة بقول سليمان :  
« هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي » .

قلت : ما ذكره ابن عطية قاله النحاس في معاني القرآن له ، وهو قول حسن إن شاء  
الله تعالى . قال بحر : هو ملك بيده كتاب المقادير ، أرسله الله عند قول المفريت . قال  
السهيلى : وذكر محمد بن الحسن المقرئ أنه ضَبَّ بن أَد ؛ وهذا لا يصح البتة لأن ضَبَّ  
هو ابن أَد بن طابخة ، وأسمه عمرو بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد ، ومعد كان في مدة  
بمختصر ، وذلك بعد عهد سليمان بدهر طويل ؛ فإذا لم يكن معد في عهد سليمان ، فكيف  
ضَبَّ بن أَد وهو بعده بمئة آباء ؟ ! وهذا بين لمن تأمله . ابن أبي عمير : هو الخضر عليه  
السلام . وقال ابن زيد : الذى عنده علم من الكتاب رجل صالح كان في جزيرة من جزائر  
البحر ، نخرج ذلك اليوم ينظر من ساكن الأرض ؟ وهل عبيد الله أم لا ؟ فوجد سليمان ،  
فدعا بأسم من أسماء الله تعالى بغيره بالعرش . وقول ساج : إنه رجل من بنى إسرائيل  
أسمه عليخا كان يعلم اسم الله الأعظم ؛ ذكره القشيري . وقال ابن أبي بزة : الرجل الذى  
كان عنده علم من الكتاب اسمه أسطوم وكان عابدا في بنى إسرائيل ؛ ذكره الغزوى .  
وقال محمد بن المنكدر : إنما هو سليمان عليه السلام ؛ أما إن الناس يرون أنه كان معه اسم  
وليس ذلك كذلك ؛ إنما كان رجل من بنى إسرائيل عالم آتاه الله علما وبقها قال : « أَنَا  
آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ » قال : هات . قال : أنت نبي الله ابن نبي الله فإن  
دعوت الله جاءك به ، فدعا الله سليمان بفناء الله بالعرش . وقول ثامن : إنه جبريل عليه  
السلام ؛ قاله النخعي ؛ وروى عن ابن عباس . وعلم الكتاب على هذا علمه بكتب الله المنزل ،  
أو بما في اللوح المحفوظ . وقيل : علم كتاب سليمان إلى بلقيس . قال ابن عطية : والذى

عليه الجمهور من الناس أنه رجل صالح من بني إسرائيل اسمه آصف بن برخيا؛ روى أنه صلى ركعتين، ثم قال سليمان: يا بني الله أمدد بصرك فذكره نحو اليمن فإذا بالعرش، فأردّ سليمان بصره إلا وهو عنده. قال مجاهد: هو إدامة النظر حتى يرتد طرفه خاسئا حسيرا. وقيل: أراد مقدار ما يفتح عينه ثم يطرف، وهو كما تقول: أفضل كذا في لحظة حين؛ وهذا أشبه؛ لأنه إن كان القمل من سليمان فهو معجزة، وإن كان من آصف أو من غيره من أولياء الله فهي كرامة، وكرامة الولي معجزة النبي. قال القشيري: وقد أنكر كرامات الأولياء من قال إن الذي عنده علم من الكتاب هو سليمان، قال للمفريت: «أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ». وعند هؤلاء ما فعل المفريت فليس من المعجزات ولا من الكرامات، فإن الجن يقدرّون على مثل هذا. ولا يقطع جوهر في حال واحدة مكانين، بل يتصور ذلك بأن يعدم الله الجوهر في أقصى الشرق ثم يعيده في الحالة الثانية، وهي الحالة التي بعد العدم في أقصى الغرب. أو يعدم الأماكن المتوسطة ثم يعيدها. قال القشيري: ورواه وهب عن مالك. وقد قيل: بل جاء به في الهواء، قاله مجاهد. وكان بين سليمان والعرش كما بين الكوفة والحيرة. وقال مالك: كانت باليمن وسليمان عليه السلام بالشام. وفي التفسير آخر: فخرق برش يلقبى مكانه الذي هو فيه ثم نزع بين يدي سليمان؛ قال عبد الله بن شداد: وظهر العرش من فوق تحت الأرض، فافقه أعلم أي ذلك كان.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ﴾ أي ثابتا عنده. ﴿قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي﴾ أي هذا النعم والتمكين من فضل ربى. ﴿لِيَلْوَنَ﴾ قال الأخفش: المعنى لينظر ﴿أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾. وقال غيره: معنى «لِيَلْوَنَ» ليتعبدى؛ وهو مجاز. والأصل في الابتلاء الاختبار أي ليختبى أأشكر نعمته أم أكفرها ﴿وَمَنْ شَكَرْنَا نَمَسْ بِشُكْرِ نَفْسِهِ﴾ أي لا يرجع نفع ذلك إلا إلى نفسه، حيث استوجب بشكره تمام النعمة ودوامها، والمزيد منها. والشكر قيد النعمة الموجودة، وبه تسأل النعمة المفقودة. ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ﴾ أي عن الشكر ﴿حَرِيمٌ﴾ في الفضل.

قوله تعالى : قَالَ نَكُرُّوْا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَنْتَبِئِىْ أَمْ تَكُوْنُ مِنَ  
الَّذِيْنَ لَا يَنْتَبِئُوْنَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ  
هُوَ وَأُوْتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِيْنَ ﴿٤٢﴾ وَصَلَّاهَا مَا كَانَتْ تُعْبِدُ  
مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِيْنَ ﴿٤٣﴾

قوله تعالى : ( قَالَ نَكُرُّوْا لَهَا عَرْشَهَا ) أى غيروه . قيل : جعل أعلاه أسفله ،  
وأصله أعلاه . وقيل : غير زيادة أو نقصان . قال الفراء وغيره : إنما أمر بتكبيره لأن  
الشياطين قالوا له : إن في عقلها شيئا فاراد أن يصححها . وقيل : خافت الجن أن يترج بها  
سليان فيولد له منها ولد فيبقون مسخرين لآل سليان أبدا ، فقالوا لسليان : إنها ضعيفة  
العقل ، ورجلها كرجل الحمار ، فقال : « نَكُرُّوْا لَهَا عَرْشَهَا » لتعرف عقلها . وكان لسليان  
ناصح من الجن ، فقال كيف لى أن أرى قدميها من غير أن أسألهما كشفها ؟ فقال : أنا أجعل  
في هذا القصر ماء ، وأجعل فوق الماء زجاجا ، تظن أنه ماء فترفع ثوبها ترى قدميها ،  
فهذا هو الصرح الذى أخبر الله تعالى عنه .

قوله تعالى : ( فَلَمَّا جَاءَتْ ) يريد بلقيس ، ( قِيلَ ) لها ( أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ )  
شبهته به لأنها خلفته تحت الأخلاق ، فلم تقر بذلك ولم تنكر ، فلم سليان كآل عقلها . قال  
عكرمة : كانت حكمة فقالت « كَأَنَّهُ هُوَ » . وقال مقاتل : عرفته ولكن شُبهت عليهم كما  
شبهوا عليها ؛ ولو قيل لها : أهذا عرشك لقالت نعم هو ؛ وقاله الحسن بن الفضل أيضا  
وقيل : أراد سليان أن يظهر لها أن الجن مسخرون له ، وكذلك الشياطين لتعرف أنها نبوة  
وتؤمن به . وقد قيل هذا في مقابلة تميميها الأمر في باب التللمان والحوارى . ( وَأُوْتِينَا الْعِلْمَ  
مِنْ قَبْلِهَا ) قيل : هو من قول بلقيس ؛ أى أوتينا العلم بصحة نبوة سليان من قبل هذه الآية  
في الرمش ( وَكُنَّا مُسْلِمِيْنَ ) متادين لأمره . وقيل : هو من قول سليان أى أوتينا العلم

بقدره الله على ما يشاء من قبل هذه المزة . وقيل : « وَأَوْتَيْنَا آلِمْلَمَ » بإسلامها وبجيبها طائفة من قبل مجيئها . وقيل : هو من كلام قوم سليمان . والله أعلم .

قوله تعالى : ( وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ) الوقف على « من دون الله » حسن ؛ والمعنى : منها من أن تعبد الله ما كانت تعبد من الشمس والقمر « ما » في موضع رفع . الخامس : المعنى ؛ أى صدها عبادتها من دون الله وعبادتها لإياها عن أن تعلم ما علمناه [ غن أن تسلم<sup>(١)</sup> ] . ويموز أن يكون « ما » في موضع نصب ، ويكون التقدير : وصدها سليمان عما كانت تعبد من دون الله ؛ أى حال بينها وبينه . ويموز أن يكون المعنى : وصدها الله ؛ أى منعها الله من عبادتها غيره لحذفت « عن » وتمضى الفعل . نظيره : « وأختر موسى قومه » أى من قومه . وأنشد سيويه :<sup>(٢)</sup>

وَبُنْتُ عَبْدَ اللَّهِ بِالْجَوْ أَصْبَحْتُ . كِرَامًا مَوَالِيَا لِنِيَا صِيْمَهَا

وزعم أن المعنى عنده نبئت عن عبد الله . ( إِنَّمَا كَانَتْ مِنْ قَوْمِ كَافِرِينَ ) فراع سعيد بن جبير « أنها » بفتح الميمزة ، وهى في موضع نصب بمعنى لأنها . ويموز أن يكون بدلا من « ما » فيكون في موضع رفع إن كانت « ما » فاعلة الصد . والكسر على الاستئناف .

قوله تعالى : قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِبَيَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ<sup>٣</sup> قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾

قول تعالى : ( قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ ) التقدير عند سيويه : أدخل إلى الصرح لحذف إلى وعدى الفعل . وأبو الباس ينقله في هذا ؛ قال : لأن دخل يدل على مدخول . وكان الصرح حصنا من زجاج تحته ماء وفيه الحيتان ، يحمله ليرى ملكا أعظم من ملكها ؛ قاله مجاهد .

(١) الزيادة من إعراب القرآن لنحاس .

(٢) البيت للهرزدق ، وأراد بعباد الله التولية ؛ وهى عبد الله بن دارم .



وقال قلعة : كان من قوارير خلقه ماء . حَيْثُ بَلَّغَهُ أَيْ ماء . وقيل : الصرح القصر ؛  
عن أبي عبيدة . كما قال :

• نَحْسِبُ أَمْلَاحَهُنَّ الصُّرُوحَا •

وقيل : الصرح الصحن ؛ كما يقال : هذه صُرْحَةُ البار وقاعتها ؛ بمعنى . وحكى أبو عبيدة  
في الغريب المصنف أن الصرح كل بناء عال مرتفع من الأرض ، وأن المرد الطويل . النحاس ؛  
أصل هذا أنه يقال لكل بناء عمل عملا واحدا صرح ؛ من قولهم : لبن صريح إذا لم يشبه ماء ؛  
ومن قولهم : صرَحَ بالأمْر ، ومنه : عرِى صريح . وقيل : عمله ليخبر قول الجن فيها إن  
أمرها من الجن ، ويرجلها رجل حار ؛ قاله وهب بن منبه . فلما رأَت الجنية فرغت وظلت  
أنه قصد بها الفرق ، وتنجبت من كون كرسبه على الماء ، ورأت ما حلما ، ولم يكن بد من  
امتثال الأمر ( وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِيهَا ) فإذا هي أحسن الناس ساقا ؛ سليمة مما قالت الجن ،  
غير أنها كانت كثيرة الشعر ، فلما بلغت هذا الحد ، قال لما سليات بعد أن صرف بصره عنها :  
« إِنَّهُ صَرَحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ » والمرد المحكوك المجلس ، ومنه الأمرد . وترد الرجل إذا أبطأ  
خروج لحبته بعد إدراكه ؛ قاله الفراء . ومنه الشجرة المرداء التي لا ورق عليها . ورملة مرداء  
إذا كانت لا تنبت . والمرد أيضا للطلول ، ومنه قيل للحصن مارد . أبو صالح : طويل على  
هيئة النخلة . ابن شجرة : واسع في طوله وعرضه . قال :

غدوت صباحا باكرا فوجدتهم • قيسل الضما في السابري المرد

أي الدروع الواسعة . وعند ذلك استسلمت بلقيس وأذعنت وأسلمت وأقرت على قسمها  
بالظلم ، على ما يأتي . ولما رأى سليات عليه السلام قدما قال لناحه من الشياطين :  
كيف لي أن أطلع هذا الشعر من غير مضرة بالجسد ؟ فله على عمل التورة ، فكانت التورة  
والحمامات من يومئذ . فيروى أن سليات تزوجها عند ذلك وأسكنها الشام ؛ قاله الضمك .

(١) البيت لأبي ذؤيب وهو بشار :

تمل طرق سكندرو قلبا • تحسب أملاحن الصروحا

يقول : هذه الطرق كنندرو القلباء في بشارها .

وقال سعيد بن عبد العزيز في كتاب الطغاس : تزوجها وردها إلى ملكها باليمن ، وكان يأتيها على الريح كل شهر مرة ؛ فولدت له غلاما سماه داود مات في زمانه . وفي بعض الأخبار أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " كانت بلقيس من أحسن نساء العالمين ساقين وهي من أزواج سليمان عليه السلام في الجنة " فقالت مائنة : هي أحسن ساقين مني ؟ فقال عليه السلام : " أنت أحسن ساقين منها في الجنة " ذكره القشيري . وذكر التلبي عن أبي موسى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أول من آتخذ الحمامات سليمان بن داود فلما ألحق ظهره إلى الجدار فسه حرها قال لأواه من عذاب الله " . ثم أحبها حبا شديدا وأفرها على ملكها باليمن ، وأمر الجن فبنوا لها ثلاثة حصون لم ير الناس مثلا أرفقاها : سلحون وبنون وعمدان ، ثم كان سليمان يزورها في كل شهر مرة ، ويقم عندها ثلاثة أيام . وحكى الشعبي أن ناسا من حبيز حضروا مقبرة الملوك ، فوجدوا فيها قبرا معقودا فيه امرأة عليها حُلل منسوجة بالذهب ، وعند رأسها لوح رخام فيه مكتوب :

يَا أَيُّهَا الْأَنْوَامُ حُوجُّوا سَاعِدًا . وَارْهَبُوا فِي مَقْبَرِي الْيَمِينَا  
تَعْلَمُوا أَنِّي تَمَكُّتُ السَّيِّئَاتِ . فَدَكَنْتُ أَدْعَى الْبَهْرِ بَلْقِيَا  
شَبَّتُ قَصْرَ الْمَلِكِ فِي حَبِيرٍ . قَوِي وَفَدَمًا كَانَ مَانُوسَا  
وَكُنْتُ فِي مَلِكِي وَتَدِيرِهِ . أُرْغِسُ فِي اللَّهِ الْمَعَاطِيَا  
بَتَلِي سُلَيْمَانَ النَّبِيَّ الَّذِي . قَدْ كَانَ لِلشُّورَةِ دَرَبَا  
وَنَحَرَ الرِّيحِ لَهُ مَرْكَبَا . تَهَبُّ أَحِبَانَا رَوَائِيَا  
مَعَ أَبِي دَاوُدَ النَّبِيِّ الْقَدِيِّ . قَدَسَ الرَّحْمَنُ تَقْدِيَا

وقال محمد بن إسحق ووهب بن منبه : لم يتزوجها سليمان ، وإنما قال لها : اختاري زوجا ؛ فقالت : مثلي لا ينكح وقد كان لي من الملك ما كان . فقال : لا بد في الإسلام من ذلك . فأختارت ذاتيغ ملك عمدان ، فزوجه لإياها وردها إلى اليمن ، وأمر زوجه أمير جن اليمن أن يطعمه ، ففنى له المصانع ، ولم يزل أميرا حتى مات سليمان . وقال قوم : لم يرد فيه خبر صحيح

لا في أنه تزوجها ولا في أنه زوجها . وهي بقيس بنت السرح بن الملهد بن شراحيل بن أدد  
 ابن حنن بن السرح بن الحرس بن قيس بن صيفي بن سبا بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن  
 عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح . وكان جدنا الملهد ملكا عظيم الشأن قد ولد له  
 أربعمائة ولما كلهم ملوك ، وكانت ملك أرض اليمن كلها ، وكان أبوها السرح يقول للملك  
 الأطراف : ليس أحد منكم كقزالي ، وأبي أن يتزوج منهم ، فزوجوه امرأة من اليمن  
 يقال لها ريمانة بنت السكي ، فولدت له بليقة وهي بقيس ، ولم يكن له ولد غيرها . وقال  
 أبو هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم : " كان أحد أبوي بقيس جنيا " فأت أبوها ،  
 واختلف عليها قومها فرقتين ، وملكوا أحرهم رجلا فسمت سيره ، حتى بلغ نساء رعيته ،  
 فأدركت بقيس الثيرة ، فرضت عليه نفسها فتزوجها ، فسقته الخمر حتى حزت رأسه ، ونصبته  
 على باب دارها فملكوها . وقال أبو بكر : ذكرت بقيس عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال :  
 " لا يطلع قوم ولوا أحرهم امرأة " .<sup>(١)</sup> ويقال : إن سبب تزوج أبيها من اليمن أنه كان وزيرا  
 لملك مات ينتصب نساء الرعية ، وكان الوزير غيورا فلم يتزوج ، فصحب مرة في الطريق رجلا  
 لا يعرفه ، فقال هل لك من زوجة ؟ فقال : لا أتزوج أبدا ، فإن ملك بلدنا ينتصب النساء  
 من أزواجهن ، فقال لمن تزوجت أبتى لا ينتصبا أبدا . قال : بل ينتصبا . قال : إنا قوم  
 من اليمن لا يقدر علينا ، فتزوج أبنته فولدت له بقيس ، ثم ماتت الأم وأبنت بقيس قصرا  
 في الصحراء ، فحدثت أبوها بحدثها غلطا ، فغضب الملك غضبا عظيما فقال له : يا فلان تكون عندك هذه  
 البنت الجيلة وانت لا تأتيني بها ، وأنت تعلم حيي لنساء ! ثم أمر بجيسته ، فأرسلت بقيس إليه  
 إلى بين يديك ، فتجهز السير إلى قصرها ، فلما تم بالدخول بمن معه أخرجت إليه الجوارى  
 من مئات اليمن مثل صورة الشمس ، وقلن له ألا تستحي ؟ ! تقول لك سيدتنا أنت دخل  
 بيؤلاء الرجال ملك على أهلك ! فأذن لهم بالأصراف ودخل وحده ، وأغفلت عليه الباب  
 وقتله بالقال ، وقطعت رأسه ودمت به إلى عسكره ، فأمروها طيما ، فلم تزل كذلك إلى أن

(١) الحديث مرور في البخاري ومسلم والطريق من طريق أبي بكر في أبي كرى ، وذلك أنه لما حج فحي  
 الله عليه وسلم أن قاربا ملكوا أبة كرى لما حاك قال صلى الله عليه وسلم : وإن يطلع قوم ولوا أحرهم امرأة " .

فَبَقِيَ الْمُهَدَّدُ خَبْرَهَا سَلِيَانٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَذَلِكَ أَنَّ سَلِيَانًا لَمَّا رَزَلَ فِي بَعْضِ مَنَازِلِهِ قَالَ الْمُهَدَّدُ :  
 إِنَّ سَلِيَانًا قَدْ أَشْتَفَلَ بِالْقُرُولِ ، فَأَرْتَجَحُ نَحْرَ السَّمَاءِ فَأَجْبُرُ طَوْلَ الدُّنْيَا وَعِصْرَهَا ، فَأَبْصُرُ الدُّنْيَا بَيْنَنَا  
 وَشِمَالَهَا ، فَرَأَى بَسْتَانًا لِبَقِيصٍ فِيهِ مُهَدَّدٌ ، وَكَانَ اسْمُ ذَلِكَ الْمُهَدَّدِ عَفِيرٌ ، فَقَالَ عَفِيرُ الْيَمَنِ  
 لِبِعْفُورِ سَلِيَانٍ : مَنْ أَيْنَ أَقْبَلْتُ ؟ وَأَيْنَ تَرِيدُ ؟ قَالَ : أَقْبَلْتُ مِنَ الشَّامِ مَعَ صَاحِبِي سَلِيَانِ بْنِ  
 دَاوُدَ . قَالَ : وَمَنْ سَلِيَانٌ ؟ قَالَ : مَلِكُ الْخَمَنِ وَالْإِنْسِ وَالشَّيَاطِينِ وَالطَّيْرِ وَالْوَحْشِ وَالرَّيْحِ  
 وَكُلِّ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ . لِمَنْ أَيْنَ أَنْتَ ؟ قَالَ : مِنْ هَذِهِ الْبِلَادِ ؛ مَلَكَهَا أَسْرَاءُ يُقَالُ لَهَا  
 بِقِيصٍ ، تَحْتَ يَدِهَا اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ قَبِيلٍ ، تَحْتَ يَدِ كُلِّ قَبِيلٍ مِائَةُ أَلْفٍ مُقَاتِلٍ مِنْ سِوَى النِّسَاءِ  
 وَالذَّرَارِيِّ ، فَأَنْطَلِقُ مَعَهُ وَنَظَرُ إِلَى بِقِيصٍ وَمَلَكَهَا ، وَرَجِعَ إِلَى سَلِيَانٍ وَقَتَ الْعَصْرِ ، وَكَانَ  
 سَلِيَانٌ قَدْ فَتَدَهُ وَقَتَ الصَّلَاةِ فَلَمْ يَجِدْهُ ، وَكَانُوا عَلَى غَيْرِ مَا هُوَ . قَالَ أَبُو عَبَّاسٍ فِي رِوَايَةٍ :  
 وَفُتِّتَ عَلَيْهِ نَفْعَةٌ مِنَ الشَّمْسِ . فَقَالَ لَوْزِيرُ الطَّيْرِ : هَذَا مَوْضِعُ مَنْ ؟ قَالَ : يَا نَبِيَّ اللَّهِ هَذَا  
 مَوْضِعُ الْمُهَدَّدِ . قَالَ : وَأَيْنَ ذَهَبَ ؟ قَالَ : لَا أَدْرِي أَصْلَحَ اللَّهُ الْمَلِكُ . فَغَضِبَ سَلِيَانٌ وَقَالَ :  
 « لَأُعَذِّبَنَّ عَذَابًا شَدِيدًا » الْآيَةَ . ثُمَّ دَخَلَ بِالْمُقَابِ سَيِّدَ الطَّيْرِ وَأَصْرَمَهَا وَأَشْدَّهَا بِأَسَا فَقَالَ :  
 مَا تَرِيدُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ ؟ فَقَالَ : عَلَى الْمُهَدَّدِ السَّاعَةَ . فَرَفَعَ الْمُقَابَ غَضَبَهُ دُونَ السَّمَاءِ حَتَّى لَزِقَ  
 بِالْهَوَاءِ ، فَنَظَرَ إِلَى الدُّنْيَا كَالْقَضْمَةِ بَيْنَ يَدَيِ أَحَدِكُمْ ، فَإِذَا هُوَ بِالْمُهَدَّدِ مُقْبِلًا مِنْ نَحْوِ الْيَمَنِ ،  
 فَأَقْبَضَ نَحْوَهُ وَأَنْتَبَهَ فِيهِ يَحْتَبِيهِ . فَقَالَ لَهُ الْمُهَدَّدُ : أَسْأَلُكَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ الَّذِي أَقْدَرَكَ وَقَوَّكَ عَلَى  
 إِلَّا مَا رَحِمَنِي . فَقَالَ لَهُ : الْوَيْلُ لَكَ ، وَنُكِّلْتُكَ أَمْرًا ! إِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ سَلِيَانٌ حَلَفَ أَنْ يَعْذِبَكَ  
 أَوْ يَذْبَحَكَ . ثُمَّ أَتَى بِهِ فَاسْتَقْبَلَهُ النَّسُورُ وَمِثْرَ صَاكِرِ الطَّيْرِ . وَقَالُوا الْوَيْلُ لَكَ ؛ لَقَدْ تَوَعَّدَكَ  
 نَبِيَّ اللَّهِ . قَالَ : وَمَا قَدَرِي وَمَا أَنَا ! أَمَا أَسْتَعْنِي ؟ قَالُوا : بَلَى ! إِنَّهُ قَالَ : « أَوْ لَيَأْتِيَنَّ رَسُولَانِ  
 مُبَيِّنِينَ » ثُمَّ دَخَلَ عَلَى سَلِيَانٍ فَرَفَعَ رَأْسَهُ ، وَارْتَضَى ذَنْبَهُ وَجَاحِيَهُ تَوَاضَعَا لِسَلِيَانٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ .  
 فَقَالَ لَهُ سَلِيَانٌ : أَيْنَ كُنْتَ عَنْ خِدْمَتِكَ وَمَكَانِكَ ؟ لَأُعَذِّبَنَّكَ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّكَ .  
 فَقَالَ لَهُ الْمُهَدَّدُ : يَا نَبِيَّ اللَّهِ ! أَذْكَرُ وَقَوْلَكَ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ بِتَمَلَّةٍ وَقَوْلِي بَيْنَ يَدَيْكَ . فَأَقْشَرَ  
 جِلْدَ سَلِيَانٍ وَأَرْتَمَهُ وَهَاضَهُ . وَقَالَ حِكْمَةُ : إِنَّمَا صَرَفَ اللَّهُ سَلِيَانًا عَنْ ذَنْبِ الْمُهَدَّدِ أَنَّهُ

كان باراً بوالديه، يتقل الطعام إليهما فيزئهما . ثم قال له سليمان : ما الذى أبغاك ؟ فقال  
 المنحد ما أخبر الله من بلقيس وعرشها وقومها حباً تقدم بيانه . قال المنورى :  
 والقول بأن أم بلقيس جنية مستكر من العقول لتأين الجنيين ، وأختلاف الطبعين ، وتفاوت  
 الجنيين ، لأن الآدمى جسمانى والجن روحانى ، وخلق الله الآدمى من صلصال كالفخار ، وخلق  
 الجن من نار ، ويمتع الأمتراج مع هذا التباين ، ويستحيل التماسل مع هذا الاختلاف .  
 قلت : قد مضى القول فى هذا ، والعقل لا يحمله مع ما جاء من الخبر فى ذلك ، وإذا  
 نظر فى أصل الخلق فأصله الماء على ما تقدم بيانه ، ولا بعد فى ذلك ، والله أعلم . وفى الترتيل  
 « وَشَارَكُوهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ » وقد تقدم . وقال تعالى : « لَمْ يَطْمِئِنَّ قُلُوبُكُمْ قَبْلَهُمْ  
 وَلَا بَأْسٌ عَلَى مَا بَآتَى فِي الرِّحْمِ » .

قوله تعالى : ( قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ) أى بالشرك الذى كانت عليه ، قاله  
 ابن شجرة . وقال سفيان : أى بالظن الذى توهمته فى سليمان ، لأنها لما أمرت بدخول  
 الصرح حبسه بلية ، وأن سليمان يريد تفريقها فيه . فلما بان لها أنه صرح بمرد من قوادير  
 علمت أنها ظلمت نفسها بذلك الظن . وكسرت « إن » لأنها مبتدأة بعد القول . ومن  
 العرب من يفتحها فيعمل فيها القول . ( وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ فِي رَبِّ الْعَالَمِينَ ) .  
 إذا سكنت « مع » فهى حرف جاء لمضى لا اختلاف بين النحويين . وإذا فتحتها ففيها قولان :  
 أحدهما - أنه بمعنى الظرف كسم . والآخر - أنه حرف خافض مبنى على الفتح ، قاله النحاس :

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ  
 فَإِذَا هُم فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿١٥﴾ قَالَ يَتَقَوَّمُ لَكُمْ نَسْتَعِجُونَ يَا لَيْسَ  
 قَبَلَ الْحَسَنِ كَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا أَطِيعُوا بَنِيكُمْ  
 وَمِنْ مَعَكُمْ قَالَ طَعْنُوهُمْ عِنْدَ اللَّهِ بِرَأْسِ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ( وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِهِمُ الْمَلَايِكَةَ أَنْ عِبُدُوا اللَّهَ ) هُتَم مَاء .  
 ( فَإِذَا هُمْ قَرِيبَانِ يَخْتَصِمُونَ ) قال مجاهد : أى مؤمن وكافر ، قال : والمقصودة ما نصه الله  
 تعالى فى قوله : « أَعْبُدُونَ اللَّهَ صَالِحًا مُرْسِلًا مِنْ رَبِّهِ » إلى قوله : « كَافِرُونَ » . وقيل :  
 تخاصمهم أن كل فرقة قالت : نحن على الحق دونكم .

قوله تعالى : ( قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ) قال مجاهد : بالمذاب  
 قبل الرحمة ، المعنى : لم تؤمنوا بالإيمان الذى يطلب إليكم الثواب ، وتقدمون الكفر الذى  
 يوجب العقاب ؛ فكان الكفار يقولون لفرط الإنكار : آيتنا بالمذاب . وقيل : أى لم  
 تفعلون ما تستحقون به العقاب ؛ لا أنهم أنتموا تمجيد المذاب . ( لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ )  
 أى هلا تنوبون إلى الله من الشرك . ( تَعْلَمُكُمْ تُرْحَمُونَ ) لكى ترجعوا ؛ وقد تقدم .

قوله تعالى : ( قَالُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا الْوَسِيلَةَ ) أى تشامتا . والشؤم النحس . ولا شئ .  
 أضر بالراى ولا أفسد للتدبير من اعتقاد الطيرة . ومن ظن أن خوار بقرة أو نبيق غراب  
 يرد قضاء ، أو يدفع مقدورا فقد جهل . وقال الشاعر :

طيرة الدهر لا ترد قضاء . فأعذر الدهر لا تشبه بلوع

أى يوم يخصه بسوء . والمنايا يترن فى كل يوم

ليس يوم إلا وفيه سوء . ونحو من تجرى لقوم فقور

وقد كانت العرب أكثر الناس طيرة ، وكانت إذا أرادت سفرا تقرب طائرا ، فإذا طار بينة  
 سارت وتيمت ، وإن طار شمالا رجعت وتشاءمت ، ففى النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك  
 وقال : « أَرَأَيْتُمُ الطَّيْرَ عَلَى وَكْائِهَا <sup>(١)</sup> عَلَى مَا تَقْدِمُ بَيَانَهُ فِي « الْمَائِدَةِ » <sup>(٢)</sup> . ( قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ )  
 أى مصائبكم . ( بَلْ أَنْتُمْ نَوْمٌ تَنْفَتُونَ ) أى تفتنون . وقيل : يهذبون بذنوبكم .

(١) الوكبات (بضم الكاف وضمة هاء وسكونها) جمع وكعة (السكون) أى من الملازى وركبه ويرى : « على مكائنها » .

(٢) راجع ج ٦ ص ٦٠ طبعة الأولى أو ثالثة .

قوله تعالى : وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : ( وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ ) أى فى مدينة صالح وهى الحجر ( تِسْعَةُ رَهْطٍ ) أى تسعة رجال من أبناء أشرانهم . قال الضحاك : كان هؤلاء التسعة عظماء أهل المدينة ، وكانوا يفسدون فى الأرض وبأمرهم بالفساد ، فجلسوا عند محبرة عظيمة قلبها الله عليهم . وقال عطاء بن أبى رباح : طغى أنهم كانوا يقرضون الدراهم والدنانير ، وذلك من الفساد فى الأرض ، وقوله سعيد بن المسيب . وقيل : صادهم أنهم يتبعون عورات الناس ولا يسترون عليهم . وقيل : غير هذا . واللازم من الآية ما قاله الضحاك وغيره أنهم كانوا من أوسه القوم وأقنأهم وأغناهم ، وكانوا أهل كفر ومعاصى جمّة ، وبجملّة أمرهم أنهم يفسدون ولا يصلحون . والرهط أسم للجماعة ، وكأنهم كانوا رؤساء يتبع كل واحد منهم رهط . واجمع أرهط وأراشط . قال :

باسؤس للمسرب السنى • وضعت أراشط فأستراحوا

وهؤلاء المذكورون كانوا أصحاب قدار عافر الناقة ، ذكره ابن عطية .

قلت : وأختلف فى أسمائهم ؛ فقال الغزوى : وأسمائهم قدار بن سالف ومصدع وأسلم ودسما ودهم وذعما وذعيم وقنال وصداق . ابن إسحق : رأسهم قدار بن سالف ومصدع ابن مهرج ، فأتبعهم سبعة ؛ هم بلع بن ميلج ودعير بن غم وذؤاب بن مهرج وأربعة لم تعرف أسمائهم . وذكر الزمخشري أسمائهم عن وهب بن منته : الهذيل بن عبد رب ، غم بن غم ، رباب بن مهرج ، مصدع بن مهرج ، عمير بن كردبة ، عاصم بن مخزومة ، سيط بن صدقة ، سمعان بن صفى ، قدار بن سالف ؛ وهم الذين سموا فى عقر الناقة ، وكانوا عتاة قوم صالح ، وكانوا من أبناء أشرانهم . السبيل : ذكر النفاش التسعة الذين كانوا يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ، وسماهم بأسمائهم ، وذلك لا ينضبط برواية ؛ غير أنى أذكره على وجه الاجتهاد

والتخمين، ولكن ذكره على ما وجدناه في كتاب محمد بن حبيب، وم : مصدح بن دهم. ويقال  
دم، وقندار بن سائق، وهرم وصواب ورياب ودباب ودعما وهرما ودمين بن عمير .  
قلت : وقد ذكر الماوردي اسمهم عن ابن جابر فقال : هم دعما ودمين وهرما  
وهرم ودباب وصواب ورياب ومسقط وقندار، وكانوا بأرض الجروحي الشام .

قوله تعالى : ( قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ) يجوز أن يكون « تَقَاسَمُوا » فعلا  
مستقبلا وهو أمر، أي قال بعضهم لبعض أحلفوا . ويجوز أن يكون ماضيا في معنى الحال  
كأنه قال : قالوا متقاسمين بالله، ودليل هذا التأويل قراءة عبد الله : « يُبَيِّتُونَ فِي الْأَرْضِ  
وَلَا يُبْلِغُونَ . تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ » وليس فيها « قَالُوا » . « لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ »  
قراءة العامة بالنون فهما واختاره أبو حاتم . وقرا حزة والكسائي بالياء فهما، وضم الياء واللام  
على الخطاب أي أنهم تخاطبوا بذلك؛ واختاره أبو عبيد . وقرا مجاهد وحيد بالياء فهما،  
وضم الياء واللام على الخبر . واليات مباغظة السدول . ومعنى « لِوَلِيِّهِ » أي لهط صالح  
الذي له ولاية الدم . ( مَا شَهِدْنَا مَهْلِكُ أَهْلِهِ ) أي ما حضرنه، ولا ندري من قتله وقتل أهله .  
( وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ) في إنكارنا لقتله . والمهْلِكُ بمعنى الإهلاك؛ ويجوز أن يكون الموضع .  
وقرا [ عاصم ] والسلي ( بفتح الميم واللام ) أي الملاك؛ يقال : ضرب بضرب مَضْرَبًا  
أي ضربه . وقرا المفضل وأبو بكر ( بفتح الميم وجر اللام ) فيكون اسم المكان كالمجلس لموضع  
الجلوس؛ ويجوز أن يكون مصدرا؛ كقوله تعالى : « إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ » أي رجوعكم .

قوله تعالى : وَمَكْرُؤًا مَكَرًا وَمَكْرَنَا مَكَرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَنْظُرْ  
كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٦﴾ فَتِلْكَ يَوْمَئِذٍ  
خَالِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَاتَّخِذْنَا الَّذِينَ  
كَافَرُوا وَكَانُوا بِشِقْوَتِهِمْ

(١) « مَكْرًا » بضم الميم وفتح اللام قراءة الجمهور . (٢) في الأصل : « وقرا خمس » ... الخ .  
وحسن بغيرها بفتح الميم وكسر اللام .



﴿وَمَكْرُؤًا مَّكْرًا وَمَكْرًا مَّكْرًا وَمَكْرًا مَّكْرًا﴾ مكرهم ما روى أن هؤلاء التسعة لما كان في صدر الثلاثة الأيام بعد قتل الناقة، وقد أخبرهم صالح بن يحيى، العذاب، أنهم قتلوا على أن يأتوا دار صالح ليلا ويقتلوه وأهله المختصين به، قالوا: فإذا كان كاذبا في وعيده أوقفنا به ما يستحق، وإن كان صادقا كنا نجلناه قبلنا، وشقينا نفوسنا، قاله مجاهد وغيره. قال ابن عباس: أرسل الله تعالى الملائكة تلك الليلة، فأتت بهم دار صالح، فأتى التسعة دار صالح شاهرين سيوفهم، فقتلهم الملائكة رمحا بالجارية فيرون الجارية ولا يرون من ربيها. وقال قتادة: خرجوا مسرعين إلى صالح، تسلط عليهم ملك بيده شجرة فقتلهم. وقال السدي: نزلوا على جرف من الأرض، فأتاهم فاهلكهم الله منته. وقيل: اختفوا في غار قريب من دار صالح، فأتهمدت عليهم حفرة شذختهم جميعا، فهنا ما كان من مكرهم. ومكر الله مجازاتهم على ذلك. ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْرِمِ﴾ أَنَا دَمَرْتَهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ أي بالصيحة التي أهلكتهم. وقد قيل: إن هلاك الكل كان بصيحة جبريل. والأظهر أن التسعة هلكوا بعذاب مفرد، ثم هلك الباقون بالصيحة والدمعة. وكان الأعمش والحسن وابن أبي إسحق وعاصم وحزمة والكاساني يقرمون «أَنَا» بالفتح، وقال ابن الأنباري: قيل هذا المذهب لا يحسن الوقف على «عَاقِبَةُ مُكْرِمٍ» لأن «أَنَا دَمَرْتَهُمْ» خبر كان. ويموز أن تجعلها في موضع رفع على الإتيان للعاقبة. ويموز أن تجعلها في موضع نصب من قول القراء، وخفض من قول الكاساني على معنى: بَأَنَا دَمَرْتَهُمْ وَلَأَنَا دَمَرْتَهُمْ. ويموز أن تجعلها في موضع نصب على الإتيان لموضع «كَيْفَ» فمن هذه المناصب لا يحسن الوقف على «مُكْرِمٍ». وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو: إِنَا دَمَرْتَهُمْ بكسر الهمزة على الاستئناف، قيل هذا المذهب يحسن الوقف على «مُكْرِمٍ». قال النحاس: ويموز أن ينصب «عَاقِبَةُ» على خبر «كان» ويكون «إَنَا» في موضع رفع على أنها اسم «كان». ويموز أن تكون في موضع رفع على إسماء مبتدأ تنبت للعاقبة، والتقدير: هي إنا دمرناهم، قال أبو حاتم: وفي حرف أبي «أَنَّ دَمَرْتَهُمْ» تصديقا لفتحها.

قوله تعالى : ( تِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا ) قراءة العامة بالنصب على الحال عند القراء والنحاس ؛ أى خالية عن أهلها خراباً ليس بها ساكن . وقال الكسائي وأبو عبيدة : « خَاوِيَةٌ » نصب على القطع ، مجازة : تلك بيوتهم انطاوية ، فلما قطع منها الآلاف واللام نصب على الحال ؛ كقوله : « وَلَهُ الَّذِينَ وَاصِبًا » . وقرا عيسى بن عمر ونصر بن عاصم والمجدي بالرفع على أنها خبر عن « تِلْكَ » و « بُيُوتُهُمْ » بدل من « تِلْكَ » . ويجوز أن تكون « بُيُوتُهُمْ » عطف بيان و « خَاوِيَةٌ » خبر عن « تِلْكَ » . ويجوز أن يكون رفع « خَاوِيَةٌ » على أنها خبر ابتداء محذوف ؛ أى هي خاوية ، أو بدل من « بُيُوتُهُمْ » لأن النكرة تبدل من المعرفة . ( إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . وَأَتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا ) بصالح ( وَكَانُوا يَتَّقُونَ ) الله ويخافون عقابه . قيل : آمن بصالح قدر أربعة آلاف رجل . والباقيون خرج بأبدانهم — في قول مقاتل وغيره — خُراج مثل الحصص ؛ وكان في اليوم الأول أحمر ، ثم صار من القند أصفر ، ثم صار في الثالث أسود . وكان عمر الناقة يوم الأربعاء ، وهلاكهم يوم الأحد . قال مقاتل : قعقت تلك الخراجات ، وصاح جبريل بهم خلال ذلك صيحة تلعلموا ، وكان ذلك ضحوة . وخرج صالح بن آمن معه إلى حضرموت ، فلما دخلها مات صالح ؛ فسميت حضرموت . قال الضحاك : ثم بنى الأريمة الآلاف مدينة يقال لها حاضروا ؛ على ما تقدم بيانه في قصة أصحاب الرس .

قوله تعالى : وَلَوْطَا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَفَبَشَرِكُمْ لَنَاؤُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُجْهَلُونَ ﴿٥٢﴾ قَدْ كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتْرَجُوا ءَالَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْاسٌ يَبْطِغُوهَا ﴿٥٣﴾ فَأَعْجَبْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنْ الْغَائِبِينَ ﴿٥٤﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : ( وَلَوْ كُنَّا إِذْ قَالُوا لَقَوْمِهِ ) أى وأرسلنا لوطا ، أو أذكركم لوطا . • إِذْ قَالُوا لَقَوْمِهِ • وهم أهل سدوم . وقال لقومه : ( أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ ) الفعلة الفاحشة الشنيعة ، ( وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ) أنها فاحشة ، وذلك أعظم لذنوبكم . وقيل : أتى بعضكم بعضا وأنتم تظنون إليه . وكانوا لا يستترون عتوا منهم وتمردا . ( إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ ) أعاد ذكرها لفرط قبحها وشنعها . ( بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ بِمِثْلُونِ ) إما أمر التحريم أو العقوبة . واختيار الخليل وميؤبه تخفيف المعزة الثانية من « أَنْتُمْ » فاما الخط فالسبيل فيه أن يكتب بالفتح على الوجوه كلها ؛ لأنها همزة مبتدأ دخلت عليها ألف الاستفهام .

قوله تعالى : ( قَسَاكَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْرَءُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْبَيْكُمْ أَنْتُمْ أَنْفُسُ بَاطِلُونَ ) أى عن أدبار الرجال . يقولون ذلك استهزاء منهم ؛ قاله مجاهد . وقال قتادة : عابوهم والله بنسب عيب بأنهم يظهرون من أعمال السوء . ( فَأَعْجِبْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَانَهُ قَدَرْنَا مِمَّنَ الْغَائِبِينَ ) وقرا عاصم « قَدَرْنَا » مخففا والمضى واحد . يقال قد قدرت الشيء قدرا وقدرا وقدرته . ( وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا قَسَاءً مَطَرُ الْمُتَنَذِرِينَ ) أى من أنذر فلم يقبل الإنذار . وقد مضى بيان هذا في « الأعراف » و « هود » .

قوله تعالى : قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ؕ اللَّهُ خَبِيرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ أَمِنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَبَاءً ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ؕ أَلَمْ نَعْلَمْ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٦﴾ أَمِنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خَلْقَهَا أَنْهْرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوْنِي وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ؕ أَلَمْ نَعْلَمْ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ﴾ قال القراء قال أهل المعاني : قيل للوط « قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ » على هلاكهم . وخالف جماعة من العلماء القراء في هذا وقالوا : هو مخاطبة لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ؛ أى قل الحمد لله على هلاك كفار الأمم الخالية . قال النحاس : وهذا أولى ، لأن القرآن منزل على النبي صلى الله عليه وسلم ، وكل ما فيه فهو مخاطب به عليه السلام إلا ما لم يصح معناه إلا لغيره . وقيل : المعنى ؛ أى « قُلْ » يا محمد « الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى » يعنى أمته عليه السلام . قال الكلبى : اصطفاهم الله بمعرفته وطاعته . وقال ابن عباس وسفيان : هم اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتلو هذه الآيات الناطقة بالبراهين على وحدانيته وقدرته على كل شئ . وحكته ، وأن يستفتح بتحميده والسلام على أنبيائه والمصطفين من عباده . وفيه تعليم حسن ، وتوقيف على أدب جميل ، وبعث على التيمن بالذكرين والتبرك بهما ، والاستظهار بمكانتهما على قبول ما يلقى إلى السامعين ، وإصنائهم إليه ، وإزالة من قلوبهم المزالة التى ينفها المستمع . ولقد توارث العلماء والخطباء والوعاظ كابرا عن كابر هذا الأدب ، فحمدوا الله وصلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أمام كل علم مفاد ، وقيل كل عظة وفى مفتاح كل خطبة ، وتبهم المترسلون فأجروا عليه أوائل كتبهم فى الفتح والتهانى ، وضم ذلك من الحوادث التى لها شأن .

قوله تعالى : « الَّذِينَ اصْطَفَى » اختار ؛ أى رسالته وهم الأنبياء عليهم السلام ؛ دليله قوله تعالى : « وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ » . ﴿ اللَّهُ خَيْرٌ ﴾ وأجاز أبو حاتم « اللَّهُ خَيْرٌ » بهمزة . النحاس : ولا نعلم أحدا تابعه على ذلك ؛ لأن هذه الملة إنما جىء بها فرقا بين الاستفهام والخبر ، وهذه ألف التوقيف ، و « خَيْرٌ » هنا ليس بمعنى أفضل منك ، وإنما هو مثل قول الشاعر :  
 أنتجوه ولسن له بكفه • فسر كما نلستك الفداء

فالذى قاله فى الشر منك الذى فيه الخير الفداء . ولا يجوز أن يكون بمعنى من لأنك إذا قلت : فلان شر من فلان قى كل واحد منهما شر . وقيل : للمعنى ؛ الخير فى هذا

أم في هذا الذي تتركونه في العبادة ! وحكي ميويه : السعادة أحب إليك أم الشقاء ؟ وهو يعلم أن السعادة أحب إليه . وقيل : هو على باب من التفضيل ، والمعنى : آفة خير أم ماتركون ، أى أتوابه خير أم عقاب ماتركون . وقيل : قال لم فك ، لأنهم كانوا يستغنون أن في عبادة الأصنام خيرا فخطبهم الله عز وجل على اعتقادهم . وقيل : اللفظ لفظ الاستهزاء ومعناه الخسر . وقرأ أبو عمرو وطامس ويقطوب : **يُشْرِكُونَ** ، يباه على الخسر . الباقون بآناء على الخطاب ، وهو اختيار أبي عبيد وابن حاتم ، فكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا قرأ هذه الآية يقول : **" بل الله خير وأبقى وأجل وأكرم "** .

قوله تعالى : **( أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ )** قال أبو حاتم : تحديده ، ألتكم خير أم من خلق السموات والأرض ، وقد تقدم . ومعناه : قدر على خلقهم . وقيل : المعنى ؛ أعبادة ماتعدون من أولادكم خير أم عبادة من خلق السموات والأرض ؟ فهو مردود على ما قبله من المعنى ؛ وفيه معنى التوبيخ لهم ، والتنبيه على قدرة الله عز وجل وعجزهم عنهم . **( فَأَتَيْنَاهُ فِي حَدَائِقِهِ ذَاتَ بَهْجَةٍ )** الحديقة البستان الذى عليه حائط . والبهجة المنظر الحسن . قال القرطبي : الحديقة البستان المحظر عليه حائط ، وإن لم يكن عليه حائط فهو البستان وليس بحديقة . وقال قتادة وعكرمة : الحدائق النخل ذات بهجة ، والبهجة الزينة والحسن ؛ يهيج به من رآه . **( مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرًا )** ما ، النفي ومعناه المحظر والنهي عن فعل هذا ؛ أى ما كان للبشر ، ولا نباتا لهم ، ولا يقع تحت قدرتهم ، أن ينبتوا شجرا ؛ إنهم عجزوا عن مثلها ، لأن ذلك إخراج الشيء من العدم إلى الوجود .

قلت : وقد يستدل من هذا على منع تصوير شيء سواء كان له روح أم لم يكن ؛ وهو قول مجاهد . ويضدّه قوله صلى الله عليه وسلم : **" قال الله عز وجل ومن أعظم ممن ذهب يخلق خلقا فيخلقوا ذرة أو ليخلقوا شجرة "** رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة ؛ قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول **" قال الله عز وجل "** فذكره ؛ فمهم العلم والتحديد والتفصيل كل من تعاطى تصوير شيء مما خلقه الله وضاعده في التشويه في خلقه

فيا أقربه سبحانه من الخلق والاختراع وهذا واضح . وذهب الجمهور إلى أن تصوير ما ليس فيه روح يحسوز هو والاكتساب به . وقد قال ابن عباس للذي سأله أن يصنع الصورة : إن كنت لابد فاعلا فاصنع الشجر وما لا نفس له ؛ خريجه مسلم أيضا . والمخ أولى والله أعلم لما ذكرنا . وسأيت لهذا مزيد بيان في «سبأ» إن شاء الله تعالى . ثم قال على جهة التوبيخ : (أَيُّ إِلَهٍ مَعَ اللَّهِ) أي هل معبود مع الله عينه على ذلك . (بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعِدُونَ) بالله غيره . وقيل : «يَعِدُونَ» عن الحق والتقص ؛ أي يكفرون . وقيل : «إِلَهُ» مرفوع بجمع تقديره : أمع الله ويلكم إله . والوقف على «مَعَ اللَّهِ» حسن .

قوله تعالى : (أَمَّنْ جَمَلَ الْأَرْضِ قَرَارًا) أي مستقرا . (وَجَمَلَ خِلَافًا أَنْهَارًا) أي وسطها مثل «وَجَرَّتَا خِلَافَهُمَا نَهْرًا» . (وَجَمَلَ لَهَا رَوَاسِيَ) يعني جبالا ثوابت تمسكها وتمتصها من الحركة . (وَجَمَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا) مانعا من قدرته لئلا يختلط الأجاج بالعذب . وقال ابن عباس : سلطانا من قدرته فلا هذا ينير ذاك ولا ذاك ينير هذا . وانحصر المنع . (أَيُّ إِلَهٍ مَعَ اللَّهِ) أي إذا ثبت أنه لا يقدر على هذا غيره فلم يعبدون مالا يضر ولا ينفع . (بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) يعني كأنهم يجهلون الله فلا يعلمون ما يجب له من الرحمانية .

قوله تعالى : أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُ لَكُم خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمَّنْ يَهْدِيكَ فِي ظُلُمَاتٍ أَلْوَىٰ وَكَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣٨﴾ أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ قُلْ مَا تَوْفَرُمْشَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٩﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ( **أَنْتَ يُبَيِّبُ الْمَضْطَرُ إِذَا دَعَا** ) قال ابن عباس : هو ذو الضرورة المجهود . وقال السدي : الذى لا حول له ولا قوة . وقال ذو النون : هو الذى قطع الملاقى عما دون الله . وقال أبو جعفر وأبو عثمان النيسابورى : هو النفس . وقال سهل ابن عبد الله : هو الذى إذا رفع يديه إلى الله داعيا لم يكن له وسيلة من طاعة قنمها . وجاء رجل إلى مالك بن دينار فقال : أنا أسألك بالله أن تدعولى فانا مضطر ، قال : إذا فأسأله فإنه يبيب المضطر إذا دعاه . قال الشاعر :

وَأِنِّى لَأَدْعُو اللَّهَ وَالْأَمْرُ ضَيِّقٌ • عَلَى مَا يَنْفَكُ أَنْ يَنْفَرَجَا  
وَرُبَّ أَحْسَنَ شَيْءٍ عَلَيْهِ وَجْهُهُ • أَصَابَ لَمَّا لَمَّا دَعَا اللَّهَ حَمِيْرًا

الثانية - وفى مسند أبى داود الطيالسى عن أبى بكره قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى دعاء المضطر : " اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين وأصلح لي شأني كله لا إله إلا أنت " .

الثالثة - ضمن الله تعالى إجابة المضطر إذا دعاه ، وأخبر بذلك عن نفسه ، والسبب فى ذلك أن الضرورة إليه بالبقاء ينشأ عن الإخلاص ، وقطع القلب عما سواه ، والإخلاص عنده سبحانه موقع دفعة ، وجد من مؤمن أو كافر ، طائع أو فاجر ، كما قال تعالى : « حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَبَرِّيْنِ بَيْنَ يَدَيْ طَيْفَةٍ وَفَرَحُوا بِهَا جَمَاعًا رَجَّ عَصِيفٌ وَجَاعَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُخِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَجَبْنَاهُمْ مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ » وقوله : « فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ » فاجلبهم عند ضرورتهم ووقعوا إخلاصهم ، مع علمه أنهم يهودون إلى شركهم وكفرهم . وقال تعالى : « فَلَمَّا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ » فيجيب المضطر لموضع أخطائه وإخلاصه . وفى الحديث : « ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن دعوة المظلوم ودعوة المسافر ودعوة الوالد على ولده » ذكره صاحب الشهاب ، وهو حديث صحيح . وفى صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لحماذ لما وجهه إلى أرض اليمن « وَأَتَى دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَلَيْسَ بِهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ »

وفي كتاب الشعب : « آهوا دعوة المظلوم فإنها عمل على التمام فيقول الله تبارك وتعالى وعزني وجلالي لأصرتك ولو بعد حين » وهو صحيح أيضا . - نخرج الأجرى من حليت أبي ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم : « ثَلَاثٌ لَا أَرُدُّهَا وَلَوْ كَانَتْ مِنْ فَمِ كَافِرٍ » فيجيب المظلوم لموضع إخلاصه ضرورته بمقتضى كرمه ، وإجابة لإخلاصه وإن كان كافرا ، وكذلك إن كان قاطرا في دينه ، فنجور الفاجر وكفر الكافر لا يعود منه قص ولا وزن على مملكة سيده ، فلا يمنعه ما قضى للضر من إجابته . - وفسر إجابة دعوة المظلوم بالنصرة على ظالمه بما شاء سبحانه من قهر له ، أو اقتصاص منه ، أو تسليط ظالم آخر عليه بقهره كما قال عز وجل : « وَكَذَلِكَ نُؤَيِّدُ بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا » وأكد سرعة إجابته بقوله : « نَجْعَلُ عَلَى الْغَامِ وَمَعْنَاهُ والله أعلم أن الله عز وجل يؤكل ملائكته ثلثي دعوة المظلوم وبمجهلها على التمام ، فيعرجوا بها إلى السماء ، والسماء قبلة الدعاء ليرأها الملائكة كلهم ، فيظهر منه ماونة المظلوم ، وشفاعته منهم له في إجابة دعوته ، رحمة له . - وفي هذا تحذير من الظلم بحلة ، لما فيه من سخط الله ومعصيته وخالفه أمره ، حيث قال على لسان نبيه في صحيح مسلم وغيره : « يا عبادي أتى حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا » الحديث . فالمظلوم مضطرب ، ويقرب منه المسافر ، لأنه منقطع عن الأهل والوطن ، منفرد عن الصديق والحميم ، لا يسكن قلبه إلى مسعد ولا معين لغيره ، فتصدق ضرورته إلى المولى ، فيخلص إليه في الجاه ، وهو المحبب للضر إذا دعاه ، وكذلك دعوة الوالد على ولده ، لا تصدر منه مع ما يعلم من حته عليه وشفته ، إلا عند تكامل عجزه عنه ، وصدق ضرورته ، وإيأسه من برؤله ، مع وجود أذيته ، يسرع الحق إلى إجابته .

قوله تعالى : ( وَيَكْشِفُ السُّوءَ ) أى الضر . وقال الكلبي : الجور . ( وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ) أى سكانها يهلك قوما وينشئ آخرين . وفي كتاب النقاش : أى ويجعل أولادكم خلفا منكم . وقال الكلبي : خلفا من الكفار يتولون أرضهم ، وطاعة الله بعد كفرهم . ( أَلَا مَعَ اللَّهِ ) على جهة التوبيخ ، كأنه قال أيع الله ويملك له ، فـ « والله » صريح ومع .



ويحوز أن يكون مرفوعا بإضمار الله مع الله فعل ذلك تعبدوه . والوقف مل « مع الله »  
حسن . ( قِيلَ مَا تَدْكُرُونَ ) قرأ أبو عمرو وحشام ويعقوب « يَدْكُرُونَ » بإلقاء على الخبر ،  
كقوله : « بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » و « تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ » فأخبر فيها قبلها ويدها ،  
واختاره أبو حاتم . الباقون بآلاء خطابا لقوله : « وَيَسْأَلُكُمْ خَلْقَاءُ الْأَرْضِ » .

قوله تعالى : ( أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ ) أي يرشدكم الطريق ( فِي ظُلُمَاتٍ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ) إذا سافرتهم  
إلى البلاد التي تنوجهون إليها بالليل والنهار . وقيل : وجعل مغاور البر التي لا أعلام لها ،  
ولبح البحار كأنها ظلمات ؛ لأنه ليس لها علم يهتدى به . ( وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحُ تَنْشِيرًا يَهْدِي  
رَحْمَتَهُ ) أي قدام المطر بأفئاق أهل التأويل . ( أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ ) فعل ذلك وبينه عليه ،  
( تَسْأَلُ اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ) من دونه .

قوله تعالى : ( أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ) كانوا يقولون أنه انطلق الرزق فالزمهم  
الإعادة ؛ أي إذا قدر على الابتداء فمن ضروره القدرة على الإعادة ، وهو أهون عليه .  
( أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ ) يخلق ويرزق ويسدئ ويعيد : ( قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ) أي هجئكم أن لي  
شريكا ، أو هجئكم في أنه صنع أحد شيئا من هذه الأشياء غير الله ( إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ) .

قوله تعالى : قُلْ لَا يَعْلَمُ عَنِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ  
إِلَّا اللَّهُ وَمَا يُسْأَرُونَ أَبَاقًا يَعْنُونَ ﴿٦٥﴾ بَلْ أَدْرَكَ عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ  
بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾

قوله تعالى : ( قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ) . وعن بعضهم :  
أخفى غيبه على الخلق ، ولم يطلع عليه أحد فلا يامن أحد من عبده مكره . وقيل :  
نزلت في المشركين حين سألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن قيام الساعة . و « من »  
في موضع رفع ؛ والمعنى : قل لا يعلم أحد الغيب إلا الله ؛ فإنه يدل من « من » قاله الزجاج .

(١) « تنزل » بالنون على قراءة نافع . وفي سبع قراءات ؛ رابع ٧ ص ٩٢٢ طبة أول أو ثانية .

الفراء : وإنما رفع ما بعد « إلا » لأن ما قبلها بحمد ، كقوله : ما ذهب أحد إلا أبوك ، والمعنى واحد . قال الزجاج : ومن نصب نصب على الاستثناء ، يعني في الكلام . قال النحاس : وسننتج يحتاج هذه الآية على من صدق منجما ، وقال : أخاف أن يكفر بهذه الآية . قلت : وقد مضى هذا في « الأنعام » مستوفى . وقالت عائشة : من زعم أن محمدا يعلم ما في غد فقد أعظم على الله الفرية ، والله تعالى يقول : « قُلْ لَا يَسْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ النَّبِيُّ إِلَّا اللَّهُ » ترجمه مسلم . وروى أنه دخل على الججاج منجم فاعتقه الججاج ، ثم أخذ حصيات فعدهن ، ثم قال : كم في يدي من حصاة ؟ غلب المنجم ثم قال : كذا ، فأصاب . ثم اعتقه فأخذ حصيات لم يعدهن فقال : كم في يدي ؟ غلب فأخطأ ثم حسب فأخطأ ، ثم قال : أيها الأمير أظنك لا تعرف عددها ، قال : لا . قال : فإني لا أصيب . قال : فما الفرق ؟ قال : إن ذلك أحصيته نفرج عن حد الغيب ، وهذا لم تحصه فهو غيب و « لَا يَسْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ النَّبِيُّ إِلَّا اللَّهُ » وقد مضى هذا في « آل عمران » والمحمدية .

قوله تعالى : ( بَلْ أَذَارُكَ عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ ) هذه قراءة أكثر الناس منهم حاصم وشيبة ونافع ويحيى بن وثاب والأعمش وحسنة والكسائي . وقرأ أبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو وحميد « بَلْ أَذْرُكَ » من الإدراك . وقرأ عطاء بن يسار وأخوه سليمان بن يسار والأعمش « بَلْ أَذْرُكَ » غير مهموز مشددا . وقرأ ابن محيصن « بَلْ أَذْرُكَ » على الاستفهام . وقرأ ابن عباس « بَلْ » بـ « آيات الياه » « أَذَارُكَ » بهززة قطع والبال مشددة وألف بعدها ، قال النحاس : وإسناده إسناده صحيح ، هو من حديث شعبة يرفعه إلى ابن عباس . وزعم هرون القاري أن قراءة أبيه « بَلْ تَذَارُكَ عَلَيْهِمْ » . القراءة الأولى والأخيرة معناه واحد ، لأن أصل « أَذَارُكَ » تذارك ، أدغمت اللال في التاء وجيء بألف الوصل ، وفي معناه قولان : أحدهما أن المعنى تكامل علمهم في الآخرة ؛ لأنهم رأوا كل ما وعدوا به معاينة فتكامل علمهم

(١) راجع ج ٧ ص ١ وما بعدها طبعه أول مرة ثانية . (٢) راجع ج ٤ ص ١٧ طبعه أول مرة ثانية .

(٣) لم تذكر كتب التفسير الأخرى الأعمش في هذه القراءة ، ولعل هذه رواية أخرى عنه غير الرواية المتقدمة .

به . والقول الآخر أن المعنى : بل نتابع علمهم اليوم في الآخرة؛ فقالوا تكون وقالوا لا تكون .  
 القراءة الثانية فيها قولان ؛ أحدهما أن معناه كل في الآخرة؛ وهو مثل الأول؛ قال مجاهد ؛  
 معناه يدرك علمهم في الآخرة ويسلمونها إذا عابسوها حين لا ينفعهم علمهم ؛ لأنهم كانوا  
 في الدنيا مكذّبين . والقول الآخر أنه على معنى الإنكار ؛ وهو مذهب أبي إسحق؛ وأستدل  
 على صحة هذا القول بأن بعده « بَلْ هُمْ فِيهَا عَمَوْنَ » أى لم يدرك علمهم علم الآخرة . وقيل :  
 بل ضل وغاب علمهم في الآخرة فليس لهم فيها علم . القراءة الثالثة « بَلْ أَدْرَكَ » فهى بمعنى  
 « بَلْ أَدْرَكَ » وقد يحىء أنتمل وخاعل بمعنى ؛ ولذلك صحح آزدوجوا حين كان بمعنى  
 تراوجوا . القراءة الرابعة ليس فيها إلا قول واحد يكون فيه معنى الإنكار ؛ كما تقول : أنا  
 فانتك ١؟ فيكون المعنى لم يدرك ؛ وعليه ترجع قراءة ابن عباس ؛ قال ابن عباس ؛  
 « بَلْ أَدْرَكَ عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ » أى لم يدرك . قال الفراء . وهو قول حسن كأنه وجهه إلى  
 الاستهزاء بالمكذّبين بالبعث ، كقولك لرجل تكذّبه : على لعمري قد أدركت السلف فانت  
 تروى ما لا أدوى ١ وأنت تكذّبه . وقراءة سابعة : « بَلْ أَدْرَكَ » بفتح اللام؛ عدل إلى  
 الفتحة لخطبها . وقد حكى نحو ذلك عن قطرب فى « قَمُ اللَّيْل » فإنه عدل إلى الفتح .  
 وكذلك و (جَ التَّوْبِ) ونحوه . وذكر الزغزغى فى الكلاب : وقرئ « بَلْ أَدْرَكَ » بهزتين  
 « بَلْ أَدْرَكَ » بالفتح بينهما « بَلْ أَدْرَكَ » « أَمْ تَدَارَكَ » « أَمْ أَدْرَكَ » فهذه ثنا عشرة  
 قراءة؛ ثم أخذ يعلل وجوه القراءات وقال : فإن قلت لما وجه قراءة « بَلْ أَدْرَكَ » على الاستفهام؟  
 قلت : هو استفهام على وجه الإنكار لإدراك علمهم ، وكذلك من قرأ « أَمْ أَدْرَكَ » و « أَمْ  
 تَدَارَكَ » لأنها أم التى بمعنى بل والمهزة ، وأما من قرأ « بَلْ أَدْرَكَ » على الاستفهام لعناه  
 على يشعرون متى يمتنون ، ثم أنكروا علمهم بكونها ، وإذا أنكروا علمهم بكونها لم يحصل لهم شعور  
 وقت كونها ؛ لأن العلم بوقت المكان تابع للعلم بكون المكان . وفى الآخرة ؛ فى شأن الآخرة  
 ومناها . « بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا » أى فى الدنيا . « بَلْ هُمْ فِيهَا عَمَوْنَ » أى يفلوهم واحدهم عمو .  
 وقيل : مع ؛ وأصله عمويون حذف الياء لالتقاء الساكنين ولم يميز تحريكها لنقل الحركة فيها .

قوله تعالى : وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوَلَمْ كُنَّا رَبَّاءً وَأَبَاؤُنَا أَنْ  
لَمُخْرَجُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَٰذَا  
إِلَّا أَسْطِطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧٨﴾

قوله تعالى : ( وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ) يعني مشركي مكة . ( إِنْ كُنَّا رَبَّاءً وَأَبَاؤُنَا أَنْ لَمُخْرَجُونَ )  
لمُخْرَجُونَ ) هكذا يقرأ نافع هنا وفي سورة « النكبات » . وقرأ أبو عمرو بآسفهماين إلا أنه  
خفف الهمزة . وقرأ عاصم وحمزة أيضا بآسفهماين إلا أنهما حققا الهمزين ، وكل ما ذكرناه  
في السورتين جميعا واحد . وقرأ الكسائي وآبن عاصم ورويس ويعقوب « أَيْدَا » بهمزتين  
« إَيْدَا » بنوين على الخبر في هذه السورة ؛ وفي سورة « النكبات » بآسفهماين ؛ قال  
أبو جعفر النحاس : الفسادة « إِنْ كُنَّا رَبَّاءً وَأَبَاؤُنَا أَنْ لَمُخْرَجُونَ » موافقة لخط حسنة ،  
وقد عارض فيها أبو حاتم فقال وهذا معنى كلامه : « إذا » ليس بآسفهماين و « إَيْدَا » آسفهماين  
وفيه « إِنْ » فكيف يجوز أن يعمل ما في حيز الآسفهماين فيها قبله ؟ ! وكيف يجوز أن يعمل  
ما بعد « إِنْ » فيها قبلها ؟ ! وكيف يجوز غدا أن زيدا خارج ؟ ! فإذا كان فيه آسفهماين  
كان أبدا ، وهذا إذا سئل عنه كان مشكلا لما ذكره . وقال أبو جعفر : وسمعت محمد بن  
الوليد يقول : سألنا أبا العباس عن آية من القرآن صعبة مشككة ، ومضى قول الله تعالى :  
« وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِنْ هَٰذَا مُرَقَّمٌ أَمْ لَمْ يَلْقَ خَلْقٌ جَدِيدٌ »  
فقال : إن عمل في « إِنْ » « يُنْبِئُكُمْ » كان محالا ؛ لأنه لا ينبئهم ذلك الوقت ، وإن عمل فيه  
ما بعد « إِنْ » كان المعنى صحيحا وكان خطأ في العربة أن يعمل ما قبل « إِنْ » فيها جدعا ؛  
وهذا سؤال بين رأيت أن يذكر في السورة التي هو فيها ؛ فأما أبو عبيد لئال إلى قراءة نافع  
وردد على من جمع بين آسفهماين ، واستدل بقوله تعالى : « أَفَأَنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ أَلْقِيْتُمْ عَلَى  
أَعْقَابِكُمْ » وبقوله تعالى : « أَفَأَنْ يَتَّخِذُوا الْخَالِدُونَ » وهذا الرد على أبي عمرو وعاصم وحمزة

(١) قال آبن حنبل : ( محمد الألف ) ومعنى في « البحر » و « روح المعاني » .

وطلمة والأحرج لا يلزم منه شيء، ولا يشبه ما جاء به من الآية شيء؛ والفرق بينهما أن الشرط وجوابه بمثلة شيء واحد، ومعنى «أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ» «أَفَإِنْ مِتَّ خلدوا». وظاهر هذا أن زيد منطلق، ولا يقال: أزيد منطلق؛ لأنها بمثلة شيء واحد وليس كذلك الآية؛ لأن الثاني جملة قائمة بنفسها فيصلح فيها الاستفهام، والأول كلام يصلح فيه الاستفهام؛ فاما من حذف الاستفهام من الثاني واثبته في الأول فقرا «أَيُّدًا تَرَأَى وَأَبْأُتًا إِنَّا» لحذفه من الثاني؛ لأن في الكلام دليلا عليه بمعنى الإنكار.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (١١) تقدم في سورة المؤمنين. وكانت الأنبياء يقرءون أمر البعث مبالغة في التحذير؛ وكل ما هو آت قريب.

قوله تعالى: قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي «قل» «لهؤلاء الكفار» «سيروا» في بلاد الشام والحجاز واليمن. ﴿فَانظُرُوا﴾ أي «بلوكم وبصائرهم» (كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ) المكذبن لرسولهم. ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي «على كفار مكة أن لم يؤمنوا» (وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ) في حرج (مِمَّا يَمْكُرُونَ) نزلت في المستهزئين الذين أقسموا عتاب مكة وقد تقدم ذكرهم. وقرئ: «في ضيق» بالكسر وقد مضى في آخر «النمل». ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ أي وقت يبعثنا العذاب بتكذيبنا ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

(١) داج ١٢ ص ١٤٥ طبة المدارة

(٢) داج ١٠ ص ٥٨ طبة المدارة

(٣) داج ١٠ ص ١٠٤ طبة المدارة

قوله تعالى : قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفٌ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَئِنْ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٨﴾ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٧٩﴾

قوله تعالى : ( قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفٌ لَكُمْ ) أى أقرب لكم ودنا منكم ( بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ) أى من العذاب ؛ قاله ابن عباس . وهو من ردفه إذا تبعه وجاء من أثره ؛ وتكون اللام أدخلت لأن المعنى أقرب لكم ودنا لكم . أو تكون متعلقة بالمصدر . وقيل ؛ معناه معكم . وقال ابن عبّارة : تبعكم ؛ ومنه ردف المراء ؛ لأنه تبع لما من خلفها ؛ ومنه قول أبي ذؤيب :

عاد السوداء بياضاً في مقارقيب • لامر حجابياض الشبب إذ ردفنا

قال الجوهري ؛ وأردفه أمر لفة في ردفه ؛ مثل تبعه وأتبعه بمعنى ؛ قال جريرة بن مالك بن نهد :

إذا الجوزاء أودفت الثريا • ظننت بال فاطمة الظنونا

يعنى فاطمة بنت يذكر بن حنظلة أحد القاربتين . وقال الفراء : « رَدِفَ لَكُمْ » دنا لكم ولمنا قال « لكم » ، وقيل : رَدِفَهُ وَرَدِفَ لَهُ بمعنى قراد اللام للتوكيد ؛ من الفراء أيضا . كما تقول قدته وقدت له ؛ وكنته ووزنته ؛ وكنت له ووزنت له ؛ ونحو ذلك . « بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ » من العذاب فكان ذلك يوم بدر . وقيل : عذاب القبر . ( وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ) فى تأخير العقوبة وإمداد الرزق ( وَلَئِنْ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ) فضله ونعمه .

قوله تعالى : ( وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ ) أى تخفى صدورهم ( وَمَا يُعْلِنُونَ ) يظهرون من الأمور . وفرا ابن عيصن وحيد « مَا تُكِنُّ » من كتمت الشيء إذا سترته هنا . وفى « النصص » تحديه : مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ عليه ؛ وكان الضمير الذى فى الصدور كالمضموع السائر . ومن فرا « تُكِنُّ » فهو المعروف ؛ يقال : أكننت الشيء إذا أخفيته فى نفسك .

قوله تعالى : ( وَمَا مِنْ قَائِمَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ) قال الحسن :  
القائمة هنا القيامة . وقيل : ما غاب عنهم من مذاب السماء والأرض ؛ حكاية الغاش . وقال  
أبن شجرة : القائمة هنا جميع ما أخفى الله تعالى عن خلقه وغيبه عنهم ، وهذا عام . وإنما  
دخلت الماء في « قَائِمَةٍ » إشارة إلى الجمع ؛ أي ما من خصلة غائبة عن الخلق إلا والله عالم بها  
قد أثبتا في أم الكتاب عنده ، فكيف يخفى عليه ما يسر هؤلاء وما يعلنونه . وقيل : أي كل  
شيء هو مثبت في أم الكتاب يخرج له للأجل المؤجل له ؛ فالذي يستجلونه من المذاب له  
أجل مضروب لا يتأخر عنه ولا يتقدم عليه . والكتاب اللوح المحفوظ أثبت الله فيه ما أراد  
ليعلم بذلك من يشاء من ملائكته .

قوله تعالى : ( إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ أَنْ يَقُصَّ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي  
هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝٧٦ وَإِنَّهُمْ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٧٧ إِنَّ رَبَّكَ  
يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ۝٧٨ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى  
الْحَقِّ الْمُبِينِ ۝٧٩ إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْوَعْدَ وَلَا تَسْمَعُ الدُّعَاءَ  
إِذَا وَلَوْا مُدِيرِينَ ۝٨٠ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعَمَىٰ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ  
إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ۝٨١ )

قوله تعالى : ( إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ )  
وذلك أنهم اختلفوا في كثير من الأشياء حتى لمن بعضهم بعضا فتركت . والمعنى : إن هذا  
القرآن بين لهم ما اختلفوا فيه لو اخذوا به ، وذلك ما حزنوه من التوراة والإنجيل ، وما سقط  
من كتبهم من الأحكام . ( وَإِنَّهُ ) يعني القرآن ( لَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ) خص المؤمنين  
لأنهم المستمعون به . ( إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ ) أي يقضي بين بني إسرائيل فيما اختلفوا  
فيه في الآخرة ، فيجازى الحق والمبطل . وقيل : يقضي بينهم في الدنيا فيظهر ما حزنوه .  
( وَهُوَ الْعَزِيزُ ) المنع الغالب الذي لا يرد أمره ( الْعَلِيمُ ) الذي لا يخفى عليه شيء .

قوله تعالى : ( قَتَلَ عَلَى اللَّهِ ) أى فَوَضَّ إِلَهَ أَمْرِكَ وَأَعْتَدَ عَلَيْهِ ؛ فإنه ناصركَ .  
 ( إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ) أى الظاهر . وقيل : المظهر لمن تدبر وجه العيوب . ( إِنَّكَ  
 لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى ) يعنى الكفار تركهم التدبر ؛ فهم كالنوى لا حَسَّ لهم ولا عقل . وقيل :  
 هذا فيمن علم أنه لا يؤمن . ( وَلَا تُسْمِعُ الْعُمْ الدُّعَاءَ ) يعنى الكفار الذين هم بمنزلة العُم  
 عن قبول الموعظة ؛ وإذا دعوا إلى الخير أعرضوا وولوا كأنهم لا يسمعون ؛ نظيره « صُمُّكُمْ عَمَى »  
 كما تقدم . وقرأ ابن محيصن وحيد وابن كثير وابن أبي إسحق وعباس عن أبي عمرو « وَلَا تُسْمِعُ »  
 بفتح الباء والهم « الْعُمْ » رفعا على التفاعل . الباقون « تُسْمِعُ » مضارع استمعت « وَالْعُم » نصبا .  
 مسألة - وقد أحتجت عائشة رضى الله عنها في إنكارها أن النبي صلى الله عليه وسلم  
 أسمع موتى بدر هذه الآية ؛ فنظرت في الأمر بقياس عقل ووقفت مع هذه الآية . وقد صح  
 عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مَا أَتَمَّ يَأْتِمِعُ مِنْهُمْ » قال ابن عطية : فيشبه أن قصة  
 بدر خرق عادة لمحمد صلى الله عليه وسلم في أن رد الله إليهم إدراكا سمعوا به مقالته ولولا  
 إخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم بسماهم لحلنا نداه إياهم حل معنى التوبيع لمن بقى من  
 الكفرة ، وعلى معنى شفاء صدور المؤمنين .

قلت : روى البخارى رضى الله عنه ؛ حدثني عبد الله بن محمد سمع رُوح بن جُادة قال  
 حدثنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة قال : ذكر لنا أنس بن مالك عن أبي طلحة أن نبي  
 الله صلى الله عليه وسلم أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلا من صناديد قريش فَعَزَّوْا في طيوى  
 من أطواء بدر حيث نُحِثْ ، وكان إذا ظهر على قوم أقام بالرمصة ثلاث ليل ، فلما كان  
 بيدر اليوم الثالث أمر براحته فشَدَّ عليها رَحْلُها ثم مشى وتبعه أصحابه ، قالوا : ما نَرَى ينطلق  
 إلا لبعض حاجته ، حتى قام على شفير الرِّكْبِ ، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم يا فلان بن  
 فلان ويا فلان بن فلان أيسركم أنكم أطلعتم الله ورسوله ؛ فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا  
 فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا ؛ قال فقال عمر : يا رسول الله ! ما نكلم من أجساد أرواح  
 لما ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم « والذي نفس محمد بيده ما أتت بأسمع لما أقول منهم » قال  
 قتادة : إحياء الله حتى أسمعهم قوله توحيثنا وتصغيراً وقيصة وحسرة وتذكيراً . نرجعه مسلم



أيضا . قال البخاري : حدثني حبان قال حدثنا عبدة عن هشام عن أبيه عن ابن عمر قال :  
 وقف النبي صلى الله عليه وسلم على قلب بدر فقال : « هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً » ثم قال ،  
 « إنهم الآن يعلمون أن الذي كنت أقول لهم هو الحق » ثم قرأ ﴿ إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى ﴾  
 حتى قرأت الآية . وقد عورضت هذه الآية بقصة بدر والسلام على القبور ، وبما روى في ذلك  
 من أن الأرواح تكون على شفير القبور في أوقات ، وإن الميت يسمع قرع النعال إذا أنصرفوا  
 عنه ، إلى غير ذلك ؛ فلم يسمع الميت لم يُسلم عليه . وهذا واضح وقد بيناه في كتاب « التذكرة » .  
 قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى عَنْ صَلَاتِهِمْ ﴾ أي كفرهم ، أي ليس في وسعك  
 خلى الإيمان في قلوبهم . وفرا حزة « وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى عَنْ صَلَاتِهِمْ » كقوله :  
 « أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمَى » . الباقون : « بِهَادِي الْعُمَى » وهي اختيار أبي عبيد وأبي حاتم  
 وفي « الروم » مثله . وكلهم وقف على « بهادي » بالياء في هذه السورة وبني ياء في « الروم »  
 أنباء للصنف إلا يعقوب فإنه وقف فيهما جميعا بالياء . وأجاز القراء وأبو حاتم « وَمَا أَنْتَ  
 بِهَادِي الْعُمَى » وهي الأصل . وفي حرف عبدة « وَمَا أَنْ تَهْدِي الْعُمَى » . ( إِنْ تَسْمِعُ )  
 أي ما تسمع . ( إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا ) قال ابن عباس : أي إلا من خلقته للسعادة  
 فهم مطمئنون في التوحيد .

قوله تعالى : وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ  
 تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقُونَ ﴿٨٧﴾ وَيَوْمَ نَخْسِفُ مِنْ كُلِّ  
 أُمَّةٍ فَوْجًا يَّمْنُ يَكْذِبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٨﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ قَالَ  
 أَكُنْتُ بِآيَاتِنَا وَلَرَّ مٌحِيطُوا بِهَا عَلَيَّ أَمَّاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٩﴾ وَوَقَعَ  
 الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٩٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا  
 آلَ بَلْعٍ لِّيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩١﴾

قوله تعالى : ( وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ ) اختلف في معنى وقع القول وفي الدابة ؛ قيل : معنى « وقع القول عليهم » وجب الغضب عليهم ؛ قاله قتادة . وقال مجاهد : أى حق القول عليهم بأنهم لا يؤمنون . وقال ابن عمر وأبو سعيد الخدري رضى الله عنهما : إذا لم يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر وجب السخط عليهم . وقال عبد الله بن مسعود : وقع القول يكون بموت العلماء ، وذهاب العلم ، ورفع القرآن . قال عبدة : أكثروا تلاوة القرآن قبل أن يُرفع ، قالوا هذه المصاحف تُرفع فكيف بما في صدور الرجال ؟ قال : يُسرَى عليه ليلا فيصبحون منه قفرا ، وينسَوْنَ لا إله إلا الله ، ويقعون في قول الجاهلية وأشعارهم ؛ وذلك حين يقع القول عليهم .

قلت : أسنده أبو بكر البرز قال حدثنا عبد الله بن يوسف الثقفى قال حدثنا عبد الحميد ابن عبد العزيز عن موسى بن عبيدة عن صفوان بن سليم عن ابن لعبداه بن مسعود رضى الله عنه عن أبيه أنه قال : أكثروا من زيارة هذا البيت من قبل أن يُرفع ويلقى الناس مكانه ؛ وأكثروا تلاوة القرآن من قبل أن يُرفع ؛ قالوا : يا أبا عبد الرحمن هذه المصاحف تُرفع فكيف بما في صدور الرجال ؟ قال : فيصبحون فيقولون كذا تتكلم بكلام وتقول قولاً فيرجعون إلى شعر الجاهلية وأحاديث الجاهلية ، وذلك حين يقع القول عليهم . وقيل : القول هو قوله تعالى : « وَلَٰكِنَّ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ » فوقع القول وجوب الطاب على هؤلاء ، فإذا صاروا إلى حد لا تقبل توهمهم ولا يولد لهم ولد مؤمن لحينئذ تقوم القيامة ؛ ذكره القرطبي . وقول سادس : قالت حفصة بنت سيرين سألت أبا العالية عن قول الله تعالى : « وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ » فقال : أوحى الله إلى نوح « إِنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ » وكأنما كان على وجهى غطاء فكشف . قال للناس : وهذا من حسن الجواب ؛ لأن الناس يمتحنون ومؤثرون لأن فيهم مؤمنين وصالحين ، ومن قد علم الله عز وجل أنه سيؤمن ويتوب ؛ فهذا أهلها وأمرنا بأخذ الجزية ، فإذا زال هذا وجب القول عليهم ، فصاروا كقوم نوح حين قال الله تعالى : « إِنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ » .

قلت : وجميع الأقوال عند التامل ترجع إلى معنى واحد . والدليل عليه آخر الآية  
 « إِنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يَوْقُونَ » وقرئ « أَنْ » بفتح الحمة وسبأى . وفي صحيح مسلم  
 عن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاث إذا خرجن  
 لا ينفع نفساً إيمانها [ لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها حيراً ] طلوع الشمس من  
 مغربها والدجال ودابة الأرض » وقد مضى . واختلف في تعيين هذه العاية وصفها ومن أين  
 تخرج اختلافها كثيراً؛ قد ذكرناه في كتاب « التذكرة » ونذكره هنا إن شاء الله تعالى مستوفى .  
 فأقول الأقوال أنه فصيل نافعة صالح وهو أحصاها - والله أعلم - لما ذكره أبو داود الطيالسي  
 في مسنده عن حذيفة قال : ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم العاية فقال : « لما ثلاث  
 خرجت من الدهر فتخرج في أقصى البادية ولا يدخل ذكرها القرية - يعني مكة -  
 ثم تكن زماناً طويلاً ثم تخرج تجربة أخرى دون ذلك فيفشود ذكرها في البادية ويدخل  
 ذكرها القرية » يعني مكة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثم بينا الناس في أعظم المساجد  
 ملأ الله حرمة خيرها وأكرمها على الله المسجد الحرام لم يرعهم إلا وهى ترغوين الركن والمقام  
 تنفض من رأسها التراب فأرفض الناس منها شتى ومما وثبت عصابة من المؤمنين وعرفوا  
 أنهم لن يسجزوا الله فبدأت بهم بقلت وجوههم حتى جعلتها كأنها الكوكب الدرى وولت  
 في الأرض لا يدركها طالب ولا ينجو منها هارب حتى إن الرجل لينتوذ منها بالصلاة فتأتيه  
 من خلفه فتقول يا فلان الآن تصل فتقبل عليه فتسبه في وجهه ثم تنطلق ويشارك الناس  
 في الأموال ويصطلحون في الأمصار يعرف المؤمن من الكافر حتى إن المؤمن يقول يا كافر  
 أنقض حق » وموضع الدليل من هذا الحديث أنه التفصيل قوله : « وهى ترغو » والراء إنما  
 هو اللزبل ؛ وذلك أن التفصيل لما قتلت النافعة هرب فأفتح له جبر فدخل في جوفه ثم أنطبق  
 عليه ، فهو فيه حتى يخرج بإذن الله عز وجل . وروى أنها دابة مزغبة شعراء ، ذات قوائم  
 طولها ستون ذراعاً ، ويقال إنها الجحاسة ؛ وهو قول عبد الله بن عمر . وروى عن ابن عمر  
 أنها على خلقة الآدميين ؛ وهى في السحاب وقوائمها في الأرض . وروى أنها جمعت من خلق

كل حيوان . وذكر الماوردي والعللي رأسا وأسن ثور ، وعينا من خنجر ، وأذنها أذن  
فيل ، وقرنها قرن أيل ، ومقلها على ناقة ، وصدرها صدر أسد ، ولونها لون نمر ،  
ومناصرتها خاصرة حر ، وذنبها ذنب كمش ، وقوائمها قوائم بصير بين كل مفصل ومفصل  
أشأ عشر ذراعا - الزمخشري : بذراع آدم عليه السلام - ويخرج معها عصا موسى وخاتم  
صليان ، فتتكت في وجه المسلم معها موسى نكتة بيضاء فيبيض وجهه ، وتنتكت في وجه  
الكافر بنحام صليان عليه السلام فيسود وجهه ؛ قاله ابن الزبير رضي الله عنهما . وفي كتاب  
الغاش عن ابن عباس رضي الله عنهما : إن الدابة النعمان المشرف على جدار الكعبة التي  
أقلعتها العقاب حين أرادت قريش بناء الكعبة . وحكى الماوردي عن محمد بن كعب عن  
علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه سئل عن الدابة فقال : أما والله ما لها ذنب وإن لها  
لقية . قال الماوردي : وفي هذا القول منه إشارة إلى أنها من الإنس وإن لم يصرح به .

قلت : ولهذا - والله أعلم - قال بعض المتأخرين من المفسرين : إن الأقرب أن تكون  
هذه الدابة إنسانا متكلميا يناظر أهل البدع والكفر ويحادلهم ليقطعوا ، فيهلك من هلك عن  
بينه ، ويحيى من حي عن بينه . قال شيخنا الإمام أبو العباس أحمد بن عمر القرطبي في كتاب المفهم  
له : وإنما كان عند هذا القائل الأقرب لقوله تعالى : « تُكَلِّمُهُمْ » وعلى هذا فلا يكون  
في هذه الدابة آية خاصة خارقة للعادة ، ولا تكون من جملة الشرعيات المذكورة في الحديث ؛  
لأن وجود المناظرين والمحتجين على أهل البدع كثير ، فلا آية خاصة بها فلا ينبغي أن تذكر  
مع الشرع ، وترفع خصوصية وجودها إذا وقع القول ، ثم فيه المدلول عن تسمية هذا الإنسان  
للمناظر الفاضل العالم الذي على أهل الأرض أن يسموه بأسم الإنسان أو بالعالم أو بالإمام  
إلى أن يستي بدابة ؛ وهذا خروج عن عادة القصصاء ، ومن تعظيم العساء ، وليس ذلك  
دأب العقلاء ؛ فالأولى ما قاله أهل التفسير ، والله أعلم بحقائق الأمور .

قلت - قد رفع الإشكال في هذه الدابة ما ذكرناه من حديث حذيفة قليتمد عليه .  
وأختلف من أي موضع تخرج ، فقال عبادة بن عمر : تخرج من جبل الصفا بمكة ؛ يتصدع  
فتخرج منه . قال عبد الله بن عمرو نحوه وقال : لو شئت أن أضع قدمي على موضع خروجها

لقنت . وروى في خبر عن النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الأرض تنشق عن الدابة ويعسى عليه السلام بطوف باليت وسمه للمسلمون من ناحية المسمى وأنها تخرج من الصفا قسم بين عيني المؤمن حومون من سمها كأنها كوكب دزى وتم بين عيني الكافر نكتة سوداء كافر » وذكر في الخبر أنها ذات وبروريش؛ ذكره الملهدى . وعن ابن عباس أنها تخرج من شعب قنم رأسها السحاب ورجلاها في الأرض لم تخرجا، وتخرج ومها عصا موسى وخاتم سليمان عليهما السلام . وعن حذيفة : تخرج ثلاث خراجات؛ خرجة في بعض البوادي ثم تكُنْ، وخرجة في القرى يتقاتل فيها الأمراء حتى تكثر الدماء، وخرجة من أعظم المساجد وأكرمها وأشرفها وأفضلها . الزمخشري : تخرج من بين الركن حذاء دار بني مخزوم عن يمين الخارج من المسجد ؛ يقوم يهرون ، وقيم يفنون نفاة . وروى عن قتادة أنها تخرج في نهاية . وروى أنها تخرج من مسجد الكوفة من حيث فاز تنور نوح عليه السلام . وقيل : من أرض الطائف؛ قال أبو قبيل : ضرب عبد الله بن عمرو أرض الطائف برجله وقال : من هنا تخرج الدابة التي تكلم الناس . وقيل : من بعض أودية نهاية؛ قاله ابن عباس . وقيل : من صخرة من شعب أجياد؛ قاله عبد الله بن عمرو . وقيل : من بحر سدوم؛ قاله وهب بن منبه . ذكر هذه الأقوال الثلاثة الأخيرة المأوردى في كتابه . وذكر البغوي أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز قال : حدثنا علي بن الجعد عن فضيل بن مرزوق الرقاشي الأغمر — وسئل عنه يحيى بن معين فقال ثقة — عن عطية العوفي عن ابن عمر قال تخرج الدابة من صدع في الكعبة بكرى القوس ثلاثة أيام لا يخرج منها .

قلت : فهذه أقوال الصحابة والتابعين في خروج الدابة وصفتها ، وهي ترد قول من قال من المفسرين : إن الدابة إنما هي إنسان متكلم يناظر أهل البدع والكفر . وقد روى أبو أمامة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « تخرج الدابة قسم الناس على نراطيمهم » ذكره المأوردى . « نكلمهم » بضم الناء وشذ اللام المكسورة — من الكلام — قراءة العامة؛ يدل عليه قراءة أبي « نكلمهم » . وقال السدي : تكلمهم بطلان الأديان سوى

دين الإسلام . وقيل : تكلمهم بما يسومهم . وقيل : تكلمهم بلسان ذلق فتقول بصوت  
يسمعه من قرب وبعد « إِنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ » أى بخروجى ، لأن خروجها  
من الآيات . وتقول : ألا لعنة الله على الظالمين . وقرأ أبو ززمة وابن عباس والحسن  
وأبو رباح « تَكَلَّمُهُمْ » بفتح التاء من الكلام وهو الجرح ، قال عكرمة : أى تَسْمُهُمْ . وقال  
أبو الجوزاء : سألت ابن عباس عن هذه الآية : « تَكَلَّمُهُمْ » أو « تَكَلَّمُهُمْ » ؟ فقال :  
هى والله تَكَلَّمُهُمْ وَتَكَلَّمُهُمْ ، تُكَلِّمُ الْمُؤْمِنَ وَتُكَلِّمُ الْكَافِرَ وَالْقَابِرَ أَى تَجْرَحُهُ . وقال أبو حاتم :  
« تَكَلَّمُهُمْ » كما تقول تُجْرَحُهُمْ ، يذهب إلى أنه تكثير من « تَكَلَّمُهُمْ » . ( وَإِنَّ النَّاسَ كَانُوا  
بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ) وقرأ الكوفيون وابن أبى إسحق ويحيى « أَنَّ » بالفتح . وقرأ أهل الحرمين  
وأهل الشام وأهل البصرة « إِنَّ » بكسر الهمزة . قال النحاس : فى المفتوحة قولان وكنا  
المكسورة ، قال الأخفش : المعنى بأن وكنا قرأ ابن مسعود « بَأَنَّ » وقال أبو عبيدة :  
موضعها نصب يوقع الفصل عليها ، أى تخبرهم أن الناس . وقرأ الكشاف والقرآن « إِنَّ  
النَّاسَ » بالكسر على الاستئناف . وقال الأخفش : هى بمعنى قول إن الناس ، يعنى الكفار .  
« بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ » يعنى بالقرآن وبمحمد صلى الله عليه وسلم ، وذلك حين لا يقبل الله من كافر  
إيماناً ، ولم يبق إلا مؤمنون وكافرون فى علم الله قبل خروجها ، والله أعلم .

قوله تعالى : ( وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ قَوَّامًا ) أى زمرة وجاعة ( مِمَّنْ يَكْتُمُ  
بِآيَاتِنَا ) يعنى بالقرآن وبأعلامنا الدالة على الحق . ( فَهُمْ يُوزَعُونَ ) أى يُدْفَعُونَ ويساقون  
إلى موضع الحساب . قال الشنخ :

وَكَمْ وَزَعًا مِنْ تَحْيِيسٍ تَحْفِيلٍ • وَكَمْ حَيَوًا مِنْ رَيْسٍ يَسْتَلِ

وقال قتادة : « يُوزَعُونَ » أى يُرَدُّ أَوَّلُهُمْ عَلَى أَثَرِهِمْ . ( حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ ) أى قال الله  
( أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي ) التى أنزلتها على رسل ، وبالآيات التى أنشأ دلائل على توحيدى .  
( وَلَمْ يَحِطُوا بِهَا عِلْمًا ) أى بطلانها حتى تعرضوا عنها ، بل كذبتم جاهلين غير مستدلين .  
( أَمَّا أَنتُمْ تَكْمُلُونَ ) قهرج وتوبيخ أى ماذا كنتم تعملون حين لم تحجوا عنها ولم تستفكروا

ما فيها . (وَوَقَّعَ الْقَوْلَ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا) أى وجب العذاب عليهم ظلمهم أى بشركهم .  
(نَهْمٌ لَا يَبْتَغُونَ) أى ليس لهم عذراً ولا حجة . وقيل : ينتم على أنفوسهم فلا ينطقون ؛ قاله  
أكثر المفسرين .

قوله تعالى : (أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنَا فِيهِ) أى يستقرون فينامون . (وَالنَّهَارَ  
مُبْصِرًا) أى يبصر فيه لى الرزق . (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) بالله . ذكر  
الدلالة على إلهيته وقدرته أى ألم يعلموا كمال قدرتنا فيؤمنوا .

قوله تعالى : وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ  
فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوَهُ ذَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى الْجِبَالَ  
تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ كَمُثَرٍّ مِمَّا السَّعَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتَقَنَ كُلُّ شَيْءٍ  
إِنَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُمْ مِّنْ  
فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ  
هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾

قوله تعالى : (وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ) أى وأذ كروم أو ذكروهم يوم ينفخ في الصور  
ومنهب الفزع أن المعنى : وذلك يوم ينفخ في الصور ؛ وأجاز فيه الحذف . والمصحح  
في الصور أنه قرن من نور ينفخ فيه إسرافيل . قال مجاهد : كهية البوق . وقيل : هو  
البوق بلغة أهل اليمن . وقد مضى في الأقسام . يسانه وما للعلماء في ذلك . (فَفَزِعَ مَنْ  
فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ) قال أبو هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم .  
"إن الله لما فرغ من خلق السموات خلق الصور فأعطاه إسرافيل فهو واضعه على فيه  
شاخص يبصره إلى العرش ينظر متى يؤمر بالنفخة" قلت : يا رسول الله ما الصور ؟ قال :

«قَرَنَ اللَّهُ عِظَمَ الَّذِي بَعَثَ بِالْحَقِّ إِنْ عَظُمَ دَارُهُ فِيهِ كَمَرُضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ فَيَنْفُخُ فِيهِ  
ثَلَاثَ قُحُطَاتٍ الْغُضَّةُ الْأُولَى نَفْخَةُ الْفَرْعِ وَالثَّانِيَةُ نَفْخَةُ الصَّعَقِ وَالثَّلَاثَةُ نَفْخَةُ الْبَحْثِ وَالتَّيَامِ  
فِيهِ الْقَالِبِينَ» وذكر الحديث . ذكره علي بن مبيد والطبري والتلبي وغيرهم ، وصححه  
أبو هريرة . وقد ذكرته في كتاب «التذكرة» وتكلمنا عليه هناك ، وأن الصحيح في النسخ  
في العمود أنهما قُحُطَانِ لَا ثَلَاثَ ، وأن نَفْخَةَ الْفَرْعِ إِنَّمَا تَكُونُ رَاجِعَةً إِلَى نَفْخَةِ الصَّعَقِ لِأَنَّ  
الْأَمْرَ مِنْ لَازِمِ الزَّمَانِ لَمَّا أَيْ فَرَعُوا فَرَعًا مَاتُوا مَعَهُ ، أَوْ إِلَى نَفْخَةِ الْبَحْثِ وَهُوَ اخْتِيارُ الْقَشِيرِ  
وَضِعْفُهُ ؛ لِأَنَّهُ قَالَ فِي كَلَامِهِ عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ : وَالْمُرَادُ مِنَ النَفْخَةِ الثَّانِيَةِ ؛ أَيْ يَحْيَوْنَ فَرَعَيْنِ يَقُولُونَ :  
«مَنْ بَشَّائِنَ مَرَقِدَةً» ؛ وَيَحْيَوْنَ مِنَ الْأَمْرِ مَا يَهْلِكُهُمْ وَيَغْزِيهِمْ ؛ وَهَذَا النَفْخُ كَصَوْتِ  
الْبُوقِ لِتَجْمَعِ الْخَلْقُ فِي أَرْضِ الْجَزَاءِ . وَقَالَ الْمَأُورِدِيُّ : «وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي السُّمُورِ» هُوَ  
يَوْمُ النُّشُورِ مِنَ الْقُبُورِ ، قَالَ وَفِي هَذَا الْفَرْعِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُ الْإِسْرَاعُ وَالْإِجَابَةُ إِلَى  
النَّدَاءِ مِنْ قَوْلِهِمْ : فَزَعَتْ إِلَيْكَ فِي كَذَا إِنَّمَا أَسْرَعَتْ إِلَى نَدَائِكَ فِي مَعُونَتِكَ . وَالْقَوْلُ الثَّانِي :  
إِنَّ الْفَرْعَ هُنَا هُوَ الْفَرْعُ الْمَعْهُودُ مِنَ الْخَوْفِ وَالْحَزَنِ ؛ لِأَنَّهُمْ أَرْجَعُوا مِنْ قُبُورِهِمْ وَخَافُوا .  
وَهَذَا أَشْبَهَ الْقَوْلَيْنِ .

قلت : وَالسُّنَّةُ الْبَاقِيَّةُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ وَحَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو يُدَلُّ عَلَى أَنَّهُمَا  
قُحُطَانِ لَا ثَلَاثَ ؛ تَرْجِيهُمَا مُسْلِمٌ وَقَدْ ذَكَرْنَاهُمَا فِي كِتَابِ «التَّذَكُّرَةِ» وَهُوَ الصَّحِيحُ إِنْ  
شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُمَا قُحُطَانِ ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : «وَيُنْفَخُ فِي الصُّورِ قَاصِقَاتٌ مِّنَ فِي السَّمَوَاتِ  
وَمَنَ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ» فَاسْتَنْتَى هُنَا كَمَا اسْتَنْتَى فِي نَفْخَةِ الْفَرْعِ فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُمَا  
وَاحِدَةٌ . وَقَدْ رَوَى أَبُو الْمُبَارَكِ عَنْ الْحَسَنِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «بَيْنَ  
النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ سَنَةً الْأُولَى بَيْتُ اللَّهِ بِهَا كُلُّ حَيٍّ وَالْآخِرَى يَحْيِي اللَّهُ بِهَا كُلَّ مَيِّتٍ» فَإِنْ  
قِيلَ لِأَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى : «يَوْمَ تَرْفَعُ الرِّاحَةُ تَقْبَلُهَا الرِّادَةُ» إِلَى أَنْ قَالَ : «وَلَأَمَّا حَيٌّ  
ذَرِيَّةً وَاحِدَةً» وَهَذَا يَنْفَضِي بظَاهِرِهِ أَنَّهُمَا ثَلَاثٌ . قِيلَ لَهُ : لَيْسَ كَذَلِكَ ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ بِالزَّرْعَةِ  
النَّفْخَةُ الثَّانِيَةُ الَّتِي يَكُونُ مِنْهَا خُرُوجُ الْخَلْقِ مِنْ قُبُورِهِمْ ؛ كَذَلِكَ قَالَ أَبُو جَبَّاسٍ وَجَاهِدٌ



وصطاء وأبن زيد وغيرهم . قال مجاهد : هما صيحتان أما الأولى فصيت كل شيء بإذن الله ، وأما الأخرى فصحي كل شيء بإذن الله . وقال عطاء : « الراجعة » القيامة و « الزائدة » البعث . وقال ابن زيد : « الراجعة » للموت و « الزائدة » الساعة . والله أعلم . « إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ » ثم اختلف في هذا المستقى من هم . ففى حديث أبى هريرة أنهم الشهداء عند ربهم يرزقون إنما يصل التنزى إلى الأحياء ؛ وهو قول سعيد بن جبير أنهم الشهداء مقلدو السيف حول العرش . وقال القشبرى : الأنبياء داخلون فى جهنم ؛ لأن لهم الشهادة مع النبوة . وقيل : الملائكة . قال الحسن : استنى طوائف من الملائكة يموتون بين الفخطين . قال مقاتل : بنى جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك للموت . وقيل : الحور العين . وقيل : هم المؤمنون ؛ لأن الله تعالى قال عقيب هذا : « مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ مِنْ قَرِيعٍ يَوْشِعُ آمِنُونَ » . وقال بعض ملاننا : والصحيح أنه لم يرد فى تعيينهم خبر صحيح والكل عتمسل .

قلت : خفى عليه حديث أبى هريرة وقد صححه القاضى أبو بكر بن العربى فليحول عليه ؛ لأنه نص فى التمين وغيره اجتهد . والله أعلم . وقيل : غير هذا على ما بأتى فى « الزمر » . وقوله « تَفَرِّعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ » ماض و « يُتَفَعُّ » مستقبل فيقال : كيف عطف ماض على مستقبل ؟ فزعم القراء أن هذا محمول على المضى ؛ لأن المضى : إنما فزع فى الصور فزعم . « إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ » نصب على الاستثناء . ( وَكُلُّ أَتَوْهَ فَاتِيرِينَ ) قرأ أبو عمرو وعاصم والكسائى ونافع وأبن حاصم وأبن كثير « أَتَوْهَ » جملوه فضلا مستقبلا . وقرأ الأعمش ويحيى وحزرة وحفص من عاصم « وَكُلُّ أَتَوْهَ » مقصودا على الفعل الماضى ، وكذلك قرأه ابن مسعود . وعن قتادة « وَكُلُّ أَتَاءَ فَاتِيرِينَ » . قال النحاس : وفى كتابى من أبى إسحق فى القراءات [ من قرأ ] « وَكُلُّ أَتَوْهَ » وحده على لفظ « كُلُّ » ومن قرأ « أَتَوْهَ » جمع على منطها ، وهذا القول غلط قبيح ؛ لأنه إنما قال : « وَكُلُّ أَتَوْهَ » فلم يوحده وإنما جمع ،

ولو وعد فقال : « آتاه » ولكن من قال : « آتوه » جمع على المعنى وجاء به ماضيا لأنه رده إلى « فَنَزَعَ » ومن قرأ « وَكُلُّ آتَوْهُ » حمله على المعنى أيضا وقال « آتَوْهُ » لأنها جملة منقطعة من الأول . قال ابن نصر : قد حكى عن أبي إسحق رحمه الله ما لم يقله ، ونص أبي إسحق : « وَكُلُّ آتَوْهُ دَاخِرِينَ » ويقرأ « آتَوْهُ » فمن وحد فلفظ « كُلُّ » ومن جمع فلفظها . يريد ما أتى في القرآن أو غيره من توحيد خبر « كُلُّ » فعلى اللفظ أو جمع فعل المعنى ؛ فلم يأخذ أبو جعفر هذا المعنى . قال المهدوي : ومن قرأ « وَكُلُّ آتَوْهُ دَاخِرِينَ » فهو فعل من الإتيان وحمل على معنى « كُلُّ » دون لفظها ، ومن قرأ « وَكُلُّ آتَوْهُ دَاخِرِينَ » فهو اسم الفاعل من أتى . بذلك على ذلك قوله تعالى : « وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَرْنَا » . ومن قرأ « وَكُلُّ آتَاهُ » حمله على لفظ « كُلُّ » دون معناها وحمل « دَاخِرِينَ » على المعنى ؛ ومعناه صاغرين ؛ عن ابن عباس وقادة . وقد مضى في « النحل » .

قوله تعالى : ( وَرَى الْجِبَالِ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ) قال ابن عباس : أي قائمة وهي تسير سيرا حثيثا . قال الفتي : وذلك أن الجبال تجمّع وتُسَبِّرُ ، فهي في رؤية العين كالقائمة وهي تسير ، وكذلك كل شيء عظيم وجمع كثير يقصر عنه النظر ، لكثرة وبعد ما بين أطرافه ، وهو في حسان الناظر كالواقف وهو يسير . قال النابغة في وصف جندب :  
بَارِعَنَ مِثْلَ الطَّوْدِ تَحْسَبُ أَنَّهُمْ • وَقُوْفٌ لِحَاجٍ وَالرَّكَّابُ تَهْمِلُجُ

قال القشيري . وهذا يوم القيامة ؛ أي هي لكثرتها كأنها جامدة ؛ أي واقفة في مرأى العين وإن كانت في أنفسها تسير سيرا سيرا ، والسحاب للمترام يظن أنها واقفة وهي تسير ؛ أي تمر مر السحاب حتى لا يبقى منها شيء ، فقال الله تعالى : « وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا » ويقال : إن الله تعالى وصف الجبال بصفات مختلفة ترجع كلها إلى تفرغ الأرض منها ؛ وإبراز ما كانت تواريه ؛ فأول الصفات الأكذالك وذلك قبل الزلزلة ، ثم تصير كالمن المغشوش ؛ وذلك إذا صارت السماء كاللؤلؤ ، وقد جمع الله بينهما فقال : « يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَيْلِ »

وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ . والحالة الثالثة أن نصير كالمياه وذلك أن نقتطع بعد أن كانت كالهن . والحالة الرابعة أن تنسف لأنها مع الأحوال المتقدمة قارة في مواضعها والأرض تحتها غير بارزة فتسفن عنها تبرز ، فإذا نسفت في إرسال الرياح عليها . والحالة الخامسة أن الرياح ترفعها على وجه الأرض فتظهرها شعاعا في الهواء كأنها غبار ، فنظر إليها من بعد حسيها فكأنها أجسادا جامدة ، وهي بالحقيقة مارة إلا أن مرورها من وراء الرياح كأنها مندكة مفتحة . والحالة السادسة أن تكون سرايا فنظر إلى مواضعها لم يجد فيها شيئا منها كالسراب . قال مقاتل : تقع على الأرض قسوى بها . ثم قيل هذا مثل . قال الساوردي : وفيها ضرب له ثلاثة أقوال : أحدها أنه مثل ضربه الله تعالى للذي ينظر الناظر إليها أنها واقعة كالجبال ، وهي آخذة بمظهرها من الزوال كالسحاب ؛ قاله سهل بن عبد الله . الثاني : أنه مثل ضربه الله للإيمان تحسبه ثابتا في القلب وعمله صاعد إلى السماء . الثالث : أنه مثل ضربه الله للنفس عند خروج الروح والروح تسير إلى العرش . (صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَى كُلَّ شَيْءٍ) أى هذا من فعل الله ، و[ما] هو فعل منه فهو متقن . و«ترى» من رؤية العين ولو كانت من رؤية القلب لتعدت إلى مفعولين . والأصل ترى فألغيت حركة الهمزة على الراء فتحركت الراء وحذفت الهمزة ، وهذا سبيل تخفيف الهمزة إذا كان قبلها ساكن ، إلا أن التخفيف لازم لتقرأ وأهل الكوفة يقرمون «تَحْسَبُهَا» بفتح السين وهو القياس ؛ لأنه من حَسِبَ يحسب إلا أنه قد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم خلافها أنه قرأ بالكسر في المستقبل ، فتكون على قِيلَ يغيل مثل نِمَ يَنِمُ ويَسُ يَنَسُ وحكى يَنَسُ يَنَسُ من النائم ، لا يعرف في كلام العرب غير هذه الأحرف . «وَيَحْيَىٰ مَرْمَرًا السَّحَابِ» تقديره مرارا مثل مر السحاب ، فأقيمت الصفة مقام للموصوف والمضاف مقام المضاف إليه ؛ فالجبال تُزال من أماكنها من على وجه الأرض ، وتجمع وتُسَرُّ كما تُسَرُّ السحاب ، ثم تكثر فتعود إلى الأرض كما قال : «وَبَنَيْتُ الْجِبَالَ بَنَاءً» . «صُنِعَ اللَّهُ» عند الخليل وسيبويه منصوب على أنه مصدر ؛ لأنه لما قال عز وجل : «وَيَحْيَىٰ مَرْمَرًا السَّحَابِ» دل على أنه قد صنع ذلك صنعا . ويجوز النصب على الإغراء ؛ أى أنظروا صنع الله . فيوقف

على هذا عل « الصحاح » ولا يوقف عليه على التقدير الأول . ويجوز رفعه على تقدير ذلك  
صنع الله . « أَلَيْسَ أَتَقَنُّ كُلَّ شَيْءٍ » أى أحكمه ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : « رحم الله  
من عمل عملا فاتقنه » . وقال قتادة : معناه أحسن كل شيء . والإيقان الإحكام ، يقال رجل  
يَقَنُّ أى حاذق بالأشياء . وقال الزهري : أصله من أبْنِ يَقَنٍّ ، وهو رجل من عاد لم يكن يسقط  
له سهم فغضب به المثل ، يقال : أُرْمِيَ من أبْنِ يَقَنٍّ ثم يقال لكل حاذق بالأشياء قَن .  
( إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ) بالناء على الخطاب قراءة الجمهور . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وهشام بإياءه .  
قوله تعالى : ( مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا ) قال ابن مسعود وابن عباس رضى الله  
عنهما : الحسنة لا إله إلا الله . وقال أبو معشر : كان إبراهيم يلقب بالله الذى لا إله إلا هو  
ولا يستثنى أن الحسنة لا إله إلا الله محمد رسول الله . وقال علي بن الحسين بن علي رضى الله  
عنهم : غزا رجل فكان إذا خلا بمكان قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، فيبنا هو في أرض  
الروم في أرض جلفاء ويردى رفع صوته فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له فخرج عليه  
رجل على فرس عليه ثياب بيض فقال له : والذى نفسى بيده إنها الكلمة التى قال الله تعالى  
« مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا » . وروى أبو ذر قال : قلت يا رسول الله أوصنى . قال :  
« أتى الله وإذا عملت سيئة فأتبها حسنة نجها » قال قلت : يا رسول الله أمن الحسنات  
لا إله إلا الله ؟ قال : « من أفضل الحسنات » وفي رواية قال : « نعم هي أحسن الحسنات »  
ذكره البيهقي . وقال قتادة : « مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ » بالإخلاص والتوحيد . وقيل : أداء الفرائض كلها .  
قلت : إنا أتى بلا إله إلا الله على حقيقتها وما يجب لها . على ما تقدم بيانه في سورة  
إبراهيم . فقد أتى بالتوحيد والإخلاص والفرائض . « فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا » قال ابن عباس :  
أى وصل إليه الخير منها ، وقاله مجاهد . وقيل : فله الجزاء الجليل وهو الجنة . وليس « خير »  
للتفضيل . قال عكرمة وابن جرير : أما أن يكون له خير منها معنى من الإيمان فلا ؛ فإنه ليس  
شيء خيرا ممن قال لا إله إلا الله ولكن له منها خير . وقيل : « فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا » للتفضيل  
أى ثواب الله خير من عمل العبد وقوله وذكره ، وكذلك رضوان الله خير للعبد من فعل العبد ؛

قاله ابن عباس . وقيل : يرجع هذا إلى الإضعاف فإن الله تعالى يطيه بالواحدة عشرا ؛  
وبالإيمان في مدة يسيرة التواب الأبدى ؛ قاله محمد بن كعب وعبد الرحمن بن زيد . (وهم من  
فَرَجَ يَوْمَئِذٍ أَمْنُونَ) فَرَجَ عاصم وحزمة والكسائي « فَرَجَ يَوْمَئِذٍ » بالإضافة . قال أبو عبيد ؛  
وهذا أعجب إلى لأنه أعم التأويلين أن يكون الأمن من جميع فزع ذلك اليوم ، وإذا قال :  
« مِنْ فَرَجَ يَوْمَئِذٍ » صار كأنه فزع دون فزع دون فزع . قال القشيري : وقرئ « مِنْ فَرَجَ »  
بالتنوين ثم قيل يعني به فرجا واحدا كما قال : « لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَجُ الْأَكْبَرُ » . وقيل عن الكثرة  
لأنه مصدر والمصدر صالح للكثرة .

قلت : فعل هذا تكون القراءتان بمعنى . قال المهدوي : ومن قرأ « مِنْ فَرَجَ يَوْمَئِذٍ »  
بالتنوين أنتصب « يَوْمَئِذٍ » بالمصدر الذي هو « فزع » . ويجوز أن يكون صفة لفزع  
ويكون متعلقا بمحذوف ؛ لأن المصادر يخبر عنها بأسماء الزمان وتوصف بها ، ويجوز أن يتلقى  
باسم الفاعل الذي هو « آمنون » . والإضافة على الاتساع في الظروف . ومن حذف التنوين  
وفتح الميم بناء لأنه ظرف زمان ، وليس الإعراب في ظرف الزمان متمكنا ، فلما أضيف إلى  
غير متمكن ولا معرب جى . وأنشد سيويه :

عَلَى حِينٍ أَلَمَى النَّاسُ بُلْ أُمُورَهُمْ • فَتَدَلَّ زُرَيْقُ الْمَالِ نَدْلَ الصَّالِبِ<sup>(١)</sup>

قوله تعالى : ( وَمَنْ جَاءَ بِالسَّبْتِ ) أى بالشرك ؛ قاله ابن عباس والنخعي وأبو هريرة  
ومجاهد وقيس بن سعد والحسن ، وهو إجماع من أهل التأويل في أن الحسنه لا إله إلا الله ،  
وأن السبتة الشرك في هذه الآية . ( فَكَتَبَتْ جُودَهُمْ فِي النَّارِ ) قال ابن عباس : ألقيت .  
وقال الضحاك : طرحت ؛ يقال كببت الإثاء أى قلبته على وجهه ، واللام منه أكب ؛ وقفا  
يأتى هذا في كلام العرب . ( هَلْ يُجْزَوْنَ ) أى يقال لهم هل تجمزون . ثم يجوز أن يكون  
من قول الله ، ويجوز أن يكون من قول للملائكة . ( إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ) أى إلا جزاء أعمالكم .

(١) زريق : اسم لينة وهو نادى . والتدلة الأفع بالدين . والتدل أيضا الحركة في السير . « ندل الصالِب »  
يقال في الليل : ( هراكب من تلج ) لأنه يخرقه ، ويأتى على ما يدرجه من الحيوان إذا انكس . وليت  
في وصف نهار الليل لنفس ، وفيه :

يمررت بالهنا خلفا عليم • ويرجع من حادين بجر الحقائق

قوله تعالى : **إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ** ﴿٣١﴾ **وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ** **فَنِ اهْتَدَىٰ فَمَا عَسَىٰ لِنَفْسِي** **لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَعَلَّ** **إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ** ﴿٣٢﴾ **وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : **(إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا)** يعني مكة التي عظم الله حرمتها، أي جعلها حراماً عاماً لا يسفك فيها دم، ولا يظلم فيها أحد، ولا يصاد فيها صيد، ولا يعضد فيها شجر، على ما تقدم بيانه في غير موضع . وقرأ ابن عباس : «التي حرمها» متا للبلدة . وقرائة الجماعة «الذي» وهو في موضع نصب نعت لـ «رب» ولو كان بالألف واللام لقلت المحرمها ؛ فإن كانت متا للبلدة قلت المحرمها هو ؛ لا بد من إظهار المضمر مع الألف واللام ؛ لأن الفعل جرى على غير من هو له ؛ فإن قلت الذي حرمها لم تحتاج أن تقول هو . **(وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ)** خلقا وملكا . **(وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ)** أي من المتقادين لأمره ، الموحدين له . **(وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ)** أي وأمرت أن أتلو القرآن ، أي أفراه . **(فَنِ اهْتَدَىٰ)** فله ثواب هدايته . **(وَمَنْ ضَلَّ)** فليس على إلا البلاغ ؛ نستحب آية القتال . قال النحاس . «وَأَنْ أَتْلُوا» نصب بأن . قال الفراء : وفي إحدى القراءتين «وَأَنْ أَتْلُ» وزعم أنه في موضع جزم بالأمر فلذلك حذف منه الواو ، قال النحاس : ولا تعرف أحدا قرأ هذه القراءة ، وهي مخالفة لجميع المصاحف .

قوله تعالى : **(وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ)** أي على نعمته وعلى ما هدانا . **(سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ)** أي في أنفسكم وفي غيركم كما قال : «سَيُرِيكُمْ آيَاتِي فِي الْأَفَاقِ فِي أَنْفُسِهِمْ» . **(فَتَعْرِفُونَهَا)** أي دلائل قدرته ووحدايته في أنفسكم وفي السموات وفي الأرض ؛ نظيره قوله تعالى : **«وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ . وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ»** . **(وَمَا دَبُّكُمْ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)**

قرأ أهل المدينة وأهل الشام وحفص عن ماسم بثناء على الخطاب؛ لقوله : « سِيرَ بِكُمْ آيَاتِهِ فَتَمَرُّونَهَا » فيكون الكلام على نسق واحد . الباقون بإياه أن يرد إلى ما قبله . فمن أختدّى « فأخبر عن تلك الآية . بكت السورة والحمد لله رب العالمين ، وصل الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم .

### مسورة القصص

مكية كلها في قول الحسن وعكرمة وعطاء . وقال ابن عباس وتصادم إلا آية نزلت بين مكة والمدينة . وقال ابن سلام : بالجمعة في وقت هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة . وهي قوله عز وجل : « إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَى مَادٍ » . وقال مقاتل : فيها من السدى « الَّذِينَ آمَنُوا مُمُ الْكِتَابِ » إلى قوله : « لَا تَحْسَبِ الْجَاهِلِيْنَ » . وهي ثمان وثمانون آية .

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : طس ① تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ② تَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ③ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضِيعُ ظِلَّاهُ مِنْهُمْ بِدِيحِ ابْنَاءِهِمْ وَيَسْتَعْمِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُمْ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ④ وَزُرِدُ أَنْ تُؤْمِنَ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضِيعُوا فِي الْأَرْضِ وَتَجْعَلَهُمْ أئِمَّةً وَتَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ⑤ وَتُمْكِنَ لَمْ فِي الْأَرْضِ وَزُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَمَلْنَ وَجُنُودُهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِحُدُودٍ ⑥ قوله تعالى : ( طس ) هتم الكلام فيه . ( تلك آيات الكتاب المبين ) « تلك » في موضع رفع بمعنى هذه تلك و « آيات » بدل منها . ويجوز أن يكون في موضع نصب بحملها و « آيات » بدل منها أيضا وتصحيا كما تحول : زيدا خبرت . و « والذين »

أى المين يركنه وغيره، والمين الحق من الباطل، والحلال من الحرام، وقه عن الأنياء،  
 ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم. ويقال: بأن الشيء. وأبان [أنضح] (١) «تَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبِيٍّ  
 مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» ذكر قصة موسى عليه السلام وفرعون وقارون،  
 وأحتج على منكر قريش، وبين أن فرابة قارون من موسى لم تنفعه مع كفره، وكذلك  
 فرابة قريش لمحمد، وبين أن فرعون علا في الأرض وتجر، فكان ذلك من كفره، فليجنب  
 العلوف الأرض، وكذلك العزز بكثرة المال، وهما من سيرة فرعون وقارون. «تَتْلُو عَلَيْكَ»  
 أى يقرأ عليك جبريل بأمرنا «مِنْ نَبِيٍّ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ» أى من خبرهما ومن للتبعض  
 و«مِنْ نَبِيٍّ» مفعول «تتلو» أى تتلو عليك بعض خبرهما، كقوله تعالى: «تَبَّتْ يُدْهِنُ».  
 ومعنى «بِالْحَقِّ» أى بالصدق الذى لا ريب فيه ولا كذب. «يَقُومُ يُؤْمِنُونَ» أى يصعدون  
 بالقرآن ويعلمون أنه من عند الله؛ فأما من لم يؤمن فلا ينقد أنه حق.

قوله تعالى: «إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ» أى استكبر وتجر؛ فله ابن عباس  
 والسدى. وقال قتادة: علا فى نفسه عن عبادة ربه بكفره وأدعى الربوبية. وقيل:  
 ملكه وسلطانه فصار عاليا على من تحت يده. «فِي الْأَرْضِ» أى أرض مصر. «وَجَعَلَ  
 أَهْلَهَا شِيَعًا» أى فرقا وأصنافا فى الخدمة. قال الأعشى:

وبلدة يَرْعَبُ الْجَوَابُ دَجَلَتَهَا • حتى تراه عليها يَنْتِنُ الشَّيْبَا

(يَسْتَضِيْفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ) أى من بنى إسرائيل. «يُدْعِي أَسْمَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي أَسْمَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ  
 مِنَ الْمُفْسِدِينَ» تقدم القول فى هذا فى «البقرة» عند قوله: «يُسْوَئُكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ  
 يُدْعِيُونَ أَسْمَاءَهُمْ» الآية؛ وذلك لأن الكهنة قالوا له: إن مولودا يولد فى بنى إسرائيل  
 يذهب ملكك على يديه، أو قال المنجمون له ذلك، أو رأى رؤيا فعبرت كذلك. قال

(١) فى الأصل: «أنضح» ومرعوف. والتصويب من كتب الله.

(٢) راجع ١٨٤٤ وما بعدها طبعه ثانية أو ثالثة.



الزجاج: العجب من حقه لم يدرك أن الكاهن إن صدق فاقتل لا يشفع، وإن كذب فلا معنى للقتل . وقيل : جعلهم شيئا فاستسخر كل قوم من بني إسرائيل في شغل مفرد . « إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ » أى في الأرض بالعمل والمماضى والتعبير .

قوله تعالى : ( وَزَيْدُ أَنْ تَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَيْفُوا فِي الْأَرْضِ ) أى تتفضل عليهم وتسلم . وهذه حكاية مضت . ( وَتَجَلَّاهُمْ أَيْمَةً ) قال ابن عباس : قتادة في الخير . مجاهد : دعة إلى الخير . قتادة : ولاية وملوكا؛ دليله قوله تعالى : « وَجَعَلَهُمْ مَلُوكًا » .

قلت : وهذا أم فإن الملك إمام يؤتم به ويستدعى به . ( وَتَجَلَّاهُمْ الْوَارِثِينَ ) الملك فرعون، يرثون ملكه، ويسكنون مساكن القبط . وهذا معنى قوله تعالى : « وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحَسَنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا » .

قوله تعالى : ( وَتَمَكَّنَ لَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ) أى نجعلهم مقتدرين على الأرض وأهلها حتى يستولوا عليها، يبنى أرض الشام ومصر . ( وَنَرَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا ) أى ونريد أن نرى فرعون . وفرأ الأعمش ويحيى وحمة والكسائي وخلف « ويرى » بآياء على أنه فعل ثلاثى من رأى « فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا » رضا لأنه الفاعل . الباقر « نَرَى » بضم النون وكسر الراء على أنه فعل رباعى من أرى يرى ، وهى على فسق الكلام ؛ لأن قبله « ونريد » وبعده « وتمكن » . « فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا » نصبا بوقوع الفعل . وأجاز الفراء « وَيَرَى فِرْعَوْنَ » بضم الياء وكسر الراء وفتح الياء بمعنى ويرى الله فرعون ( مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْتَدِرُونَ ) وذلك أنهم أخبروا أن هلاكهم على يدي رجل من بني إسرائيل فكانوا على وجل « مِنْهُمْ » فأراه الله « مَا كَانُوا يَحْتَدِرُونَ » . قال قتادة : كلف حازيا لفرعون - والحازى المنجم - قال إنه سيولد في هذه السنة مولود يذهب بملكك ؛ فأمر فرعون بقتل الولدان في تلك السنة . وقد هتدم .

قوله تعالى : وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ  
فَالْقَيْسُ فِي الْعِيْمِ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ  
الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠﴾ فَالْقَطْعُ : قَالَ فِرْعَوْنُ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ  
وَهَمَّانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَتْ أُمُّرَاتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتْ عَيْنُ  
لِي وَلَكَ لَا تَقُنُّوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ( وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ) قد تقدم معنى الوحى وعامله .  
وأختلف فى هذا الوحى إلى أم موسى ؛ فقالت فرقة : كان قولاً فى منامها . وقال قتادة :  
كان إلهاً . وقالت فرقة : كان بمك يمتلئ لها . قال مقاتل : أتتها جبريل بذلك ، فمل هذا  
هو وحى إلهام لا إلهام . وأجمع الكل على أنها لم تكن نية ، وإنما إلهام الملك إليها على نحو  
تكليم الملك للأفصح والأبرص والأعمى فى الحديث المشهور ؛ خرجه البخارى ومسلم ، وقد ذكرناه  
فى سورة « برأة » . وفردك عما روى من تكليم الملائكة للناس من غير نبوة ، وقد سلمت  
على عمران بن حصين فلم يكن بذلك نياً . وأسمها إيلارنا وقبل إيلارخت نياً ذكر السجلى . وقال  
الطبرى : وأسم أم موسى لوحا بنت هاند بن لاوى بن يعقوب . « أَنَّ أَرْضِيهِ » وقرأ عمر  
ابن عبد العزيز « أَنَّ أَرْضِيهِ » بكسر النون وألف وصل ؛ حذف همزة أَرْضِعْ تخفيفاً ثم كسر  
النون لاتقاء الساكنين . قال مجاهد : وكان الوحى بالرضاع قبل الولادة . وقال غيره بعدها .  
قال السدى : لما ولدت أم موسى موسى أمرت أن ترضعه عقيب الولادة وتضع به بما فى الآية ؛  
لأن الخوف كان عقيب الولادة . وقال ابن جرير : أمرت بالرضاعه أربعة أشهر فى بستان ،  
فإنما خافت أن يصيح - لأن لبنها لا يكفيه - صنعت به هذا . والأول أظهر إلا أن  
الآخر يعضده قوله : « فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ » و « إِذَا » لما يستقبل من الزمان ؛ فبروى أنها

(١) رجع = ٨ ص ١٨٨ وما بعدها طبعه أول أرتانة -

(٢) وقيل فى اسمها أيضا ؛ يوتاب - وقيل : يوتابيل ؛ وقيل فريدك .

أَتَخَذْتُ لَهُ ثَابُوتًا مِنْ بَرْدَى وَتَقِيَّةً بِالْقَارِ مِنْ دَاخِلِهِ ، وَوَضَعْتُ فِيهِ مُوسَى وَأَتَقْنَتْهُ فِي نَيْلٍ مِصْرَ .  
 وَقَدْ مَضَى خَبْرُهُ فِي « طه » . قَالَ ابْنُ حِبَّاسٍ : إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمَّا أَكْثَرُوا بِمِصْرَ اسْتَطَلُّوا  
 عَلَى النَّاسِ ، وَعَمِلُوا بِالْمِصْرَاقِ ، فَسَلَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْقَبْطَ ، وَسَامُوهُمْ سَوْءَ الْعَذَابِ ، إِلَى أَنْ نَجَّاهُمُ اللَّهُ  
 عَلَى يَدِ مُوسَى . قَالَ وَهْبٌ : يُنْفَى أَنْ فِرْعَوْنَ ذَبَحَ فِي طَلَبِ مُوسَى سَبْعِينَ أَلْفَ وَلِيدٍ . وَيُقَالُ :  
 تَسْمُونُ الْفُلَا ، وَيُرْوَى أَنَّهُا حِينَ أَقْرَبَتْ وَضَرِبَهَا الطَّلَقُ ، وَكَانَتْ بَعْضُ الْقَوَائِلِ الْمُوَكَّلَاتِ بِجِبَالِ  
 بَنِي إِسْرَائِيلَ مُصَافِيَةً لَهَا ، فَقَالَتْ : لِيُغْنِيَ حُبُّكَ الْيَوْمَ ، فَضَالِحَتُهَا فَلَمَّا وَقَعَ إِلَى الْأَرْضِ هَالِكًا  
 نَوْرَيْنِ عَيْنَيْهِ ، وَأَرْتَشَ كُلَّ مَقْصِلٍ مِنْهَا ، وَدَخَلَ حَبَّ قَلْبِهَا ، ثُمَّ قَالَتْ : مَا جِئْتُكَ إِلَّا لِأَتَقْتَلَ  
 مَوْلُودَكَ وَأَخْبَرَ فِرْعَوْنَ ، وَلَكِنِّي وَجَدْتُ لَكُنْكَ حَبًّا مَا وَجَدْتُ مِثْلَهُ قَطْ ، فَأَحْضَطِيهِ ، فَلَمَّا  
 حَرِجَتْ جَاءَ عِيُونَ فِرْعَوْنَ فَلَقْنَتْهُ فِي نُورَةٍ وَوَضَعَتْهُ فِي ثَوْبٍ مَسْجُورٍ تَارًا لَمْ تَعْلَمْ مَا تَصْنَعُ لِمَا طَاشَ  
 عَقْلُهَا ، فَطَلَبُوا فَلَمْ يَلْقَوْا شَيْئًا ، فَغَرِبُوا وَهِيَ لَا تَدْرِي مَكَانَهُ ، فَسَمِعَتْ بِكَاهِنٍ مِنَ التَّنُورِ ، وَقَدْ  
 جَسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ النَّارَ بِرَدَا وَسَلَامًا .

قوله تعالى : ( وَلَا تَخَافُ ) فِيهِ وَجْهَانِ : أَحَدُهُمَا — لَا تَخَافُ عَلَيْهِ الْفِرْقَ ، قَالَ  
 ابْنُ زَيْدٍ . الثَّانِي — لَا تَخَافُ عَلَيْهِ الضَّيْعَةُ ، قَالَ يَحْيَى بْنُ سَلَامٍ . ( وَلَا تَخْزِي ) فِيهِ أَيْضًا  
 وَجْهَانِ : أَحَدُهُمَا — لَا تَخْزِي لِقَرَأَتِهِ ، قَالَ ابْنُ زَيْدٍ . الثَّانِي — لَا تَخْزِي أَنْ يُقْتَلَ ، قَالَ  
 يَحْيَى بْنُ سَلَامٍ . قَبِيلٌ : إِنَّمَا جَعَلَتْهُ فِي ثَابُوتٍ طَوِيلَةٍ نَحْمَةُ أَشْبَارٍ وَعَرْضُهُ نَحْمَةُ أَشْبَارٍ ،  
 وَجَعَلَتْهُ الْمَفْطَحُ مَعَ الثَّابُوتِ وَطَرَحَتْهُ فِي الْيَمِّ بَعْدَ أَنْ أَرْضَعَتْهُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ . وَقَالَ آخِرُونَ :  
 ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ . وَقَالَ آخِرُونَ : ثَمَانِيَةَ أَشْهُرٍ ، فِي حِكَايَةِ الْكَلْبِيِّ . وَحَكَى أَنَّهُ لَمَّا فَرَّغَ النِّجَارُ  
 مِنْ حِمَّةِ الثَّابُوتِ ثُمَّ إِلَى فِرْعَوْنَ بِجَنْبِهِ ، فَبَعَثَ مَعَهُ مِنْ يَأْخُذُهُ ، فَطَمَسَ اللَّهُ عَيْنَيْهِ وَقَلْبَهُ  
 فَلَمْ يَعْرِفِ الطَّرِيقَ ، فَأَيَّنَ أَنَّهُ الْمَوْلُودُ الَّذِي يَخَافُ مِنْهُ فِرْعَوْنَ ، فَأَمَّنَ مِنْ ذَلِكَ الْوَقْتِ ، وَهُوَ  
 مُؤْمِنٌ آلِ فِرْعَوْنَ ، ذَكَرَهُ الْمَسَاوِدِيُّ . وَقَالَ ابْنُ حِبَّاسٍ : فَلَمَّا تَوَارَى عَنْهَا نَذَمَهَا الشَّيْطَانُ  
 وَلَالَاتِ فِي نَفْسِهَا ؛ لَوْ ذَبَحَ عِنْدِي فَكُفَّتْهُ وَوَارَيْتَهُ لَكَانَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ إِيَّاهُ فِي الْبَحْرِ ،

فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا وَادَّوُدَ وَإِسْحَاقَ وَجَعَلُوهُ مِنَ الْمُسْرَلِينَ ﴾ أَي إِلَى أَهْلِ مِصْرَ . حَكَ  
الْأَصْمَعِيُّ قَالَ : سَمِعْتُ جَارِيَةَ أَعْرَابِيَّةٍ تَنْشُدُ وَقَوْلُ :

اسْتَغْفِرُ اللَّهَ لَدُنِّي كَلَّهُ • قَبِلْتُ إِنْسَانًا بِضِعْرِ حِلَّةٍ .  
مِثْلُ الْفَزَالِ نَاعِمًا فِي دَلَّهِ • فَأَتَنَصَّفُ اللَّيْلُ وَلَمْ أَصَلَّهُ

فَقُلْتُ : فَأَنْتَ اللَّهُ مَا أَفْصَحَكَ ! فَقَالَتْ : أَوْ يَسَدُ هَذَا فَصَاحَةً مَعَ قَوْلِهِ تَعَالَى : « وَأَوْحَيْنَا  
إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ » الْآيَةُ ، بِجَمْعٍ فِي آيَةٍ وَاحِدَةٍ بَيْنَ أَمْرَيْنِ وَنَهْيَيْنِ وَخَبَرَيْنِ  
وَبَشَارَتَيْنِ •

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَاتَّقَطْهُ أَلْ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ لِمَا كَانَ التَّقَاطُفُ إِذَا  
يُؤْذَى إِلَى كَوْنِهِ لَمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ، فَالْأَلَمُ فِي « لِيَكُونَ » لَامُ الْعَاقِبَةِ وَلَا مَ الصِّرُورَةِ ، لِأَنَّهُمْ إِذَا  
أَخَذُوهُ لِيَكُونَ لَمْ قِرَّةً عَيْنَ ، فَكَانَ عَاقِبَةُ ذَلِكَ أَنْ كَانَ لَمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ، فَذَكَرَ الْحَالُ بِالْمَالِ ،  
كَأَنَّ قَوْلَ الشَّاعِرِ :

وَالنَّايَا تَرْبِي كُلَّ مُرْضِعَةٍ • وَدُورُنَا لَخَرَابِ الدَّهْرِ تَبْلِيهَا  
وَقَالَ آخِرُ :

فَلَمُوتِ تَقْدُو الْوَالِدَاتِ سِجَالَمَا • كَمَا لَخَرَابِ الدَّهْرِ ثُبْقَى الْمَسَاكِينُ  
أَيُ فَعَاقِبَةُ الْبَاءِ الْخَرَابِ وَإِنْ كَانَ فِي الْحَالِ مَفْرُوسًا بِهِ • وَالْأَتَقَاطُ وَجُودُ الشَّيْءِ مِنْ غَيْرِ طَلَبٍ  
وَلَا إِزَادَةَ ، وَالْمَرْبُ يَقُولُ لِمَا وَجَدَهُ مِنْ غَيْرِ طَلَبٍ وَلَا إِزَادَةَ : التَّقَطُّهُ التَّقَاطُ • وَلَقِيَتْ  
فَلَانَا أَنْتَقَاطًا • قَالَ الرَّابِعُ <sup>(١)</sup> :

• وَمَتَّهَلٍ وَرَدُّهُ أَنْتَقَاطًا •

وَمَتَّهَلٍ الْفَقْطَةُ • وَقَدْ مَضَى بَيَانُ ذَلِكَ مِنَ الْأَحْكَامِ فِي سُورَةِ « يُونُسَ » بِمَا فِيهِ كِفَايَةٌ • وَقَرَأَ  
الْأَعْمَشُ وَيَحْيَى وَالْمُفَضَّلُ وَحُمَزَةُ وَالْكَسَائِيُّ وَخَلْفُ « وَحَزَنًا » بِجَهْمِ الْحَاءِ وَسُكُونِ الزَّايِ •  
الْبَاقُونَ بِفَتْحِهَا وَأَخْتَارَهُ أَبُو عَيْسَى • وَأَبُو حَاتِمٍ قَالَ التَّفْخِيمُ فِيهِ • وَهِيَ لَفْظَانِ مِثْلُ الْعَدَمِ

(١) حُرُوفُ الْقَادَةِ الْأَسْفَى ، كَمَا فِي الْقَامَةِ مَادَّةُ « قَطْ » • (٢) رَاجِعٌ ج ٩ ص ١٢٤ وَمَا يَهْدِيهَا  
طَبْعَةُ أَوَّلِ أَرْقَانِيَّةٍ • (٣) تَفْخِيمٌ فِي أَصْلَاحِ الْفَرَادِ ، فَتَخَع •

وَأَلْعَمْتُ، وَالسَّعْمُ وَالشَّعْمُ، وَالرَّشْدُ وَالرُّشْدُ . ( إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ ) وكان وزيره من القبط .  
( وَجُنُودُهُمَا كَانُوا خَاطِلِينَ ) أى عاصين مشركين آثمين .

قوله تعالى : ( وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةَ عَيْنٍ لِي وَلَئِكَ لَا تَقْتُلُوهُ ) يروى أن أسية امرأة فرعون رأت التابوت يعوم في البحر، فأمرت بسوقه إليها وفتحه، فرائت فيه صبيا صغيرا فرحمته وأحبته، فقالت لفرعون : « قُرَّةَ عَيْنٍ لِي وَلَئِكَ » أى هوقرة عين لي ولك ذ « قُرَّةٌ » خبر ابتداء مضمرة، قاله للكسائي . وقال النحاس : وفيه وجه آخر بعيد ذكره أبو إسحق [ قَالَ ] : يكون رفعا بالابتداء والخبر وَلَا تَقْتُلُوهُ وإنا بعد لأنه يصير المعنى أنه معروف بأنه قرة عين . وجوازه أن يكون المعنى : إذا كان قرة عين لي ولك فلا تقتلوه . وقيل : ثم الكلام عند قوله : « ولك » . النحاس : والدليل على هذا أن في قراءة عبد الله بن مسعود « وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ لَا تَقْتُلُوهُ قُرَّةَ عَيْنٍ لِي وَلَئِكَ » . ويمحوز النصب بمعنى لا تقتلوا قرة عين لي ولك . وقالت : « لَا تَقْتُلُوهُ » ولم تقل لا تقتله فهي مخاطبة فرعون كما يخاطب الجبارون ، وكما يخرجون عن أنفسهم . وقيل : قالت « لَا تَقْتُلُوهُ » فإن الله أتى به من أرض أخرى وليس من بنى إسرائيل . ( عَسَى أَنْ يَتَغَفَّلَا ) فتصيب منه خيرا ( أَوْ يُنْقِذَهُ وَلَدًا ) وكانت لا تله ، فاستهبت موسى من فرعون فوهبه لها ، وكان فرعون لما رأى الرؤيا وقصها على كهنته وعلمائه — على ما تقدم — قالوا له : إن غلاما من بنى إسرائيل يفسد ملكك ، فأخذ بنى إسرائيل بذبح الأطفال ، فرأى أنه يقطع نسلهم ، فعاد يذبح عاما ويستحي عاما ، فولد هرون في عام الاستحياء، وولد موسى في عام الذبح .

قوله تعالى : ( وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ) هذا ابتداء كلام من الله تعالى ، أى وهم لا يشعرون أن هلاكهم بسببه . وقيل : هو من كلام المرأة؛ أى وبنو إسرائيل لا يدرون أنا النقطاء، ولا يشعرون إلا أنه ولدنا . واختلف المتأولون في الوقت الذي قالت فيه امرأة فرعون « قُرَّةَ عَيْنٍ لِي وَلَئِكَ » فقالت فرقة : كان ذلك عند النقطاء التابوت لما أشمرت فرعون به ،

ولما أحلته سبق إلى فهمه أنه من بني إسرائيل، وأن ذلك قصد به لتخلص من الذبح قال:  
 عليّ بالذابحين، فقالت أمراؤه ما ذكر، فقال فرعون: أنا لي فلا. قال النبي صلى الله  
 عليه وسلم: «لو قال فرعون نعم لأن موسى ولكن قرّة عين له» وقال السدي: بل وبه  
 حتى درج، فرأى فرعون فيه شهامة وظنه من بني إسرائيل وأخذ في يده، فد موسى يده  
 وتنفح لحيه فرعون، فهمّ جيلده بذبحه، وحيثما خاطبته بهذا، وجربته له في الباقوة والبحرة،  
 فاحرق لسانه وعلق العقدة على ما تقدم في «طه». قال القرطبي: سمعت محمد بن مروان  
 الذي يقال له السدي يذكر عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس أنه قال: إنما قالت  
 «قرّة عين لي ولك لا» ثم قالت: «تقتلوه» قال القرطبي: وهو لمن، قال ابن الأثيري:  
 وإنما حكم عليه باللعن، لأنه لو كان كذلك لكان يقتلونه بالنون، لأن الفعل المستقبل مرفوع  
 حتى يدخل عليه الناصب أو الجازم، فالنون فيه علامة الرفع. قال القرطبي: ويقولك من رده  
 قراءة عبد الله بن مسعود: «وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ لَا تَقْتُلُوهُ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ» بتقديم  
 «لَا تَقْتُلُوهُ».

قوله تعالى: وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَرِحًا إِنَّ كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ  
 لَوْلَا أَنَّ رَبَّنَا عَلَى قُلُوبِهَا لَتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتِ لِأَخِيهِ  
 قُصِّهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاعِعَ  
 مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُمْ  
 نَصِصُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَى آتِيهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلَنَعْلَمَ  
 أَنْتَ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ  
 وَاسْتَوَى ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ( وَأَصْبَحَ قَارِئُ أُمِّ مُوسَىٰ قَارِئًا ) قال ابن مسعود وابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة وقتادة والضحاك وأبو عمران الجوني وأبو عبيدة : « قَارِئًا » أى خاليا من ذكر كل شيء فى الدنيا إلا من ذكر موسى . وقال الحسن أيضا وابن إسحق وابن زيد : « فارغا » من الوحى إذ أوحى إليها حين أمرت أن تنقيه فى البحر « وَلَا تَحْزَنْ وَلَا تَحْزَنْ » والعهد الذى عهده إليها أن يرده ويمجله من المرسلين ؛ فقال لما الشيطان : يا أم موسى كرهت أن يقتل فرعون موسى ففرقيته أنت ! ثم بلغها أن ولدها وقع فى يد فرعون فأنساها عظم البلاء ما كان من عهد الله إليها . وقال أبو عبيدة : « قَارِئًا » من التمس والحزن لعلها أنه لم يفرق ؛ وقاله الأخفش أيضا . وقال العلاء بن زياد : « فارِغًا » نافرا . الكسائى : ناسيا ذاهلا . وقيل : والمها ؛ ورواه سعيد بن جبير . ابن القاسم عن مالك : هو ذهاب العقل ؛ والمعنى أنها حين سمعت بوقوعه فى يد فرعون طار عقلها من فرط الجزع والدهش ، ونحوه قوله تعالى : « وَأَفْلَتْهُمْ هَوَاهُ » أى جوف لا عقول لما كما تقدم فى سورة « إبراهيم » . وذلك أن القلوب مراكر العقول ؛ ألا ترى إلى قوله تعالى : « تَتَكُونُ لِمَنْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا » ويدل عليه قراءة من قرأ « قَرِغًا » . النحاس : أصح هذه الأقوال الأول ، والذين قالوه أعلم بكتاب الله عز وجل ؛ فإذا كان فارغا من كل شيء إلا من ذكر موسى فهو فارغ من الوحى . وقول أبى عبيدة فارغا من التمس غلط قبيح ؛ لأن جمده « إِنَّ كَادَتْ لَتُبْدَىٰ بِهِ لَوْلَا أَنَّ رَبَّنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا » . روى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كادت تقول وا ابتاه ! وقرأ فضالة ابن عبيد الأنصارى رضى الله عنه ومحمد بن السميع وأبو العالية وابن محيصن « قَرِغًا » بالفاء والعين المهملة من الفرغ ؛ أى خائفة عليه أن يقتل . ابن عباس : « قَرِغًا » بالفاء والراء والعين المهملتين ، وهى راجعة إلى قراءة الجماعة « قَارِغًا » ولذلك قيل للرأس الذى لا شعر عليه : أفرع ؛ لفراغه من الشعر . وحكى قطرب أن بعض أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم قرأ « قَرِغًا » بالفاء والراء والذين المعجمة من غير ألف ، وهو كقولك : هدا وباطلا ؛ يقال :

دماؤهم بينهم قَرِخَ أى هدر ؛ والمعنى بطل قلبها وذهب وبقيت لا قلب لها من شدة ماورد عليها . وفى قوله تعالى « وَأَصْبَحَ » وجهان : أحدهما - أنها ألقته ليلا فأصبح فؤادها فى النهار فارغا . الثانى - أنها ألقته نهارا ومعنى « أصبح » أى صار ؛ كما قال الشاعر :

مضى الخلفاء بالأمر الرشيد • وأصبحت المدينة للوليد

﴿ إِن كَادَتْ ﴾ أى إنها كادت ؛ فلما حذفت الكاية سكنت النون ، فهى « إن » المنخفضة ولذلك دخلت اللام فى ﴿ لَتُبْدَى بِهِ ﴾ أى لتظهر أمره ؛ من بدا يبدو إذا ظهر . قال ابن عباس : أى تصبح عند إلقائه ؛ وا ابنه . السدى : كادت تقول لما حُلِمَتْ لإرضاعه وحضائه هو أبى . وقيل : إنه لما شَبَّ سمعت الناس يقولون موسى بن فرعون ، فشق عليها وضاق صدرها ، وكادت تقول هو أبى . وقيل : الهاء فى « به » عائدة إلى الوحى تقديره : إن كادت لتبدى بالوحى الذى أوحيناه إليها أن زده عليها . والأول أظهر . قال ابن مسعود : كادت تقول أنا أمه . وقال القراء : إن كادت لتبدى باسمه لضيق صدرها . ﴿ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا ﴾ قال قتادة : بالإيمان . السدى : بالمصمة . وقيل : بالصبر . والربط على القلب : إلهام الصبر . ﴿ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى من المصدقين بوعد الله حين قال لها : « إِنَّا رَأَوْنَاهُ إِلَيْكَ » . وقال « لَتُبْدَى بِهِ » ولم يقل : لتبديه ؛ لأن حروف الصفات قد تزداد فى الكلام ؛ تقول : أخذت الحبل والحبل . وقيل : أى لتبدى القول به .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيْهِ ﴾ أى قالت أم موسى لأخت موسى : أتبى أثره حتى تسلمى خبره . وأسمها مريم بنت عمران ؛ وافق اسمها اسم مريم أم عيسى عليه السلام ، ذكره السهيل والتعنى . وذكر المساوردى عن الضحاك : أن اسمها كلممة . وقال السهيل : كلثوم ؛ جاء ذلك فى حديث رواه الزبير بن بكار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لخديجة : " أشعرت أن الله زوجنى معك فى الجنة مريم بنت عمران وكلثوم أخت موسى وآسية امرأة فرعون " فقالت : الله أخبرك بهذا ؟ فقال : " نعم " فقالت بالرفاء والبنين . ﴿ قَبَّصَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ ﴾ أى بعد ؛ قاله مجاهد . ومنه الأجنبى .



قال الشاعر<sup>(١)</sup> :

فَلَا تَحْزَمْنِي نَائِلًا عَنْ جَنَابِيَةِ \* فَإِنِّي أَمْرُؤُ وَسَطُ الْقَبَابِ غَرِيبُ

وأصله عن مكان جنب . وقال ابن عباس : « عَنْ جُنُبٍ » أى عن جانب . وقرأ النعمان ابن سالم « عن جَانِبٍ » أى عن ناحية . وقيل : عن شوق ؛ وحكى أبو عمرو بن العلاء أنها لغة للجدام ؛ يقولون : جنبت إليك أى أشقت . وقيل : « عن جنبٍ » أى عن بجانب لها منه فلم يعرفوا أنها منه بسبيل . وقال قتادة : جعلت تنظر إليه بناحية [ كأنها<sup>(٢)</sup> ] لا تريده ، وكان يقرأ « عَنْ جُنُبٍ » بفتح الجيم وإسكان النون . نَزَّوْهُمْ لَا يَشْعُرُونَ<sup>(٣)</sup> ؛ أنها اخته لأنها كانت تمشي على ساحل البحر حتى رأتهم قد أخذوه .

قوله تعالى : ( وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ ) أى منعناه من الارتضاع من قبل ؛ أى من قبل بحى أمه وأخته . و « المراضع » جمع مُرَضِع . ومن قال مراضيع . فهو جمع مريضاع ، ومفعال يكون للتكثير ، ولا تدخل الماء فيه فرقا بين المؤنث والمذكر لأنه ليس يجار على الفعل ، ولكن من قال مريضاعة جاء بالماء للبالغة ؛ كما يقال مطرابة . قال ابن عباس : لا يؤتى بمريضع فيقبلها . وهذا تحريم منع لا تحريم شرع ؛ قال أمرؤ القيس :

جَاءَتْ لِتَصْرَعَنِي قَعْلَتْ لَهَا أَقْصَرَى \* إِنِّي أَمْرُؤُ صَرَعِي عَلَيْكَ حَرَامُ

أى ممتنع . فلما رأت أخته ذلك قالت : ( هَلْ أَدْلُكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ ) الآية . فقالوا لها عند قولها : ( وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ) وما يدريك ؟ لملك تعرفين أهله ؟ قالت : لا ؛ ولكنهم يحرمون على مسرة الملك ، ويرغبون في ظنّه . وقال السدى وابن جرير : قيل لها لما قالت « وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ » قد عرفت أهل هذا الصبي فدلينا عليهم ؛ فقالت : أردت وهم للأك ناصحون . فدلتهم على أم موسى ، فأنطلقت إليها بأمرهم بغفائ بها ، والصبى على يد فرعون لعله شفقة عليه ، وهو يبكي يطلب الرضاع ، فدفعه إليها ؛ فلما وجد الصبي

(١) هو عتبة بن عتبة ، قاله بخطاب به الحرث بن جبلة يمدحه ، وكان قد أسر أخاه شاسا — وأراد بالناقل إطلاق أخيه شاس من جهة — فأطلق له أخاه شاسا ومن أسره من بني نجيم . (٢) اثر زيادة من كتب التفسير . (٣) جالت - قعلت - ذهبت الناقة بقلتها ونشاطها الصرعى فلم تقدر على ذلك لحدق بالركوب ومرقته به .

ودج أمه قبل نديها . وقال ابن زيد : استرايوها حين قالت ذلك فقالت وهم لك ناصحون .  
وقيل : إنما لما قالت « هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ يَمْتِ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ » وكانوا يبالغون في طلب  
مرضعة يقبل نديها فقالوا : من هي ؟ قالت : أمي ؛ قيل : لها لبن ؟ قالت : نعم ! لبن  
هرون - وكان ولد في سنة لا يقتل فيها الصبيان - فقالوا صدقت والله . « وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ »  
أي فيهم شفقة ونصح ؛ فروى أنه قيل لأم موسى حين أرتضع منها : كيف أرتضع منك  
ولم يرتضع من غيرك ؟ فقالت : إني امرأة طيبة طيبة اللبن ، لا أكاد أوتي بصبي  
إلا أرتضع مني . قال أبو عمران الجوني : وكان فرعون يعطى أم موسى كل يوم دينارا .  
قال الزمخشري : فإن قلت كيف حل لها أن تأخذ الأجر على إرضاع ولدها ؟ قلت : ما كانت  
تأخذه على أنه أجر على الرضاع ، ولكنه مال حربي تأخذه على وجه الاستباحة .

قوله تعالى : ( فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ ) أي رددناه وقد عطف الله قلب المذنب عليه ، ووفينا  
لها بالوعد . ( كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا ) أي بولدها . ( وَلَا تَحْزَنَ ) أي بفراق ولدها . ( وَلَنَسْلَمَنَّ أُمَّهُ  
وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا ) أي لنعلم وقوعه فإنها كانت عالة بأن رده إليها سيكون . ( وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ  
لَا يَعْلَمُونَ ) بنى أكثر آل فرعون لا يعلمون ؛ أي كانوا في غفلة عن التقدير وشر القضاء .  
وقيل : أي أكثر الناس لا يعلمون أن وعد الله في كل ما وعد حق .

قوله تعالى : ( وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آمَنَّا بِهِ حُكْمًا وَعِلْمًا ) قد مضى الكلام في الأشد  
في « الأنعام » . وقول ربيعة ومالك أنه الحلم أولى ما قيل فيه ؛ لقوله تعالى : « حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا  
النَّكَاحَ » وذلك أول الأشد ، وأقصاه أربع وثلاثون سنة ؛ وهو قول سفيان الثوري .  
و « استوى » قال ابن عباس : بلغ أربعين سنة . والحكم : الحكمة قبل النبوة . وقيل :  
الفقه في الدين . وقد مضى بيانها في « البقرة »<sup>(١)</sup> وضيها . والعلم الفهم قول السدي . وقيل :  
النبوة . وقال مجاهد : الفقه . محمد بن إسحق : أي العلم بما في دينه ودين آبائه ؛ وكان له تسعة  
من بنى إسرائيل يسمعون منه ، ويقتدون به ، ويحتمعون إليه ، وكان هذا قبل النبوة .

(١) راجع ج ٧ ص ١٣٤ وما بعدها طبعه أول أدبانية . (٢) راجع ج ٢ ص ١٣١ طبعه ثانية .

(وَكَلِّكَ نَجْرَى الْمَسِينِ) أى كما جزينا أم موسى لما استسلمت لأمر الله، وألقت ولدها في البحر، وصلقت يوحى الله؛ فرددنا ولدها إلها بالحف والطرف وهى آمنة، ثم وهبنا له العقل والحكمة والنبوة؛ وكذلك نجزي كل محسن .

قوله تعالى : وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَنَفَتُهُ الَّذِي مِّنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِّنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٧﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَتَعَمْتُ عَلَىٰ فُلَانٍ أَكُونُ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَأَمَّا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ اسْتَنْصَرَهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٩﴾ فَلَمَّا أَنِ ارَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَمْوَسَّىٰ أَرِيدُ أَنْ نَبْتَلِيكَ كَمَا بَتَلْنَاكَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : ( وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ) قيل : لما عرف موسى عليه السلام ما هو عليه من الحق في دينه ، طاب ما عليه قوم فرعون ، وفشا ذلك منه فأخافوه تخافهم ، فكان لا يدخل مدينة فرعون إلا خائفا مستخفيا ، وقال السدي : كان موسى في وقت هذه القصة على رءم العلق فرعون ، وكان يركب صراكه ، حتى كان يدعى موسى ابن فرعون ؛ فركب فرعون يوما وصار إلى مدينة من مدائن مصر يقال لها منف — قال مقاتل على رأس فرعونين من مصر — ثم علم موسى بركوب فرعون ، فركب بجلده ولحق بتلك القرية في وقت

القائلة، وهو وقت الغفلة؛ قاله ابن عباس . وقال أيضا : هو بين العشاء والعمة . وقال ابن إسحق : بل المدينة مصر نفسها، وكان موسى في هذا الوقت قد أظهر خلاف فرعون، وعاب عليهم عبادة فرعون والأصنام، فدخل مدينة فرعون يوما على حين غفلة من أهلها . قال سعيد بن جبير وقادة: وقت الظهيرة والناس نيام ، وقال ابن زيد : كان فرعون قد نابذ موسى وأخرجته من المدينة، وغاب عنها سنين، وجاء والناس على غفلة بنسيانهم لأمره، وبعد عهدهم به، وكان ذلك يوم عيد. وقال الضحاك: طلب أن يدخل المدينة وقت غفلة أهلها، فدخلها حين علم ذلك منهم، فكان منه من قتل الرجل من قبل أن يؤمر بقتله، فأستغفر ربه فغفر له. ويقال في الكلام: دخلت المدينة حين غفل أهلها، ولا يقال: على حين غفل أهلها؛ فدخلت «على» في هذه الآية لأن الغفلة هي المقصودة؛ فصار هذا كما تقول: جئت على غفلة، وإن شئت قلت : جئت على حين غفلة، وكذا الآية . (فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَـذَا مِنْ شِيعَةِ ) والمعنى : إذا نظر إليهما الناظر قال هذا من شيعة ، أى من بنى إسرائيل . (وَهَـذَا مِنْ عَدُوِّهِ) أى من قوم فرعون . (فَاسْتَفَاهُ الَّذِى مِنْ شِيعَتِهِ) أى طلب نصره وغوثه، وكذا قال في الآية بعدها : «فَإِذَا الَّذِى اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِحُهُ» أى يستنثب به على قبلى آخر . وإنما أغاثه لأن نصر المظلوم دين في الملل كلها على الأمم، وفرض في جميع الشرائع . قال قتادة : أراد القبطى أن يسخر الإسرائيل ليحمل حطباً لمطبخ فرعون فأبى عليه، فأستغاث بموسى . قال سعيد بن جبير : وكان خبازا لفرعون . (فَوَكَرَهُ مُوسَى) قال قتادة : بصاه . وقال مجاهد : بكفه؛ أى دفعه . والوكر والكرك واللّهز واللّهذ بمعنى واحد ، وهو الضرب يجمع الكف مجوعا كعقد ثلاثة وسبعين . وقرأ ابن مسعود «فَكَرَهُ» . وقيل : الكرك في اللهى والوكر على القلب . وحكى الثعلبى أن في مصحف عبد الله بن مسعود «فَكَرَهُ» بالنون والمعنى واحد . وقال الجوهري عن أبى عبيدة : الكرك الضرب بالجمع على الصدر . وقال أبو زيد : في جميع الجسد ، واللهز : الضرب يجمع اليد في الصدر مثل الكرك ؛ عن أبى عبيدة أيضا . وقال أبو زيد : هو بالجمع في اللهازم والرقبة ؛ والرجل يلهز بكسر الميم .

وقال الأصمى : نَكَرَهُ ؛ أى ضربه ودفعه . الكسائي : نَهَزَهُ مثل نَكَرَهُ وَوَكَّرَهُ ، أى ضربه ودفعه . وَلَهْدَهُ لَهْدًا أى دفعه لأنه فهو ملهود ؛ وكذلك لَهْدَهُ ، قال طَرَفَةُ يَذُمُّ رجلاً :

بطيء عن التَّأْيِ سَرِيعٌ إِلَى الْخَلَا • ذُلُولٌ بِأَجْجَاعِ الرِّجَالِ مُنْهَدٍ<sup>(١)</sup>

أى مُدْفِعٌ وإنما شَدَّدَ للكثرة . وقالت عائشة رضى الله عنها : فَهَدَنِي - تعنى النبى صلى الله عليه وسلم - لَهْدَةً أَوْجَعَنِي ؛ خَرَجَهُ مُسْلِمٌ . ففعل موسى عليه السلام ذلك وهو لا يريد قتله ، إنما قصد دفعه فكانت فيه نفسه ، وهو معنى « فَفَضَى عَلَيْهِ » . وكل شئ أَيْتٍ عليه وقرغت منه قضيت عليه . قال :

• قَدْ غَضَّه فَضَى عَلَيْهِ الْأَجْمَعُ •

( قَالَ حَدَّثَنَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ) أى من إغوانه . قال الحسن : لم يكن يحل قتل الكافر يومئذ فى تلك الحال ؛ لأنها كانت حال كَفٍّ عن القتال . ( إِنَّهُ عَدُوٌّ مُبِينٌ ) خبر بعد خبر . ( قَالَ رَبِّ إِنِّ ظَلَمْتُ نَفْسِي فَأَغْفِرْ لِي فَتَغْفِرْ لَهُ ) تدم موسى عليه السلام على ذلك الوكر الذى كان فيه ذهاب النفس ، فحمله ندمه على الخضوع لربه والاستغفار من ذنبه . قال قتادة : عرف والله المخرج فاستغفر ؛ ثم لم يزل صلى الله عليه وسلم يعدد ذلك على نفسه ، مع علمه بأنه قد غفر له ، حتى أنه فى القيامة يقول : إِنِّ قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أَوْمَرْ بِقَتْلِهَا . وإنما عنده على نفسه ذنباً . وقال : « ظَلَمْتُ نَفْسِي فَأَغْفِرْ لِي » من أجل أنه لا يبنى لشيء أن يقتل حتى يؤمر ، وأيضاً فإن الأنبياء يشفقون بما لا يشفق منه غيرهم . قال النقاش : لم يقتله عن عمد مریداً للقتل ، وإنما وكزه وكرة يريد بها دفع ظلمه . قال وقد قيل : إن هذا كَانَ قَبِيلَ النِّبْزَةِ . وقال كعب : كَانَ إِذْ ذَاكَ أَبْنِ اثْنَيْ عَشْرَةَ سَنَةً ، وَكَانَ قَتْلُهُ مَعَ ذَلِكَ خَطَاً ؛ فَإِنَّ الْوَكْرَةَ وَاللَّكْرَةَ فِي الْغَالِبِ لَا تَقْتُلُ . وروى مسلم عن سالم بن عبد الله أنه قال : يَأْهَلُ الْعِرَاقُ ! مَا أَسْأَلُكُمْ عَنِ الصَّغِيرَةِ ، وَأَرْكَبُكُمْ لِلْكَبِيرَةِ ! سمعت أبى عبد الله بن عمر يقول سمعت

(١) وروى . « من الجبل » . والقول ضد الصعب . وروى : « ذليل » . وأجاج جمع ( جمع ) وهو ظهر الكف إذا جمعت أصابعك وضمتها . (٢) هو جرير . والأصح يريد به الشجاع من المقات . ومندوليت :

• أَيَايَشُونَ وَدَّ وَأَرَا حَافِئِهِمْ •

وصول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن الفتنة تجيء من هاهنا - وأوما بيده نحو المشرق - من حيث يطلع قرن الشيطان وأتم بعضكم يضرب رقاب بعض وإنما قتل موسى الذي قتل من آل فرعون خطأ فقال الله عز وجل: «وَقَتَلَتْ نَفْسًا فَجِئْنَاكَ مِنَ النَّفْسِ الَّتِي قُتِلَتْ» .

قوله تعالى: ( قَالَ رَبِّ إِنَّمَا أَتَمَمْتُ عَلَىٰ قَلْبٍ أَكُونُ ظَاهِرًا لِلْمُجْرِمِينَ ) فيه مستلطان: الأولى - قوله تعالى: « قَالَ رَبِّ إِنَّمَا أَتَمَمْتُ عَلَىٰ » أى من المعرفة والحكمة والوحيد « قَلْبٍ أَكُونُ ظَاهِرًا لِلْمُجْرِمِينَ » أى عوناً للكافرين . قال القشيري: ولم يقل بما أنعمت على من المغفرة؛ لأن هذا قيل الوحي، وما كان علماً بأن الله غفر له ذلك القتل . وقال الساوردي: « إِنَّمَا أَتَمَمْتُ عَلَىٰ » فيه وجهان: أحدهما - من المغفرة؛ وكذلك ذكر المهدوي والثعلبي . قال المهدوي: « إِنَّمَا أَتَمَمْتُ عَلَىٰ » من المغفرة فلم تعاقبنى . الوجه الثانى - من الهداية . قلت: «فَغَفَرَهُ» يدل على المغفرة؛ والله أعلم . قال الزمخشري قوله تعالى: « إِنَّمَا أَتَمَمْتُ عَلَىٰ » يجوز أن يكون قسماً جوابه محذوف تقديره: أقسم بإنسامك على المغفرة لأنون . «قَلْبٍ أَكُونُ ظَاهِرًا لِلْمُجْرِمِينَ» . وأن يكون استعطاء كأنه قال: رب أعصمني بحق ما أنعمت على من المغفرة فلن أكون إن عصمتني ظهيراً للمجرمين . وأراد بمظاهرة المجرمين إما محبة فرعون وانتظامه في جلته، وتكثير سواده، حيث كان يركب بركوبه كالولد مع الوالد، وكان يسمى ابن فرعون؛ وإما بمظاهرة من أدت مظاهرته إلى الحرم والإثم، كمظاهرة الإسرائيل - المؤدية إلى القتل الذى لم يحل له قتله . وقيل: أراد إني وإن أسأت في هذا القتل الذى لم أؤمر به فلا أترك نصرة المسلمين على المجرمين؛ فعلى هذا كان الإسرائيل - مؤمناً ونصرة المؤمن واجبة في جميع الشرائع . وقيل في بعض الروايات: إن ذلك الإسرائيل كان كافراً، وإنما قيل له إنه من شيعته لأنه كان إسرائيلياً ولم يرد الموافقة في الدين؛ فعلى هذا ندم لأنه أعان كافراً على كفر، فقال: لا أكون بعدها ظهيراً للكافرين . وقيل: ليس هذا خبراً بل هو دعاء؛ أى فلا أكون بعد هذا ظهيراً؛ أى فلا تجعلنى يارب ظهيراً للمجرمين . وقال القراء:

المعنى : اللهم قلن أكون ظهيراً للجرمين ؛ وزعم أن قوله هذا هو قول ابن عباس . قال التماس :  
وأن يكون بمعنى الخبر أولى وأشبه بنسق الكلام ؛ كما يقال : لا أعصيك لأني أنعمت عليك .  
وهذا قول ابن عباس على الحقيقة لا ما حكاه القراء ؛ لأن ابن عباس قال : لم يستثن فأبطل  
من ثاني يوم ؛ والأستثناء لا يكون في الدعاء ، لا يقال : اللهم أغفر لي إن شئت ؛ وأعجب  
الأشياء أن القراء روى عن ابن عباس هذا ثم حكى عنه قوله .

قلت : قد مضى هذا المعنى ملخصاً مبيناً في سورة « التمسح » وأنه خبر لا دعاء . وعن  
ابن عباس : لم يستثن فأبطل به مرة أخرى ؛ يعني لم يقل قلن أكون إن شاء الله . وهذا  
نحو قوله : « وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا » .

الثانية — قال سلمة بن نُوَيْط : بعث عبد الرحمن بن مسلم إلى الضحاك بعطاء أهل  
بخارى وقال : أعطهم ؛ فقال : أصفي ؛ فلم يزل يستغفبه حتى أعطاه . فقيل له ما عليك أن  
تعطيهم وأنت لا تزوهم شيئا ؟ وقال : لا أحب أن أمين الظلمة على شيء من أمرهم . وقال  
عبد الله بن الوليد الوصافي قلت لعطاء بن أبي رباح : إن لي أخا يأخذ بقلبه ، وإنما يجب  
ما يدخل ويخرج ، وله عيال ولو ترك ذلك لاحتاج وأدنان ؟ فقال : من الرأس ؟ قلت :  
خالد بن عبد الله القسري ؛ قال : أما قرأ ما قال العبد الصالح « رَبِّ إِنَّمَا أَتَمَمْتُ عَلَى قَلْبِي  
أَكُونُ ظَهْرًا لِلْجَرَمِينَ » قال ابن عباس : فلم يستثن فأبطل به ثانية فأطاعه الله ، فلا بينهم  
أخوك فإن الله يمينه — قال عطاه : فلا يحل لأحد أن يمين ظالما ولا يكتب له  
ولا يصحبه ، وأنه إن فعل شيئا من ذلك فقد صار مينا للظالمين . وفي الحديث : « يتأذى  
متأذى يوم القيامة أين الظلمة وأشياء الظلمة وأحوال الظلمة حتى من لاق لم تدركه أوبى لم  
قلما فيجمعون في تابوت من حديد فيرمى به في جهنم » . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم  
أنه قال : « من مشى مع مظلوم ليعينه على مظلمة ثبت الله قدميه على الصراط يوم القيامة  
يوم تزل فيه الأقدام ومن مشى مع ظالم ليعينه على ظلمة أزل الله قدميه على الصراط يوم تخلص  
فيه الأقدام » . وفي الحديث : « من مشى مع ظالم فقد أجرم » قالني مع الظالم لا يكون جزاء

إلا إذا شئى معه ليعينه ، لأنه أرتكب نهى الله تعالى في قوله سبحانه وتعالى : « وَلَا تَمَآوَنُوا عَلَى الْأَيْمَنِ وَالْعِمَاوِينَ » .

قوله تعالى : ( فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا ) قد تقدم في « طه » وغيرها أن الأتقياء صلوات الله عليهم يخافون ؛ رداً على من قال غير ذلك ، وأن الخوف لا ينافي المعرفة بالله ولا التوكل عليه ؛ فقيل : أصبح خائفاً من قتل النفس أن يؤخذ بها . وقيل : خائفاً من قومه أن يساموه . وقيل : خائفاً من الله تعالى . ( يَتَرَقَّبُ ) قال سعيد بن جبير : يلتفت من الخوف . وقيل : ينتظر الطلب ، وينظر ما يتحدث به الناس . وقال قتادة : « يتربص » أى يتربص الطلب . وقيل : خرج يستخبر الخبر ولم يكن أحد علم بقتل القبطى غير الإسرائيل . و « أصبح » يحتمل أن يكون بمعنى صار ؛ أى لما قتل صار خائفاً . ويحتمل أن يكون دخل في الصباح ؛ أى في صباح اليوم الذى يلى يومه . و « خَائِفًا » منصوب على أنه خبر أصبح ، وإن شئت على الحال ، ويكون الظرف في موضع الخبر . ( فَإِذَا الَّذِي اٰسْتَنْصَرُوهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ) أى فإذا صاحبه الإسرائيل الذى خلّصه بالأمس يقاتل قبطياً آخر أراد أن يسخره . والاستصراخ الاستغاثة . وهو من الصراخ ؛ وذلك لأن المستنثب بصرخ ويصوت في طلب القوّث . قال :

مُخَّأً إِذَا مَا أَنَا صَارَخُ فَيَزِعُ . كَانَ الصُّرَاخُ لَهُ قِرْعَ الظَّنَائِبِ

قيل : كان هذا الإسرائيل المستنصر السامرى استسخره طياخ فرعون في حمل الحطب إلى المطبخ ؛ ذكره القشبرى . و « الذى » رفع بالابتداء و « يستصرخه » في موضع الخبر . ويجوز أن يكون في موضع نصب على الحال . وأمس لليوم الذى قبل يومك ، وهو مبنى على الكسر لالتقاء الساكنين ، فإذا دخله الألف واللام أو الإضافة تمكن فأعرب بالرفع والفتح عند أكثر النحويين . ومنهم من يبينه وفيه الألف واللام . وحكى سيويه وغيره أن

(١) راجع ج ١١ ص ٢٠٢ طبعة أول أو ثانية . (٢) هو سلامة بن جندل . وطمنايب

(مع غلبوب) : وهو حرف العظم اليابس من الساق . والمراد مرة الإجابة .



من العرب من يجرى أمس مجرى ما لا ينصرف في موضع الرفع خاصة، وربما أضطر الشاهر  
فعمل هذا في الخفض والنصب؛ قال الشاعر :

• لقد رأيت عجباً مذأساً •

نخفض بمذ ما مضى واللغة الجيدة الرفع؛ فأجرى أمس في الخفض مجراه في الرفع مل اللغة  
الثانية . ( قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ) والغوى الخائب؛ أى لأنك تنشأ من لا تطيقه .  
وقيل : مضل بين الضلالة ؛ قتلت بسببك أمس رجلاً ، وتدعونى اليوم لآثر . والغوى  
فعل من أغوى بفسوى ، وهو بمعنى مغى ؛ وهو كالجميع والأليم بمعنى المورجع والمولم .  
وقيل : الغوى بمعنى الفسوى . أى إنك لغوى في قتال من لا تطيق دفع شره عنك .  
وقال الحسن : إنما قال للقبلى « إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ » في استسغار هذا الإسرائيلى وهم أن  
يبطش به . يقال بَطَشَ يَبْطِشُ وبيطش والضم أقيس لأنه فعل لا يتعدى . ( قَالَ يَا مُوسَى  
أُرِيدُ أَنْ تَمُوتَ ) قال ابن جبير . أراد موسى أن يبطش بالقبلى فتوم الإسرائيلى أنه  
يريده ؛ لأنه أغلظ له في القول ؛ فقال : « أُرِيدُ أَنْ تَمُوتَ كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ » فسمع  
القبلى الكلام فأنشاه . وقيل : أراد أن يبطش الإسرائيلى بالقبلى فنهاه موسى بخلاف  
منه ؛ فقال : « أُرِيدُ أَنْ تَمُوتَ كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ » . ( إِنْ تُرِيدُ ) أى ما تريد .  
( إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ ) أى قتلاً ؛ قال عكرمة والشعي : لا يكون الإنسان جباراً  
حتى يقتل تسعين بغير حق . ( وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ) أى من الذين يصلحون  
بين الناس .

قوله تعالى : وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَمْوَسِي  
إِنَّ أَمْلًا يَأْتِمِرُونَ بِكَ لَيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِلَىٰ لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٦٥﴾  
فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٦﴾  
وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : ( وَجَاءَ رَجُلٌ ) قال أكثر أهل التفسير : هذا الرجل هو حزقيل بن صبورا مؤمن آل فرعون ، وكان ابن عم فرعون ؛ ذكره التلطي . وقيل : طالوت ؛ ذكره السجستاني . وقال المهدوي عن قتادة : اسمه شمعون مؤمن آل فرعون . وقيل : شمعان ؛ قال الدارقطني : لا يعرف شمعان بالشين المعجمة إلا مؤمن آل فرعون . وروى أن فرعون أمر بقتل موسى فسبق ذلك الرجل بالخبر ؛ ذ ( قَالَ يَأْمُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْمُورُونَ بِكَ ) أى يتشاورون فى قتلك بالقبلى الذى قتله بالأمس . وقيل : يأمر بعضهم بعضا . قال الأزهري : اتآمر القوم وآمروا أى أمر بعضهم بعضا ؛ نظيره قوله : « وَاتَّخِذُوا مِنْكُمْ مَحْرُوفًا » . وقال الثوري بن توب : أرى الناس قد أحدثوا شيعة . وفى كل حادثة يؤتمس

( فَأَخْرَجَ إِلَى لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ . أَخْرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ) أى ينظر الطلب . ( قَالَ رَبِّ انجني من القوم الظَّالِمِينَ ) . وقيل : الجبار الذى يفعل ما يريد من الضرب والقتل بظلم ، لا ينظر فى العواقب ، ولا يدفع بالتي هي أحسن . وقيل : المتعظم الذى لا يتواضع لأمر الله تعالى .

قوله تعالى : ( وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ) لما خرج موسى عليه السلام قازا بنفسه منفردا خائفا ، لاشئ منه من زاد ولا راحلة ولا حذاء نحو مدين ، للنسب الذى بينه وبينهم ؛ لأن مدين من ولد إبراهيم ، وموسى من ولد يعقوب بن إسحق بن إبراهيم ؛ ورأى حاله وعدم معرفته بالطريق ، وخلوه من زاد وغيره ، أسند أمره إلى الله تعالى بقوله : « عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ » وهذه حالة المضطر .

قلت : روى أنه كان يتقوت ورق الشجر ، وما وصل حتى سقط خُف قدميه . قال أبو مالك : وكان فرعون وجهه فى طلبه وقال لهم : أطلبوه فى ثيابت الطريق ، فإن موسى لا يعرف الطريق . بخاءه ملك راجعا فرسا ومعه عترة ، فقال لموسى : أتبعنى ، فأتبعه فهدها إلى الطريق . فيقال : إنه أعطاه العترة فكانت عصاه . وروى أن عصاه إنما أخذها لرعية الفقم من مدين . وهو أكثر وأصح . وقال مقاتل والسدى : إن الله بعث إليه جبريل ؛ فألقه أعلم . وبين مدين ومصر ثمانية أيام ؛ قاله ابن جبير والناس . وكان ملك مدين لنير فرعون .

قوله تعالى : وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْكُونَ  
وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى  
يَصِيرَ آتِرَعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿١٣﴾ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ  
فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَتَيْتُكَ مِنْ خَيْرٍ فَقَبِلْتُ ﴿١٤﴾ فَجَاءَهُ إِحْدَاهُمَا  
تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا  
فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ  
الظَّالِمِينَ ﴿١٥﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَبَاطُيَ اسْتَفْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَعْتَجَرْتَ  
الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿١٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ بِكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ  
عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي تَمْنَنِي جِجَعٌ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ  
أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ذَلِكَ  
بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدُونَنِي عَلَى وَاللَّهِ عَلَى مَا نَقُولُ  
وَكَفٍ ﴿١٨﴾

فيه أربع وعشرون مسألة :

الأولى - قوله تعالى : ( وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ ) مشى موسى عليه السلام حتى ورد  
ماء مدين أى بلغها . ووروده الماء منناه بلفه لا أنه دخل فيه . ولفظة الورد قد تكون  
بمعنى الدخول في المورد ، وقد تكون بمعنى الاطلاع عليه والبلوغ إليه وإن لم يدخل . فورد  
موسى هذا الماء كان بالوصول إليه ؛ ومنه قول زهير :

فَلَمَّا وَرَدَنَ الْمَاءَ زُرْقًا جَاهُهُ • وَضَعَنَ عَيْصَى الْحَاضِرِ الْمُتَخِمِ

وقد تقدمت هذه المعاني في قوله : « وَإِنْ مِتُّكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا » . ومدين لا تنصرف إذ هي بلدة معروفة .  
قال الشاعر :

وَهَيَاتُ مَدِينٍ لَوْ رَأَوْكَ تَتَرَّلُوا \* وَالْمَصْمُ مِنْ شَعَفِ الْجِبَالِ الْقَادِرِ  
وقيل : قبيلة من ولد مدين بن إبراهيم ؛ وقد مضى القول فيه في « الأعراف »<sup>(١)</sup> . والأمة : الجمع الكثير . و( يَسْقُونَ ) معناه ماشيتهم . و( مِنْ دُونِهِمْ ) معناه ناحية إلى الجهة التي جاء منها ، فوصل إلى المرتين قبل وصوله إلى الأمة ، ووجدهما تذودان ومعناه تمنعان وتمحسان ؛ ومنه قوله عليه السلام : « فَلْيَذْأَدَنَّ رَحَالُ عِيسَى حَوْضِي » وفي بعض المصاحف : « أَمْرًا تَيْنِ حَابِسَتَيْنِ تَذُودَانِ » يقال : ذاد يذود إذا [ حبس ]<sup>(٢)</sup> . وذدت الشيء حبسته ؛ قال الشاعر :  
أَيْتُ عَلَى بَابِ الْقَوَائِفِ كَأَمَّا \* أَدُوْدُهَا سِرْبًا مِنَ الْوَحْشِ زُفَا .  
أى أحبس وأمنع . وقيل : « تَذُودَانِ » تطردان ؛ قال :

لَقَدْ سَلَبْتُ عَصَاكَ بَنُو تَيْمٍ \* فَمَا تَذَرِي بَأْسِي عَصَا تَذُودُ

أى تطرد وتكف وتمنع . ابن سلام : تمنعان غنهما لئلا تختلط بغير الناس ؛ فحذف المفعول ؛ إما إيماء على المخاطب ، وإما استغناء بعلبه . قال ابن عباس : تذودان غنهما عن الماء خوفا من السقاة الأقوياء . قتادة : تذودان الناس عن غنهما ؛ قال النحاس : والأول أولى ؛ لأن بعده « قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ » ولو كانتا تذودان عن غنهما الناس لم تخبرا عن سبب تأخير سقيهما حتى يصدر الرعاء . فلما رأى موسى عليه السلام ذلك منهما « قَالَ مَا خَطْبُكُمَا » أى شأنكما ؛ قال رؤبة :

« يَا عَجْبًا مَا خَطْبُهُ وَخَطْبِي »

(١) هو جرير . والعصم ( جمع الأصم ) : وهو من الظباء الذى فى ذوائه بياض ، وقيل : فى ذراعيه ، والهادر : المن منها . وقيل : الضمير . ويرى : « من شفع القول » . وقيل :

« أَمْ طَلْعَةٌ مَا قَبِلْنَا مِنْكُمْ » فى المنجد . ولا يجوز المائر

(٢) راجع - ٧ ص ٢٤٧ طبع أول أو ثانية . (٣) فليذادن ، أى ليطردن . ويرى : « فلا تذادن »  
أى لا تعملوا فضلا يوجب طردكم عنه ، قال ابن الأثير : والأول أشبه . (٤) فى الأصل : « إذا ذهب » وهو محريف . (٥) هو سويد بن كراع يذكر تنقيح شعره . (٦) هو جرير جبر القززدق .

أبن عطية : وكان آستعمال السؤال بالخطب إنما هو في مصاب ، أو مضطهد ، أو من يشفق عليه ، أو يأتي بمنكر من الأمر ، فكانه بالجملة في شره ، فأخبرناه بخبرهما ، وأن أباهما شيخ كبير ، فالعنى : لا يستطيع لضعفه أن يباشر أمر غنمه ، وأنهما لضعفهما وقلة طاقتهما لا يقدران على مزاحمة الأقوياء ، وأن عادتهما التأتى حتى يُصدّر الناس عن الماء ويحجل ، وحينئذ تردان .  
وقرأ ابن عاصم وأبو عمرو : « يَصْدُر » من صَدَرَ ، وهو ضد وَدَى أى يرجع الرّماء . والباقون « يُصْدِر » بضم الياء من أصدر ، أى حتى يصدروا مواشيهم من وِردهم . والرّماء جمع راع ؛ مثل تاجر ونجار ، وصاحب ومصاحب . قالت فرقة : كانت الآبار مكشوفة ، وكان زحم الناس بمنعها ، فلما أراد موسى أن يسقى لها زحم الناس وغلبهم على الماء حتى سقى ، فمن هذا القلب الذى كان منه وصفته إحداها بالقوة . وقالت فرقة : إنهما كانتا نقيعان نقيعاناً في الصّهاريج ، فإن وجدت في الحوض بقية كان ذلك سقيهما ، وإن لم يكن فيه بقية عطشت غنهما ، فرق لها موسى ، فعمد إلى بركات منقطة والناس يسقون من غيرها ، وكان سمجها لا يرقعه إلا سبعة ، قاله ابن زيد . ابن جريح : عشرة . ابن عباس : ثلاثون . الزجاج : أربعون ، فرفضه . وسقى للرأتين ؛ فمن رفع الصخرة وصفته بالقوة . وقيل : إن بئرهم كانت واحدة ، وأنه رفع عنها الحجر بعد انفصال السقاة ، إذ كانت عادة الرأتين شرب الفضلات ، روى عمرو بن معيرون عن عمر بن الخطاب أنه قال : لما آستقى الرعاة غطوا على البئر صخرة لا يقلعها إلا عشرة رجال ، فبأه موسى فاقطعها وآستقى ذنوباً واحداً لم تحتج إلى غيره فسقى لها .

الثانية — إن قيل كيف ساغ لنبى الله الذى هو شبيب صلى الله عليه وسلم أن يرضى لأبنته بسقى الماشية ؟ قيل له : ليس ذلك بمحذور والدين لا يابأه ، وأما المروءة فالناس مخلفون في ذلك ، والعادة متباينة فيه ، وأحوال العرب فيه خلاف أحوال العجم ، ومذهب أهل البلد غير مذهب الحضر ، خصوصاً إذا كانت الحالة حالة ضرورة .

الثالثة — قوله تعالى : ( ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ ) إلى ظل سمرة ؛ قاله ابن مسعود . وتعرض لسؤال ما يطمعه بقوله : ( إِنِّي لَمَّا أَنزَلْتُ إِلَى مِّنْ خَيْرٍ قَبِيرٌ ) وكان لم يدن طعاماً

(١) السرة : حجرة صغيرة الروق ، قصيرة التوك ، لها بومة مفرداً يأكلها الناس .

سجة أيام، وقد لصق بطنه بظهره؛ ففرض بالدعاء ولم يصرح بسؤال؛ هكذا روى جميع المفسرين أنه طلب في هذا الكلام ما يأكله؛ فالخير يكون بمعنى الطعام كما في هذه الآية، ويكون بمعنى المال كما قال: «إِنْ تَرَكَ خَيْرًا» وقوله: «وَأِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ» ويكون بمعنى القوة كما قال: «أَهْمُ خَيْرًاكُمْ قَوْمٌ تُبْع» ويكون بمعنى العبادة كقوله: «وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ» قال ابن عباس: وكان قد بلغ به الجوع، وأخضر لونه من أكل البقل في بطنه، وإنه لأكرم الخلق على الله. ويرى أنه لم يصل إلى مدين حتى سقط باطن قدميه. وفي هذا معبر وإشعار بهوان الدنيا على الله. وقال أبو بكر بن طاهر في قوله: «إِنِّي لِمَا أَتَزَلْتُ لَأَمِّنُ خَيْرٌ قَعِيرٌ» أي إِنِّي لِمَا أَتَزَلْتُ من فضلك وغناك فقير إلى أن تغنيني بك عن سواك. قلت: ما ذكره أهل التفسير أولى؛ فإن الله تعالى إنما أغناه بواسطة شعب.

الرابعة - قوله تعالى: ﴿يَخَافُهُ إِحْدَاهُمَا تَتَّبِعُنِي عَلَىٰ اسْتِجَابَةٍ﴾ في هذا الكلام اختصار يدل عليه هذا الظاهر؛ فقدره [ابن] إسحق: فذهبنا إلى أيهما سريعتين، وكانت عادتاهما الإبطاء في السبق؛ فحدثناه بما كان من الرجل الذي سبق لهما، فأمر الكبرى من بنتيه - وقيل الصغرى - أن تدعوه له «بغامت» على ما في هذه الآية. قال عمرو بن ميمون: ولم تكن سلفاً من النساء، عزّاجة ولاجة. وقيل: جاءته سائرة وجهها بكم يدعها؛ قاله عمر بن الخطاب. وروى أن اسم إحداهما يا والأخرى صفور يا أمتا يثرون، ويثرون هو شعب عليه السلام. وقيل: ابن أمي شعب، وأن شعباً كان قد مات. وأكثر الناس على أنها ابنتا شعب عليه السلام، وهو ظاهر القرآن؛ قال الله تعالى: «وَأَمَّا مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا» كذا في سورة «الأعراف» وفي سورة الشعراء «كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ قَالَ لَهُمُ شُعَيْبٌ» قال قتادة: بعث الله تعالى شعباً إلى أصحاب الأيكة وأصحاب مدين. وقد مضى في «الأعراف» الخلاف في اسم أبيه. فروى أن موسى عليه السلام لما جاءته بالرسالة قام يتبعها، وكان بين موسى وبين أبيها ثلاثة أيام، فهبت ريح ضمت، فقبضها فوصفت عجيزتها، فتخرج موسى من النظر

(١) في الأصل: أبو إسحق والصواب عن تفسير ابن عطية والطرقي . (٢) الصلح من النساء :  
للمريضة على الرجال . (٣) راجع ج ٧ ص ٢٤٧ طبعة أولى أداتية .

إليها فقال : أرجى وأرشدني إلى الطريق بصوتك . وقيل : إن موسى قال ابتداء : كوني ودائي فإني رجل صبراني لا أنظر في أدبار النساء، ودلني على الطريق بيننا أو يساراً، فذلت سبب وصفها [ له ] بالأمانة؛ قاله ابن عباس . فوصل موسى إلى داعيه فقص عليه أمره من أوله إلى آخره فأقره بقوله : ( لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ) وكانت مدين خارجة من مملكة فرعون . وقرب إليه طعاماً فقال موسى : لا أكل ؛ إنا أهل بيت لا نبيع ديننا بعلمه الأرض ذهباً ؛ قال شعيب : ليس هذا عوض السقي ، ولكن عاقبي وعادة آبائي قري الضيف ، وإطعام الطعام ؛ فحيتذ أكل موسى .

الخامسة - قوله تعالى : ( قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْذِنْهُ ) دليل على أن الإجارة كانت عندهم مشروعة معلومة ، وكذلك كانت في كل ملّة ، وهي من ضرورة الخليفة ، ومصلحة الخلطة بين الناس ؛ خلافاً للاصم حيث كان عن سماعها أصم .

السادسة - قوله تعالى : ( إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَمُنَّكَ ) الآية . فيه عرض الولي - آفته على الرجل ، وهذه سنة قائمة ؛ عرض صالح مدين آفته على صالح بنى إسرائيل ، وعرض عمر ابن الخطاب آفته حفصة على أبي بكر وعثمان ، وعرضت الموهوبة نفسها على النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فن الحسن عرض الرجل وليته ، والمرأة نفسها على الرجل الصالح ، اقتداء بالسلف الصالح . قال ابن عمر : لما تمت حفصة قال عمر لعثمان : إن شئت أنكحك حفصة بنت عمر ، الحديث آخره بإتراحه البخاري .

السابعة - وفي هذه الآية دليل على أن النكاح إلى الولي - لا حظ لراة فيه ؛ لأن صالح مدين تولاه ، وبه قال فقهاء الأمصار . وخالف في ذلك أبو حنيفة . وقد مضى .

الثامنة - هذه الآية تدل على أن للأب أن يزوج آفته البكر البالغ من غير استئثار ، وبه قال مالك وأحمد بهذه الآية ، وهو ظاهر قوى في الباب ، واحتجابه بها يدل على أنه كان يقول على الإسرائيليات ؛ كما تقدم . ويقول مالك في هذه المسئلة قال الشافعي وكثير من العلماء . وقال أبو حنيفة : إذا بلغت السفيرة فلا يزوجه أحد إلا برضاها ؛ لأنها بلغت

حد التكليف؛ فأما إذا كانت مصغرة فإنه يزوجه بغير رضاها؛ لأنه لا إذن لها ولا رضا؛ بغير خلاف .

الثامنة - استدل أصحاب الشافعي بقوله : « إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنِكَمَّ » على أن النكاح موقوف على لفظ الترويج والإنكاح . وبه قال ربيعة وأبو ثور وأبو عبيد وداود ومالك على اختلاف عنه . وقال علماؤنا في المشهور : ينقذ النكاح بكل لفظ . وقال أبو حنيفة : ينقذ بكل لفظ يقتضى التملك على التأيد؛ أما الشافعية فلا حجة لهم في الآية لأنه شرع من قبلنا وهم لا يرونه حجة في شيء في المشهور عندهم . وأما أبو حنيفة وأصحابه والثوري والحسن ابن سفيان فقالوا : ينقذ النكاح بلفظ الحبة وغيره إذا كان قد أشهد عليه ؛ لأن الطلاق يقع بالصرح والنكائية ، قالوا : فكذلك النكاح . قالوا : والذي خص به النبي صلى الله عليه وسلم تعرى البضع من العوض لا النكاح بلفظ الحبة ، وتاجهم ابن القاسم فقال : إن وهب أبنته وهو يريد إنكاحها فلا أحفظ عن مالك فيه شيئا ، وهو عندي جائز كالبيع . قال أبو عمر : الصحيح أنه لا ينقذ نكاح بلفظ الحبة ، كما لا ينقذ بلفظ النكاح حبة شيء من الأموال . وأيضا فإن النكاح مفتقر إلى التصريح لتقع الشهادة عليه ، وهو ضد الطلاق فكيف يقاس عليه ! وقد أجمعوا أن النكاح لا ينقذ بقوله : أبحت لك وأحللت فكذلك الحبة . وقال صلى الله عليه وسلم : « استحلتم فروجهن بكلمة الله » يعني القرآن ، وليس في القرآن عقد النكاح بلفظ الحبة ، وإنما فيه الترويج والنكاح ، وفي إجازة النكاح بلفظ الحبة إبطال بعض خصوصية النبي صلى الله عليه وسلم .

الناشرة - قوله تعالى : ( إِحْدَى أَبْنَى هَاتَيْنِ ) يدل على أنه عرض لا عقد؛ لأنه لو كان عقدا لعين المعقود عليها له ؛ لأن العلماء وإن كانوا قد اختلفوا في جواز البيع إذا قال : بعتك أحد عبدي هذين بثلثي كذا ، فإنهم أفتوا على أن ذلك لا يجوز في النكاح؛ لأنه خيار وشيء من الخيار لا يلصق بالنكاح .

الحادية عشرة - قال مكي : في هذه الآية خصائص في النكاح ؛ منها أنه لم يمين الزوجة ولا حبة أول الأمد ، وجعل المهر إجارة ، ودخل ولم ينقذ شيئا .



قلت : فهذه أربع مسائل تضمنتها المسئلة الحادية عشرة .

الأولى من الأربع مسائل ، قال علماؤنا : أما التمين فيشبه أنه كان في ثاني حال المرافضة ، وإنما عرض الأمر بجلا ، وعين بعد ذلك . وقد قيل : إنه زوجه صفوريا وهي الصغرى . يروى عن أبي ذر قال قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن سئلت أى الأجلين قضى موسى فنقل خيرهما وأوقاهما وإن سئلت أى المرأتين تزوج فنقل الصغرى وهي التى جاءت خلفه وهي التى قالت « يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ » . قيل : إن الحكمة في تزويجه الصغرى منه قبل الكبرى وإن كانت الكبرى أحوج إلى الرجال أنه توقع أن يميل إليها ؛ لأنه رأى أنها في رسالته ، وما شأها في إقباله إلى أبيها معها ، فلو عرض عليه الكبرى ربما أظهر له الاختيار وهو يضمن غيره . وقيل غير هذا ؛ والله أعلم . وفي بعض الأخبار أنه تزوج بالكبرى ؛ حكاها القشيري .

الثانية — وأما ذكر أول المدة فليس في الآية ما يقتضى إسقاطه بل هو سكوت عنه ؛ فإنما رسماه ، وإلا فهو من أول وقت المقد .

الثالثة — وأما النكاح بالإجارة فظاهر من الآية ، وهو أمر قد قرره شرعنا ، وجرى في حديث الذى لم يكن عنده إلا شيء من القرآن ؛ ورواه الأئمة ؛ وفي بعض طرقه : فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما تحفظ من القرآن " فقال : سورة البقرة والتي تليها ؛ قال : " فلعلها عشرين آية وهي أمرئك " . وأختلف العلماء في هذه المسئلة على ثلاثة أقوال : فكرمه مالك ، ومنه ابن القاسم ، وأجازة ابن حبيب ؛ وهو قول الشافى وأصحابه ؛ قالوا : يجوز أن تكون منفعة المزدحم صداقا كالخياطة والبناء وتعليم القرآن ، وقال أبو حنيفة : لا يصح ؛ وجوز أن يتزوجها بأن يخدمها عبده سنة ، أو يسكنها داره سنة ؛ لأن العبد والدار مال ، وليس خدمتها بنفسه مالا . وقال أبو الحسن الكرخى : إن عقد النكاح بلفظ الإجارة جائز ؛ لقوله تعالى : « فَأَتَوْهُنَّ أَجُورَهُنَّ » . وقال أبو بكر الرازى : لا يصح لأن الإجارة عقد مؤقت ، وعقد النكاح مؤبد ، فهما متنافيان . وقال ابن القاسم : ينسخ قبل البناء ويثبت بعده .

وقال أصبغ : إن نقد معه شيئا ففيه اختلاف ، وإن لم ينقد فهو أشد ، فإن ترك نضى على كل حال بدليل قصة شعيب ؛ قاله مالك وأبن المؤاز وأشهب . وعوّل على هذه الآية جماعة من المتأخرين والمتقدمين في هذه النازلة ؛ قال ابن خُوَيْرٍ منداد . تضمنت هذه الآية النكاح على الإجارة والمقدّم صحيح ، ويكره أن تجمل الإجارة مهرا ، وينبئ أن يكون المهر مالا كما قال عز وجل : « أَنْ تَبْتَئُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصَيْنِينَ » . هذا قول أصحابنا جميعا

الرابعة - وأما قوله : ودخل ولم ينقد فقد اختلف الناس في هذا ؛ هل دخل حين عقد أم حين سافر ؟ فإن كان حين عقد فإذا قد ؟ وقد منع علمائنا من الدخول حتى ينقد ولو رجع دينار ؛ قاله ابن القاسم . فإن دخل قبل أن ينقد مضى ، لأن المتأخرين من أصحابنا قالوا : تعجيل الصداق أو شيء منه مستحب . على أنه إن كان الصداق رعية للفم فقد قد الشروع في الخدمة ؛ وإن كان دخل حين سافر فطول الانتظار في النكاح جائز وإن كان مدى العمر بغير شرط . [ وأما إن كان بشرط <sup>(١)</sup> فلا يجوز إلا أن يكون الفرض صحيحا مثل التأهب للبناء وانتظار صلاحية الزوجة للدخول إن كانت صغيرة ؛ نص عليه علمائنا

الثانية عشرة - في هذه الآية أجتناح إجارة ونكاح ، وقد اختلف علمائنا في ذلك على ثلاثة أقوال : الأول - قال في ثمانية أبي زيد : يكره ابتداء فإن وقع مضى . الثاني - قل مالك وأبن القاسم في المشهور : لا يجوز ويفسخ قبل الدخول وبعده ؛ لاختلاف مقاصدهما كسائر العقود المتباينة . الثالث - أجازته أشهب وأصبغ . قال ابن العربي : وهذا هو الصحيح وعليه تدل الآية ؛ وقد قال مالك النكاح أشبه شيء بالبيع ، فأى فرق بين إجارة وبيع أو بين بيع ونكاح .

فرع - وإن أصدقها تعليم شعر مباح صح ؛ قال المزني : وذلك مثل قول الشاعر :

يقول العبد فاندتى ومالى • وتقوى الله أفضل ما استفادى

وإن أصدقها تعليم شعر فيه هجو أو غش كان كما لو أصدقها نعرا أو خنزيرا .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ( عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي تَمَانِي حَيْجِجَ ) جرى ذكر الخدمة مطلقاً وقال مالك : إنه جائز ويحمل على العرف ، فلا يحتاج في التسمية إلى الخدمة ، وهو ظاهر قصة موسى ، فإنه ذكر إجابة مطلقة . وقال أبو حنيفة والشافعي : لا يجوز حتى يسمى لأنه مجهول . وقد ترجم البخاري : « باب من استأجر أجيراً فينبى له الأجل ولم يبين له العمل لقوله تعالى « عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي تَمَانِي حَيْجِجَ » . قال المهلب : ليس كما ترجم ، لأن العمل عندهم كان معلوماً من سقى وحرث ورعى وما شاكل أعمال البادية في مهنة أهلها ، فهذا متعارف وإن لم يبين له أشخاص الأعمال ولا مقاديرها ؛ مثل أن يقول له : إنك تحرث كذا من السنة ، وترعى كذا من السنة ، فهذا إنما هو على المعهود من خدمة البادية ، وإنما الذي لا يجوز عند الجميع أن تكون المدة مجهولة ، والعمل مجهول غير معهود لا يجوز حتى يعلم . قال ابن العربي : وقد ذكر أهل التفسير أنه عين له رعية الغنم ، ولم يرو من طريق صحيحة ، ولكن قالوا : إن صالح مدين لم يكن له عمل إلا رعية الغنم ، فكان ما علم من حاله قائماً مقام التعيين للخدمة فيه .

الرابعة عشرة — أجمع العلماء على أنه جائز أن يستأجر الراعي شهوراً معلومة ، بأجرة معلومة ، لرعاية غنم معدودة ؛ فإن كانت معدودة معينة ، ففيها تفصيل لعلما ؛ قال ابن القاسم : لا يجوز حتى يشترط الخلف إن مات ، وهي رواية ضعيفة جداً ؛ وقد استأجر صالح مدين موسى على غنمه ، وقد رآها ولم يشترط خلفاً ؛ وإن كانت مطلقة غير مساة ولا معينة جازت عند علما ؛ وقال أبو حنيفة والشافعي : لا تجوز بلهاتها ، وتؤلف علماؤنا على العرف حسبما ذكرناه آنفاً ، وأنه يعطى بقدر ما تحتمل قوته . وزاد بعض علما أن لا يجوز حتى يعلم المستأجر قدر قوته ، وهو صحيح فإن صالح مدين علم قدر قوة موسى برفع الحجر .

الخامسة عشرة — قال مالك : وليس على الراعي ضمان وهو مصدق فيما هلك أو سرق ؛ لأنه أمين كالوكيل . وقد ترجم البخاري : « باب إذا أبصر الراعي أو الوكيل شاة تموت أو شيئاً يفسد فأصلح ما يخاف الفساد » وساق حديث كعب بن مالك عن أبيه أنه كانت

لم غم ترى سَلْعٌ ، فأبصرت جارية لنا بشاة من غنمنا موتاً فكسرت حجراً فذبحتها به ، فقال لهم : لا تأكلوا حتى أسأل النبي - أو أرسل إلى النبي صلى الله عليه وسلم من يسأله - وأنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم - أو أرسل إليه - فأمره بأكلها ، قال عبد الله : فيعجبني أنها أمة وأنها ذبحت . قال المهلب : فيه من الفقه تصديق الراعي والوكيل فيما آتئنا عليه حتى يظهر عليهما دليل الخيانة والكذب ؛ وهذا قول مالك وجماعة . وقال ابن القاسم : إذا خاف الموت على شاة فذبحها لم يضمن ويصدق إذا جاء بها مذبوحة . وقال غيره : يضمن حتى يبين ما قال .

السادسة عشرة - وأختلف ابن القاسم وأشبهب إذا أنزى الراعي على إناث الماشية بغير إذن أربابها فهلكت ؛ فقال ابن القاسم : لا ضمان عليه ؛ لأن الإزاء من إصلاح المال ونمائه . وقال أشهب : عليه الضمان ؛ وقول ابن القاسم أشبه بدليل حديث كعب ، وأنه لا ضمان عليه فيما تلف عليه بأجتهاده ، إن كان من أهل الصلاح ، ومن يعلم إسنده على المال ؛ وأما إن كان من أهل الفسوق والفساد وأراد صاحب المال أن يضمنه ففعل ؛ لأنه لا يصدق أنه رأى بالشاة موتاً لما عرف من فسقه .

السابعة عشرة - لم ينقل ما كانت أجرة موسى عليه السلام ؛ ولكن روى يحيى بن سلام أن صالح مدين جمل لموسى كل نخلة توضع خلاف لون أمها ، فأوحى الله إلى موسى أن ألق عصاك بينهن يلدن خلاف شبههن كلهن . وقال غير يحيى : بل جعل له كل بقاء تولد له ، فولد له كلهن بُلقاً . وذكر القشيري أن شعبياً لما استأجر موسى قال له : أدخل بيتك كذا وخذ عصاً من العصى التي في البيت ، فأخرج موسى عصاً ، وكان أخرجها آدم من الجنة ، وتوارثها الأنبياء حتى صارت إلى شعيب ، فأمره شعيب أن يلقها في البيت يأخذ عصاً أخرى ، فدخل وأخرج تلك العصا ؛ وكذلك سبع مرات كل ذلك لا تقع بيده غير تلك ، فلم شعيب أن له شأنًا ، فلما أصبح قال له : سق الأغنام إلى مفرق الطريق ، فخذ عن يمينك

وليس بها عشب كثير، ولا تأخذ من يسارك فإن بها عشا كثيرا وتبين كثيرا لا يقبل المواشي، فساق المواشي إلى مفرق الطريق، فأخذت نحو اليسار ولم يقدر على ضبطها، فنام موسى وخرج التين، فقامت العصا وصارت شجنتها حديدا وحاربت التين حتى قتلت، وعادت إلى موسى عليه السلام، فلما آتبه موسى رأى العصا مخضوبة بالدم، والتين مقتولا، فنادى إلى شعيب عشاء، وكان شعيب ضريرا فس الأغنام، فإذا أثر الحصب ياد عليها، فسأله عن القصة فأخبره بها، ففرح شعيب وقال: كل ما نلد هذه المواشي هذه السنة قالب لون - أى ذات لونين - فهو لك، وبقيت جميع السخال تلك السنة ذات لونين، فلم شعيب أن لموسى عند الله مكانة. وروى عيينة بن حصن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أجر موسى نفسه بشيخ بطنه وعفة فوجه" فقال له شعيب لك منها - أى من نتاج غنمه - ما جاءت به قالب لون ليس فيها عزوز ولا فسوش ولا كوش ولا صوب ولا ثول. قال المروى: الغزوز البكية؛ مأخوذ من العزاز وهي الأرض الصلبة، وقد تعززت الشاة. والفسوش التي يتفش لبها من غير حلب وذلك لسعة الإحليل، ومثله الفتوح والثور. ومن أمثالهم: (لَأَفْشَكَ فَشَّ الْوَطْبِ) أى لأخرجن غضبك وكبرك من رأسك. ويقال: فش السقاء إذا أخرج منه الريح. ومنه الحديث: "إن الشيطان يفش بين اليتيم أحديكم حتى يحيل إليه أنه أحدث". أى ينفخ نفخا ضعيفا. والكوش: الصغرة الصرع، وهي الكبيشة أيضا؛ سميت بذلك لانكاش ضرعها وهو تقلصه؛ ومنه يقال: رجل كبش الإزار. والكشود مثل الكوش. والضبوب الضيقة قرب الإحليل. والضب الحلب لثثة العصر. والثول الشاة التي لها زيادة حلمة وهي الثمل. والثمل زيادة السن، وتلك الزيادة هي [الراول<sup>(١)</sup>] ورجل ثمل. والثمل [ضيق<sup>(٢)</sup>] غرخ اللبن. قال المروى: وتفسير قالب لون في الحديث أنها جاءت على غير ألوان أمهاتها.

(١) الزيادة من السن، وفي الأصل: «هى ثمل» ولمسة تحريم؛ إذ أن جارة السن «وتت السن الزائدة» يقال لها الراول. (٢) زيادة ينفضها اللبن.

الثامنة عشرة - الإجارة بالعرض المجهول لا تجوز ؛ فإن ولادة الغنم غير معلومة ، وإن من البلاد الخصب ما يعلم ولاد الغنم فيها قطعا وعذتها وسلامة سماتها كديار مصر وسورها ، بيد أن ذلك لا يجوز في شرعنا ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن القرد ، ونهى عن المضامين والملاقيح . والمضامين ما في بطون الإناث ، والملاقيح ما في أصلاب الفحول وعلى خلاف ذلك قال الشاعر :

• مَلْقُوعَةٌ فِي بَطْنِ نَابِ حَايِل •

وقد مضى في سورة « الحجر »<sup>(١)</sup> بيانه . على أن راشد بن معمر أجاز الإجارة على الغنم بالثلث والربع . وقال ابن سيرين وعطاء : ينسخ التوب بنصيب منه ؛ وبه قال أحمد .

التاسعة عشرة - الكفاءة في النكاح معتبرة ؛ وأختلف العلماء هل في الدين والمال والحسب ، أو في بعض ذلك . والصحيح جواز نكاح الموالى للحرية والقرشبات ؛ لقوله تعالى : « إِنْ أَرَدْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْتَاقَكُمْ » . وقد جاء موسى إلى صالح مدين غريبا طريدا خائفا وحيدا جائعا عربا فأنكحه أبنته لما تحقق [ من دينه ]<sup>(٢)</sup> ورأى من حاله ، وأعرض عما سوى ذلك . وقد تقدمت هذه المسئلة مستوعبة والحمد لله .

الموفية عشرين - قال بعضهم : هذا الذي جرى من شعيب لم يكن ذكرا لصداق المرأة ، وإنما كان اشتراطا لنفسه على ما فعله الأعراب ؛ فإنها تشترط صداق بناتها ، وتقول : لي كذا في خاصة نفسي ، وترك المهر مقوضا ؛ ونكاح التفويض جائز . قال ابن العربي : هذا الذي فعله الأعراب هو حلول وزيادة على المهر ، وهو حرام لا يليق بالأنياء ؛ فأما إذا اشترط الولي شيئا لنفسه ، فقد أختلف العلماء فيما يخرج به الزوج من يده ولا يدخل في يد المرأة على قولين : أحدهما - أنه جائز . والآخر - لا يجوز . والذي يصح عندى التقسيم ؛ فإن المرأة لا تخلو أن تكون بكرة أو ثيبا ؛ فإن كانت ثيبا جاز ؛ لأن نكاحها

(١) راجع ج ١٠ ص ١٧ وما بعدها طية أول أو ثمانية .

(٢) الزيادة من « أحكام القرآن لابن العربي » .

بيدها ، وإنما يكون للولي مباشرة العقد ، ولا يمنع أخذ الموض عليه كما يأخذ الوكيل على عقد البيع . وإن كانت بركا كان العقد بيده ، وكأنه عوض في النكاح لسير الزوج وذلك باطل ؛ فإن وقع فسخ قبل البناء ، وثبت بعده على مشهور الرواية . والحمد لله .

الحادية والعشرون — لما ذكر الشرط وأعقبه بالطوع في العشر نرج كل واحد منهما على حكمه ، ولم يلحق الآخر بالأول ، ولا أشرت في الفرض والطوع ؛ ولذلك يكتب في العقود الشروط المتفق عليها ، ثم يقال وتطوع بكذا ، فيجوز الشرط على سبيله ، والطوع على حكمه ، وأفضل الواجب من التطوع . وقيل : ومن لفظ شعيب حسن في لفظ العقود في النكاح أنكحه إياها أولى من أنكحها إياه على ما يأتي بيانه في « الأحزاب » . وجعل شعيب الثمانية الأعوام شرطا ، وكل العاشرة إلى المروءة .

الثانية والعشرون — قوله تعالى : ﴿ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلِينَ قَضَيْتَ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ ﴾ لما فرغ كلام شعيب فزعه موسى عليه السلام وكرر معناه على جهة التوثيق في أن الشرط إنما وقع في ثمان هجج . و « أيما » استفهام منصوب بـ « قَضَيْتَ » و « الْأَجَلِينَ » مخفوض بإضافة « أي » إليهما و « ما » صلة للتأكيد وفيه معنى الشرط وجوابه « فَلَا عُدْوَانَ » وأن « عدوان » منصوب بـ « ما » . وقال ابن كيسان : « ما » في موضع خفض بإضافة « أي » إليها وهي نكرة و « الأجلين » بدل منها . وكذلك قوله : « فَأَيُّ رَحْمَةٍ مِنْ أَفْهِ » أي رحمة بدل من ما ؛ قال مكي : وكان يتلطف في ألا يجعل شيئا زائدا في القرآن ، ويخرج له وجه يخرج به من الزيادة . وقرأ الحسن « أَيَّمَا » بسكون الياء . وقرأ ابن مسعود « أَيُّ الْأَجَلِينَ مَا قَضَيْتُ » . وقرأ الجمهور « عُدْوَانٌ » بضم العين . وأبو حنيفة بكسرها ؛ والمعنى : لا تبعه علي ولا تطلب في الزيادة عليه . والمدونان اتحاورا في خير الواجب ، والجميع السنون . قال الشاعر<sup>(١)</sup> :

لن الديار يفتنة المحجر • أقوين من هجج ومن دهر

(١) حمزة بن أبي سلمى . ويرى : ومن شهر .

الواحدة حجة بكسر الحاء . ( وَاتَّقِ عَلَى مَا قَوْلُ وَكِيلٍ ) قيل : هو من قول موسى . وقيل : هو من قول والد المرأة . ما كتفى الصالحان صلوات الله عليهما في الإشهاد عليهما بالله ولم يشهدا أحدا من الخلق ، وقد اختلف العلماء في وجوب الإشهاد في النكاح ؛ وهي :

الثالثة والعشرون - على قولين : أحدهما أنه لا ينبغي إلا بشاهدين . وبه قال أبو حنيفة والثاني . وقال مالك : إنه ينبغي دون شهود ؛ لأنه عقد معاوضة فلا يشترط فيه الإشهاد ، وإنما يشترط فيه الإعلان والتصریح ، وفروقا ما بين النكاح والسفاح اللذان . وقد مضت هذه المسئلة في « البقرة » مستوفاة . وفي البخاري عن أبي هريرة : أن رجلا من بني إسرائيل سأل بعض بني إسرائيل أنت يسبقه ألف دينار فقال آيتي بالشهادة أشهدهم ، فقال كفى بالله شهيدا ، فقال آيتي بكفلا ، فقال كفى بالله كفيلا . قال صدقت فدفعها إليه ، وذكر الحديث .

قوله تسال : فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ءَأَنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ( فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ ) قال سعيد بن جبير : سألني رجل من النصارى أى الأجلين قضى موسى . فقلت : لا أدري حتى أقدم على حبر العرب فأسأله - يعنى ابن عباس - فقدمت عليه فسأله ، فقال : قضى أكلهما وأوقاهما . فأعلمت النصارى فقال : صدق والله هذا العالم . وروى عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل في ذلك جبريل فأخبره أنه قضى عشرين سنين . وحكى الطبري عن مجاهد أنه قضى عشرين سنة بعد ما ؛ قال ابن عطية : وهذا ضعيف .



الثانية - قوله تعالى : ( وَسَارَّ بِأَعْلِهِ ) قيل فيه دليل على أن الرجل ينهب بأهله حيث شاء ؛ لأنه عليها من فضل القوامية وزيادة الدرجة إلا أن يلزم لها أمرا فالؤمنون عند شروطهم ، وأحق الشروط أن يوفى به ما استحلّتم به الفروج .

الثالثة - قوله تعالى : ( آتَى مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا ) الآية . تقدم القول في ذلك في « طه » . والحذوة بكسر الجيم قراءة العامة ، وضمها حزة ويحيى ، وفتحها عاصم والثعلبي وزر بن حبيش . قال الجوهرى : الحذوة والحذوة والحذوة الجرة المتهبة والجمع حذًا وحذًا وحذًا . قال مجاهد في قوله تعالى : ( أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ ) أى قطعة من الجمر ؛ قال : وهى بلغة جميع العرب . وقال أبو عبيدة : والحذوة مثل الحذمة وهى القطعة الغليظة من الخشب كان فى طرفها نار ولم يكن . قال ابن مقبل :

بَاتَتْ حَوَائِبُ لَيْلٍ يَلْتَمِسْنَ لَهَا • جَزَلُ الْحِذَا غَيْرَ خَوَارٍ وَلَا دَعِيرٍ<sup>(١)</sup>  
وقال :

وَأَتَى عَلَى قَيْسٍ مِنَ النَّارِ جَذْوَةٌ • شَدِيدًا عَلَيْهَا حَمِيمًا وَلَيْبِهَا<sup>(٢)</sup>

قوله تعالى : فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْوِصَّ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : ( فَلَمَّا أَتَاهَا ) يعنى الشجرة قدم ضميرها عليها . ( نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ ) « من » الأولى والثانية لأبتداء الغاية ، أى أتاه النداء من شاطئ الوادى من قبل الشجرة . و « مِنْ الشَّجَرَةِ » بدل من قوله « مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ » بدل الاشتمال ؛ لأن الشجرة كانت ثابتة على الشاطئ ، وشاطئ الوادى وشطه جانبه ، والجمع شُطآن وشواطئ ، ذكره الفشيمى . وقال الجوهرى : ويقال شاطئ الأودية ولا يجمع . وشواطئ الرجل إذا مشيت على شاطئ

(١) الخوارى ما يعود الذى ينصف والدهم الذى إذا وضع على النار لم يستره ودخن .

• شديدا عليها حرها ولهبها •

(٢) ويرى :

ومشي هو على شاطئ آخر . ( الأيمن ) أى من يمين موسى . وقيل عن يمين الجبل .  
 ( في البُقعة المباركة ) وقرأ الأنشوب العقيلي « في البُقعة » بفتح الباء . وقولهم جاع يدل على  
 بُقعة ؛ كما يقال جُفنة وجفان . ومن قال بُقعة قال بُقع مثل عُرفة وعُرف . ( من الشجرة )  
 أى من ناحية الشجرة . قيل كانت شجرة العليق . وقيل شجرة وقيل عوج . ومنها كانت  
 عصاه ؛ ذكره الزمخشري . وقيل : عتاب ، والموجب إذا عظم يقال له الترقد . وفي الحديث :  
 إنه من شجر اليهود فإذا نزل عيسى وقتل اليهود الذين مع الدجال فلا ينجى أحد منهم خلف  
 شجرة إلا نطقت وقالت يا مسلم هذا يهودى ورأى تعالى ما قتله إلا الترقد فإنه من شجر اليهود  
 فلا ينطق . نجره مسلم . قال المهدي : وكلم الله تعالى موسى عليه السلام من فوق عرشه  
 وأسمعه كلامه من الشجرة على ما شاء . ولا يجوز أن يوصف الله تعالى بالانتقال والزوال  
 وشبه ذلك من صفات المخلوقين . قال أبو المالى : وأهل المعاني وأهل الحق يقولون من  
 كلمه الله تعالى وخصه بالرتبة العليا والغاية القصوى ، فيدرك كلامه القديم المتقدس عن مشابهة  
 الحروف والأصوات والمبارات والتعالي وضروب اللغات ، كما أن من خصه الله بمنازل  
 الكرامات وأكل عليه نعمته ، ورزقه رؤيته يرى الله سبحانه مترها عن بمائلة الأجسام  
 وأحكام الحوادث ، ولا مثل له سبحانه في ذاته وصفاته ، وأجمت الأمة على أن الرب تعالى  
 خصص موسى عليه السلام وغيره من المصطفين من الملائكة بكلامه . قال الأستاذ  
 أبو إسحق : أئنفق أهل الحق على أن الله تعالى خلق في موسى طيه السلام معنى من المعاني  
 أدرك به كلامه كان اختصاصه في سماعه ، وأنه قادر على مثله في جميع خلقه . وأخفقوا  
 في نبينا عليه السلام هل سمع ليله الإسماء كلام الله ، وهل سمع جبريل كلامه على قولين ؛  
 وطريق أحدهما النقل المقطوع به وذلك مقفود ، وأخفقوا على أن سماع الخلق له عند قراءة  
 القرآن على معنى أنهم سمعوا العبارة التي عرفوا بها معناه دون سماعه له في عينه . وقال عبد الله  
 ابن سعد بن كلاب : إن موسى عليه السلام فهم كلام الله القديم من أصوات مخلوقة أثبتها  
 الله تعالى في بعض الأجسام . قال أبو المالى : وهذا مردود ؛ بل يجب اختصاص موسى

عليه السلام بإدراك كلام الله تعالى خرقا للعادة ، ولو لم يُقل ذلك لم يكن لموسى عليه السلام اختصاص بتكليم الله إياه . والرب تعالى أسمعه كلامه العزيز ، وخلق له علما ضروريا ، حتى علم أن ما سمعه كلام الله ، وأن الذي كلمه وناداه هو الله رب العالمين . وقد ورد في الأفاضيل أن موسى عليه السلام قال : سمعت كلام ربي يجمع جوارحي ، ولم أسمعه من جهة واحدة من جهاتي . وقد مضى هذا المعنى في « البقرة » مستوفى . ( أَنْ يَأْمُوسَى ) « أَنْ » في موضع نصب بحذف حرف الجر أي بـ « أَنْ يَأْمُوسَى » . ( إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْمَالِئِينَ ) تى لرواية غيره سبحانه . وصار بهذا الكلام من أصفاء الله عز وجل لا من رسله ، لأنه لا يصير رسولا إلا بعد أمره بالرسالة ، والأمر بها إنما كان بعد هذا الكلام .

قوله تعالى : ( وَأَنَّ أَتَى عَصَاكَ فُلُوءًا رَّءَاهَا نَهَزَتْ كَانَهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْرِئًا وَلَّى يُعَقِّبُ يَمْوَسِيَّ أَقْبَلُ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ) (٢٦)

قوله تعالى : ( وَأَنَّ أَتَى عَصَاكَ ) عطف على « أَنْ يَأْمُوسَى » وتقدم الكلام في هذا في « النمل » و « طه » . و ( مُدْرِئًا ) نصب على الحال وكذلك موضع قوله : ( وَلَمْ يُعَقِّبْ ) نصب على الحال أيضا . ( يَأْمُوسَى أَقْبَلُ وَلَا تَخَفْ ) قال وهب : قيل له أرجع إلى حيث كنت . فرجع فلقب فزعته مل يده ، فقال له الملك : أرايت إن أراد الله أن يصيبك بما تخاذر أينفعل لك يدك ؟ قال : لا ولكنى ضعيف خلقت من ضعف . وكشف يده فأدخلها في فم الحية فادت عصا . ( إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ) أي مما تخاذر .

قوله تعالى : ( أَسْلَمْتُ بِدَكَ فِي جَنِيكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَصْنَمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنْ أَرْهَبِ قَدْنِكَ بَرَهْنَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَيَّ فِرْعَوْنَ وَمَلَأِيهِمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ) (٢٧) قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا

(١) راجع ج ١ ص ٣٠٤ طبة تاية أو تالة .

(٢) الدعاة : ضرب من الثياب التي تلبس . وقيل جبة مشقوفة القدم .

فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿٣٧﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلَهُ مَعِيَ  
رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿٣٨﴾ قَالَ مَنَعْتُكَ عَصِدَكَ بِأَخِيكَ  
وَتَجْعَلُ لَنَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكَا بِمَا يَنْتَقِيتَا أَنتُمَا وَمَنْ أَتَّبَعُكُمَا  
الْغَالِبُونَ ﴿٣٩﴾

قوله تعالى : ( أَسْأَلُكَ بِدَعَايِكَ فِي جَنَّتِكَ ) الآية ؛ تقدم القول فيه . ( وَأَنْتُمْ إِلَيْكَ جَنَّاكَ  
مِنَ الرَّهْبِ ) « من » متعلقة بـ « حَوْلَ » أى ولى مدبرا من الرهب . وقرأ حفص والسُّلَمِيُّ  
وميسرة بن عمر وآبن أبي إسحق « مِن الرَّهْبِ » بفتح الراء وإسكان الهاء . وقرأ ابن طامر  
والكوفيون إلا حفص بضم الراء وجرم الهاء . الباقون بفتح الراء والهاء . واختاره أبو عبيد  
وأبو حاتم ؛ لقوله تعالى : « وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا » وكلها لغات وهو بمعنى الخوف ؛  
والمعنى إذا هَالَكَ أَمْرُ يَدِكَ وشماعها فادخلها في جيبك وأردها إليه تمد كما كانت . وقيل :  
أمره الله أن يضم يده إلى صدره فيذهب عنه خوف الحياة . عن مجاهد وغيره ورواه  
الضحاك عن ابن عباس ؛ قال فقال ابن عباس : ليس من أحد يدخله رعب بعد موسى  
عليه السلام ، ثم يدخل يده فيضمها على صدره إلا ذهب عنه الرعب . ويحكى عن عمر بن  
عبد العزيز رحمه الله أن كتابا كان يكتب بين يديه ، فأفلتت منه فلة ريح ففجل وانكسر ،  
فقام وضرب بقلبه الأرض . فقال له عمر : خذ قلبك وأجنم إليك جناحك ، وليفرخ روعك  
فإني ما سمعتها من أحد أكثر مما سمعتها من قصى . وقيل : المعنى أضمت يديك إلى صدرك  
ليذهب الله ما في صدرك من الخوف . وكان موسى يرتعد خوفا إما من آل فرعون وإما من  
التيهان . وضم الجناح هو السكون ؛ لقوله تعالى : « وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الْفُلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ »  
يريد الرفق . وكذلك قوله : « وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » أى أرفق بهم .  
وقال الفراء : أراد بالجناح عصاه . وقال بعض أهل المعاني : الرهب الكم بلفظة حمير  
وبني حنيفة . قال مقاتل : سألتني أعرابية شيئا وأنا أكل فلات الكف وأومات إليها

فقلت : ها هنا في رهي . تريد في نجي . وقال الأصمعي : سمعت أعرابيا يقول لآخر أعطني رهبك . فسأله عن الرهب فقال : الكم ؛ فعل هذا يكون معناه أضخم إليك يدك وأخرجها من الكم ؛ لأنه تناول العصا ويده في كه وقوله : « أَسَلَّكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ » يدل على أنها اليد اليمنى ؛ لأن الجيب على اليسار . ذكره القشيري .

قلت : وما فسروه من ضم اليد إلى الصدر يدل على أن الجيب موضعه الصدر . وقد مضى في سورة « النور »<sup>(١)</sup> بيانه . الزحشرى : ومن بدع التفسير أن الرهب الكم بلغة حير وأنهم يقولون أعطني مما في رهبك ، وليت شعري كيف صحته في اللغة ! وهل سمع من الالتفات الذين ترضى حريبتهم ، ثم ليت شعري كيف موقعه في الآية ، وكيف تطبيقه المفصل كما تركلت التنزيل ؛ على أن موسى صلوات الله عليه ما كان عليه ليلة المناجاة إِلَّا زُرْمًا يَفُوقُ مِنْ صَوْفٍ لَا كَيْنَ لَهَا . قال القشيري : وقوله « وَأَضْمَمْتُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ » يريد البابين إن قلنا أراد الأمن من فزع الثعبان . وقيل : « وَأَضْمَمْتُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ » أى شمروا سميد لتحمل أعباء الرسالة .

قلت : فعل هذا قيل « إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ » أى من المرسلين ؛ لقوله تعالى : « إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ » . قال ابن بحر : فصار على هذا التأويل رسولا بهذا القول . وقيل إنما صار رسولا بقوله : « فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَآلِهِ » والبرهان اليد والعصا . وقرأ ابن كثير بتشديد النون وخففها الباقون . وروى أبو عمار عن أبي الفضل عن أبي بكر عن ابن كثير ، « فَذَانِكَ » بالتشديد والياء . وعن أبي عمرو أيضا قال لنة هذيل « فَذَانِكَ » بالتخفيف والياء . ولنة قريش « فَذَانِكَ » كما قرأ أبو عمرو وابن كثير . وفي تمليله خمسة أقوال : قيل شدد النون عوضا من الألف الساقطة في ذاك الذى هو تنية ذا المرفوع ، وهو رفع بالابتدا ، وألف ذا عنقوفة لدخول ألف التنية طمعا ، ولم يفتت إلى الثقاء الساكنين ؛ لأن أصله فذا انك غنفت الألف الأولى عوضا من النون الشديدة . وقيل :

(١) داجع ج ١٢ ص ٢٢١ طبعة أول مرة ثانية .

(٢) الرواقية : جبة من صوف ، وهى بجمية سرية .

التشديد للتأكيد كما أدخلوا اللام في ذلك . مكى : وقيل إن من شدد إنما بناء على لغة من قال في الواحد ذلك ، فلما بني أثبت اللام بعد نون التثنية ، ثم أدخل اللام في النون على حكم الإدغام الثاني في الأول ، والأصل أن يدغم الأول أبدا في الثاني ، إلا أن يمنع من ذلك علة فيدغم الثاني في الأول ، والعللة التي منعت في هذا أن يدغم الأول في الثاني أنه لو فعل ذلك لصار في موضع النون التي تدل على التثنية لام مشددة فيتغير لفظ التثنية فأدغم الثاني في الأول . لذلك ؛ فصارت نونا مشددة . وقد قيل : إنه لما تنافى ذلك أثبت اللام قبل النون ثم أدخل الأول في الثاني على أصول الإدغام فصارت نونا مشددة . وقيل : شددت فرقا بينها وبين الظاهر التي تسقط الإضافة نونه ؛ لأن ذان لا يضاف . وقيل : للفرق بين الاسم المتمكن وبينها . وكذلك العلة في تشديد النون في « الذان » و « هذان » . قال أبو عمرو : إنما اختص أبو عمرو هذا الحرف بالتشديد دون كل تثنية من جنسه لقله حروفه فقرأ بالتثنية . ومن قرأ « فذَانِيكَ » بياء مع تخفيف النون فالأصل عنده « فذَانُكَ » بالتشديد فأبدل من النون الثانية ياء كراهية التضعيف ، كما قالوا : لا أملاه في لَامَلَهُ فأبدلوا اللام الثانية ألفا . ومن قرأ بياء بعد النون الشديدة فوجهه أنه أشبع كسرة النون فتولدت عنها الياء . قوله تعالى : ( فَأَرْسَلَهُ مَعِيَ رِدْءًا ) يعني معينا مشتق من أردأته أى أعشبه . والردء المون . قال الشاعر :

الم ترأت أضرَمَ كان رِدْءِي • وخيرَ الناسِ في قُلِّ ومال

النحاس : وقد أردأه ورداه أى أعاناه ؛ وترك همزه تخفيفا . وبه قرأ نافع وهو بمعنى المهموز . قال المهدي : ويمحوز أن يكون ترك الهمز من قولهم أردى على المائة أى زاد عليها ، وكان المعنى أرسله معي زيادة في تصديقي . قاله مسلم بن جنب . وأنشد قول الشاعر :

واسمرَ خَطِيئًا كَأَن كُغْمَوْبَهُ • نوى القسْبِ قد أردى ذراعا على العشر

كذا أنشد الماوردي هذا البيت : قد أردى . وأنشده الغزنوي والجوهرى في الصحاح قد أَرْدَى ؛ قال : والقصب الصلب ، والقصب تمر يابس يتفتت في الفم صلب النواة . قال

يصف ربحاً : وأسر . اليت . قال الجوهرى : ردؤ الشيء ردؤ رداة فهو ردى أى فاسد، وأردأته أفسدته ، وأردأته أيضاً بمعنى أعتبه ؛ تقول : أردأته بنفسى أى كنت له رديماً وهو العون . قال الله تعالى : « فَأَرْسَلْهُ مَعَ رِدْمًا بُصْدَقْنِي » . قال النحاس : وقد حكى رداة : رديماً وجمع رده أرداء . وقرأ عاصم وحزرة « يُصْدَقْنِي » بالرفع . وجرم الباقون ؛ وهو اختيار أبى حاتم على جواب الدعاء . وأختار الرفع أبو عبيد على الحال من الماء فى « أرسله » أى أرسله رديماً مصدقاً حالة التصديق ؛ كقوله : « أَنْزَلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَتَكُونُ » أى كائنة ؛ حال صرف إلى الاستقبال . ويموز أن يكون صفة لقوله : « رديماً » . ( إِنْى أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ) إنالم يكن لى وزير ولا معين ؛ لأنهم لا يكادون يفقهون معنى ، ذ ( قَالَ ) الله جل وعزله : ( سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ) أى نقويك به ؛ وهذا تمثيل ؛ لأن قوة اليد بالمضد . قال طرفة :

نَبِيٌّ لُبَيْتِي لَسْتُ بِسَيِّدٍ • إِلَّا بِنَا لِبَسْتُ لِمَنَا عَضُدَ

ويقال فى دعاء الخير : شد الله عضدك . وفى ضده : فت الله فى عضدك . ( وَجَعَلْ لَكَ سُلْطَانًا ) أى حجة وبرهاناً . ( فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكَ ) بالأذى ( يَا أَيَّتَا ) أى تمنعان منهم « يَا أَيَّتَا » فيجوز أن يوقف على « إِلَيْكَ » ويكون فى الكلام تقديم وتأخير . وقيل : التقدير « أَنْتُمْ وَمَنْ أَتْبَعَكُمْ الْغَالِبُونَ » يَا أَيَّتَا . قاله الأخفش والطبرى . قال المهدوى : وفى هذا تقديم الصلة على الموصول ، إلا أن يفذر أنتما غالبان يَا أَيَّتَا أنتما ومن أتبعكما الغالبون . وعنى بالآيات سائر معجزاته .

قوله تعالى : فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ مُوسَى رَبِّىْ أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتَأْتِيهَا آتِلَاءٌ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ

مِنْ إِلَهِ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْنَمُنْ عَلَى الطِّينِ فَأَجْعَلْ لِي صِرْحًا لَعَلِّي  
أَطْلُعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٥﴾ وَأَسْتَكَبِرُ  
هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾  
فَأَخَذَتْهُ وَجُنُودُهُ قَبْضَتُهُمْ فِي الْعِصِيِّ فَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عِقَابُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٧﴾  
وَجَعَلَتْهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٣٨﴾  
وَاتَّبَعَتْهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٣٩﴾

قوله تعالى : ( فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا يَتَذَكَّرُ ) أى ظاهرات واضحات ( قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُقْتَرَى ) مكذوب غشاقى ( وَمَا نَحْنُ بِهَذَا فِي آيَاتِنَا الْأُولَى ) . وقيل :  
إن هذه الآيات ما احتج به موسى في إثبات التوحيد من الحجج العقلية . وقيل :  
هى معجزاته .

قوله تعالى : ( وَقَالَ مُوسَى ) قراءة العامة بالواو . وقرا مجاهد وأبن كثير وأبن جيسن  
« قال » بلا واو ؛ وكذلك هو في مصحف أهل مكة . ( رَبِّى أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَهُ بِالْحَقِّ )  
أى بالرشاد . ( مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ ) قرا الكوفيون إلا طاسما « يكون » بالياء والباقون  
بالتاء . وقد تقدم هذا . ( قَافَةَ الدَّارِ ) أى دار الجزاء . ( إِنَّهُ ) الهاء ضمير الأمر والشأن  
( لَا يَفْلَحُ الظَّالِمُونَ ) .

قوله تعالى : ( وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرِي ) قال ابن عباس :  
كان بينها وبين قوله « أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى » أربعون سنة ، وكذب صدقائه بل علم أنه لم يتم ربا  
هو خلقه وخالف قومه « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ » . قال : ( فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانَ  
عَلَى الطِّينِ ) أى أطبخ لى الآجر ، عن ابن عباس رضى الله عنه . وقال قتادة : هو أول  
من صنع الآجر ونحى به . ولما أمر فرعون وزيره هامان ببناء الصرح جمع هامان الهال  
فقل تخمين ألف بناء سوى الاتباع والأجراء — وأمر بطبخ الآجر والبصص ، ونشر الخشب ،



وضرب المسامير ، فبنوا ورفضوا البناء وشيدوه بحيث لم يبلغه بنيان منذ خلق الله السموات والأرض ، فكان الباني لا يقدر أن يقوم على رأسه ، حتى أراد الله أن يفتنهم فيه . فحكى السدى أن فرعون صمد السطح ورمى بُشْبَاة نحو السماء ، فرجعت مطلخة بدماء ، فقال قد قتلت إله موسى . فروى أن جبريل عليه السلام بعثه الله تعالى عند مقاتله ، فضرب الصرح بجناحه فقطعه ثلاث قطع ، قطعة على عسكر فرعون قتلت منهم ألف ألف ، وقطعة في البحر ، وقطعة في الغرب ، وهلك كل من عمل فيه شيطا . والله أعلم بصحة ذلك . ( وَإِنِّي لَأَظُنُّ مِنَ الْكَافِرِينَ ) الظن هنا شك ، فكفر على الشك ؛ لأنه قد رأى من البراهين ما لا يُحْسِلُ على ذى غفلة .

قوله تعالى : ( وَاسْتَكَبَرُوا ) أى تعظم ( هُوَ وَجُنُودُهُ ) أى عن الإيمان بموسى . ( فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعِ الْحَقُّ ) أى بالدندان ، أى لم تكن له حجة تدفع ما جاء به موسى . ( وَظَلَمُوا أَنَّهُمْ إِلَٰهًا لَا يَرْجُونَ ) أى توهموا أنه لا معاد ولا بعث . وقرأ نافع وابن محسن ' وشية وحيد ويقوب وحزة والكسائي « لَا يَرْجُونَ » ففتح الياء وكسر الجيم على أنه مسمى الفاعل . الباقر « يَرْجُونَ » على الفعل المجهول . وهو اختيار أبي عبيد ، والأوّل اختيار أبي حاتم . ( فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ ) وكانوا ألقى ألف وسمائة ألف . ( فَجَبَلْنَاهُمْ فِي السَّمَاءِ ) أى طرحناهم في البحر المسالخ . قال قتادة : بحر من وراء مصر يقال له إِسَافُ أغرقهم الله فيه . وقال وهب والسدى : المكان الذى أغرقهم الله فيه بناحية الْقَرْيَمُ يقال له بطن مُرْرَةَ ، وهو إلى اليوم غضبان . وقال مقاتل : بطن نهر النيل . وهذا ضعيف والمشهور الأوّل . ( فَأَنْظَرُوا ) يا محمد ( كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ) أى آخر أمرهم . ( وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً ) أى جعلناهم زعماء يقيعون على الكفر ، فيكون عليهم وزرهم ووزر من أتبعهم حتى يكون عقابهم أكثر . وقيل : جعل الله الملأ من قومه رؤساء السفلة منهم ، فهم يدعون إلى جهنم . وقيل : أئمة يأثم بهم ذوو العبر ويتعظ بهم أهل البصائر . ( يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ) أى إلى عمل أهل

النار ( وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ) . ( وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ) أى أمرنا العباد  
 بلعنهم لمن ذكرهم لنهم . وقيل : أى ألزمتهم اللعن أى البعد عن الخير . ( وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ  
 هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ) أى من المهلكين المفقوتين . قاله ابن كيسان وأبو عبيدة . وقال  
 ابن عباس : المشوهين المخلقة بسواد الوجوه وزرقة العيون . وقيل من المبعدين . يقال قبحه  
 الله أى نحاه من كل خير ، وقبحه وفحشه إذا جملة فيها . وقال أبو عمرو قبحت وجهه  
 بالتخفيف معناه قبحت . قال الشاعر :

أَلَا قَبِحَ اللَّهُ الْبَرَّاجِمَ كُلَّهَا • وَقَبِحَ يَرْبُوعًا وَقَبِحَ دَارِمَا

وأتصّب يوما على الحمل على موضع « في هذه الدنيا » وأسئنى عن حرف المطف في قوله :  
 « مِنَ الْمَقْبُوحِينَ » كما أسئنى عنه في قوله : « سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةً رَأَيْبَهُمْ كَلْبُمٌ » . ويموز أن  
 يكون العامل في « يوم » مضمرًا يدل عليه قوله : « هم من الْمَقْبُوحِينَ » فيكون كقوله .  
 « يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ » . ويموز أن يكون السامل في « يوم »  
 قوله : « هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ » وإن كان الطرف متقدما . ويموز أن يكون مفعولا على السعة ،  
 كأنه قال : واتباعنا في هذه الدنيا لعنة ولعنة يوم القيامة .

قوله تعالى : وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا

الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾

قوله تعالى : ( وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ) بنى التوراة ، قاله قتادة . قال يحيى بن  
 سلام : هو أول كتاب - بنى التوراة - نزلت فيه العرائض والحدود والأحكام . وقيل :  
 الكتاب هنا ست من المثاني السبع التي أنزلها الله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، قاله  
 ابن عباس ، ورواه مرفوعا . ( مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى ) قال أبو سعيد الخدري  
 قال النبي صلى الله عليه وسلم : " ما أهلك الله قوما ولا قرنا ولا أمة ولا أهل قرية بعذاب  
 من الساء ولا من الأرض منذ أنزل الله التوراة على موسى غير القرية التي مسحت قردة ألم تر  
 إلى قوله تعالى : « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى »

أى من بعد قوم نوح وعاد وثمود . وقيل : أى من بعد ما أغرقنا فرعون وقومه وخسفنا بقارون . ﴿ بَصَارٍ لِلنَّاسِ ﴾ أى آيتاء الكتاب بشار . أى ليبصروا ﴿ وَهَدَى ﴾ أى من الضلالة لمن عمل بها ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ لمن آمن بها . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أى ليدذكروا هذه النعمة فيقيموا على إيمانهم فى الدنيا ، ويتقوا بنوابهم فى الآخرة .

قوله تعالى : وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١٤﴾ وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿١٥﴾  
قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ ﴾ أى ما كنت يا محمد ﴿ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ ﴾ أى بجانب الجبل الغربى قال الشاعر :

أعطاك من أعطى الهدى الديبا • ثوراً يزين المنبر العريشا

﴿ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ ﴾ إذ كفناه أمرنا وهبنا ، وأزمناه عهدنا . وقيل : أى إذ قضينا إلى موسى أمره وذكرناك بخير ذكره . وقال ابن عباس : « إِذْ قَضَيْنَا » أى أخبرنا أن أمة محمد خير الأمم . ﴿ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ أى من الحاضرين .

قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا ﴾ أى من بعد موسى ﴿ فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ﴾ حتى نسوا ذكر الله أى عهده وأمره . نظيره : « فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ » . وظاهر هذا يوجب أن يكون جرى لبنينا عليه السلام ذكر فى ذلك الوقت ، وأن الله سيمنه ، ولكن طالت المدة ، وغلبت القسوة ، فنسى القوم ذلك . وقيل : آيتنا موسى الكتاب وأخذنا من قومه اليهود ، ثم تطاول المهل فكفروا ، فأرسلنا محمداً مجتهداً للدين وداعياً الخلق إليه . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ﴾ أى مقبياً كقام موسى وشعيب بينهم . قال الصباغ :

• فَبَاتَ حَيْثُ يَدْخُلُ النَّوِيُّ •

أى الضيف المقم . وقوله : ﴿ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ﴾ أى تذكركم بالوعد والوعيد . ﴿ وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ أى أرسلناك فى أهل مكة ، وآيتناك كتاباً فيه هذه الأخبار ، ولولا ذلك لاء علمتها .

قوله تعالى : وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ  
لِنُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ أى كما لم تحضر جانب المكان  
الغربي إذ أرسل الله موسى إلى فرعون ، فكذلك لم تحضر جانب الطور إذ نادينا موسى لما  
أتى الميقات مع السبعين . وروى عمرو بن دينار يرفعه قال : « نودى يا أمة عهد أجيئكم قبل  
أن تدعوني وأعطيتكم قبل أن تسألوني » فذلك قوله : « وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا » .  
وقال أبو هريرة - وفى رواية عن ابن عباس - إن الله قال : « يا أمة عهد قد أجيئكم  
قبل أن تدعوني وأعطيتكم قبل أن تسألوني وغفرت لكم قبل أن تستغفروني ورحمتكم قبل  
أن تسترحموني » قال وهب : وذلك أن موسى لما ذكر الله له فضل عهد وأتمه قال : يا رب  
أرنيهم . فقال الله : : إنك لن تدركهم وإن شئت ناديتهم فأسمعتك صوتهم » قال : بلى يا رب .  
فقال الله تعالى : « يا أمة عهد » فأجابوا من أصلاب آبائهم . فقال : « قد أجيئكم قبل  
أن تدعوني » ومعنى الآية على هذا ما كنت بجانب الطور إذ كلمنا موسى فنادينا أمتك وأخبرناه  
بما كتبناه لك ولأمتك من الرحمة إلى آخر الدنيا . ﴿ وَلَكِنْ ﴾ فلتا ذلك ﴿ رَحْمَةً ﴾ متابكم .  
قال الأخفش : « رَحْمَةً » نصب على المصدر أى ولكن رحمتك رحمة . وقال الزجاج :  
هو مفعول من أجله أى فعل ذلك بك لأجل الرحمة . النحاس : أى لم تشهد قصص الأنبياء ،  
ولا تليت عليك ، ولكنا بمنالك وأوحيناها إليك للرحمة . وقال الكسائي : على خبر كان ؛  
التقدير : ولكن كانت رحمة . قال : ويجوز الرفع بمعنى هى رحمة . الزجاج : الرفع بمعنى  
ولكن فصل ذلك رحمة . ﴿ لِنُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ بنى العرب ؛  
أى لم تشاهد تلك الأخبار ، ولكن أوحيناها إليك رحمة بمن أرسلت إليهم لتنذرهم بها  
﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ .

قوله تعالى : وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوْتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوْ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ ﴿١٨﴾

قوله تعالى : ( وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ ) يريد قريشا . وقيل : اليهود . ( مُصِيبَةٌ ) أى عقوبة ونقمة ( بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ) من الكفر والمعاصي . وخص الأيدي بالذكر ، لأن الغالب من الكسب إنما يقع بها . وجواب « لَوْلَا » محذوف أى لولا أن يصيبهم عذاب بسبب معاصيهم المتقدمة ( يَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا ) أى هلا ( أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا ) لما سئنا الرسل . وقيل : لما جئناهم بالعقوبة . وبست الرسل إزاحة لمعذر الكفار كما تقدم فى « سبحان » وآخر « طه » . ( فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ ) نصب على جواب التحضيض . ( وَنَكُونَ ) عطف عليه . ( مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ) من المصدقين . وقد احتج بهذه الآية من قال : إن العقل يوجب الإيمان والشكر ؛ لأنه قال : « بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ » وذلك موجب للعقاب إذ تقوز الوجوب قبل بسة الرسل ، وإنما يكون ذلك بالعقل . قال القشيري : والصحيح أن المحذوف لولا كما لما احتج إلى تجديد الرسل . أى هؤلاء الكفار غير معذورين إذ بلغتهم الشرائع السابقة والدعاء إلى التوحيد ، ولكن تطاول المهدي ، فلو عذبتهم فقد يقول قائل منهم طال المهدي بالرسل ، ويظن أن ذلك عذر ولا عذر لهم بعد أن بلغهم خبر الرسل ، ولكن أكلنا إزاحة العذر ، وأكلنا البيان فبمثلك يا عدي إليهم . وقد حكم الله بأنه لا يعاقب عبدا إلا بعد إكمال البيان والنجمة وبسته الرسل .

قوله تعالى : ( فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا ) يعنى عدا صلى الله عليه وسلم ( قَالُوا ) يعنى كفار مكة ( لَوْلَا ) أى هلا ( أُوْتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى ) من العصا والبلد البيضاء ،

وأُتِل عليه القرآن جملة واحدة كالنوراة ، وكان بلنهم ذلك من أمر موسى قبل عهد ، فقال  
الله تعالى : ( أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سَاحِرًا تَظَاهَرًا ) أى موسى  
وعهد تناورا على السحر . قال الكلبي : بعثت قريش إلى اليهود وسألهم عن بعث عهد وشانه  
فقالوا : إنا نحمده في التوراة بنسبه وصفته . فلما رجع الجواب إليهم « قَالُوا سَاحِرًا تَظَاهَرًا » .  
وقال قوم : إن اليهود علموا المشركين ، وقالوا قولوا ل محمد لولا أوتيت مثل ما أوتي موسى ،  
فإنه أوتي التوراة دفعة واحدة . فهذا الاحتجاج وارد على اليهود ، أى أولم يكفر هؤلاء اليهود  
بما أوتي موسى حين قالوا في موسى وهرون هما ساحران و ( إِنَّا بِكُلِّ كَافِرٍ ) أى وإنا  
كافرون بكل واحد منهما . وقرأ الكوفيون « يَحْرَان » بغير ألف ، أى الإنجيل والقرآن .  
وقيل : التوراة والفرقان ؛ قاله القزاة . وقيل : التوراة والإنجيل . قاله أبو رزين . الباقر  
« سَاحِرَان » بالث . وفيه ثلاثة أقاويل : أحدها - موسى وعهد عليهما السلام . وهذا قول  
مشركي العرب . وبه قال ابن عباس والحسن . الثاني - موسى وهرون . وهذا قول  
اليهود لما في ابتدء الرسالة . وبه قال سعيد بن جبيرة ومجاهد وآبن زيد . فيكون الكلام  
احتجاجا عليهم . وهذا يدل على أن المحذوف في قوله : « وَلَوْلَا أَنْ يُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ » لما جئنا  
بعثة الرسل ؛ لأن اليهود آخروا بالنبيات ولكنهم حرفوا وغيروا واستحقوا العقاب ، فقال :  
فدأكلنا لذاعة مذهم ببعثة عهد صلى الله عليه وسلم . الثالث - موسى وعهد صلى الله عليه وسلم .  
وهذا قول اليهود اليوم . وبه قال قتادة . وقيل : أولم يكفر جميع اليهود بما أوتي موسى في  
التوراة من ذكر المسيح ، وذكر الإنجيل والقرآن ، فأروا موسى وعهدا ساحرين والكافرين يحرين .  
قوله تعالى : قُلْ فَأَتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ  
إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢١﴾ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّهَا بَيِّنَاتٌ مِمَّا وَهَبُوا  
وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ  
الظَّالِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾

قوله تعالى : ( قُلْ قَاتُوا بِكَلْبٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَمَّهُ ) أى قل يا محمد اذكروهم معانير المشركين بهذين الكلمتين « قَاتُوا بِكَلْبٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَمَّهُ » ليكون ذلك عذرا لكم في الكفر ( إِنَّكُمْ صَادِقِينَ ) في أنهما سمحان . أو قاتوا بكلب هو أهدى من كتابي موسى وعهد طيها السلام . وهذا يقوى قراءة الكوفيين « سَمِحَانِ » . « أَتَمَّهُ » قال القزواء : بالرفع ، لأنه صفة للكلاب وكتاب نكرة . قال : وإذا جزمت — وهو الوجه — فعل الشرط .

قوله تعالى : ( تَنْزِيلُ لِمَنْ يَنْتَجِبُوا لَكَ ) يا محمد أن ياتوا بكلب من عند الله ( فَأَعْلَمَ أَنَّهَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ) أى آراء قلوبهم وما يتحسنونه ويحببه لم الشيطان ، وأنه لا حجة لهم . ( وَمَنْ أَسْلَمُ مِنْ آتِجٍ هَوَاءٍ يَتَّبِعِ هَدْيَ بِنِ اللَّهِ ) أى لا أحد أضل منه ( إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ) .

قوله تعالى : ( وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ ) أى أتبعنا بعضه بعضا ، وبعثنا رسولا بعد رسول . وقرأ الحسن « وَصَّلْنَا » غفقا . وقال أبو عبيدة والأخفش : معنى « وَصَّلْنَا » أتبعنا كمثلك الشيء . وقال ابن عينة والسدي : بينا . وقاله ابن عباس . وقال مجاهد : فصلنا . وكذلك كان يقرؤها . وقال ابن زيد : وصلنا لم خبر الدنيا بخبر الآخرة حتى كأنهم في الآخرة في الدنيا . وقال أهل المعاني : والينا وتابعنا وأزلنا القرآن تبع بعضه بعضا : وعدا ووصيدا وقصصا وعبرا ونصائح ومواظع إرادة أن يتذكروا فيفلحوا . وأصلها من وصل الحبال بعضها ببعض . قال الشاعر :

فقل لبي مروان ما بال ذمة • وحبل ضعيف ما يزال يوصل<sup>(١)</sup>

وقال امرؤ القيس :

دريد تكذروني الوليد أمره • تغلب كفيه بنحيط موصول<sup>(٢)</sup>

(١) رواية البحر وروح المعاني : ما بال ذمتي • بحبل ... الخ

(٢) دريد : صندوق في السندوق ؛ نصف سرعة جرى فرسه . والتكذوب شئ ، يتقوره الصبي في يده ويبيع له سوت ويسبي الخرافة . وأمره أحكم منه .

والضمير في «لم» لقريش ، من مجاهد . وقيل : هو لليهود . وقيل : هو لم جميعا .  
والآية رد على من قال هلا أوتي عهد القرآن جملة واحدة . ( لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ) قال ابن عباس :  
يتذكرون عهدا فيؤمنوا به . وقيل : يتذكرون فيخافوا أن يترل بهم ما نزل بمن قبلهم ؛ قاله  
على بن عيسى . وقيل لهملهم يتعظون بالقرآن عن عبادة الأصنام . حكاه النقاش .

قوله تعالى : الَّذِينَ آمَنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ أَلَيْسَ فِيهِمْ يَوْمُنُونَ ﴿٥٢﴾  
وَإِذَا يَتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ ءَ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ  
مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾

قوله تعالى : ( الَّذِينَ آمَنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ أَلَيْسَ فِيهِمْ يَوْمُنُونَ ) أخبر أن قوما ممن أوتوا  
الكتاب من بني إسرائيل من قبل القرآن يؤمنون بالقرآن ؛ كعبد الله بن سلام وسلمان .  
ويدخل فيه من أسلم من علماء النصارى ، وهم أريون رجلا ، قدموا مع جعفر بن أبي طالب  
المدينة ، آثان وثلاثون رجلا من الحبشة ، وثمانية نفر أقبلوا من الشام وكانوا أئمة النصارى ؛  
منهم بحيرة الراهب وأبرهة والأشرف وعاصم وأمين وإدريس ونافع . كذا سماهم الماوردي .  
ونزل الله تعالى فيهم هذه الآية والتي بعدها « أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا » قاله  
قتادة . وعنه أيضا : أنها نزلت في عبد الله بن سلام وتيمم الداري والجارود العبدى وسلمان  
الفارسي ، أسلموا فزالت فيهم هذه الآية . وعن رفاعة القرظي : نزلت في عشرة أنا أحدهم .  
وقال عروة بن الزبير : نزلت في النجاشي وأصحابه ووجه بأثنى عشر رجلا جلسوا مع النبي  
صلى الله عليه وسلم ، وكان أبو جهل وأصحابه قريبا منهم ، فآمنوا بالنبي صلى الله عليه  
وسلم ، فلما قاموا من عنده تبعهم أبو جهل ومن معه ، فقال لهم : خيبكم الله من ركب ،  
وقيحكم من وفد ، لم تلبثوا أن صدقتموه ، وما رأينا رجا أحق منكم ولا أجهل ، فقالوا :  
« سلام عليكم » لم نال أنفسنا رشدا « لنا أعمالنا ولكم أعمالكم » وقد تخذم هذا في « المسألة »



عند قوله : « وَإِنَّا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ » مستوفى ، وقال أبو العالية : هؤلاء قوم آمنوا بحمد صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث وقد أدركه بعضهم . ( مِنْ قَبْلِهِ ) أى من قبل القرآن . وقيل : من قبل عهد عليه السلام ( هُمْ بِهِ ) أى بالقرآن أو بحمد عليه السلام ( يُؤْمِنُونَ ) . ( وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا ) أى إذا قرئ عليهم القرآن قالوا صدقنا بما فيه ( إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ ) أى من قبل نزوله ، أو من قبل بعثه عهد عليه السلام ( مُسْلِمِينَ ) أى موحدين ، أو مؤمنين بأنه سيبعث عهد ويزل عليه القرآن .

قوله تعالى : أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٦﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّفْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْنِي الْجَنَّةَ ﴿٥٧﴾  
فيه أربع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ( أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا ) ثبت في صحيح مسلم عن أبي موسى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ثلاثة يؤتون أجراً مرتين رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وأدرك النبي - صلى الله عليه وسلم - فأمن به وأتبعه وصدقه فله أجران وعبد مملوك أدى حق الله عز وجل وحق سيده فله أجران ورجل كانت له أمة ففشاها فأحسن غذاها ثم أذهبها فأحسن أدها ثم أعفها وتزوجها فله أجران » قال الشعبي ثمراساني : خذ هذا الحديث بشير شيء ، فقد كان الرجل رجل فيادون هذا إلى المدينة . وخرجه البخاري أيضاً . قال علامونا : لما كان كل واحد من هؤلاء مخاطباً بأمرين من جهتين استحق كل واحد منهم أجرين ، فالكتابي كان مخاطباً من جهة نبيه ، ثم أنه خاطب من جهة نينا فأجاب وأتبعه فله أجر الملتين ، وكذلك العبد هو مأمور من جهة الله تعالى ومن جهة سيده ، ورب الأمة لما قام بما خاطب به من تربيته أمته وأدبها فقد أحياها إحياء القريبة ، ثم إنه لما أعفها وتزوجها أحياها إحياء الحرة التي ألحقها فيه بمنصبه ، فقد قام

بما أمر فيها ، فأجر كل واحد منهما أجرين . ثم إن كل واحد من الأجرين مضاعف في نفسه ، الحسنة بشر أمثالها فتضاعف الأجور . ولذلك قيل : إن العبد الذي يقوم بحق سيده وحق الله تعالى أفضل من الجز ، وهو الذي آرتضاه أبو عمر بن عبد البر وغيره . وفي الصحيح عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " للعبد المملوك المصلح أجران " والذي نفس أبي هريرة بيده لولا الجهاد في سبيل الله والنجو برأى لأحببت أن أموت وأنا مملوك . قال سعيد بن المسيب : وبلغنا أن أبا هريرة لم يكن يبيع حتى مات أنه لصحبته . وفي الصحيح أيضا عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " نعمًا للملوك أن يتوفى بحسن عبادة الله ومحابة سيده نعمًا له " .

الثانية - قوله تعالى : ﴿ يَا صَبْرًا ﴾ عام في صبرهم على ملتهم ، ثم على هذه وعلى الأذى الذي يلقونه من الكفار وغير ذلك .

الثالثة - قوله تعالى : ﴿ وَيَذَرُونَ الْحَسَنَةَ الْبَيِّنَةَ ﴾ أى يدفعون . درأت إذا دفعت ، والدره الدفع . وفي الحديث " أدرعوا الحدود بالشبهات " . قيل : يدفعون بالاحتياط والكلام الحسن الأذى . وقيل : يدفعون بالثوبة والاستغفار الذنوب ؛ وعلى الأول فهو وصف لمكارم الأخلاق ؛ أى من قال لهم سوءا لا ينوه وقابلوه من القول الحسن بما يدفعه . فهذه آية مهادنة ، وهى من صدر الإسلام ، وهى مما نسختها آية السيف وبقى حكمها فيما دون الكفر يتعاطاه أمة محمد صلى الله عليه وسلم إلى يوم القيامة . ومنه قوله عليه السلام لماذ " وأتبع البيئة الحسنة ترحمها وخالف الناس بخلاف حسن " ومن الخلق الحسن دفع المكره والأذى ، والصبر على الخفا بالإعراض عنه ولين الحديث .

الرابعة - قوله تعالى : ﴿ وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ أنهى عليهم بأنهم ينفقون من أموالهم في الطاعات وفى رسم الشرع ، وفى ذلك حض على الصدقات . وقد يكون الإنفاق من الأبدان بالصوم والصلاة ، ثم مدحهم أيضا على إعراضهم عن اللغو ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَإِنَّا مِرُوا بِالْفَنَاءِ كَرَامًا ﴾ أى إذا سمعوا ما قال لهم المشركون من الأذى والشتم أعرضوا

عنه ؛ أى لم يشتغلوا به ( وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ) أى متاركة؛ مثل قوله : « وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا » أى لنا ديننا ولكم دينكم . « سَلَامٌ عَلَيْكُمْ » أى أما لكم منا فإنا لا نحاربكم ، ولا نسابكم ، وليس من التبعة فى شئ . قال الزجاج : وهذا قبل الأمر بالقتال . ( لَا تَتَّبِعِ الْجَاهِلِينَ ) أى لا نطلبهم للهدال والمراجعة والمشاعة .  
قوله تعالى : إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ<sup>ط</sup> وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥١﴾

قوله تعالى : ( إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ) قال الزجاج : أجمع المسلمون على أنها زلت فى أبي طالب .

قلت : والصواب أن يقال أجمع جل المفسرين على أنها زلت فى شان أبي طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو نص البخارى ومسلم ، وقد تقدم ذلك فى « برائة » . وقال أبو روق قوله : ( وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ) إشارة إلى العباس . وقاله قتادة . ( وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ) قال مجاهد : لمن قدر له أن يهتدى . وقيل : معنى « مَنْ أَحْبَبْتَ » أى من أحببت أن يهتدى . وقال جبير بن مطعم : لم يسمع أحد الوحي يلقى على النبي صلى الله عليه وسلم إلا أبا بكر الصديق فإنه سمع جبريل وهو يقول : يا عبد أقرأ « إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » .

قوله تعالى : وَقَالُوا إِنْ تَتَّبِعِ الْهْدَىٰ مَعَكَ تَتَخَفَتِ مِنْ أَرْضِنَا<sup>ط</sup> أَوْلَدَ تُمَكِّنَ لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ تَحْمَرْتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَكَرَّ أَهْلُكَ مِنْ قَرِيبٍ بَطَرْتُ مَبِيشَهَا<sup>ط</sup> فَتِلْكَ مَسْكَنُهُمْ لَا تُسْكِنُ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكَأَنَّ الْوَارِثِينَ ﴿٥٣﴾

قوله تعالى: ( وَقَالُوا إِنَّ تَبِيعَ الْهُدَىٰ مَعَكَ مُخْتَلَفٌ مِنْ أَرْضِنَا ) هذا قول مشرك مكة . قال ابن عباس : قائل ذلك من قريش الحارث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف القرشي ، قال للنبي صلى الله عليه وسلم : إنا لنعلم أن قولك حق ، ولكن يمنعنا أن تبع الهدى معك ، وقرن بك ، مخافة أن يختطفنا العرب من أرضنا — يعني مكة — لأجبتناهم على خلافنا ، ولا طاقة لنا بهم . وكان هذا من تملأهم ؛ فأجاب الله تعالى عما اعتل به فقال : ( أَوَلَمْ تُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا ) أي ذا أمن . وذلك أن العرب كانت في الجاهلية يفر بعضهم على بعض ، ويقتل بعضهم بعضا ، وأهل مكة آمنون حيث كانوا بحجرة الحرم ، فأخبر أنه قد آمنهم بحجرة البيت ، ومنع عنهم عدوهم ، فلا يخافون أن تستحل العرب حرمة في قتالهم . والتخطف الأتباع بسرعة ، وقد تقدم . قال يحيى بن سلام يقول : كنتم آمنين في حرى ، ثم تكونون رزق ، وتعبدون غيري ، أفتخافون إذا عبدتموني وأمنتم بي . ( يُجَبِّي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ ) أي يُجَمِّع إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ أَرْضٍ وبلد ؛ عن ابن عباس وغيره . يقال جبي الماء في الحوض أي جمعه . والجابية الحوض العظيم . وقرأ نافع « تُجَبِّي » بالكاء ؛ لأجل الثمرات . الباقون بالياء ؛ لقوله : « كُلُّ شَيْءٍ » وأخبره أبو عبيد . قال : لأنه حال بين الاسم المؤنث وبين فصله حائل ، وأيضا فإن الثمرات جمع ، وليس بتأنيث حقيق . ( رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا ) أي من عندنا . ( وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ) أي لا يعقلون ؛ أي هم ظالمون عن الاستدلال ، وأن من رزقهم وأنهم فيما مضى حال كفرهم يرزقهم لو أسلموا ، ويمنع الكفار عنهم في إسلامهم . و « رِزْقًا » نصب على المفعول من أجله . ويموز نصبه على المصدر بالمعنى ؛ لأن معنى « تُجَبِّي » ترزق . وقرئ « يُجَبِّي » بالنون من الجنا ، وتعديته إلى كفركم يعني إلى قبه ويعني إلى الخلق<sup>(١)</sup> .

قوله تعالى : ( وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَيْمَنَتَهَا ) بين لمن توهم أنه لو آمن لفاجته العرب أن الخوف في ترك الإيمان أكثر ، فكمن قوم كفروا ثم حل بهم اليسار ، والبطر

(١) الخلة البية ربه الحديث " المؤمن كتل خلة الزرع " .

الطيان بالنعمة ؛ قاله الزجاج « مَعِيَّتَهَا » أى فى مبيتها فلما حلف ( فى ) تمضى  
 الفعل ؛ قاله المازنى . الزجاج كقوله : « وَأَخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا » . الفراء :  
 هو منصوب على التفسير . قال كما تقول ؛ أبطرت مالك وطرته . ونظيره عنده « إِلَّا مَنْ  
 سَفِهَ نَفْسَهُ » وكذا عنده « فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ قَسًا » ونصب المعارف على التفسير  
 محال عند البصريين ؛ لأن معنى التفسير والتمييز أن يكون واحدا نكرة يدل على الجنس .  
 وقيل : أنتصب بـ « يَطْرَبُ » ومعنى « يَطْرَبُ » جهلت ؛ فالمنى : جهلت شكر معيشتها .  
 ( قِيلَ مَسَاكِينُهُمْ لَمْ يُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ) أى لم تُسْكَنْ بعد إهلاك أهلها إلا قليلا  
 من المساكن وأكثرها خراب . والاستثناء يرجع إلى المساكن أى بعضها يسكن ؛ قاله الزجاج .  
 وأعترض عليه ؛ فقيل : لو كان الاستثناء يرجع إلى المساكن لقال إلا قليل ؛ لأنك تقول :  
 القوم لم تضرب إلا قليل ؛ ترفع إذا كان المضروب قليلا ، وإذا نصبت كان القليل صفة  
 للضرب ؛ أى لم تضرب إلا ضربا قليلا ، فالمنى إذا : فلك مساكنهم لم يسكنها إلا المسافرون  
 ومن مرَّ بالطريق يوما أو بعض يوم ، أى لم تُسْكَنْ من بعدهم إلا سكونا قليلا . وكذا قال  
 ابن عباس : لم يسكنها إلا المسافر أو مازَّ الطريق يوما أو ساعة . ( وَكَأَنَّهُنَّ الْوَارِثِينَ )  
 أى لما خلفوا بعد هلاكهم .

قوله تعالى : وَمَا كَانَتْ رُبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمًا  
 رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٥﴾  
 وَمَا أَوْثَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ قَتَلْتُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى  
 أَقْلًا تَعْقِلُونَ ﴿٥٦﴾ أَقْنِ وَعَدْنَاهُ وَعَدًا حَسَنًا فَهُوَ لَنَقِيهِ كَنْ مَتَّعْنَاهُ  
 مَتْنَعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾

قوله تعالى : ( وَمَا كَانَتْ رُبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى ) أى القرى الكافرة . ( حَتَّى يَبْعَثَ  
 فِي أُمَمًا ) قرى بضم المعزة وكسرهما لإتباع الجر ببنى مكة و ( رَسُولًا ) بنى عمدا صل الله

عليه وسلم . وقيل : « في أمّتها » يعنى فى أعظمها « رسولاً » ينذرهم . وقال الحسن :  
فى أوائلها .

قلت : ومكة أعظم القرى لحرمتها وأولها ، لقوله تعالى : « إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ »  
وخصت بالأعظم لبنة الرسول فيها ؛ لأن الرسل تبعث إلى الأشراف وهم يسكنون المدن  
وهى أمّ ما حولها . وقد مضى هذا المعنى فى آخر سورة « يوسف » . ( يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا )  
« يَتْلُو » فى موضع الصفة أى تألياً أى يخبرهم أن العذاب يتزل بهم إن لم يؤمنوا . ( وَمَا كُنَّا  
مُهْلِكِي الْقُرَى ) وسقطت التون للإضافة مثل « ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ » . ( إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ )  
أى لم أهلكهم إلا وقد استحقوا الإهلاك لإصرارهم على الكفر بعد الإعذار إليهم .  
وفى هذا بيان لعنله وتقديسه عن الظلم . أخبر تعالى أنه لا يهلكهم إلا إذا استحقوا الإهلاك  
بظلمهم ، ولا يهلكهم مع كونهم ظالمين إلا بعد تأكيد الحجّة والإلزام ببعثة الرسل ، ولا يعمل  
علمه بأحوالهم حجة عليهم . وزه ذاته أن يهلكهم وهم غير ظالمين ، كما قال عز من قائل :  
« وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ » فنص فى قوله « يَظْلِمُ » على أنه لو أهلكهم  
وهم مصلحون لكان ذلك ظلماً لهم منه ، وأن حاله فى غناه وحكمته منافية للظلم ، دل على ذلك  
بحرف النفى مع لامه كما قال تعالى : « وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ إِيْمَانَكُمْ » .

قوله تعالى : ( وَمَا أَوْتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ ) ياهل مكة ( فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ) أى  
تتمتعون بها مدة حياتكم ، أو مدة فى حياتكم ، فلما أن تزولوا عنها أو تزول عنكم . ( وَمَا عِنْدَ  
اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى ) أى أفضل وأدوم ، يريد الدار الآخرة وهى الجنة . ( أَفَلَا تَعْقِلُونَ ) أن الباقى  
أفضل من الفانى . قرأ أبو عمرو « يقولون » بإياء . الباقون بالناء على الخطأ وهو الاختيار  
لقوله تعالى : « وَمَا أَوْتِيتُمْ » . قوله تعالى : ( أَفَنَنْتَ وَعْدَهُ وَوَعَدْنَا حَسَنًا فَهَوْا لِيَّاهِ ) يعنى  
الجنة وما فيها من الثواب ( كُنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ) فأعطى منها بعض ما أراد .  
( ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ) أى فى النار . وتظيره قوله : « وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ

مِنَ الْمُخَضَّرِينَ » قال ابن عباس : نزلت في حمزة بن عبد المطلب ، وفي أبي جهل بن هشام . وقال مجاهد : نزلت في النبي صلى الله عليه وسلم وأبي جهل . وقال محمد بن كعب . نزلت في حمزة وعلي ، وفي أبي جهل وعمارة بن الوليد . وقيل : في عمار والوليد بن المغيرة ؛ قاله السدي . قال القشيري : والصحيح أنها نزلت في المؤمن والكافر على التعميم . التعليل : وبالجملة لأنها نزلت في كل كافر منع في الدنيا بالعاقبة والفتى وله في الآخرة النار ، وفي كل مؤمن صبر على بلاء الدنيا ثقة بوعد الله وله في الآخرة الجنة .

قوله تعالى : وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٦﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٧﴾ وَقِيلَ أَذْعَوْا شُرَكَاءَكُمْ فَذَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٨﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٩﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٧٠﴾ فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَحَسْبَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴿٧١﴾

قوله تعالى : ( وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ ) أي ينادي الله يوم القيامة هؤلاء المشركين ( فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ ) بزعمكم أنهم ينصرونكم وينسفون لكم . ( قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ ) أي حقت عليهم كلمة العذاب وهم الرؤساء ؛ قاله الكلبي . وقال قتادة : هم الشياطين . ( رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا ) أي دعوانهم إلى الضلال . فقل لهم : أغويتمهم ؟ قالوا : ( أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ) . يمتنعون أضلالناهم كما ضالناهم . ( تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ ) أي تبرأ بعضنا من بعض ، والشياطين يتبرعون من أطاعهم ، والرؤساء يتبرعون من قبل منهم ؛ كما قال تعالى : « الْإِغْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بِمَنْهُمْ لَمِيعٌ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ » .

قوله تعالى : ( وَقِيلَ ) أى للكفار ( اذْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ) أى استغيثوا بالهتكم الى عبدتموها فى الدنيا لتنصركم وتدفع عنكم . ( فَدَعَوْهُمْ ) أى استعانوا بهم . ( فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ ) أى فلم يجيبوهم ولم ينفعوا بهم . ( وَرَأَوْا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَئْتَدُونَ ) قال الزجاج : جواب « لو » محذوف ، والمعنى : لو أنهم كانوا يئتنون لأتجاهم الهدى ، ولما صاروا الى العذاب . وقيل : أى لو أنهم كانوا يئتنون ما دعوم . وقيل المعنى : ودوا حين رأوا العذاب لو أنهم كانوا يئتنون فى الدنيا إذا رأوا العذاب يوم القيامة . ( مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ) أى يقول الله لهم ما كان جوابكم لمن أرسل إليكم من النبيين لما بلغوكم رسالاتى . ( فَمُجِيبَتٌ عَلَيْهِمُ الْآتِيَاءُ يَوْمَئِذٍ ) أى خفيت عليهم الحجة ، قاله مجاهد ، لأن الله قد أعذر إليهم فى الدنيا فلا يكون لهم عذر ولا حجة يوم القيامة . و « الْآتِيَاءُ » الأخبار ، تسمى جميعهم آتيا لأنها أخبار يخبرونها . ( فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ) أى لا يسأل بعضهم بعضا عن الحجة ، لأن الله تعالى أذحض جميعهم ، قاله الضحاك . وقال ابن عباس : « لَا يَتَسَاءَلُونَ » أى لا ينطقون بحجة . وقيل : « لَا يَتَسَاءَلُونَ » فى تلك الساعة ، ولا يدرون ما يجيبون به من هول تلك الساعة ، ثم يجيبون بعد ذلك كما أخبر عن قولهم : « وَآفَهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشِيرِكِينَ » . وقال مجاهد : لا يتساءلون بالأنساب . وقيل : لا يسأل بعضهم بعضا أن يحمل من ذنوبه شيئا ، حكاه ابن عيسى . قوله تعالى : ( فَأَمَّا مَنْ تَابَ ) أى من الشرك ( وَآمَنَ ) أى صدق ( وَعَمِلَ صَالِحًا ) أدى الفرائض وأكثر من النوافل ( فَسَيَأْتِيهِ أَجْرُهُ نَقْلًا مِّنَ الْمُقْلِينَ ) أى من الفائزين بالسعادة . وعسى من الله واجبة .

قوله تعالى : وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَسَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٠﴾



فله تعالى : ( وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ) هذا متصل بذكر الشركاء الذين عبدوهم وأختاروهم للشفاعة؛ أى الاختيار إلى الله تعالى في الشفاعة لا إلى المشركين . وقيل هو جواب الوليد بن المغيرة حين قال : « لَوْلَا نَزَلْ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْنَيْنِ عَظِيمٍ » يعنى نفسه زعم ، وعروة بن مسعود الثقفى من الطائف . وقيل : هو جواب اليهود إذ قالوا لو كان الرسول إلى محمد غير جبريل لأمانا به . قال ابن عباس : والمعنى ، وربك يخلق ما يشاء من خلقه ويختار منهم من يشاء لطاعته . وقال يحيى بن سلام : والمعنى ، وربك يخلق ما يشاء من خلقه ويختار من يشاء لنبوته . وحكى النقاش : أن المعنى وربك يخلق ما يشاء من خلقه يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم ، ويختار الأنصار لئسبه .

قلت : وفي كتاب البزار مرفوعا صحيحا عن جابر <sup>رض</sup> إن الله تعالى أختار أصحابي على العالمين سوى النبيين والمرسلين واختارنى من أصحابي أربعة — يعنى أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً — فجعلهم أصحابي وفى أصحابي كلهم خير وأختار أمتى على سائر الأمم وأختارنى من أمتى أربعة قرون . وذكر سفیان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن وهب بن منبه عن أبيه فى قوله عز وجل : « وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ » قال من النعم الضان ، ومن الطير الحمام . والوقف الثام « وَيَخْتَارُ » . وقال على بن سليمان : هذا وقف التمام ولا يجوز أن تكون « ما » فى موضع نصب بـ « يَخْتَارُ » لأنها لو كانت فى موضع نصب لم يعد عليها شيء . قال وفى هذا رد على القدرية . قال النحاس : التمام « وَيَخْتَارُ » أى ويختار الرسل . ( مَا كَانَ لَمْ الْخِيَرَةُ ) أى ليس يرسل من أختاروه هم . قال أبو إسحق : « وَيَخْتَارُ » هذا الوقف الثام المختار ، ويجوز أن تكون « ما » فى موضع نصب بـ « يَخْتَارُ » ويكون المعنى ويختار الذى كان لم فيه الخيرة . قال القشبرى : الصحيح الأول لإطباقهم [على] الوقف على قوله « وَيَخْتَارُ » . قال المهدوى : وهو أشبه بمذهب أهل السنة و « ما » من قوله : « مَا كَانَ لَمْ الْخِيَرَةُ » هى عام لجميع الأشياء أن يكون للعبد فيها شيء سوى اكتسابه بقدرة الله عز وجل . والزحشرى : « مَا كَانَ لَمْ الْخِيَرَةُ » بيان لقوله « ويختار » ؛ لأن معناه يختار ما يشاء ؛ ولهذا لم يدخل الماطف ، والمعنى ؛ إن الخيرة لله تعالى فى أفعاله وهو أعلم بوجوه الحكمة فيها أى ليس لأحد

من خلقه أن يختار عليه . وأجاز الزواج وغيره أن تكون « ما » منصوبة به يختار . وأنكر الطبرى أن تكون « ما » نافية ؛ لئلا يكون المعنى أنهم لم تكن لهم الخيرة فيما مضى وهى لم فيما يستقبل ، ولأنه لم يتقدم كلام بنى . قال المهدي : ولا يلزم ذلك ؛ لأن « ما » تنى الحال والاستقبال كليهما ولذلك عملت عملها ؛ ولأن الآى كانت تنزل على النبي صلى الله عليه وسلم على ما يسأل عنه ، وعلى ما هم مصررون عليه من الأعمال وإن لم يكن ذلك فى النص . وتقدير الآية عند الطبرى : ويختار لولايته الخيرة من خلقه ؛ لأن المشركين كانوا يختارون خيار أموالهم فيجعلونها لأنفسهم ، فقال الله تبارك وتعالى : « وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ » للهداية من خلقه من سبقت له السعادة فى علمه ، كما اختار المشركون خيار أموالهم لأنفسهم ، فـ « ما » على هذا لمن يسأل وهى بمعنى الذى و « الخيرة » رفع بالإكثناء و « لهم » انهم والجملة خبر « كان » . وشبهه بقولك : كنت زيد أبوه متطلق وفيه ضعف ؛ إذ ليس فى الكلام عائد يسود على أسم كان إلا أن يقدر فيه حذف فيجوز على بعد . وقد روى معنى ما قاله الطبرى عن ابن عباس . قال الثعلبي : و « ما » تنى أى ليس لهم الاختيار على الله . وهذا أصرب كقوله تعالى : « وَمَا كَانَ لِيُؤْمِنَ وَلَا مُؤْمِنَةٌ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ » . قال محمود الزقاق :

توكل على الرحمن فى كل حاجة \* أردت فإن الله يقضى ويخير

إذا ما يرذو العرش أمرا بعبده \* يصبه وما للبعد ما يتخير

وقد يهلك الإنسان من وجه حذره \* ويخبر بمحمد الله من حيث يحذر

وقال آخر :

البعد ذو حجر والرب ذو قدر \* والتمهر ذو دول والرزق مقسوم

والخير أجمع فيها اختار خالفنا \* وفى اختيار سواء اللوم والشوم

قال بعض العلماء : لا ينبغي لأحد أن يقدم على أمر من أمور الدنيا حتى يسأل الله الخيرة فى ذلك ؛ بأن يصل ركعتين صلاة الاستخارة ، يقرأ فى الركعة الأولى بعد الفاتحة « قل يا أيها

(١) فى بعض نسخ الأصل : وما لعل لا يخير . والنصح من النسخة الخيرية .

(٢) لعل صواب البيت : ويخبر بمحمد الله من ليس يحذر . وهذا ما يغيد معنى التوكل .

الْكَافِرُونَ» وفي الركعة الثانية «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» . واختار بعض المشايخ أن يقرأ في الركعة الأولى «وَرَبِّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَمْ الْخَيْرَةِ» الآية، وفي الركعة الثانية «وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ تَكُونَ لَمْ الْخَيْرَةِ مِنْ أَمْرِهِمْ» وكل حسن . ثم يدعو بهذا الدعاء بعد السلام، وهو ما رواه البخاري في صحيحه عن جابر بن عبد الله قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يصلنا الاستخارة في الأمور كلها، كما يصلنا السورة من القرآن ، يقول : «إِذَا هُمْ أَحَدُكُمْ بِالْأَمْرِ فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ غَيْرِ الْفَرِيضَةِ ثُمَّ لِيَقُلِ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَغِيثُكَ بِعِلْمِكَ وَأَسْتَعِزُّكَ بِقُدْرَتِكَ وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ فَإِنَّكَ تَهْدِي وَلَا أَقْدِرُ وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ وَأَنْتَ عَلَامُ الْغُيُوبِ اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أُمُورِي — أَوْ قَالَ فِي عَاجِلِ أُمُورِي وَآجِلِهِ — فَأَقْدِرْهُ لِي وَيَسِّرْهُ لِي ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ اللَّهُمَّ وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أُمُورِي — أَوْ قَالَ فِي عَاجِلِ أُمُورِي وَآجِلِهِ — فَأَصْرِفْهُ عَنِّي وَاصْرِفْنِي عَنْهُ وَاقْدِرْ لِي الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ ثُمَّ رَضِّنِي بِهِ» قال : ويسمى حاجته . وروى عائشة عن أبي بكر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أراد أمرا قال : «اللهم خذني وأخذني» . وروى أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له «يا أنس إذا هممت بأمر فاستخرك فيهِ سبع مرات ثم أنظر إلى ما يسبق قلبك فإن الخير فيه» . قال العلماء : وينبغي له أن يترغ قلبه من جميع الخواطر حتى لا يكون مانعا إلى أمر من الأمور، فعند ذلك ما يسبق إلى قلبه يعمل عليه، فإن الخير فيه إن شاء الله . وإن عزم على سفر فتوحي بسفره يوم الخميس أو يوم الاثنين أقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم تزه نفسه سبحانه بقوله الحق ، فقال : (سُبْحَانَ اللَّهِ) أي تترها . (وَتَعَالَى) أي تقدس وتجدد (عَمَّا يُشْرِكُونَ) . وَرَبِّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ) يظهرون . وقرأ ابن عيينة وحيد «تَكُنْ» ففتح التاء وضم الكاف . وقد تقدم هذا في «النمل» . تمدح سبحانه بأنه عالم الغيب والشهادة لا يخفى عليه شيء (وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) تقدم معناه، وأنه المفرد بالوحدانية، وأن جميع المحامد إنما تجب له، وأن لا حكم إلا له وإليه المصير .

قوله تعالى : قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ  
الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ بِآيَاتِكُمْ بِضْيَاءَ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ  
إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ  
بِآيَاتِكُمْ لَيْلٌ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ  
الْأَيَّلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾  
قوله تعالى : ( قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا ) أى دائما ؛

ومنه قول طرفة .

لمرك ما امرى على بضمية = نهارى ولا ليل على بمرید

من سبحانه أنه مهد أسباب المعيشة ليقوموا بشكر نعمه . ( مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ بِآيَاتِكُمْ بِضْيَاءَ )  
أى بنور تطلعون فيه المعيشة . وقيل : بنهار تبصرون فيه معاشكم وتصلح فيه الثمار والنبات .  
( أَفَلَا تَسْمَعُونَ ) سماع فهم وقبول . ( قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ  
الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ بِآيَاتِكُمْ لَيْلٌ تَسْكُنُونَ فِيهِ ) أى تستقرون فيه من النصب .  
( أَفَلَا تُبْصِرُونَ ) ما أتم فيه من الخلط فى عبادة غيره ؛ فإذا أقررت بأنه لا يقدر على إتياء الليل  
والنهار غيره فلم تشركوا به . ( وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ ) أى ليعيشوا .  
وقيل : الصبر للزمان وهو الليل والنهار . ( وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ) أى لتطلبوا من رزقه فيه  
أى فى النهار لحذف . ( وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ) الله على ذلك .

قوله تعالى : وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ  
تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَزَعَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلَبُوا  
أَنْ الْحَقُّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾

(١) الله : الأمر الذى لا يحصى له ؛ والمهم ؛ لا انخير فى امرى نهارا واخره لئلا يقول على الليل .

قوله تعالى: ( وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ) أعاد هذا الضمير لاختلاف الحالين ، ينادون مرة يقال لهم : « أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ » فيدعون الأصنام فلا يستجيبون ، فظهر حيرتهم<sup>(١)</sup> ، ثم ينادون مرة أخرى فيسكتون . وهو توخي وزيادة نزي . والمناداة هنا ليست من الله ؛ لأن الله تعالى لا يكلم الكفار لقوله تعالى : « وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » لكنه تعالى يأمر من يؤمنهم ويكتمهم ، ويقم الحجة عليهم في مقام الحساب . وقيل : يحتمل أن يكون من الله ، وقوله : « وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ » حين يقال لهم « آخِضُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ » وقال : « شُرَكَائِيَ » لأنهم جعلوا لهم نصيبا من أموالهم .

قوله تعالى: ( وَزَعَّانًا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ) أى نيا ، عن مجاهد . وقيل : هم عدول الآخرة يشهدون على العباد بأعمالهم في الدنيا . والأول أظهر ؛ لقوله تعالى : « فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا » وشهد كل أمة رسوله الذى يشهد عليها . والشاهد الحاضر . أى أحضرنا رسولهم المبعوث إليهم . ( فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ) أى مجتكم . ( فَقَالُوا أَنْ الْحَقُّ لِلَّهِ ) أى علموا صدق ما جاءت به الأنبياء . ( وَضَلَّ عَنْهُمْ ) أى ذهب عنهم وبطل . ( مَا كَانُوا يَفْهَمُونَ ) أى يفتقونه من الكذب على الله تعالى من أن معه آلهة تعبد .

قوله تعالى: ( إِنْ قَرُّوْنَ كَانَ مِنْ قَوْمٍ مُّؤْمِنٍ فَبَعَثْنَا عَلَيْهِمْ ذُرِّيَّتَهُ مِنْ الْأَنْكُورِ مَا إِنْ مَفَاحِهِمْ لَسَنَّا بِالْعَصَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُمْ قَوْمُهُمْ لَا تَفْرَحُوا إِنْ أَلَّهِ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ )<sup>(٢)</sup> وَأَبْنَيْ فِيمَا ءَاتَكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنْ أَلَّهِ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ )<sup>(٣)</sup>

(١) في نسخة : فيظهر حيرتهم .

قوله تعالى : ( إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى ) لما قال تعالى : « وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّاعٌ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا » بين أن قارون أوتيا وأعتريها ولم تحصمه من مذاب الله كما لم تعصم فرعون ، ولستم أيها المشركون بأكثر عددا ومالا من قارون وفرعون ، فلم ينفع فرعون جنوده وأمواله ، ولم ينفع قارون قرابته من موسى ولا كنوزه . قال النخعي وقناة وغيرهما : كان ابن عم موسى لحاً ، وهو قارون بن بصير بن قاهت بن لادى بن يعقوب ، وموسى بن عمران بن قاهت . وقال ابن إسحق : كان عم موسى لأب حوام . وقيل : كان ابن خالته . ولم ينصرف للجمعة والتعريف . وما كان على وزن فاعول أعجميا لا يحسن فيه الألف واللام لم ينصرف في المعرفة وأنصرف في النكرة ، فإن حسنت فيه الألف واللام أنصرف إن كان أحسن لما ذكر نحو طالوس وراقود . قال الزجاج : ولو كان قارون من قرنت الشيء لأنصرف . ( فَبَنَى طَيْيِمٌ ) بنيه أنه زاد في طول ثوبه شبرا ، قاله شهر بن حوشب . وفي الحديث " لا ينظر الله إلى من جزأه بطرا " وقيل : بنيه كفره بالله عز وجل ، قاله الضحاك . وقيل : بنيه استخفافه بهم بكثرة ماله وولده ، قاله قناة . وقيل : بنيه نسجه ما آناه الله من الكنوز إلى نفسه بعلمه وحيلته ، قاله ابن بحر . وقيل : بنيه قوله إذا كانت النبوة لموسى والمذبح والقربان في هرون قال : فروى أنه لما جاوز بهم موسى البحر وصارت الرسالة لموسى والحبورة لهرون ، يقرب القربان ويكون رأسا فيهم ، وكان القربان لموسى فجعله موسى إلى أخيه ، وجد قارون في نفسه وحسدهما . فقال لموسى : الأمر لكما وليس لي شيء إلى متى أصبر . قال موسى : هذا صنع الله . قال : والله لا أصدقك حتى تأتي بآية ، فأمر رؤساء بني إسرائيل أن يحمي كل واحد منهم بمصاة ، فخرعوا وألقاها في القبة التي كان الوحي ينزل عليه فيها ، وكانوا يحرسون عصيهم بالليل ، فأصبحوا وإذا بصيا هرون تهترولها ورق أخضر — وكانت من شجر اللوز — فقال قارون : ما هو بأعجب مما تصنع من السحر . « فَبَنَى طَيْيِمٌ » من البنى وهو الظلم . وقال يحيى بن سلام وابن المسيب : كان قارون غيا عاملا لفرعون على بني إسرائيل فتدلى عليهم وظلمهم وكان منهم . وقول ساج : روى عن ابن عباس قال : لما أمر الله

تمالى بريح الزاني محمد قارون إلى امرأة بنى وأعطاهما مالا، وحملها على أن أدعت على موسى أنه زنى بها وأنه أحبلها؛ فعظم على موسى ذلك وأحلفها بالله الذى فلق البحر لبنى إسرائيل، وأنزل التوراة على موسى إلا صدقت . فتداركها الله فقالت : أشهد أنك برىء ، وأن قارون أعطانى مالا ، وحملنى على أن قلت ما قلت ، وأنت الصادق وقارون الكاذب . بفعل الله أمر قارون إلى موسى وأمر الأرض أن تطيعه . بخافه وهو يقول للأرض : يا أرض خذيه؛ وهى تأخذه شيئا فشيئا وهو يستغيث ياموسى ! إلى أن ساخ فى الأرض هو وداره وجساؤه الذين كانوا على مذهبه . وروى أن الله تعالى أوحى إلى موسى : آستغاث بك عبادى فلم ترجمهم ، أما أنهم لو دعونى لوجدونى قريباً مجيئاً . ابن جرير : بلغنا أنه يخسف بهم كل يوم قامة ، فلا يلفون إلى أسفل الأرض إلى يوم القيامة . وذكر ابن أبى الدنيا فى كتاب الفرج : حدثنى إبراهيم بن راشد قال حدثنى داود بن مهران، عن الوليد بن مسلم، عن مروان ابن جناس، عن يونس بن ميسرة بن حلبس قال : لقي قارون يونس فى ظلمات البحر، فنادى قارون يونس، فقال يا يونس : تب إلى الله فإنك تجده عند أول قدم ترجع بها إليه . فقال يونس : ما منعك من التوبة . فقال : إن توخى جعلت إلى ابن عمى فأبى أن يقبل منى . وفى الخبر : إذا وصل قارون إلى قرار الأرض الساعة نفع إسرائيل فى الصور . والله أعلم . قال السدى : وكان أسم البنى سبرتا، وبذل لها قارون ألفى درهم . قتادة : وكان قطع البحر مع موسى وكان يسمى المتور من حسن صورته فى التوراة ، ولكن عنواقة فائق كما تائق السامرى .

قوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ ﴾ قال عطاء : أصاب كثيرا من كنوز يوسف عليه السلام . وقال الوليد بن مروان : إنه كان يعمل الكيمياء . ﴿ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ ﴾ «إن» وأسمها وخبرها فى صلة «ما» و«ما» مفعولة «آتيناه» . قال النحاس : وسمت على بن سليمان يقول ما أقبح ما يقول الكوفيون فى الصلوات ؛ إنه لا يجوز أن تكون صلة الذى وأخواته «إن» وما عملت فيه، وفى القرآن «مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ» . وهو جمع مفتاح بالكسر وهو ما يفتح

به . ومن قال مفتاح قال مفاتيح . ومن قال هي الخزان فواحدها مفتاح بالفتح . ( لَتَنوُّهُ  
بِالْمُصْبَةِ ) أحسن ما قيل فيه أن المعنى لثني المصبة أى تيلهم بقلها ، فلما أفتحت التاء  
دخلت الباء ، كما قالوا هو يذهب باليوس ويذهب اليوس . فصار « لَتَنوُّهُ بِالْمُصْبَةِ » بفعل  
المصبة تنوّه أى تهض متناقلة ؛ كقولك قم بنا أى آجلنا قوم . يقال : ناء ينوء نوما  
إذا نهض بشقل . قال الشاعر<sup>(١)</sup> :

تَنوُّهُ بِأَنْرَاهَا فَلَايَا قِيَامُهَا • وَيَمِشِي الْمَوِيَّيْنِ عَنْ قَرِيبٍ فَتَجِبُهُ

وقال آخر :

أَخَذْتُ فَلَمْ أَمْلِكْ وَوُتُّ فَلَمْ أَقْم • كَأَنِّي مِنْ طُولِ الزَّمَانِ مُقْبِدٌ  
وَأَنَاذِي إِذَا انْقَلَبْتُ ؛ عن أبي زيد . وقال أبو عبيدة : قوله « لَتَنوُّهُ بِالْمُصْبَةِ » مقلوب والمعنى  
لتنوء بها المصبة أى تهض بها . أبو زيد : وُتُّ بالحل إذا نهضت . قال الشاعر :

إِنَّا وَجَدْنَا حَقْلًا بِئْسَ الْخَلْفَ • عَبْدًا إِذَا مَا نَاءَ بِالْحَلِّ وَقَفَ

والأوّل معنى قول ابن عباس وأبي صالح والسدي . وهو قول الفراء وأختره النحاس .  
كما يقال ذهب به وأذهبته وجئت به وأجأته ووُتُّ به وَأَنَاءَهُ ؛ فأما قولم : له عندى  
ما ساء وناءه فهو إنباع كان يجب أن يقال وَأَنَاءَهُ . ومثله هُنَاى الطعام وصرأنى ، وأخذ  
ما قدّم وما حُدث . وقيل : هو مأخوذ من النأى وهو البعد . ومنه قول الشاعر :

يَتَأَوَّنُ عَنَّا وَمَا تَسْأَى مَوَدَّتَهُمْ • فَالْقَلْبُ فِيهِمْ رَهِينٌ حِينَمَا كَانُوا

وقرأ بديل بن ميسرة « لَيَنوُّهُ » بالياء ؛ أى لينوء الواحد منها أو المذكور لفعل على المعنى .  
وقال أبو عبيدة : قلت لرؤبة بن المجاج في قوله :

فِيهَا خَطُوطٌ مِنْ سَوَادٍ وَبَلَقَى • كَأَنَّهُ فِي الْحِلْدِ تَوَلَّيْسُ الْهَبَقِ

إن كنت أردت الخطوط فقل كأنها ، وإن كنت أردت السواد والبلق فقل كأنهما . فقال :  
أردت كل ذلك . واختلف في المصبة وهى الجماعة التى يتعصب بعضهم لبعض على أحد  
عشر قولاً : الأول - ثلاثة رجال ؛ قاله ابن عباس . وعنه أيضاً من الثلاثة إلى العشرة .

(١) هو ذوالقمة . يريد تينها يميزها إلى الأرض لخصتها وكثرة لها في أرضها .



وقال مجاهد : العصابة هنا ما بين العشرين إلى خمسة عشر . وعنه أيضا : ما بين العشرة إلى الخمسة عشر . وعنه أيضا : من عشرة إلى خمسة . ذكر الأول الثعلبي ، والثاني القشيري والساوردي ، والثالث المهدوي . وقال أبو صالح والحكم بن عتيبة وقادة والضحاك : أربعون رجلا . السدي ما بين العشرة إلى الأربعين . وقاله قتادة أيضا . وقال عكرمة : منهم من يقول أربعون ، ومنهم من يقول سبعون . وهو قول أبي صالح إن العصابة سبعون رجلا ؛ ذكره الساوردي . والأول ذكره عنه الثعلبي . وقيل : ستون رجلا . وقال سعيد بن جبير : ست أو سبع . وقال عبد الرحمن بن زيد : ما بين الثلاثة والستة وهو الفهر . وقال الكلبي : عشرة لقول إخوة يوسف « وَنَحْنُ عُصْبَةٌ » وقاله مقاتل . وقال خيشمة : وجدت في الإنجيل أن مفاتيح خزائن فارون وقرنين بفلا غراء محجلة ، وأنها لتوء بها من ثقلها ، ما يزيد مفتاح منها على إصبع ، لكل مفتاح منها كتر مال ، لو قسم ذلك الكثر على أهل البصرة لكفاهم . قال مجاهد : كانت المفاتيح من جلود الإبل . وقيل : من جلود البقر لتخفف عليه ، وكانت تحمل معه إذا ركب على سبعين بفلا فيما ذكره القشيري . وقيل : على أربعين بفلا . وهو قول الضحاك . وعنه أيضا : إن مفاتيحه أوعيته . وكذا قال أبو صالح : إن المراد بالمفاتيح الخزائن ؛ فانه أعلم . ( إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ ) أى المؤمنون من بنى إسرائيل ؛ قاله السدي . وقال يحيى بن سلام : القوم هنا موسى . وقاله الفراء . وهو جمع أريد به واحد كقوله : « الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ » وإنما هو نعيم بن مسمود على ما تقدم . ( لَا تَفْرَحْ ) أى لا تأسر ولا تبطر . ( إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ) أى البطرين ؛ قاله مجاهد والسدي . قال الشاعر :  
ولست بمفراج إذا الدهر سرنى \* ولا ضارع في صرفه المتقلب<sup>(١)</sup>  
وقال الزجاج : المعنى لا تفرح بالمال فإن الفرح بالمال لا يؤدي حقه . وقال مبشر بن عبد الله : لا تفرح لا تفسد . قال الشاعر<sup>(٢)</sup> :

إذا أنت لم تفرح تؤذى أمانة \* وتعمل أخرى أفرحتك الودائع

(١) الصحيح من السبعة الخيرية .

(٢) دبرى : ولا جناح من صره المحول .

(٣) أنشد أبو صيدة البصري .

أى أنشدتك . وقال أبو عمرو : أفرحه الدين أتعلمه . وأنشده : إذا أنت ... البيت . وأفرحه سره فهو مشترك . قال الزجاج : والفرحين والفارحين سواء . وقرئ بينهما الفراء فقال : معنى الفرحين الذين هم في حال فرح ، والفارحين الذين يفرحون في المستقبل . وزعم أن مثله طمع وطامع وميت وماتت . ويدل على خلاف ما قال قول الله عز وجل : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ ولم يقل ماتت . وقال مجاهد أيضا : معنى « لَا تَفْرَحْ » لا تبغ « إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ » أى الباغين . وقال ابن بحر : لا تبخل إن الله لا يحب الباخلين .

قوله تعالى : ﴿ وَأَتَّبِعْ فِيهَا آثَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ﴾ أى أطلب فيها أعطاك الله من الدنيا الدار الآخرة وهى الجنة ؛ فإن من حق المؤمن أن يصرف الدنيا فيما ينعمه فى الآخرة لا فى التجر والبغى . قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَسَنَّيْكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ اختلف فيه ؛ فقال ابن عباس والجمهور : لا تضع عموك فى ألا تعمل عملا صالحا فى دنياك ؛ إذ الآخرة إنما يعمل لها ، فنصيب الإنسان عمره وعمله الصالح فيها . فالكلام على هذا التأويل شدة فى الموعظة . وقال الحسن وقادة : معناه لا تضع حظك من دنياك فى تمتك بالحلال وطلبك إياه ، ونظرك لآقبه دنياك . فالكلام على هذا التأويل فيه بعض الرفق به وإصلاح الأمر الذى يشبهه . وهذا مما يجب استماله مع الموعظة خشية النبوة من الشقة ؛ قاله ابن عطية .

قلت : وهذان التأويلان قد جمعهما ابن عمر فى قوله : أحرت لدنياك كأنك تعيش أبدا ، وأعمل لأخرتك كأنك تموت غدا . وعن الحسن : قدم الفضل ، وأمسك ما يبلغ . وقال مالك : هو الأكل والشرب بلا سرف . وقيل : أراد بنصيه الكفن . فهذا وعظ متصل ؛ كأنهم قالوا : لا تنس أنك تركت جميع مالك إلا نصيبك هذا الذى هو الكفن . ونحو هذا قول الشاعر :  
نصيبك مما جمعت الدهر كله • رداءه أن تلوى فيهما وحطوط  
وقال آخر : وهى القناعة لا تبغى بها بدلا • فيها التعم وفيها راحة البدن  
أنظر لمن ملك الدنيا بأجمعها • هل راح منها غير القطن والكفن  
قال ابن العزى : وأبدع ما فيه عندي قول قتادة : ولا تنس نصيبك الحلال ، فهو نصيبك من الدنيا وإما أحسن هذا . ﴿ وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ أى أطع الله وأعبده كما أنعم عليك .

ومنه الحديث: ما الإحسان؟ قال: «أن تعبد الله كأنك تراه» وقيل: هو أمر بصلة المساكين.  
قال ابن العربي: فيه أقوال كثيرة جماعها استعمال نيم الله في طاعة الله. وقال مالك: هو  
الأكل والشرب من غير سرف. قال ابن العربي: أرى مالكا أراد الرد على الثالين في العبادة  
والتشغف؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب الحلواء، ويشرب العسل، ويستعمل  
الشواء، ويشرب الماء البارد. وقد مضى هذا المعنى في غير موضع. (وَلَا تَبْخِ الْقَسَادَ  
فِي الْأَرْضِ) أي لا تعمل بالمعاصي (إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ).

قوله تعالى: قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ  
قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا  
وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٨﴾

قوله تعالى: (قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي) يعني علم التوراة. وكان فيما روى من  
أقرا الناس لها، ومن أعلمهم بها. وكان أحد العلماء السبعين الذين اختارهم موسى لليقات.  
وقال ابن زيد: أي إنما أُوتيته لعلمه بفضل ورضاه عني. فقوله «عِنْدِي» معناه إن عندى  
أن الله تعالى آتاني هذه الكنوز على علم منه باستحقاق إياها لفضل في. وقيل: أُوتيته على  
علم من عندى بوجوه التجارة والمكاسب؛ قاله علي بن عيسى. ولم يعلم أن الله لو لم يسأل له  
أكتسابها لما اجتمعت عنده. وقال ابن عباس: على علم عندى بصنعة الذهب. وأشار  
إلى علم الكيمياء. وحكى النقاش: أن موسى عليه السلام علمه الثلث من صنعة الكيمياء،  
ويوشع الثلث، وهرون الثلث، فخدمهما قارون — وكان على إيمانه — حتى علم ما عندهما  
وعمل الكيمياء، فكثر أمواله. وقيل: إن موسى علم الكيمياء ثلاثة؛ يوشع بن نون،  
[وكاتب<sup>(١)</sup> بن يوفنا]، وقارون، واختار الزجاج القول الأول، وأنكر قول من قال إنه يعمل  
الكيمياء. قال: لأن الكيمياء باطل لا حقيقة له. وقيل: إن موسى علم أخته علم الكيمياء،  
وكانت زوجة قارون، وعلمت موسى قارون؛ والله أعلم.

(١) في الأصول «طائوت» وهو تحريف. والتصويب من كتب التفسير.

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ ﴾ أى بالعباد . ( مِنْ الْقُرُونِ )  
 أى الأمم الخالية الكافرة . ( مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ) أى اللال ، ولو كان المال  
 يدل على فضل لما أهلكهم . وقيل : القوة الآلات ، والجمع الأعوان والأنصار ؛ والكلام  
 نخرج مخرج التفرع من الله تعالى لقارون ؛ أى « أَوَلَمْ يَعْلَم » قارون « أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ  
 مِنَ الْقُرُونِ » . ( وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ الْمُجْرِمُونَ ) أى لا يسألون سؤال استغاب كما قال :  
 « وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ » « وَمَا هُمْ مِنَ الْمُتَعْتَبِينَ » وإنما يسألون سؤال تفرع وتوبيخ لقوله :  
 « قَدْ بَلَغْتَ لِنِسَاءتِهِمْ أَجْمَعِينَ » قاله الحسن . وقال مجاهد : لا تسأل الملائكة غدا عن  
 المجرمين ؛ فإنهم يعرفون بسيماهم ، فإنهم يحشرون بسود الوجوه زرق العيون . وقال قتادة :  
 لا يسأل المجرمون عن ذنوبهم لظهورها وكثرتها ، بل يدخلون النار بلا حساب . وقيل :  
 لا يسأل مجرمو هذه الأمة عن ذنوب الأمم الخالية الذين عذبوا في الدنيا . وقيل : أهلك  
 من أهلك من القرون عن علم منه بذنوبهم فلم يحتج إلى مسئلتهم عن ذنوبهم .

قوله تعالى : فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ  
 الدُّنْيَا بَلِّغْ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَدْ رَأَوْا إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿١١﴾ وَقَالَ  
 الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَذُّ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا  
 وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ( فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ) أى على بنى إسرائيل فيما رآه زينة من متاع  
 الحياة الدنيا ؛ من الثياب والدواب والتجمل في يوم عيد . قال الفزوى : في يوم السبت .  
 « فِي زِينَتِهِ » أى مع زينته . قال الشاعر :

إذا ما قلوبُ التَّوَمِّ طارت مخافةً • من الموت أرسوا بالنفوس المواجه

أى مع النفوس . كان نخرج في سبعين ألفاً من تبعه ، طهيم المعصفرات ، وكان أزل من  
 صبيح له الثياب المعصفرة . قال السدى : مع ألف جوار بيض على بقال بيض بسروج من  
 (١) في نسخة : أرسوا بالنفوس . وفي نسخة أخرى أرسوا بالنفوس التواجد . ولم نثر عليه .

ذهب على قُطْف الأَرْجُون . قال ابن عباس : خرج على البغال الشهب . مجاهد : على براذين بيض عليها سروج الأَرْجُون ، وعليهم المعصفرات ، وكان ذلك أول يوم روى فيه المعصفر . قال قتادة : خرج على أربعة آلاف دابة عليهم ثياب حر ، منها ألف بغل أبيض عليها قُطْف حر . قال ابن جريح : خرج على بغلة شهباء عليها الأَرْجُون ، ومعه ثلثمائة جارية على البغال الشهب عليهم الثياب الحر . وقال ابن زيد : خرج في سبعين ألفا عليهم المعصفرات . الكلبي : خرج في ثوب أخضر كان الله أنزله على موسى من الجنة فصرقه منه فارون . وقال جابر بن عبد الله رضي الله عنه : كانت زينة القرمز .

قلت : القِرْمِزُ صِبْغ أحمر مثل الأَرْجُون ، والأَرْجُون في اللغة صِبْغ أحمر ، ذكره القشيري . ( قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ) أى نصيب وافر من الدنيا . ثم قيل : هذا من قول مؤدى ذلك الوقت ، تمنوا مثل ماله رغبة في الدنيا . وقيل : هو من قول أقوام لم يؤمنوا بالآخرة ولا رغبوا فيها ، وهم الكفار .

قوله تعالى : ( وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ) وهم أحبار بني إسرائيل للذين تمنوا مكانه ( وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ ) بنى الجنة . ( لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُفَاهِمَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ) أى لا يؤتى الأعمال الصالحة ، أو لا يؤتى الجنة في الآخرة إلا الصابرون على طاعة الله . وجاز ضميرها لأنها المعنية بقوله : « ثَوَابُ اللَّهِ » .

قوله تعالى : فَخَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَآئُ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَآئُهُ لَا يُفَالِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾

قوله تعالى : ( فَخَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ ) قال مقاتل : لما أمر موسى الأرض فابتلعتها قالت بنو إسرائيل : إنما أهلكه ليرث ماله ؛ لأنه كان ابن عمه ؛ أى أبيه ، خسف

الله تعالى به وبداره الأرض وبجمع أمواله بعد ثلاثة أيام، فأوحى الله إلى موسى إلى لا أعيد طاعة الأرض إلى أحد بعدك أبدا . يقال : خَسَفَ المَكَّانُ يُخْسِفُ خُسُوفًا ذهب في الأرض وخَسَفَ اللهُ به الأرض خَسْفًا أى غاب به فيها . ومنه قوله تعالى : « نَخَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ » وَخَسَفَ هو في الأرض وَخُسِفَ به . وخسوف القمر كسوفه . قال ثعلب : كَسَفَتِ الشَّمْسُ وَخَسَفَ الْقَمَرُ؛ هذا أجود الكلام . والخسف الخساف؛ يقال : رضى فلان بالخسف أى بالنقص . ( فَأَكَانَ لَهُ مِنْ نَفَةٍ ) أى جماعة وعصابة . ( يَنْعَرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُتَصَرِّينَ ) لنفسه أى المتنمين فيما نزل به من الخسف . فعبوى أن قارون يَسْأَلُ كُلَّ يَوْمٍ بِقَدْرِ قَامَةٍ، حتى إذا بلغ قعر الأرض السفلى فضع إسرائيل في الصورة وقد تَقَتَمَ، والله أعلم .

قوله تعالى : ( وَأَصْبَحَ الَّذِينَ يَمْنُوا مَكَاثِرًا بِأَلْسِنِهِمْ ) أى صاروا يَتَذَمُّونَ كل ذلك الذى و ( يَقُولُونَ وَيَكَذَّبُ اللَّهُ ) ( وى [ حرف تنديم . قال النحاس : أحسن ما قيل فى هذا قول الخليل وسيبويه ويونس والكسائى إن القوم تَذَبَّهوا أو تَبَّهوا؛ فقالوا وى، والمتنم من العرب يقول قى خلال تَذَمُّه وى . قال الجوهري : وى . كلمة تعجب، ويقال : وَيَكَّ وَى لبيد الله . وقد تدخل وى على كَأَنَّ المخفضة والمشذبة تقول : ويكأن الله . قال الخليل : هى مفصولة ؛ تقول « وى » ثم تجدى فتقول « كَأَنَّ » . قال النحلي : وقال الفراء هى كلمة تخرىء كقولك : أما ترى إلى صنع الله وإحسانه؛ وذكر أن أعرابية قالت لزوجها : أين أبنتك ويك؟ فقال : وى كأنه وراء البيت؛ أى أما تترينه . وقال ابن عباس والحسن : ويك كلمة ابتداء وتحقيق تقديره : إن الله يسطر الرزق . وقيل : هو تنبيه بمثلة ألا فى قولك ألا تخفل وأما فى قولك أما بعد . قال الشاعر<sup>(١)</sup> :

سَاتَانِي الطَّلَاقُ إِذْ رَأَيْتَنِي • قُلْ مَا لِي قَدْ جِئْتَنِي يُسْكِرُ  
وَيَ كَانَ مَنْ يَكُنْ لَهُ تَسْبُ يُجْ • بَ وَمَنْ يَغْتَفِرْ يَغْفِرْ عِشْرَ ضَرِّ

وقال قُطْرُبُ : إنما هو ويلك وأسقطت لامه وضمت الكاف التي هي لخطاب إلى وى .  
قال عَنَتَرَة :

ولقد شئى قسى وأبرأ سُقَمَها • قَوْلُ الفوارِسِ وَيَكْ عَنَتَرُ أَقْدِم  
وأنكره النعاس وغيره ، وقالوا : إن المعنى لا يصح عليه ؛ لأن القوم لم يخاطبوا أحدا فيقولوا  
له ويلك ، ولو كان كذلك لكان إنه بالكسر . وأيضاً فإن حذف اللام من ويلك لا يجوز .  
وقال بعضهم : التقديرويلك أعلم أنه ؛ فاضمر أعلم . ابن الأعرابي : « وَيَكَنَّ الله أى أعلم .  
وقيل : معناه ألم تر أن الله . وقال القتيبي : معناه رحمة لك بلفظ خير . وقال الكاسي : وى  
فيه معنى التعجب . ويروى عنه أيضاً الوقف على وى وقال كلمة تصحح . ومن قال : ويلك  
فوقف على الكاف فعنائه أعجب لأن الله يسقط الرزق وأعجب لأنه لا يخلع الكافرون .  
وينبى أن تكون الكاف حرف خطاب لا أسماء ؛ لأن وى ليست مما يضاف . وإنما كتبت  
متصلة ؛ لأنها لما كثرت استعمالها جعلت مع ما بعدها كشيء واحد . ( لَوْلَا أَنْ مِّنْ اللهَ طَلَبًا )  
بالإيمان والرحمة وعصمتا من مثل ما كان عليه قارون من البغي والبطر ( نَلَسَفَ بِنَا ) . وقرأ  
الأعمش « لَوْلَا مِّنْ اللهَ طَلَبًا » . وقرأ حفص « نَلَسَفَ بِنَا » مسمى الفاعل . الباقون :  
على ما لم يسم فاعله وهو اختيار أبي عبيد . وفي حرف عبد الله « لَأَكْثِيفَ بِنَا » كما تحول  
أطلق بنا . وكذلك قرأ الأعمش وطلحة بن مُصَرِّف . واختار قراءة الجماعة أبو حاتم لوجهين :  
أحدهما قوله : « نَلَسَفَ بِهِ وَيَدَارِهِ الْأَرْضُ » . والثاني قوله : « لَوْلَا أَنْ مِّنْ اللهَ طَلَبًا » فهو  
بأن يضاف إلى الله تعالى لقرب اسمه منه أولى . ( وَيَكَنَّه لَا يَخْلُجُ الْكَافِرُونَ ) عند الله .

قوله تعالى : تِلْكَ الدَّارُ الْأَخِرَةُ تَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا  
فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَنَقَبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٢﴾ مِّنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ  
خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالْسَيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا  
يَعْمَلُونَ ﴿٨٣﴾

قوله تعالى : ( تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ ) يعني الجنة . وقال ذلك على جهة التعظيم لها والتفخيم لشأنها . يعني تلك التي سمعت بذكرها ، وبلغك وصفها ( تَجْمَعُهَا لِلَّذِينَ لَا يَرِيدُونَ ظُلُومًا فِي الْأَرْضِ ) أي رغبة وتكبرا على الإيمان والمؤمنين ( وَلَا فَسَادًا ) عملا بالمعاصي . قاله ابن جرير ومقاتل . وقال عكرمة ومسلم البطين : الفساد أخذ المال بغير حق . وقال الكلبي الدماء إلى غير عبادة الله . وقال يحيى بن سلام : هو قتل الأنبياء والمؤمنين . ( وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ) قال الضحاك : الجنة . وقال أبو معاوية : الذي لا يريد ظلوما هو من لم يمزج من فساد ، ولم ينافس في عزها ، وأرضعهم عند الله أشتمت تواضعا ، وأخزهم غدا أزيهم لنقد اليوم . وروى سفيان بن عيينة عن إسماعيل بن أبي خالد قال : مررت على بن الحسين وهو راكب على مساكين ياكلون كسرا لهم ، فسلم عليهم فدعوه إلى طعامهم ، فبلا هذه الآية ( تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ تَجْمَعُهَا لِلَّذِينَ لَا يَرِيدُونَ ظُلُومًا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ) ثم نزل وأكل معهم . ثم قال : قد أجبتمكم فأجيبوني . فحملهم إلى منزله فاطعمهم وكساهم وصرفهم . نزل به أبو القاسم الطبراني سليمان بن أحمد قال : حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل ، قال حدثني أبي ، قال حدثنا سفيان بن عيينة . فذكره . وقيل : لفظ الدار الآخرة يشمل الثواب والنفاب . والمولد إنما ينفع بتلك الدار من أتى ، ومن لم يتق تلك الدار عليه لا له ، لأنها تضره ولا تنفعه .

قوله تعالى : ( مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا ) فهدم في « النمل » . وقال عكرمة : ليس شيء خيرا من لا إله إلا الله . وإنما المعنى من جاء بلا إله إلا الله فله منها خير . ( وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ ) أي بالشرك ( فَلَا يَحْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ) أي يعاقب بما يليق بعمله .

قوله تعالى : إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ إِنْ رَأَاكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٥﴾ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلَاقِيَكَ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَاهِرًا



لِلْكَافِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ ءَايَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ  
وَأَدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٥٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا  
مَّا تَدْعُو لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ  
تَرْجَعُونَ ﴿٥٨﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ ختم السورة بشارة نبيه  
محمد صلى الله عليه وسلم برقه إلى مكة قاهرا لأعدائه . وقيل : هو بشارة له بالجنة . والأول  
أكثر . وهو قول جابر بن عبد الله وآبن عباس ومجاهد وغيرهم . قال القتيبي : معاد الرجل  
بلده ؛ لأنه ينصرف ثم يعود . وقال مقاتل : خرج النبي صلى الله عليه وسلم من النار ليلا  
مهاجرا إلى المدينة في غير الطريق مخافة الطلب ، فلما رجع إلى الطريق ونزل بالجحفة عرف  
الطريق إلى مكة فأشفاق إليها ، فقال له جبريل إن الله يقول : ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ  
لَرَأْدُكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ أي إلى مكة ظاهرا عليها . قال آبن عباس : نزلت هذه الآية بالجحفة  
ليست بمكة ولا مدينة . وروى سعيد بن جبير عن آبن عباس : ﴿ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ قال : إلى الموت .  
ومن مجاهد أيضا وعكرمة والزمرى والحسن : إن المعنى لراذك إلى يوم القيامة ؛ وهو اختيار  
الزجاج . يقال بئى وبينك المعاد ؛ أى يوم القيامة ؛ لأن الناس يعدون فيه أحياء .  
و ﴿ فَرَضَ ﴾ معناه أنزل . وعن مجاهد أيضا وأبى مالك وأبى صالح : ﴿ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ إلى الجنة .  
وهو قول أبى سعيد الخدري وآبن عباس أيضا ؛ لأنه دخلها ليلة الإسراء . وقيل : لأن أباه  
آدم خرج منها . ﴿ قُلْ رَبِّیْ أَعْلَمُ ﴾ أى قل لكفار مكة إذا قالوا إنك لفى ضلال مبين ﴿ رَبِّیْ  
أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ أنا أم أتم .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ ﴾ أى ما علمت أننا نرسلك  
إلى الخلق ونقرل عليك القرآن . ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾ قال الكسائي : هو استثناء سقط معنى  
لكن . ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ ظَاهِرًا لِّلْكَافِرِينَ ﴾ أى عونًا لهم ومساعدًا . وقد تقدم في هذه السورة .

قوله تعالى : ( وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بِمَآذُنَآئِكَ ) بمعنى أنوالم وكذبهم وأذامهم ، ولا تلتفت نحوهم وأض لأمرك وشأنك . وقرأ يعقوب « يَصُدُّكَ » مجزوم التون . وقرئ « يَصُدُّكَ » من أصده بمعنى صده وهى لفظة فى كلب . قال الشاعر :<sup>(١)</sup>

أَنَاسُ أَصْدُوا النَّاسَ بِالسَّيْفِ عَنْهُمْ • صُدُّوهُ السَّوَاقِي عَنْ أَنْوَافِ الْحَوَائِمِ<sup>(٢)</sup>

(وَأَدْعُ إِلَى رَبِّكَ ) أى إلى التوحيد . وهذا يتضمن المهادنة والمواذمة . وهذا كله منسوخ بآية السيف . وسبب هذه الآية ما كانت قريش تدعو رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تعظيم أوثانهم ، وعند ذلك ألقى الشيطان فى أمنيته أمر القرآنين على ما تقدم . وانه أطم .<sup>(٣)</sup>

قوله تعالى : ( وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ) أى لا تعبد معه غيره فإنه لا إله إلا هو . حتى لكل معبود وإثبات لعبادته . ( كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ) قال مجاهد : معناه إله هو . وقال الصادق : دينه . وقال أبو العالبة وسفيان : أى إلا ما أريد به وجهه ؛ أى ما يقصد إليه بالقربة . قال :

أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ ذَنْبًا لَسْتُ مُحِيطَ بِهِ • رَبِّ الْعِبَادِ إِلَهُ الْوَجْهِ وَالْعَمَلِ

وقال محمد بن يزيد : حدثنى الثورى قال سألت أبا عبيدة عن قوله تعالى « كل شيء هالك إلا وجهه » فقال : إلا جاهد ، كما تقول لنسلان وجه فى الناس أى جاء . ( لَهُ الْحُكْمُ ) فى الأولى والآخرة ( وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ) : قال الزجاج : « وجهه » منصوب على الاستثناء ، ولو كان فى غير القرآن كان إلا وجهه بالرفع ، بمعنى كل شيء غير وجهه هالك كما قال :

وَكُلُّ أَخٍ مُفَارِقُهُ أَخُوهُ • لَمَمَرُ أَيْكَ إِلَّا الْفَرَقْدَانِ

والمعنى كل أخ غير الفرقدين مفارقه أخوه . « وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » بمعنى ترجعون إليه .

تمت سورة القصص والحمد لله

(١) هو ذوالرمة . (٢) ويرى : بالضرب ... من أنوف الخادم . (٣) راجع ج ١٢ ص ٧٩ وما بعدها طبعه أدب أدبانية . (٤) هو عمرو بن صفى كرب ، ويرى لسوا بن المضرب . شواهد سبويه .



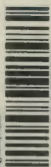








Bibliotheca Alexandrina



0285822